مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ التَّاسِعُ والخَمسُون

سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَة التَّفْسِيرِ البَلَاغِي

المُجَلَّدُ التَّاسِعُ والخَمسُون

سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاء مَجمَعِ القُرآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الرَّحۡمَٰن

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢﴾

[الرّحمن: 31 - 32]

مُناسَبَةُ الآيتين لِما قبلهما:

الانتقالُ لذِكرِ أحوالِ الآخرة، بعدَ الفراغِ من ذِكرِ أحوالِ الدُّنيا

لمّا ذكر اللّهُ تعالى ما أنعمَ بِهِ من تعليمِ العِلْمِ وخَلْقِ الإنسانِ والسَّماءِ والأرضِ وما أودع فيهما، وفناءِ ما على الأرض(1)، الذي هو على نظامٍ واحدٍ؛ شرع في ذِكرِ ما يتعلَّق بأحوال الآخرة والجزاء؛ وذلك لأنَّ الثَّقلَينِ لا تسيرُ أحوالُهما على المِنوال نفسِه، فأحوالُهما لأجل تنازع العقل والشَّهوات لا تكاد تنضبط، بل يتغيَّر حالُ الواحدِ منهم في اللَّحظة الواحدة إلى ألوانٍ كثيرةٍ متضادَّةٍ، لما فيهم من المَكْر وأحوالِ المغالبة والبغي والاستئثار(2)، فالانتقالُ هاهنا تخلُّصٌ منَ الاعتبارِ بأحوالِ الحياةِ العاجلةِ إلى التَّذكيرِ بأحوالِ الآخرةِ والجزاءِ فيها؛ انتقل إليه بمناسبةِ اشتمالِ ما سبقَ من دلائلِ سعةِ قدرةِ اللّه تعالى، على تعريضٍ بأنَّ فاعلَ ذلك أهلٌ للتَّوحيدِ بالأُلوهيَّة، ومُستَحِقٌّ للإفرادِ بالعبادة، وإذ قد كان المخاطَبونَ بذلك مشركين مع اللّه في العبادة؛ انتقل إلى تهديدهم بأنَّهم وأولياءَهم من الجنِّ المُسَوِّلين لهم عبادةَ الأصنام، سيُعرَضون على حُكم اللّه فيهم(3).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَنَفۡرُغُ﴾: (فرغ) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خُلوٍّ وسَعَةِ ذرع، من ذلك الفَراغُ: خِلافُ الشُّغلِ، يقال: فرَغَ فراغًا وفُروغًا، وفَرِغ أيضًا(4)، والفَرْغ: مَفْرَغُ الدَّلو، وهو خَرْقُهُ الَّذي يَأْخُذ الماء، والفِراغُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 63.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 168 - 169.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 256.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرغ).

ناحيتُه الَّتي يُصبُّ الماءُ منها، والإفراغُ: الصَّبُّ، قال الله تعالى: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: 250]، أي: اصبُبْ[1]، والفراغُ في اللُّغة على وجهين، الأوَّل: الفراغُ من الشُّغْل، والآخر: القَصْدُ للشَّيء[2]، والمعنى المِحوريُّ: خلاءُ الظُّروفِ ونحوِها ممّا يشغلها من مائعٍ ونحوِه[3]، والمرادُ في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، أي: سنَعْمَدُ لكم، ونقصدُ لكم، فنحاسبُكم، ونأخذُ في أمركم أيُّها الإنس والجنُّ، فنعاقبُ أهلَ المعاصي، ونثيبُ أهلَ الطّاعة[4].

2) ﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾: (ثقل) أصلٌ واحدٌ تتفرَّع منه كلماتٌ متقاربة، وهو ضِدُّ الخِفَّة، وأثقال الأرض: كنوزها، في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزّلزلة: 2]، ويقال: هي أجساد بني آدم، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النّحل: 7]، أي: أجسادكم، ويقال: ارتحل القوم بثِقَلتهم، أي: بأمْتِعَتهم[5]، والثَّقَلُ: متاعُ المسافر وحَشَمُه، وجمعُه: أثقالٌ[6]، والأثقالُ: الآثام، ورويَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ في مَرضه الَّذي ماتَ فيه: «وإنّي تاركٌ فيكُمُ الثَّقَلَيْن: كِتابَ الله ﷻ، وعِتْرَتي... فانظُروا بمَ تَخْلُفوني فيهما»[7]، فسَّر النَّبيُّ ﷺ الثَّقَلين، فجعلهما كتابَ اللهِ جلَّ وعزَّ وعِترته ﷺ، قال بعضهم: سُمّيا ثَقَلين؛ لأنَّ الأخذ بهما ثقيلٌ[8]، والمعنى المِحوريُّ: انجذابُ الشَّيءِ المحمولِ إلى الأرضِ، أو إلى أسفلَ، بقَدْرِ وزن مادَّته، واستُعمِلت مفرداتُ التَّركيب في القرآن لعِدَّة مستويات من الثِّقل، منها: الثِّقَلُ المادّيُّ المعتادُ، وثِقَلُ الموازين[9]، وقوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، هما الإنسُ والجنُّ، وسُمّي الجنُّ والإنس الثَّقلين لكثرة العدد، وقيل: سُمّيا بذلك لتَثَقُّلهما الأرض، وقيل: لأنَّ لهما قدرًا وخطرًا، وذلك لما فُضِّلا به عن سائر الحيوان من العقل والتَّمييز[10]، ويمكن أيضًا أن يُضاف أنَّ الإنس هم الذين استَعْمَروا الأرضَ، وسُخِّر لهم ما فيها، وشاركهم الجنُّ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فرغ).
(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (فرغ).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فرغ).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 25/ 321، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرغ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقل).
(6) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (ثقل).
(7) أخرجه أحمد في مسنده، برقم: (11300)، وهو صحيح بشواهده.
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثقل).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ثقل).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ثقل).

فيها، فتسميتُهم ثَقَلين من الثِّقل المعنويِّ، كما يوصَف الشَّخصُ الكبيرُ القَدْرِ بأنَّه ثقيل[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الوعيدُ الشَّديدُ للمُكَذِّبينَ من الثَّقلَين

هذه الآيةُ وعيدٌ شديدٌ من الله سبحانه للمُكَذِّبينَ منَ الثَّقلَينِ، فقد توعَّدَهم اللّهُ تعالى بالتَّجرُّدِ لحسابهم وجزائهم على أعمالهم، والمُرادُ بالثَّقلَينِ الإنسُ والجِنُّ، فقد ورد في الحديث الصَّحيح تفسيرُ الثَّقلَين في حديث الجمعة، قال رَسولُ الله ﷺ : «لا تَطْلُعُ الشَّمْسُ، ولا تَغْرُبُ على يَوْمٍ أفْضَلَ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ، وما مِنْ دابَّةٍ إلّا تَفْزَعُ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ إلّا هَذَيْنِ الثَّقَلَيْنِ مِنَ الجِنِّ والإنْسِ»[2]، ولا يُفْهَم من الآية أنَّ اللّهَ تعالى يَفْرَغُ لهم بعدَ شُغْلٍ، فإنَّه لا يَشْغَلُه شأنٌ عن شأنٍ، ولا يعوقُه أمرٌ عن أمرٍ، وإنَّما الآيةُ توكيدٌ للجِنِّ والإنسِ أنَّهما تحتَ رقابةٍ خاصَّةٍ، غيرِ تلك الرَّقابةِ العامَّةِ القائمة من الله ﷻ على الوجود كلِّه؛ إذ هما المخلوقانِ اللَّذانِ يُناط بهما التَّكليفُ، ويقعانِ تحتَ حُكمِ المساءلةِ والحسابِ والثَّوابِ، فكأنَّ رقابةَ اللّهِ تعالى كلَّها متَّجِهةٌ إليهم، وهذا على التَّمثيلِ والتَّشبيهِ، وهذا فضلٌ من الله تعالى على الجنِّ والإنسِ؛ إذ هما من بين المخلوقات على تلك الصِّفة التي تَجعل لهما هذا الامتيازَ عن المخلوقات جميعها، والتي تجعلُهما في مقام الحضورِ بين يدي اللّهِ للمساءلةِ والحساب، وهذا الوجود على تلك الحال التي عليها الجنُّ والإنسُ نعمةٌ جليلة من نِعَم الله، فمن يُكَذِّب بهذه النِّعمةِ، وهي تُشَكِّل وجودَه، وتقيمُ كيانَه، وترفعُ قَدْرَه في العالَمين؟ فبأيِّ نِعَمِ اللّهِ تُكَذِّبان يا معشرَ الثَّقلَين؟ فإنَّ من نِعَمِه إنصافَ الخلائقِ، بإثابةِ المحسنينَ، ومعاقبةِ المجرمين، فلا يُظلمُ أحدٌ شيئًا[3].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ثقل).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، برقم: (7802)، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 679، ووهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 213.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّخلُّصِ إلى الحديثِ عن الحساب:

دفعُ شُبَهِ المُكَذِّبين، ومحاسبتهم

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، بعدَ قولِه: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾؛ لإفادَةِ أنَّه سبحانه، وإنْ كان له في كلِّ يوم شؤونٌ يُجريها وفقَ منظورِ الإنسِ والجنِّ؛ فإنَّ ذلك لا يَشْغَلُهُ تعالى عن القصدِ إليهم بالرَّقابةِ والحساب، حتَّى لا يَظُنَّ المُلحِدونَ والجاحدونَ وضِعافُ العقولِ أنَّ في تصريفِه تعالى لشؤون الكونِ شاغلًا عن مراقبتهم وحسابهم.

دلالةُ السّينِ في ﴿سَنَفۡرُغُ﴾:

قصدُ الثَّقلَين بالحسابِ واقعٌ لا محالة

استعمَلَ النَّظمُ الجليلُ حرفَ التَّنفيسِ في قولِه: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ في مُطلَقِ التَّركيبِ المُكَنّى بِه عَنِ التَّحقيق، كَما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ [يوسف: 98][1]، فأفادت أنَّ قصدَ الثَّقلَين بالحسابِ واقعٌ لا محالة؛ إذ تُفيدُ السّينُ الوعدَ بحصولِ الفعلِ، فدخولُها على ما يُفيد الوعدَ أو الوعيدَ مقتضٍ لتوكيده وتثبيت معناه، كما في قوله: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: 137]، ومعنى السّين أنَّ ذلك كائنٌ لا محالةَ، فالسّين مفيدةٌ وجودَ الرَّحمة لا محالةَ[2].

بلاغة التَّعبير بالاستعارة في ﴿سَنَفۡرُغُ﴾:

الفراغُ مستعارٌ للتَّهديد، أو للانتهاءِ من شؤون الخَلْقِ، فلا يبقى سوى الجزاءِ في الآخرة

اشتملَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ على استعارةٍ تصريحيَّةٍ تَبَعيَّةٍ، فالفراغُ مستعارٌ من قول الرَّجل لِمَن يتهدَّدُه: (سأَفْرُغ لك)، يريدُ: (سأتجرَّدُ للإيقاعِ بكَ من كلِّ ما يشغلني عنك، حتّى لا يكون لي شغلٌ سواه)، والمرادُ التَّوفُّر على النِّكايةِ فيه والانتقام منه، ويجوز أن يُرادَ: ستنتهي الدُّنيا، وتبلغُ آخِرَها، وتنتهي عند ذلك شؤونُ الخَلْقِ التي أرادها بقوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾، فلا يبقى إلّا شأنٌ واحدٌ،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 257.

(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 233.

وهو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغًا لهم على طريق المثلِ، وهذا الوجه مُنَزَّلٌ على الفراغ من الشُّغلِ، لكن على سبيل التَّمثيلِ، شَبَّهَ تدبيرَه تعالى أمرَ الآخرةِ من الأخذ في الجزاء، وإيصالِ الثَّواب والعقابِ إلى المُكلَّفين، بعد تدبيره تعالى لأمر الدُّنيا بالأمر والنَّهي، والإماتةِ والإحياء، والمنعِ والإعطاء، وأنَّه لا يَشْغَلُه شأنٌ عن شأنٍ، بحالِ مَن إذا كان في شُغلٍ يَشْغَلُه عن شُغلٍ آخرَ، إذا فرغ من ذلك الشُّغلِ؛ شرعَ في آخرَ، فالفراغ: الخلاصُ عن المهام، واللّه ﷻ لا يَشْغَلُه شأنٌ عن شأن، فوقع مستعارًا للأخذ في الجزاء وحدَه[1].

توجيهُ تَنوُّعِ القراءاتِ في ﴿سَنَفۡرُغُ﴾:

في قــــراءة الـنّـون مبالغةٌ فـي الـتَّـهـديد والوعيدِ، وفيها تعظيمٌ للمولى ﷻ

وردَ في كلمةِ ﴿سَنَفۡرُغُ﴾ قراءتانِ متواترتانِ، فقَرَأ حَمْزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بالياءِ ﴿سَيَفۡرُغُ﴾، وقَرَأ الباقونَ بالنّونِ[2]، ففي قراءة النّون التفاتٌ للمبالغةِ في التَّهديدِ والوعيد، وفيها كذلك التَّعبيرُ بضمير الجَمْعِ تعظيمًا للمولى تعالى، وقراءةُ الياءِ عطفٌ على الآية السّابقةِ، فيَجْري الكلامُ على نسقٍ واحدٍ لتقرير المعنى وترسيخِه في الأذهانِ.

معنى اللّامِ ودلالَتُها في ﴿لَكُمۡ﴾، وبيانُ المُرادِ بكافِ الخطاب:

اخـتـصـاصُ الثَّقلَين برقابةٍ خـاصَّـةٍ غـيرِ الرَّقابةِ العامَّةِ

جاءَتِ اللّامُ للاختصاصِ في قولِه: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾؛ لتوكيدِ أنَّ الجِنَّ والإنسَ تحتَ رقابةٍ خاصَّةٍ، غيرِ تلك الرَّقابة العامَّة القائمة من اللّه ﷻ على الوجود كلِّه؛ إذ هما المخلوقان اللَّذان يُناطُ بهما التَّكليفُ، ويقعان تحتَ حُكم المساءلة والحساب والثَّواب، فكأنَّ رقابةَ اللّهِ ﷻ متَّجِهةٌ كلُّها إليهم[3].

الغرضُ من التَّعبير بضمير الجمع دونَ التَّثنية:

جمعَ في قوله تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾، ثمَّ قال: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾؛

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 448، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 165.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 381.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 679.

لأنَّهما فريقان، وكلُّ فريقٍ جَمْعٌ؛ لأنَّهما فريقان في حال الجمع، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٥﴾ [النّمل: 45]، وقوله تعالى: ﴿۞هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحجّ: 19]، ولو قيل في غير القرآن: (سنفرغ لكما)؛ لجاز[1].

كلُّ فريقٍ من الفريقين يشتملُ على جمعٍ من الأفرادِ

الغَرَضُ من التَّعبيرِ بأُسلوبِ النِّداءِ في ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾:

جاءَ النِّداءُ في قوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ نداءً مُبْهَمًا، والحكمةُ في نِداءِ المُبهم والإتيانِ بالوصفِ بعدَه هي أنَّ المُنادي يريدُ صَونَ كلامِه عن الضّياعِ، فيقول أوَّلًا: (يا أيُّ)، نداءً لمبهمٍ؛ ليُقْبِلَ عليه كلُّ مَن يسمعُ، ويَتنبَّهُ لكلامه مَنْ يقصدُه، ثمَّ عند إقبالِ السّامعينَ يُخَصِّصُ المقصودَ، فيقولُ: (الرّجلُ)، والتُزِمَ فيه أمرانَ، أحدهُما: التعريفُ باللّام أو باسم الإشارة. وثانيهما: تَوَسُّطُ التَّنبيهِ بينه وبين الوصفِ؛ لأنَّ الأصلَ في (أيُّ) الإضافةُ، لما أنَّها في غاية الإبهام، فتحتاج إلى التَّمييزِ، وأصلُ التَّمييز الإضافةُ، فوسَّط بينهما لتعويضه عن الإضافة[2]، وفي هذا الأسلوبِ ما فيه من التَّنبيهِ والتَّشويقِ، مع إعطاءِ صفةٍ للمُنادى؛ لإبراز أهمّيَّة ما سيلحقها من كلام، ولتَوجيه انتباه المنادَى إلى عظمة المُنادي سبحانه، ولبيانِ عظمةِ النِّداءِ الإلهيِّ، وللتَّرهيب لما فيه من الوعيد.

تنبيهُ السّامعينَ جميعًا أوَّلًا، ثمَّ المخصوصينَ بالنِّداءِ

سِرُّ وصفِ المنادَى بـ ﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾:

وصفَ النَّظمُ الحكيمُ لفظَ ﴿أَيُّهَ﴾ بـ﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾، والمشهور أنَّ المرادَ الجنُّ والإنسُ، وفيه وجوه، أحدها: أنَّهما سُمّيا بذلك؛ لكونهما مُثقلَين بالذُّنوبِ. ثانيهما: سُمّيا بذلك لكونهما ثَقيلَيْن على وجه الأرض. ثالثها: الثَّقيل أحدهما لا غيرُ، وسُمّي الآخرُ به للمجاورة والاصطحاب، كما يقال: العُمَران والقَمَران، واحِدُهما عُمَر وقَمَرٌ،

الوصف بالثَّقلين إمّا للثِّقَل المادّيِّ أو المعنويِّ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 169.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 361، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 330.

أو يحتمل أن يكون المراد العموم بالنَّوعين الحاضِرَين، تقول: يا أيُّها الثِّقَل الذي هو كذا، والثِّقَل الذي ليس كذا، والثِّقَل: الأمرُ العظيم[1]، وقيل: لأنَّ لهما قَدْرًا وخَطَرًا؛ وذلك لما فُضِّلا به عن سائر الحيوان من العقل والتَّمييز[2]، وفي هذا اللَّفظِ في هذه السّورة و(الأحقاف) و(قل أوحي) دليلٌ على أنَّ الجِنَّ مخاطَبون مكلَّفون مأمورون منهيّون مُثابون مُعاقَبون كالإنس سواءً، مؤمِنُهم كمؤمِنِهم، وكافرُهم ككافرِهم، لا فرقَ بيننا وبينهم في شيء من ذلك[3].

بلاغة الاستعارة التَّصريحية الأصليَّة في ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾:

الأرضُ حاملةٌ والثَّقلانِ مُحمَّلانِ عليها بقدرةِ الله

اشتملَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ على استعارةٍ تصريحيَّةٍ أصليَّةٍ؛ لأنَّ الثِّقَل الذي هو مفرد الثَّقَلَين حقيقةٌ في حَمل الدّابَّة، فشبَّه الأرضَ بالحَمولة التي تحمل الأثقال، وجعل الجِنَّ والإنس أثقالًا محمولة عليها[4].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد تعديد النِّعَمِ والآلاء يأتي التَّقرير والتَّوبيخُ للمُكَذِّبينَ

جاءَتِ الفاءُ في قولِ الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من الإنعام، بكونِه تعالى متفرِّغًا للفصل بين الخلق يوم القيامةِ، فيجازي المحسنين فضلًا، ويعاقبُ المُكَذِّبين الظّالمين عدلًا، فجاءَتِ الفاءُ؛ لتقرير هذا الأصل الجليل في أذهان المؤمنين، ولتوبيخِ الكفّار المُنكِرين، فكأنَّ أصل الكلام: إذا عرفتم هذه النِّعمَة العظيمةَ الجسيمةَ، التي هي من الظُّهور والوضوح بمكانٍ لا مِرْيَة فيه، فبأيِّها تُكَذِّبان؟ وإذْ لا سبيلَ إلى التَّكذيب، فلا بدَّ من الإقرار التّامِّ، والتَّصديق الكاملِ، والإيمان الحقِّ بعد الامتنان بهذه النِّعمة التي هي دليلُ قدرتِه وعَظَمتِه وقَيّوميَّتِه ورحمتِه.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 361، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 330.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ثقل).

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 169.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 311.

بيان المراد بـ ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضع:

إثابةُ المحسن المؤمنِ وعقابُ العاصي المُكَذِّبِ نعمةٌ جليلةٌ لها خطرُها وقَدْرُها

امتنَّ اللّهُ تعالى في هذه الآية الجليلة بنعمة عظيمةٍ، رغمَ كونِها وعيدًا وتهديدًا؛ ليَنْزَجِرَ به المُسيءُ عن إساءته، ويزدادَ به المُحسن إحسانًا، فيكونَ ذلك سببًا للفوز بنعيم الدّار الآخرة، الذي هو النَّعيم في الحقيقة[1].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 164 - 165.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا
تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦﴾ [الرحمن: 33 - 36]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد التَّهديدِ بالفراغِ لمحاسبة الثَّقلَينِ، جاءَ نفيُ إمكانِ الهروبِ

لمّا كانَ التَّهديدُ بالفراغِ ربَّما أَوْهَمَ أنَّهم الآنَ مَعجوزٌ عنهُم أو عن بعضِ أمرِهم؛ بيَّنَ بخطابِ القَبضِ المُظهرِ لمحضِ الوحدانيَّةِ، أنَّهم في القَبضةِ، لا فعلَ لأحدٍ منهم، بدليلِ أنَّهم لا يصلونَ إلى جميعِ مرادِهم ممّا هو في مقدورِهم، ولكنَّه سترَ ذلك بالأسبابِ، فتحدّاهم بإمكانِ النَّفاذِ من أقطارِ السَّماواتِ والأرضِ، ولمّا كان نفوذهم في حَدِّ ذاته ممكنًا، ولكنَّه منعهم من ذلك بأنَّه لم يخلق في أحدٍ منهم قوَّتَه، فأشار إلى قهرِهم عن شيءٍ من ذلك إلّا بسلطانٍ عظيمٍ منه سبحانه، وبأمرٍ قاهرٍ وقدرةٍ بالغةٍ، وأنَّى لهم بالقُدرةِ على ذلك! فإنَّهم لا يقدرون على مخالفة مُراده، سواء كانوا جمعًا أو فُرادَى، ولمّا سلبَ عنهم القُدرةَ على النُّفوذِ المَذكورِ؛ تنبيهًا على سلبِ جميع القدرةِ عنهم، وعلى أنَّ ما يقدرونَ عليه إنَّما هو بتقديرِه لهم نعمةً منه عليهم، ولمّا كان منهم مَن بلغَ الغايةَ في قسوةِ القلبِ وجمودِ الفكرِ، فهو يُحيلُ العجزَ عن بعضِ الأمورِ إلى أنَّه لم يَجْرِ بذلك عادةٌ، لا إلى أنَّه سبحانه المانعُ من ذلكَ، فعمَّهم بشيءٍ من سطوتِه بإرسالِ الشّواظِ على المعاندين، ولما كان التَّهديدُ بهذا لطفًا بهم، فهو نعمةٌ عليهم، فكرَّرَ التَّقرير والتَّوبيخَ والتَّقريع على تكذيبهم بهذه الآياتِ البيِّناتِ، التي شاهدوها في الدُّنيا، والتي هي من الدَّلائل التي توجب الإيمانَ[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 170 - 174.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾: (عشر) أصلان صحيحان، أحدهما: في عدد معلوم، ثمَّ يُحمَل عليه غيره، والآخر: يدلُّ على مداخلة ومخالطة[1]، والمعنى المِحوريُّ: تجمُّعٌ أو كثرةٌ بتداخلِ أشياءَ أو اختلاطِها، مكوِّنةً كيانًا مترابطًا[2]، والمَعشرُ: على وزنِ (مَفْعَل): كلُّ جماعةٍ أمرُهم واحدٌ، نحوُ مَعْشَرِ المسلمين، ومعشر المُشْركين، والإنسُ مَعشرٌ، والجنُّ مَعشرٌ، والجمعُ: مَعاشرُ، والمَعْشَرُ: الجَماعَةُ مِن النّاسِ، والمعشرُ والنَّفرُ والقومُ والرَّهطُ معناهم: الجمعُ، لا واحد لهم من لفظهم[3]، والمرادُ بالمعشرِ في الآيةِ: الجماعةُ العظيمةُ[4].

2) ﴿تَنفُذُواْ﴾: (نفذ) أصل صحيح، يدلُّ على مضاءٍ في الأمر[5]، والمعنى المِحوريُّ: اختراقُ الشَّيءِ والجَوازُ خِلالَ جِرْمِه بقوَّة[6]، والمرادُ بالنَّفاذ في قوله: ﴿تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ﴾، أي: تَجوَزوا، وتَخْرُجوا، فتَهْرُبوا من قَضائي، وتَخْرُجوا مِن مَلَكوتي ومِن أقْطارِ سَماواتي وأرْضي، وتُخَلِّصوا أنْفُسَكم مِن عِقابي[7].

3) ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾: (سلط) أصلٌ واحدٌ، يشير إلى القوَّةِ والقهرِ، ومن ذلك السَّلاطةُ، من التَّسلُّطِ، وهو القهرُ، ولذلك سُمّي السُّلطانُ سلطانًا[8]، وسُمّيت الحُجَّة سلطانًا؛ لأنَّها تهجم على القلوب، أو لأنَّها تقهرُ المنكِرَ، أو المعارِضَ على التَّسليم، وسلاطةُ اللِّسان هي: القوَّة على القول، وأكثر ما تُستعمَل في الذَّمِّ[9]، والمعنى المِحوريُّ: التَّمكُّنُ من القهر من بعيد[10]، وكلُّ سلطان في القُرآن فهوَ حُجَّة، وإنَّما سُمّي سُلْطانًا؛ لأنَّه حُجَّة للّه جلَّ وعزَّ في أرضِه، وقَوْلُه جَلَّ وعَزَّ: ﴿فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾، أي: حَيثُما كُنتم شاهَدتم حُجَّةً للّه تعالى وسُلطانًا يدلُّ على أنَّه واحدٌ[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عشر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عشر).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح، والفيوميّ، المصباح المنير: (عشر).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 361.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفذ).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نفذ).
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 181.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والخليل بن أحمد، كتاب العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (سلط).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سلط).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سلط).

4) ﴿شُوَاظٌ﴾: الشّواظُ: اللهبُ من النّارِ لا دخانَ معه[1]، والمعنى المِحوريُّ: لهبُ نارٍ ممتدٌّ، مَعه أو ليس مَعه دخانٌ، وليس في الاستعمالات اللُّغويَّة أو القرآنيَّة من هذا الجذر سوى هذه اللفظة[2]، واختُلِف في المرادِ بالشّواظِ في قوله تعالى: ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ على أربعة أقوال، الأوَّلُ: لهبُ النّار. الثّاني: أنَّه قطعة من النّار فيها خُضرَةٌ. الثّالث: أنَّه الدُّخان، والرّابع: أنَّها طائفة من العذاب[3].

5) ﴿وَنُحَاسٌ﴾: النِّحاسُ: ضَرْبٌ من الصُّفْرِ والآنيةِ شديدُ الحُمْرَةِ، والنُّحاسُ، بضَمِّ النّونِ: الدُّخانُ الذي لا لهبَ فيه، وفي التَّنزيل: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾، الدُّخانُ الذي يَعلو وتضعفُ حرارتُه، ويخلصُ من اللهب، وقيل: النُّحاسُ بالضَّمِّ: الصُّفرُ نفسُه، والنِّحاسُ، بالكسر: دُخانه[4]، والمعنى المحوريُّ حدَّةٌ ودِقَّة تنبثُّ مع فراغ أثناءٍ[5]، والنُّحاسُ في الآيةِ فيه أَرْبَعَةُ أقوالٍ: أَحَدُها: أَنَّهُ الصُّفْرُ الْمُذابُ عَلى رُؤوسِهِمْ. والثّاني: أَنَّهُ دُخانُ النّارِ. والثّالِثُ: أَنَّهُ القَتْلُ. والرّابِعُ: أَنَّهُ نَحْسٌ لِأَعْمالِهِم[6].

المَعنى الإجماليُّ:

في هذه الآياتِ يُنادي المولى ﷻ الجماعاتِ الكثيفةَ العظيمةَ التي لا انتهاءَ لعددها من الإنس والجنِّ، في الحياة الدُّنيا أو يومَ القيامةِ، وفي القيامة أرجحُ: إن قَدَرتُم أن تخرجوا من جوانب السَّماوات والأرض ونواحيهما؛ هربًا من قضاء اللّه وقَدَره، وأمره وسلطانه، فاخرجوا منها، وخَلِّصوا أنفسَكم، فإنَّكم لا تَقدِرون على التَّخلُّصِ والنُّفوذ من حُكمه إلّا بقوَّةٍ وقهرٍ، ولا قوَّةَ لكم على ذلك ولا قُدْرةَ، فلا يمكنكم الهربُ، وأنَّى لكم ذلك، وأنتم لا تملكون لأنفسكم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؟ ففي موقف الحساب يومَ القيامةِ لا يتكلَّم أحدٌ إلّا بإذنه، ولا تسمع إلّا همسًا، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرُّؤساءُ والمَرْؤوسون، والأغنياءُ والفقراءُ، وإذا كانَ هروبُكم من سلطانه في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (شوظ).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شوظ).
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 435.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نحس).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نحس).
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 435.

الدُّنيا أو من أرض المَحشَر في الآخرة أمرًا مستحيلًا، فبأيِّ نِعَم اللّه تُكَذِّبان أيُّها الثَّقلان؟ فقدَّمَ التَّنبيهَ والتَّحذيرَ؛ ترغيبًا للمُحْسِن، وترهيبًا للمُسيء، وهو تعالى قادرٌ على عقاب الجميع، فلا يُفْلِت منْه أحدٌ، كما أنَّه تعالى يعفو مع كمال القُدرة، وتلك نعمة أخرى، ثمَّ بيَّن تعالى للعُتاة والمعاندين أنَّهم لو خرجوا - سواءٌ في الدُّنيا أو الآخرة، على سبيل الفرض والتَّقديرِ - فإنَّ مصيرَ الخارجينَ أنْ يُسَلَّط عليهم سيلٌ من النّار، أو لهبٌ خالصٌ لا دخانَ معه من النّار، أو يُصَبَّ على رؤوسهم نحاسٌ مُذابٌ، فلا يقدِرون على الامتناع من عذاب اللّه، ثمّ كرَّرَ التَّقرير والتَّقريع والتَّوبيخ، فقال: فبأيِّ نِعَم اللّه تُكَذِّبان أيُّها الإنس والجنُّ؟ لطفًا منه ورحمةً، فإنَّ التَّهديدَ لطفٌ، والتَّمييزَ بين المطيع والعاصي، بإثابة الأوَّل والانتقام من الثّاني، من نِعَم اللّه الجليلة، وآلائه الجزيلةِ، حتّى يكون الخَلْقُ على بصيرةٍ من أمرهم[1].

لا مهربَ ولا ملجأ لأحدٍ من قهرِ اللهِ وسلطانِهِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الغرضُ من التَّعبيرِ بأسلوبِ النِّداءِ ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾:

النِّداءُ تقريعٌ للعاصينَ، وإشارةٌ لدخولهم تحت سلطان القهر

جاءَ النِّداءُ في قولِه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾؛ لتوبيخ المُكذِّبينَ العاصينَ المعاندينَ، الذينَ توَهَّموا أنَّ التَّفرُّغَ لهم بعد حينٍ، دليلٌ على أنَّهم معجوزٌ عنهم أو عن بعضِ شأنِهم الآنَ، فجاءَ النِّداءُ ردعًا لهم وتهديدًا، مبيِّنًا أنَّهم في رقابةِ اللّهِ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، والظّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾ من خطاب اللّه إيّاهم يومَ القيامة، وقيل: يقال لهم ذلك حينَ يَفِرّون في أقطار الأرض؛ لِما يَرون من الهَوْل، فيجدون الملائكةَ قد أحاطت بالأرضِ، فيرجعونَ من حيث جاؤوا، وقيل: هو خطابٌ في الدُّنيا، والمعنى: إنِ استطعتُم الفرارَ من الموتِ[2]، وفي

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 214 - 215، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 830.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 64.

الحالينِ فإنَّ في النِّداءِ دلالةً على أنَّهم في قبضةِ اللّهِ تعالى، وأنَّ علمه وقدرته محيطان بهم، كما أنَّ هذا النِّداءَ ترويعٌ للضّالّين والمُضلّين من الجنِّ والإنس بما يترقبهم من الجزاء السَّيّئ؛ لأنَّ مثل هذا لا يقال لجمع مختلطٍ إلّا والمقصودُ أهلُ الجناية منهم، فقوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ عامٌّ مُرادٌ بهِ الخصوصُ، بقرينةِ قَولِه بَعْدَهُ: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ﴾[1]، فالنِّداءُ هاهنا كالتَّرجمة لقوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، إنِ استَطَعْتُم أن تهربوا من قضائي، وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضي، فافعلوا، وأنّى لكم ذلك؟ ونحوه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [العنكبوت: 22][2].

مهما بلغَ عددُ المجتمعينَ المتساندينَ فإنَّهم في قبضةِ اللهِ

الغرض من التَّعبيرِ بالمنادَى مُضافً:

عدَلَ النَّظمُ الحكيمُ عن النِّداء بـ(يا أيّها الإنسُ والجنُّ)، إلى النِّداءِ بـ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، فأضافَ الجنَّ والإنسَ إلى لفظِ ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾؛ وذلك لبيانِ أنَّ التَّحدّيَ يشملُ الجنَّ والإنس فُرادَى ومجتمعينَ، فإضافةُ المعشرِ إلى الجنِّ والإنس إضافةٌ شائعة كثيرةٌ، بإضافتهما إلى اسم يُبيِّنُ الصِّفةَ الَّتي اجتمع مُسَمّاهُما فيها، وهي هُنا صفةُ كونهم جِنًّا وإنسًا، فصفتُهم الجِنّيَّة والإنسيَّةُ مُسوِّغَةٌ للتَّعبير باسم الجَمع عَلى هذهِ الصّيغة؛ إذِ المعشرُ العددُ الكاملُ الكثيرُ الذي لا عددَ بعدَه[3].

زيادةُ تقريرِ خصائصِ المخاطَبينَ في الآيةِ

دلالةُ المخاطَبةِ بالجِنِّ والإنس دونَ الثَّقلَين:

جاءَ النَّظمُ في الآيةِ بلفظَي الجنِّ والإنس دونَ الثَّقلَين؛ لزيادة التَّقرير، ولأنَّ الجِنَّ مشهورون بالقُدرة على الأفعال الشّاقَّة، فخوطِبوا بما يُنبئ عن ذلك؛ لبيان أنَّ قدرتَهم لا تَفي بما كُلِّفوه، وكأنَّه لمّا ذكر سبحانه أنَّه مُجازٍ للعباد لا محالةَ؛ عَقَّب ﷻ ذلك

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 259.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 448.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 361.

ببيان أنَّهم لا يَقدرون على الخلاصِ من جزائه وعقابِه؛ إذا أراده، فقال سبحانه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[1].

بلاغةُ الإيجاز بالحذفِ في قولِه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾:

في الحذفِ توبيخٌ وتحقيرٌ للواهمينَ المعاندينَ

قولُه تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ يدلُّ عليه سياقُ الكلام السّابق واللّاحق، والتَّقدير: فنقولُ لكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأنعام: 128][2]، ففي الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ على تقدير محذوف من الكلام، وقد يكونُ الحذفُ في هذه الجملة على تقدير فِعلِ القَولِ مَبْنيًّا لِلمفعول: فيُقالُ لهم؛ لاستبعادِ أن يُكَلِّمَهُمُ اللّهُ شِفاهًا؛ تَحقيرًا لَهُم وتَصغيرًا لشأنهم، وآيةُ ذلكَ قَولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: 174]، وحَذْفُ الفعل (نَقولُ)، والقائلُ هوَ اللّهُ تعالى في ذلك اليوم بعد الحشر، غرضُهُ التَّبكيتُ والتَّوبيخ[3]، فإنَّهُم مَهما بلغوا من القوَّةِ والبأس لن يخرجوا عن سلطانِ اللّهِ تعالى.

دلالةُ تقديمِ ﴿ٱلۡجِنِّ﴾ على (الإنْس):

قدرةُ الجِنِّ على النَّفاذِ والخفاءِ أعظمُ من قدرةِ الإنسِ على ذلك

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الجنَّ على الإنس في قولِه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ﴾، وقدَّم الإنسَ على الجنِّ في قولِه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء: 88]؛ وذلك لأنَّ النُّفوذ من أقطار السَّماوات والأرض بالجِنِّ أليقُ؛ إن أمكن، والإتيانَ بمثل القرآن بالإنس أليقُ إن أمكن، على فرْضِ التَّقدير، فقدَّم في كلِّ موضع من يُظَنُّ به القدرةُ على ذلك[4]، وقدَّمهم كذلك لمزيد قوَّتِهم وقُدرتهم على الخفاء والتَّشكُّل في الصّور بما ظُنَّ أنَّهم لا يعجزهم شيء[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 182.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 259.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 13/ 147.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 361.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 361.

إبراز قدرة اللهِ وشمولها للمتضادّات على اختلافها

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ في ﴿ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾:

جاءَ الطِّباقُ بين الجنِّ والإنس في قولِه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، مُبرزًا لشمولِ قدرته تعالى للجِنِّ والإنسِ، على اختلافِ ما بينهما من الطَّبائع والخصائصِ والقُدُراتِ، فليس أحدٌ من القَبيلَين بمُعجزٍ للّه، بل هو تعالى محيطٌ بهم؛ فيحصل للمُتَلقّي من اليقين ما يَحثُّه على الإيمان الحقِّ والعمل الصّالح.

الشَّرطُ لإلزامهم وتعجيزِهم وبيانِ مدى ضعفهم أمامَ سلطان اللهِ

الغرضُ من التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ في قولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بأسلوب الشَّرطِ؛ لإفادةِ الإلزام والتَّعجيزِ لمن لم يَرْضَ بقضاء اللّهِ وقَدَرِه، وظَنَّ أنَّ بمقدوره الخروجَ من سلطان اللّهِ، وهو إشارةٌ لمعنى حديثٍ قدسيٍّ عن أبي هِنْدٍ الدّاريِّ قالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللّهِ ﷺ يَقولُ: قالَ اللّهُ ﷻ: «مَنْ لَمْ يَرْضَ بقَضائي، ويَصْبِرْ على بَلائي؛ فليَلْتَمِسْ رَبًّا سِوايَ»[1].

نفاذُ الجِنِّ والإنسِ مستبْعَدٌ عقلًا؛ لأنَّهم لا يستقِلّونَ بقدرةٍ ذاتيَّةٍ

سرُّ التَّعبير بـ ﴿إِنِ﴾ الشَّرطِيَّة، ودلالةُ التَّعبير بالاستطاعةِ:

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بـ﴿إِنِ﴾ الشَّرطيَّةَ دونَ (إذا)؛ وذلك لأنَّ استعمالَ (إن) الشَّرطيَّة عادةً ما يكونُ للمعاني المحتملة الوقوع والمشكوكِ في حصولها، والموهومةِ والنّادرةِ والمستحيلةِ وسائرِ الافتراضات الأخرى، فهي لتعليقِ أمرٍ بغيره عمومًا، ولا تستلزم تحقُّقَ وقوعِه ولا إمكانَه، بل قد يكون ذلك من المستحيل عقلًا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ٨١﴾ [الزّخرف: 81]، أو المُستحيل عادةً، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: 35][2]، ولمّا كانَ نفاذُ

---

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 6/ 505، والحديث رواه الطّبرانيّ في المعجم الكبير: 22/ 320، بسند فيه ضعف.

(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 9/ 4، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 407، وفاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 69.

الجنِّ والإنسِ مُستَبعدًا عقلًا وعادةً؛ لأنَّهم لا يستقلّونَ بقدرةٍ ذاتيَّةٍ تُمَكِّنُهم من ذلك، بل وجودُهم ذاتُه بيدِ اللّهِ ﷻ؛ عبَّرَ النَّظمُ بـ(إن) الشَّرطيَّة لإفادةِ استبعاد استطاعتِهم، والاستطاعةُ: القدرةُ، والسّين والتّاء فيها للمبالغة، وأصلُ الاستطاعةِ طلبُ طواعيَةِ الفعل وتأتّيه، ثمَّ جعلَ نفيَه بمعنى نفيِ الإرادة والقدرةِ؛ لبيان أنَّهم لا يقدرون على الخلاص من جزائِه وعقابِه؛ إذا أراده[1].

سرُّ العدولِ عن التَّعبيرِ بضمير المثنى إلى ضمير الجمع:

مهما بلغث جموعُ الجِنِّ والإنسِ، فلا سبيلَ لهم إلى النُّفوذِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عدلَ النَّظمُ الكريمُ عن التَّعبيرِ بضمير المثنى (استطعْتُما) إلى ضمير الجمع ﴿ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ زيادةً في التَّحدّي والتَّعجيزِ، ففي التَّعبيرِ بالجمعِ إرادةُ التَّكثير، والإشارةُ إلى الاجتماعِ الكثيفِ والشُّغلِ العامِّ لكثيرٍ من أفرادِ الثَّقلين، ومع ذلك فلا سبيلَ لهم إلى النُّفوذِ مهما تكاثروا، وتعاضدوا، واجتمعوا، وتشاركوا في التَّخطيط والتَّنفيذِ، كما أنَّ فيه حملًا على المعنى، فاللَّفظ مفردٌ لكنَّه اسمُ جنسٍ أفرادُه كُثُر.

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَن﴾ والفعلِ، وبلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

مهما تجدَّدتْ محاولاتُ النُّفوذِ؛ فإنَّها لا تُغني عنهم شيئًا

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باستعمالِ المصدَرِ المُؤَوَّلِ ﴿أَن تَنفُذُواْ﴾ دونَ المصدرِ الصَّريح؛ وذلكَ لما في التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ مِنَ الدَّلالَةِ على الاستِقبالِ والزَّمَنِ، وعدلَ عَن المَصدرِ الصَّريحِ، فلم يَقلْ: (إن استطعتم النُّفوذَ)؛ لدلالته على الحَدَثِ فحَسْبُ، دونَ الزَّمَنِ[2]، فالمصدر المُؤَوَّل أفادَ المبالغةَ في التَّحدّي، بأنَّه مهما تكرَّرت محاولاتُ نفاذِهم من أقطارِ السَّماوات والأرضِ، فإنَّ كلَّ

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 134.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النحّو: 3/ 147.

محاولاتتهم ستَبوءُ بالفشلِ، ولنْ تغنيَ عنهم من اللّهِ شيئًا؛ وذلك لأنَّ قُدرتَه تباركت آلاؤه محيطةٌ بهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بمادَّةِ النَّفاذِ دونَ الخروجِ:

في النَّفاذ معنى الخروجِ وزيادةٌ، بالقوَّةِ والاختراقِ

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمادَّةِ النَّفاذِ دونَ الخروجِ في قولِهِ: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾، وذلك لأنَّ في النَّفاذِ معنى الخروجِ وزيادَةً؛ إذ يدلُّ على الجَوازِ والخُلوصِ من الشَّيءِ واختراقِ جِرمِه بقوَّة[1]، والمرادُ: لن تستطيعوا أن تَجوزوا، وتَخْرُجوا، فتَهْرُبوا مِن قَضائي، وتَخْرُجوا مِن مَلَكوتي ومِن أقْطارِ سَماواتي وأرْضي، وتُخَلِّصوا أنْفُسَكم مِن عِقابي[2].

مَعنى ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُها:

(من) ابتدائيَّةٌ؛ لأنَّ السَّماواتِ أرحبُ وأوسعُ وأعظمُ وأسبقُ في الخلقِ

جاءتْ ﴿مِنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ابتدائيَّةً؛ للدَّلالةِ على أنَّ ابتداءَ النَّفاذ - على سبيل الافتراض والتَّقدير - يكون من السَّماوات؛ لأنَّها أرحبُ وأوسعُ، ولأنَّ من عادَةِ النَّظمِ الجليل أن يبتدئ بِذكرها لِعظَمِها وسَبقِ خَلْقِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجمعِ، والغرض من الإضافةِ:

رغم رحابةِ آفاقِ السَّماواتِ والأرضِ، فإنَّ قدرته تعالى قاهرةٌ

أضافَ النَّظمُ الحكيمُ لفظَ ﴿أَقۡطَارِ﴾ جمعًا إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لبيانِ رحابةِ السَّماواتِ والأرضِ، وشمولِ قدرته تعالى عليهما وعلى من فيهما؛ إذ المُرادُ بأقطارها جوانبُها ونواحيها الواسعةُ الأرجاء، وعبَّر بها جمعًا للتَّكثير والتَّرهيب، والمعنى: إنِ استطعتم أن تهربوا من الموت بأن تخرجوا من أقطار السَّماوات والأرض، فاهربوا، واخرجوا منها، والمعنى: أنَّكم حيثما كنتم أدرَكَكم الموت، كما قال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [النّساء: 78]، ولن تستطيعوا أن تهربوا منه بالخروج من أقطار السَّماوات

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نفذ).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 181.

والأرض، وهذا إخبار عن عجزهم عن النُّفوذ من الأقطار، وأنَّهم في قبضة الجبّار الذي لا يفوته مطلوبٌ أينما كان[1].

دلالةُ ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معًا:

تحقيقُ عجزِ الجنِّ والإنسِ عن الفرارِ

ذكر النَّظمُ الحكيمُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معًا على عادةِ البيانِ القرآنيِّ الغالبةِ في مثل هذه المواضعِ، وقد أفاد الجمعُ بينهما كذلك تحقيقَ إحاطةِ الجهاتِ كلِّها؛ تحقيقًا للتَّعجيز وتوكيدًا له، أي: فهذه السَّماوات والأرض أمامَكم، فإن استطعتم؛ فاخرُجوا من جهة منها فرارًا من موقفكم هذا، وذلك أنَّ تعدُّد الأمكنة يُسَهِّل الهروبَ من إحدى جهاتها[2].

بيانُ المرادِ بالأرضِ في ﴿أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الأرضُ إمّا الأرضُ المذكورةُ في الدُّنيا، وإمّا أرضُ المحشرِ

الأرض المذكورة هنا إما أن تكون الأرضَ المذكورة في الدُّنيا، وذلك حين البعث، وإمّا أن تكون أرضَ الحشر، وهي التي سمّاها القرآن السّاهرةَ في سورة النّازعات، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: 48]، وإمّا أن يكون ذلك جاريًا مجرى المثل المستعمل للمبالغة في إحاطة الجهات، كقول أبي بكر الصِّديق: "أيُّ أرضٍ تُقِلّني، وأيُّ سماءٍ تُظِلّني"، وهذه المعاني لا تتنافى، وهي مِن حَدِّ إعجاز القرآن[3].

الغرضُ من التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿فَٱنفُذُواْۚ﴾:

الأمرُ للتَّعجيز، وفيه إشارةٌ خفيَّةٌ للتَّوبيخِ والتَّهكُّم والاستهانةِ

خرجَ الأمرُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾، بدلالةِ السّياقِ عن الطَّلبِ إلى التَّعجيزِ[4]، فالمرادُ: إظهارُ عجزِهم عن النَّفاذ، وليس للأمرِ به، وفيه إشارةٌ خفيَّةٌ للتَّوبيخ والتَّهكُّم والاستهانةِ، فليس في مقدورهم مهما بلغوا من القوَّة والسُّلطانِ أن يَنفُذوا من أقطار السَّماوات والأرضِ.

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 169.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 259.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 259.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 111.

موقعُ جملةِ ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ ممّا قبلَها ودلالتُهُ:

بيانُ التَّعجيزِ دالٌّ على المبالغةِ في التَّحدّي

جاءتْ جملةُ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ﴾ بيانًا للتَّعجيزِ الذي في الجملةِ قبلها؛ فإنَّ السُّلطانَ: القدرةُ، أي: لا تَنفُذون من هذا المأزق إلّا بقدرةٍ عظيمةٍ تفوقُ قدرةَ اللّهِ الذي حشركم لهذا الموقف، وأنّى لكم هاتِه القوَّةُ! وهذا على طريق قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١﴾ [الشّعراء: 210 - 211]، أي: ما صعدوا إلى السَّماء، فيتنزَّلوا به[1]، وفي هذا ما فيه من المبالغة في التَّحدّي؛ ليتنبَّه الثَّقلانِ إلى أنَّهم ليس في مقدورهم البتَّةَ أن يفعلوا إلّا ما أقدرَهم عليه بمَددٍ منه، فضلًا ورحمةً بهم.

دلالة ﴿لَا﴾ النّافية على الحال والاستقبال:

لا قدرةَ للثَّقلَين على النُّفوذ أبدًا، لا في الحال ولا في الاستقبالِ

دلَّ نفيُ الفعلِ ﴿تَنفُذُونَ﴾ بـ ﴿لَا﴾ النّافية، في قوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ﴾، على صلاحيَّة هذا النَّفي للحال والاستقبال، أي: لا تَنفُذونَ في حالكم، ولا تنفذون في غَدِكم؛ لكونِكم لستُم أهلًا للنُّفوذ أصلًا، فلا قدرةَ لكم على ذلك؛ لأنَّ قدرتَكم إنَّما هي مستمَدَّةٌ من قدرةِ اللّهِ الذي لا يقعُ في مُلكهِ إلّا ما أرادَ.

الغرض من التَّعبير بالمضارع المنفيِّ ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾:

مهما حاولَ المكابِرونَ المعانِدونَ فإنَّهم عاجزون لا محالةَ

دلَّ التَّعبيرُ بالمضارعِ المنفيِّ، في قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾، على استمرار عدم النَّفاذ من أقطار السَّماوات والأرضِ، مهما حاولَ المكابِرونَ الواهِمون من الثَّقلَينِ في الحياة الدُّنيا ويوم القيامة، وفي إثبات ديمومة عدم النَّفاذ تعريضٌ بضعفهم وتهافتِ قواهم؛ لأنَّ دوام العَجزِ دليلُ النَّقصِ، والعاقلُ يَعْتَبِرُ.

بلاغةُ التَّعبير بالاستثناءِ المُفَرَّغ:

تأكيدُ استحالةِ النَّفاذِ، فإنَّهم لن يَفرّوا من مُلك اللهِ إلّا إلى مُلكه

الاستثناء المُفَرَّغُ في قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ﴾، هو مِنْ عُموم الأحوال والعِلَلِ، على معنى: أنَّهُم لا يَنفُذونَ في حالٍ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 259.

الأحوال، ولا لعِلَّةٍ مِنَ العِلل، إلَّا بمُلك اللّهِ وقُدرته وجَبَروته، فحيثُ توجَّهتُم فثَمَّ مُلكُ اللّهِ الواحدِ القهّار[1].

معنى الباءِ ودلالتُها في ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾:

الباءُ إمّا للإلصاقِ، أو بمعنى (إلى) أو بمعنى (مع)

جاءتِ الباءُ في قوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ للإلصاقِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ النَّفاذ من أقطارِ السَّماواتِ والأرضِ لا يتأتّى إلّا بالالتصاقِ بقوَّة عظيمةٍ وجَنابٍ شامخٍ، ولا سبيلَ إلى ذلك إلّا بمعونةِ اللّهِ وتوفيقهِ، فلا تتخلَّصون من عذاب اللّه إلّا بسلطانٍ يُجيركم، وإلّا فلا مُجيرَ لكم، وقيل: الباء بمعنى (إلى)، أي: إلّا إلى سلطانٍ، كقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: 100]، أي: (إليّ)، وقيل معناه: لا تنفذون إلّا ومعكم سلطانٌ من اللّه[2].

سرُّ إيثارِ لفظِ (سلطان)، والغرضُ من تنكيره:

في السُّلطان قوَّةٌ وقَهرٌ، وحُجَّةٌ على المنكرِ المعُاندِ

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ (سلطانٍ)، في قوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾؛ لما فيه من الدَّلالةِ على القوَّة والقَهْرِ؛ ولذلك سُمّي السُّلطانُ سلطانًا، وسُمّيت الحُجَّة سلطانًا؛ لأنَّها تَهْجُمُ على القلوب، أو لأنَّها تقهرُ المُنكِرَ أو المعارضَ على التَّسليم[3]، كما أنَّ صيغةَ (فُعْلان) صيغةٌ فيها معنى المصدريَّة، تدلُّ على المبالغة، ففيها إشارةٌ إلى عِظَم القُدرةِ المطلوبة للنُّفوذ، ولا يتأتّى ذلك إلّا للّه تعالى؛ إذِ المُرادُ بالسُّلطان هاهُنا: القوَّة التي يتسلَّط بها على الأمر والمُلك والقدرة والحُجَّة[4]، وجاءتْ كلمةُ (سُلۡطَٰنٍ) نكرةً للتَّهويل والتَّعظيمِ؛ إذْ إنَّ الخروجَ من أقطار السَّماواتِ والأرضِ ليس في

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 169.

(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 25/ 337، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 170، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 331.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والخليل بن أحمد، كتاب العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (سلط).

(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 331.

مقدور أحدٍ من الجنِّ والإنسِ، بل لا بدَّ له من قدرةٍ عظيمةٍ جسيمةٍ لا قِبلَ لأحدٍ بها سوى اللّهِ تعالى.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد ذِكر التَّحدّي بالقهر والسُّلطان، ثمَّ يأتي التَّقرير

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من الإنعام، بكونِهِ تعالى يُرسل الآياتِ تِلو الآياتِ؛ لتَحَدّي المُنكِرين المُعاندين من الثَّقلَين، ففي التَّحدّي بالعَجز عن الهرب من قضاء اللّهِ وسطانِه نعمةٌ للمؤمنين وطمأنينةٌ للموحِّدينَ، ونِقمةٌ على العاصين المعاندين، فجاءَتِ الفاءُ لتقرير هذا الأصل الجليل في أذهان المؤمنين، ولتوبيخِ الكفّار المُنكرين، فكأنَّ أصل الكلام: إذا عرفتم هذه النِّعمَة العظيمةَ الجسيمةَ، التي هي من الظُّهور والوضوح بمكانٍ لا مِرْيَةَ فيه، فبأيِّها تُكَذِّبان؟ إذ لا سبيلَ إلى التَّكذيب، فلا بدَّ من الإقرارِ التّامِّ والتَّصديق الكاملِ، والإيمان الحقِّ بعد الامتنان بهذه النِّعمة، التي هي دليلُ قدرتِه وإحاطَتِه[1].

بيانُ المُرادِ بـ ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضعِ:

إظهارُ التَّحدّي للمُعاندينَ، وقصمُ ظهورِ المكابرينَ

امتنَّ اللّهُ تعالى في هذه الآية الجليلة بنعمة عظيمةٍ، رغمَ كونِها وعيدًا وتهديدًا، وهي النِّعمة الحاصلة بالتَّحذير والوعيد والتَّحدّي، فإنَّها تزيد المُحْسِنَ إحسانًا، وتَكُفُّ المُسيءَ عن إساءتِه، مع أنَّ من حَذَّركم، وأنذرَكم، قادرٌ على الإيقاع بكم من دون مهلة[2].

دلالةُ الاستئنافِ في جملةِ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾:

إثارةٌ للتَّساؤل عمّا وراء محاولة النُّفوذ

فصل النَّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾، ولم يَعْطِفْهُ على الآيةِ السّابقةِ عليه، وهي قولُه: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ۚ لَا

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 214.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 165، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 119.

﴿تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾؛ وذلك لأنَّها وقعتْ جملةً مستأنَفَةً، قُصِدَ بها بيانُ أحوالِ الآخرة، فهي استئنافٌ في جواب سؤال مُقَدَّر[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ المَبْنِيِّ للمفعولِ ﴿يُرْسَلُ﴾:

تَجدُّدُ إرسالِ الشّواظِ على الكافرين المعانِدين

في قولِه تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ باستعمالِ الفعلِ المضارعِ؛ لإفادَةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ في الإرسالِ، فكلَّما حاولَ الواهمون والمكابِرون النُّفوذَ من أقطارِ السَّماوات والأرضِ؛ تَجدَّدَ إرسالُ الشّواظِ عليهم، وكذلك فإنَّ في التَّعبيرِ بصيغة المضارعةِ استحضارًا للمشهد، كأنَّ المُتلقّي يُشاهدُه بأُمِّ عينِه، فيحصل له من الرَّهبةِ والتَّخويفِ ما يَحجُزه عن كُفران نِعَم اللّهِ وآلائه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المَبْنِيِّ للمفعول ﴿يُرْسَلُ﴾:

ترهيبُ الثَّقلَين من أوهامِ الاقتدارِ على النَّفاذ من أقدار اللهِ

وكذلك فإنَّ في التَّعبيرِ بصيغةِ المبني للمفعولِ إثارةً للرَّهبَةِ والخوفِ في النُّفوسِ، وفيه أيضًا مبالغةٌ في الاهتمامِ بالفعلِ في ذاته، وهو إرسالُ الشّواظِ؛ لأنَّ المُرْسِلَ - وهو اللّهُ تباركت آلاؤه - معروفٌ بالضَّرورةِ، إذ لا قدرةَ لأحدٍ سوى اللّهِ على فعلِ ذلك.

معنَى (على) ودلالتُها، وبيانُ المُرادِ بالتَّثنيةِ:

ركوبُ العذابِ واستِعلاؤه على فريقٍ بعينِه من الثَّقلَين، وهم المُكذِّبون دونَ غيرهم

جاءَ حرفُ (على) في قولِه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ على أصلِ معناه، وهو الاستعلاءُ، فأفادَ استعلاءَ الشّواظِ على الثَّقلَينَ المُحاولَيْنَ للنَّفاذِ، وذلك على سبيل الفَرْض والتَّقدير، فكأنَّ الشّواظَ قد علتهما، وركبتهما، فلا مَفرَّ لهما منها، وضمير ﴿عَلَيْكُمَا﴾ راجعٌ إلى الجنِّ والإنس، فهو عامٌّ مرادٌ به الخصوصُ بالقرينة، وهي قولُه بعدَه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ الآيات، وهذا تصريح بأنَّهم مُعاقَبون بعد أن عَرَّض لهم بذلك تعريضًا بقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 6/ 505، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 111.

تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾، فسَوْقُ الجنِّ والإنس بالنّار إلى المحشر، وازدحامُهم حتّى يكون على القَدَم ألفُ قدم، وإرسالُ الشّواظِ والنُّحاس عليهم، ليس لعموم الجنِّ والإنس، بل وردَ في أناسٍ: أنَّهم يُخرَجون من قُبورهم لِقُصورهم، لا يَحْزُنهم الفَزَعُ الأكبرُ، وكلُّ واحدٍ ممَّن حضر الموقف على قَدْرِ عمله؛ فمنهم من يُظَلُّ في ظِلِّ العرشِ، ومنهم مَن يُلجِمُه العَرَقُ، ومنهم من يراه قصيرًا، ومنهم من يراه طويلًا[1].

الغرضُ من تَنكيرِ نائبِ الفاعل ﴿شُوَاظٞ﴾:

في عظمة الشّواظ وشدَّة خطره تنبيهٌ إلى مبلغِ اقتدار اللهِ تعالى

نكَّرَ البيانُ القرآنيُّ نائبَ الفاعلِ ﴿شُوَاظٞ﴾ للتَّرهيب والتَّخويف، ويُلحظُ فيه معنى التَّعظيم والتَّهويل، فالمُرادُ: أنَّها شواظٌ عظيمةُ الخطر، هائلةُ الأثرِ، تبثُّ الرُّعبَ والخوفَ في قلوبِ الثَّقلَين ساعةَ الحشرِ؛ إذا خرجوا من قبورهم، وساقهم شواظٌ إلى المحشر[2]، أو في عَرَصاتِ القيامة، وفي ذلك تنبيهٌ للواهمينَ منهم في مبلغِ اقتدارهم في الحياةِ الدُّنيا؛ ليرجعوا إلى طريقِ الحقِّ والصَّواب.

دلالةُ إيثار مفردةِ ﴿شُوَاظٞ﴾:

العذابُ بالنّارِ الخالصةِ للمُكذِّبينَ المُعانِدينَ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عمّا يُرْسَلُ على المارقينَ الفارّينَ يومَ الحشرِ، أو في عَرَصاتِ القيامةِ بالشّواظِ، واختُلِفَ في المُرادِ بالشّواظِ في قولِه تعالى: ﴿شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ﴾ على أربعة أقوال، **الأوَّلُ**: لهبُ النّار. **الثّاني**: أنَّه قطعة من النّار فيها خُضْرَةٌ. **الثّالث**: أنَّه الدُّخان، **والرّابع**: أنَّها طائفة من العذاب[3]، ورجَّحَ كثيرونَ أنَّ معنى الشّواظ هو اللهب الصّافي بلا دُخان[4]، والمعنى: يُرسَلُ عليكما يا معشر الجنِّ والإنس - إن أرَدتُما الفرارَ من عدالتي، ولَجَجْتُما في عدم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 260، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 6/ 506.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 64.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 435.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شوظ).

الإذعان لقضائي وحُكمي فيكما[1] - نارٌ صافيةٌ تُحرقُكم فلا تذرُ منكم متوهِّمًا إلّا أذهبَتْه.

معنَى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في ﴿مِّن نَّارٍ﴾:

جاءَ حرف ﴿مِّن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ﴾ للابتداءِ، أي: هذا الشّواظُ كائنٌ مبتَدأٌ من نارٍ صافيةٍ، جزاءَ جُرأتكم على اللّهِ، وتَوهُّمِكم أنَّ في مقدورِكم النَّفاذَ عن أمره ومشيئته.

الغرض من تنكير ﴿نَّارٖ﴾:

التَّفخيمُ والتَّهويلُ من شأنِ النّارِ مناسِبٌ للوعيدِ الشَّديدِ

جاءَ لفظُ ﴿نَّارٖ﴾ في قولِه: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ﴾ نكرةً، للتَّفخيم والتَّهويل[2]، حتَّى يتَّعظَ المُكذِّبونَ المعاندونَ عن تحدّي قدرتِه تعالى.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَنُحَاسٞ﴾، والغرضُ من تنكيرِه:

مضاعفةُ العذابِ للمتوهِّمينَ المعاندينَ

عطفَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿وَنُحَاسٞ﴾ على ﴿شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ﴾؛ إمعانًا في إرسالِ العذابِ على المُكذِّبينَ المعاندين؛ إذِ النُّحاسُ بضَمِّ النّونِ: الدُّخانُ الذي لا لهبَ فيه، وقيل هو الصُّفرُ نفسُه، والنِّحاسُ بالكسرِ: دُخانه، وقيل: إنَّه القَتْلُ، أو هو نَحسٌ لِأعْمالِهِمْ[3]، ثمَّ إنَّ ذِكْرَ الأمرَين، وهما إرسالُ الشّواظِ والنُّحاسِ، بعد خطاب النَّوعين، يحتمل أن يكون لاختصاصِ كلِّ واحدٍ بواحد، وحينئذٍ فالنّارُ الخفيفةُ للإنسِ؛ لأنَّها تُخالف جوهره، والنُّحاسُ الثَّقيلُ للجنِّ؛ لأنَّه يخالفُ جوهرَه أيضًا، فإنَّ الإنسَ ثقيلٌ، والنّارُ خفيفةٌ، والجنُّ خِفافٌ، والنُّحاسُ ثقيلٌ، وكذلك إن قلنا: المرادُ من النُّحاسِ الدُّخان، ويحتمل أن يكون ورودُهما على حدٍّ واحدٍ منهما، وهو الظّاهر الأصحُّ[4]، وذهبَ بعضهمُ إلى أنَّ الدُّخانَ الذي لم تلحقهم مضَرَّتُه والاختناقُ

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 831، وأبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 229.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 112.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 435.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 363.

به؛ بسبب شدَّة لَهَب الشّواظ، يُضاف إلى ذلك الشّواظ على حياله، فلا يُفلِتون من الأمرَين[1].

توجيهُ القراءات في ﴿شُوَاظٌ﴾ و﴿وَنُحَاسٌ﴾:

الـشّـواظُ والـنُّحـاس إمّا متعاقبانِ وإمّا متداخلانِ

وردَ في كلمةِ ﴿شُوَاظٌ﴾ قراءتانِ، فقرأ ابنُ كثيرٍ بكسرِ الشّينِ، وقَرَأ الباقونَ بضَمِّها، واختلفوا كذلك في ﴿وَنُحَاسٌ﴾، فقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورَوْحٌ بخَفْضِ السّينِ ﴿وَنُحَاسٍ﴾، وقَرَأ الباقونَ برَفْعِها[2]، والمعنى على قراءة الرَّفع: يُرسَلُ عليكما شواظٌ، ويُرسَلُ نحاسٌ، أي: يُرسَلُ هذا مَرَّةً وهذا مَرَّةً، ويجوز أن يُرسَلا معًا من غير أن يمتزج أحدُهما بالآخر[3]، ووُجِّهت قراءةُ الجرِّ بأحد تقديرين، **الأوَّلُ:** تَقديرها: شيءٌ مِن نُحاسٍ كقوْلِهم: تَقَلَّدْتُ سيفًا ورمحًا. **وثانيهما** - وهو الأَظْهَرُ -: أنْ يَقولَ: الشّواظُ لم يكنْ إلّا عندما يَكونُ في النّارِ أجزاءٌ هوائيَّةٌ وأرضيَّةٌ، وهو الدُّخانُ، فالشّواظُ مُرَكَّبٌ مِن نارٍ ومِن نُحاسٍ، وهو الدُّخانُ، وعلى هذا فالمُرسَلُ شَيْءٌ واحِدٌ لا شَيئانِ، غَيرَ أنَّهُ مُرَكَّبٌ، فإن قيلَ: على هذا لا فائِدَةَ لِتَخْصيصِ الشّواظِ بالإرسال إلّا بيانُ كونِ تلكَ النّارِ بعدُ غيرَ قويَّةٍ قوَّةً تُذْهِبُ عَنْهُ الدُّخانَ، نَقولُ: العَذابُ بالنّارِ الَّتي لا تُرى دونَ العذابِ بالنّارِ الَّتي تُرى؛ لِتَقَدُّمِ الخَوْفِ عَلى الوُقوعِ فيه، وامتِدادِ العَذاب، والنّارُ الصِّرْفَةُ لا تُرى، أوْ تُرى كالنّورِ، فلا يَكونُ لَها لَهيبٌ وهَيْبَةٌ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَنُحَاسٌ﴾ بمعنى الدُّخانِ:

الـتَّرهـيـبُ والـتَّخـويـفُ، بما يخفَى على الأعـينِ وبـما لا يخفى

في قوله: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ؛ إذِ استعارَ النُّحاسَ للدُّخان، مع أنَّه حقيقةٌ في الصُّفر[5]، وفيها مزيدٌ من

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 260.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 381.
(3) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 391.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 363.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 311.

التَّرهيبِ والتَّخويفِ، بما لا يخفى على الأعينِ أحيانًا، وهو الشّواظُ، وبما يُرى بالعين، ويَخْنُقُ الصُّدورَ، وهو الدُّخانُ.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾:

فقدانُ الانتصارِ مُتَرَتِّبٌ على إرسالِ الشّواظِ والنُّحاسِ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ إمّا عاطفةٌ أو سببيَّةٌ[1]، وفيها ترتيبٌ لعدمِ انتصارِهم وخسرانِهم على ما أرسلَه اللّهُ عليهم من الشّواظِ والنُّحاسِ، وهما من دلائلِ قدرتِه وإحاطةِ جبروته بالخَلقِ أجمعينَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنْفيِّ في ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾:

تجدُّدُ الخُسرانِ واستحضارُ مشهدِ الفرارِ تنبيهٌ للمعانِدين

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعةِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾؛ ليُفيدَ تجدُّدَ الخُسرانِ وعدمَ الانتصارِ مهما تكرَّرتْ محاولةُ الفرار من قَدَرِ اللّهِ، وفيه كذلك استحضارٌ لمشهدِ الفارّين، وهم يجتهدونَ في الفرارِ، فلا يبلغونَ سوى الخسارةِ الفادحةِ، بإصابةِ العذابِ لهم، وفي التَّعبير بـ(لا) النّافية نفيٌ لجميعِ أنواعِ الانتصارِ، فلا ينتصرُ أحدهما بالآخر، ولا هما بغيرهما، وإن كان الكفّار يقولون في الدُّنيا: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤﴾ [القمر: 44]، والانتصار: التَّلبُّس بالنُّصرةِ، وأمّا إذا كان الانتصار في قوله: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ بمعنى الامتناع، فهو في الحقيقة راجع إلى هذا المعنى؛ لأنَّه يكون متلبِّسًا بالنُّصرة، فهو ممتنِعٌ لذلك[2].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد ذكرِ إرسالِ الشّواظِ والنُّحاسِ يأتي التَّقرير والتَّوبيخُ

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من الإنعامِ بكونِه يرسل الشّواظَ والنُّحاسَ على المنكِرين المعانِدين من الثَّقلَينِ، ففيه ترهيبٌ وتخويفٌ بسوءِ المصيرِ، فجاءَتِ الفاءُ تفريعيَّةً؛ لتقرير هذا الأصل الجليل في أذهان المؤمنين، ولتوبيخِ الكفّارِ المُنكِرين.

---

(1) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 205، وبهجت صالح، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 11/ 334.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 363.

بيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضعِ:

التَّمييزُ بينَ المطيعِ والعاصي بالجزاءِ والانتقامِ، مِن أعظمِ الآلاءِ

اشتملت الآيةُ على تهديدٍ عنيفٍ ووعيدٍ شديدٍ للمُكذِّبينَ العاصينِ، ورغمَ ذلك فقد عقَّبَ النَّظمُ بالآية نفسِها؛ وذلك لتقرير المؤمنين ولتوبيخ الكافرين؛ لأنَّ التَّهْديدَ لُطْفٌ، والتَّمييزُ بَينَ المطيعِ والعاصي بالجَزاءِ والانتِقام مِنَ الكفّارِ، مِن عِدادِ الآلاءِ، ففي الإنذار والتَّخويف أعظمُ نعمة على العبدِ؛ لأنَّ إنذاره في دار الدُّنيا من أهوال يوم القيامة، من أعظم نِعم اللّه عليه[1].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 112، والشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص: 303.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠﴾ [الرّحمن: 37 - 40]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد التَّخويفِ والتَّهديدِ بإرسالِ العذابِ، جاء تحديدُ أماراتِ حدوثِه ليَحْذرَ الثَّقلانِ

لمّا كان إرسالُ الشّواظِ والنُّحاسِ ممّا لم تَجْرِ عادةٌ بعمومه، فقد بيَّن تعالى لهم وقتَه، وهو حينَ يحينُ أمرُه تعالى بانشقاقِ السَّماء؛ لتكون أبوابًا لنزول الملائكة وغيرهم، وحينَ تصيرُ من شدَّةِ الحرِّ كالوردة الحمراء المشرقة من شِدَّة اللهيب، ولمّا كان حفظُ السَّماء عن مثل ذلك بتأخير هذه الأماراتِ، وجعْلِها محلَّ الرّوح والحياة والرِّزق من أعظم الفواضل، فقد بيَّن سبحانه أنَّ هذه النِّعمةَ من أجلِّ نعمه، فكرَّر آيةَ الآلاء؛ لتقرير هذه النِّعمة عند المؤمنين، ولتوبيخ المنكرينَ العاصين، ولمّا كان يوم القيامة ذا ألوانٍ كثيرةٍ ومواقفَ مُهْولةٍ طويلةٍ شهيرةٍ، تكون في كلٍّ منها شؤونٌ عظيمة وأمورٌ كبيرة؛ ذكر بعض ما سبَّبَه هذا الوقتُ من تَعريف العاصي والطّائع بآياتٍ جَعلَها اللّهُ سببًا في علم يوم القيامة، منها: أنَّهُ لا يُسأل أحدٌ من الإنس أو الجنِّ عن ذنوبهم سؤالَ تعرُّفٍ واستعلام، بل سؤالَ تقريعٍ وتوبيخ؛ لأنَّه تعالى أَعْلَمُ بهم، وسيجازيهم بعلمه، ولمّا كان هذا التَّمييز من أجلِّ النِّعم؛ لئلّا يؤدّي الالتباس إلى ترويعِ بعض المطيعين؛ نكايةً بالسُّؤال عنه؛ كَرَّر التَّقريرَ والتَّوبيخ[1]، وقد يكون التَّناسبُ هاهُنا على سبيل التَّدرُّجِ، فكأنَّه تعالى ذَكر أوَّلًا ما يخاف منه الإنسانُ، ثمَّ ذكر ما يخاف منه كلُّ واحدٍ ممَّن له إدراكٌ من الجنِّ والإنسِ والمَلَك؛ إذ تخلو أماكنُ الملائكةِ بالشَّقِّ، ومساكنُ الجنِّ والإنس بالخَراب،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 174 - 176.

ويحتمل أن يقال: إنَّه تعالى لمّا قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ إشارةً إلى سكان الأرض؛ قال بعد ذلك: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ بيانًا لحال سكّان السَّماء[1]، والقولانِ يحتملهما النَّصُّ الكريمُ، فلا يبقى في ذلك اليومِ سوى المولى تباركت آلاؤه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرۡدَةٗ﴾: (ورد) أصلانِ، أحدهما: الموافاةُ إلى الشَّيء، والثّاني: لونٌ من الألوانِ، فالأوَّل: الوِردُ خلافُ الصَّدرِ، ويقال: ورَدَت الإبلُ الماءَ تَرِدُه وِردًا[2]، والثاني: كُلّ شجرةٍ نَوْرُها، وزَهرُ كلِّ نبتةٍ، والوردُ: لونٌ أحمرُ يَضْربُ إلى صُفْرَةٍ حسنةٍ في كلِّ شيء، والوردُ يتلوَّنُ، فيكونُ في الشِّتاء خلافَ لونِه في الصَّيفِ[3]، ووَرَّدَ الشَّجرُ: خرج نَوْرُهُ، والوَرْدَةُ: واحِدَةُ الوَرْدِ، وهو زَهْرٌ أَحْمَرُ من شَجَرَةٍ دَقيقَةٍ ذاتِ أَغْصانٍ شائِكَةٍ، تَظْهَرُ في فصْلِ الرَّبيعِ، وهو مَشْهورٌ[4]، وشُبِّه به لونُ الفرسُ، فقيل: فرسٌ وَرْدٌ، وقال تعالى: ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾، وصف به السَّماءَ؛ إذا احمَرَّت احمرارًا كالوَرْدِ، أمارةً للقيامة، وأراد أنَّها تتلوَّنُ من الفَزَعِ الأكبرِ، كما تتلوَّن الدِّهان المختلفةُ[5].

2) ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾: (دهن) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على لينٍ وسهولةٍ وقِلَّةٍ، من ذلك الدُّهن، والدِّهانُ: ما يُدهَن به، ومنه: الإدهانُ، من المُداهنةِ، وهي المُصانعةُ، داهنتُ الرَّجلَ؛ إذا واربتَه، وأظهرتَ له خلافَ ما تُضمِر له، كأنَّه إذا فعل ذلك؛ فهو يَدْهُنُهُ، ويُسَكِّنُ مِنْهُ[6]، والمعنى المحوريُّ: مائعٌ ذو لُزوجةٍ ما، وأثرٌ قويٌّ ينشأ في مصدره بقِلَّة أو عُسْرٍ، ويُلَيَّن به، ولحال الدُّهنِ: دُهنُ الزَّيتون ودُهنُ البانِ، وما إليهما من حيثُ التَّميُّعُ، أي: عدمُ صلابتِها، وربَّما من حيثُ اللّونُ أيضًا، ووقع التَّشبيهُ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾[7]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 364.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ورد).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 261.
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (ورد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دهن).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دهن).

وقالوا: الدِّهانُ هاهُنا هو دُرْديُّ الزَّيْتِ[1]، وهو عُكارة الزَّيت المَغليِّ[2]، والمرادُ: صارتْ حمراءَ ذائبةً كالزَّيْتِ المَغليِّ، أوْ كالجِلْدِ الأحْمَرِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إذا حـانَ يـومُ الـحـسـابِ؛ أُلـجـمـتِ الألـسـنُ، فلله تعالى الحُكم

بيَّنَ النَّظمُ الجليلُ في هذه الآياتِ حلقةً أُخرى تتعلَّقُ بأحوالِ الآخرةِ والجزاءِ، فذكر تعالى ما يطرأُ على العالَمِ من تغيُّرٍ وتبدُّلٍ واختلالٍ لنظامِ الكونِ، فإذا جاء يومُ القيامةِ؛ انصدعتِ السَّماءُ، وتبدَّدت، وصارت كوردةٍ حمراءَ، وذابتْ كبقيَّةِ زيتٍ مغليٍّ من الدُّهنِ، أو تلوَّنت كالجِلدِ الأحمرِ، أو تلوَّنت كما تتلوَّنُ الأصباغُ التي يُدَّهَنُ بها، فتكون تارةً حمراءَ، أو صفراءَ، أو زرقاءَ، أو خضراءَ، وذلك من شدَّةِ الأمرِ، وهولِ يومِ القيامةِ، وفي ذلك من الرَّهبةِ والرُّعبِ ما يَزجُرُ السّامعَ عن الشَّرِّ، وساعَتَئِذٍ يسألُهم المولى تعالى: بأيِّ نِعَمِ اللّهِ تُكَذِّبانِ أيُّها الثَّقلانِ ممّا يكونُ بعد ذلك؟ ففي هذا اليومِ المَهيبِ المُتطاوِلِ الممتدِّ لا يُسألُ أحدٌ من الإنسِ، ولا من الجنِّ عن ذنبٍ؛ لأنَّه تعالى أعلمُ بهم، وسيجازيهم بعِلمه، وفي هذا المقامِ يمتَنُّ اللّهُ على الثَّقلينِ بالتَّمييزِ بين الطّائعينَ والعاصينَ، فلا يلتبس بعضُ المطيعين بالمجرمين، وفي ذلك حَثٌّ للمؤمنين، وتقريعٌ وتوبيخٌ للعاصينَ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ﴾:

إرسالُ الشّواظِ والـنُّـحـاسِ مقدِّمةٌ لانشقاقِ السَّماءِ

جاءتِ الفاءُ في قولِ اللّهِ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ للتَّعقيب على قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾، والفاء هاهُنا تحتمل التَّعقيب الزَّمانيَّ، والتَّعقيب الذِّهنيَّ، والتَّعقيب في القول، أمّا الأوَّل؛ فلأنَّ إرسالَ الشّواظِ عليهم يكون

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (دهن).
(2) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 14/ 8886.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 802.
(4) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 216 - 218.

قبلَ انشقاق السَّماوات، ويكون ذلك الإرسال إشارةً إلى ما يكون عند سَوْق المجرمين إلى المحشر، وأمّا الثّاني؛ فوجهُهُ أن يقال: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾، فيكون ذلك سببًا لكون السَّماءِ تكون حمراءَ؛ إشارةً إلى أنَّ لهيبَها يَصِل إلى السَّماءِ، ويجعلُها كالحديدِ المذاب الأحمرِ. وأمّا الثّالث: فوجهُهُ أن يقال: لمّا قال: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾، أي: في وقت إرسال الشّواظِ عليكما، قال: فإذا انشقت السَّماءُ، وصارت كالمُهْل، وهو الرَّصاصُ الذّائب، كيف تنتصران؟ إشارةً إلى أنَّ الشّواظَ المرسلَ لَهَبٌ واحدٌ، أو فإذا انشقتِ السَّماء، وذابت، وصارت الأرضُ والجَوُّ والسَّماءُ كلُّها نارًا، فكيف تنتصران؟[1].

دلالةُ الشَّرطِ بالأداةِ (إذا):

انشقاقُ السَّماءِ من الأمور الأُخرويَّة اليقينيَّةِ

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بأداة الشَّرطِ (إذا)؛ للدَّلالةِ على تحقُّق وقوعِ فعلِ الشَّرطِ، وهو انشقاقُ السَّماءِ؛ لأنَّ العادَةَ جاريةٌ باستعمالِ (إذا) للأمرِ المقطوعِ بحصولِه، وللكثير الوقوع، وللأشياءِ المتيقَّنة، ولمّا كان انشقاقُ السَّماءِ في يومِ القيامةِ من الأمورِ اليقينيَّةِ؛ فقد جاء التَّعبيرُ بـ(إذا)؛ لإفادَةِ اليقينِ، ولتقرير الأمرِ في الأذهانِ.

الغرضُ من حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

انشقاقُ السَّماءِ أمرٌ هائلٌ لا تُطيقهُ العقولُ

ذهب أغلبُ المُعْرِبينَ إلى أنَّ جوابَ الشَّرطِ في قولِه: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ مقدَّرٌ، أي: فإذا انشقَّتِ السَّماءُ؛ كان ما كان ممّا لا تطيقه العقول، أو وجدتَ أمرًا هائلًا، أو رأيتَ ما يُذهِلُ النّاظرينَ، وهو النّاصب لـ(إذا)، ولهذا كان مفرَّعًا، ومسبَّبًا عمّا قبلَه؛ لأنَّ في إرسال الشّواظ ما هو سببٌ لحدوثِ أمرٍ هائلٍ، أو رؤيته في ذلك الوقت[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 364.

(2) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 135.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ: ﴿ٱنشَقَّتِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

في الإنذار بتشقُّق السَّماءِ ترهيبٌ لمن كانَ له قلبٌ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفعلِ الماضي، في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ حدوثِ انشقاقِ السَّماءِ يوم القيامة، فهو أمرٌ لا مِريةَ فيه، وانشقاقُ السَّماءِ في حقيقته: ذوبانُها وخرابُها، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ [الأنبياء: 104]؛ إشارةً إلى خرابها، ويحتمل أن يقال: انشقَّت بالغمام، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: 25]، مثلما ذُكِرَ هاهنا منَ الانفطارِ والخَرابِ[1].

معنى اللّامِ ودَلالتُها في السَّماءِ، والغرض من التَّعريفِ:

في رفع السَّماءِ وانشقاقِها دليلٌ على مطلقِ تصرُّفِ اللهِ تعالى

جاءت كلمةُ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ معرَّفَةً باللّام الدّالَّة على العهد، فهي السَّماء المعروفةُ للخَلْق، وهي المذكورةُ بالرَّفع في قولِه تعالى في أوَّل السّورة: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾، وفي إعادة ذِكرِها بلام التَّعريف إشارةٌ إلى أنَّه تعالى كما امتنَّ برفعها في أوَّلِ السّورة، قادرٌ على تشقُّقها وانفطارها؛ لتكونَ علامةً على القيامة، وهو تعالى في الحالَين القادرُ على رفعها، وهو القادرُ على شقِّها، وفي ذلك دلالةٌ لكلِّ ذي عقلٍ على أنَّ القادرَ على رفعها، هو وحدَه القادرُ على إذابتها وإفنائها.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَكَانَتۡ﴾:

ثبوتُ الانشقاقِ وتوكيدُ تحوُّلِ السَّماءِ

جاءتِ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ عاطفةً[2]، وعبَّر بالفعلِ (كانَتْ) دون (هي)؛ للدَّلالةِ على توكيدِ التَّحوُّلِ والتَّغيُّرِ يومَ القيامَةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّشبيهِ في قولِه: ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾:

في كثافةِ التَّشبيهاتِ وتعدُّدِ جوانبِها ترهيبٌ شديدٌ

النَّظمُ الكريم وصَفَ السَّماءَ عند انشقاقها بوصفين، أحدهما: حُمْرةُ لونِها، والثّاني: أنَّها تذوبُ، وتصيرُ مائعةً كالدُّهن، ففي التَّشبيه عنايةٌ باللَّون والجِرْم، وقد أوضح اللّه تعالى هذا المعنى في غيرِ ما

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 365.

(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 205.

موضع، كما في قوله تعالى في المعارج: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾ [المعارج: 6 - 8]، والمُهلُ شيءٌ ذائبٌ على كِلا القولين، سواء أكانَ دُرْديَّ الزَّيتِ، وهو عَكَرُهُ، أو كانَ الذّائب من حديدٍ أو نُحاسٍ أو نحوهما، وقد يكون المُراد بالتَّشبيه بالوردَةِ أنَّ السَّماءَ تمورُ، وتضطربُ، فتذهب، وتجيء، على معنى الورودِ، وهو الصُّدور عن الشَّيءِ، وله شاهدٌ في كتاب اللّه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾ [الطّور: 9]، كما أنَّ هناك من أشارَ إلى أنَّ المُرادَ تشبيهُ السَّماءِ بالوردةِ في كثرة عروقها[1]، وقيل: شَبَّه انشقاقَ السَّماءِ بانشقاق الوَردة؛ إذِ الوردةُ تنشقُّ من أعلاها حين ينفتِحُ بُرْعومُها[2]، ومقصودُ التَّشبيهِ التَّهويلُ من القيامةِ، والدَّلالةُ على عِظَم شأنِ القدرةِ الإلَهيَّة، وهو تشبيهٌ "قد أخْرجَ ما لم تَجْرِ به عادةٌ إلى ما قد جرتْ به، وقد اجتمعا في الحُمْرة، وفي لين الجواهرِ السَّيّالةِ، وفي ذلك دَلالةٌ على عظيم الشَّأن ونفوذِ السُّلطان؛ لتَنصرفَ الهِممُ بالأمل إلى ما هناك[3].

بلاغةُ الاعتراضِ بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾:

تكرارُ التَّقريرِ والتَّوبيخِ بين رُكنَيِ الشَّرطِ؛ لاستدعاءِ التَّنبيهِ

ذهبَ بعضُ المُعْرِبينَ إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾، هو جوابُ الشَّرطِ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾، وعليه فيكونُ قولُه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ جملةً معترضةً بين جملةِ الشَّرطِ وجملةِ الجوابِ، وقد مثَّل بعضُ النُّحاةِ بهذه الآية على الاعتراض بين الشَّرط وجوابه، وعيَّن كونَها معترضةً لا حاليَّةً، وهذه الجملة تكرير للتَّقرير والتَّوبيخ[4].

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 802، وانظر الأقوال الواردة في معنى التّشبيه في: الماوردي، النّكت والعيون: 5/ 435 - 436، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 176، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 231، والزّمخشري، الكشّاف: 4/ 449، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 266، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 168، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 261.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 25/ 30.

(3) الرّمانيّ، النّكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص: 83.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 168، والشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 135، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 113.

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

ذُكرَ انشقاقُ السَّماءِ وجاءَ التَّقريرُ للمؤمنين والتَّوبيخُ للمُكذِّبينَ

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من الإنعام، بكونِهِ تعالى جعل انشقاقَ السَّماءِ علامةً على يوم القيامةِ، فكانَ في ذكر انشقاقِها من التَّرهيبِ والتَّخويفِ ما يَصدُّ عن سلوكِ سبيل المُكَذِّبينَ؛ أملًا في النَّجاة في هذا اليومِ الشَّديدِ.

بيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضعِ:

التَّحذيرُ من انشقاقِ السَّماءِ وما يتبعُه من أهوالِ القيامةِ

اشتملت الآيةُ على تهديدٍ عنيفٍ ووعيدٍ بانشقاقِ السَّماءِ يومَ القيامةِ، ورغم ذلك فقد عقَّبَ النَّظمُ بالآية نفسها؛ وذلك لتقرير المؤمنين ولتوبيخ الكافرين؛ لأنَّ من أنذركَ، وخوَّفَكَ مِن عاقبةِ ما تصيرُ إليه، فقد أنعمَ عليكَ، ألا تراه تعالى قد قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، وقد علمنا أنَّه بُعث بشيرًا لمن آمنَ، ونذيرًا لمن كفرَ، فجعلَ الإنذارَ رحمةً، كما جعلَ التَّبشيرَ، ففي الآيةِ إنعامٌ على الخلقِ، حيث أَعۡلَمَهُم بما كانوا يجهلونَه، وحذَّرَهم بما يصيرون إليه، وقد جعل اللّهُ تعالى التَّحذيرَ رأفةً بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: 30][(1)].

انشقاقُ السَّماءِ دليلٌ على نعمةِ طلاقةِ القدرةِ وتمامِ العدلِ

وكذلك فإنَّ مجرَّدَ انشقاقِ السَّماء على أيَّة حال، ولأيَّة غايةٍ، هو وحدَه دليلٌ على قدرة اللّه، وعلى تمكُّن سلطانِه في هذا الوجود، وهو نعمةٌ من أجَلِّ النِّعمِ على المخلوقات؛ إذ كانت قيّوميَّةُ اللّهِ على الوجود ضمانةً وثيقةً للمخلوقات جميعِها بأنَّها في يدِ صانعها، ومُدبِّرِ أمرِها، وأنَّها بهذا لن يُجارَ عليها، ولن تؤخذَ بغيرِ الحكمةِ والعدلِ، ولن تتلقّى غيرَ الفضل والإحسان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنَّ انشقاقَ السَّماء إيذانٌ بالبعثِ، والحسابِ والجزاءِ، وهذا أيضًا

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 412.

نعمةٌ من النِّعمِ الجليلةِ؛ إذ إنَّها أعادت المخلوقات من إنسٍ وجنٍّ إلى الحياة مرَّةً أخرى، بعد أن ردَّها الموتُ إلى حالٍ من العدم أو ما يُشبه العدم؛ إذِ الوجودُ هو في ذاته خيرٌ من العدم، على أيَّةِ صورةٍ يكون عليها الموجودُ، وفي أيِّ وضعٍ يأخذه في سلَّم الموجودات(1).

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾:

الفاءُ إمّا أنْ تكونَ عاطفةً أو جوابًا للشرطِ

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ﴾ عاطفةً، وذهبَ بعضهم إلى أنَّ الجملةَ جوابُ شرطِ (إذا)، وأنَّها اقترنَتْ بالفاء؛ لأنَّها صُدِّرَتْ باسم زَمانٍ، وهو (يَوْمَئِذٍ)؛ وذلك لا يصلح لدخولِ (إذا) عليه(2)، وفيها في الحالتين ترتيبٌ لأحداثِ يوم القيامةِ وأهوالِه وما ينتظرُ العاصينَ المُكذِّبينَ.

الغرضُ من تقديمِ الظَّرفِ المضافِ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾:

شدَّةُ الاهتمام بالتَّمايُز، والمبالغةُ في هولِ يومِ القيامةِ

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الظَّرفَ المضافَ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾؛ للاهتمام بما يقعُ في هذا اليوم من بعثِ الخلائق للحساب، ولما يقع فيه من التَّمايزِ بين المؤمنينَ والعاصينَ، وللمبالغةِ في هولِ هذا اليوم والتَّخويفِ منه.

الغرضُ من الحذفِ المُعوَّضِ عنه بالتَّنوينِ في ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾:

التَّهويل من شدَّةِ يوم القيامة

التَّنوينُ في قوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ عِوَضٌ عن الجملةِ السّابقةِ، أي: فيومَ إذِ انشقتِ السَّماءُ(3)، لا يُسألُ عن ذنبِه، هل هو مذنب أو لا؟ وفي هذا الحذف دلالةٌ على شدَّةِ هولِ يوم القيامة، كما يُشير إلى ذهول الرّائي لهم؛ وذلك للتَّمايز بين هيئات المتَّقينَ وهيئاتِ المجرمينَ، كما سيأتي في قولِه تعالى: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المبنيِّ للمفعولِ المنْفيِّ:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ المضارَعةِ، في قولِ اللّهِ تعالى:

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 686.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 261 - 262.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 175.

نفيُ تجدُّدِ سؤالِ الاستعلامِ لتوكيدِ عدمِ السؤالِ

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾؛ لبيانِ تجدُّدِ النَّفيِ واستمرارِه، لتوكيدِ النَّفي، فإنَّهم لا يُسألونَ سؤالَ استعلامٍ عن ذنوبهم؛ لأنَّ اللّهَ تعالى أعلمُ بما اقترفوه، وبما دوِّن في صحائفهم، والعِلَّةُ في عدمِ السُّؤالِ: أنَّ كلَّ أحدٍ من المجرمين والمتَّقين يخرجون من قبورهم متميّزين عن الطّائفة الأُخرى بسيماهم، وهو سواد وجوه المجرمين وزُرقة عيونهم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾ [عبس: 38 - 42]، فلا يحتاج حينَئذٍ في تمييز المذنب من غيره والاطِّلاع على حاله لِمَن أراد ذلك، إلى أن يُسألَ عن ذَنبه، ويُعلَمَ حالُه من جهته[1]، فالمرادُ نفيُ السُّؤال الذي يريد به السّائلُ معرفةَ حصول الأمر المُتردَّد فيه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ [القصص: 78]، وهو لا ينافي أن يُسأل سؤالَ تَوبيخ، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢﴾ [الحجر: 92]، فإنَّ ذلك للتَّقرير والتَّوبيخ، فإنَّ يومَ القيامة متَّسعُ الزَّمان، ففيه مَواطِنُ لا يُسأل فيها أهلُ الذُّنوب عن ذنوبهم، وفيه مواطنُ يُسألون فيها سؤالَ تقريرٍ وتوبيخٍ[2]، وبَنَى الفعلَ للمفعول تعظيمًا للأمر، بالإشارةِ إلى أنَّ شأنَ المُعتَرِفِ بالذَّنب لا يكون خاصًّا بعهد دون عهدٍ، بل يعرفُه كلُّ من أراد عِلْمَه[3].

السُّؤالُ عن الذُّنوبِ هو محطُّ العنايةِ

الغرضُ من تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

قدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾: اهتمامًا بالمسؤول عنهُ، وهو الذُّنوبُ؛ إذ مَحَطُّ العنايةِ في الآيةِ يدورُ حولَ أمرينِ، **الأوَّلُ:** هو التَّوقيتُ، وهو يومُ القيامةِ. **والآخَرُ:** هو ما نُصبَتِ

(1) محيي الدّين زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 67.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 262.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 175.

القيامةُ من أجلِه، وهو محاسبةُ العبادِ على ما قدَّموهُ في حياتهم الدُّنيا، ولمّا كان فضلُ اللّهِ وكرمُه واسعًا في المكافأة على الأعمالِ الصّالحةِ، فقد خصَّتِ الآيةُ الذَّنبَ بالذِّكرِ للتَّرهيبِ والتخويفِ.

الغرض من الإضافةِ في ﴿ذَنۢبِهِۦٓ﴾:

الذنوبُ مختصَّةٌ بأصحابها، فلا مجال للإنكارِ أو المكابرةِ

أضافَ النَّظمُ الجليلُ الذنبَ إلى ضمير الغائبِ العائدِ على كلِّ إنسيٍّ وجنيٍّ؛ للدَّلالةِ على اختصاصِ كلِّ واحدٍ منهم بما اقترفَ، فلا مجالَ للإنكارِ ولا للمكابرةِ، فهو كما قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: 6].

دلالةُ إفرادِ الضَّميرِ في ﴿ذَنۢبِهِۦٓ﴾:

من معاني إفرادِ الضَّميرِ أنَّ اللهَ وحده هو المسؤول

أفرد النَّظمُ لفظَ ﴿ذَنۢبِهِۦٓ﴾ باعتبار اللَّفظ، وقيل: لأنَّ المرادَ فردٌ من الإنس، كأنَّه قيل: لا يُسأل عن ذنبه إنسيٌّ ولا جِنّيٌّ[1]، ويحتمل أنْ يكونَ توحيدُ الضَّميرِ لكونه في معنى (البعض)، فهذا إضمار عن غير مذكور، والذَّنب يدلُّ على المُذنبِ، فلا يُسأل عن ذنب المُذنب إنسٌ ولا جانٌّ، أي: لا يُؤخَذ أحدٌ بذنبِ غيرِه، وقيل: لا يُسأل أحدٌ عن ذنب أحدٍ، والظّاهر أنَّ التَّقديرَ: (لا يُسألُ إنسٌ ولا جانٌّ عن ذنبِ أحد منهما)؛ لأنَّ المرادَ البعضُ المُجرمُ منهم خاصَّةً، ويدلُّ عليه الاستئناف بقوله: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾[2].

وكذلك يمكنُ أن يكونَ التقديرُ: لا يُسألُ إنسٌ ذنبَهُ ولا جانٌّ، ويكونُ الضَّميرُ عائدًا إلى المضمر لفظًا لا معنًى، كما تقول: (قتَلوا أنفسَهم)، فالضَّمير في أنفسهم عائدٌ إلى ما في قولك: (قتلوا) لفظًا لا معنًى؛ لأنَّ ما في (قتلوا) ضميرَ الفاعل، وفي (أنفسهم) ضمير المفعول؛ إذِ الواحد لا يقتل نفسه، وإنّما المرادُ: أنَّ كلَّ واحدٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 113.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 168 - 169.

قَتَلَ واحدًا غيرَه، فكذلك كلُّ إنسٍ لا يُسأل عن ذنبه، أي: ذنبِ إنسٍ غيره، ومعنى الكلام: لا يقال لأحد: اُعْفُ عن فلانٍ؛ لبيان أن لا مسؤول في ذلك الوقت من الإنس والجنِّ، وإنَّما كلُّهم سائلون اللّهَ، واللّهُ تعالى حينَئِذٍ هو المسؤول(1).

الغَرضُ من تنكيرِ نائبِ الفاعلِ ﴿إِنسٌ﴾:

النَّكرةُ لإفادةِ عمومِ نفي سؤالِ الاستعلامِ لإحاطةِ علمِ اللهِ

جاء لفظُ ﴿إِنسٌ﴾ نكرةً لإفادةِ العموم والشُّمولِ، فلا يُسألُ أيُّ إنْسيٍّ كانَ عن ذنبِهِ سؤالَ استعلامٍ، بل كلُّ ما فعلوه مسطورٌ بأيدي الحفظَةِ، معلومٌ لدى اللّهِ العليمِ الخبيرِ، فلا مجال للهرب من المساءلةِ أو التَّنصُّلِ من الذُّنوبِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى شمولِ علمه تعالى لكلِّ الخَلقِ، فلا يَعْزُبُ عن علمه مثقالُ ذرَّةٍ في السَّماوات ولا في الأرضِ.

دلالةُ العَطفِ في ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ مع بيانِ الغرضِ من التَّنكيرِ:

تأكيدُ عمومِ انتفاءِ السُّؤالِ عنِ الخَلقِ أجمعينَ إنسِهم وجنِّهم

عطفَ النَّظمُ الجليلُ على كلمة ﴿إِنسٌ﴾ بقولِه: ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾؛ لتوكيدِ عموم انتفاءِ السُّؤالِ عن الجنِّ أيضًا، وذلك لأنَّ مبنى السّورةِ على توجيه الخطابِ للثَّقلين: الإنسِ والجنِّ، وكذلك حتَّى لا يقع في وهم أحدٍ من النّاسِ أنَّ في مقدورِ الجنِّ بما مُنِحوا من القدرةِ الهروبَ من ذنوبهم، وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ الجنَّ يُبعثون، ويُحاسبون، كما يُبعَث النّاسُ، ويُحاسبون(2).

معنَى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد انتفاء سؤالِ الاستعلامِ، جاءَ التَّقريرُ، والتَّوبيخُ

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من الإنعام، بكونِهِ تعالى هو المحيطُ بما عملهُ الإنسُ والجنُّ، وفيه من التَّرهيبِ والتَّخويفِ ما يَصدُّ عن سلوكِ سبيلِ المُكَذِّبينَ؛ أملًا في النَّجاة في هذا اليومِ الشَّديدِ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 266.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 687.

الإنذارُ الشَّديدُ في الدُّنيا بما يقعُ في الآخرةِ مِنَّةٌ كبرى

بيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضعِ:

اشتملت الآيةُ على تهديدٍ عنيفٍ ووعيدٍ بانتفاءِ سؤالِ الاستعلام؛ لإحاطةِ اللّهِ بأعمال الخَلقِ أجمعينَ، ورغم ذلك فقد عقَّبَ النَّظمُ بالآية نفسها، وذلك لتقرير المؤمنين ولتوبيخ الكافرين؛ لأنَّ من أنذركَ، وخوَّفَكَ من عاقبةِ ما تصيرُ إليه، فقد أنعمَ عليكَ، ألا تراه تعالى قد قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، وقد علِمنا أنَّه بُعِث بشيرًا لمن آمنَ، ونذيرًا لمن كفرَ، فجعلَ الإنذارَ رحمةً، كما جعلَ التَّبشيرَ، ففي الآيةِ إنعامٌ على الخلقِ؛ إذ أَعْلَمَهُم بما كانوا يجهلونَه، وحذَّرَهم بما يصيرون إليه، وقد جعل اللّهُ تعالى التَّحذيرَ رأفةً بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: 30][1]، فكان في نظم الآية تذكير بما أنعم اللّه على عباده المؤمنين في هذا اليوم، ومن هذا التَّخويف والإنذار المسبق؛ ليرتدعَ النّاسُ عن الذُّنوب، ويَثوبوا إلى رُشْدِهم[2].

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 412.
(2) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 219.

﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾ [الرحمن: 41 - 45]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ السِّرِّ في عدمِ السُّؤالِ، وتوضيحُ عاقبةِ المجرمينَ وسوءِ مآلهم

لمّا كان الكلامُ في الآيةِ السّابقةِ عامًّا في نفي سؤالِ الاستعلامِ أو التَّشفُّعِ في العفو؛ جاءت هذه الآيةُ؛ لتوضِّحَ أنَّ هذا النَّفيَ وإن كانَ عامًّا، فإنَّهُ خاصٌّ بتعرُّفِ المجرمِ من غيره، فجاءتِ الآيةُ تعليلًا لعدم السُّؤال؛ لأنَّ المجرمينَ يُعرفونَ بالعلاماتِ التي صَوَّر اللهُ ذنوبَهم فيها، فجعلها ظاهرةً بعد أن كانت باطنةً، ثمَّ أوضحت بدايةَ عذابهم، وهي الأخذ بمقدِّمات الرُّؤوس وبأقدامهم فيُلقَون في النّار.

ولمّا كان ذلك نعمةً لا يُقام بشُكرها؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ ينتفي من الإجرام، ويَودُّ للمجرمينَ عظيمَ الانتقامِ، فقد كرَّرَ التَّقرير للمؤمنين والتَّوبيخَ للكافرينَ.

ولمّا كان أخذهم على هذا الوجه مُؤذِنًا بأنّه يصير إلى خزي عظيم، صرَّح به، بانيًا على ما هدى إليه السّياقُ، مِن نحو: يُؤْخَذُ أخذًا مَقولًا فيه عند وصولهم إلى محلِّ النَّكالِ على الحال التي ذُكرت من الأخذ بنواصيهم وأقدامهم: هذه جهنَّمُ التي يُكَذِّبُ بها العريقونَ في الإجرام، ثمَّ استأنف بيانَ ما يُفعَل بهم فيها، فذكر طوافَهم بين دركات النّار التي تتجهَّمهم، وبين الماء الحارِّ الذي بلغ الغايةَ في غليانه.

ولمّا كان عذابُ المجرم القاطعُ لما من شأنه أن يكون متَّصلًا، من أكبر النِّعم وأسَرِّها لكلِّ أحدٍ، حتّى لِمَن سواه من المجرمين، فقد كرَّر

التَّقريرَ والتَّوبيخَ لُطفًا بالمُهَدَّدين؛ ليرتدِعوا، ويَنْزَجِروا عمّا يكونُ سببَ إهلاكِهم هم ومن والاهم، وقد كُرِّرت هذه الآيةُ عقبَ ذِكر النّار وأهوالِها سبعَ مرّات؛ تنبيهًا على استدفاع أبوابِها السَّبعة(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: (جرم) أصلٌ واحدٌ ترجعُ إليه الفروعُ، فالجَرْمُ القَطْعُ، يُقال لصَرّام النَّخلِ: الجَرّامُ، وجَرَمتُ صوفَ الشّاةِ، والجُرمُ والجَريمةُ: الذَّنبُ؛ لأنَّه كسبٌ، والكسبُ اقتطاعٌ، ولا جَرَمَ من قولِهم: جَرَمْتُ، أي: كَسَبْتُ، والجارِمُ: الكاسِبُ(2)، وأجْرَمَ: صار ذا جُرمٍ، واستُعير ذلك لكلِّ اكتسابٍ مَكروهٍ، ولا يكاد يقال في عامَّة كلامهم للكيِّس المحمودِ(3)، ومن معنى الجِرم أنَّه كتلةٌ كبيرةٌ ثقيلةٌ، ولذا فالجُرم لا يُطْلَق إلّا على الذَّنب الغليظ، لا على مطلقِ الذَّنبِ، فالمُجْرِم: من حمل جُرمًا كالآثامِ والأوزارِ، على المعنى الوارد في قوله: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13]، وقد فُسِّر لفظُ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠﴾ [الأعراف: 40]، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠﴾ [الأعراف: 40] بالكافرين، ولا وِزْرَ أثقلُ من الكفر(4)، والمراد بالمجرمين، أي: القاطِعينَ لِما أمَرَ اللّه بِه أن يوصَلَ؛ لتكذيبِهِمُ الرُّسلَ الذينَ همُ الهداةُ إلى ما لا تستَقِلُّ بِهِ العقولُ، فكذّبوا بالآخرةِ التي يُنتِجُ التَّصديقُ بها كلَّ هُدًى، ويورِثُ التَّكذيبُ بها كلَّ عمًى(5).

2) ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾: (وسم) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على أثرٍ ومَعلمٍ، ووسمتُ الشَّيءَ وسْمًا: أثَّرتُ فيه بسِمةٍ، والوَسْميُّ: أوَّلُ المطرِ؛ لأنَّه يَسِمُ الأرضَ بالنَّباتِ، وفلانٌ موسومٌ بالخير(6)، وفلانةٌ ذاتُ ميسَم؛ إذا كان عليها أثرُ الجمالِ، والوسامةُ: الجمالُ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: 75]، أي: النّاظرينَ في السِّمةِ الدّالَّةِ(7)، والمعنى

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 176 - 179.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).

(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جرم).

(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جرم).

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 207.

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسم).

(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وسم).

المِحوريُّ: التَّأثيرُ في ظاهرِ الشَّيءِ بأثرٍ غائرٍ لازم، يَدُلُّ على شيءٍ[1]، والوَسْمُ: التَّأثير، والسِّمَةُ: الأثرُ، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: 29]، وقال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: 273][2]، والمرادُ: ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ هاهُنا، أي: بعَلامَتِهِمُ المُمَيِّزَةِ لَهم، وهي سَوادُ وُجوهِهِم، وزُرْقَةُ عُيونِهِم، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ﴾ [الزّمر: 60][3].

3) ﴿بِٱلنَّوَٰصِى﴾: (نصا) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَخَيُّرٍ وخطرٍ في الشَّيءِ وعُلوٍّ، ومنهُ: النَّصيَّةُ من القومِ ومن كلِّ شيءٍ: الخيارُ، ويقال: انتصيتُ الشَّيءَ: اخترتُه، ومنه النّاصيةُ: سُمّيتْ لارتفاعِ مَنْبِتِها، والنّاصيةُ: قُصاصُ الشَّعرِ[4]، والمعنى المِحوريُّ: أوَّلُ الشَّيءِ، أو أعلاه الممتدُّ الذي تَتبَعُه بقيَّتُه: كشَعرِ النّاصيةِ، كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود: 56]، وهذا كنايةٌ عن غايةِ التَّمكُّن من صاحب النّاصيةِ[5]، وكقولِه: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العلق: 15 - 16]، وهذا في الدُّنيا تهديدٌ أو إنذارٌ[6]، وأمّا في الآخرة فقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾، أي: يُؤخَذ بناصيته وقَدَمَيْه، فيوطَأ، ويُجمَع كالحطب، ويُلقى كذلك في النّار[7].

4) ﴿يَطُوفُونَ﴾: (طوف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يُحَفَّ بهِ، ثمّ يُحْمَلَ عليه، يقال: طافَ بهِ وبالبيتِ يطوفُ طَوْفًا وطَوافًا[8]، وطاف بالقوم وعليهم طَوْفًا وطوفانًا ومَطافًا، وأطافَ: استدارَ، وجاءَ من نَواحيه، وأطافَ فلانٌ بالأمرِ: إذا أحاطَ بهِ[9]، والمعنى المِحوريُّ: غِشْيان الشَّيءِ، بغِلَظٍ أو قوَّةٍ، غِشْيانًا يَعُمُّ حدودَه، أي: جوانبَه، أو أعلاه، كالطّوفان يَغْشَى وجه الأرض، ويُغطّي كلَّ ما عليها، كقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: 133]، والطَّوافُ: غِشْيانٌ لجوانبِ ما يُطاف به،

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وسم).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (وسم).
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 806.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصا).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصو).
(6) الرّاغب، مفردات القرآن: (نصا).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 66.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (طوف).

كقوله: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحجّ: 29][1]، ومعنى ﴿يَطُوفُونَ﴾ هاهُنا: يمشونَ بين مكان النّارِ وبين الحَميم، فإذا أصابَهم حَرُّ النّارِ؛ طَلَبوا التَّبَرُّدَ، فلاحَ لهم الماءُ، فذهبوا إليهِ، فأصابَهم حَرُّهُ، فانصَرَفوا إلى النّارِ دَواليكَ، وهذا كَقَولِهِ: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ [الكهف: 29][2].

5) ﴿حَمِيمٍ﴾: (حمم) فيه تفاوتٌ؛ لأنَّه متشَعِّبُ الأبوابِ جدًّا، فأحدُ أصولِه: اسوِدادٌ، والآخرُ: الحرارةُ، والثّالثُ: الدُّنوُّ والحُضورُ، والرّابعُ: جنسٌ من الصّوتِ، والخامسُ: القصدُ، فأمّا السّوادُ: فالحَمَمُ الفَحْمُ، ومنه اليَحمومُ، وهو الدُّخانُ، وأمّا الحرارةُ: فالحميمُ الماءُ الحارُّ، والاستحمامُ: الاغتسالُ به، ومنه الحميمُ، وهو العَرَق، وأمّا الدُّنوُّ والحضورُ؛ فيقولون: أَحَمَّتِ الحاجةُ: حضرت، وأَحَمَّ الأمرُ: دنا، وأمّا القصدُ؛ فقولهم حممتُ حَمَّه، أي: قصدتُ قصدَه[3]، وحُمَّ هَذا الأمرُ؛ إذا قُضي قضاؤهُ، قالَ: والحِمامُ: قضاءُ المَوت، والحَميمُ كذلك: الماء البارِدُ، فهو من الأضداد، يكون الماءَ الحارَّ، ويكون البارِد[4]، والمعنى المِحوريُّ: حرارةٌ أو حِدَّةٌ تسري في أثناءِ الشَّيءِ البارِدِ حتّى تَعُمَّه[5]، والحميم هاهُنا: الماءُ المَغْليُّ الشَّديدُ الحَرارَةِ[6].

6) ﴿ءَانٍ﴾: (أنى) له أصول أربعة: البُطءُ وما أشبَهَه من الحِلم وغيره، وساعةٌ من الزَّمان، وإدراكُ الشَّيءِ، وظَرفٌ من الظُّروفِ، أمّا الأولُّ: فالأناةُ الحِلْمُ، ويقال: للتَّمكُّث في الأمور: التَّأنّي[7]، وتقول للرَّجل: إنَّه لذو أناةٍ، أي: لا يعجل في الأمور، وهو آنٍ متأنٍّ[8]، وأمّا الزَّمانُ: فالإنَى والأنى، ساعة من ساعات اللَّيل، والجمع آناءٌ، وكلُّ إنًى ساعةٌ، وأمّا إدراك الشَّيء فالإنَى، تقول: انتظرنا إنَى اللَّحم، أيْ: إدراكَهُ، قال اللّه تعالى: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحديد: 16]، أي: أَلَمْ يَحِنْ، واستأنيتُ الطَّعامَ، أي: انتظرتُ إدراكَه، و﴿حَمِيمٍ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (طوف، طيف).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 264.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والخليل بن أحمد، كتاب العين: (حمم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمم).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حمم).
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 264.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنى).
(8) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (أنى).

ءَانٍ﴾: قد انتهى حَرُّه، وأمّا الظَّرْفُ؛ فالإناء، وجمعه الآنية، وجمع الجمع: الأواني[1]، والمعنى المحوريُّ: تهيُّؤُ الشَّيءِ وصُلوحُ حالِه لما يُراد به، ومنه الأواني التي تُهَيِّئُ الطَّعامَ للتَّناول، ومن الظَّرف المكانيِّ استُعْمِل في الزَّمانيِّ، أي: مُدَّةُ البقاء إلى أوانِ الاستعمالِ، أي: حين صُلوحه لذلك، ثمَّ أُطلِقَ في بلوغ ما يوضَع على النّار غايةَ ما يكون مِن تَأثُّره بها، ومنه أنَى الماءُ الذي يُسَخَّن، أي: سَخُنَ، وبلَغ في الحرارة، وأنَى الحميمُ: انتهى حَرُّه، أي: بلغ أقصى المرادِ في الحرارةِ، وهو المعنى المرادُ في قولِه: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[2].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

سوءُ مصيرِ المجرمينَ وشدَّةُ هوانِهم وهولُ عذابِهم، جزاءٌ لاستكبارهم وعُتوِّهم

بيَّنَ النَّظمُ الجليلُ في هذه الآياتِ سوءَ مصيرِ المجرمينَ المُكذِّبينَ من الثَّقلَين، وأوَّلُ علاماتِ سوءِ المصيرِ، أنَّهم يصبحون بعد خروجهم من القبور معروفينَ بعلاماتٍ تخصُّهم، فلا مجال لهم للهرب، ولا الإنكارِ، فتتولّى زبانيَةُ جهنَّمَ أمرَهم، فتأخذُ بنواصيهم وأقدامهم في الوقت نفسه، فلا تَدَعُ لهم مَهْرَبًا، أخذًا عزيزًا متمكِّنًا، فلا يتحرَّك منهم أحدٌ، فهو في هذا الوضع أشبه بحَجَر، أو حصاةٍ في اليد، فيُلقى به في قَعْر جهنَّم، وعلى الرَّغم من شدَّةِ هذا المصير، فإنَّ فيه إقامةً لموازين العدل بين المخلوقات، وأخذًا للمُسيء بإساءته؛ لذا كان من النِّعَم التي تستوجب الحمدَ والشُّكر، ثمَّ زادَ البيانُ القرآنيُّ في عذاب هؤلاء المجرمينَ، فأشارَ إلى جهنَّمَ؛ استحضارًا لها بين يدي المُكذِّبين بها؛ إذ يشهدون أنفسَهم، وهم يطوفون بين شِدَّةِ حرِّها ومائِها المَغليِّ الذي تناهت حرارتُه وغليانُه، فكانت حركتُهم فيها على بحارٍ من الحميم، وهو القيح والصَّديد الذي يسيل منهم، كما يسيل الماءُ من القُدور أثناءَ غليانِها، ثمَّ بيَّنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنى).

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أنو، أني).

النَّظمُ الجليلُ أنَّ هذا العذابَ الشَّديدَ يحملُ في طيّاته نعمةً عُظمى لأهل الدُّنيا أجمعين؛ إذ من شأنه أن يبعث في النُّفوس الخشيةَ من اللّه، والخوفَ من الوقوع في هذا العذاب، فيستعدَّ أصحابُ العقول للقاء هذا اليوم، بالعمل الصّالحِ الذي يُنَجّيهم من الوقوعِ فى هذا البلاءِ، على خلافِ ما لو طلعَ هذا العذابُ على النّاس من غير أن يُنْذَروا به[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

انتفاءُ سؤالِ المجرمينَ لظهورِ أماراتِ سوءِ مصيرهم

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ استئنافًا بَيانيًّا جاريًا مَجْرى التَّعْليلِ؛ لانتِفاءِ السُّؤالِ في قوله: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾[2]، أي: يُستغْنَى عن سؤالهم بظهورِ عَلاماتِهم للملائكةِ ولأهل المحشرِ، ويَعرفونهم بسيماهم، فيُؤخذونَ أخذَ عقابٍ، ويساقونَ إلى الجزاءِ[3].

دلالة التَّعبير بالفعلِ المُضارعِ المَبْنيِّ للمفعولِ ﴿يُعۡرَفُ﴾:

تجدُّدُ معرفةِ الملائكةِ للمجرمينَ مهما حاولوا الهَرَبَ والإنكارَ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ المضارعةِ، في قولِ اللّه تعالى: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾؛ لبيانِ تجدُّدِ معرفَةِ ملائكة العذابِ للمُجرمينَ بمُجرَّدِ خروجهم من قُبورهم، وكذلك ففي التَّعبيرِ بالمضارَعَةِ إشارةٌ لاستحضارِ حالِ المفاجأةِ، فالمقصودُ تصويرُ حالهم، وقد عرفتهم الملائكةُ، فلا يبقى لهم مجالٌ للهربِ أو الإنكارِ، وهو امتدادٌ للتَّحدّي في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾، وعبَّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ لشِدَّةِ وضوحِ الأماراتِ والعلاماتِ، فلا تحتاجُ

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 688 - 689.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 114.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 262.

إلى كبيرِ جهدٍ في معرفتها، بل كلُّ مَن يشاهدهم يعرفُ على الفورِ أنَّهم أصحابُ الجحيم، فالمرادُ: يعرفهم النّاسُ والملائكةُ الذين يحتاجونَ في معرفتهم إلى علامةٍ، أمّا كَتَبةُ الأعمالِ والملائكةُ الغِلاظُ الشِّدادُ، فيعرفونهم كما يعرفون أنفسَهم، من غير احتياجٍ إلى علامة، والمعنى: يكونون معروفين عندَ كُلِّ أحدٍ(1).

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بنائبِ الفاعلِ بلفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ دون غيره:

التَّعبيرُ بالإجرامِ أنسبُ لكبائرِ الذُّنوبِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ عمَّن تأخذهم ملائكةُ العذابِ من الكافرينَ من الثَّقلَينِ بلفظِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ دون غيره من الألفاظِ؛ وذلك لأنَّ إنكارَ كلِّ ما سبقَ في السّورةِ الكريمةِ من الآلاءِ الظّاهرةِ والحُجَجِ البيِّنَةِ، ذنبٌ كبيرٌ ثقيلٌ، فكانَ من الأنسب التَّعبيرُ بمادَّةِ الإجرام؛ لأنَّ الجُرم لا يُطلَق إلّا على الذَّنب الغليظ، لا على مطلق الذَّنب(2)، والمرادُ بالمجرمين: العَريقونَ في هَذا الوَصْفِ(3).

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُظْهَرِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ دونَ المُضمَر:

تحديدُ المقصودينَ بالوعيدِ للتَّنبيه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِه: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ بلفظِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، دونَ التَّعبيرِ بالمُضمَرِ (يُعرفونَ)؛ إشارةً إلى أنَّ المرادَ بعضٌ من الإنسِ وبعضٌ من الجنِّ، فهُم المجرمون، فيكون ذلك كقوله: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ [القصص: 78](4).

معنى الباءِ ودلالَتُها في ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾:

سيماءُ المجرمينَ سببٌ في التَّعرُّفِ عليهم

الباءُ في ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾ للسَّبَبيَّةِ؛ إذِ المعنى أنَّ سيماءَ هؤلاءِ المجرمينَ سببٌ في التَّعرُّفِ عليهم دون حاجةٍ إلى سؤالٍ أو استفسارٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالسّيماءِ، والغرضُ من الإضافةِ:

السّيماءُ هي علاماتُ الحُزْنِ والكآبةِ الدّائمةِ المُمَيِّزة

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بالسّيماءِ في ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾ دون

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جرم).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 176.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 114.

(علاماتهم) أو أماراتهم؛ لأنَّ معنى السّيماء يدورُ حول التَّأثيرِ في ظاهرِ الشَّيءِ بأثرٍ غائرٍ لازم يَدُلُّ على شيءٍ[1]، ففي استعمالِ لفظ (سيماهُم) معنى العلامةِ المُمَيّزَة الدّائمة، فهذه العلاماتُ لا تنفكُّ عنهم، وهو يحتَمِلُ وجوهًا، أحدُها: كَيٌّ عَلى جِباهِهِم، قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ [التّوبة: 35]. ثانيها: سَوادٌ كَما قال تَعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: 106]، وقالَ تَعالى: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزّمر: 60]. ثالِثُها: غَبَرَةٌ وقَتَرَةٌ[2]، وقيلَ: هو ما يَعْلوهم مِنَ الكآبةِ والحُزْنِ[3]، والإضافةُ للتَّخصيصِ توبيخًا لهم.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَيُؤْخَذُ﴾:

في ترتيبِ الأخذ على المعرفةِ ما يُشيرُ إلى سرعةِ العقابِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ عاطفةٌ تُفيدُ معنى التَّرتيبِ والتَّعقيبِ والسُّرعة، فإنَّ أخذَ المجرمينَ جاءَ عَقِبَ المعرفةِ بهم، وهو مُتَرَتِّبٌ على هذه المعرفةِ، وهو كذلك أخذٌ سريعٌ مفاجِئٌ، فلا يكونُ ثمَّةَ مجالٌ للهَربِ ولا للإنكارِ، وفي ذلك كلِّه من التَّرهيبِ والتَّخويفِ والإنذارِ ما يُحَذِّرُ المجرمينَ، ويَرْدَعُهم عن الغَيِّ والاستمرارِ في تكذيبِ الآلاءِ الواضحاتِ.

دلالة التَّعبيرِ بالمضارعِ المَبْنيِّ للمفعولِ ﴿فَيُؤْخَذُ﴾:

في التَّعبيرِ بالمضارعِ استحضارٌ لصورةِ المجرمينَ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ المضارعةِ، في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾؛ لاستحضارِ صورةِ الأخذِ، وللمبالغةِ في تصويره، ففي التَّعبير بالمضارعِ تجسيدٌ لحركةِ الأخذِ، وترهيبٌ من سوءِ العاقبةِ والمصير، وإبهامُ الفاعلِ؛ لأنَّه كالمُتَعَيِّن، وقيلَ: للرَّمزِ إلى عَظَمَتِهِ[4]، فقَد جاء الأثرُ في صِفَةِ النّارِ أنَّ مَلائِكَةَ جَهَنَّمَ خُلِقَتْ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وسم).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 174.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 114.

قَبْلَ أنْ تُخْلَقَ جَهَنَّمُ بألْفِ عام، فهُم كُلَّ يَوم يَزدادونَ قوَّةً إلى قوَّتِهم حَتّى يَقبِضوا عَلى مَن قَبَضوا بالنَّواصي والأقدامِ[1].

سرُّ إسناد الفعل لضمير المفرد:

المقصودُ بيانُ نكالِهم ومهانتِهم لا مجرَّدُ أخذهم

عدَلَ النَّظمُ الجليلُ عن مقتضى الظّاهرِ في قولِه: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾، فلم يقلْ: (فيؤخذونَ بالنّواصي والأقدام)، أو (فتُؤْخَذُ النّواصي والأقدامُ)، وإنَّما عدَلَ عن هذا التركيب إلى قولِه: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بيانُ النَّكال؛ إذْ لمّا قالَ: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي﴾؛ بيَّنَ كيفيَّةَ الأخذِ، وجَعَلَها مقصودَ الكلام، ولو قال: (فَيُؤْخَذون)؛ لكان الكلامُ يتمُّ عندَه، ويكون قولُه: ﴿بِٱلنَّوَاصِي﴾ فائدةً جاءتْ بعدَ تمام الكَلامِ؛ فلا يكونُ هو المقصودَ، وأمّا إذا قال: ﴿فَيُؤْخَذُ﴾، فلا بدَّ لَه من أمرٍ يتعلَّقُ بِه، فينتظِرُ السّامعُ وجودَ ذلكَ، فإذا قال: ﴿بِٱلنَّوَاصِي﴾؛ يكون هذا هو المقصودَ، وفي كيفيَّة الأخذ ظهورُ نكالهم[2].

بلاغة التَّعبيرِ بالكنايةِ في ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾:

الجمعُ بينَ العذابِ الأليمِ وشدَّةِ المهانةِ والإذلالِ

جاءَ التَّعبيرُ بالأخذ بنواصي المجرمينَ وأقدامِهم، في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾؛ بيانًا لشِدَّةِ المهانةِ والإذلالِ؛ إذ في هذه الهيئةِ منَ الاحتقارِ والصَّغارِ ما يُنَبِّه إلى سوءِ مصيرِ المجرمين، وفي كيفيَّةِ الأخذِ بالنَّواصي والأقدامِ وجهانِ، أحدهما: يُجمَعُ بين ناصيتِهم وأقدامِهم، وعلى هذا ففيه قولان، **الأوَّلُ**: أنَّ ذلك قد يكون من جانبِ ظهورِهم فيُربَطُ بنواصيهم أقدامُهم من جانب الظُّهرِ، فتخرج صدورُهم نَتًا. **والثّاني**: أنَّ ذلك من جانبِ وجوهِهم، فتكون رؤوسهم على رُكَبِهم، ونواصيهم في أصابع أرجلهم مربوطةً. والوجه الثّاني: أنَّهم يُسْحَبون سحبًا، فبعضُهم يُؤخَذ بناصيته، وبعضُهم

---

(1) رواه ابن مردويه والضّياء المقدسيّ في صفة النّار، والسّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 7/ 705.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.

يُجَرُّ برِجلِه، والأوَّلُ أصحُّ وأوضحُ[1]، فيُفعَلُ ذلك بهم؛ ليكونَ أشدَّ لعذابهم وأكثرَ لتَشويههم[2].

معنَى الباءِ ودَلالتُها في ﴿بِٱلنَّوَٰصِي﴾:

الباءُ إمّا للآلةِ أو لتضمينِ (يُؤْخَذُ) معنى (يُسْحَبونَ) أو (يُدَعّونَ)

الباءُ في قولِه: ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ للآلةِ، كما في: (أخَذْتُ بالخِطامِ)، أو للتَّعديَة؛ لتضمينه معنى (يسحبون)، أو أن يكونَ (يُؤْخَذُ) ضُمِّنَ معنى ﴿يُدَعُّونَ﴾ [الطّور: 13]، أي: يُدْفَعون، تقولُ: أخَذْتُ النّاصيةَ، وأخَذْتُ بالنّاصية، ولو قلت: أخَذْتُ الدّابَّةَ بالنّاصيةِ، لم يَجُز، وحُكيَ عن العرب: أخَذْتُ الخِطامَ، وأخَذْتُ بالخِطام بمعنًى، أو أن يكون التَّقدير: فيُؤْخَذُ كلُّ واحدٍ بالنَّواصي[3].

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾:

التَّعريفُ في النَّواصي والأقدام للتَّهويلِ والتَّخويفِ

اللّامُ في لفظي (النّواصي) و(الأقدام) في قولِه: ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ إمّا أن تكون للتَّعريفِ، أو أنَّها عِوَضٌ عن المضافِ إليهِ المُضمرِ، أي: (بنواصيهم وأقدامِهم)، أو أنَّها عِوَضٌ عن الضَّمير على مذهبِ الكوفيين، أو أنَّ الضَّميرَ محذوفٌ على مذهب البصريين، والتَّقديرُ عندهم: (يُؤخَذُ بالنّواصي والأقدام منهم)، والخِلاف بين الفريقينِ فيما إذا احتيجَ إلى الضَّمير للرَّبط، ولا احتياجَ إليه هنا[4]، وعلى أيِّ حالٍ، فسواءٌ أكانت اللّام عوضًا عن الضَّميرِ المحذوفِ، أو كان الضَّميرُ محذوفًا بدونِ عِوضٍ، ففي تعريفِ النَّواصي والأقدامِ تهويلٌ وتخويفٌ لهؤلاءِ المجرمينَ المُتكبِّرين.

دلالةُ وقوعِ شِبْهِ الجملة نائبَ فاعل ﴿بِٱلنَّوَٰصِي﴾:

في مجيءِ (بالنَّواصي) نائبًا عن الفاعلِ اهتمامٌ بكيفيَّةِ الأخذِ

قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّوَٰصِي﴾ قائمٌ مقامَ الفاعل؛ لقوله: ﴿فَيُؤۡخَذُ﴾،

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 175.

(3) مكّي بن أبي طالب القيسيّ، مشكل إعراب القرآن: 2/ 707، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 66، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 176.

(4) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضيّ: 8/ 135، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 114.

والتَّقدير: بالنَّواصي منهم أو بنواصيهم، وليس في قوله: ﴿فَيُؤۡخَذُ﴾ ضميرٌ يقومُ مقامَ الفاعل يعود على المجرمين؛ لأَنَّ العربَ تقول: أخذت النَّصيَّةَ، وأخذتُ بالنّاصيةِ، ولا تكاد تقول: (أخذتُ الدّابَّةَ بالنّاصية) بأن تُعَدّيَ (أخذ) إلى مفعولين؛ إلى أحدِهما بنفسِه، وإلى الآخر بواسطة الباء، ولأنَّه لو كان فيه ضميرٌ لوجبَ أن يقال: (فيؤخَذون) لأجْلِ تَقَدُّمِ ذِكرِهم[1]، وفي مجيءِ ﴿بِٱلنَّوَٰصِي﴾ نائبًا عن الفاعلِ اهتمامٌ بكيفيَّةِ الأخذِ، والتَّرهيبِ منه.

دلالةُ العَطفِ، وسِرُّ الاقتصارِ في الأخذِ على النَّواصي والأقدامِ:

العطفُ لبيانِ شِدَّةِ إحكامِ القيدِ

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ (الأقْدام) على ﴿بِٱلنَّوَٰصِي﴾؛ ليُفيدَ شِدَّةَ إحكامِ وثاقِ المجرمينَ المعانِدين، فلو اقتصرَ الأخذُ على النَّواصي فحسبُ؛ لكانَ المعنى أنَّهم يُسحبونَ، ويُجرّونَ منها وحدَها، ولكنَّه لمّا عطَفَ الأقدامَ على النَّواصي؛ أفادَ المبالغةَ في إحكامِ قبضةِ ملائكة العذابِ، واقتصر على النَّواصي والأقدام؛ لأنَّ النّواصيَ أوَّلُ الشَّيءِ، أو أعلاه الممتدُّ الذي تَتْبَعُه بقيَّتُه: كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود: 56]، وهذا كنايةٌ عن غايةِ التَّمَكُّن من صاحب النّاصيةِ[2]، وهو هنا شعرُ الرَّأسِ، وفي ذِكرِ الأقدامِ بيانٌ لإحكامِ الوِثاقِ لأدنى الجسدِ، فصار ما بين الأعلى والأدنى مُحْكَمًا إحكامًا تامًّا؛ فأغْنَيا عن ذِكرِ ما عداهما من أجزاءِ الجسدِ.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعدَ ذِكرِ شِدَّةِ العذابِ جاءَ التَّقريرُ، والتَّوبيخُ

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من التَّخويفِ والإنذارِ، والتَّرهيبِ من شدَّةِ العذابِ والإذلالِ، وفيه من التَّرهيبِ والتَّخويفِ ما يصدُّ عن سلوكِ سبيلِ هؤلاءِ المجرمينَ المُعَذَّبينَ.

(1) محييّ الدّين زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 68.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصو).

بيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضعِ:

التَّخويفُ من العذاب الشَّديدِ والإذلالِ المُهينِ

اشتملتِ الآيةُ على بيانٍ لعذابِ المجرمينَ في الآخرة، وتفصيلٍ لكيفيَّةِ أخذِهم والإلقاءِ بهم في النّارِ في هيئة ذليلةٍ مُهينةٍ، ورغم ذلك فقد عَقَّبَ النَّظمُ بالآية نفسها، وذلك لتقرير المؤمنين ولتوبيخ الكافرين، وتتمثَّلُ نعمةُ اللّه فيما ذكره من هول العذاب في نجاةِ النّاجي منه برحمته وفضله، وما في الإنذار به من اللُّطف[1]، ذلك أنَّ اللّه تعالى مُنْعِمٌ على عباده نعمتين، نعمة الدُّنيا ونعمة الدّين، وأعظمُها في الأخرى، واجتهادُ الإنسانِ رهبةً ممّا يُؤْلِمُه أكثرُ من اجتهاده رغبةً فيما يُنَعِّمُه، فالتَّرهيبُ زجرٌ عن المعاصي وبعثٌ على الطّاعات، وهو سببُ النَّفعِ الدّائم، فأيَّةُ نعمةٍ أكبرُ إذًا من التَّخويف بالضَّرر المُؤدّي إلى أشرف النِّعم؟ فلمّا جاز ذلك عند ذكر ما أنعم به علينا في الدُّنيا؛ جاز أن يقوله أيضًا عند ذِكر ما تخوَّفَنا به ممّا يصرفنا عن معصيته إلى طاعته التي تُكسبنا نعيم جنَّتَه؛ لأنَّ هذا أَسْوَقُ إلى تلك الكرامةِ من وصفِ ما أعدَّ فيها من النِّعمة[2].

دلالةُ الاستئنافِ في ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾:

في الجمع بين العذابِ البَدَنيِّ والعذابِ المعنويِّ

جملة قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ وقعتِ استئنافًا في جواب سؤالٍ، فحواه: ماذا يُقال لهم عند أخذهم وإلقائهم في النّارِ؟ وذلكَ لأنَّه مَظِنَّةٌ للتَّوبيخ والتَّقريع، أو لأنَّها جاءتْ حالًا من أصحاب النَّواصي؛ بناءً على أنَّ التَّقدير: نواصيهم أو النَّواصي منهم[3].

الغرضُ من تعريفِ المُسندِ إليهِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

أشارَ النَّظمُ الجليلُ إلى ﴿جَهَنَّمُ﴾ باسم الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾،

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 170 - 171.

(2) الخطيب الإسكافيّ، درّةُ التّنزيل وغرّة التّأويل: 3/ 1240 - 1241.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 114، والخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 208 - 209.

في تَعريف جهنَّمَ باسم الإشارة استحضارٌ لها

والمشهور أنَّ هاهنا إضمارًا تقديرُه: يقال لهم: هذِه جَهَنَّمُ، ويحتمل أن يقال: معناه: هذه صفةُ جهنَّمَ، فأُقيم المضافُ إليه مقامَ المضافِ، ويكون ما تقدَّم هو المشار إليه، والأقوى أن يقال: الكلامُ عند النَّواصي والأقدام قد تمَّ، وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ لقُربِها، كما يقال: (هذا زيدٌ، قد وصل)؛ إذا قَرُبَ مكانُه، فكأنَّه قال: جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بها المجرمونَ هذه قريبةٌ غيرُ بعيدةٍ عنهم، ويلائمُه قولُه: ﴿يُكَذِّبُ﴾؛ لأنَّ الكلامَ لو كان بإضمار (يقال)؛ لقالَ تعالى لهم: (هذِه جَهنم التي كَذَّبَ بها المجرمونَ)؛ لأنَّه في هذا الوقت لا يبقى مُكَذِّبٌ، وعلى هذا التَّقدير يُضمرُ فيه: كان يُكَذِّبُ[1].

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ﴿جَهَنَّمُ﴾ خَبَرًا:

تـجَـهُّـمُ الـنّـارِ للمجرمينَ جمعٌ بـيـنَ الـعـذابِ النَّفسيِّ والبدنيِّ

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ عن مكان إلقاءِ المجرمينَ في النّارِ بلفظِ: ﴿جَهَنَّمُ﴾؛ إشارةً إلى بُعدِ قَعْرِها، مع ما هم فيه من القيدِ الشَّديدِ المُهينِ، زيادةً في العذاب، وكذلك لِما تَلقاهُم به النّارُ من التَّجَهُّم والوحشةِ والكَلاحةِ[2]، فكانَ في إيثارِ هذا اللَّفظِ دلالةٌ على العذاب النَّفسيِّ إلى جوار العذاب البدنيِّ المُهين؛ توبيخًا ونكالًا بهؤلاء المجرمينَ.

الغَرضُ من وصفِ ﴿جَهَنَّمُ﴾ بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّتِي﴾:

اشتهارُ المجرمينَ بـالـتَّـكـذيـبِ بـالآخـرةِ رغـمَ كثرةِ البيِّناتِ

وصفَ النَّظمُ الجليلُ ﴿جَهَنَّمُ﴾ بالاسم الموصولِ وجملةِ الصِّلة، في قولِه: ﴿ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وعدلَ عن الوصفِ باسم المفعولِ (المُكَذَّبُ بها)؛ وذلك لما في الوصف بالاسم الموصولِ وصلته من التَّأكيد واللُّزوم والشُّهرة، فكان الوصفُ مشيرًا لتأصُّلِ صفة التَّكذيب بجهنَّم في هؤلاء المجرمينَ، رغمَ شهرتِها ومعرفةِ الخَلْق جميعًا بها، حتَّى أصبحَ تكذيبُهم بها معروفًا لدى العامَّةِ والخاصَّة.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 178.

وكأنَّ تكذيبَهم بها أصبح عَلَمًا عليهم، وغَدَوا مشهورينَ بموقفهم المُكَذِّبِ للآلاءِ البيِّناتِ، والدَّلائل الواضحاتِ الدّالَّةِ على وجودِ جهنَّم في الآخرة.

استمرارُ تكذيبِ المجرمينَ بالنّارِ في الدُّنيا سبب هلاكهم

دلالةُ التَّعبيرِ بجملةِ الصِّلةِ فعلًا مُضارعًا:

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ المضارعة ﴿يُكَذِّبُ﴾، وكان مقتضى الظّاهر أن يكون التَّعبيرُ بصيغةِ المُضيِّ، فيقول: (التي كذَّبتُم بها)، فعدل عنه للدَّلالة على استمرارِ ذلكَ، وبيانًا لوجهِ توبيخهم وعِلَّته[1]، وأشارَ بعضهم إلى أنَّ التَّعبير بالمضارعِ لقُرْب حضورِها، لا لحضورها فعلًا[2]، وأشار آخرون إلى أنَّ المُرادَ استمرارُ التَّكذيبِ وتجدُّدُه في الدُّنيا[3]، إذِ المرادُ على هذا القول: هذه جهنَّم التي كنتم تكذبون بها وتقولون: إنَّها لا تكون[4]، ويجوز أن يكون هذا الكلام خطابًا من الله لنبيِّه في الدُّنيا، أي: قل لهم هذه صفة جهنَّم، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامَه[5].

شــدَّةُ تـحـرّي المـجـرمـينَ لـلـتَّـكـذيـبِ حـتَّـى كـأنَّـهـم ملتصقونَ به

مَعنَى الباءِ ودَلالتُها في ﴿بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

جاءت الباءُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ على أصلِ معناها، وهو الإلصاقُ[6]، ففيها دلالةٌ على شدَّةِ تحرّي المجرمينَ للتَّكذيبِ بالنّارِ في الدُّنيا، مهما جاءتهم الدَّلائل البيِّناتُ، لِعَراقتهم في الكفرِ والبُهتان.

ما حلَّ المجرمونَ في قعرِ جهنَّمَ إلّا لتكذيبهم باليومِ الآخرِ

الغرضُ من تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِهَا﴾؛ للاهتمامِ بمناطِ

---

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 135.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.

(3) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 23/ 14833.

(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 180.

(5) محيي الدّين شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 68.

(6) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 19.

التَّكذيبِ، وهو التَّكذيبُ بالنّارِ التي هي من أهمِّ معالم اليوم الآخرِ، وما فيه من جزاءٍ وعقابٍ، وكذلك فإنَّ في التَّقديمِ إشارةً إلى أنَّ التَّكذيبَ بها هو ما أحلَّهم قعرَ جهنَّمَ.

دلالةُ إعادَةِ الفاعلِ مُظهَرًا:

في إعادة لفظ المجرمينَ تذكيرٌ بعِظَم ذنوبِ المجرمينَ

أعادَ النَّظمُ الحكيمُ الفاعلَ مُظهَرًا في قولِه: ﴿يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[1]، رغمَ قُربِ وُرودِه في قولِه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ تذكيرًا بعظيمِ ذنبهم الذي استحقّوا به الحلولَ في قعرِ جهنَّم، وفيه كذلك من التَّوبيخ والتَّأنيبِ ما يَردَعُ المجرمينَ في الدُّنيا.

سِرُّ التَّقييدِ بالجملةِ الحاليَّةِ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾:

بيانُ سَفَهِ المجرمينَ في التَّكذيبِ بجهنَّم وظهورِها ظهورًا بيِّنًا

قيَّد النَّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، بالجملةِ الحاليَّةِ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؛ لبيانِ سَفَهِ تكذيبِهم بجَهَنَّم، فاتَّضحَ اتِّضاحًا بيِّنًا بظهورها للنّاس، وبأنَّهم يتردَّدون خلالَها، كما تَردَّدوا في إثباتها حين أُنذِروا بها في الدُّنيا[2]، ففي هذا القيدِ من التَّوبيخِ والتَّقريعِ ما يَرْدَعُ المجرمينَ المُكذّبينَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَطُوفُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

شدَّةُ ألمِ المُجرمينَ وتجدُّدُه؛ لإنكارهم الآخرةَ وشرائعَ الإسلامِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن حالِ المجرمينَ بعد إلقائهم في قَعْرِ جهنَّم، بمادَّةِ الطَّوافِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؛ وذلك لأنَّ الطَّوافَ هو دَورانُ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يُحَفَّ بِهِ، ثمَّ يُحْمَلُ عليه[3]، والمعنى المحوريُّ: غِشْيانُ الشَّيءِ، بغِلَظٍ أو قوَّةٍ، غِشْيانًا يَعُمُّ حدودَه: جوانبَه أو أعلاه، ومعنى ﴿يَطُوفُونَ﴾ هاهُنا:

(1) محيي الدّين شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 68.
(2) ابن عاشور، التَّحريرُ والتّنوير: 27/ 263.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف).

يمشونَ بين مكان النّارِ وبين الحَميم، فإذا أصابَهم حَرُّ النّارِ؛ طَلَبوا التَّبَرُّدَ، فلاحَ لهم الماءُ، فذهبوا إليه، فأصابَهم حَرُّهُ، فانصَرَفوا إلى النّارِ دَواليك، وهذا كَقولِه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: 29][1]، وفي هذا من النَّكالِ والعذابِ ما يدلُّ على اضطرابِ حركتِهم وفَرْطِ ألَمِهم، وعبَّرَ بصيغةِ المضارعة؛ لبيانِ تجَدُّدِ طوافِ هؤلاءِ المجرمينَ بألوان العذابِ والمهانةِ، وفيه كذلك استحضارٌ لهذا الحالِ الشَّنيعِ، فحَركتُهم ماثلةٌ أمامَ الأعينِ، تشدُّ انتباهَ المُتلقّينَ، وفيه كذلك توبيخٌ وتشنيعٌ على رفضهم لشرائع الإسلامِ، فكأنَّهم في قَعْرِ جهنَّمَ مقهورون على الطَّوافِ بالعذابِ بعد أن رفضوا الطَّوافَ حولَ الكعبةِ المُشَرَّفة في الدُّنيا.

سِرُّ تَقييدِ الطَّوافِ بالظَّرفِ ﴿بَيْنَهَا﴾:

طوافُ المجرمينَ مِن تَصليةِ النّارِ إلى شربِ الحميمِ والصَّديدِ

قيَّد البيانُ القرآنيُّ طوافَ المجرمينَ في قعرِ جَهَنَّم بالظَّرفِ ﴿بَيْنَهَا﴾؛ لبيانِ حَدَّي طوافِهم، وهو بين التَّصْليةِ بالنّارِ وبينَ شربِ الحميم[2]، فهُم لا يَنفَكّونَ عن العذابِ، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السّجدة: 20]؛ لأنَّهم يخرجون، فيَستَغيثونَ، فيَظْهرُ لهم من بُعدٍ شيءٌ مائعٌ هو صَديدُهم المَغْليُّ، فيظنونَهُ ماءً، فيَرِدون عليه، كما يَرِدُ العطشانُ، فيقعونَ، ويَشربون منهُ شُربَ الهيم، فيجدونَهُ أشدَّ حَرًّا، فيقطع أمعاءَهم، كما أنَّ العطشان إذا وصل إلى ماءٍ مالحٍ لا يبحث عنهُ، ولا يذوقه، وإنَّما يشربُه عَبًّا، فيُحرِقُ فؤادَه، ولا يُسَكِّنُ عطشَه[3].

سِرُّ تَقييدِ الطَّوافِ بـ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾:

إذا استغاثَ المجرمونَ؛ أُغيثوا بالحميمِ والصَّديدِ نكالًا بهم

أمّا الطَّرفُ الآخرُ من حَدَّيْ طوافِ المجرمينَ؛ فهو الماءُ المَغْليُّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 264.

(2) محيي الدّين شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 68.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 369.

وعُصارةُ أهلِ النّارِ، فهُم يتردَّدون بين نارِها وبين ما غَلَى فيها من مائعِ عذابِها، الذي يغلي منذُ خلقَ اللّٰهُ جَهَنَّمَ، فيعاقبُ بينهم وبينَ تصليةِ النّارِ، وبين شربِ الحميم، وقيل: إذا استغاثوا من النّارِ، جُعِلَ غياثُهم الحميمَ، وقيل: يُغمَسون في وادٍ في جهنَّم يجتمعُ فيه صديدُ أهلِ النّار، فتنخلعُ أوصالُهم[1].

الغرضُ من تَنكيرِ ﴿حَمِيمٍ﴾، وسِرُّ وصفِه بـ﴿ءَانٍ﴾:

توكيدُ شدَّةِ غَليانِ الحميمِ لقطعِ الأملِ في أيِّ رجاءٍ

وصفَ النَّظمُ الحكيمُ الحميمَ بأنَّه ﴿ءَانٍ﴾؛ وذلك لأنَّه لمّا كان اسمُ الحميمِ من الأضدادِ يُطْلَق على الحارِّ والبارد؛ فقد بيَّن أمرَه بأنَّ حَرَّه قد بلغ الغايةَ التي ليس وراءَها غايةٌ في الحرارةِ والغَلَيانِ[2]، وقد يكون المرادُ بـ﴿ءَانٍ﴾ أنَّ العذاب بالحميم حاضرٌ، وبه سُمّي الحالُ بـ(الآن)؛ لأنَّه الحاضرُ الموجود، فإنَّ الماضيَ لا تَدارُكَ له، والمستقبلُ أملٌ، وليس لنا إلّا (الآن)، ثمَّ (الآن) ليس بثابتٍ طرفةَ عينٍ؛ لأنَّ الآنَ هو الجُزءُ المشتركُ بين زمانَيْن، فهُم دائمًا يتردَّدون بين عذابَيِ النّارِ المُذيبَةِ للظّاهرِ، والماءِ المُقَطِّعِ بحَرِّه للباطنِ، لا يزالُ حاضرًا لهم، تَرَدُّدَ الطّائفِ الذي لا أوَّلَ لتردُّدِه ولا آخِرَ[3].

معنَى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد ذِكرِ شِدَّةِ العذابِ والإذلالِ جاءَ التَّقريرُ، والتَّوبيخُ

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من العذاب الشَّديدِ، والإيلامِ العنيفِ، والطَّوافِ المهينِ، وفيه من التَّرهيبِ والتَّخويفِ ما يَصدُّ عن سلوكِ سبيلِ هؤلاء المجرمينَ المُعذَّبينَ.

بيانُ المُرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضع:

التَّخويفُ من العذابِ الشَّديدِ والإذلالِ المُهينِ مِنَّةٌ كبرى

اشتملت الآيةُ على بيانٍ لطوافِ المجرمينَ بينَ النّار الحاميةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 67.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أنو، أني).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 178.

والحميمِ والصَّديدِ، ورغمَ ذلك، فقد عقَّبَ النَّظمُ بالتَّذكير بالآلاءِ، وذلك لتقرير المؤمنين ولتوبيخ الكافرين؛ فإنَّ مِن جُملتِها النِّعمةَ الحاصلةَ بهذا التَّخويف، وما يحصلُ به من التَّرغيب في الخير، والتَّرهيب عن الشَّرِّ[1].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 167.

﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
٤٧ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩ فِيهِمَا عَيۡنَانِ
تَجۡرِيَانِ ٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ
زَوۡجَانِ ٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٣ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ
بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ٥٥ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ
وَلَا جَآنّٞ ٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ
وَٱلۡمَرۡجَانُ ٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٩﴾ [الرّحمن: 46 - 59]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعدَ ذِكرِ النِّعمِ الدُّنيويَّةِ والتَّذكير بمآل المجرمينَ؛ شرعَ في بيانِ ما أعدَّ للطّائعين

هذه الآياتُ هي بداية المقطعِ الثّالثِ والأخيرِ من مقاطعِ هذه السّورةِ الجليلةِ، فقد شرعَ النَّظمُ الجليلُ في هذه الآياتِ الكريماتِ ابتداءً من قولِه تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، في تعداد الآلاء الفائضةِ على المؤمنين الموحِّدين في الآخرة، بعد تعدادِ ما وصل إلى الثَّقلَينِ في الدُّنيا من الآلاءِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، فعَدَّدَ فيما بين هذه الآيات وبين خاتمة السّورةِ الكريمةِ، فُنونَ الكرامات والآلاء الجليلة الواصلةِ إليهم في الآخرة، كما سبق أن عدَّدَ الآلاءَ الواصلة إليهم في الدُّنيا؛ لكونها داعيةً لهم إلى السَّعي في تحصيل ما يؤدّي إلى نَيلِها من الإيمانِ والطّاعة؛ ذلك أنَّ ما فصَّلَ من فاتحةِ السّورةِ الكريمةِ إلى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ من النِّعم الدّينيَّة والدُّنيويَّة والأنْفُسيَّةِ والآفاقية - آلاءٌ جليلةٌ واصلةٌ إليهم في الدُّنيا، وكذلك حكاياتُها من حيثُ إيجابُها للشُّكرِ والمثابرةُ على ما يؤدّي إلى استدامتها، وأمّا ما عدَّدَ فيما بين قوله تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾،

وبين هذه الآية من الأحوال الهائلة التي ستقع في الآخرة، فليست هي من قبيل الآلاء الأولَى، وإنَّما الآلاءُ حكاياتُها الموجبةُ للانزجارِ عمّا يُؤدّي إلى الابتلاءِ بها من الكفرِ والمعاصي، كما أُشير إليه في تضاعيف تعدادِها[1].

ولمّا كان قد عَرَّفَ بما للمُجرم المُجْتَرِئ على العظائم من عقابٍ أليم ونَكالٍ شديدٍ، وقَدَّمَه لما اقتضاه مقامُ التَّكَبُّرِ من التَّرهيب، وجَعَلَهُ سبعًا إشارةً إلى أبواب النّارِ السَّبعةِ؛ عطف عليه بما للخائف الذي أدّاه خوفُه إلى الطّاعة، وجَعَله ثمانيةً على عدد أبواب الجنَّة الثَّمانية، وبدأ بذِكر الخوفِ من مقام اللّهِ تعالى؛ لأنَّه السَّبيلُ المؤدّي إلى نَيلِ دخولِ الجنّاتِ ذاتِ الأفنانِ، ثمَّ شرع في تفصيل وصف هذه الجنّاتِ التي هي للثَّقلَين، فوصفَها بكثرة الأفنانِ؛ لأنَّ البساتين لا يَكْمُلُ مدحُها إلّا بكثرةِ الأنواعِ والألوانِ والفروعِ المشتبكةِ والأغصانِ، وامتنَّ بما فيها من الأنهارِ الجاريةِ اللّازمةِ لنموِّها وازدهارها، وذكَر ما فيها من الفاكهة والخيراتِ، ولمّا كان التَّفَكُّهُ لا يَكْمُلُ حُسنُه إلّا مع التَّنَعُّمِ من طيبِ الفُرش؛ ذَكَر حالَهم من الاتِّكاءِ على الأسِرَّة الوثيرةِ النّاعمةِ، وما عليها من ديباج، وعطفَ بذِكرِ قُربِ جَنى الجنتين حتّى لا يُكلِّفَ المُتَّكئين في تناولِ الثِّمارِ إلى أي عناءٍ في صعود شجَرِه، ثمَّ ذكرَ نعمةَ معاشرةِ النِّساءِ بعد طيب الطَّعام والشَّراب والمقام؛ لأنَّ ما ذُكِر لا تتمُّ نعمتُه إلّا بمعاشرة الحِسانِ، وخصَّ بهنَّ أزواجَهُن، فلا يَقرُبُ لهنَّ أحدٌ غيرهم من إنسٍ ولا جنٍّ؛ زيادةً في الامتنان بهذه اللَّذة الخالصةِ، وأعقبَ بوصفهِنَّ بالياقوت والمرجانِ؛ زيادةً في غاية ما يكون من سكونِ النَّفس، وقوَّةِ القلب، وشِدَّةِ البدنِ، واعتدال الدَّمِ، وغير ذلك من خواصِّ ما شَبَّهَهُنَّ به[2].

وعقَّبَ على كلِّ نعمةٍ من النِّعم السّابقةِ بآيةِ الآلاءِ؛ لأنَّ في مجرَّد التَّرغيب في هذه النِّعم نعمةً جليلةً ومِنَّةً عظيمةً؛ إذ به يحصلُ الحرصُ على الأعمال الصّالحةِ، والفرارُ من الأعمال الطّالحةِ، فكيف بالوصول إلى هذه النِّعَم والتَّنَعُّم بها في جنّات النَّعيم بلا انقطاع ولا زوال؟[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 183.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 180 - 185.

(3) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 169.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَقَامَ﴾: (قوم) أصلٌ يَدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزْمٍ[1]، والمعنى المحوريُّ: انتصابُ الشَّيءِ إلى أعلى ثابتًا[2]، وأمّا المَقامُ والمُقامُ؛ فقد يكون كلُّ واحدٍ منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام[3]، والمَقامُ: أصلُه محلُّ القيامِ، ومصدرٌ ميميٌّ للقيام، وعلى الوجهين يُستعمَل مجازًا في الحالةِ والتَّلبُّسِ، كقولك لمن تستجيره: هذا مَقامُ العائذِ بك، ويُطلَق على الشَّأنِ والعَظَمةِ[4]، وفي ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ قولان، أحَدُهما: هو مقامٌ بين يَدَي العرضِ والحسابِ. الثّاني: هو قيامُ اللّه تعالى بإحصاءِ ما اكتَسَبَ الإنسانُ من خيرٍ وشرٍّ[5].

2) ﴿أَفْنَانٍ﴾: الأفانينُ: أجناسُ الشَّيءِ وطُرُقُه، ومنه الفَنَنُ، وهو الغُصْنُ، وجمعُه أفنانٌ، ويقال: شجرة فنواءُ[6]، والأفانينُ: الأساليبُ، وهي أجناسُ الكلامِ وطُرقُه، ورجل مُتَفَنِّنٌ، أي: ذو فنونٍ، وافتَنَّ الرَّجلُ في حديثه وفي خطبته (بوزن اشْتَقَّ): جاءَ بالأفانين[7]، والمعنى المحوريُّ: امتدادٌ تشَعُّبيٌّ أو متزايد مع دقَّةٍ أو رِقَّةٍ، والفَنَنُ: الغُصن الغضُّ الوَرِقُ، وجمعه أفْنانٌ، وقوله: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، أي: ذواتا غصون، وقيل: ذواتا ألوانٍ مختلفةٍ[8].

3) ﴿عَيْنَانِ﴾: (عين) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على عضوٍ به يُبْصَرُ، ويُنْظَرُ، ومن البابِ: العينُ الجاريةُ النّابِعَةُ من عُيونِ الماءِ، وإنَّما سُمّيَتْ عَيْنًا تَشْبيهًا لها بالعينِ النّاظرةِ لصفائها ومائها[9]، والمعنى المحوريُّ: دائرةٌ يَنفذُ منها لطيفٌ لامعٌ دائمُ الجريان عن مختزَنٍ كثير[10]، ويقالُ للمُراعي للشَّيء: عَيْنٌ، وفلانٌ بعَيْني، أي: أحفَظُه وأراعيه، كقولك: هو بمَرْأى منّي ومسمَعٍ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطّور: 48]، وقال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قوم).
(3) الرّازيّ اللّغويّ، مختار الصّحاح: (قوم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 265.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 437.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فن).
(7) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (فنن).
(8) الرّاغب، مفردات القرآن: (فنن)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فنن، فنفن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والخليل بن أحمد، كتاب العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عين).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عين).

﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود: 37]، أي: بحيثُ نَرى، ونحفظ، ويُستعار لفظ العَيْنِ لمعانٍ، هي موجودةٌ في الجارحة بنظرات مختلفة، واستُعير للثَّقب في المَزادة تشبيهًا بها في الهيئة، وفي سَيلان الماء منها، فاشتقَّ منها: سقاء عَيِّنٌ ومُتَعَيِّنٌ: إذا سال منها الماءُ، وقيل للمتجسِّس: عَيْنٌ؛ تشبيهًا بها في نظرها، وقيل للذَّهب: عَيْنٌ؛ تشبيهًا بها في كونها أفضلَ الجواهرِ كما أنَّ هذه الجارحةَ أفضلُ الجوارحِ، ومنه قيل: أعْيانُ القومِ لأفاضِلِهم، ومِن عَيْنِ الماء اشتُقَّ: ماءٌ مَعينٌ، أي: ظاهر للعُيون، وعَيِّنٌ، أي: سائل، قال تعالى: ﴿عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ١٨﴾ [الإنسان: 18]، وقال: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر: 12]، وهو المرادُ في قولِه تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾، وقولِه: ﴿عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[1].

4) ﴿تَجۡرِيَانِ﴾: (جري) أصلٌ واحدٌ، وهو انسياحُ الشَّيءِ، يقال: جَرى الماءُ يجري جِرْيَةً وجَرْيًا وجَرَيانًا[2]، والجاريَة: السَّفينةُ، وكذلك الشَّمسُ[3]، والمعنى المحوريُّ: انتقالٌ بحركةٍ خفيفةٍ سريعةٍ مسترسلةٍ متَّصلةٍ، كسيلانِ الماء والدَّم، وكذا جَرْيُ الفرس، والذي في القرآن من التَّركيب كلُّه مِنَ الجَرْيِ الموصوف، مسندًا إلى الأنهارِ وإلى عيون الماء، وإلى السُّفن، والرِّياح، والشَّمس والقمر والنُّجوم، وسياقاتُها واضحةٌ[4]، والمرادُ بـ﴿تَجۡرِيَانِ﴾ تَسيلان أبدًا، فلا تنقطعانِ، إمّا بالماءِ اللّازم لنَماء الجَنّاتِ، وإمّا بكلِّ خيرٍ وبركةٍ، وإمّا بالكَرامةِ والزِّيادةِ لأهل الجنَّة[5].

5) ﴿زَوۡجَانِ﴾: (زوج) أصلٌ يدلُّ على مقارنة شيءٍ لشيءٍ، ومن ذلك الزَّوجُ: زَوْجُ المرأةِ، والمرأةُ زَوْجُ بعلها، وهو الاستعمال الأفصح، قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35][6]، والمعنى المحوريُّ: تداخُلٌ بين شيءٍ وآخرَ، حتّى يَشْتَبِكا، ويَختَلِطا، ويرتبطا معًا[7]، ويقال لكلِّ واحد من القرينَيْنِ مِنَ الذَّكر والأنثى في الحيواناتِ المُتَزاوِجَة: زَوْجٌ، ولكلِّ قَرينَين فيها وفي غيرها: زَوْجٌ، كالخُفِّ والنَّعل، ولكلِّ ما يقترن بآخرَ مماثلًا له

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (عين).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جري).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جري).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جرى).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 25/ 259، والسّمعانيّ، تفسير القرآن: 5/ 334.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زوج).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (زوج).

أو مضادًّا: زَوجٌ[1]، فالزَّوجُ: الشَّكلُ يكون له نظيرٌ، كالأصنافِ والألوانِ، أو يكون له نقيضٌ كالرَّطْبِ واليابسِ، والذَّكرِ والأنثى، واللَّيلِ والنَّهارِ، والحُلْوِ والمُرِّ[2]، والمرادُ بـ﴿زَوْجَانِ﴾: صِنفانِ ونوعانِ[3].

6) ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: (وكأ) أُصَيْلٌ يدلُّ على شدِّ شيءٍ وشِدَّةٍ، ومنهُ الوِكاءُ: الذي يُشَدُّ به، ومِنَ البابِ: تَوَكَّأْتُ على كذا، أي: اتَّكَأتُ؛ لأنَّهُ يتشدَّدُ به، ويتقوَّى به، وأوكأتُ فلانًا إيكاءً: نصبتُ لهُ مُتَّكَأً، ووكأ: تَوَكَّأ على الشَّيءِ[4]، والمُتَّكَأُ: المكانُ الذي يُتَّكَأُ عليه، والمِخَدَّةُ المُتَّكَأُ عليها، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ [يوسف: 31]، وقال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ [الطّور: 20]، و﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾ [يس: 56][5]، والتُّكَأَةُ بوزنِ (فُعَلَة)، وأصلُها: وُكَأَةٌ، فقُلِبَتِ الواو تاءً، كما قالوا: تُراثٌ، وأصلُه: وُراثٌ، واتَّكأْتُ اتِّكاءً: أصلُهُ: اوتَكَيْت فأُدْغِمَتِ الواو في التّاء، وشُدِّدَتْ، وأصلُ الحَرفِ: وكَّأ يوكِّئُ تَوْكِئَةً[6]، والاتِّكاءُ: جِلسةُ الرّاحَةِ والتَّرَفِ، والمرادُ في قولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ جِلسةُ المتنعِّم، جلوسَ تَمَكُّنٍ واستقرارٍ وراحةٍ، كجلوس المُلوك على الأسرَّة[7].

7) ﴿بَطَآئِنُهَا﴾: (بطن) أصلٌ واحدٌ لا يكاد يُخْلَفُ، وهو إنسيُّ الشَّيءِ والمُقْبِل منه، فالبطنُ: خلافُ الظَّهر[8]، والمعنى المحوريُّ: التَّعبيرُ عن الجوفِ الدّاخلي للشَّيءِ؛ إذ يَخْفَى فيه ما يدخل إليه، كما في قولِ اللّهِ تعالى على لسان امرأة عمران: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ [آل عمران: 35]، و﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ [النّحل: 69][9]، والبَطائنُ: جمع بطانةٍ بكسر الباء، وهي مشتقةٌ من البطنِ، ضِدُّ الظّهرِ من كلّ شيءٍ، وهي الثَّوبُ الذي يُجعَل على الفراشِ، والظِّهارةُ: الثَّوبُ الذي يجعل فوق البِطانةِ ليَظهَرَ لرؤية الدّاخل للبيت، فتكونَ الظّهارةُ أحسنَ من البطانة في الفراش الواحدِ، فالمعنى هنا: أنَّ بطائنَ فُرُشِ الجَنَّة مِن إستبرقٍ، فلا تَسألْ عن ظَهائِرِها، فإنَّها أجودُ من ذلك[10].

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (زوج).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (زوج).
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 213.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكأ).
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (تكأ).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تكأ).
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 268، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 831.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطن).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بطن).
(10) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 269.

8) ﴿إِسۡتَبۡرَقٖ﴾: (برق) أصلانِ تتفرَّعُ منهما فروع، أحدهما: لَمَعانُ الشَّيءِ. والآخرُ اجتماعُ السّواد والبياضِ في الشَّيء، وما بعد ذلك فكُلُّه مَجازٌ ومحمولٌ على هذَين الأصلين[1]، والمعنى المحوريُّ: حِدَّةٌ تَبرُزُ إلى الظّاهر بقوَّةٍ أو اندفاع من عمقِ ما يكتنفها[2]، والإستبرقُ: صِنفٌ رفيعٌ من الدّيباجِ الغليظِ، والدّيباجُ: نسيجٌ غليظٌ من حريرٍ، والإستبرق يُنسَج بخيوطِ الذَّهب، قالوا: وهو مُعَرَّبٌ عن الفارسيَّةِ، عن كلمة (ستبرك) بكافٍ في آخره علامة تصغير (ستبر) بمعنى ثخين، فأبدلوا الكاف قافًا خشية اشتباه الكافِ بكاف الخطاب[3].

9) ﴿وَجَنَى﴾: (جني) أصلٌ واحدٌ، وهو أخذُ الثَّمرةِ من شَجَرِها، ثمَّ يُحمَلُ على ذلك، تقول: جَنَيْتُ الثَّمرةُ أجنيها، واجتَنَيتها، وثمرٌ جَنيٌّ، أي: أُخِذَ لِوَقْتِه، كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: 25]، ومن المحمولُ عليه: جَنَيتُ الجناية أجنيها[4]، والمعنى المحوريُّ: تحصيلُ (أو أخذُ) ثَمَرِ الشَّجرِ وما يشبِهُه من الأثناء التي تُكِنُّه أو تُقِرُّه، كالكَمْأة والقُطْنِ والرُّطَب والعسل، خارجةً من الأرضِ والأكمام وخلايا النَّحلِ أو أجوافها[5]، والمُرادُ بـ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ هو الثَّمر نفسه، أي: ما يُجْتَنَى من أشجارِ الجنَّتَين[6].

10) ﴿دَانٖ﴾: (دنا) أصلٌ واحدٌ يقاس بعضُه على بعض، وهو المقارَبةُ، ومن ذلك الدَّنيُّ، وهو القريبُ، مِن دَنا يَدنو، وسُمّيت الدُّنيا لدُنوِّها، ودانَيْتُ بين الأمرين: قارَبْتُ بينهما[7]، ودَنا منه، ودَنا إليه يَدنو دُنوًّا: قَرُبَ، فهو دانٍ[8]، والدُّنوُّ: القُربُ بالذّات، أو بالحُكم، ويُستعمَل في المكان والزَّمان والمَنزلة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ [الأنعام: 99]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨﴾ [النّجم: 8]، هذا بالحكم، ويعبَّر بالأدنى تارةً عن الأصغر، فيقابَلُ بالأكبر نحو: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ [المجادلة: 7]، وتارة عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برق).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (برق).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 373.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جني).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جني).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 185.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دنى).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (دنا).

الأَرْذَل، فيقابَل بالخير، نحو: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61][1]، والمرادُ بـ﴿دَانٍ﴾ قَريبٌ لا يُعَنّي الجانيَ[2].

11) ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾: (قصر) أصلانِ صحيحانِ، أحَدُهما: يدلُّ على ألّا يبلُغَ الشَّيءُ مداهُ ونهايتَهُ، والآخرُ: على الحبس، والأصلانِ متقاربانِ، فالأوَّلُ القِصَرُ: خِلافُ الطّولِ، يقال: هو قصيرٌ بَيِّنُ القِصَرِ، ويُقالُ: قَصَّرْتُ الثَّوبَ والحبلَ تَقْصيرًا، ويُقالُ: قَصَّرْتُ في الأَمْرِ تَقْصيرًا؛ إذا تَوانَيْتُ، والأصلُ الآخرُ: القَصْرُ: الحَبسُ، يقالُ: قصَرتُهُ؛ إذا حبستُهُ، وهو مقصورٌ، أي: محبوسٌ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾، وامرأةٌ قاصرَةُ الطَّرفِ: لا تَمُدُّهُ إلَى غَيْرِ بَعْلِها، كَأنَّها تَحبِسُ طَرْفَها حَبْسًا[3]، والمعنى المحوريُّ: حَبْسٌ عن الانتشارِ طولًا أو عرضًا[4]، قال اللّه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، مَعْناه: أَنَّهُنَّ يَقْصُرْنَ أبصارَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَنظُرْنَ إلى غيرِهم، رِضًا بأزواجِهنَّ، وقيل: معناه لا يمْدُدْنَ أعيُنَهُنَّ إلَى ما لا يجوزُ[5]، وقيلَ، أي: فاترات الطَّرفِ، وهي صفةُ مَدحٍ في الأَعْيُنِ[6].

12) ﴿ٱلطَّرْفِ﴾: (طرف) أصلانِ، الأوَّلُ: يدلُّ على حدِّ الشَّيءِ وحَرْفِه، والثّاني: يدلُّ على حركةٍ في بعضِ الأعضاءِ. فالأوَّلُ: طَرَفُ الشَّيءِ والثَّوبِ والحائطِ، وقولُهم: عَيْنٌ مَطْروفَةٌ، من هَذا؛ وذلك أنْ يُصيبَها طَرَفُ شَيءٍ - ثَوْبٍ أَوْ غَيْرِهِ - فتَغْرَوْرِقَ دَمْعًا، وأمّا الأَصْلُ الآخَرُ فالطَّرْفُ، وهوَ تَحْريكُ الجُفونِ في النَّظَرِ، هَذا هوَ الأَصْلُ، ثُمَّ يُسَمّونَ العَيْنَ بالطَّرْفَ مَجازًا[7]، والطَّرْفُ: تَحْريكُ الجَفْنِ، وعُبِّرَ بِه عن النَّظَرِ؛ إذْ كانَ تَحْريكُ الجَفْنِ لازِمُه النَّظَرُ، وقوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، عِبارَةٌ عن إغضائِهِنَّ لِعِفَّتِهِنَّ[8].

13) ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾: (طمث) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مسِّ الشَّيءِ، يقال: ما طَمَثَ ذا المَرْتَعَ قبلنا أحدٌ، وطَمَثَ الرَّجلُ المرأةَ: مَسَّها بجِماعٍ[9]، وطَمِثَتِ المرأةُ تطمَث طَمْثًا، وطمَثَت

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (دنا).
(2) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 2/ 245.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قصر).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قصر).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (طرف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(8) الرّاغب، مفردات القرآن: (طرف).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمث).

تطمُث، بالضَّمِّ، طَمْثًا: حاضتْ، وطمِثت؛ إذا دَميَتْ بالافتضاضِ[1]، والطَّمثُ: دَمُ الحيضِ والافتِضاضِ، والطّامِثُ: الحائضُ، والمعنى المحوريُّ: ثِقَلُ الشَّيءِ بحدوث ما يُذْهِب أو يَعوق خِفَّتَه أو رِقَّتَه، كعَقل البَعير، والجارية تَبلغُ بالحيضِ وبالافتضاضِ طَوْرَ الأنثى الكامِلَة؛ إذْ بالحيض يمكن أن تَحْمِل، وهي تَتَوقَّر حينَئِذٍ؛ إذ يكتمل شعورها بالأنوثة، والافتِضاضُ يُشعرُها بذلك أيضًا، كما أنَّ الأمْرَين يَنْقُصان خِفَّتَها[2]، وفي معنى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ قولان، أحدهما: لم يَفتَضِضهُنَّ، والطَّمثُ: النِّكاحُ بالتَّدْميَة. والثّاني: لم يَمسَسْهُنَّ؛ وذلك لأنَّهنَّ خُلقنَ من الجنَّة[3].

14) ﴿ٱلْيَاقُوتُ﴾: الياقوتُ فارسيٌّ مُعَرَّبٌ، الواحدُ ياقوتَةٌ، والجمع اليَواقيتُ، وسَكَتَ عن ذِكره أكثرُ أهلِ اللُّغَة، وهوَ أجناسٌ، فالأحمر منه أقربُ إلى الحَرِّ من الأزرق، والأبيضُ أبردُ من الأزْرَق، وأجْود الياقوت الأحمرُ الرُّمّانّي[4]، وهو حجرٌ من الأحجار الكريمةِ، يُستعمَل للزّينة[5]، والمرادُ بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾ تشبيهُهُنَّ بهذا الحجر الكريمِ في حُمْرَةِ الوَجنَةِ وبَياضِ البَشَرَةِ وصَفائِهما[6].

15) ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾: مشتقٌّ إمّا من (مرج)، وعليه يكونُ فيه معنى الاضطرابِ والحركةِ والاختلاط[7]، وإمّا من (مرجَنَ)، والمَرجانُ حيوانٌ بحريٌّ ذو أصابعَ دقيقةٍ يَنشَأ ليِّنًا، ثم يتحجَّرُ، ويتلوَّن بلونِ الحُمرة، ويتصلَّبُ كلَّما طالَ مُكْثُه في البحر، فيُستخرج منه كالعروقِ تُتَّخَذُ منها حِلية، والمرجانُ لا يخرج من ملتقى البحرين المِلْح والعَذْب، بل من البحر المِلْح[8]، والمرادُ به إمّا صغار اللُّؤلؤ، وهي أشدُّ بَياضًا، ولذلك خَصَّ الياقوتَ والمرجانَ، فشَبَّه الحورَ العين بهما[9]، فإنِ اعتُبِر في اللُّؤلؤ معنى التَّلألُؤ واللَّمَعان، وفي

(1) ابن منظور، لسان العرب: (طمث).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (طمث).
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 214.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز، والزّبيديّ، تاج العروس: (يقت).
(5) مجمع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (يقت).
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 174.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مرج).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 250.
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (مرجن).

المرجان معنى المَرج والاختلاط، فالأوْفَق لذلك أنَّه الخَرَز الأحمر، وهو المشهور المتعارَف[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مظاهرُ النَّعيمِ المقيمِ لأهلِ الإحسانِ مِن المؤمنينَ الخائفين مِن مَقام الجليلِ

في هذه الآياتِ الكريمات بيَّنَ النَّظمُ الجليلُ ثمرةَ الخوفِ من اللّه، فمن عرفَ أنَّ هناك حسابًا وجزاءً يوم القيامة، وأنَّ هناك نارًا أُعدَّت للكافرين وللضّالّين، وخاف حسابَ اللّهِ وعقابَه، نَجا من البلاء المبينِ، بإيمانه باللّه، وكان له الجزاءُ الحَسَنُ عند ربِّه، فأدخَلَه - مِن واسعِ فضلِه وكريمِ إحسانِه - جَنَّتَين اثنتينِ، يَتبَوَّأ منهما حيثُ يشاء، وسواءٌ أكانت التَّثنيَةُ إشارةً إلى عددٍ حقيقيٍّ، أو كنايةً عنِ الكثرة والاتِّساعِ، فقد استفاضتِ الآياتُ في بيانِ ما فيهما من الثِّمارِ الطَّيِّبةِ والنَّعيمِ الوافر، التي تقتضي التَّصديقَ، وتستدعي واجبَ الحمدِ والشُّكر للّه ربِّ العالَمين، فهاتانِ الجنَّتان ذواتا أغصانٍ مورِقةٍ، وهذا يعني أنَّ لأشجارِهما ظِلًّا ممدودًا، وكذلك فمن صِفات هاتَين الجنَّتين أنَّ فيهما عينَيْن تجريانِ بالماءِ العَذْبِ الرَّقراقِ، وهذا الماءُ السَّلسَبيل المُتدفِّقُ من العُيون الجارية، هو نفسُه نِعمةٌ، إلى جانب نعمة الجنَّة، وإلى جانبِ ظِلِّها الممدود، فمَن يُكذِّب بهذه النِّعم المتظاهرة، ويجحد فضلَ اللّهِ وإحسانَه بها؟ وممّا في هاتين الجنَّتَين كذلك: هذا الثَّمَرُ الطَّيِّبُ الجَنيُّ الذي يُشبه بعضُه بعضًا في حُسنِه وطيبِه، وإنِ اختلفت طعومُه، وتعدَّدَت مذاقاتُه.

ثمَّ بيَّنَتِ الآياتُ ما في هاتَين الجنَّتَين من فُرُش حَشْوُها من حريرٍ، فكيفَ بظاهِرِها؟ وهي مُهيَّأةٌ ليتَّكِئَ عليها أهلُ الجنَّة، اتِّكاءَ استرواحٍ، واسترخاءٍ، واطمئنانٍ، فإذا أراد أحدُهم أن ينال من ثمر الجنَّتَينِ شيئًا، لم يُضطَرَّ إلى أن يتحوَّل عن هذا الوضعِ المُريح؛ لأنَّ

(1) الآلوسيّ، روح البيان: 14/ 105.

الثَّمَرَ النّاضِجَ الشّهيَّ دانٍ قريبٍ بحيثُ لا يتكلَّف له المُتَّكِئُ شيئًا، بل هو حاضرٌ بين يديه، يتخيَّرُ منه ما يشاء، متَّكِئًا، أو مضطجعًا، أو نائمًا.

ثمَّ ذكرتِ الآياتُ لونًا آخرَ هو ذِروةُ ألوانِ النَّعيم، فإذا نالَ أهلُ الجَنَّتَين حَظَّهم من نِعْمَتي الطَّعام والشَّراب في هذا الظِّلِّ الظَّليل؛ وجدوا في هاتَين الجَنَّتَين الحورَ العينَ، اللَّواتي قَصَرْنَ أعينَهُنَّ عن النَّظر إلى غير ما أحلَّ اللّهُ لهُنَّ، تُقًى وحياءً وعِفَّةً، وكان من تمام التَّنعُّم بهؤلاء الحور العين أنَّهُنَّ لم يَغْشَ حِماهُنَّ أحدٌ من الإنسِ أو الجنِّ، قبلَ أزواجِهنَّ الذين زُفّوا إليهِنَّ في الجنَّة، وبعد أن وصفتِ الآياتُ هؤلاء الحور بالعِفَّة والحياء، زادت في حُسْنِهِنَّ، فشَبَّهَتْهُنَّ في النَّقاء والصَّفاء بالياقوت والمَرجان، وهما حَجرانِ كريمانِ، صافيان صفاءَ البِلَّورِ، ولكنَّهما مع هذا الصَّفاءِ مُشْرَبانِ بحُمْرةٍ، وهو تشبيهٌ لما يَجْري في بشرتهِنَّ من دَمِ الشَّباب، الذي تُشْرِقُ به وجوهُهُنَّ، ويُلاحظ أنَّ الجنَّتَين اللَّتَين وعدَهُما اللّهُ الذين يخافون مقامَ ربِّهم، قد عُرِضتا في هذا العرض المُفَصَّل؛ ليَحُثَّ الثَّقلينِ على الوقوفِ بين يديها، وإنعامِ النَّظر فيها، ثمَّ تحديد موقفهم منها، أيشكرون، أم يكفرون؟[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها في ﴿وَلِمَنۡ خَافَ﴾:

بعد بيانِ حالِ المجرمينَ؛ انتقل البيانُ إلى وصف جزاءِ المتَّقينَ

جاءَت الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ استِئنافيَّةً[2]، إذِ انتقل البيانُ القرآنيُّ من وصف جزاء المجرمين إلى ثواب المتَّقين مفصَّلًا، فعطفت هذه الجملةَ على قوله: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ إلى آخِرها، وهو أظهرُ؛ لأنَّ قولَه في آخرها: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ يُفيدُ مَعْنى أنَّهم فيها[3].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 190 - 694.
(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 210.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 264.

الغَرضُ من تقديمِ الخَبرِ:

مدارُ العنايةِ الإلهيَّةِ لمنْ خاف مقامَ ربِّه

قدَّم النَّظمُ الجليلُ الخبرَ، وهو قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ على المبتدأِ ﴿جَنَّتَانِ﴾، وكان مقتضى الظّاهرِ أن يكونَ الكلامُ: (جنَّتانِ لمن خاف مقامَ ربِّه)، وإنَّما جاءَ التَّقديم؛ لبيانِ الاهتمامِ بصاحبِ هذا الجزاءِ العظيمِ، وهو من خافَ مقامَ ربِّه، فهو مدارُ العنايةِ في الآياتِ كلِّها؛ لذا جاءَ تقديمُه دالًّا على مقدارِ الرِّعايةِ والاهتمامِ به، قبلَ ذِكرِ صنوفِ النَّعيمِ، فيكونُ التَّقديمُ من بابِ حُسنِ الاستفتاحِ والبشارةِ له خاصَّةً.

الغَرضُ مِنَ التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ:

شمولُ الجزاءِ لعمومِ العقلاءِ من المكلَّفينَ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ بالاسمِ الموصولِ (مَنْ)، وهو اسمٌ مبهمٌ يقع على المُذَكَّر والمُؤَنَّث، والمُفرد والمُثنّى والجمع، من الإنس والجنِّ جميعًا، فأفاد العمومَ، أي: لكلِّ مَنِ اتَّصفَ بهذه الصِّفةِ - وهي الخوفُ من اللّهِ تعالى - جنَّتانِ، وهو كذلك اسمٌ يقعُ على العقلاء في أغلب السّياقات، فهو أنسبُ لمقام الجزاء، الذي هو خاصٌّ بجميع المكلَّفين، ولا شبهةَ في أنَّ مَنْ خافَ مقامَ ربِّه هو جِنْسُ الخائفين، لا خائفٌ مُعَيَّن، فهو من صيغ العموم البَدَليِّ، بمنزلة قولك: وللخائفِ مقامَ ربِّه تعالى جَنَّتان[1].

مَعنَى اللّامِ ودلالتُها في ﴿وَلِمَنْ﴾:

اختصاصُ من خافَ مقامَ ربِّه بامتلاكِ جنَّتَينِ

اللّامُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ لامُ المِلْك، أي: فلَهُ جَنَّتان على حِدَتِه، لا يشارُكه فيهما غيرُه[2]، وفيها إشارةٌ إلى التَّخصيصِ بهذا المِلْكِ الشَّريفِ، وإشعارٌ بأنَّ الجنَّتَينِ له وحدَه، دونَ منازعٍ له، وهو أقربُ للصَّفاءِ وراحةِ البالِ.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 264.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 181.

دلالةُ التَّعبيرِ بالخوفِ دونَ الخشية في ﴿وَلِمَنۡ خَافَ﴾:

إذا كان للخائفِ جنَّتانِ، فما الظَّنُّ بما للخاشي وهو أعلى وأرقى

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمفردَةِ الخوفِ دونَ الخشيةِ؛ لقُربِ الوعيدِ الشَّديدِ للمجرمينَ، وتفصيلِ عذابهم في الآيات السّابقةِ، فأحْدَثَ ذلك في قلوب المؤمنينَ من الثَّقلَينِ نوعًا من توَقُّع المكروه، ولأنَّ الخوفَ خشيةٌ سببُها ذُلُّ الخاشي، وهي خوفٌ سببُه عَظَمةُ المَخشيِّ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، وقال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: 21]، وقال تعالى في الخوف: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا﴾ [طه: 21]؛ لأنَّ الخوفَ توَقُّعُ مكروهٍ، وقال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣﴾ [القصص: 33]، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وإذا كان هذا للخائفِ؛ فما ظنُّك بالخاشي؟[1].

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿خَافَ﴾:

تحقُّقُ الخوفِ في قلوبِ المحسنينَ دافعٌ لهم إلى الطّاعاتِ

عبَّرَ النَّظمُ بصيغةِ المُضيِّ في قولِه: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾؛ لتوكيدِ وُقوعِ الخوفِ في قلوبِ المؤمنينَ من الثَّقلينِ وتَحَقُّقِه، فليس هو خوفًا مظنونًا عابرًا، بل هو خوفٌ متحقّقٌ قد دفعهم لترك المُنكراتِ والمبادرةِ إلى الطّاعاتِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ﴿خَافَ﴾ مسندًا للمُفرد دون الجمع:

قلَّةُ الخائفينَ من مقامِ الرَّبِّ ﷻ

عدلَ النَّظمُ عن التَّعبيرِ بالفعل مسندًا إلى ضمير الجمع (خافوا)، إلى الفعلِ مسندًا إلى ضميرِ المفردِ ﴿خَافَ﴾؛ إشارةً إلى قلَّةِ الخائفينَ من الثَّقلَين، وفيه جانبٌ لفظيٌّ، وهو أنَّهُ وحَّد الضَّمير؛ مراعاةً للفظ (مَنْ) المفردِ[2]، فهو في معنى قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 369 - 370.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 180.

دلالةُ التَّعبير بصيغةِ ﴿مَقَامَ﴾ بين المصدريّةِ واسم المكان:

المصدريَّة قيامُ الرَّبِّ على الخلائقِ، وقيامُ الخائفِ على الحقوقِ

في صيغةِ ﴿مَقَامَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ احتمالان[1]، **الاحتمالُ الأوَّلُ**: أنَّه مصدرٌ ميميٌّ بمعنى القيام، وهو يحتملُ معنَيَيْنِ، الأوَّلُ منهما: إضافةُ القيامِ إلى اللّه، فالمرادُ: قيامُ اللّهِ ﷻ على الخلائق، وكونُه مُهيمنًا عليهم، مراقبًا لهم، حافظًا لأحْوالهم، والمعنى: إشرافُه تعالى على الخائفينَ واطِّلاعه عليهم، فالقيامُ هنا مثله في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ [الرعد: 33]. والثّاني: أن يكونَ مصدرًا ميميًّا مضافًا لمفعولِه، وهو الخائفُ نفسُه؛ إذْ يجوزُ أن يكونَ المقامُ للعبدِ، ثمَّ يضافُ إلى اللّه، وهو كالأجَل في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [الأعراف: 34]، وقولِه في موضع آخر: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾ [نوح: 4]، والمعنى: قيامُ الخائفِ بحقوق اللّه، فلا يُضَيِّعُها، كما في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾ [النّازعات: 40 - 41].

وأمّا **الاحتمالُ الثّاني** في صيغةِ ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾: فهو أنْ تكونَ اسم مكان، والمُراد به: مقامُ وقوفِ الخائفِ بين يدي اللّهِ تعالى في يوم القيامة للحساب، كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: 6]، ويحتمل أنْ يكونَ المقامُ هو المقامَ الذي يقوم فيه العبدُ بين يدي ربِّه، وهو مقامُ عبادتِه، كما يقال: هذا مَعبدُ اللّه، وهذا مَعبدُ الباري، أي: المقام الذي يَعْبُد اللّهَ العبدُ فيه[2].

الغرض من الإضافةِ في ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾:

اختصاصُ المقامِ للهِ يومَ العَرضِ عليه، أو الإضافةُ للتَّهويلِ

جاءت إضافة المقام في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 181، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 451، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 176.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 370.

رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ للرَّبِّ، لاختصاص المُلك يومَئذٍ به تعالى بحسب نفس الأمر؛ لأنَّه تعالى مُنَزَّهٌ عن مِثْله، فالإضافة اختصاصيَّة، وقيل: بل الإضافة للتَّفخيم والتَّهويل، ففي هذه الإضافة تنبيهٌ على صعوبة الموقف، وتحريضٌ على الخوفِ الذي هو أسرعُ المطايا إلى اللّه ﷻ[1]، وقيلَ: ﴿مَقَامَ﴾ مُقحَمٌ، والأصلُ: خافَ ربَّه، والزّيادةُ للتَّعظيم، وليس المراد أنَّه زائدٌ حقيقةً، بل زيادتُه بالنَّظر إلى أصلِ المعنى المراد، وأنَّه يَصِحُّ بدونه، لأنَّه غير زائد، إذِ الكلامُ كنايةٌ عن خوفِ الرَّبِّ، وإثباتُ خوفِه له بطريق بُرهانيٍّ بليغ؛ لأنَّ مَن حصل له الخوفُ من مكانِ أحدٍ يَهابُه، وإن لم يكن فيه، فخوفُه منه بالطَّريق الأولى، وهذا كما يقول المُتَرَسِّلون: المَقامُ العالي، والمَجلسُ السّامي[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمبتدأِ نَكِرَةً ﴿جَنَّتَانِ﴾:

مراتبُ الجنّاتِ لا تُعَدُّ، ونِعَمُه لِلمُتَّقِينَ الخائفينَ لا تُحَدُّ

جاءَ المبتدأُ ﴿جَنَّتَانِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ نَكرةً للتَّعظيم، وفيه إشارةٌ إلى كثرةِ المراتبِ التي لا تُحَدُّ، ونِعَمِه التي لا تُعَدُّ، وليُعْلَمَ أنَّ آخِرَ العذاب جهنَّمُ، وأنَّ الجنَّةَ أوَّلُ مراتبِ الثَّواب، ثمَّ بعدَها مراتبُ وزياداتٌ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمبتدأِ مُثَنًّى ﴿جَنَّتَانِ﴾:

وَفْرَةُ الأقوالِ في تحديدِ المرادِ بالجنَّتَينِ

في تثنيةِ ﴿جَنَّتَانِ﴾ رأيانِ، **الأوَّلُ:** أنَّ المرادَ جنَّتانِ اثنتانِ على ظاهرِ النَّظم، فالتَّثنيةُ مقصودةٌ. **والآخَرُ:** أنَّ العددَ غيرُ مقصودٍ، وتعدَّدتِ الأقوالُ في بيانِ الرَّأيِ الأوَّلِ، ومِن أهمِّ ما قيل في تحديدِهما: إنَّهما جنَّةُ عدَنٍ وجنَّةُ النَّعيم، وهما للصِّدّيقين والشُّهداء والمُقَرَّبينَ والسّابقين، أو جنَّتانِ من ذهب، أو جنَّةٌ لتَركِ المساوئ وجنَّةٌ لفعل الطّاعاتِ، أو جنَّةٌ خُلقتْ له وجنَّةٌ ورِثَها، أو جَنَّةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 184.
(2) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 136، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 233.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 370.

للإنسيِّ وجنَّةٌ للجنّيِّ، أو جنَّةٌ هي مَنزِلُهُ وجَنَّةٌ هي مَنزِلُ أزواجِه وخَدَمِه، أو جنَّةٌ هي مَسْكنُه وجنَّةٌ هي بُستانُه، أو جنَّةٌ أسفلَ القُصورِ وجنَّةٌ أعلاها، أو جنَّةٌ عن يمينِ القُصورِ وجنَّةٌ عن شمالِها، أو جنَّةٌ بخَوفِه وجنَّةٌ بتركِ شهوتِه، أو جنَّةٌ للعِلْمِ والعقلِ وجنَّةٌ للعملِ، أو جنَّةٌ يثابُ بها وجنَّةٌ تُضَمُّ إليها فضلًا، أو هما جنَّتانِ ضمنَ الجنَّةِ الكبيرةِ المعروفةِ، وخصَّهُما بالذِّكرِ لمَرتَبتِهما[1].

السـنـة بـيـان للقرآن، وتبيين لـمـنـازل أهـل القران

ولعلَّ الأقربَ للصَّوابِ: أنَّهما بستانانِ في الجنَّةِ، كما جاءَ في الأثرِ، فقد أخْرَجَ ابْنُ مَرْدويَه، عَنْ عياضِ بْنِ غَنْم، أنَّهُ سَمِعَ رَسولَ اللهِ ﷺ، تَلا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، قال: «بُسْتانانِ، عَرْضُ كُلِّ واحِدٍ مِنهُما مَسيرَةُ مئة عام، فيها أشجارٌ، وفَرْعُها ثابِتٌ، وشَجَرُها ثابِتٌ، وعَرْصَتُها عَظيمَةٌ، ونَعيمُها عَظيمٌ، وخَيْرُها دائِمٌ، ولَذَّتُها قائِمَةٌ، وأنْهارُها جارِيَةٌ، وريحُها طَيِّبٌ، وبَرَكَتُها كَثيرَةٌ، وحَياتُها طَويلَةٌ، وفاكِهَتُها كَثيرَةٌ»[2]، وأمّا القولُ الثّاني؛ فهو أنَّ التَّثنيةَ غيرُ مُرادَةٍ على الحقيقةِ، وأنَّ العددَ غيرُ مقصودٍ، بلِ المرادُ جنَّةٌ واحدةٌ، فهو إخبارٌ بأنَّ بَصَره حيثُ نظرَ، لا يقعُ إلّا على مُلكِه وجنَّتِه، ولا يقعُ على مُلكِ غيرِه، وليس إخبارًا عن عددِ الجنَّتَينِ[3]، وقيل: إنَّ التَّثنيةَ كنايةٌ عن التَّعدُّدِ للتَّكثيرِ والمبالغةِ، وفي تَوجيهِ التَّثنيةِ على هذا الرَّأيِ قالوا: إنَّ إيثارَ صيغةِ التَّثنيةِ لمراعاةِ الفواصلِ السّابقةِ واللّاحقةِ، فقد بُنيَتْ قرائنُ السّورةِ عليها، والقرينةُ ظاهرةٌ، وعلى هذا فجميع ما أُجريَ بصيغةِ التَّثنيةِ في شأنِ الجنَّتَين، فمرادٌ به الجَمعُ[4].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 25/ 251، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 386، ومكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 11/ 7232، والماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 438، والواحديّ، التفسير البسيط: 21/ 181، والزّمخشري، الكشّاف: 4/ 451، والغزنويّ، باهر البرهان: 3/ 1439.

(2) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 7/ 708.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 479، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 233.

(4) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 118، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 233، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 176، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 180، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 265.

للمتّقي ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت

وهناك من رَأى أنَّه لما قال تعالى في حقِّ المُجرم: إنَّه يطوفُ بين نارٍ وبين حميم آنٍ، وهما نوعانِ، ذَكَرَ لغيره - وهو الخائفُ - جنَّتَينِ في مقابَلة ما ذَكَرَ في حقِّ المجرم، لكنَّه ذكر هناك أنَّهم يَطوفون، فيُفارقون عذابًا، ويقعون في الآخر، ولم يقل هاهنا: يَطوفون بين الجنَّتينِ، بل جعلَهُمُ اللّهُ تعالى مُلوكًا، وهم فيها يُطافُ عليهم، ولا يُطافُ بهم، احترامًا لهم وإكرامًا في حقِّهم، وأمّا قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمّد: 15]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ [الحِجر: 45]، فإنَّ ذِكْرَ الجنَّة والجنّاتِ لاتِّصالِ أشجارِها ومساكنِها، وعدمِ وقوع الفاصلِ بينهما، فصارت كجنَّةٍ واحدة، ولِسَعَتِها وتنوُّعِ أشجارِها وكثرةِ مساكنِها، كأنَّها جنّاتٌ، ولاشتمالِها على ما تَلْتَذُّ به الرّوحُ والجِسمُ كأنَّها جنَّتان، فالكلُّ عائدٌ إلى صفة مدحٍ[1].

بلاغةُ الاعتراضِ، معَ بيانِ المرادِ بالفاءِ والآلاءِ في هذا الموضعِ:

في المسارعةِ بذِكرِ الآلاءِ مبالغةٌ في التَّقريرِ والتَّوبيخِ

جاءتْ جملة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ معترضةً بين الموصوفِ والصِّفةِ، وهي تكريرٌ لنظائرها المتقدِّمة في السّورةِ، فالفاءُ للتَّفريع على ما تقدَّم منَ الامتنانِ بذِكرِ الجزاءِ الحسنِ بامتلاك الجَنَّتين، وتخصيصِهما لمن خافَ مقامَ ربِّه، وفي ذلك من الآلاء العظيمةِ والنِّعَم الجزيلة ما يَحثُّ على تقرير الإيمانِ في قلوبِ المحسنينَ، وتوبيخِ العاصينَ المُكَذِّبينَ.

سِرُّ وصفِ الجَنَّتينِ بقوْلِه: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾:

في الوصفِ بالأفنانِ زينةٌ بهيجةٌ ومنظرٌ حَسَنٌ

وصفَ النَّظمُ الجليلُ الجنَّتينِ بأنَّهما ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾؛ لأنَّ البساتينَ لا يَكمُلُ مدحُها إلّا بكثرةِ الأنواعِ والألوانِ والفُروعِ المشتبكةِ والأغصانِ[2]، فهذا الوصف في الأصل للزِّينةِ والابتهاجِ؛ لأنَّ الجنّاتِ في الأصل ذواتُ أشجارٍ، والأشجارُ ذواتُ أغصانٍ، والأغصانُ ذواتُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 371.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 181.

أزهارٍ وأثمارٍ، وهي لتَنزُّهِ النّاظرِ، إلّا أنَّ جنَّةَ الدُّنيا لضرورة الحاجةِ، وجنَّةُ الآخرة ليست كالدُّنيا، فلا يكون فيها إلّا ما فيه اللَّذَّة، وأمّا الحاجة؛ فلا[1].

الغرض من التَّنكير والجمع في ﴿أَفۡنَانٖ﴾:

أفنانٌ كثيرةٌ ملتفَّةٌ تُبهجُ النّاظرينَ وتُسعدُ قلوبَهم

جاء لفظُ ﴿أَفۡنَانٖ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾ جمعًا نَكرةً للتَّكثير والتَّعظيم والتَّعجيب، ممّا في هَذَينِ البُستانَيْنِ اللَّذين وُعِدَ بهما الخائفُ لمقامِ ربِّه.

سِرُّ وصفِ الجنَّتين بجملةٍ اسميَّةٍ ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾:

تقريبُ صفةِ الجنَّتين إلى عقولِ الطّائعينَ في الدُّنيا

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾، أضافَ النَّظمُ الكريمُ صفةً أخرَى للجنَّتَين اللَّتَينِ وعدَ اللّهُ بهما الخائفَ من مقامِه الجليلِ؛ وذلك لتقريبِ صفة الجنَّتينِ إلى عقولِ البشرِ؛ إذْ مِمّا اعتادوه أنَّ الجِنان لا تقوم إلّا بالأنهار الجاريةِ، فمن لوازم الجِنانِ وما فيها من الأفنان النّاضرةِ، أن تجري فيها عيونُ الماءِ، وامتنَّ اللّهُ تعالى بجَرَيانِ هذه العيونِ الدّافقةِ في كلّ مكانٍ شاءَ صاحبُها، من الأعالي والأسافل[2]، وعبَّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ لإفادةِ الثَّباتِ والاستقرارِ، فهما غير متحوِّلَتَين.

الغَرَضُ من تقديمِ الخَبَرِ ﴿فِيهِمَا﴾ على المبتدأِ ﴿عَيۡنَانِ﴾:

اختصاصُ الجنَّتينِ بالعَينَينِ الجاريتَينِ زيادةٌ في النَّعيمِ والإكرامِ

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الخبرَ ﴿فِيهِمَا﴾؛ لبيانِ اختصاص الجنَّتين بهاتَين العينين الجاريتَين دون غيرِهما من بساتينِ الجَنَّة، ولتوكيدِ اشتمالِ الجَنَّتَين عليهما بدلالةِ الظَّرفيَّةِ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالمبتدَأِ مُثَنًّى ﴿عَيۡنَانِ﴾:

جاءتْ تثنيةُ ﴿عَيۡنَانِ﴾ جاريةً على نحو ما تقدم في تثنية ﴿جَنَّتَانِ﴾، وكذلك تثنيةُ ضميرَي ﴿فِيهِمَا﴾، وضميرِ ﴿تَجۡرِيَانِ﴾؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 371.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 182، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 116.

زيادةُ العطاءِ والنَّعيمِ حتَّى في الماءِ الذي يَسْقي الجنَّتَينِ

تبعًا لتثنيةِ مَعادِهما في اللَّفظ، وقد تنوَّعتِ الأقوالُ في المرادِ بهما، فقيل: في كلٍّ منهما عينٌ تجري بالماءِ الزُّلال، تُسمّى إحدى العينَين بالتَّسْنيم، والأخرى بالسَّلسَبيل، وقيلَ: إحداهما: من ماءٍ غير آسنٍ، والأخرى: مِن خَمْرٍ لَذَّة للشّاربين(1)، وقيل: هما عينانِ سوى الأنهارِ الأربعةِ التي جاءتْ في قولِه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمّد: 15](2).

الغَرَضُ مِنْ وصفِ العَيْنَينِ بالجملةِ الفِعليَّة بصيغة المضارِعِ:

تجدُّدُ جَرَيانِ العينَين واستمرارُ عطائِهما وبَرَكتِهما للمُحسنينَ

آثر النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بصيغةِ المضارعةِ في قولِه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ جريانِ ماءِ العينَين واستمرارِ هذا الجريانِ، فهما تجريانِ ماءً عذبًا فُراتًا بالزّيادةِ والكرامةِ من اللّه على أهل الجنَّة، وفيه كذلك استحضارٌ لصورةِ الماء الجاري، بما يُبهِجُ النَّفسَ، وفي وصفِ العينَين بالجَريانِ إشارةٌ خفيَّةٌ إلى جريانِ عُيونِ الخائفينَ من مقامِ اللّهِ في الدُّنيا بالدُّموعِ الغزيرةِ الجاريةِ من مخافة اللّه(3).

الغرض من حذفِ مفعولِ ﴿تَجْرِيَانِ﴾:

عمومُ جريانِ العينَينِ حيثُ شاءَ المُنعَّمونَ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، حذفَ النَّظمُ الجليلُ مفعولَ ﴿تَجْرِيَانِ﴾ لإفادةِ التعميم، أي: تجريانِ حيثُ شاؤوا من الأعالي والأسافل، وقيل: بل الغَرَضُ من الحذفِ الإشارةُ إلى أنَّهما تجريانِ دائمًا، فلا تنقطعانِ أبدًا(4).

دلالةُ الفصلِ بينَ الأفنان، وذِكر الفاكهةِ بذِكر العينَين:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 116.

(2) محمّد بن العثيمين، تفسير القرآن، من الحجرات إلى الحديد، ص: 319.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 178.

(4) محيي الدّين شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 70.

في الجمعِ بين النَّظرين مراعاةٌ للجانبِ الجماليِّ في الوصف

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فصَل النَّظمُ الجليلُ بين ذِكرِ الأفنان وبين ذِكرِ الفاكهةِ، بذِكر العينَين الجاريتَين، مع أنَّ الفاكهةَ بالأفنان أنْسَبُ، وذلك لأنَّه لما جَرى ذِكرُ الأفنانِ، وهي مِن جمالِ منظرِ الجنَّةِ، أعقبَ بما هو من محاسنِ الجنّاتِ، وهو عيونُ الماءِ، جَمعًا للنَّظيرَين، ثمَّ أعقبَ ذلك بما هو من جمال المنظرِ، أي: الفواكه في أفنانها، وهي من مَلذّات الذَّوقِ[1]، أو أنَّ هذا النَّظمَ العجيبَ جارٍ على عادة المُتنعِّمين، فإنَّهم إذا دخلوا البستانَ لا يبادرونَ إلى أكلِ الثِّمارِ، بل يُقَدِّمونَ التَّفَرُّجَ على الأكلِ، كما أنَّ الإنسانَ في بستانِ الدُّنيا لا يأكلُ حتّى يَجوعَ، ويشتهي شهوةً مؤلمةً، فكيف في الجنَّة؟ فذَكَر ما تَتِمُّ به النُّزهةُ، وهو خُضرةُ الأشجارِ، وجريانُ الأنهارِ، ثُم ذكرَ ما يكونُ بعدَ النُّزهةِ، وهو أكلُ الثِّمارِ، فسبحانَ مَن يأتي بالآي بأحسنِ المعاني في أبينِ المباني[2] !.

في المسارعةِ بذِكرِ الآلاءِ مبالغةٌ في التَّقريرِ والتَّوبيخ

بلاغةُ الاعتراضِ، معَ بيانِ المرادِ بالفاءِ والآلاءِ في هذا الموضعِ:

جاءتْ جملة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ معترضةً بين الموصوفِ والصِّفةِ، وهي تكريرٌ لنظائرها المتقدِّمة في السّورةِ، فالفاءُ للتَّفريع على ما تقدَّم من الامتنانِ بذِكرِ الجزاءِ الحَسَنِ، بتخصيص عينَين جاريتَين في هاتَين الجَنَّتَين اللَّتَين وهبَهما اللّهُ لمن خافَ مقامَه الجليل، وفي الآيةِ كذلك امتنانٌ بجريانِ هاتَين العينَين؛ لتوفير حظِّ الباصرة، فإنَّ النَّظر إلى الماء الجاري أجْلَبُ شيءٍ للسُّرور[3]، وفي ذلك من الآلاء العظيمةِ والنِّعم الجزيلة ما يَحُثُّ على تقرير الإيمانِ في قلوبِ المحسنينَ، ويُرغِّبُهم في الطّاعات، وفيها كذلك توبيخٌ للعاصينَ المُكَذِّبينَ، وفي تكرارِ قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 266.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 372.
(3) الكورانيّ، غاية الأماني في تفسير الكلام الرّبانيّ، ص: 65.

﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، بكثافةٍ تفوقُ تكرارَه في مَوْطِنِ العذاب، تغليبٌ لجانب الرَّحمة، فقد سرد آياتِ العذاب سردًا، وذَكرها جملةً؛ ليَقْصُر ذِكرها، وأمّا الثَّوابُ؛ فقد ذكرَهُ شيئًا فشيئًا؛ لأنَّ ذِكْرَه يَطيبُ للسّامع، وتكرار عَوْدِ الضَّمير إلى الجنس بقوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، و﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾؛ لأنَّ إعادةَ ذِكْر المحبوبِ محبوبةٌ، والتَّطويلَ بذِكر اللَّذّاتِ مستحْسَنٌ[1].

سِرُّ وصفِ الجَنَّتينِ بالجملةِ الاسميَّة:

دوامُ وجودِ الفاكهةِ بأزواجها المتعدِّدةِ من زيادةِ النَّعيم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، وصَفَ النَّظمُ الجليلُ الجنَّتَينِ باشتمالهما على زَوجينِ من كلِّ نوعٍ من أنواعِ الفاكهةِ، وذلك بعدَ ذِكرِ الأفنانِ الوارفةِ والعُيونِ الجاريةِ، وعبَّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ لإفادةِ الثَّباتِ والاستقرار، فهذه الفاكهةُ دائمةٌ غيرُ منقطعةٍ، فالآيةُ هاهُنا في معنى قوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة: 32 - 33].

الغَرَضُ مِنْ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهِمَا﴾:

اختصاصُ الجنَّتَينِ بزوجينِ من كلِّ نوعٍ من أنواعِ الفاكهةِ

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الخبرَ ﴿فِيهِمَا﴾ في قولِه: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾؛ لبيانِ اختصاصِ الجنَّتَينِ بهاتَينِ العينينِ الجاريتَينِ، فهذه الأزواجُ المتنوِّعة من كلِّ نوعٍ من أنواعِ الفاكهةِ، مَخصوصةٌ بهاتَينِ الجنَّتَينِ دون غيرهما من بساتينِ الجنَّة، وفي هذا التَّخصيصِ إظهارٌ لكرامةِ الخائفينَ وعُلوِّ مكانتهم عندَ ربِّهم.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿مِن كُلِّ﴾:

بيانُ كُنْهِ الفاكهةِ المذكورةِ

جاءتْ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ بَيانيَّةً، فبيَّنَتْ كُنْهَ المقصودِ في قولِه: ﴿زَوْجَانِ﴾، وقد قُدِّمَ الخبرُ المُبيِّنُ على المبتدأ المُبَيَّنِ؛ لرعايةِ الفاصلة[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 372.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 266.

الغَرَضُ مِنَ الإضافةِ في ﴿كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾:

جميعُ أصنافِ الفاكهةِ جُزءٌ من نعيم صاحبِ الجنّتَين

أضافَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ ﴿فَٰكِهَةٍ﴾ إلى لفظِ ﴿كُلِّ﴾ للعموم والشُّمولِ والاستغراقِ، فما من فاكهةٍ نعرفُها في الدُّنيا، أو لا نعرفها، إلّا احتوت الجنَّتانِ على زوجَيْنِ منها؛ إذِ المرادُ: من جميعِ أصنافِ الفواكه.

غَرَضُ تَنْكيرِ ﴿فَٰكِهَةٍ﴾:

فاكهةُ الجنَّةِ فاكهةٌ عظيمةُ المُتعةِ

عدلَ النَّظْمُ الحكيمُ عن تعريفِ ﴿فَٰكِهَةٍ﴾، فلم يقل: (فيهما مِنْ كُلِّ الفاكِهَةِ زَوْجانِ)، بل جاء بها نكرةً للتَّعظيم، فهي فاكهةٌ عَظيمةُ المتعَةِ، وكذلك فقد أفادَ التَّنكيرُ هاهُنا التَّعميمَ كذلِكَ، حتَّى تَشملَ كُلَّ أنواعِ الفاكهةِ، ما عرفنا منها، وما لم نعرِف، كما جاءَ في الحديثِ القدسيِّ، عنْ أبي هُرَيْرَةَ ﵁ قالَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ : «قالَ اللّه: أعدَدْتُ لِعِبادِيَ الصّالِحينَ ما لا عينٌ رَأتْ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ»[1]، كَما أنَّ مفردةَ الفاكهةِ تدلُّ على طيبٍ واستطابةٍ واستطرافٍ، فهي نعمةٌ من اللّهِ تعالى؛ زيادةً في تمتُّعِ أهلِ الجَنَّةِ، ومُبالَغةً في حُسنِ استِقبالِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمبتدأِ مُثَنًّى ﴿زَوْجَانِ﴾:

التَّثنيةُ إمّا للتَّكثيرِ، أو للتَّفصيل

المبتدأُ ﴿زَوْجَانِ﴾ في الآيةِ مُثَنَّى زَوجٍ، الذي هو النَّوعُ، ولمّا كانتْ أنواعُ فواكهِ الجنَّة كثيرةً، وليس لكلِّ فاكهة نوعان، فإمّا أن نجعلَ التَّثنيةَ بمعنى الجمعِ، ونجعلَ إيثارَ صيغةِ التَّثنيةِ لمراعاةِ الفاصلةِ، ولأجلِ المزاوجةِ مع نظائرها من قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ إلى هنا، وإمّا أن نجعلَ تثنيةَ ﴿زَوْجَانِ﴾؛ لكون الفواكه بعضها يُؤكلُ رَطبًا، وبعضها يُؤكلُ يابِسًا، وذلك مثل: الرُّطَبِ والتَّمرِ، والعنبِ والزَّبيبِ[2]، وقيل: من كلِّ نوعٍ صِنفانِ: معروفٌ، وغريبٌ لم

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3280).

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 266.

يعرفوه في الدُّنيا[1]، وقيل: أراد تفضيلَ هاتَين الجنَّتينِ على الجنَّتين اللَّتَين دونَهما، فإنَّه ذَكر هاهُنا عينَين جاريتَين، وذكر ثَمَّ عينَين تنضخان بالماء، والنَّضْخُ دونَ الجَري، فكأنَّه قال: في تَيْنِك الجنَّتين من كلِّ فاكهة نوعٌ، وفي هذه الجنَّة من كلِّ فاكهة نوعانِ[2].

بلاغةُ الاعتراضِ، معَ بيانِ المرادِ بالفاءِ والآلاءِ في هذا الموضعِ:

في ذِكرِ أصنافِ الفاكهةِ طَيِّبةِ المَذاقِ نعمةٌ عظيمةٌ

جاءتْ جملة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ معترضةً بين الموصوفِ والصِّفةِ، وهي تكريرٌ لنظائرها المُتقدِّمة في السّورةِ، فالفاءُ للتَّفريع على ما تقدَّم من الامتنانِ بذِكرِ أنواعِ الفاكهة، وما فيها من لَذَّةِ المَذاقِ والشكلِ، وفي ذلك من الآلاء العظيمةِ والنِّعَم الجزيلةِ ما يحثُّ على تقرير الإيمانِ في قلوبِ المحسنينَ، ويُرَغِّبُهم في الطّاعات، وفيها كذلك توبيخٌ للعاصينَ المُكَذِّبينَ.

سِرُّ تَقييدِ ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ بالحالِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾:

حالُ أهلِ الجنَّتَينِ الاستقرارُ والتَّنعُّمُ على خير حالٍ

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالًا، وفي توجيهه قولانِ، **الأوَّلُ:** أنَّهُ حالٌ من قولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، وجيءَ بالحالِ صيغةَ جمعٍ، بمعنى اعتبار صاحب الحالِ، وصلاحيَّةُ لفظِه للواحد والمُتَعَدِّدِ، لا باعتبارِ وقوعِ صِلَتِه بصيغةِ الإفرادِ، فإنَّ ذلكَ اعتبارٌ بكون (مَنْ) مفردةَ اللَّفظِ، والمعنى: أُعْطوا الجنانَ، واستقرّوا بها، واتَّكؤوا على فُرُشٍ[3]، **والآخر:** أنَّ عاملَ الحالِ مقدَّرٌ محذوفٌ، أي: يتنَعَّمونَ مُتكئينَ على فُرُشٍ، ودلَّ الكلام على هذا الفعلِ، وهو العاملُ في الحالِ[4]، وفي هذا التَّوجيه معنى لطيفٌ، وذلك أنَّ الآكِلَ إن كان ذليلًا كالخَدَم والعبيدِ والغِلمانِ، فإنَّه يأكلُ قائمًا، وإن كان عزيزًا، فإن كان يأكل لِدَفعِ الجوعِ؛ فإنَّهُ يأكل قاعدًا، ولا يأكلُ مُتَّكِئًا إلّا عزيزٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 68.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 178.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 267.
(4) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 11/ 7235.

مُتفكِّهٌ ليس عنده جوعٌ يُقْعِدُه للأكل، فالتَّفكُّهُ مناسبٌ للاتِّكاء[1]، وقيل: هو منصوبٌ على الاختصاصِ أو المدح[2].

سِرُّ مجيءِ الحالِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ اسمَ فاعل جمعًا:

من صفاءِ النَّعيمِ الاجتماعُ بالأهلِ في بسطةٍ ودَعةٍ وراحةِ بالٍ

جاء الحالُ جمعًا في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ تنعُّمَ أصحابِ الجِنانِ يتمُّ باجتماعهم وأُنْسِ أحَدِهم بإخوانِه وزوجاتِه وأولادِه، وذلك كما في قولِه تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٣﴾ [النساء: 13]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١﴾ [الطور: 21].

نُكْتَةُ اختيارِ لَفْظِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ دونَ رَديفاتِها:

الاتِّكاءُ في ظلالِ الجِنانِ من أتمِّ مظاهرِ الرَّاحةِ والدَّعةِ

آثر النَّظمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا﴾؛ وذلك لأنَّ الاتِّكاءَ إنَّما هو جِلسةُ الرّاحةِ والتَّرَفِ، والمرادُ هاهُنا أنَّهم ليس لهم شغلٌ سوى النَّعيم، ولا عليهم كُلفةٌ أصلًا[3]. فالمُتَّكأُ من مظاهرِ النِّعمةِ والتَّرفِ في الدُّنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى في شأنِ امرأةِ العزيز: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: 31]، وقال عن نعيم الآخرة: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍۖ﴾ [الطّور: 20]، فالاتِّكاءِ وسيلةٌ من وسائلِ الرّاحة[4]، بل هو أتمُّ مظاهرِ الدَّعَة والتَّرف، لا تقومُ مقامَه صفةٌ أخرى كالاضطجاع؛ لأنَّ الاضطجاعَ يدلُّ على لُصوقٍ بالأرضِ على جنبٍ، في دلالَةٍ على الضَّعْفِ والوهَنِ؛ لذلك يُقالُ: ضجَّعَ في الأمرِ؛ إذا قصَّرَ، كأنَّه لم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 372.

(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 213.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 401.

(4) الشّعراويّ، الخواطر: 15/ 9250.

يقُم بهِ، واضطجعَ عنهُ، ورجلٌ ضُجَعَةٌ: عاجزٌ لا يكادُ يبرَحُ[1]؛ لذلكَ آثر النَّظمُ الحكيمُ لفظَ الاتِّكاءِ لما فيهِ من الإشارةِ إلى التَّرَفِ دونَ الوَهَنِ والضَّعفِ، ولأنَّ الاتِّكاءَ جِلسةُ المتَنَعِّم، وهو جلوسُ تمكُّنٍ واستقرارٍ وراحةٍ، كجُلوس الملُوك على الأسِرَّة[2].

بلاغَةُ اسمِ الفاعِلِ في تَصويرِ فِعلِ الاتِّكاءِ:

ثباتُ حالِ المنَعَّمينَ واستمرارُ نَعيمِهم في الجنَّةِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ استعملَ النَّظمُ الحكيمُ اسمَ الفاعِلِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾؛ للدَّلالة على ثباتِ حالِهم واستمرارِ نَعيمِهم في الجنَّة، فلا تعبَ ولا نَصَبَ، بل هم في راحةٍ تامَّةٍ، فلا يُضطَرّونَ للقيامِ، ففيه دلالةٌ على صحَّةِ الجسم وفَراغِ القلبِ[3].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتُها في ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ﴾:

استعلاءُ أهلِ الجنّاتِ على فُرُشهم في دَعَةٍ وراحةٍ

جاء حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ﴾، على أصلِ معناه وهو الاستعلاءُ، فأفاد أنَّ هؤلاءِ المحسنينَ المُنعَّمين في الجَنّاتِ قد استقرّوا على فرُشِهم، على هيئة الاتِّكاءِ، وفيه كذلك تشبيهٌ لتَمَكُّنهم من هذه الفُرُش بتَمَكُّنِ المظروفِ في الظَّرفِ، وإشعارٌ بأنَّ أكثرَ حالِهم الاستقرارُ عليها[4].

الغَرضُ مِنَ التَّعبيرِ بـ﴿فُرُشٍ﴾ جمعًا نَكِرةً:

للمحسنينَ فُرُشٌ كثيرةٌ عظيمةٌ يتَّكِئونَ عليها

جاء لفظُ ﴿فُرُشٍ﴾ جمعًا في قولِه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ﴾، والظّاهرُ أنَّ لكلِّ واحدٍ فُرُشًا كثيرةً، لا أن لكلِّ واحدٍ فِراشًا، فلكلِّهم فُرُشٌ عليها كائنون[5]، وفي تنكيرها إشارةٌ إلى عَظَمتها وفخامتِها وحُسنِ إعدادها، فعظَّمها النَّظمُ مخاطبًا للمُكلَّفين بما تحتمل عقولُهم، وإلّا فليس في الجنَّة ما يشبهه على الحقيقة شيءٌ من الدُّنيا[6]، فهي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضجع).

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 268، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 831.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 68.

(4) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 137.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 372.

(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 183.

فرُشٌ كثيرةٌ عظيمةٌ فخْمَةٌ طيِّبَةٌ، ولو أُفْرِدَت، فقالَ: (مُتّكِئًا على فراشٍ بطانَتُه من إستبرقٍ)؛ لتوُهِّمَ أنَّه فراشٌ واحدٌ مخصوصٌ دونَ بقيَّةِ الفرُشِ.

سِرُّ وصفِ الفُرُشِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿بَطَآئِنُهَا﴾:

دوامُ التَّنعُّمِ بالفُرُشِ الطَّيِّبَةِ الملْمَسِ، من أماراتِ الاعتناءِ براحةِ المحسنينَ

وصفَ النَّظمُ الجليلُ فُرُشَ الجنَّتينِ بالجملةِ الاسميَّة: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾؛ لما فيها من إفادَةِ الثَّباتِ والدَّوام؛ إشارةً إلى دوام التَّنَعُّمِ بهذه الفُرُشِ ذاتِ الملمسِ الطَّيِّبِ؛ إذِ البطائنُ جمعُ بطانة بكسر الباء، وهي مشتقَّةٌ من البطنِ، ضِدِّ الظَّهر، وهي الثَّوب الذي يُجعَل على الفراشِ، والظَّهارةُ: الثَّوبُ الذي يُجْعَل فوقَ البطانة؛ ليَظهرَ لرؤية الدّاخل للبيت، فتكون الظَّهارةُ أحسنَ من البطانة في الفراش الواحدِ، فالمعنى هنا: أنَّ بطائنَ فُرُشِ الجنَّة من إستبرقٍ، فلا تسأل عن ظهائرها، فإنَّها أجودُ من ذلك[1].

الغَرضُ مِنَ الإضافةِ في ﴿بَطَآئِنُهَا﴾:

المبالغةُ في العنايةِ براحةِ المحسنينَ بتفصيلِ ما صُنِعَتْ منه فُرُشُهم

في إضافةِ البطائنِ إلى الضَّميرِ العائِدِ على الفُرُشِ في قولِه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ دليلٌ على مبلغِ العناية براحةِ المحسنينَ الذين خافوا مقامَ ربِّهم، ففيها تفصيلٌ لما صُنِعَتْ منه هذه الفُرشِ، فقدِ اعتنَى النَّظمُ بما في باطن الفُرُشِ؛ إشارةً إلى غايةِ الفخامةِ والرّاحة في ظواهرها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالبطائنِ دونَ الظَّهائِرِ:

أمرُ الآخرةِ مبنيٌّ على الإكرام والتَّنعيم فتكون البطائنُ كالظَّهائر

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ عبَّرَ النَّظمُ بالبطائنِ دون الظَّهائرِ، والأصلُ أن يُعبَّرَ بالظَّهائرِ في مواطنِ الزِّينَة، وإنَّما عدل عنها؛ ليَدُلَّ على نهاية شرفِها، فإنَّ ما تكون بطائنُها من الإستبرق تكون ظهائرُها خيرًا منها، وكأنَّه شيءٌ لا يُدركُه البصرُ،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 269.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 452.

من سندسٍ وهو الدّيباجُ الرَّقيقُ النّاعمُ، وفيه وجهٌ آخرُ معنويٌّ، وهو أنَّ أهلَ الدُّنيا يُظهِرون الزّينة، ولا يتمكَّنون من أن يجعلوا البطائنَ كالظَّهائر؛ لأنَّ غرضَهم إظهارُ الزّينة، والبطائن لا تظهرُ، وإذا انتفى السَّبب؛ انتفى المسبَّبُ، فلمّا لم يحصل في جعل البطائنِ من الدّيباج مقصودُهم، وهو الإظهار؛ تَركوه، وفي الآخرة الأمرُ مبنيٌّ على الإكرام والتَّنعيم، فتكون البطائنُ كالظَّهائر، فذكَرَ البطائن[1].

معنى ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُها في ﴿مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾:

بيانُ كُنْهِ بطائن الفُرُشِ؛ لبيانِ بـالـغِ العنـايـةِ براحتهم

جاءتْ ﴿مِنۡ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ بَيانيَّةً، فبيَّنَتْ كُنْهَ المقصودِ في قولِه: ﴿بَطَآئِنُهَا﴾، أي: إذا كانت البطانةُ التي تلي الأرضَ هكذا، فما ظنُّكَ بالظَّهارةِ؟ وقيلَ: إذا كانت البطائنُ من إستبرقٍ فما الظّواهرُ؟ قيل: إنَّما وصَفَ لكم بطائنَها؛ لتهتديَ إليها قلوبُكم، فأمّا الظّواهرُ؛ فلا يعلمُها إلّا اللّه، وفي الخبر أنَّ ظَواهِرَها نورٌ يَتَلَألَأُ، وقيل: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾، وظَواهِرُها من نورٍ جامدٍ[2].

الغَرض من التَّعبير بـ ﴿إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ ودلالةُ تنكيرِ لفظِه:

في الجنَّتَينِ كلُّ ما هو عجيبٌ لا يخطر ببال

وصفَ النَّظمُ الجليلُ الفُرُشَ بأنَّ ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾، وقد آثَرَ لفظَ ﴿إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾؛ لما فيه من معنى الحِدَّةِ التي تَبْرُزُ إلى الظّاهر بقوَّةٍ أو اندفاعٍ من عمقِ ما يكتنِفُها[3]؛ إذْ هو صنفٌ رفيعٌ من الدّيباج السَّميك، المنسوج بخيوطِ الذَّهب، فهو نسيجٌ بالغُ الفخامةِ والبَهاءِ، وفي إيثارِ هذا اللَّفظِ المُعَرَّبِ عن الفارسيَّةِ في قولِ بعضهم[4]، إشارةٌ إلى أنَّ الجنَّتَينِ تشتملانِ على كلِّ ما هو عجيبٌ غريبٌ من وسائلِ الرّاحةِ والدَّعَةِ والتَّرفِ، حتَّى لو كان مستورَدًا مُسْتَجْلَبًا من بلاد فارس في عُرفِ المُتلقّينَ الأوَلِ من العربِ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 372.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 178.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (برق).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 373.

معنى الواوِ ودلالتُها في ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾:

جاءتِ الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٍ﴾ حاليَّةً؛ لبيانِ أنَّ ثمرَ الجنَّتينِ قريبُ التَّناولِ منهم متى شاؤوا، وعلى أيِّ صفةٍ كانوا، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣﴾ [الحاقّة: 23]، وقال سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾ [الإنسان: 14]، أي: لا تمتنع ممَّن تناوَلَها، بل تميل إليه من أغصانها[1].

بيانُ حالِ المتَنَعِّمين ومدى قُربِ النَّعيمِ الشَّهيِّ منهم

بلاغةُ التَّعبيرِ بجِناسِ الاشتقاقِ في ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾:

جاءَ جناسُ الاشتقاقِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾؛ للإشارةِ إلى مدى قُربِ النَّعيمِ من أصحابِ هذه الجنّاتِ، فالثِّمارُ الدّانيَةُ قريبةٌ إليهم كهذا القُربِ بين لفظي ﴿وَجَنَى﴾ و﴿ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾، فتآزرَ الإيقاعُ الصّوتيُّ مع المَلْمَحِ الدَّلاليِّ في تقريبِ صورةِ هذا النَّعيمِ الدّاني لِمَن خافوا مقامَ ربِّهم.

تآزرَ الإيقاعُ الصَّوتيُّ مع المَلْمَحِ الدَّلاليِّ في تقريبِ صورةِ هذا النَّعيمِ الدّاني

الغرضُ من التَّعبيرِ بالمصدرِ (جَنَى) بدلًا من اسم المفعولِ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ باستعمالِ المصدرِ (جَنَى)؛ للدَّلالةِ على اسم المفعولِ، وهو المُجْتَنَى من الشَّجرِ، وهو الثَّمر نفسُه، أي: ما يُجْتَنَى من أشجارِ الجنَّتينِ[2]، وعدلَ عن اسم المفعولِ إلى المصدرِ؛ ليُفْهِمَ سهولةَ نفسِ المصدرِ، الَّذي هو الاجتناءُ[3].

يُسْرُ اجتناءِ الثِّمارِ للمُتَنَعِّمينَ زيادةٌ في التَّرفِ والدَّعَةِ

الغَرضُ مِنَ الإضافةِ في ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾:

أضافَ النَّظمُ الجليلُ الجَنَى إلى الجنَّتينِ؛ لبيانِ اختصاصِ هاتَينِ الجنَّتَينِ بهذا الجَنَى الطَّيِّبِ، وفيه إشارةٌ إلى مزيدِ العنايةِ بصاحبِ الجنَّتينِ.

اختصاصُ الجنَّتَينِ بهذا الجنَى الطَّيِّبِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 373.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 185.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 183.

الغَرضُ مِن التَّعبير بـ ﴿دَانٍ﴾ مادَّةً وصيغةً:

دوامُ قُربِ الثِّمارِ الشَّهيَّةِ في كلِّ لحظةٍ من مظاهرِ العناية

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ عن قُربِ الثِّمارِ في الجنَّةِ بلفظِ ﴿دَانٍ﴾؛ لما فيه من معنى القُربِ واليُسرِ؛ إذِ المرادُ أنَّهُ قَريبٌ لا يُعَنِّي الجانيَ[1]، وآثرَ التَّعبيرَ به على صيغةِ اسم الفاعلِ؛ للدَّلالةِ على دوام هذا القُربِ وثباتِه، فلا يبعدُ عنهم هذا الثَّمَرُ الشَّهيُّ، وإنَّما هو حاضرٌ بينَ أيديهم في كلِّ لحظة، وهم على فُرُشهم، فمتى شاؤوا؛ اقتَطفوا منه[2]، فهو قريبٌ من آخذِه ومُجْتَنيه، يَجْتَنيه كيف يشاءُ، قائمًا وقاعدًا وراقدًا[3].

الإشارةُ إلى فرْقِ ما بين جنَّةِ الدُّنيا وجنَّةِ الآخرة

وكذلك ففي لفظِ ﴿دَانٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ جنَّة الآخرةِ مخالِفةٌ لجنَّة الدُّنيا من ثلاثة أوجه، أحدُها: أنَّ الثَّمرةَ على رؤوس الشَّجرِ في الدُّنيا بعيدةٌ على الإنسان المُتَّكِئ، وفي الجنَّة هوَ مُتَّكِئٌ والثَّمرةُ تتدلَّى إليه. ثانيها: أنَّ الإنسانَ في الدُّنيا يسعى إلى الثَّمرةِ، وفي الآخرةِ هي تدنو إليهم، وتدور عليهم. وثالثها: أنَّ الإنسانَ في الدُّنيا؛ إذا قَرُبَ من ثَمَرِ شجرةٍ بَعُدَ عن غيرِها، وثمارُ الجنَّةِ كلُّها تدنو إليهم في وقتٍ واحدٍ، ومكانٍ واحدٍ[4].

معنى الفاءِ ودلالتُها، وبَيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾:

في ذِكرِ أصنافِ الفاكهةِ طيِّبةِ المَذاقِ نعمةٌ عظيمةٌ

جاءتِ الفاءُ في جملة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريع على ما تقدَّم منَ الامتنانِ بذِكرِ حالِ التَّنَعُّمِ بالاتِّكاءِ على الفُرش الوثيرةِ النّاعمةِ، التي بولِغ في إعدادها لرَفاهيَّة المُتنعِّمينَ كحالِ الملوك، في حالٍ من فراغِ القلب وصحَّةِ الجسدِ، وقُرب الثِّمارِ الشَّهيَّةِ، وفي ذلك من الآلاءِ العظيمةِ والنِّعم الجزيلة ما يَحثُّ على تقرير الإيمانِ في قلوب المحسنينَ، ويُرغِّبُهم في الطّاعات، وفيها كذلك توبيخٌ للعاصينَ المُكذِّبينَ.

---

(1) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 2/ 245.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 269.

(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 11/ 7236.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 374، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 348.

سِرُّ وصفِ الجَنَّتينِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ﴾:

التَّنعُّمُ بالحور العين لذَّةٌ ملازمةٌ في الجنَّةِ

جاءَتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾؛ للدَّلالةِ على دوام وجودِ هؤلاءِ الحورِ العينِ في فُرُشِ المتنعِّمينَ في الجنَّةِ، بعدَ أنْ ذكرَ نعمةَ التَّمتُّعِ بالأفنان الباسقةِ، والعيونِ الجاريةِ، فليست هذه اللَّذَّةُ مقطوعةً ولا ممنوعةً، بل هي لَذَّةٌ مُلازِمةٌ دائمةٌ.

مَوقِعُ جُملةِ ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ﴾ بينَ الصِّفةِ والاستئنافِ:

الجملةُ إمّا بيانٌ لنعمةٍ أُخرى، أو هي زيادةٌ في وصفِ النَّعيم

ذهبَ المُعْرِبونَ إلى أنَّ جملةَ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، لا محلَّ لها من الإعرابِ، وذهب فريقٌ منهم إلى أنَّها صفةٌ أخرى لـ﴿فُرُشٍ﴾[1]، وعلى الأوَّلِ: فقد استأنفَ النَّظمُ الجليلُ الحديثَ عن نعمةٍ أخرى من نِعَمِ أهلِ الجنّاتِ، وهي التَّنَعُّم بالحورِ العين قاصِراتِ الطَّرفِ، وعلى الثّاني: فهي صفةٌ لما في الفُرُشِ من النَّعيم العظيم براحةِ البَدنِ على هذه الفُرشِ الوثيرةِ، وراحةِ النَّفس ولَذَّتِها بمواقَعَةِ الحورِ العينِ في هذه الفُرشِ الباهرةِ.

الغَرَضُ من تقديم الخبر شبهِ الجملةِ ﴿فِيهِنَّ﴾:

اختصاصُ الجنّاتِ أو الفُرُشِ بقاصراتِ الطَّرْفِ

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شِبهَ الجملةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختصاص، فهو إمّا اختصاصُ هذه الجنّاتِ - التي وعدَ اللّهُ كلَّ خائفٍ بجنَّتَينِ منها - بقاصراتِ الطَّرْفِ، وإمّا اختصاصُ هذه الفُرشِ الوثيرةِ النّاعمةِ بقاصراتِ الطَّرفِ اللّائي وعدَ اللّهُ بهنَّ الخائفينَ من مقامه.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

احتَوت الفُرُشُ قاصراتِ الطَّرفِ والمحسنينَ

جاءَ استعمالُ حرفِ ﴿فِيهِنَّ﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ؛ لإفادَةِ معنى التَّضَمُّنِ والاحتِواءِ، فكأنَّ الجنّاتِ أو الفُرُشَ قدِ احتَوت هؤلاءِ المُتَّقينَ

(1) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 215.

وشمِلَتهُم فيها، فهُم مغموسونَ في النَّعيم ظاهرًا وباطِنًا، لا يَنْفكّون عنِ التَّلذُّذِ بهذا النَّعيمِ المُقيمِ والرّاحَةِ التّامَّة، وقيل: إنَّ (في) هاهُنا بمعنى (على)، والمعنى: على الفرش حورٌ قاصراتُ الطَّرف[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الجمعِ في ﴿فِيهِنَّ﴾، مع أنَّه وصفٌ للمُثَنَّى:

في عودِ الضَّميرِ جمعًا على الفُرُشِ تكثيرٌ لوُجوه النَّعيم

تعدَّدَتْ أقوالُ المُعْربينَ في توجيهِ العدولِ عن ضمير المُثَنَّى (فيهما) إلى ضميرِ الجمع ﴿فِيهِنَّ﴾، **القولُ الأوَّلُ**: أنَّ الضَّميرَ في ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ على الجِنانِ الدّالِّ عليهنَّ ﴿جَنَّتَانِ﴾؛ إذ كلُّ فردٍ له جنَّتانِ، فصَحَّ أنَّها جِنانٌ كثيرةٌ، **والقولُ الثّاني**: أنَّ الضَّميرَ يعودُ على ما اشتملَتْ عليه الجنَّتانِ من المجالسِ والقُصورِ والمَنازِلِ، **والقولُ الثّالثُ**: أنَّه يُعود على الفُرُشِ، أي: فيهنَّ مُعَدّاتٌ للاستمتاعِ، وهو قول حسنٌ قريبُ المأخذ، **والقولُ الرّابعُ**: أنَّ الضَّميرَ عائدٌ على الآلاءِ المعدودةِ من الجنَّتينِ والعينَينِ والفاكهةِ والجَنى، وفيه بُعْدٌ، **والقولُ الخامسُ**: أنَّ كلَّ موضعٍ من الجنَّةِ جَنَّةٌ، فلذلك قال: ﴿فِيهِنَّ﴾[2]، أو أنَّ عودَ الضَّمير إلى ﴿فُرُشٍ﴾ أرجحُ، وهو سببُ تأخيرِ نعيم أهلِ الجنَّة بلذَّةِ التَّأنُّسِ بالنِّساءِ عمّا في الجنّاتِ من الأفنانِ والعُيونِ والفَواكهِ والفُرُشِ؛ ليكونَ ذِكرُ الفُرُشِ مُناسِبًا للانتقالِ إلى الأوانسِ في تلكَ الفُرُشِ، وليَجيءَ هذا الضَّميرُ مفيدًا معنًى كثيرًا من لفظٍ قليلٍ، وذلكَ من خصائصِ التَّرتيبِ من هذا التَّركيبِ[3].

الغرض من حذفِ موصوفِ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾:

صفةُ (قصْرِ الطَّرفِ) لا تُعْرَفُ إلّا في الكاملاتِ من النِّساءِ

في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ حذفَ البيانُ القرآنيُّ موصوفَ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ إذْ إنَّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، أي: نساءٌ قاصراتُ النَّظَرِ، ففي حَذفِ

(1) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 11/ 7236، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 225.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 69.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 269.

الموصوفِ إشارةٌ إلى تَمكُّن الصِّفَةِ في الموصوفِ، فلا تكادُ صفةُ (قَصْرِ الطَّرْفِ) تُعْرَفُ إلّا في كاملاتِ الأنوثَةِ من النِّساءِ، وفي ذلكَ مبالغَةٌ في وصفِ أُنوثَتِهِنَّ وحُسنِ تَبَعُّلِهِنَّ لأزواجِهِنَّ.

بَراعَةُ استِعْمالِ وصْفِ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾:

اكتنازُ هذا الوصفِ بالعِفَّةِ والصّيانَةِ والقوَّةِ والمُتْعَةِ والجَمالِ

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ عن جمالِ الحورِ العينِ اللّائي جعلهُنَّ اللّهُ جزاءً للمحسنينَ الخائفينَ، بقَولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وقد تعدَّدَت الأنظارُ في فهْمِ المُرادِ بهذا التَّعبيرِ على أقوالٍ[1]، **القولُ الأوَّلُ**: أنَّ هؤلاءِ النِّساءَ الحسانَ يَقتصرُ نظرُهُنَّ على أزواجِهِنَّ، فلا تَمُدُّ إحداهُنَّ نَظَرها إلى غيرِ بَعْلِها، كأنَّها تَحْبِسُ طَرْفَها حَبْسًا، رِضًا به، وفي ذَلكَ أمْرانِ: الأوَّل: مَدحُ هؤلاء الحورِ العينِ بالعِفَّةِ والصّيانَة، فلا يتطلَّعْنَ إلى غيرِ أزواجِهِنَّ، فلم يَحتَجْنَ إلى التَّذكيرِ بغضِّ البَصَرِ، كما هو الحالُ مَع نساءِ الدُّنيا، وهو أدْعَى لمحبَّةِ أزواجِهِنَّ لهُنَّ، وأسعدُ لِقُلوبِ هؤلاءِ المحسنينَ. والآخرُ: البُشرى لهؤُلاءِ المتَّقينَ بقوَّةِ الباءَةِ وشِدَّةِ الفُحولة، حتَّى يَكونوا محلَّ رضا زوجاتِهم، وذهب بعضُهم إلى أنَّ المعنَى أنَّهُنَّ لا يمدُدْنَ أعيُنَهُنَّ إلى ما لا يجوزُ[2]، وهو أيضًا مدحٌ بالعِفَّةِ والصّيانَة. **والقولُ الثّاني**: أنَّ المُرادَ أنَّهن فاتراتُ الطَّرفِ، وهي صفةُ مدح لجمالِ أعيُنِهِنَّ[3]، فهو وصفٌ بالجمالِ والملاحَة. **القولُ الثّالثُ**: أنَّ المُرادَ أنَّهُنَّ قاصِراتُ طرفَ أزواجِهِنَّ عَلَيْهِنَّ، فلا ينظرونَ إلى غيرهِنَّ؛ لشِدَّةِ حُسْنِهِنَّ، ولا يَدعُ تَناهي حسنِها وفرطُ جمالِها، طرفَهُ يَطْرِفُ إلى غيرِها[4]، وهو وصفٌ بشِدَّةِ الجمالِ الَّتي تُذهِلُ لُبَّ الرِّجالِ في الآخرةِ، وتُرَغِّبُهم في سلوكِ الطَّريقِ إلى اللّهِ لنَيلِ هذهِ المُتعةِ التي لا نهايةَ لَها، وبهذا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 374، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 179.

(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قصر).

(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (طرف).

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 402.

يتَّضِحُ اكتنازُ هذا الوصفِ بالعِفَّةِ والصّيانَةِ والقوَّةِ والمُتعَةِ والجمالِ، كلِّها في آنٍ واحدٍ.

بلاغَةُ التَّعْبيرِ باسمِ الفاعِلِ المَجْموعِ جَمْعَ قِلَّةٍ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾:

جمعُ القِلَّةِ أُريدَ به الكثرةُ؛ لأنَّه أشهَرُ وأوضحُ وأرشقُ

جاء التَّعبيرُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ باستعمال اسم الفاعلِ المجموعِ جمعَ قِلَّةٍ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾، رغمَ كثرةِ عدَدِ أهلِ الجنَّةِ؛ وذلكَ أنَّه لَمَّا كان سياقُ الامتنانِ مُفْهِمًا كثرةَ المُمْتَنِّ به؛ لا سِيَّما إذا كان من العَظيم تعالى؛ أتى بجمعِ القِلَّةِ مُريدًا به الكثرةَ؛ لأنَّه أشهرُ وأوضحُ وأرشقُ من (قَواصِرُ)؛ المشترك بين جمع (قاصر)؛ و(قوصَرَّة) بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ؛ لوعاءِ التَّمرِ، فقالَ: ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾[1]، واستعملَ اسمَ الفاعلِ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ هذا الوصفَ ثابتٌ فيهنَّ لا يتغيَّرُ، ولا يتبدَّلُ.

الغرض من إضافةِ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ للفظِ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾:

دلَّتِ الإضافَةُ إمّا على المَحبَّةِ أوِ الجَمالِ أو كليهما معًا

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ جاءت كلمةُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ مُسنَدَةً إلى ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾، والمراد: إضافةُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ إلى ضميرِ (هُنَّ)، فهو إسنادٌ حقيقيٌّ، أي: لا يوَجِّهْنَ أنظارَهنَّ إلى غيرهم، وذلك كنايةٌ عن مَحبَّتِهنَّ لأزواجِهنَّ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: أنَّهنَّ يَقْصُرْنَ أطرافَ أزواجِهنَّ عليهِنَّ، فلا تتوجَّهُ أنظارُ أزواجِهنَّ إلى غيرهِنَّ؛ اكتفاءً منهم بحسنِهِنَّ؛ كنايَةً عن تمامِ حُسنِهنَّ في أنظارِ أزواجِهنَّ، بحيثُ لا يتعلَّقُ استحسانُهم بغيرهنَّ، فالأطرافُ المقصورةُ أطرافُ أزواجِهِنَّ، وإسنادُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ إليهِنَّ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ كانَ حُسْنُهُنَّ سببَ قَصْرِ أطرافِ الأزواجِ، فإنَّهُنَّ مُلابِساتٌ سَبَبَ القَصْرِ[2].

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾:

المجازُ المرسلُ لعلاقةِ المُلازمةِ بين تحريكِ الجَفنِ ولازِمِه

عبَّر النَّظمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 402.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 23/ 283.

بمفردةِ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾، والطَّرفُ هو تحريكُ الجُفونِ في النَّظرِ، هذا هو الأصلُ، ثمَّ يُسَمّونَ العينَ الطَّرفَ مجازًا[1]، وعُبِّرَ به عن النَّظرِ؛ إذْ كانَ تحريكُ الجَفْنِ لازمُه النَّظرُ، وقوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ عبارةٌ عن إغضائهنَّ لعِفَّتِهِنَّ[2]، وفي ذلك إثارةٌ لعَقْلِ المُتلقّي، وإعمالٌ لخيالِه في فهمِ المعنى المرادِ.

الغرض من تَعْريفِ لَفْظِ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾:

الأطرافُ المقصورَةُ أطرافُهُنَّ

تعريفُ الطَّرفِ تعريفُ الجنسِ الصّادقِ بالكثيرِ، أي: قاصراتُ الأطرافِ، والطَّرْفُ: النَّظرُ بالعينِ، وقصرُ الطَّرفِ: توجيهُهُ إلى منظورٍ غيرِ متعدِّدٍ، فيجوزُ أن يكونَ المعنى: أنَّهُنَّ قاصراتٌ أطرافَهُنَّ على أزواجِهِنَّ، فالأطرافُ المقصورَةُ أطرافُهُنَّ[3].

الغرض من حذفِ المتعلّقِ في ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾:

لا يُتَصَوَّرُ أنْ تنظرَ الحورُ العينُ إلى غيرِ أزاوجِهنَّ أصلًا

حذفَ النَّظمُ متعلّقَ القَصْرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾؛ إذِ الأصلُ أن يقالَ: قَصَرَ طرفَهُ على كذا، وسِرُّ حَذفِ متعلّقِ القَصْرِ أنَّهُ معلومٌ لا يُتَصَوَّرُ غيرُه، وهم الأزواجُ[4].

فنُّ الإردافِ في قوله: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾:

كلُّ قاصرةِ الطَّرْفِ عفيفةٌ، وليستْ كلُّ عفيفةٍ قاصِرةَ الطَّرفِ

جاءَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ فنُّ الإردافِ، وهوَ أن يريدَ المتكلِّمُ معنًى، فلا يُعبِّرَ عنه بلفظه الموضوع له، بل بلفظٍ هو رِدْفُ المعنى الخاصِّ وتابعُه، قريب من لفظ المعنى الخاصِّ قُربَ الرَّديفِ من الرِّدفِ، والمعنى في الآية: فيهنَّ عفيفاتٌ قد قَصَرت عِفَّتُهنَّ طَرفَهُنَّ على بعولتِهنَّ، وعدل عن المعنى الخاصِّ إلى لفظِ الإردافِ؛ لأنَّ كلَّ من عَفَّ غضَّ الطَّرفَ عن الطُّموح، فقد يمتدُّ نظرُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (طرف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 283.
(4) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 215.

الإنسانِ إلى شيءٍ وتشتهيه نفسُه، ويَعفُّ عنه مع القدرةِ عليه، لأمرٍ آخرَ، وقَصْرُ طرفِ المرأةِ على بَعْلِها أو قَصْرُ طرفِها حياءً وخَفَرًا، أو قَصْرُ عينَي من يَنْظُرُ إليهنَّ عن النَّظرِ إلى غيرهِنَّ، أمرٌ زائدٌ على العِفَّةِ؛ لأنَّ من لا يَطْمَحُ طرفُها لغير بَعْلِها، أو لا يَطْمَحُ حَياءً وخَفَرًا؛ فإنَّها بالضَّرورةِ تكونُ عفيفةً، فكلُّ قاصرةِ الطَّرْفِ عفيفةٌ، وليستْ كلُّ عفيفةٍ قاصرةَ الطَّرفِ، فلذلكَ عدلَ عن اللَّفظِ الخاصِّ إلى لفظِ الإردافِ[1].

سِرُّ التَّقييدِ بالجُملةِ الحاليَّةِ ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ﴾:

اختصاصُ قاصراتِ الطَّرْفِ بأزواجهنَّ من أعظم اللَّذاتِ

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ قولَه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ بالجملةِ الحاليَّةِ: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾؛ لبيانِ اختصاصِ هؤلاءِ الحورِ العينِ بأزواجهنَّ وحدَهم دونَ غيرهم منَ الخَلْقِ؛ وذلك لأنَّ الاختصاصَ بالمرأة من أعظم المَلذّات، فبرَّأهُنَّ أنْ يُجامِعَهُنَّ، ويتسلَّطَ عليهنَّ أحدٌ من الإنسِ للإنسيّاتِ أو الجنِّ للجنيّاتِ، فكأنَّه قيل: هُنَّ أبكارٌ لم يُخالِطْ موضعَ الطَّمثِ منهنَّ أحدٌ[2]، كما لم يخالطْ أبصارَهنَّ أحدٌ، فجمع لهنَّ بينَ عِفَّةِ البصرِ ونقاءِ الفَرْجِ.

دلالةُ النَّفيِ بـ﴿لَمۡ﴾ في ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ﴾:

التَّوكيدِ المنفيُّ زيادةٌ في اطمئنانِ قلوبِ المحسنينَ بنقائهن

استعمل النَّظمُ الحكيمُ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ أداةَ النَّفيِ ﴿لَمۡ﴾ دونَ غيرِها من أدواتِ النَّفي كـ(لَمّا)؛ وذلكَ لأنَّ من خصائصِ النَّفي بـ(لمْ)، أنَّها تَقْلِبُ زَمنَ المضارعِ ماضيًا، فهيَ حرفُ نَفْيٍ وجَزْمٍ وقَلْبٍ، وأنَّ المَنْفيَّ بها قَدْ يَكونُ مُنْقَطِعًا، وقد يكونُ مُتَّصِلًا بالحالِ، وقد يكونُ مستمِرًّا[3]، وكذلك فإنَّ النَّفيَ بـ﴿لَمۡ﴾ أوْكَدُ مِن غيرِها، وهو في مثل هذا الموضعِ

---

(1) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 416.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 184.
(3) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 9.

أدلُّ على التَّنزيه[1]، ولذا فقد آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بهذه الأداةِ لما فيها من توكيدِ النَّفْيِ واستغراقِهِ في الماضي، وهو ما يُفيدُ زيادَةَ اطمئنانِ قلوبِ المحسنينَ بنقاءِ قاصراتِ الطَّرفِ.

نِكاحُ الآخرةِ كخَمْرِها صافٍ ممّا يَعْرِضُ لهما في الدُّنيا

دلالةُ التَّعبيرِ عن النِّكاحِ بالطَّمث دونَ المَسِّ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن النِّكاح بالطَّمثِ دونَ المَسِّ، وسِرُّ ذلك أنَّه عبَّرَ بالكنايةِ في الدُّنيا لمّا كان النِّكاحُ قضاءً للشَّهوةِ، وقد يُضْعِفُ البدنَ، ويمنعُ من العبادةِ، وهو في بعض الأوقاتِ مكروهٌ كالأكلِ الكثيرِ، فذَكَره اللّهُ تعالى بلفظ مجازيٍّ مستورٍ في غايةِ الخفاءِ بالكنايةِ؛ إشارةً إلى ما فيه ممّا يُستَحى منه، وأمّا في الآخرة، فقد ذَكَرَهُ بلفظِ الطَّمثِ؛ لأنَّهُ مجرَّدٌ عن وجوهِ القُبحِ، وكيف لا والخمرُ في الجنَّةِ معدودةٌ من اللَّذّات؟ فذَكَرَه بأقربِ الألفاظِ إلى التَّصريح أو بلفظٍ صريحٍ؛ لأنَّ الطَّمثَ أدلُّ مِنَ الجماعِ والوقاعِ؛ لأنَّهما من الجمعِ والوقوعِ؛ إشارةً إلى خُلوِّهِ عن وجوهِ القُبحِ، أو ما يُستَحَى منه في الآخرةِ[2].

التَّقديمُ للاهتمامِ بالمُتقدِّمِ وللإيجازِ والاختصارِ

الغَرَضُ مِن تقديمِ المفعولِ به على الفاعلِ:

قدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ ضميرَ المفعولِ بهِ في ﴿يَطۡمِثۡهُنَّ﴾ على الفاعلِ، وعدلَ عن مقتضى الظّاهر، فلم يقل: (لم يطمث أحدٌ من الإنس ولا الجانِّ إيّاهُنّ)؛ للاهتمام بالمتقدِّم، وهو الضَّميرُ العائدُ على قاصراتِ الطَّرفِ، ولأنَّ في تقديمهِ اختصارًا وإيجازًا أليقَ بنظم القرآنِ وبلاغته.

توكيدُ نقاءِ قاصراتِ الطَّرفِ وتوكيدُ عمومِ النَّفيِ

الغَرَضُ مِنْ تقديمِ الفاعلِ ﴿إِنسٞ﴾ وتنكيره:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿إِنسٞ﴾ على لفظِ ﴿جَآنّٞ﴾؛ لشرفِ الإنسيِّ، ولأنَّ طمث

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/ 380.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 376.

الإنسِ لزوجاتِهِم أمرٌ معروفٌ عند كلِّ أحدٍ، بخِلافِ الجنِّ الذي يرانا، ولا نراه، فلا نعلم عنه شيئًا، وجيءَ بِه نكرَةً؛ لإفادَةِ العمومِ؛ لتأكيدِ أنَّ هؤلاءِ الحورَ نقيّاتٌ، لم يطمثْهنَّ أحدٌ قطُّ.

الغَرضُ من ذِكرِ الطَّرفِ، وتقديمِه:

نفيُ طَمْثِ قاصراتِ الطَّرفِ نفيًا مطلقًا على جميعِ الخَلْقِ

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ نفيَ طَمثِ قاصراتِ الطَّرفِ في قولِه: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ بالظَّرفِ ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾؛ لأنَّه لو قال: (لم يطمثهن إنسٌ ولا جانٌّ)، يكون نفيًا لطَمث المؤمنِ إيّاهُن، وليس كذلكَ[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ضمير ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ للأزواج، وقيل: هو عائدٌ على من عاد عليه الضَّمير في ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾[2]، ولمّا كان المرادُ تعميمَ الزَّمان؛ أسْقَط الجارَّ فقال: ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾، ولم يقل: (مِنْ قَبْلِهم)[3]، وقيل: المرادُ: قبلَ الأزواجِ الإنسيّينِ والجِنّيّين، أي: كلُّ واحدٍ من أفرادِ النَّوعينِ يَجِدُ زوجاتِهِ في الجنَّةِ اللّاتي كُنَّ في الدُّنيا أبكارًا، وإنْ كُنَّ في الدُّنيا ثيّباتٍ، فلم يسبقْه غيرُه على زوجته حتَّى يَجيءَ هو، فيَجدها ثيِّبًا، والزَّوج الإنسيُّ زوجاتُه إنسيّاتٌ، والجِنيُّ زوجاتُه جِنّيّاتٌ[4].

دلالةُ العطفِ والتَّنكيرِ في ﴿وَلَا جَآنّٞ﴾:

دفعُ توهُّمِ طَمْثِ قاصراتِ الطَّرفِ مطلقًا

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾، عطفَ النَّظمُ الجليلُ على نفيِ طَمثِ الإنسِ لقاصراتِ الطَّرفِ، بنفيِ طَمثِ الجِنِّ لهُنَّ، فجمعَ هذا كُلَّ من يُمكِن منه جماعٌ[5]، فقوله: ﴿وَلَا جَآنّٞ﴾ تتميمٌ واحتراسٌ، وهو إطنابٌ دعا إليه أنَّ الجنَّةَ دارُ ثوابٍ لصالحِ الإنسِ والجنِّ، فلمّا ذكَر ﴿إِنسٞ﴾؛ نَشأَ توَهُّمُ أنْ يَمَسَّهُنَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 376.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 69، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 117.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 19/ 185.
(4) الجَمَل، الفتوحات الإلهيّة على تفسير الجلالين: 7/ 379.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 185.

جِنٌّ، فدفع ذلك التَّوهُّمَ بهذا الاحتراس(1)، والكلامُ هاهُنا محمولٌ على التَّقسيم، وإعادةُ (لا) في ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾؛ للاستقلالِ في النَّفي، وحاصلُهُ: أنَّهُ سلبٌ كُلّيٌّ، لا رفعُ الإيجابِ الكُلّيِّ، والظّاهرُ أنَّ ما أُعِدَّ من الحورِ للإنس والجِنِّ من نوعٍ واحدٍ، ويحتملُ نوعينِ: الإنسيّات: نوعٌ مناسِبٌ للإنسِ في المزاج وسائرِ الكيفيّاتِ، والجِنّيّات: نوعٌ آخرُ مناسِبٌ للجِنِّ في الخَلْقِ والخُلُقِ(2)، والذي يغلبُ على الظَّنِّ أنَّ الإنسيَّ يُعطى من الإنسيّاتِ والحورِ، والجنيُّ يُعطى من الجنيّاتِ والحورِ، ولا يُعْطَى إنسيٌّ جنيَّةً، ولا جِنيٌّ إنسيَّةً، وما يعطاه المؤمنُ - إنسيًّا كان أو جِنيًّا - من الحور شيءٌ يَليقُ به وتشتهيه نفسُه، وحقيقةُ تلك النشأةِ وراءَ ما يخطرُ بالبال، واستُدِلَّ بالآية على أنَّ الجنَّ يدخلونَ الجنَّةَ، ويجامِعونَ فيها كالإنسِ، فهُم باقونَ فيها مُنَعَّمينَ كبقاءِ المُعذَّبين منهم في النّارِ(3).

معنى الفاءِ ودلالتُها، وبيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا المَوْضِع:

في ذِكرِ قاصراتِ الطَّرفِ وكونِهنَّ أبكارًا لم يَطمِثهُنَّ أحدٌ، نِعَمٌ عظيمةٌ وآلاءٌ جزيلةٌ

جاءتِ الفاءُ في جملة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريع على ما تقدَّم منَ الامتنانِ بما وعدَ اللّٰهُ المُحسنينَ من نكاحِ قاصراتِ الطَّرفِ من الحورِ العينِ، مع الامتنان كذلك بكَونِهنَّ أبكارًا لم يَطْمِثهُنَّ أحدٌ من إنسٍ ولا جانٍّ، وفي ذلك ما فيه من الآلاء العظيمةِ والنِّعَم الجزيلةِ، فإنَّ في مجرَّد هذا التَّرغيبِ في هذه النِّعم نعمةً جليلةً ومِنَّةً عظيمةً؛ لأنَّ به يحصلُ الحِرْصُ على الأعمالِ الصّالحةِ، والفِرارُ من الأعمالِ الطّالحةِ، فكيف بالوصول إلى هذه النِّعم والتَّنعُّم بها في جنّاتِ النَّعيمِ بلا انقطاعٍ ولا زَوالٍ(4).

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 270.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 378.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 118.

(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 170.

زيادةُ وصفِ جمالِ قاصراتِ الطَّرفِ وقوَّةِ أنفسِهنَّ وأجسادِهِنَّ

سِرُّ تَقييدِ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ بالجملةِ الحاليَّةِ:

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ قولَه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ بجملة: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾، وهذه الجملةُ يجوزُ أنْ تكون نعتًا لـ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾، وأن تكونَ حالًا منها[1]، وقد جاء هذا الوصفُ أو هذه الحالُ بعدَ ما تقدَّم من وصفِ المستَمْتِعِ بهنَّ بالعِزَّةِ والنَّفاسةِ، فزادَه على وجهٍ أفاد أنَّه يكونُ بهنَّ غايةَ ما يكون من سكونِ النَّفسِ وقوَّةِ القلبِ وشِدَّة البَدَنِ، واعتدالِ الدَّم، وغيرِ ذلك من خواصِّ ما شُبِّهنَ به، وهو ﴿ٱلۡيَاقُوتُ﴾ الذي هو في صفائه بحيثُ يَشِفُّ عن سِلْكِه، وهو جوهرٌ نفيسٌ معروفٌ، و﴿وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ الذي هو أنصَعُ الدُّرِّ بياضًا[2].

كثافةُ أوجهِ الجمالِ في المُشَبَّهِ به مبالغةٌ في وصفِ جمالِهن

بلاغَةُ التَّعبيرِ بالتَّشبيهِ، والغَرضُ منهُ:

في تشبيه قاصراتِ الطَّرفِ بالياقوتِ عددٌ من أوجه الشَّبهِ[3]، فهُنَّ يُشْبِهنَ الياقوتَ والمرجانَ في الشَّفافيَّةِ والمَلاسَةِ وجمالِ المَنظرِ وصفاءِ البشرةِ، فيُرى بياضُ ساقِ إحداهنَّ أو مُخُّ ساقِها من وراءِ اللَّحم، أو من وراء سبعينَ حُلَّةً، كما جاء في الأثرِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «يَنْظُرُ إلى وجْهِها في خِدْرِها أَصْفى مِنَ المِرْآةِ، وإنَّ أَدْنى لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْها تُضيءُ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، وأنَّهُ يَكونُ عَلَيْها سَبْعونَ ثَوْبًا يَنْفُذُها بَصَرُهُ؛ حَتّى يَوضِّحَ سوقَها مِن وراءِ ذَلِكَ»[4]، وعَنِ ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه قالَ: "إنَّ المَرْأةَ مِنَ الحورِ العينِ يُرَى مُخُّ ساقِها مِن وراءِ اللَّحْمِ والعَظْمِ، مِن تَحْتِ سَبْعينَ حُلَّةً، كَما يُرى الشَّرابُ الأَحْمَرُ في الزُّجاجَةِ البَيْضاءِ، وكما يُرى الخيطُ في الياقوتةِ"[5]، والمرادُ بالمرجانِ: إمّا صغارِ اللُّؤلؤِ، وهو أشدُّ بَياضًا، أو الجَوْهَرُ الأبيضُ

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 183.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 185.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 179، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 70، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 185، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 270.

(4) أخرجه أحمد في مسنده، برقم: (11715).

(5) أخرجه الطّبرانيّ في الكبير، برقم: (8883)، قال الهيثميّ في مجمع الزوائد: سقط من إسناده رجلان.

المُشْرَبُ بحُمرةٍ[1]، فيُسْتَفادُ من ذلك أنَّ ألوانَهُنَّ البياضُ والحُمْرةُ على نوعٍ من الإشرابِ، وهو في غاية الإعجابِ من الشُّفوف والصَّفاءِ، وهو مع ذلك ثابتٌ لا يعتريه تغيُّرٌ، ويجوز أن يكون التَّشبيهُ بهما في الصَّفاء واللَّمعان والنَّفاسةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ تشبيهَهُنَّ في قوَّةِ النُّفوسِ وسلامتها من الآفاتِ بقوَّةِ الياقوتِ والمرجانِ، فقد قيل: إنَّ الياقوتَ مانعٌ للوَسواس والخَفَقان وضَعْفِ القلب شُرْبًا، وقيل: يَمْنَع جُمود الدَّمِ تعليقًا[2].

الغَرضُ من تعريفِ المُشَبَّهِ به باللّام ﴿ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾:

عراقةُ الياقوتِ والمَرجانِ في الجمالِ والنَّفاسةِ والصَّفاءِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن المشبَّهِ بهما مُعرَّفَين باللّامِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾؛ للدَّلالةِ على عَراقةِ هذَين الجوهرين في النَّفاسةِ والجمالِ والصَّفاءِ والملاسةِ، وفي التَّعريف كذلك إشارةٌ إلى اشتهارِ هذَين الجوهرينِ بينَ السّامعينَ، وأنَّهما معيارٌ يُرجَعُ إليه عندهم في كلِّ صفاتِ الجمالِ، ومن هذه المعرفةِ بالياقوتِ والمَرجان سَمَّوا بعضَ نسائِهم بهذا النَّحو من النَّظر، كدُرَّةَ بنتِ أبي لهبٍ، ومَرجانةَ أمِّ سعيد[3].

بلاغةُ التَّدرُّجِ مِنَ العقليّ إلى الحِسّيِّ:

توكيدُ عِفَّةِ قاصراتِ الطَّرفِ، وامتناعُ لَمْسِهِنَّ لغير أزواجِهنَّ

جاءَ التَّشبيهُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾؛ لبيانِ صفائِهنَّ، فبدأ في قولِه: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ بالإشارةِ إلى خُلوصِهنَّ عن القبائح، ثمَّ جاءَ قولُه: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ إشارةً إلى صَفائهنَّ في الجنَّة، فأوَّلُ ما بدأ بالعقليّات، وختم بالحسّيّات، فإنَّ التَّشبيهَ لبيان مشابهة جِسمِهنَّ للياقوتِ والمرجانِ في الحُمْرة والبياض، فكذلك القولُ فيه؛ إذ قَدَّمَ بيانَ العِفَّةِ على

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (مرجن).

(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز، والزّبيديّ، تاج العروس: (يقت).

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 234.

بيانِ الحُسن، ولا يَبْعُدُ أن يقال: هو مؤكِّدٌ لما مضى؛ لأنَّهُنَّ لمّا كُنَّ قاصراتِ الطَّرفِ ممتنعاتٍ عن الاجتماع بالإنسِ والجنِّ لم يَطْمِثهُنَّ أحدٌ، فهُنَّ كالياقوت الذي يكون في مَعْدِنه، والمَرجانِ المَصونِ في صَدَفِه، لا يكون قد مسَّته يدُ لامسٍ[1].

براعةُ التَّرتيبِ في التَّرغيبِ بالصِّفاتِ:

تـدرُّجُ التَّنعُّمِ بَـدءًا براحةِ الجَسَدِ، وانتهاءً بُمتعةِ الجماعِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، رَتَّبَ البيانُ القرآنيُّ ما أعدَّه اللّهُ للخائفينَ المخبتينَ من أفانينِ النَّعيم، فبدأ ببيانِ راحةِ الجسدِ، بنعمةِ الاتِّكاءِ على الفُرُشِ الوثيرةِ النّاعمة، بعد التَّمتُّعِ بجمالِ الأشجارِ الباسقة، والفواكه الماتعة، إلى بيانِ التَّلَذُّذ بقاصراتِ الطَّرف، وهذا التَّرتيبُ دالٌّ أشدَّ الدّلالةِ على دِقَّة مراعاةِ الاحتياجاتِ الإنسانيَّة، فإذا استَوْفَى قِسطًا من الرّاحةِ، بعد أنْ نالَ ما اشتهى مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ؛ تَحَرَّكَتْ نفسُه لدواعي الجِماعِ والتَّلَذُّذِ بالنِّساءِ[2].

معنَى الفاءِ ودلالتُها، وبَيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا المَوْضِعِ:

خَـلْقُ قـاصراتِ الـطَّـرفِ في غـايـةِ الجمالِ والنَّفاسةِ

جاءتِ الفاءُ في جملة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم مِنَ الامتنانِ بإنشاءِ قاصراتِ الطَّرفِ من الحورِ العينِ على وجهٍ من الكمال والجمال والنَّفاسة، يُشْبِهُ نفاسةَ الياقوت والمَرجان وجمالَهما وصفاءَهما، وفي ذلك من الآلاء العظيمةِ والنِّعم الجزيلة ما فيه؛ فإنَّ نِعَمَه تعالى كلَّها لا يتيسَّر تكذيبُ شيءٍ منها، كائِنةً ما كانت، فكيف بهذه النِّعم الجليلة والمِنَن الجزيلة[3]؟.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 377.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 377.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 170.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يَطْمِثْهُنَّ) و(يَنْكِحْهُنَّ):

الطَّمثُ: النِّكاحُ بالتَّدْميَةِ، والثّاني: المَساسُ[1]، وأصلُ النِّكاحِ للعَقْدِ، ثمَّ استُعيرَ للجِماعِ[2]، فالمُرادُ بالنِّكاحِ: التَّزَوُّجُ، وهو بذلك حقيقةٌ في العَقْدِ لِحِلِّ المخالَطةِ بعد الإعلان، ومَجازٌ في الوطءِ؛ لأنَّه سَبَبُه[3]، وقد عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالطَّمث؛ لأنَّهُ أقربُ الألفاظِ إلى التَّصريحِ أو بلفظٍ صريحٍ؛ لأنَّ الطَّمثَ أدلُّ من الجماعِ والوقاعِ؛ لأنَّهما من الجَمعِ والوقوعِ؛ إشارةً إلى خُلوِّهِ عن وجوهِ القُبحِ، أو ما يُستَحى منه في الآخِرةِ[4].

الطَّمثُ الافتضاضُ والحيضُ، والنِّكاحُ أصلٌ في العقدِ، ومجازٌ في الوَطْءِ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 214.

(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (نكح).

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نكح).

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 376.

﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦١﴾ [الرّحمن: 60 - 61]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانُ سببِ ما حباهم اللهُ به من النَّعيم في الآخرةِ لكونِه راجعًا لإحسانِهِم في الدُّنيا

عقَّبَ النَّظمُ الجليلُ بذكرِ أنَّ ما سبقَ من إحسانٍ للخائفينَ، إنَّما مَردُّهُ إلى كونهم مُحسِنينَ؛ وذلك لأنَّ ألذَّ ما أفادَه الإنسانُ من النِّعم ما كانَ تسبَّبَ منه، فجاءتِ الآيةُ لمسرَّتِهم بذلك، مع ما فيه من لَذَّةِ المَدحِ، لا سيَّما والمادحُ هو الملكُ الأعلى، معظِّمًا له بسياقِ الاستفهامِ المُفيدِ للإثباتِ، بعد النَّفي المفيد للاختصاصِ، على وجه الإنكارِ الشَّديد على من يَتَوَهَّمُ غيرَ ذلك، فذلك جزاءُ إحسانِ العبدِ في العمل، في مقابلةِ إحسانِ ربِّه إليه بالتَّربية[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾: الإحسانُ: ضِدُّ الإساءة[2]، وهو فِعلُ ما ينبغي أن يُفعَلَ من الخيرِ، وهو مصدرُ (أحسَنَ)، أي: جاء بفعلٍ حسَنٍ، ويُقالُ على مَعنَيَينِ، أحَدُهما: متعَدٍّ بنفسِه، كقولِك: أحسَنْتُ كذا؛ إذا حسَّنْتَه، وكمَّلْتَه، وثانيهما: متعَدٍّ بحَرفِ جَرٍّ، كقَولِك: أحسَنْتُ إلى كذا، أي: أوصَلْتُ إليه ما ينتَفِعُ به[3]، والمعنى المِحوريُّ: نقاءُ الشَّيءِ ورقَّتُه بخروجِ الخَشِنِ أو الغليظِ الذي يُخالطُه فيشوبُ رِقَّتَه[4]، وتعدَّدت الأقوالُ في معنى الإحسانِ الأوَّلِ والثّاني في الآية، ويمكن تلخيصُها: بأنَّ الإحسانَ الأوَّلَ إحسانُ العبد بتوحيدِ ربِّهِ، والعملِ بما جاءَ به النَّبيُّ ﷺ، وبسائر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 186.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسن).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حسن).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حسن).

ما يُرادُ بالإحسانِ في الدُّنيا، والإحسانُ الثّاني من اللّهِ تعالى هو الجنَّةُ والنَّعيمُ والكرامةُ(1).

المَعنى الإجماليُّ:

من فضلِ اللهِ تعالى أن يُقابِلَ إحسانَ المحسنينَ بإحسانٍ بالغٍ لا كِفاءَ له

بيَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ أنَّ هذا النَّعيمَ الذي يُفاضُ من اللّه تعالى على المؤمنين في الجنَّة، هو جزاءُ إحسانِهم في الدُّنيا، وخوفِهم مقامَ ربِّهم، فالمعنى: أنَّ جزاء من أحسن بطاعة اللّه، أن يُحْسِنَ اللّهُ إليه بالجنَّة، كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ [الذّاريات: 15 - 19]، وإذا كان هؤلاء المُحسِنون قد أحسنوا العملَ؛ فإنَّ هذا النَّعيمَ الذي هم فيه لا يَعدِلُ إحسانَهم؛ مهما بالغوا في الإحسانِ، وإنَّما هو فضلٌ من اللّه عليهم، ومضاعفةٌ للجزاء الحَسَن، الذي كانت أعمالُهم الحسنةُ مدخلًا إليه، وهذا ما يُشير إليه قولُه تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الغَرضُ من التَّذييلِ بقولِه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾:

في التَّذييل بمدحِ المُحْسنينَ حثٌّ على مزيدٍ من الإحسانِ

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ تذييلًا للجُمَلِ المَبدوءةِ بقولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، أي: لأنَّهم أحسنوا فجازاهم رَبُّهم بالإحسانِ(3)، وكان الغَرضُ من هذا التَّذييل إدخالَ المَسرَّةِ على قلوبهم بمدحِهم، لا سيَّما وأنَّ المدحَ من اللّهِ تباركت آلاؤه، ففيه حَثٌّ للمحسنينَ في الدُّنيا على مزيدٍ من الطّاعاتِ.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 234، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 182، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 70، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 119.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 694 - 695.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 270.

الغرضُ من الاستفهامِ في ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾:

استفهامٌ تقريريٌّ لإفادةِ معنى النَّفيِ

أفادَ الاستفهامُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ معنى النَّفيِ والجَحْدِ، فهو استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما فُصِّلَ قبلَه، أيْ: ما جزاءُ الإحسانِ في العملِ إلّا الإحسانُ في الثّوابِ[1].

بَلاغةُ اختيارِ مُفردةِ ﴿ٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾:

كثافةُ الدَّلالاتِ في مفردَةِ الإحسانِ الَّتي تحضُّ على الحَنانِ والبِرِّ والرِّقَّةِ والجَمالِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بمفردَةِ ﴿ٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ دونَ غيرِها؛ وذلكِ لما في مفردةِ الإحسانِ منَ الدَّلالاتِ الكثيفةِ الَّتي تَحُضُّ على المبالغَةِ في الإحسانِ والبِرِّ؛ إذِ الإحسانُ ضِدُّ الإساءَةِ[2]، ففيها معنى النَّهيِ النَّهْيِ عن الإساءةِ بما هوَ أبلغُ مِنْها، وفيها كذلكَ معنى نَقاءِ الشَّيْءِ ورِقَّتِه، بخُروجِ الخَشِنِ أوِ الغَليظِ الَّذي يُخالِطُهُ، فيَشوبُ رِقَّتَه[3]، فيكتسي الإحسانُ ثوبَ الطّاعةِ والإنابةِ والإيمانِ وسائرِ أعمالِ الخيرِ والبِرِّ[4]، ذلك أنَّ مقامَ الإحسانِ مقامٌ عظيمٌ؛ إذْ فسَّرهُ النَّبيُّ ﷺ بقولِه: «أنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ؛ فإنَّهُ يَراكَ»[5]، فاحتوتْ لفظةُ الإحسانِ على دلالاتٍ لا يشتَمِلُ عليها غيرُها؛ لمناسَبَةِ مقامِ التَّنعيمِ للمُحسنينَ، وكذلك فقد تناسبت هذه المُفردَةُ مع الإطارِ العامِّ لسورةِ الرَّحمنِ وما فيها من النِّعمِ العظيمةِ والآلاءِ الجزيلةِ؛ إذْ إنَّ الإحسانَ الفائقَ من اللّهِ تعالى في هذه العطايا والمِنَحِ مناسِبٌ تمامَ التَّناسُبِ لابتداءِ السّورةِ باسمه الجليلِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

الغَرضُ من التَّعبيرِ بأسلوبِ القَصرِ في الآيةِ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾، جاءتْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 185.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسن).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حسن).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (حسن).
(5) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (50).

في حصر مجازاةِ الإحسانِ في أنّها إحسانٌ، إخبارٌ عن كونه الجزاءَ الحَقَّ

﴿هَلۡ﴾ بمعنى (ما) النّافيةِ، فأفادتْ مع الاستثناءِ قَصرَ الإحسانِ من اللّهِ على المحسنينَ دونَ غيرهم، وكان أصلُ الكلامِ: (جزاءُ الإحسانِ الإحسانُ)، فجاء الأسلوبُ من بابِ قَصْرِ موصوفٍ على صفة، وطريقُه هو النَّفي والاستثناء؛ لأنَّ الاستفهام بمعنى النَّفي[1]، فأفادَ القصرُ هاهُنا إبرازَ المعنى وتحديدَه، وإيضاحَه، وتقويَتَه، فالاستفهام مستعمَلٌ في النَّفي، ولذلك عَقَّب بالاستثناء، فأفاد حصرَ مجازاةِ الإحسان في أنَّها إحسان، وهذا الحصر إخبارٌ عن كونه الجزاءَ الحقَّ ومقتضى الحِكمةِ والعدلِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمُشاكلَةِ في الإحسانِ الأوَّلِ والثّاني:

في إعـــادَةِ اللَّـفـظِ والمعنى مختَلِفٌ، شمولٌ لـكـلِّ جـوانـبِ الطّاعةِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾، أعادَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ الإحسانِ، رغم تغاير المعنى، فهذا من المواضع التي أُعيدت فيها المعرفة، والمعنى مختَلِف[3]، وهو من باب المشاكلة، وهي: ذِكرُ المعنى بلفظِ غيرِه، أو بلفظٍ مضادٍّ للفظِ الآخر، أو مناسبٍ له، لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا[4]، ففي معنى الإحسانِ الأوَّلِ والثّاني عددٌ مِن التَّقديرات، منها: هل جزاءُ التَّوحيدِ غيرُ الجنَّةِ، أي: جزاءُ مَن قال: لا إله إلا اللّهُ، إدخالُه الجنَّة، ومنها: هل جزاءُ الإحسانِ في الدُّنيا إلّا الإحسانُ في الآخرةِ، ومنها: هل جزاءُ من أحسنَ إليكم في الدُّنيا بالنِّعم، وفي العُقْبَى بالنَّعيم، إلّا أن تُحسنوا إليه بالعبادةِ والتَّقوى، والأقربُ أنَّه عامٌّ، فجزاءُ كلِّ من أحسنَ إلى غيره أن يُحْسِنَ هو إليه أيضًا[5].

(1) بسيوني فيود، علم المعاني، ص: 311.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 271.
(3) بسيوني فيود، علم البديع، ص: 192.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 186.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 377.

معنى الفاءِ ودلالتُها، وبَيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا المَوْضِعِ:

في الوعدِ بالإحسانِ الجزيلِ على الإحسانِ الضَّئيلِ نِعَمٌ عظيمةٌ

جاءتِ الفاءُ في جملة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم منَ الامتنانِ، بإحقاقِ الحقِّ والمجازاةِ بالعدلِ، ثمَّ الزيادةِ بالفضلِ من اللّهِ تعالى، فهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ كلَّ ما يَفْرِضُه الإنسانُ من أنواعِ الإحسانِ من اللّه تعالى، فهو دونَ الإحسانِ الذي وعدَ اللّهُ تعالى به؛ لأنَّ الكريم إذا قال للفقيرِ: افعلْ كذا ولكَ كذا دينارًا، وقال لغيره: افعلْ كذا على أن أُحْسِنَ إليك، يكون رجاءُ من لم يُعَيِّنْ له أجرًا أكثرَ من رجاءِ من عَيَّنَ له، هذا إذا كان الكريمُ في غايةِ الكرمِ ونهايةِ الغِنَى، إذا ثبت هذا؛ فاللّه تعالى قال: جزاءُ مَن أَحْسَنَ إليَّ أن أُحْسِنَ إليه بما يُغْبَطُ به، وأوصِلَ إليه فوقَ ما يَشْتَهيه، فالذي يعطي العبد فوقَ ما يرجوه هو اللّهُ؛ وذلك على وفْقِ كَرَمِه وإفضالِه[1]، وفي ذلك من الآلاءِ العظيمةِ والنِّعمِ الجزيلةِ ما فيه؛ فإنَّ نِعَمه تعالى كلَّها لا يتَيَسَّر تكذيبُ شيءٍ منها كائنةً ما كانت، فكيف بهذه النِّعم الجليلة والمِنَن الجَزيلة[2]، وقد جاءتْ هذه الآيةُ ختامَ ثماني آياتٍ حاثَّةٍ على العمل الموصِل إلى الثَّمانيةِ الأبوابِ الكائنة لجنَّةِ المُقَرَّبين[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 377.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 170.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 186.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾
مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ
نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ
وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ
﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ
﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾ [الرّحمن: 62 - 75]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعدَ تمامِ الحديثِ عن جزاءِ المحسنينَ، انتقل للحديث عن جزاءِ مَن دونهم

لمّا كان قد عُلِمَ ممّا ذُكِرَ أوّلَ هذا الكلامِ من الخوفِ مع ذِكرِ وصفِ الإكرام، وآخرَه مِن ذِكرِ الإحسانِ، أنَّ هذا الفريقَ محسنونَ، وأنَّهم هم السّابقونَ الأوّلونَ، كما ستوضِّحُ سورةُ الواقعةِ بعد ذلك، وكان من المعلومِ أنَّ العاملينَ طبقاتٌ، وأنَّ لكلِّ طبقةٍ أجرَها على مقدارِ أعمالِها؛ اقتضى الحالُ بيانَ ما أُعِدَّ لِمَن دونهم رُتْبَةً، فبيَّنت الآياتُ أنَّ للمؤمنينَ من أصحابِ اليمينِ ممّا تحت جنَّتَي هؤلاء المحسنين جنَّتَين، وبدأ النَّظْم بذِكر اخضرارِ أشجارهما اخضرارًا قريبًا من السّوادِ، حتَّى لا يُتَوَهَّمُ أنَّ ما في هاتَينِ الجنَّتَينِ من الماءِ لا يقوم بأعلى كفايتهما، ولمّا ذكر ما يدلُّ على ريِّهما، ذكرَ أنَّ فيهما عينَينِ تفوران بشِدَّةٍ، ولم يذكر جَرْيَهما، فكأنَّهما بحيثُ تَرويان جنَّتَهما، ولا تَبلغان الجَرْيَ، ولمّا ذَكَرَ الرّيَّ والسَّببَ فيه؛ ذكرَ ما ينشأُ عنه، وهو الفاكهة، ولمّا كان ما ذُكِرَ لا تكمُلُ لذَّتُه إلّا بالأنيسِ، فذكرَ الخيراتِ الحِسانَ من النِّساءِ اللّائي هُنَّ في غاية الجمال خَلْقًا وخُلُقًا، فهُنَّ ذواتُ أعينٍ شديدةِ سواد السَّواد، وشديدةِ بياض

البياض، مقصوراتٌ على أزواجهنَّ، مَصوناتٌ عن التَّبذُّلِ، ولذا فهُنَّ كقاصراتِ الطَّرفِ لم يَطْمِثهُنَّ أحدٌ قطُّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دُونِهِمَا﴾: (دون) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على المُداناةِ والمقاربةِ، يُقال: هذا دونَ ذاكَ، أي: هو أقربُ منه، ويقال في الإغراءِ: دونَكَهُ، أي: خُذْهُ، اقتربْ منه، وقَرِّبْهُ منك[2]، ومنه (دونَ) ظَرْفُ مكانٍ، يُعَبَّرُ به عنِ المَنْزِلَةِ الأقلِّ[3]، وهوَ نقيضُ فوقَ، وهوَ تَقْصيرٌ عَنِ الغايَةِ، والدّونُ: الحَقيرُ الخَسيسُ[4]، فالمادَّةُ تدور حولَ كَوْنِ الشَّيء منخفضًا في أسفل شيء[5]، وفي معنى ﴿دُونِهِمَا﴾ هاهُنا: أنَّهما أقلُّ من الجنَّتَينِ السّابقتَينِ في الفضل والقدْرِ، على أن يكونَ بمعنى الأدنى رُتْبَةً ومنزلةً، ويدلُّ على أنَّهما أدنى وصفُهما بوصفٍ أقلَّ[6].

2) ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾: (دهم) أصلٌ يدلُّ على غِشْيانِ الشَّيءِ في ظلام، والدُّهمةُ: السّوادُ[7]، والمعنى المِحوريُّ: سوادٌ أو كثيفٌ مُعْتِمٌ يَغْشى ظاهرَ الشَّيء حتّى يَعُمَّه، وادهامَّ الزَّرعُ؛ إذا علاه السّوادُ ريًّا، وحديقةٌ دَهْماءُ مُدْهامَّةٌ: خَضْراءُ تَضْرِبُ إلى السّوادِ من نَعْمَتها وريِّها، قال اللّه جلَّ ثناؤه في صفة الجنَّتَين: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾، أي: سوداوان في رأيِ العينِ، وذلك للرّيِّ والخُضْرَةِ[8].

3) ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾: (نضخ) قريبٌ من النَّضح، الَّذي هو أصلٌ يدلُّ على شيءٍ يُنَدَّى، وماءٍ يُرَشُّ، إلّا أنَّه أكثرُ منه، يقولون: النَّضخُ كاللَّطْخِ مِنَ الشَّيءِ يبقى له أثَرٌ، ونَضَخَ ثوبَه بالطّيب، وغيثٌ نَضّاخٌ: غَزيرٌ، وعينٌ نَضّاخةٌ: كثيرةُ الماءِ[9]، والنَّضْخ: شِدَّةُ فَوْرِ الماءِ في جَيَشانِه وانفجارِه من يَنبوعه، وقيل: هو ما كان من سُفْلٍ إلى عُلوٍّ[10]، والمعنى المِحوريُّ: فَوَرانُ الماءِ ونحوِه، كالدَّم والخَلِّ والزَّعفران من جوفٍ، واندفاعُه خارجًا بقوَّةٍ، والمرادُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 186 - 193.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دون).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (دون).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (دون).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دون).
(6) محيي الدّين شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 72.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دهم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دهم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نضخ).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (نضخ).

بـ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ تفورانِ بالماءِ متاعًا لِعُيون أهل الجنَّة ونفوسِهم، كما تُقامُ النّوافيرُ في الشَّوارعِ والحدائق، والنَّضحُ أقلُّ من ذلكَ كثيرًا؛ لأنَّه كالرَّشحِ[1].

4) ﴿وَرُمَّانٌ﴾: (رمن) أصل واحد، وهيَ الرُّمّانُ[2]، وهو شجرةٌ معروفةٌ من الفواكهِ، واحدتُه رُمَّانةٌ[3]، قال الأطباء: حُلْوُهُ مُلَيِّنٌ للطَّبيعةِ والسُّعالِ، وحامِضُه بالعَكْسِ، ومُزُّهُ نافعٌ لالتهابِ المَعِدةِ، وهو محمودٌ لرِقَّتِه وسُرعةِ انحلالِه ولطافتِه[4].

5) ﴿خَيْرَٰتٌ﴾: (خير) أصلُه العطفُ والمَيلُ، ثمَّ يُحملُ عليه؛ فالخير: خِلافُ الشَّرِّ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يميل إليه، ويعطف على صاحبِه، والخيَرَةُ: الخيار من كلِّ شيءٍ، والخيرُ: الكَرمُ، ويقالُ: رجلٌ خَيِّرٌ وامرأةٌ خَيِّرَةٌ، أي: فاضلةٌ، وقومٌ خيارٌ وأخيارٌ، وامرأةٌ خَيْرَةٌ في جَمالها وميسَمِها، وصفٌ بُنِيَ على (فَعْلَةٍ) مِنَ الخَيْرِ[5]، وهيَ الفاضِلَةُ من كُلِّ شَيْءٍ[6]، وقيل: أصلُه خَيِّرات، فخُفِّف، فالخَيْراتُ من النِّساء الخيِّراتُ، وفَسَّرَه الرَّسولُ ﷺ، بقوله: «خَيِّراتُ الأَخْلاقِ حِسانُ الوُجوهِ»[7]، والمراد في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ المُختاراتُ، أي: فيهنَّ مختاراتٌ لا رَذْلَ فيهنَّ[8]، وأنَّهُنَّ فاضِلاتُ النَّفسِ كَرائمُ الأخلاقِ[9].

6) ﴿حِسَانٌ﴾: (حسن) أصلٌ واحدٌ، فالحُسنُ ضِدُّ القُبحِ، يقالُ: رجلٌ حَسَنٌ، وامرأةٌ حسناءُ وحُسّانةٌ، والمَحاسنُ من الإنسانِ وغيرِه: ضِدُّ المساوئ، وامرأة حَسَنَةٌ، وقالوا: امرأة حَسْناء، ولَمْ يَقولوا: رَجُلٌ أَحْسَنُ[10]، والمعنى المِحوريُّ: نقاءُ الشَّيءِ ورقَّتُه بخروجِ الخَشِنِ أو الغليظِ، الذي يُخالطُه، فيَشوبُ رِقَّتَه، والحُسْنُ: هو النَّقاءُ وصفاءُ البَشَرة أو البدن مع رِقَّةٍ[11]، ومعنى ﴿حِسَانٌ﴾ هاهُنا: أنَّهم حِسانُ الخَلْقِ، أيْ: صِفاتِ الذَّواتِ[12].

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نضخ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رمن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (رمن).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (رمن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).
(6) الرّازيّ اللّغويّ، مختار الصّحاح: (خير).
(7) الطّبرانيّ في الكبير، برقم: (870)، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 70.
(8) الرّاغب، مفردات القرآن: (خير).
(9) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 273.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حسن).
(11) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حسن).
(12) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 273.

7) ﴿حُورٌ﴾: (حور) ثلاثةُ أصولٍ، أحدُها: لونٌ، والآخر: الرُّجوعُ، والثّالثُ: أن يدورَ الشَّيء دَوْرًا، والحَوَرُ في اللَّونِ: شِدَّةٌ بياضِ العَينِ في شِدَّةِ سَوادِها، وإنَّما قيل للنِّساء: حورُ العُيون؛ لأنَّهُنَّ شُبِّهْنَ بالظِّباءِ والبَقرِ الوَحْشيِّ، ويقال: حوَّرتُ الثّيابَ، أي: بَيَّضْتُها، والحواريّات: النِّساءُ البيضُ، واحورَّ الشَّيءُ احورارًا: ابيَضَّ[1]، والأعرابُ يُسَمّون نِساءَ الأمصار: الحَواريّاتِ لبياضِهنَّ، وقالوا في الحور: إنهُنَّ الشَّديداتُ بياضِ بياضِ العين، مع شِدَّةِ سَواد السَّوادِ، وهذا يَتَّضِحُ أكثرَ بالعَيَن، وهو اتِّساع العين، وقد ربطوا ذلك ببياض البَدَن أيضًا[2]، وقوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾، ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الواقعة: 22]، جمع أَحْوَرَ وحَوْراء، والحَوَر قيل: ظهورُ قليلٍ من البياضِ في العين مِن بين السّواد، وأَحْوَرَتْ عَينُه، وذلك نهايةُ الحُسْنِ من العينِ[3].

8) ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾: (قصر) أصلانِ صحيحانِ، أحدهما: يدلُّ على ألّا يبلُغَ الشَّيءُ مَداهُ ونهايتَهُ، والآخرُ: يَدُلُّ على الحَبسِ، والأصلانِ متقاربانِ، فالأوَّلُ: القِصَرُ: خلافُ الطّولِ، يقول: هو قصيرٌ بَيِّنُ القِصَرِ، والأصلُ الآخرُ: القَصْرُ: الحَبسُ، يقالُ: قصَرتُهُ؛ إذا حبستُهُ، وهو مقصورٌ، أي: محبوسٌ[4]، والمَعْنَى المحوريُّ: حبسٌ عنِ الانتشارِ طولًا أو عَرضًا[5]، وفي تأويل ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ أربعة أقوال، الأوَّل: مقصوراتُ الطَّرفِ على أزواجِهنَّ. والثّاني: المحبوساتُ ولَسْنَ بالطَّوّافاتِ في الطُّرق. والثّالث: المُخدَّراتُ المَصوناتُ. والرّابع: أنَّهنَّ المُسَكَناتُ في القُصورِ[6].

9) ﴿ٱلْخِيَامِ﴾: (خيم) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الإقامةِ والثَّباتِ، فالخَيمةُ معروفةٌ، والخَيْمُ: عيدانٌ تُبْنَى عليها الخيمةُ، ويقال: خَيَّمَ بالمكانِ[7]، ويقال: إنَّ الخيمةَ أصلُها ما كانَ من شجرٍ، وفي المتعارفِ ما كان من دَغَلٍ، ويقال: البيت أعمُّها، فإن كان من وبَرٍ أو صوفٍ؛ فهو خِباءٌ، وإن كان من شجرٍ؛ فهو خَيمةٌ، وإن كان من صوفٍ؛ فهو مِظلَّةٌ،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حور).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حور).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (حور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصر).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قصر).
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 442.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خيم).

وإن كان من أدَم؛ فهو طِرافٌ وقُبَّة[1]، وخَيَّمْتُها؛ إذا غَطّيْتُ الطّيبَ بالثَّوبِ حتّى تَعْبَقَ فيه ريحُه[2]، وخيامُ الجَنَّةِ: بيوتُ اللُّؤلؤِ، وقيل: هي دُرٌّ مُجوَّفٌ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في جنَّتَي أصحابِ اليمينِ نعيمٌ عظيمٌ ورَغَدٌ كبيرٌ، رغم

في هذه الآياتِ الكريماتِ فصَّلَ النَّظمُ الحكيمُ ما أعدَّ اللّهُ لأصحابِ اليمينِ من النَّعيم، وبدأ ببيانِ أنَّ هاتَينِ الجنَّتينِ أنزلُ درجةً وأدنى منزلةً من سابقتَيهما، وإن كان ما فيهما من النَّعيمِ ممّا لا يحيطُ به وصفٌ، ومَرَدُّ ذلكَ أنَّ أهل الجنَّةِ ليسوا على درجةٍ واحدةٍ، وقد جاء بيانُ ذلكَ في سورة الواقعةِ التّاليةِ لهذه السّورة، وفيها يقول تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: 7 - 11]، فالنّاسُ في الآخرةِ على ثلاثةِ أحوالٍ: أصحابُ اليمينِ، وأصحابُ الشّمالِ، والسّابقونَ من أصحابِ اليمينِ، وكلُّ حالٍ من تلك الأحوال الثَّلاثة درجاتٌ كثيرةٌ، يختلفُ بعضُها عن بعضٍ صعودًا ونزولًا.

فبدأ بوصفِ ما في الجنَّتينِ من الرّيِّ والاخضِرارِ الشَّديدِ في أشجارِها وزُروعِها، ثمَّ ذكرَ أنَّ في هاتين الجنَّتين عينَي ماءٍ تضُخّان الماءَ ضَخًّا، في دفعاتٍ متتاليةٍ، ولا تُرْسِلانه متدَفِّقًا كهاتين العينين اللَّتين في الجنَّتين السّابقتَين، ثمَّ ذكرَ ما فيها من أنواعِ الفاكهةِ، وفي هذا فرقٌ آخرُ بين الجنَّتين العاليَتَين، وبين الجنَّتين اللَّتين دونَهما، وذلك في ثمارِ الجنَّتينِ، ففي الجنَّتينِ العاليتينِ كلُّ فاكهةٍ معروفةٍ وغيرِ معروفةٍ، وفي هاتَين الجنَّتين الأخرَيَين فاكهةٌ أيضًا، ولكنْ لا

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خيم).

(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خيم).

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 71.

على سبيل الشُّمول، ومن فاكهتهما النَّخلُ والرُّمّانُ، ومع أنَّ ثمر النَّخل والرُّمان ليس أكرمَ الثَّمر ولا أطيبَه، ولكنَّه إذا كان من ثمرِ الجنَّةِ؛ فهو من الطَّيبِ والكرمِ، بحيثُ تَعدِل الثَّمَرةُ منه فواكهَ الدُّنيا وثَمرَها جميعًا.

ثمَّ ذكرَ ما أعدَّ اللّهُ في هاتَينِ الجنَّتينِ من الحور العينِ، بعد أنْ وصَفَهُنَّ بأنَّهنَّ خيراتٌ حسانٌ، وهؤلاء الحورُ يقابِلْنَ قاصراتِ الطَّرفِ اللّائي في الجنَّتَين العاليتَين، وإنَّه لَفَرْق بين هؤلاء وأولئك، وإن كُنَّ جميعًا على صورةٍ من الحُسْنِ والجمالِ لم تقعِ العينُ على مثلِها، فوصَفَهُنَّ بأنَّهنَّ قد قَصَرَتْهُنَّ الخيامُ، وحجَبَتْهنَّ عن العيونِ، وحجبتِ العيونَ عنهنَّ، وهذا لا يمنع من أن يكون لهنَّ ما لأخواتهنَّ من الخَفَر والحياء، وكان من تمام التَّنعُّم بهؤلاء الحور العين أنَّهُنَّ لم يَغْشَ حِماهُنَّ أحدٌ من الإنسِ أو الجنِّ قبل أزواجهن الذين زُفّوا إليهنَّ في الجنَّة، كما هو الحال في قاصراتِ الطَّرفِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها في ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾:

شــرعَ الـنَّـظـمُ في بـيـانِ جنَّتَيْ أصحابِ اليمينِ

وصلَ النَّظمُ الحكيمُ هذه الآيةِ بالواوِ، عطفًا على قولِه تباركت آلاؤه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وذلك للتَّوسُّط بين الكَمالين، كمالِ الانقطاع وكمال الاتِّصالِ[2]، فقدِ انتهى الكلامُ على جنَّتَي المحسنينَ وما أعدَّ اللّهُ لهم فيهما، فذلك وجهُ الانقطاعِ، وشرَعَ النَّظمُ في الحديثِ عن جنّتَيْ أصحابِ اليمينِ، وذلك وجهُ الاتِّصالِ، أي: ومِن دون تينكَ الجنَّتينِ سالفَتَي الذِّكر جنَّتانِ أُخْرَيانِ[3].

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 996 - 701.

(2) بسيوني، فيود، علم المعاني، ص: 475.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 271.

الغَرضُ من تقديمِ الخبرِ شبهِ الجملةِ:

الاهتمامُ ببيانِ مَكانةِ هذا الجزاءِ العظيمِ

قدَّم النَّظمُ الجليلُ الخبرَ، وهو قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ على المبتدأ ﴿جَنَّتَانِ﴾، وكان مقتضى الظّاهرِ أن يكونَ الكلامُ: (وجَنَّتانِ من دونهما)، وإنَّما جاءَ التَّقديم لبيانِ الاهتمام بمكانة هذا الجزاءِ العظيم، الذي هو مدارُ العنايةِ في الآياتِ كلِّها؛ لذا جاءَ تقديمُها دالًّا على مقدارِ الرِّعايةِ والاهتمامِ به، قبلَ ذِكر صنوفِ النَّعيم، فيكونُ التَّقديمُ من بابِ حُسْن الاستفتاح والبشارةِ.

معنى (مِنْ)، ودلالتُها في ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾:

ابتداءُ وصفِ الجنَّتينِ الأُخرَيَيْنِ بمَسْلَك الإطنابِ

جاءتْ (مِنْ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ابتدائيَّةً، فابتدأ وصْفَ ما في هاتَينِ الجَنَّتَينِ بما يقاربُ ما وصَفَ به ما في الجنَّتينِ الأوليَيْن، وصْفًا سَلَك فيه مَسلَك الإطناب أيضًا؛ لبيانِ حُسْنِهما، ترْغيبًا في السَّعي لنَيْلِهما بتقوى اللّه تعالى، فذلك موجِبُ تكريرِ بعضِ الأوصافِ أو ما يُقاربُ من التَّكرير بالمترادفاتِ[1].

بيانُ المراد بـ﴿دُونِهِمَا﴾ ومرجعُ الضَّميرِ:

إمّا أنَّهما أقلُّ رتبةً أو مكانًا، أو أنَّهما أعلى وأفضلُ وأقرَبُ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ عاد الضَّميرُ على الجنَّتينِ الأوليَيْن، وتعدَّدتِ الأقوالُ في المرادِ بلفظ ﴿دُونِهِمَا﴾[2]، فقيل: دونَهما في الفضلِ، والجنّاتُ الأربع لمن خاف مقام ربِّه، فيكون في الأوَّلَيين النَّخلُ والشَّجرُ، وفي الأُخْرَيين الزَّرعُ والنَّباتُ وما انبسطَ، وقيل: يحتمل أن تكون الجنَّتان الأخْرَيان لأتباعِه؛ لقصورِ منزلتهم عن منزلته، إحداهما: للحور العين، والأُخرى: للوِلْدان المُخلَّدين، وقيل: المرادُ أنَّهما دونَهما في المكانِ، كأنَّهم في جنَّتَين، ويَطَّلِعونَ من فوقُ على جنَّتَين أُخْرَيين دونَهما، ويَدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ﴾ [الزمر: 20] الآية، والغُرف العاليةُ عندها أفنانٌ، والغُرف

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 271.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 254، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 234، والماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 440، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 183.

التي دونَها أرضُها مُخضَرَّة، وقيل هي أربعٌ: جنَّتان منها للسّابقين المُقرَّبين، وجنَّتان لأصحاب اليمين، ولم يذكرْ أصحابَ الجنَّتين الأُخْرَيَين؛ لأنَّ الخائفين لهم مراتبُ، فالجنَّتانِ الأوَّليانِ لأعلى العباد رُتبةً في الخوفِ من اللّه تعالى، والجنَّتانِ الأُخريان لَمن قَصُرت حالُه في الخوف من اللّه تعالى، وذهب بعضُهم إلى أنَّ الجنَّتين الأوَّلَيين من ذهب وفضة، والأُخرَيَين من ياقوتٍ وزُمُرُّدٍ، وهما أفضلُ من الأوَّلَيين، وأنَّ المرادَ بـ﴿دُونِهِمَا﴾: من أمامِهما ومن قِبَلِهما، وقيل: هما دون هذا إلى العرش، أي: أقربُ وأدنَى إلى العرش، الجنَّتان الأوَّلَيان: جنَّة عَدْن وجنَّة النَّعيم، والأُخْرَيان جنَّة الفردوس وجنَّة المأوى.

الغرضُ من التَّعبير بالمبتدأ بصيغةِ المُثنَّى ﴿جَنَّتَانِ﴾:

لأصحاب اليمين بُستانانِ مَخصوصانِ دونَ الجنَّتَيْنِ الأوليَيْنِ

في تثنيةِ ﴿جَنَّتَانِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ الأقوالُ المذكورةُ نفسُها في الجنَّتينِ الأوليَيْن، وخلاصتُها: أنَّ المرادَ جنَّتان اثنتانِ على ظاهرِ النَّظم، فالتَّثنيةُ مقصودةٌ، ولعلَّ الأقربَ للصَّواب أنَّهما بُستانان في الجنَّةِ، أعدَّهما اللّهُ لأصحابِ اليمينِ، وقيل: إنَّ التَّثنيةَ كنايةٌ عن التَّعدُّدِ للتَّكثير والمبالغةِ، كما في الجنَّتين السّابقتين.

بلاغةُ الاعتراضِ، معَ بيانِ المُرادِ بالفاءِ والآلاءِ في هذا الموضع:

المسارعةُ بذِكرِ الآلاءِ ببيانِ كلِّ وصفٍ للجنَّتين في ذاتهِ

جاءتْ جملةُ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ معترِضَةً بين الموصوفِ والصِّفةِ، وهي تكريرٌ لنَظائِرِها المتقدِّمة في السّورة، فالفاءُ للتَّفريع على ما تقدَّم منَ الامتنانِ بذِكرِ الجزاءِ الحَسَنِ، وهو هاتانِ الجنَّتانِ الأُخْرَيانِ، وفي ذلك من الآلاء العظيمةِ والنِّعم الجَزيلة ما يحثُّ على تقرير الإيمانِ في قلوبِ المحسنينَ، وتوبيخ العاصينَ المُكذِّبينَ، كما أنَّ فيه دليلًا على أنَّ كلَّ وصفٍ للجنَّتَينِ في ذاته نعمةٌ عظمى، فوسَّطَ بينها الاعتراضَ للتَّنبيهِ على أنَّ تكذيبَ كلٍّ من الموصوفِ والصِّفةِ حقيقٌ بالإنكارِ والتَّوبيخ(1).

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 120.

الغرضُ من وصفِ الجنَّتينِ بـ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾، ودلالةُ تنكيرِه:

المبالغةُ في وصفِ اخضرارِ الجنَّتينِ دلالةٌ على عنايةٍ بالغةٍ

وصفَ النَّظمُ الجليلُ هاتَينِ الجنَّتينِ بأنَّهما: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾، وهو وصفٌ مشتقٌّ من الدُّهْمَة، وهي لونُ السَّواد، ووَصْفُ الجنَّتينِ بالسَّوادِ مبالغةٌ في شِدَّة خُضرَةِ أشجارِهما، حتّى تكونا بالتفافِ أشجارِهما وقوَّةِ خُضرتِها كالسَّوْداوَيْن؛ لأنَّ الشَّجرَ إذا كان رَيّانَ؛ اشتدَّتْ خُضرةُ أوراقِه حتّى تَقرُبَ من السَّواد[1]، وجاءَ الوصفُ نكرةً للتَّعظيم.

دلالةُ الوصفِ بـ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ في مقابل ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٍ﴾:

غلبةُ النَّباتِ دونَ الأشجارِ على هاتَينِ الجنَّتينِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ في مقابل ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٍ﴾ إشعارٌ بأنَّ الغالب على هاتَينِ الجنَّتينِ النَّباتُ والرّياحينُ المنبَسِطةُ على وجه الأرض، وعلى الأوليَيْنِ الأشجارُ والفواكهُ؛ دلالةً على ما بينهما من التَّفاوت[2]، فإنَّ الأشجارَ توصَف بأنَّها ذواتُ أفنانٍ، والنَّباتُ يوصفُ بالخضرةِ الشَّديدةِ، فالاقتصارُ في كلٍّ منهما على أحدِ الأمْرَين مُشْعِرٌ بما ذُكِرَ، وبُنِيَ على هذا كونُ هاتَينِ الجَنَّتينِ دونَ الأوليَيْنِ في المنزلة والقدر، كيف لا؟ والجَنَّةُ الكثيرةُ الظِّلالِ والثِّمارِ أعلى وأغلى من الجنَّةِ القليلةِ الظِّلالِ والثِّمارِ، ومَن ذَهَبَ إلى تفضيلِ هاتَينِ الجنَّتينِ؛ منعَ اختصاصَ وصفِ الخُضرةِ بالنَّباتِ، وكذا كونَهُ أغلبَ من وصْفِ الأشجارِ به، فكثيرًا ما تسمعُ النّاسَ يقولون إذا مَدَحوا بُستانًا: أشجارُه خُضْرٌ يانعةٌ، وهو أظهرُ في مدحِه بأنَّه ذو ثمارٍ من ذي أفنانٍ، وهو يُشعر أيضًا بكثرة مائه والاعتناء بشأنه، وبُعْدِه عن التَّصوُّح والهلاك[3].

معنى الفاءِ، وبيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا المَوْضِع:

جاءتِ الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 271.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 175.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 120.

في المسارعةِ بذِكرِ الآلاءِ بيانٌ بأنَّ كلَّ وصفٍ للجنَّتين في ذاتِه نعمةٌ عُظْمَى

للتَّفريع على ما تقدَّم من الامتنانِ بذكرِ الجزاءِ الحسنِ، وهو ما في هاتينِ الجنَّتين مِن اخضرارٍ قريبٍ للسَّوادِ، بما يوحي بشِدَّةِ النَّضارَةِ والرِّيِّ، وهو مُتعةٌ للنّاظرينَ وبهجةٌ للمشاهدينَ، وفي ذلك من الآلاءِ العظيمةِ والنِّعَمِ الجزيلةِ ما يَحُثُّ على تقريرِ الإيمانِ في قلوبِ المحسنينَ، وتوبيخِ العاصينَ المُكَذِّبينَ، فإنَّها كلَّها حقٌّ ونِعَمٌ لا يمكن جَحْدُها[1]، كما أنَّ فيه دليلًا على أنَّ كلَّ وصفٍ للجنَّتينِ في ذاته نعمةٌ عُظْمى.

الغرضُ من وصفِ الجَنَّتينِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

ثباتُ نَضْخِ العينَين ودَوامُه من مظاهرِ الإكرامِ والبَركةِ لأهلِهما

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ من حيثُ الصِّناعةُ النَّحويَّةُ؛ إمّا صفةً للجنَّتينِ، أو جملةً مستأنفةً لا محلَّ لها من الإعرابِ[2]، وفي إيثارِ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ إشارةٌ لما في نَضْخِ هاتَينِ العَيْنينِ من الثَّباتِ والاستقرارِ؛ إذْ إنَّ الاسمَ يدلُّ على الحَدَثِ مُجَرَّدًا من الزَّمانِ، فهو نضْخٌ غيرُ متحوِّلٍ، فهما تنضخانِ أبدًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالنَّضْخِ دونَ النَّضْحِ أو الجَري:

النَّضْخُ أغزرُ من النَّضْحِ ودونَ الجَري، وقيل أجملُ من الجَرْي

عبَّرَ النَّظْمُ الجليلُ عن صفةِ الماءِ في هاتَينِ الجنَّتينِ بالنَّضْخِ دونَ النَّضْحِ أو الجَرْي؛ وذلك للدَّلالةِ على أنَّ العَيْنَينِ هاهنا فوّارتان بالماءِ على ما هو الظّاهرُ، وعدلَ عن التَّعبيرِ بالنَّضْحِ الذي هوَ مِثلُ الرَّشِ؛ لأنَّ النّضْخَ أكثرُ منه وأغزرُ، وهو عند من فضَّلَ الجنَّتينِ الأولَيَيْنِ دونَ الجَري، فالمَدحُ به دونَ المَدحِ بالجري، كما جاءَ في الأثرِ: «العينانِ اللَّتانِ تجريانِ خيرٌ من النَّضّاخَتَيْنِ»[3]، ومَن ذهبَ إلى تفضيلِ هاتَينِ يقول: في الفَورانِ جَرْيٌ مع زيادةِ حُسنٍ، فإنَّ الماءَ إذا فارَ، وارتفعَ؛ وقعَ مُتناثرَ القَطَراتِ كحبّاتِ اللُّؤلؤِ المتناثرةِ، كما يُشاهَدُ في الفوّاراتِ المعروفَةِ[4]، مع جوازِ أن يكونَ الجَريُ يَسيرًا،

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 171.

(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 220.

(3) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 7/ 716.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 121.

والنَّضْخُ قويًّا كثيرًا، وقيل: فائِرتانِ، ماؤهما مُتحرِّكٌ إلى جهة فوقُ، وأمّا العَينانِ المُتقدِّمتان؛ فتجريانِ إلى صَوب المؤمنين، فكِلتاهما حَرَكَتُها إلى جهة مكان أهلِ الإيمان، مع ما في النَّضخِ من الحركةِ إلى جهةِ العُلوِّ، والعينانِ في مكانِ المؤمنينَ[1].

وعلى أيِّ المعنيين، فقد أضافَ النَّظمُ الكريمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ صفةً أخرَى للجنَّتين الأُخرَيَيْن؛ لتقريبِ صفة الجنَّتينِ إلى عقولِ البشرِ؛ إذْ مِمّا اعتادوه أنَّ الجِنان لا تقوم إلّا بالأنهار الجاريةِ أو العيونِ الفائرةِ، فامتنَّ اللّهُ تعالى بجَرَيانِ هذه العُيونِ الدّافقةِ ونضْخِها على الدَّوامِ[2].

الغَرَضُ من تقديمِ الخَبَرِ ﴿فِيهِمَا﴾ على المبتدأِ ﴿عَيۡنَانِ﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الخبرَ ﴿فِيهِمَا﴾ في قولِه: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾؛ لِبَيانِ اختصاص هاتَينِ الجَنَّتَينِ بهاتَينِ العينينِ النَّضّاخَتَينِ، ولتوكيدِ اشتمالِ الجنَّتَينِ عليهما بدلالةِ الظَّرفيَّةِ.

اخـتـصـاصُ الـجـنَّـتـيـنِ بـالـعَـيـنَـيـنِ الجاريَتَينِ زيادةٌ فـي الـنَّـعـيـمِ والإكرامِ

دلالَةُ التَّعبيرِ بالمبتدَأِ مُثَنًّى ﴿عَيۡنَانِ﴾:

جاءتْ تثنيةُ ﴿عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ جاريةً على نحوِ ما تقدَّم في تَثنيَةِ ﴿جَنَّتَانِ﴾، وكذلك تَثْنِيَةُ ضميرَيْ ﴿فِيهِمَا﴾؛ تَبَعًا لتَثنيَةِ مَعادِهما في اللَّفظ، وقد تنوَّعتِ الأقوالُ في المرادِ بهما، منها: أنَّهما نضّاختان بالخيرِ والبركةِ، وقيل: تنضَخانِ على أولياء اللّه بالمِسكِ والعنبرِ والكافورِ في دورِ أهل الجنَّة، وقيل: تنضخانِ بأنواعِ الفواكه والماءِ، وقيل: تنضخانِ بأنواعِ الفواكهِ والنِّعَمِ والجواري المُزيَّناتِ والدَّوابِ المُسْرَجاتِ والثّيابِ المُلَوَّناتِ، وقيل: تَنْبَعانِ ثمَّ تَجريان؛ ولذلك فقد ذهبَ بعضُهم إلى أنَّ النَّضْخَ أكثرُ من الجَريِ[3].

زيـادَةُ العطاءِ والنَّعيمِ حتَّى في الماءِ الذي يَسْقي الجنَّتَينِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 379.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 182.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 121.

تجدُّدُ جَريانِ العينين، واستمرارُ عطائهما وبَرَكَتِهما

سِرُّ وصفِ العَينَين بصيغةِ المُبالغةِ ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾:

آثَر النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بصيغةِ المبالغةِ في قولِه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾؛ للدَّلالةِ على شِدَّةِ النَّضخِ ودَوامِه، وفي وصفِ العينينِ بالجَريانِ إشارةٌ خفيَّةٌ إلى نَضْخِ عُيونِ الخائفينَ من مقامِ اللهِ في الدُّنيا بالدُّموعِ، من مخافة اللّه(1).

ذِكرُ فَورانِ الماءِ الشَّديدِ هنا بيانٌ للحفاوةِ والإكرامِ

بلاغةُ الاعتراضِ، ومعنى الفاءِ، وبيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾:

عند تقدير جملة: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ صفةً للجنَّتين، تكونُ جملةُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ اعتراضًا بين الصِّفةِ والموصوفِ(2)؛ لتَوكيدِ أنَّ كلَّ وصفِ نِعمةٍ قائمةٌ بذاتها، وجاءتِ الفاءُ للتَّفريعِ على ما تقدَّم منَ الامتنانِ بذِكرِ هاتَينِ العينَيْنِ النَّضّاختَين، وما فيهما من منظرٍ بهيجٍ، يأسِرُ النُّفوسَ، ويُمَتِّعُ العيونَ، وفي ذلك من الآلاءِ العظيمةِ والنِّعَمِ الجزيلة ما يَحثُّ على تقريرِ الإيمانِ في قلوبِ المُحسنينَ، وتوبيخِ العاصينَ المكذِّبين، فإنَّها كلَّها حقٌّ ونِعَمٌ لا يمكن جَحْدُها(3).

دوامُ وجودِ الفاكهةِ في الجنَّتين من مظاهرِ الإكرامِ لأهلِهما

الغَرضُ من وصفِ الجنَّتينِ بالجملة الاسميَّةِ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾:

جاءَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من حيثُ الصِّناعةُ النَّحويَّةُ إمّا صفةً للجنَّتينِ، أو جملةً مستأنَفَةً لا محلَّ لها من الإعرابِ(4)، وفي إيثارِ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ إشارةٌ لدوامِ وجودِ الفاكهةِ في هاتَينِ الجنَّتينِ؛ إذْ إنَّ الاسمَ يدلُّ على الحَدَثِ مجرَّدًا من الزَّمانِ، فهو وجودٌ ثابتٌ لا يتغيَّرُ، فهذه الفاكهةُ دائمةٌ غيرُ منقطعة، فالآيةُ هاهُنا في معنى قولِه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٍ وَلَا مَمۡنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة: 32 - 33].

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 185.
(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 220.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 171.
(4) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 220، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 14/ 105.

الغرضُ من تقديمِ الخبرِ ﴿فِيهِمَا﴾، وبيانُ مرجعِ الضَّميرِ:

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الخبرَ ﴿فِيهِمَا﴾ في قولِه: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾؛ لبيانِ اختصاصِ هاتَينِ الجنَّتينِ بهذه الألوانِ من الفواكه والنَّخل والرُّمّانِ، ولتوكيدِ اشتمالِ الجنَّتينِ عليها بدلالةِ الظَّرفيَّة، وفي هذا التَّخصيصِ إظهارٌ لكرامةِ أصحابِ اليمينِ وعُلوِّ مكانتِهم عندَ ربِّهم.

اختصاصُ الجَنَّتينِ بهذه الأنواعِ من الفاكهةِ زيادَةٌ في والإكرامِ

الغرضُ من تنكيرِ المبتدأ وما عُطِفَ عليه:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ عَدَلَ النَّظمُ الحكيمُ عنِ تعريفِ ﴿فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾، فلم يقل: (فيهما الفاكهةُ والنَّخلُ والرُّمّانُ)؛ لأنَّها لو جاءتْ معارفَ؛ لكانت شبيهةً بفاكهةِ الدُّنيا ونخلِها ورُمّانِها، فجاء بها نَكِراتٍ للتَّعظيم، فهي فاكهةٌ ونخلٌ ورمّانٌ عَظيمةُ المُتعَةِ، وكذلك فقد أفادَ التَّنكيرُ هاهُنا التَّعميمَ، حتَّى تَشملَ كلَّ أنواعِ الفاكهةِ والنَّخلِ والرُّمّانِ، ما عرفنا منها وما لم نعرِف، كما جاءَ في الحديثِ القُدسيِّ، عنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسولُ اللّهِ ﷺ: «قالَ اللّه: أعْدَدْتُ لِعِبادي الصّالِحينَ ما لا عينٌ رَأَتْ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ»[1]، فنَخْلُ الجَنَّةِ ورُمّانُها وراءَ ما نعرفُه، فقد جاء في الأثر: «نَخْلُ الجَنَّةِ جُذوعُها زُمُرُّدٌ أخْضَرُ، وكَرانيفُها ذَهَبٌ أحْمَرُ، وسَعَفُها كِسْوَةٌ لِأهْلِ الجَنَّةِ، مِنْها مُقَطَّعاتُهُمْ وحُلَلُهُم، وثَمَرُها أمْثالُ القِلالِ أوِ الدِّلاءِ، أشَدُّ بَياضًا مِنَ اللَّبَنِ، وأحْلَى مِنَ العَسَلِ، وألْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ، ولَيْسَ لَها عَجَمٌ»[2]، ورويَ عن النَّبيِّ ﷺ: «نَظَرْتُ إلى الجَنَّةِ، فإذا الرُّمّانَةُ مِن رُمّانِها كَمَثَلِ البَعيرِ المُقْتَبِ»[3]، وهذا المدحُ بحسبِ

فاكهَةُ الجنَّةِ فاكهةٌ عظيمةُ المُتعَةِ

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3280).

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه، برقم: (37)، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ ولم يُخَرِّجاهُ، ووافقه الذّهبيّ.

(3) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 7/ 716.

الظّاهرِ دونَ المدحِ في قوله تعالى في الجنَّتَينِ السّابقتين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾، ومَن ذهبَ إلى تفضيلِهما يقول: إنَّ التَّنوينَ في ﴿فَٰكِهَةٞ﴾ للتَّعميم، بقرينةِ المَقام، نظيرَ ما قيلَ في قولِه تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ [التَّكوير: 14] فيكونُ في قوَّةٍ: (فيها كلُّ فاكهة)، ويزيدُ ما في النَّظمِ الجليلِ على ما ذُكِرَ بتَضَمُّنِه الإشارةَ إلى مدحِ بعض أنواعِها[1].

بيانُ سِرِّ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ ﴿فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾:

فَـصّـلَ في ذِكـر النَّخل والـرُّمّانِ لفضلهما

عطفَ البيانُ القرآنيُّ ذِكرَ النَّخلِ والرُّمّانِ على ذِكر الفاكهةِ، فقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾، فذهب قومٌ إلى أنَّ النَّخل والرُّمّانِ ليسا من جنسِ الفاكهةِ؛ لأنَّ الواو تقتضي المغايَرَةَ، والرّاجحُ أنَّ ثمر النَّخل والرُّمّانِ من جملة الفاكهةِ، غيرَ أنَّهما ذُكِرا على التَّفصيل للتَّفضيل، فأُخرِجا من الجملة بالذِّكر، كما في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: 238]، فأعاد الوسطى بعد أن ذكرها في الجملةِ، تشديدًا لها، كذلك أُعيد النَّخل والرُّمّان ترغيبًا لأهل الجنَّة، وكذلك قولُ اللّهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]؛ فقد عُلِمَ أنَّ جبريل وميكال دخلا في الجملة، وأُعيد ذِكرُهما دلالةً على فضلهما وقُربِهما من خالقهما[2]، وقيل: إنَّما كرَّرهما؛ لأنَّ النَّخل كان عندهم عامَّةَ قوتِهم، وكان الرُّمّانُ كالثَّمرات، فكان يكثر غرسُهُما عندهم لحاجتهم إليهما، وكانت الفواكهُ عندهم من ألوان الثِّمارِ التي يُعْجَبون بها، فإنَّما ذَكرَ الفاكهة، ثمَّ ذكرَ النَّخلَ والرُّمّانَ لعمومِهما وكثرتِهما عندهم من المدينةِ إلى مكَّةَ، إلى ما والاهما من أرضِ اليمنِ، فأخرجَهُما في الذِّكر من الفواكهِ، وأفرد الفواكهَ على

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 121.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 196.

حِدَتها، وقيل: أُفْرِدا بالذِّكر؛ لأنَّ النَّخلَ ثمرُه فاكهةٌ وطعامٌ، والرُّمَّانُ فاكهةٌ ودواءٌ، فلم يُخْلَصا للتَّفكُّه[1].

بلاغةُ الاعتراضِ، ومعنى الفاءِ، وبَيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾:

في ذكرِ الفاكهةِ والنَّخلِ والرُّمّانِ في هاتَين الجنَّتَيْنِ نعمةٌ عظمى

عند تقدير جملةِ: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ صفةً للجنَّتَين، تكونُ جملةُ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ اعتراضًا بين الصِّفةِ والموصوفِ[2]؛ لتوكيدِ أنَّ كلَّ وصفٍ للجنَّتَين نعمةٌ قائمةٌ بذاتها، وجاءتِ الفاءُ للتَّفريع على ما تقدَّم منَ الامتنانِ بذِكرِ هذه الفواكه، وما فيها من تَفَكُّهٍ وقوْتٍ ودواءٍ، وفي ذلك من الآلاء العظيمةِ والنِّعَم الجزيلة ما يَحثُّ على تقرير الإيمانِ في قلوبِ المحسنينَ، وتوبيخِ العاصينَ المُكَذِّبينَ، فإنَّها كلَّها حقٌّ ونِعَمٌ لا يمكن جَحْدُها[3].

سِرُّ وصفِ الجَنَّتين بالجملةِ الاسميَّة ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾:

التَّنعُّمُ بالحورِ حسانِ الوجوهِ لَذَّةٌ مُلازمةٌ في الجنَّةِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على دوام وجودِ هؤلاءِ الحورِ العين في جنّاتِ أصحاب اليمين، بعدَ أنْ ذكرَ نِعمةَ التَّمتُّعِ بالفاكهةِ والنَّخل والرُّمّانِ، فلا ينقطع التَّلذُّذُ بهؤلاء الحِسانِ أبدًا.

الغرضُ من تقديمِ الخَبرِ ﴿فِيهِنَّ﴾ وبيانُ مرجعِ الضَّمير:

اختصاصُ الجنّاتِ بهؤلاء الخيراتِ الحِسانِ

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، فهؤلاء الخيراتُ الحِسانُ مختصّاتٌ بهذه الجنّاتِ، التي وعدَ اللّهُ تعالى، لكلِّ واحدٍ من أصحابِ اليمينِ جنَّتان منها.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

احتَوتِ الجنّاتُ على الخيِّراتِ الحِسانِ

جاءَ استعمالُ حرفِ (في) الدّالِ على الظَّرفيَّةِ في كلمةِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 185.
(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 220.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 171.

﴿فِيهِنَّ﴾؛ لإفادَةِ معنى التَّضَمُّنِ والاحتِواءِ، فكأنَّ الجنّاتِ قدِ احتَوتْ هؤلاءِ المُتَّقينَ، وشملَتهُم فيها مع الحور العينِ، فهم مغموسونَ في النَّعيم ظاهرًا وباطِنًا، لا يَنْفَكّونَ عنِ التَّلذُّذِ بهذا النَّعيمِ المُقيمِ والرّاحَةِ التّامَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الجمعِ في ﴿فِيهِنَّ﴾، مع أنَّه وصفٌ للمُثَنَّى:

في عَودِ الضَّميرِ جمعًا تكثيرٌ لوجوه النَّعيمِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ باستعمالِ ضميرِ الجمعِ ﴿فِيهِنَّ﴾، رغم عَودِ الضَّميرِ على مثنًّى، وهو ﴿جَنَّتَانِ﴾ في قولِه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، وقد تعدَّدَتْ أقوالُ المُعْرِبينَ في توجيهِ العدولِ عن ضمير المُثَنَّى (فيهما) إلى ضميرِ الجمع ﴿فِيهِنَّ﴾، كما تعدَّدتْ في قولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، **القولُ الأوَّلُ**: أنَّ الضميرَ في ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ على الجِنانِ الدّالِّ عليهِنَّ ﴿جَنَّتَانِ﴾؛ إذ كلُّ فردٍ فردٍ له جنَّتانِ، فصَحَّ أنَّها جِنانٌ كثيرةٌ. **والقولُ الثّاني**: أنَّ الضَّميرَ يعودُ على ما اشتملتْ عليه الجنَّتانِ من المجالسِ والقُصورِ والمَنازِلِ. **والقولُ الثّالث**: أنَّه يُعود على الجنّاتِ الأربعِ، الجنَّتينِ الأولَيَيْنِ والجنَّتَيْنِ اللَّتَينِ من دونِهما، فيجوز أن يكون لصاحبِ الجنَّتينِ الأولَيينِ جنَّتان أُخْرَيانِ، فصارت له أربعُ جنّاتٍ، ويجوز أن يكون توزيعًا على من خافوا ربَّهم، فيعودُ على جنّاتِ أصحابِ اليمينِ مجتمعينَ بجنّاتِهم الكثيرة. **والقولُ الرّابعُ**: أنَّ الضَّميرَ عائدٌ على الآلاءِ المعدودةِ من الجنَّتينِ والعينَينِ والفاكهةِ. والقولُ الخامسُ: أنَّ كلَّ موضعٍ من الجنَّةِ جَنَّةٌ، فلذلك قال: ﴿فِيهِنَّ﴾[1].

الغَرضُ من التَّعبيرِ بـ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ مادَّةً وصيغةً، ودلالةُ التَّنكيرِ:

نساءُ أهلِ اليمينِ فاضلاتٌ مختاراتٌ لا رَذْلَ فيهنَّ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ عن الحورِ العينِ لأهلِ اليمينِ بلفظِ ﴿خَيْرَٰتٌ﴾؛ للدَّلالةِ على عراقتهِنَّ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 120، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 273، والخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 220.

في الخيرِ، فالخيرَةُ: الخيارُ من كلِّ شيءٍ، وامرأةٌ خَيْرَةٌ في جَمالها وميسَمِها[1]، وهيَ الفاضِلَةُ من كُلِّ شَيْءٍ[2]، وفي هذا البناءِ وجهان، أحدُهما: أنّه جمعُ (خَيْرَة)، بزِنةِ فعْلَة بسكونِ العين، يقال: امرأةٌ خَيْرَةٌ، وأخرى شَرَّةٌ. والثّاني: أنَّه جمعُ خَيْرَة المخففة مِنْ خَيِّرَة[3]، وفَسَّرَه الرَّسولُ ﷺ بقوله: «خَيِّراتُ الأَخْلاقِ»[4]، والمراد في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ المختاراتُ، أي: فيهنَّ مختارات لا رَذْل فيهنَّ[5]، وأنَّهنَّ فاضِلاتُ النَّفسِ كَرائمُ الأخلاقِ[6]، فالخَيرات مَن اختارَهُنَّ اللّهُ، فأبدعَ خَلْقَهُنَّ باختيارِهِ، فاختيارُ اللّهِ لا يشبه اختيارَ الآدميّين، والتَّنكيرُ هاهُنا للتَّعظيم، فقد جاءَ في الأثر: «لَوْ أَنَّ خَيْرَةً مِنْ خَيْراتٍ حِسانٍ اطَّلَعَتْ مِنَ السَّماءِ؛ لَأَضاءَتْ لَها، ولَقَهَرَ ضَوْءُ وجْهِها الشَّمْسَ والقَمَرَ، ولَنَصيفٌ تُكْساهُ خَيْرَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وما فيها»[7].

سِرُّ وصفِ الخَيراتِ بـ﴿حِسَانٌ﴾:

لا يـقـدرُ على وصـفِ جـمـالِ الحِـسانِ سوى اللهِ تعالى

في قولِ اللّه تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ وصفَهنَّ النَّظمُ الجليلُ بأنَّهنَّ ﴿حِسَانٌ﴾، أي: حِسانُ الخَلْقِ، ومع أنَّ الخيراتِ مستَغنيةٌ عن الوصف بذاتِها؛ لأنَّها خيراتٌ لا يجيء منها إلّا كُلُّ ما هو خيرٌ، فقد وُصِفَتْ بأنَّها حِسانٌ؛ تحقيقًا لكمالِ الخيريَّة فيها، ومَحْضِها للخيرِ الخالصِ، وعزْلِها عن الخير الذي يَشوبُه شيءٌ ممّا يُكَدِّر صَفْوَه؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).
(2) الرّازيّ اللّغويّ، مختار الصّحاح: (خير).
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 184.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 70. ذكره الهيثميّ في مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: 10/ 772، وقال: رواه الطّبرانيّ في الأوسط والكبير.
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (خير).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 273.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 186. ورواه ابن المبارك في الجهاد، برقم: (24)، وهو حسن بمتابعاته.

إذ كثيرًا ما يشوب الخيرَ ما ليس منه[1]، وإذا قال اللّه تعالى: ﴿حِسَانٌ﴾؛ فمن ذا الذي يَقدِرُ أن يَصِفَ حُسْنَهُنَّ؟ وقيل: لأنَّهنَّ عَذارى أبكارٌ، ومن ذهبَ إلى أنَّ الجنَّتينِ الأُخريَينِ أعلى منزلةً من الجنَّتينِ الأوليَيْنِ، قال: ذَكَرَ هُنالك أنَّهنَّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، و﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾، فانظرْ كمْ بين الخَيْرَةِ، وهي مختارةُ اللّه، وبين قاصراتِ الطَّرفِ، جاء في الأثرِ في تفسيرِ حُسنِهِنَّ: «إنَّ الحورَ العينَ يَأْخُذُ بَعْضُهُنَّ بأيْدي بَعْضٍ، ويَتَغَنَّيْنَ بأصْواتٍ، لَمْ تَسْمَعِ الخَلائِقُ بأحْسَنَ مِنها ولا بمِثْلِها: نَحْنُ الرّاضِياتُ، فلا نَسْخَطُ أبَدًا، ونَحْنُ المُقِيماتُ، فلا نَظْعَنُ أبَدًا، ونَحْنُ الخالِداتُ فلا نَموتُ أبَدًا، ونَحْنُ النّاعِماتُ، فلا نَبْأسُ أبَدًا، ونَحْنُ خَيْراتٌ حِسانٌ حَبيباتٌ لِأَزْواجٍ كِرامٍ»[2].

بلاغةُ الاعتراضِ، ومَعْنَى الفاءِ، وبَيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾:

في ذكرِ ما في الحورِ العينِ من الخيرِ والجمالِ نِعَمٌ عظمى

عند تقدير جملةِ ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ صفةً للجنَّتينِ تكونُ جملةُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ اعتراضًا بين الصِّفةِ والموصوفِ[3]؛ لتوكيدِ أنَّ كلَّ وصفٍ للجنَّتينِ نعمةٌ قائمةٌ بذاتها، وجاءتِ الفاءُ للتَّفريعِ على ما تقدَّم منَ الامتنانِ بذِكرِ ما في نساءِ أهلِ اليمينِ من الخيرِ والجمالِ، وفي ذلك نِعَمٌ جزيلةٌ تحثُّ على تقريرِ الإيمانِ في قلوبِ المحسنينَ، وتوبيخِ العاصينَ المُكَذِّبينَ، فإنَّ شيئًا منها كائنًا ما كان لا يقبلُ التَّكذيبَ[4].

موقعُ ﴿حُورٌ﴾ والغرضُ من وصفِ ﴿خَيۡرَٰتٌ﴾ به:

في لفظِ (حورٌ) مبالغةٌ في جمالِ عيونِهنَّ وبياضِ أجسادِهنَّ

تعدَّدتِ الأقوالُ في إعرابِ لفظِ ﴿حُورٌ﴾ ومَوقِعه ممّا قبله، **فالأوَّلُ**:

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 698.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 187. وهو جزءٌ من حديث أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (2564)، وقال: حديث غريب.
(3) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 220.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 171.

أنَّهُ بدلٌ من ﴿خَيۡرَٰتٌ﴾، **والثّاني**: أنَّهُ مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ، والتقديرُ: فيهنَّ حورٌ، **والثّالث**: أنَّهُ نعتٌ لـ﴿خَيۡرَٰتٌ﴾[1]، وقد وصفَ النَّظمُ الجليلُ الخيراتِ الحِسانَ بأنَّهنَّ ﴿حُورٞ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ حُسْنِهِنَّ، وللمبالغةِ في وصفِ جمالِهِنَّ، ففيه إشارةٌ إلى جمالِ عيونِهِنَّ وبياضِ أجسادِهِنَّ؛ لأنَّ الحَوَرَ أن يشتدَّ بياضُ بياضِ العينِ، وسوادُ سوادِها، وتستديرَ حَدَقَتُها، وتَرِقَّ جُفونُها، ويَبْيَضَّ ما حوالَيْها[2]، وذلك نهايةُ الحُسنِ من العينِ[3]، وقد ربطوا ذلك ببياض البَدَن أيضًا[4].

دلالةُ الوصفِ بصيغةِ اسم المفعولِ مقابل اسم الفاعلِ:

التَّعبيرُ باسم الفاعلِ للملازمةِ، وباسم المفعولِ للقَسْرِ عليها

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ اسم المفعولِ ﴿مَّقۡصُورَٰتٞ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾، وفيه أربعةُ تأويلات، **الأوَّل**: مقصوراتُ الطَّرفِ على أزواجهنَّ. **والثّاني**: المحبوساتُ ولسْنَ بالطوّافاتِ في الطُّرق. **والثّالث**: المُخدَّراتُ المَصوناتُ. **والرّابع**: أنهُنَّ المُسْكَناتُ في القصورِ[5]، وهذه التَّأويلاتُ قريبةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ ممّا وردَ في لفظِ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾، من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، ففي التَّعبيرينِ مَدحٌ لهؤلاء وأولئكَ بالعِفَّةِ والصّيانَة.

وأمّا الفرقُ بينهما عندَ من ذهبَ إلى تفضيلِ الجنَّتينِ الأوليَيْنِ، فهو أنَّ في لفظِ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾؛ إشارةً إلى ما في هؤلاءِ الحورِ من خَفَرٍ، وحياءٍ، وعِفَّةٍ، وأنَّ ذلك في أصلِ خَلْقِهِنَّ، فاسمُ الفاعلِ للدَّلالَةِ على أنَّ هذا الوصفَ ثابتٌ فيهنَّ لا يتغيَّرُ، ولا يتبدَّلُ، وأمّا لفظُ ﴿مَّقۡصُورَٰتٞ﴾؛ فيشيرُ إلى أنَّ هؤلاء الحورَ قد قَصَرَتْهُنَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 187، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 122، والخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 220.
(2) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (حور).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (حور).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حور).
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 442.

الخيامُ، وحَجَبتْهُنَّ عن العيونِ، وحجَبَتِ العيونَ عنهنَّ، وهذا لا يمنعُ من أن يكون لهُنَّ ما لأخواتِهنَّ من الخَفَرِ والحياءِ، ولكنْ شَتّانَ ما بينَ خَفَرٍ وحياءٍ مُطلَقين، وخَفَرٍ وحياءٍ مقصورَيْنِ ومقيَّدَيْن! فذاك قد امتُحن، وجُرِّب، فظلَّ ثابتًا، لم تنلْ منه التَّجربةُ والامتحانُ، وهذا لم يُمْتَحَنْ، ولم يُجَرَّب بعدُ[1]؛ وذلك لما في ﴿مَّقۡصُورَٰتٌ﴾ مِنَ الإِشْعارِ بالقَسْرِ في القَصْرِ[2].

ومن ذهب إلى تفضيل الأخيرتين يقول: هذا أمدحُ؛ لعموم الصِّفاتِ الحسنةِ خَلْقًا وخُلُقًا في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ﴾، ويدخل في ذلك قَصْرُ الطَّرفِ وغيرُه ممّا يدلُّ عليه التَّشبيهُ بالياقوتِ والمَرجانِ، والمرادُ بـ﴿مَّقۡصُورَٰتٌ﴾ - على القولِ بأنَّ قلوبَهن وأبصارَهن ونفوسَهن مَقصورةٌ على أزواجهن - القصرُ الطَّبيعيُّ بقرينةِ المقام، فيكون فيه إشارةٌ إلى تعذُّرِ تَرْكِ القَصْرِ منهنَّ، فحتَّى لو أرَدْنَ عدمَ القصرِ لما استطعنَ، وأمّا ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾؛ فرُبَّما يوهِمُ أنَّ القَصْرَ باختيارِهنَّ، فمتى شِئنَ؛ قَصَرْنَ، ومتى لمْ يَشَأْنَ؛ لمْ يَقْصُرْنَ[3]، وفي قَصْرِ الخيام على حورِ الجنَّتين الأُخْرَيَيْن إشارةٌ إلى عظمَتِهنَّ ونفاستِهنَّ ورَوْعَتِهنَّ، فإنهنَّ ما قُصِرنَ حَجْرًا عليهنَّ، وإنَّما ذلك إشارةٌ إلى ضربِ الخيامِ لهُنَّ وإدلاءِ السِّتر عليهنَّ[4]؛ ضنًّا بهنَّ أن تراهُنَّ العُيونُ.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في ﴿فِي ٱلۡخِيَامِ﴾:

جاءتْ ﴿فِي﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾؛ للدَّلالةِ على الظَّرفيَّة، في إشارةٍ إلى إحاطةِ الخيامِ بهؤلاءِ الحورِ العينِ؛ مبالغةً في حياطَتِهِنَّ وسترِهِنَّ لنفاستهنَّ وشدَّةِ جمالِهنَّ.

فـي إحـاطـةِ الخيامِ بالحورِ دلـيـلٌ عـلى شِدَّةِ نفاستِهنَّ وجمالِهنَّ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 698.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 123.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 123.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 380.

إيثارُ التَّعبير بالخيامِ، ودلالةُ التَّعريفِ فيها:

المبالغةُ في صيانةِ الحورِ العينِ

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱلۡخِيَامِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾؛ وذلك لما في لفظِ الخيامِ من الدَّلالةِ على الإقامةِ والثَّباتِ[1]، وخيامُ الجَنَّة: بيوتُ اللُّؤلؤِ، وقيل: هي درٌّ مُجوَّفٌ[2]، فليسَ المرادُ بلامِ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡخِيَامِ﴾ ما تعارفَهُ النّاسُ، بل المرادُ تعظيمُ هذه الخيامِ وبيانُ مَدى فخامَتِها، وأنَّها هي (الخيامُ) دون ما عداها ممّا عَرَفوه من ضُروب الخيام، ودليلُ ذلك ما رواه البخاريُّ، أنَّ رَسولَ اللّه ﷺ قالَ: «إنَّ في الجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُها سِتّونَ ميلًا، في كُلِّ زاويَةٍ مِنْها أَهْلٌ ما يَرَوْنَ الآخَرينَ، يَطوفُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنونَ»[3]، وهذه الخيامُ في داخل قصورِ أهلِ اليمين، فهي شبيهةٌ بالخدورِ التي تُتَّخَذُ في البيوت[4]، مبالغةً في سترهِنَّ لنفاسَتِهِنَّ.

بلاغةُ الاعتراضِ، ومعنى الفاءِ، وبَيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾:

في ذِكرِ قَصْرِ الحورِ العينِ في خيامِ اللُّؤلؤِ آلاءٌ جزيلةٌ

عند تقدير جملةِ: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ صفةً لقولِ اللّهِ تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾، أو في محلِّ نصبِ حالٍ من ﴿حُورٞ﴾؛ لأنَّهُ نكرةٌ موصوفةٌ؛ تكونُ جملةُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ اعتراضًا بين الصِّفةِ والموصوفِ[5]؛ لتوكيدِ أنَّ كلَّ وصفٍ لهؤلاءِ الحورِ العينِ نعمةٌ قائمةٌ بذاتها، وجاءتِ الفاءُ للتَّفريع على ما تقدَّم منَ الامتنانِ بذكرِ قَصْرِ الحورِ العينِ في خيامِ اللُّؤلؤ، وفي ذلك نِعَمٌ جزيلةٌ تحثُّ على تقرير الإيمانِ في قلوبِ المُحسنينَ، وتوبيخِ العاصينَ المُكذّبينَ، فإنَّ شيئًا منها كائنًا ما كان لا يقبلُ التَّكذيبَ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خيم).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 71.
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4928).
(4) الجمل، الفتوحات الإلَهيّة على تفسير الجلالين: 7/ 382، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 6/ 516.
(5) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 220.
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 171.

سِرُّ تَكرارِ الحالِ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾:

اختصاصُ الحورِ العينِ بأصحابِ اليمينِ كاختصاصِ قاصراتِ الطَّرْفِ بالمحسنينَ

كرَّرَ النَّظمُ الجليلُ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ في وصفِ قاصراتِ الطّرفِ اللّائي وعدَ اللّهُ بهنَّ المحسنينَ، وفي وصفِ المَقصوراتِ في الخيامِ اللّائي وعدَ اللّهُ بهنَّ أصحابَ اليمينِ؛ لبيانِ عدمِ الفرقِ بينَ الفريقَيْنِ في هذه المسألةِ، فالمُرادُ في الموضِعَينِ اختصاصُ هؤلاءِ الحورِ العينِ بأزواجهنَّ وحدَهم دونَ غيرهم من الخَلْقِ؛ وذلك لأنَّ الاختصاصَ بالمرأة من أعظم المُلَذِّذات، فبرَّأهُنَّ أن يجامعَهُنَّ، ويتسلَّطَ عليهنَّ أحدٌ من الإنسِ للإنسيّاتِ أو الجنِّ للجنيّاتِ، فكأنَّه قيل: هنَّ أبكارٌ لم يُخالِطْ موضعَ الطَّمثِ منهنَّ أحدٌ[1]، كما لم يخالطْ أبصارَهنَّ أحدٌ، فجَمَع لهنَّ بينَ عِفَّةِ البصرِ ونقاءِ الفرجِ، فالامتنانُ هنا كالامتنانِ هناكَ، سواءٌ بسواءٍ.

مَعْنَى الفاءِ ودَلالتُها، وبَيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا المَوْضِعِ:

في ذكرِ الحورِ العينِ وكونِهنَّ أبكارًا لم يَطْمِثْهُنّ أحدٌ نِعَمٌ عظيمةٌ وآلاءٌ جزيلةٌ

جاءتِ الفاءُ في جملة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتّفريع على ما تقدَّم من الامتنانِ بما وعدَ اللّهُ أصحابَ اليمينِ من التّلذُّذِ بالمقصوراتِ في الخيامِ من الحورِ العينِ، مع الامتنانِ كذلك بكونهنَّ أبكارًا لم يطمثهنَّ أحدٌ من إنسٍ ولا جانٍّ، وفي ذلك ما فيه من الآلاءِ العظيمةِ والنِّعم الجزيلة؛ فإنَّ في مجرّد هذا التّرغيبِ في هذه الآلاءِ نعمةً جليلةً ومنَّةً عظيمةً؛ لأنَّ به يحصلُ الحِرصُ على الأعمالِ الصّالحةِ والفرارُ من الأعمالِ الطّالحةِ، فكيف بالوصول إلى هذه النِّعَمِ والتّنعُّمِ بها في جنّات النّعيمِ بلا انقطاعٍ ولا زوالٍ[2] !.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 184.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 170.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٧﴾ [الرّحمن: 76 - 77]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد الوعدِ بالتَّلذُّذِ بالحور العينِ، وصفَ حالَهم بأنَّ الاتِّكاءَ لهم دَيْدَنٌ وعادةٌ؛ لأنَّهم لا شُغْلَ لهم بوجهٍ إلّا التَّمتُّعُ بالنِّساء الجميلةِ والثّياب النّاعمةِ، وكان عَقِبَ كلِّ نعمةٍ من هذه النِّعم يُعيدُ التَّذكيرَ بما فيها من الآلاء؛ للتَّنبيه إلى أنَّ كلَّ نعمةٍ منها تكفي للحَثِّ على الطّاعاتِ، والزَّجرِ عن الموبقاتِ(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَفۡرَفٍ﴾: (رف) أصلانِ، أحدُهما: المَصُّ وما أشبهه، والثّاني: الحَركةُ والرّيقُ، وأمّا ما كان من جهةِ الاضطِراب؛ فالرَّفرفَةُ، وهي تحريكُ الطّائر جناحَيْه، والرَّفْرافُ: الظَّليمُ يُرَفرِفُ بجناحيه ثم يَعْدو، ومنه الرَّفْرَفُ، وهو كِسرُ الخِباءِ ونحوه، ويقال: ثَوب رفيفٌ: بيِّنُ الرَّفَفِ، وذلك لرقَّته واضطِرابه(2)، وفرشوا لنا رَفرفًا، وهو ضربٌ من البُسُطِ الخُضْرِ، وأقعَدَني على رَفرفة بين يديه(3)، والمعنى المِحوريُّ: طرَفٌ رقيقٌ يمتَدُّ رِخْوًا أو غَضًّا نَديًّا، كرفرفِ الشَّجر والخباءِ والفسطاطِ(4)، والرَّفرفُ في قوله تعالى: ﴿رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ﴾ ضربٌ من البُسُطِ، وهو ما يُبْسَطُ على الفراشِ ليُنامَ عليه، وهي تُنسجُ على شبه الرّياض، ويَغلِبُ عليها اللَّون الأخضر(5).

2) ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ﴾: (عبقر) وزانُ جعفرٍ، يقال لموضعٍ بالباديةِ تُنْسَبُ إليه طائفةٌ من الجِنِّ، ثُمَّ نُسِبَ إليه كلُّ عملٍ جليلٍ دقيقِ الصَّنعةِ(6)، والعَبْقَرُ والعَبْقَرة من النِّساءِ: المرأةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 186 - 193.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رف).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خيم).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قص).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 274.
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (عبق).

الجميلةُ، والعَبْقَريُّ: الطّنافِسُ الثِّخانُ، وظُلْمٌ عَبْقَريٌّ، ومالٌ عَبْقَريٌّ، ورَجلٌ عَبْقَريٌّ: كاملٌ[1]، والمعنى المِحوريُّ: وثارةُ الشَّيءِ، وطراءَتُه على أحسنِ ما يُطلبُ فيه أو أكملِ أحواله، ونظرًا لما في الأصلِ من كونِ الشَّيءِ على أحسنِ ما يُطلب فيه، أو أكملِ أحواله، وصَفوا به الشَّيءَ دلالةً على كمالهِ في صفته[2]، والمرادُ بالعبقريِّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾: كمالُ صُنعةِ تلك الفُرُشِ والبُسُطِ وعِظَمُ شأنها، وقد جعله اللّهُ مثلًا لفُرُشِ الجنَّة[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في الجنان كل ما يَشْتهيه المتّقون من ربهم المنّان

ثمَّ ذكرَ ما أعدَّ اللّهُ في هاتَينِ الجنَّتينِ من الحور العينِ، بعد أنْ وصَفَهُنَّ بأنَّهنَّ خيراتٌ حسانٌ، وهؤلاء الحورُ يقابِلْنَ قاصراتِ الطَّرفِ اللّائي في الجنَّتَين العاليتَين، وإنَّه لَفَرْق بين هؤلاء وأولئك، وإن كُنَّ جميعًا على صورةٍ من الحُسْنِ والجمالِ لم تقعِ العينُ على مثلِها، فوصَفَهُنَّ بأنَّهنَّ قد قَصَرَتْهُنَّ الخيامُ، وحجَبَتْهنَّ عن العيونِ، وحجبتِ العيونَ عنهنَّ، وهذا لا يمنع من أن يكون لهنَّ ما لأخواتهنَّ من الخَفَر والحياء، وكان من تمام التَّنعُّم بهؤلاء الحور العين أنَّهُنَّ لم يَغْشَ حِماهُنَّ أحدٌ من الإنسِ أو الجنِّ قبل أزواجهن الذين زُفّوا إليهنَّ في الجنَّة، كما هو الحال في قاصراتِ الطَّرفِ.

أشارَ تعالى إلى ما أعدَّ لهم للدَّعَةِ والرّاحةِ من فُرُشٍ وثيرةٍ، وثمَّةَ فرقٌ أيضًا بينَ جنَّتَي المُحْسنينَ وجَنَّتَيْ أصحابِ اليمينِ، فعلى حين يتكئ أصحابُ الجنَّتين الأوْلَيَين على فُرُشٍ بطائنها من ديباجٍ، وحَشْوها من حرير، وعلى حين أن هذا الاتِّكاءَ لا يباعِدُ بينهم وبينَ ثمرِ الجنَّةِ الذي يكون بين أيديهم في أي وضعٍ يكونونَ عليه، يكونُ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عبقر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عبقر).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (عبقر).

مُتَّكَأُ أصحابِ الجنَّتين الأُخْرَيَيْنِ على رَفارِفَ خُضْرٍ قد بلغتِ الغايةَ في كمالِ الإعداد ودقَّةِ الصُّنعِ.

وهذه التَّفرقة بين حال أصحاب الجنَّة، هي أمر يقضي به عدلُ اللّهِ، فكما فرَّق هذا العدلُ بين المحسنينَ والمسيئين، فأنزل هؤلاءِ الجنَّةَ، وأنزلَ أولئك النّارَ، كذلك فرَّق هذا العدلُ بين المحسنين أنفسِهم، فأخذ كلٌّ منهم منزلتَه حسبَ إحسانِه، وبهذا يعمل المحسنون على أن يزدادوا إحسانًا؛ حتّى لا يُقَصِّرَ بهم سعيُهم، ويسبقَهم السّابقونَ إلى الدَّرجاتِ العُلا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الغرضُ من التَّعبيرِ بالحالِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ﴾:

حالُ أهلِ الجنّتين الاستقرارُ والتّنعّمُ على خيرِ حالٍ

جاءَ لفظُ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ حالًا، كما هو في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۢ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾، وفيه الوجوهُ الإعرابيَّةُ نفسُها[2]، وقد جاء للدّلالةِ على طيبِ مقامِهم في الجنّاتِ، وما فيها من مظاهرِ الدَّعةِ والرّاحةِ والتَّرفِ، والاجتماعِ والأنسِ بإخوانِهم وزوجاتِهم وأولادِهم، فالاتِّكاءُ من مظاهرِ النّعمةِ والتّرفِ والدَّعَةِ في الدّنيا وفي الآخرة، بل هو أتَمُّ مظاهرِ الدَّعَة والتَّرَف، فلا تقومُ مقامَه صفةٌ أخرى.

دلالةُ تأخيرِ الاتِّكاءِ في هاتينِ الجنَّتينِ، وتقديمِه في الجنَّتينِ الأولَيَيْنِ:

أهلُ الجنّةِ مُتَّكِئونَ قبلَ الاجتماعِ وبعدَه، فهم دائمًا على السّكونِ، فلا تعبَ يلحقهم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ أخَّرَ النَّظمُ الجليلُ الاتّكاءَ إلى ما بعدَ الإخبارِ عمّا وعدهم به من الخيراتِ الحِسانِ، على خلافِ الموضعِ السّابقِ في الجنَّتينِ الأولَيَيْنِ، فقد قدَّم الاتّكاءَ على ذِكرِ قاصراتِ الطّرفِ؛ وذلك لأنَّ أهلَ الجنّة ليس عليهم تعبٌ وحركةٌ، فهم مُنَعَّمون دائمًا، لكنّ النّاسَ في الدّنيا

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 996 - 701.

(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 220.

على أقسام: مِنْهُم من يجتمعُ مع أهلِه اجتماعَ مستفيضٍ، وعندَ قضاءِ وطَرِه يستعملُ الاغتسالَ والانتشارَ في الأرض للكسبِ، ومنهم من يكونُ مُتَرَدِّدًا في طلبِ الكسبِ وعندَ تحصيلِه يرجع إلى أهله ويُريحُ قلبَه من التّعبِ قبلَ قضاءِ الوَطَرِ، فيكون التّعبُ لازمًا قبل قضاءِ الوَطَر أو بعدَه، فبيَّنَ تعالى أنَّ أهل الجنة مُتَّكِئونَ قبلَ الاجتماعِ بأهلِهم، وبعد الاجتماعِ كذلك، ليُعْلَمَ أنَّهم دائمًا على السّكونِ، فلا تعبَ لهم لا قبلَ الاجتماعِ ولا بعدَه[1].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾، ودلالتُها في ﴿عَلَىٰ رَفۡرَفٍ﴾:

استعلاءُ أصحابِ اليمينِ على فُرُشِهم بينَ البُسُطِ

جاء حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ﴾ على أصلِ معناه، وهو الاستعلاءُ، فأفاد أنَّ أصحابَ اليمينِ في الجنّاتِ قد استقَرّوا على فرُشِهم بين البُسُطِ الرّقيقةِ الرّهيفةِ، والطّنافسِ الثِّخانِ الوثيرةِ، على هيئةِ الاتّكاءِ، في دَعَةٍ وراحةٍ وترفٍ، وفيه كذلك تشبيهٌ لتمكُّنِهم من هذه الوسائلِ المُعَدَّةِ للرّاحة والدَّعَةِ بتمكُّنِ المظروفِ في الظّرفِ، وإشعارٌ بأنَّ أكثرَ حالِهم الاستقرارُ عليها[2].

الغَرضُ مِنَ التّعبيرِ بـ﴿رَفۡرَفٍ﴾ اسمَ جمعٍ نكرةً:

لأصحابِ اليمينِ بُسُطٌ وثيرةٌ يتَّكئون عليها

جاء لفظُ ﴿رَفۡرَفٍ﴾ اسمَ جمعٍ نكرةً في قولِه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ﴾؛ للدّلالةِ على عَظَمةِ هذه البُسُطِ الخُضْرِ[3]، إذِ المُرادُ بـ﴿رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ﴾ ثيابٌ ناعمةٌ، وفُرُشٌ رقيقةُ النَّسجِ من الدّيباجِ، لَيِّنَةٌ، ووَسائدُ عظيمةٌ، ورياضٌ باهرةٌ، وبُسُطٌ لها أطرافٌ فاضلةٌ[4]، وقد آثرَ النَّظمُ الجليلُ التّعبيرَ عن البُسُطِ باسم الجمعِ، على خلافِ التّعبيرِ بالجمعِ في ﴿فُرُشٍ﴾؛ وذلك لأنَّ جمعَ الرُّباعيِّ أثقلُ من جمعِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 381.

(2) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 137.

(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خيم).

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 192.

الثّلاثيِّ، ولهذا لم يجئ للجمع في الرّباعيّ إلّا مثال واحدٌ، وأمثلة الجمعِ في الثّلاثي كثيرةٌ[1].

سِرّ وصفِ الرَّفْرَفِ بـ﴿خُضۡرِ﴾:

في اللّونِ الأخضرِ بهجةٌ وراحةٌ، ودلالةٌ على الفوزِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ﴾ وصفَ النَّظمُ الجليلُ الرَّفْرَفَ بأنَّها ﴿خُضۡرٍ﴾ دونَ غيره من الألوانِ؛ لأنَّهُ أحسنُ الألوانِ وأبهجُها؛ لما فيه من الدّلالةِ على الرّيِّ والنّفعِ والسّخاءِ والرّزقِ والنّضارةِ والجمالِ، ولمّا كان ميلُ النّفسِ في الدّنيا إلى اللّونِ الأخضرِ؛ ذكر اللّه تعالى في الآخرة ما هو على مقتضَى طبعِ الإنسانِ في الدّنيا[2].

دلالةُ العطفِ في ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾:

كمالُ نعيمِ أصحابِ اليمينِ بما يَعْجَزُ عنه ملوك الأرضِ

عطفَ النّظمُ الجليلُ قولَهُ: ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ على ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ﴾؛ للدّلالةِ على مزيدٍ من الاعتناءِ بفُرُشِ أصحابِ اليمينِ، إذِ المرادُ بـ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾: كمالُ صنعةِ تلك الفُرُشِ والبُسطِ والطّنافسِ الثِّخانِ، وعِظَمُ شأنها، وقد جعله اللّهُ مثلًا لفُرُشِ الجنّةِ[3]. وفيه بيانٌ لما أعدَّ اللّهُ لهم من وسائلِ الدَّعَةِ والرّاحةِ والتّرفِ، ممّا يعجزُ عنه كثيرٌ من ملوكِ الأرضِ، إذِ المعنى المِحوريُّ في ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ﴾: وثارةُ الشّيءِ وطراءتُه على أحسنِ ما يُطلبُ فيه، أو أكملِ أحوالِه، ونظرًا لما في الأصلِ من كونِ الشّيءِ على أحسنِ ما يُطلب فيه أو أكملِ أحوالِه، وصفوا به الشّيءَ دلالةً على كمالِه في صفتِه[4]. ووصفه بـ﴿حِسَانٖ﴾ لمزيدِ العنايةِ والرّعايةِ والحَفاوةِ والإكرامِ.

بيانُ الفرقِ بين وصفِ الاتّكاءِ والفُرُشِ في الموضعين:

في كلا الوصفين من الدّلالةِ على النّعيمِ والدَّعَةِ والتّرفِ

وصفَ النَّظمُ الجليلُ فُرُشَ أهلِ الجنّتينِ الأوليَيْنِ وصفًا أفادَ دوامَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 381.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 381.

(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (عبقر).

(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عبقر).

التَّنَعُّم بهذه الفُرُشِ ذاتِ الملمسِ الطّيب، وبالغَ في وصفِ بطائنها للدّلالةِ على مبلغِ العنايةِ براحةِ المحسنينَ، وعدل عن وصفِ الظَّهائِرِ ليدلَّ على نهاية شَرَفِها، وكأنّه شيءٌ لا يُدركُه البصرُ من الدّيباجِ الرّقيقِ النّاعم، والإستبرقِ الذي هو صنفٌ رفيعٌ من الدّيباجِ السّميك، المنسوجِ بخيوطِ الذّهب، فهو نسيجٌ بالغُ الفخامة والبهاءِ. ثمّ وصفَ فُرُشَ أهلِ اليمينِ بأنَّها ثيابٌ ناعمةٌ، رقيقةُ النَّسجِ من الدّيباجِ، لَيِّنَةٌ، ووَسائدُ عظيمةٌ، ورياضٌ باهرةٌ، وبُسُطٌ لها أطرافٌ فاضلةٌ، ووصفها بأحسنِ الألوانِ وأبهجِها، وهو اللّونُ الأخضرُ؛ لما فيه من الدّلالةِ على الرّيِّ والنّفعِ والسّخاءِ والرّزقِ، وبيَّنَ ما فيها من كمالِ الصّنعةِ وعظيمِ الحُسنِ؛ لمزيدِ العنايةِ والرّعايةِ والحفاوةِ والإكرام.

والوصف بقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ﴾ دونَ الوصفِ بقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ وأقلُّ منه عند القائلِ بتفضيلِ الجنَّتين الأولَيَيْن؛ لما في هذا الوصف من الإشارة إلى أنَّ الظّهائرَ ممّا يعجزُ عنها الوصفُ. ومن ذهب إلى تفضيل الأخيرتَين يقول: الرّفرفُ ما يطرحُ على ظهرِ الفراشِ، وليست الفُرُش التي يُطرَح عليها الرّفرف مذكورةً؛ فيجوز أن يكونَ تَرْكُ ذِكرِها للإشارةِ إلى عدمِ إحاطةِ الوصفِ بها ظِهارةً وبِطانةً، وهو أبلغ من الأوّل، وتَرْكُ التَّعَرُّضِ لسِوى لونِها، يشير إلى أنّها ممّا لا تكادُ تحيطُ بحقيقتها العباراتُ.

وينبغي على القولِ بتفضيل الأخيرتين وكونِهما لطائفةٍ غيرِ الطّائفةِ المشارِ إليهم بمَن خاف مقامَ ربِّه ألّا يُفَسَّرَ ﴿وَلِمَنۡ خَافَ﴾، بمن له شدَّةُ الخوفِ، بحيثُ يختصُّ بأفضلِ المؤمنين وأجلِّهم. أو يقال: إنّهما - مع الأولَيَيْن - لمن خاف مقام ربّه، فلهُ يومَ القيامةِ أربعُ جنان، فالأخيرَتان دونَ الأولَيَيْن، أي: أقربُ إلى قصرِه ومجالسِه؛ ليتَضاعَفَ له السّرورُ بالتَّنَقُّلِ من جنّةٍ إلى جنّةٍ، على ما هو معروفٌ من طبعِ البشر من شهوةِ مثلِ ذلك، وهو أبعدُ عن المَلَلِ الذي طُبِعَ عليه البَشَرُ، والآيةُ تَحْتَمِلُ ذلك احتمالًا ظاهرًا، ولكن لو صحّت الأخبارُ الواردةُ بأنَّ الجنّاتِ الأربعَ لفريقين: هم المحسنونَ وأصحابُ اليمينِ، لكانت مؤيّدةً للقول بتفضيلِ الجنَّتينِ الأولَيينِ على الأخيرتين[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 124 - 126.

معنى الفاءِ، وبَيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا المَوْضِعِ:

ذِكْـرُ الاتّكاءِ والرّاحةِ والنّعيمِ البالغِ على الفُرُش الرّقيقةِ

جاءتِ الفاءُ في جملة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتّفريع على ما تقدَّم من الامتنانِ بما وعدَ اللّهُ أصحابَ اليمينِ من الاتّكاءِ في الدَّعةِ والرّاحةِ وكمالِ صَنعةِ الفُرُشِ الوثيرةِ الخُضرِ الحِسانِ، من الآلاء العظيمةِ والنِّعم الجزيلة؛ فإنَّ في مجرّد هذا التّرغيبِ في هذه النّعم نعمةً جليلةً ومِنَّةً عظيمةً، لأنَّ به يحصلُ الحرصُ على الأعمالِ الصّالحةِ والفرارُ من الأعمالِ الطّالحةِ، فكيف بالوصول إلى هذه النِّعم والتّنعُّم بها في جنّات النّعيم بلا انقطاعٍ ولا زوالٍ[1] ؟.

وبهذه الآيةِ تمَّتِ النِّعمُ الثّماني المختصَّةُ بجنَّةِ أصحابِ اليمين، إشارةً إلى العملِ لأبوابِها الثّمانية[2]، وبها انتهى الكلامُ المسوقُ للاستدلالِ على تفرُّدِ اللّه بالإنعامِ والتَّصرُّفِ[3].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 170.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 193.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 276.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾ [الرّحمن: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد تفصيل ما أعدَّ من النّعيم للمؤمنين جاءَ تقريرُ عمومِ خيرِهِ تعالى على خَلْقِهِ

لمّا دلَّ ما ذُكِرَ في هذه السّورةِ من النِّعم على إحاطةِ مبدعِها بأوصاف الكمالِ، ودلَّ بالإشارةِ إلى النِّعمة الأخيرة على أن نِعَمَه لا نهايةَ لها؛ لأنَّه - مع أنّ له الكمالَ كلَّه - متعالٍ عن شائبةِ النّقصِ؛ فكانت ترجمةُ ذلك قولَه في ختام نِعمِ الآخرةِ، مناظرةً لما تقدّم من ختام نِعمِ الدُّنيا، مُعَبِّرًا هناك بأنَّهُ الحَيُّ الباقي، لما ذُكِرَ قبلَه من الفناءِ، وهذا بما من البركةِ إشارةً إلى أنّ نعمَه لا انقضاءَ لها.

ولمّا كان تعظيمُ الاسم أقعدَ وأبلغَ في تعظيم المُسَمّى؛ عبَّرَ باسم الرّبِّ تعالى، ووَصَفَه بالعظَمةِ الباهرةِ، فهو المنتقِمُ من الأعداء، ونَعَتَهُ بالإكرام البالغِ الذي لا يمكن الإحاطةُ به، فهو المتَّصفُ بالجمالِ الأقدسِ المقتضي لفيضِ الرّحمةِ، فكأنَّهُ يُشيرُ إلى الاسم، الذي افتتح به السّورةَ، وهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾. وقد انعطف آخرُ السّورة على أوّلها على وجهٍ أعمّ، فيشملُ الإكرامَ بتعليم القرآنِ وغيره، والانتقامَ بإدخال النّيرانِ وغيرها، والإكرامَ بإدخال الجنّاتِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبَٰرَكَ﴾: (برك) أصلٌ واحدٌ، وهو ثباتُ الشّيءِ، ثُمَّ يتفرَّعُ فروعًا يُقارِبُ بعضها بعضًا، يقال: برك البعير يَبْرُك بروكًا[2] (من باب قَعَدَ)، أي: وقَعَ على بَرْكِه، وهو صدرُه[3]، والبَرَكَةُ: من الزّيادةِ والنّماءِ، والتّبريكُ: أن تدعوَ بالبَركةِ[4]. والمعنى المِحوريّ لهذه المادّةِ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 194.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (برك).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (برك).

ثباتٌ واستمرارٌ مع لُطفٍ[1]، و(تَبارَكَ): فعلٌ ماضٍ لا يتصرَّفُ، أي: كَثُرَ خيرُه وإحسانُه وتَعاظمتْ وتزايدتْ بركاتُ اللّه ربّ العالَمين. أو من البِرْكةِ بمعنى الثُّبوتِ، وكلّ شيءٍ ثبتَ ودامَ فقد بَرَك. أي: ثبتَ ودامَ خيرُه على خلقه[2]، وفي معنى ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ وجهان: أحدهما: ثَبَتَ اسمُ ربِّك ودامَ. والثّاني: أنَّ ذكرَ اسمِه يُمْنٌ وبَرَكةٌ، ترغيبًا في مُداومَةِ ذِكرِه[3].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

مدحَ اللهُ ذاتَهُ العَليَّةَ، إذ لا أحدَ يقدرُ على شُكرِ اللهِ حقَّ قدرِهِ سوى اللهِ

ختم النَّظمُ الجليلُ هذه السّورةَ الجليلةَ التي بدأها بذِكْر اسمهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بمظهرٍ من مظاهرِ رحمته بخَلْقِه، وهو مدحُ ذاتهِ العليَّةِ، إذ لا أحدَ يَقدرُ على شُكرِ اللّهِ تعالى حقَّ قدرهِ سوى اللّهِ تعالى، فعظَّم ذاتَهُ إرشادًا إلى ما في ذلك من العطاءِ الجزيلِ والمِنَنِ العميمةِ والآلاءِ العظيمةِ، فالتَقى ختامُ السّورِ مع بَدْئِها، مزاوجةً بين رحمةِ الرّحمنِ، وكرمِ الكريمِ، بعد أنْ عرضَ البيانُ القرآنيُّ آياتِ اللّهِ وآلاءَه ونِعَمَه التي أفاضَها على عباده، وكان من حقِّ كلّ نعمةٍ منها أن يَتَلَقّاها الثَّقلان بالحمدِ والشّكرِ، وإن كانَ حمدُهُما وشكرُهما لا يقومُ بحقِّ نعمةٍ واحدةٍ منها؛ ولهذا كان اللّه تعالى هو الذي باركَ نفسَه، وحَمِدَ ذاتَه؛ ليَجبُرَ تقصيرَ العبادِ، وليُؤَدّي عنهم هذا الدَّينَ الذي عَجَزوا عن أدائِه، حتَّى لا يَقْطَعَ عنهم أمدادَ هذه النِّعم، ولا يأخذَهُم بعجزِهم وتَقصيرِهم عن أداءِ حقِّ شُكرِها وحَمْدِها. فسبحانَه سبحانَه، من ربٍّ رحمنٍ، رحيمٍ، كريمٍ، يوالي النِّعمَ على عبادِه، ثمّ يقوم عنهم بأداءِ الشّكرِ عليها، والحمدِ لها[4].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (برك).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (برك).
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 444.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 701 - 702.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ التَّعبيرِ بالأسلوبِ الخبريِّ لفظًا، الإنشائيِّ معنًى:

الجمعُ بينَ تحقُّقِ بركاتِ ذاتِه العليَّةِ، والحثِّ على الثَّناءِ عليه تباركتْ آلاؤه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ بالأسلوبِ الخبريِّ لفظًا، الإنشائيِّ معنًى؛ وذلك لأنَّهُ لمّا كانَ الأسلوبُ الخبريُّ يُفيدُ التَّحقُّقَ والثَّباتَ والدّوامَ، وكان الأسلوبُ الإنشائيُّ يفيدُ الطّلبَ والدُّعاءَ؛ فقد جمعَ النَّظمُ بينَ هاتينِ السِّمَتَينِ، فأفادَ ظاهرُ الأسلوبِ الخبريِّ في قولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ إثباتَ البَركةِ لذاتِهِ العليَّةِ على نحوٍ أزَليٍّ أبديٍّ، لا يشاركهُ فيه أحدٌ من خَلقهِ، وأفادَ المعنى الإنشائيُّ طلبَ الثّناءِ عليه تعالى بهذه الصّيغةِ المتفرِّدَة، وتعليمَ الخَلقِ كيفَ يُثْنونَ عليه تباركتْ آلاؤه، وهي نعمةٌ عظمى ومِنَّةٌ كبرى، هي من مقتضياتِ رُبوبيَّتِه. فالكلامُ إنشاءُ ثناءٍ على اللّه تعالى مبالغ فيه بصيغة التَّفَعُّلِ، التي إذا كان فعلُها غير صادرٍ من اثنين؛ فالمقصودُ منها المبالغة، والمعنى: وصْفُه تعالى بكمال البَركة، والبركةُ: الخيرُ العظيمُ والنّفعُ، وقد تُطلقُ البَركةُ على علوِّ الشّأنِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿تَبَٰرَكَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

صيغةُ (تبارَكَ) خاصّةٌ باللّهِ تعالى وحدَهُ، لما لها من المعاني التي لا تَليقُ إلّا باللّه

عبَّرَ النَّظمُ بالفعلِ الماضي ﴿تَبَٰرَكَ﴾، وهو فعلٌ لا يتصرَّفُ، إذ لم يجئ منه مضارع ولا أمرٌ، بل هو ملازمٌ للماضي، والنّكْتَةُ في ذلك: أنّه لم يوصَفْ به غيرُ اللّه، واللّهُ تعالى تبارك في الأزل. وهو تعليل يناسبُ مَعنَيَيْها، فـ﴿تَبَٰرَكَ﴾ من مادَّة البَركة، وأصلها بَرْكُ البعير، أي: صدرُه؛ لأنَّ الإبلَ إذا ثبتت، واستقرّت في مكان، ألصقت صدرَها بالأرض، ثمَّ استُعيرَت في كلِّ ثبوتٍ واستقرارٍ محمودٍ، حتَّى غلبت على النّعم الثّابتَةِ الدّائمة، والأعمار الطَّويلة، فوُصفت بها، فالشَّيءُ المُبارَكُ: هو الموصوف بالدّوام والثُّبوت، وأَلْيَقُ وأحقُّ وجودٍ لهذه الصّفة هو وجود اللّه تعالى، فهو وجودٌ مُبارَكٌ، أزليٌّ أبديٌّ في ذاتِه وأفعاله، وهو مَنشَأُ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 276.

جميع البركات، ومصدرُ كلِّ الخيرات، والمعنى الثّاني: مِنَ البَرَكَة، بمعنى: الكَثْرَةِ من كُلِّ خير، وكلا المعنَيين ثابتٌ للّه تعالى، فتباركَ اللّهُ في ذاته ثُبوتًا وأزلًا، وفي عطاءاته كثرةً ووفْرَةً، فلا جَرَمَ حينَئِذٍ أن كانت تلك الصّيغة: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ مشتملةً على اللُّزوم والثُّبوت، مبنًى ومعنًى. وفي إيراد هذا الختم بتلك الصّيغة - بعد ذِكْرِ الآلاء الجزيلة والنِّعَمِ العظيمةِ - نوعٌ مِن أنواعِ الثّناء على اللّه، فكأنَّ تلك المذكورات سببٌ يستلزمُ الثَّناءَ على اللّه، فسيِّقَت هذه الجملةُ مساقَ الثَّناء عليه؛ تعليمًا للخَلْق، وتحريضًا لهم على ترديدها، وذِكْرِ اللّه بها(1).

الغَرضُ من الإسنادِ إلى الاسم دونَ المُسَمَّى في ﴿ٱسْمُ رَبِّكَ﴾:

في تعظيمِ الاسمِ مبالغةٌ في تعظيمِ المُسَمَّى

عَدَلَ النَّظمُ الكريمُ عن إسنادِ الفعلِ إلى لفظِ الرّبوبيَّةِ، فلم يقُلْ: (تباركَ ربُّكَ)، كما قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: 1]، وكما قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]؛ وذلك قَصْدًا للمبالغةِ في صفة البَركة على طريقِ الكناية؛ لأنّها أبلغُ من التّصريحِ، كما هو مقرّرٌ في علم المعاني، وأطبَقَ عليه البُلغاءُ؛ لأنّه إذا كان اسمُه قد تَبارَكَ؛ فإنَّ ذاتَه تباركَتْ لا مَحالةَ؛ لأنّ الاسمَ دالٌّ على المُسَمَّى. وكذلك فإنَّ ذِكْرَ لفظِ ﴿ٱسْمُ﴾ في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ مُراعًى فيه أنَّ ما عَدَّدَ من شؤون اللّهِ تعالى ونِعَمِه وإفضاله لا تحيطُ بِهِ العبارةُ، فعبَّر عنه بهذه المبالغةِ؛ إذ هي أقْصَى ما تسمحُ به اللّغةُ في التّعبيرِ؛ ليعلمَ النّاس أنَّهم مَحقوقونَ للّه تعالى بشُكْرٍ يوازي عِظَمَ نعمِه عليهم(2). وكذلك فقد آثرَ ذِكرَ الاسم للتّنبيه على أنَّه لا يُعْرَف منه تعالى إلّا أسماؤُه الحُسنَى؛ لاستحالةِ اكتناهِ الذّاتِ المُقَدَّسة، فما عرفَ اللّهَ إلّا اللّهُ(3).

---

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (برك)، والقرطبيّ الجامع لأحكام القرآن: 13/ 1، والآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 421.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 276 - 277.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 114.

لفظُ (اسمُ) مقحمٌ للمبالغةِ، إذ فيه معنى العُلوِّ

قيل: لفظ ﴿ٱسۡمُ﴾ مقحمٌ، كالوجهِ في ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾، ويدلّ عليه إسناد ﴿تَبَٰرَكَ﴾ لغيرِ الاسم في مواضعَ، كقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ﴾ [الفرقان: 10]، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: 1]. وقد صحَّ الإسنادُ إلى الاسم لأنَّه بمعنى العُلوِّ، فإذا عَلا الاسمُ، فما ظَنُّكَ بالمُسَمَّى؟![1]، وبيانُ ذلك: أنَّ المَلِكَ إذا عَظُمَ شأنُه لا يُذكَرُ اسمُه إلّا بنوعِ تعظيم، ثمّ إذا انتهى الذّاكرُ إليه يكونُ تعظيمُه له أكثرَ، وهذا من الدَّلائلِ الظّاهرةِ على أنَّ عُلوَّ الاسمِ يَدُلُّ على عُلوٍّ زائدٍ في المُسَمَّى[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ مُضافًا لكافِ الخِطابِ ﴿رَبِّكَ﴾:

في التّعبيرِ بالرّبوبيّةِ بيانٌ لعنايته وتربيتِهِ سبحانه

في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الرّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضمير الخطاب، إشارةً إلى أنَّهُ سبحانه المُربّي لرسولِ اللّهِ خاصَّةً، بالرّسالة والتّرقية بهذا الوحي إلى ما لا يُحَدّ من المعارف، أو هو سبحانه المُتولّي لتربية المخاطَبينَ عامَّةً، والظّاهر أنّ الخطاب في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ للرّسولِ ﷺ، وفيه تشريفٌ عظيم له، والمقصود: تبليغُه إلى الذين يُتلَى عليهم القرآنُ ليَذَّكّروا ويعتبروا، فهو المحسنُ إليكَ أيُّها الرّسولُ بإنزالِ هذا القرآنِ، الذي جَبَلَك على مُتابَعتِه فصِرتَ مَظْهَرًا له، وصارَ خُلُقًا لك، فصارَ إحسانُه إليك فوقَ الوصفِ[3].

وفي استحضارِ الجلالةِ بعنوان (رَبٍّ) مضافًا إلى ضمير المخاطَبِ وهو النّبيّ ﷺ، إشارةٌ إلى ما في معنى الرّبِّ من السّيادةِ المشوبةِ بالرَّأفةِ والتّنميةِ، وإلى ما في الإضافةِ من التّنويه بشأن المضاف إليهِ، وإلى كون النّبيّ ﷺ هو الواسطةَ في حصولِ تلك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 72.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 383.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 194.

الخيراتِ للذين خافوا مقامَ ربّهم بما بَلّغَهُم النّبيُّ ﷺ من الهدى(1). وقيل: الخطاب لكلّ سامعٍ، ليَعُمّ كلَّ مخاطبٍ(2). وكذلك فقد عدل النَّظمُ عن عدمِ الإضافة مطلقًا، فلم يقلْ: (تَبارَكَ اسمُ الرَّبِّ)؛ وذلك لأنَّ في إضافةِ الضّمير إلى الرّبِّ تعالى إشارةً إلى اللّطفِ، والموضعُ موضعُ بيانِ اللُّطفِ وتعديدِ النّعم، فلو قال بلفظ الرّبّ، لم يدلّ عليه الخطاب. وفي لفظِ الرّبِّ عادةٌ جارية، وهي أنّه لا يُترَكُ استعمالُه مع الإضافة. فالعبدُ يقولُ: (رَبَّنا اغْفِرْ لَنا)، و(رَبِّ اغْفِرْ لي)، واللّه تَعالى يَقولُ: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾ [الشّعراء: 26]، و﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: 1]، وحيثُ تَركَ الإضافةَ ذَكرَهُ مع صفةٍ أخرى من أوصافِ اللّفظِ، فقالَ تَعالى: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾ [سبأ: 15]، وقالَ أيضًا: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: 58](3).

الغَرضُ من الإضافَةِ إلى لفظ الرّبوبيّةِ في ﴿ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾:

في التّعبير بالرّبوبيَّةِ إشارةٌ إلى جانبِ الإنعامِ والتّربيةِ والتّنمية

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظ ﴿ٱسۡمُ﴾ إلى لفظِ الرّبوبيَّةِ؛ للدّلالةِ على أنَّهُ تعالى هو المُنْعِمُ والمُرَبّي والواهبُ لكلِّ ما سبقَ من الآلاءِ الدّنيَويَّةِ والأُخرويَّة، فلا مُعطيَ لها سوى الرّبِّ تعالى. وقد آثر البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بإضافةِ الاسم إلى الرّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ؛ لما سبق ذِكرُه من النِّعَم التي بها تربيةُ الإنسانِ في الدّنيا والآخرة، فقالَ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾. وفي مواضعَ أخرى عبَّرَ بإضافةِ الاسم إلى الألوهيّة، لما فيه من معنى العبادة، فقد وردَ لفظُ (اسم) مضافًا للأُلوهيَّةِ في تسعةِ مواضعَ، كلّها تتناول العبادات والمعاملاتِ، كما في قولِه عقب ذِكْرِ أحكام صيدِ الكلاب: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾ [المائدة:

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 277.

(2) أبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط: 10/ 62، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 253.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 356.

4]، ووردت هذه الإضافة كذلك في سورةِ الأنعام في أربعةِ مواضعَ، تَتَعلّق كلّها بأحكام الذّبائح، وفي سورة الحجّ في أربعةِ مواضعَ، تتعلّق كلّها بأحكام الهَدْي والصّلاةِ.

دلالةُ إفرادِ الخطاب دونَ التّثنية:

في الإفرادِ دعوةٌ لكلِّ مكلَّفٍ إلى العنايةِ بذِكرِ اللهِ وتمجيدِه والثّناءِ عليه

آثرَ البيانُ إفرادَ الضّمير في قولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ دونَ تثنيته، كما هو دَيْدَنُ السّورةِ عمومًا؛ وذلك لأنَّ في الإفرادِ دعوةً لكلّ سامعٍ من الثّقلينِ إلى اللهجِ بالثّناء على اللّهِ وتمجيده بما هو أهلُه تعالى من الذّكرِ، كِفاءَ ما أنعم عليه من النّعم الجزيلة في الدّنيا، وما سيُنعِم عليه في الآخرة، وذلك كما أفردَ الضّمير في قولِه اللّهِ تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، دونَ (خافا) و(خافوا).

توجيهُ تَنَوُّعِ القراءاتِ بالرَّفعِ والخفضِ في ﴿ذِى ٱلۡجَلَٰلِ﴾:

في قراءةِ الرّفعِ إشارةٌ إلى اسمِ اللهِ (الرَّحمنُ) في أوّلِ السّورة

وردَتْ قراءتانِ متواترتانِ في لفظِ ﴿ذِى﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، فقرأ الجمهورُ ﴿ذِى﴾ بالجرِّ، وقرأ ابن عامر ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ بواو بعد الذّال، وكذلك هو في مصحف الشّام[1]؛ إجراءً على الاسم، وذلك يدلُّ على أنّ الاسمَ هو المسمَّى[2]، وكأنَّه يريد الاسمَ الذي افتَتَح بِهِ السّورةَ، فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، فافتتح بهذا الاسم، فوصفَ خلقَ الإنسانِ والجنِّ، وخَلْقَ السّماواتِ والأرضِ، وأنّه ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ﴾، ووَصَفَ تدبيرَه فيهم، ثمَّ وصفَ يومَ القيامةِ وأهوالَها، وصفةَ النّارِ، ثمّ ختمَها بصِفَةِ الجِنانِ، ثُمَّ قال في آخرِ السّورةِ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، أي: هذا الاسمُ الذي افْتَتَحَ به هذه السّورةَ، كأنَّه يُعْلِمُهُم أنَّ هذا كُلَّه خَرَجَ لكم من رَحْمَتي، فمِنْ رحمتي خلقتُكم وخلقتُ لكم السماءَ والأرضَ والخلقَ والخليقةَ والجنَّةَ والنّارَ، فهذا

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 382.
(2) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 391.

كلُّه لكم من اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، فمدحَ اسمَه، ثمّ قال: ﴿ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ جليلٌ في ذاته، كريمٌ في أفعالِه[1].

سِرُّ الجمعِ بين صفتي ﴿ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ في ختامِ السّورة:

في التّعبيرِ بالجلالِ والإكرامِ بيانٌ لاستحقاقِه تعالى الثّناءَ والشّكرَ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، وصفَ ربُّ العزَّةِ نفسه بالجَلالِ أوّلًا، ثمّ عطفَ عليه بصفةِ الإكرامِ؛ للدّلالةِ على أنَّهُ ﷻ صاحبُ العظَمةِ الباهرةِ، المُتَّصِفُ بالإحسانِ الذي لا يُمكنُ الإحاطةُ به، وبالجمال الأقدس المقتضي لفيض الرّحمة على جميع الأولياء، الجامعُ لصفاتِ الكمالِ اللّائقة، المُسْدي النّعمةَ والخيرَ، فأفادَ بذلك أنّهُ تعالى حقيقٌ بالثّناءِ والشّكرِ[2]؛ لأنّهُ مستحِقٌّ لذلك في ذاتِه العليَّةِ، ولِما أَوْلاه من النِّعَم على الثّقلَينِ في الدّنيا، ولِما حَذَّرَهمُ من عواقبِ النّكرانِ والجُحودِ، ولِما أعدَّ من النّعيمِ الباهرِ لأهلِ طاعتِه في الآخرة.

دلالةُ التّغايرِ في ذكر ﴿ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ في السّورة مَرّتَين:

ذِكرُ بقاءِ اللهِ مناسبٌ لما سبقَ من الفناءِ، وذِكرُ بركةِ الاسمِ مناسبٌ للخيرِ والنّماءِ

وردَ وصفُ اللّهِ ﷻ بالجلالِ والإكرامِ مرَّتينِ، الأولى في قولِه: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، والأخرى في قولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، وقد جاءَ الوصفُ في الموضعينَ مناسبًا للسّياقِ قبلَه؛ إذْ لمّا ختَمَ تعالى نِعَمَ الدّنيا؛ ناسَبَ ذلك ذِكرُ البقاءِ والدّيمومةِ له تعالى؛ لِما سبقَ من ذِكرِ فناءِ العالَم، ولمّا ختم نِعَمَ الآخرة؛ ناسبَ ذِكرُ ما اشتُقَّ من البَركةِ، وهي النُّموُّ والزّيادةُ؛ إذ جاءَ ذلك عَقِبَ ما امتنَّ به على المؤمنين، وما آتاهم في دار كرامته من الخيرِ وزيادتِه وديمومتِه[3]، وكذلك ففي التّعبير بالاسم في آخرِ السورةِ ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ بقاءَ أهلِ الجنّة بإبقاء اللّهِ،

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 193.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 278.
(3) أبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط: 10/ 72.

ذاكرينَ اسمَ اللّهِ، مُتَلَذِّذينَ به، ففي ذلك اليوم لا يَبْقَى اسمُ أحدٍ إلّا اسمَ اللّه تعالى، به تدورُ الألْسُنُ، ولا يكونُ لأَحدٍ عندَ أحدٍ حاجةٌ بذكرِه، ولا مِن أحدٍ خوفٌ، فإنْ تَذاكَروا؛ تذاكروا باسمِ اللّهِ[1].

دلالةُ ختم هذه السّورةِ وغيرِها بذِكر اسمِ اللهِ:

ذِكرُ اللهِ أعظمُ النِّعمِ وأتمُّ ما يَتلذَّذُ بهِ أصحابُ الجِنانِ

من لطائفِ ختم السّورةِ الجليلِ بذِكر اسم الجليلِ وصفاتهِ العظيمةِ، أنَّه تعالى ختم سورةَ القمرِ التي قبل هذه السّورة بقولِه: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾ [القمر: 55]، وكونُ العبدِ عندَ اللّهِ من أتمِّ النِّعم، وقال في سورةِ الواقعةِ التي بعد هذه: ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ۝٨٩﴾ [الواقعة: 89]، وختمها بقولِه: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٩٦﴾ [الواقعة: 96]، وكذلك هاهُنا بعدَ ذكرِ الجَنّاتِ وما فيها منَ النِّعم قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾؛ إشارةً إلى أنّ أتمَّ النِّعم عندَ اللّهِ تعالى، وأكملَ اللَّذّاتِ ذِكرُ اللّه تعالى[2]، فأصحابُ الجنّاتِ الوارفةِ متّكِئونَ على فُرُشهم ورَفْرَفِهم، يلهجونَ بذِكر ربِّهم تعالى، فـ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 383.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 383.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

التّعريف العامّ بالسّورة:

المكّيُّ والمدنيّ وعدد الآي:

سورة الواقعة مكّيّة عند جمهور المفسرين، قال ابن عطية: "سورة الواقعة مكّيّة بإجماع من يُعتدّ بقوله من المفسّرين. وقيل: إنّ فيها آياتٍ مدنيّة، وهذا غير ثابت"(1)؛ فقد ذكر القرطبيّ أنَّ ابْن عَبّاسٍ وقَتادَة استثنيا آيات من مكّيّتها، منها قولُه تعالَى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، وقال الكَلْبيُّ: مَكّيَّة إلّا أربع آياتٍ، منها آيَتانِ: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ نزلتا في سفره إلى مكَّة، وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ نزلتا في سفره إلى المدينة، ولكنّه رجّح مكّيّتها بالكامل وإن لم يُعقّب على هذه الرّوايات(2)، والحقيقة أنّ موضوعات السّورة وأساليبها وقاموس ألفاظها يجزمون بمكّيّتها.

وأمّا عدد آياتها فهي تسعون وستّ آيات في الكوفيّ، وسبع وتسعون في البَصريّ، وتسع وتسعون في عدد الباقين، واختلافهم في فواصل أربع عشرَة آيَة منها(3).

ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

آيـات الـسّـورة مـتـرابـطـة ممّا يـدلُّ على وحدةِ نزولها

ترتيب السّورة: هي السّادسة والخمسون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتيِ (الرّحمن) و(الحديد)، وهي السّورةُ السّادسة والأربعون في ترتيب نُزولِ السّوَرِ، نزلت بعد

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 238، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 194.

(3) الدّانيّ، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 239.

سورَةِ (طه) وقَبْلَ سورَةِ (الشّعراء) [1]، وآيات السّورة منسجمة مترابطة ممّا يدلّ على وحدة نزولها، وفي فاتحتها ما يمكن أن يكون قرينة على صحّة نزولها بعد سورة طه[2].

فضائل السّورة:

هذه السّورة الكريمة من سور المفصّل الّذي فضَّل اللّه به النّبيّ ﷺ ، وورد ذلك فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال، قال رسول اللّه ﷺ : «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[3]، وورد في فضلها أحاديث ضعيفة كثيرة أفضلها إسنادًا هو ما ذكره التّرمذيّ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ، قالَ: قالَ أبو بَكْرٍ: يا رَسولَ اللّه قَدْ شِبْتَ، قالَ: «شَيَّبَتْني هودٌ، والواقِعَةُ، والمُرْسَلاتُ، وعَمَّ يَتَساءَلونَ، وإذا الشَّمْسُ كوِّرَت» ثمّ عقّب عليه التّرمذيّ بقوله: "هَذا حَديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ لا نَعْرِفُهُ مِنْ حَديثِ ابْنِ عَبّاسٍ إلّا مِنْ هَذا الوَجْهِ"[4].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

اشتهرت الواقعة بهذا الاسم ولا يُعرف لها سواه

وردت تسمية سورة (الواقعة) بهذا الاسم في حديث النّبيّ ﷺ، المذكور في فضائل السّورة الكريمة، ووردت تسميتها كذلك عند البخاريّ[5] والتّرمذيّ[6]، وبه جاءت تسميتها في جميع المصاحف وكتب التّفسير، قال ابن عاشور: "لا يُعرفُ لها اسمٌ غيرُ هذا"[7]، وقد ذكروا أنّ تسميتها بهذا الاسم لوروده في مطلعها[8].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 280، ودروزة، التّفسير الحديث: 3/ 225.
(2) دروزة، التّفسير الحديث: 3/ 225.
(3) أخرجه أحمد في المسند: (16982)، والطّبرانيّ في المعجم: 22/ 76، برقم: (187).
(4) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ: باب: ومن سورة الواقعة، حديث رقم: (3297).
(5) البخاريّ، صحيح البخاريّ، باب: تفسير سورة الواقعة: 4/ 1849.
(6) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، بابٌ: وَمِنْ سُورَةِ الواقعة: 5/ 400.
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 279.
(8) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 237.

وقد ربط البقاعيّ بين اسمها ومقصودها فقال: "ومقصودها: شرح أحوال الأقسام الثّلاثة المذكورة في سورة الرّحمن؛ للدّلالة على تمام القدرة بالفعل، بالاختيار الَّذي دلّ عليه آخرها، بإثبات الكمال، ودلّ عليه آخر هذه بالتّنزيه بالنّفي لكلّ شائبة نقص، ثمّ بالإثبات بوصف العظمة لجميع الكمال، من الجلال والجمال. ولو استوى النّاس لم يكن ذلك من بليغ الحكمة، فإنّ استواءهم يكون شبهة لأهل الطَّبيعة، واسمها (الواقعة) دالٌّ على ذلك، بتأمّل آياته، وما تعلّق الطّرف به"[1].

ويظهر أنَّ محور السّورة مرتبطٌ باسمها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنّها تناولت يوم القيامة وأدلّة وقوعه، وذكرت بعض مشاهده والتّغيّرات الكونيّة المرافقة له، ثمّ تناولت أحوال النّاس فيه، وقسّمت أحوالهم إلى ثلاثة: السّابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشّمال، تمامًا كما قسّمتهم سورة الرّحمن، ومحور هذه السّورة قام إجمالًا على توكيد وقوع القيامة وبيان أحوال النّاس فيها.

المحور العامُّ للسّورة:

يتّصل محور السّورة بمحور سورة الرّحمن الَّذي يقوم على تذكير النّاس بأنّ مقتضى رحمة اللّه تعالى بعباده تتجلّى في الخلق والتّعليم اللَّذيْن أكرم اللّه تعالى بهما خلقه، من أجل أن ترشدهم إلى تحرّي الصّواب في الاستجابة إلى نداء الحقّ وتحذّرهم من عاقبة كفرهم؛ لذا فإنّ محور هذه السّورة جاء ليكمل هذا التّحذير والوعيد، ويظهر ذلك بالنّقاط الآتية:

أوّلًا: يقوم موضوع السّورة الرَّئيس على تحقيق وقوع القيامة وانقسام النّاس فيها إلى ثلاثة أقسام؛ السّابقون وأصحاب اليمين وأصحاب الشّمال، وبيان جزاء كلّ فريقٍ منهم.

ثانيًا: بيان مظاهر قدرة اللّه تعالى في أصول النّعم؛ من خلق الإنسان، وخلق حرثه وزرعه، وفي نعمتيِ الماء والنّار اللّتيْن يستخدمونها، وبيان أحوال النّاس عند دنوّ آجالهم وأقسامهم.

ثالثاً: بيّنت السّورة الكريمة مكانة القرآن العظيم، فقد أقسم اللّه تعالى بعظيم على أنَّ

(1) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 52 - 53.

محور السّورة يقوم على ثبوت وقوع القيامة وأحوال النّاس فيها

هذا القرآن كريم، وهو محفوظ، ونُزِّل من عنده، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾.

رابعًا: تُختتم السورة ببيان عاقبة أمر الخلق إزاء تباين مواقفهم في الدّنيا، قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٩٦﴾.

موضوعات السّورة وخصائصها:

جاءت موضوعات السّورة مقسَّمة على الشَّكل الآتي:

مَدارُ السّورة يدور حولَ تحقيق قيام السّاعة وبيان أحوال النّاس فيها

أوَّلًا: ابتدأت السّورة بإيذانٍ حاسمٍ يبيّن اضطراب الأرض وتفتُّت الجبال عند قيام السّاعة، كإشارةٍ لا تقبل اللَّبس إلى خروج العالم عن سننه وبداية يوم الحساب.

ثانيًا: ذكرت السّورة فِرَق النّاس عند الحساب: أهل اليمين الَّذين يلاقون جزاء النَّعيم، وأهل الشِّمال الَّذين لهم عذابٌ ثابت، والسّابقون الَّذين سبقوا إلى جنّاتٍ وكرمٍ لا مثيل له.

ثالثًا: أقامت السّورة الحجج على وجود الله الخالق ووحدانيَّته وكمال قدرته، وأشارت إلى ثبوت البعث والنُّشور والحساب، مستندةً إلى دليل الخلق من الإنسان ونشأة النَّبات وإخراج الماء وتولُّد القوى الَّتي تدفع النّار إلى الإحياء والعقاب.

رابعًا: أشارت السّورة إلى ما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد وأهوال، كفاصلٍ يهيّئُ المستمع لمعرفة المصير الأخير ووجوب الاستعداد.

خامسًا: خُتمتِ السّورة ببيان عاقبة الفرق الثَّلاث وما يجدونه من جزاءٍ، وأنَّ هذا الجزاء حقٌّ ثابتٌ لا ريب فيه، وكلُّ ذلك يدعو إلى الإقرار بوجود الخالق وتنزيهه عمّا لا يليق به، وتوبيخ المكذِّبين على إنكار الله وتوحيده.

الخصائص الموضوعيّة للسّورة:

تميّزت سورة الواقعة بخصائص أفردتها عن غيرها من السّور

أوّلًا: تميَّزت السّورة الكريمة بميزة شاركتها فيها ستُّ سورٍ أخرى، وهي أنّها بدأت بـ(إذا) الظّرفيّة الشّرطيّة، فقد شاركها بذلك سور: المنافقون، والتّكوير، والانفطار، والانشقاق، والزّلزلة، والنّصر. والملاحظ أنّ أغلب هذه السّور السّبع قد اشتركت في تناول أحداث السّاعة وما يكون بين يديها.

ثانياً: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها قسّمت النّاس إلى أقسام ثلاثة بشكلٍ واضحٍ وصريحٍ، فضلًا عن تناولها لصورٍ من جزاء كلَّ فريق انفردت به عن غيرها، قال مسروقٌ: "مَن أراد أن يعلم نبأ الأوَّلين والآخرين ونبأ أهل الجنَّة ونبأ أهل النّار ونبأ أهل الدُّنيا ونبأ أهل الآخرة فليقرأ سورة الواقعة"(1).

ثالثًا: تميّزت السّورة بحديثها عن نعمة النّار وعن القسم بمواقع النّجوم، وكذلك في حديثها عن القرآن بأنّه لا يمسّه إلّا المطهَّرون، ثمّ انفردت بحديثها عن أحوال احتضار الإنسان عند موته.

الخصائص الأسلوبيّة للسّورة:

تميّزت سورة الواقعة بخصائص أسلوبية أفردتها عن غيرها من السّور

أولًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنَّ أغلبَ فواصِلها منتهيةٌ بحرف النّون، ومن خصائص هذا الحرف اللّين والسّكون، لا سيّما وقد ترافق هذا مع قِصَر آياتها وتقارب فواصلها، ممّا أعطاها إيقاعًا خاصًّا بها، وبلاغة ورصانة وجزالة في ألفاظها، وجرسًا موسيقيًّا عذبًا في أصواتها، وهي صفات لازمت الموضوعات الَّتي حوتها هذه السّورة.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 280.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بوفرة ذكر بعض الأبنية الصّرفيّة فيها بشكلٍ لافتٍ لا سيّما اسم الفاعل واسم المفعول اللّذان زاد ورودهما عن خمسين مرّة، فضلًا عن الأفعال بأنواعها الثّلاث، وهذا يدلّ على تجدّد الأحوال وتنوّعها في السّورة الكريمة.

ثالثًا: امتازت السورة بكثرة ورود الجناس الاشتقاقيّ فيها مثل: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾، ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾، ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾، ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾.

رابعًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها أكثرت من ذكر بعض الألفاظ بشكلٍ لافتٍ مثل: ﴿ٱلْيَمِينِ﴾[1]، و﴿ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[2]، و﴿ٱلشِّمَالِ﴾[3] و﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾[4]، و﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾[5] و﴿ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾[6]، و﴿أَفَرَءَيْتُم﴾، وغيرها.

خامسًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها كانت زاخرة بأنساق تعبيريّة خاصّة بها، حتّى كأنّ كلّ تراكيبها كانت كذلك، ممّا يؤكّد أنّ لهذه السّورة نظمًا خاصًّا بها، وهي بهذا تشبه السّور اللّاتي سبقنها بخصوصيّة تركيباتها وأنساقها التّعبيريّة، ومنها على سبيل التّمثيل لا الحصر: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، ومنها كذلك قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾، وهكذا هي بقيّة آيات السّورة الكريمة.

سادسًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنَّها حوت أبنية صرفيّة لم تأت في غيرها من السّور، فكلّ آية منها نسيجٌ مستقلٌّ، مثل: ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾، ﴿خَافِضَةٌ﴾، ﴿رَّافِعَةٌ﴾، ﴿رُجَّتِ﴾، ﴿رَجًّا﴾، ﴿مُّنۢبَثًّا﴾، ﴿ثُلَّةٌ﴾ حيث وردت ثلاث مرّات في هذه السّورة، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾، ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾، ﴿مَقْطُوعَةٍ﴾، ﴿مَمْنُوعَةٍ﴾، ﴿إِنشَآءً﴾، ﴿يَحْمُومٍ﴾، ﴿ٱلْحِنثِ﴾، ﴿ٱلْهِيمِ﴾، ﴿ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾، ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾، ﴿مُّدْهِنُونَ﴾، وغيرها.

سابعًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت ألفاظًا فريدة لم ترد في غيرها من السّور:

(1) الآيات: 27(2)، 38، 90، 91.
(2) الآية: 8(2).
(3) الآية: 41(2).
(4) الآية: 9(2).
(5) الآيات: 13، 39، 48، 49.
(6) الآيات: 14، 40، 49.

﴿وَبُسَّتِ﴾، ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾، ﴿مَّخْضُودٍ﴾، ﴿وَطَلْحٍ﴾، ﴿مَّسْكُوبٍ﴾، ﴿ٱلْمُزْنِ﴾، ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾.

مناسبة السّورة لما قبلها:

سورة الواقعة متّصلة تمامًا بسورة الرّحمن مضمونًا وأسلوبًا

تتعلّق السّورة بما قبلها من عدَّة وجوه وهي:

أوَّلًا: في كلٍّ من السّورتين وصف القيامة والجنّة والنّار.

ثانيًا: ذكر تعالى في سورة الرَّحمن أحوالَ المجرمين وأحوالَ المتّقين في الآخرة وبيّن أوصاف عذاب الأوّلين في النّار، وأوصاف نعيم الآخرين في الجنان، وفي الواقعة ذكر أحوال يوم القيامة وأهوالها وانقسام النّاس إلى ثلاث طوائف: هم أصحاب اليمين، وأصحاب الشّمال، والسّابقون، فهذه السّورة لإظهار الرّحمة، وتلك لإظهار الرّهبة.

ثالثًا: ذكر تعالى في سورة الرّحمن انشقاق السّماء وذكر في الواقعة رجّ الأرض، فكأنّ السّورتين لتلازمهما واتّحادهما في الموضوع سورة واحدة، ولكن مع عكس التّرتيب، فذكر في أوّل الواقعة ما ذكره في آخر الرّحمن، وفي آخر الواقعة ما في أوّل الرّحمن؛ فافتتح سورة الرّحمن بذكر القرآن ثمّ الشّمس والقمر، ثمّ النّبات، ثمّ خلق الإنسان والجانّ من نار، ثمّ صفة يوم القيامة، ثمّ صفة النّار، ثمّ صفة الجنّة، وابتُدئتِ الواقعة بوصف القيامة وأهوالها، ثمّ صفة الجنّة، ثمّ صفة النّار، ثمّ خلق الإنسان، ثمّ النّبات، ثمّ الماء، ثم النّار، ثمّ النّجوم الَّتي لم يذكرها في سورة الرّحمن كما لم يذكر في الواقعة الشّمس والقمر، ثمّ القرآن، فكانت سورة الواقعة كالمقابلة لسورة الرّحمن[1].

(1) السّيوطيّ، أسرار ترتيب القرآن، ص: 137، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 237 - 238.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢﴾ [الواقعة: 1 - 2]

مُناسَبَةُ بدايةِ سّورة الواقعة لختامِ سورة الرّحمن:

الواقعة امتدادٌ لما خُتِمت به سورة الرّحمن

لمّا خُتمت سورة الرَّحمن بقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾ [الرحمن: 78] وهو ختام جامع بين معاني الجلال الَّذي يقتضي الهيبة والعظمة، والإكرام الَّذي يفيض بالنِّعم والعَطاء، وهو عُنوانُ ربوبيَّةٍ تشمل بداية الخلق ومنتهى العناية، جاءت سورة الواقعة لتكون امتدادًا لهذا السّياق الكونيّ الشّامل، فبدأت بذكر الواقعة الكبرى الَّتي هي نهاية الدّنيا وبداية الحساب والجزاء: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ فبين ختام سورة (الرّحمن) وبداية (الواقعة) انتقال من التّعريف بربٍّ عظيم منّان في الخلق والإكرام، إلى مشهدٍ من مشاهد قدرته في إتمام أمر الخلق، وخَتم مسيرتهم بالحساب والعدل؛ ليعلم العبد - وهو المخاطب - أنّ من ابتدأ بالإكرام لا يظلم، ومن اتَّصف بالجلال لا يُعجزه شيء، ومن رَبّى الخلق فهو كفيلٌ بجزائهم.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾: الوَقعُ: وقعَةُ الضَّرب بالشّيء. ووَقعُ المطرِ، ووَقعُ حوافِرِ الدّابَّةِ، يعني: ما يُسمَعُ من وقعِه. ويقال للطّير إذا كان على أرضٍ أو شجرٍ: هنّ وقوعٌ ووُقَّعٌ[1]؛ وجاءت (الواقعة) في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ بصيغة اسم فاعل مؤنث، وهي اسمٌ من أسماء القيامة، والواقعة تفيد التَّحقُّق الحتميَّ؛ فمن معاني الوقوع الثّبوت واللّزوم، فيفيد أنَّ هذا الحدث واقع لا محالة، وهي تفيد كذلك الشّدّة والمباغتة؛ إذ ارتبطت أغلب استعمالات (الوقوع) في القرآن الكريم

(1) الخليل، العين: (وقع).

بالعذاب أو الأمور العظام كما في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢﴾ [المعارج: 1 - 2]، وقوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ٨٥﴾ [النّمل: 85]. هذا فضلًا عمّا تحدثه هذه اللَّفظة من الصَّدمة، فـ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ صدمة كونيَّة تهزّ العالمين، وهي تصيب الخلق أجمعين. و"الوُقوعُ: ثبوتُ الشَّيءِ وسقوطُهُ. يقال: وقَعَ الطّائرُ وُقوعًا، والواقِعَةُ لا تقال إلّا في الشّدّة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وَقَعَ) جاء في العذاب والشّدائد"[1].

المَعنى الإجماليُّ:

اليـقـين بـوقـوع القيامة حتميٌّ لا يقبل الشّكّ

﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ اسم للقيامة، كالآزفة، وافتتحت السّورة بهذا الإعلان الجليل، لبيانِ لحظة الفصل الكبرى الَّتي لا مردّ لها. فـ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ اسم يحمل الهيبة واليقين، فلا تُعرّف القيامة بزمان، بل بوقوعٍ حتميّ لا يحتمل الشَّكَّ. ثمَّ تأتي الآية التَّالية ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، إذ ليس في وقوعها إمكانُ تكذيبٍ، فإذا جاءت، أبطلت كلَّ جدل، وأفحمت كلَّ منكر، وصدَّقت كلَّ وعدٍ سبقها. فهي واقعة لا يشوبها وهم، لا يمكن دفعها، ولا تبديل ميعادها، ولا إنكار حقيقتها. وفي هذا انتقال من عالم الابتلاء والسَّتْر إلى عالم الجزاء والظُّهور، حيث يُبصِر كلُّ امرئٍ ما قدّم، وتوزَن الأمور بميزان الحقِّ الَّذي لا يميل. "وليس لوقعتها أي: لمجيئها وظهورها، كاذبة أي: كذب، أي: أنَّها تقع صدقًا وحقًّا. وليس فيها، ولا في الإخبار عن وقوعها كذب"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الظَّرف الزَّمانيِّ في افتتاح سورة الواقعة تعليق وتشويق وهيبة

براعة الافتتاح بالظّرف المتضمِّن الشّرط:

الاستفتاح بالشَّرط؛ في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ من

---

(1) الراغب، المفردات: (وقع).
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 231 - 232.

أنواع افتتاح السّور القرآنيَّة، ومثله قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: 1] وقوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: 1][1]. وعلى القَولِ بظَرفيَّةِ ﴿إِذَا﴾ تَشويقٌ لِمَعرِفَةِ ما يَحدُثُ وقتَ وُقوعِ الواقِعَةِ، مِن هَولِ المَوقِفِ وشِدَّتِهِ وعَظيمِ جَزائِه، إذ إنَّ افتِتاحَ السّورَةِ بالظَّرفِ المُتَضَمِّنِ الشَّرطَ، افتِتاحٌ بَديعٌ؛ لأنَّهُ يَستَرعي الألبابَ لِتَرَقُّبِ ما بَعدَ هَذا الشَّرطِ الزَّمانيِّ مَعَ ما في الاسمِ المُسنَدِ إليهِ مِنَ التَّهويلِ بتَوَقُّعِ حَدَثٍ عَظيمٍ يَحدُثُ. ويَظهَرُ وجهُ البَراعَةِ في هَذا الافتِتاحِ بظَرفيَّةِ ﴿إِذَا﴾ دونَ جَوابٍ ظاهِرٍ؛ و﴿إِذَا﴾ ظَرفُ زَمانٍ وهوَ مُتَعَلِّقٌ بالكَونِ المُقَدَّرِ في قَولِه: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وقَولِه: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾، وقَولِه: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾. وضُمِّنَ ﴿إِذَا﴾ مَعنَى الشَّرطِ[2]. فلَيسَ الغَرَضُ مِنَ الجُملَةِ الشَّرطَ والجَوابَ، بَل إثارَة مَشهَدٍ زَمَنيٍّ مُهيبٍ؛ لإثارة التّشويق.

هذا فضلًا عَنِ التَّمهيدِ النَّفسيِّ والذِّهنيِّ لِهَولِ القيامَةِ؛ إذ استِخدامُ الظَّرفِ ﴿إِذَا﴾ يوحي بأنَّ الحَديثَ عَن شَيءٍ عَظيمٍ سَيَحدُثُ في المُستَقبَلِ، ولأنَّ الفِعلَ جاءَ بصيغَةِ الماضي ﴿وَقَعَتِ﴾، نَشَأ تَفاعُلٌ عَجيبٌ بَينَ زَمَنِ الحَدَثِ وتَوكيدِه، ممّا يُعَمِّقُ الإحساسَ بأنَّ الأمرَ مَحتومُ الوُقوعِ، لَكِنَّهُ لَم يَقَع بَعدُ في الزَّمَنِ الظّاهِريِّ. وهكَذا فإنَّ هذا الافتِتاحَ يُدخِلُكَ في السّورَةِ مُباشَرَةً، بهَيبَةٍ وصَوتٍ داخِليٍّ يَقولُ: انتَبِه، الآنَ تَبدَأُ مَشاهِدُ القيامَةِ بتَشويقٍ وهَيبَةٍ وتَعَلُّقٍ ذِهنيٍّ في انتِظارِ الجَوابِ وتَحفيزٍ على الاستِماعِ. فكانَ مُفتَتَحُ السّورَةِ بـ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ بمَثابَةِ طَرْقِ البابِ؛ لإيقاظِ الغافِلينَ، والنَّفخِ في الآذانِ أنِ استَعِدّوا لِلحِسابِ.

توجيه أداة ﴿إِذَا﴾ بين الشَّرطيَّة والظَّرفيَّة:

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ من المسائل الَّتي وقع فيها خلاف نحويٌّ وبلاغيٌّ بين الأئمَّة: هل هي شرطيَّة أو ظرفيَّة؟ وما هو العامل فيها؟.

فيَرَى الزَّمَخشَريُّ أنَّ ﴿إِذَا﴾ ظَرفيَّةٌ زَمانيَّةٌ، والعامِلُ فيها ﴿لَيْسَ﴾[3]. والمَعنَى: في وقتِ وُقوعِ الواقِعَةِ، لا يَكونُ لِوُقوعِها كاذِبَةٌ. وهوَ يَختارُ هَذا الوَجهَ لِبَلاغَتِه؛ لأنَّهُ يَجعَلُ التَّركيزَ على الزَّمَنِ العَظيمِ لِلواقِعَةِ، ويَربِطُ الحَدَثَ بالهَيبَةِ والرَّهبَةِ المُرتَقَبَةِ، ويُضفي على الجُملَةِ

(1) الزّركشيّ، البرهان، ص: 180.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 281.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 454.

وقــــتَ وقـــوع الواقعة يتلاشى التّكذيب ويزول المكذِّبون

جَلالًا تَصويريًّا، يوحي بأنَّ مُجَرَّدَ وُقوعِ الواقِعَةِ يُبَدِّدُ كُلَّ شَكٍّ، ويَنفي كُلَّ تَكذيبٍ. وأنَّ هَذا التَّوجيهَ يُعطي لِلَّفظِ ﴿إِذَا﴾ دَورًا بَيانيًّا بَصَريًّا، فيَرسُمُ مَشهَدًا قَويًّا لِزَمَنِ الوُقوعِ، ويَجعَلُ ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ حاضِرَةً في الذِّهنِ كَحَدَثٍ لا شَكَّ فيهِ.

القول بتمحيض (إذا) للشّرط بعيدٌ من حيث البلاغة، مقرَّرٌ من حيث الصِّناعة

وَقيلَ إنَّ ﴿إِذَا﴾ شَرطيَّةٌ، وجَوابُ الشَّرطِ هوَ جُملَةَ: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، أي هوَ جَوابُ الشَّرطِ لا مَعمولُ الظَّرفِ. ورَأى بَعضُهم أنَّ العامِلَ مَحذوفٌ تَقديرُهُ: (اُذكُر إذا وقَعَتِ الواقِعَةُ). وذَهَبَ أبو حَيّانَ إلَى هَذا الرَّأيِ الَّذي خالَفَ بِهِ الزَّمَخشَريَّ، ورَأى أنَّ ﴿إِذَا﴾ شَرطيَّةٌ، وأنَّ الجَوابَ مَحذوفٌ تَقديرُهُ: إذا وقَعَتِ الواقِعَةُ حَصَلَ كَذا. وذَلكَ مُراعاةً لِلصِّناعَةِ النَّحويَّةِ، لِأنَّ الشَّرطَ عادَةً يَتَطَلَّبُ جَوابًا، واللُّغَةُ تَقبَلُ حَذفَ الجَوابِ إذا دَلَّ عَلَيهِ السِّياقُ. ولَعَلَّ في هَذا الرَّأيِ وجهَ ضَعفٍ، فهوَ وإن كانَ أدَقَّ من حَيثُ الصِّناعَةُ النَّحويَّةُ، إلّا أنَّهُ أضعَفُ مِنَ النّاحيَةِ البَلاغيَّةِ، لِأنَّهُ يُغفِلُ التَّأثيرَ البَصَريَّ والظَّرفيَّ الَّذي تَحمِلُهُ ﴿إِذَا﴾، ولا يُبرِزُ رَهبَةَ المَشهَدِ.

والقَولُ الأرجَحُ أنَّ ﴿إِذَا﴾ ظَرفيَّةٌ، والعامِلَ فيها ﴿لَيْسَ﴾، وهوَ الأليَقُ بمَقامِ السّورَةِ الَّذي افتُتِحَ بالتَّهويلِ والتَّوكيدِ، ولَيسَ بمُجَرَّدِ تَعليقٍ مَنطِقيٍّ. وهَذا الاختيارُ يَربِطُ بَينَ الحَدَثِ الكَونيِّ العَظيمِ (الواقِعَةِ) وبَينَ نَفيِ التَّكذيبِ المُطلَقِ، فيَتَكَوَّنُ مِنَ الجُملَةِ مَشهَدٌ مَهيبٌ عَظيمٌ يَعكِسُ مَقصِدَ السّورَةِ في تَصويرِ حَتميَّةِ وُقوعِ السّاعَةِ، وجَلالِ المَوقِفِ عِندَ وُقوعِها.

نكتة تقديم ﴿إِذَا﴾ على ﴿لَيْسَ﴾:

بناء هيبة الحدث وجــلال الموقف مع التَّشويق لما بعده

قُدّمَ الظَّرفُ في قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ على الجملة الخبريَّة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾. ولم يأتِ بصيغةٍ أخرى مثل: (ليس لوقعة الواقعة كاذبة إذا وقعت)، أو (ليس لوقعة الواقعة إذا وقعت كاذبة)؛ لإفادةِ التَّهويل والتَّشويق؛ وافتتاح السّورة بـ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ يجعل

المتلقّي يتهيّأ لسماع شيء عظيم، فيه رهبة وهيبة، وكأنّ السّورة تُفاجئه بمشهدٍ كونيٍّ مزلزل، ثمَّ تأتي الجملة التّالية ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ لتؤكّد أنَّ هذا الحدث حقٌّ لا مرية فيه، ولو قُدّمت جملة النَّفي، لضاع هذا الإحساس بالتَّشويق والرَّهبة، وإبراز عظمة الحدث.

فضلًا عن أنّ ترتيب المعاني يأتي على حسب الأهمّيَّة؛ فالقرآن الكريم يقدِّم الأهمَّ فالمهمَّ، فالمقام هنا ليس لنفي الكاذب فحسب؛ بل هو كذلك لتعظيم وقت الوقوع، ثمَّ لبيان ما يترتّب عليه.

أمّا عن علاقة ذلك بالمناسبة لجوِّ السّورة فنجد أنّ السّورة من أوّلها إلى آخرها قائمة على التَّصوير الحيِّ لأهوال القيامة وأصناف النّاس، فتقديم ﴿إِذَا﴾ يُناسب هذا النَّسق المشهديَّ؛ لأنَّه يُدخل السّامع فورًا في أجواء الواقعة، كأنَّها تحدث الآن.

بلاغة استعمال مفردة ﴿وَقَعَتِ﴾:

الـوقـوع دليـل الحتـم والثِّقـل واللُّزوم

جاء اختيار فعل ﴿وَقَعَتِ﴾ دون مرادفاته من الأفعال؛ كأن يُقال: (إذا جاءت الواقعة)، أو (حدثت الواقعة)، أو (نزلت الواقعة)، لدلالة فعل ﴿وَقَعَتِ﴾ على السُّقوط والثِّقل واللُّزوم، والفعل (وقع) في العربيَّة يدلُّ على سقوط شيء ثقيل، أو حدث جلل لا يُردّ، كما يقال: وقعت الكارثة، ووقعت الحرب. والوقوع يوحي بشيء صار فجأة، ونزل بثقلٍ رهيبٍ لا يستطيع أحد دفعه أو رده. وهو الأنسب في التَّعبير عن القيامة، فهي ليست حدثًا عابرًا، بل زلزالًا هائلًا مهيبًا لا مردّ له.

فائدة التَّعبير بصيغة الماضي ﴿وَقَعَتِ﴾:

تحقيق اليقين وتوكيد الحتم يُثير الفزع في النُّفوس الرّاكدة

حين يُفتتح الخطاب الإلهيُّ بهذه العبارة الجليلة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، فإنَّ أوَّل ما يُلفت النَّظر هو هذا الجمع العجيب بين أداة ظرفية تدلُّ على المستقبل، وفعل ماض يدلُّ في الأصل على الحدث الَّذي انقضى وانتهى، وهذا أسلوبٌ قرآنيٌّ معهود، يُراد به التَّحقيق والتَّوكيد[1].

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 272.

إذ الماضي ليس على بابه الزَّمنيِّ، وإنَّما هو ماضٍ صوريٌّ، يُراد به معنى الوقوع المقطوع به، الَّذي لا يعتريه ريبٌ أو احتمال. فالفعل ﴿وَقَعَتِ﴾ وإن كان في ظاهر الزَّمن منقضيًا، إلّا أنَّه يُصوِّر المستقبل تصويرًا يُخرجه من دائرة الانتظار، ويجعله في مرتبة المشهود المتحقِّق. وهذا أبلغ في تثبيت العقيدة، وترسيخ الإيمان بوعد اللّه؛ لأنَّ الماضي يُنزِلُه منزلة الحاضر بل الماضي المشاهد، فيلقي بذلك على النَّفس هولَ المفاجأة، ويُثير ما في القلب ليزيد من اليقين الجازم، كأنَّ ما سيقع قد وقع بالفعل، فما بقي للمرء إلّا أن يُعِدّ له العدّة ويأخذ له الأهبة. فجاء الافتتاح بصيغة الماضي ليُعلن من اللَّحظة الأولى أنَّ القضية قد حُسمت، وأنَّ الكلمة قد نُفذت، وأنَّ الإنسان ما عاد في سعة من الزَّمن، بل هو في مهبِّ الوعد والوعيد.

بلاغة الإسناد المجازيِّ في إسناد الوقوع للواقعة:

إسناد الفعل إلى الواقعةِ يُصوِّر المشهد ويستحضر الصّورة

أُسند فعل الوقوع إلى الواقعة في قول الحقِّ جلَّ شأنه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾؛ إذ أُسند الفعل لا إلى من وقع منه حقيقة، بل إلى ما له به تعلُّق معنويٌّ، توخّيًا لأغراض بلاغيَّة دقيقة. فالواقعة ليست ذاتًا فاعلة في الحقيقة، وإنَّما هي اسم لما سيقع من أمرٍ عظيم، والَّذي يوقعه هو ربُّ العالمين، والتَّعبير القرآنيُّ أسند الوقوع إلى الواقعة نفسها، وذلك هو المجاز العقليُّ، الَّذي يُسند الفعل إلى غير فاعله، قصدًا إلى إبراز شأن الفعل أو تعظيم أثره.

وفي هذا الموضع، تتجلَّى لنا حكمة الإسناد المجازيِّ؛ إذ ليس المراد أن نعلم من الَّذي يُقيم السّاعة، فذلك واضح لكلِّ من آمن باللّه، وإنَّما الغرض إشعار النَّفس بهول هذا الحدث، حتَّى ليُخيَّل إليها أنَّه قائم بذاته، منفصل عن كلِّ فاعل، له من القوَّة ما يُقيمه بذاته، ويقع على العالم وقوعًا لا مردَّ له، وهو ما يُكسِب الواقعة تشخيصًا في الذِّهن؛ فكأنَّها كائن قائم، له ذات وحيّز، يُقبل على

النّاس دفعة واحدة، لا حراك لأحد في وجهه، ولا حيلة للفرار منه، إنَّها ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ الَّتي إذا ذُكرت قُطعت القلوب، وإذا صوِّرت ارتعدت الأفئدة، بما فيها من هول وخطر.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾:

كلُّ واقعة دون القيامة فليست بـواقـعـة على التّحقيق

جاء لفظ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ مُعرَّفًا بـ (أل)، وهي هنا للعهد الذّهنيّ، تشير إلى واقعةٍ معينة، معروفةٍ في الأذهان، متقرِّرةٍ في القرآن، فالسّامع لا يَلتبس عليه المقصود؛ بل يندفع ذهنه إليها، كما ينصرف إلى (الكتاب) عند إطلاقه في الخطاب القرآنيِّ أنَّه القرآن الكريم. وغرض التَّعريف ليس مجرَّد الإشارة، بل التَّعظيم والتَّهويل، فضلًا عمّا يحقِّقه التَّعريف من الدَّلالة على الكمال[1]، فهي الواقعة الكاملة في صفاتها وآثارها وأهوالها، وكلُّ واقعة دونها فليست بواقعة قياسًا معها، فهو يُضفي على الواقِعَة مهابةً وسُموًّا في النَّفس؛ إذ يُخرجها من جنس الوقائع العادية إلى الواقِعَة الَّتي لا واقعة فوقها، والَّتي إذا ذُكرت انقبض القلب، وإذا صوِّرت اهتزّ الكيان[2].

الغرض من تأنيث لفظ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾:

تأنيث الواقعة لـتـشـخـيـص الكارثة وتهويل الواقعة

أُنِّث لفظ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ لما جاء في أساليب العرب من استعمال التَّأنيث في سياق التَّهويل والتَّعظيم، فهو تأنيثٌ لا علاقة له بالأنوثة النَّوعيَّة، بل هو من أساليب تشخيص الكوارث والمفاجآت العظيمة. تقول العرب: الدّاهية، النّازلة، الصّاعقة، القاصمة، فهي توحي بشدَّة مباغتة، ذات أثرٍ عنيف، يُداهم الوجود ولا يُمهله.

فالتّاء في ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ إمّا أن تكون للنَّقل من الوصفيَّة إلى الاسميَّة، وإمّا أن تكون للمبالغة، ولعلَّها جاءت بالاثنين معًا، فهو اسم لوقائع عظام سوف تقع يوم القيامة.

---

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 263.

(2) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 224.

ومن بلاغة القرآن أنَّه يختار هذا النَّمط من الصّيغ في أسماء يوم القيامة، فيأتي بالألفاظ المؤنَّثة المعروفة: الحاقَّة، القارعة، الطّامَّة، الصّاخَّة، القيامة، وهي صيغٌ تُحاكي بجرسها اللَّفظيِّ طبيعة المُسمَّى: مباغِتة، صارخة، ذات وقعٍ قويٍّ، تصدم النَّفس قبل أن تُشرح للعقل. وليس ذلك من التَّزيين اللَّفظيِّ، بل هو جزء من الأسلوب التَّأثيريِّ للقرآن، الَّذي يُراد به أن تُعاش القيامة في السَّمع والبصر والخاطر، لا أن تُتلقَّى كمجرَّد غيبٍ مؤجَّل.

براعة استعمال مفردة ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾:

تجتمع في لفظ (الواقِعَة) معاني القـوّة والهيبة والمباغتة والشِّدّة

خصَّ النّظم الكريم هذا الاسم ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ بالذِّكر في صدر السّورة، وذلك للمح الأصل اللُّغويِّ لكلمة ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ فهي مشتقَّة من الجذر الثُّلاثيِّ (و ق ع)، وهو جذرٌ شديد المأخذ في اللُّغة العربيَّة، تدلّ مادَّته على الانقضاض المباغت، والسُّقوط الثَّقيل، والحدوث الَّذي لا يُقاوم، كما تقول: (وقعت المصيبة)، و(وقع السَّيف)، و(وقع البلاء)، فكلُّها إشارات إلى أفعال ذات ثقل في النَّفس، وهجوم في الزَّمن، لا تأتي تمهيدًا، بل تَهبط دفعة، وتزلزل المواضع الَّتي تنزل بها. وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وَقَعَ) جاء في العذاب والشّدائد نحو قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ [النّمل: 85]؛ أي: وجب العذاب الَّذي وُعِدوا؛ لظلمهم، وقال تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النّمل: 82] أي: إذا ظهرت أمارات القيامة الَّتي تقدّم القول فيها. وقال: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ [الأعراف: 71] وقال: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ﴾ [يونس: 51][1]. ولفظة الواقِعَة حين تُلقى في السَّمع، تُحدِث في النَّفس وقعًا يشبه قرع الخطر، كأنَّها جرسٌ داخليٌّ ينبّه النَّفس، لا بلفظها فحسب، بل بتركيبها الصَّوتيِّ ذاته؛ إذ تأمَّلنا حروفها: فكلّها من

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: 1/ 880.

الحروف القويّة، وخصوصًا القاف والعين، وهما حرفان جهوريّان - والقاف حرف انفجاري كذلك -، يُشعران السّامع ولو لم يفهم المعنى، بأنَّ ثَمَّة أمرًا جللًا على وشك أن يُهلك أو يُفزع؛ فهي ليست اسمًا جامدًا، كالسّاعة، بل اسمٌ مشتقٌّ، يدلُّ في ذاته على الفعل والحدوث، ممّا يجعله حيًّا في الذِّهن، متحرِّكًا في الحسّ، كأنَّنا أمام شيء يحدث، لا مجرَّد مصطلح نؤمن به.

توجيه استعمال مفردة الواقعة بين مطلع السّورة وذكرها في سورة الحاقّة:

ابتدأت سورة الواقعة بهذا الاسم الجليل، وافتُتحت على مشهد الوقوع من غير مقدّمات زمنيَّة؛ مشهد مباشر مهيب، يتلقّاه السّامع وكأنَّه حدث في التَّوّ، ثمَّ يُسارع السّياق إلى نفي احتمال الكذب عنه، لا بمجرَّد منع التَّكذيب، بل بنفي ذات الكاذبة، وهو أسلوب قرآنيٌّ يُقصَد به ترسيخ الحقيقة، وقطع الشَّكِّ من الجذور.

ابتُدئ بالواقِعَة لـبـيـان مـآل النّاس في الآخرة بينما في الحاقَّة فهي نتيجةٌ لذكر أهوال القيامة

ثمَّ يمضي السّياق إلى تصوير الآثار النَّفسيَّة والاجتماعيَّة لهذا الحدث، فيُبيِّن أنَّ الواقِعَة تُحدِث انقلابًا في الموازين، فهي ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾، تَهوي بأقوام وتُعلي آخرين، وتقسّم الخلق إلى مراتب ثلاث: السّابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشِّمال، فكأنَّ السّورة تُركّز على الأثر البشريِّ ليوم القيامة، وما يُفضي إليه من فرز المصائر على ضوء العمل في الحياة الدُّنيا.

وأمّا في سورة الحاقَّة، فقد جاء ذكر الواقِعَة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥﴾ [الحاقّة: 13 - 15] فلم يُبتدأ بها بل قُدِّم عليها تصوير انفراط النِّظام الكونيِّ؛ النَّفخ في الصّور، ودكّ الأرض والجبال، في مشهدٍ يفوق التَّصوُّر ويخلع القلوب من مواضعها. ثمَّ يُختم هذا المقطع بقوله: ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، فهي ثمرة هذا الزِّلزال الكونيِّ، ونتيجة حتميَّة لانهيار أركان العالم المنظور.

ففي الواقِعَة كانت العناية بمصائر البشر بعد الوقوع، وأمّا في الحاقَّة، فالعناية بمشهد الكَون حين يقع الحدث، فكلٌّ موضع يُعنى بجانب من جوانب ذلك اليوم العظيم، فالحاقَّة ترسم مقدِّماته الكونيَّة، والواقِعَة تُظهر آثاره الأخرويَّة.

بلاغة استعمال ﴿لَيۡسَ﴾:

توكيد حتميَّة حصول الواقِعَة ونفي الكذب عنها

استعمل النّظم الكريم أداة النَّفي ﴿لَيۡسَ﴾ في قوله: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، دون سائر أدوات النَّفي، كـ (ما) أو (لا)، فليس في أصل وضعها، تُفيد النَّفي عن الوجود أو التَّحقُّق، لا عن مجرَّد النِّسبة الزَّمنيَّة، إذ هي مركّبة من (لا) النافية، والفعل (أيس)، وهو بمعنى (كان) أو (وجد)، فكأن ﴿لَيۡسَ﴾ تعني حرفيًا: (لا وُجد شيءٌ على هذه الصفة)، فهي أقوى أدوات النفي في العربية من جهة الدلالة على القطع والاستمرار والامتناع[1].

وعليه، فإنَّ اختيار ﴿لَيۡسَ﴾ في هذا الموضع يدلُّ على أنَّ نفي الكاذبة عن الواقِعَة ليس نفيًا مؤقتًا أو ظرفيًّا، بل هو نفي قاطع في ذاته، نفي يُنكر أصل وجود من يُكذّب، لا مجرَّد صدور التَّكذيب، فهو نفي للكينونة ذاتها، لا لفعلٍ عارض، والنَّفي بليس من أقطع أدوات النَّفي المراد بها تقرير وقوع الأحداث.

وقد تكون للاستمرار كقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١﴾ [الأنفال: 51][2]. وهذا المعنى يُناسب السّياق القرآنيَّ الَّذي يريد أن يغرس في النَّفس أنَّ (الواقِعَة) لا تُكذّب لا عقلًا ولا واقعًا؛ فإذا وقعت، انكشفت بحقائقها، وصدَّقها الخلق كلُّهم، ولم يبق موضعٌ لإنكار ولا موطنٌ للمراء. فالكاذبة عنها غير موجودة في الوجود، لا ذاتًا ولا وصفًا، لا من جهة الفكر ولا من جهة الواقع.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 228.

(2) السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 163.

نوع اللّام ودلالتها:

اختلف أهل اللُّغة والتَّفسير في توجيه اللّام في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، أهي للظَّرفيَّة، أم لشيء أخصَّ من ذلك؟ فمنهم من رأى أنَّها لام الظَّرفيَّة، بمعنى (في)، على نحو: ليس كاذبة تكون في وقت وقوع الواقِعَة[1]. وهو معنى لا يخلو من مناسبة، لا سيِّما وأنَّ أداة ﴿إِذَا﴾ تقتضي ظرفًا زمانيًّا معيَّنًا. فيكون في ذلك إشارة إلى أنَّ الكذب لا يقع في زمن هذه الواقِعَة؛ لأنَّه زمنُ الحقِّ الخالص الَّذي لا يخالطه مراء، ولا ينفذ إليه شكّ، وقد قيل إنَّ القيامة سُمّيت واقعة؛ لشدَّة صوتها، ولأنَّها تدهم الوجود كلَّه دفعة واحدة، فلا يُحتمل في ذلك التَّوقيت حضورُ تكذيب، ولا إمكان ردٍّ.

الحقائق تظهر للمؤمنين في آيات القرآن ولغيرِهم وقت وقوعها

فائدة الجناس الاشتقاقيّ:

في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، تركيب بديعيّ من أرقى ضروب البيان القرآنيِّ، إذ اجتمع فيه محسن التَّجنيس في أبهى صوره، وهو من باب الجناس الاشتقاقيِّ الَّذي لا يُقصد به مجرَّد تكرار اللَّفظ، وإنَّما إحداث أثر صوتيّ ومعنويّ يعمّق حضور المعنى في النَّفس ويُؤَكِّده في الإدراك[2].

التّناغم بين الأثر الصّوتيّ والدّلالة النّفسيّة

فقد جيء بالفعل ﴿وَقَعَتِ﴾، وهو ماضٍ من الجذر اللُّغويِّ (و ق ع)، ليعبّر عن حصول الفعل وثبوته، ثمَّ أُتبع باسم الفاعل ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾، وهو اسم علم بالغلبة ليوم القيامة، مأخوذ من الجذر نفسه، فجاء التَّركيب على صورة: فعل من الجذر يتقدّم، ثمَّ اسم من الجذر نفسه يتلوه، فكان لذلك جرْس صوتيٌّ لا تخفى آثاره على أذن المستمع، ولا على وعي المتدبِّر.

(1) البنتنيّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 2/ 481.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 281 - 282.

وهذا الجناس ليس من التَّكرار العارض، ولا من الزّينة اللَّفظيَّة المجرَّدة، بل هو محمّل بأغراض التَّوكيد والتَّثبيت، إذ يُفيد تكرار الجذر هنا توكيد الوقوع من جهتين: جهة الفعل، وجهة الحدث نفسه، والمعنى: إذا حدث الحدث الَّذي لا مردّ له، إذا وقع ما لا يُردُّ، فتتجلَّى في السَّمع والذِّهن صورة القيامة وقد انقضّت بالفعل، ووقعت لا محالة.

ثمَّ إنَّ أثر هذا التَّجنيس لا يقف عند حدِّ التَّوكيد الذِّهنيِّ، بل يمتدُّ إلى السَّمع، إذ إنَّ الجرس الصوتيَّ بين الكلمتين يُحدث تناسقًا في الإيقاع، ويُعطي للآية وزنًا فنيًّا، يجعلها تنطبع في النَّفس، وتحفظها الأذن بسهولة، فتتردَّد مع كلِّ تلاوة، وتعود على القلب بالإثبات في المعنى والتَّأثُّر في الشُّعور وهو ما يتناغم مع الدّلالة البلاغيَّة.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿لِوَقۡعَتِهَآ﴾:

واقعةُ القيامة تختصُّ بها من حيث الزَّمن والحدث والحال

إضافة لفظ الوقعة إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا﴾ يهدف إلى توضيح المعنى وتقوية الدَّلالة بين المضاف والمضاف إليه، وبهذا التَّركيب الدَّقيق تنشأ رابطة معنويَّة بين الحدث وزمانه، تُضيف إلى الجملة زيادة من التَّخصيص والتَّوكيد.

والَّذي يظهر أنَّ الإضافة هنا تؤول إلى التَّخصيص الزَّمنيِّ والتَّوكيد المعنويِّ في آن واحد، فهي تُحمّل الواقِعَة نفسها صفة حصريَّة: أنَّ زمنها هو الزَّمن الَّذي لا يُكذَّب فيه، وأن لحظتها لا يدخلها شكّ[1].

ثمَّ إنَّ هذه الإضافة، إذا نُظر إليها في ضوء النَّفي الواقع في صدر الجملة بـ ﴿لَيۡسَ﴾، اتَّضح أنَّها قد زادت النَّفي قوَّة؛ لأنّ ما نُفي ليس مجرَّد الكذب، بل وُجِّهَ النَّفي إلى مكذِّبة لها في وقتها

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 102.

وضمن حقيقتها، فتولّد من ذلك نفي مركَّب: لا كاذبة، لا في ذاتها، ولا في توقيتها، ولا في حال من أحوالها. وذلك أبلغ ما يكون في نفي التَّكذيب عن شيء، لا من جهة المدّعين فحسب، بل من جهة طبيعة الشَّيء المكذَّب ذاته، فصار وقوع الواقِعَة حقيقةً مُطلقةً لا يمكن أن تُنكر؛ لأنَّها حين تقع، تغلق على السّامع باب الجدل، وتُخرس ألسنة التَّكذيب، وتجعل من لحظتها شهادة قائمة بذاتها.

غرضُ تقديم المُسند على المُسند إليه:

محور السّياق على الواقعة فكانت العناية بألفاظِها أظهر وبإيقاعها أبهر

في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، قُدِّم ذكر المسند، وهو الجار والمجرور ﴿لِوَقۡعَتِهَا﴾، على المسند إليه ﴿كَاذِبَةٌ﴾، لوجهٍ بلاغيٍّ مقصود، يَفيض أثرُه في توجيه المعنى وتقوية الحُكم. فالتَّقديم هنا يفيد التَّخصيص والتَّوكيد، ويُنشئ في النَّفس تركيزًا شديدًا على الحدث ذاته[1]. فالجملة تُلقي بثقل المعنى مباشرة على (الواقِعَة)، لا على الكذب، وكأنَّها تُعلن منذ البدء أنَّ هذه الواقِعَة هي الأصل، وهي المحور، وهي المقصودة بالبيان، وأنَّ سائر ما يُقال في الجملة إنَّما يأتي تابعًا لتوكيدها وتحصينها من الإنكار. فإذا كانت الواقِعَة هي الحدثَ الأعظمَ الَّذي لا يُماثله شيء، فقد كان من تمام المناسبة أن يتقدّم ذكرها، لتكون في صدر الاهتمام وفي بؤرة الإدراك.

وهذا التَّقديم يُضفي على الجملة أيضًا إيقاعًا خاصًّا؛ لأنَّ تكرار الجذر (وقع) في ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، ثمَّ استئناف الكلام بتقديم ﴿لِوَقۡعَتِهَا﴾، يُحدث جرسًا صوتيًّا يُحكم التَّوازن، ويُثبّت في الأذن ذلك الشُّعور بأنَّ الكلمة نفسها - الواقِعَة - قد صارت تُدوي في السَّمع مرَّتين بتوكيدين مختلفين: مرَّة بالفعل، ومرَّة بالإضافة. ومع تقديم هذا المقطع على الخبر، تُصبح الواقِعَة هي مركز الثِّقل الصَّوتيِّ والمعنويِّ في الجملة، وتدور حولها المعاني كلُّها.

(1) حسن طَبَل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ، ص: 130.

الواقعة حقيقة واقعة فلا كذب لها ولا تكذيب

غرض حذف الموصوف لمفردة ﴿كَاذِبَةٌ﴾:

تحتمل مفردة ﴿كَاذِبَةٌ﴾ أن تكون صفة لمحذوفٍ، تقديره: (نفس)، أي: تنتفي كلّ نفس كاذبة[1]. والمعنى "نفس تكذب على اللّه وتكذب في تكذيب الغيب؛ لأنّ كلَّ نفس حينئذٍ مؤمنة صادقة مصدّقة، وأكثر النُّفوس اليوم كواذب مكذِّبات، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: 84]، وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٢٠١﴾ [الشُّعراء: 201]"[2]، وقيل: ليس لوقعتها قضيَّةٌ كاذبةٌ فيها؛ لإخبار اللّه تعالى بها، ودلالة العقل عليها، وقيل: ليس لها نفسٌ كاذبةٌ في الخبر بها[3].

الواقعة واقعة في موقع الصدق والكذب واقعٌ عن القبول في مهايع العقول

توجيه ﴿كَاذِبَةٌ﴾ بين المصدريّة والوصفيَّة:

لفظ الكاذبة في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، يحتمل أن يكون مصدرًا على وزن فاعلة كـ (العافية) و(العاقبة)، ويحتمل البقاء على أصله في الوصف، أي اسم فاعل بمعنى: شيء يتَّصف بالكذب. والوجهان محتملان من جهة اللُّغة، لكن لكلٍّ منهما دلالة بلاغيَّة تُلقي ضوءًا مختلفًا على المعنى المراد.

فأمّا التَّوجيه الأوَّل - وهو أنَّ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ صفة، أي اسم فاعل - فالمعنى أنَّ الكاذبة - من حيث الوصف - لا توجد أبدًا في نسبةٍ إلى هذه الواقِعَة، لا من جهة ذاتها ولا من جهة أحدٍ يتكلَّم عنها. فـ(الواقِعَة) في هذا الوجه منزّهة في ذاتها عن الكذب، فهي حقيقة مطلقة لا توصَف إلّا بالصِّدق، ولا تخضع لتشكيك. وهذا المعنى يُفيد أنَّ الحدث نفسه يمتنع أن يوصَف بغير الحقيقة، وأنَّ (الواقِعَة) لا تقع إلّا على وجهها، من غير لبس ولا تمويه، كما لا تُقابَل حينئذٍ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 281.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 454.
(3) المُجاشِعِي، النّكت في القرآن الكريم، ص: 478.

بأيّ جهةٍ تنكر أو تطعن. وفي هذا التَّوجيه نلمح إشارة عميقة إلى أنَّ الواقِعَة هي بذاتها حقٌّ ناطق، ناصع لا يشوبه ريب، كأنَّ الآية تنفي عن الواقِعَة أن تكون شبيهةً بما قد يظنُّه النّاس خيالًا أو وهمًا، بل تُعلن أنَّها واقعٌ من الحقِّ، ومظهر من مظاهر العدل الإلهيِّ، وأنَّ حقيقتها ذات صدقٍ لا يتزلزل، ولا يحتاج إلى برهان خارجيٍّ.

وأمّا الوجه الثّاني، وهو أنَّ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ مصدر بمعنى (كذب)، كما تقول: (العاقبة)[1]؛ فالمعنى عندئذ يكون أنَّ الكذب - كفعل أو حال - منفيّ في شأن هذه الواقِعَة؛ أي لا يعتريها كذب لا في الإخبار عنها، ولا في ظهورها، ولا في تفاصيل وقوعها. وهي إذ توصَف بخلوّها من الكذب، فإنَّ ذلك لا يعود فقط على حالتها عند النّاس، بل على ذات وقوعها، فيكون نفي الكذب هنا نفيًا شاملًا لكل جهة، سواء أكانت جهة القول أم جهة التَّأويل والاعتقاد. وهذا التَّوجيه يُضيف بُعدًا من الشُّمول إلى نفي الكذب، فيُفهم منه أنَّ الواقِعَة - أي يوم القيامة - خالية من أي وجه من وجوه الزَّيف، فلا يتخلَّلها تمويه، ولا يصحبها باطل، بل تأتي في مقام التَّجلّي، فيسقط الكذب من الوجود في حضرتها، ويثبت الحقُّ ظاهرًا لا يحتاج إلى حُجّة.

ومع أنّ كلا التَّوجيهين سائغ في العربيَّة ومقبول بلاغيًّا، إلّا أنّ الأسلوب يميل إلى التَّوجيه الوصفيِّ أكثر من المصدريِّ؛ لأنَّ السّياق يُراد به إثبات صدق الواقِعَة ذاتها في وجه من قد يُكذّبها قبل وقوعها، فجاء التَّعبير باسم الفاعل ﴿كَاذِبَةٌ﴾ لا ليُشار إلى مجرَّد غياب الكذب، بل ليُثبت أنَّ هذه الواقِعَة لا تتّصف به، ولا تدانيه من أي جهة. والمعنى: إنَّها ليست محلًّا للشَّكِّ، ولا موطنًا للمراء، ولا ذاتًا تحتمل كذبًا.

نكتة التَّعبير بصيغة اسم الفاعل:

آثر النّظم الكريم التَّعبير باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، ذلك أنَّ اسم الفاعل، مشتقٌّ من الفعل ليدلَّ على ذاتٍ موصوفة بالفعل، لا على مجرَّد الوقوع. وهو: "ما اشتقَّ من فعل لمن قامَ بهِ بمَعنى الحُدوث"[2]. فالعدول عن الفعل إلى اسم الفاعل كثيرًا ما يكون للتَّمكُّن والثَّبات والإيجاز، فاسم الفاعل يدلُّ على صيرورة الفعل إلى كونه خلقًا

(1) المُجاشِعِيّ، النّكت في القرآن الكريم، ص: 478.

(2) السّيوطيّ، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرّسوم: 1/ 87، والرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 76.

شمول نفي الكذب عن الواقعة في الزّمان كلّه فلا يتطرّق إليه الاحتمال

أو طبيعة؛ فهو يدلُّ على الحدوث في أصله، لكنَّه في صياغته يُكسِب الفعل صفة الاستمرار أو الإمكان الدّائم، والمعنى: أنَّ الكذب لا يمكن أن يكون من صفات هذه الواقِعَة، لا في أصلها ولا في فروعها، لا في ظاهرها ولا في حقيقتها، لا في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في المُتوهَّم من المستقبل.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الواقِعَة والحاقَّة والقارِعَة والطّامَّة والصّاخّة والقيامَة:

تعدّد أسماء يوم القيامة في القرآن تنوّع مقاميّ لا ترادف لغويّ

من الملاحظ في أسماء يوم القيامة في القرآن الكريم، أنَّ كلَّ اسم منها قد صيغ بدقّة معجميَّة وبلاغيَّة، بحيث يُبرِز جانبًا مخصوصًا من أهوال ذلك اليوم أو حقيقته العقديَّة، فلا تكاد تجد اسمًا مرادفًا للآخر، بل لكلِّ واحد منها مقام ومعنى ووقعٌ نفسيٌّ خاصٌّ.

الواقِعَة إظهار حتميَّة الوقوع والصِّدق المطلق

فأمّا الواقِعَة، فهي من الجذر وقَعَ، يدلُّ على الحدوث المُؤكَّد، والوقوع الثّابت، لا المحتمل، وقد جاءت معرفة بالألف واللّام، لتدلَّ على الكمال في كونها الواقِعَة الَّتي لا واقعة غيرها، ثمَّ جاء بعدها نفي الكاذبة؛ ليُحكِم دلالتها على الصِّدق القطعيِّ والتَّحقُّق المطلق، فكأنَّها عند ذكرها تقع في النَّفس كما تقع في الواقع. وهي تبرز جانب الحتميَّة والقطع، وكأنَّها تُقال في مقام إثبات لا يقبل الجدل، كما في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، فجعل الصِّدق فيها مركوزًا في ذاتها، لا في برهان يُستخرج عليها.

الحاقَّة اسم يكشف الحقيقة ويقضي على الباطل في يوم لا ريب فيه

وأمّا الحاقَّة، فهي من حقّ، والحقُّ نقيض الباطل. حقَّ الشَّيء يَحِقُّ حَقًّا أي وجَبَ وُجوبًا[1]. فجاء الاسم ليدلَّ على أنَّ القيامة هي الَّتي تُحقُّ الحقَّ وتُبطل الباطل، فهي في ذاتها مِعيار الفصل، ويومها يوم البيان، لا يلتبس فيه شيء، بل تنكشف فيه الحقائق كما هي،

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (حقّ).

دون لَبْسٍ أو تزوير. ولذا كان هذا الاسم شديد الوقع في سياقات التَّهديد للمكذّبين، لأنَّ الحاقَّة تُبطل كلَّ قول باطل، وتُظهر الحقيقة ظهورًا لا يُدفع.

القارعة صدمة تنفذ إلى القلب لا إلى السَّمع وحده

وأمّا القارعة، فمن قَرَعَ، ومعظم الباب من ضرب الشَّيء. يقال قرعت الشَّيء أقرعه: ضربته[1]. وهو الضَّرب الشَّديد المفاجئ، بصوتٍ يبلغ القلب، لا الأذن فحسب. والقارِعَةُ: القيامةُ. والقارِعةُ: الشِّدَّةُ. وفلانٌ أمِن قَوارِعَ الدَّهر: أي شدائده وقوارِعُ القُرآن نحو آية الكُرسيّ، يقال: من قَرَأها لم تُصِبه قارعة. وكلُّ شيءٍ ضربته فقد قَرَعتَه[2]. فالقارعة اسم لما يُحدث الصَّدمة المباغتة، الَّتي تطرق الوعي الإنسانيَّ طرقًا عنيفًا، فتكشف له من الهول ما لم يكن يتصوَّره. وهي تُقال في مواضع تبكيت النَّفس وهزّها من غفلتها، ولهذا كانت القارعة ترجّ النَّفس رجًّا، وتدقّها دقًّا بصوت الفاجعة الكبرى.

الطّامَّة الكبرى المصيبة الَّتي لا تُدانيها مصيبة

وأمّا الطّامَّة الكبرى، فهي من طَمَّ، أي غطّى وعمّ، طمَّ الماء يطمُّ طمًّا وطمومًا إذا ارتفع. وكلُّ شيء أفرط في ارتفاع فقد طمَّ[3]. فدلالتها على الشُّمول والاجتياح، لا على المفاجأة. إنَّها المصيبة الَّتي تتجاوز حدّ التَّحمّل البشريِّ، وتغمر كلَّ شيء، فلا تُبقي شيئًا على حاله. وهي كناية عن المصير المحتوم الَّذي يُغطي الدُّنيا ويطويها طيًّا، فاستُخدمت في القرآن مقترنة بـ(الكبرى) للتَّفخيم، إشارة إلى أنَّ ما بعدها لا يُقاس عليه، ولا يشبهه شيء قبله.

الصّاخَّة الانفجار السَّمعيُّ الَّذي يباغت الفطرة ويزلزل الطُّمأنينة

وأمّا الصّاخَّة، فهي من صخّ، أي رفع الصَّوت حتَّى صار يصمّ الآذان. صخُّ الصَّخرة وصخيخها: صوتها إذا ضربتها بحجر أو غيره، وكلُّ صوت من وقع صخرة على صخرة ونحوه صخٌّ وصخيخ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرع).
(2) الخليل، العين: (قرع).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المُحكم: (طمّ).

وقد صخَّت تصخُّ[1]. والصّاخَّة: القيامة، تدلُّ على النَّفخة أو الصَّيحة الَّتي تُفجّر الأسماع وتقطع السَّمع من شدّتها. وقد جاءت لتصوُّر جانب الانفجار السَّمعيِّ الَّذي يُباغت الإنسان ويهلكه من شدّته، كأنَّ القيامة لا تبدأ بمنظر بل بصوت، يسحق الطُّمأنينة من جذورها.

القيامة قيام الخلق والحساب والعدل في لحظة التَّحوُّل الكبرى

وأمّا القيامة، فهي من قام، أي نهض واستقام بعد سكون. فجاءت لتدلَّ على حدثٍ شامل، يقوم فيه النّاس من قبورهم، وتقوم فيه السَّماوات بأمر ربِّها، وتقوم فيه الحُجَّة على الخلق. وهي الاسم الأشمل من بين هذه الأسماء؛ لأنَّها تجمع قيام الخلق، وقيام الحساب، وقيام العدل، وقيام الأمر الإلهيِّ الأخير. فهي تحوّل الزَّمن من الدُّنيا إلى الآخرة، وتحوّل الإنسان من الغفلة إلى المشهد الحقِّ، وهي الاسم العَلَم.

تعدُّدُ أسماء القيامة بيان لا تكرار، وغايتها إيقاظٌ لا مجرَّد إنذار

وبهذا يتبيّن أنَّ كلَّ اسم من هذه الأسماء ليس تكرارًا، بل وجه من أوجه المشهد الواحد؛ فالواقِعَة تُثبت الوقوع، والحاقَّة تُظهر الحقَّ، والقارعة تُفزع، والطّامَّة تُغرق، والصّاخَّة تُفجّر السَّمع، والقيامة تُقيم العالم على حقيقة المصير.

فإذا اجتمعت في الذِّهن هذه الأسماء، اجتمع معها رعبُ الصَّوت، وقطع اليقين، وهيمنة المصير، وانكشاف الحقِّ، وانقلاب النِّظام، وقيام الخلق، وذلك هو تمام المقصود من ذكر القيامة في القرآن: أن تكون يقظةً لا لفظًا، وتذكيرًا لا تكرارًا، ودعوةً لا مجرَّد تخويف.

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المُحكم: (صخّ).

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [الواقِعَة: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانــتــقــال مــن الــوصــف الإجـمـاليّ إلى الـتَّـفـصـيـل في مآلات النّاس

لمّا افتتحت السّورة بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، ناسب ذكر أحوالها مع النّاس في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، لتُتمّ بناء المعنى في سياقٍ بيانيٍّ دقيق، يجمع بين الانتقال التَّدريجيِّ من المجمل إلى المفصّل، ومن ذات الواقِعَة إلى مفعولها في الخلق؛ فالسّامع إذ يسمع: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ ثمَّ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، يُحدّث نفسه: فما شأن هذه الواقِعَة؟ وما أثرها في العالم؟ فيأتي الجواب في كلمة واحدة مزدوجة التَّركيب، ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، لتكون بمثابة جواب بيانيٍّ وإيقاعيٍّ معًا، يَصف حقيقة ما تفعل هذه الواقِعَة حين تحلّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَافِضَةٌ﴾: (خفض) بمعنى أنزل وأذلّ، فالخفض: ضدُّ الرَّفع[1]. وخفض الشَّيء: حطَّه من علوٍّ، وحطَّه بعد علوٍّ[2]. وخفض صوته إذا سكنه، وخفض رأسه إذا طأطأه. و(الخافضة) اسم فاعل تدلُّ على الجهة أو الحالة أو الأمر الَّذي يوقع الخفض والإذلال، ويقابله في المعنى (رافع)، وفي سياق الآية، جاء هذا الوصف للواقعة، أي للقيامة، بأنَّها خافِضَةٌ؛ أي: إنَّها تُذلّ أقوامًا كانوا في الدُّنيا مرفوعين بالجاه والمال، فهي تخفض الجبابرة والمتكبِّرين.

2) ﴿رَّافِعَةٌ﴾: جذر الكلمة هو (رفع)؛ رفعت الشَّيء رفعًا، وهو ضدُّ الخفض. ومرفوع النّاقة في سيرها: خلاف الموضوع، ومن

(1) الخليل، العين: (خفض).
(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خفض).

الباب الرَّفع؛ تقريب الشَّيء. قال اللّه جلّ ثناؤه: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾، أي: مقرَّبة لهم، ومن ذلك قوله رفعته للسُّلطان[1]. فلمّا قال رافعة بمعنى التَّقريب ناسب قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، والرَّفع: إذاعة الشَّيء وإظهاره. تقول: رفعتُ الشَّيء أرفعه رفعًا، ورفع اللّه فلانًا: أعزّه وشرّفه، فجعل الرَّفع قرين التَّقدير والتَّكريم.

المَعنى الإجْماليُّ:

التَّقابل المهيب بين الخفض والرَّفع في مشهد القيامة

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ وصفٌ للواقعة، يُبيّن ما تحدثه من انقلاب في الموازين، وهو مرفوع على الاستئناف، أي: هي خافِضَةٌ رّافِعَةٌ، ففي هذه الآية الوجيزة، ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، أودِعَ من المعاني ما يتشعّب عنه النَّظر وتتحرّك نحوه الأفكار؛ فهي في ظاهرها كلمتان متقابلتان؛ غير أنّ تقابلهما يفتح بابًا إلى تصويرٍ رهيب لمشهد القيامة. فالخافضةُ والرافعةُ ليستا مجرّد وصفين، بل هما سِمة لتلك الواقِعَة العظمى؛ فهي خافضةٌ تخفض أقوامًا من علياء ما كانوا فيه من جاه وسلطان وبطر، فتهوي بهم إلى دركات الهوان والعذاب، ورافعةٌ ترفع آخرين كانوا في دار الدُّنيا مستضعفين خاملين، فإذا بهم يومئذ في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وكأنَّ الآية تُلَمِّح إلى انقلاب شامل في الموازين، وانتقاضٍ لعرى الاعتبارات الأرضيَّة، فإذا الَّذي كان يُشار إليه بالبنان يُطأطئ رأسه في خزي، وإذا الَّذي كان في أعين النّاس حقيرًا يرتقي مراتب الكرامة والرِّضوان.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتة حذف المسند إليه:

تفخيم المشهد وتهويل الموقف في مباغتة الخبر للمتلقّي

حُذف المسند إليه في قولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، وهو على تقديرِ: هيَ خافِضَةٌ رّافِعَةٌ[2]، أو الواقِعَة يومئذٍ خافضة لقومٍ إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفع).
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 9/ 200.

النّار، ورافعة لقوم إلى الجنَّة، ويمكن أن يُراد بها إذا وقعت وقعت خافضةً لقوم، رافعةً لآخرين، وحسن ذلك في الواقِعَة؛ لأنّ النَّصب قبله آية يحسن عليها السُّكوت، فحسن الضَّمير في المستأنف[1].

وهذا الحذفُ ليس من بابِ الإيجازِ البلاغيِّ فحسب، بل هو مقصودٌ لذاته؛ لأنّ المقامَ مقامُ تهويلٍ وتضخيم، وقد ابتدأتِ السّورةُ بالفعلِ الماضي: ﴿وَقَعَتِ﴾، الّذي أحدثَ اهتزازًا في الأذنِ والقلبِ معًا، ثمّ توالَتِ الصِّفاتُ الكاشفةُ عن أثرِ هذا الحدثِ العظيم، فجاءتِ الجملةُ: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، لا لتخبرَ عن ذاتٍ بعينِها، بل لتُطلقَ المعنَى، وتجعلَ المتلقّي أمامَ حقيقةٍ ماثِلَةٍ لا تحتاجُ إلى تعريفٍ أو تحديدٍ.

فالحذفُ هنا يفيدُ التَّفخيمَ والتَّعظيمَ؛ لأنّه إذا وردَتِ الصِّفاتُ وحدَها دونَ ذِكرِ موصوفٍ، تَوَجَّهَ الذِّهنُ إلى تتبُّعِ ما يُطابِقُها من السّياقِ، فيكونُ أكثرَ حضورًا وتأثيرًا، كما أنّه يُشعِرُ بأنّ هذهِ الصِّفاتِ من القوّةِ والشّمولِ بحيثُ لا تُقيَّدُ بفاعلٍ معيَّنٍ؛ فالصّفات تجسَّدَت، وانبعثَت تنادي من تلقاءِ نفسِها، وهذا من أساليبِ السُّموِّ في البيانِ القرآنيِّ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿خَافِضَةٌ﴾:

الخفض ضدُّ الرَّفع، والتَّخفيض: مدُّك رأس البعير إلى الأرض: يكاد يستعصي على مخفضه[2]. وفي استعمالِ لفظِ ﴿خَافِضَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ بلاغة عميقة تُصيبُ وجدانَ السّامعِ قبلَ عقلِه، وتَسري في مسالكِ النَّفسِ تذكرةً وإنذارًا، وقد جُمِعَ في هذهِ المفردةِ من عناصرِ البيانِ ما يُفصحُ عن الهَولِ ويكشفُ عن سُنَنِ الجزاءِ الإلهيِّ؛ فالخَفضُ في أصلِه لغةً هو الإسقاطُ من العلوِّ، والإذلالُ بعدَ العزِّ[3]، وهو يُصوِّر سقوط الطُّغاةِ، وانهيار الجبّارينَ، وذلَّ المتكبّرينَ الّذينَ ظَنّوا أنّ لهم في الأرضِ مقامًا لا يُدانى، فلا رفعةَ لأحدٍ حتّى تُزاحَ عن الطّريقِ جبالُ الزَّيفِ والغرورِ.

ثمَّ إنّ اللّفظةَ نفسها، من حيثُ صوتُها، توحي بالشّدّةِ والهبوطِ، فحرفُ الخاءِ يُخرَجُ من أعمقِ الحلقِ، والضّادُ فيه قَسوَةٌ وثِقَلٌ، وكأنّها تُجسِّدُ وقعَ السّقوطِ، وتَرسُمُ بحروفِها نفسَ المشهَدِ الّذي تصفهُ، في توافقٍ بديعٍ بينَ اللّفظِ والمعنَى.

---

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 121، والنّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 322.

(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (خفض).

(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خفض).

تجمع مفردة الخفض بين الإذلال المعنويِّ والهبوط المادّيِّ في تصويرٍ صوتيٍّ

فإذا سَمِعَها القلبُ، أيقنَ أنّ هذا الخفضَ ليس جزافًا، بل هو عدلٌ ربّانيٌّ، يُعيدُ الحقَّ إلى نصابِه، ويُسقِطُ الكِبرَ من عروشِه، لتتهيّأَ الأرضُ لِرَفعِ مَن استُضعِفَ، وتَكريمِ مَن عُرِفَ بالصّدقِ والإيمانِ، فيا لَهُ من موقِفٍ تقشعرُّ له الجلودُ، وتخشَعُ له القلوبُ.

نكتة التَّعبير باسم الفاعل المؤنَّث:

التناسب اللَّفظيُّ والتَّلاؤم الدّلاليُّ مع تحقيق المقصد من براعة الانتقاء القرآنيِّ

جاء التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، بصيغةِ اسم الفاعلِ المؤنَّثِ، لمراعاة السّياقِ من جهةِ اللَّفظِ والنَّحوِ معًا؛ إذ جاءتِ الألفاظُ السّابقةُ - ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ و﴿لِوَقْعَتِهَا﴾ - على صيغةِ التَّأنيثِ، فكانَ مُقتضى المطابقةِ في السّياقِ أن تردَ الصِّفاتُ على نحوٍ مؤنَّثٍ كذلكَ، فجاءَ قولُه: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، موافقًا من جهةِ اللَّفظِ والمعنى.

واستعمال اسمِ الفاعلِ لا يَخلو من دلالةٍ بلاغيَّةٍ مقصودةٍ؛ إذ إنَّ صيغةَ اسمِ الفاعلِ تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوامِ، لا على مجرَّدِ الحدوثِ الطّارئِ كما هو الشَّأنُ في الفعلِ. فلو قيلَ: (تخفضُ وترفعُ)، لأوهمَ ذلكَ أنَّ الخفضَ والرَّفعَ من قبيلِ الفعلِ الواقعِ مرَّةً أو مرارًا، بيدَ أنَّ اسمَ الفاعلِ يُشعرُ بأنَّ هذه الأوصافَ قائمةٌ بذاتِ الواقِعَة، وأنَّها ملازمةٌ لها، فهي في حقيقتِها خافِضَةٌ رّافِعَةٌ، على جهةِ الوصفِ الذّاتيِّ.

ومن جهةِ المعنى، فإنَّ هذا التَّركيبَ يُنبئُ عن عِظمِ شأنِ الواقِعَة، ويوحي بأنَّ ما ستُحدثُه من انقلابٍ في الأحوالِ وتبديلٍ في المراتبِ، إنَّما هو نابعٌ من ذاتِها، لا ممّا أُسندَ إليها من فعلٍ خارجيٍّ؛ فهي خافضةٌ لأقوامٍ، رافعةٌ لآخرينَ، بسُلطانِها الَّذي لا يُرَدُّ، وقضائِها الَّذي لا يُدفَعُ.

وأمّا التَّأنيثُ، فليسَ ممّا يُفهمُ منه التَّهوينُ أو التَّليينُ، بل قد جرى في كلامِ العربِ أن يُستعملَ التَّأنيثُ لزيادةِ الهيبةِ أو لتكثيرِ الحدثِ وتعظيمِ أثرِه، كما في وصفِ (الدّاهيةِ) ونحوِها، فكانَ في

مجيءِ الوصفِ مؤنَّثًا مزيدُ تقريرٍ لهولِ الواقِعَة، وتفخيمٌ لشأنِها، حتَّى تُخيِّلَ للسّامعِ أنَّها قوَّةٌ عُظمى تجري بأمرِ اللّهِ، تُقلِّبُ نظامَ الأشياءِ، وتُبدِّلُ المعاييرَ، وتُنزِلُ الأمورَ منازلَها بما لا يدعُ لذي حيلةٍ حيلةً، ولا لمتقدِّمٍ فضلًا على مَن تأخَّرَ إلّا ما شاءَ اللّهُ.

فتلكَ الأوصافُ، وإن كانت جاءت على نحوِ التَّأنيثِ اللَّفظيِّ، فهي في المعنى صفاتُ جلالٍ وعظمةٍ، ترسمُ صورةً لما يكونُ من أهوالِ يومِ القيامةِ، على وجهٍ يحمِلُ السّامعَ على التَّفكُّرِ والخشيةِ.

الغرض من تنكير لفظ ﴿خَافِضَةٌ﴾ وفوائده البلاغيَّة:

تهويل المشهد وتفخيم الموقف وتعميم الأثر في النُّفوسِ

نُكِّرُ لفظ ﴿خَافِضَةٌ﴾، لما تقرَّر في علم المعاني بأنَّه إذا وردَ في مقام التَّهويل، دلّ على عِظم الشَّأن[1]، وأوقعَ في النَّفسِ وقعًا من الرَّهبةِ والدَّهشةِ؛ فمفردة ﴿خَافِضَةٌ﴾ هنا ليست خافضةً على وجهِ الإطلاقِ فحسبُ، بل هي خافضةٌ عظيمةُ الأثرِ، مجهولةُ المدى، لا يُدرى مبلغُ ما تُسقطهُ من المراتبِ والذَّواتِ، ولا من همُ الَّذينَ تنالُهم يدُ الخفضِ.

وفي هذا الإبهامِ المستفادِ من التَّنكيرِ ما يُثيرُ في النَّفسِ اضطرابًا ووجلًا، إذ السّامعُ لا يستطيعُ أن يُحدّدَ مَنِ المنخفضونَ؟ ولا كيفَ يكونُ خفضُهم؟ ولا إلى أيّ دركٍ يُلقَونَ؟ وهذا اللَّونُ من الخطابِ متناسقٌ مع السّياقِ العامِّ للسّورةِ، الَّتي جاءت لتصويرِ أحوالِ يومٍ عظيمٍ، تتبدّلُ فيهِ المراتبُ، وتنقلبُ فيهِ الموازينُ انقلابًا شاملًا لا يستثني أحدًا. كما أنّ في التَّنكيرِ دلالةً على التَّعميمِ، فمفردةُ ﴿خَافِضَةٌ﴾ تشملُ كلّ مَن استحقّ الخفضَ، من غيرِ تعيينٍ ولا تخصيصٍ، إذ ليستِ الواقِعَةُ مقيّدةً بأسماءٍ أو ألقابٍ أو أنسابٍ، بل هي تجري على سنّةِ العدلِ الإلهيِّ، تخفِضُ المتكبّرينَ، الظّالمينَ، المترفينَ، وتضعُهم

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 27.

حيثُ لا قيامَ لهم، وترفَعُ من شاءَ اللّهُ من عبادِه الصّالحينَ. فاجتمعَ في هذا التَّنكيرِ جملةٌ من المقاصدِ البلاغيّة؛ من حيث تفخيم قدرِ الواقِعَة، وتهويلُ مشهدِها، وتعميمُ أثرِها، فجاء كلّ ذلك؛ ليصبّ في الغايةِ النَّفسيّةِ من المقامِ، وهي إثارةُ الرَّهبةِ في قلبِ السّامعِ، وحملُه على التَّبصُّرِ والاعتبارِ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿رَّافِعَةٌ﴾:

التَّوازن البلاغيُّ والإيحاء النَّفسيُّ فـي مشـهد القيامة

استعمل النّظم الكريم مفردة ﴿رَّافِعَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، للإفصاح عن حالٍ ينقلب فيها نظام المقاييس وتُقلب فيها مراتب الخلق، فهي تصف حال الواقِعَة يوم تقوم القيامة، حين لا يوزن النّاس بمكانتهم في الدُّنيا، بل بمقامهم عند اللّه، فتُرفع أقوامٌ طالما طواهم الخمول في دنيا النّاس، فإذا هم في الآخرة مكرّمون مرفوعو المنزلة.

والرِّفعة هنا ليست رفعة المكان، بل رفعة القدر والمنزلة، فهي رفعة عند اللّه، يوم لا تنفع الوجاهات ولا الأنساب، وإنَّما يُكرَم المرء بإيمانه وعمله، ويُقام له وزن بما كان عليه من تقوى وصدق. فهذه اللَّفظة في سياقها ليست وصفًا جافًّا، بل إشراقة أمل تتلألأ في مشهد القيامة، تُعلِن أنَّ ساعة الفصل لا تظلم أحدًا، وأنَّها بعد أن تُسقِط الزّائف، ترفع الصّادق، وتُقيم الموازين القسط ليُؤتَى كلّ ذي حقّ حقّه، ولا يُعلى إلّا من عَلَت حقيقتُه.

نكتة التَّعبير باسم الفاعل المؤنَّث:

ثبات الصِّفات وقـوَّة المفارقة الجامعة بين شـدّة الموقف وديمومة الحال

جاء التّعبير بصيغةِ اسم الفاعلِ المؤنَّثِ في قولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾؛ لإفادة الثّبات والدَّوام، فقولهُ: ﴿خَافِضَةٌ﴾ لا يُفهَمُ على أنَّه فعلٌ يقعُ مرّةً ثمّ ينقضي، بل يُفيدُ أنَّها ذاتُ خفضٍ ملازم، و﴿رَّافِعَةٌ﴾ كذلك تدلُّ على أنَّ ذلكَ شأنُها، وأنّ الخفضَ والرّفعَ طَبعٌ فيها، لا أنَّها تفعلهُ مرّةً ثمّ تبرأُ منهُ.

وفي هذا الاستعمالِ مفارقةٌ بلاغيّةٌ بالغةٌ، وذلكَ أنَّ الجمعَ بين صيغةِ المؤنّث - الّتي قد توهِمُ في العُرفِ ضعفًا أو رقّةً - وبين معنى القوّةِ والفعلِ الجَلَلِ (الخَفضِ والرَّفعِ)، يُحدِثُ انقلابًا في التَّصوّرِ، ويُثبِتُ أنَّ الواقِعَة - على ما فيها من أنوثةِ اللَّفظِ - ذاتُ أثرٍ عظيمٍ وقوّةٍ حاسمةٍ، تُبدِّلُ بها مراتبَ الخلقِ، وتُغيِّرُ بها مصائرَ النّاسِ. فذلكَ من دَقائقِ التَّصويرِ، أن يُقدَّمَ اللَّفظُ في صورةٍ فيها رقّةٌ ظاهريّةٌ، لكنَّه يدلُّ على فعلٍ هائلٍ في باطنِه. ثمَّ إنَّ التَّعبيرَ باسمِ الفاعلِ فيه توكيدٌ لصِفةٍ قائمةٍ مستمرّةٍ، لا تُنسَبُ للواقعةِ على جهةِ الفعلِ المنقطعِ، بل تُعدّ وصفًا لازمًا لها، فهي خافِضَةٌ رّافِعَةٌ أبدًا، وذلكَ أنَّ يومَ القيامةِ ليسَ ظرفًا لحدثٍ عارضٍ، بل هو مظهرٌ لحقيقةٍ قائمةٍ، تنكشفُ فيها المراتبُ، وتتجلّى فيها المقاديرُ.

الغرض من تنكير لفظ ﴿رَّافِعَةٌ﴾:

التَّفخيم والتَّشويق وإبراز تفاوت مصائر المؤمنين

نُكِّر لَفظُ ﴿رَّافِعَةٌ﴾ لأغراضٍ بلاغيّةٍ رفيعة، تُستفادُ من مقام السّياقِ وما يُحيطُ بهِ من جوٍّ منَ التّصويرِ، منها التّفخيم والتّعظيمُ؛ فإنّ تَنكيرَ النّعوتِ في سياقِ الإخبارِ عن أهوالِ يوم القيامةِ، يُضفي على المعنى طابعًا منَ الغموضِ المقصودِ، والإجمالِ المُثيرِ، الّذي يُضخِّمُ في نفسِ السّامعِ حجمَ الحدثِ وأثرَهُ؛ فلفظ ﴿رَّافِعَةٌ﴾ لا تَدُلُّ على مجرّدِ الرّفعِ، بل على رِفعةٍ عظيمةٍ، لا يُدرى مداها، ولا تُحدّ مراتبُها، بل تَترك السّامعَ في حالٍ منَ التّرقُّبِ والانشداهِ. ومن جهةٍ أُخرى، فإنَّ هذا الإبهامَ البلاغيَّ يولِّدُ أثرًا نفسيًّا قويًّا، إذ يجعلُ السّامعَ يتساءلُ: من هؤلاءِ الّذينَ سترفعُهم الواقِعَة؟ وإلى أيّ مقامٍ يُرفَعونَ؟ وهل هُم من الّذينَ كنّا لا نأبَهُ لهم في الدّنيا؟ أو هُم من الخُلصاءِ الّذينَ خفيَت مقاماتُهم على النّاسِ؟ فتلكَ الأسئلةُ توقظُ التّأمُّلَ، وتَبعثُ في النّفسِ تشويقًا وتوقُّعًا، يتلاءمُ مع المقصودِ من زلزلةِ القلوبِ في مشهدِ القيامةِ.

وثمّةَ وجهٌ آخَرُ في هذا التّنكيرِ، وهو ما يُفيدُ منَ التَّكثيرِ والعمومِ والشّمولِ[1]؛ فإنّ التّعبيرَ بلفظٍ نكرةٍ في سياقِ الجزاءِ، يُشيرُ إلى أنَّ الرّفعَ لا يَختصُّ بجنسٍ ولا فئةٍ، بل يَشمَلُ كُلَّ من استحقَّهُ من عبادِ اللّهِ، ممّنِ اصطفاهم بالإيمانِ والعملِ الصّالحِ.

علة تقديم ﴿خَافِضَةٞ﴾ على ﴿رَّافِعَةٌ﴾:

مناسبة تقديم التّهويل في مقامات التّهويل

قُدِّم ذكر ﴿خَافِضَةٞ﴾ على ﴿رَّافِعَةٌ﴾ مَقصودًا في نَظمِه؛ لما فيهِ من مُطابقةٍ لِحِكمةِ التّرتيبِ في مشاهدِ يومِ القيامةِ، فإنّ أكثرَ النّاسِ - في الدّنيا - قد رُفِعَت مَراتبُهم بالباطلِ، وحُمِلوا على الأهواءِ والجاهِ والمالِ، فجاءَتِ الواقِعَة لِتَقْلِبَ هذهِ الاعتباراتِ، فيكونَ أوّلُ آثارِها خَفضَ تلكَ الرّؤوسِ المُنتفخةِ، ثمّ رَفعَ أهلِ الخشيةِ والطّاعةِ.

ثمَّ إنَّ في بدايةِ القيامةِ ما يَدُلُّ على الهَدمِ والتّحطيمِ: زَلزلةُ الأرضِ، ونَسفُ الجبالِ، وتَدميرُ ما استَقَرَّ في الأذهانِ من ثوابتِ الدّنيا، وكُلُّها صوَرُ تخفيضٍ وهَدمٍ، تَسبِقُ مشهدَ الرّفعِ والتّرقّي، فناسبَ أن يُفتتَحَ بالخَفضِ، إذ هو المشهدُ الأسبَقُ وُقوعًا، والأشدُّ أثرًا في النّفوسِ.

بديعُ الطِّباقِ الضِّدّيّ:

جمال التّضادّ والإيجاز يصوّر التّحوّل المصيريّ للبشر

من محاسن النَّظم القرآنيِّ في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ وقوع الطِّباق، وهوَ من أفانينِ البلاغةِ الّتي تُستَعمَلُ لتقويةِ المعنى وإبرازِه بأضدادِه، فقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ جمع فيه بين الشَّيءِ وضدّه؛ إمّا وصفًا لها بالشِّدّة؛ لأنّ الواقعات العظام كذلك: يرتفع فيها ناسٌ إلى مراتب ويتَّضع آخرون، وإمّا لأنّ الأشقياء يحطّون إلى الدَّركات، والسّعداء يُرفعون إلى الدّرجات؛ وإمّا أنّها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارّها، فتخفض بعضًا وترفع بعضًا:

---

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.

حيث تسقط السّماء كسفًا وتنتثر الكواكب وتنكدر وتسير الجبال فتمرّ في الجوّ مرّ السَّحاب[1]. فإنّ ﴿خَافِضَةٌ﴾ ضدٌّ ﴿رَّافِعَةٌ﴾، وقد جُمِعَتا في تَركيبٍ واحدٍ؛ لإظهارِ التّناقضِ البالِغِ في أحوالِ الخلقِ يومَ تَقَعُ الواقِعَة. "قال السُّدّيُّ: خفضت المتكبِّرين ورفعت المستضعفين. وقال قتادة: خفضت أقوامًا في عذاب اللّه، ورفعت أقوامًا إلى طاعة اللّه. وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: خفضت أعداء اللّه في النّار، ورفعت أولياء اللّه في الجنَّة"[2]. فالخافضةُ الرّافعةُ صفةٌ للواقعةِ، وهي القيامةُ، تخفِضُ مَن كانت لَهُم مكانةٌ في الدُّنيا ولم يعملوا للآخرة، وتَرفَعُ مَن كانوا مستضعفينَ أو فقراءَ، ولكنّهم مؤمنونَ وأتقياء.

التَّناسق الصَّوتيُّ بين الكلمتين:

التَّوازن الصَّوتيُّ بين الألفاظ متناغمٌ مع التّقابل في المعاني

وردَ في نظمِ الآيةِ توازنٌ بديعٌ بين كلمتَي: ﴿خَافِضَةٌ﴾ و﴿رَّافِعَةٌ﴾، إذ جُعلتا على وزنٍ واحدٍ (فاعلةٌ)، فجاءَ التَّركيبُ منسجمًا في إيقاعِه، دالًّا على ما أُودِعَ فيه من دقّةِ المعنى ورهافةِ المبنى. وذلك من دلائلِ البلاغةِ القرآنيَّة، إذ أُشيرَ بهذا التَّقابلِ اللَّفظيِّ إلى المقابلةِ المعنويَّة، فكما يُخفَضُ شأنُ قومٍ يومَ القيامةِ بما كسبوا، يُرفَعُ قدرُ آخرين بعدلِ اللّهِ، فجاءَ هذا الازدواجُ في اللَّفظِ مرآةً للعدلِ الإلهيِّ المطلقِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخفض والهبوط:

الهبوط نزولٌ يعقبه استقرار والخفض أعمّ دلالةً

الخفض يعني إنزال شيء إلى الأسفل أو تسطيح مكان مرتفع، وقد يُستخدم في سياقات خفض المكانة أو إنقاص المرتبة.

أمّا الهبوط فيأتي للدَّلالة على إنزال شيء من علو إلى أسفل مع أثر، ويُستعمل بمعنى الطَّرد أو الانخفاض، وقد يتضمَّن فكرة التَّراجع أو الانحدار بشكل أكثر قوَّة وحسمًا. قال العسكريّ: "الهبوط

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 195.

نزول يعقبه إقامَة ومن ثمَّ قيل هبطنا مَكان كَذا، أي: نزلنا، ومِنه قَوله تَعالَى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: 61]، وقوله تَعالَى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38]، مَعناهُ: انزلوا الأرض للإقامة فيها، ولا يُقال: هَبَط الأرض إلّا إذا استَقرَّ فيها، ويُقال: نزول وإن لم يستَقرّ"[1].

الرَّفع والإعلاء:

الرَّفع يطرأ على الـشَّيءِ والعلو وصف ثابتٌ

الرَّفع هو زيادة الارتفاع أو التَّحسين بشكل عامٍّ، سواء كان مادّيًّا أو معنويًّا. فهو رفعة في المكانة أو الأعلى، سواء كان الرَّفع مادّيًّا كرفع شيء في السَّماء، أو معنويًّا مثل رفع الجاه والمقام. إذ يأتي بمعنى الرِّفعة الاجتماعيَّة أو الروحيَّة، مثل رفع الشَّخص بعمله أو إيمانه، أو رفع درجاته في الجنَّة. قال تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [الشَّرح: 4] في رفع ذكرِ النَّبيِّ محمَّد ﷺ، وتعظيمه.

أمّا الإعلاء فيشير إلى الرَّفع بشكل أكبر وأسمى، وهو يَحمل دلالة السُّمو أو التَّعظيم. إذ يشير الإعلاء إلى رفع شيء إلى أقصى درجاته أو رفعه في مرتبة عليا عظيمة. وغالبًا ما يأتي الإعلاء في السّياقات الَّتي تتعلَّق بالرِّفعة العظيمة والمتفوِّقة، خاصَّة عندما يكون الحديث عن الرِّفعة الرّوحيَّة أو الدّينيَّة.

قال العسكريّ: هما بمعنًى في اللُّغة، وهو الفوقيَّة. وقد يخصَّص العلوُّ في حقِّه سبحانه بعلوِّه على الخلق بالقدرة عليهم. والرِّفعةُ بارتفاعه عن الأشياء، والاتِّصافِ بصفاتها وبالعكس. والعليّ من أسماء اللّه الحسنى وكذلك فإنّ الرّفيع من جملة أسماء اللّه سبحانه[2].

ويكمن الفرق بينهما في كون (الرَّفع) مُرتبطًا في الغالب بالقوَّة والقدرة الطَّبيعيَّة على رفع الأفراد وفقًا لما يستحقّونه، فالرّفع يطرأ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 296.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 258.

على المرفوع، بينما (الإعلاء) مرتبط في الغالب برفعة متفوِّقة ومستدامة لا يمكن الوصول إليها إلّا بأعلى درجات الجهد والطّاعة؛ فالرَّفع زيادة في المكانة والدَّرجة، والإعلاء أعلى درجات الرِّفعة، ويرتبط بمقام عالٍ جدًّا، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: 57]؛ فالرّفع طارئ، والمكان العالي ثابت.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴿٧﴾﴾ [الوَاقِعَة: 4 - 7]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من انقلاب الموازين إلى بيان المصائر

بَعدَ أنِ افتُتِحَتِ السّورةُ ببَيانِ عَظَمَةِ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ وهَولِها في قَولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، أُتبِعَ ذلكَ بوَصفٍ عامٍّ لِحالِها بأنَّها ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾، ناسب ذكرُ آياتٍ لِتفصيلِ مَزيدٍ من أهوالِ يَومِ القيامةِ ومَظاهرِها الكَونيّةِ، فذِكرُ رَجِّ الأرضِ وبَسِّ الجِبالِ هوَ تَمهيدٌ حِسّيٌّ ومشهَدٌ بَصريٌّ يُصوِّرُ هَدمَ نِظامِ الدُّنيا؛ ليكونَ ذلكَ مَدخَلًا لِوصفِ النّظامِ الجَديدِ الّذي سَيُفرِزُ فيهِ النّاسُ إلى أصنافِهِم: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾، أي: فِئاتٍ مُتمايِزَةً بحَسَبِ أعمالِهِم ومَواقِفِهِم.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رُجَّتِ﴾: الرَّجُّ: الاضطراب والتَّحرُّك الشَّديد، ومعنى: ﴿رُجَّتِ﴾ رَجّها راجٌّ، وهو ما يطرأ فيها من الزَّلازل والخسف ونحو ذلك[1]. ورُجَّت "حُرّكت تحريكًا شديدًا حتَّى ينهدم كلُّ شيء فوقها من جبل وبناء"[2]. ورجَّة القوم: اختلاط أصواتهم. ورجَّة الرَّعد: صوته. والرَّجُّ التَّحريك[3]. و(رَجَّ) بمعنى حرّك بعنف، والرَّجُّ: الاضطراب الشَّديد، وغالبًا ما يكون في الأجسام الثَّقيلة، فـ﴿رُجَّتِ﴾ تدلُّ على زلزال عظيم يزعزع كيان الأرض. ومن المجاز: ارتجّ عليه الكلام: اضطرب والتبس[4].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 22/ 140.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.
(3) ابن سيده، المُحكم: (رجج).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (رجج).

2) ﴿وَبُسَّتِ﴾: البَسّ: تفتيت الشَّيء وسحقه حتَّى يصير كالتُّراب أو الدَّقيق[1]. وجاء في الكشّاف: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ﴾؛ فُتِّتَ حتَّى تعود كالسّويق، أو سيقت من بسِّ النِّعم إذا ساقها. كقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النَّبأ: 20][2]. قال ثعلب: معناه خلطت بالتُّراب، وقال اللِّحيانيُّ: وقال بعضهم فُتِّتَ، وقال بعضهم: سوّيت، وقال أبو عبيدة: صارت ترابًا تربًا[3].

3) ﴿هَبَآءً﴾: جذر الكلمة (هبا)؛ قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، يعني أنَّ الجبال بعد أن سُحقت صارت كالغبار الدَّقيق المتناثر، لا يُمسك ولا يُجمع. (الهَباءُ) الشَّيءُ المُنبَثُّ الَّذي تَراهُ في البَيتِ مِن ضَوءِ الشَّمسِ. والهَباءُ أيضًا دُقاقُ التُّرابِ. و(الهَبوَةُ) الغَبَرَةُ[4].

4) ﴿مُّنۢبَثًّا﴾: جذر الكلمة هو (بثث)؛ وكلُّ شَيء فرَّقته فقد بثثته. وانبثَّ الجَراد في الأرض: تفرَّق. وفي التَّنزيل: ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: 4][5]. وكلمة ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ تعني: متفرِّقًا ومتناثرًا في كلِّ اتِّجاه. وفي سياق الآية، تصف حال الجبال بعد سحقها، أنَّها صارت غبارًا دقيقًا لا يُجمع، لا وزن له ولا أثر. فقوله: ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ يدلُّ على التَّلاشي الكامل بعد القوَّة.

5) ﴿أَزْوَٰجًا﴾: الزَّوجُ البعل، والمرأة زوج، قال تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ [الدّخان: 54]؛ أي: قرنّاهم بهنَّ من قوله تعالى: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصّافّات: 22]؛ أي: وقرناءهم، والمُزاوَجَةُ والازدِواجُ بمعنًى؛ والزَّوجُ ضدُّ الفرد وكلُّ واحد منهما يُسمَّى زوجًا، يُقال للاثنين: هما زوجان، وهما زوج، كما يُقال: هما سيّان، وهما سواء، وتقول: عندي زوجا حمام، يعني ذكرًا وأنثى[6]. وكلمة ﴿أَزْوَٰجًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ تعني: أصنافًا وطوائف وجماعاتٍ متشابهةً في الصِّفات والمصير.

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بسس).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.
(3) ابن سيده، المُحكم: (بسس).
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (هبا).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بثث).
(6) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (هبا).

انقلاب الكون يوم القيامة في مخلوقاته كلِّها العاقل وغير العاقل

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآياتُ الكريمة صورةً مروِّعةً لمشهدٍ من مشاهدِ القيامةِ، تبدأ به وقد خرجت عن استقرارِها الَّذي طالما استأنس به البشر. فقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ هو افتتاحٌ لرسم ذلك الحدث الهائل، والرَّجُّ ليس مجرّدَ حركةٍ، بل هو اضطرابٌ شامل، كأنّ كلَّ ما على ظهرِها يهتزّ بعنفٍ ويدور بلا قرار. ثمَّ تأتي الجبال، رمز الثَّبات والعلوِّ والشُّموخ.

تذكرةٌ للقلوب بأنَّ ما كان عظيمًا ينهار، فكيف بالإنسان؟

والآية ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ﴾ تصوِّر مشهدًا من أهوال القيامة، حيث تزول أعظم رموز الثَّبات في الأرض، وتبطُلُ معالم القوَّة والرُّسوخ، إيذانًا بانهيار نظام الدُّنيا. فتتحوَّل الجبال الشّامخة إلى هباء، لتتبدّد هي الأخرى لتصير ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، أي كالغبار المُتناثر، لا يُمسك ولا يُجمَع، يذهب في كلِّ اتّجاه، كأن لم يكن. وبعد هذا الانقلاب الكونيِّ، يتَّجه السّياق مباشرة إلى الإنسان: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾. فيُحَوَّل النَّظر إلى ما هو أهمّ وهو مصير الإنسان ذاته. والمُراد بـ(الأزواج) الأصناف، بحسب مصائرهم وأعمالهم. فكما سقطت الجبال من عليائها، سيسقط كذلك كلُّ وهم بشريٍّ في الثَّبات والاستحقاق إن لم يكن له عند اللّه وزن.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعة الاحتمال الدَّلاليّ في إعراب ﴿إِذَا﴾:

تعدُّد وجوه الإعراب والدَّلالات البلاغيَّة في تصوير مشهد القيامة

وهذا من أعذَب وأدقِّ المَواضِع في عِلم البلاغةِ والنَّحوِ معًا؛ لأنَّ إعرابَ ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ يَأتي مِن أوجُهٍ عِدَّةٍ، وكُلُّ وجهٍ يُعطي دَلالةً خاصَّةً تَنسجِمُ مع السّياقِ وتُضيفُ إليهِ معنًى مُميَّزًا، وهذا ما يُسمَّى في البلاغةِ بـ(براعةِ الاحتمالِ)، فهي تحتمل أن تكونَ بدلًا من ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾[1]، ويكون تكرار (إذا) توكيدًا لشدّة امتزاج المضاف

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.

بالمضاف إليه[1]. والدّلالةُ البلاغيَّةُ لهذا الإعرابِ هي أن يكون رجُّ الأرض وما بعده هو المقصود، وتحتمل أن تكونَ في مَحلِّ خبرٍ لِمُبتدأٍ مَحذوفٍ، تقديرُهُ: (هيَ) إذا رُجَّتِ الأرضُ. أي أنَّ الحديثَ عن الواقِعَة وما يُلازِمُها، والخبرُ هو هذهِ الأحداثُ العَظيمةُ. والدّلالةُ البلاغيَّةُ الاستئنافُ الإخباريُّ، كأنَّ السّياقَ يَتوقَّفُ لَحظةً ليُعلِنَ: ها هوَ وقتُ الرَّجِّ قَد حانَ. ويحتمل أن يَكونَ الظَّرفُ متعلّقًا بـ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾[2]، أي أنَّ الخافضةَ الرّافعةَ تَكونُ عندما تُرَجُّ الأرضُ. فتكونُ ﴿إِذَا﴾ ظرفَ زمانٍ لِهذا الوصفِ. والدّلالةُ البلاغيّةُ في ذلك: الرّبطُ بين حَركةِ الرّجِّ والبَسِّ كأسبابٍ لِخَفضِ أقوامٍ ورَفعِ آخَرينَ. فأحداثُ القيامةِ ليست كَونيّةً فحسبُ، بَل هي عَدليَّةٌ كذلكَ، تَتَجَلّى فيها حِكمةُ اللّهِ وعَدلُهُ، وتَتَحقّقُ سُنّةُ قَلبِ المَوازينِ. ويحتمل أن يَكونَ الظَّرفُ متعلّقًا باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، أي أنَّ (الواقِعَة) تَقَعُ عندَ رَجِّ الأرضِ وبَسِّ الجبالِ. وهذا يُؤسِّسُ ترابُطًا زَمَنيًّا وسَبَبيًّا بَينَ الوُقوعِ وتِلكَ الأحداثِ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿رُجَّتِ﴾:

رجُّ الأرضِ بأخذها بالكاملِ بحركةٍ منتظمةٍ لبلوغِ المقصود

آثر النّظم الكريم استعمالَ مُفرَدةِ ﴿رُجَّتِ﴾؛ باختيارِ فِعلٍ قَويِّ الحَرَكةِ والإيقاعِ. والفعلُ (رَجَّ) يَدُلُّ على التَّحريك والهَزِّ الشَّديدِ العَنيفِ[3]. وغالبًا ما يكونُ اضطرابيًّا لا مُنتظمًا، ويَتضمَّنُ تكرارَ الحَرَكةِ بقوَّةٍ واهتِزازٍ عَنيفٍ، فقولُ اللّهِ: ﴿رُجَّتِ﴾ يوحي بأنّ الأرضَ لا تَهتزُّ فقط، بل تَضطَرِبُ اضطرابًا عَظيمًا مُتكرِّرًا.

والرَّجُّ يَختلِفُ عن الزَّلزلةِ أو الاضطرابِ؛ لأنَّهُ أشَدُّ وقعًا وأعمقُ أثَرًا، فهو تصويرٌ للأرضِ بأنَّها تُرَجُّ رَجَّ الغربالِ أو الطّاحونَةِ. ويَكمُنُ

(1) الزّركشيّ، البرهان، ص: 386.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.
(3) ابن سيده، المُحكم: (رجج).

فيهِ الإيحاءُ بالاضطرابِ الكامِلِ للأرضِ؛ فمعنى ﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ يَعني أنَّ كُلَّ ما فيها اهتزَّ؛ جِبالُها، تُرابُها، أوديَتُها، سُكّانُها؛ فهو شامِلٌ في أثَرِه، مُطلَقٌ في قوَّتِه. وهذهِ صورَةٌ مُروِّعَةٌ تَبعَثُ على الخَشيَةِ والانتِباهِ والتَّهَيُّؤِ لِلآخِرَةِ.

نُكتة التَّعبير بصيغة المبنيّ للمفعول:

الأحداث الكبرى تُذكر بمضامينها الرَّهيبة وغموضِ مشاهدها

جاءَ فعل الرَّجِّ في قولِهِ تعالى: ﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ؛ للتّعظيم[1]، وبيان ما في هذا الفعل من هولٍ وجلالٍ، فالمقصودُ ما جرى لها من الاضطرابِ العظيمِ والاهتزازِ الشَّديدِ، والبناءُ للمفعولِ يُشيعُ في الذّهنِ جوًّا من الرَّهبةِ والغموضِ، فهو يوحي بأنَّ هذا الرجَّ ليس فعلًا عاديًّا بل فعلٌ كونيٌّ جبّارٌ، وقد وردت الأفعالُ الواردةُ في هذا المقطعِ على ذاتِ النَّمطِ كقولِه: ﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾، و﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾، و﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، كلّها تُصوّرُ هولَ القيامةِ لا من جهةِ الفاعلِ بل من جهةِ الأثرِ النّاشئ، وفي ذلك تناغمٌ بلاغيٌّ يوحِّدُ السّياقَ ويزيدُهُ رهبةً ووقعًا، والتَّعبيرُ بالمبنيِّ للمفعولِ في ﴿رُجَّتِ﴾ يُشعرُ أنَّ الرَّجَّ كان بقهرٍ إلهيٍّ، فالأرضُ لم تهتزّ باختيارِها بل أُجبرَت على ذلك، وكأنَّها تُساقُ إلى مصيرِها بقدرةٍ تقصمُ وتغلبُ، فكان التَّعبيرُ بالمبنيِّ للمفعولِ مفيدًا لتهويلِ الحدثِ وتعظيمِ أثرِهِ وصرفِ الذّهنِ عن ذِكرِ الفاعلِ ليرتكزَ التَّصويرُ على شدَّةِ الاهتزازِ وفداحةِ الاضطرابِ، مع ما يتضمَّنُهُ ذلك من دلالةٍ على القهرِ الإلهيِّ الَّذي لا يُردُّ، فيملأُ القلبَ خشيةً، والرّوحَ رهبةً.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾:

التّعريف في لفظ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ

(1) الخضري، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل: 1/ 167، والصّبان، حاشية الصبّان على شرح الأشمونيّ: 2/ 61.

﴿رَجًّا﴾، من قبيلِ التَّعبيرِ عن الكلّيِّ المعروفِ، لا عن فردٍ من أفرادِهِ، فالتَّعريفُ هنا؛ المقصودُ به الإشارةُ إلى الأرضِ المعهودةِ في ذهنِ المخاطَبِ[1]، وهيَ هذهِ الأرضُ الَّتي هو عليها ويَسكنُها ويَعرفُ معالمَها، فصارَ التَّعريفُ دالًّا على الشُّمولِ المكانيِّ دونَ الحاجةِ إلى مزيدِ تفصيلٍ، فالتَّعبيرُ بـ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ يُفيد أنَّ هذا الرَّجَّ سيشملُ كاملَ البسيطةِ، لا جهةً دونَ جهةٍ، ولا إقليمًا دونَ آخرَ، بل الاضطرابُ يعمُّ ظاهرَها وباطنَها، شرقَها وغربَها، يَتناولُ الجبالَ والأوديةَ، والمدنَ والبواديَ، فذلكَ هو الرَّجُّ الكونيُّ العامُّ.

الأرض المعهودةُ في الأذهان سيزول معهودها ويثبت عهدها

فائدة المفعول المطلق ﴿رَجًّا﴾:

أُكِّد فعل (الرّجّ) بالمصدر؛ للدَّلالة على تحقُّقه، وليتأتَّى التَّنوين المشعر بالتَّعظيم والتَّهويل[2]، وفائدةُ المفعولِ المُطلَقِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَجًّا﴾ أنَّه جاء على وجهِ التَّوكيدِ للفعلِ الَّذي قبلَهُ، وهو قولُهُ: ﴿رُجَّتِ﴾؛ لِزيادةِ تقريرِ الفعلِ في الذِّهنِ، وترسيخِ معناهُ في السّمعِ، وتضخيمِ الصّورةِ المتخيّلةِ لهُ، وهو ما يُعبَّرُ عنه في فنّ البلاغةِ بأنَّهُ من ضُروبِ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ المقصودِ به تعظيمُ الشَّأنِ، وتهويلُ الحدثِ.

تقرير فعل الرّجّ وترسيخ معناه في الذّهن

نوع عطف ﴿وَبُسَّتِ﴾ على السّابقة ودلالتها:

عُطِفَت جملة ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ على ما قبلها: ﴿رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ على وجهٍ من وجوهِ التّرتيبِ التَّصويريِّ والتّناسقِ البلاغيِّ، "وبسُّ الجبال؛ لأنَّه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع، ويرتفع ما هو منخفض"[3]. فذكرُ بَسِّ الجبالِ بعد رَجِّ الأرضِ يُمثّل امتدادًا تصاعديًّا في توصيفِ ما يقعُ من اضطرابٍ كونيٍّ عند قيامِ السّاعةِ، فكما أنَّ رَجَّ الأرضِ يُصوّرُ اضطرابَ الأساسِ الَّذي عليهِ يقفُ الخلقُ، فإنّ

الرّجُّ والبسّ يقعان في آنٍ، والتَّرتيب باعتبار عطف الجزء على الكلِّ

---

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 100.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.

بَسَّ الجبالِ يُمثّلُ تهديمَ أعظمِ ما يُرى من معالمِ الرُّسوخِ والثَّباتِ، فالجمعُ بينهما تصعيدٌ في مشهدِ الزّلزلةِ، والانتقالُ من اضطرابِ المسطَّحِ إلى تفتيتِ المكوّناتِ الكبرى.

وعطفُ الفعلِ ﴿وَبُسَّتِ﴾ مع الواوِ، لا على طريقِ التّرتيبِ الزّمنيِّ المحضِ، بل لِدلالةِ الاشتراكِ في وصفِ الهولِ؛ فالحدثان يقعان معًا في تتابعٍ سريعٍ لا يكادُ يُفصَلُ بينهما، فالعطف من ذكر الجزء بعد الكلِّ، وذلك من دلائلِ الأسلوبِ التَّصويريِّ السّريعِ الّذي يُريدُ أن يضعَ السّامعَ في قلبِ المشهدِ، فيرى الأرضَ تهتزُّ، والجبالَ تتناثرُ، فصارَ العطفُ هنا أداةً لتجسيمِ الرّعبِ، وتوسيعِ دائرةِ المشهديّةِ الكونيّةِ.

بلاغة استعمال مفردة (بُسَّت):

تصويرُ الجبالِ في حالةِ الفناءِ الغابرِ والغبارِ الفاني

البَسُّ يُطلق بمعنى التَّفتُّت وهو تفرّق الأجزاء المجموعة[1]، ومنه البسيسة من أسماء السّويق، أي: فُتِّتَت الجبالُ ونُسفت فيكون كقوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦﴾ [طه: 105 - 106]، وعَن مَعمَرٍ، عَن قَتادَةَ، قالَ: (نُسِفَت نَسفًا)[2]، ويطلق البسّ أيضًا على السَّوق للماشية، يقال: بَسّ الغنم، إذا ساقها. وفي الحديث: «فيأتي قوم يَبِسّون بأموالهم وأهليهم والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون»[3] فهو في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ [الكهف: 47]، وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [النّبأ: 20][4].

وقد ورَدَ استعمالُ الفعلِ (بُسَّت) في قَولِهِ تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ على نَحوٍ بَليغٍ يَدلُّ على عُمقِ الأثرِ وشِدَّةِ الفِعلِ، فإنّ الفعلَ (بَسَّ) في أصلِ معناهُ يَدلُّ على الفَتّ والدّقِّ والنَّثرِ الشّديدِ، فكانَ هو الأنسبَ في سياقِ تَصويرِ انهيارِ الجِبالِ وتفكّكِها، لا على وجه

(1) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 640.
(2) عبد الرّزاق الصّنعانيّ، تفسير عبد الرّزاق: 3/ 276.
(3) البخاري، صحيح البخاري، برقم: (1776) باختلاف يسير في لفظه.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 284.

الانهدامِ العاديِّ، بل على وجهٍ يُخرِجُها من حالِ الجرمِ الصّلبِ إلى حالِ الذَّرّةِ المُتناثِرَةِ. واختيارُ هذا الفعلِ دونَ غيرِهِ من الأفعالِ الّتي تُستعملُ في وصفِ الزّوالِ، كالهَدمِ أو التّسويةِ أو النّسفِ، لَهُ دلالتُهُ البيانيّةُ، إذ (البَسّ) أخصُّ من تلكَ الأفعالِ؛ لأنّهُ يَجمعُ بين الشِّدّةِ والتّذريةِ، ويُفيدُ أنَّ الجبالَ لم تُزَحزَح أو تُفَتّت فحسبُ، بل ذُرَّت كما يُذَرُّ الطَّحينُ، بل أبلغُ من ذلِكَ، فإنّ البَسَّ في عُرفِ العربِ يكونُ لما يُرادُ جعلهُ هَباءً أو غُبارًا، وهذا ما يُناسِبُ تمامًا مَآلَ الجبالِ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾.

فكانَ اختيارُ (بُسَّت) دونَ غيرِهِ من الأفعالِ نقلًا للمشهدِ من ظاهرِ التَّصويرِ إلى باطنِ الرّهبةِ، وجعلًا للجبالِ - وهي أشدُّ خلقِ اللّهِ في الأرضِ - كأنّها هشيمٌ تذروهُ الرّياحُ، وهذا من سِماتِ فصاحةِ القرآنِ حينَ يُصوّرُ بأوجزِ لفظٍ وأوسعِ مَشهدٍ.

فوائد التَّعبير بصيغة المبنيّ للمفعول:

تعظيم أهـوال القيامة وتوجيه الأنــظــار إلى المفعـول وبيان مقهوريّته

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ (بُسَّت) على صيغةِ المَبنيِّ للمفعولِ، لِغرضٍ بلاغيٍّ دقيقٍ وهو صرفُ الذّهنِ عن الفاعلِ، وتَركيزُ الانتباهِ على الحدثِ نفسِهِ، وهو هنا تفتيتُ الجبالِ وبَسُّها بَسًّا شديدًا، وفائدة ذلك التَّهويلُ والتّعظيمُ، فبناءُ الفعلِ للمفعول يُثيرُ في نفسِ السّامعِ رهبةً عظيمةً، لما فيهِ من إبهامِ المصدرِ وتضخيمِ الأثرِ، فكأنّ الجبالَ قد أصابها أمرٌ جَبّارٌ لا يُعرَفُ كنهُهُ، ولكنّ أثرَهُ ظاهرٌ في أعيُنِ النّاسِ، فصارَ هذا الإبهامُ مُثيرًا للذّعرِ، ومُعظِّمًا لِوقعِ المشهدِ في الأسماعِ والقلوبِ.

ومن فوائده توجيه الأنظار إلى المفعولِ لا الفاعلِ، إذ المقصودُ في هذا السّياقِ تصويرُ مآلِ الجبالِ، لا ذكرُ الفاعلِ الّذي يُباشرُ الفعلَ؛ لأنّ الفاعلَ في المقامِ معلومٌ بالبداهةِ، وهو قدرةُ اللّهِ تعالى الّتي تُجري هذه الأهوالَ، فلا حاجةَ إلى إظهارِه لفظًا، بل الأحسنُ بلاغةً

أن يُركِّزَ على تحوُّلِ الجبالِ، وأنّها بُسَّت بَسًّا يُزيلُ معالمَها ويجعلُها هباءً منبثًّا.

وكذلك بيان أنَّ هذا البناءَ يُفيدُ إجبارَ المفعولِ على ما أصابه، ففيه إيحاءٌ بأنّ الجبالَ لم تنفعل بذاتها، بل سُيّرَت إلى هذا المصيرِ عن قهرٍ، فهو قضاءٌ إلهيٌّ واقعٌ عليها لا تملكُ له دفعًا، كما هو حالُ كثيرٍ من مشاهدِ يوم القيامة، حيثُ الأشياءُ تسيرُ إلى مصيرِها وهي مُسخَّرةٌ لأمرِ اللّهِ، لا تملكُ حولًا ولا قوّةً.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾:

تعريف الجبال لتعيينها وبيان ما يُصيب ما دونها

عُرِّف لفظ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾؛ ليدلَّ على أنَّ المذكورَ جبالٌ معروفةٌ معيَّنةٌ في ذهنِ المخاطَبِ، وهي جبالُ الأرضِ الّتي يعهدُها النّاسُ في دنياهم، الجبالُ المشهودةُ الّتي طالما استُعظِمَت، وأُضفيَ عليها معنى الثّباتِ والرّسوخِ، واستغراق كلِّ أفراد الجنس(1)، فلا يشذّ جبل عن هذا الأمر، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ٧﴾ [النّبأ: 7]، فصارَ ذكرُها مُعرَّفةً توجيهًا للقارئِ إلى تصوّرٍ حَيٍّ لحقيقتها، وتذكيرًا بعظمةِ ما يُصيبُها من التّفكُّكِ والبَسِّ بعدَ طولِ استقرارِها.

نكتة جمع ﴿ٱلْجِبَالُ﴾:

استغراق جميع الجبال كبيرها وصغيرها المعروف والمجهول

جُمِع لفظُ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾؛ ليدلَّ على العموم والشّمولِ، أي: إنَّ جميعَ جبالِ الأرضِ - على اختلافِ أماكنِها وهيئاتِها -، ستكونُ محلًّا لهذا الانهيارِ الكونيِّ، فلا يُستثنى منها جبلٌ صغيرٌ أو كبيرٌ، ولا معروفٌ ولا خفيٌّ، فالجمعُ أبلغ في التّهويلِ من الإفرادِ؛ لأنَّهُ يُري المتلقّي أفواجًا من الجبالِ وهي تتحوّلُ إلى هباءٍ منبثٍّ، لا يُرى لها أثرٌ ولا يُبصَرُ منها بقايا. وهذا منسجم مع التَّعريف لغاية شمول جميع أفراد الجنس.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 100.

فائدة المفعول المطلق ﴿بَسًّا﴾:

تعظيم فعل البسّ وتكثيف المشهد

جاء المفعول المطلق ﴿بَسًّا﴾؛ لتوكيد الفعل وتقوية معناه، فتوكيد فعل (بُسَّت) بقوله: ﴿بَسًّا﴾ كالتَّوكيد في قوله: ﴿رَجًّا﴾ لإفادة التَّعظيم بالتَّنوين(1). إذ ليس المقصود مجرّدَ ذكر التَّفتيت، بل بيَّنت أنَّه تفتيتٌ تامٌّ عنيفٌ تتلاشى فيه الجبال من شدّته. فالتَّكرار بهذا المصدر يضرب بوقعه على السَّمع والنَّفس، فيجعل السّامع كأنّه يشهد الجبال وهي تُسحق سحقًا حتَّى لا يبقى لها من صلابة ولا هيبة، وكأنَّها ترابٌ تذروه الرّياح. فجاء ﴿بَسًّا﴾ توكيدًا يهزّ وجدان المتلقّي، لا ليصف مشهدًا فقط، بل ليُشعر به، ويُدخله في قلب الواقِعَة الَّتي تُبدّل الكون وتُذهل العقول. وهذا من دقائق البيان القرآنيِّ الَّذي لا يكتفي بالإخبار، بل يُدخل المعنى في كيان السّامع إدخالًا.

فجاءَ على وجهِ توكيدِ معنى الفعلِ وتقريرِه(2) في الذّهنِ تقريرًا يُجاري فخامةَ السّياقِ، فإنّ المقصودَ من ذكرِ ﴿بَسًّا﴾ بعدَ الفعلِ (بُسَّت) ليس مجرّدَ التَّكرارِ، بل التّوكيدُ والتّهويلُ والتّصويرُ، وذلكَ من دلائلِ الفصاحةِ في البيانِ القرآنيِّ، إذ يُؤتى بالمفعولِ المطلقِ ليُضفي على الفعلِ قوّةً في الإيقاعِ، وثباتًا في المعنى، وشدّةً في التّصوّرِ، وقد تقرَّر لدى النُّحاة أنّ المصدر المؤكِّد عوضٌ عن تكرار الفعل مرَّتين(3).

توجيه تخصيص الجبال بالذِّكر مع اشتمال الأرض عليها:

ذكر الجبال بعد الأرض تخصيصٌ للتّفصيل، وتعميقٌ للتّهويل

خُصَّت ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ بالذِّكرِ في هذا الموضعِ بعدَ أن شملَها مدلولُ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجًّا﴾، وذلكَ لِغرضٍ بلاغيٍّ دقيقٍ يجري على سَنَنِ الإطنابِ البيانيِّ في ذكرِ الخاصِّ بعد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 284.
(2) الخضري، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل: 1/ 186، والرضي، حاشية الرّضي على الكافية: 2/ 122.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 2/ 392.

العامِّ، الّذي يُقصدُ بِهِ تقريرُ المعنى في النُّفوسِ، وتثبيتُ صورتهِ في الخيالِ، فإنّ الجبالَ وإن كانت داخلةً في الأرضِ، إلّا أنّها لما لها من استقلالٍ في الصّورةِ والمعنى، ولِما يُنسَبُ إليها من الثَّباتِ والعظمةِ والرُّسوخِ، استحقّت أن تُذكَرَ على جهةِ التّخصيصِ والتّفصيلِ، لِما في ذكرِها من تهويلٍ للحدثِ، وتفخيم للانقلابِ الكونيِّ.

وهذا التَّخصيص في غاية الأهمِّيَّة فهو يرتبط بقضيَّة علميَّة وهي دور الأرض في تثبيت القشرة الأرضيَّة؛ لأنَّ الجبال هي الَّتي تمسك بالقشرة الأرضيَّة[1]. فليسَ تخصيصُ الجبالِ هنا من قبيلِ التَّأسيسِ لمعنًى زائدٍ فقط، بل هو أيضًا تصويرٌ لفاجعةٍ مخصوصةٍ، هي تفتيتُ الجبالِ وتذرّيها، وهي الَّتي كانت رمزًا للصّلابةِ ومثالًا في الاستقرارِ، ومسك الأرض؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النّحل: 15] وقوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾ [النّازعات: 32]، فكانَ ذكرُها بعدَ الأرضِ تنبيهًا على أنّ ما يقعُ ليس اهتزازًا فقط، بل تحوّلٌ تامٌّ لِبنيةِ أعظمِ ما على الأرضِ من معالِمها.

نوع الفاء ودلالتها:

تفريعُ نتيجةِ الــرَّجِّ والبـسِّ بالهباءِ المنبثِّ

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ أفادت ربط الجملة بالسّابق، والتَّفريع على ما قبلَها[2]، وتفريع قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ على (بُسَّتِ الجبالُ) لائق بمعْنَيي البسّ؛ لأنّ الجبال إذا سيّرت فإنّما تُسيّر تسييرًا يُفتّتها ويُفرِّقها أي: تسييرَ بَعثَرَة وارتطام[3]. فالمعنى: إذا رُجَّتِ الأرضُ رَجًّا، وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا، حينئذٍ وقعَ ما لا يُتوقّعُ، فكانتِ الجبالُ هباءً منبثًّا؛ فالفاءُ هنا ليست فاءَ التّعقيبِ الزّمانيِّ فحسب؛ بل هي أيضًا فاءُ تفريع بيانيٍّ تُفيدُ أنّ ما بعدها ناشئٌ عن مضمونِ ما قبلَها، فهي تربطُ بين المقدّماتِ

(1) المصلح، الاعجاز العلميّ في القرآن والسّنة، ص: 129.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 281.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.

الكونيّةِ العظيمةِ - من رَجٍّ وبَسٍّ - وبين النّتيجةِ المترتّبةِ، وهي تحوّلُ الجبالِ إلى هَباءٍ لا قِوامَ لهُ.

وهذا لا ينفي أن يكون استعمالُ الفاءِ دونَ غيرِها من أدواتِ الرّبطِ للدَّلالة على سرعةِ التّحوّلِ وفجائيّته، فالبَسّ ما إن وقعَ، حتّى صارتِ الجبالُ هباءً في الحالِ، لا انتظارَ ولا مُهلةَ، وفي ذلكَ تصويرٌ لمشهدِ الدّمارِ الكونيِّ كأنَّهُ لمحةٌ خاطفةٌ، تقعُ في طرْفةِ عينٍ، فتُصيبُ السّامعَ بالدّهشةِ والرّهبةِ.

انقلاب كينونة الأرض والجبال إلى الهباء المنبثّ

نُكتة استعمال (كانت):

جاءَ التَّعبيرُ بقولهِ تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ على وجهٍ فيهِ دقّةٌ بلاغيّةٌ، والمعنى أنّها تصير شيئًا كلا شيء؛ لتفرّق أجزائها وانبثاث جواهرها[1]. إذ اختيرَ الفعلُ (كانَت) دونَ أن يُقال: (فأصبحت) أو (فصارت)، مع أنّ المعنى يوحي بانقلابِ حالٍ، وتحوّلٍ من صورةٍ إلى أخرى، ووجهُ ذلكَ أنّ الفعلَ (كان) أوسعُ دلالةً، وأقلُّ زمنًا، وأبلغُ في الرَّبطِ بين الذّاتِ وصفتِها، بخلافِ (أصبح) و(صار)، فإنَّ فيهما معنى التّحوّلِ الظّاهرِ، أو الارتقاءِ أو النّقصِ بحسبِ السّياقِ، وهو هنا غيرُ مرادٍ.

فـ(كانَت) تدلُّ على تحقّقِ مضمونِ الخبرِ على وجهٍ مباشرٍ، من غيرِ نظرٍ إلى وسائطِ التّحوّلِ، فالمقصودُ أنَّ الجبالَ حينَ بُسَّت، لم تحتج إلى زمنٍ لتصيرَ هباءً، بل كانت هي الهباءَ عَينَهُ في الحالِ، فورَ وقوعِ الانفجارِ، من غيرِ تدرّجٍ ولا انتقالٍ، فيُقرِّرُ سبحانه حقيقتَها الجديدةَ بإيجازٍ يُقابلُ عِظَمَ المشهدِ، وسُرعةَ الفناءِ.

الهباء بيانُ مصير الجبال من الرُّسوخ إلى الانمحاق

بلاغة استعمال مفردة ﴿هَبَآءً﴾:

الهباء هو الّذي يَطيرُ مِنَ النّارِ، إذا اضطَرَمَت، يَطيرُ مِنهُ الشَّرَرُ، فإذا وقَعَ لَم يَكُن شَيئًا[2]، أو هو ما يلوحُ في خيوط شعاع الشَّمس من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 688.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 515.

دقيق الغبار[1]، وقد جيءَ في ختامِ هذا المقطعِ الكونيِّ المهيبِ قوله تعالى: ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾، فجاءتْ لفظةُ ﴿هَبَآءٗ﴾ في موقعٍ بليغٍ من النَّظم، لتُجسّدَ صورةً خَتَميّةً لانمحاقِ معالمِ الجبالِ الّتي طالما كانت رمزًا للرّسوخِ والعَظمةِ، فجاءَ التّعبيرُ بـ﴿هَبَآءٗ﴾، وهو أدقُّ ما يُتصوَّرُ من أجزاءِ المادّةِ، إذ هو ما يُرى في ضوءِ الشّمسِ من غبارٍ دقيقٍ مُتطايرٍ لا يدركُهُ بصرٌ، ولا يُحَسُّ لهُ وزنٌ.

فـ(الهَباءُ) أقصى ما يُمثَّلُ به الفَناءُ والانعدامُ، فكانَ اختيارُهُ في هذا الموضعِ غايةً في الإيجازِ الصّوريِّ، إذ جعلَ مصيرَ الجبالِ - مع ضخامتها - إلى ذرّاتٍ لا تدركها العينُ، ولا تحفَظُ لها كيانًا.

الهـبـاء المنبثُّ صورة الانمحاق الكلّيّ الشّامل

نكتة وصف ﴿هَبَآءٗ﴾ بصفة ﴿مُّنۢبَثّٗا﴾:

وُصِفَ ﴿هَبَآءٗ﴾ بقولِهِ تعالى: ﴿مُّنۢبَثّٗا﴾، فكانَت هذهِ الصّفةُ من تمامِ التّصويرِ البيانيِّ الّذي بُنِيَ عليهِ المشهدُ الكونيُّ، إذ ليسَ كلُّ هَباءٍ يُحدثُ الرّهبةَ، بل الّذي يُرى مُتناثرًا مُتفرّقًا مُنشقًّا في الفضاءِ، هو الّذي يُثيرُ في النّفسِ معنى التّلاشي والانمحاقِ، و"المنبَثُّ: اسم فاعل انبثَّ، مطاوع بثَّه، إذا فرّقه. واختير هذا المطاوع لمناسبته مع قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ في أنَّ المبنيَّ للنّائب معناه كالمطاوعة، وقوله: ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ تشبيه بليغ، أي: فكانت كالهباء المنبثِّ"[2].

وهذهِ الصّفةُ تُقرّرُ نهايةَ صورةِ الفَناءِ الّتي بلغَتها الجبالُ، فهي لم تُمحَ فحسب، بل تفرّقَت ذراتُها وانتثَرت في الأرجاءِ كما ينتشرُ الغُبارُ في الشّمسِ، فلا يُرى منهُ شيءٌ يجتمعُ، ولا يُمسَكُ لهُ أثرٌ، وهذا المعنى أبلغُ في بيانِ عَظمةِ الحدثِ من القولِ بأنَّها دُكّت أو سوّيت.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.

نوع الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ﴾ عاطفة على ﴿رُجَّتِ﴾، فهي انتقالٌ من شأنٍ إلى شأنٍ، ومن طَورٍ إلى طَورٍ، فكما انفرط عِقدُ الكون، وتبدَّدت أركانُه، كذلك سيُعاد نسجُ مصير الإنسان، ولكن لا بحسب موقعه في الدُّنيا، بل بحسب عمله فيها، فجاء قوله ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ليقسم النّاس قسمًا عدليًّا يعادل ذلك الانقسام الكونيَّ.

بعد تفتيت الأرض بجبالِها ينقسم النّاس أصنافًا للحساب

براعة الانتقال والتَّخلُّص إلى مقصود السّورة:

ينتقل السّياق نقلة محكمة محبكة في بنائها، في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، فبعد أن كان الحديث في عالم الأهوال والدّمار، يتحوَّل إلى عالم الحساب والجزاء، ويُدرج الإنسان فجأة لا كمشاهد، بل كمحكوم عليه، فالمخاطَب هنا هو كلُّ من يقرأ أو يسمع، وقد أحاط به السّياق من كلِّ جانب.

استدراجُ الأذهان إلى ساحة الحساب مباغتةٌ تُنادي على مَنْ رامَ الحقَّ وطلب الصِّدق

وهذا التَّحوُّل في الضَّمير، من الغَيبة في ﴿فَكَانَتْ﴾ إلى الخطاب في ﴿وَكُنتُمْ﴾، ليس تغيّرًا شكليًّا، بل هو مقصودٌ بلاغيٌّ يراد به إدخال الإنسان في قلب الموقف، وجرُّه من مقام التَّأمُّل إلى مقام التَّوجُّه والمساءلة، فهو تخلّص بلاغيٌّ بديع(1) حقَّق انتقالًا من تصويرٍ إلى تقرير، ومن تمهيدٍ إلى تفصيل.

فأرادت السّورة أن تبتدئ من المصير نفسه، أن تعرض النِّهاية ابتداءً، ليرتجف لها القلب، وتتشكَّل في الذِّهن صورة الحشر والجزاء من اللَّحظة الأولى، ولهذا كانت هذه الجملة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ هي المفصل الَّذي تُبنى عليه السّورة من بعد، فيُفصَّل فيه القول في أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسّابقين، أولَئِكَ المُقَرَّبونَ.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.

بلاغة ذكر (كنتم):

أفعال العبادِ في الدُّنيا ستكوِّن وجودَهم في الآخرة

استعمِلَ في التَّعبيرِ القُرآنيِّ قَولُهُ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ دون أن يُقالَ مثلًا: (وَبُعِثتُم أزواجًا ثلاثَةً) أو (وَصِرتُم بَعدَ البَعثِ أزواجًا ثلاثَةً). ويعودُ هذا الاختيارُ البَلاغيُّ المُتقَنُ إلَى قَصديَّةِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ ودِقَّتِهِ، إذ إنَّ (كُنتُم) أوسَعُ مِن حَيثُ الزَّمَنِ مِن (بُعِثتُم)؛ فالفِعلُ (بُعِثتُم) يَختَصُّ بلَحظَةِ البَعثِ فحَسب، أمّا (كُنتُم)، بمَعنَى قُسِّمتُم بما كانَ في جِبِلّاتِكُم وطِباعِكُم في الدُّنيا[1]. وهوَ مِن أفعالِ الكَونِ النّاقِصَة، فيَحمِلُ دَلالَةً وُجوديَّةً تُشيرُ إلَى حالَةٍ استِمراريَّةٍ وثَباتٍ. أي إنَّكُم على هَذا التَّصنيفِ - ثَلاثَة أصناف - كُنتُم عَلَيهِ دائمًا وثَبَتُّم عَلَيهِ، فصارَ حالُكُم في الآخِرَةِ نَتيجَةً لِما عِشتُم عَلَيهِ في الدُّنيا؛ فالكينونة تُشير إلى سلوكٍ معتادٍ في الدُّنيا؛ فالتَّقسيمُ لَيسَ وليدَ اللَّحظَةِ، بَل هوَ مُتَرَتِّبٌ على حَقيقَةٍ وُجوديَّةٍ كُنتُم عَلَيها.

فائدةُ الخطاب في قوله: (كنتم):

إيقاظ المخاطَبين من غفلتهم وتحريك هواجس النَّفس من سهوها

الخطابُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ للبشرِ عمومًا، وتَتَجَلّى بَلاغَةُ الخِطابِ في العُدولِ عنِ الغَيبَةِ إلى المواجَهَة. فبَعدَ أن كانَتِ الآياتُ تَصِفُ مَشاهِدَ القيامَةِ بصيغَةِ الغائِبِ - كما في قَولِهِ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ - جاءَ هذا التَّحوُّلُ المُفاجِئُ في الأُسلوبِ بقَولِهِ: ﴿وَكُنتُمْ﴾ مُخاطِبًا السّامِعينَ مُباشَرَةً، لإشراكِهِم شُعوريًّا ووجدانيًّا في المَوقِفِ العَظيم. وهذا الانتِقالُ البَلاغيُّ يُعَدُّ مِن أساليبِ التَّحفيزِ، الَّتي تَقطَعُ الحاجِزَ بَينَ السّامِعِ والحَدَثِ، فيَغدو المَشهَدُ الأُخرَويُّ أمامَهُ مواجَهَةً لا حِكايَةً.

فَإيرادُ الضَّميرِ بصيغَةِ الخِطابِ فيهِ استدعاءٌ نَفسيٌّ لإحساسِ المتلقّي بأنَّهُ معنيٌّ بنفسِهِ، لا بمن هم غائبون عنه. وهذا أبلَغُ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 403.

التّـأثيرِ والتَّحذيرِ؛ لأنَّهُ يستنفرُ الشّعورَ الذّاتيَّ، فيُخرجُ الآيةَ من دائرةِ الوصفِ إلى دائرةِ المشاركةِ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

الإيمـاء إلى تشابه صفات الصِّنف الواحد في الإيمان والسُّلوك

قَولُهُ تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: أشكالًا وأشباهًا وأصنافًا؛ فالنُّكتَةُ البَلاغيَّةُ في اختيارِ لَفظِ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ دونَ رَديفاتِها كـ(أصناف أو (أنواع)، تَكمُنُ في دِقَّةِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ الَّذي لا يُقَدَّمُ فيهِ اللَّفظُ إلّا لِمُلاءَمَتِهِ التّامَّةِ للسّياقِ والمَعنَى المَقصود؛ فلَفظُ (الزَّوج) في أصلِ مَعناهُ اللُّغَويِّ لا يُرادُ به المُفرَدُ وحَسب، بَل يَدُلُّ على الاقتِرانِ بَينَ شَيئَينِ مُتَماثِلَينِ أو مُتَكامِلَين، فالأزواج تُطلق على "الأصنافِ الَّتي بَعضُها مَعَ بَعضٍ أو يُذكَرُ بَعضُها مَعَ بَعضٍ"[1]. وبِهذا يَتَجاوَزُ المَفهومُ العَدَديُّ إلى المَعنَى النَّوعيِّ، فـ "الأزواجُ: هيَ الأصنافُ. ووَجهُ ذلِكَ أنَّ الصِّنفَ إذا ذُكِرَ يُذكَرُ مَعَهُ نَظيرُهُ غالبًا فيَكونُ زَوجًا"[2].

فجاءَ اختيارُ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾ بَدَلًا مِن (أصنافًا) أو (أنواعًا) لِيُعَبِّرَ لا عن مُجَرَّدِ التَّقسيمِ العَدَديِّ، بَل عن حالَةٍ وُجوديَّةٍ مُتَجانِسَةٍ داخِلَ كُلِّ فريقٍ. فكُلُّ مَجموعَةٍ من هذهِ (الأزواج) تَضُمُّ أفرادًا قَد تَشابَهوا في الإيمانِ أوِ الكُفرِ، في العَمَلِ أوِ الجُحودِ، فكانوا أشباهًا بَعضُهُم لِبَعضٍ، وصاروا كَأَنَّهُم أزواجٌ في الصُّحبَةِ والمَآلِ. وهَذا يُؤَكِّدُ المَعنَى النَّبَويَّ: «المَرءُ مَعَ مَن أحَبَّ»[3]، ويُؤَصِّلُ القاعِدَةَ الأُخرَوِيَّةَ: (يُحشَرُ المَرءُ مَعَ مَن أحَبَّ)، كما قال تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢﴾ [الصّافات: 22].

دلالة العدد ﴿ثَلَٰثَةٗ﴾:

دفع الاحتمالات المتوهّمة وتوطئة للبيان القادم

تتجلَّى دلالَةُ اختيارِ العَدَدِ ﴿ثَلَٰثَةٗ﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.
(3) البخاري، صحيح البخاري، برقم: (5816)، ومسلم، صحيح مسلم، رقم: (2641).

﴿ثَلَاثَةَ﴾ في إحكامِ النَّسَقِ البَلاغيِّ والدّلاليِّ الّذي أرادَهُ السّياقُ، وجاءَ بِه القُرآنُ في تَمامِ اتِّساقِهِ وإعجازِهِ. فلَيسَ في التَّعبيرِ القُرآنيِّ عَشوائيَّةُ لَفظٍ، ولا مُجازَفَةٌ مُجازَفَةٌ في العَدَدِ؛ بَل هوَ عَدَدٌ جاءَ مَبنيًّا على حِكمَةٍ بَيانيَّةٍ وسياقيَّةٍ، تُغني عَنِ الإطنابِ وتَدُلُّ على التَّحديدِ المُحكَمِ.

فَلَو قيلَ: (أزواجًا مُختَلِفينَ) أو (أصنافًا مُتَفَرِّقينَ)، لَأفادَ ذَلِكَ مُجَرَّدَ التَّبايُنِ أوِ التَّعَدُّدِ، مِن غَيرِ بَيانٍ لِلحَصرِ ولا دلالَةٍ على التَّرتيبِ. أمّا قَولُهُ ﴿ثَلَاثَةَ﴾، فلَيسَ هوَ عَدَدًا حِسابيًّا مَحضًا، بَل هوَ عَدَدٌ يَحمِلُ في طَيِّهِ قيمَةً تَمييزيَّةً ووَعظيَّةً؛ إذ بِه يُبَيِّنُ أنَّ البَشَرَ يُقَسَّمونَ يَومَ القيامَةِ إلى ثَلاثِ طَوائِفَ لا رابِعَ لَها، وكُلُّ طائِفَةٍ تُمَثِّلُ مَنزِلَةً مَخصوصَةً في سُلَّمِ الجَزاءِ، فيَحصُلُ مِن ذلِكَ التَّمايُزُ البَيِّنُ، والتَّدَرُّجُ في المَصيرِ، والتَّفاوُتُ في المَنزِلَةِ.

وَفي العَدِّ إلى ثَلاثَةٍ بَلاغَةٌ مُحكَمَة؛ لِأنَّهُ عَدَدٌ مَحصورٌ، يُلغي التَّصَوُّراتِ المَفتوحَةَ والاحتِمالاتِ المُتَشَعِّبَةَ. فلَيسَ النّاسُ على دَرَجاتٍ لا تُحصى، ولا على تَنَوُّعٍ يُربِكُ الفَهمَ، بَل على ثَلاثِ مَراتِبَ واضِحَةٍ: أصحابُ المَيمَنَةِ، أصحابُ المَشأمَةِ، والسّابِقونَ المُقَرَّبونَ. وبِهَذا يَنغَلِقُ بابُ التَّأويلِ والتَّشكيكِ، ويَنفَتِحُ بابُ التَّفَكُّرِ والمُحاسَبَةِ: إلى أيِّ طائِفَةٍ سَيَنتَمي السّامِعُ؟.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

البسُّ والتَّفريق:

الفَرقُ المُعجَميُّ بَينَ البَسِّ والتَّفريقِ قائِمٌ على دَرَجَةِ التَّحَوُّلِ في البِنيَةِ، وشِدَّةِ الانفِصالِ أوِ التَّفَتُّتِ بَينَ الأجزاءِ: البَسُّ في اللُّغَةِ هوَ الدَّقُّ والفَتُّ والتَّفتيتُ الشَّديدُ المَصحوبُ بالخَلطِ والامتِزاجِ، حَتَّى يَصيرَ الشَّيءُ إلى أجزاءٍ ناعِمَةٍ لا يَتَميَّزُ بَعضُها عَن بَعضٍ. تَقولُ العَرَبُ: بُسَّ الطَّعامُ إذا دُقَّ وخُلِطَ ومُزِجَ، حَتَّى صارَ كالدَّقيقِ المُندَمِجِ، ففُقِدَ فيهِ التَّمايُزُ.

أمّا التَّفريقُ، فهوَ فصلُ الأجزاءِ عَن بَعضِها، دونَ أن يُشتَرَطَ فيهِ التَّفَتُّتُ أوِ الامتِزاجُ. بَل قَد تَبقَى الأجزاءُ مُتَمايِزَةً، وقَد تَبقى على حالَتِها الصُّلبَةِ، لَكِنَّها تُفَرَّقُ وتُبعَدُ عَن بَعضِها. والتَّفريقُ لا يَقتَضي التَّحَوُّلَ في البِنيَةِ، وإنَّما هوَ تَغييرٌ في الوَضعِ والمَوقِعِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 149 - 150.

التّفريق تفكيك الأجزاء والبسّ تفتيتها بعد تفريقها

وَفي ضَوءِ هذا الفارِقِ الدَّقيق، يَظهَرُ الإعجازُ في قَولِه تَعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ فقَد جاءَ اختيارُ (بُسَّت) دونَ (فُرِّقَت) أو (قُطِّعَت)؛ لأنَّ البَسَّ يُفيدُ أنَّ الجِبالَ لَم تُفرَّق فقط، بَل تَفَتَّتت، وتَحَوَّلَت إلى ذَرّاتٍ مَسحوقَةٍ مُختَلِطَة، لا كيانَ لَها، ولا تَمايُزَ بَينَها. وهذا ما يَتَناسَقُ تَمامًا مَعَ قَولِه بَعدَ ذلِكَ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، أي صارت غُبارًا دَقيقًا مُنتَشِرًا في الهَواءِ، لا يُمسَكُ، ولا يُجمَعُ، ولا يُرَى إلّا في ضَوءِ الشُّعاعِ.

البثُّ والانتشار:

البـثُّ تفريق عشوائيٌّ عنيف، والانتشار يُلحظ فيه التَّوازنُ والتَّسلسل

البثّ هو التّفريق والنّشر مع بعثرة، وكلّ شَيء فرَّقته فقد بثثته[1]. ويُستعمل غالبًا في التّوزيع غير المنتظم، الَّذي يحمل دلالة العشوائيّة، والضّياع، والتّفرّق بلا نظام. إذ يوحي البثُّ بالتّشتيت والتّفتيت الكامل، وهو أقرب إلى ما يُرى عند نثر الرّماد أو الغبار في مهبّ الرّيح. وفي هذا انعدام للتّماسك أو التّجانس.

في القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، يصف هذا النَّوعَ من التّفكّك؛ حيث تصير الجبال هباءً، ثمّ لا تظلّ على حالها، بل تُبَثّ، أي تُذَرّى وتُبعثر في كلّ اتِّجاه. فالبثّ هنا أكمل في تفتيت الكيان من مجرَّد الذّوبان أو الانتشار.

أمّا الانتشارُ فهوَ الامتدادُ والانتسابُ في المكانِ، وغالبًا ما يكونُ مُنتظمًا أو سلسًا، ولَهُ طبيعةٌ هادئةٌ نِسبيّة. والنَّشر: الرّيحُ الطَّيّبة، وفي حديثِ معاوية أنه خرج ونَشرُهُ أمامَه، يعني ريحَ المسك[2].

وحينَ يكونُ التَّوزيعُ واسعًا بتوازنٍ، كما يُقالُ عن الضَّوءِ أو الرَّوائح. في التَّصويرِ: الانتشارُ يوحي بالبَسطِ أو التَّمدُّدِ، لا التَّفَكُّكِ ولا التَّذَرّيَةِ الكاملةِ؛ فلم يقل: (مُنتشرًا) في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ

(1) الخليل، العين: (بثث)، وابن الجوزي، غريب الحديث: 2/ 407.
(2) الخليل، العين: (نشر).

﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، مع أنّ الهباءَ قد ينتشرُ، لكنّهُ أرادَ تصويرَ لحظةِ الانفجارِ الكاملِ للعالَم، والتَّفتُّتِ الكونيِّ غيرِ القابلِ للجمعِ أو الإدراكِ. فكلمةُ ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ تُصوِّرُ الهباءَ في لحظةِ تَفَكُّكِهِ وذَهابِهِ يَمنَةً ويَسرَةً، لا يَستَقِرّ، لا يُجمَع، لا يُشاهدُ بصورةٍ واحدةٍ، على وجهٍ فيهِ قدرٌ من الانتظامِ أو التَّوازنِ، وهو ما لا يليقُ بمشهدِ الانهيارِ الكاملِ ليومِ القيامةِ في المقابلِ، لو قيلَ: (مُنتشرًا) لَفُهِمَ المعنى.

﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ
مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾ [الوَاقِعَة: 8 - 12]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من إجمال الموقف الكونيّ إلى التَّفصيل في بيان أحوال المبعوثين

المناسبة بين هذه الآيات وبين ما قبلها تظهر في نظام قرآنيٍّ بالغ الدِّقَّة، يُراعي في ترتيبه النَّفسيِّ والبيانيِّ حال السّامع وسياق الموقف. فبعد أن صوّر مشهد الهول الكونيِّ العظيم، رجّ الأرض، وبسّ الجبال، وتحوّلها إلى هباء منبثٍّ، ثمَّ أُتبِع بقوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾، جاء هذا التَّقسيم الإجماليُّ للنّاس في مصيرهم الأخرويِّ. وهنا جاءت الآيات: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لتُعيّن أولئك الأزواج الثَّلاثة، الَّذين جُعلوا محورًا للسّورة من أوَّلها، إذ هم المقصود النِّهائيُّ من التَّذكير والتَّهويل السّابق.. فناسب بعد الإجمال أن يُبيَّن على وجه الإيجاز أوَّلًا: من هم هؤلاء الأصناف الثَّلاثة؟ إذ ذكرهم على ترتيب يراعي التَّدرُّج من جهة المنزلة لا من جهة الذِّكر الزَّمنيِّ: بدأ بأصحاب اليمين، وهم أصحاب السَّلامة والنَّجاة، ثمَّ بأصحاب الشِّمال، وهم أهل الهلاك، ثمَّ ختم بالسّابقين، وهم أهل الفضل والقرب، فجاء ذكرهم متأخِّرًا لفظًا، وإن كانوا أعلى رتبةً.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾: جذر الكلمة هو (يمن)؛ يُمِنَ الرّجلُ فهو ميمونٌ. والمُيَمَّنُ: الَّذي أتى باليُمنِ والبَرَكة[1]، ولفظةُ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ الواردةُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، من اليمين،

(1) الخليل، العين: (يمن).

ويُقال: أصحاب الميمنة: الَّذين يُعطَون كتبهم بأيمانهم. فاليمن كأنَّه ما جاء عن اليمين[1]، ويدلُّ أصلها "على البَرَكَةِ والفضل، والميمَنَةُ من اليُمنِ، وهي البَرَكةُ، وقد تكونُ من جِهَةِ اليمين".

فلفظ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لا يقتصر على الجهةِ، إذ دلّت على مَقامِ أهلِ السَّعادةِ والفلاح، ممّن أيمَنُهم في الدُّنيا عملٌ، وفي الآخرةِ كتابٌ يُؤتَونَهُ بأيمانِهم، ووراءَ ذلك نَجاةٌ وسَكينة.

2) ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾: جذر الكلمة: (شأم)؛ والشّين والهمزة والميم أصل واحد يدلُّ على الجانب اليسار[2]. من ذلك المشأمة، وهي الميسرة والشُّؤمُ ضدُّ اليمن يقال: رجل مَشومٌ ومَشؤومٌ[3]. وأصحاب المشأمة: الَّذين يُعطون كتبَهم بشَمائلهم. والعرب يُسمّون اليد اليسرى: الشّؤمى، والجانب الأيسر: الأشأم، والشّؤم: ما جاء عن الشّمال[4]. وشأم قومه، شأم على قومه: جرَّ عليهم الشُّؤم، أي النَّحس، وفي المثل: (أشأم من غراب)[5]. فجاء هذا اللَّفظ دالًّا على فئةٍ مقابِلةٍ لأصحاب الميمنة، لا في الجهة فحسب، بل في الحال والمآل. فالكلمة وإن حملت في ظاهرها دلالةً مكانيَّة، إذ تشير إلى جهة الشِّمال، فإنَّها في أصلها ومعناها المقصود في الآية الكريمة تشير إلى المعنى القيَميِّ لا المكانيِّ، أي إلى من تلبّس بالشَّقاء وساءتْ عاقبتُه، فجُعل في جهةٍ تُقابل أصحاب البركة واليُمن، وهي جهة الشُّؤم والهلاك.

3) ﴿ٱلسَّـٰبِقُونَ﴾: (سبق) أصل واحد صحيح يدلُّ على التَّقديم[6]. ومعنى ﴿ٱلسَّـٰبِقُونَ﴾ المتقدِّمون، ومنه السَّبق في الفضل والشَّرف، سبقه يسبقه سبقا: تقدَّمه[7]. وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «السُّبّاقُ أَرْبَعَةٌ: أنا سابِقُ العَرَبِ، وسَلْمانُ سابِقُ الفُرْسِ، وبِلالٌ سابِقُ الحَبَشَةِ، وصُهَيْبٌ سابِقُ الرّومِ»[8].

(1) ابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 483.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شأم).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (شأم).
(4) ابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 483.
(5) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المُعاصرة: 2/ 1153.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبق).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سبق).
(8) الحاكم، المستدرك على الصّحيحين، رقم الحديث: (5243).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المعنى الإجماليُّ لهذهِ الآياتِ الكريمةِ من سورةِ الواقِعَة، هو بيانُ ما آلَ إليهِ النّاسُ بعدَ وقوعِ الواقِعَة العُظمى، حينَ انقسموا بحسبِ أعمالِهم ومنازِلِهم في مراتبِ القُربِ أو البُعدِ من الرّحمةِ الإلهيّة، إلى أصنافٍ ثلاثةٍ لا رابعَ لها، وقد ابتدأ هذا البيانُ بذِكرِ أصحابِ المَيمَنَةِ، وهم الّذين أوتوا كُتُبَهم بأيمانِهم، وفي ذلك تعجيبٌ من شأنهم، كقولك: ما زيد، ومثله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقّة: 1 - 2][1]؛ إشارةً إلى فوزِهم بالنَّجاةِ والسّلامةِ، ثمّ عَطَفَ بذكرِ أصحابِ المشأمَةِ، وهم أهلُ الشّقاءِ الّذين أوتوا كُتُبَهم بشمالِهم، دلالةً على وقوعِهم في العذابِ، وقوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ تعظيمٌ لهول مصيرهم، و"أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة: أصحاب اليُمن والشُّؤم؛ لأنّ السُّعداء ميامينُ على أنفسهم بطاعتهم، والأشقياء مشائيمُ عليها بمعصيتهم. وقيل: يؤخذ بأهل الجنَّة ذات اليمين وبأهل النّار ذات الشِّمال"[2].

بيـان أحـوال النّـاس ومصائرهم يوم القيامة

ثمّ أُتبِعَ ذلكَ بذكرِ السّابقينَ، وهم النُّخبةُ من أهلِ الفضلِ والتّقوى، الّذينَ لم يَكتفوا بالنَّجاةِ فحسبُ، بل تسابقوا إلى الطّاعاتِ والخيراتِ، فكانوا الأسبقَ إلى مرضاةِ اللّهِ، والمُقدَّمينَ في مراتبِ الجنّةِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، أي الّذين نالوا أعلى درجاتِ القُربِ من المولى جَلَّ وَعَلَا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها الارتباطيّة:

تفريع البيانِ التّفصيليّ على الإجمال طريقٌ موصلٌ إلى إقناعِ المخاطَبين

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ هي فاءُ التَّفريعِ، لا فاءُ العطفِ المجرَّدِ، ودَلالتُها دَلالةٌ ارتباطيّةٌ دَقيقةٌ،

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 231.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.

فإنَّها تُفيدُ أنّ ما بعدها ناشئٌ عن مضمونِ ما قبلَها، فهيَ تُفَرِّعُ الكلامَ على التَّمهيدِ الَّذي تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾، وهي "تدلُّ على التّفسير، وبيان ما ورد على التَّقسيم؛ فكأنَّهُ قيل: لمّا تقرَّرَ أنَّكم أزواجٌ ثلاثةٌ، أي: فئاتٌ ثلاثٌ مُتميِّزةٌ، صارَ من تمام البيانِ أن نُفَصِّلَ هذه الأزواجَ"[1]. فجاءَتِ الفاءُ لِتفريعِ هذا التَّفصيلِ على ذِكرِ الأَصلِ المجمَلِ. ووجهُ البلاغةِ في هذا التَّفريعِ أنَّهُ يُشعرُ بترتيبٍ منطقيٍّ في عرضِ المواقفِ: إجمالٌ ثمَّ تفصيلٌ، تَهيئةٌ ثمَّ بيان، كما أنَّ فيهِ ربطًا عضويًّا بينَ تقسيمِ النّاسِ وبيانِ مصيرِ كلِّ فريقٍ منهم، وهو أسلوبٌ من أساليبِ الإقناعِ المؤثِّرِ.

وتحتمل أن تكون الفاء لربط الجزاء مع التَّفصيل للإجمال، وتكون جملة ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ جوابًا لـ ﴿إِذَا﴾ الثّانية آيلًا إلى كونه جوابًا لـ ﴿إِذَا﴾ الأولى؛ لأنّ الثّانية مبدلة منها، ولذلك جاز أن يكون هذا هو جواب ﴿إِذَا﴾ الأولى فتكون الفاء مستعملة في معنييها كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[2]. فالفاءُ حينئذٍ تَربطُ ما بعدها رَبطَ النَّتيجةِ بالسَّببِ، وتُفيدُ التَّرتيبَ الذِّهنيَّ، لا الزَّمانيَّ؛ لأنَّ المذكورَ بَعدَها ليسَ واقعًا بعدَ ما قبلَها في الزَّمنِ، بل هو بَيانٌ ناشئٌ عن تقريرِ ما سبقَ.

نكتة استعمال مفردة (أصحاب):

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة (أصحابُ) دونَ (أهل)، لما تقتضيه من دلالةٍ خاصّةٍ تَقتضي التّلبُّسَ بالشّيءِ، والمُلابَسَةَ لَهُ مُلابَسَةَ الالتِصاقِ والرّبطِ، ومن ثَمَّ فإنَّ وصفَ القَومِ بـ (أصحابِ المَيمَنَةِ) و(أصحابِ المَشأمَةِ) يُفيدُ أنّهُم مُتّصِلونَ بتِلكَ الجِهَةِ وصِنفِها، متَلبِّسونَ بها، مُقترِنونَ بمصيرِها اقترانًا ثابتًا.

وأمّا لَفظُ (أهل) فهوَ، وإن دلَّ على النِّسبَةِ والانتماءِ، فإنَّهُ لا يُفيدُ دَلالَةَ اللّزومِ والالتصاقِ النّفسيِّ، كما في (أصحاب)، الّتي تُشعِرُ بأكثرَ من مجرّدِ الانتماءِ، وإنّما تُفيدُ الملازمةَ في الحالِ، والاندماجَ في الصِّفةِ، وكأنَّ المَيمَنَةَ أو المَشأمَةَ صارت وصفًا لازمًا لهم، كما يُقالُ: أصحبُ السّفينَةِ، وأصحبُ الكَهفِ، وأصحبُ النّارِ.

وفي هذا الاستعمالِ إيماءٌ إلى التّهيئةِ النّفسيّةِ لِلمآلِ، فمَن كانَ من أصحبِ المَيمَنَةِ،

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 387.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 285.

الصُّحبةُ تدلُّ على اللُّزومِ وتمامِ الارتباطِ بما يومئ إلى المآلِ القطعيِّ

فهوَ مُهيَّأٌ لِلنّجاةِ، ومَن كانَ مِن أصحبِ المَشأمَةِ، فقَد لَزِمَهُ وصفُ الشّقاءِ، وتَحقّقَ عليهِ الحُكمُ.

دلالة إضافة ﴿فَأَصۡحَٰبُ﴾ للفظ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾:

اختصاصُ أهلِ الجنّةِ بميمنةِ الخيرِ والسَّعادة

الإضافَةُ في قَولِه تَعالَى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ للتَّخصيص والتَّشريف، فدَلَّت الإضافَةُ على أنَّهُم صاروا مُتَمَيِّزينَ بهَذِهِ الصِّفَة، وهيَ صِفَةُ المَيمَنَة، وهيَ نابِعَةٌ مِنَ اليُمنِ والبَرَكَةِ والخَيرِ، فأضحَت جِهَةُ اليَمينِ هويَّةً لَهُم، واسمًا عَلَيهِم لا يُفارِقُهُم، ولا يُشارِكُهُم فيهِ غَيرُهُم؛ فإضافَةُ (أصحابِ) إلَى ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ تُفيدُ أنَّهُم أهلُ هَذِهِ الجِهَةِ، المُقتَرِنَةِ باليُمنِ، في مُقابِلِ أصحابِ المَشأمَةِ؛ أي أهلِ الشَّقاوَةِ والضَّنك.

بلاغة الكناية في لفظ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ وشيوع استعمالها:

بلاغة الكناية في تعبير القرآن عن السَّعادة الأبديَّة

اليمين جهة عناية وكرامة في العرف، واشتقَّت من اليمن، أي البركة[1]. وفي تعبيره تعالى عن فريق السُّعداء بلفظ: أصحاب الميمنة تجلٍّ لبلاغة الكناية، إذ استُعملت ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ في مقام السُّرور والبركة والنَّجاح، وذلك أنَّ اليمين في العرف مجلى اليُمن وموضع الكرامة، وممّا يُؤيِّد هذا الفهم قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقّة: 19]. فاستعمال ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ كناية بليغة عن الفريق الَّذي نال البِّرَّ والفوز، وقد غلب في لسان العرب إطلاق (اليمين) في مقام الخير، فجاءت ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لتكون أبلغَ في الكناية، وأدقَّ في الإيهام، لما فيها من إثارة الرَّغبة والإجلال.

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾:

أصحاب الميمنة هويَّة لغويَّة مشعَّة بالبركة في النَّسق القرآنيِّ

آثر النَّظم الكريم استعمال صيغة: ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ دون: (اليمين)، وذلك لنكتة بلاغيَّة رقيقة المسلك، بعيدة الغور؛ فإنَّ الميمنة أشدُّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 285.

إيحاءً باليُمن والبركة والسُّرور من اليمين؛ لأنَّها صيغة تفيد المكان أو الجهة المتَّصفة بصفة اليُمن، وذلك كقولهم: مجلس الميمنة، أي المجلس الَّذي فيه الخير والتَّياسير.

وهذه الصّيغة تنفذ إلى خيال السّامع فتصوّر له حالًا ممتلئًا بالسُّرور والرَّواح، فتفيد معنًى زائدًا على مجرَّد الاتِّجاه إلى اليمين، كما أنَّ في الميمنة إشارةً إلى أنَّ أهلها في جانب الرِّضا والقبول، كما تقابلها المشأمة في جانب الرّدِّ والشَّقاوة.

غرض الاستفهام وبلاغته:

إثارةُ الوجدانِ، وتنبيهُ الأذهانِ إلى عِظَمِ منزلة أهل الإيمان

إنَّ ورودَ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ليسَ لمجرَّدِ الاستفهامِ عنِ الذّاتِ، وإنّما هو استفهامٌ خرجَ عن أصلِه إلى معنى التَّعظيم والتَّفخيم[1]، "والمعنى: أيُّ شيءٍ هُمۡ؟"[2]. وهو ممّا تُنبِئُ عنهُ الأساليبُ العربيّةُ الرَّفيعةُ، إذ يُؤتَى بالاستفهامِ لا لطلبِ جوابٍ، وإنّما لتفخيمِ المسؤولِ عنهُ، وتفريغِ الذِّهنِ لتلقّي شأنٍ عظيمٍ يُشارُ إليهِ بعدَ هذا السُّؤالِ المهيِّئ له. ومثلُه ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقّة: 1 - 2] ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة: 1 - 2] ولا يكون ذلك إلّا في مواضعِ التَّعظيم[3]. فـ "استغني هنا عن الإخبار عن كلا الفريقين بخبر فيه وصف بعض حاليهما بذكر ما هو إجمال لحاليهما ممّا يشعر به ما أضيف إليه أصحابه من لفظي الميمنة والمشأمة بطريقة الاستفهام المستعمل في التَّعجيب من حال الفريقين في السَّعادة والشَّقاوة، وهو تعجيبٌ تُركَ على إبهامه هنا لتذهب نفس السّامع كلَّ مذهبٍ ممكن من الخير والشَّرِّ، فـ ﴿مَآ﴾ في الموضعين اسم استفهام"[4].

---

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 445.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 404.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 194.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 286.

فالمقصودُ بهذا الاستفهام إثارةُ الوجدانِ، وتنبيهُ الأذهانِ إلى عِظَم المنزلةِ الَّتي حازها أولئكَ المذكورونَ، حتَّى لكأنَّ حالَهم يُثيرُ التَّساؤلَ تعجّبًا وتمجيدًا، فيُقالُ: من هم هؤلاءِ الَّذينَ حازوا هذا الشَّرفَ؟ وما أعجبَ أمرَهم؟ وما أكرمَ جزاءَهم؟ فكأنَّما السّائلُ يتوقُ إلى أن يُخبَرَ بما يجلّي كرامتَهم.

نكتة إظهار ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾:

تعظيم شأنِ أهل اليمين وبيان فخامةِ حالهم

آثر النّظم الكريم إظهارَ الاسم دون إضماره في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، بدل أن يُقالَ: (ما هُم) أو (ما هي)؛ لأنَّ مقام التّعجيب والتّشهير يقتضي الإظهار[1]؛ وهذا من فُنونِ البَلاغةِ البديعةِ الّتي يُقصَدُ بها تعظيمُ الشَّأنِ، وتوكيدُ المعنى، وتقريرُ الصّورةِ في الذّهنِ، إذِ الإظهارُ يُكرّرُ اللفظَ الّذي فيهِ مقامُ الفَخارِ أو الهَولِ، فيبعثُ على تدبّره وإعادةِ النّظرِ فيه.

فالمقامُ هنا مقامُ تمييزٍ بينَ الأصنافِ، والوقوفِ على حقيقةِ كلِّ فريقٍ، فجاءَ الإظهارُ في موضعِ الإضمارِ لإثباتِ المسمّى وتكبيرِ شأنِه، فالحديثُ ليسَ عن مجهولينَ، وإنّما عن أصحابٍ معلومينَ مذكورينَ بأوصافٍ توجبُ التَّأمُّلَ والتَّفكُّرَ في منزلتِهم.

وقد جاءَ مثلُ هذا في مواضعَ منَ القرآنِ الكريم، كقولِه تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة: 1 - 2]، وكقولِه: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقة: 1 - 2]، فالتَّكرارُ مع الإظهارِ يُؤكّدُ العبرةَ، ويُثيرُ في السّامعِ شدّةَ التَّوقُّفِ والتَّأمُّلِ، فكأنّما يُقالُ: إنّ هؤلاءِ أصحابَ الميمنة قد بلغوا منَ الشّرفِ ما يَجعلُ تكرارَ ذِكرِهم، وإبرازَ اسمِهم، أوقعَ في النّفسِ وأبلغَ في البيانِ.

نوعُ الواو ودلالتها التَّفصيليّة:

تكتسب الواو دلالتها من فاء التّفريع والسّياق سباقًا ولحاقًا

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ ليسَت على نِظامِ الواوِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 286.

الّتي تُفيدُ مُطلَقَ العَطفِ بَينَ الجُمَلِ المترادِفَةِ أو المتسانِدَةِ، بَل هيَ في هذا المَقامِ واوُ عَطفٍ تُفيدُ التَّقسيمَ والتَّوزيعَ التّكوينيَّ لِلأزواجِ الثّلاثةِ الّذينَ ذَكرَهُم قَولُه تَعالى سابِقًا: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾، وقد اكتسبت هذا المعنى من التّفريع بالفاءِ في قوله: ﴿فَأَصۡحَٰبُ﴾ على الأزواجِ الثّلاثة؛ فدلالَةُ الواوِ هُنا لَيسَت مُجرَّدَ رَبطٍ نَحويٍّ، وإنّما هيَ رابِطَةٌ بيانيَّةٌ تُسَلسِلُ تَرتيبَ الأقسامِ، وتَفصِلُ بَينَ الأصنافِ الثّلاثة، معَ إعطاءِ كلِّ فريقٍ قَدرَهُ منَ الوَصفِ والاهتمامِ. فكما أُبرِزَ أهلُ السَّعادَةِ في قَولِه: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، جاءَتِ الواوُ لِتَدلَّ على أنَّ مَقامَ الحَديثِ لم يَنفَصِل بَعدُ، وإنّما انسابَ إلى الوَصفِ الثّاني، الّذي يُقابِلُ الأوّلَ في الحالِ والمآلِ، وهُم: (أصحابُ المَشأمَة)، فهيَ واوُ تَوسيعٍ في التَّقسيمِ لا مُجرّدُ عَطفٍ، حتّى يُعلَمَ أنَّ الحديثَ مُستمرٌّ في فصلِ الأزواجِ الثّلاثَةِ، لا أنّهُ عَودٌ على بَيانٍ سالفٍ؛ فدلالتها دلالَةٌ تَركيبيَّةٌ تَخُصُّ النَّظمَ القُرآنيَّ المُحكَمَ، ومَقامَ السّياقِ المَحفوفِ بالمَوعِظةِ والوَعدِ والوَعيد.

نكتة استعمال مفردة (أصحاب):

طول مصاحبةِ أسباب الشُّؤم يوقع المصاحب في الملازمة الدّائمة

استعمال مفردة (أصحابِ) في قولِه تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، دونَ (أهل) تعبيرٌ موصولٌ بإيحاءٍ أدقَّ في تصويرِ الانتماءِ والسُّلوكِ الَّذي بِه استحقَّ أصحابُ كلِّ فريقٍ منزلتَهُ في الآخرةِ؛ فلفظُ (أصحاب) يُفيدُ مُصاحَبَةً دائمةً واختياريَّةً، فهيَ تشيرُ إلى تَعلُّقِهم بطريقِهم وموقفِهم الَّذي سَلَكوهُ في الدُّنيا، حتَّى أمست المشأمةُ مصاحبةً لهم، بخلاف (أهلُ) فهيَ تدلُّ على انتماءٍ قد يكونُ بالقرارِ أو بالمقام، لا بالفعلِ الإراديِّ، ولا بالمعايشةِ الطَّويلة، وقد يُطلَقُ على مَن وُجِدَ في المكانِ ولَم يَكُن من خُلَّصِ أهلِهِ؛ فالتَّعبيرُ بالصُّحبةِ أوقعُ في هذا الموطنِ؛ إذِ المقامُ مقامُ تصنيفٍ على حسبِ المواقفِ والأعمالِ، لا عَلى حَسَبِ المواضعِ فحَسبُ.

دلالة إضافة (أصحاب) للفظ ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾:

صحبةُ المشأمة حين يصير الانحرافُ هويَّةً والمعصيةُ اختيارًا

إضافةُ لفظِ (أصحابِ) إلى ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ يُفيدُ لُزومًا واختيارًا، لا مُجَرَّدَ وُجودٍ أوِ اقترانٍ عارِضٍ، فهيَ تُشعِرُ بأنَّ هؤُلاءِ قَدِ اقتَرَنوا بالمشأمةِ اقترانَ مَنِ اختارَها ولازَمَها، فصارَت سِمَتَهُ وهويَّتَهُ، وكَأنَّ بَينَهُم وبَينَ المَشأمَةِ عُروَةً وثيقَةً لا تَنفَكُّ، وهذِهِ الإضافةُ تُغني في المَقامِ ما لا يُغنيهِ اللَّفظُ المُفرَدُ، فهيَ تَربِطُ الشَّخصَ بالمَصيرِ، وتَجعَلُهُ كَأنَّهُ مُمَثِّلٌ لِهذِهِ الجِهَةِ وصَفتِها، لا مُجَرَّدَ نازِلٍ بها، وفي هَذا ما فيهِ مِن إثباتِ المَسؤوليَّةِ الخُلُقيَّةِ وعُمقِ التَّبِعَةِ.

فائدةُ الكناية في لفظ ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾:

التَّلميح إلى الشَّقاء بالعنوان التّعريفيّ

لفظُ ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ كنايةٌ توحي بما وراءَها مِن مَعنًى؛ لِأنَّها لا تُصرِّحُ بالمَقصودِ مِنَ العَذابِ والشَّقاءِ، بَل تُشيرُ إليَهِ مِن طَريق التَّلميحِ والإيماءِ، وفي هَذا ما فيهِ مِن بَلاغَةِ الإيجازِ وجَمالِ الإيحاءِ؛ فصنف "أصحاب المشأمة، وهي اسم جهة مشتقَّة من الشُّؤم، وهو ضدُّ اليمن فهو الضُّرُّ وعدم النَّفع وقد سُميّا في الآية الآتية ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، فجُعِل الشِّمال ضدَّ اليمين كما جُعلت المشأمة هنا ضدَّ الميمنة إشعارًا بأنَّ حالهم حال شؤم وسوء، وكلُّ ذلك مستعار لما عُرِف في كلام العرب من إطلاق هذين اللَّفظين على هذا المعنى الكنائيِّ الَّذي شاع حتَّى ساوى الصَّريح"(1).

فالمشأمةُ، في لُغَةِ العَرَبِ، تُستَخدَمُ كِنايَةً عَنِ الشُّؤمِ وسوءِ العاقِبَةِ، وهيَ مُقابِلَةٌ لِلمَيمَنَةِ، الَّتي تُكنَى عَنِ السَّعادَةِ واليُمنِ، وقَد جَرَت عادَةُ العَرَبِ أن يَجعَلوا اليَسارَ مِثالًا لِلنُّحوسِ، فيَقولونَ: (تَيَمَّنَ) إذا تَفاءَلَ، و(تَيَسَّرَ) إذا تَشاءَمَ، ومِن هُنا جاءَتِ المشأمةُ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 285 - 286.

عَلى وجهِ الكِنايَةِ، دونَ أن يُقالَ: (أصحابُ الشَّقاءِ) صَراحَةً، لِما في ذلِكَ مِن إبقاءِ جَوٍّ مِنَ الرَّهبَةِ والتَّهويلِ يُفضي إلى تَأمُّلٍ أعمَقَ وخَشيَةٍ أشدَّ.

والكِنايَةُ في سِياقِ التَّقسيمِ بَينَ أصنافِ النّاسِ تَأتي أبلَغَ في التَّأثيرِ النَّفسيِّ؛ لِأنَّها تَجذِبُ الذِّهنَ إلى ما وراءِ اللَّفظِ، وتَدعو السّامِعَ لِاستِحضارِ صوَرٍ وتَأويلاتٍ تَتَفاوَتُ بحَسبَ وعيِهِ وبَصيرَتِهِ، وهَذا أبلَغُ في الإنذارِ وأدعَى لِلتَّأثُّرِ.

بلاغة المجاز في تعميق الأثر النَّفسيِّ للتَّعبير القرآنيّ

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾:

آثر النّظم الكريم استعمال صيغة ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ دونَ (الشُّؤم)؛ ذلك لأنَّ لَفظَ (الشُّؤم)، وإن كانَ أصرَحَ في الدّلالَةِ على المَعنَى، إلّا أنَّهُ أجرَدُ وأقَلُّ صوَريَّةً؛ لِأنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بالحُكم الذِّهنيِّ الَّذي يُسنَدُ إلى الشَّيءِ مِن خِلالِ ما يَتَرَتَّبُ عَلَيهِ، أمّا ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ فهيَ صورَةٌ مَجازيَّةٌ تَتَضَمَّنُ الإشارَةَ إلى جِهَةٍ مَحسوسَةٍ، وتُفيدُ بالتَّضَمُّنِ مَعنَى الشُّؤمِ، ومِن ثَمَّ تَجمَعُ بَينَ التَّجريدِ والتَّجسيدِ.

وَفي هَذا تَرقيَةٌ لِلتَّأثيرِ النَّفسيِّ، فإنَّ المَشأمَةَ، بلَفظِها ووَزنِها، توحي بالانحِرافِ والزَّيغِ، وتَستَحضِرُ في الذِّهنِ جِهَةً مُعَيَّنَةً مُقابِلَةً لِجِهَةِ اليُمنِ والصَّلاحِ، وهَذا مِمّا يَزيدُ في إيحاءِ التَّقسيمِ ووُضوحِ التَّفاوُتِ بَينَ الفِئاتِ.

وَزيادَةً على ذلِكَ؛ فإنَّ ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾، بوَصفِها مَصدَرًا عَلى وزنِ (مَفعَلَةٍ)، تَفيدُ حالًا أو صِفَةً مُتَجَذِّرَةً، لا حَدَثًا عارِضًا، فهيَ تُشيرُ إلى مَكانَةٍ أو جِهَةٍ هُم مُلازِمونَ لَها، وكَأنَّهُم غاصوا في هذِهِ الحالِ حَتّى صارَت لَهُم مَنسَكًا ووَطَنًا.

أمّا (الشُّؤمُ) فهوَ وصفٌ مُجَرَّدٌ يُخبِرُ عَنِ المَقلوبِ عَلَيهِ، ولا يُفيدُ بذاتِهِ تَمَثُّلًا في صورَةِ جِهَةٍ أو حالٍ، فكانَ الاستِعاضَةُ عَنهُ بـ ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أبلَغَ وأنفَذَ في إيصالِ الدّلالَةِ.

وَبِذلِكَ نَفهَمُ أنَّ التَّعبيرَ القُرآنيَّ إذا خَرَجَ عَن الصَّريحِ إلى الكِنايَةِ أوِ المَجازِ، فلا يَكونُ ذلِكَ لِغُموضٍ أوِ التِفافٍ، بَل هوَ تَصعيدٌ لِلدّلالَةِ وتَوسيعٌ لِمَدارِكِ الفَهمِ والإدراك.

غرض الاستفهام وبلاغته:

من التَّقسيم إلى التَّفصيل عبر بوّابة الاستفهام

جاءَ الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾؛ لإرادةِ تهويلِ الموصوفِ، وشَحْنِ الذّهنِ إلى حالِهِ العجيبِ، الّذي لا تُحيطُ به العبارةُ. إذ فخَّم أمرهم بالتَّعجيب من حالهم بقوله منبِّهًا على أنَّهم أهل لأن يُسأل عنهم فيما يُفهمه اليمين من الخير والبركة؛ فكيف إذا عبَّر عنها بصيغة مبالغة، وأكثر ما يكون ذلك في موضع التَّهويل والتَّعظيم[1].

فالاستفهامُ هو استفهامٌ يُفيدُ التَّهويل والتَّعظيم، ووجهُ البلاغةِ في هذا الموضعِ، أنّ هذا الاستفهامَ جاءَ بعد تقسيمِ النّاسِ إلى أزواجٍ ثلاثةٍ، فكانَ ذلكَ مدخلًا إلى تفصيلِ أحوالِ كلِّ فريقٍ، ولكن قبلَ أن يُشرَعَ في وصفِهم، أُثيرَ في ذهنِ السّامعِ سؤالٌ عظيمٌ عن حقيقتِهم، فصارَ الاستفهامُ مقدّمةً تُهيّئُ القلبَ للإنصاتِ، والعقلَ للتّأمّلِ، وهو من مقاصدِ القرآنِ التّربويّةِ، أن يُربّيَ الخشيةَ والخشوعَ في القلبِ قبلَ تلقّي الوصفِ.

غرض الاستفهام في الصّنفين:

أجمَعَ المُفسِّرونَ على أنَّ الاستفهامَ الأوَّلَ ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ للتَّفخيمِ والتَّعجيبِ من رِفعَةِ شأنِهم عند الله يوم القيامة. وأنَّ الاستفهامَ الثّاني ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ للتَّفظيعِ والتَّعجيبِ من انحِطاطِ منزِلَتِهم[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 404.

(2) الزّمخشريّ، نظم الدّرر: 4/ 53، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 189، والآلوسيّ، روح المعاني: 27/ 130.

نكتة إظهار ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾:

تهويلُ الخطاب وتفخيمُ المآل وهزُّ النّفوس للالتفات إلى مُظهرات النّظم

آثر النّظم الكريم إظهار: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ دون إضمارِها، فيُقالَ: (ما هُم؟)، وفي ذلك نُكتَةٌ بَلاغيَّةٌ تَتَّصِلُ بسياقِ التَّهويلِ والتَّفجيع، وتَكشِفُ عَنِ المَقصودِ في التَّركيبِ مِن تَكريرٍ وإظهارٍ دونَ إضمارٍ؛ فإنَّ إعادَةَ الاسم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ عَينًا، دونَ الاكتِفاءِ بالإشارَةِ إلَيه، تُفيدُ تَفخيمًا وتَهويلًا، عَلى نَحوِ ما يُفيدُهُ التَّعَجُّبُ والتَّركيزُ، وتُظهِرُ في النَّفسِ أثَرًا أقوَى في الإنذارِ والإيقاظِ، إذ يُصبِحُ الاسمُ محوَرًا يَتَرَدَّدُ عَلَيهِ السَّمعُ، فيَثبُتُ في القَلبِ ويُحَفِّزُ الذِّهنَ إلى التَّفكُّرِ في عَظَمَةِ ما خَلفَهُ.

وَلا يُناسِبُ هَذا المَقامَ ما فيهِ نَوعُ تَخفيفٍ أو تَلميحٍ، كَما هوَ شَأنُ الإضمارِ، بَلِ المَقامُ مَقامُ تَصويرٍ صادِمٍ يُقَطِّبُ الجَبينَ ويَهُزُّ النُّفوسَ مِن مَراقِدِها، فجاءَ الإظهارُ فيهِ أشَدَّ وَقعًا وأبلَغَ أثَرًا.

بلاغة العطف بين الفِرَق المتضادّة:

البدءُ بالتَّبشير في مقام التّهويل إيماءٌ إلى مقام الرّجاء وصفة الرَّحمة

قُدِّمَ ذِكرُ أصحابِ المَيمَنَةِ عَلى أصحابِ المَشأمَةِ في قَولِهِ تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، مَعَ أنَّ القياسَ في مَقامِ التَّهويلِ أن يُبدَأَ بذِكرِ مَن ساءَ مَآلُهُ، لِتَشُدَّ النُّفوسُ بَعدَهُ بالبُشرَى، ولكِنَّ القُرآنَ قَد عَكَسَ هذا التَّرتيبَ؛ لِيُؤَكِّدَ أنَّ الرَّجاءَ سابِقٌ على الخَشيَةِ، وأنَّ رَحمَةَ اللهِ سَبَقَت غَضَبَهُ، وهذِهِ لَفتَةٌ تَربويَّةٌ دَقيقَةٌ تَنسِجُ في طَيّاتِها أثَرًا نَفسيًّا عَظيمًا؛ فلَمّا ذَكَرَ النّاجينَ، أتبَعَهُم أضدادَهُم فقالَ: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾؛ أي: جِهَةِ الشُّؤمِ ومَوضِعِهُ وأعمالِهُ[1]، وفي هذِهِ المُقابَلَةِ بَينَ أصحابِ المَيمَنَةِ وأصحابِ المَشأمَةِ، تَتَجَلَّى قوَّةُ التَّصويرِ، حَيثُ تَقابَلَتِ الجِهاتُ، فصارَ الفَريقانِ على طَرَفَي نَقيضٍ، يُمَثِّلُ كُلٌّ مِنهُما وجهًا مِن حَقيقَةِ الخاتِمَةِ، فيَرسُمُ القُرآنُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 404.

خَريطَةَ المَصيرِ بَينَ سَعادَةٍ وشَقاءٍ، بلا حالٍ وسَطٍ، فهيَ إمّا مَيمَنَةٌ وإمّا مَشأمَةٌ.

بلاغة عطف (السّابقون) على المتقدَّم المتقدِّم ذكرهم:

مقامُ السّابقين تكميلٌ للقسمةِ وتتميمٌ لبيان الأحوالِ

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، علَى ما قَبلَهُ مِنَ الأزواجِ، مَعَ فارِقِ الرُّتبَةِ وتَبايُنِ المَنزِلَة، وذلك لنُكتَةٍ بَلاغيَّةٍ جَليلَة، تَدُلُّ علَى عُمقِ النَّظم وإحكام التَّصوير؛ فالعَطفُ في ظاهِرِه يُشعِرُ بالمُشارَكَةِ في الحُكم، كَما يَدُلُّ على ذَلِكَ ما جاءَ في كِتابِ سِيبَوَيه: "فالواوُ يَجمَعُ هَذِهِ الأَشياءَ على هَذِهِ المَعاني".[1] وفي باطِنِه يُثيرُ السُّؤالَ: كَيفَ يُساوَى السّابِقونَ في الذِّكرِ بِمَن دونَهُم رُتبَةً؟ وفي هَذا تَأهيلٌ لِذِكرِهِم، وتَمهيدٌ لِلتَّرقيَةِ الَّتي سَتَرِدُ بَعدَ قَليلٍ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

والسِّرُّ في هَذا العَطفِ أنَّهُ لَم يُرِد بِهِ مُجَرَّدَ الجَمعِ، بَل أرادَ التَّصنيفَ الشّامِلَ، فذَكَرَ أزواجًا ثَلاثَةً: ذَوي السَّعادَةِ، وذَوي الشَّقاوَةِ، وذَوي السَّبقِ والاصطِفاءِ، فالآيَةُ تَرسُمُ تَقسيمًا حاصِرًا لِأحوالِ النّاسِ يَومَ القيامَةِ، ولا تَكتَمِلُ هذِهِ القِسمَةُ حَتَّى يُذكَرَ السّابِقونَ؛ فذِكرُهم من بابِ التّتميمِ والتّكميل، وبيان منزلة السّابقين في المتقدِّمين.

نكتة استعمال مفردة السَّبق وفرادتها في السياق:

السَّبق اصطفاء ربّانيٌّ للمقدّمين فـي الـطّـاعـات المـسـارعـين إلى الجنّات

(السَّبق) في معناه أصلٌ في المبادرة والتَّقدّم، فهو سبق في الطّاعة، وحرص على القُرب، وتقدّم في الإيمان، لا ينتظر أمرًا، بل يسارع إليه. والقرآن حين يجعل (السَّبق) عنوانًا لهذه الفئة، فهو يُربّي في النَّفس معنى التّنافس المشروع، الّذي لا يتوجّه إلى المناصب أو المال، بل إلى رضا اللّه ومراتب القرب منه[2].

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 218.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 286 - 287.

وقد جاء هذا الوصف بعد ذكر الفئتين الأخريين، ليُحدث مفارقة بيانيَّة تؤكّد أنَّ هؤلاء السّابقين ليسوا ضمن ترتيبٍ عاديٍّ، بل هم فوق التَّصنيفات، أُفردوا بمرتبة المقرّبين، كما قال بعد ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. فصار السَّبق لا مجرَّد وصفٍ، بل سببًا في القرب، ومفتاحًا للعلوِّ، ودعوة صامتة للمؤمن أن لا يكتفي بالسَّلامة، بل يسعى إلى السّيادة في مقامات الآخرة.

ولفظةُ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وردت في سياقٍ بيانيٍّ بالغ التَّناسق، يصف أحوال النّاس ومآلهم يوم القيامة، بعد أن صوِّرت مشاهدُ التَّبدُّل الكونيّ المزلزل، لينتقل الخطاب بعد ذلك إلى التَّقسيم الثُّلاثيّ الدَّقيق: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، ثمَّ السّابقون، فجاء ذكرهم متأخِّرًا في اللَّفظ، مقدَّمًا في المنزلة. فالسّابقون هم الَّذين تقدّموا غيرهم، لكنّ السَّبق هنا ليس مجرّدَ تقدُّم مكانيّ أو زمنيّ، بل هو سبقٌ في ميدان الإيمان واليقين والعمل الصالح. وقد تكرّر لفظ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مرَّتين على جهة التَّوكيد، فجاء النَّظم بتَكرار الاسم الموصول بالوصف: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ ليفيد التَّثبيتَ والتَّعظيم، وفيه ما يدلّ على أنَّهم سابقون حقًّا لا دعوى، وأنَّهم هم وحدهم الجديرون بلقب السَّبق دون سواهم، فهم الَّذين بادروا إلى الإيمان حين أعرَض النّاس، واستجابوا للهدى حين تردّد غيرهم، وثبَتوا على الطّاعة حين نكَص الآخرون

بلاغة التَّعريف في لفظ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ وجمعه:

التَّعريفُ الجَمعيُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ لم يأتِ لمجرَّدِ الحَصرِ، بل ليُشير إلى جماعة مُتحقِّقةٍ بهذهِ الصِّفةِ، كأنَّ القرآنَ يُعلنُ: أنَّ في كلِّ زمانٍ، وفي كلِّ أُمَّةٍ، فِئةً من المتقدِّمينَ إلى اللهِ بالطّاعةِ، الَّذين سَبَقوا غيرَهم في العملِ، فاستحقّوا القُربَ.

السّابقون هم المجموعُ الخالصُ من البشريّة كلِّها

وهذا الأسلوبُ لا يصفُ القِلَّةَ بل يفتحُ أُفقَ الانتماءِ، ليقولَ للمؤمنِ: إنَّ بُلوغَ هذهِ المرتبةِ ليسَ وقفًا على الأنبياءِ أو الأوائلِ فحسب، بل هو مجالٌ مفتوحٌ لكلِّ مَن شمَّرَ وسبقَ، وبهذا؛ فإنَّ (السّابِقُينَ) في الآيةِ ليسوا وحدةً فرديَّةً متفرِّدةً، بل نموذجًا جمعيًّا راقيًا من أهلِ الطّاعةِ الَّذين تواصَوا بها فسابقوا الدُّنيا وأهواءَها؛ فوصلوا مبتغاهم، وأحرزوا غايتهم، فهم جمعٌ معروفٌ يجمعه الخير من آدمَ عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

دلالة اختلاف النَّظم بين الأزواج الثّلاثة:

السّابِقونَ نِداءُ التَّفَوُّقِ ووَسمُ الصَّفوَةِ وكلُّ سابِقٍ دونهم فليس بسابقٍ

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ تتجلّى خُصوصيَّةُ النَّظمِ القُرآنيِّ، فقد عَدَلَ عن الأسلوبِ الَّذي جَرَى بِهِ ذِكرُ الفِئَتَينِ السّابِقَتَينِ: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ و﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾؛ فلم يقل: (والسّابقون ما السّابقون) ليختارَ بدلًا من ذلك تَكرارَ اللَّفظِ نَفسِه: (السّابِقونَ السّابِقونَ)؛ وبناءً على ذلك؛ فقد قدَّر بعضهم (ما) على تقدير: (والسّابِقونَ ما السّابِقونَ)؛ لدَلالةِ ما قَبلَهُ عليهِ، وقيل: تقديرُه: أزواجًا ثلاثةً: فأصحابُ الميمنةِ، وأصحابُ المشأمةِ، والسّابِقونَ، ثُمَّ ذكرَ عَقيبَ كلِّ واحدٍ منهم تَعظيمًا أو تهويلًا فقال: ما أصحابُ الميمنةِ، ما أصحابُ المشأمةِ، والسّابِقونَ؛ أي هم السّابِقونَ[1].

وليسَ هذا التَّكرارُ لُمجرَّدِ التَّوكيدِ، بل هو توجيهٌ بلاغيٌّ مَقصودٌ، يُرادُ به تَعظيمُ المقامِ وتَفخيمُ المكانةِ.

فـ السّابِقونَ هنا ليسوا مُجرَّدَ أهلِ فضلٍ؛ بل هُم الصَّفوةُ الَّذينَ تَجاوَزوا حَدَّ النَّجاةِ إلى ميدانِ القُربِ، فسبقوا في الطّاعةِ، وسبقوا في الإيمانِ، وسبقوا في الإنابةِ، فاستحقّوا أن يُنادى عليهم باسمهم

(1) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 450.

مُكرَّرًا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ تَعظيمًا وتَوقيرًا. فلو قيل: (أصحابُ السَّبقِ) لفاتَ المعنى الفخم، إذ إنَّ (السَّبق) حين يُجعَلُ صفةً قائمةً بذاتِ الجماعةِ، كما في قوله: (السّابِقونَ)، يُفيدُ أنهم جَعَلوا من السَّبقِ مقامًا ثابتًا، لا مُجرَّدَ صِفةٍ عارضةٍ، فهم السّابقون على الحقيقة، وليس دونهم من يستحقّ الوصف إلّا وهو وصفٌ مجازيٌّ لا يثبت على تقادم الأيّام.

نكتة تكرار لفظ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾:

مِنَ التَّعَجُّبِ إلى التَّقرير مُفارَقَةُ الأُسلوبِ ودَلالَةُ التَّـكرارِ في ذِكـرِ السّابِقينَ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ بنَظمٍ مَخصوصٍ خالَفَ ما سَبَقَ، فلم يُؤتَ فيهِ بأسلوبِ التَّعجُّبِ، بل عُدِلَ إلى التَّكرارِ، لِما في ذلكَ من دلالةٍ أبلَغ، ومقصدٍ أعمق يتَّسق مع واقع السّابقين؛ فقد ذهبَ النُّحاةُ إلى أنَّ نحوَ هذا التَّركيبِ يُفيدُ التَّفخيمَ والإعلاءَ، كقولِهم: أنتَ أنتَ، والنّاسُ النّاسُ[1]، ممّا يدلُّ على أنَّ المُسَمَّى بلغَ في حالِه الغايةَ الَّتي يُعجَزُ عن التَّعبيرِ عنها إلّا بتَكرارِه؛ فهم الَّذينَ انتَهَوا في السَّبقِ أي: الطّاعاتِ - وبَرَعوا فيها وعُرِفَت حالُهم. فتَكرارُ لفظِ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ - سواءٌ أُخِذَ على جهةِ الخَبَرِ أو على جهةِ التَّوكيدِ[2] - يُفيدُ أمرَينِ بَلاغيَّينِ جَليلَينِ: تَفخيمَ الحالِ وتَعظيمَ الشَّأنِ. فهؤلاءِ لم يُتَحدَّث عنهم على وجهِ التَّعجُّبِ - كما في أصحابِ الميمنةِ والمشأمةِ - بل جاءَ الخطابُ عنهم مُقَرَّرًا، مُجَلًّى، مُثبَتًا أنَّهُم في أعظمِ مقامٍ، وأنَّهُم هُم هُم، لا يُشبَّهُ بهم غيرُهم، ولا يُلحَقُ برُتبتِهم لاحق. "والسّابِقونَ السّابِقونَ، يُريد: والسّابِقونَ من عُرِفتَ حالُهم وبلغَك وصفُهم، كقولِه: وعبدُ اللهِ عبدُ اللهِ، وقولِ أبي النَّجم: وشِعري شِعري، كأنَّه قال: وشِعري ما انتَهى إليك وسمعتَ بفصاحتِه وبراعَتِه"[3].

(1) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 10/ 195، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 378.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 74.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.

وعلى جعله تَوكيدًا للأوّلِ، فمآلُ جملةِ ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ونظيرتِها، وجملةِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هو التَّعجيبُ من حالِهم، وطريقُه هو الكناية، ولكنَّ بينَ الكنايتَين فرقًا؛ بأنَّ إحداهما كانت من طريقِ السُّؤالِ عن الوَصفِ، والأُخرى من طريقِ تَعذُّرِ التَّعبيرِ بغيرِ ذلكَ الوَصفِ. والمعنى: أنَّ حالَهم بلغَت مُنتهى الفضلِ والرِّفعة بحيثُ لا يجدُ المتكلِّمُ خبَرًا يُخبِرُ به عنهم أدلَّ على مرتبتِهم مِن اسمِ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، فهذا الخبَرُ أبلَغُ في الدّلالةِ على شرفِ قدرِهم من الإخبارِ بـ (ما) الاستفهاميّةِ التَّعجيبيّةِ في قولِه: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾؛ معَ ما في اشتقاقِ لقبِهم مِن (السَّبقِ) مِنَ الدّلالةِ على بُلوغِهم أقصى ما يطلُبُه الطّالبون(1).

بلاغة الاستعارة في لفظ (السّابقون):

السّابقون سابقون إلى المبادرات في الطّاعات والسَّبق إلى الجنّات

لفظ (السّابقون) في قَولِه تَعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، استِعارَةٌ تصريحيَّة، بتَجريدِ اللَّفظِ من مَعناهُ الحِسّيِّ، وإرادَةِ مَعنًى مَجازيٍّ، فإنَّ السَّبقَ في أصلِ الوَضعِ يُستَعمَلُ فيمَن تَقَدَّمَ غَيرَهُ في مَيدانٍ مَحسوسٍ، كالسَّبقِ في العَدوِ أوِ السِّباقِ.

ذَكَرَ ابنُ عاشورٍ: "وَحَقيقَةُ السَّبقِ: وُصولُ أحَدٍ مَكانًا قَبلَ وُصولِ أحَدٍ آخَرَ. وهوَ هُنا مُستَعمَلٌ عَلى سَبيلِ الاستِعارَةِ، وقَد جَمَعَ المَعنَيَينِ قَولُ النّابِغَةِ:

سَبَقتُ الرِّجالَ الباهِشينَ إلَى العُلا *** كَسَبقِ الجَوادِ اصطادَ قَبلَ الطَّوارِدِ

فَيَجوزُ أن يَكونَ السّابِقونَ مُستعمَلًا في المُبادَرَةِ والإسراعِ إلَى الخَيرِ في الدّينِ، كَما في قَولِه تَعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التَّوبة: 100]، ويَجوزُ أن يَكونَ مُستَعمَلًا في المُغالَبَةِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 287.

في تَحصيلِ الخَيرِ، كَقَولِهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المُؤمِنونَ: 61]"[1].

وَلكِنَّ المُرادَ هاهُنا: التَّقَدُّمُ في الخَيرِ والطّاعَةِ والإيمانِ والفَضائِلِ، وذلِكَ مِمّا لا يُرَى بالعَينِ، ولكِنَّهُ يُتَصَوَّرُ في مَقامِ المُسابَقَةِ إلَى المَرضاةِ الإلهيَّةِ؛ فكانَ تَشبيهُ المُؤمِنينَ المُبادِرينَ إلَى أعمالِ البِرِّ بالمُتَسابِقينَ في المَيدانِ استِعارَةً جَميلَةً تُصَوِّرُ حَيَويَّةَ الإيمانِ ونَفَسَ التَّنافُسِ في مَجالِ الفَضيلَةِ، وفيها تَشويقٌ وتَحريضٌ عَلى المُبادَرَةِ والعَزيمَةِ.

ولا يمنع من إرادةِ المعنى الحقيقيِّ، فتكون الاستعارة في عالم الشّهادةِ، وهي تشبيه المبادرة إلى الطّاعات بالسّبق، والمعنى الحقيقيِّ في عالمِ الغيبِ، وهو السّبق إلى الجنّات.

علّة حذف متعلّق ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾:

السّابقون لقبُ الكرامةِ فلا يتعلّق به متعلّق يُقيِّد دلالته ويُخصِّص عمومه

حُذِف متعلَّق ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ وذلِكَ لِسَبَبٍ بَليغٍ، وهوَ أنَّ حالَهُم بَلَغَ مِنَ الرِّفعَةِ والشَّرَفِ ما لا يَسَعُ التّعبيرُ عَنهُ، ولا يُدرَكُ وصفُهُ، فلَم يُذكَر لَهُم مَوصوفٌ؛ لِأنَّ المُتَكَلِّمَ عَجَزَ عَن أن يُضيفَ إلَيهِم وصفًا يَليقُ بهِم، فكَأنَّهُ قيلَ: السّابِقونَ لا يُعرَفُ ما هُم إلّا أنَّهُم السّابِقونَ، وهَذا تعبيرٌ "بمنزلة اللَّقب لهم، وليفيد العموم، أي أنَّهم سابقون في كلِّ ميدانٍ تتسابق إليه النُّفوس الزَّكيَّة"[2]. ففي حَذفِ المُتَعَلَّقِ تَركٌ لِلتّقييدِ، وتَركُ التّقييدِ يُفيدُ الإطلاقَ، والإطلاقُ أبلَغُ في التّعظيمِ؛ لِأنَّهُ يَجعَلُ فضلَهُم غَيرَ مَحدودٍ، ومَجدَهُم غَيرَ مُقَيَّدٍ، فكَأنَّهُ قيلَ: هُم أهلُ السَّبقِ المُطلَقِ، لا يُدانيهِم فيهِ مُدانٍ، ولا يُنازِعُهُم فيهِ مُنازِعٌ.

دلالة ترتيب الأصناف الثّلاثة:

في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 286 - 287.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 287 - 288.

أصناف النّاس يوم القيامة بين عموم النَّجاة، وخزي الهلاك، ومقام الاصطفاء

أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، نَظمٌ بَديعٌ جَرَى عَلى طَريقِ التّدرُّجِ في التّقسيمِ والإيرادِ، فذكَرَ أوّلًا أصحابَ المَيمَنَةِ، وهُم جُمهورُ أهلِ السَّعادَةِ، الّذينَ نالوا الرِّضوانَ والأمنَ، وقَد قُدِّموا في الذِّكرِ؛ لِأَنَّهُم أكثَرُ عَدَدًا، وهُم المَقصودونَ أوّلًا بالمُخاطَبَةِ، ففي ذِكرِهِم تَسليَةٌ وتَشويقٌ لِلمُؤمِنينَ.

ثُمَّ ذَكَرَ أصحابَ المَشأمَةِ، وهُم أهلُ الشَّقاءِ والخِزيِ، فجاءَ ذِكرُهُم بَعدَ أصحابِ المَيمَنَةِ، على وجهٍ مِن المُقابَلَةِ التَّقسيميَّةِ، لِيَتَبيَّنَ ضِدُّهُم، ويَظهَرَ تَبايُنُ الحالَينِ.

ثُمَّ خُتِمَ التّقسيمُ بذِكرِ السّابِقينَ، وإنَّما أُخِّروا في الذِّكرِ مَعَ أَنَّهُم أعلَى مَرتَبَةً، من أصحاب الميمنة؛ لِأَنَّ ذِكرَهُم جاءَ في مَقامِ التَّنويهِ والتَّشريفِ، كَما يُؤَخَّرُ التّاجُ ليوضَعَ في آخِرِ المَوكِبِ تَفخيمًا وإعلانًا، فكانَ خِتامُ الذِّكرِ أبهَى وأبلَغَ.

بلاغة فنِّ اللَّفِّ والنَّشر:

بلاغة فنّ اللّفّ والنّشر في ترتيب المقامات ومراعاة المعاني

قَولُهُ تَعالَى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وقَعَتِ الآيَةُ على أُسلوبٍ بَليغٍ مِن أساليبِ البَيانِ، وهوَ فنُّ اللَّفِّ والنَّشرِ غير المُرَتَّبِ، وهوَ أن يُذكَرَ مُجمَلٌ، ثُمَّ يُفَصَّلَ بَعدَهُ على خلافِ تَرتيبِهِ.

وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، مستأنفة استئنافًا بيانيًّا؛ لأنّها جوابٌ عمّا يُثيره قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ من تساؤل السّامع عن أثر التّنويه بهم؛ وبذلك كان هذا ابتداءَ تفصيلٍ لجزاء الأصناف الثّلاثة على طريقة النّشرِ بعد اللَّفِّ، نشرًا غير مرتّبٍ اقتضته مناسبة اتّصال المعاني بالنِّسبة إلى كلِّ صنف

أقربَ ذِكرًا، ثمَّ مراعاةُ الأهمّ بالنِّسبة إلى الصِّنفين الباقيين فكان بعض الكلام آخذًا بحُجز بعض[1].

وَلَمّا كانَت طائِفَةُ السّابِقينَ هيَ الأشرَفَ والأرفَعَ مَقامًا، وكانَت هيَ الّتي تَتَمَثَّلُ فيها كَمالاتُ القُربِ، ودَرَجاتُ الرِّضا، خُصَّت بالبِدايَةِ في التَّفصيلِ، فقيلَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، ثُمَّ يُفَصَّلُ ما لِأصحابِ المَيمَنَةِ في مَواضِعَ بَعدَ ذلِكَ، كَما في قَولِهِ: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾.

فَهَذا التَّقَدُّمُ في الذِّكرِ لِلسّابِقينَ على غَيرِهِم في التَّفصيلِ، وإن لَم يوافِقِ التَّرتيبَ الّذي جاءَ في اللَّفِّ، فإنَّهُ مِن بابِ التَّشريفِ والتَّنويهِ، فتَكونُ المُقابَلَةُ في اللَّفِّ مَحفوظَةً، ولكِنَّ التَّفصيلَ يُؤَثِّرُ فيهِ مَقاصِدُ التَّنويهِ والتَّعظيمِ.

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

تَكرار الألفاظ يُحفِّز على معرفةِ الأحوالِ وتبيُّن الصِّفات

في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، لَم يَجِئ تَعقيبُ الجُملَةِ الثّانيَةِ على الأولَى مُجَرَّدَ رَدٍّ لِلخَبَرِ على المُبتَدَإ، بَل هوَ استِئنافٌ بَيانيٌّ بَليغٌ، جاءَ في مَقامِ الإشعارِ بشَرَفِ المُخبَرِ عَنهُ، وإنباءِ السّامِعِ عَن مُنتَهَى مَآلِهِ.

إذ تتجلّى براعةٌ قرآنيَّةٌ في استعمال جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، بوصفها استئنافًا بيانيًّا، يُجيب عن سؤالٍ خفيٍّ أودعه السّياق، كما هي سُنّة البلاغة حين تسبق الجملةُ خاطر السّامع وتُجيبُ عنه قبل أن يُعبّر[2].

فَإنَّ قَولَهُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وإن كانَ في نَفسِهِ ذا دَلالَةٍ على التَّنويهِ والتَّفخيمِ، لِما فيهِ مِن تَكريرِ اللَّفظِ على وجهٍ يُفيدُ التَّعظيمَ، إلّا أنَّهُ لَم يُبَيِّن في نَفسِهِ ما هيَ مَرتَبَتُهُم عِندَ اللّٰهِ، فكانَ مَقامُ السّامِعِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 287.

يَتَطَلَّبُ بَيانَ مَنزِلَتِهِم، والإشعارَ بحَقيقَةِ السَّبقِ الَّذي وُصِفوا بهِ، فجاءَ قَولُهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ على سَبيلِ الاستِئنافِ البَيانيِّ، كَأنَّهُ جَوابُ سائلٍ يَقولُ: ومَن هُم السّابِقونَ؟ فقيلَ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

دلالة التَّعبير باسم الإشارة البعيد دون الضَّمير:

التّنويه بحالِ السّابقين ورفعة مقامهم وعلوِّ منزلتهم

استُعمِلَ اسمُ الإشارَةِ لِلبَعيدِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، مَعَ أنَّ مَرجِعَ اسمِ الإشارةِ ذُكِرَ قَريبًا وهوَ قَولُهُ: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ﴾، فيُسأل عن نكتة استعمال اسم الإشارة فضلًا عن كونه للبعيدِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ دونَ أن يُقالَ: (هُمُ المُقَرَّبونَ)؟ فالجَوابُ: أنَّ ذلكَ لَيسَ على سَبيلِ البُعدِ الحِسّيِّ، وإنَّما هوَ بُعدٌ مَعنَويٌّ، يَتَضَمَّنُ تَرفيعَ المَرتَبَةِ وتَفخيمَ الشَّأنِ. "وفي جعل المسند إليه اسمَ إشارةٍ تنبيهٌ على أنَّهم أحرياء بما يخبر عنه من أجل الوصف الوارد قبل اسم الإشارة وهو أنَّهم السّابقون"[1]. والعَرَبُ تَستَعمِلُ اسمَ الإشارَةِ لِلبَعيدِ في مَقامِ تَعلِيَةِ المَنزِلَةِ وتَنويهِ الذِّكرِ[2]، كَما في قَولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5]، فكانَ في قَولِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ إشارَةٌ إلَى سُموِّ دَرَجَتِهِم وتَعَذُّرِ الوُصولِ إلَيها، وكَأنَّهُم بمَنزِلَةٍ بَعيدَةِ الأمَدِ لا يُطالُها كُلُّ أحَدٍ، وفي ذلِكَ تَشويقٌ لِلمُؤمِنينَ، وتَحفيزٌ لِلسَّيرِ نَحوَ المَراتِبِ العُليا. كَذلِكَ، فإنَّ في استِعمالِ اسمِ الإشارَةِ لِلبَعيدِ تَفسيرًا بَيانيًّا لِذِكرِ ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ﴾، فكَأنَّ السّامِعَ قَد تَساءَلَ: وما جَزاءُ هؤُلاءِ؟ فجاءَ الجَوابُ مُشيرًا إلَيهِم إشارَةً تُظهِرُ عُلوَّهُم وتُفاخِمُ شَأنَهُم، فقيلَ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

بلاغة استعمال مفردة ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾:

تجلّت بلاغة القرآن في اختيار لفظ ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ دون غيره من الألفاظ المقاربة مثل (النّاجون) أو (الفائزون)، إذ إنَّ هذا اللَّفظ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 287.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 83.

من السَّبق إلى القرب بلاغة الاصطفاء والتَّكريم في النَّظم القرآنيِّ

يفيد رتبةً مخصوصةً لا يُنالها إلّا من بلغ الغاية في الإيمان والطّاعة، فهو دالٌّ على خصوصيَّة الاصطفاء، لا على مجرَّد السَّلامة أو النَّجاة. والقرب: ضدُّ البعد[1]، فلفظ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ اسمُ مفعول، يدلّ على أنَّ القُرب هبةٌ من اللّٰه، لا ثمرةٌ لجُهدٍ وحده، بل تشريفٌ واجتباء، أسبغته الرّحمةُ على السّابقين لما علم اللّٰهُ منهم من صدق المسير، وصفاء القلب، ومجاهدة النّفس.

نكتة التّعبير بصيغة ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾:

منَّة الله تعالى في التّقريب تلحقُ السّابقين وتُحيط بالمُسارعين

آثر النَّظم الكريم صيغة: ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، دون صيغة (القَريبون)، مع فصاحته الظّاهرة؛ وذلك لحِكمَةٍ بَيانيَّةٍ دقيقة، تُعَبِّرُ عن عُلوِّ المَقام، وخُصوصيَّةِ الاصطِفاءِ، لا مُجَرَّدِ القُربِ العارِضِ أو الذّاتيِّ، "فالمُقَرَّب: أبلغُ مِن القَريبِ لدلالَةِ صيغَتِه على الاصطِفاءِ والاجتِباءِ، وذلك قُربٌ مَجازيّ؛ أي شُبِّه بالقُربِ في مُلابَسَةِ القَريبِ والاهتِمامِ بشُؤونِهِ؛ فإنَّ المُطيعَ بمُجاهَدَتِهِ في الطّاعَةِ يكونُ كالمُتَقَرِّبِ إلى اللّٰه؛ أي طالِبَ القُربِ منه، فإذا بلغَ مَرتَبَةً عاليَةً من ذلك قرَّبَهُ اللّٰه؛ أي عامَله مُعامَلَةَ المُقَرَّبِ المَحبوبِ"[2].

فـ (القَريبون) صفة مشبّهة، تُفيدُ قُربًا يقعُ من الذّاتِ، دونَ أن يلزَمَ منه إكرامٌ أو رَفعُ منزلة، بل قد يكونُ قُربًا مَكانيًّا أو طَبيعيًّا.

أمّا ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ فهو اسمُ مفعول، يَدُلُّ على أنَّ القُربَ لم يكُن بحَرَكَةٍ منهم فحَسب، بل بفضلٍ من اللّٰه وتشريفٍ من لدُنهُ، أي إنَّهُم قُرِّبوا، فكانَ قُربُهُم علامةَ اصطِفاءٍ، ومظهرَ إكرام. "ولم يقل: المُتَقَرِّبون، بل قال: أولَئِكَ المُقَرَّبون - وهذا عينُ الجَمع - فعَلِمَ الكافَّةُ أنَّهُم بتَقريبِ رَبِّهِم سَبَقوا - لا بتَقَرُّبِهِم"[3].

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 6/ 388، وابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/ 81.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 288.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 518.

فكان التّعبير أدقّ من: (القريبون)، إذ فيه إشعارٌ بالتّكريم الإلهيِّ، لا مجرَّد قربٍ بالوصف، بل قُربٌ بالاختيار والمحبّة.

بلاغة القصر في جملة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾:

إثباتُ القُربِ الخاصِّ ونَفيُ المُشارَكَةِ في حقِّ المكلّفين

يَتَجلَّى الأُسلوبُ البَلاغيُّ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ في صورَةٍ مِن صوَرِ القَصرِ الحَقيقيِّ، الَّذي يُفادُ بتعريفِ الجزأين، وانعَقَدَ بذَلِك مَعنَى القَصرِ، وصارَ مَدلولُ الجُملَةِ: لا مُقَرَّبونَ على الحَقيقَةِ إلّا أولَئِكَ السّابِقونَ من المكلّفين، فيخرج وصفُ المَلائِكَةِ بأنَّهُم مُقَرَّبونَ؛ لأنَّهم ليسوا مكلَّفين.

وَهَذا القَصرُ يُفيدُ الاختِصاصَ والتَّشريفَ، لا مُجَرَّد نَفي القُربِ عَن غَيرِهِم نَفيًا مُطلَقًا، بَل لإثباتِ قُربٍ خاصٍّ لا يُنالُ إلّا بالمَقام الأسمَى، مَقام السَّبقِ في الإيمانِ والطّاعَة، مَقام لا يُدانيه مَقامٌ. فأصحابُ المَيمَنَةِ، وإن كانوا مِنَ النّاجينَ، إلّا أنَّهُم لَيسوا مِن أولَئِكَ الَّذينَ اختَصَّهُمُ اللّه بالقُربِ، وهوَ قُربُ الزُّلفَى والرِّضوانِ، قُربٌ يُفيضُ بِهِ الجَلالُ الإلَهيُّ على مَن اصطَفاهُم مِن عِبادِهِ.

نكتة حذف متعلِّق ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾:

تَعظيمُ القُربِ وتَوسيعُ دائِرَةِ الكَرامَةِ ليكونَ عُنوانًا على السّابِقين

لَم يُذكر مُتَعَلِّقُ ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ "لِظُهورِ أنَّهُ مُقَرَّبٌ مِنَ اللّه، أي: مِن عِنايَتِهِ وتَفضيلِهِ، وكَذَلِكَ لَم يُذكر زَمانُ التَّقريبِ ولا مَكانُهُ لِقَصدِ تَعميم الأزمانِ والبِقاع الاعتِباريَّة في الدُّنيا والآخِرَة"[1]. فجاءَ هَذا الحَذفُ لِمَقصودٍ بَلاغيٍّ يُرادُ مِنهُ تَعظيمُ القُربِ وتَوسيعُهُ، ليَشمَلَ كُلَّ أوجُهِ الكَرامَة الإلَهيَّة، ويَجعَلَ المُتَلَقّي لِلخِطابِ يَتَأمَّلُ في المَعنَى ويَتَوَسَّعُ فيه، دونَ أن يُحصَرَ في وجهٍ واحِدٍ مِن وُجوهِ القُربِ. وكَأنَّ المَعنَى: هَؤُلاءِ مُقَرَّبونَ مِنَ اللّه، ومِن رَحمَتِهِ، ومِن عِنايَتِهِ، ومِن مَلائِكَتِهِ، ومِن مَظانِّ الرِّضا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 288.

والرِّضوانِ، ومَقاماتِ التَّشريفِ، ومَراتِبِ الرُّؤيَةِ والمُجالَسَةِ، في الدُّنيا والآخِرَةِ، وليكونَ اللَّفظُ عُنوانًا عليهِم دونَ سواهُم.

دفع توهُّم الانشغال بالملذّات المعنويّة عن النَّعيم المحسوس

فائدة الخبر الثّاني:

جاءت الجملة القرآنيَّة ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بعد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ لتكون خبرًا ثانيًا أو حالًا من الخبر الأوَّل، وعلى الإعرابين ففيها مزيد فائدةٍ خبريّة، بقطع النّظر عن الإعراب الصّناعيّ، وإيقاعه بعد وصف ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يُشير إلى أنَّ مضمونه من آثار التّقريب المذكور[1]، وهي إضافة بلاغيَّة فائقة التَّناسق، تكشف عن بعض آثار هذا القرب الإلهيِّ، وتُفصّل ما أجمله المقام السّابق. فإذا كان ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يدلُّ على شرف القرب والمقام الرَّفيع، فإنَّ قولَه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يكشفُ أنَّ هذا القرب لم يجرِّدهم من النَّعيم، بل هو قربٌ تتبعه أعظم مظاهر الجزاء. فهم أهل الرّوح والرَّيحان، والرِّضا والرِّضوان، والجوار والجنان، وبه يندفع وهْمُ أنَّ المقرَّبين مشغولون بمقامهم عن نعيم الجنَّة، فجاء هذا البيان ليردّ ذلك التَّوهُّم، ويُثبت أنَّ هؤلاء يجمعون بين شرف القرب وجمال النَّعيم، في أكمل صور السَّعادة.

المقرّبون في النَّعيم إحاطةُ مقامٍ لا مجرّد مكان

بلاغة استعمال حرف الظَّرفيَّة:

ورَدَ في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ استعمالُ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ وهي للوعاء[2]، دلَّ على ما هو أعمقُ من مجرَّدِ الدَّلالةِ المكانيَّة، إذ احتوى في طيّاته إشعارًا بالاستقرارِ والتَّمكين، بل التَّشريفِ المكين، فكان القوم في الجنَّة لا على أطرافها، ولا عابري نعيمها، بل في سويداء أنحائها، محاطين ببهجتها إحاطةَ اللُّبّ بالقشر، لا ينفصلون عن النَّعيم ولا ينفكُّ عنهم؛ فأفاد حرف الظّرفيّة التَّمكُّن

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 289.

(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 308، والمُبرِّد، المقتضب: 4/ 139.

الكامل، كما يُقال: هو في دار الإمارة، لا بمعنى المرور بها، بل المقام فيها والاستيطان، وهذا أبلغ ممّا لو قيل: عند جنّات النَّعيم أو إليها، فإنَّ ذلك يوهم الحضور دون استغراقٍ ولا تمكين.

دلالة إضافة ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

حلولُ النَّعيم في الجنّات حلولٌ حقيقيٌّ وثباتٌ سرمديّ

أُضيف لفظ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾، من باب إضافة الظَّرف إلى ما يحلّ فيه، إذ النَّعيم حالٌّ في هذه الجنّات لا يفارقها، فصار النَّعيم مقيمًا فيها استقرار المَلِكِ في ملكه. فهذه الإضافة بمعنى (في)؛ وذلك لأنَّ المضاف إليه ظرف وقع في المُضاف[1]، فهي ليست جنّات فحسب، بل جنّاتٌ مختصَّة بالنَّعيم، مؤهَّلة له، لا يشوبها نصب، ولا يعتريها كدر، كأنّ النَّعيم فيها لا يُتصوَّر في غيرها. وفائدتها أنَّ الجنَّة في الدُّنيا قد تكون للنَّعيم، وقد تكون للاشتغال والتَّعيُّش بأثمان ثمارها، بخلاف الجنَّة في الآخرة فإنَّها للنَّعيم لا غير[2].

غرض جمع ﴿جَنَّٰتِ﴾:

تنوّع الجنّات وتعدّدها تكثير النِّعَم في المحسوسات والمعنويّات

جاء التَّعبير بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، ولم يقل: (جنَّة النَّعيم)؛ وذلك لحكمة بلاغيَّة بليغة، تُفصح عن معانٍ متعدِّدة وأغراض دقيقة، تتناسب مع المقام والمقام؛ فجمع ﴿جَنَّٰتِ﴾ يُفيد تعدُّد المواضع وتنوُّع مظاهر النَّعيم؛ فهي جنّات لا جنَّة واحدة، ولكلِّ جنّة منها شأن، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين من مساكن وقصور، وأنهار وظلال، ومطعومات ومشروبات، وأنس وقرب، وسلام من ربٍّ رحيم، وكلُّ ذلك في مراتب متفاوتة تناسب درجات المقرَّبين، فاستعمال الجمع يدلُّ على التّكثير، وفيه إعلاءٌ لمقام أهلِ القرب، كأنَّ لكلِّ واحدٍ منهم جنَّته الخاصّة الَّتي لا يُزاحَم فيها، ولا يُشارك في نعيمها.

(1) ابن عقيل، شرح ابن عقيل: 2/ 3، والرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 1/ 298 - 299.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتح الغيب: 29/ 391.

فائدة استعمال مفردة ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

تعظيم حقيقة النّعيم والتّنويه بفخامةِ شأنه

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، مفردًا منكّرًا، دون اسم من أسماء الجنان كـ(عدن) أو (الفردوس)؛ وذلك لمقصد بلاغيّ بديع، فيه دلالة على الإطلاق والتَّعميم، لاختصاص المقام ببيان حقيقة النّعمة لا بموضعها.

وجذر الكلمة (نعم)؛ والنّون والعين والميم فروعه كثيرة، وهي على كثرتها راجعة إلى أصل واحد يدلُّ على ترفُّهٍ وطيب عيش وصلاح[1]. فالنَّعيم - وإن كان مظروفًا في الجنَّة - إلّا أنَّ الغرض هنا تعظيم حقيقته لا تعيين محلّه، إذ المقرَّبون قد استكملوا أسباب القرب، فكان جزاؤهم نعيمًا مطلقًا، لا تقييد فيه بمكان ولا تخصيص بزمن، بل هو نعيم شامل تامّ في كلِّ جوانبه: في النَّظر، والسَّمع، والمأوى، والرِّضوان، والنَّظر إلى وجه اللّه الكريم. ولما في الإطلاق من الإبهار، وفي الإبهام من التَّشويق، وفي عموم اللَّفظ من سَعة المعنى، إذ يتناول ما عُرف من النَّعيم وما لم يُدرَك، وما خُيّل وما لم يخطر على قلب بشر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّابق والمسارع:

سـرّ التَّـكـريـر وبـلاغـة اختيار لفظ (السّابقون) في قوله تعالى ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾

السَّبق في لسان العرب يدلّ على التَّقدُّم في الشَّيء، والأخذ فيه قبل غيره ويكون ذلك مطلقًا، فيكون السّابِق في أصل اللُّغَة قد اقتضى مَسبوقًا[2]. لا تُشترط فيه العجلة أو السُّرعة الظّاهرة، بل تكفي فيه المبادرة والتَّقدُّم، ولو بهدوء وثبات. وأمّا (المسارعة) فهي تدلّ على العجلة في الشَّيء، والمسابقة فيه[3]، والمغالبة في الوصول إليه، وإن لم يكن المتسارع أوَّل الدّاخلين فيه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/ 120.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرع).

فمن هذا الوجه، كان (السّابق) أبلغَ في الدّلالة على التَّقدُّم الذّاتيِّ، والاختصاص بالرُّتَب الأولى، وأدلّ على الثَّبات والاستمرار، وأعمّ في المعنى من (المسارع)، الَّذي قد يشارك فيه كثيرٌ ممَّن تلهَّف، ولو لم يوفَّق للسَّبق الحقيقيِّ.

وفي تكرير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ تنبيه على أنَّ هذا الوصف قد استقرَّ فيهم، فهم المتحقِّقون به في أقصى مراتبه، لا ممَّن سبَق مرَّةً ولَحِق، بل هم ممَّن سبق واستمرَّ، وتقدّم وثبَت، فصار لهم السَّبق سجيَّة، ولم يكن طارئًا أو عارضًا.

ولمّا كان المقام مقامَ تمييزٍ بين أصناف الخلق الثَّلاثة: أهل الميمنة، وأهل المشأمة، والسّابقين، جيء لهذا الفريق بالوصف الأخصّ، ليدلّ على رفعة درجتهم، وشرف منزلتهم، إذ هم الصَّفوة الَّذين سبقوا في الإيمان، وسارعوا في الطّاعة، وثبّتوا أقدامهم في مراتب القُرب، حتَّى نالوا الزُّلفى عند الله، فكان جزاؤهم كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

فأمّا (المسارعون)، فإنَّما يُذكر وصفهم في مقام الحثّ والمنافسة، فذلك خطاب لمن لم يبلغ الرُّتبة، وندبٌ له إلى المسارعة. وأمّا من بلغ الذِّروة، وتحقَّق بالسَّبق، فقد خرج من مقام التَّوجيه إلى مقام البيان والثَّناء.

﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ
١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧
بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا
يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١
وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
٢٤ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾

[الوَاقِعَة: 13 - 26]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بلاغة التّدرُّج من الإجمال إلى التّفصيل في وصف السّابقين

لمّا ذَكرت الآيات السّابقة الأصناف الثَّلاثة وخُتمت بذكرِ السّابقين، وأُجمل حالهم بأنَّهم المقرَّبون في جنّات النَّعيم، جاء ما بعد ذلك تفصيلًا لما أُجمل، وشرحًا لمقامهم الشَّريف، وبيانًا لوجه استحقاقهم لهذا القرب، وما أُعِدّ لهم من كرامة، فجاء النَّظم القرآنيُّ على عادته البديعة في التَّمهيد أوَّلًا بالإجمال، ثمَّ التَّعريج على التَّفصيل، وذلك أبلغ في التَّشويق، وأقوى في التَّأثير على السّامع. فكأنَّ المتلقّي لمّا سمع ذكر السّابقين، وتوكيد سبقهم بتكرار الاسم، ثمَّ ختم حالهم بذكر قربهم من اللّه.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثُلَّةٞ﴾: الثُّلَّة: الجماعةُ من النّاسِ[1]. لا واحدَ لها من لفظها. وقيل: هم الجماعةُ الكثيرةُ، والثُّلة: الأُمَّة من النّاس الكثيرة[2]. والثُّلَّةُ في السّياق القرآنيِّ يُراد بها الكثرة الغالبة بحسب المقابلة،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثلّ).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.

فلمّا ذكر بعدها قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ دلَّ على أنَّ المراد بالثلّة الكثرة، ويُراد بها النِّصف، كما جاء في حقِّ أصحاب اليمين، إذ جاء قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، وهذان الموضعان في القرآن الكريم في هذه السّورة جاء لكلٍّ منهما دلالة بحسب المقابلة.

2) ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾: "منسوجة نسجًا مضاعفًا منضودة داخلًا بعضها في بعض مقارب النَّسج معجبًا كالدِّرع، لكن نسجها بالذَّهب مفصَّلًا بالجوهر من الدُّرِّ والياقوت"[1]. و"عَلى سُرُرٍ مَوضونَةٍ، أي: منسوجة. كأنَّ بعضها أُدْخِل في بعض، أو نُضِّد بعضها على بعض. ومنه قيل للدّرع: موضونة. ومنه قيل: وضين النّاقة. وهو بطان من سيور يُرصَّع ويُدخَل بعضه في بعض"[2]؛ فالسُّرُر الموضونة هي سررٌ مُتقنة الصَّنعة، مشبَّكة النَّسج، قد زُيِّنَت وحُلّيَت بصفوفٍ من الذَّهب والجوهر، وأتقن صانعُها نسجها، كما تُفتل الحبال المُحْكَمة، فجاء بناءُ نسجها مُتماسكًا قويًّا جميلًا، لا رخاوة فيه ولا تفكُّك.

3) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾: المُتَّكَأ: المكان الَّذي يتَّكأ عليه، والمخدّة: المتَّكأ عليها، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: 31]؛ قيل: طعاما متناولا، من قولك: اتَّكأ على كذا فأكله[3].

ومعنى ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾: جالسين على تلك السُّرُر في هيئةِ استرخاءٍ وراحة، قد استندوا إليها واتَّخذوها مقامًا للطُّمأنينة.

4) ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: الخُلدُ: من أسماء الجنان، والخُلود: البقاء فيها، وهم فيها خالِدونَ ومُخَلَّدون. وتفسير وِلدانٌ مُخَلَّدونَ أي: مُقَرَّطون[4] بالخلَدة، وهي الَّتي توضع في الأذن، أو أن يكون المعنى الخلود في الجنّة على هيئة الأولاد، فهي كناية عن بقائهم في هذا السِّنِّ، ولا مانع أن يكون المرادُ: الأمرين.

فالمراد بـ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أنَّهم خُدّامُ أهل الجنَّة، خلقهم اللّه تعالى على هيئة الولدان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 406.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 445.
(3) الراغب، المفردات: (تكأ).
(4) الخليل، العين: (خلد).

الصّغار، حِسان الوجوه، ناعمي الأبدان، دائمةٍ نضارتُهم، لا يفنون، ولا يكبرون، ولا يتبدّلون، بل هم على صورةٍ خالدةٍ في كمال الحسن والطَّراوة، تشرح الصَّدر، وتبعث الأنس.

5) ﴿يُنزِفُونَ﴾: أنزف الرَّجل: إذا ذهب عقله من السُّكر[1]، فالمراد في الآية الكريمة أن شراب الجنّة، وإن شُرِب في أكواب وأباريق وكؤوس كما يُشرب خمر الدُّنيا، إلّا أنّه لا يُفضي إلى ذهاب العقل، ولا يوقع في سُكر، ولا يُحدِث صُداعًا، ولا خمارًا، ولا ندمًا، بل هو شرابٌ لذيذٌ نقيّ، يُبهج النَّفس، ولا يُكدّرها.

6) ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾: جذر الكلمة (كنّ)؛ كننت الشَّيء إذا خبأته وسترته أكنّه كُنّا وكنونا فهوَ مَكنون. وكلُّ شَيء سترت بِهِ شَيئًا فهوَ كنان لَهُ[2]. فالمكنون في لغة العرب هو المصون المستور، يُقال: كننت الشَّيء إذا سترته، ومنه اللُّؤلؤ المكنون، أي المخبوء في أصدافه. ومعنى ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾: الَّذي لم يُخرج من صَدَفِه، ولم تمسّه يد، ولم تطّلع عليه عين، فهو باقٍ على صفائه الطَّبيعيّ، محفوظٌ عن الكدر والتَّلويث والابتذال، سليم اللَّون، نقيّ الجوهر، تامّ الحُسن.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

نعيم المقرّبين ووصف الحور العين كأمثال اللُّؤلؤ المكنون

تصويرٌ لمقام السّابقين من عباد الله، وما أعدّه لهم في الجنَّة من مجلسٍ رفيع، ونعيم وافر، وخدمةٍ دائمة، وطعام وشرابٍ لا يُكدّر، وزوجاتٍ في كمال الطُّهر والجمال، وسَكينةٍ تحفّ المجلس، لا لغو فيه ولا معصية، بل هو مقام السَّلام والطُّمأنينة، وذلك كلُّه جزاء ما استقرّ في نفوسهم من صدق العمل، وكمال السَّير إلى الله، في دنيا زائلة، فكان الجزاء في دار لا تزول.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نزف).

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (كنن).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة البدء بتفصيل أحوال السّابقين دون أصحاب الميمنة:

تأخيرُ السّابقين عـنـد الإجـمـال توطئة للابتداءِ بـذكـرِهـم عند التّفصيل

بُدِئَ بتفصيلِ حالِ السّابقينَ دونَ تفصيلِ حالِ أصحابِ المَيمَنَةِ، معَ أنّهم قد ذُكِروا قبلَهم في التّرتيبِ الإجماليِّ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، وذلكَ لِما اقتضاهُ المقامُ من التّنويهِ بشأنِ السّابِقينَ، وتقديمِ ذِكرِهم تَقديمَ العنايةِ والإعلاءِ؛ لأنّهم خُلاصةُ المُفلِحينَ، ونُخبةُ أهلِ القُربِ، ومَن خَصَّهُمُ اللّه بالوسيلةِ العظمى من مراتبِ الجنّاتِ، فكانَت حالُهم أحقَّ بالبَسطِ والتّقديمِ، إذ كانت ذروَةَ المقاماتِ الّتي تُؤهِّلُ أصحابَها لأن يكونوا منَ المُقَرَّبينَ.

فبعد بيان أقسام الأزواج لم يعد إلى بيان حالهم على ترتيب ذكرهم، بل بيَّن حال السّابقين مع أنَّه أخَّرهم، وأخَّر ذكر أصحاب الشِّمال مع أنَّه قدَّمهم أوَّلًا في الذِّكر على السّابقين، إذ قدّم من ينفعه ذكر الأهوال، وأخَّر من لا يختلف حاله بالخوف والرَّجاء، وأمّا عند البيان فذكر السّابق لفضيلته وفضيلة حاله[1].

بلاغة استعمال مفردة ﴿ثُلَّةٞ﴾:

التّناغم البلاغيُّ بـين الـتَّـحـديـد الكيفيِّ والتَّمييز النَّوعيِّ

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿ثُلَّةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، دونَ أن يَقولَ: (جَماعةٌ) أو (فِئَةٌ) أو ما يُقارِبُها مِنَ الألفاظِ العامَّةِ، وذلكَ لِما في لفظِ ثُلَّةٍ مِن خُصوصيّةٍ في دلالَتِها، تُضفي على الموصوفِ بها مَسحَةَ فضيلةٍ، ورُقيًّا في التَّصنيفِ.

فـ﴿ثُلَّةٞ﴾ - وإن كانت في أصلِها تدلُّ على جماعةٍ منَ النّاسِ - إلّا أنّها تَختصُّ عندَ العربِ بالجماعةِ الّتي تَجتمعُ على أمرٍ فاضلٍ، كأن يكونوا نخبةً في قومِهم، أو خيارًا في جماعتِهم، بخلافِ لفظِ (جماعة) الّذي قد يُطلقُ على عامّةِ النّاسِ في جُملَةٍ واحدةٍ، من غيرِ دلالةٍ على التَّفاضلِ أو الامتيازِ.

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتح الغيب: 29/ 390.

وقد وردَ لفظُ (الثُّلّةِ) في كلامِ العربِ لِدَلالةٍ على النُّخبةِ أو الجَماعَةِ من النّاس[1]، كقولهِم: (فيهم ثُلّةٌ من كِرامِ القوم)؛ ولذلكَ كانَ اختيارُها في هذا الموضعِ مبنيًا على مقصدٍ بلاغيٍّ يُشيرُ إلى شَرَفِ تلكَ الجماعةِ الّتي كانت منَ الأوّلينَ، وأنّهم هُم خيارُ أهلِ زمانِهم.

أغراض تنكير لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾:

إجمال مشوّق وتمييز مهيب لمن اصطفاهم الله في السّابقين

نُكِّر لفظُ ﴿ثُلَّةٌ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، دونَ تعريفِها بـ (الثُّلّة) أو إضافتِها، فإنَّهُ من نُكتِ الإيجازِ الّذي تومِئُ بِه بلاغةُ القرآنِ إلى معانٍ متعدِّدَةٍ، تتنوَّعُ بينَ الإجلالِ، والإبهامِ المَهيبِ، والدّلالةِ على القِلّةِ المنتقاةِ المخصوصة. فأوّلُ ما يُفهَمُ من التّنكيرِ الإيحاءُ بأنّ تلكَ الثُّلّةَ ليستِ المألوفةَ عندَ النّاسِ، ولا المعرَّفةَ بينَ الخلقِ، بل هي ثُلّةٌ مخصوصةٌ[2]، من طِرازٍ نادرٍ، تنطوي على صفوةٍ لا تُدرَكُ أقدارُها إلّا بعلمِ اللّهِ، فجاءَ التّنكيرُ تحقيقًا لهذا الإيهامِ المقصودِ، لِتَعظيمِ شأنِهم على وجهٍ غيرِ مباشرٍ.

وثاني ما يُفادُ: الإجمالُ المشوِّقُ، إذ لم يُفصِحِ النّظمُ عن عددِ تلكَ الثُّلّةِ، ولا عن أسمائِهم، ولا عن قبائلِهم، بل أبقاهُم في حيّزِ الإجمالِ والتّعظيم؛ ليُثيرَ في القلبِ التَّطلُّعَ إلى مَنزِلَتِهم، ويَبعثَ في النّفسِ رغبةً في لحاقِهم، فكانَ التّنكيرُ أبلغَ في التّشويقِ، وأدقَّ في التّوجيهِ التَّربويِّ.

وثالثُ الأغراضِ: أنَّ التّنكيرَ دالٌّ على الكثرة المستفادة من السّياق، فقوله ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ كفى به دليلًا على الكثرة. والمعنى: إنَّ السّابقين من الأوّلين كثير، وهم الأمم من لدُنْ آدمَ ﵇ إلى محمَّدٍ ﷺ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ وهم أمّة محمَّدٍ ﷺ[3].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ثلة).
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.

مفردةُ ﴿ثُلَّةٞ﴾ بين الابتداءِ والخبريّة:

حملُ (ثُلَّة) على الخبريّة أرسخُ في التّجاوبِ في النّظم وأخصّ دلالة

يحتمل لفظ ﴿ثُلَّةٞ﴾ أن يكون مبتدأً وخبرًا، وكلاهُما جائزٌ من جهةِ اللّفظِ، غيرَ أنَّ لكلِّ وجهٍ مَسربًا في المعنى ومَجرًى في التّقدير، فمَن رأى أنَّ ﴿ثُلَّةٞ﴾ مبتدأٌ، جعلَ ما بعدها - أعني: ﴿مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ - جارًّا ومجرورًا خبرًا عن المبتدأ، على القاعدةِ المشهورةِ، ويكونُ قد استُؤنِفَ به الكلامُ بعدَ الانتهاءِ مِن ذكرِ المقرَّبينَ، فكأنَّه قالَ: في تلكَ الجِنانِ ثُلَّةٌ منَ الأوَّلينَ، ويكونُ هذا من قبيلِ استئنافِ التّوزيعِ بعدَ تقريرِ الفضلِ.

وأمّا من نَزعَ إلى أنَّ ﴿ثُلَّةٞ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، فالتّقديرُ عنده: هم ثُلَّةٌ منَ الأوَّلينَ[1]. أي: إنَّ المقَرَّبينَ الّذينَ ذُكروا آنفًا، هُم هذه الثّلّةُ المُشارُ إليها، فيكونُ ذلكَ من بابِ الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ لأنّ اسمَ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ قد دلَّ على المقرَّبينَ، فجيءَ بعدَه بـ﴿ثُلَّةٞ﴾ مع وصفِها لتعيينِهم.، وأنّ السّابقين ثلَّة من الأوَّلين وقليل من الآخرين، وهذا الاعتراض يقصد منه التّنويه بصنف السّابقين وتفضيلهم بطريق الكناية عن ذلك بلفظي ﴿ثُلَّةٞ﴾ و﴿وَقَلِيلٞ﴾ المشعرَين بأنّهم قُلٌّ من كُثرٍ، فيستلزم ذلك أنّهم صنفٌ عزيزٌ نفيسٌ لما عُهد في العرف من قلّة الأشياء النّفيسة[2].

ويُستأنَسُ لهذا التّوجيهِ الثّاني، بما في قولهِ تعالى بعدَه: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، فإنّه جارٍ على نمطِ التّوزيعِ، فكأنَّ كِلا العبارتين: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، خبرانِ عن المقرَّبينَ، يوزَّعون بهما بحسبِ الزّمانِ.

والأقربُ في بنيةِ النَّظمِ القرآنيِّ: أن يكونَ الوجهُ الثّاني هو الأنسبُ؛ لما فيه من ربطِ التّوزيعِ بالفضلِ لا بالابتداءِ الإنشائيّ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 289.

فيجيءُ التّقديرُ: أولَئِكَ المُقَرَّبونَ في جَنَّتِ النَّعيمِ هُم ثُلَّةٌ مِّنَ الأوَّلينَ، وقَليلٌ مِّنَ الآخِرينَ، فيَستقيمُ السّياقُ في ذِكرِ الكثرةِ والقِلّةِ في طبقةِ المقرَّبينَ.

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

التّبعيض مستفادٌ من حرف (مِن) ولفظ (ثلّة)

﴿مِّنَ﴾ الواردةُ في قولِه تَعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ للتّبعيضِ، فهُم جزءٌ من جماعةِ الأوّلينَ أو الآخرينَ، وهذا ما ذهب إليه سيبويه؛ فاقتضى أنَّ السّابقين في الأزمنة الماضية وزمان الإسلام حاضِره ومستقبله بعضٌ من كلٍّ، والبعضيَّة تقتضي القلَّة النِّسبيَّة ولفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾ مشعرٌ بذلك ولفظ (قليل) صريحٌ فيه[1].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

الأوّلون هم جميعُ الأممِ السّابقة المنذَرة دون استثناء

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، بأنَّهم معروفون لدى السّامعينَ، إمّا بالذِّكرِ السّابقِ، أو بشهرتِهم في الخطابِ الدّينيِّ، وليُعطي مدلولًا جامِعًا لَمعنى السّابقةِ والفضلِ، "فلا جرم أنَّ المراد بـ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأممُ الأولى كلُّها، وكان معظم تلك الأمم. أهل عنادٍ وكفرٍ، ولم يكن المؤمنون فيهم إلّا قليلًا كما تنبئ به آياتٌ كثيرة من القرآن"[2]؛ فالتّعريفُ هنا للجنسِ؛ لأنَّ الأوَّليّة هي أوَّليّة الأمم السّابقة في الوجود الزّمانيِّ، لا أوَّليّة في وصفٍ آخر، فالأوَّلون يشمل جميع الأمم السّابقة، فمنهم كانت الثلّة السّابقة إلى الإيمان.

دلالة العطف التَّقابليّ بين (قليل) و﴿ثُلَّةٌ﴾:

قوبل في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ بين لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾ ولفظ (قليل)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الثُّلّة من الأوَّلين أكثر من القليل من الآخرين، والثُّلَّة: اسم للجماعة من النّاس مطلقًا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 291، وسيبويه، الكتاب: 2/ 307.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 290.

قليلًا كانوا أو كثيرًا[1]. ودلَّ التّقابل في الآيةِ على أنَّ المراد بالثُّلَّةِ: الأمَّة الكثيرة من النّاس، بدليل قوله ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، والمعنى: أنّ السّابقين من الأوّلين كثير، وهم الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى محمَّد ﷺ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[2].

التّقابل يحمل دلالاتٍ نسبيَّةً في تحديد المقصودِ بالألفاظِ وتعيين المراد

وأمّا دَلالةُ العَطفِ التّقابُليِّ بينَ قولِهِ تَعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، فهيَ ممّا يُستَخرَجُ منهُ لطيفُ الإشاراتِ وأسرارُ البلاغةِ، إذ العطفُ هنا ليسَ لمجرَّدِ الجمعِ، وإنّما هو عَطفٌ على وجهِ التّقابُلِ التّقديريِّ في العددِ، أي أنَّ هذا التّقابلَ إنّما سيقَ لإفادةِ المُغايرةِ في الكمِّ لا في الجهةِ؛ فإنَّ التّقابُلَ يُفيدُ الافتراقَ في الكمِّ، فيَدلُّ على أنَّ الثُّلَّةَ من الأوّلينَ أكثرُ عددًا من القليلِ من الآخِرينَ، وإن لم تكن هي الكثرةَ المطلقةَ، فهيَ الكثرةُ النّسبيَّةُ في هذا الموطنِ، وهذا مَقامٌ من بلاغةِ المُقابلةِ الإضافيّةِ، الّتي لا تُدرَكُ إلّا بقراءةٍ تُراعي نظمَ الجملِ وسياقَ التَّقسيم، وهذه النِّسبةُ البيانيّةُ تُقرّرُ معنى الامتدادِ عبرَ الأزمانِ، مع التَّفاوتِ في القِلَّةِ والوفرةِ.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

الآخـــرون هم الأمّـة المحمَّديّة الّـتـي هـي آخـرُ أممِ الإسلامِ

لفظُ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، تعريفٌ بـ (أل) الجنسيّةِ، لا العهديّةِ، والمقصودُ به جنسُ من جاءَ بعدَ الأوّلينَ من هذهِ الأمّةِ، فيَصدقُ على أهلِ الإسلامِ في العصورِ المتأخّرةِ، كما يَدخلُ فيه كلُّ مَن تأخّرَ زمنُه عن زمنِ الصّفوةِ الأوَّل[3].

فجاءَ تعريفُ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ ليُقابِلَ تعريفَ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ إذ قُصِدَ بهما الاستيعابُ النّسبيُّ للفريقينِ، فجُعلَ الآخرونَ معروفينَ لا بإشارةِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 291.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 457.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 50.

عُرفٍ خارجيٍّ، بل بما تَقَرّرَ في الأفهامِ من أنّ الزّمانَ ينقسمُ إلى أسبقَ وألحَقَ، فجاءَ لفظُ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ مُعرَّفًا؛ ليُفيدَ عمومَ المتأخّرينَ في جُملَتِهم.

وهو من لطيفِ النّكتِ أن يُؤتَى بالتّعريفِ في هذا الموضع، فإنَّ ذكرَ ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في سياقِ بيانِ المقرَّبينَ يوهِمُ أنَّ الآخرينَ في الجُملةِ لم يوفَّقوا إلى بلوغِ هذهِ المنزلة؛ فكانَ في تعريفِهِم إشعارٌ بمسؤوليّتِهِم وجِدّيّةِ التّمييزِ بينهم، لا على سبيلِ التّقليلِ العدديّ فحسبُ، بل على وجهِ الإحالةِ إلى جماعةٍ يُعرَفُ تأخّرُها زمانًا أو رتبةً.

دلالة المقابلة بين ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

معظم السّابقين من الأوّلين لكثرة الرسل فيهم وعظيم البلاء النّازل عليهم

دلَّتِ المقابلةُ بين ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى ما بينهما من تغايرٍ زمانيٍّ، فالأوّلونَ هم السّابقونَ في الزّمانِ، والآخرونَ هم المتأخّرونَ عنهُم، وقد جرتِ العادةُ عندَ العربِ في النّسَبِ أن تُقابلَ الأوّليّةُ بالآخريّة، ليكتملَ بذلكَ الطّرفانِ في تصوّرِ الامتدادِ الزّمنيِّ.

فجاءَ هذا التّقابلُ اللّفظيُّ ليُرَسِّخَ في الذّهنِ عموميّةَ الامتحانِ الإلهيِّ في كلِّ زمانٍ، غيرَ أنّ التّفاوتَ بينهما بيّنٌ في النّسبةِ العدديّة، إذ جُعلَتِ الثُّلَّةُ من الأوّلينَ، وجُعلَ القليلُ من الآخرينَ، إشارةً إلى تفاوُتِ حالِ النّاسِ في هذينِ الزّمانين، وأنَّ السّبقَ في الطّاعةِ والفضلِ أكثرُ وقوعًا في سالفِ الأزمانِ، وذلك لكثرةِ الأمم السّابقة، فكان فيهم الرُّسل والنَّبيّون والصِّدّيقون وأتباع الأنبياء، بخلاف هذه الأمّة فرسولها واحد، وأصحابه عددهم قليلٌ بالنِّسبةِ لأصحاب الرُّسل السّابقين، فضلًا أنَّ الثّبات في الأمم السّابقة يحتاج إلى عزيمة وقوّة، فظفر في معظمها السّابقون، بخلاف أصحاب اليمين الَّذين تساووا مع الآخرين كما سيأتي.

الجواهر النَّفيسة قليلة في المعادن والسّابقون مثلها في الأمم

نكتة الاعتراض:

جاءت جملة: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ اعتراضًا بيانيًّا بين الجملةِ المسوقةِ في وصفِ السّابقينَ وجزائها، أي: قولهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، لما في ذلك من تقريرٍ لأهمّ أوصافِهم وأظهرِ خصائصِهم، وهو كونُهم ثُلّةً من الأوّلينَ وقليلًا من الآخِرينَ؛ فجاء هذا الاعتراضُ؛ لإفادةِ النِّسبةِ الإجماليّةِ في عدَدِهم، ولِتقديرِ مرتبتِهم الزّمانيّةِ، إذ في ذكرِ هذا التّفاوتِ بين الأوّلينَ والآخِرينَ بيانٌ لمواقعِ السّبقِ والفضلِ من حيثُ الزّمنُ، كما أنَّه إيذانٌ بتفاوتِ استجاباتِ النّاسِ لدعوةِ الإيمانِ بحسبِ أحوالِ العصورِ.

وهذا الاعتراض يقصد منه التَّنويه بصنف السّابقين بطريق الكناية عن ذلك بلفظي ﴿ثُلَّةٞ﴾ و(قليل) المشعرَين بأنَّهم قُلٌّ من كُثر، فيستلزم ذلك أنَّهم صنف عزيز نفيس لما عهد في العرف من قلَّة الأشياء النَّفيسة[1].

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لمّا نزلت: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين فنزلت: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، فقال: «أنتم ثلثُ أهلِ الجنَّة، بل أنتم نِصفُ أهلِ الجنَّة وتُقاسِمونَهُمُ النِّصفَ الباقي»[2].

بلاغة تقديم ذكر نِسَبِ السّابقين على ذكر النَّعيم بخلاف أصحاب اليمين:

التّنويه بالسّابقين والتّنبيه على نعيمهم الرَّفيع

قُدِّم ذكر قولِه تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ على بيانِ ما لهم من النّعيم، وذلك من بديعِ الأسلوبِ القرآنيِّ الّذي يجمعُ بين التّفصيلِ في التّقسيم والتّمهيدِ للمقامِ الجزائيِّ؛ ليكونَ الحديثُ عن النّعيم مسبوقًا ببيانِ حالِ أهلهِ، فيزدادَ وقعُ الجزاءِ في نفسِ السّامعِ، وتتأكّدَ منزلتُهم في تصوّرِه.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 289.

(2) المُزينيّ، المحرّر في أسباب نزول القرآن: 2/ 941، ويُنظر: أحمد، المسند، حديث رقم: (9080).

وقد قُدّمَتِ الجملةُ الاعتراضيّةُ لما فيها من تمهيدٍ تمجيديٍّ لأهلِ هذه المرتبةِ، ولِما في هذا الاعتراض من الإشعار بالعزَّة، قُدِّمَ على ذِكرِ ما لَهُم مِنَ النَّعيمِ لِلإشارَةِ إلى عَظيم كَيفيَّتِهِ المُناسِبَةِ لِوَصفِهِم بـ (السّابِقينَ) بخِلافِ ما يَأتي في أصحابِ اليَمينِ[1]. كأنّما أُبرزت النّسبةُ العدديّةُ لهم قبلَ التّنويهِ بجزائهم، ليُعلَمَ أنَّ ذلك النّعيمَ الّذي سيُذكرُ لهم، إنّما هو جزاءُ طائفةٍ متميّزةٍ بالاصطفاءِ والزّمانِ والقلّةِ؛ فهو تنويهٌ وتنبيهٌ، وإشعارٌ بأنَّ ما كان لهم لا يكون لعمومِ أصحاب اليمين.

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء:

علوُّ المقام ورفعة الشّأن صفة الاتّكاء

وأمّا بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ في قولهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ فذلكَ من محاسنِ البيانِ القرآنيِّ، إذ لم يُكتَفَ بمجرَّدِ ذكرِ السّررِ مقرًّا للمقرّبينَ، بل عُبِّرَ عن حالِهم بأنَّهم فوقَ السّررِ، لا إليها ولا عندها، فاستُعمِلَ حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ وهو حرفُ الاستعلاءِ الحقيقيِّ[2]؛ ليُفيدَ الإشعارَ برفعةِ مكانهم، وعلوِّ منزلتِهم، وتربُّعِهم في مجلسِ الكرامةِ.

فليس المرادُ مجرّدَ الجلوسِ، بل هو جلوسُ المتربِّعِ المرتفِعِ المتمكِّنِ في موضعِ الإكرامِ والرّاحةِ، وهو أبلغُ من أن يُقالَ: (في سررٍ)، أو (عند سررٍ)؛ لأنَّ ﴿عَلَىٰ﴾ تُفيدُ التَّمكُّنَ والاستقرارَ في العلوِّ، وهي هيئةُ الملوكِ وأهلِ السّيادةِ.

نكتة جمع ﴿سُرُرٍ﴾:

كثرةُ النّعيم المقيم تعريضٌ بنعيم أهلِ الأرض

السُّرر: جمع سرير، وهو كرسيٌّ طويل متَّسع يجلس عليه المُتَّكِئ والمضطجع، ويتَّخذه الملوك من ذهبٍ ومن فضَّة ومن عاج. والسَّرير مجلس العظماء والملوك[3]، وجُمِع لَفظُ ﴿سُرُرٍ﴾ ونُكِّر؛ للإيماءِ إلَى

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 289.
(2) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 369، والُمبرّد، المُقتضب: 1/ 46.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 292.

عَظَمَةِ النَّعيم وتَعدُّدِ مَظاهِرِه، وذَلِكَ مِن بَدائعِ التَّناسُبِ بَينَ اللَّفظِ والسّياقِ. فإنَّ جمعَ ﴿سُرُرٍ﴾ يُشعِرُ بكثرَةِ ما أُعِدَّ لَهُم من مَجالِسِ التَّكريم، ويُناسِبُ كَثرَةَ تَقلُّبِهم في النَّعيم، ويُفيدُ تَجَدُّدَ المَقامِ وتَغيُّرَ المَجلِسِ على وجهٍ يُثيرُ المَسَرَّةَ والرّاحَةَ.

نكتة تنكير لفظ ﴿سُرُرٍ﴾:

تنكيرُ المجموعِ إيماءٌ إلى التّنوُّعِ الكثيرِ والتَّعدُّدِ الوفيرِ

نُكِّر لفظ ﴿سُرُرٍ﴾ للنّوعِ، ولِلتَّفخيم والتَّعظيم؛ فهي سُرُرٌ عَظيمَةٌ، بالِغَةٌ في الحُسنِ والزّينَةِ مبلغًا شريفًا، لا يُشبِهُها في الدُّنيا سَريرٌ، ولا يَبلُغُ وصفَها خَيالٌ ولا تَصوُّرٌ، وتنكير المجموعِ ﴿سُرُرٍ﴾ يُفيدُ تَنَوُّعًا في الأشكالِ، فكَأنَّ سُرُرَهُم لَيسَت على نَمَطٍ واحِدٍ، بَل كُلُّ سَريرٍ لَهُ زينَةٌ وصِفَةٌ ومَقامٌ، ففي ذَلِكَ تَصويرٌ لِلتَّنعيمِ المُطلَقِ الَّذي لا يُحَدُّ ولا يُحصَرُ.

وَفي الجَمعِ مَعَ التَّنكيرِ جَمعٌ بَينَ التَّكثيرِ والتَّفخيم، وهوَ مِن أبلَغِ أنواعِ التَّصويرِ القُرآنيِّ في مَواقِفِ الإجلالِ.

بلاغة استعمال اللّفظ الغريب ﴿مَّوۡضُونَةٖ﴾:

الإيماءُ إلى إحكامِ النّسجِ وغلاءِ المنسوجِ بتصويرٍ بديعٍ

الوَضنُ: نَسجُ الدِّرعِ، ويُستَعارُ لِكُلِّ نَسجٍ مُحكَمٍ[1]، والمَوضونَةُ في قوله تَعالَى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ﴾: المَسبوكُ بَعضُها بِبَعضٍ كَما تُسبَكُ حَلَقُ الدُّروعِ، وإنَّما توضَنُ سُطوحُها وهيَ ما بَينَ سوقِها الأربَعِ حَيثُ تُلقَى عَلَيها الطَّنافِسُ أوِ الزَّرابيُّ لِلجُلوسِ والاضطِجاعِ لِيَكونَ ذَلِكَ المَفرَشُ وثيرًا فلا يُؤلِمُ المُضطَجِعَ ولا الجالِسَ. وفَسَّرَ بَعضُهُم ﴿مَّوۡضُونَةٖ﴾ بمَرمولَةٍ، أي مَنسوجَةٍ بِقُضبانِ الذَّهَبِ[2] "[3]، وإنَّما سمَّت العربُ وضينَ النّاقة وضينًا؛ لأنَّهُ منسوجٌ[4]. ما يُشيرُ إلَى أنَّ تِلكَ السُّرُرَ قَد نُسِجَت بِحَبكٍ مُحكَمٍ، مُتقَنِ التَّركيبِ، على نَسَقٍ

(1) الراغب، المفردات: 1/ 874.
(2) نافع بن الأزرق، غريب القرآن في شعر العرب، ص: 201.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 292.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 122.

فاخرٍ، كأنَّما خُلقت موضونة، يَجمَعُ بَينَ جَمالِ الشَّكلِ وغَلاءِ المادَّة، إذ إنَّ (الوَضن) الَّذي تُحاكُ بِهِ هذِهِ السُّرُرُ هوَ مِن خُيوطِ الذَّهَبِ أوِ الفِضَّةِ أوِ الحَريرِ.

وَإنَّ في قِلَّةِ وُرودِ هذِهِ اللَّفظَةِ في سائِرِ الكَلامِ العَرَبيِّ ما يُثيرُ في النَّفسِ تَوَقُّفًا وتَدَبُّرًا، ويوَلِّدُ إحساسًا بعَظَمَةِ المَوصوفِ، وهوَ ما يَتَناسَبُ مَعَ سياقِ الثَّناءِ على المُقَرَّبينَ ومَجالِسِهِمُ العاليَةِ في جَنّاتِ النَّعيمِ. فكانَ التَّعبيرُ بـ﴿مَّوۡضُونَةٖ﴾ لِفظًا نادِرًا في وقعِهِ، بَليغًا في دلالَتِهِ، يُؤَكِّدُ على نُعوتِ الفَخامَةِ والإتقانِ في تَصويرِ مَجالِسِ المُقَرَّبينَ الأخيارِ.

دلالة استعمال مفردة الاتِّكاء:

الاتِّكاء: اضطجاعٌ مع تباعد أعلى الجنب، والاعتماد على المِرفَق[1]، وفي التَّعبيرِ بِهِ بصيغَةِ اسمِ الفاعِلِ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، دلالَةٌ عَلى حالٍ منَ الرّاحَةِ والسُّرورِ، إذِ الاتِّكاءُ لا يَكونُ إلّا في مَقامِ مُترفٍ، ولا يُتصَوَّرُ إلّا مَعَ الطُّمأنينَةِ ورَفاهيَةِ الحالِ، فهوَ مِمّا يُصوِّرُ النّعيمَ بمظهَرِهِ المَلموسِ في أذهانِ النّاسِ. وفي اختيارِ هذهِ الصّيغَةِ إشعارٌ بالثّباتِ والدّوامِ، لا على وجهِ الحدَثِ العارِضِ، ممّا يُناسِبُ خُلودَ المُقَرَّبينَ في دارِ الكرامَةِ. كَما أنّ قَولَهُ: (عَلَيها)، يُفيدُ تمكينَ الاتّكاءِ واستِقرارَهُ، فهُم مُتَّكِئونَ عَلى سُرُرٍ لا يَعتريها نَصبٌ ولا تعبٌ، بَل في راحَةٍ تامَّةٍ، وأُنسٍ دائمٍ.

الاتِّكاءُ تصويرٌ لمشهدِ غياب الأعباء وانتهاء الهموم

فائدة الحال ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ جمعًا:

لفظ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضَّمير في ﴿عَلَيۡهَا﴾، أي: استقرّوا عليها متَّكئين[2]. وفي إيرادِ الحالِ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ بصيغَةِ الجَمعِ، دلالَةٌ بليغَةٌ عَلى اشتراكِ جَميعِ السّابِقينَ المُقَرَّبينَ في ذلِكَ النَّعيمِ، وأَنَّهُ حالٌ

الاسترخاء والرّاحة حال الجميع فلا هموم تعتري آحادَهم ولا غموم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 292.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.

عامٌّ لَهُم لا يَختَصُّ ببَعضِهِم دونَ بَعضٍ. فالجَمعُ يُفيدُ أنّهم في مَجلِسٍ واحِدٍ، وحالٍ واحِدَةٍ، ممّا يُحقِّقُ وصفَ ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ بَعدَهُ، ويُصَوِّرُ لَنا جَماعَتَهُم وهُم في سُرورٍ وأنسٍ ومُحادَثَةٍ. وفي ذلِكَ إشعارٌ بكمالِ الأُنسِ ورُؤيةِ الأحِبّةِ وأنّهُم لَم يُفرِّق بَينَهُم تَبايُنُ المَراتِبِ في القُربِ، فكَما استَبَقوا في الدُّنيا، جُمِعوا في دارِ النّعيمِ، في سَكينَةٍ وتكامُلٍ.

بلاغة حرف الاستعلاء:

الاسـتـعـلاء المكانيُّ والمعنويُّ في وصف نعيم المقرّبين

في قَولِهِ تَعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾ جاءَ حَرفُ الاستِعلاءِ (عَلى) ليُصوِّرَ حالًا ساميَةً مِنَ النّعيم، إذِ الجُلوسُ عَلى السُّرُرِ مَظهَرٌ لِلعِزِّ والرِّفعة، وهوَ أليقُ بالمُقَرَّبينَ الّذينَ بَلَغوا غايَةَ الكرامَة. فاستِعمالُ (عَلى) دونَ (في) أو (عِندَ) يُشيرُ إلى التّعالي والتّمكُّن، وفيهِ رَمزٌ إلى استِعلاءِ حالِهِم في الجَنَّة، كَما استَعلَوا بإيمانِهِم وسَعيِهِم في الدُّنيا. وهذِهِ الدِّقَّةُ في الاستِعمالِ تُناسِبُ رَوعَةَ النَّظمِ القُرآنيِّ وبلاغَتَهُ.

بلاغة المجاز في مرجع الضَّمير:

احتمال المجاز بالحذف أو المرسل لنكتة الإيجاز والمبالغة

مرجِعُ الضّمير في قَولِهِ تَعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾ عائدٌ على السُّرُرِ في الظّاهِرِ، ومَعلومٌ أنَّ الاتِّكاءَ في عُرفِ العَرَبِ لا يَكونُ على السَّريرِ بنَفسِهِ، بَل على ما يوضَعُ عَلَيهِ مِنَ النَّمارِقِ، وهيَ الوِساداتُ والمُتَّكَآتُ، فكانَ هَذا مَجازًا دَقيقًا، إمّا على طَريقِ الحَذفِ، وإمّا على طَريقِ المَجازِ المُرسَلِ بإطلاقِ المَحَلِّ وإرادَةِ الحالِّ فيه، والمُرادُ: ما فيها، وفي هَذا التَّعبيرِ ما يُفيدُ تَفخيمًا لِتِلكَ السُّرُرِ، حَتَّى كَأنَّها نَفسَها مَوضِعُ الرّاحَةِ والرَّفاهيَةِ، فلا يُحتاجُ لِذِكرِ ما عَلَيها، إيماءً إلَى كَمالِ الزّينَةِ والهَيبَةِ فيها.

بلاغة الفصل بين الحالين بحرف الاستعلاء:

أفاد الفصل بين الحالين ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ و﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ بحرف الاستعلاء، تمكين الاتِّكاء بحرف الاستعلاء، وبيان حال الاتِّكاء في ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾؛ فالتّقابل حالٌ ثانية للمقرّبين، تُبيِّن الاتِّكاء.

فائدة بيان الحال ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾:

كمال النَّعيم في مشهد الاتِّكاء والتَّقابل

أفادت الحالُ ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ تكميلَ هيئةِ المجلسِ الرَّفيع، وإبراز سمتِ الأُنسِ والمودَّةِ فيه، فقد أفادَتِ الحالُ الأولَى ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ وصفَ هَيئَتِهم في جُلوسِهم، وهيَ هَيئَةُ المُطمَئِنِّ المُستَريحِ المُتَنَعِّم، لا القاعِدِ على ولَجٍ، ولا المُنتَظِرِ في ضيقٍ، بَلِ الجالِسِ استِقرارًا وارتياحًا، وهَذا من شَأنِ أهلِ الطُّمَأنينَةِ والسَّعَةِ.

وَأمّا الحالُ الثّانيَةُ ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾؛ فإنَّها جاءَت؛ لِتَدُلَّ على طَبيعَةِ العَلاقَةِ بَينَ الجالِسينَ، وتُكمِّلَ مَشهَدَ الأُنسِ والمَسَرَّةِ، إذِ التَّقابُلُ في الجُلوسِ أدعَى إلَى حُسنِ المُؤانَسَةِ والتَّواصُلِ، وأبعَدُ عَن نَفرَةِ القُلوبِ أوِ انصِرافِ الأنظارِ. فلَيسوا جُلوسًا على هَيئَةِ التَّنافُرِ أوِ التَّباعُدِ، ولا مُتَساندينَ على جانِبَيِ السُّرُرِ في حالِ انصِرافٍ، بَل وُجوهُهُم إلَى بَعضِهِم، يُقبِلُ بَعضُهُم على بَعضٍ بالحَديثِ والبِشرِ، على سَجيَّةِ الإخوانِ المُتَحابّينَ، لا المُتَحاشينَ ولا المُتَنافِرينَ.

وَهَذا من كَمالِ النَّعيمِ؛ فإنَّ النَّفسَ لا تَأنَسُ بالمَكانِ فحَسبُ، ولا بالمَآكَلِ والمَشرَبِ وحدَهُ، ولَكِن تَأنَسُ بالصُّحبَةِ الطَّيِّبَةِ، والمَجلِسِ المُؤنِسِ، والمَظهَرِ الجَميلِ. وقَدِ اجتَمَعَت هَذِهِ المَعاني في هَذا التَّركيبِ الوَجيزِ العَجيبِ، الَّذي جَمَعَ بَينَ راحَةِ الجَسَدِ في الاتِّكاءِ، وراحَةِ النَّفسِ في التَّقابُلِ.

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ بين الواقِعَة والطّور:

التَّناسق البيانيُّ من سمات الاختيار للتَّركيب والمفردة في آيات القرآن

قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾، وقال في الطّور: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾ [الطّور: 20]، والفرق أنَّ آيةَ الواقِعَة وردَت في سياقٍ مطوَّلٍ في بيانِ أهوالِ يومِ القيامةِ، فكانتِ الآيةُ ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ﴾ تابعةً في النَّسقِ البيانيِّ لتفصيلِ أحوالِ (السّابقِينَ)، الَّذين خُصّوا بالدَّرجةِ الأعلى من الكرامةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

ولمّا كان المقامُ مقامَ علوٍّ وسموٍّ، كان التَّعبيرُ بـ ﴿سُرُرٍ مَّوۡضُونَةٍ﴾ أنسبَ، إذِ (الموضونةُ) تدلُّ على الإتقانِ في الصَّنعةِ، والحياكةِ المحكمةِ في الباطنِ والظّاهرِ، وثنَّى ذلك بقوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾، وهو وصفٌ يشيعُ في نفسِ السّامعِ الإيناسَ والمحبَّةَ، ويُبعدُ عن كلِّ نفورٍ أو جفاءٍ، فدلَّ على سكونِ النَّفسِ وكمالِ صفاءِ المجلسِ.

وأمّا آيةُ الطّور، فإنَّها جاءت في سياقٍ مُختصرٍ، يُرادُ به تقريرُ النَّتيجةِ لا تفصيلُها: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾، فكان التَّركيزُ هنا على تنظيم السُّررِ، لا على بنيتِها وصنعتِها، وهذا مناسبٌ لمقام الجمعِ الكثيرِ الَّذي وردَ في الآيةِ قبلَها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧﴾ [الطور: 17]، ثمّ قوله: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [الطور: 18]. فجاءَ الوصفُ بـ(المصفوفةِ) ليدلَّ على حسنِ النِّظامِ، وترتيبِ الجلوسِ، إشارةً إلى أنّ كمالَ النَّعيم ليس في ذاتِ المتاعِ فقط، بل في كمالِ نظامِه وتناغمِه. ولم يُذكَر في آيةِ الطّورِ وصفُ التَّقابُلِ؛ لأنَّ المقامَ لا يحتملُ هذا التَّفصيلَ، ولأنَّ السّياقَ أرادَ الانتقالَ إلى ذكرِ الحورِ العينِ: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤﴾ [الدخان: 54]، فجعلَ هيئةَ السُّررِ تمهيدًا لما بعدَها من النِّعَم، بخلافِ الواقِعَة، فإنَّها فصلٌ قائمٌ بنفسِه، يُرادُ به استيفاءُ أوصافِ حالِ المقرَّبين.

ففي الجمعِ بين الموضعين تتجلَّى فُنونُ البلاغةِ القرآنيَّة: الموضونةُ لمقام العُلوِّ، والمصفوفةُ لمقامِ النِّظامِ، والتَّقابُلُ لمقامِ الأُنسِ، والتَّزويجُ بالحورِ لمقامِ السُّرورِ. فكلُّ موضعٍ اختيرَ له ما يلائمُه من العبارةِ والدِّلالةِ، في تناغمٍ مع الغرضِ البيانيِّ، لا اختلالَ فيه ولا زيادة.

علّة فصل جملة ﴿يَطُوفُ﴾ عمّا قبلها:

فُصِلَت جُملَةُ ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ عمّا قبلَها، مع كونِها من مُتمّماتِ نَعيمِ السّابقينَ، بأنّها جاءَت مَفصولةً استئنافًا؛ لِتُفيدَ استقلالَ هذا اللَّونِ من النّعيم في نَظمِ التّعدادِ، لا لِتُعطَى حُكمَ الحالِ المتعلّقِ باتّكائِهم أو تقابُلِهم، فإنّ الطّوافَ بالخدمةِ جارٍ في جميعِ الأحوالِ، سواءٌ كانوا متَّكئين أم غيرَ ذلك، فأُتيَ به مُنفصِلًا جُملةً مستأنفةً، تُفيدُ تجدُّدًا واستمرارًا، وتُبرزُ هذه النّعمةَ في صورةٍ مستقلّةٍ تَلفِتُ السّامِعَ، وتُهيّئُه لِما سَيعقُبُها من بيانِ أنواعِ الأواني والمشروباتِ.

ونكتةُ الفَصلِ الانتقالُ من وصفِ حالِهم في جُلوسِهم على السُّرُر مُتَّكِئين مُتَقابلين، إلى وصفِ نِعمةٍ مُستقِلّةٍ من النَّعيم، تُضافُ إلى ما سَبَق، ولكنَّها ليست من مُتمِّماتِ ما قبلَها حتّى تُعطَف، بل هي نِعمةٌ جديدةٌ قائمةٌ بذاتِها، فأُفرِدَت بجُملةٍ مُستأنَفة.

الاستئناف مُشعرٌ بنعمةٍ جديدةٍ يحسُن الالتفات إلى مكانتها

فائدة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَطُوفُ﴾:

التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارِع ﴿يَطُوفُ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ يَحمِلُ دِقَّةً بَيانيَّةً وبَلاغيَّةً فائقَة، فإنَّ استِعمالَ المُضارِعِ في مَقامِ الإخبارِ عن نَعيمِ أهلِ الجَنَّةِ يُفيدُ تَجَدُّدَ الفِعلِ واستِمرارَهُ[1]، مع تَصويرِه، فهي إشارةٌ إلى أنَّهُ يَقَعُ في كُلِّ آنٍ، ويَتَكرَّرُ في كُلِّ حينٍ، ولا يَكونُ مَحدودًا بزَمانٍ مُعيَّن.

تصويرُ حالِ طوافِ الولدان بتجدُّدٍ مستمرّ يُضفي روعةَ النّعيم المقيم

كما أنّ فِعلَ ﴿يَطُوفُ﴾ يُصَوِّرُ المَشهَدَ في حالِهِ الحَيَّةِ المُستَمِرَّة، كَأنَّكَ تَشهَدُ أولئِكَ الوِلدانَ وهُم يَتَنقَّلونَ في خِدمَةِ المُقَرَّبينَ، يَأتونَ بالأكوابِ والأباريقِ والكُؤوس، فلا فُتورَ في نَعيمِهِم، ولا انقِطاعَ لِخِدمَتِهِم، بَل هيَ دائِمَةٌ مُتَّصِلَةٌ، يُرادُ لَها أن تُصَوَّرَ في ذِهنِ السّامِعِ على هذا الوَجهِ مِنَ الحَيَويَّةِ والدَّوَرانِ. كَأنَّ الآيةَ تُقَرِّبُ غائِبَ الآخِرَةِ لِمُتَلَقّي القُرآنِ، وتَجعَلُهُ حاضِرًا في ذِهنِه.

فَهذا الفِعلُ الواحِدُ ﴿يَطُوفُ﴾ بصيغَتِهِ المُضارِعَةِ قَد جَمَعَ بَينَ دَلالَةِ الحالِ والاستِقبالِ[2]. وإشعارِ التَّجدُّدِ والاستِمرارِ، وإفادَةِ التَّنويعِ والتَّكرارِ، وهيَ مَعانٍ بَلاغيَّةٌ جَمَّةٌ تُضفي على اللَّفظِ الثَّوبَ البَيانيَّ الَّذي يَليقُ بالقُرآنِ العَظيم.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿يَطُوفُ﴾:

جاء اختيارُ لفظِ ﴿يَطُوفُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ دونَ غيرِه من الأفعالِ الدّالّةِ على الحركةِ والخدمة

خدمة الوِلْدان للمقرّبين مستمرّةٌ لازمةٌ منتظمةٌ

(1) الزّمخشريّ، المفصّل: 2/ 137.
(2) المُبرّد، المُقتضب: 2/ 2.

كـ(يدور) أو (يمشي) أو (يتردّد)، هو من دقائقِ النَّظم القرآنيّ، لما في مادَّةِ الطَّوافِ من دلالةٍ على الحركةِ الدّائريَّةِ المستمرّةِ ذاتِ النِّظام، لا سيَّما إذا كانت مقترنةً بخدمةٍ متكرّرةٍ ذاتِ طابعٍ تشريفيّ، فهو حركةٌ منتظمةٌ لا عشوائيَّةَ فيها، تتضمّن الملازمةَ والاستمرارَ في الأداء[1]، وذلك أليقُ بحالِ الولدانِ الَّذين جُعلوا لخدمةِ المقرّبين، فهي خدمةٌ لا يشوبُها كسلٌ، ولا ينقطعُ فيها سعي.

ثمّ إنّ ﴿يَطُوفُ﴾ أنسبُ الألفاظِ في هذا الموضعِ لتصويرِ هيئةِ الولدانِ وهم يأتون ويذهبون بين المقرّبين بأكوابٍ وأباريقَ وكؤوسٍ من معينٍ، في مشهدٍ دائريٍّ تحفُّ بهِ الرّاحةُ والجمالُ والنِّظامُ، لا الضَّجيجُ والعناءُ.

وفي اختيارِ هذا اللَّفظِ إيحاءٌ بكرامةِ المقرّبين، إذ لم يُذكر أنّهم يطلبون ما يُسقَون، بل يُطافُ بهِ عليهم، فلا يحتاجون إلى حركةٍ ولا مناولةٍ، بل تأتيهم الأكوابُ والأباريقُ طوعًا، على يدِ خَدَمٍ مخلّدين، وذلك من تمامِ نعيمِهم، وكمالِ إكرامِهم.

فكان لفظُ ﴿يَطُوفُ﴾ أبلغَ في الدَّلالةِ على الخدمةِ المهذّبةِ المنتظمةِ، وأوفقَ بسياقِ النَّعيمِ والرَّفاهِ، وأدلَّ على السَّعةِ والحركةِ المستمرّةِ الَّتي لا تنقطع، وهو ما لا تؤدّيهِ سائرُ الألفاظِ القريبةِ منه في المعنى.

نكتة التّقييد بقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

المقرّبون قطب النَّعيم من حيث الإحاطة بالخدمة والقرب في التّلبية

التّقييدُ بقيدِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ دونَ أن يُقالَ: (يطوف حولهم) أو (بينهم) يحملُ نكتةً بلاغيّةً دقيقةً، تُظهر علوّ درجةِ المقرّبينَ وتمامَ الإكرامِ لهم؛ ففي ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ إيحاءٌ بالاستعلاءِ المجازيّ، الَّذي يُشعر أنّ الطَّوافَ هو من أجلِهم، لا لمجرّدِ الدَّورانِ في المكان، فليست الغايةُ وصفَ الحركةِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 292.

وحدَها، بل الإبانةُ عن مركزيَّةِ المقرّبينَ في هذا المشهدِ النَّعيميّ، فالولدان لا يطوفونَ في فضاءِ الجنّةِ، بل يطوفونَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، أي في خدمتهم، وحولَ ذواتهم، في ملازمةٍ دائمةٍ تُحقّق لهم الرّاحة التّامّة. مصاحبين لهم(1).

مع تضمُّنِ القيد ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ معنى الإشرافِ والرِّعاية، في التّمكُّن من خدمتهم؛ إذ هي ظرفٌ يدلُّ على اختصاصِ الطَّوافِ بالمقرّبينَ أنفسِهم، لا بموضعِ جلوسِهم فحسب، فالمقرّبون على سررهم هم مركزُ الطَّوافِ وقطبُه، وكلُّ حركةٍ دائرةٌ عليهم، لا تخرج عنهم، فيكون ذلك أبلغَ في تصويرِ النَّعيمِ المعدّ لهم، والكرامةِ الَّتي أُفيضت عليهم.

ولو قيل: (يطوف حولهم) لكان ذلك أضعفَ في الدَّلالةِ على المركزيَّةِ والاختصاصِ، ولأوهمَ نوعَ تباعدٍ بين الطّائفِ والمطافِ عليه، وهو ما لا يليقُ بهذا السّياقِ الَّذي يُرادُ فيه تصويرُ القربِ والخدمةِ اللَّصيقةِ الممتدّة.

غرض تقديم قيد ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المسند إليه:

المـقـرّبـون هم مقصد الخدمة ومـوضـع الاختصاص

لتقديم القيدِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المسندِ إليهِ في قولهِ تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ دلالةٌ بيانيَّةٌ دقيقةٌ يُقصدُ بها تخصيصُ الخدمةِ بهم، وتوجيهُ الاهتمامِ إلى محلِّ النِّعمةِ قبلَ الإخبارِ عن الفاعلِ(2)، مع إفادةِ الحصرِ والاختصاص، فتُبيِّن الآيةُ أنَّه لا يطوفُ أحدٌ في الجنّةِ بهذه الهيئةِ إلّا عليهم، أي: على هؤلاءِ المقرَّبينَ وحدهم، دونَ غيرهم من أهلِ النّعيم، فدلّ على مزيدِ شرفِهم، وتمييزِ منزلتِهم، وأنَّهم محلُّ هذه الخدمةِ الخاصّةِ المكرّرة.

كما أنَّ تقديمَ الظَّرفِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ يوجّهُ نظرَ السّامعِ من أوّلِ الأمرِ إلى هؤلاءِ المقرّبينَ، ويُقرّرُ أنّهم موضعُ الإكرامِ والمشاهدةِ، قبلَ أن

---

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 143، والرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 379.
(2) حسن طبل، علم المعاني، ص: 129 - 130.

تُذكرَ أوصافُ الطّائفينَ وما يحملونه، فذلك من بابِ لفتِ الانتباهِ إلى المقصودِ من النِّعمةِ، لا إلى واسطتِها.

نكتة جمع وتنكير المسند إليه ﴿وِلۡدَٰنٌ﴾:

الجمع بيانٌ للكثرة والتَّنكير للنّوع والإبهام فيه تفخيم الخدمة وتكثير النَّعيم

إنَّ في جمعِ المسندِ إليهِ ﴿وِلۡدَٰنٌ﴾ وتنكيرِه نكتةً بلاغيَّةً عظيمةً، تُفيدُ الإبهامَ من جهة، والتَّكثيرَ[1] من جهةٍ أخرى، ليُصوِّرَ المشهدُ بأعظمِ ما يكونُ من أُبَّهَةِ الخدمةِ ودوامِها، فأمّا التَّنكيرُ فلإفادةِ التَّفخيمِ والتَّهويلِ، لا سيَّما في مقامِ النَّعيم، إذ المقصودُ ليس تعريفَ طائفةٍ معيّنةٍ بأعيانهم، بل بيانُ نوعِ الخدمِ الَّذين يطوفونَ على المقربينَ، فهم نوعٌ مخصوصٌ من الولدانِ، لم يُعهد نظيرُهم في الدُّنيا، فناسبَ الإبهامُ هنا تعظيمَ الشَّأنِ وتغريبَ الصّورةِ.

وأمّا الجمعُ فهو للدَّلالةِ على الكثرةِ، إذ الطَّوافُ بالخدمةِ على أولئك المقرَّبينَ لا يكفيه واحدٌ ولا اثنان، بل هو طوافٌ دائمٌ متَّصلٌ، لا ينقطعُ ولا يتراخى، فلا بدَّ له من جمعٍ غفيرٍ من الولدانِ، يتعاقبونَ في خدمةِ أولئك النُّزلاءِ الكرام.

بلاغة استعمال مفردة ﴿وِلۡدَٰنٌ﴾:

الأثر النّفسيّ للمتلقّي في مرعيِّ النّظم البليغ والانتقاء الفريد

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿وِلۡدَٰنٌ﴾ دونَ: (غِلمانٌ) أو (صِبيانٌ) ونحوِهما، وذلك لنكتةٍ بلاغيّةٍ تَتّصلُ بتصويرِ هيئةِ الخِدمةِ في الجنّةِ، ومقامِ السُّرورِ والنَّعيمِ الّذي يُرادُ إبرازُهُ في سياقِ الآيةِ.

فلفظُ ﴿وِلۡدَٰنٌ﴾ هو جمعُ (وَلَدٍ)، ويُطلقُ غالبًا على الصِّغارِ ممّن لم يبلغوا، في حينِ أنّ (غِلمانًا) قد يُستعملُ فيمن قارَبَ البلوغَ أو تَجاوَزَه، ومع أنّ كلا اللَّفظينِ مشتركٌ في معنى الخِدمةِ، فإنّ التَّعبيرَ بـ﴿وِلۡدَٰنٌ﴾ يوحي بخِفّةِ الظِّلِّ، وسُرعةِ الحَركةِ، وبهاءِ المنظرِ، فناسبَ سياقَ النَّعيمِ التّامّ، والسُّرورِ الكاملِ، الّذي لا تشوبهُ كُلفةٌ ولا مشقّة.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.

ثمّ إنّ ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ أقربُ إلى إثارةِ المعنى التّصويريّ؛ لأنّ صورةَ الولدانِ - وهم يتنقّلونَ في الخِدمةِ بأكوابٍ وأباريقَ - أبهى وأكملُ في تَمثيلِ حالِ الأنسِ والمُتعةِ في الجَنّةِ، حيثُ يُقدَّمُ الشّرابُ من غيرِ رهبةٍ ولا وقارٍ يوجِبُ التّكلّفَ أو الحَرَجَ.

فائدةُ الوصف بلفظ ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾:

دفع توهُّم ذهاب العمر الصّغير، بالخلود الدّائم

وُصِف الولدانُ بمخلّدين في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾؛ للدّلالة على ديمومةِ الطَّواف عليهم ومناولتهم بحيث لا ينقطعون عن ذلك، وقد فُسِّر ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ بأنَّهم مخلّدون في صفة الولدان، أي: بالشَّباب والغضاضة، أي: ليسوا كولدان الدُّنيا يصيرون قريبًا فتيانًا فكهولًا فشيوخًا[1].

وَفي نَعتِ ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ بالوَصفِ ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ دلالَةٌ بَلاغيَّةٌ مُحكَمَةٌ توائِمُ سياقَ النَّعيم الَّذي يَجِدُهُ المُقَرَّبونَ في الجَنَّةِ، إذِ اقتَضَى مَقامُ التَّنعيم الدّائِم أن يُقرَنَ بِخِدمَتِهم مَن يَكونُ دَوامُهُ في الخِدمَةِ مَضمونًا، وهوَ ما يُفيدُهُ الوَصفُ بـ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾، فهم على سِنٍّ واحدة لا يتغيَّرونُ ولا يموتون. ومن خُلِّد وخُلِق للبقاء: لم يتغيَّر، فإنَّ الوَصفَ بالتَّخليدِ هُنا لا يُرادُ بِهِ خُلودُ الذّاتِ وفَناءُ الزَّمَنِ فحَسبُ، بَل هوَ إشارَةٌ إلَى ثَباتِ الصِّفَةِ واستِقرارِ المَنظَرِ، وقَد قيلَ: هُم يُخَلَّدونَ في الشَّبابِ، فلا يَبلونَ ولا يَتَغَيَّرونَ، ويَدومونَ في حالِ الحُسنِ والنَّضارَةِ، كَأَنَّهُم نُسَخٌ مِمّا تَتَمَنّاهُ النُّفوسُ في الخادِمِ في غايَةِ الجَمالِ واللَّطافَةِ والخِفَّةِ، ففيه دفع توهُّم أن يزول الوصفُ بالصِّفة.

فائدة التَّعبير بصيغة المبنيّ للمفعول:

الجمعُ بين دلالة الخلودِ الزّمانيّ والتَّقريط بالخَلَدة تزيُّنًا

آثر النّظم الكريم التَّعبير بصيغة المبنيِّ للمفعول دون الفاعل فقال: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ دون (خالدون)، أي: على سِنٍّ واحِدَةٍ لا يَتَغَيَّرونَ،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 292.

ولا يَموتونَ. ومَن خُلِّدَ وخُلِقَ لِلبَقاءِ: لَم يَتَغَيَّر. ويُقالُ: مَسَوَّرون ويُقالُ: مُقَرَّطونَ[1]، والخَلَدة: القُرْط.

وَلِذا كانَ التَّعبيرُ بـ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أدَقَّ وأبلَغَ في الدّلالَةِ مِن أن يُقالَ: (خالِدونَ)، فإنَّ (خالِدينَ) تُشيرُ إلَى البَقاءِ في المَقام، أمّا ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ فهي تجمعُ دلالةَ الخلودِ السَّرمديّ الَّذي يكون من اللّه تعالى؛ فليس لأحدٍ أن يُخلِّد الخلقَ إلّا اللّه ﷻ، وهي كذلك أوفر دلالةً على معنى أنّهم مقرّطون، ولا مانع من إرادةِ الدّلالتين، دلالة الخلود الزّمانيِّ، ودلالة الزّينة، فهيَ تَقترِنُ في أذهانِ العَرَبِ بثَباتِ الحالِ واستِمرارِ الشَّبابِ وعَدَمِ التَّغَيُّرِ، فضلًا عمّا هم عليه من الزّينة والجمال، وذَلِكَ أجلَبُ لِلسُّرورِ، وأوفَقُ بمَقامِ الخِدمَةِ الجنّانيَّة.

نوع الباء ودلالتها:

مشهد الإكرام المترف في خدمة المقرّبين ممّن صَحِب أدوات الخدمة

جاءَ استعمال حَرفِ الباءِ في قَولِه: ﴿بِأَكۡوَابٖ﴾ ليُفيدَ المُصاحَبَةَ، وهوَ استِعمالٌ مَجازيٌّ معروفٌ في اللُّغَةِ وفي نَظائِرِ القُرآنِ. وفي هذا المَقامِ، تُفيدُ الباءُ أنَّ الوِلدانَ الَّذينَ يَطوفونَ على المُقَرَّبينَ، مُصطَحِبونَ مَعَهُم هذِهِ الأواني الثَّلاثَةَ: الأكوابَ والأباريقَ والكَأسَ، وهوَ تَصويرٌ لِكَمالِ الجاهِ والخِدمَةِ، فإنَّ الخادِمَ إذا جاءَ بالطَّعامِ والشَّرابِ مَعَهُ دونَ طَلَبٍ كانَ ذلِكَ أظهَرَ في الإكرامِ.

فَتَكونُ الباءُ متعلّقةً بفِعلِ ﴿يَطُوفُ﴾، على مَعنَى: يَطوفونَ عَلَيهِم مَعَهُم أكوابٌ، وفي ذلِكَ مَعنى الدَّوامِ والاستِعدادِ في الخِدمَةِ، كَأنَّ الأوانيَ لا تُفارِقُهُم، وذلِكَ أبلَغُ في نَعيمِ المُقَرَّبينَ؛ فهيَ باءُ المُصاحَبَةِ وهي كقوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾ [هود: 48][2]، وفي تَأخيرِ ذِكرِها بَعدَ الفِعلِ والفاعِلِ، وإظهارِها في الجارِّ والمَجرورِ، تَوسيعٌ في التَّصويرِ، وتَفصيلٌ لِما يُرادُ تَعليقُهُ في ذِهنِ المُتَلَقّي.

---

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 385.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 103، وابن يعيش، شرح ابن يعيش: 2/ 22.

الإيماءُ إلى كثرة أصناف المشروبات وأنواع الأسقية

دلالة جمع ﴿بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ﴾:

إنَّ تَعديدَ الآنيَةِ في قَولِهِ تعالَى: ﴿بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ وجَمعَ الأكوابِ والأباريقِ دونَ الاكتِفاءِ بذِكرِ نَوعٍ واحِدٍ، يُنَزَّلُ مَنزِلَةَ التَّنويعِ والتَّعديدِ لِلتَّوسيعِ في تَصويرِ النَّعيمِ، والإشارَةِ إلَى تَعَدُّدِ أحوالِ الشُّربِ وخِدمَتِهِ في الجَنَّةِ، وما يُهَيَّأُ لِلسّابِقينَ مِن أنواعِ السُّرورِ والرّاحَةِ.

فالأكوابُ: هيَ آنيَةٌ لا عُرَى لَها، وغالِبًا ما تُستَعمَلُ في الشَّرابِ السَّريعِ السّائِغِ، والأباريقُ: آنيَةٌ لَها عُرًى وصَباباتٌ، تُستَعمَلُ لِصَبِّ الشَّرابِ، وفي ذِكرِهِما جَميعًا إفادَةُ كَمالِ الخِدمَةِ والنِّظامِ، فإنَّهُم يُؤتَونَ بالآنيَةِ الجاهِزَةِ لِلشُّربِ، وبِالأدَواتِ المُهَيَّأةِ لِتَجديدِ الشَّرابِ، فلا يَنقَطِعُ ولا يَنفَدُ.

وَفي جَمعِهِما - دونَ الإفرادِ - إشعارٌ بكَثرَةِ التَّناوُلِ، وتَعَدُّدِ الأشرِبَةِ، وسَعَةِ الرِّزقِ، وذلك مِمّا يُضافُ إلَى مَعنَى التَّكريمِ والمُتعَةِ.

الإكرام حاضرٌ مهيَّأٌ مقرَّبٌ بين يدي المقرّبين

غرض تقديم الأكواب على الأباريق:

قُدِّمَ ذِكرُ الأكوابِ على الأباريقِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾؛ لِيُناسِبَ مَقامَ التَّلَذُّذِ والتَّنعيمِ، ويُفيدَ جَمالَ التَّصويرِ في نَظمِ السّورَةِ.

فَإنَّ الأكوابَ هيَ الآنيَةُ الجاهِزَةُ لِلشُّربِ، يُسقَى فيها الشَّرابُ دونَ احتياجٍ لِصَبٍّ أو تَجهيزٍ، وفي تَقديمِها إشارَةٌ إلَى أنَّ نَعيمَ السّابِقينَ في الجَنَّةِ مُهَيَّأٌ لَهُم تَهيئَةً تامَّةً، فهُم يُعطَونَ الشَّرابَ في كُؤوسٍ حاضِرَةٍ، لا تَكَلُّفَ فيها، ولا انتِظارَ لِصَبٍّ أو إعدادٍ.

ثُمَّ جاءَ ذِكرُ الأباريقِ تاليًا؛ لِيَفيدَ لِيُفيدَ أنَّهُم لا يُقتَصَرونَ على المَشروبِ الجاهِزِ، بَل عِندَهُم ما يَكفيهِم لِلتَّجديدِ والصَّبِّ، فيَكونُ ذَلِكَ أبلَغَ في بَيانِ غِنَى النَّعيمِ ودَوامِهِ.

كما أنَّ في التَّقديم إيماءً إلى أنَّ أوَّلَ ما يَلقاهُ أهلُ الجَنَّةِ مِنَ الضّيافَةِ: أكوابٌ مَملوءَةٌ، فإذا نَفِدَ ما فيها، أُتوا بالأباريقِ ليَتَجَدَّدَ لَهُمُ الشَّرابُ، فيَظَلَّ النَّعيمُ دائِمًا، والشَّرابُ مَوفورًا، فلا يَفتُرُ سُرورُهُم، ولا تَنفَدُ مَسَرّاتُهُم.

مراعاةُ أحوال النُّزول في نظم القرآن مرعيَّةٌ لما فيها من ترغيبِ المنذَرين

علَّة إفرادِ ﴿وَكَأۡسٍ﴾:

الكأس: إناءٌ للخمر كالكوب إلّا أنَّه مستطيلٌ ضيِّق المَشرب[1]، وأُفرد في قولِه تعالى: ﴿وَكَأۡسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، مع أنّ المذكوراتِ قبلَها جُمِعت: ﴿بِأَكۡوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾؛ وذلك لإرادةِ المفردِ الجنس، لا الواحد المعهود، "فالـ(كَأسُ) جِنسٌ يَصدُقُ بالواحِدِ والمُتَعَدِّدِ، فلَيسَ إفرادُهُ هُنا للوَحدَةِ، فإنَّ المَرادَ كُؤوسٌ كَثيرَةٌ، كَما اقتَضاهُ جَمعُ أكوابٍ وأباريقَ، فإذا كانَت آنيَةُ حَملِ الخَمرِ كَثيرَةً، كانَت كُؤوسُ الشّارِبينَ أكثَرَ. وإنَّما أوثِرَت صيغَةُ المُفرَدِ؛ لِأنَّ في لَفظِ كُؤوسٍ ثِقَلًا بوُجودِ هَمزةٍ مَضمومَةٍ في وسَطِه، مَعَ ثِقلِ صيغَةِ الجَمعِ"[2].

وقد أغنى عن جمعِ الكأس قوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ فهو يدلُّ على الاستمرارِ، وإفراد الكأس يقتضي تفخيمًا من جهةٍ أخرى، وهي تُستعمل في شرب الخمر، وقد كان لشربِ الخمرِ شأنٌ عند العربِ، فكانوا يشربون الخمرَ بكأسٍ واحدةٍ وتبقى معهم يزيدونها كلّما نقصت، فالإفرادُ يُراد به دوام الشُّرب الدّال على المتعة الطَّويلة.

التّنويه بكأسٍ مرغوبةٍ لدى الشّاربين مطلوبةٍ عند السّامعين

غرض تنكير لفظ (كأس):

جاءت لفظُ (كأس) نكرةً لَم تُعرَّف لا بالإضافَةِ، ولا باللّام، ولَم تُقيَّد بصِفَةٍ مُخَصِّصَةٍ سِوَى بَيانِ نَوعِها: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾، وتَنكيرها يُرادُ بِهِ التَّعظيمُ، أي: كَأسٌ عَظيمَةُ الشَّأنِ، شَريفَةُ القَدرِ، جَزيلَةُ النِّعمَةِ؛ لِما تَحمِلُهُ مِن لَذَّةٍ وكَرامَةٍ، فلَيسَ المَقصودُ كَأسًا بعَينِها، بَل

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 294.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 294.

جِنسَ الكُؤوسِ الَّتي هيَ على أكمَلِ ما يَكونُ مِنَ اللَّذَّةِ والطُّهرِ.

وَمِنهُ يُعلَمُ أنَّ هذا التَّنكيرَ أوقَعُ في النَّفسِ وأبلَغُ في تَحريكِ الرَّغبَةِ؛ لِما فيهِ مِن إطلاقٍ لِلتَّخييلِ، وتَوسِعَةٍ في التَّقديرِ؛ فإنَّ النَّفسَ إذا سَمِعَت ﴿وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ مِن غَيرِ تَحديدٍ ولا تَقييدٍ، انبَعَثَ فيها شَوقُ التَّعَرُّفِ إلَى ما في هذِهِ الكَأسِ، وازدادَ يَقينُها بأنَّها فوقَ ما يُتَصَوَّرُ مِن لَذّاتٍ، لا سيَّما وقَد جاءَت مَسبوقَةً بجَمعِ ﴿بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ﴾، فعُطِفَت (كَأس) على ما قَبلَها، مُفرَدَةً مُنَكَّرَةً، كَأنَّها مِثالٌ نَوعيٌّ فريدٌ داخِلٌ في سياقِ التَّكريمِ.

فالمُرادُ: كَأسٌ مِن نَوعٍ كَريمٍ فائِقٍ، لا يَحتاجُ إلَى تَعريفٍ لِأنَّهُ أشهَرُ مِن أن يُعَرَّفَ، وأشرَفُ مِن أن يُحَدَّ بحَدٍّ، فتَأمَّل هذا المَوضِعَ كَيفَ جَمَعَ بَينَ التَّعظيمِ والتَّشويقِ والتَّخييلِ، وهوَ مِن لَطائِفِ نَظمِ التَّنزيلِ.

فائدة الجمعِ بين ذكرِ الأكواب والأباريق والكأس:

بيانُ التّكاملِ في ذكر أدوات التّلذُّذ في المشروبات والأسقية

جمع النّظم الكريم بين ذكرِ الأكوابِ والأباريقِ والكأسِ في قولِه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾، وهذا من بديعِ التّفنُّنِ في التّصويرِ، ودقيقِ البيانِ في إظهارِ نعيمِ المقرَّبينَ، وتمامِ الخدمةِ المُهيَّأةِ لهم، في هيئةٍ لا يشوبُها نقصٌ، ولا يعتريها قصورٌ. فقد تعدَّدتِ الأواني المذكورةُ في الآيةِ، لا تَكرارًا ولا حشوًا، بل تفصيلًا لمنازلِ النِّعمةِ، وتنوُّعًا يُفصحُ عن كمالِ التَّرفِ ووفرةِ الخدمةِ، إذِ الاقتصارُ على واحدةٍ منها لا يُؤدّي إلّا معنًى جزئيًّا، أمّا الجمعُ بينها، فهو المعبِّرُ عن تمامِ المشهدِ، من أوَّلِ إعدادِ الشَّرابِ إلى لحظةِ التَّذوُّقِ.

فالأكوابُ هي الأقداحُ الَّتي لا عُرى لها، وتُستعملُ للشُّربِ المباشرِ، وغالبًا ما تُقدَّمُ مملوءةً، فدلَّت على اليُسرِ والسُّرعةِ في التَّناولِ، كأنَّها مُهيَّأةٌ للتَّقديمِ الفوريِّ. وأمّا الأباريقُ فهي الأواني ذاتُ العُرى الَّتي يُصَبُّ منها، فدلالتُها على السَّعةِ، وإمكانِ إعادةِ الملءِ والصَّبِّ،

وهي أنسبُ بيدِ الخَدَمِ في الطَّوافِ. ثمّ خُتمَتِ الجملةُ بالكأسِ، وهي في لسانِ العربِ لا تُسمَّى (كأسًا) إلّا إذا كانت مملوءةً بشرابٍ، فهي إنَّما تُذكَرُ عند التَّلذُّذِ بالشُّربِ، لا عند الإعدادِ والتَّقديم. فجاءَ ترتيبُ الألفاظِ على نحوٍ يُراعي تسلسلَ المراحلِ: الإبريقُ للإعدادِ، والكوبُ للتَّقديمِ، والكأسُ للتَّمتُّعِ بالشُّربِ.

فلو اقتصرَ التَّعبيرُ على أحدِ هذه الأواني، لفاتَ وجهٌ من وجوهِ النِّعمةِ، ولَنَقَصَ من كمالِ المشهدِ، إذِ المتنعِّمُ لا يُسرُّ بكثرةِ الشَّرابِ فقط، بل بحُسنِ التَّقديمِ، وجمالِ الهيئةِ، وسَعةِ الاختيارِ، وتفنُّنِ الأدواتِ. ثمّ إنَّ هذا التَّنويعَ يُشيرُ إلى وفرةِ الخَدَمِ، وإلى أنّ كلَّ مرحلةٍ من مراحلِ الإكرامِ قد أُعِدَّ لها وعاؤُها الخاصُّ، وخادمُها المختصُّ، في مشهدٍ يُشيعُ في النَّفسِ إحساسًا بالفخامةِ والرِّفعةِ، وهو ما يناسبُ مقامَ السّابقينَ الَّذين قال فيهم قبلَ ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾. وقد رُتِّبَتِ الأواني الثَّلاثةُ على نسقٍ تصاعديٍّ: أباريقُ، ثمَّ أكوابٌ، ثمَّ كأسٌ، فجاءتِ الكأسُ مفردةً، تعظيمًا لها، وكان ختامُ التَّرتيبِ إيذانًا بكمالِ النِّعمةِ، وكأنَّ كلَّ ما قبلَها تمهيدٌ لها.

نوع ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

دفـع أوهـام الأفهام عن إرادةِ مشروبٍ بعينه وتعيين المقصود

﴿مِّن﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ بَيانيَّةٌ، وهيَ الدّاخِلَةُ على المُبَيَّنِ بَعدَ إجمالٍ أو ما يُشبِهُ الإجمالَ، وقَد أفادَت هُنا بَيانَ جِنسِ المَشروبِ الَّذي تَحتَويهِ تِلكَ الكَأسُ، فالكَأسُ - وإن كانَت تُطلَقُ أحيانًا على الإناءِ مَعَ الشَّرابِ - فإنَّ هذا التَّركيبَ القُرآنيَّ بَيَّنَ المُرادَ بما لا يَدَعُ مَجالًا لِلإجمالِ، ورَفَعَ الاحتِمالَ، بذِكرِ المَشروبِ نَفسِهِ.

فَلَم يُرَد أنَّها كَأسٌ على الإطلاقِ، ولا كَأسٌ من خَمرِ الدُّنيا، بَل من شَرابٍ مَخصوصٍ، نَقيٍّ، طاهِرٍ، صافٍ، وهوَ (المَعينُ)، وهوَ الجاري الظّاهِرُ الَّذي لا كَدَرَ فيهِ ولا شائِبَةَ.

فَدَلَّت ﴿مِّن﴾ البَيانيَّةُ على هَذا التَّقييدِ المَقصودِ، وبِهِ تَرتَقي صورَةُ النَّعيمِ إلَى حَدِّها الأعلَى، إذ لَيسَ مُجَرَّدُ الشَّرابِ هوَ مَحَلَّ النِّعمَةِ، بَل نَوعُهُ، وصَفاؤُهُ، واستمرارُ جَرَيانِه.

فَبِهَذا التَّركيبِ أُفيدَت خُصوصيَّةُ هَذا الشَّرابِ، وتَمَيُّزُهُ عَن كُلِّ مَشروبٍ مَألوفٍ، ولَولا دُخولُ ﴿مِّن﴾ لاحتَمَلَ أن تَكونَ الكَأسُ مِمّا يُفهَمُ عُرفًا مِنَ الشَّرابِ، فجاءَت ﴿مِّن﴾ لتدفع أن يكون مِن خَمرِ الدُّنيا، ولا مِن ماءٍ مَألوفٍ، بَل مِن شَرابٍ مَخصوصٍ بالنَّعيمِ الأُخرَويِّ، ظاهِرِ الجَرَيانِ، خالِصِ الطَّبعِ، لا يُنكَرُ لَونُهُ، ولا يُخشَى ضَرَرُهُ.

براعة مفردة ﴿مَّعِينٍ﴾ وأثرها في بيان معنى الجريان:

المعين هو الجاري بصفاءٍ غير معهودٍ، الباقي بنقاءٍ غير مشهود

دلالَةُ لَفظِ ﴿مَّعِينٍ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ تَنبَني على ما في مادَّةِ الكَلِمَةِ مِن اشتِقاقٍ، فإنَّ المَعينَ هوَ الماءُ الظّاهِرُ الجَرَيانِ على وجهِ الأرضِ، يُقالُ: ماءٌ مَعينٌ إذا كانَ جاريًا يُمكِنُ لِلعَينِ أن تَراهُ، بِخِلافِ الماءِ الرّاكِدِ أوِ المُستَتِرِ في الأعماقِ. وهَذا المَعنَى مَأخوذٌ مِن أصلِ الفِعلِ (عانَ الماءُ)، إذا ظَهَرَ وسالَ، فـ المَعينُ ماءٌ بارِزٌ لِلعُيونِ، غَيرُ مَحجوبٍ ولا خَفيٍّ. وقَد ذَكَرَ أبو عُبَيدَةَ مَعنَى قَولِهِ: ﴿وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾؛ أي شَرابٌ من مَعينٍ، والمَعينُ هوَ الماءُ الطّاهِرُ الصّافي، الَّذي يَجمَعُ بَينَ حُلْوَةِ المَذاقِ وصَفاءِ المَنظَرِ، فيُضفي على مَشهَدِ النَّعيمِ في الجَنَّةِ صورَةً مِن النَّقاءِ التّامِّ والطُّهرِ الكامِلِ الَّذي لا يَشوبُهُ كَدَرٌ ولا عَكَرٌ[1].

واختيارُ هذا اللَّفظِ في هذا السّياقِ له نكتةٌ بيانيّةٌ جليلة، فإنّه يُفصحُ عن صفةِ الشَّرابِ المخصوصِ في الجنَّة، ويُشيرُ إلى أنَّه ليسَ جامدًا ولا راكدًا، بل هو جارٍ ظاهرٌ في عذوبته ونقائه، وذلك أدخلُ في بهجةِ النَّفس، وأشدُّ وقعًا في وصفِ النَّعيم. فإنّ الشَّرابَ إذا

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 249.

جرى كانَ أطيبَ للذَّوق، وأشهى للنَّفس، وأدعى للرّاحةِ والارتواء.

فقوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾؛ أي خمرٍ جاريةٍ صافيةٍ صفاءَ الماء ليس يُتكلَّف عصرُها بل ينبع كما ينبع الماء[1]. فدلّت هذه المفردةُ على أنّ الكأسَ لا تحتوي على خمرٍ معهودٍ، بل على شرابٍ أخرويٍّ مخصوصٍ في صفائهِ وجريانهِ ودوامهِ، وليس من شأنه إسكارٌ أو صُداع، بل هو معينٌ في ذاته، معينٌ في أثره. فهو وصفٌ يلمح إلى استمرارِ النَّعيم، ودوام اللَّذّة، وتجدُّدِ المتعة، فالمَعينُ هو الجاري، والمُرادُ بهِ الخَمرُ الَّتي لِكَثرَتِها تَجري في المَجاري كَما يَجري الماءُ، ولَيسَت قَليلَةً عَزيزَةً كَما هيَ في الدُّنيا، قالَ تعالَى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [مُحَمَّد: 15]، ولَيسَ المُرادُ بـ المَعينِ الماءَ؛ لِأَنَّ الكَأسَ لَيسَت مِن آنيَةِ الماءِ وإنَّما آنيَتُهُما الأقداحُ[2]، وقَدْ تَقَدَّمَ في سورَةِ الصّافّات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ [الصافات: 45 - 47] وتِلْكَ صِفاتُ الخَمْرِ.

إثباتُ نعيم الآخرةِ المُحال في الدُّنيا يستصحب نفيَ العيوب المعهودة

بلاغة مناسبة النّفي ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ بعد الإثبات:

قَولُهُ تَعالَى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ مِن تَمام البَيانِ في وصفِ شَرابِ الجَنَّةِ، بَعدَ أن تَقَدَّمَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، فكانَ هَذا النَّفيُ لنفي ما يعتري النّاس مِن آفاتِ الشُّربِ المَعهودَةِ في الدُّنيا، فدَلَّ على صَفاءِ الشَّراب، وكَمالِ راحَةِ الشّارِب، وخُلوِّ اللَّذَّةِ مِن كُلِّ كَدَرٍ وأذًى. فوقع التّناسب بين الإثبات والنّفي؛ فلمّا "أثبَتَ نَفعَها وما يُشَوِّقُ إلَيها، نَفَى ما يُنَفِّرُ عَنها فقالَ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾؛ أي تَصَدُّعًا يوجِبُ المُجاوَزَةَ ﴿عَنْهَا﴾؛ أي بوَجَعٍ في الرَّأسِ ولا تَفَرُّقٍ لـ مَلالَةٍ ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾؛ أي يَذهَبُ بعُقولِهِم بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ أي يَصرَعُ شَرابُهُم، مِن (نَزَفَتِ) البِئرُ - إذا نُزِحَ ماؤُها كُلُّهُ، و(نُزِفَ) فُلانٌ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 406.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 294.

ذَهَبَ عَقلُهُ أو سَكِرَ"[1].

دلالة استعمال ﴿لَّا﴾ النّافية:

نفي الحال والاستقبال أرسخ في النّفي وأمتن في تحقيق المراد

استعمل النّظم الكريم أداةَ النَّفيِ في قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾، فهي أداةُ النَّفيِ المشهورةُ، الَّتي تدلُّ على الاستغراقِ الزَّمانيِّ والدَّوامِ، وهي أقوى ما يُستعملُ لنفيِ الوقوعِ على وجهِ العموم، في الحالِ والاستقبالِ، فكأنَّه قيل: لا يصيبُهم صداعٌ أبدًا، ولا في وقتٍ من الأوقاتِ، ولا في أيِّ حالٍ من الأحوالِ. وهذا أبلغُ من أن يُقال: (ما يُصدَّعون) أو (لن يُصَدَّعوا)؛ لأنَّ (لا) النّافيةَ للمضارعِ تفيدُ الثَّباتَ والدَّوامَ على نفيِ الفعلِ.

نكتة بناء فعل ﴿يُصَدَّعُونَ﴾ للمفعول:

نفي الصُّداع من جميع الجهات أمدح لخمر الجنّة وأشهى في تصوُّرِها

بُني فعلُ ﴿يُصَدَّعُونَ﴾ للمفعولِ في قولهِ تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ بالبناءِ للفاعلِ، وذلك للاهتمام بالأثرِ الواقعِ على المنعَّمينَ دون الالتفاتِ إلى السَّببِ أو الفاعلِ؛ فالغرضُ منصبٌّ على نفيِ الإصابةِ، لا على تعيينِ مَن كان يسبِّبها، أو ما يُؤدّي إليها[2]، ففي قوله: ﴿يُصَدَّعُونَ﴾ نفيٌ عامٌّ شاملٌ، لا يُبقي احتمالًا لأن يكون التَّصدُّعُ واردًا من جهةٍ ما، سواءٌ أكان بسببِ الشَّرابِ نفسِه، أو من أثرٍ طارئٍ، أو من خارجٍ عنه، أو تفاعلٍ نفسيٍّ. فالبناءُ للمفعولِ يعمُّ كلَّ جهةٍ مفترضةٍ للإصابةِ بالصُّداعِ، وهو أبلغُ في النَّفيِ من البناءِ للفاعلِ؛ ففي هذا التَّعبيرِ من الإكرامِ الخفيِّ، والتَّلويحِ بالعنايةِ الإلهيَّةِ، ما لا تبلغه العبارةُ المباشرةُ، إذِ العبدُ إذا لم يُحتَج منه إلى دفعِ الضَّررِ، دلَّ ذلك على كمالِ التَّكفُّلِ بشأنِ راحتِه من لدن ربِّه.

براعةُ التَّعريضِ بأسلوبِ النَّفيِ المقارن بين حالين:

لم يكن الغرضُ مقتصرًا في قولِه تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 407.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 407.

مقارنةٌ مشهديّة بين خمر الجنَّة وخـمـر الـدُّنـيا تُـصـدِّع عـقـولَ البائسين وتُريح قلوبَ الطّاهرين

يُنزِفُونَ﴾ على نفي الضَّررِ عن شرابِ أهلِ الجنَّة، بل تضمَّن تعريضًا بليغًا بخمرِ الدُّنيا، وما يصاحبُها من المضرّاتِ والآفاتِ الَّتي يُؤْثِرُ النّاسُ معها اللَّذَّةَ، ويُقاسونَ في سبيلِها الأذى، مع غفلتِهم عن خمرٍ طاهرةٍ لا يُصدَّعون منها ولا يُنزفون.

فالتَّعريضُ هنا يكونُ في مقابلةِ حالِ خمرِ الآخرةِ بحالِ خمرِ الدُّنيا، تعريضَ ذمٍّ وإزراءٍ بها، وإن لم تُذكر تصريحًا، وذلك من أبلغ أساليبِ البيانِ؛ فإنّ نفيَ التَّصدُّعِ والإنزافِ إنَّما يكونُ لما يُعرَفُ من إثباتهما في الدُّنيا ووقوعِ مثلِ هذه الآفاتِ في خمرِ الدُّنيا، فالآيةُ تنفي أن يكونَ خمرُ الجنَّةِ كخمرِ الدُّنيا، الَّتي تورثُ صُداعًا، وتُفسدُ العقلَ، وتُضعِفُ الإدراكَ، بل هي خمرٌ لا مضرَّةَ فيها بوجهٍ من الوجوهِ.

وهذا التَّعريضُ - وإن جاءَ في صورةِ النَّفي - فهو في جوهرِه مُقابلةٌ خفيَّةٌ ذاتُ دلالةٍ عميقةٍ، تُقارنُ حالَ الطّاهرِ بالمدنَّسِ، وتُشيرُ إلى أنَّ ما يُعظِّمُه النّاسُ في الدُّنيا من شرابٍ، هو في ميزانِ النَّعيم الحقيرُ الذَّليلُ، وأنَّ ما يُعَدُّ نعيمًا دنيويًّا، لا يخلو من شوائبَ تنقضُ عليه بهجتَه، وتُنغِّصُ على صاحبه لذَّتَه.

وما أبلغَ أن يأتيَ هذا التَّعريضُ في مقامِ الامتنانِ بنعيمِ الجنَّةِ، ليقعَ في النَّفسِ أثرُ التَّمييزِ بين النَّعيمِ الخالصِ والنَّعيمِ المشوبِ، وبين ما تُزيِّنُه الشَّهوةُ في الدُّنيا، وما تُحقِّقه الحقيقةُ في الآخرة، فهو تعريضٌ يوقظُ الحسَّ، ويوقظُ العقلَ، ويدعو إلى المفاضلةِ بين الحالَينِ، من غيرِ تصريحٍ، بل بإيجازٍ راقٍ بالغِ الدَّلالةِ.

خـمـرُ الـجـنّـة مُـصـانـةٌ عـن الـنَّـقـائـص من كلِّ جهةٍ بخلافِ خمر الدُّنيا

براعة استعمال (عن) في السّببيّة:

دلَّ حرف (عن) في قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ على السَّببيّة، "وحقيقته: لا يصدر صداعُهم عنها، أو لا يُفرَّقون عنها"[1].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.

وقد اتّفقَ جمهورُ أهلِ البيانِ على أنَّها في هذا الموضعِ للتَّعليلِ أو للسَّببيَّةِ، مع تضمُّنها معنى المجاوزةِ، ومعنى المُجاوزة الابتعادُ[1]، وهو استعمالٌ بليغٌ دقيقٌ، يُفصحُ عن سرٍّ لطيفٍ في نظم الآيةِ، فمعنى ﴿عَنۡهَا﴾: "مجاوزين لها، أي: لا يقع لهم صداعٌ ناشئٌ عنها، أي: فهي منزَّهة عن ذلك بخلاف خمور الدُّنيا؛ فاستعملت (عن) في معنى السَّببيَّة"[2]. ولم يقل: (بها)؛ للدّلالةِ على أنَّ التَّصدُّعَ - إن وُجِدَ - فإنَّه يكون بسببٍ من جهتها، لا منها مباشرةً، وهذا أبلغُ في نفي التَّأثُّرِ بها؛ لأنّ (عن) تُفيدُ معنى الإبعادِ والمجاوزة، فكأنَّه قيل: لا يتصدَّعون بسببٍ ناشئٍ من جهتها، أو على إثرِ تناولِها، ولو من بعيدٍ. وفي ذلك احتياطٌ في التَّعبيرِ، يدلُّ على أنَّ التَّصدُّعَ منفيٌّ ليس فقط عن مباشرَةِ الكأسِ، بل أيضًا عن أيِّ مجاوزةٍ أو أثرٍ قد يُتوهَّمُ حصولُه منها، كأنَّ الشَّرابَ قد أحاطَت به عنايةُ اللّهِ، فلا يُفضي إلى ضررٍ أصلًا، لا من ذاته، ولا من جهةِ اقترابه، ولا من أثَرٍ لاحقٍ له.

فـ(عن) توحي بمعنى الاحترازِ والتَّنزيهِ المطلقِ، لا النَّفيِ المجرَّدِ، فهي ليست نفيًا للتَّصدُّعِ عن فعلِ الشُّربِ فقط، بل نفيٌ لما قد يترتَّبُ على فعلِ الشُّربِ أو يُجاوِرُه، فجاءَ الأسلوبُ أبلغَ في الإحاطةِ، وأدقَّ في تنزيهِ شرابِ الجنَّةِ عن أدنى شائبةِ الأذى.

تقدير المتعلّقات المحذوفة وبيان تكامل معاني الامتنان

فائدةُ عطف ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾:

عطفُ قولِه تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ على قولِه: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا﴾ من عطفِ التَّمييزِ والتَّكميلِ، لا من عطفِ المترادفِ، وذلك من بلاغةِ النَّظمِ القرآنيِّ في استيفاءِ جوانبِ المعنى، وتغطيةِ مراتبِ السَّلامةِ والنِّعمةِ في آنٍ واحدٍ، ومن مقتضيات العطف تقدير متعلِّق لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ تقديره: (ولا ينزفون عنها)، دلّ عليه

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 46.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 294.

متعلّق ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾، كما في سورة الصّافات: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾؛ فلا يعتريهم نَزفٌ بسببها كما يحصل للشّاربين في الدُّنيا[1].

والتَّصدُّعُ والإنزافُ - وإن اشتركا في كونهما من آثارِ خمرِ الدُّنيا - يُمثّل كلٌّ منهما وجهًا مستقلًّا من وجوهِ الضَّرر: فالتَّصدُّعُ أثرٌ جسديٌّ محسوسٌ في الرَّأسِ، من صداعٍ أو ألمٍ بعد الشُّربِ، وأمّا الإنزافُ فهو أثرٌ عقليٌّ نفسيٌّ، يُعبَّرُ به عن ذهابِ العقلِ وفقدانِ التَّمييزِ بسببِ السُّكرِ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿يُنزِفُونَ﴾:

ذهـابُ الكـرامةِ الإنـسـانـيّـة مع أوّل قطرات خمر الدُّنيا

استعمل النّظم الكريم مفردة الإنزاف في قولهِ تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾، والإنزافُ مأخوذٌ من مادَّةٍ تدلُّ على استفراغِ الشَّيءِ واستنزافِه حتَّى النَّفادِ، ومنه قولهم: (نَزَفَ الماءُ) إذا فنيَ، ونُزِفَ الرَّجلُ إذا ذهبَ عقلُه من الشُّرابِ، الشَّرابِ، حتَّى لم يبقَ له تمييزٌ[2]، ونزَفتُ البئرَ أنزِفُه نَزفًا: إذا نزحتَه كلَّه[3]؛ وهذا المعنى هو الَّذي انبنت عليه صورةُ خمرِ الدُّنيا، إذ هي لذَّةٌ يعقبُها ذهابُ العقلِ، وضياعُ التَّمييزِ، وسقوطُ الهيبةِ، بل قد تفضي إلى السُّقوطِ عن درجةِ الإنسانيَّةِ.

فاختيرتِ فاختيرتْ مفردةُ ﴿يُنزِفُونَ﴾ دون غيرها من صيغ السُّكرِ، كـ(يسكرون) أو (يذهَلون)،؛ لما فيها من الدِّقَّةِ في التَّصويرِ، والبلاغةِ في الأداءِ، إذ دلَّت على أنَّ ما يُتناوَلُ من تلك الكأسِ الموصوفةِ ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾، لا، يَذهبُ بعقولِهم ولا يَنقُصُ من تمييزِهم شيئًا، ولا يستنزفُ قواهم العقليَّةَ كما تفعلُ خمرُ الدُّنيا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 294.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نزف).
(3) الصّغانيّ، العباب الزّاخر: (نزف): 2/ 19.

بل هم يشربونها في أقصى درجاتِ اللَّذَّةِ وأعلى مراتبِ التَّعقُّلِ؛ ففيه إقامةٌ للكرامةِ الإنسانيّة، بغرضِ التّعريض بضدِّها لشاربي الخمر في الدُّنيا.

توجيه القراءات القرآنيّة:

تكامل الدّلالة بين نفي السُّكر ونفي الإنهاك

ورد في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قراءتان متواترتان، لكلٍّ منهما دلالةٌ بيانيَّةٌ دقيقةٌ تُثري المعنى وتزيدُه عمقًا، أمّا قراءة الجمهور: ﴿وَلَا يُنزَفُونَ﴾ بفتح الزّاي من أنزف الَّذي همزته للتَّعدية، وقرأ الكوفيّون بكسر الزّاي من أنزف المهموز القاصر إذا سَكر وذهب عقله[1]. فالقراءةُ بكسر الزّاي: ﴿يُنزِفُونَ﴾ مأخوذة من (أنزَفَهُ الشَّرابُ) إذا أسكرَه وذهب بعقلِه، والمعنى: لا يُصيبهم سُكرٌ ولا ذهابُ تمييزٍ، بل يشربون وهم بكاملِ عقلِهم ووعيهم، فاجتمعت لهم لذَّةُ الشَّرابِ وصفاءُ الإدراك. وهي قراءةٌ تناسبُ ما قبلها من قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا﴾، إذ نُفيَ عنهم الصداعُ الَّذي هو أثرٌ جسديٌّ، ثمَّ نُفيَ عنهم السُّكرُ الَّذي هو أثرٌ عقليٌّ، فكمل بذلك نفيُ جميعِ المكدِّراتِ عن شرابهم.

وأمّا القراءةُ بفتح الزّاي: ﴿وَلَا يُنزَفُونَ﴾ فهي من (نُزِفَ) بالبناء للمفعول، أي فُرّغ وأُنهِك، والمعنى: لا يُستنزفون ولا يُنهكون، لا من جهة الشَّرابِ ولا من جهة أثرِه، فلا يذهب عقلُهم، ولا تضعف قواهم، ولا ينفد نشاطهم، بل هم في لذّةٍ دائمةٍ لا تُفضي إلى تعبٍ ولا نقصان[2].

والبَلاغَةُ في اختِلافِ القِراءَتَينِ تَظهَرُ في جَمعِهِما بَينَ نَفي السُّكرِ ونَفي الإنهاك، وبَينَ سَلامَةِ الإدراك وسَلامَةِ القوَى، وبَينَ بَقاءِ العَقلِ وثَباتِ الجَسَدِ، فدَلَّ مَجموعُهُما على كَمالِ النِّعمَةِ من كُلِّ وجهٍ، وأنَّ خَمرَ الجَنَّةِ مُنَزَّهَةٌ عَن كُلِّ ما يَنقُصُ اللَّذَّةَ أو يُكَدِّرُ

(1) ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/ 357.

(2) أبو زرعة، حجّة القراءات، ص: 694، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

صَفوَها، فهيَ طاهِرَةٌ في ذاتِها، وآثارُها طاهِرَةٌ كَذَلِكَ.

الحمل على نفي عموم النّزف أو على تقدير محذوف يُقدّر من السّياق

دلالة حذف المتعلّق بالفعل ﴿يُنزِفُونَ﴾:

إنّ حَذفَ المتعلِّقِ بالفعلِ ﴿يُنزِفُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ هو من دقائقِ الإيجازِ البليغِ الَّذي يُعهَدُ في أسلوبِ القرآن، وقد جرى على نهجٍ بلاغيٍّ رفيعٍ يُعرفُ عند أهلِ البيانِ بحذفِ ما يُفهَمُ من السّياقِ اتّكالًا على ظهورِ المعنى، طلبًا للإيجازِ، وتشويقًا للفهمِ، وتوسعةً للدَّلالةِ.

جاءَ قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ دون أن يُذكَرَ المتعلِّقُ به (أي: منها، أو بسببها)، للإشارةِ إلى عموم انتفاءِ أثرِ الخمرِ المعروفِ في الدُّنيا، سواءٌ أكان صداعًا أو سُكرًا أو خَوَرًا أو أذًى في البدن أو العقل. فالحذفُ دلّ على العموم، وأكسبَ العبارةَ اتّساعًا في المعنى، فأفادَ أنّهم لا يُصيبهم من ذلك الشّرابِ شيءٌ من الأثرِ السَّلْبيِّ ألبتّة.

وتقدير حذف المتعلّق يؤخذ من المعطوف عليه، فإنَّ تقديره: (ولا ينزفون عنها)، دلّ عليه المتعلّق بالفعل يصدَّعون ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا﴾، كما في سورة الصّافات: ﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ٤٧﴾ [الصافات: 47]؛ فلا يعتريهم نَزفٌ بسببها كما يحصل للشّاربين في الدُّنيا[1]، وفي هذا الحذفِ أيضًا مراعاةٌ للفاصلة القرآنيَّة، واتّساقٌ في الجرسِ مع ما قبله، حيثُ اقتُصر على ذكرِ الفعلينِ في صورةٍ موجزةٍ خفيفةٍ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾، فكان أوقعَ في النَّفسِ، وأقوى في الإيقاعِ، وأدعى لتأمُّلِ المعنى العظيمِ الَّذي حواه هذا النَّفي.

إكرام المقرّبين بالطّعام والشَّراب بين تمام الخدمة وجمال التَّصوير

دلالة عطف ﴿وَفَٰكِهَةٖ﴾ على الأكواب:

قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ معطوفٌ على ﴿بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ وهو يُفيدُ التّوسيعَ في أصنافِ اللَّذَّة، وتنويعَ مظاهرِ الإكرامِ، وإتمامَ رسمِ صورةِ النّعيمِ الكاملِ المتنوِّعِ بين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 294.

الشّرابِ والطَّعام. "أي ويطوفون عليهم بفاكهة وذلك أدخل في الدَّعَة وألذّ من التَّناول بأيديهم، على أنَّهم إن اشتهَوا اقتطافها بالأيدي دنت لهم الأغصانُ فإنَّ المرء قد يشتهي تناول الثَّمرة من أغصانها"[1].

فالعطفُ هنا - مع اختلافِ المَتاعينِ - ليس لمجرَّدِ الجمعِ، بل للدّلالةِ على مظهرٍ آخرَ من مظاهرِ الرّاحةِ والدَّعةِ؛ إذ إنَّ كونَ الولدانِ المخلَّدينَ يَطوفونَ عليهم بالأكوابِ والأباريقِ، قد يُخيَّلُ معه أنَّ تناولَ الطَّعامِ يقعُ من السّابقينَ أنفسِهم. فجاء العطفُ بـ(فاكهةٍ) دالًّا على أنَّ الطَّوافَ يشملُ كذلك ما يُؤكَلُ، لا ما يُشرَبُ فقط، أي إنَّ الخدمةَ كاملةٌ في المشروبِ والمطعومِ، دون أن تمتدَّ يدُ المُنعَّمِ لطلبِ شيءٍ.

وهذا يُضفي على المشهدِ تمامَ الرَّفاهِ، وكمالَ الاستقرارِ، والتَّرفِ، فالمقرَّبونَ لا يتكلَّفونَ طلبًا، ولا يتحرّكونَ تناولًا، بل تُقرَّبُ إليهم أصنافُ اللَّذَّةِ كما تُقرَّبُ الكؤوسُ.

فائدة تنكير (فاكهة) وإفرادها:

شمول الجنس ودقّة الإكرام في إشباع اختيار المقرّبين

إفرادُ لفظِ (فاكهةٍ) في قولهِ تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ مع أنَّ المقامَ مقامُ تَعدادِ ألوانِ النّعيم، ليس مرادًا به الوحدةُ فقط، بل هو مفردٌ أُريد به الجنس، وهو من أساليبِ العربيّةِ المألوفةِ في مقامِ التَّفنُّنِ والتّنوّعِ، كقولهم: (أكلنا طعامًا شهيًّا)، أي من أنواعٍ متعدّدةٍ. فجاءت فاكهةٌ نكرةً مفردةً لتفيد التَّنوّعَ والانبساطَ في الأنواع، لا التّحديدَ أو الاقتصار؛ لأنّ التَّنكيرَ في هذا السّياقِ دالٌّ على الشّياعِ والإطلاقِ، فكلُّ فاكهةٍ مرغوبةٍ داخلةٌ في هذا المعنى.

أمّا التّنكيرُ فهوَ أبلغُ في إثارةِ التَّوقُّعِ والتَّشوُّفِ؛ لأنّ حذفَ المعرِّفِ يبعثُ في ذهنِ السّامعِ أو القارئِ تساؤلًا عن ماهيّةِ هذه الفاكهة، فيكونُ الجوابُ أنّها فاكهةٌ ممّا يَتخيّرون، أي هي على ما يطلبونَه ويشتهونَه، لا على ما يُفرَضُ عليهم، فالتَّنكيرُ هنا مرآةُ التَّعظيمِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

والاختيارِ، لا التَّقليلِ أو التَّقويض.

والحاصلُ أنّ الإفرادَ والتّنكيرَ قد اجتمعا؛ ليُفيدا شمولَ الجنسِ[1]، وتنوّعَ الأنواعِ، وتعظيمَ الشَّأنِ[2]، وموافقةَ المرغوبِ، ودقّةَ الإكرام، وهي معانٍ لا تُؤدّيها الكثرةُ الظّاهرةُ كما يُؤدّيها هذا التّنكيرُ البليغُ المحكَمُ، وهو من روائعِ النَّظمِ القرآنيّ.

تنويع النَّعيم وتجدّد المتعة في تصوير الجنَّة

نوع (من) ودلالتها:

(مِن) في قَولِه تَعالَى: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ تبعيضيَّةٌ، وفي كلِّ تبعيضٍ معنى الابتداء[3]، وهيَ تُفيدُ أنَّ المُتَناوَلَ مِن تِلكَ الفَواكِهِ والطُّيورِ لَيسَ مُحيطًا بكُلِّها، بَل هوَ مُنتَقًى ومُتَخَيَّرٌ مِن بَينِ أنواعٍ كَثيرَةٍ، وفي ذَلِكَ إشعارٌ بتَعَدُّدِ أصنافِ المُتَعِ واتِّساعِ مَوارِدِ النَّعيم.

فَإنَّ التَّعبيرَ بـ (مِن) التَّبعيضيَّةِ يَدُلُّ على أنَّ ما يَتَخَيَّرون أو يَشتَهونَ إنَّما هوَ بَعضٌ ممّا في الجَنَّةِ، لا كُلُّ ما فيها، وهوَ في ذاتِهِ يُؤَكِّدُ اتِّساعَ دائِرَةِ النَّعيم، ويوحي بأنَّ لَهُم في كُلِّ مَرَّةٍ تَخَيُّرًا جَديدًا ومُتَجَدِّدًا.

رغبات السّابقين المقرّبين مُطلقةٌ لا حـدَّ لـها ولا قيد

نوع (ما) ودلالتها:

(ما) في قَولِهِ تَعالَى: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ موصولةٌ، وهيَ في مَحلّ مَفعولٍ بهِ ثانٍ لِفعلَي ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ و﴿يَشۡتَهُونَ﴾، أي: يَتَخَيَّرونَ ما يتخيَّرونَهُ، ويشتهون ما يشتهونَهُ، فجاءَت (ما) لِتَدُلَّ على كُلِّ مُتَخَيَّرٍ ومُشتَهًى، فتقع هنا (ما) على صفة من يعقل كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشَّمس: 5] أي: الباني[4]. وفي هَذا التَّعبيرِ إيماءٌ بَليغٌ إلَى سَعَةِ ما يُعطَونَهُ من

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 27.
(3) المُبرّد، المقتضب: 1/ 44، وابن يعيش، شرح ابن يعيش: 8/ 13.
(4) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 1/ 145، والرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 161.

أنواعِ الفَواكِه واللُّحوم، فلا يُقَيَّدُ نَعيمُهُم بِصِنفٍ مَخصوص، بَل يَتَخَيَّرونَ ما شاءوا، ويَشتَهونَ ما أرادوا، ويُعطَونَ ذَلِكَ عَينًا، دونَ مَنٍّ ولا مَنع. بحَسَبِ الرَّغَباتِ المُتَنَوِّعَة، فهيَ لِلتَّفخيم والإبهامِ الَّذي يُفيدُ التَّنويعَ والإطلاقَ، وهوَ من دَقيقِ البَلاغَةِ القُرآنيَّة.

حـريّـة الـتَّـخَـيُّر في الجنّة نعيمٌ نفسيٌّ آخر فوق نعيم اللَّذَّة

فائدة وصف الفاكهة بقوله: ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾:

وصف الفاكِهَةِ بقَولِهِ ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ جارٍ على سَبيلِ التَّكريمِ والتَّشويقِ، وقَد جاءَ ليُفيدَ أنَّ المُنعَمَ عَلَيهِم في الجَنَّةِ لَهُم حَقُّ التَّخَيُّرِ، وأنَّ الأمرَ لَيسَ على وجهِ الإلزامِ والتَّقييد، بَل يُقَدَّمُ لَهُم ما يَشتَهونَ ويَتَخَيَّرونَ، ويَتَنَقَّلونَ بَينَ أصنافِ الفَواكِهِ كَما يُحِبّونَ.

فالتَّخَيُّرُ يُفيدُ أنَّهُم لا يُعطَونَ نَوعًا مُحَدَّدًا مُقَدَّرًا، بَل هُم الَّذينَ يَنتَقونَ ويَتَخَيَّرونَ، وهَذا في نَفسِهِ مَظهَرٌ من مَظاهِرِ الإكرامِ وتَمامِ السُّرورِ، كَما أنَّهُ يُشيرُ إلَى تَجَدُّدِ النَّعيمِ وتَنَوُّعِهِ، فلا يَمَلُّهُ المُقَرَّبونَ، ولا يسأمون منهُ ولا يَكِلّونَ.

وَفي التَّعبيرِ عَنها بالمُفرَدِ (فاكِهَةٍ) وإرادَةِ الجنسِ إيماءٌ إلَى أنَّ جَميعَ ما يَتَناوَلونَهُ في مَجالِ الفَواكِه هوَ مِمّا يُريدونَهُ بذَوقِهِم وتَخَيُّرِهِم، فهم أصحاب التَّخَيُّر، وذَلِكَ أبلَغُ في السُّرورِ والدَّعَة.

تـجـدُّد الـنَّـعـيـم ودوام لـذَّة التَّخَيُّر إكرامٌ لم يعهدْه النَّاسُ

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾:

التّعبيرُ بصيغة الفعلِ المُضارِعِ ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ في مَقامِ الإخبارِ عَن نَعيمِ أهلِ الجَنَّةِ يَدُلُّ على تَجَدُّدِ التَّخَيُّرِ ودَوامِه، فهوَ لَيسَ فِعلًا يُفرَغُ مِنهُ، ولا أمرًا يَقَعُ مَرَّةً ويَنقَضي، بَل هوَ تَصويرٌ لِمَشهَدٍ دائِمٍ في زَمَنٍ لا يَنقَطِعُ، يقول ابن عاشور: "(ما يتخيَّرون) الجنس الَّذي يتخيَّرونه ويشتهونه؛ أي يطوفون عليهم بفاكهة من الأنواع الَّتي يتخيَّرونها، ففعل ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ يفيد قوَّة الاختيار"[1]. فكَأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المُقَرَّبينَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

قَد خُيِّرَ في كُلِّ وقتٍ فتخيَّرَ ما يَلَذُّ لَهُ وتهوَى نَفسُهُ، فهيَ لَذَّةُ التَّخيُّرِ فوقَ لَذَّةِ الطَّعام، وفي اختيارِ المُضارِعِ دونَ الماضي إشعارٌ بأنَّ هَذِهِ الحالَةَ دائِمَةٌ مُتَجَدِّدَةٌ، كَأنَّها مُعايَنَةٌ.

دلالة إسناد فعل ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ للضَّمير:

الإشعارُ بأنَّ هذا النّعيم لا يكون إلّا لمن وفّقه الله أن يكونَ من السّابقين

إسنادُ فِعلِ ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ إلَى الضَّميرِ فيهِ إظهارٌ لِمَزيدِ الإكرامِ والتَّكريمِ، وتَفخيمٌ لِمَكانَتِهِم، وذَلِكَ أنَّهُ يَجعَلُهُم أهلَ الخيارَةِ في الجَنَّةِ، يَتَناوَلونَ ما يَشاءونَ وممّا يَشاءونَ، لا يُقتَصَرُ فيهِ على ما يُعرَضُ عَلَيهِم، بَل هُم الَّذينَ يَطلُبونَ، والجَنَّةُ تُجيبُهُم. وفي هَذا مَعنًى جَليلٌ في تَفويضِ الأمرِ إلَيهِم، وتَقديمِ إرادَتِهِم على التَّقديمِ المُعتادِ في مَجالِ الضِّيافَةِ، وكُلُّ ذَلِكَ مِمّا يَتَناسَبُ مَعَ رِفعَةِ دَرَجَةِ السّابِقينَ، فالمَقصود تَصويرُهُم في حالِ مَن يُكرَمُ أعظَمَ إكرامٍ، بأن يُجعَلَ مُخَيَّرًا في نَعيمِهِ، لا مَفروضًا عَلَيهِ، فهوَ نَعيمٌ مَقرونٌ بالحُرِّيَّةِ والعِزَّةِ، فهُم أهلُ الأمرِ والنَّهيِ والاختيارِ في نَعيمِهِم، لا يُقَيَّدونَ بما يُقَدَّمُ إلَيهِم، بَل يُقَدَّمُ لَهُم ما يَختارونَ.

دلالة عطف ﴿وَلَحۡمِ﴾ على السّابق:

بيانُ اكتمالِ مائدةِ الجنَّة بين التّرف والذّوق

عطفُ قولِه تعالى: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ﴾ على قَولِهِ: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾؛ لِتَكميلِ صورَةِ النَّعيمِ المَذكورِ في الجَنَّةِ، وتَفصيلِ أنواعِهِ؛ فإنَّ الفاكِهَةَ مِمّا يُتَناوَلُ لِلتَّلَذُّذِ والتَّرَفِ، واللَّحمَ مِمّا يُقصَدُ لِغِناهُ في الغِذاءِ وتَنويعِ الطَّعامِ، فكانَ ذِكرُهُ بَعدَ الفاكِهَةِ مِمّا يُشيرُ إلَى تَكميلِ نِعمَةِ الأكلِ في الجَنَّةِ.

وَمقتضى العطفِ أن يكونَ المَذكورُ ثانيًا لَيسَ مِن جِنسِ الأوَّلِ، بَل هوَ نَوعٌ آخَرُ مُستَقِلٌّ في التَّنعيمِ؛ لأنَّ عُرفَ المائِدَةِ أن تَتَنَوَّعَ فيها أصنافُ المَأكولِ، فجاءَ العَطفُ؛ لِيُفيدَ تَعَدُّدَ النِّعَمِ وتَفاوُتَها، ولِيُشعِرَ أنَّ أهلَ الجَنَّةِ في تَرَفٍ يَتَخَيَّرونَ فيهِ كُلَّ ما يَليقُ بالذَّوقِ واللَّذَّةِ والغِذاءِ، فالعَطفُ لِتَكميلِ صورَةِ المائِدَةِ في الجَنَّةِ، ولإفادَةِ أنَّ أنواعَ النَّعيمِ مَفصولَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، لَيسَت جارِيَةً على نَمَطٍ واحِدٍ، وذَلِكَ أبلَغُ

في الإكرامِ، وأدَلُّ على الفَخامَةِ.

نكتة إضافة (لحم) إلى لفظ ﴿طَيْرٍ﴾:

بيانُ أشهى أنواعِ اللُّحوم وأندرها في موائدِ أهل الدّنيا

أُضيف لفظ (لَحم) إلَى ﴿طَيْرٍ﴾ في قَولِه تَعالَى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ لتُفيدَ تَخصيصًا وتَشهيرًا بنَوعٍ مُعَيَّنٍ منَ المَأكولِ، هوَ أشهَى أنواعِ اللُّحومِ وأرَقُّها على النَّفسِ وألَذُّها في المَطعَم، وقَد كانَتْ لُحومُ الطَّيرِ ممّا يَتَنافَسُ فيهِ المُتَرَفونَ؛ لرِقَّتِه وخِفَّةِ مادَّتِه ونَداوَتِه، فذِكرُهُ دونَ غَيرِهِ منَ الأنواعِ يَدُلُّ على أنَّ النَّعيمَ المَذكورَ لا يَقتَصِرُ على الحاجَةِ، بَل يَبلُغُ مَبلَغَ الرَّفاهيَّةِ واللَّذَّةِ الخالِصَةِ.

وَفي هَذِهِ الإضافَةِ تَنويهٌ بنَوعِ المَذاقِ وخُصوصيَّةِ المَطعَم، كَما أنَّ في هَذِهِ التَّركيبَةِ تَفصيلًا لِما قَد يوهِمُهُ ذِكرُ اللَّحمِ على الإطلاقِ، فجاءَ التَّقييدُ ليُبَيِّنَ أنَّ المَقصودَ لَحمٌ ذو صِفَةٍ خاصَّةٍ، لا كَغَيرِهِ من لُحومِ البَهائِمِ، فذَلِكَ أدَلُّ على نُعومَةِ النَّعيمِ وفَخامَةِ الطَّعامِ.

وَفي الجُملَةِ: فإنَّ هَذِهِ الإضافَةَ تَحمِلُ في طَيّاتِها تَنويهًا بتَنَوُّعِ النَّعيمِ، وتَرقيَةً للتَّشويقِ، وإفادَةً لأنَّ أهلَ الجَنَّةِ لا يُقَدَّمُ لَهُم إلّا ما يُحِبّونَ، وممّا يَشتَهونَ.

توجيه تخصيص الطَّير بالذِّكر:

الإيـماءُ إلى أشهى اللُّحومِ وأعزِّها وجودًا وأطيبِها مذاقًا

خصَّ النَّظم الكريم لحمَ الطَّيرِ بالذّكر في قَولِه تَعالَى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ لخصوصيَّةٍ في هذا النّوع من اللُّحوم، وهو أنَّ لَحمَ الطَّيرِ ممّا تَشتَهيهِ النُّفوسُ أكثرَ من غيره، فهوَ أرَقُّ اللُّحوم وأطيَبُها في الذَّوقِ، وأسهَلُها في الهَضم، وأنعَمُها في المَلمَسِ، وأحَبُّها إلَى الأثرياءِ وأهلِ الرَّغَدِ، وأندرها في الموائد؛ لصعوبةِ صيدِها.

وَفي تَخصيصِ الطَّيرِ دونَ سائِرِ أنواعِ الحَيَوانِ، إشعارٌ بأنَّهُ مَأكولٌ نَقيٌّ، طاهِرُ المَنبَتِ، لا يَكونُ في نَفسِ الإنسانِ نُفرَةٌ من أصلِه، بَل هوَ ممّا يُتَصَوَّرُ أنَّهُ مَحضُ لَذَّةٍ خالِصَةٍ، ومِن ثَمَّ كانَ الطَّيرُ في

مَخيلَةِ النّاسِ أليَقَ بالتَّنعيمِ.

نوع (من) ودلالتها:

جمال المطابقة وتمام الإكرام في وصف الطَّعام

(مِن) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، بيانيَّةٌ على التَّحقيقِ، تُفيدُ تبيينَ الجنسِ[1]، أي: لحمُ طيرٍ ناشئٌ من جنسِ ما يشتهون، لا من جنسٍ مفروضٍ عليهم، بل هو موافِقٌ لشهوتِهم، مطابقٌ لما تألَفُهُ نفوسُهم، وتأنسُ إليه رغباتُهم، وهذا أبلغُ في إكرامِهم، وأدلُّ على تكريمِهم؛ إذِ النِّعمةُ إذا جاءت على وفقِ الشَّهوةِ، كانت أتمَّ وقعًا في القلبِ، وأعظمَ أثرًا في النَّفسِ.

وتحتمل أن تكونَ تبعيضيَّةً، أي: لحمُ طيرٍ بعضُه ممّا يشتهون، وبعضُه ممّا لم يسبق لهم به علمٌ، فتكونُ الآيةُ مشعِرةً بتنوُّعٍ يتجاوزُ إدراكَهم، إلّا أنَّ هذا الاحتمالَ بعيدٌ عن المقامِ؛ لأنَّ السّياقَ جارٍ على وصفِ النَّعيمِ المطابقِ لتطلُّعاتِ أهلِه، كما في قولِه قبلَه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، وهو في غايةِ الملاطفةِ؛ إذِ التَّخييرُ لا يكونُ إلّا حيثُ يكونُ المرءُ هو الحاكمَ في انتقاءِ ما يَلتذُّ به، لا المفروضَ عليه فيما يُقدَّمُ له.

نوع (ما) ودلالتها:

متخيّرات الفواكه ومشتهيات اللُّحوم لا تقع تحت حصر، ولا يُحيط بها بصر

(ما) في قَولِه تَعالَى: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ و﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مَوصولَةٌ، وتقع على ذوات ما لا يعقل وعلى صفات من يعقل[2]. قال سيبويه (ما) مبهمة تقع على كلِّ شيءٍ[3]. وهيَ تُفيدُ التَّنويعَ والتَّكثيرَ، فتكونُ في مَعنَى: الَّذي يَتَخَيَّرونَهُ والَّذي يَشتَهونَهُ. وإفادَتُها هُنا تَنحو نَحوَ تَوسيعِ المُباحِ وإبداءِ التَّنَوُّعِ في مَجالِ النَّعيمِ، فإنَّ (ما) المَوصولَةَ تُفيدُ الاشتِمالَ على كُلِّ ما يَقَعُ فيهِ التَّخَيُّرُ والاشتِهاءُ مِن أنواعِ

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 357.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 120.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/ 309.

الفَواكِهِ والطُّيورِ، مِمّا يُناسِبُ مَقامَ البَذخِ والتَّرَفِ في نَعيمِ الجَنَّةِ.

رغباتُ المقرّبين متجدّدةٌ بتجدُّدِ التّعيم ولذّة المطعوم

دلالة التَّعبير بصيغة المضارع:

اختيارُ صيغَةِ المُضارِعِ في قَولِه تعالى: ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾، دونَ أن يُقالَ: (مِمّا اشتَهوا)، تُفصِحُ عَن عُمقِ النَّظم في إفادةِ الاستِمرار والتَّجَدُّد، ويَدُلُّ على تَكَرُّرِ الشَّهوَةِ وتَجَدُّدِ الرَّغبَةِ، وهَذا مِمّا يُصَوِّرُ نَعيمَ الجَنَّةِ في صورَةٍ دائِمَةٍ، لا تَفتُرُ ولا تَنقَضي، فهُم يُرزَقونَ فيما يُريدونَ كُلَّما جَدَّتِ الرَّغبَةُ وتَحَرَّكَتِ النَّفسُ إليه، فكَأَنَّ نِعَمَ الجَنَّةِ تُساقُ إلَيهِم عَلى قَدَرِ اشتِهائِهِم وحَسَبِ مُرادِهِمُ المُتَجَدِّدِ.

وَفيه إشارَةٌ إلى أنَّ تِلكَ الرَّغَباتِ لا تَبلَى، ولا تَفتُرُ مَعَ الدَّهرِ، بَل تَبقَى في تَجَدُّدٍ دائِمٍ وتَجَديدٍ مُتَّصِلٍ، وفي هَذا تَصويرٌ لأُفُقٍ نَعيميٍّ لا نَظيرَ لَهُ في الدُّنيا.

التّخيرُ دليلُ كثرة الأنواع والاشتهاء دليل مطلب النّفس ورغبتها

الفرق بين تخيُّر الفاكهة واشتهاء اللَّحم:

آثر النّظم الكريم ذكر الاشتهاء دون التّخيُّر في قَوله تَعالَى: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ والاشتِهاءُ: مَصدَرُ اشتَهَى، وهوَ افتِعالٌ مِنَ الشَّهوَةِ الَّتي هيَ مَحَبَّةُ نَيلِ شَيءٍ مَرغوبٍ فيهِ مِن مَحسوساتٍ ومَعنَويّاتٍ، والافتِعالُ فيهِ لِلمُبالَغَةِ(1)، وذلك أنَّ التَّخَيُّرَ في الفاكِهَةِ أبلَغُ في إبداءِ التَّنَوُّعِ وسَعَةِ العَرضِ، فإنَّ التَّفاكه تَقتَضي التَّنَقُّلَ بَينَ أنواعٍ مُختَلِفَةٍ وطُعومٍ مُتَبايِنَةٍ، فذَكَرَ فيها التَّخَيُّرَ لِما يُفيدُهُ ذَلِكَ مِن حُسنِ المُناسَبَةِ بَينَ المَقامِ واللَّفظِ.

وَأمّا في اللَّحمِ، فإنَّهُ في العادَةِ أقَلُّ تَنَوُّعًا فيما يُقصَدُ مِنهُ، وأقرَبُ إلَى مَقامِ الاشتِهاءِ الَّذي يُشيرُ إلَى الرَّغبَةِ النَّفسيَّةِ القَويَّةِ في نَوعٍ مُعَيَّنٍ، فاختيرَ لَهُ التَّعبيرُ بفعل ﴿يَشۡتَهُونَ﴾؛ لإفادَةِ تَوَجُّهِ الرَّغبَةِ وتَعَلُّقِ النَّفسِ بالمَطلوبِ، فهوَ طَعامٌ يُقصَدُ لِذاتِه، لا لِلتَّنَوُّعِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

فيه. فجاءَ التَّخَيُّرُ في الفاكِهَة؛ لإفادَةِ سَعَةِ العَرض، وجاءَ الاشتِهاءُ في اللَّحم؛ لإبرازِ مَركَزيَّةِ الرَّغبَةِ فيه، "وَلِأَنَّ الاشتِهاءَ أعلَقُ بالطَّعام منهُ بالفَواكِه، فلَذَّةُ كَسرِ الشَّهيَّةِ بالطَّعام لَذَّةٌ زائِدَةٌ على لَذَّةِ حُسنِ طَعمِه، وكَثرَةُ التَّخَيُّرِ لِلفاكِهَةِ هيَ لَذَّةُ تَلوينِ الأصنافِ"[1]؛ فكِلا التَّعبيرَين مُناسِبٌ لِمَوضِعِه ومُعَبِّرٌ عَن حالِ المُنعَمِ عَلَيهِ في مَقامِ لَذّاتِ الجَنَّة.

دلالة التَّرتيب بذكر الأكواب فالفاكهة فلحم الطَّير:

تقديم المطعومات والمشروبات للذّة والمتعة لا للإشباع والإرواء

جاء ترتيبُ ذكر النِّعم في السّياق بَدءًا بالأكوابِ والأباريقِ وكَأسٍ من مَعينٍ؛ ليُناسِبَ ما يُبدَأُ به عادَةً في مَجالِسِ التَّرَف، مِنَ السُّقيا والمَشارِبِ، إذ تَقَدُّمُ الشَّرابِ على الطَّعامِ مِمّا جَرَت بهِ العادَةُ في المَوائِدِ الفاخِرَة.

ثُمَّ جاءَ ذِكرُ الفاكِهَةِ وهيَ مِمّا يُقدَّمُ تَرفيهًا وتَلَذُّذًا بَعدَ الشَّراب، وفي ذَلِكَ إشارَةٌ إلَى أنَّهُم في رَغَدٍ ودَعَة، يَتَخَيَّرونَ فاكِهتهم، ويتلذَّذون بها، ثُمَّ ذُكِرَ لَحمُ الطَّيرِ، وهوَ مِمّا يَقصِدُ إلَيهِ أهلُ الشَّهوَةِ في الطَّعام، فجاءَ في الخِتامِ على وجهِ التَّتميمِ والتَّكميلِ لِأنواعِ النَّعيمِ المَأكولِ، وفي ذَلِكَ إشباعٌ لِكُلِّ مَيلٍ نَفسيٍّ، بَينَ تَرَفِ المَذاقِ في الفاكِهَة، وقوَّةِ الغِذاءِ في اللَّحم، وهو ما يُشعِر بأنَّ أكلهم ليس عن جوعٍ بل عن متعةٍ ولذّة، ولو عكسَ لأفاد الأخرى.

فالآيَةُ راعَتِ التَّرتيبَ الطَّبيعيَّ في مَجالِسِ الأُنسِ والنَّعيم، وصَوَّرَتِ المَشهَدَ وفقَ ما يَتطَلَّبُهُ الحالُ مِنَ الفَخامَةِ واللَّذَّة، وفي ذَلِكَ تَصويرٌ لِمَراتِبِ التَّنعيمِ الَّذي أُعِدَّ لِلسّابِقينَ المُقَرَّبينَ.

نوع الواو في قوله: ﴿وَحُورٌ﴾ ودلالتها:

الحور نعمةٌ كبرى ومنّةٌ عظمى ينالُها المقرّبون

الواوُ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ تحتمل أن تكونَ للعطفِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

على ﴿وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾، أي: ويطوف عليهم حور عين[1]، فالحورُ يَطُفْنَ عليهم بذلك، كما الوَلائدُ في الدُّنيا، وقال أبو البقاء: أي: يَطُفْنَ عليهم للتَّنعُّم لا للخدمة، قال السَّمين: وهو للخدمةِ أبْلَغُ؛ لأنَّهم إذا خدمهم مثلُ أولئك، فما الظَّنُّ بالمَوْطوءات[2]؟ وتحتمل أن تكون على الاستئناف، أي: وفيها حور عين[3]، وهذا على قراءةِ رفع (حورٌ).

وَهَذا النَّوعُ مِنَ الاستِئنافِ لَهُ غايَةٌ بَلاغيَّةٌ، وهيَ أن يُفصَلَ بَينَ هَذا النَّعيم المُتَعَلِّقِ بالزَّوجاتِ الطّاهِراتِ في الجَنَّةِ، وبَينَ ما قَبلَهُ مِنَ النَّعيم المادّيِّ؛ ليَكونَ ذِكرُ الحورِ العينِ في مَقامٍ أعلَى ووَصفٍ أجَلَّ، فلا يُجعَلُ مَعطوفًا يُشارِكُ ما قَبلَهُ في المَنزِلَةِ، بَل يُستَأنَفُ بذِكرِهِ للتَّشريفِ والإعلاءِ.

وَمِمّا يُؤَيِّدُ هَذا أنَّ سياقَ الآياتِ قَدِ انتَقَلَ مِن ذِكرِ أصنافِ المُتَعِ الطَّعاميَّةِ والشَّرابيَّة، إلى ذِكرِ نِعمَةِ المُؤانَسَةِ والمُصاحَبَةِ الَّتي هيَ في أُفقٍ آخَرَ، ومَقامٍ أرقَى.

فالواو تُشبِهُ واوَ التَّفصيلِ أوِ الانتِقالِ، وتُفيدُ الاستِئنافَ بَعدَ اكتِمالِ سياقٍ سابِقٍ، فتَفتَتِحُ لِلسّامِعِ مَجالًا جَديدًا مِنَ النَّعيمِ في أُفُقٍ آخَرَ، وذلِكَ أبلَغُ في التَّصويرِ وأدَقُّ في التَّنويعِ.

توجيه القراءات القرآنيّة:

في قَوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ قراءَتانِ مَشهورَتانِ؛ فقرأ أبو جعفر، وحمزة، والكسائيُّ بخفض الاسمين: ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾، وقرأهما الباقون بالرَّفع[4]، فأمّا قِراءَةُ الجُمهورِ برَفعِ ﴿وَحُورٌ﴾ فسبق بيانها في النُّكتة السّابقة، وأمّا القِراءَةُ الثّانيَةُ فبِجَرِّ (وَحورٍ عينٍ) على أنّ (حور) عطف على ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ﴾، في قَولِه: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾، ويَكونُ المَعنَى: ويُرزَقونَ لَحمَ طَيرٍ وحورًا عينًا، فتَكونَ الحورُ جُزءًا من جِنسِ النَّعيمِ الَّذي يُرزَقونَهُ، كَما هوَ الطَّعامُ والشَّرابُ. أو على أنَّ (حور) عُطِفَ عَلى (أكواب)، أو يُعطَفُ على ﴿جَنَّٰتِ﴾، أي وفي حور عين، أي هُم في حورٍ عينٍ أو محاطُونَ بهنَّ ومحدِّقونَ بهنَّ والمُرادُ: أزواجٌ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.
(2) الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، السّمين الحلبيّ: 10/ 203.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 459.
(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 383.

السّابِقينَ في الجنَّة وهُنَّ المَقصوراتُ في الخيام"[1].

تكامل المعاني بين الاستئناف والعطف متابعةً واستقلالًا

وَلِكُلِّ وجهٍ مِنَ القِراءَتَينِ مَسلَكٌ في البَلاغَةِ ومَرامٌ في التَّصويرِ، فقراءَةُ الرَّفعِ تُعطي وقعًا قويًّا في التَّفخيمِ والاِستِقلالِ لِذِكرِ الحورِ، وتَجعَلُهُنَّ في سياقٍ مُمَيَّزٍ، أمّا قِراءَةُ الخَفضِ ففيها دَخولُ الحورِ في جُملَةِ ما يُنعَّمُ به، مَعَ تَضمينٍ لِرِقَّةِ الوَصفِ وتَدَرُّجِ السّياقِ مِنَ الطَّعامِ إلى الزَّوجِ، وكِلتا القِراءَتَينِ تَدخُلانِ في نِظامٍ واحِدٍ يُحَقِّقُ التَّنويعَ في البَيانِ، ويوَسِّعُ آفاقَ التَّدَبُّرِ، ويُؤَكِّدُ أنَّ عَجائِبَ أُسلوبِ القُرآنِ لا تَنقَضي.

نكتة إفراد (حور):

الإيحاء النّاشئ عن الإفراد اللّفظيّ والجمع المعنويّ دليلُ عناية النّظم بالنّفس

أُفرِد لَفظُ (حور) في قَولِه تَعالَى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ وهو في مَعنَى الجَمعِ؛ لِما تَرجِعُ إليه هَذِهِ اللَّفظَةُ مِن قوَّةِ الإيحاءِ والتَّخصيص، فهيَ على صورَةِ المُفرَدِ، لَكِنَّها في المَعنَى جَمعٌ، كَقَولِهِم: رَهط وقوم ونَفَر، وهوَ أفصَحُ في العَرَبيَّةِ وأدَلُّ على العظَمَةِ والتَّنويه، وقَدِ اختيرَت هَذِه الصّيغَةُ دونَ حوريّاتٍ أو نِساءٍ لِما في كَلِمَةِ (حور) مِن جَرَسٍ صَوتيٍّ يُناسِبُ الجَمالَ والرِّقَّةَ، كَما أنَّها توحي بالقَصرِ في الوَصفِ على أنوَعٍ مَعلومَةٍ مُمَيَّزَةٍ، هُم أهلُ الحورِ العينِ، لا يُشارِكُهُم فيها أحَدٌ مِن نِساءِ الدُّنيا.

دلالة وصف الحور بالعين:

الأوصاف تقع من الموصوفات موقع البيان والتّصوير والتّرغيب

وُصفن الحورُ بأنَّهُنَّ ﴿عِينٌ﴾، وهوَ وصفٌ لَهُ دَلالَةٌ تصويريّة ونَفسيَّةٌ في آنٍ؛ فالحور العين: النِّساء ذوات الحَوَر، وذوات العَين وهو سعة العين[2]. فالـ ﴿عِينٌ﴾ جمعُ عَيناءَ، وهيَ المَرأةُ الواسِعَةُ العَينِ، الَّتي يَكونُ بَياضُ عَينِها صافيًا وسَوادُها شَديدًا، وفي تَكبيرِ العَينِ دلالَةٌ عَلى الجَمالِ الظّاهِرِ، الَّذي يَفتِنُ القُلوبَ ويُجتَلَى في تَصاويرِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 296.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

الحُسنِ، والوَصفُ بـ ﴿عِينٌ﴾ أعمَقُ مِن جمالِ الظّاهِرِ؛ فإنَّ العَينَ هيَ مَوضِعُ النَّظَرِ ومِرآةُ النَّفسِ، وفيها تَكونُ الخَصائِصُ المَكنونَةُ مِن حَياءٍ ووَقارٍ وتَوَقُّدٍ ووُدٍّ، فالوَصف يَجمَعُ بَينَ سِحرِ الجِسمِ وجاذِبيَّةِ الرّوحِ، والوَصفُ جاءَ في سِياقٍ نَقيٍّ، طاهِرِ اللَّفظِ، يُبعِدُ الخَيالَ عَن أيِّ شائِبَةٍ مادّيَّةٍ دَنيَّةٍ، بَل يُحَلِّقُ بالذِّهنِ في أُفُقِ جَمالٍ مُقدَّسٍ، يوافِقُ مَقامَ المُقَرَّبينَ في جَنّاتِ النَّعيمِ.

تشبيه الحور باللُّؤلؤ المكنون استحضارٌ للصّورة وتجليةٌ للمشهد

نوع الكاف ودلالتها:

الكافُ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ للتَّشبيهِ، وقَد جيءَ بها لِتَقريبِ المَعنَى إلَى ذِهنِ السّامِعِ، فإنَّ شَأنَ التَّشبيهِ أن يُقَرِّبَ المَعقولَ بالمَحسوسِ، أوِ الغائِبَ بالمَشهودِ، وقَد وقَعَ التَّشبيهُ هُنا على نَحوٍ يُشيرُ إلَى البَهاءِ والنَّقاءِ والصَّفاءِ، فشُبِّهَت الحورُ العينُ في حُسنِهِنَّ وبَهائِهِنَّ باللُّؤلُؤِ المَكنونِ، وهوَ الَّذي لَم تَمَسَّهُ الأيدي[1]، ولا أصابَهُ غُبارٌ، فهوَ أبلَغُ في صِفَةِ النَّقاءِ والجَمالِ، وفي اختيارِ الكافِ، تَوجيهٌ بَليغٌ في التَّشبيهِ البَصَريِّ المُتَخَيَّلِ، الَّذي يُثيرُ في النَّفسِ صورَةً ذِهنيَّةً تَجمَعُ مَعانيَ الجَمالِ والقيمَةِ، وذَلِكَ أنَّ اللُّؤلُؤَ إذا كانَ مَكنونًا فإنَّهُ أثمَنُ وأندَرُ، فكَذَلِكَ الحورُ هُم في مَنزِلَةٍ عاليَةٍ مِنَ الحُسنِ والمَكانَةِ.

تشبيهُ الجمعِ بالجمعِ تصويرٌ للجمالِ بعديدِ أنواعه

بلاغة جمع (أمثال):

جَمعُ (أمثال) في قَولِهِ تَعالَى: ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ دونَ إفرادِهِ يَحمِلُ دِقَّةً بَلاغيَّةً تَتَناسَبُ مَعَ سياقِ المَدحِ والتَّنويعِ، فإنَّ جَمعَ (أمثال) يُشيرُ إلَى تَعَدُّدِ صوَرِ الجَمالِ وتَنَوُّعِ التَّمثيلِ، فكُلُّ واحِدَةٍ مِنَ الحورِ العينِ لَها تَمثيلٌ مُختَصٌّ في الجَمالِ، فهيَ لَيسَت على وتيرَةٍ واحِدَةٍ، بَل كُلُّ واحِدَةٍ مِنهُنَّ تَتَمَيَّزُ في جَمالِها ونَضارَتِها، فشُبِّهَ كُلُّ

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 9/ 206.

بِلُؤْلُؤَةٍ فائِقَةِ الصَّفاءِ والنَّقاءِ[1].

وَفي هَذا تَنويعٌ يُفيدُ تَعدُّدَ وُجوهِ البَهاءِ، فلَيسَ التَّشبيهُ على وجهٍ واحِدٍ، بَل هوَ تَشبيهٌ مُتَعَدِّدُ الأوجُه، يُعَبِّرُ عَن أنَّ في كُلٍّ واحِدَةٍ مِنَ الحورِ ما يُشبِهُ اللُّؤْلُؤَ في وجهٍ ما، ويَفوقُهُ في وجهٍ آخَرَ، فالمُشَبَّهات كَثيرَةٌ، والمُشَبَّهَ بِهِ أيضًا كَثيرٌ، فهو تشبيهُ جمعٍ بجمعٍ.

صورةُ الحورِ العين لا تتخيّلها نفسُ البشرِ ولا تُدرك حقيقتها عقولُ النّاس

فائدة دخول الكاف على (أمثال):

في قوله تعالى: ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾؛ الكافُ للتَّشبيهِ، والمِثلُ حقيقةٌ فيهِ، فلو قالَ: أمثالَ اللُّؤلؤِ المكنونِ، لم يكن إلى الكافِ حاجةٌ، أو العكس: (كاللُّؤلؤ المكنون)؛ فيكون وجهُ الجمعِ بينَ كلمتَي التَّشبيهِ؛ بإفادةِ التَّوكيد والزّيادة في التَّشبيه[2]، كقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: 11]. والمعنى: هنَّ أمثالُ اللُّؤلؤ المكنون[3].

وإنَّ فوائِدَ دُخولِ (الكاف) على لَفظِ ﴿كَأَمۡثَٰلِ﴾ دونَ أن يَقولَ (كاللُّؤلؤ) مُنفَصِلَةٌ عَن دِقَّةِ التَّشبيهِ ورِقَّةِ التَّعبيرِ، فإنَّ التَّعبيرَ بـ ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ﴾ أبلَغُ في التَّرقيقِ والتَّوسيطِ بَينَ المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ بِهِ؛ لأنَّ ذِكرَ (الأمثال) يَفيدُ أنَّ المُشَبَّهَ لَيسَ عَينَ اللُّؤلُؤِ، بَل مِثلُهُ في الجَمالِ والبَهاءِ والنَّقاءِ، والجمالُ الحقيقيُّ للحورِ العينِ لا تتصوّره متخيّلات النّاس.

الإضافةُ بيانيّةٌ فهي لتنويع التّشبيه وتوسيع المعنى

نوع إضافة ﴿كَأَمۡثَٰلِ﴾ للفظ ﴿ٱللُّؤۡلُوِٕ﴾:

إنَّ إضافَةَ ﴿كَأَمۡثَٰلِ﴾ إلَى ﴿ٱللُّؤۡلُوِٕ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ هيَ إضافَةٌ بَيانيَّةٌ على نَحوِ: (أمثالٌ مِنَ اللُّؤلؤ)، وهيَ في التَّحقيقِ مِن قَبيلِ الإضافة المحضة الّتي يُراد بها التَّفسير والتَّمييز، فهيَ لَيسَت إضافَةَ تَمَلُّكٍ ولا مِلكيَّةٍ ولا مَحضَ نِسبَةٍ، بَل

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 135.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 296.

إضافَةٌ تَفسيريَّةٌ تُرادُ لِبَيانِ ماهيَّةِ المُضافِ.

وَفي هَذا التَّركيبِ تَحديدٌ لِوَجهِ الشَّبَهِ، فكَأنَّهُ قيلَ: كَأشياءَ تُماثِلُ في جَمالِها ونَقائِها ورِقَّتِها ذاتَ اللُّؤْلُؤِ المَكنونِ، فالإضافَةُ هُنا لِتَقريبِ المُشَبَّهِ بِهِ إلَى الذِّهنِ، وإفادَةِ أنَّ المُشَبَّهَ في حُسنِهِ لا يُماثِلُ اللُّؤْلُؤَ نَفسَهُ، بَل يُماثِلُ ما يُشبِهُهُ مِن أنواعِ الجَمالِ الَّتي يُصَوِّرُها اللُّؤْلُؤُ المَصونُ في مَحَّارِهِ.

تنقيةُ الحور من شوائب السّهر وكـدرِ التّعب وتصوير صفاء لـونـهـا ونـقـاء رسمها

فائدة تشبيه الحور العين باللُّؤلؤ المكنون:

آثر النّظم الكريم اختيار اللُّؤلؤ المكنون مشبَّهًا به للحورِ العينِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِٕ ٱلْمَكْنُونِ﴾ دونَ غَيرِهِ مِنَ الجَواهِرِ أوِ المَعادِنِ، وذلك أنَّ اللُّؤلُؤَ في نَفسِهِ مَثَلٌ في الصَّفاءِ والنَّقاءِ والبَهاءِ[1]، وإذا وُصِف بالمَكنونِ، أيِ: المَصونِ في صَدَفاتِهِ، الَّذي لَم تَمَسَّهُ أيدٍ ولَم تَرَه أبصارٌ، ولم يقع عليه غبارٌ؛ فهو أشدُّ ما يكون صفاءً[2]، كانَ في ذَلِكَ إشارَةٌ إلَى كَمالِ النَّقاءِ وصَونِ الحورِ وطُهرِهِنَّ.

وَفي هَذا التَّشبيهِ تَجريدٌ لِلجَمالِ مِن كُلِّ شائِبَةٍ، وتَصويرٌ لِلحورِ بِصورَةٍ تَجمَعُ بَينَ الحُسنِ الذّاتيِّ والطَّهارَةِ الخُلُقيَّةِ، فهُنَّ كَأنَّهُنَّ جَواهِرُ مَكنونَةٌ لَم تَخرُج بَعدُ إلَى الأنظارِ، مِمّا يُفيدُ التَّفَرُّدَ والخُصوصيَّةَ لِأهلِ الجَنَّةِ.

واختيارُ اللُّؤلُؤِ - دونَ الذَّهَبِ أوِ المَرجانِ - لِما فيهِ مِن بَياضٍ نَقيٍّ ورِقَّةٍ ولَمَعانٍ هادِئٍ، يُناسِبُ وصفَ العينِ اللَّواتي هُنَّ في غايَةِ الدَّلالَةِ والرِّقَّةِ واللُّطفِ.

الـجـمـع بين الجمال المصون الظّاهر والطُّهر المعنويّ الباطن

غرض وصف ﴿ٱللُّؤْلُوِ﴾ بـ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾:

وَصفُ ﴿ٱللُّؤْلُوِ﴾ بصفةِ ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾ يَحمِلُ دِقَّةً بَيانيَّةً فائِقَةً، تَتَجَلَّى في إرادَةِ التَّشبيهِ البَليغِ لِلحورِ العينِ، إذ لَم يُرِدِ القُرآنُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 179.

(2) ابن عادل، اللُّباب: 1/ 4790.

تَشبيهَهُنَّ باللُّؤلُؤِ فقَط، وإنَّما باللُّؤلُؤِ المَصونِ الَّذي لَم تمَسّهُ أيدٍ ولا تَطَلَّعت إلَيهِ أبصارٌ؛ فإنَّ المَكنونَ في اللُّغَةِ هوَ المُخَبَّأُ المَصونُ المخزون لنفاسته[1]، وإذا أُضيفَ إلَى اللُّؤلُؤِ فإنَّهُ يُفيدُ المَزيدَ مِنَ النَّقاءِ والطَّهارَةِ والسَّترِ، فالمُراد بذَلِكَ تَصويرُ عِفَّةِ الحورِ وصيانَتِهِنَّ، فهُنَّ في طَهارَةٍ كَطَهارَةِ اللُّؤلُؤِ الَّذي لَم يَلِجهُ ما يُفسِدُهُ، ولَم يَخدِش صَفاءَهُ ما يَنقُصُ مِن جَمالِهِ؛ كما قال الضَّحّاك: "اللُّؤلُؤ العِظام الَّذي قد أكنَّ من أن يمسَّهُ شَيء[2]. وفي ذَلِكَ تَعريضٌ بَليغٌ بنقص جمال نساءِ الدُّنيا وكَمالِ صِفاتِ الحورِ، وأنَّهُنَّ مَعَ جَمالِ الظّاهِرِ قَد كَمُلنَ في جَمالِ الباطِنِ، فجَمَعنَ بَينَ نُضرَةِ المَنظَرِ وصَونِ المَعنَى، وفي ذَلِكَ تَغريبٌ لِقَلبِ السّامِعِ في تَصَوُّرِ ما أعَدَّهُ اللّٰه لِعِبادِهِ المُقَرَّبينَ.

كَذَلِكَ فإنَّ هَذا الوَصفَ يُفيدُ التَّفريقَ بَينَ ما يُظَنُّ أنَّهُ حَسَنٌ فقط لِمَظهَرِهِ، وبَينَ ما كَمُلَ في المَظهَرِ والمَخبَرِ، فشَبَّهَهُنَّ باللُّؤلُؤِ المَكنونِ تَعظيمًا لِصَفاءِ ذاتِهِنَّ وصَونِهِنَّ ورِفعَةِ مَكانَتِهِنَّ.

تفخيم المعهود وتصوير الجمال المحجوب

فائدةُ تعريف ﴿ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾:

تَعريفُ اللُّؤلُؤِ المَكنونِ دون أن يقول: (كأمثال لؤلؤٍ مكنون) يَحمِلُ دَلالَةً تَفخيميَّةً وتَعظيميَّةً، إذِ المَعرِفَةُ تَفيدُ المَعهوديَّةَ، وهوَ المَعهودُ في الأذهانِ مِنَ اللُّؤلُؤِ العالي القيمَةِ المُصانِ، وهو الَّذي يقتصر على أنْ يوصف بأنّه اللُّؤلؤ المكنون.

فالمُشَبَّه بهِ هُنا لَيسَ لُؤلُؤًا مُطلَقًا، بَل هوَ ذَلِكَ الَّذي تَعرِفُهُ النُّفوسُ وتَشتَهيهِ القُلوبُ مِن أشرَفِ أنواعِ اللُّؤلُؤ، فالتَّعريفُ يَخرُجُ بالمُشَبَّهِ إلَى أرفَعِ دَرَجاتِ الشَّبَه، فتَكونُ الحورُ العينُ في غايَةِ النَّقاءِ والطَّهارَةِ والبَهاءِ، لا يُنالُ جَمالُهُنَّ بالوَصفِ، ولا يُقارَبُ بالنَّظَرِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 296.

(2) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 8/ 11.

دلالة اختيار مفردة ﴿جَزَآءَۢ﴾:

آثر النّظم الكريمُ تخصيصَ العَطاءِ الإلَهيِّ بلَفظِ ﴿جَزَآءَۢ﴾ دونَ (ثَوابًا)؛ وذلك لبيانِ أنَّ ما ذُكِرَ مِن نَعيمٍ عَظيمٍ لِلسّابقِينَ إنَّما هوَ مُقابِلٌ لِما بَذَلوهُ[1] في سَبيلِ اللّه، وما تَحَمَّلوهُ مِنَ المَشَقَّةِ والاجتِهادِ في الطّاعَةِ، فتكون هذه الرُّتب والنِّعم هي لهم بحسب أعمالهم؛ لأنّ المنازل والقسم في الجنَّة، هي على قدر الأعمال[2].

الـجـزاء جـامـعٌ بين لفت الانتباه إلى الاستحقاق وبـيـان الـفـضـل فـي بـلـوغ رتـبـة الاستحقاق

وَفي لَفظِ ﴿جَزَآءَۢ﴾ ما يُشعِرُ بالموافَقَةِ بَينَ العَمَلِ والمُقابِلِ، على وجهِ الكَرَمِ والتَّكريمِ، فلَم يُرِدِ القُرآنُ هُنا أن يُبرِزَ فقَط صِفَةَ النَّعيمِ، بَل قَصَدَ أن يُرَكِّزَ على أنَّهُ نَتيجَةُ اجتِهادٍ وعَمَلٍ، وأنَّ سِرَّ الفَضلِ هوَ في كَونِهِ جَزاءً، كَما يُشعِرُ بهِ لَفظُ ثَوابٍ الَّذي يَتَّسِعُ لِلهِباتِ المَحضة؛ فناسب اختيارُ لفظ ﴿جَزَآءَۢ﴾ في هَذا المَقامِ سِياقَ المُفاضَلَةِ بَينَ الفِئاتِ، وتَقديمِ السّابِقينَ على غَيرِهم، ففيهِ تَقريرٌ لِمَبدَإِ العَدلِ والتَّرتيبِ الحَقيقيِّ لِلمَنازِلِ، وتَسلِيَةٌ لِأُولَئِكَ الَّذينَ تَحَمَّلوا المَشاقَّ وفازوا بالمُسابِقَةِ.

الأعـمـال عـلـلُ الـجـزاءِ والـجـزاءُ فـضـلُ امـتـنـانٍ بالتّوفيق لصالح الأعمال

نوع الباء ودلالتها:

الباء في قَولِهِ تَعالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ باءُ السَّبَبِيَّةِ[3]، وهيَ تَدُلُّ على أنَّ ما ذُكِرَ مِنَ الجَزاءِ العَظيمِ لِهَؤُلاءِ السّابِقينَ، إنَّما كانَ بسَبَبِ أعمالِهِمِ الَّتي قَدَّموها في الدُّنيا، فهيَ باءٌ تُفيدُ العِلِّيَّةَ الغائيَّةَ، أي إنَّ هَذا النَّعيمَ جاءَ مُعَلَّلًا بعَمَلِهِم، وهو تَنويهٌ بقيمَةِ العَمَلِ في ميزانِ الشَّرعِ، ويَشيرُ إلَى أنَّ نَيلَ تِلكَ المَراتِبِ الرَّفيعَةِ كان بالعمل الصّالح، فهو عَدلٌ إلهيٌّ وفضلٌ ربانيٌّ ومُقابَلَةٌ لِما قَدَّموا.

جميع الأعمال الصّالحة مُثمرةٌ فـي الـجـنّـات مـعـذوقـةٌ بـأسـبـاب الرَّحمات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 296.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 243.
(3) ابن عثيمين، تفسير الحجرات - الحديد: 1/ 335.

نوع (ما) ودلالتها:

(ما) في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ في محلِّ جرٍّ بالباءِ، والمعنَى: جزاءً بسببِ الَّذي كانوا يعملونَهُ في حياتِهِمُ الدُّنيا مِنَ الصّالحاتِ والطّاعاتِ. وتقع (ما) على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات من يعقل[1]. وقد جيءَ بـ (ما) الموصولةِ هُنا للدّلالةِ على العُمومِ، فتشمَلَ كلَّ ما اتَّصلَ بعملِهِم مِن قولٍ أو فعلٍ، جليلٍ أو دقيقٍ.

وفي هذا التَّركيبِ خَتمٌ للنَّعيمِ الموصوفِ بأنَّهُ جزاءٌ، وهو ثمرةُ السَّعيِ، ونتيجةُ ما عكَفَ عليهِ أولئكَ السّابقونَ مِنَ الطّاعاتِ، فصيغَ الخطابُ صياغةً تُشعِرُ بعدلِ الجزاءِ وكرمِ العطاءِ معًا، كما هيَ سنَّةُ اللّهِ في معاملةِ عبادِهِ.

صالحات السّابقين المقرّبين سلوكٌ دائم لا عمل عارض

نكتة ذكر ﴿كَانُواْ﴾:

ذِكرُ فِعلِ ﴿كَانُواْ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ أن يَقولَ: (بِما عَمِلوا) يفيدُ الاستِمرارَ والثَّباتَ على العَمَلِ، فإنَّ (كانَ) فِعلٌ ناقِصٌ يُستَعمَلُ لِلدّلالَةِ على الوَصفِ بالشَّيءِ في زَمَنٍ ماضٍ مَعَ إفادَةِ الدَّوامِ والاتِّصالِ، وهوَ في هَذا السّياقِ يُفيدُ أنَّ الأعمالَ الَّتي جوزوا بها كانَت دَأبًا لَهُم وسَجيَّةً، لا حالاتٍ عارِضَةً، ولا أفعالًا مُنفَصِلَةً في الزَّمَنِ. فلَو قيلَ: (بِما عَمِلوا)، لاحتَمَلَ أن تَكونَ أعمالًا واقِعَةً مُنقَطِعَةً، ولَم يُفِد استمرارَها وتَجَذُّرَها في حَياتِهِم، وهَذا لا يوائِمُ مَقامَ مَدحِ السّابِقينَ المُقَرَّبينَ. فذِكرُ ﴿كَانُواْ﴾ يَزيدُ في توقيرِ تِلكَ الأعمالِ، ويُشيرُ إلَى أنَّها كانَت مَلَكَةً نَفسيَّةً وحالًا راسِخًا، وبِذَلِكَ تَكونُ أجدَرَ بالجَزاءِ العَظيمِ.

توكيد ديمومة العملِ واستمرار أسبابه في رجاء الجنّات

فائدة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

جاء التّعبيرُ بصيغَةِ الفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ لإفادةِ التَّجدُّد

---

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 120.

والاستمرار، وإذا أُدخِلَ في سياقٍ ماضٍ - كَمَعنَى قَولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ - فإنَّهُ يُشيرُ إلَى أنَّ تلكَ الأعمالَ كانَت مُتَجَدِّدَةً مُتَكَرِّرَةً في أزمِنَةٍ مُتَعاقِبَةٍ، لَم تَكُن مَرَّةً واحِدَةً ولا فِعلًا طارِئًا.

أعمالُ السّابقين المقرّبين عن وعيٍ وقصد في النّيّة

فَجَمَعَ تعبيرُ ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بَينَ دلالَةِ الاستِمرارِ الزَّمَنيِّ الَّتي تُفيدُها كانَ، ودلالَةِ التَّجَدُّدِ الفِعليِّ الَّتي يُفيدُها المُضارِعُ، فكانَ في ذَلِكَ تَصويرٌ دَقيقٌ لِحالِهِم في الدُّنيا: أنَّهُم كانوا على طاعَةٍ دائِمَةٍ، وعَمَلٍ لا يَنقَطِعُ، يُجَدِّدونَ فيهِ القَصدَ، ويواصِلونَ فيهِ الجِهادَ.

فائدة استعمال مفردة (العمل):

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يَفعَلونَ) وذلك أنَّ العَمَلَ في مَجاري الخِطابِ يُفيدُ مَعنَى الاجتِهادِ والتَّكَلُّفِ والمُثابَرَةِ على ما يُرادُ مِنهُ، ويَدُلُّ على التَّرتيبِ والانتِظامِ والنِّيَّةِ القاصِدَةِ، خِلافًا لِلفِعلِ، فإنَّهُ أعَمُّ، ويُطلَقُ على ما يَكونُ صادِرًا بلا تَروٍّ ولا تَدَبُّرٍ، وقَد يَشمَلُ ما يُستَحسَنُ وما يُستَقبَحُ.

لا يـنـصـرف ذهنُ المتلقّي إلّا لعموم أعمال الخير

فاختيارُ لَفظِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في مَقامِ المَدحِ والجَزاءِ إنَّما هوَ لِلدّلالَةِ على أنَّ أعمالَ السّابِقينَ كانَت صادِرَةً عَن عِلمٍ وبَصيرَةٍ وإخلاصٍ، مُمَحَّصَةً في نِيَّتِها، مُتقَنَةً في أدائِها، وهوَ ما يُناسِبُ مَقامَ القُربِ والمَجدِ في الجَنَّةِ.

غرض حذف المتعلّق بالفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

حُذِفَ المُتَعَلِّقُ بالفِعلِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ والإطلاقِ، فكَأنَّهُ قيلَ: (بِجَميعِ ما كانوا يَعمَلونَ)، مِن أنواعِ الخَيرِ، وصُنوفِ الطّاعاتِ، وأعمالِ البِرِّ، دونَ أن يُقَيَّدَ بِعِبادَةٍ مُعَيَّنَةٍ، أو طاعَةٍ خاصَّةٍ.

فَهوَ إيجازٌ في اللَّفظِ، واتِّساعٌ في المَعنَى، يُفيدُ أنَّ هَذا الجَزاءَ العَظيمَ الَّذي هُم فيهِ، إنَّما هوَ جَزاءٌ على سيرَتِهِمُ العامَّةِ في الدُّنيا، وأعمالِهِمُ المُتَكَرِّرَةِ المُخلِصَةِ. وفي ذَلِكَ تَعليمٌ لأهلِ الإيمانِ أنَّ

الجَزاءَ المَذكورَ لا يَأتي بعَمَلٍ عارِضٍ، ولا طاعَةٍ واحِدَةٍ، ولَكِنَّهُ ثَمَرَةُ عَمَلٍ دائِبٍ، وسُلوكٍ مُستَقيمٍ، ونَهجٍ راسِخٍ في حَياةِ المُقَرَّبينَ.

نفي سماع المكروهات أمدح من إثبات سماع الطيّبات

نكتة نفي سماع اللَّغو بدل إثبات سماع طيّب الكلام:

آثر النّظم الكريمُ نفيَ سماع اللَّغو والتّأثيم في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ دون إثبات سماع الكلام الطّيِّب؛ وذلك لأنَّ الإثباتَ لا يدفع النّفي بسماع المكروه، ونَفيَ المَقبوح أبلَغُ في الثَّناءِ مِن إثباتِ المَحمودِ؛ لأنَّهُ يَشمَلُ التَّطهيرَ الكُلّيَّ، ويَدُلُّ على أنَّ ما يُسمَعُ فيها لا يَشوبُهُ شَيءٌ مِن شَوائِبِ الدُّنيا. فاللَّغوُ والتَّأثيمُ قَد كانا مِمّا يُكدِّرُ الجَلَساتِ في الدُّنيا، فنَفَى اللّهُ ذَلِكَ نَفيًا قاطِعًا في الجَنَّةِ؛ ليُفيدَ أنَّها دارُ نَقاءٍ وتَطهيرٍ لِلحِسِّ والمَعنَى، لا يَسمَعُ فيها المُقَرَّبونَ ما يُذهِبُ بَهجَةَ الجَليسِ، ولا ما يُقذّي سَمعَهُ، "وهي نعمةٌ روحيَّةٌ فإنَّ سلامةَ النَّفس من سماعِ ما لا يُحَبُّ سماعُه ومن سماعِ ما يُكره سماعُه من الأذى نعمةٌ براحة البال وشغله بسماع المحبوب"[1].

نفي سماع اللَّغو والتَّأثيم مستمرٌّ باستمرار نعيم الجنّة

نكتة نفي الفعل المضارع ﴿يَسۡمَعُونَ﴾:

نَفيُ الفِعلِ المُضارِعِ ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾ في هَذا السّياقِ يُفيدُ الاستمرارَ والتَّجَدُّدَ، فجاءَ النَّفيُ ليَدُلَّ على أنَّ سَماعَ اللَّغوِ والتَّأثيمِ لَيسَ حاصِلًا في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ، ولا يَتَجَدَّدُ أبَدًا، فهوَ نَفيٌ مُستَمِرٌّ في كُلِّ حالٍ وفي كُلِّ زَمانٍ، ففي صيغَةِ المُضارِعِ المَنفيِّ إبرازٌ لِطَبيعَةِ الجَنَّةِ أنَّها دارُ تَنزيهٍ تامٍّ، فلا يَجري فيها مِثلُ هَذا الكَلامِ الهابِطِ، ولا يَستَمِعُ إلَيهِ ولا يَسمَعُهُ أحَدٌ، ولا يُحتَمَلُ فيها وُقوعُهُ ولا تَجَدُّدُهُ.

تنزيه الجنان من اللّغو والآثام

دلالة حرف الظَّرفية:

إنَّ تَعلُّقَ الظَّرفِ بالفِعلِ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فِيهَا﴾، يَحمِلُ دَلالَةً عَظيمَةً في التَّصويرِ البَيانيِّ لِعالَمِ الجَنَّةِ، فإنَّ حَرفَ الظَّرفيَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 296.

(في) يُفيدُ أنَّ المَكانَ - وهوَ الجَنَّةُ - مُنَزَّهٌ بذاتِهِ عَن وُقوعِ هَذا النَّوعِ مِنَ الكَلامِ المَذموم، والمَعنَى: لا يوجَدُ في جَنّاتِ النَّعيم مَكانٌ يُمكِنُ أن يَسمَعَ فيهِ المُقَرَّبونَ لَغوًا أو تَأثيمًا، فهيَ بيئَةٌ صافيَةٌ، وسَماؤُها طاهِرَةٌ، وأرضُها نَقيَّةٌ، لا يَجِدُ فيها السّامِعُ إلّا ما يُريحُ السَّمعَ ويُنَقّيه.

حضورُ النِّعَم في النّفس واستصحابها في القلبِ تُنادي على مكانِها

نكتة الإضمار بعد تباعدِ مرجع الضّمير:

جاء ذكر الجنّة مضمرًا في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ والضّمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائد إلى ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1]، وإنَّ في الإضمارِ في قولِهِ: ﴿فِيهَا﴾ - بَعدَ أن طالَ ذِكرُ نَعيمِ الجَنَّةِ وأنواعِهِ - نُكتَةً بَلاغيَّةً دَقيقَةً، تُفيدُ تَرسيخَ المَعنَى في الذِّهن، وإيجازَ العِبارَةِ بَعدَ إطنابٍ في التَّفصيل؛ فإنَّهُ لَمّا تَرادَفَ ذِكرُ الأنعُمِ والمَناظِرِ والمَطاعِمِ في الجَنَّة، وتَعَدَّدَتِ الجُمَلُ والمَواصِفُ، كانَ الأولَى في سياقِ الفَصاحَةِ الإضمارُ، وإضمارُ ذِكرِ الجَنَّةِ في قَولِهِ ﴿فِيهَا﴾، بَعدَ أن تَكَرَّرَ ذِكرُها في صوَرٍ مُختَلِفَةٍ: كَـ ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وذِكرِ السُّرُرِ والوِلدانِ والفَواكِه، إشارَةٌ إلَى أنَّ السّامِعَ صارَ يُدرِكُ أنَّ كُلَّ هَذا يَجري في مَكانٍ واحِدٍ هوَ الجَنَّةُ، فلا حاجَةَ لِتَكرارِ اسمِها.

تـوكـيـدُ نـفـي سماعِ المكروهات في الجنّات، برهانُ نقائها من كريه الأصوات

غرض تقديم ﴿فِيهَا﴾ على المفعول:

قُدِّمَ ذِكرُ الظَّرفِ ﴿فِيهَا﴾ على ﴿لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ لإفادة القَصرِ والاختِصاص[2]. وهيَ غايَةٌ بَلاغيَّةٌ تُؤَكِّدُ أنَّ عَدَمَ سَماعِ اللَّغوِ والتَّأثيمِ مُقتَصِرٌ على ما يَكونُ داخِلَ الجَنَّة، لا في غَيرِها، وهوَ تَقديمٌ يُفيدُ التَّوكيدَ على أنَّ سَكينَةَ الجَنَّةِ لا تُخدَشُ، ولا يُدرَكُ فيها سَماعٌ يُنَفِّرُ، فالبِلادُ المُقَدَّسَةُ صارَت في أساسِها مَهوًى لِلكَلِمِ الطَّيِّبِ، ومَنفًى لِكُلِّ لَغوٍ وفُحشٍ.

تدرّج التّنزيه من اللّغو إلى التّأثيم إحاطةٌ بنفي كلِّ ما يُعكِّرُ صفوَ الجنان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 297.
(2) حسن طَبَل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ، ص: 127 - 128.

توجيه تخصيص اللّغو والتّأثيم بالذِّكر:

جُمِع في قَولِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ نفي سماعِ اللّغوِ والتّأثيم، واللّغوُ: هو "الكَلامُ الَّذي لا يُعتدّ به كالهَذَيان، والكَلام الَّذي لا مُحصِّلَ له. والتَّأثيمُ: اللَّوم والإنكار، وهو مصدرُ (أثَّم)، إذا نَسبَ غيرَه إلى الإثم"[1]. وتَخصيصُ اللَّغوِ والتَّأثيم بالذِّكرِ يُفيدُ إشارَةً بَليغَةً إلَى تَمام تَنَزُّهِ مَجالِسِ أهلِ الجَنَّة؛ لِأنَّ اللَّغوَ هوَ ما لا طائلَ تَحتَهُ مِنَ الكَلامِ، والتَّأثيمَ ما يَحملُ في طَيّاتِهِ إثمًا أو يوقِعُ في الذَّنب، فجُمِعَ بَينَ ما لا نَفعَ فيهِ وما فيهِ ضَرَرٌ.

وَهَذا تَقريرٌ لِصِفَةِ أهلِ الجَنَّةِ وسُكناها، فهُم في مَجالِسِها لا يُسمَعُ فيها صَوتُ باطِلٍ، ولا تُفتَتَحُ بفُحشٍ، ولا تُفضي إلَى ذَنبٍ، فإذا نُفيَ اللَّغوُ والتَّأثيمُ، فهوَ تَطهيرٌ لِلمَجالِسِ والمُخاطَباتِ، وهوَ مِمّا يُقَوّي رَونَقَ النَّعيمِ الرّوحيِّ كَما يُكمِّلُ النَّعيمَ الحِسّيَّ.

نفي اللّغو بأبلغ وجوه دلالة التّنكير على التّمام في التّنزيه

غرض تنكير لفظ ﴿لَغۡوٗا﴾:

نُكِّر لفظ ﴿لَغۡوٗا﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ لتعميم اللَّغوِ المَنفيِّ، فهوَ نَكِرَةٌ في سِياقِ النَّفي تُفيدُ الشُّمولَ والِاستِغراقَ، كَأنَّهُ قيلَ: (لا يَسمَعونَ في الجَنَّةِ شَيئًا مِمّا يُعَدُّ لَغوًا على أيِّ وجهٍ كانَ)، فالتَّنكير لإرادةِ الجنس. من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [يونس: 62][2].

نفي اللَّغوِ كنفي التّأثيم في ارتفاع سماع كليهما في الجنّة

وهَذا مِن أبلَغِ أنواعِ التَّنزيهِ والتَّنقيَةِ لِجَوِّ الجَنَّةِ، فلا يُسمَعُ فيها ما يَذهَبُ نَفعُهُ، ولا ما يَشغَلُ الذِّهنَ بما لا جَدوَى فيهِ، فهوَ نَفيٌ لِلصَّغيرِ والكَبيرِ مِنَ اللَّغوِ، وذَلِكَ أبلَغُ في التَّشويقِ والتَّكريمِ.

دلالة تكرار ﴿لَا﴾:

تَكرار ﴿لَا﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 296.

(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.

يَحمِلُ في طَيّاتِهِ تَوكيدًا وتَفصيلًا، وذَلِكَ مِن بَلاغَةِ التَّنزيهِ التّامِّ الَّذي يُرادُ بِه تَطهيرُ أجواءِ الجَنَّة مِن كُلِّ ما يُكَدِّرُ الخاطِرَ أو يَشينُ المَجالِسَ. فلَو قيلَ: (لا يَسمَعونَ فيها لَغوًا وتَأثيمًا) لَدَلَّ ذَلِكَ على نَفيِ الجُملَةِ في كُلِّيَّتِها، ولَكِنَّ تَكرارَ ﴿لَا﴾ قَد أفادَ تَوزيعَ النَّفيِ على كُلِّ واحِدٍ بعَينِه، وهَذا أبلَغُ في التَّنزيهِ والاِستِقصاءِ، مع إفادةِ الاِهتِمامِ بنَفيِ كُلٍّ مِنَ اللَّغوِ والتَّأثيمِ على حِدَةٍ، فكُلُّ واحِدٍ مِنهُما مَمنوعٌ بذاتِهِ، لا على التَّبَعِ، مِمّا يُشعِرُ بأنَّ نَقاءَ الجَنَّةِ شامِلٌ لِجَوارِحِ السّامِعِ ومَعانيهِ، فلا لَغوٌ يُزعِجُهُ، ولا إثمٌ يُؤَثِّمُهُ.

تقريرُ المدح بنفي الـذَّمِّ وتوكيدِ نعيم الكرامة السَّمعيَّة

نوع الاستثناء وبلاغته:

في قوله: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾، أتبع بذكر نعمة أخرى من الإنعام بالمسموع الذي يُفيد الكرامة؛ لأنَّ الإكرام لذَّةٌ روحيَّةٌ يُكسبُ النَّفسَ عزَّةً وإدلالًا بقوله: ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾، وهو استثناء من (لغوًا وتأثيمًا) بطريقة توكيد الشَّيء بما يشبه ضدَّه المشتهر في البديع باسم توكيد المدح بما يُشبه الذَّمَّ[1]، وله موقع عظيم من البلاغة كقول النّابغة:

وَلا عَيبَ فيهِم غَيرَ أَنَّ سُيوفَهُم... بهِنَّ فُلولٌ مِن قِراعِ الكَتائِبِ[2].

فالاستثناء متَّصل ادِّعاءً وهو المعبَّر عنه بالاستثناء المنقطع بحسب حاصل المعنى؛ لأنَّ سلامًا ليس من اللَّغو، وعليه فإن انتصاب ﴿قِيلٗا﴾ على الاستثناء لا على البدليَّة من ﴿لَغۡوٗا﴾[3]، فهو استثناءٌ منقطع عند جمهور المحقِّقين من المفسّرين، وهو الأليق بسياق الثَّناء والتَّنزيه. فالمعنى: لا يسمعون فيها شيئًا من اللَّغو، ولا ما يوجب إثمًا، لكن يَسمعون قولًا كريمًا، فيه طيبُ الأُنس، وصفاءُ التَّحيّة، وهو قولُ: سلامًا سلامًا.

بلاغة التَّشويق وتفخيم النَّعيم السَّمعيِّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 297.

(2) النّابغة الذّبيانيّ، ديوان النّابغة، ص: 44، والعسكريّ، الصّناعتين، ص: 324، والباقلانيّ، إعجاز القرآن، ص: 107.

(3) حسن طه الحسن، الاستثناء في القرآن الكريم، ص: 85.

فنُّ توكيد المدح بما يُشبه الذَّمّ:

في قَولِه تَعالَى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ تَوكيدُ المَدح بما يُشبِهُ الذَّمَّ[1]. "ومنه قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾، فإنَّ النّاس استشكلوا وجه الاستثناء مع أنَّهم لا يذوقون فيها الموت مطلقًا، ومقتضى استثنائها من النَّفي أنَّهم يذوقونها في الجنَّة وليس كذلك"[2]، فإنَّ الموتةَ الأولى هي في الدُّنيا، فاستثناؤها على بابِ استحالة وقوعِ سواها، والاستثناء بمعنى (سوى)، وهوَ مِن أرقَى أساليبِ التَّعبيرِ في القُرآنِ الكَريم، إذ يُعطي المَعنَى قوَّةً في الإثباتِ مَعَ بُلوغِ المَدحِ غايَتَهُ في الإثارَةِ والتَّنويه.

نفي الأدنى تنبيهٌ على نفي الأعلى

دلالة استعمال ﴿قِيلٗا﴾:

آثر النّظمُ الكريمُ استعمال ﴿قِيلٗا﴾ لا (قولًا)؛ للإشارة إلى أنَّ القيل لا يُسمع فكيف بالقول، فهو نفيٌ للأدنى للتّنبيه على الأعلى، ثمَّ جاء التّكرار في قوله: ﴿سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ تثبيتًا للمعنى، وزيادةً في الإيناس، على طريقة العرب في توكيد ما يسرّهم. ويكون "التَّوكيد فيه من وجهين: على الاتِّصال في الاستثناء والانقطاع"[3]، وقد أتى هذا الاستثناءُ منقطعًا على جهةِ الامتنانِ والتَّشريفِ، إذ يُفهمُ منه: لا يسمعونَ فيها قولًا يَنبو عن الذَّوقِ أو يجرحُ السَّمعَ، إلّا قولًا هو من أصفى ما يُقالُ، سلامٌ من عندِ اللّهِ، أو من بعضِهم لبعضٍ، يفيضُ من ألسنتِهم كما يفيضُ السَّلامُ على قلوبِهم، مُكرّرًا للتَّوكيدِ، ودليلًا على الدَّوام.

قصر المسموعات على السَّلام

دلالة البدليّة في قوله: ﴿سَلَٰمٗا﴾:

إنَّ قَولَهُ تَعالَى: ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ يَحمِلُ في بنيَتِه نَكهَةً بَلاغيَّةً

(1) النّابغة الذّبيانيّ، ديوان النّابغة، ص: 44، والعسكريّ، الصّناعتين، ص: 324، والباقلانيّ، إعجاز القرآن، ص: 107.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 51.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 48.

دَقيقةً تَتَمَثَّلُ في البَدَليَّةِ الَّتي فيها، فقوله تعالى: ﴿سَلَٰمًا﴾ بَدَلٌ مِن ﴿قِيلًا﴾، فهيَ في مَقامِ بَدَلِ بَعضٍ مِن كُلٍّ أو بَدَلُ اشتِمالٍ، فـ ﴿سَلَٰمًا﴾ الأوَّل مقول ﴿قِيلًا﴾؛ أي هذا اللَّفظ الَّذي تقديره: سَلمنا سَلامًا، فهو جملة محكية بالقول[1]. والقَصدُ مِن ذَلِكَ تَحديدُ مَعنَى القيلِ المُستَثنَى وتَحديدُ نَوعِه، فكَأنَّه قيلَ: لا يُسمَعُ فيها إلّا كَلامٌ مِثلُ السَّلام.

فَإثباتُ (قيلٍ) في الجَنَّةِ بَعدَ نَفيِ اللَّغوِ والتَّأثيم، لا يُقصَدُ بِه أيُّ كَلامٍ، بَل كَلامٌ مَعروفٌ مَحمودٌ، فجاءَ ﴿سَلَٰمًا﴾ ليُبَيِّنَ حَقيقَةَ ذَلِكَ القيلِ، وذَلِكَ أبلَغُ في المَدحِ، فكَأنَّ الكَلامَ المَسموعَ في الجَنَّةِ كُلَّهُ سَلامٌ وطُمَأنينَةٌ.

وَفي اختيارِ البَدَلِ دونَ العَطفِ قَصرٌ، أي: لا يُسمَعُ فيها إلّا هَذا النَّوعُ مِنَ القَولِ، فهوَ الَّذي يُطلَقُ عَلَيهِ القَولُ في الجَنَّةِ، وفيهِ إشعارٌ بتَنَزُّهِ الجَنَّةِ تَمامًا عَن كُلِّ كَلامٍ يَشينُ المَجالِسَ، أو يُنَغِّصُ سَماعَ النَّعيمِ.

تنويع التَّكريم وتثبيتٌ للأمن الأبديِّ في دار السَّلام

غرض تَكرار ﴿سَلَٰمًا﴾:

تَكرار قَولِه تَعالَى: ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ يَحمِلُ في طَيّاتِهِ تَوكيدًا لِمَعنَى السَّلامِ وتَعظيمًا لِشَأنِه، فهوَ تَكرارٌ لِلتَّفخيمِ والتَّثبيتِ، كَما هوَ المَعهودُ في أُسلوبِ العَرَبِ في المَواضِعِ الَّتي يُرادُ فيها تَعليقُ المَعنَى بالنَّفسِ وإدخالُهُ في القَلبِ مَدخَلَ التَّسليَةِ والطُّمَأنينَةِ.

فَإذا كانَ ﴿سَلَٰمًا﴾ هوَ الكَلامُ الواحِدُ الَّذي يَسمَعُهُ أهلُ الجَنَّةِ، فتَكرارُهُ يُفيدُ أنَّهُ لا يُقالُ لَهُم إلّا ذَلِكَ، ويُسمَعُ مِرارًا وتَكرارًا، ففي ذَلِكَ إشعارٌ بدَوامِ الأمنِ والسَّلامِ، وأيضًا: تَكرارُ ﴿سَلَٰمًا﴾ في صيغَةِ النَّكِرَةِ يُفيدُ تَعدُّدَ أنواعِ السَّلامِ ووُجوهِه، مِمّا يُفيدُ التَّنويعَ في أساليبِ التَّكريمِ والتَّلطيفِ.

يُلحظ في الثّلّة التّوافق في الصِّفات، والجماعة أعمُّ دلالةً

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 297.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(ثلَّة) و(جماعة):

الثُلَّة في اللُّغة: هي الفرقةُ القليلة أو الكثيرة من النّاس، ولكنَّها تُستعمل في الأكثر لما كان نخبةً مختارة، ذات اجتماعٍ وانضباط، وقد تُطلق أيضًا على جماعة الخيل، ثمَّ نُقلت للدَّلالة على الجماعة الَّتي يجمعها غرضٌ أو شأنٌ رفيع، لا سيّما إذا كانت مُميّزةً في حالها أو مقامها.

أمّا (جماعةٌ) فهي في أصل الوضع: اسمٌ يُطلق على كلِّ جمعٍ من النّاس، كبيرًا كان أو صغيرًا، منتظمًا أو متفرّقًا، دون أن يحمل بالضَّرورة دلالة على الشَّأن أو المقام. فهي لفظٌ عامٌّ من حيث الدَّلالة، لا يُشعر وحده بما يُشعر به لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾ من انتقاءٍ أو رفعةٍ.

الكأس تُقال عند ملئها بالشّراب والكوب خلاف ذلك ولما لا يكون له عروة

الكوب والكأس:

الكَأسُ مؤنثة قال الله تعالى ﴿بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ۝٤٥ بَيۡضَآءَ﴾ [الصافات: 45 - 46] قال ابن الأعرابي: لا تُسمَّى الكأس كأسًا إلّا وفيها الشَّراب(1)، وأمّا إذا خلا من الشَّرابِ، فلا يُسمّى كأسًا، بل يُقالُ له: كوبٌ إن لم يكن له عروة، فإن كانت له عروةٌ سُمّي: قدَحًا أو إبريقًا.

فالكأسُ يُذكر عند وصفِ الشّرابِ ومقامِ الشّربِ، وأمّا الكوبُ فيُذكر عند ذكرِ الأواني المعدّة للشّرب. وهذا ما نبّه عليه القرآنُ بدقَّةِ استعماله، حيثُ قال تعالى: ﴿بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾. أي أوانٍ مُعدّةٍ ومهيّأة، ثمَّ قال: ﴿وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ أي كأسٍ فيها شرابٌ بعينه، جارٍ سائغٌ. والتَّقديمُ للأكوابِ والأباريقِ يُراعي التَّدرُّج في المشهدِ التَّصويريّ: فالأواني حاضرةٌ، ثمّ الشَّرابُ يُقدَّمُ في الكأسِ، وذلك من دقّة البيانِ وتمام التَّصويرِ.

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 586.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠﴾ [الوَاقِعَة: 27 - 40]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال في مقامات أهل الجنّة من صفوة السّابقين إلى ثُلّة أصحاب اليمين

لَمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة نعيمَ السّابقين، وفُصِّلَ ذِكرُهم، وذُكِرَ جَزاؤُهُم في جَنّاتِ النَّعيم، ناسبَ الانتقالُ إلى الصِّنف الثّاني من أهلِ الجنَّةِ السّابقِ ذكرُهم، وهم أصحابُ اليَمينِ، لِيَستبينَ مَقامُهُم ويَتَجلَّى نَعيمُهُم، فهوَ تَرقيمٌ بَيانيٌّ يَنتَقِلُ فيهِ السّياقُ من فصلٍ إلَى آخر، ومِن عَلوٍّ إلَى دونِه، في سُلَّم القُربِ والذِّكرِ.

والمُناسَبَةُ في ذَلِكَ جَليَّةٌ، إذِ السّورَةُ في أصلِ مَقاصِدِها تَهدِفُ إلَى تَفصيلِ مَصيرِ النّاسِ في الدّارِ الآخِرَةِ على مَقاماتٍ ثَلاثَةٍ: السّابِقونَ، وأصحابُ اليَمينِ، ثمّ أصحابُ المَشأمَةِ، وإذ قَد تَقَدَّمَ ذِكرُ جَزاءِ السّابِقينَ في نَعيمِهم، كانَ مِنَ البَيانِ الحَسَنِ أن يُبَيِّنَ ما أُعِدَّ لأصحابِ اليَمينِ، وذَلِكَ في ذِكرِ أنواعِ النَّعيمِ الحِسّيِّ في جَنّاتِهِم، مِن سِدرٍ مَخضودٍ، وطَلحٍ مَنضودٍ، وظِلٍّ مَمدودٍ، وماءٍ مَسكوبٍ، وغَيرِ ذَلِكَ مِمّا يُشَوِّقُ النَّفسَ ويَبعَثُها على الرَّغبَةِ في دَرَجَةِ أصحابِ اليَمينِ إن لَم تُدرك دَرَجَةَ السّابِقينَ.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّخۡضُودٖ﴾: المخضود: الَّذي لا شوك له، كأنَّما خُضِدَ شوكُه[1]. وعن مجاهد: الموَقَّر الَّذي تُثْنَى أغصانُه لكثرة حَمْله، من خضد

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.

الغصن[1]. ولفظة ﴿مَّخۡضُودٖ﴾ مأخوذة من الفعل (خَضَدَ)، يقال: خَضَدَ الشَّوكَ يخضِدُه خَضدًا، إذا قطعه وأزاله[2]. والخَضد في أصل معناه: القطع من أطراف الشَّيء وإزالة ما فيه من أذًى. وبهذا؛ فإنّ السِّدر المخضود هو شجر النَّبق الَّذي قُطِعَ شوكه، فصار ناعمًا لا أذى فيه، باقٍ ظلّه وثمره وزينته، منزوعٌ عنه كلُّ ما يُنغّص أو يُؤلم، فالمعنى المعجميُّ لكلمة ﴿مَّخۡضُودٖ﴾ يدلّ على حالةٍ من التّهذيب الطَّبيعيِّ، حيث يُبقي الله من الشَّجر ما يُنتفَع به ويُزيل ما يُؤذي، وذلك تمام النِّعمة، وصورة من صور اللُّطف الإلهيِّ، فالإنسان في الجنَّة لا يُؤذى حتَّى بشوكة.

2) ﴿وَطَلۡحٖ﴾: الطَّلح جنسٌ من الشجر[3]، يُطلق على شجرٍ كثيرِ الظِّلال، عظيمِ الورق، ويُراد به غالبًا شجرُ الموز. وقد ذهب جمهور المفسّرين إلى أن المقصود بـ(الطَّلح) هنا هو شجرُ الموز، "وقيل: هو شجر حَسَن اللّون لخضرته، له رفيف ونور طيب، فخوطبوا ووعِدوا بما يحبّون وذلك لكثرة ظِلّه"[4]، لما ورد في سياق التّنعم والنَّعيم لأصحاب اليمين، وقد قرنت الآية بين ﴿سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ و﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾، ممّا يوحي بأنَّه من صنوف النَّعيم اللّذيذ والثّمر الطَّيِّب.

3) ﴿مَّنضُودٖ﴾: معنى (نضد) رتّب الشَّيءَ وصفَّه بعضه فوق بعض[5]. على وجه التّناسق والامتداد[6]، فيُقال: نَضَدَ المتاعَ إذا وضعه منسّقًا، كالرُّطب في الطَّبق أو الكتب على الرَّفِ. وجاءت هنا صفةً لـ(الطَّلح)، وهو عند جمهور المفسّرين شجرُ الموز، لما يحمل من ثمرة لذيذة ظلالها وافرة، وهو على خلاف طلح البادية الشّائك الَّذي لا يناسب مقام الإنعام، فصار المراد بـ(الطَّلح المنضود) شجرًا كريمًا طيِّب الثِّمار، كثيرها، لا يحتاج من الآكل جهدًا ولا عناءً في تناولها.

وقوله ﴿مَّنضُودٖ﴾ يُراد به أنَّ هذه الثِّمار مرصوصة، مصطفّة، مترتّبة ترتيبًا بديعًا،

---

(1) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 641.
(2) الخليل، العين: (خضد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلح).
(4) السمين الحلبي، عمد الحفّاظ: (طلح).
(5) الخليل، العين، والزّمخشريّ أساس البلاغة: (نضد).
(6) الزّمخشريّ أساس البلاغة: (نضد).

كأنَّها عناقيدُ من الذَّهب، أو كأنَّها عِذق من الرّطب قد أُعدّ إعدادًا، فلا تعبَ في قطافه، ولا حاجة لتسلّق ولا تقطيع، بل هو بين يديك، يتدلّى ويتزيّن، فهو كمال النِّعمة في ثمرها وهيئتها، وسهولة نيلها.

4) ﴿عُرُبًا﴾: العُرُب جمع (عَروب)، وهي المرأة المتحبّبة إلى زوجها، الحَسَنة التَّبعُّل، الَّتي تُظهر له الودّ والأنس برغبةٍ ورضًا، لا تكلُّفًا ولا تصنّعًا[1]. فليست الصِّفة متعلّقةً بالجمال الظّاهريِّ فقط، بل بجمال النَّفس والعِشرة. وجاء هذا الوصف في سياق النَّعيم الكامل لأصحاب اليمين، ليُفهم أنَّ نساء الجنّة قلوبُهنَّ معلَّقة بأزواجهنّ محبةً ومودّة، فيكون النَّعيم شاملًا للبدن والرّوح.

5) ﴿أَتْرَابًا﴾: (ترب) له أصلان؛ إحداهما تساوي الشيئين؛ قال ابن فارس: "فالتِّرْبُ الخِدْنُ، والجَمْع أتراب، ومنه التّريب، وهو الصَّدْر عند تساوي رؤوس العظام"[2]، ولفظة ﴿أَتْرَابًا﴾ هي جمع (تِرب)، والتِّرب في لسان العرب هو النَّظير في السّنّ، والمساوي في العُمر[3]، يقال: (هو تِربي) أي في مثل سِنّي، سواء في الطُّفولة أو الكِبَر، ولا يُطلق إلّا على مَن تقارَب في السِّنّ تقاربًا شديدًا.

فـ﴿أَتْرَابًا﴾ تعني: نساءً متساوياتٍ في السِّنِّ، متقاربات في العمر، لا تفاوت في أعمارهنّ يُنفّر، ولا فوارق تُفسد الأُنس والمساكنة، وقد ذُكرت هذه الصِّفة بعد قوله تعالى: ﴿عُرُبًا﴾، أي متحبّبات إلى أزواجهنّ، ليُفهم أنَّهنّ كذلك في العمر مع أزواجهنّ، فلا أحد يُعاني فجوة العمر ولا تفاوت الميول، بل كلُّ واحدة منهنَّ هي قَرينَةُ زوجِها في السِّنّ، كأنّها صُنعت له خِلقةً وسنًّا وروحًا.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تَفتَتِحُ هذِهِ الآياتُ الكَريمَةُ مَقامَ الثَّناءِ عَلى أصحابِ اليَمينِ، وهُم مَن رَجَحَت حَسَناتُهُم على سَيِّئاتِهِم، فأُدخِلوا الجَنَّةَ بِرَحمَةِ اللهِ وعَمَلِهِمُ الصّالِحِ، ويُبدَأُ ذِكرُهُم بكَلِماتٍ توحي بالتَّفخيمِ والتَّهويلِ، فيُقالُ: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، أي: أيُّ شَيءٍ يُدريكَ ما هيَ مَنزِلَتُهُم؟ وما عِظَمُ نَعيمِهِم؟.

---

(1) ابن عبّاس، مسائل نافع بن الأزرق، ص: 166.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ترب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ترب).

نعيم أصحاب اليمين بين إشراق التَّمهيد وجمال التَّفصيل

ثُمَّ يَتَرَتَّبُ على هَذا التَّمهيدِ وصفٌ مُتَتابِعٌ لِجَنّاتِهِم، فهُم في جَنّاتٍ فيها سِدرَةٌ مَخضودَةٌ، وهيَ شَجَرَةُ النَّبَقِ الَّتي نُزِعَ شَوكُها، وطَلحٌ مَنضودٌ، وهوَ المَوزُ، قَد نُظِمَت ثِمارُهُ وتزاحَمَت، فهيَ لا تَفتُرُ ولا تَنقَطِعُ، ويُظَلِّلُ ذلكَ كُلَّهُ ظِلٌّ مَمدودٌ، لا يَزولُ، ولا تَنالُهُ شَمسٌ، ويُسقَونَ من ماءٍ مَسكوبٍ، يَجري بانسيابٍ في سُهولَةٍ، لا تَكَدُّرَ فيهِ، ولا عَنَتَ، ولَهُم في تلكَ الجَنّاتِ فاكِهَةٌ كَثيرَةٌ، وصفُها أنَّها ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾، أي: دائِمَةٌ مُتَواصِلَةٌ، لا تَنقَطِعُ بفَصلٍ، ولا تُحجَبُ بمَنعٍ، فهيَ مَوجودَةٌ حاضِرَةٌ كَيفَ شاءوا، ويَجلِسونَ في على فُرُشٍ مَرفوعَةٍ، في رَفعَةِ مَكانٍ ورِقَّةِ مَهبِطٍ، تَليقُ بكَرامَةِ مَن نَزَلَ عَلَيها.

ثُمَّ يَنتَقِلُ الوَصفُ إلى أزواجِهِم، فيَقولُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾، أي خَلَقناهُنَّ خَلقًا جَديدًا، بَديعَ الصّورَةِ، خاليًا من كُلِّ نَقصٍ، ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾، لا يُذهِبُ الوَقتُ طُهرَهُنَّ، ولا يَمَسُّهُنَّ فناءٌ. ﴿عُرُبًا﴾ أي: مُتَوَدِّداتٍ لِبُعولِهِنَّ، ﴿أَتۡرَابٗا﴾ أي: في سِنٍّ واحِدَةٍ، حَتَّى يَكتَمِلَ الأُنسُ ويَستَقِرَّ الوُدُّ، وكُلُّ ذلكَ خاصٌّ بأصحابِ اليَمينِ، وهُم ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلينَ، أي: كَثيرونَ في القُرونِ السّابِقَةِ، وثُلَّةٌ مِنَ الآخِرينَ، وهوَ تَبشيرٌ لِهذِهِ الأُمَّةِ أنَّ خَيرَها مَشمولٌ في النَّصيبِ، وأنَّ رَحمَةَ اللهِ لا تُفَضِّلُ الزَّمانَ، ولَكِنَّها تُنَزَّلُ على مَن عَمِلَ وأخلَصَ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ نشرِ ما وقع لفُّه سابقًا:

تفصيل المجملات ونشر اللَّفِّ يقع موقعَ القبول في نفسِ المتلقّي لكشف قناع الغيب

في قولهِ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، بلاغة النَّشرِ بعدَ اللَّفِّ، على وجهٍ يُثيرُ النَّفسَ، ويستنهضُ الفكرَ، ويبعثُ الشَّوقَ إلى التَّدبُّرِ؛ فقد طُرِحَ اسمُ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ أوّلًا على جهةِ اللَّفِّ والإجمالِ، ثمّ أعقبهُ بالاستفهامِ التَّعجُّبيِّ ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾؟؛ ليُثيرَ في الذِّهنِ تساؤلًا عن مقامِهم ونعيمِهم، قبلَ أن يُشرَعَ في نشرِ ما لفَّهُ الاسمُ، وبسطِ ما انطوى عليهِ من الكرامةِ

والمنزلةِ، أي: بسطُ الصِّفاتِ والنَّعيم بعدَ أن جُمعت تحتَ مسمًّى واحدٍ، وهو ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾. فجاء ذكرُ السِّدرِ المخضودِ، والطّلح المنضودِ، والظِّلِّ الممدودِ، والماءِ المسكوبِ، والفاكهةِ الكثيرةِ، وكلُّ ذلك تفصيلٌ لما أجملَهُ العنوانُ الأوّلُ.

نوع الواو ودلالتها:

عطفُ القصّة على القصّة بلاغةٌ جامعةٌ بين المشترك الكلّيّ والانفراد الذّاتيّ

الواو في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ واو عطف لجملة ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ وهي من عطف القصَّة على القصَّة[1]، وهذه الواو وظيفتها جامعةٌ بين أمرين؛ عطف مجموعٍ كلّيٍّ على آخر يشترك معه في قاسم، وهنا الاشتراك يقع في المصير، والإشعار بأنَّ ما بعدها يأخذ حكم الاستقلال عمّا قبلها، فهي تُشيرُ إلى تَجديدِ الكَلام، وفَتحِ بابٍ ثانٍ مِنَ التَّنويعِ في الذِّكرِ، فبَعدَ أن فُصِّلَ نَعيمُ المُقَرَّبينَ، شَرَعَ في تَفصيلِ نَعيمِ أصحابِ اليَمينِ، عَلى سَبيلِ التَّدَرُّجِ في رُتَبِ السَّعادَةِ.

نكتة استعمال لفظ (الأصحاب):

الصُّحبةُ ملازمةٌ دائمةٌ تُنبئ عن الاختيار لا الاضطرار

استعمال اللَّفظِ (الأصحاب) في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ دونَ أن يَقولَ: (أهلُ اليَمينِ) مُشعِرٌ بالمُصاحَبَةِ، وهيَ صِلَةٌ تَنبَني عَلى اللُّزومِ والاِقتِرانِ المُطَّرِدِ، فصاحِبُ المَكانِ مَن ألِفَهُ ولازَمَهُ، وصاحِبُ اليَمينِ مَن أصبَحَ مَقرونًا بها في سُلوكِهِ ومَصيرِهِ؛ فكَأنَّهُ لا يُعرَفُ إلّا بها، ولا تُعرَفُ إلّا به.

وَأمّا لَفظُ (أهلُ) فهوَ في الاستِعمالِ أوسَعُ، وقَد يُطلَقُ عَلى مَن يَنتَسِبُ إلى شَيءٍ نَسَبًا وثيقًا أو رَخوًا، فهوَ يَصدُقُ على المُقيم في مَكانٍ، وعلى مَن لَهُ انتماءٌ نَسَبيٌّ أو تاريخيٌّ، ولَكِنَّهُ لا يَلزَمُ فيهِ التَّلاصُقُ والمُصاحَبَةُ الدّائِمَةُ.

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 298.

فاختيارُ (أصحابُ اليَمينِ) يُفيدُ أنَّهُم قَد اقتَرَنوا باليَمينِ اقترانًا حَقيقيًّا، في النِّيَّةِ والعَمَلِ والمَآلِ، فهُم أهلُ مَنازِلِها، وخُلَصاءُ طَريقِها، بَل هيَ قَد صارَت لَهُم هويَّةً لا تُفارِقُهُم؛ لأَنَّهُ يَستَحضِرُ في الذِّهنِ مَعنَى المُلازَمَةِ والمُناسَبَةِ التّامَّةِ، الَّتي تُشَكِّلُ مِفتاحَ نَجاةِ هؤُلاءِ، وتُعَبِّرُ عَن عَلاقَتِهِم الوَثيقَةِ بالخَيرِ والثَّوابِ.

دلالة العدول عن لفظِ (الميمنة) إلى ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾:

انـتـقـالٌ مـن جهة التَّقسيم الإجـمـاليّ إلى مقام التَّشريف التَّفصيليّ

عدل النّظم الكريم في قَولِه تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، عن التَّعبير بالميمنة الَّتي بدأ بها السّياق في قَوله تَعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، وهو عدولٌ قُصِد به تخصيص موضع الإجمال بالميمنة الَّتي تحمل دلالة الجهة، وفي موضع التَّفصيل باليمين الَّذي يحمل دلالة اليُمن والبركة، فلفظ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ في الآياتِ الأُوَلِ جاءَت عَلى سَبيلِ التَّقسيمِ الثُّلاثيِّ الَّذي فيهِ: السّابِقونَ، وأصحابُ المَيمَنَةِ، وأصحابُ المَشأمَةِ، فكانَت ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ هُناكَ مُناسِبَةً لِبِنيَةِ التَّقابُلِ مَعَ (المَشأمَةِ)، فهُم أصحابُ الجِهَةِ المُبارَكَةِ، في مُقابِلِ أصحابِ الجِهَةِ النَّحِسَةِ.، وأمّا هنا - والسّياق للإجمال، والتَّفصيل في الجزاء والمآل - فجاء مناسبًا لليُمن والبركة والخير العظيم الذي يعمُّهم في مقابلة الشِّمال الذي يُنبئُ عن الشَّر المستطير الذي يَحيقُ بقسيمهم - الكفّار - وينتظرهم في مآل أمرهم.

دلالة التَّعريف بالإضافة:

أصحاب اليمين صحبةٌ موصلةٌ وملازمةٌ عريقةٌ

عُرِّفَ (أصحابُ اليَمينِ) بالإضافةِ، وهيَ إضافَةٌ في اللَّفظِ، وتَعريفٌ في المَعنَى، وفي هذِهِ الصّيغَةِ ما يُفيدُ التَّخصيصَ والتَّشريفَ، فهيَ لَيسَت كَأيِّ إضافَةٍ عارِضَةٍ، بَل هيَ تَسميَةٌ قارَّةٌ وهويَّةٌ مُتَمَكِّنَةٌ، فالتَّعريفُ في (أصحابُ اليَمينِ) إمّا أن يَكونَ لِلعَهدِ الذِّهنيِّ، أي: لِلفِئَةِ المَعروفَةِ في نَفسِ السّامِعِ أنَّها أهلُ السَّعادَةِ

والفَوزِ، وإمّا أن يَكونَ لِلجِنسِ، أي: لِكُلِّ مَن كانَ مِن هذهِ الزُّمرَةِ، وعَلى التَّقديرَينِ، فالإضافَةُ تُقَرِّرُ اقِترانَهُم اقتِرانَهُم باليَمينِ اقترانًا تامًّا، لا يَكونُ بمُجَرَّدِ الظّاهِرِ، ولا بمُجَرَّدِ اللَّفظِ، بَل بأصالَةِ الوَصفِ وحَقيقَةِ المَقام.

والتَّعريف في مَوضِعِهِ هَذا يُفيدُ تَعظيمَ المُعَرَّفِ؛ لأَنَّهُ قَد صارَ عَلَمًا عَلى طائِفَةٍ بالغةٍ في الكَرامَةِ مَبلَغًا لا يُشاكِلُهُ غَيرُهُ، وفي هَذا تَثبيتٌ لِلمَكانَةِ وتَجليلٌ لِما هُم فيهِ مِنَ الجاهِ والجَزاءِ. فتكون الإضافة بمعنى (في) وذلك إذا كان المضافُ إليه ظرفًا واقعًا فيه المضاف[1].

نكتة استعمال أداة ﴿مَآ﴾:

تفخيمُ صفاتِ (أصحاب اليمين) وإبرازُ أثرها في مصيرِهم

آثر النّظم الكريم الاستفهام بأداة ﴿مَآ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ دون الاستفهام بـ (مَن)؛ وذلك لأَنَّه يُرادُ بها التَّعظيمُ والتَّفخيمُ لصفات أصحابِ اليمين، لِأَنَّ السُّؤالَ لَيسَ عَن ذَواتِ الأصحابِ، بَل عَن شَأنِهِم وخَبَرِهِم وأمرِهِم العَجيبِ. فـ ﴿مَآ﴾ في اللُّغَةِ تُستَعمَلُ لِلسُّؤالِ عَنِ الحالِ والصِّنفِ والشَّأنِ، كَقَولِكَ: ما زَيدٌ؟ تُريدُ: ما خَبَرُهُ؟ وما شَأنُهُ؟ ولَيسَ: مَن هوَ؟ فقَولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، هوَ بمَعنَى: أيُّ شَيءٍ عَظيم يَكونُ شَأنُهُم؟ وكَيفَ يُتَصَوَّرُ قَدرُهُم؟ و"جملة ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ خبر عن (أصحاب اليمين) بإبهامٍ يفيد التَّنويهَ بهم"[2].

بلاغة الاستفهام وغرضه:

تعظيم أصحاب اليمين وتفخيم شأنهم والتّنويه بمصيرِهم

أفاد الاستفهام في قَوله تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ التَّهويلَ والتَّفخيمَ، وأعلَى مَدحَهُم لِتَعظيم جَزائِهِم[3]، وهوَ ضَربٌ مِنَ الاستفهامِ يُساقُ لإثارَةِ التَّأمُّلِ وجَذبِ الانتِباهِ، لا لِطَلَبِ مَعرِفَةٍ

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 102.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 298.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 408.

مَجهولَةٍ مَعرِفَةِ مَجهولٍ، فهو لا يُريدُ بِهِ السُّؤالَ عَن هويَّتِهِم، بَل يُريدُ تَعظيمَ شَأنِهِم، والتَّنبيهَ عَلى عُلوِّ مَنزِلَتِهِم، كَأنَّهُ يَقولُ: أيُّ شَيءٍ يُداني قَدرَهُم؟! وكَيفَ يُحيطُ الوَصفُ بما أُعِدَّ لَهُم؟!.

وَهوَ الأُسلوبُ نفسُه الَّذي سَبَقَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، وفي قَولِهِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾ [المدثر: 27]، ونَظائِرُ ذلِكَ في التَّعبيرِ القُرآنيِّ، إذا أرادَ تَعليَةَ مَقامٍ أو تَفظيعَ واقِعٍ، فبَلاغَةُ هَذا الاستِفهامِ في أنَّهُ يُهَيِّئُ السّامِعَ لِاستِقبالِ وصفٍ عَظيمٍ، ويَصرِفُهُ عَن الغَفلَةِ إلَى تَفتيشِ مَعالِمِ هذِهِ الفِئَةِ، ثُمَّ تَأتي الآياتُ بَعدَهُ تُفصِّلُ في بَيانِ نَعيمِهِم، فيُصبِحُ السّياقُ مُتَراقيًا مِنَ الإجمالِ إلَى التَّفصيلِ، ومِنَ التَّشويقِ إلَى التَّمتيعِ البَيانيِّ.

بلاغة مجيء ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ خبرًا:

مكمنُ الخبرِ في غرضِ الاستفهام وفائدته

قَولُهُ تَعالَى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ خبرٌ للمبتدأ (أصحابُ اليَمينِ)، والتَّقديرُ: (أصحابُ اليَمينِ شَأنُهُم وأمرُهُم أمرٌ عَجيبٌ لا يُدرَكُ)، أو: (ما أدراكَ ما هُم؟).

وَهَذا الأُسلوبُ في تَركيبِ الجُملَةِ، أن يُجعَلَ الاستِفهامُ التَّعجيبيُّ خَبَرًا، فيهِ تَفخيمٌ لِلمُبتَدَإ، وإثارَةٌ لِلتَّشَوُّفِ إلى مَعرِفَةِ شَأنِهِ، وهوَ مِن بَديعِ الأُسلوبِ القُرآنيِّ، حَيثُ يوَظَّفُ الخَبَرُ في صيغَةِ ﴿مَآ﴾ المُفيدَةِ لِلتَّهويلِ، فيَصيرُ السّامِعُ في مَقامِ المُنتَظِرِ لِما سَيَأتي، والمُتَطَلِّعِ إلى تَفصيلٍ يُقارِبُ هَذا الإجمالَ.

نكتة حذف المسند إليه:

حــذفُ المبـتـدأ مسارعةٌ بذكر الخبر وعنايةٌ بمضمونه

حُذِفَ المبتدأ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾، والتّقدير: (هُم في سِدرٍ مَخضودٍ)، ونَظائِرُ ذلِكَ كَثيرَةٌ في القُرآنِ؛ كَقَولِهِ تَعالَى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧﴾ [الشُّعراء: 147]، ونُكتَةُ هَذا الحَذفِ أنَّهُ يُسهِمُ في تَسريعِ وتيرَةِ الوَصفِ، ويُعَجِّلُ بالانتِقالِ إلى صورِ النَّعيمِ ومَشاهِدِ المَجدِ والرَّفاهِ، فلا تَتَعَطَّلُ الأُذُنُ بذِكرِ الضَّمائِرِ، بَل تَستَقبِلُ تَعاقُبًا

بَيانيًّا رَسولُهُ الصّوَرُ والمَناظِرُ. وهَذا ما يُسَمَّى الإيجازَ بالحَذفِ، وهوَ مِن أبلَغِ أنواعِ الإيجازِ، إذ إنَّ القَرينَةَ السّابِقَةَ، وهيَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، تَجعَلُ الذِّهنَ مُستَعِدًّا لِاستِقبالِ جُملَةٍ تَبدَأُ بِذِكرِ ما هُم فيهِ، فلَم يَحتَجِ المَقامُ إلى التَّصريحِ بـ(هُم).

دلالة استعمال حرف الظَّرفية:

التّعريض بسدرِ الدُّنيا

جاء استعمال حرفِ الظّرفيّة في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾، دون أن يقول: (لَهُم سِدرٌ مَخضودٌ)، أو (يَأكُلونَ مِن سِدرٍ)، ولو قيل شيءٌ مثل ذلك؛ لَدَلَّ ذلِكَ عَلى مُجَرَّدِ الانتِفاعِ بهِ، أمّا قَولُهُ: ﴿فِي سِدۡرٖ﴾ فهوَ تَصويرٌ لِلحالِ والمَقامِ، أي: إنَّهُم مُقيمونَ في بيئَةٍ نَباتيَّةٍ ظَليلَةٍ، وإنَّ ذلِكَ النَّعيمَ لَيسَ مَرَّةً، ولا زَمَنًا، بَل هوَ حالٌ دائمَةٌ وإحاطَةٌ تامَّةٌ، وفيه تعريضٌ بسدرِ الدُّنيا، الَّذي فيه الأشواك فلا يستطيع بلوغ وسطه النّاس. وفي الاستِغراقِ الَّذي تُفيدُهُ ﴿فِي﴾، ما يُشيرُ إلَى أنَّهُم مُنغَمِسونَ في الجَنَّةِ انغماسًا، لَيسَ لَهُ فيهِ فصلٌ بَينَ النَّعيمِ والمُنَعَّمِ، فهيَ حالَةٌ يُكِنُّها الظَّرفُ، ولَيسَت خارِجَةً عَنهُ.

توجيه تصدير السِّدر بالذِّكر:

تـصـويـر الأنـس البيئيِّ وتحويل المألوف إلى كمالٍ معنويٍّ

تَصديرُ وصفِ نَعيمِ أصحابِ اليَمينِ بقَولِهِ تَعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾، يَحمِلُ تَوجيهًا بَلاغيًّا بالِغًا في تَصويرِ نَمَطٍ مِن نَعيمِ الجَنَّةِ، باستِخدامِ نَباتٍ مَألوفٍ عِندَ العَرَبِ، ذاتِ دَلالَةٍ بيئيَّةٍ وعاطِفيَّةٍ. فالسِّدرُ شَجَرٌ يُعرَفُ في البيئَةِ العَرَبيَّةِ، قَد يَكونُ خَشِنًا مُؤذيًا بشَوكِهِ، ولكِنَّهُ في الوَقتِ نَفسِهِ مُثمِرٌ وظَليلٌ، فجاءَ التَّصديرِ بذكرِهِ؛ ليُثيرَ في ذِهنِ السّامِعِ مَشهَدًا مَعروفًا، ولكِن في صورَةٍ مُحَوَّلَةٍ إلى الكَمالِ، فالسِّدرُ مَعروفٌ عِندَ العَرَبِ بِجَمالِ ظِلِّهِ، ورِقَّةِ ورَقِهِ، وطيبِ رائِحَتِهِ، وكَرَمِ ثَمَرِهِ، فذِكرُهُ يَستَحضِرُ كُلَّ ذلِكَ بكَلِمَةٍ واحِدَةٍ، فهوَ مُفعَمٌ بالمَعاني المُتَعَدِّدَةِ في ذِهنِ السّامِعِ.

حكمةُ ذكر السِّدر وهو من أشجار البوادي:

ذكـرُ صغير الأشياء وكبيرها إحاطةٌ بجميع الأنواع والأصناف

أوردَ الرّازيُّ سؤالًا مفاده: أيَّةُ نِعمَةٍ تَكونُ في كَونِهم في سِدرٍ، والسِّدرُ من أشجارِ البَوادي، لا بمُرٍّ ولا بحُلوٍ ولا بطيبٍ؟ ثمَّ أجاب: بأنَّ البَليغَ يَذكُرُ طَرَفي أمرَينِ، يَتضَمَّنُ ذِكرُهُما الإشارةَ إلى جَميع ما بَينَهُما، كما يُقالُ: فُلانٌ مَلَكَ الشَّرقَ والغربَ، ويُفهَمُ منه أنَّهُ مَلَكَهُما ومَلَكَ ما بَينَهُما، فنَقولُ: لا خَفاءَ في أن تَزيينَ المَواضِعِ الَّتي يُتَفَرَّجُ فيها بالأشجارِ، وتِلكَ الأشجارُ تارةً يُطلَبُ مِنها نَفسُ الوَرَقِ والنَّظَرُ إلَيهِ والاستظلالُ به، وتارةً يُقصَدُ إلى ثِمارِها، وتارةً يُجمَعُ بَينَهُما، لكنَّ الأشجارَ أوراقُها على أقسامٍ كثيرةٍ، ويَجمَعُها نَوعانِ: أوراقٌ صِغارٌ، وأوراقٌ كِبارٌ، والسِّدرُ في غايةِ الصِّغَرِ، والطَّلحُ وهو شَجَرُ الموزِ في غايةِ الكِبَرِ، فقَولُهُ تَعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ إشارةٌ إلى ما يَكونُ ورَقُهُ في غايةِ الصِّغَرِ من الأشجارِ، وإلى ما يَكونُ ورَقُهُ في غايةِ الكِبَرِ منها، فوَقَعَتِ الإشارةُ إلى الطَّرَفَينِ، جامِعَةً لِجَميعِ الأشجارِ نَظَرًا إلى أوراقِها، والوَرَقُ أحَدُ مَقاصِدِ الشَّجَرِ، فوَقَعَتِ الإشارةُ إليهما جامِعَةً لِجَميعِ الأشجارِ نَظَرًا إلى ثِمارِها، وهذا جَوابٌ فائِقٌ وفَّقَنا اللهُ تَعالَى له(1).

نكتة ذكر اسم الشَّجر ﴿سِدۡرٖ﴾:

حكمةُ القرآنِ تظهر في ذكر جميع مناحي النِّعم لا الاقتصار على بعضها

آثر النَّظم الكريم ذكرَ (السِّدرِ)، وهوَ اسمُ الشَّجَرِ، دونَ ذكر الثَّمر وهو النَّبق، وهو المقصود بالانتفاع، إيماءٌ بَليغٌ إلَى أنَّ المُرادَ جَميعُ الشَّجَرِ بذاتِه، بظِلِّه، وريحِه، ومَنظَرِه، وثَمَرِه، ولَيسَ مُجَرَّدَ ما يُجتَنَى مِنهُ. فذكرُ الشَّجَرِ دونَ الثَّمَرِ يُفيدُ الاستِغراقَ في المَتاعِ، فالنّاعِمُ في الجَنَّةِ لا يَستَفيدُ مِنَ الثَّمَرِ وحدَهُ، بَل يَنعُمُ بالظِّلِّ، والمَنظَرِ، والرّائِحَةِ، والسُّكنَى، فذِكرُ (السِّدرِ) أشمَلُ وأوفَى.

وَكَذلِكَ، فإنَّ في تَركِ التَّصريحِ بالثَّمَرِ، والاعتِمادِ على الشَّجَرِ،

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتح الغيب: 29/ 404.

تَرقيَةً في الإدراكِ، ففي الجَنَّةِ لَيسَ الثَّمَرُ أهَمَّ ما فيها، بَل حُسنُ المَقام، وجَمالُ المَنظَرِ، وهُدوءُ البيئَةِ، والسِّدرُ في ذِكرِهِ تَجسيدٌ لِذلِكَ كُلِّه.

نكتة تنكير لفظ ﴿سِدۡرٖ﴾:

بيان نوع السِّدر وأنَّه غير معهودٍ لدى النَّاس

نُكِّر لفظ ﴿سِدۡرٖ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾؛ لإفادة التَّفخيم النّوعيِّ المكتسب من الصِّفة، والإشارة إلَى عَظَمَةٍ لا تُدرَكُ حُدودُها، ولا تُقاسُ بمِقدارٍ مَألوفٍ، فكَأنَّهُ يَقولُ: إنَّهُ سِدرٌ، ولَكِن لَيسَ كَسائِرِ السِّدرِ الَّذي تَعرِفونَهُ، بَل هوَ نَوعٌ آخَرُ، لا يُشبِهُهُ مَعهودٌ، ولا تُدرِكُهُ أفهامُكُم في الدُّنيا.

بلاغة وصف السِّدر بالمخضود:

تمكُّنُ أصحاب اليمين من السِّدر دليلُ سهولةِ الوصول ويسر التَّناول

وُصف السِّدرُ بأنّه مخضودٌ في قوله تعالى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾، والسِّدرُ شَجَرٌ مَعروفٌ، يَكونُ بَرّيًّا في الأكثَرِ، ولَهُ شَوكٌ، وهوَ صَلبٌ وخَشِنٌ، لا يُرغَبُ فيهِ إن نُظِرَ إلَى حالِ الشَّوكِ فيهِ، ووصفه بالمخضود، أي المُزالُ شَوكُهُ؛ لاكتمالِ مَحاسِنِهِ بانتِفاء ما فيهِ من أذًى. وهو مَع هَذا يُؤتي ثَمَرًا طَيِّبًا وظِلًّا وافِرًا، ولِهَذا فقَد وُصِفَ بالمخضودِ، أي المُزال شَوكُهُ وبهذا تكونُ قد كَمُلت محاسِنُه بانتفاء ما فيه من أذًى[1].

نكتة عطف الطَّلح على السِّدر:

ترقّي الصّورة في مشهد الجنَّة من ظلال السِّدر إلى أفانين الطَّلح

عَطفُ الطَّلحِ على السِّدرِ دالٌّ على أنَّهُما من بابٍ واحِدٍ، وفي جِنسٍ مُتَّحِدٍ، وهوَ جِنسُ الشَّجَرِ المُظِلِّ الَّذي فيهِ زينَةٌ ونَفعٌ؛ ولِذلِكَ "فَقَولُهُ تَعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ إشارَةٌ إلَى ما يَكونُ ورَقُهُ في غايَةِ الصِّغَرِ مِنَ الأشجارِ، وإلَى ما يَكونُ ورَقُهُ في غايَةِ الكِبَرِ مِنها، فوَقَعَتِ الإشارَةُ إلَى الطَّرَفَينِ جامِعَةً لِجَميعِ الأشجارِ نَظَرًا إلَى أوراقِها، والوَرَقُ أحَدُ مَقاصِدِ الشَّجَرِ"[2]. فكانَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 298.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 404.

الطَّلحُ في هَذا السّياقِ تَمامًا لِصورَةِ المَشهَدِ الطَّبيعيِّ، يُضافُ إلَى السِّدرِ في دَلالَتِه على الغابَةِ الوارِفَة، والجَنَّةِ الخَضراءِ، الَّتي فيها أشجارٌ عِظامٌ مُنَسَّقَةٌ مُنضودَةٌ، تَبثُّ في النَّفسِ الطُّمَأنينَةَ والجَمالَ، وتَصنَعُ مَشهَدًا بَصريًّا يُغَذّي الرّوحَ والقَلبَ مَعًا.

دلالة وصف الطَّلح بالمنضود:

مشهد النّعمة المنسّقة في تصوير الجنّة ترغيبٌ للنّفس الجميلةِ

إنَّ وصفَ الطَّلحِ بأنَّهُ مَنضودٌ في قَولِه تَعالَى: ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾، يَحملُ في طَيّاتِه دَلالَةً بَلاغيَّةً وتَصويريَّةً عَظيمَةً، تُفيدُ أنَّ نِعمَةَ الجَنَّةِ لَيسَت في ذاتِها فقط، ولَكِن في هَيئَتِها وكَيفيَّةِ تَقديمِها. والمنضود هو الورق أو الثَّمر، والظّاهر أنَّ المراد الورق؛ لأنَّ شجر الموز من أوله إلى أعلاه يكون ورقًا بعد ورق، وقيل: المنضود المُثمر[1]. فقَدِ اختيرَ ﴿مَّنضُودٖ﴾ - وهوَ اسمُ مَفعولٍ - ليَدُلَّ على أنَّ ثِمارَ هَذا الطَّلحِ قَد نُظِّمَت ورُتِّبَت ورُصِّفَت بَعضُها فوقَ بَعضٍ، بصورَةٍ مُبهِرَةٍ في النَّظَرِ، سَهلَةٍ في القَطفِ، مُمتِعَةٍ في المَنظَرِ. فـ "المنضود الَّذي نُضِدَ بالحَمْلِ من أسفله إلى أعلاه فليست له ساق بارزة"[2]. "فإن قيل: إذا كان الطَّلح شجرًا فهو لا يكون منضودًا وإنَّما يكون له ثمر منضود، فكيف وصف به الطَّلح؟ نقول: هو من باب حسن الوجه وصف بسبب اتِّصاف ما يتَّصل به"[3]. يُقالُ: زَيْدٌ حَسَنُ الوَجْه، وقَدْ يُتْرَكُ الوَجْهُ ويُقالُ: زَيْدٌ حَسَنٌ والمُرادُ حَسَنُ الوَجْه.

فَهوَ طَلحٌ لَيسَ عَفويَّ النَّموِّ كَما يوجَدُ في الطَّبيعَةِ الدُّنيَويَّةِ، بَل هوَ طَلحٌ مُعَدٌّ ومُهَيَّأٌ ومُرَتَّبٌ لِغايَةٍ، لا تجري عليه سُنَنُ الدُّنيا، وفي تَصريفٍ يَدُلُّ على أنَّ المُنعِمَ تَعالَى تَوَلَّى تَجهيزَ نَعيمِ أصحابِ اليَمينِ بألطَفِ صوَرِ الإكرامِ والتَّقديرِ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 405.

(2) النّسفيّ، تفسير النّسفيّ: 4/ 170.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 405.

دلالة التَّعبير بصيغة ﴿مَّنضُودٍ﴾:

بلاغة النَّضد في وصف الطَّلح نعيمٌ مرتَّبٌ على عين الكرامة والتَّدبير

صيغَةُ ﴿مَّنضُودٍ﴾، وهيَ اسمُ مَفعولٍ، تُفيدُ أنَّ النَّضدَ - وهوَ التَّرتيبُ والتَّرصيفُ - لَم يَحدُث بطَريقٍ عَفويٍّ، بَل هوَ تَصَرُّفٌ قَصديٌّ، وفِعلٌ مَحسوبٌ، جاءَ لِخِدمَةِ المُنعَم عَليه. فالثِّمارُ مَصفوفَةٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، كَأنَّها مَوضوعَةٌ بأيدٍ تَقصِدُ الإكرامَ والإتقانَ، لا كَما تَتَساقَطُ الثِّمارُ في الدُّنيا بغَيرِ نِظامٍ. وفي هَذا تَلميحٌ بَيانيٌّ إلَى أنَّ نَعيمَ الجَنَّةِ لا يَأتي عَفوًا، ولا يَظهَرُ في صورَةٍ مُبتَذَلَةٍ، بَل هوَ نِظامٌ جَميلٌ، وتَرتيبٌ مَقصودٌ، يَعكِسُ عِنايَةَ المُنعِمِ ﷻ بعِبادِه.

توجيه اختصاص السِّدر بوصف مخضود والطَّلح بوصف منضود:

بلاغة التَّناسب بين وصف السِّدر والطَّلح نـزعُ الأذى وتكميلُ البهاء

خصَّ النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ السِّدرَ والطَّلح بالذّكر، فالسِّدرُ - وهوَ شَجَرُ النَّبقِ - مِمّا اشتُهِرَ في البيئَةِ العَرَبيَّةِ بكَثرَةِ شَوكِه، ومَعَ كَونِه ذا ثَمَرٍ طَيِّبٍ، فإنَّ الأذَى فيهِ بارزٌ، لِذلكَ كانَتِ النِّعمَةُ المَذكورَةُ فيهِ في الجَنَّةِ أنَّ شَوكَهُ قَد خُضِدَ، أي قُطِعَ وأُزيلَ، فصارَ سِدرًا مَخضودًا، في مَنظَرِه جَمالٌ، وفي مَلمَسِهِ أمانٌ، وفي ثَمَرِهِ نَفعٌ بلا أذًى، فكانَتِ العِنايَةُ هُنا بإزالَةِ المَكروه.

أمّا الطَّلحُ - وهوَ شَجَرٌ عَظيمٌ مِن ذَواتِ الظِّلِّ - فلَيسَ فيهِ ما يُستَكرَهُ، ولَكِن كانَتِ المِنَّةُ فيهِ في جِهَةِ التَّكميلِ والتَّجميلِ، فجاءَ وصفُهُ بـ﴿مَّنضُودٍ﴾؛ لِيُفيدَ أنَّ ثِمارَهُ قَد رُتِّبَت في حُسنِ مَنظَرٍ، ويُسرِ مَنالٍ، وجَمالِ تَنسيقٍ، فكانَتِ المِنَّةُ هُنا في إضافَةِ البَهاءِ إلَى المَوجود.

وَعلى ذلكَ، كانَ الوَصفانِ كُلٌّ في مَوضِعِهِ الأولَى: فـ﴿مَّخۡضُودٖ﴾ في حَقِّ السِّدرِ نَفيٌ لِما يُؤذي، و﴿مَّنضُودٖ﴾ في حَقِّ الطَّلحِ إثباتٌ لِما يُبهِجُ ويُزَيِّنُ، وفي كِلَيهِما تَجَلٍّ؛ لِتَنَوُّعِ أوجُهِ النَّعيمِ: نَعيمٌ برَفعِ الضَّرَرِ، ونَعيمٌ بإضافَةِ الزِّينَة.

نكتة عطف الظِّلّ على السّابق:

بلاغة التَّكميل والتَّتميم بذكر الظِّلّ بعد ما ذكر ما يحوي الظِّلّ

عَطفُ الظِّلِّ على السِّدرِ والطَّلحِ في قَولِهِ تعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ لَيسَ عَطفًا على جِنسٍ واحِدٍ، بَل هوَ مِن بابِ تَنَوُّعِ أنواعِ النَّعيمِ واتِّساعِ المِنَّةِ، فالسِّدرُ والطَّلحُ مِمّا يُقتَنَى ثَمَرُهُ، ويُبتَغَى نَفعُهُ بالتَّغَذّي والتَّلَذُّذِ، والظِّلُّ مِمّا يُطلَبُ لِلرّاحَةِ والسُّكونِ والأُنسِ، فجاءَ ذِكرُهُ مَعطوفًا على ما قَبلَهُ لِيُكمِلَ بِنيَةَ النَّعيمِ المُتَفاوِتِ المُتَعَدِّدِ الأغراضِ، فالقُرآنُ يُصَوِّرُ أصحابَ اليَمينِ يَتَقَلَّبونَ بَينَ ظِلالٍ وثِمارٍ، وراحَةٍ وتَنَعُّمٍ، فلا حَرَّ يُؤذيهم، ولا نَصَبَ يُعَنّيهم.

نكتة إفراد لفظ (ظلٍّ) وتنكيره:

الظِّلُّ عظيمٌ بصفاته وامتداده وأثره النّافع

إفرادُ لفظ (ظلّ) وتنكيره لَيسَ على وجهِ القِلَّةِ، بَل على سَبيلِ التَّنزيلِ لِلنَّوعِ الكامِلِ، والإشارَةِ إلَى أنَّ الظِّلَّ المَذكورَ لا يَستَقي قيمَتَهُ مِن كَثرَتِهِ وتَعَدُّدِ مَواقِعِهِ، بَل مِن نَوعِهِ وصِفَتِهِ وحالِهِ. وأمّا التَّنكيرُ فهوَ لِلتَّعظيمِ، يوحي بأنَّهُ ظِلٌّ لا يُشبِهُ أظِلَّةَ الدُّنيا، لا تَتَقَلَّبُ فيهِ الشَّمسُ والغُيومُ، ولا يَزولُ عَن أهلِهِ، ولا يُنغِّصُهُ ارتِفاعُ نَهارٍ ولا غُروبُ شَمسٍ؛ فاجتمع الإفراد والتّنكير في تعظيم شأنِه وتفخيم حاله، وهو ما يُرشحه الوصفُ بالممدود.

فائدة وصف الظِّلّ بالممدود:

دلالة (ممدود) في تصوير الظِّلّ في الجَنَّة

في قَولِهِ تعالَى: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾، جاءَ وصفُ الظِّلِّ بصِفَةٍ مُفرَدَةٍ، دونَ أن يُقرَنَ بِرَديفٍ لَهُ كَطَويلٍ أو وارِفٍ أو دائِمٍ، مَعَ أنَّ كُلَّ هذهِ الأوصافِ قَد تُراعي مَعانيَ قَريبَةً، لكِنَّ الوصفَ بممدود أدَقُّ في الدّلالَةِ وأعمَقُ في الإيحاءِ، ومِمّا يُبيِّن عظمة هذا الظِّلّ، ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «إنَّ في الجَنَّةِ لَشَجَرَةً

يَسيرُ الرّاكِبُ في ظِلِّها مِئَةَ سَنَةٍ»[1]، وزاد في مسند البزّار: «اقرَؤوا إن شِئْتُم ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾»[2].

غرض التَّعبير بصيغة المفعول ﴿مَّمۡدُودٖ﴾:

تصوير الظِّلِّ في الجَنَّة بوصفه أثرًا مقصودًا لا طبيعةً تلقائيّة

غرض التَّعبير بصيغةِ المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾، بدلًا منَ أن يُقالَ مثلًا: (ظلٍّ مادٍّ)، هو إفادةُ معنى الامتدادِ المحدثِ بالفعلِ لا الذّاتِ، أي إنَّ ذلكَ الظِّلَّ ليسَ موجودًا على هيئةٍ طبيعيةٍ أو تلقائيَّةٍ كما نألفُ الظِّلالَ في الدُّنيا، بل هو ظلٌّ قد مُدَّ مدًّا، وصُنعَ صنعةَ الإكرامِ والنَّعيمِ؛ فالفعلُ مستبطنٌ في صيغةِ المفعولِ، وهو يشيرُ إلى أنّ هذا الظِّلَّ قد جُعلَ على هذا النَّحوِ بطريقِ التَّقديرِ الرَّبانيِّ، والقدرةِ الحكيمةِ.

ولذلكَ لم يوصَف بـ(الدّائم) الَّذي قد يُتوهّمُ منهُ الثَّباتُ الطَّبيعيُّ، بل بـ(الممدودِ)؛ ليشيرَ إلى الاستمرارِ المقرونِ بالعنايةِ والتَّقديرِ، وهو ما يُترجم دقّة الاستعمال القرآنيِّ، وتفسيره بالدّائم تقريبٌ للمعنى[3].

نكتة عطف الماء على السّابق:

تتميمُ صورة النَّعيم وتنوّعه في مقام أصحاب اليمين

بعد ذكرِ السِّدرِ المَخضودِ والطَّلحِ المَنضودِ والظِّلِّ المَمدودِ، جاءَ عَطفُ الماءِ المَسكوبِ عَلَيها تَتميمًا لِلصّورَةِ البَهيَّةِ لِمَقامِ أصحابِ اليَمينِ، فلا يَستَتِمُّ النَّعيمُ بالظِّلِّ والأشجارِ إلّا بالماءِ الَّذي تَجري بهِ الحَياةُ وتَستَريحُ برِقَّتِهِ الأنفُسُ.

وَعَطفُ الماءِ على الظِّلِّ على التَّرتيبِ يَستَدعي في الذِّهنِ صورَةَ مَجرَى الماءِ تَحتَ الظِّلالِ، وجَرَيانَهُ على البِساطِ الخَضِرِ، وهوَ تَرتيبٌ يُناسِبُ حالَ المُتَمَتِّعِ الَّذي يَنتَقِلُ مِنَ الظِّلِّ الوارِفِ إلَى الرَّشفِ

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، باب إنّ في الجنّة شجرة، رقم الحديث: 7238: 8/ 144.

(2) البزّار، مسند البزّار، باب مسند أبي هريرة ﵁، رقم الحديث: 8107: 2/ 410، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 115.

(3) الواحديّ، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 1/ 1060.

العَذبِ، ثُمَّ إلَى الأُكلِ الكَريمِ، وفي العَطفِ إشعارٌ بأنَّ هَذا نَعيمٌ مُتَنَوِّعٌ، لا تَكرار فيه ولا رُكود، بَل تَصويرٌ لِجَنَّةٍ تَتَعاقَبُ فيها المُتَعُ كَما تَتَعاقَبُ الألوانُ في زُهورِ الرَّبيعِ.

بلاغةُ وصف الماء بالمسكوب:

صورة الانسياب الرَّقيق والتَّدبير الإلهيِّ المقصود

آثر النّظم الكريم وصفَ الماءِ بأنّه مسكوبٌ في قَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَآءٍ مَّسۡكُوبٍ﴾، دونَ أن يُقالَ: (جارٍ) أو (مَصبوبٍ)، فالماءُ الجاري يُشعِرُ بتَحَرُّكٍ طَبيعيٍّ يَسيلُ في الأودِيَةِ والجَداوِلِ، والماء المَصبوبُ يُلائِمُ الكَثافَةَ والكَمالَ في النُّزول، وقَد يُستَخدَمُ في المُعالَجاتِ والخُشونَة، أمّا الماء المَسكوبُ فهوَ الماءُ الَّذي يُسكَبُ سَكبًا مُتَواصِلًا رَقيقًا لَيِّنًا، يَسيلُ بلا عَنَتٍ، ولا صَوتٍ، ولا جَمع جُهدٍ، ويُشعِرُ بالسَّلاسَةِ والدَّوامِ والهُدوءِ، وذلِكَ أنسَبُ بمَقامِ النَّعيم في الجَنَّة. وسَكب الماء: صبّه، وأطلق هنا على جريه بقوَّة يشبه السَّكب وهو ماء أنهار الجَنَّة(1).

غرض التَّعبير بصيغة المفعول ﴿مَّسۡكُوبٍ﴾:

تصويرُ النَّعيم الممنوح لا النّابع، والرّاحة المقصودة لا العفويَّة الجارية

في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَآءٍ مَّسۡكُوبٍ﴾، جاءَ الوَصفُ بصيغَةِ اسم المَفعولِ، لِلدّلالَةِ على أنَّ هَذا الماءَ لَيسَ جاريًا جَريًا عَفويًّا، ولا نابِعًا بطَبيعَتِهِ، بَل هوَ مِمّا سُكِبَ سكبًا، أي جَرَى بِفِعلِ فاعِلٍ وبِقَصدٍ وإرادَةٍ، وذلِكَ أبلَغُ في دلالَةِ التَّنعيم والإكرام. ومعنى ﴿مَّسۡكُوبٍ﴾ أي: "يسكب لهم أين شاءوا وكيف شاءوا لا يتعنَّون فيه. وقيل: دائم الجرية لا ينقطع. وقيل: مصبوب يجرى على الأرض في غير أخدود"(2). فالتَّعبيرُ عَنهُ بـ ﴿مَّسۡكُوبٍ﴾ يُشعِرُ بأنَّ ذلِكَ الماءَ يُسكَبُ على أهلِ الجَنَّةِ سَكبًا، أي يُفيضُ عَلَيهِم فوقَ ما يَطلُبونَ، ويَتَجَدَّدُ انسيابُهُ وتَجديدُهُ كُلَّما احتاجوا إلَيهِ، فلا هوَ بماءٍ راكِدٍ،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 300.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.

ولا هوَ بماءٍ مَحبوسٍ، ولَكِنَّهُ ماءٌ مُتَجَدِّدٌ، سائِلٌ، مُنصَبٌّ بالطّيبَةِ والطَّهارَةِ والِارتياح.

نكتة تنكير لفظ (فاكهة):

تنوّع الفاكهة وكثرتها غير معهود ولا في العقول معلوم

نُكِّرَ لفظُ (فاكِهَةٍ) في قولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾، تنكيرَ تعظيمٍ وتفخيمٍ، لا تنكيرَ تقليلٍ أو تنكيرَ شيوعٍ، وذلك لما يُفيدهُ التَّنكيرُ في مقامِ الامتنانِ من إشعارٍ بعِظَمِ الموهوبِ وسَعةِ مقدارِه، فكأنّ الآيةَ تقولُ: وفاكهةٍ لا تُحدُّ أنواعُها، ولا تُحصى أصنافُها، بل هي فاكهةٌ كثيرةٌ من كلِّ ما تشتهيهِ الأنفُس وتلذُّ بِهِ العينُ ويَطيبُ بِهِ الطّعمُ.

وإنّما عُدِلَ عن تعريفِها بـ(أل) إلى التَّنكيرِ، إيذانًا بأنّها فاكهةٌ غيرُ معروفةٍ في جنسها الدُّنيويِّ، فهي أجناسٌ وألوانٌ ممّا لم تبلُغهُ الأبصارُ، ولا تدركهُ الأوهامُ، كما قالَ تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السّجدة: 17]، فتقديمُها مُنكَّرةً أبلغُ في إثارةِ التَّشوُّفِ إليها، والتَّنبيهِ إلى عظمتِها.

كما أنّ في التَّنكيرِ مُناسَبَةً مع قولِه بعدها: ﴿كَثِيرَةٖ﴾، فدلّ على كثرة عددها[1]؛ وليس ذلك فحسب؛ بل كثرةٌ في الأنواعِ والتَّنوُّعِ والمذاقِ، وهذا أبلغُ في النَّعيمِ وأجلبُ للسُّرورِ، من أن يُقالَ: (والفاكهةُ الكثيرةُ)، فإنّ المعرفةَ تُشعرُ بالتَّحديدِ، بخلافِ التَّنكيرِ فإنَّهُ أدعى للانطلاقِ والتَّخييلِ الواسعِ.

دلالة وصف الفاكهة بالكثرة:

كثرةُ فاكهةِ أهلِ الجنّة كثرةُ تنوُّعٍ وتلذُّذٍ لا كثرةِ إشباعٍ وتلبيةِ حاجة

وُصفت الفاكهة بالكثرة في قَولِه تَعالَى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾؛ ليتناسب مع غرض التّنكير، وتَصديرًا لِمَعنًى فائِضٍ بالمُتعَةِ والتَّنويعِ، وفَسحًا لِلتَّخييلِ في ما يَشتَهيهِ المُتَلَذِّذُ. فلَم تَقتَصِرِ الآيَةُ على ذِكرِ الفاكِهَةِ، بَل وَصَفَتها بالكَثرَةِ، إشارَةً إلَى سَعَةِ أنواعِها، وتَعَدُّدِ أصنافِها، ووُفورِ مَوارِدِها، ودَوامِ حُضورِها.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.

وفي الوصف تَنبيهٌ إلَى أنَّ الكَثرَةَ هُنا لَيسَت مَجَرَّدَ عَدَدٍ، بَل هيَ مَعنًى يُلامِسُ التَّنَوُّعَ والإباحَةَ وسُرعَةَ التَّناوُلِ، فإنَّ فواكهَ الجَنَّةِ لا يَنقَطِعُ مَدَدُها، ولا يَحولُ دونَها مانعٌ. واللّٰه تَعالَى حَيثُ ذَكَرَ الفاكِهَةَ ذَكَرَ ما يَدُلُّ على الكَثرَةِ؛ لِأنَّها لَيسَت لِدَفعِ الحاجَةِ حَتَّى تَكونَ بقَدرِ الحاجَةِ، بَل هيَ لِلتَّنَعُّمِ، فوَصَفَها بالكَثرَةِ والتَّنَوُّعِ[1].

توجيه الفرق بين فاكهة السّابقين وفاكهة أصحاب اليمين:

الـتّـعـبـير القـرآنيّ يراعي مقامات أهل الجنّة ويعتني بأحوالهم

الفرقُ بينَ فاكهةِ السّابِقينَ وفاكهةِ أصحابِ اليمينِ في سياقِ سورةِ الواقِعَة دقيقٌ من حيثُ التّعبيرُ القرآنيُّ ومرتبطٌ بمقامِ التّفصيلِ والامتنانِ، ففي شأنِ السّابِقينَ قالَ تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، أمّا في وصفِ نعيم أصحابِ اليمينِ فقالَ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

والتّعبيرُ في الآيةِ الأولى يدلُّ على اختصاصٍ واصطفاءٍ، إذ أُضيفَتِ الفاكهةُ إلى ما يتخيّرونه بأنفسهم، فمقامُهم مقامُ سيادةٍ وتخيُّرٍ، لا يُقدّمُ لهم إلّا ما تطلبهُ نفوسُهم وتُشيرُ إليهِ رغباتُهم، فكان في هذا التَّعبيرِ تشريفٌ لهم وتفخيمٌ لمنزلتهم، يُناسبُ علوّ مقامِهم في السّبقِ إلى الطّاعةِ ورفعةِ درجتِهم عند اللّٰهِ.

أمّا في الآيةِ الثّانية، فجاءَ التّعبيرُ بـ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، وهو وصفٌ يُفيدُ الكثرةَ والوفرةَ والتّيسيرَ، دون أن يُنسبَ الأمرُ لاختيارِهم كما في حالِ السّابِقينَ، ففيه ما يدلُّ على النّعيمِ المُهيَّأِ لهم تهيئةَ كرمٍ وإكرامٍ، لكن ليس في مقامِ التَّخيُّرِ التّامِّ والاصطفاءِ الشّخصيِّ، وإنّما هو فضلٌ ونعيمٌ دائمٌ متاحٌ بلا انقطاعٍ ولا حظرٍ، يُناسبُ مقامَهم في الجنّة، وهو دونَ مقامِ السّابِقينَ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 144.

فالتّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يدلُّ على حريّةِ الإرادةِ واستجابةِ النّعيم لأدقّ رغباتِ المتنعّمين، وهو أرفعُ مقامًا من الكثرةِ والدَّوام فحسب، كما في قوله: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾.

وهكذا، ناسبَ التَّعبيرُ في كلّ موضعٍ مقامَ المُخاطَبينَ ومرتبتَهم في الجنّة، فكانَ التّفاوتُ في وصفِ الفاكهةِ مُراعيًا لمقاماتِ القوم لا لمجرّد التّنوّعِ البلاغيِّ، وذلك من دقائقِ التّعبير القرآنيّ الموصل إلى المعنى المقصود.

بلاغة استعمال النَّفي:

نـفـيُ الـنَّـقـص تمهيدٌ لتصويرِ الكمال

اختيرَ النَّفيُ عِوَضًا عَنِ الإثباتِ في قوله تعالى: ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾، فلَم يَقُل: (فاكِهَةٌ دائِمَةٌ ومُتاحَةٌ)؛ ليُفيدَ التَّنزيه عَن نَقيضِ الكَمالِ، والتَّخليَةَ قَبلَ التَّحليَةِ، فالآيَةُ تُقَدِّمُ نَفيَ النَّقصِ كَأوَّلِ بشارَةٍ لِلنَّفسِ البَشَريَّةِ، ثُمَّ تُرَسِّخُ الكَمالَ بَعدَ ذلِكَ في أعماقِ الوَعي.

والوصف بـ ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ وصفٌ بانتفاء ضدٍّ المطلوب، إذ المطلوب أنَّها دائمة مبذولة لهم. والنَّفي هنا أوقع من الإثبات؛ لأنَّه بمنزلة وصفٍ وتوكيده، وهم لا يصفون بالنَّفي إلّا مع التَّكرير بالعطف كقوله تعالى: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ [النّور: 35][1]. فاستِعمالُ النَّفي هُنا، في تركيب (﴿لَّا﴾...﴿وَلَا﴾)، يُفيدُ عُمومَ الزَّمانِ والحالِ، كَأنَّ الفاكِهَةَ لا تَمُرُّ بحالٍ تَنقَطِعُ فيهِ، ولا تواجِهُ وقتًا تُمنَعُ فيه، فهيَ في تَصَرُّفِهم دَومًا بلا حِجابٍ، ولا سوقٍ، ولا مُقايَضَةٍ، بَل هيَ تَتَدَفَّقُ وفقَ ما يَشتَهونَ ويَتَخَيَّرونَ[2].

بلاغة تخصيص القطع والمنع بالذِّكر:

الـتَّـخـلـيـة قبل الـتَّـحلية ودفع الـنَّـقص توطئة لإثبات الكمال

قوله: ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ﴾ هي دائمة لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 300.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 144.

الدُّنيا ﴿وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ لا تمنع عن متناولها بوجه، ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدُّنيا[1]. فهَذانِ الوَصفانِ - القَطعُ والمَنعُ - هُما أبرَزُ ما يُنَغِّصُ نعيمَ الفَواكِه في الدُّنيا، فكَثيرًا ما تَفتقِرُ الأنفُسُ إلَى الفاكِهَةِ فلا تَجِدُها؛ لأنَّها قَد قُطِعَت بانقِضاءِ زَمانِها، أو مُنِعَت بسَبَبٍ ما، مِن فقرٍ أو تَحَكُّمٍ أو قِلَّةِ سَبَبٍ. فجاءَ التَّعبيرُ القُرآنيُّ بنَفيِ هذَينِ الوَصفَينِ، ليَدُلَّ على كَمالِ التَّمَتُّعِ واستِمرارِ المُتعَةِ، وبِلا حاجِزٍ زَمَنيٍّ أو قَهريٍّ.

فَجاءَ النَّفيُ عَنِ الوَصفَينِ المُجتَمِعَينِ في نُفوسِ أهلِ الدُّنيا كَأشَدِّ ما يُنَغِّصُ نَعيمَها، وبذلِكَ تَتَجَلَّى نِعمَةُ الجَنَّةِ في أسمَى صوَرِها، فهيَ فاكِهَةٌ كَثيرَةٌ، مُتاحَةٌ، دائِمَةٌ، مُباحَةٌ، توافِقُ فِطرَةَ الشَّهوَةِ ولا تُنَغِّصُها.

نكتة جمع الفرش:

رفعةُ النَّعيم وسموُّ المقام في تصوير الجنّة

قَولُهُ: ﴿وَفُرُشٖ﴾ جَمعُ فِراشٍ. وفي جَمعِها دلالَة بَليغَة على كَثرَةِ الفُرُشِ، وتَنَوُّعِها، واتِّساعِ نِصابِ التَّمَتُّعِ بها، مِمّا يَفوقُ خَيالَ أهلِ الدُّنيا. فنَعيمُ الجَنَّةِ لا يُبنَى على قَدرِ الاكتِفاءِ، بَل على فُضولِ اللَّذَّةِ، وفيضِ السَّعَةِ. فلَو قيلَ: (فِراشٌ مَرفوعٌ)، لَدَلَّ على واحِدٍ مَعروفٍ، مَحدودِ الصِّفَةِ، وهوَ ما تَستَوجِبُهُ حاجَةُ المَكانِ. أمّا الجَمعُ فهوَ أجدَرُ بالدّلالَةِ على كَمالِ التَّنعيمِ، وتَعَدُّدِ مَواضِعِ الرّاحَةِ، وتَفاوُتِ أنواعِها ومَناظِرِها.

بلاغة استعمال لفظ الفرش بين الحقيقةِ والمجاز:

الفُرُش هي ما يُجعل تحت المتّكئين ويحتمل على المجاز النّساء

تتجلّى بَلاغَةُ استعمالِ لَفظِ الفرُشِ في انسِجامِها التّامِّ مَعَ سياقِ الامتنانِ بنَعيمِ أصحابِ اليَمينِ، وفي دِقَّةِ التَّعبيرِ الَّذي يوافِقُ طَبيعَةَ المَقامِ، فقَد جاءَ ذِكرُ الفُرُشِ بَعدَ تَعدادِ نِعَمٍ مُتَّصِلَةٍ بالطَّعامِ والشَّرابِ والظِّلالِ، فكانَ لِلَفظِ (الفُرُشِ) مَكانَةٌ في تَصويرِ الرّاحَةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.

والسُّكونِ النَّفسيِّ الَّذي يُلازِمُ المُتَنَعِّمَ بَعدَ الشِّبَعِ والرّيِّ، وهوَ مِن دَقائِقِ التَّناسُبِ بَينَ الألفاظِ والمَعاني. واختيارُ لَفظِ فُرُش دونَ أن يُقالَ: (أسِرَّةٍ) أو (مَرافِق) يَحمِلُ نُكتَةً بَلاغيَّةً، إذ إنَّ الفُرُشَ تُفيدُ مَعنَى التَّمَدُّدِ والرّاحَةِ والاستِقرارِ، وهوَ أوفَقُ في المَقامِ الَّذي يُقصَدُ بِهِ تَصويرُ النَّعيمِ المُقيمِ، وتَفاوُتُ دَرَجاتِ الرّاحَةِ الَّتي يُهَيَّأُ فيها المَقامُ لِلمُخاطَبينَ مِن أصحابِ اليَمينِ.

وَقالَ أبو عُبَيدَةَ: "المُرادُ بالفُرُشِ النِّساءُ؛ لِأنَّ المَرأةَ يُكنَى عَنها بالفِراشِ، ورَفعُهُنَّ في الأقدارِ والمَنازِلِ. والضَّميرُ في ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ عائِدٌ على (الفُرُشِ) في قَولِ أبي عُبَيدَةَ، إذ هُنَّ النِّساءُ عِندَهُ"[1]. "والعرب تسمّي المرأة: فراشًا وإزارًا ولباسًا، وفي معنى رفعهنَّ ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّهنَّ رُفِعن بالجمال على نساء أهل الدُّنيا، والثّاني: رُفِعن عن الأدناس، والثّالث: رُفِعن في القلوب لشِدَّة الميل إليهنَّ"[2].

والأَوْلَى حمل اللَّفظِ على حقيقتِه لا مجازِه، وإن كان المجازُ حاضرًا بحسب السّياق.

نكتة ذكر السُّرر في نعيم السّابقين والفرش في نعيم أصحاب اليمين:

بلاغة المفارقة بين السُّرُر والفُرُش ترجع للفروق بين مقامي أهل الجنّة

فرَّق النَّظم الكريم بين ذكرِ سُرُرِ السّابقين المقرّبين، وبين فرش أصحاب اليمين، فالسُّرُرُ في مَقامِ السّابِقينَ، هيَ مَواضِعُ المُلْك، ومَعالِمُ التَّمكينِ، وهيَ مَقاعِدُ السّادَةِ، ومَناصِبُ الأشرافِ، وفي ذَلِكَ دَلالَةٌ على رِفعَةِ المَقامِ، وتَشريفِ المَكانِ، وأمّا الفُرُشُ، فهيَ لِلدَّعَةِ، والرّاحَةِ، واللَّذَّةِ، في مَقامٍ أدنَى مِن مَقامِ السُّرُرِ، لا في نَفسِهِ، ولَكِن في إشارَتِهِ الرَّمزيَّةِ إلَى مَراتِبِ أهلِ النَّعيمِ.

وَإذا كانَت السُّرُرُ تُفرَشُ، والفُرُشُ تُرفَعُ، فالقُرآنُ لَم يُذكِر يَذكُرِ الكُلَّ، بَل ذَكَرَ ما هوَ أبلَغُ في الدَّلالَةِ على رُتبَةِ أصحابِ كُلِّ مَقامٍ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 82.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 223.

فرَفعُ الفُرُشِ يُشيرُ إلَى أنَّها في مَقامٍ عَليٍّ ورَفيعٍ، ولَكِنَّهُ لا يَبلُغُ رفعَةَ السُّرُرِ الَّتي هيَ لِأهلِ السَّبقِ في الإيمانِ. فالآيَةُ تَرسُمُ فوارِقَ مَرموقَةً، في نَعيمٍ يَجمَعُهُ الإكرامُ، ويُفَرِّقُهُ الإجلالُ.

فائدة وصف الفرش بـ﴿مَّرۡفُوعَةٍ﴾:

رفـعُ الـفـرش ارتقاءٌ في الوصف والمقام وعلوٌّ في القدر والمنزلة

وُصِفت الفرش في قَولِه تَعالَى: ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾، بأنّها مرفوعة، دون (مَمدودَةٍ) الَّذي هوَ أكثَرُ ما يوصَفُ بِهِ الفُرُشُ في الدُّنيا، إلَى وصفٍ أبهَى وأرفَعَ، وهوَ: ﴿مَّرۡفُوعَةٍ﴾، فـ(المَدُّ) يُشيرُ إلَى السَّعَةِ والِانبِساطِ، وذَلِكَ نَعيمٌ، ولَكِنَّ الرَّفعَ يُفيدُ التَّكريمَ، والرِّفعَةَ في المَقامِ، والسُّموَّ في المَنزِلَةِ، وفيهِ دلالَةٌ على أنَّ الفُرُشَ لَيسَت مِمّا يُفرَشُ على الأرضِ كَما هوَ شَأنُها في الدُّنيا، بَل هيَ في أعالي المَجلِسِ، وعلى مَراتِبِ التَّشريفِ.

وَفي قَولِه: ﴿مَّرۡفُوعَةٍ﴾، إشارَةٌ إلَى أنَّ صاحِبَها مَرفوعُ القَدرِ، مَرفوعُ المَنزِلَةِ، وأنَّ ما حَولَهُ قَد تَهَيَّأَ لِخِدمَتِهِ وراحَتِهِ، ولَو قيلَ: (مَمدودَةٍ)، لَكانَتِ الصّورَةُ تَقتَصِرُ على وساعَةِ الفُرُشِ، وما أكثَرَ الفُرُشَ المَمدودَةَ في الدُّنيا، ولَكِنَّ الرَّفعَ لا يَكونُ إلّا لِما هوَ عالٍ في المَقامِ والمَرتَبَةِ، فكانَ التَّعبيرُ بِهِ أبلَغَ في تَصويرِ نَعيمِ أصحابِ اليَمينِ.

براعة ترتيب ذكر النِّعم السّدر فالطّلح فالظّلّ فالماء فالفاكهة فالفُرُش:

تـنـاسق الـنِّـعـم وتـدرّج اللّـذائـذ بـلاغـة الـتَّـرتـيـب في مشاهد نعيم أصحاب اليمين

جاء تَرتيبُ النِّعَمِ المَذكورَةِ في قَولِه تَعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ على نَسَقِ احتياجِ الإنسانِ، وعلى مَراتِبِ التَّلَذُّذِ والِاستِمتاعِ، مِن الطَّبيعيِّ الحَسّيِّ إلَى الرّاحَةِ البَدَنيَّةِ والنَّفسيَّةِ.

فَذَكَرَ السِّدرَ والطَّلحَ: وهُما مِمّا يُعطي جَمالَ المَنظَرِ وبَهجَةَ المَكانِ، ويُؤَنِّسُ النَّفسَ بالخُضرَةِ والثَّمَرِ. ثُمَّ الظِّلَّ المَمدودَ: وهوَ مِمّا يَكفُلُ الرّاحَةَ والدِّفءَ والطُّمَأنينَةَ، ويُقَدِّمُ المَكانَ على غَيرِهِ في

السُّكنَى والِاستِقرارِ. ثُمَّ الماءَ المَسكوبَ: وهوَ مِمّا تَقومُ عَلَيهِ الحَياةُ، وتَكمُلُ بِهِ النَّشوَةُ والرَّواحُ، ويَحسُنُ بِهِ المَنظَرُ ويُروَى بِهِ الجَوفُ. ثُمَّ ذَكَرَ الفَواكِهَ: فهيَ زينَةُ المَطاعِمِ، ومَظاهِرُ النَّعيمِ الفاخِرِ، تَأتي بَعدَ الرِّيِّ والظِّلِّ والخُضرَةِ.

ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِذِكرِ الفُرُشِ المَرفوعَةِ: وهيَ مَجلِسُ الرّاحَةِ ومَقامُ الهَناءِ، ومَحَلُّ الأُنسِ والسُّرورِ، فكَأَنَّ النِّعَمَ تَتَرَتَّبُ مِن جَمالِ المَنظَرِ إلَى راحَةِ البَدَنِ، ومِن إرواءِ الجَوانِحِ إلَى تَهيِئَةِ المَقامِ الكَريمِ.

بلاغة النَّظم في التَّعبير باسم المفعول في أوصاف المذكورات:

تناسق أسماء المفعول في وصف نعيم أصحاب اليمين بلاغة الإعداد الإلهيّ المقصود

إنَّ النّاظِرَ في تَرتيبِ الأوصافِ الَّتي ذُكِرَت في نَعيمِ أصحابِ اليَمينِ، يَلفِتُهُ تَواتُرُ صيغَةِ اسمِ المَفعولِ في تِلكَ الأوصافِ، وهيَ: مَخضودٌ، مَنضودٌ، مَمدودٌ، مَسكوبٌ، مَقطوعَةٌ، مَمنوعَةٌ، مَرفوعَةٌ. وفي هَذا النَّظمِ أبعَدُ أثَرٍ في تَصويرِ مَشهَدِ النَّعيمِ المُهَيَّإِ على أتَمِّ صوَرِ الإعدادِ والإتقانِ.

فاسمُ المَفعولِ - في لُغَةِ العَرَبِ - يُشيرُ إلَى كَونِ المَوصوفِ مَحَلًّا لِعَمَلٍ فِعليٍّ قَصديٍّ، أي: إنَّ خَضدَ السِّدرِ، ونَضدَ الطَّلحِ، ومَدَّ الظِّلِّ، وسَكبَ الماءِ، ورَفعَ الفُرُشِ، كُلُّ ذَلِكَ فِعلٌ قَد تَوَجَّهَ نَحوَهُ فاعِلٌ عالِمٌ قادِرٌ، يَعمَلُ لِغَيرِهِ، في مَشهَدٍ مِنَ العِنايَةِ والإكرامِ.

وَمِن بَلاغَةِ هَذِهِ الصِّيَغِ أنَّها تُنبِئُ عَن حالَةٍ تامَّةٍ، وصِفَةٍ مُستَقِرَّةٍ، ولَيسَت فِعلًا آنيًّا أو حالًا طارِئًا، فكَأَنَّ تِلكَ الجَنَّةَ قَد هُيِّئَت تَهيِئَةً تامَّةً، وأُعِدَّت إعدادًا مُكتَمِلًا، وزُوِّدَت بِكُلِّ ما تُحِبُّهُ النَّفسُ ويَهواهُ القَلبُ.

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ عن السّابق:

بلاغةُ الانتقالِ من المَطاعِمِ والمَشارِبِ إلى أنسِ الأزواجِ

يحتمل أن يكون فصلُ قوله تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ عَمّا قَبلَهُ إمّا لأنَّ الجملة مستأنفة لِبيانِ جِنسٍ آخَرَ مِنَ المَناحي النَّعيميَّةِ، يَستَقِلُّ في ذِكرِهِ ويَستَأنِفُ وصفَهُ، "والظّاهر أنَّ الإنشاء هو الاختراع

الَّذي لم يُسبَق بخلق، ويكون ذلك مخصوصًا بالحور اللّاتي لسْنَ من نسلِ آدم، ويحتمل أن يريد إنشاء الإعادة، فيكون ذلك لبنات آدم"[1]، وعلى هَذا يَكونُ الفَصلُ مِن بَلاغَةِ التَّقدير، وإبرازِ الجَليلِ في مَقامِ الجَميلِ، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ المَذكورَ بَعدَهُ - وهُنَّ الحورُ - لَيسَ أقَلّ قَدرًا مِمّا قَبلَهُ، بَل أشرَفُ مَكانَةً، وأثبَتُ في نُفوسِ النّاسِ.

ويحتمل أن يكون الفصل من كمال الاتِّصال، وذلك على تفسيرِ ﴿وَفُرُشٍ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ بأنَّهنَّ النِّساء، فيكون قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾، بيانًا للفرش؛ "لأنَّ الفُرُشَ محلُّ النّساءِ، فاكتفى بذِكرِ الفُرُش، يقول: (أنشأنا الصَّبيّةَ والعجوزَ إنشاءً جديدًا) "[2]. فيكونُ الفَصلُ لِكمالِ الاتِّصالِ بينَ الجملتَين؛ إذ تكونُ الجملةُ الثّانيةُ ذاتَ ارتباطٍ وثيقٍ بالجملةِ الأولى، مُبيّنةً موضّحةً لمعناها. فلم تُذكَرِ النّساءُ سابقًا؛ لأنَّ الفُرُشَ تُعَدُّ موضِعَهُنَّ، أو أنَّ الفُرُشَ نَفسَها هيَ الحورُ العينُ، فاكتُفيَ بذِكرِ الفُرُشِ.

دلالة توكيد الجملة ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾:

التّوكيد في قَولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ جاءَ لِعِدَّةِ دلالاتٍ بَلاغيَّةٍ، مِنها: التَّنبيهُ على عِظَمِ الشَّأنِ، ورِفعَةِ النِّعمَةِ: فقَد أُتيَ بـ(إنَّ) لِلتَّوكيدِ، وفي مَقامٍ لا يُساقُ فيهِ الخَبَرُ على طَريقِ الإفادَةِ فقَط، بَل لِيُصبِغَ عَلَيهِ جَلالُ الخالِقِ فِعلًا وقَصدًا. ولِدَفعِ ما قَد يَتَوَهَّمُهُ السّامِعُ مِنَ الإحالَةِ: إذ لَم تُعهَدِ النِّساءُ بِهَذِهِ الصِّفاتِ الجَمعيَّةِ الخَلقيَّةِ - أبكارًا، عُرُبًا، أترابًا - فجاءَ التَّوكيدُ لِيَرُدَّ على خَيالِ الوَهمِ، ويُثبِتَ أنَّهُ خَلقٌ خاصٌّ مِن صُنعِ اللّهِ تَعالَى بِقَصدٍ وقُدرَةٍ. ولِتَوقيفِ العَقلِ على مَوضِعِ العَجَبِ؛ فلَمّا كانَ السّياقُ في سَردِ نِعَمٍ مَحسوسَةٍ، جاءَ فجأةً ما يُنبِئُ عَن خَلقٍ بَشَريٍّ أُنشِئَ لِغايَةٍ

جلالُ الإنشاءِ وبديعُ القصدِ يستدعي توكيد المعنى وتوثيق المراد

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 82.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 387.

نَعيميَّةٍ، فكانَ لا بُدَّ مِن لَفتِ النَّظَرِ بالإثباتِ المُؤَكّدِ؛ ليَستَقِرَّ في الذِّهنِ أنَّ الأمرَ مَقصودٌ، لا عارِضٌ، وعَظيمٌ، لا هَيِّنٌ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾:

تعدُّد الاحتمالات للحقيقة والمجاز من مقاصد النّظم في اختيار المفردات

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الإنشاء في قَولِه تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾، وذلك لدخول احتمالين في معنى الإنشاء، وهو "الخَلقُ والإيجادُ، فيَشمَلُ إعادةَ ما كانَ مَوجودًا وعُدِم، فقد سمّى اللّهُ الإعادةَ إنشاءً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [العنكبوت: 20]، فيَدخُلُ نساءُ المؤمنينَ اللّائي كُنَّ في الدُّنيا أزواجًا لِمَن صاروا إلى الجَنّة، ويشملُ إيجادَ نساءٍ أُنُفًا يُخلَقنَ في الجَنّة لِنَعيم أهلِها"(1)، فيُحتمل "أن يراد: اللّاتي إنشاؤهن، أو اللّاتي أُعيد إنشاؤهن"(2).

وفي دلالَةِ المفردةِ على الإعادَةِ والخلقِ جمعٌ بين المجاز والحقيقة في آنٍ: فالإنشاءُ قَد يَكونُ بمَعنَى الإعادَةِ على غَيرِ الصّورَةِ الأولَى - وذَلِك في حَقِّ نِساءِ الدُّنيا المُؤمِنات - فيَكونُ مَجازًا، وقَد يَكونُ بمَعنَى الخَلقِ البَديعِ المُستَحدَثِ - في حَقِّ الحورِ العينِ - وهوَ على الحَقيقةِ، والجَمعُ بَينَ المَعنَيَينِ يَجمَعُ الأغراضَ في لَفظٍ واحِدٍ.

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾:

بلاغة الإبهام في مرجع الضَّمير تفخيمٌ للنّعمة وتوسيعٌ للدّلالة

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ عائِدٌ إلَى مَوصوفاتٍ لَم تُذكَر صَريحًا قَبلَهُ، ولَم يَتَقَدَّم في السّياقِ ما يوَجِّهُهُ نَحوَ مَرجِعٍ مُعَيَّنٍ، وهَذا إبهامٌ قَصديٌّ؛ لأنَّهُ إذا أُبهِمَ المَرجِعُ وعُمِّمَ في سياقِ الإنعامِ كانَ أبلَغَ في التَّوقيرِ، وأشمَلَ في المَدحِ.

وهَذا الإبهامِ يُفيدُ الاشتِراكَ بَينَ أنواعٍ مُحتَمَلَةٍ، فهوَ يَشمَلُ نِساءَ الدُّنيا الصّالِحاتِ، والحورَ العينَ اللَّواتي خَلَقَهُنَّ اللّهُ خَلقًا خاصًّا، فكانَ تَركُ التَّصريحِ بذِكرِهِنَّ أوفَقَ لِلتَّعميمِ، وأدَلَّ على الشُّمولِ،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 301.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.

حَتَّى لا يُفهَمَ حَصرٌ وتَخصيصٌ. فضمير "المؤنَّث من ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ عائد إلى غير مذكور في الكلام ولكنَّه ملحوظٌ في الأفهام"[1].

وَزادَت هَذِهِ المُجمَلَةُ تَفسيرًا بقَولِهِ بَعدَ ذَلِكَ: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابًا﴾، فازدانت ببيانِ أنَّ المَرجِعَ نِساءٌ في نَعيمِ الجَنَّةِ، قَد أُعِدَّت صِفاتُهُنَّ على أكمَلِ ما تَشتَهيهِ النُّفوسُ.

اختلاف التّعبير في ذكر الحور العين عمّا ذكر في شأن السّابقين:

حورٌ للمقرّبين وإنشاءٌ للمتَّقين وتنوُّعٌ محتملٌ في حقِّ أصحابِ اليمين

في تَفاوُتِ النَّظم بَينَ مَقام السّابِقينَ ومَقام أصحابِ اليَمينِ في ذِكرِ النِّساءِ نُكتَةٌ بَليغَةٌ، تَتَجَلَّى في أنَّ السّياقَ في ذِكرِ السّابِقينَ جاءَ فيهِ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾، وقَد جاءَ ذَلِكَ صَريحًا بذِكرِ الحورِ العينِ، وهوَ تَعبيرٌ يَخصُّ نِساءَ الجَنَّةِ المَخلوقاتِ فيها وحدَهُنَّ، وهوَ أشبَهُ بالتَّنصيصِ على نَوعٍ واحِدٍ.

أمّا في مَقامِ أصحابِ اليَمينِ، فإنَّ السّياقَ لَم يَذكُر لَفظَ (حورٍ عينٍ)، بَل جاءَ بقَولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءً ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابًا﴾، وهَذِهِ الجُمَلُ - على ما فيها مِنَ الإبهامِ المَقصودِ - تَتَّسِعُ لِدُخولِ نِساءِ الدُّنيا الصّالِحاتِ والحورِ العينِ كِلَيهِما، فجاءَ التَّعبيرُ عامًّا مُجمَلًا، يُفيدُ الاشتِراكَ في الإنشاءِ والإعادَةِ، وذَلِكَ أبلَغُ في تَكريمِ المُتَّقياتِ مِن نِساءِ الدُّنيا، حَيثُ لَم يَقصُرِ المَنافِعَ على الحورِ العينِ.

والوَصفُ في قَولِهِ: ﴿أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابًا﴾ يُمكِنُ أن يَكونَ تَجديدًا لِمَن كانَت في الدُّنيا ثَيِّبًا، فتُبعَثُ في الجَنَّةِ على صِفَةِ البِكرِ، وتُجعَلُ على أروَقِ ما تَتَزَيَّنُ بِهِ المَرأةُ مِن مَحاسِنِ الخُلُقِ والخَلقِ، وهَذا كُلُّهُ يُفيدُ شُمولًا وإكرامًا.

فالاختِلافُ في النَّظمِ تَوجيهٌ بَلاغيٌّ قَصدُهُ: التَّوسيعُ في المَعنَى،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 301.

والاشتمالُ على نِساءِ الجَنَّتَين: نِساءِ الدُّنيا المُتَّقيات، والحورِ العينِ المَخلوقاتِ لِلجَنَّةِ، لكنَّه في السّابقين المقرّبين نصًّا بدخولِ الحور العين، وفي أصحاب اليمين احتمالًا.

غرض المفعول المطلق ﴿إِنشَآءً﴾:

تـوكيـد معاني الأفـعـال وتـعـظـيـم مـقـاصـدهـا فخامةٌ في البيانِ وعلوٌّ في المقام

دلالَةُ المَفعولِ المُطلَقِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، هيَ دلالَةٌ على تَفخيمِ الفِعلِ وتَعظيمِ شَأنِهِ، وفي ذلِكَ إبرازٌ لِعِظَمِ الصّنعِ وإتقانِ الخَلقِ، فإنَّ المَفعولَ المُطلَقَ يَأتي في العَرَبيَّةِ لِتَوكيدِ الفِعلِ، أو بَيانِ النَّوعِ، أو بَيانِ العَدَدِ، وهوَ هنا لِلتَّفخيمِ والتَّفخيمُ تَوكيدٌ مَعَ تَعظيمٍ.

والوَجهُ في ذِكرِ المَصدَرِ - مَعَ أنَّهُ مَفهومٌ مِنَ الفِعلِ - إظهارُ عَمَليَّةِ الإنشاءِ على نَحوٍ غَيرِ مَألوفٍ في خَلقِ النِّساءِ، إذ لَيسَ هُنَّ من نِتاجِ الوِلادَةِ، بَل هُنَّ مُبتَدَآتٌ خَلقًا، مُنشَآتٌ إنشاءً خالِصًا بقُدرَةِ اللّٰه تَعالَى؛ فذِكرُ المَصدَرِ ﴿إِنشَآءً﴾ بَعدَ الفِعلِ ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ لَيسَ تكرارًا لفظيًّا، بَل هوَ إبرازٌ لِكَمالِ الفِعلِ والتَّنبيهِ على عَظَمَةِ ما وقَعَ، فكَأنَّهُ يقولُ: (خَلَقناهُنَّ خَلقًا عَجيبًا، إنشاءً لا يُشبِهُهُ إنشاءٌ).

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ﴾:

فاء التَّفريع في التَّعبير القرآنيِّ تأسيس للإنشاء وتـفـصـيـل للجمال

الفاءُ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ لِلتَّفريعِ، وهيَ تُفيدُ أنَّ ما بَعدَها ناتِجٌ عَمّا قَبلَها، كَأنَّهُ تَفصيلٌ لِما تَقَرَّرَ في قَولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾. فالدّلالَةُ الَّتي تُفيدُها هذِهِ الفاءُ هيَ دَلالَةُ التَّسَبُّبِ والتَّفريعِ، فإنَّ خَلقَهُنَّ خَلقًا بَديعًا مُبتَدَأً - وذلِكَ هوَ (الإنشاء) - قَد تَفَرَّعَ عَنهُ أن جُعِلنَ أبكارًا، عُرُبًا، أترابًا. وهَذا يُفيدُ أنَّ تِلكَ الصِّفاتِ لَم يَكُن وُجودُها على سَبيلِ الاتِّفاقِ، ولا على وجهٍ غَيرِ مَقصودٍ، بَل هيَ مُرادَةٌ بإرادَةِ الخالِقِ، جاءَت تَبَعًا لِذلِكَ الإنشاءِ العَجيبِ الَّذي بَدَأَهُ، وذلِكَ لِما فيهِ مِن تَكريمِ أصحابِ اليَمينِ وإسباغِ نِعمَةٍ خالِدَةٍ عَلَيهِم. فالمعنَى أنَّهُ لَم يُنشِئهُنَّ فقط، بَل أتبَعَ ذلِكَ الإنشاءَ الجَديدَ

تَخصيصًا لَهُنَّ بِتلكَ الصِّفاتِ الَّتي تَجعَلُهُنَّ غايَةً في الجَمالِ واللَّطافَةِ والمَحَبَّة.

نوع الجعل ودلالته:

معنى الصَّيرورة والتَّحوّل من الإنشاء العامِّ إلى الوصف الخاصِّ

الجعلُ في قولهِ تَعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ هو جعلٌ تحويليّ، لا تكوينيٌّ ابتدائيّ، ودلالتُهُ على هذا المعنى ناشئةٌ من السّياقِ الَّذي سَبَقَهُ، وهو قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾، إذ الإنشاءُ يُفيدُ الإيجادَ ابتداءً، وأمّا الجَعلُ بعدَه فمُفيدٌ لتَحوُّلٍ في الكيفيّةِ أو الوصفِ. فالمعنى: أنّ اللّهَ تعالى أنشأهنّ خلقًا جديدًا، ثمَّ جعلهنّ - بهذا الخلقِ - أبكارًا، عُرُبًا، أترابًا، فالجعلُ هنا يتضمّن تحوّلًا في الصِّفاتِ، لا مجرَّدَ الإيجادِ، فهو جعلٌ لما هو موجودٌ على صفةٍ أخرى مباينةٍ لما كان عليهِ. ويدلّ ذلك على: قصديّةِ الجمالِ والكمالِ في أوصافِهنّ، إذ لم تُجعلِ البكارةُ ولا سائرُ الأوصافِ على سبيلِ الطَّبعِ، بل كانت بصنعٍ وتدبيرٍ وتقديرٍ إلهيٍّ.

غرضُ التَّعبير بفعل الجعل:

إظهارُ نِعَمِ دار النّعيم من النّعيم المعجَّل

جاء التّعبير بفعل الجعلِ في قولهِ تَعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ لإظهارِ العنايةِ والاصطفاءِ والتَّخصيصِ، فإنّ لفظَ (جعل) كثيرًا ما يأتي في القرآنِ ليدلّ على التَّخصيصِ والتَّشريفِ، كما في قولِه: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ [المائدة: 20]، وقولِه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ [الأنبياء: 73]. إذ يُفيدُ هذا التَّعبيرُ في السّياقِ أيضًا تدرّجَ الإنعامِ، من الإنشاءِ ثمَّ الجعلِ ثمَّ التَّوصيفِ بالأبكارِ والعُرُبِ والأترابِ، ممّا يوقظُ الشُّعورَ بعِظَمِ النِّعمةِ وتوالي الرِّفعةِ. فهو جعلٌ لتحويلٍ مقيّدٍ بأوصافٍ مخصوصةٍ، دالٍّ على الإكرامِ، والاصطفاءِ، والتَّنعيمِ التّامِّ.

غرض الجمع للفظ ﴿أَبۡكَارًا﴾:

جُمِعَ لفظ ﴿أَبۡكَارًا﴾ أي: شيئًا واحدًا، وسنًّا واحدًا[1]، وغرضُ

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 387.

الإفادةُ بالتَّنوُّعِ والوفرةِ والتَّماثلِ في الحالِ الكريمةِ

الجمعِ الإفادةُ بالتَّنوُّعِ والوفرةِ والتَّماثلِ في الحالِ الكريمةِ، وذلك على ما جرى به الأسلوبُ القرآنيُّ في مقامِ الامتنانِ والإكرام، وقد خُصَّ الجمعُ هنا بدلالاتٍ دقيقةٍ، هي: الإشعارُ بتعدُّدِ الأفرادِ: فالجمعُ يدلُّ على أنّ الإنشاءَ والجعلَ لم يقع على واحدةٍ، بل على نساءٍ كثيراتٍ، فكلّ واحدةٍ منهنّ قد جُعلت بكرًا، وهذا أوضح في رعايةِ الوصف من وصفهنّ بلفظ المفرد (بكرًا)، وقد طابق الجمعُ قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ﴾، فجاء مفعوله ﴿أَبۡكَارًا﴾ على وزنه، لتتّسق البنيةُ. وإفادةُ التَّخصيص والتَّكريم: فإنّ الجمعَ هنا لا يُرادُ به الحصرُ العدديُّ فقط، بل البيانُ عن حالٍ معنويٍّ مكرَّرٍ مُرادٍ لذاته، وهو حالُ الطَّهارةِ والعفّةِ، فكلّ واحدةٍ منهنّ قد أُعيدت إلى أصلِ خلقتها على أتمِّ حالٍ من الكمالِ.

توجيه وصفهنَّ بالأبكار:

البكارةُ وصفٌ دائمٌ وحالٌ ملازمٌ لا يزول بكثرة المعاودة

جعل النِّساء ﴿أَبۡكَارًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ يأتي متّسقًا مع ما تقدّم من قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾، إذ الإشارة إلى (الإنشاء) تدلّ على إيجادٍ مستأنف، لكنّه لا يُقصر على الخلق الابتدائيّ فحسب، بل يتّسع ليشمل معنى الإعادة أيضًا، وبهذا يُفهم أنَّ بعض المَعنيّات بضمير ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ هنّ من نساء الدُّنيا، أُعيد إنشاؤهنّ إنشاءً جديدًا، على هيئة أكمل وأبهى.

يذكر البقاعيُّ في تفسيره قوله: "ولمّا كان للنَّفس أتمُّ التفاتٍ إلى الاختصاص، وكان الأصل في الأنثى المنشَأة أن تكون بكرًا، نبَّه على أنَّ المراد بكارةٌ لا تزول إلّا حال الوطء ثمَّ تعود، فكلَّما عاد إليها وجدها بكرًا، فقال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ﴾؛ أي الفرش الثَّيبات وغيرهنَّ بعظمتنا المحيطة بكلِّ شيء ﴿أَبۡكَارًا﴾؛ أي بكارة دائمة؛ لأنَّه لا تغيير في الجنَّة ولا نقص"[1].

ومن هنا كان وصف ﴿أَبۡكَارًا﴾ مقصودًا لذاته؛ إذ يدلّ على

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 410.

عودهنّ إلى حال البكارة، بعد أن كنّ في الدُّنيا غير ذلك، فصار هذا الوصف غايةً في الإكرام، إذ هو لا يعبّر فقط عن فُتوَّة الجسد، بل عن طهر الحالة، ونقاء المبدأ، ومحاسن البدايات.

ولمّا كان الجعل في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ متعلّقًا بتحويل حالة إلى حالة، جاء هذا التَّعبير مكمّلًا لمعنى الإعادة في (الإنشاء)، فاندمج الإنشاء والجعل في دلالة واحدة تُشير إلى تجديد الخلقة وتجديد الصِّفة، فجُعلن أبكارًا لا خلقًا فقط، بل صفةً أيضًا.

بلاغة التَّناسب بين وصف البكارة وما قبلها:

ناسب وصفُ النِّساء بالبكارة سياقَ الآيات السّابقة، فإنَّ هذا التَّعبير يوائم تمامًا طبيعة النَّعيم المذكور في الآيات، فهو نعيمٌ لا يُبقي أثرًا من تعب الدُّنيا، بل يُعيد الأشياء على أحسن ما كانت عليه، فكما جُعل الظِّلُّ ممدودًا، والماء مسكوبًا، والفاكهة غيرَ مقطوعة، كذلك جُعلت النِّساء أبكارًا؛ أي جُدّد لهنّ العهد بالبدايات النَّقيّة، الَّتي لا يشوبها نقص، ولا يعتريها فتور فأصبحت من لوازم النِّساء، كما أنَّ مدّ الظِّلّ وسكب الماء وبقاء الفاكهة كذلك مستمرٌّ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿عُرُبًا﴾:

أعربت مفردةُ العُرُب عن التّودُّد وكمال الأُنس، وبلاغة الإعراب عمّا في الأنفس

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿عُرُبًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابًا﴾، وهي على وزن (فُعُل) جمعًا لكلمة (عروب)، وهي مأخوذة من لفظ عرب، "قال الرّازيُّ في اللَّوامع: الفَطِنةُ بمراد الزَّوج كفطنة العَرَب"[1]، أو الَّتي تُعرب عمّا يجول في الأنفسِ ممّا يصعب على قريناتِها، وهي: المتحبّبة إلى زوجها[2]، والعاشقة له[3]. أو الَّتي لها كيفيَّة المتحبِّبة، وإن لم تقصد التَّحبُّب،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 410.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 387، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 82.

بأن تكثر الضَّحِك بمرأى الرَّجل أو المزاحَ أو اللّهو أو الخضوع في القول أو اللّثغ في الكلام بدون علَّة أو التَّغزُّل في الرَّجل والمساهلة في مجالسته والتَّدلُّل وإظهار معاكسة أميال الرَّجل لعِبًا لا جِدًّا[1]. وهي خلاف المرأة المتجهِّمة أو المتعجرفة أو البكماء أو الغليظة. وقد جاء التَّعبير بها دون غيرها من ألفاظ المحبَّة والإيناس؛ لأنَّها أشمل وأدقُّ في تصوير المرأة الَّتي بلغت الغاية في ملاطفة الزَّوج ومؤانسته ومباسطته، لا بجمال ظاهر فحسب، بل بحسن خلق وجاذبيَّة نفس، وصدق حسّ.

ومن فوائد استعمال هذه المفردة، أنَّه "لمّا كان ممّا جرت به العادةُ أنَّ البكر تتضرَّر من الزَّوج لما يلحقها من الوجع بإزالة البكارة، دلَّ على أنّه لا نكد هناك أصلًا بوجع ولا غيره بقوله: ﴿عُرُبًا﴾"[2].

دلالةُ استعمال مفردة ﴿أَتۡرَابٗا﴾:

تمام النِّعمة في التَّوافق الوجدانيّ والاتِّساق الخُلقيّ في الجنَّة

دلّ لفظ ﴿أَتۡرَابٗا﴾ وهي جمع ترب في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾، على أنَّ المرادَ بهنَّ المستويات في السِّنِّ بنات ثلاث وثلاثين، وأزواجهنّ أيضًا كذلك[3]. وهي المرأة الَّتي ساوى سنُّها سنَّ من تُضاف هي إليه من النِّساء، فالمعنى: أنَّهنّ جُعلن في سنٍّ متساوية لا تفاوت بينهنَّ، أي هنَّ في سنِّ الشَّباب المستوي فتكون محاسنهنَّ غير متفاوتة في جميع جهات الحُسن، وعلى هذا فنساء الجنَّة هنَّ الموصوفات بأنَّهنَّ (أتراب) بعضهنَّ لبعض[4]. ولمّا كان الاتِّفاق في السِّنِّ أدعى إلى المحبَّة ومزيد الألفة قال: ﴿أَتۡرَابٗا﴾ وهو مأخوذ من لَعِبِ الصِّبيان بالتُّراب[5]. وتأتي مفردة ﴿أَتۡرَابٗا﴾ في موضعٍ بالغ الدِّقَّة من جهة النَّظم والبلاغة، لتكون ختامًا لوصفٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 301.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 410.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 302.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 410.

ثلاثيّ تتجلّى فيه أبعاد الجمال الحسّيّ والمعنويّ في نساء الجنّة اللّائي أُعدِدن لأصحاب اليمين.

بلاغة المناسبة بين البكارة والعرب والتِّرْب:

الجمْعُ بين صفةِ الـذّات والـزّمان والـحـالِ، في ظـرفٍ متناهٍ في البهاء والجمال والكمال

اجتمعت ثلاثُ صفاتٍ في نعت نساء الجنَّة في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾، فدلّ ﴿أَبْكَارًا﴾ على صفةٍ دائمة ثابتة لا تزول، وهي صفة ذات في المرأة، ودلَّ لفظ ﴿عُرُبًا﴾ على صفةِ حالٍ مستحسنة تُكمِّل جمال صفة الذّات، ودلّ لفظ ﴿أَتْرَابًا﴾ على صفة عُمرٍ وزمان، وهو ما يدلّ على كمال المناسبة بينهنّ وبين أزواجهنّ من جهة السِّنّ والعمر، وهو أمرٌ بالغ الأثر في تحقيق الانسجام العاطفيّ والنَّفسيّ؛ فإنَّ تساوي الأزواج في السِّنّ يورث التَّآلف، ويزيل فوارق الزَّمان، ويجعل العلاقة أنسبَ وأقرب، فهذه الأوصاف الثَّلاثة نادت على حالةٍ غير موجودةٍ في الدُّنيا، وهي جامعة بين محاسن النِّساء في ظرفٍ متناهٍ في الجمالِ والكمال والتَّمام.

براعةُ ترتيب الأوصاف:

الطُّهر الخَلقيُّ فـالـحُـسـن الـخُـلُـقـيُّ فـالانـسـجـام الزَّمانيُّ الجامع لـلأوصـاف المستملحة المتضادّة

جاء ترتيب الأوصاف الثَّلاثة في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ في نسقٍ بالغ الحكمة، منسجم مع طبائع النَّفس ومراتب التَّذوُّق الجماليِّ، يُراعي تنقّل الذِّهن من الوصف الخَلقيِّ إلى الخُلُقيِّ إلى المقارن، ويُبرز تكامل الصّورة المقصودة في سياق النَّعيم المُعَدّ لأصحاب اليمين. فأوَّلُ ما يلفت النَّظر في هذا النَّظم، هو تقدُّم وصف ﴿أَبْكَارًا﴾، إذ هو الأصل الخَلقيّ، والدَّلالة على السَّلامة من سابقة معاشرة، وهو ما تميل إليه النَّفس وتَستَحسِنه الفطرة في صورةٍ من الكمال البَدنيّ. فـ(البِكر) في التَّصوُّر الإنسانيّ مُقَدّمة على غيرها لِما فيها من صفاء النَّشأة وخلوّ التَّجربة.

ثمَّ يأتي الوصف الثّاني ﴿عُرُبًا﴾، وهو وصفٌ خُلُقيّ نفسيّ، يدلّ على التَّودُّد والمحبّة والملاينة، وهو وصفٌ لا يتحقّق عادةً إلّا بامتلاك

الخبرة والتَّجربة، وهو جمعٌ بين المحاسن المتضادّة بإكرام ربّانيٍّ بديع، فاللّه أنشأهنّ على طبائع المحبّات المتودِّدات، دون حاجةٍ إلى تعلُّم أو تمرين، فذلك كمالٌ خُلقيٌّ إلى جانب الكمال الخَلقيِّ. ثمَّ خُتِم الوصف بـ ﴿أَتۡرَابٗا﴾، أي المتساويات في السِّنّ، في دلالةٍ على الانسجام وعدم التَّفاوت، وهو وصفٌ يُكمّل الجمالين السّابقين بجمالٍ آخر، جمال التَّناسق والتَّماثل، إذ تُشعر هذه المماثلة في السِّنّ بالرّاحة وعدم التَّفاوت الَّذي قد يولّد نفورًا أو تباينًا في التَّلقّي.

وهكذا، جاء ترتيب هذه الأوصاف من الأساس إلى الكمال إلى التَّناسق: من الخلق النَّقيّ البكر، إلى الطَّبع اللَّطيف المتودِّد، إلى المساواة المطمئنة في الأعمار. وهو جمعٌ لا يُتوَصَّل إليه في الدُّنيا؛ إذ لا تجتمع البكارة مع خبرة التَّودُّد، وندر أن يصاحب ذلك توافق الأعمار مع جماعة من النِّساء، فدلّ ذلك على خصوصيّة هذا النَّعيم، وأنّه مُعَدٌّ إعدادًا خاصًّا بقصد الإكرام الكامل والسُّرور التّامِّ لأصحاب اليمين.

نوع اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾:

جمعتِ اللّامُ بين دلالة الاستحقاق والتَّخصيص والتَّشريف في ختام سياق النَّعيم

فـ(اللّامُ) في قولِه تعالى: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ هي لامُ الاستحقاق والتَّخصيص، وهي متعلّقةٌ بمحذوفٍ دلّ عليه السّياق، والتَّقدير: ذلك النَّعيم لأصحاب اليمين، أو جعلناهنّ لأصحاب اليمين، فيكون في ذلك مزيدُ بيانٍ لقَصدِ الإعداد، أي إنَّ الإنشاءَ والجَعلَ إنَّما كانا لهم خالِصَين دونَ سواهم؛ فقد تنازعها ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ و﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ﴾، فالإنشاء والجعل كان لأصحاب اليمين؛ لإفادة توكيد الاعتناء بأصحاب اليمين المستفاد من المقام من قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾[1]. "ولمّا كان هذا الوصف البديع مقتضيًا لما يزدهي عنه النّفس؛ لأن يقال: لمن هؤلاء؟ وإن كان قد علم قبل ذلك، نبّه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 303.

عليه بقوله تعالى: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ ويجوز أن يتعلَّق بـ ﴿أَتۡرَابٗا﴾ نصًّا على أنّهُنَّ في أسنان أزواجهنَّ"[1]، كقولك: هذا تِرْبٌ لهذا أي: مُساوٍ له[2].

فجمعَت اللّام بذلك دلالاتٍ ثلاثًا: الاستحقاق، والتَّخصيص، والتَّشريف. وكلُّها تُفضي إلى تصويرٍ أدقّ لمعنى الاصطفاء الإلهيّ في الجزاء، وتُبرِز منزلةَ أصحاب اليمين في جنابِ الرَّحمة الرَّبّانيّة.

دلالة ذكر (أصحاب اليمين) بالإظهار:

توكيد هويَّة أصحاب اليمين بالإظهار تفخيم لمنزلتهم وإعلاء لمكانتهم

بعد أن تقدَّم ذكرُ أصحاب اليمين مرّتَين في صدر السّياق في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، ثمَّ طال الحديث في وصف ما أُعدّ لهم من النَّعيم، ناسب الإظهار مع جواز الإضمار، وذلك لنكتة جليلة، وتوجيه دقيق يليق بنظم القرآن الكريم. فهذا الإظهار بعد إمكان الإضمار يحمل دلالةً من أبرز دلالات التَّوكيد والتَّمكين، إذ يُعيد الاسم مقرونًا بالصِّفة الجليلة الَّتي تُشير إلى مقامهم ودرجتهم، فيُثبِّتها ويُؤكِّدها في النَّفس من جديد، ويُقرّع بها الأسماع كأنَّما يقول: هؤلاء، نعم هؤلاء أصحاب اليمين هم الَّذين خُصّوا بهذا النَّعيم دون غيرهم.

ثمَّ إنَّ إعادة الاسم على هذا الوجه تُفيد التَّفخيم والتَّشريف، كأنَّما أعيد الاسم لا لمجرَّد التَّذكير، ولكن ليُذكر على جهة الإعلاء والتَّنويه: فأين أصحاب اليمين؟ هؤلاء هم أصحاب اليمين. لهم ذلك كلّه!.

براعة التَّعريف بأصحاب اليمين في نهاية المقطع:

ختمُ النِّهايات بمطالع البدايات براعةٌ في سرد النِّعَم السّابغات

تتجلّى براعةُ النَّظم في هذا المقطعِ الكريمِ في الطَّريقةِ الَّتي خُتِمَ بها وصفُ نعيمِ أصحابِ اليمينِ، فقد سُرِدت مظاهرُ النَّعيمِ سردًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 410.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: 10/ 208.

متدرّجًا يأخذُ بالوجدانِ، من الأشجارِ الظَّليلةِ، والثِّمارِ الكثيرةِ، والماءِ المسكوب، والفرشِ المرفوعةِ، إلى من يسكُنُ تلك النِّعَمَ من نساءٍ أُنشِئنَ إنشاءً جديدًا، وجُعِلنَ أبكارًا، عُرُبًا أترابًا، ثمَّ جاءت الجملةُ الخاتمةُ: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، لتُعيدَ القارئَ إلى نقطةِ البدءِ، وتشدَّ عُقدَ البيانِ بعد أن انبسطَ، وتربطَ كلَّ تلك النِّعَمِ بمن أُعدَّت لهم، فيتحقّق بذلك التَّخصيصُ بعد الإبهامِ، ويتّضحُ الغرضُ بعد التَّمهيدِ.

توجيه ختم المقطع بتعريف أصحاب اليمين بخلاف مقطع السّابقين المقرّبين:

التَّمهيد بالنَّعيم والتَّشويق بالتّأخير دليلٌ على مكانةٍ عالية وتعلوها مكانة السّابقين

أُخِّر تعريفُ أصحاب اليمين إلى خاتمة مقطعهم في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ بعد تعداد نعيمهم، بخلاف ما جاء في شأن السّابقين الَّذين بُدئ بتعريفهم بقوله: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ وذلك يحمل دلالة بليغة تدور على أنَّ المقام في وصف أصحاب اليمين مقامُ ترغيبٍ وتفصيلٍ في مظاهر النَّعيم، لا مقام تعريف مباشر كما في حال السّابقين، إذ جاء النَّسق هنا أن يُشرَع أوَّلًا بذكر ألوان النَّعيم المتنوِّعة الَّتي حُفّوا بها، من الأشجار والثِّمار والأنهار والظِّلال والفرش والنِّساء، ممّا يملأ النَّفس شوقًا وتطلُّعًا، فيظلُّ السّامع معلّق الذِّهن يتساءل: من هؤلاء؟ حتَّى إذا اكتمل بيان النَّعيم قيل في نهاية المقطع: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ ثمَّ أُتبع ببيان كثرتهم: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، ليجيء التّعريف في موضعه الأكمل، بعد أن تمهَّد له الذّهن، وتشوّفت النّفس لمعرفة من استحقَّ هذا الفضل، فيقع الخبر موقع البشارة المؤكَّدة، بخلاف السّابقين المقرّبين، فقُدِّم ذكرهم، "وإنَّما أخَّر هذا عن ذكر ما لهم من النَّعيم للإشعار بأنَّ عزَّة هذا الصِّنف وقلَّته دون عزَّة صنف السّابقين، فالسّابقون أعزُّ، وهذه الدَّلالة من مستتبعات التَّراكيب المستفادة من ترتيب

نظم الكلام إفضاءً إلى الصِّنف الثّالث من الأزواج الثَّلاثة، وهم أصحاب المشأمة"[1].

بلاغة استعمال مفردة ﴿ثُلَّةٌ﴾:

اصطفاء الثّلّة من مجموع الأمم السّابقة ومن مجموع الأمّة المحمَّديَّة

وَهذا يَنسَجِمُ مع سياقِ امتِنانٍ وتَكريم، فحينَ يُقال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، يُفيدُ ذلك أنَّ أصحابَ اليمينِ طائفةٌ كثيرةٌ من الأوَّلينَ وطائفةٌ كثيرةٌ من الآخرينَ، وكُلٌّ واحِدةٍ مِنها جَماعةٌ مُختارةٌ مُصطفاةٌ، لا كَثرةً مُبتَذَلةً ولا ازدِحامًا عَشوائيًّا، بَل كَثرةً ذاتَ طابِعٍ انتِقائيٍّ. فجاءَ التَّعبيرُ بـ﴿ثُلَّةٌ﴾ ليُراعيَ الجانِبَين: العَدَدَ والاصطفاءَ، وهوَ ما لا تُؤدّيهِ (جَماعة) أو (فَريق) ونَحوُهما مِن الألفاظِ، فكانَت ﴿ثُلَّةٌ﴾ أنسَبَ اللَّفظِ في هذا السّياقِ البَليغ، فسُبحانَ مَن هذا كَلامُهُ.

نكتة تنكير لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾:

تعظيم الثّلّة وتفخيم أهلها بتحقيق موازنة بين جهتين

نُكتَةُ تَنكيرِ لَفظِ ﴿ثُلَّةٌ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ تَرجِعُ إلى قَصدِ التَّفخيم من جِهةٍ، وإفادةِ التَّنويع مِن جِهةٍ أُخرى، وذلك بأسلوبٍ بَليغٍ يَفتحُ بابَ التَّصوّرِ ويُحرّرُ الذِّهنَ مِنَ التَّحديدِ العدَديِّ أوِ الكَيفيِّ الّذي قد يوحي بِهِ التَّعريفُ.

فالتَّنكيرُ هُنا يُشعِرُ بكَثرةٍ غيرِ مَحصورةٍ، وجَماعةٍ عظيمةٍ غيرِ مُتوقَّعةٍ، لا تُقاسُ بمِقياسٍ مَحدودٍ، ولا تُدرَكُ حُدودُها إلّا بَعدَ التَّأمّلِ في وصفِ النَّعيمِ المُعَدِّ لها. والتَّنكيرُ في مِثلِ هذا المَقامِ يُكسِبُ الكلمةَ سِمةَ التَّعظيم، كأنَّما يُقالُ: (ثُلَّةٌ عظيمةٌ لا يُدرى قَدرُها)، دونَ أن تُقيَّدَ بمدى أو عددٍ مُعيَّن.

بلاغة موقع ﴿ثُلَّةٌ﴾ الإعرابيّ وتناسبه البيانيُّ:

في التَّعبيرِ القُرآنيِّ البَليغِ في قَولِهِ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٩

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 303 - 304.

الفائدة في الأخبار ومعرفة أصحاب اليمين تشوّقت له النُّفوس وتطلّعت إليه الأرواح

﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، جاءَت كَلِمَةُ ﴿ثُلَّةٌ﴾ خَبَرًا عن مُبتدَأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه (هُم)، أي: هُم ثُلَّةٌ مِن الأوَّلينَ وثُلَّةٌ مِن الآخِرينَ، والخَبَريَّةُ تُفيدُ تَمامَ بَيانِ أصحابِ اليَمينِ بَعدَ أن فُصِّلَ ما أُعِدَّ لَهُم مِن ألوانِ النَّعيمِ، فكَأنَّ كُلَّ ما تَقدَّمَ مِن ذِكرِ السِّدرِ المَخضودِ، والطَّلحِ المَنضودِ، والظِّلِّ المَمدودِ... إلخ، إنَّما هوَ تَشويقٌ وتَمهيدٌ، ثُمَّ جاءَ في خِتامِ ذلِكَ البَيانِ قَولُه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، فيَكونُ التَّعبيرُ جُملةً اسميَّةً خُتِمَ بها هذا المَقطعُ لِلإخبارِ عن أصحابِ هذا النَّعيمِ.

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقوله: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ للتّبعيض، فالثُّلّة هي بعض الأوَّلين، وبعض الآخرين لا كلّهم، وهذا البعض هو الأقلُّ من مجموع الأوَّلين، لكنَّه ثلّة باعتبارِ ما ثبت عليه وارتضاه.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

استغراق الزّمان السّابق لهذه الأمّة

أفاد تعريف لفظ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استغراق الجماعة المعهودة في الأمم السّابقة، وقَد أتى اللَّفظُ مُعَرَّفًا بـ(أل)؛ ليُشيرَ إلى فِئَةٍ مَعلومةٍ مَشهورةٍ بَينَ النّاسِ، وهم جميع الأمم السّابقة لهذه الأمَّة، فالتّعريف؛ لاستغراق جميع أفراد الأمم.

دلالة التّقابل بين ﴿ثُلَّةٌ﴾ و﴿وَثُلَّةٌ﴾:

تسويةٌ في الفضل، وتثبيتٌ للرَّجاء، وتساوٍ في العدد، وتطابق في النّعيم

مُقابَلَةُ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بـ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ جاءَت بأسلوبٍ موازَنٍ بَديعٍ يُشيرُ إلى التَّساوي في العَدَدِ والمكانَةِ، وفيهِ تَطييبٌ لِخاطِرِ المُتأخِّرينَ بأنَّهُم ليسوا أقَلَّ حظًّا مِنَ الأوَّلين، بَل إنَّ لَهُم نَصيبًا وافِرًا في جَنّاتِ النَّعيم، تَمامًا كما كانَ لِلأوَّلين، وقَدِ اختيرَت لَفظَةُ ﴿ثُلَّةٌ﴾ - وهي تَدُلُّ على جَماعَةٍ دونَ تَعيينِ عَدَدٍ - لِيَتَّسِقَ الطَّرفانِ مِن جِهةِ اللَّفظِ والدّلالَةِ، فكانَتِ المُوازَنَةُ بَينَهُما مِن حَيثُ الجِنسُ والعَدَدِ دالَّةً على المساواةِ.

وَمِن جِهَةٍ أُخرى، فإنَّ تَكرارَ اللَّفظِ ذاتِه في المُقابلَتَين دونَ تَغييرِه إلى مُرادِفٍ (كَجَماعَةٍ أو رَهطٍ أو نحوَ ذلك) يُرسِّخُ في الذِّهنِ وحدَةَ النِّعمَةِ وشُمولَها، ويُفيدُ أيضًا التَّوازُنَ العَدَديَّ والمعنويَّ، فيَتَحقَّقُ بذلكَ المَقصودُ من بَثِّ الطُّمَأنينَةِ إلى كُلِّ مؤمِنٍ بأنَّهُ لَيسَ بَعيدًا عَن مَنازِلِ الكَرامَةِ، وإن تَأخَّرَ زَمانُهُ، ما دامَ قد صَدَقَ الإيمانَ، واتَّبَعَ سبيلَ الدَّيّان.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

جاء تَعريفُ لَفظِ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ على نَمطِ ما سَبَقَ مِن تَعريفِ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ فهو لاستغراقِ جميع أفراد هذه الأمّة.

دلالة الطِّباق بين ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

استغراق الزّمان كلّه في الامتداد في ثواب أصحاب اليمين

طابق النّظم بَينَ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في هذا السّياقِ، ليَأتي على غايَةٍ مِنَ البَلاغَة في الكَشف عن سَعَة فضلِ اللّهِ، وامتداد رَحمَتِهِ في جِنانِهِ، فالطِّباقُ يُفيدُ الشُّمولَ ويَدُلُّ على احتواءِ الأجناس المُتناقِضَة، لَكِنَّها هُنا مُتشابِهَةٌ في كُلِّ شَيءٍ إلّا في أزمانِها الّتي قَدَّرَ اللّهُ لَها أن تَعيشَ فيها. ليُظهِرَ أنَّ نَعيمَ أصحابِ اليَمينِ لَيسَ حِكرًا على زَمَنٍ دونَ زَمَنٍ، ولا على سابِقَةٍ دونَ لاحِقَةٍ، بَل هو مَفتوحٌ لِكُلِّ مَنِ استَحَقَّهُ مِنَ الأُمَمِ الأولى ومِن هذِهِ الأُمَّةِ، مِن سالِفِ الدُّهورِ ومِن آخِرِها، ما داموا قدِ اجتَمَعوا على الإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

السَّكب والصَّبُّ:

السَّكب انسياب المصبوب بسلاسةٍ والصَّبُّ دفعة واحدة

السَّكبُ: هو الصَّبّ المتتابع المنتظم، لا على دفعاتٍ مفصولة، بل على وجه الاستمرار، ومنه قيل للفرسِ السَّكوب: إذا كان يُتابع الجريَ دون توقّف. والسَّكبُ بهذا المعنى يوحي بحالة دوام لطيف، ولهذا قيل في الجنّة: ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾، أي دائمٌ، مهيّأٌ للسَّكب في

كلّ آنٍ، لا ينقطع ولا يضطرب[1]. ففي قَولِه تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسۡكُوبٍ﴾، اختارَ القُرآنُ الكَريمُ لَفظًا دَقيقًا رَقيقًا يَحملُ في حُروفِهِ وجَرسِهِ وظِلالِهِ، صورَةَ الماءِ الجاري بلا انقطاعٍ، المُنهَمِرِ في سَلاسَةٍ ورِقَّةٍ، دونَ عُنفٍ ولا انصِبابٍ صاخِبٍ. ولَو تَأمَّلتَ هذا اللَّفظَ في ضَوءِ الفُروقِ الدَّقيقةِ بَينَ ألفاظِ السَّيلانِ والانصِبابِ، لَوَجَدتَ أنَّ لِكُلٍّ مِنها طَبيعَةً حِسّيَّةً ونَفسيَّةً مُختَلِفَةً، تُناسِبُ المَقامَ الَّذي تَرِدُ فيهِ.

أمّا الصَّبُّ: فيَدُلُّ على الإفراغِ المُفاجِئِ أوِ الدَّفعَةِ الواحِدَةِ، كَمَن يَصُبُّ السّائِلَ دَفعَةً في قالِبٍ أو إناءٍ، فهو أقرَبُ إلى القوَّةِ المُباغِتَةِ مِنَ الانسيابِ الهادِئِ، لِذا يُناسِبُ مَواطنَ الشِّدَّةِ والعَذابِ، كما في قَولِهِ تعالى: ﴿صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٨﴾ [الدُّخان: 48].

الإنشاء والخلق:

الخـلـق يـدلّ عـلى الصَّنـعة في الـتَّـقـديـر، والإنـشـاء يـدلّ عـلى الـنَّـماء أو الابتداء بلا مثالٍ

الإنشاءُ يَدُلُّ على الإحداثِ شيئًا فشيئًا، حالًا بعدَ حالٍ، مِن غيرِ احتذاءٍ على مثالٍ سابقٍ، ولهذا يُقال: نشأ الغُلامُ إذا نما وتدرّج في مراحلِ البُلوغِ والاكتمالِ، والنُّشوءُ اسمٌ للحالةِ لا للنَّتيجةِ. وفي هذا المعنى إشعارٌ بالنَّماء المصحوبِ بالرِّعايةِ والتَّوجيهِ والامتدادِ التَّدريجيِّ، بل قد يُرادُ به ابتداءُ الإيجادِ من غيرِ سببٍ مادّيٍّ ظاهرٍ، أي إنّهُ تَفجُّرُ الوجودِ من محضِ القُدرةِ الإلهيّةِ، لا من استعدادٍ سابقٍ ولا تفاعلٍ معروفٍ[2]. ولهذا وُظِّفَ في سورة الواقِعَة في قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾، لأنّ الحديث عن بعثٍ جديدٍ مباينٍ تمامًا للخلق الدُّنيويِّ، فهو تكوينٌ ابتدائيٌّ متقوّمٌ بذات القدرة الإلهيَّة، غير مسبوقٍ بمادَّةٍ ولا مولدٍ ولا طورٍ بيولوجيّ، وإنَّما هو إبداع مخصوص لحال مخصوصة، متعلّقة بأوصافٍ تليها: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾، فالإنشاءُ تمهيدٌ للتَّخصيص والتَّكريم، لا لمطلق الإيجاد.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/ 313.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/ 80.

أمّا الخَلقُ، فمأخوذٌ من التَّقدير، يُقال: خَلَقَ الأديمَ إذا قدّره على هيئةٍ مخصوصةٍ، وخَلَقَ الثَّوبَ إذا أبلاه، حتَّى لم يبقَ منه إلّا تقديرُه وهيئتُه. وتفرّعت منه ألفاظٌ شتّى، كلُّها ترجع إلى المفهوم المحوريِّ: التَّقدير المحسوب وفق نظامٍ أو صورةٍ سابقةٍ أو مناسبةٍ، ولهذا يُقال: المخلوق هو الَّذي قُدّر على مقدار معلومٍ[1].

فالخلقُ إذًا هو تقدير الشَّيءِ على نحوٍ مخصوصٍ، سواء أكان من مادَّةٍ سابقةٍ أم من عدمٍ، وسواء أكان ابتداعًا أم تحويلًا، لكنَّه يدلّ على خضوعِ المخلوق لنظامٍ وتصويرٍ وتحديدِ مقدارٍ، ولذلك نُعت الله تعالى بالخالق، أي المُقدِّر على وجه الإحكام، لا العشوائيّة أو الغلط، كما قال أهل اللُّغة: لا يُطلق اسم "الخالق" بحقٍّ على غير الله؛ لأنَّه وحده الَّذي يُقدّر على كمالٍ، لا تخالطه نقيصةٌ ولا عوجٌ في التَّقدير.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/ 313.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: 41 - 44]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مقابلةُ نعيمِ أصحابِ اليمينِ بعذابِ أصحابِ الجحيم

لمّا فصَّلتِ الآياتُ السّابقة نعيمَ أصحابِ اليمينِ، وما أُفيضَ عليهم فيه من الظِّلالِ الوارفةِ، والفواكهِ الدّانيةِ، والشَّرابِ اللَّذيذِ، وما ذُكِرَ من لذّاتِ الأجسادِ وأنسِ الأرواحِ؛ ناسب الانتقالُ إلى بيانِ الصِّنفِ الثّالثِ من أصنافِ النّاسِ يومَ القيامةِ، وهم أصحابُ الشِّمالِ، على وجهٍ يُبرِزُ به قِوامَ القسمةِ الثُّلاثيَّةِ الَّتي تقدَّمت في قولِه تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾، ثمَّ أعقبَ ذلكَ بوصفِ ما أُعِدَّ لهم من العذابِ، فجاءَ ذلك في مقابلةٍ بديعةٍ لما ذُكرَ لأهلِ الجنانِ من النَّعيم، فأُشيرَ إلى أنَّه بدلًا من الظِّلِّ المدودِ، لهم ظلٌّ من يحموم، أي: دخانٍ أسودَ خانقٍ لا روحَ فيه ولا نفَس، وبدلًا من الماءِ المسكوبِ، لهم سمومٌ وحرورٌ، وبدلًا من البرادِ والشرابِ اللَّذيذِ، حميمٌ يفورُ، وبدلًا من الكرامةِ والأنسِ، عذابٌ لا باردٌ ولا كريمٌ، أي: لا يُفضي إلى راحةٍ في البدنِ، ولا يلتقي فيه القلبُ برحمةٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَمُومٖ﴾: (السَّمومُ) في أصل اللُّغة مأخوذٌ من السَّمِّ، وهو النّافذ القاتل، إلّا أنَّ العربَ خصّوا به الرِّيحَ الحارَّةَ الَّتي تدخل في المسامِّ، وتتخلَّل الأجواف، لا سيَّما إذا كانت شديدة اللَّفح، لا تُرى، ولكن تُميت، قالوا: (ريحٌ سَمومٌ)؛ إذا كانت تقتل بنفْسها ولفحها دون أن تُشاهد نارُها، وهي ريحٌ يُقال: إنَّها تهبُّ في نصف النَّهار، في شدَّة القيظ، حارَّةٌ حَرَّ السَّمِّ، تدخل الجلد، وتنفذ إلى الأحشاء؛ ولهذا سُمّيت سَمومًا؛ لأنَّها تفعل فعلَ السُّمِّ في الجوف، وإن لم تكن مادَّةً محسوسةً[1].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سم).

2) ﴿وَحَمِيمٖ﴾: جذر الكلمة هو (حمّ)، حُمَّ الأمرُ: قُضيَ، وقدَّروا احتَمَمتُ الأمرَ: اهتَمَمتُ، قال: كأنَّه من اهتمام بحَميم وقَريب، والحميم: الماء الحارُّ وتقول: أحَمَّني الأمرُ[1]، و(الحَميم) هو الماء المحمومُ، أي: الَّذي جاوز حدود السُّخونة إلى أقصى درجات الإيلام والاحتراق، والحَميمُ: هو الماء الشَّديد الحرارة الَّذي إذا قُرِّب من الجلدِ؛ سلقه، وإذا دخل الجوف؛ قطَّع الأمعاء تمزيقًا، ولهذا عرَّفوه في كتب التَّفسير بأنَّه: ما بلغ من الحرارة غايتَها، فيُصَبُّ على رؤوس أهل النّار، فيذيب وجوههم وجلودهم.

3) ﴿يَحۡمُومٖ﴾: أسْوَدُ؛ أحمُّ ويحموم، وهو أحمُّ المُقْلَتَيْن، وحَمُمَ وَجْهُ الزّاني: سخم[2]، و(يحموم): لَفظٌ مُعَرَّفٌ في كُتُبِ اللُّغَةِ بأنَّهُ الدُّخانُ الأسودُ الكَثيفُ، أو السَّوادُ الشَّديدُ القاتِمُ، مَأخوذٌ مِنَ الجَذرِ (حمم)، الَّذي تَدورُ مَعانيهِ حَوْلَ السُّخونَةِ والاشتِعالِ والاحتِراقِ، فالحُمَمَةُ: ما بَقيَ مِنَ الجَمرِ؛ إذا خَمَدَ لَهيبُهُ، وبَقيَ رَمادُهُ الأسودُ، والحَميمُ: الماءُ الحارُّ، واليَحمومُ: الدُّخانُ الحالِكُ السَّواد، الَّذي تَرتَفِعُ مِنهُ الحَرارَةُ، ويَغيبُ فيهِ البَصرُ.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تصويرُ الشَّقاءِ الأبَديِّ في مآلِ أصحابِ الشِّمالِ

جاءَت هذه الآياتُ في سياقِ التَّفصيلِ لمصيرِ الفريقِ الثّالثِ من أصنافِ الخلقِ يومَ القيامةِ، وقد صُدِّرتِ الآيةُ الأولى بأسلوب التَّفخيم التَّهويليِّ، في قولهِ تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، ثمَّ أُتبِعَ ذلكَ ببيانِ حالِهم في جهنَّمَ، فهُم في ريحٍ حارَّةٍ خانقةٍ تلفحُ الوجوهَ، وفي حميم، وهو الماءُ الَّذي بلغَ غايةَ الغليانِ، يُسقى لهم عذابًا لا يُروى منهُ الظَّمأُ، بل يَزيدُ من شقاءِ البدنِ.

ثمَّ جاء التَّصويرُ بالمقابلة: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾، وهو دخانٌ شديدُ

---

(1) الخليل، العين: (حمّ).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حمّ).

السَّوادِ، من دخان جهنَّم، واليحموم: يفعول من الأحمِّ، وهو الأسود، والعرب تقول: أسود يحموم؛ إذا كان شديد السَّواد[1]، وقد خُتِمَ هذا التَّصويرُ الرَّهيبُ بقولِهِ تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾، في نفي كلِّ ما يُرجى من الظِّلِّ عادةً، فلا هو باردٌ تُستلذُّ فيهِ الإقامةُ، ولا هو كريمٌ تُؤنسُ فيه النَّفسُ، بل هو ظلٌّ يجلو تمامَ الشَّقاءِ، ويُكملُ صورةَ العذابِ حسًّا ومعنًى.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها:

عـطـفُ القـصَّـة على القـصَّـة في تـغـاير الحـالين وبيان المآلين

(الواو) في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ هي واو عطف القصَّة على القصَّة، تُفيدُ الانتِقالَ مِن مَشهَدٍ إلى مَشهَدٍ، ومِن مَقامٍ إلى مَقامٍ، فالسّياقُ السّابِقُ كانَ في مَعرِضِ الحَديثِ عن أصحابِ اليَمينِ وما أُعِدَّ لَهُم مِن نَعيمٍ مُقيمٍ، فجاءَ الانتِقالُ إلى طائِفَةٍ أُخرى، وهُم أصحابُ الشِّمالِ؛ ليَنتَقِلَ الأُسلوبُ مِن مَقامِ الوعدِ إلى مَقامِ الوعيدِ، ومِن صورَةِ النَّعيمِ إلى مَشهَدِ الجَحيمِ، والجهةُ الجامعةُ بينهم هي بيان مصير الفريقين، مع تغاير الحالين.

نكتة استعمال لفظ (أصحاب) دون (أهل):

مـلازمـةُ الـشُّـؤمِ الـسُّـلـوكـيِّ يـقـودُ إلــــى المـصـيـر المــشــؤوم في الآخرة

جاءَ التَّعبيرُ بلَفظِ (أصحاب) دونَ (أهل)، في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾؛ تَعبيرًا عن المَعنى المَقصودِ بما يَليقُ بمَقامِ التَّهويلِ والتَّمييزِ بَينَ مَصيرِ الفَريقَينِ، فلفظُ (أصحاب) يُشعِرُ بالمُلازَمَةِ والمُقارَنَةِ القَريبةِ الَّتي تَتَضَمَّنُ نَوعًا مِنَ الارتِباطِ النَّفسيِّ أوِ السُّلوكيِّ، فهؤلاءِ القَومِ اقتَرَنوا بالشِّمالِ اقترانًا ذاتيًّا، حَتّى صاروا (أصحابًا) لَهُ، لا مِن حَيثُ الجهةُ فحَسب، بَل مِن حَيثُ المقامُ والمصيرُ، وهو ما يَدُلُّ على أنَّهُم لَم يَكونوا مُجَرَّدَ

(1) الواحديّ، الوسيط: 4/ 236.

ساكِنينَ في جِهَةِ الهَلاكِ، بَل كانوا على صِفَةٍ استَحَقّوا بها أن يَكونوا مِن أصحابِها، وفي هذا التَّعبيرِ إشعارٌ بأنَّ اقترانَهُم بالشِّمالِ لَم يَكُن قَسرًا بَل نَتيجَةً لاختيارِهِم وسُلوكِهِم، فهوَ اقترانٌ مُكتَسَب، لا عارِض.

دلالة العدول عن لفظِ (المشأمة) إلى ﴿ٱلشِّمَالِ﴾:

العدولُ عن ذكرِ عِلّةِ العذابِ في الأولى إلى بيان اتّجاه العذاب في الأخرى

عدل النَّظم الكريم عن لفظ (المشأمة) الوارد في بداية السّورة، إلى لفظ ﴿ٱلشِّمَالِ﴾، في قَوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، وذلك أنَّ (المَشأمَة) مَصدَرٌ يَدُلُّ على الشُّؤم، فهيَ جِهَةٌ مَقرونَةٌ بسوءِ المَآلِ، وجاءَت في مَقامِ التَّعدادِ الإجماليِّ لأصنافِ النّاسِ في الآخرةِ: (السّابقونَ، وأصحابُ اليَمين، وأصحابُ المَشأمَة)، فجاءَ استِعمالُ اللَّفظِ المُشتَقِّ مِن الشُّؤم؛ ليُناسِبَ المَقامَ الكاشِفَ عنِ الهويَّةِ العامَّةِ لِكُلِّ فريقٍ، فلفظ (المشأمة) يُشيرُ إلى علَّة المصير، ولفظ ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ يُعيِّن اتّجاه المصير، فهو لِلدَّلالَةِ على الجانِبِ المَكانيِّ المَحض، فالمَقصود هو تَحقيقُ المُقابَلَةِ الحِسّيَّةِ والذِّهنيَّةِ بَينَ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ و﴿ٱلشِّمَالِ﴾، كما يُقابَلُ المَوقِعُ بالاتِّجاه، والكَفُّ بالكَفِّ؛ لِتَكتَمِلَ صورَةُ المُفارَقَة: فالَّذينَ كانوا أصحابَ اليَمينِ جَعَلَ اللّٰهُ لَهُم فُرُشًا مَرفوعَةً ونَعيمًا مُقيمًا، وأمَّا أصحابُ الشِّمالِ؛ فهُم في سَمومٍ وحَميم، وكَأنَّهُم قُبِضوا بكَفِّ الشِّمالِ، فأُلقيَ بهِم في النّار[1].

دلالة التَّعريف بالإضافة:

(أصحابُ الشِّمال) هويَّةٌ متحقِّقةٌ في بداياتها المشؤومة ومصيرِها المهول

قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ تَركيبٌ إضافيٌّ عُرِّفَ فيه كلا الطَّرفَين: (أصحاب) بالإضافَةِ إلى ﴿ٱلشِّمَالِ﴾، وهو تَعريفٌ مُزدوَجٌ يُنتِجُ دلالَةً مُنطبِعَةً في الذِّهنِ، لا تَترُكُ لِلمُخاطَبِ مَجالًا لِلغُموضِ أوِ التَّأويلِ، بَل تُحَدِّدُ المَقصودَ تَحديدًا قاطِعًا، وقَد جاءَ هذا التَّعريفُ؛ لِيُشعِرَ بأنَّ الحَديثَ لَيسَ عن طائِفَةٍ عارِضَةٍ أو مَجهولَةٍ، بَل عن فِئَةٍ مَعروفَةٍ، لَها صِفَةٌ مُلازِمَةٌ ومَقامٌ مُستَقِرٌّ، فهُم أصحابُ (جِهَةٍ)

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 389.

مَخصوصَةٍ، لا يَنتَسِبونَ إلَيها على وجهِ المَجازِ أوِ الظَّرفيَّةِ العابِرَةِ، بَل على وجهِ التَّحَقُّقِ والاستِحقاقِ.

فَفي التَّعبيرِ بـ(أصحابِ الشِّمالِ)، لا يُرادُ مُجرَّدَ التَّحديدِ المَكانيِّ أوِ الاتِّجاهيِّ، وإنَّما يُرادُ مِنهُ الإلصاقُ الوُجوديُّ والسُّلوكيُّ، أي: إنَّهم صاروا من ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ بمَنزِلَةٍ لا تَنفَصِل، كَأنَّ ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ قد صارَ هويَّةً مَعنويَّةً لَهُم، أو صورَةً تَعبيريَّةً عن حالِهِم في الميزانِ الإلهيِّ، فالتَّعريفُ بالإضافَةِ في هذا المَوضعِ يُفيدُ القَصرَ المَعنويَّ، أي: إنَّ هؤلاءِ هُمُ المُختَصّونَ بالشِّمالِ المَختومِ بالخُسرانِ، ولَيسَ ثَمَّةَ غَيرُهُم مِمَّن يَنطَبِقُ عَلَيهِ هذا المَصيرُ.

نكتة استعمال أداة ﴿مَآ﴾ مع العقلاء:

دلالَةُ الاستِفهامِ التَّحقيريِّ في مَقامِ التَّهويلِ القُرآنيِّ

أداة ﴿مَآ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ استِفهاميَّةٌ، وهيَ تُستعمَل في الأصلِ لِغيرِ العاقِلِ، فهي "تَقَعُ ما على ذَواتِ ما لا يَعقِلُ، وعلى صِفاتِ مَن يَعقِل"[1]، وهذا ما يُثيرُ في الذِّهنِ سُؤالًا بَلاغيًّا: لِمَ عَدَلَ البَيانُ الإلهيُّ عن استِعمالِ (مَن) الَّتي هي الأشهَرُ في الإشارَةِ إلى العُقلاءِ، إلى ﴿مَآ﴾ الَّتي تَقَعُ في مَوضِعِ الاستِفهامِ عن غيرِهِم؟ والجَوابُ: أنَّ هذا الاستِعمالَ جاءَ لأداءِ غَرَضٍ بَلاغيٍّ مَقصودٍ، لَهُ أثَرٌ في التَّقريعِ النَّفسيِّ، والتَّغريبِ الشُّعوريِّ، فأداةُ الاستِفهامِ (ما) تُستَخدَمُ حينَ يُرادُ التَّعجيبُ مِنَ الشَّأنِ، لا مِنَ الذّاتِ، أو حينَ يُرادُ الإزراءُ بالمَذكورِ، والتَّنكيرُ من حالِهِ ومَقامِهِ، كما يُقال: (ما هذا؟) حينَ لا يُرى في الشَّيءِ ما يَستَحِقُّ أن يُعَدَّ من جِنسِهِ المُعتادِ، فكانَ استِعمالُ ﴿مَآ﴾ هُنا لا لِكونِهِم غيرَ عُقلاءَ في ذَواتِهِم، بَل لأنَّ حالَهُم ومآلَهُم قد أخرَجَهُم عن مُقتَضَياتِ العَقلِ، وأسقَطَهُم مِن مَراتِبِ الإنسانيَّةِ المُهتَدِيَةِ، الَّتي بها يُشارُ إليهِم بـ(مَن)، فصاروا مَوصوفينَ بحالَةٍ مِنَ الانحِطاطِ والتَّردّي لا يُعبَّرُ عَنها إلّا بأداةٍ تُستَعمَلُ للمُتَعَجَّبِ مِن شَأنِهِ.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 120.

بلاغة الاستفهام وغرضه:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾؛ ليُضخِّمَ مِن شَأنِ أصحابِ الشِّمال، ويُعظِّمَ مِن فداحَةِ حالِهم، ويُشعِرَ بأنَّ أمرَهُم مِنَ الهَولِ بحَيثُ لا يُحيطُ بهِ وصفٌ، ولا يَسَعُهُ بَيانٌ، وهذا الأُسلوبُ لَهُ نَظائِرُهُ في القُرآنِ الكَريم، كما في قَولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾ [الحاقة: 1 - 2]، و﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢﴾ [القارعة: 1 - 2]؛ إذ يُؤتى بالاسمِ المُعادِ مَتبوعًا بأداةِ الاستِفهام؛ ليُستَدرَكَ المَعنى في ذِهنِ السّامِعِ لا بطَلَبِ الجَوابِ، بَل بتَهيِئَةِ الذِّهنِ لِما سَيأتي مِن تَوصيفٍ مُذهِلٍ، يَحمِلُ على الخَوفِ أو الإعظامِ أو الفَزَعِ.

> التَّهويلُ من واقِعِ أصحابِ الشِّمالِ والتَّشويقِ لما سيأتي في المقام

وَعَلى هذا، فإنَّ الغَرَضَ البَلاغيَّ مِنَ الاستِفهامِ في الآيةِ هو التَّهويلُ؛ إذ يُلقي على السّامِعِ ظِلًّا كَثيفًا مِنَ الرَّهبةِ، كَأنَّما قيل: (تَأهَّب لِما سَيُقالُ، فإنَّ ما سَتَسمَعُهُ ليس هَيِّنًا)، والتَّفخيمُ مِن شَأنِ العَذابِ، لا تَعظيمًا لأصحابِهِ، بَل تَهويلًا مِن مَآلِهِم، فكَأنَّهُم بَلَغوا مِنَ الشَّناعَةِ ما صارَ يُسألُ عَنهُم باستِفهامٍ يَدُلُّ على الفَجيعَةِ: (أيُّ حالٍ لَهُم؟ وأيُّ مَصيرٍ؟)، والتَّحفيزُ الذِّهنيُّ: ليُبقي ذِهنَ المُتلقّي مَشدودًا إلى المَشهَدِ القادِمِ، فيَتَلَقّى وصفَ السَّمومِ والحَميمِ والظِّلِّ مِنَ اليَحمومِ بكامِلِ التَّوجُّهِ والانفعالِ.

بلاغة مجيء ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ خبرًا:

في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، يَتَجلّى نَسَقٌ تعبيريٌّ بَليغٌ، يَقومُ على ما يُعرَفُ في عِلمِ البَلاغَةِ بالخَبَرِ الَّذي يُرادُ به الإنشاءُ، وهو مِن أساليبِ التَّوجيهِ البَلاغيِّ العاليَةِ؛ إذ يَأتي التَّركيبُ النَّحويُّ في صورَةِ الجُملَةِ الاسميَّةِ، والمَقصودُ مِنهُ لَيسَ مُجرَّدَ الإخبارِ، بَل إثارَةُ الانفعالِ، والتَّعجيبُ، والتَّهويلُ.

> للأخبارِ أغراضٌ تُصاغ بأساليب الإنشاء؛ لتجمع بين الفائدة والمقصد

فَقَد جاءَ قَولُه: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ في مَوضِعِ الخَبَرِ، بَعدَ المُبتَدأِ المُعادِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، ولَيسَ المُرادُ أن يُخبَرَ عَنهُم خَبَرًا

مَعرِفيًّا، بَل أن يُصاغَ الأُسلوبُ في صورَةٍ تَقريريَّةٍ ظاهِرَةٍ، وإنشائيَّةٍ باطِنَةٍ، يَكونُ فيها ظاهِرُ التَّركيبِ تَقريرًا، وباطِنُهُ إنكارًا أو تَهويلًا أو تَعظيمًا، وهذا اللَّونُ مِنَ التَّعبيرِ يُلبِسُ العِبارَةَ الواضِحَةَ ثَوبًا مِنَ الإثارةِ الشُّعوريَّةِ، فتَغدو الكَلِمَةُ ذاتُها مَوقِفًا نَفسيًّا.

نكتة حذف المسند إليه في قوله: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾:

تـهـويـلُ مصير المـجـرمـين وتبشيع صورةِ العذابِ بمباغتةٍ لـفـظـيَّة تـوجز المطلوب

حُذِف المسندُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾، والتَّقدير: (هُم في سَموم وحَميم)؛ حَذفًا مَقصودًا يُرادُ بِه تَعميقُ أثَرِ المُفاجَأةِ وتَصعيدُ التَّهويلِ؛ إذ يُلقى بالسّامِعِ مِن جُملَةِ التَّعجيبِ إلى مَشهَدِ العَذابِ دَفعَةً واحِدَةً مِن غَيرِ واسِطَةٍ لَفظيَّةٍ، فيَنهالُ عَلَيهِ الوَصفُ انهمالًا مُباشِرًا، فيَتَمَلَّكُ الحِسَّ قَبلَ أن يُمكِّنَ العَقلَ مِن تَرتيبِ المَعنى، وهذا أوَّلُ وُجوهِ الفَزَعِ، كما أنَّ حَذفَ المُسنَدِ إليَهِ يوحي بأنَّ هويَّةَ أصحابِ الشِّمالِ قدِ انطَمَسَت في أُتونِ العَذابِ، فلَم يَبقَ لَهُم مِن كيانٍ إلّا ما صاروا فيه، فكَأنَّهُم ذابوا في السَّمومِ والحَميمِ حَتّى لَم تَعُد تُميِّزُ ذَواتُهُم مِن مَصيرِهِم، وهذا أبلَغُ في التَّصويرِ وأشَدُّ في النِّكايةِ.

بلاغة استعمال حرف الظَّرفيَّة:

تَـصـويـرُ الاسـتِـغـراقِ الـحـسّيِّ والاخـتـنـاقِ الوُجوديِّ

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف الظَّرفيَّة، في قَولِه تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾؛ ليدلَّ على إحاطَةِ العَذابِ بأصحابِهِ مِن كُلِّ جانِبٍ، لا على مُجرَّدِ وُقوعِه؛ لأنَّ حرف الظَّرفيَّة يَدُلُّ على الإحاطَةِ، وهيَ لِلوِعاءِ[1]، وهيَ عِبارَةٌ تُصوِّرُهُم غارِقينَ مُحاطينَ مَغمورينَ بالعَذابِ، كما يُحاطُ الشَّيءُ بالمَكانِ الَّذي يُغشيه مِن فوقِهِ وتَحتِه وعن يَمينِه وشِمالِه، وهذا التَّصويرُ بالظَّرفيَّةِ المَكانيَّةِ يَقتَضي المُلازَمَةَ والاستِغراقَ، لا المُرورَ أو التَّجاوُزَ، وكَأنَّ السَّمومَ والحَميمَ أصبَحا لَهُم كالهَواءِ لِلحَيِّ، لا يُفارِق، أو كالبَيتِ الَّذي لا يُغادَر.

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 308، والمُبرِّد، المقتضب: 4/ 139.

فهُم في مزيجٍ حارقٍ من السَّمومِ الَّتي هي ريحٌ شَديدةُ الحَرِّ، والحَميمِ الَّذي هو ماءٌ بالِغُ الحَرارَةِ، فالجَمعُ بَينَهُما في ظَرفٍ واحِدٍ يَزيدُ مِن شِدَّةِ الصّورَةِ، فإذا أُضيفَ إلى ذلكَ أنَّ أصحابَ العَذابِ في هذا المَزيجِ، اتَّضَحَ أنَّهُم لَيسوا مُجرَّدَ مُتألِّمينَ، بَل ساكِنينَ فيهِ، لا مَفرَّ لَهُم مِنهُ، ويحسن مع ذلك التَّقابل مع أصحابِ اليَمينِ: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾، فكما أنَّ أولئِكَ في نَعيمٍ مُقيمٍ أحاطَ بهِم، وأقاموا فيهِ، فهؤلاءِ في عَذابٍ مُقيمٍ لا يَنفَكّونَ عنهُ.

توجيهُ تخصيص السَّموم والحميم بالذِّكر:

بَلاغَةُ التَّضادِّ المُؤتَلِف بين العذابِ الهوائيِّ والمائيِّ

خصَّ النَّظم الكريم السَّمومَ والحميم بالذِّكر، في قَولِهِ تعالى: ﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾ دونَ غَيرِهِما مِن صُنوفِ العَذابِ، ذلك أنَّ السَّموم هي الرّيحُ الشَّديدُ الحَرارَةِ الَّذي لا بَلَلَ مَعَهُ، وكَأنَّهُ مَأخوذٌ مِنَ السُّمِّ، وهو ما يُهلِكُ؛ إذ لاقى البَدَنَ، والحَميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحَرارَةِ(1)، فجمع اللَّفظان العذاب المائيَّ والهوائيَّ، وهو أكثر اتِّساقًا مع حرف الظَّرفيَّة، وأشدُّ تناسبًا مع المهاد التَّهويليِّ؛ وذلك ليَدُلَّ على أقصى ما تَبلُغُهُ قوَى العَذابِ الحِسّيِّ من فتكٍ وقَسوَةٍ، فاجتَمَعَ السَّمومُ والحميم تَمثيلًا لِأقسَى طَرَفَي الإحاطَةِ الحَراريَّةِ: الرّيحِ المُحرِقَةِ مِنَ الخارِجِ، والماءِ المَغليِّ مِنَ الدّاخِلِ.

فائدة ازدواج مفردتَي: ﴿سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾:

قوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾ يظهر فيه ازدواج المفردتين ويدلّ على أنَّ العذاب أُحكم على وجهيه: من جهة ما يُنفَذ إلى الداخل ﴿سَمُومٖ﴾، ومن جهة ما يُغرق الجسد إحاطةً ﴿حَمِيمٖ﴾ (حميم)؛ ليتجلّى الهلاكُ في صورتيه: الخفيَّة والظّاهرة.

العذاب الهوائيُّ أوَّل ما يُلامس الإنسان يتلوه العذاب المائيُّ

نكتة تقديم السَّموم على الحميم:

قُدِّم ذكر السَّموم على الحميم في قَولِهِ تعالى: ﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 304.

باعتبارِ مبدئيَّة المحسوسِ به، فبُدِئَ أوَّلًا بالسَّموم، وهوَ الرّيحُ الحارَّةُ النّافذَةُ في الجلدِ، المُؤلِمَةُ بطَبعِها من أوّلِ مَسِّها، تَأتي أوّلَ ما يواجِهُ الإنسانَ في العَذاب؛ لأنَّها تطرُقُ سَطحَ الجَسَدِ فورًا، وتُلقي عَليه ظِلالَ الهَلاكِ قَبلَ أن يَمسَّهُ أيُّ عَذابٍ داخِليٍّ، وكَأنَّها تُمثِّلُ المَرحَلَةَ الأولى مِن الإحاطَة: إحاطَةِ الجَوِّ، والجَوُّ هوَ أوَّلُ ما يُدرَكُ بالحِسِّ، وأمّا الحَميمُ، وهوَ الماءُ المَغليُّ، فلا يُصيبُ الجَسَدَ إلّا بَعدَ أن يَغشاهُ، ويَتَوَغَّلَ فيه، فهوَ عَذابٌ يَتلو الرّيحَ في التَّرتيبِ الحِسّيِّ؛ إذ يَكونُ أثَرُهُ مِن داخِلِ الجَسَدِ لا مِن ظاهِرِه، فناسَبَ أن يُقدَّمَ العَذابُ الَّذي يُباشِرُ الحِسَّ ظاهِرًا، ثُمَّ يُعقِبُهُ ما يُباشِرُهُ باطِنًا.

غرض تنكير لفظي ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾:

تهويلُ العذابِ في جهنَّم آتٍ من هولِها وإبهامِ حقيقتِها على التَّحقيق

جاءَ تَنكيرُ لَفظَي ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾؛ لِتَحقيقِ غَرَضٍ بَلاغيٍّ أصيلٍ هوَ تَعظيمُ العَذابِ وتَهويلُ أمرِه[1]، فالسَّمومُ والحَميمُ حينَ يُذكَرانِ نَكرتَينِ لا يُرادُ بهما مُجرَّدَ التَّنويعِ، بَل الإيحاءُ بأنَّ ما يُقاسونَهُ مِن حَرِّ الرّيحِ وغَليانِ السّائِلِ لَيسَ شَيئًا مَعهودًا ولا مَعروفًا، بَل هوَ عَذابٌ غَريبُ النَّوعِ، مُروِّعُ الوَصفِ، لا يُدرَكُ بالحِسِّ، ولا يُحيطُ بِهِ الخَيالُ، فهوَ مُطلَقٌ في شِدَّتِه، مَتروكٌ لِلذِّهنِ كَي يَتَخَيَّلَهُ على أبشَعِ صورَةٍ.

كما أنَّ التَّنكيرَ يُفيدُ التَّكثيرَ والتَّنَوُّعَ، أي: إنَّ السَّمومَ لَيسَت ريحًا واحِدَةً، والحَميمَ لَيسَ ماءً واحِدًا، بَل هيَ ضُروبٌ مُتعدِّدَةٌ مِنَ العَذابِ، تَتَقَلَّبُ عَلَيهِم، وتَتَجَدَّدُ، ممّا يَزيدُ مِن شِدَّةِ المَشهَدِ وقَسوَتِه، والكثرة آتيةٌ ممّا يُفيدُه التَّنكيرُ من إبهام، ويوهِمُ أنَّ العَذابَ لَيسَ في صورَةٍ واحِدَةٍ مَكرورَةٍ، بَل في صوَرٍ مُتَتابِعَةٍ لا تَمنَحُهُم سُكونًا ولا مَهرَبًا.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو، ص: 37.

بلاغة التَّناسب في ذكر مفردة (ظِلّ):

قَـلـبُ الـتَّـوقُّـعِ وإحكامُ مَشهَدِ العَذابِ

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة (ظلّ)، في قَولِه تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾؛ لِغَرَضٍ بَلاغيٍّ دَقيقٍ يُعزِّزُ مَشهَدَ الهَولِ، فالظِّلُّ في المُتعارَفِ مَأوًى مِنَ الحَرِّ ومَلجأٌ مِنَ الشِّدَّة، فذِكرُهُ في هذا السّياقِ - لا سيَّما بَعدَ السَّموم - يُعطي السّامِعَ بادِئَ الأمرِ فسحةً من الأملِ بوُجودِ منفَسٍ، ثُمَّ يُفاجَأُ بأنَّهُ ظِلٌّ مِن يَحموم، أي: مِن دُخانٍ أسوَدَ خانِقٍ شَديدِ السَّوادِ والحَرارَة، فيَتَحوَّلُ الظِّلُّ مِن رَمزٍ لِلرّاحَةِ إلى صورَةٍ مِن صوَرِ العَذابِ، وذلكَ مِنَ التَّهويلِ الَّذي ينكفئُ فيهِ التَّوقُّعُ على وجهِهِ.

غرض تنكير لفظ (ظِلّ):

ظِـــلالُ الـنّـــارِ مهولةٌ في شكلِها وأثـرِها وعظيمٌ عذابُها

جاءَ لفظُ (ظِلّ) نَكِرَةً؛ لإفادَةِ التَّهويلِ والتَّفخيم، فهوَ ظِلٌّ عَظيمُ الشَّأنِ في فظاعَتِهِ، غَيرُ مَعهودٍ في صِفَتِه، لا يُشبِهُ ظِلالَ الدُّنيا، كما أنَّ التَّنكيرَ يوحي بأنَّهُم وقَعوا في ظِلٍّ لا يُعَدُّ، ولا يوصَفُ، لا يُقاسُ بظِلٍّ آخَرَ، ولا يُرجى مِنهُ خَفضٌ ولا سَكينَةٌ، بَل هوَ ظِلٌّ خالِصٌ مِن جِنسِ العَذابِ، مَأخوذٌ مِن (اليَحموم) لا مِن الغَمام.

غرض إفراد لفظ (ظِلّ):

الـظِّـلُّ الـواحد يُحكِمُ ما يُحيطُ بـه، ويُـعـذِّبُ ما دونه

أُفرِد لفظُ (ظِلّ)؛ لإفادَةِ العُمومِ المُحيطِ، أي: إنَّهم في ظِلٍّ واحِدٍ شامِلٍ، لا فراغَ فيهِ، ولا تَنفيسَ، ولا مَوضِعَ لِلهُروبِ، فهوَ كالسَّقفِ الجاثِمِ على رُؤوسِهِم، أشَدُّ عَلَيهِم مِن لَفحِ الشَّمسِ نَفسِها، وهذا أبلَغُ في الإيحاءِ بشِدَّةِ المَأزِقِ وكَمالِ الإحاطَةِ بالعَذابِ، فاجتَمَعَ في هذا التَّركيبِ: الإفرادُ لِتَصويرِ الإطباقِ واللّامَهرَب، والتَّنكيرُ لِتَضخيمِ الفَجيعَةِ وغَرابَةِ المَوصوف، على نَحوٍ يَجعَلُ (الظِّلَّ) نَفسَهُ مَوضِعًا مِن مَواضِعِ النِّقمَة، لا الرَّحمَة، ويَستَكمِلُ بِهِ القُرآنُ مَشهَدًا مُحكَمًا مِنَ الإغلاقِ التّامِّ على أصحابِ الشِّمالِ، فلا ريحٌ تُنعِشُ، ولا ماءٌ يُبرِّدُ، ولا ظِلٌّ يُؤنِسُ، بَل كُلُّ ما حولَهُم عَذابٌ، وما ظَنّوهُ خِفَّةً إذا بِهِ شِدَّةٌ، وما رَجَوهُ مَأوًى؛ فإذا هوَ مَأتَمٌ.

قلبُ الأوهامِ الآتيةِ من الاغترار بالرَّحمة الإلهيَّة ودفع مظنَّة التَّخفيف بضدِّه

نوع ﴿مِّن﴾ وفائدتها:

حرف ﴿مِّن﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾ للبيان، يدُلُّ على بَيانِ جنسِ الظِّلِّ؛ إذِ الظِّلُّ هُنا أُريدَ بهِ نَفسُ اليَحموم، أي: الدُّخانُ الأسودُ البَهيمُ[1]، فهيَ لَيسَت لِلتَّبعيضِ ولا لِلابتِداءِ، بَل لِبَيانِ حَقيقَةِ ما مِنهُ تَكَوَّنَ هذا الظِّلُّ، أي: إنَّ الظِّلَّ لَيسَ مِن غَمامٍ أو شَجَرٍ أو ماءٍ، كما يُعهَدُ في مَظانِّ الرّاحَةِ، بَل هوَ من ﴿يَحۡمُومٖ﴾، أي: من دُخانٍ شَديدِ السَّوادِ، مُتَراكِمٍ قاتمٍ، وهوَ أدنَى ما يَكونُ إلى النّارِ في حَرارَتِه، وأقرَبُ ما يَكونُ إلى الخَنقِ في أثَرِه، فـ﴿مِّن﴾ تَكشِفُ مَعدِنَ الظِّلِّ وحَقيقَتَهُ، وتَنسِفُ التَّوهُّمَ بأنَّهُ ظِلٌّ يَبعَثُ على البُرودَةِ أوِ السَّكينَةِ، الآتي من الاغترارِ بالرَّحمةِ الإلهيَّة، وهذا الأُسلوبُ في استِعمالِ ﴿مِّن﴾؛ لِتَفصيلِ ما يُظَنُّ فيهِ التَّخفيفُ، ثُمَّ كَشفِهِ على ضِدِّه، يُحدِثُ في النَّفسِ أثَرَ الخَيبَةِ، فيُضاعِفُ الهَولَ.

اتِّساقُ وحشة الألفاظ مع وحشة المعاني المتعلِّقة بالدُّخان الأسود المظلم

بلاغة استعمال المفردة الفريدة ﴿يَحۡمُومٖ﴾ مادَّة وصيغة:

اليَحموم دُخانٌ أسوَد على وزنِ (يَفعول)، وهو مُشتَقٌّ مِن الحُمَم بوزنِ صُرَدٍ اسم لِلفَحم، والحُمَمَةُ: الفَحمَةُ، جاءَت زِنَةُ (يَفعول) فيهِ اسمًا مَلحوظًا فيهِ هذا الاشتقاقُ، ولَيسَ ينقاسُ[2]، واليحموم هو ظلٌّ من دخان جهنَّم أسود[3] بهيم[4].

وجاءَ استِعمالُ مُفرَدَةِ ﴿يَحۡمُومٖ﴾، في قَولِهِ تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾، اختيارًا بالِغَ الدِّقَّةِ، مَقصودًا في مادَّتِه وصيغَتِه، يَنهَضُ بوَظيفَةٍ تَصويريَّةٍ تَهويليَّةٍ تُتِمُّ مَشهَدَ العَذابِ بأقوَى ما تَسمَحُ بِهِ اللُّغَةُ من إيحاءٍ وظِلالٍ، فالمادَّةُ (حمم) تَدورُ حَولَ السَّوادِ والاشتِعالِ، وهيَ في أصلِها توحي بشَيءٍ يَجمَعُ بَينَ شِدَّةِ الحَرارَةِ وظُلمَةِ اللَّونِ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 304.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 304.

(3) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 643.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 82.

ولِذلِكَ قيلَ: (الحُمَمَة) هيَ القِطعَةُ المُحترِقَةُ السَّوداءُ، و(اليَحموم) هوَ الدُّخانُ الأسودُ الكَثيفُ المُلازِمُ لِلنّارِ المُتَأجِّجَةِ، فهوَ صورَةٌ مِن صوَرِ النّارِ، لا ضَوؤُها، بَل دُخانُها الخانِقُ.

وَهذا اللَّفظُ مِنَ الغَرابَةِ والشِّدَّةِ بحَيثُ لَم يَرِد في القُرآنِ إلّا في هذا المَوضِعِ، مِمّا يُضفي عَلَيهِ طابِعًا مِنَ الفَرادَةِ والتَّوَحُّشِ اللَّفظيِّ، وهو ما يَزيدُهُ رَهبَةً، ويَجعَلُ السّامِعَ يَتَوَقَّفُ عِندَهُ مَأخوذًا بغَرابَتِه، قَبلَ أن يُصدَمَ بدَلالَتِه، وهو مِن أساليبِ القُرآنِ في إشراكِ السَّمعِ والبَصَرِ والخَيالِ في تَلَقّي المَعنى.

نكتةُ التَّعبير بصيغة يفعول:

الصَّوتُ القرآنيُّ يُحاكي النَّفس، ويُحرِّك الحسَّ مع غياب المعنى عن الحدس

اختيرَتْ صيغَة (يَفعول)؛ لِما فيها مِنَ المُبالَغَةِ والثِّقَلِ، فاليَحمومُ لَيسَ مُجرَّدَ دُخانٍ، بَل دُخانٌ كَثيفٌ، مُظلِمٌ، دائِمٌ، فالصّيغَةُ تُعطي الكَلِمَةَ وزنًا صَوتيًّا يَتَناسَبُ مَعَ المَعنى النَّفسيِّ، فـ﴿يَحۡمُومٖ﴾ تُثقِلُ السَّمعَ، كَما يُثقِلُ الدُّخانُ النَّفسَ، فتَزدادُ الجُملَةُ وطأةً على الحِسِّ، ويَتَعَمَّقُ بها الإيحاءُ بالخَنقِ والانغِلاقِ؛ إذ لا هَواءَ، ولا نورَ، بَل ظِلٌّ مَصنوعٌ مِن دُخانٍ قاتِمٍ.

بلاغة التَّهكُّم في وصف الظِّلِّ باليحموم:

المُفارَقَةُ التَّهَكُّميَّةُ في التَّعبيرِ القُرآنيِّ مَدخَلٌ إلى البِنيَةِ الشُّعوريَّةِ في آياتِ العَذابِ

في قَولِهِ تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾، تَتَجلّى بَلاغَةُ التَّهَكُّمِ في أبلَغِ صوَرِها؛ إذ يُذكَرُ الظِّلُّ الَّذي هوَ في أصلِ مَعناهُ مَوضِعُ الرّاحَةِ والبَردِ والسَّكينَةِ في سياقِ العَذابِ، ثُمَّ يوصَفُ بأنَّهُ ﴿مِّن يَحۡمُومٖ﴾، أي: مِن دُخانٍ أسوَدَ كَثيفٍ خانِقٍ، فيَجتَمِعُ في التَّركيبِ بَينَ لَفظٍ يوحي بالرّاحَةِ، ووَصفٍ يَنقُضُ تِلكَ الرّاحَةَ مِن أصلِها، وهذا التَّناقُضُ الظّاهِريُّ يُحدِثُ تَهَكُّمًا لاذِعًا يُضاعِفُ مِن ألَمِ المَعنى ومَرارَتِه[1]، وهذا الأُسلوبُ التَّهَكُّميُّ يُلقي في نَفسِ السّامِعِ خَيبَةَ الأمَلِ، وانسِدادَ الرَّجاءِ، ومُفارَقَةَ التَّوَقُّعِ، وكُلُّ ذلكَ يَصُبُّ في تَعميقِ الرَّهبَةِ.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 304.

فائدةُ استعمال أسلوب النَّفي دون الإثبات:

توكيدُ التَّهكُّمِ بأصحاب الشِّمال وتعيين العذاب بمزيد البيان

قَولُه تعالى: ﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ "نَفْيٌ لِصِفَتَي الظِّلِّ عَنهُ، يُريدُ: أنَّهُ ظِلٌّ، ولَكِن لا كَسائِرِ الظِّلالِ، سَمّاهُ ظِلًّا، ثُمَّ نَفى عَنهُ بَردَ الظِّلِّ وروحَهُ، ونَفعَهُ لِمَن يَأوي إلَيهِ مِن أذى الحَرِّ، وذلكَ كَرَمُهُ؛ ليَمحَقَ ما في مَدلولِ الظِّلِّ مِنَ الاستِرواحِ إليهِ، والمَعنى أنَّهُ ظِلٌّ حارٌّ ضارٌّ إلّا أنَّ لِلنَّفيِ في نَحوِ هذا شَأنًا لَيسَ لِلإثباتِ، وفيهِ تَهَكُّمٌ بأصحابِ المَشأمَةِ، وأنَّهُم لا يَستَأهِلونَ الظِّلَّ البارِدَ الكَريمَ الَّذي هوَ لِأضدادِهِم في الجَنَّةِ"(1)، وفي النَّفي توكيدٌ لمعنى اليحموم المبيِّن لنوع الظِّلِّ.

فائدةُ العدولِ عن إثباتِ الحرِّ والمضرَّة إلى نفي البارد والكريم:

تذكيرُ السّامعين بالحرمان من أسباب الكرامة للحذر من الوقوع في الحرمان

في قَولِهِ تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ۝٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾، تَتَجلّى بَراعَةُ الجَمعِ بَينَ نَفيِ البارِدِ ونَفيِ الكَريمِ لِتَصويرِ عَذابٍ مُزدَوِجٍ يَجمَعُ بَينَ الإيلامِ الحِسّيِّ والإذلالِ المَعنويِّ، فجاءَ النَّفيُ الأوَّلُ: ﴿لَّا بَارِدٖ﴾؛ لِيَدُلَّ على انتِفاءِ ما يُرجى مِنَ الظِّلِّ في ذاتِه، وهو اللُّطفُ الحِسّيُّ، أي: التَّبريدُ والرّاحَةُ الجَسَديَّةُ، فيَكونَ ذلِكَ استِكمالًا لِمَشهَدِ الحَرِّ والاختِناقِ، وامتِدادًا طَبيعيًّا لِما سَبَقَهُ مِن وصفِ السَّمومِ والحَميمِ، "فَوُصِفَ ظِلُّ اليَحمومِ بوَصفٍ خاصٍّ، وهوَ انتِفاءُ البُرودَةِ عَنهُ، واتُّبِعَ بوَصفٍ عامٍّ، وهوَ انتِفاءُ كَرامَةِ الظِّلالِ عَنهُ، ففي الصِّفَةِ بنَفيِ مَحاسِنِ الظِّلالِ تَذكيرٌ لِلسّامِعينَ بما حُرِمَ مِنهُ أصحابُ الشِّمالِ عَسى أن يَحذَروا أسبابَ الوُقوعِ في الحِرمانِ، ولِإفادَةِ هذا التَّذكيرِ عُدِلَ عَن وصفِ الظِّلِّ بالحَرارَةِ والمَضَرَّةِ إلى وصفِه بنَفيِ البَردِ ونَفيِ الكَرمِ"(2).

بلاغة فنِّ التَّتميم في نفي الكرامة:

ظِلٌّ لا يُسكَنُ إلَيهِ؛ إذ يَتَلاشى لُطفُ الجَسَدِ وكَرامَةُ النَّفسِ

خُتِم قَوله تعالى: ﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾، بقوله: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 305.

على جِهَةِ التَّتميم البَلاغيِّ، وهو أُسلوبٌ يُقصَدُ بِه استيفاءُ المَعنى مِن جَميعِ جهاتِهِ، لا بإضافَةِ مَضمونٍ جَديدٍ مُستَقِلٍّ، بَل بإتمامِ الدَّلالَةِ وتَوكيدِها مِن جِهَةٍ أُخرى تَرفَعُ التَّوَهُّمَ، وتُعَمِّقُ الأثَرَ.

فَقَولُه: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ تَتميمٌ لِنَفي صِفَةِ المَديحِ فيه، وتَمحيقٌ لِما يَتَوَهَّمُ في الظِّلِّ مِنَ الاسترواحِ إلَيهِ عِندَ شِدَّةِ الحَرِّ، أو نَفي لِكَرامَةِ مَن يَستَروحُ إلَيه، ونُسِبَ إلَيهِ مَجازًا، والمُرادُ هُم، أي: يَستَظِلّونَ إلَيه، وهُم مُهانونَ، وقَد يُحتَمَلُ المَجلِسُ الرَّديءُ لِنيلِ الكَرامَةِ[1]، فأتى نَفي الكَرامَةِ لِمَنعِ تَوَهُّمِ هذا المَعنى، وهو نَفيٌ مَعنويٌّ راقٍ، لا يَرِدُ في الظّاهِرِ على الخاطِرِ عِندَ وصفِ الظِّلالِ، لَكِنَّهُ يَرِدُ في ميزانِ الذَّوقِ القُرآنيِّ؛ لأنَّ (الكَريم) عِندَ العَرَبِ يَشمَلُ مَعنى الرّاحَةِ، واللُّطفِ، والبَهاءِ، والقَبولِ النَّفسيِّ، فهو كُلُّ ما تُقبِلُ عَلَيهِ النَّفسُ، وتَطمَئِنُّ إلَيه، فجاءَ هذا اللَّفظُ مُتَمِّمًا لِوَصفِ العَذابِ؛ لِيُقالَ: إنَّ هذا الظِّلَّ، فوقَ كَونِهِ لا يُريحُ الجَسَدَ، فهوَ لا يُكرِمُ النَّفسَ، بَل يُهينُها، ويُثقِلُها، ويَفضَحُها.

وَهذا النَّفيُ في مَقامِ التَّتميمِ لا يُفهَمُ على أنَّهُ مُجرَّدُ إضافَةٍ، بَل هوَ تَوكيدٌ بالنَّفي المَعنويِّ بَعدَ النَّفي الحِسّيِّ، وهو مِمّا يُحدِثُ في نَفسِ السّامِعِ انطباعًا بكَمالِ الإحاطَةِ بالمَهانَةِ، وأنَّ هذا الظِّلَّ قد خَلا مِن كُلِّ خَصيصَةٍ يُرجى مِنها لُطفٌ أو نَجاةٌ، فلا هوَ بَردٌ لِلجَسَدِ، ولا هوَ كَرامَةٌ لِلنَّفسِ، فهوَ ظِلٌّ لا يُسكَنُ إليهِ، ولا يُطمأنُّ بهِ، بَل يُستَوحَشُ مِنهُ، ويُستَثقَلُ.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الحميم والحارُّ:

في قَولِهِ تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾، اختارَ القُرآنُ لَفظَ (الحَميم) دونَ (الحارّ)؛ تَنبيهًا على شِدَّةِ العَذابِ، لا مِن حَيثُ الحَرارَةُ وحدَها، بَل مِن حَيثُ طَبيعَةُ أثَرِها في الجَسَدِ والنَّفسِ، فلَفظَةُ (الحارّ)، وإن دَلَّت على ارتِفاعِ الحَرارَةِ، تَبقى في إطارٍ وصفيٍّ عامٍّ، قد يُقالُ في الشَّيءِ القابِلِ لِلتَّحَمُّلِ، أو في المُناخِ، أو في الطَّعامِ والشَّرابِ، ولا تَدُلُّ بالضَّرورَةِ على الإهلاكِ أو الإذابَةِ.

أمّا (الحَميم)؛ فهوَ الماءُ الحارُّ الَّذي بَلَغَ أقصى دَرَجاتِ الغَليانِ، و(الحُمَّة) وهيَ العَينُ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 85.

الحارَّةُ[1] الماء حَتّى صارَ مِن شِدَّةِ حَرارَتِه مُهلِكًا، يُقطِّعُ الأحشاءَ، ويُذيبُ الجِلدَ، ويُشوِّهُ الخِلقَةَ، وقَد صوِّرَ في مَواضِعَ مِنَ القُرآنِ بأنَّهُ يُصَبُّ على الرُّؤوسِ، ويُقَطِّعُ الأمعاءَ، ويَغلي في البُطونِ، فهوَ عَذابٌ سائِلٌ مَحضٌ، لا يُستَساغُ، ولا يُروى بهِ الظَّمأُ، بَل يَزيدُ الظَّمأ اشتِعالًا، والعَطَشَ احتِراقًا.

فالفَرقُ بَينَ (الحارّ) و(الحَميم)، هوَ الفَرقُ بَينَ حَرارَةٍ تُحتَمَلُ، وحَرارَةٍ تُستَعمَلُ لِلعَذابِ، بَينَ صِفَةٍ تُقالُ في الدُّنيا، ولَفظٍ اختَصَّهُ القُرآنُ بوَصفِ جَحيمِ الآخِرَةِ، لِما فيهِ مِنَ الرَّهبَةِ والشَّناعَةِ، وقوَّةِ التَّأثيرِ في الحِسِّ والخَيالِ، ومِن هُنا كانَ اختيارُ (الحَميم) في مَوضِعِ أصحابِ الشِّمالِ أبلَغَ في التَّهويلِ، وأدقَّ في الإيحاءِ بعَذابٍ يَتَغَلغَلُ، لا يُحتَمَلُ، ولا يُنقِذُ مِنهُ ظِلٌّ ولا نَسيمٌ.

(1) المُطرّزيّ، المُغرب، ص: 130.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ
ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٤٨﴾ [الوَاقِعَة: 45 - 48]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من وصف العذابِ إلى بيان سبب الاستحقاق

لمّا تناولتِ الآيات السّابقة وصفَ أصحاب الشِّمال وما أُعِدَّ لهم من ألوان العذاب؛ ناسب الانتقال من الوصف والرَّصف إلى بيان سبب استحقاقهم؛ لهذا العذاب فجاءت هذه الآيات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، أي: كانوا في الدُّنيا أهل ترفٍ وبذخٍ ألهتهم النِّعمة عن الشُّكر والطّاعة، ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: يُداومون على الذُّنوب العظام، وأعظمها الكفر والشِّرك، ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، أي: كانوا يُكذِّبون بالبعث، ويُجاهرون بالإنكار والاستهزاء، فجاءت هذه الآيات تعليلًا وبيانًا لعلَّة استحقاقهم الوعيد الَّذي ذُكِر قبلها، فهؤلاء الَّذين يُصوَّر عذابهم في النّار لم يُعذَّبوا ظلمًا، بل لأنَّهم كانوا في الدُّنيا مترفين غافلين، مصرّين على الكبائر، مكذِّبين بالبعث.

❁ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُتْرَفِينَ﴾: المُترَفُ مأخوذٌ من الفعل (أترفَ)، وهو مشتقٌّ من التَّرف، والتَّرفُ في اللُّغةِ: النِّعمةُ الواسعةُ المصحوبةُ بالبطر والغفلة، والتَّرَف: تنعيم الغذاء، والمُترَفُ: الموسَّعُ عليه عَيشُه، القليل فيه همُّه، والتُّرفةُ كلُّ ما تَرَّفتَ به نفسَكَ[1]، أو الطَّعام الطَّيِّب أو الشَّيء الطَّريف يخصُّ بها الرَّجل صاحبه[2]، والتُّرفة

(1) الخليل، العين: (ترف).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ترف).

النِّعمة، وصبيٌّ مترف إذا كان منعَّم البدن مدلَّلًا، والمترف الَّذي أبطرته النِّعمة، وسعة العيش[1].

2) ﴿يُصِرُّونَ﴾: (صرر) يدلُّ في مادَّته على الثَّبات والإحكام والشِّدَّة، ومنه الصُّرَّة؛ لأنَّها تُعقَد بإحكام، والصَّرُّ: شدَّة البرد، والصَّرَّة: شدَّة الصَّوت، وكلُّها تشترك في معنى الإلزام والتَّقييد والإحكام، والإصرارُ: التَّعقُّد في الذَّنب والتَّشدُّد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله من الصَّرِّ، أي: الشَّدُّ، والصُّرَّةُ: ما تعقد فيه الدَّراهم، والصِّرارُ: خرقة تشدُّ على أطباء النّاقة لئلّا ترضع[2]، قال تعالى: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ [آل عمران: 135]، ومن المجاز: أصرَّ على الذَّنب[3]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ [الجاثية: 8]، ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧﴾ [نوح: 7].

3) ﴿ٱلۡحِنثِ﴾: الحِنثُ: الذَّنبُ العظيم[4]، ومن المجاز: بَلَغَ الغُلام الحِنثَ[5]، أي: بَلَغَ مَبلغًا جَرَى عليه القَلَم في المعصيةِ والطّاعة، والحِنثُ إذا لم يبرَّ بيَمينه[6]، ويقال: تحنَّث؛ إذا تأثَّم، وتحرَّج[7]، وهو الذَّنب، استُعير من حنث الحانث الَّذي هو نقيض برِّه، وهو يتحنَّث من القبيح: يتحرَّج، ويتأثَّم، «وكان رسول الله ﷺ، يتحنَّث بحراء»، أي: يتعبَّد، ويتأثَّم[8].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

قَولُهُ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ مُعجِّبًا نَبيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِن أهلِ النّارِ، ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ الَّذينَ يُؤخَذُ بهِم ذاتَ الشِّمالِ مِن مَوقِفِ الحِسابِ إلى النّارِ، فهؤُلاءِ الَّذينَ حُكِمَ عَلَيهِم بعَذابِ السَّمومِ والحَميم، والظِّلِّ مِن يَحموم، ما استُحِقَّ لَهُم هذا المَصيرُ إلّا بما كانوا عَلَيهِ مِن أحوالٍ في الدُّنيا[9].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ترف).

(2) الراغب، المفردات: (صرر).

(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صرر).

(4) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم: (حنث).

(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حنث).

(6) الخليل، العين: (حنث).

(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.

(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حنث)، ورد الحديث في صحيح البخاريّ: (فكان يلحق بغار حِراء، فيتحنَّث فيه - قال: والتَّحنُّث التَّعبُّد - اللَّيالي ذوات العدد)، باب سورة العلق، رقم الحديث: (4670)، 4/ 1894.

(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 128.

أعظم أسباب الضَّلال التَّرف والاغترار بالحياة الدُّنيا والحماقة الجداليَّة

تُبيِّن الآيات الكريمةُ أسباب وقوع أصحاب الشِّمال في العذاب الشَّديد، وهو أنَّهم لَم يَكونوا مِن أهلِ الجَهلِ والبُؤس، بَل كانوا في نِعمَةٍ ورَغَدٍ، ولَم يَشكُروا، بَل كانوا قَبلَ ذَلِكَ مُترفينَ، أي: غارِقينَ في التَّنَعُّمِ المُفسِدِ، قَد ألهَتهُم الرَّفاهيَّةُ عَنِ التَّفَكُّرِ، وأعمَتهُم اللَّذَّةُ عَنِ النَّظَرِ في المَصيرِ، فلَم يَحمِلهُمُ النَّعيمُ على التَّواضُعِ، بَل ساقَهُم إلى الغُرورِ والبَطَرِ والاستخفافِ بأمرِ اللّهِ، ثُمَّ إنَّهُم لَم يَقفوا عِندَ حُدودِ التَّرَفِ والغَفلَةِ، بَل أصَرّوا على الحِنثِ العَظيم، أي: لازَموا الذَّنبَ الجَسيمَ، وثَبَتوا عَلَيهِ بلا تَوبَةٍ ولا حَياءٍ، والرّاجِحُ أنَّهُ الشِّركُ، أو التَّكذيبُ بالبَعثِ، وهو أكبَرُ الذُّنوبِ وأشَدُّها أثَرًا في الفَسادِ، و"أنَّهُم كانوا يَحلِفونَ أنَّهُم لا يُبعَثونَ، وكَذَبوا في ذَلِكَ، فهذا إصرارُهُم على الحِنثِ العَظيم"[1].

ثُمَّ يُفَسَّرُ هذا الحِنثُ، ويُعرَفُ وجهُ الإصرارِ عَلَيهِ مِن قَولِهِم: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾، فهُم يُنكِرونَ أشَدَّ الإنكارِ أن يُبعَثوا بَعدَ أن تُفنيَهُمُ الأرضُ، وتَذروهُمُ الرّياحُ، ويَتَساءَلونَ بسُخريةٍ: أوَآباؤُنا الأوَّلون؟ أي: كَيفَ يُعادُ مَن ماتَ مُنذُ القُرونِ، وفَنِيَ أثَرُهُ، وانطَمَسَت عِظامُهُ؟.

فَدَلَّ هذا كُلُّهُ على أنَّ أصحابَ الشِّمالِ لَم يُؤاخَذوا بمُجَرَّدِ ذَنبٍ، بَل بجَمعِهِم بَينَ تَرَفٍ يُغني عَنِ الحَقِّ، وإصرارٍ يُغلَقُ بهِ بابُ الرُّجوعِ، وتَكذيبٍ يَنقُضُ أصلَ الإيمانِ، ولأجلِ ذَلِكَ، استُحِقَّ لَهُم ما ذُكِرَ مِن ألوانِ العَذابِ، جَزاءً وِفاقًا، وعَدلًا لا يُخِلُّ، وحِكمَةً لا تُبطِل.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تعليلُ الوقوعِ في العذابِ سبيل مقنعٌ لدفع بلاءٍ مفجع

علَّة فصل الآية عن السّابق:

فُصِلَ قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ عمّا قبله،

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 236.

والفصل إمّا من باب كمال الاتِّصال، فتكون الجملة تحمل معنى البيان والتَّعليل لِما يَلقاهُ أصحابُ الشِّمالِ مِنَ العَذاب، فيَتَعيَّنُ أنَّ ما تَضمَّنَهُ هذا التَّعليلُ كانَ مِن أحوالِ كُفرِهِم، وأنَّهُ مِمّا لَهُ أثَرٌ في إلحاقِ العَذابِ بهِم بقَرينَةِ عَطفِ ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ﴾[1]، وإمّا من باب شبه كمال الاتِّصال، فبَعدَ أن اكتَمَلَت صورَةُ العَذابِ في مَشاهِدِها الحِسِّيَّةِ والنَّفسيَّة، جاءَ السُّؤالُ لماذا كان هذا العذابُ الشَّديد، ففُتِحَ المَجالُ لِبَيانِ العِلَّةِ الَّتي استَوجَبَت هذا العَذابَ، فجاءَت الآيَةُ التّاليَةُ استِئنافًا بَيانيًّا يَحمِلُ تَفسيرًا لِما سَبَقَ، لا تتِمَّةً لَهُ في البِنيَةِ التَّركيبيَّة.

والفَصلُ هُنا يُحقِّقُ أثرًا بَلاغيًّا بالِغًا؛ إذ يُشعِرُ السّامِعَ بانتِهاءِ مَشهَدِ العَذابِ وصفًا لَهُ كَواقِعٍ قائم، ثُمَّ يُستَأنَفُ بَعدَهُ ما يُشبِهُ التَّحقيقَ القَضائيَّ في مَنشَأ هذا المَصير، فجاءَتِ الجُملَةُ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ مُفتَتَحَةً بـ (إنَّ) الدّالَّةِ على التَّوكيد؛ لِتَعليلِ ما مَضى مِنَ العَذابِ الشَّديد، وكَأنَّما يُقالُ: هذا الَّذي وصفناهُ آنِفًا لَيسَ ظُلمًا، بَل هوَ جَزاءٌ مُحقٌّ، فجاءَ الفَصلُ؛ لِيَفصِلَ بَينَ المَشهَدِ المَرئيِّ والتَّحقيقِ التّاريخيِّ؛ تَحقيقًا لِمَقامِ العَدلِ الرَّبّانيِّ.

بلاغة التَّوكيد وفائدته:

دفْعُ أوهامِ النُّفوسِ باستعظامِ عظمةِ العذاب واستهجان شدَّة العقاب

جاءَ التَّوكيدُ بـ (إنَّ) في قَولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾؛ لإثباتِ حَقيقَةِ السَّبَبِ الَّذي استَحَقَّ بِهِ أصحابُ الشِّمالِ ما وُصِفَ مِنَ العَذابِ، فجاءَ هذا التَّوكيدُ؛ لِيُزيلَ ما قَد يُتَوَهَّمُ مِن مُبالَغَةٍ أو مَجازٍ أو ظُلمٍ في مَشهَدِ العَذابِ الشَّديدِ الَّذي سَبَقَهُ، وليُؤَكِّدَ أنَّ ما نالوهُ مِنَ السَّمومِ والحَميمِ وظِلِّ اليَحمومِ إنَّما كانَ عَنِ استِحقاقٍ بَيِّنٍ وجِنايَةٍ مُحَقَّقَةٍ لا جِدالَ فيها، فهو يُفيدُ دفع ما قد يجولُ في الأنفسِ من إنكارٍ لوقوعِ مثلِ هذا العذاب، فوظيفة التَّوكيد الإقناع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 305.

ودفع التَّعليل النَّفسيِّ، واستيفاء المَقام حَقَّهُ مِنَ الإقناعِ البَيانيِّ، لا سيَّما أنَّ السّياقَ كانَ قَد شَحَنَ السّامِعَ بمَشهَدٍ رَهيبٍ لِلعَذاب، قَد يُثيرُ في بَعضِ النُّفوسِ تَوَهُّمًا بأنَّهُ شَديدٌ، أو أنَّهُ يَفوقُ حَجمَ الذَّنب، فجاءَ هذا التَّوكيدُ ليَحسِمَ ذلِكَ، ويُقَرِّرَ أنَّ ما نالوهُ هوَ نَتيجَةٌ حَتميَّةٌ لِعِلَلٍ سابِقَةٍ ثابِتَةٍ.

دلالة ذكر فعل ﴿كَانُواْ﴾:

تـرفُ المجرمين مـنـهـجُ حـيـاةٍ أنـسـاهـم ذكـرَ الله تعالى

في قَولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾، جاءَ فِعلُ ﴿كَانُواْ﴾؛ ليُؤَدّي دلالَةَ الاستِمرارِ والدَّوام، لا لِمُجرَّدِ الحِكايةِ عَن فِعلٍ ماضٍ انقَضى، بَل لإفادَةِ أنَّ التَّرَفَ كانَ حالًا راسِخًا مُتَّصِلًا لا طارِئًا ولا عارِضًا، وهوَ ما يَزيدُ الجَريمَةَ فظاعَةً، ويُؤَكِّدُ استِحقاقَ العَذابِ الَّذي سَبَقَ وصفُهُ، فالقُرآنُ لا يَذكُرُ مُجرَّدَ الوُقوعِ، بَل يُحَمِّلُ الفِعلَ صِفَتَهُ الزَّمانيَّةَ؛ ليَكشِفَ عَنِ امتِدادِ الفَسادِ واستِمرارِهِ وتَجَذُّرِهِ في السُّلوك، حَتّى صارَ التَّرَفُ هَيئَةً مُلازِمَةً لا فلتَةً من فلتاتِ الزَّمَن، و"أنَّ التَّرَفَ في العَيشِ عَلَّقَ قُلوبَهُم بالدُّنيا، واطمَأنّوا بها، فكانَ ذلِكَ مُمليًا على خَواطِرِهِم إنكارَ الحَياةِ الآخِرَة، فيَكونُ المَرادُ التَّرَفَ الَّذي هذا الإنكارُ عارِضٌ لَهُ وشَديدُ المُلازَمَةِ لَهُ"[1]، فيَكونُ مَعنى الآيَةِ: إنَّهُم لَم يُعرَفوا في دُنياهم إلّا بهذِهِ السِّمَة، ولَم يَكُن تَرَفُهُم عارِضَ نِعمَةٍ، بَل مَقامًا دائِمًا أفسَدَ نُفوسَهُم، وأورَثَهُم الكِبرَ، وأنساهُمُ المَصيرَ، فكانَ العَذابُ امتِدادًا عَدلًا لِمُقَدِّماتٍ لَم تَنقَطِع.

بلاغةُ الإطنابِ بذكر قيد ﴿قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾:

تحريكُ السَّواكن وإحياء الموتى من كفرهم من قيم النَّظم المعجز

ذِكْرُ قيد ﴿قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ في قَوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ إطنابٌ، فإنَّ الحديث عن ترفِ أصحاب الشِّمال في الآخرة هو باعتبار ما كان في الدُّنيا، فيُسأل عن نكتة ذلك، والجواب: أنَّ الخطابَ موجَّهٌ لأهل الدُّنيا قبل موتِهم، ففيه تحذير بالغ، وتنبيه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 305.

عالٍ، أن ينتبهوا، وهم ما زالوا في القبليَّة الزَّمانيَّة الَّتي يستطيعون فيها الاستدراك، ويتراجعون عن غفلتِهم، فيؤمنوا، فذِكْرُ القيد لا يُرادُ به تحصيلُ معرفةٍ، بل يُراد به اكتسابُ فضيلةٍ، وتحقيق مصلحة، وهي المسارعة إلى الهداية، ونزع الغواية، وهذا ما يُفيده النَّظم في باب القيم الهدائيَّة، الَّتي من شأنها تحريك السّواكن، وإحياء الموتى من قبورِ الضَّلالات.

العذاب المُحيط بالكافرين مهولٌ شديدٌ وواقعٌ عتيد

تعيين مرجع اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشارَةُ في قَوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تَقدَّمَ ذِكرُهُ مِن أوصافِ العَذابِ في قَولِه: ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ بتَأويلِها بالمَذكورِ، أي: كانوا قَبلَ اليَومِ، وهوَ ما كانوا عَلَيهِ في الحَياةِ الدُّنيا[1]، فهوَ إشارَةٌ إلى المَذكورِ مِنَ العَذابِ الشَّديدِ المُحيطِ بأصحابِ الشِّمالِ، لا إلى أمرٍ بَعيدٍ أو مَجهولٍ، وإنَّما إلى ما هوَ حاضِرٌ في السّياقِ الذِّهنيِّ، مَوصولٌ بما قَبلَهُ مِن وصفِ المَصيرِ.

وَقَدِ اختيرَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بَدلًا مِن أن يُقالَ (قَبلَ العَذابِ) أو (قَبلَ دُخولِ النّارِ) أو (في الدُّنيا)؛ ليَتَحَقَّقَ غَرضانِ في آنٍ: أوَّلُهُما: رَبطُ المَصيرِ بالفِعلِ الماضي دونَ تَصريحٍ مُباشِرٍ يَفصِلُ السّياقَ، والثّاني: تَعظيمُ ما آلوا إلَيهِ بتَسميتِهِ باسمِ إشارَةٍ يُرادُ بِهِ التَّهويلُ.

مَقامُ التَّهويل بُعدُ رُتبَةٍ لا بُعدُ مَسافَة

بلاغة استعمال اسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

استُعمِلَ اسمُ الإشارة في قَوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾، وهو لِلمُفرَدِ المُذَكَّرِ تَلحَقُهُ كافُ الخِطابِ في آخِرِهِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، فيَكونُ لِلبَعيدِ[2]، وآثر النَّظم استعماله دون غيره - وهو موضوع للبُعدِ المَكانيِّ - ليُفيد بُعدَ المَنزِلَةِ في الهَولِ والفَظاعَةِ، أي: قَبلَ ذلك العَذابِ المَهولِ، وقَبلَ ذلكَ الحالِ المُروِّعِ كانوا مُترفين، فالتَّعبيرُ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 306.
(2) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 3/ 135.

يَحملُ في طَيِّهِ مَعنى التَّهويلِ مِنَ العاقِبَةِ الَّتي أحاطَت بهم، فجاءَتِ الإشارَةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لِتُضَخِّمَ ما سَبَقَ، وتَجعَلَهُ نُصبَ العَينِ في عِلّيَّتِهِ ورَبطِهِ بالمُقَدِّمَةِ الَّتي تَلَتهُ؛ إذ يَجوزُ أن يَنوبَ اسمُ الإشارَةِ الدّالُّ على البُعدِ عنِ الدّالِّ على القُربِ، فتَنوبَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ عن (هذا)؛ وذلكَ لِقَصدِ التَّحقيرِ أوِ التَّعظيم[1] وغيرِها من أغراضٍ يقتضيها السّياق.

توجيه تخصيص الترف بالذكر:

الـتَّرَفُ بَـوّابَـةُ الفَسادِ العَقديِّ والـسُّـلـوكيِّ وأصل كلِّ شرٍّ

خصَّ النَّظم الكريم التَّرفَ بالذِّكر في قَولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، دون ذكر الكُفرِ أوِ الشِّرك أوِ الكِبرِ، مَعَ كَونِها أُصولَ الخُسرانِ؛ تَنبيهًا بَليغًا على أَنَّ التَّرَفَ لَيسَ مُجرَّدَ حالٍ مَعيشيَّةٍ ناعِمَةٍ، بَل هوَ مَنشَأٌ خَطيرٌ لِلفَسادِ العَقديِّ والسُّلوكيِّ؛ إذا صاحَبَهُ الطُّغيانُ، فجاءَ ذِكرُهُ في صَدرِ عِلَلِ العَذابِ؛ ليَكونَ رَمزًا لِحالَةِ الاغترارِ بالدُّنيا، والانغماسِ في اللَّذَّةِ، والغَفلَةِ عَنِ المَصيرِ، وهيَ المُقَدِّماتُ الَّتي تَقودُ إلى الكُفرِ والعِنادِ والإصرارِ على الحِنثِ.

فَلَيسَ التَّرَفُ هُنا وصفًا مادّيًّا مَحضًا، بَل هوَ وصفٌ أخلاقيٌّ شامِلٌ، يَدُلُّ على التَّلَبُّسِ بحالَةٍ مِنَ البَطرِ، والتَّمَرُّدِ على الحَقِّ، والاستِعلاءِ بالنِّعمَةِ، ولِذَلِكَ قُدِّمَ في الذِّكرِ على الإصرارِ على الذَّنبِ، والتَّكذيبِ بالبَعثِ؛ لأَنَّهُ البَذرَةُ النَّفسيَّةُ الَّتي نَبَتَ عَنها كُلُّ ذَلِكَ، كَما أَنَّ في تَقديمِهِ إشارَةً إلى أَنَّ التَّرَفَ هوَ الحاضِنُ الطَّبيعيُّ لِرَفضِ القُيودِ الشَّرعيَّةِ والعَقائِديَّةِ، وأَنَّهُ لا يَجتَمِعُ مَعَ الخُضوعِ ولا مَعَ التَّذَكُّرِ، بَل يُؤَدّي إلى التَّكذيبِ، ويُغَذّي الغَفلَةَ، ويَقتُلُ التَّواضُعَ لله.

والمُترَف في الاصطلاح القرآنيِّ ليس وصفًا اقتصاديًّا، بل حالةٌ نفسيَّة واجتماعيَّة، يُلازمها التَّراخي عن التَّكاليف، والتَّمرُّد على حدود الله، والرِّضا بحياة اللَّهْو والمتعة، دون شكرٍ ولا محاسبةٍ،

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 32.

ولهذا ورد في القرآن ذمٌّ متكرِّرٌ للمُترَفين، كقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ [الإسراء: 16]، أي: أفسدوا، فاستحقّوا العقوبة.

نكتة التَّعبير بصيغة المفعول ﴿مُتۡرَفِينَ﴾:

توجيهُ الذَّمِّ لواقع التَّرفِ المرضيِّ لا إلى فاعلِه وموجدِه

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ جاءَ التَّعبيرُ بصيغَةِ المَفعولِ ﴿مُتۡرَفِينَ﴾ بَدلًا مِنَ الفاعِلِ (مُترِفين)، وهو "اسمُ مَفعولٍ مِن أترَفَهُ، أي: جَعَلَهُ ذا تُرْفَةٍ بضَمِّ التّاءِ وسُكونِ الرّاءِ، أي: نِعمَةٍ واسِعَةٍ، وبِناؤُهُ لِلمَجهولِ لِعَدمِ الإحاطَةِ بالفاعِلِ الحَقيقيِّ لِلإتراف، كَشَأنِ الأفعالِ الَّتي التُزِمَ فيها الإسنادُ المَجازيُّ العَقليُّ الَّذي لَيسَ لِمِثلِه حَقيقَةٌ عَقليَّةٌ، ولا يُقَدَّرُ بنَحوِ: أترَفَهُ اللّهُ؛ لأَنَّ العَرَبَ لَم يَكونوا يُقَدِّرونَ ذلِكَ، فهذا مِن بابِ: قالَ قائِلٌ، وسَألَ سائِلٌ"[1]، فيصحُّ أن يكون فاعلُ التَّرفِ هم أنفسُهم، والإنسانُ يُترِفُ نفسَه، أو أن يكون صادرًا عن آبائهم وأهليهم؛ بسبب التَّقصير والكسل والدَّعة والإهمال، وما يستصحب ذلك من ظلم النّاس في واقع الظّالمين المترَفين، فهم لا يلتفتون إلّا لأنفسِهم؛ فالمقصودُ توجيهُ الذَّمِّ لواقعِ التَّرف المرضيِّ، لا إلى سببه أو فاعله، فمن رَضيَ بأن يكونَ من المترَفين، فهو متغاضٍ عن الحقِّ، متجاوزٌ للحقوقِ والحدود.

دلالة عطف (كانوا) على السّابق:

تَصاعُدُ الخُسرانِ مِنَ التَّرَفِ إلى الإصرارِ إلى العَقيدَةِ المُنحرِفَة

في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ جاءَ العَطفُ بفعل (كانوا) على الجُملَةِ السّابِقَة: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾؛ لِبَيانِ أنَّ العَذابَ الَّذي حاقَ بأصحابِ الشِّمالِ لَم يَكُن بسَبَبِ التَّرَفِ وحدَهُ، بَل هوَ نَتيجَةٌ مَجموعَةٍ مِنَ الجَرائِمِ المُتَراكِبَة، فكانَ العَطفُ وسيلَةً لِعَرضِ تَسَلسُلِ الجِناياتِ وتَكامُلِ عِلَلِ الهَلاكِ؛ إذِ التَّرَفُ كانَ حالًا مُفسِدَةً، والإصرارُ على الحِنثِ كانَ سُلوكًا مُستَمِرًّا، والقَولُ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 306.

بإنكارِ البَعثِ كانَ اعتِقادًا راسِخًا، فجَمَعَتِ الآياتُ بَينَ فسادٍ في الحالِ، وإصرارٍ في العَمَلِ، وتَكذيبٍ في العَقيدَةِ.

والعَطفُ بـ﴿وَكَانُواْ﴾ دونَ الاكتِفاءِ بالفِعلِ المُجرَّدِ يُفيدُ التَّقويَةَ والتَّوكيدَ على دَوامِ الفِعلِ واستِمرارِهِ، ويُبرِزُ كُلَّ جِنايَةٍ في استِقلالِها ووَزنِها الخاصِّ في ميزانِ الذَّمِّ، فلا يُظَنُّ أنَّ التَّرَفَ كافٍ وحدَهُ في الهَلاكِ، بَل أُتبِعَ بما يُؤَكِّدُ أنَّهُم تمادَوا في الذَّنبِ عَن عَمدٍ، ورَفَضوا التَّوبَةَ، وأصَرّوا على المَعصيَةِ إصرارًا لا انفِكاكَ عَنهُ، فجاءَ العَطفُ لِتَصويرِ الفَسادِ في جَميعِ أبعادِهِ.

بلاغة استعمال مفردة الإصرار:

الإصـــرارُ على الـذَّنـبِ سلوكٌ قبيحٌ صادرٌ عن حـالـةٍ نفسيَّة وقلبٍ خبيث

جاء اختيارُ هذِهِ المُفرَدَةِ ﴿يُصِرُّونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، لِيَكشِفَ عن مَوقِفٍ داخِليٍّ عَنيدٍ، فالآيَةُ لا تُدينُ الفِعلَ وحدَهُ، بَل تُدينُ النَّفسَ الَّتي اعتادَتِ الخَطيئَةَ، وألِفَتِ التَّمادي فيها، وأغلَقَت أبوابَ التَّراجُعِ، وهذا ما يَجمَعُ بَينَ جُرمِ المَعصيَةِ وفَسادِ القلبِ، وهوَ ما يُناسِبُ وصفَ الذَّنبِ هُنا بـ﴿ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

غرض التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يُصِرُّونَ﴾:

تـصـويـرُ دوامِ الإصـــرارِ على الذَّنبِ وملازمته في الدُّنيا

جاءَ التَّعبيرُ بصيغَةِ المُضارِعِ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لِتَصويرِ ديمومَةِ الفِعلِ واستِمرارِهِ وتَجَدُّدِ صُدورِهِ وتكرارِه[1] في الدُّنيا، لا لِمُجرَّدِ الإخبارِ عن وُقوعٍ ماضٍ انقَضى، فاختيارُ المُضارِعِ في مَوضِعِ الحِكايَةِ عنِ الماضي يُرادُ بِهِ تَصويرُ الفِعلِ كَأنَّهُ حاضِرٌ أمامَ السّامِعِ، مُتَكرِّرٌ لا يَنقَطِعُ، مُتَلَبِّسٌ بِهِم على الدَّوامِ، وهذا مِن أبلَغِ أُسلوبِ التَّقريرِ والتَّقريعِ في البَيانِ القُرآنيِّ.

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡحِنثِ﴾:

جاء لفظ ﴿ٱلۡحِنثِ﴾ معرَّفًا في قَولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 307.

الحنثُ ذنبٌ معلومٌ وجرم مأفون وجناية حاضرةٌ في العقول

﴿ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لِلدَّلالَةِ على أنَّهُ لَيسَ حِنثًا مُطلَقًا أو عارِضًا، بَل هوَ حِنثٌ مَعلومٌ في الذِّهنِ، عَظيمٌ في الحَقيقَةِ، كَأنَّهُ بَلَغَ مِنَ الشَّناعَةِ والوُضوحِ ما لا يَحتاجُ مَعَهُ إلى مَزيدِ بَيانٍ، فالتَّعريفُ هُنا عهديٌّ ذهنيٌّ يُفيدُ أنَّ المُرادَ ذَنبٌ مَخصوصٌ، مَعروفٌ في مَقامِ الذَّمِّ، لا يُتَصَوَّرُ مَعَهُ اللَّبسُ، بَل هوَ الذَّنبُ الَّذي يُتَلَبَّسُ بِهِ عَن عِلمٍ وتَحدٍّ وإصرارٍ، حَتّى صارَ كالعَلَمِ بَينَ الذُّنوبِ، والحِنثُ في كَلامِ العَرَبِ العَدلُ الثَّقيلُ شُبِّهَ الإثمُ بِهِ[1]، ولَيسَ مِن أساليبِ القُرآنِ أن يُعَرِّفَ ذَنبًا إلّا إذا كانَ مِنَ الكِبرِ والظُّهورِ بحَيثُ لا يَخفى على مَن وُجِّهَ إلَيهِمُ التَّهديدُ أوِ التَّوبيخُ.

فائدة وصف ﴿ٱلۡحِنثِ﴾ بالعظيم:

الأوصافُ كاشفةٌ عن هولِ الجنايةِ وفظاعةِ الذُّنوبِ

وُصِفَ الحنث بالعظيم في قَوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، والعَظيمُ: القَويُّ في نَوعِهِ، والحِنثُ العَظيمُ هوَ الإشراكُ باللّهِ، وفي حَديثِ ابنِ مَسعودٍ أنَّهُ قالَ: "قُلتُ: يا رَسولَ اللّهِ أيُّ الذَّنبِ أعظَمُ؟ قالَ: «أن تَدعوَ لِلّهِ نِدًّا، وهوَ خَلَقَكَ»[2]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]"[3]، ووَصفُ ﴿ٱلۡحِنثِ﴾ بـ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ لَيسَ مُجرَّدَ تَقويَةٍ مَعنَويَّةٍ لِلتَّعبيرِ، بَل هوَ وصفٌ مَقصودٌ يُبرِزُ هَولَ الجِنايَةِ وشَناعَةَ ما أصَرّوا عَلَيهِ، فالوصفُ بالعظيم يُراد به تهويل الحنث مع الإيماء إلى أثره الجامع بين القوَّة والكبر في آنٍ، فلا أشدَّ من الشِّرك باللّه تعالى، بل هوَ أعظَمُ الحِنثِ؛ لأنَّهُ يَنقُضُ أصلَ الميثاقِ الَّذي فُطِرَ عَلَيهِ الإنسانُ، ويَهدِمُ رَكائِزَ الإيمانِ، وهوَ وصفٌ يُضَخِّمُ في نَظَرِ السّامِعِ شَأنَ ذلِكَ الذَّنبِ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ الإصرارَ لَم يَكُن على لَغوٍ أو ذَنبٍ هَيِّنٍ، بَل على أعظَمِ ما يُتَصَوَّرُ مِنَ الجُحودِ والعِصيانِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 82.

(2) أخرجه البخاري في الصحيح، حديث رقم: (6468)، ومسلم، في الصحيح، حديث رقم: (86).

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 306.

دلالة عطف ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ﴾:

تنوُّعُ الجناياتِ مِنَ التَّرَفِ إلى الجَهرِ بالتَّكذيبِ مجمعُ عللِ الهلاك

جاءَ عَطفُ قَولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ﴾ على ما قَبلَهُ؛ لِبيانِ تَراكُمِ وُجوهِ الجُحودِ، وتَعَدُّدِ مَنازِعِ الانحِرافِ عِندَ أصحابِ الشِّمالِ، فكُلُّ جُملَةٍ مَعطوفَةٍ بـ(كانوا) تُقَدَّمُ بوَصفِها سَبَبًا مُستَقِلًّا في استِحقاقِ العَذابِ، لا مُجرَّدَ تابِعٍ لِما قَبلَهُ، والعَطفُ بـ ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ﴾ هُنا تَحديدًا يُبرِزُ أنَّ القَولَ الَّذي جاءَ بَعدَ الإصرارِ لَيسَ قَولًا عَرضيًّا، بَل هوَ شكلٌ من أشكالِ الجدالِ المأزومِ، وعَقيدَةٌ راسِخَةٌ يُجاهِرونَ بها، ويَتَبَنَّونَها بمنزلة مَوقِفٍ فلسَفيٍّ واعٍ.

فَهُم لَم يَكتَفوا بالتَّرَفِ، ولا بالإصرارِ على المَعصيَةِ، بَل جَعَلوا التَّكذيبَ بالبَعثِ مَنطِقًا يُتَداوَلُ، ومادَّةً تُقالُ، وسُخريةً تَتَكَرَّرُ، فجاءَ العَطفُ؛ ليَدُلَّ على أنَّ الفَسادَ عِندَهُم لَم يَقِف عِندَ السُّلوكِ، بَل تَجاوَزَهُ إلى البَيانِ والتَّعبيرِ، أي: إلى المَنظومَةِ الفِكريَّةِ الَّتي تَتَبَنَّى الضَّلالَ، وتَنشُرُهُ، وهذا يُعَمِّقُ مَعنى التَّهديدِ، ويُظهِرُ أنَّ عَذابَهُم لَم يَكُن عن فِعلٍ خَفيٍّ، بَل عن جَهرٍ مُتَعَدٍّ، وقَولٍ فيهِ تَبَجُّحٌ واستِهزاءٌ.

نكتةُ تكرارِ فعلِ (كانوا):

تعدُّدُ جناياتِ أصحابِ الشِّمالِ مجموعةٌ في مصيرٍ واحد

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، جاء تكرار فعل (كانوا) ثلاث مرّاتٍ، وهو تكرارٌ يُقصَدُ به التَّوكيدُ والتَّفصيلُ والتَّصعيدُ والتَّرقّي في ذِكرِ الأسبابِ الَّتي استُحِقَّ بها العذابُ، فكلُّ جملةٍ من الجُمَلِ الثَّلاثِ جاءت بمدخولٍ مستقلٍّ من نوعٍ مختلفٍ عن سابقتها، ممّا يُفيدُ أنَّهم جَمَعوا بينَ ضروبٍ متعدِّدةٍ من الفسادِ: ترفًا مفسدًا للقلوب، وإصرارًا على الذُّنوب، وتكذيبًا للغُيوب.

فالتَّكرارُ هنا ليس حَشوًا ولا تكرارًا لفظيًّا فارغًا، بل هو أسلوبٌ

بلاغيٌّ يُعطي كُلَّ سببٍ ما يستحقُّه من التَّوكيدِ والانفصالِ في الذِّكر؛ ليُفهَمَ أنَّ كُلَّ واحدةٍ من هذه الصِّفاتِ كانت كافيةً بمفردِها للعقوبة، فكيف إذا اجتمعت؟ وبهذا التَّكرارِ تَظهرُ كثرةُ جرائمهم، واستقلالُ كلِّ واحدةٍ منها في الدَّلالةِ على فسادِ حالهم، وشدَّةِ استحقاقِهم للعذاب.

ويُفيدُ هذا التَّكرارُ تَوكيدَ استِقلالِ كُلِّ وصفٍ مِن أوصافِهم في عِلّيَّتِه لِلعَذاب، وتَثبيتَ دلالَةِ الاستِمرارِ في كُلِّ واحِدٍ مِنها، فكَأنَّ كُلَّ خَصلَةٍ مِن خِصالِهم كانَت كافِيَةً وحدَها لاستِحقاقِ العَذاب، فجاءَ التَّكرارُ؛ لِيُسَلِّطَ الضَّوءَ على كُلِّ واحِدَةٍ على حِدَةٍ، مِن غيرِ أن تُدمَجَ في غَيرِها، فاقتَضى أن يُعادَ التَّعبيرُ بالفِعلِ (كانوا)؛ لِيُفصَلَ هذا المَعنى، ويُفهَمَ أنَّ ما مارَسوهُ لَم يَكُن امتِدادًا لِحالَةِ التَّرَفِ فقَط، بَل مَوقِفًا قائِمًا بذاتِه، فيهِ عِنادٌ وإصرارٌ، وافتِئاتٌ قوليٌّ.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾:

تصويرُ جريانِ الشِّركِ على ألسنةِ أصحابِ الشِّمالِ على الدَّوامِ

جاءَ التَّعبيرُ بصيغَةِ المُضارِعِ في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ﴾ مَعَ أنَّ السّياقَ حديثٌ عمّا مضى؛ لِإبرازِ ديمومَةِ القَولِ واستِمرارِه في ماضيهم، وأنَّهم كانوا "يُبادِرونَ في ذلكَ بأنَّ القَولَ ذلكَ يَستلزِمُ أنَّهُم يَعتَقِدونَ استِحالَةَ البَعثِ"[1]، فالمُضارِعُ في هذا المَوضِعِ تَصويرٌ بَلاغيٌّ يُجَسِّدُ حالَهُم كَأنَّها ماثِلَةٌ أمامَ السّامِعِ، تُرى، وتُسمَعُ، لا مُجرَّدَ خَبَرٍ عن ماضٍ انقَضى، بَل عن عادَةٍ لَزِمتهم، ومَوقِفٍ كانوا يُكرِّرونَهُ في كُلِّ مَجلِسٍ ومَحفِلٍ، فالآيَةُ لا تُصوِّرُ قَولًا عابِرًا صَدَرَ مِنهُم، وانتَهى، بَل مَوقِفًا فِكريًّا وعَقديًّا يُكرَّرُ، ويُجاهِرُ بِه، ولِهذا اختيرَ لَهُ المُضارِعُ دونَ الماضي، وفي هذا الأُسلوبِ ضَربٌ مِنَ التَّهويلِ؛ إذ يوحي بأنَّ التَّكذيبَ بالبَعثِ كانَ جارِيًا على ألسِنَتِهم باستِمرارٍ، لا يَفتُرونَ عَنهُ، ولا يَتَحَفَّظونَ فيهِ، بَل يُعلِنونَهُ بصيغَةِ التَّحدّي والاستِهزاءِ، ولِذلكَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 307.

لَم يَقُل: (قالوا)، بَل قال: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ﴾، أي: دائِمًا وأبدًا؛ لأنَّ اجتماعَ لَفظَي الماضي والمُستَقبَلِ يَدُلُّ على الاستِمرارِ[1]، دونَ حياءٍ ولا تَردُّدٍ، مِمّا يُضاعِفُ جُرمَهُم، ويُبَيِّنُ شَناعَةَ مَوقِفِهِم، ويُعَجِّلُ باستِحقاقِهِم لِلعَذابِ.

غرض الاستفهام وبلاغته:

الاستِفهامُ في قَولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ "إنكاريٌّ كِنايةٌ عن الإحالَةِ والاستِبعادِ"[2]، فهو تَقريرٌ للتَّعجيبِ وتَوكيدٌ للإنكارِ[3]، وهذا من أساليبِ الاستِفهامِ البَلاغيَّةِ الَّتي يُرادُ بها نَفيُ الوُقوعِ، فالَّذينَ قالوا هذا القَولَ لَم يَكونوا مُتَرَدِّدينَ أو مُتَفكِّرينَ، وإنَّما كانوا مُستهزِئينَ، ساخرينَ، مُكابرينَ، يورِدونَ ما لا يُتَصوَّرُ وُقوعُهُ في نَظرِهِم؛ ليُبطِلوا بِهِ دَعوَى البَعثِ، فجاءَ التَّعبيرُ بالاستِفهامِ؛ ليَستبطِنَ إنكارَهُم، ويُجَسِّدَ جَهلَهُم وعِنادَهُم.

الاستِفهامُ الإنكاريُّ كنايةٌ عن الاستحالة والاستِبعادِ

نكتة استعمال (إذا):

تَكونُ (إذا) في الغالِبِ ظَرفًا لِلمُستَقبَلِ مُضمَّنَةً مَعنَى الشَّرطِ، وتَختَصُّ بالدُّخولِ على الجُملَةِ الفِعليَّةِ[4]، ونُكتَةُ استِعمالِ (إذا) في قَولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ أنَّها استُعمِلَت في مَوضِعٍ يُنتَظَرُ فيه - بِحَسَبِ السّياقِ - استِعمالُ (إذ)، وهي ظَرفٌ لِلمَضيِّ في أصلِ وضعِها[5]؛ لأنَّ الحَديثَ عن ماضٍ مُحقَّقِ الوُقوعِ، وهوَ الموتُ والتَّحلُّلُ إلى تُرابٍ وعِظامٍ، ولَكِن عَدَلَ التَّعبيرُ القُرآنيُّ عن (إذ) إلى (إذا)؛ ليَحكيَ قَولَهُم كما قالوهُ، ويُصوِّرَ فِكرَهُم كما تَشوَّشَ؛ لأنَّهُم حينَ يُنكِرونَ البَعثَ، يُمثِّلونَ وُقوعَهُ بَعدَ الموتِ، وكأنَّهُ

مــزجُ الأدوات في النَّظم يُنتج مــعــانيَ غيرَ متوقَّعة ودلالات مستبدعة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 411.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 307.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 125.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 92.
(5) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 177.

أمرٌ سَيأتي في المُستَقبَلِ بَعدَ حالِ الفَناءِ، فجَعلوا هذا الحالَ شَرطًا مُتوقَّعًا أو مُفتَرَضًا، لا زَمَنًا مَضى، فجاءَ التَّعبيرُ بـ(إذا) موافِقًا لما يَجري على ألسِنَتِهم من تَصوُّرٍ مَغلوطٍ، ومقاصِدَ استِبعاديَّةٍ تَهَكُّميَّة.

واستِعمالُ (إذا) هنا - وهيَ ظَرفٌ لما يُستَقبَلُ مِنَ الزَّمانِ - يَحمِلُ في طَيّاتِهِ تَهَكُّمًا مُستَترًا مِنهُم، فهُم يَستَحضِرونَ صورَةَ البَعثِ كأمرٍ مُستَقبَليٍّ مُستَحيلٍ في نَظرِهِم، وكَأنَّهُم يَقولونَ: أفي وقتٍ نَكونُ فيه تُرابًا وعِظامًا يُتَخَيَّلُ أن يُعادَ لَنا وُجودٌ؟ فـ(إذا) لَيسَت هنا مُجرَّدَ ظَرفِ زَمانٍ، بَل وسيلَة بَلاغيَّة تُجَسِّدُ استِبعادَهُم الوُقوعَ، وتُضفي على استِفهامِهِم لَونًا مِنَ السُّخريةِ والاستِهزاءِ، وكَأنَّ البَعثَ عِندَهُم لو فُرِضَ زَمنُهُ؛ فهوَ مُمتَنِعٌ في ذاتِه.

بلاغة استعمال مفردة الموت دون الوفاة:

لفظُ الموتِ دالٌّ على توقُّفِ الحياةِ في الدُّنيا وانقطاعِ الأعمالِ

استعمالُ لَفظِ الموت دونَ الوفاة في قَولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا﴾ تعودُ إلى ما في مُفرَدةِ الموت من تَصويرٍ لِلفَناءِ التّامِّ، والانقِطاعِ الكُلّيِّ عن مَظاهِرِ الحَياةِ، وما يَرتبِطُ بِهِ مِنَ التَّحلُّلِ والبِلى والاضمِحلالِ، وهوَ المَعنَى المَقصودُ هنا؛ إذ هُم يُنكِرونَ البَعثَ، ويَستَبعِدونَهُ؛ لأنَّهُم يَتَصوَّرونَهُ في حالٍ من عَدمِ الكيانِ، وانفِصالِ الرّوحِ عنِ الجَسَدِ إلى حَدِّ الفَناءِ، لا مُجرَّدِ انتقالٍ أو قَبضِ روحٍ، وهوَ ما تَدُلُّ عليهِ الوفاة، بالإضافةِ إلى أنَّ لفظَ الوفاة مرتبطٌ بتوفية الأرزاق والآجال من اللّٰه تعالى في الحياة الدُّنيا، وهو ما لا يعتقده أولئك المأفونون. فالموتُ لَفظٌ أجلَدُ وأصرحُ في تَصويرِ النِّهايةِ الحِسّيَّةِ الَّتي أرادوا استِحضارَها في مَعرِضِ التَّكذيبِ، أمّا الوَفاةُ؛ ففيها إيحاءٌ بالتَّلطُّفِ، وبِبَقاءِ الرّوحِ على نَحوٍ ما، ولذلك فلفظ الوفاة أنسَبُ بمَقامِ الرَّحمةِ الإلهيَّةِ والوَعدِ، لا بمَقامِ الجُحودِ والتَّكذيبِ.

دلالة إسناد الموت للنَّفس:

سخرية المكذِّبين بالحقِّ مشوبةٌ بالثِّقة المبنيَّة على التَّلاعب بالحقائق

إسنادُ الموتِ إلى ضميرِ المتكلِّمِ في قَولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾، يُظهِرُ المُتكلِّمَ، وكَأنَّهُ يَملِكُ تَصوُّرًا واضِحًا لِحالِهِ بَعدَ الموتِ، ويَتَبَنَّى القَولَ بنَفسِهِ، لا أنَّهُ مَنسوبٌ إلَيهِ على سَبيلِ الغَفلَةِ أوِ التَّقديرِ، ففيهِ تَوكيدٌ لِواقِعِ الموتِ في تَصوُّرِهِم هُم أنفُسِهِم، فهُم لَم يَستَنكِفوا مِنَ الاعتِرافِ بحُصولِ الموتِ، بَل أتوا أمرًا عجبًا، فجَعلوهُ مُنطَلَقًا لإنكارِ البَعثِ، فالإسنادُ جاءَ تَوكيدًا لِهذا التَّسليمِ من طَرَفِهِم؛ لِيُبنى عليهِ استِبعادُهُم، فالإسنادُ يُشدِّدُ نَغمَةَ الاستِبعادِ والإنكارِ، ويُصوِّرُ البَعثَ كَأمرٍ يُعارِضُ المَنطِقَ في تَصوُّرِهِم، وكَأنَّهُ رَدٌّ ساخِرٌ على دَعوَةِ البَعثِ، مِن قَومٍ يَتَعَمَّدونَ إظهارَ الموتِ بأقصى صوَرِهِ، ثُمَّ يُثبِتونَهُ لأنفُسِهِم؛ لِيَبنوا عَلَيهِ سُخريَّتَهُم من إمكانِ العَودَةِ بَعدَه.

فائدة استعمال (كنّا) دون رديفاتها:

دَلالَةُ السُّكونِ النِّهائيِّ وانقِطاعِ الحَياة والاستِسلامِ لِلمُعتَقَدِ الفاسِدِ

جاءَ استِعمالُ الفِعلِ (كُنَّا) في قَولِهِم: ﴿وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ دونَ استِعمالِ ما يُرادِفُهُ مِن نَحوِ: (صِرنا) أو (تَحوَّلنا) أو (أصبحنا)؛ لِما في لَفظِ (كُنّا) مِن دِقَّةٍ في التَّعبيرِ عن زَوالِ الوُجودِ وانعِدامِ الهَيئَةِ الحَيَّةِ مِن غيرِ أن يُستَعمَلَ فيهِ لَفظٌ صَريحٌ بالتَّحوُّلِ أوِ الانتِقالِ، بَل يُعبِّرُ عنِ الواقِعِ النِّهائيِّ لِحالِهِم بَعدَ الموت.

فـ(كُنّا) في هذا الموضِعِ تَدُلُّ على الثُّبوتِ، وتُشيرُ إلى الحالَةِ الَّتي استَقَرّوا عَليها، كَأنَّهُم يَقولونَ: لَم نَعد شَيئًا مَذكورًا، استَحالَ كيانُنا إلى تُرابٍ وعِظامٍ، وهذا حالٌ دامَ، وبَقي، لا مُجرَّدُ تَحوُّلٍ عابِرٍ، ففي هذا الفِعلِ مَعنى الاستِقرارِ على الفَناءِ، وهو المَعنَى الَّذي يُناسِبُ إنكارَهُم لِلبَعثِ؛ إذ هُم يُسَلِّمونَ بأنَّ حالَهُم انتهَت إلى التُّرابِ والعِظامِ، لا كَمرحلةٍ وُسطى، بَل كَخاتِمةٍ لا رَجعةَ بَعدَها.

نكتة استعمال مفردة (التُّراب):

اختيارُ لفظِ (التُّرابِ) دونَ الرِّمالِ مَعَ أنَّ المُخاطَبينَ أهلُ

الـتُّرابُ وصـفٌ لكلِّ أنواعِ الأتربة ومنها الرِّمال، وهـو الحاضنُ لدفين الأرض

صَحراءٍ، والرِّمالُ عِندَهم أكثَرُ مِمّا سِواها، إنَّما هوَ مِن دَقيقِ البَيانِ وبَلاغتِه؛ ذلِكَ أنَّ التُّرابَ هو أدقُّ ما يوصَفُ بِه انحِلالُ الجَسَدِ بَعدَ المَوتِ؛ إذ إنَّهُ يُشيرُ إلى تَفكُّكِ البِنيَةِ الإنسانيَّةِ وعودتِها إلى أصلِها الَّذي خُلِقَت مِنهُ: ﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ [طه: 55]، وفي هذا الاستِعمالِ مُؤشِّرٌ عِلميٌّ مُهِمٌّ، فالتُّرابُ هو مادَّةُ الخَلقِ الأولى، والتَّفكُّكُ إليهِ أدَلُّ على الفَناءِ التّامِّ والانحِلالِ الكُلّيِّ، والتُّرابُ عامٌّ يَضُمُّ الأنواعَ الطّينيَّةَ والرَّمليَّةَ والمُختَلِطَةَ وغيرَها؛ لِذلكَ كان أنسَبَ أن يَقولَ تُرابًا، فكُلُّ رَملٍ هو تُرابٌ، ولَيسَ العَكس.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿تُرَابٗا﴾:

الإيماءُ إلى دلالةِ الفناء والتَّبعثر واستبعاد البعث

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿تُرَابٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا تُرَابٗا﴾، هو الإيحاءُ بغايةِ الفناءِ والانحلالِ، وإبرازُ الهوانِ والضَّآلةِ الَّتي آلوا إليها في ظنِّهم، فهو نكرةٌ يُقصَدُ به التَّقليلُ والاستخفاف في آنٍ؛ إذ قد صاروا شيئًا لا يُعرفُ، ولا يُميَّز، ولا يُرجى له بعثٌ ولا عَود، ونكتة التَّنكيرِ زيادةُ إنكارِ البعثِ، وتجسيدُ سخريَّتِهم منه، فكيف يُبعَثُ بشرٌ قد صار تُرابًا لا يُعرف؟ بل كيف يُبعثُ بعد أن تَلاشَى، وذابَ في عناصر الأرضِ؟.

ثمَّ إنَّ في التَّنكيرِ إشارةً إلى التَّبعثُرِ والتَّفرُّق، فلا صورة لجسم، ولا هيئة لإنسانٍ، بل ذَرّاتٌ هائمةٌ لا يُظنُّ معها اجتماعٌ أو نُشورٌ، وذلك أبلغُ في التَّهويلِ الَّذي يُدعِّم به الكافرُ شكَّه واستهزاءَه، ويَزيدُ به استبعادَ الإمكان.

توجيهُ ذكرِ التُّراب دون الرُّفات:

جمعَ المُنكرون بين الأثر الباقي والتَّلاشي التّامِّ

يُلاحظُ ذِكر التُّراب دونَ الرُّفاتِ في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾ [الإسراء: 49]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ٩٨﴾ [الإسراء: 98]؛ وذلك ليُؤدّي

وظيفةً بلاغيَّةً بليغةً؛ إذ جاء ذكر التُّراب مع العِظامِ، وهي أشدُّ في الاستبعادِ من ذكرِ الرُّفات، ذلك أنَّ التُّراب هو وصولُ الأبدانِ إلى مرحلةٍ متخلِّصةٍ من جميعِ البقايا من تحلُّلٍ وانكسارٍ تبقى رمزًا لما كان عليه الإنسانُ من بنيةٍ وهيئة، فهي آخرُ ما يُدرَك من معالمِ الجسد، وبهذا فهي تُثيرُ في المخيِّلةِ صورةَ البقايا الَّتي يُتوهَّم منها البعثُ، ولو بعيدًا، أمّا التُّراب؛ فقد تلاشى منه ذلك كلُّه.

نكتةُ عطفِ العظام على التُّراب وعدم ذكر الرُّفات:

عطفُ العِظام على التُّرابِ، يُصوِّر التَّدرُّجَ في الانحلال من شيءٍ لا حياةَ فيه، وهو التُّراب، إلى شيءٍ كان فيه قوامُ الحياة، ثمَّ فسَد، وهو العظام، والانتقالُ من التُّراب إلى العظام أبلغُ في تصويرِ الفناءِ المتكامل، وألصق بإرادتهم الاستدلال على استبعادِ البعث واستحالته، كأنَّهم قالوا: أبعد أن نكون ترابًا لا معالم له، وآثار عظام بالية يستحيل فيها العود إلى الحياةِ، نبعثُ مرَّةً أخرى؟ فجاء ذِكرُ العِظامِ بعد التُّراب لبناءِ صورةٍ مركَّبةٍ من الاستدلال تجمع بين الماضي السَّحيق والماضي القريب، فموت السّابقين آثاره أتربة، وموت القريبين آثاره عظام، فالعطف من باب عطف الزَّمن القريب على الزَّمن البعيد، بدليل: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، والرَّدُّ عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾، فهو جمعٌ لطرفي زمانين، ويُمثِّل الرُّفات الحالة المتوسطة بين الزَّمانين، فعدمُ ذكره لدخوله في مضمونهما، فهو مرحلة متوسِّطة بين أن يكونَ ترابًا بعد أن كان عظامًا.

عطف الزَّمن القريب على الزَّمن البعيد الجامع بين طرفي زمانٍ ممتدٍّ

نوع اللّام ودلالتها:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾ هي لامُ الابتِداءِ، وقد دَخَلَت على خَبَرِ (إنَّ)؛ لتوكيدِ مَضمونِ الجُملَة، فجاء التَّركيبُ: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾، أي: أحَقًّا إنّا لَمَبعوثونَ؟ وهذا أُسلوبٌ استِفهاميٌّ تَقريريٌّ

يحرص المنكرون على تقرير إنكارهم وتوكيد أوهامهم

أُفرِغَ في صيغَةٍ تَتَضَمَّنُ أقصى دَرَجاتِ الاستِغرابِ والإنكارِ، وهيَ تُسهِمُ في تَوكيدِ الأمرِ الَّذي يُنكِرونَهُ، وكأنَّهُم يقولونَ: أنُبعَثُ نَحنُ حَقًّا؟ فهيَ لامٌ موَطِّئَةٌ لِمَعنًى في نُفوسِهِم يَستَعظِمُ أن يَكونَ صَحيحًا، لكِنَّ الأسلوبَ القُرآنيَّ يَعكِسُها؛ ليَكونَ في صالِحِ تَوكيدِ وُقوعِ البَعثِ وتَقريرِ حَقيقَتِهِ.

فائدة ذكر البعث دون الإحياء:

البعثُ يشملُ الإحيــــاءَ والحســـاب والجزاء، فإنكاره أشدُّ من الإحياء

جاء ذِكرُ البَعثِ دونَ الإحياءِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾؛ إذ إنَّ الإنكارَ منصبٌّ على البَعثِ بمفهومِه الكلّيِّ المتضمِّن الإحياء والحساب والجزاء، كما أنَّه يَنقُلُ مَعنًى أكثَرَ تَحَرُّكًا وفَجاءَةً من مُجَرَّدِ الإحياءِ، ففعلُ (بَعَثَ) يَحمِلُ في دلالَتِهِ مَعنَى الإخراجِ مَعَ الإرسالِ والتَّوجيهِ، ولَيسَ مُجَرَّدَ الإحياءِ بَعدَ المَوتِ، فهوَ إذًا أعظَمُ دَلالَةً وأبلَغُ أثَرًا في النُّفوسِ.

غرض حذف المتعلّق بـ (مبعوثون):

إنكـار المكذِّبين للبعثِ باعتبارِه مفهومًا ذا دلالةٍ عقديَّة واضحة لا باعتبار آخر

حُذِفَ المُتَعَلِّق بـ (مَبعوثونَ) في قَولِهِ تَعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾؛ لتنزيل الفعل المتعدّي منزلة اللّازم، فمقصودُ الحذفِ هو تسليط الإنكارِ على أن يكون بعثٌ، فهُم ينكرون البعث فعلًا حاصلًا في المستقبلِ، له مفهوم عقديٌّ حاضرٌ في أذهانِهم يشتملُ على مجموعةٍ من المعاني، دون أيِّ اعتبارٍ آخر، فحَذْفُهُ أوضح في بيان ما يعتقدون؛ لأنَّهُ يَجعَلُ الإنكارَ مُنصَبًّا على مُجَرَّدِ إمكانِ البَعثِ، ولَو ذُكِرَ المُتَعَلِّقُ - كَأن يُقالَ: (مَبعوثونَ لِلحِسابِ) أو (مَبعوثونَ إلَى يَومٍ مَعلومٍ) - لَضَيَّقَ من دائِرَةِ التَّهويلِ والتَّعجيبِ.

دلالة تكرار همزة الاستفهام وغرضها:

أُعيد ذِكرُ هَمزَةِ الاستِفهام قبل حَرفِ العَطفِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، وهيَ لِطَلَبِ التَّصديقِ؛ لتَدُلَّ عَلى توكيدِ

التَّهكُّم بالحقِّ وتصعيد الإنكار وتوكيد الاستبعاد دَيدن أهل النّار

الاستِبعادِ[1]؛ لِتَجعَلَ الجُملَةَ استِفهامًا آخر، مَفادُهُ: أَوَ يُبعَثُ آباؤُنا الأَوَّلونَ مَعَنا؟ كَأَنَّهُم يَستَبعِدونَ البَعثَ لِأَجلِ أجدادِهِم أكثَرَ مِمّا يَستَبعِدونَهُ لأنفُسِهِم، وهو ما يتناسبُ مع ذكرِ التُّرابِ الموميِّ إلى الآباءِ، وفي ذِكرِهِم الآباءَ الأَوَّلينَ مَزيدُ تَهَكُّمٍ وإغراقٍ في الإنكارِ؛ لأنَّ الآباءَ الأَوَّلينَ قَد مَضَى على مَوتِهِم الأزمِنَةُ الطَّويلَةُ، فهُم أبعَدُ في نظرِهِم عَنِ الإمكانِ، وذَلِكَ أبلَغُ في مَعنَى الاستِبعادِ الَّذي يَنطَوي عَلَيهِ استِفهامُهُم، فالاستِفهامُ غَرَضُهُ الإنكارُ والتَّهَكُّمُ، ومُفادُهُ نَفيُ المَبعَثِ لَهُم ولِآبائِهِم الأَوَّلينَ على سَبيلِ التَّعَجُّبِ والسُّخرِيَةِ مِن دَعوَى البَعثِ بَعدَ الفَناءِ.

دلالة العطف وتعيين المعطوف عليه:

التَّدرُّجُ في الإنكارِ الاستبعاديِّ يُجلّيه التَّهكُّم المَرضيُّ لا الاستفهام العقليُّ

دلَّ العَطفُ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ على الزِّيادَةِ في التَّهويلِ والتَّهَكُّمِ والإغراقِ في الإنكارِ؛ إذِ اقتَضَى عطفُ (آباؤُنا الأَوَّلونَ) على ما قَبلَهُ أن يُعَدّوا مَعَ الأنفُسِ في سُؤالِ البَعثِ، فكَأَنَّهُم يَقولونَ: أَنُبعَثُ نَحنُ، ويُبعَثُ مَعَنا أولَئِكَ الَّذينَ قَد بَلِيَت عِظامُهُم، وتَناثَرَت أجزاؤُهُم، وقُبورُهُم مَجهولَةٌ؟.

والمَعطوفُ عَلَيهِ هوَ جُملَةُ الاستِفهامِ السّابِقَةِ في قَولِهِم: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾، وقَد جاءَ العَطفُ بالواوِ لإشراكِ المعطوفِ عليه مع المعطوفِ بالاستِفهامِ، وبَينَ الاستِفهامِ عَن بَعثِ الآباءِ الأَوَّلينَ، ففائِدَةُ العَطفِ هيَ إشراكُ إنكارٍ بإنكارٍ، وتَسجيلُ عَدَمِ التَّصديقِ لِكِلا الفَرضَينِ.

دلالة وصف الآباء بالأوَّلين:

توكيدُ الاستبعاد وتقرير التَّهكُّم الإنكاريِّ

وصفُ الآباءِ بالأوَّلين في قوله تعالى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ جاء لبيان شدَّة الاستبعاد والتَّهويل والتَّضخيم من جهة الاستغراب

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 307.

والتَّكذيب، كأنَّهم يقولون: إذا كنّا نستبعد أن نُبعث بعد أن نُفنى، ونصير ترابًا وعظامًا، فإنَّ بعَثَ آبائنا الأوَّلين أشدُّ استحالةً في تصوُّرنا؛ لأنَّهم أقدم موتًا، وأبعد عهدًا، وأشدُّ اندثارًا، فهُم قد مضت عليهم القرون، وتفرَّقت أشلاؤهم في الأرض، فلا أثر منهم ولا خبر إلّا التُّراب المنشور، والوصف يزيد من عنصر من التَّهكُّم الإنكاريِّ.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ
٥٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن
زَقُّومٖ ٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ٥٤
فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٥٦﴾ [الواقعة: 49 - 56]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من قيل المكذِّبين إلى الرَّدِّ المبُين

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة إنكارَ المشركين للبعثِ، مع ذكر طائفةٍ ممّا قالوه في الاستفهام الإنكاريِّ؛ ناسب ذِكر الرَّدِّ عليهم في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾، أي: لا محالة، سيُحشر الجميع، المتقدِّمون والمتأخِّرون، إلى يوم معلوم لا تأخير فيه، فهو انتقالٌ من قيل المكذِّبين إلى الرَّدِّ عليهم، وإلقامهم الحجر.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِيقَٰتِ﴾: جذر الكلمة هو (وقت)، والميقات هو الوقت المُحدَّد لأمرٍ ما، والمقصود هنا: أنَّ الجميع سيُحشرون إلى أجل معلوم قد علمه اللّه وحده، لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر، وهو يوم القيامة، والوَقتُ: نهاية الزَّمان المفروض للعمل، ولهذا لا يكاد يُقال إلّا مقدَّرًا[1]، نحو قولهم: وقَّتُّ كذا: جعلت له وقتًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النِّساء: 103]، والميقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيء، والوعد الَّذي جُعِل له وقتٌ[2]، قال ﷻ: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ﴾ [الدُّخان: 40]، ويُطلَق الميقاتُ على المكان الَّذي يُجعَل وقتًا للشَّيء، كميقاتِ الحجِّ[3].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (وقت).
(2) الراغب، المفردات: (وقت).
(3) الراغب، المفردات: (وقت).

2) ﴿زَقُّومٍ﴾: جذر الكلمة هو (زقم)، ويعني في اللُّغة: ابتلاع الشَّيء[1]، ويُقال: (زَقَمَ الطَّعام)؛ إذا ابتلعه على كُرهٍ ومشقَّة، وبات يتزقَّم اللَّبن؛ إذا أفرط في شربه[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۞﴾ [الدُّخان: 43 - 44]، عبارة عن أطعمة كريهة في النّار، ومنه استُعير: زَقَمَ فلان، وتَزَقَّمَ؛ إذا ابتلع شيئًا كريهًا[3].

وسُمّيت شجرة الزَّقّوم بهذا الاسم؛ لشدَّة مرارتها وحرارتها وقبح طعمها، وقد جعلها اللّه طعامًا لأهل النّار، فاسم (الزَّقّوم) في أصله يدلُّ على الاشمئزاز والعذاب، وجاء في الآية؛ ليُجسِّد شناعة المآل وسوء المصير للمكذِّبين بيوم الدّين.

3) ﴿ٱلْهِيمِ﴾: جَذرُ الكَلِمَةِ هوَ (هيم)، وتَدُلُّ في اللُّغَةِ على العَطَشِ الشَّديدِ الدّائِم، والهيمُ: الإبِلُ المُصابَةُ بداءِ (الهيام)، وهوَ مَرَضٌ يَجعَلُها تَشرَبُ الماءَ بكَثرَةٍ دونَ أن تَرتَوِيَ، فتَشرَبَ حَتَّى تَموتَ، أو تَسقَمَ سَقَمًا شَديدًا[4]، فشُبِّهَ شُربُ أهلِ النّارِ مِنَ الحَميمِ بشُربِ الإبِلِ الهيمِ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

استفهامُ المكذِّبين يتبعه ردٌّ مفحمٌ بإلقامهم الحجر وإلزامهم الحجَّة

تُبيِّن الآيات الكريمةُ الرَّدَّ الحاسم على مَن أنكَر البعث، وبيان ما ينتظرهم من الحساب والعقاب في مشهدٍ بليغِ التَّهويل والتَّصوير، فاللّهُ تعالى يأمر نبيَّه ﷺ، أن يقرِّر للنّاس هذه الحقيقة الكبرى: أنَّ الخلقَ كلَّهم - أوَّلين وآخرين - سيُبعثون، ويُجمعون إلى ميقاتٍ محدَّد، في يوم لا يَتخلَّف عنه أحد، وهو يوم القيامة، الَّذي لا يعلم موعده إلّا اللّه، لكنَّه آتٍ لا محالة.

(1) ابن سيده، المُحكم: (زقم).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (زقم).
(3) الراغب، المفردات: (زقم).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 82.
(5) ابن عبّاس، مسائل ابن الأزرق (غريب القرآن): 1/ 222.

ثمَّ يُلتفت الخطاب إلى أولئك الضّالّين المكذِّبين، فيقال لهم: إنَّكم لآكلون من شجرة الزَّقّوم، وشاربون عليها من ماءٍ حارٍّ لا يُطفئ ظمأهم، كحال الإبل ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ الَّتي تشرب، ولا ترتوي، ثمَّ يُختَم هذا المشهد الجليل بقوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، أي: هذا أوَّل ما يُقدَّم لهم، والنُّزُل هو ما يُهيَّأ للضَّيف عند أوَّل قدومه، فكيف بما بعده؟ فما ذكر من الزَّقّوم، والشَّراب غذاؤهم، يَومَ الدّينِ يوم يجازون بأعمالهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عن السّابق:

الانتقال من الاستهزاء إلى التَّقرير قطعًا على الخصمِ الألدِّ

الفصل بين قولهم المستنكِر للبعث: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾، جاء فصلًا يُبرز التَّحوُّل من حكاية مقالتهم المنكرة إلى خطابٍ إلهيٍّ مباشرٍ يتولّاه الرَّسول بالبلاغ؛ ليُفصِم الاستهزاء السّابق بجوابٍ يفيد الحسم والقطع، "فيكون قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا لمناسبة حكاية قولهم: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾"[2]، فاستُؤنِفَتِ الجُملَةُ بـ ﴿قُلۡ﴾؛ إيذانًا بأنَّ ما بَعدَها رَدٌّ مُفحِمٌ لا يَحتَمِلُ التَّرَدُّدَ، فجاءَ الفَصلُ بهَذا الأُسلوبِ؛ لإحداثِ ما يُشبِهُ الوَقفَةَ الخِطابيَّةَ بَينَ الاستِهزاءِ والرَّدِّ، وليَكونَ الكَلامُ الجَوابيُّ أوقَعَ في النَّفسِ وأبلَغَ في البَيانِ.

تعيينُ المُخاطَب وأثره في بيان مقصود الخطاب:

كلُّ من يقتدي برسول الله ﷺ في الدَّعوة؛ فداخلٌ في مضمون الخطاب

المخاطَب في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ هو النَّبيُّ محمَّد ﷺ، والتَّعبير بالأمر الإلهيِّ ﴿قُلۡ﴾ يُظهر أنَّ ما يأتي بعده وحيٌ يُلقى على لسان الرَّسول خطابًا إلى من سبق ذكرهم من المكذِّبين

---

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 236.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 307.

بالبعث من أصحاب الشِّمال، والخطابُ ليس مقتصرًا على رسولِ اللّه ﷺ ، بل هو خطابٌ لكلِّ من يقومُ بالدَّعوةِ إلى دين اللّه تعالى، ويستطيع مخاطبةَ المنكرين المكذِّبين، في كلِّ عصرٍ، وهو تشريعٌ للجوابِ عن أسئلة المتشكِّكين، بقطع النَّظر عن ألفاظِهم وعباراتهم.

نكتة حذف المقول له:

تعظيم القول بذكره وتحقير المقول له بإهماله

حُذِف المتعلِّق بفعل القول في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ دون أن يقول: (قل لهم)، يُقصد به الإيجاز مع قوَّة الدَّلالة، فالحَذفُ جاءَ إعلاءً لِشَأنِ المَقولِ لا لِلمَقولِ لَهُ، فكَأنَّ الخِطابَ لَم يُعنَ بذِكرِهم لِحَقارَتِهم ووُضوحِ حالِهم، وأرادَ أن يُبرِزَ مَضمونَ الرَّدِّ، ويُعليَ مِن نَبرَتِه الجازِمَة، فكَأنَّما قيلَ: لَيسَ المُهِمُّ مَن يُخاطَبُ، بَلِ المُهِمُّ ما يُقالُ؛ لأنَّهُ قَولٌ حَقٌّ لا يُجادِلُ فيهِ إلّا مُكابِرٌ، وفي ذَلِكَ تَسفيهٌ ضِمنيٌّ لِلمُخاطَبينَ، وتَوبيخٌ غَيرُ مُباشِرٍ لَهُم.

دلالة تعريف لفظِ: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

الاستغراق الزَّمنيُّ لبعث النّاس جميعًا

المراد بـ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ من يصدق عليه وصف (أوَّل) بالنِّسبة لمن بعدهم، والمراد بـ (الآخرين) من يصدق عليه وصف آخر بالنِّسبة لمن قبله[1]، ويحملُ تعريفُ لفظي ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ دلالةً بلاغيَّةً على العموم والاستغراق[2]، تُفيد أنَّ البعث ليس خاصًّا بجيلٍ دون جيل، ولا أمَّة دون أخرى، بل هو شأنٌ عامٌّ شاملٌ لكلِّ مَن مضى من البشر ومَن سيأتي، من أوَّل الخلق إلى آخره، والتَّعريف بـ(الـ) في الموضعين أفاد الاستغراق الجنسيَّ الزَّمنيَّ، أي: إنَّ جميع من يوصَف بأنَّه من الأوَّلين - وهم الأمم السّابقة - وجميع من يُعدُّ من الآخرين - وهم المتأخِّرون من هذه الأمَّة وسواها - داخلون في هذا الجمع الَّذي لا مفرَّ منه.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 308.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 100.

دلالة تكرار ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في السّورة:

ربطُ الأواصر في السّورة كلِّها بذكر الأزمنة المتقدِّمة واللّاحقة

إنَّ في تكرار لفظي ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في السّورةِ له دلالة بليغة في ربطِ أواصر السّورةِ، فلمّا تقدَّم ذكر الأوَّلين والآخرين في قوله: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، وقوله: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ ناسب ذكرهم للمرَّةِ الثّالثة للتَّعريض بمن لم يكن من ثلَّتهم وقليلهم، وأنَّه في الطَّرف الآخر في أصحاب الشِّمال، ففي تكرار ذكرهم تذكير بالأوَّليَّة المتقدِّمة الَّتي جرت عليها السُّنن من العقاب والجزاء، وتحذير من غفلةِ الآخرين.

بلاغة التَّوكيد وفائدته:

تكثيف الحُجَّة وقهر الشَّكِّ في مطابقة الرَّدِّ على الشُّبَه

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾، تتجلَّى بلاغة التَّوكيد في أبهى صورها، فقد تكاثرت فيه أدوات التَّوكيد، وتعدَّدت مراتبه، فجاء التَّوكيد بثلاثة بأداةِ ﴿إِنَّ﴾: وهي حرف توكيد يفيد تثبيت مضمون الجملة، فافتتحت به الجملة؛ لإزالة الشَّكِّ الَّذي أبداه الكافرون حين أنكروا البعث، وباللّام الدّاخلة على خبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾، وهي من أقوى أدوات التَّوكيد، تدخل على الجملة الاسميَّة بعد ﴿إِنَّ﴾؛ لإفادة العناية والاهتمام بالخبر، وكأنَّ المعنى: (حقًّا وبلا مرية إنَّ الأوَّلينَ والآخِرينَ لَمجموعونَ)، وبالأسلوب الخبريِّ نفسه؛ إذ إنَّ الجملة بمجملها تقريرٌ لخبر صادق لا يحتمل التَّردُّد، وهو بيان يقينيٌّ صريح من عند الله، يُلقَى على أسماع المكذِّبين بعد تساؤلهم وإنكارهم، فجاء على صورة جملة اسميَّة تُفيد الثُّبوت والاستمرار، فجاء الرَّدُّ مؤكَّدًا؛ ليطابق قوَّة الشُّبهة في نفوسهم، ويقهر التَّردُّد الَّذي تمكَّن من قلوبهم، وليُبرز أنَّ الأمر ليس محلَّ نقاش ولا تأويل، بل هو يقينٌ ثابتٌ واقعٌ لا محالة.

نكتة العدول عن لفظ البعث إلى الجمع:

بلاغةُ المفردةِ القرآنيَّة في الرَّدِّ على ألفاظِ المُنكرين وزيادة

عدل النَّظم عن مطابقة لفظ البعث في قوله: ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾ إلى لفظ الجمع في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ وذلك لنكتة بيانيَّة تستبطن مقاصد عليا من جهة المعنى والبيان، تتجاوز مجرَّد مجاراة ألفاظ المكذِّبين الَّذين قالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾، فمعنى ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ أنَّهم يُبعَثون، ويُحشَرون جميعًا، وليس البعث على أفواج في أزمان مختلفة، كما كان موت النّاس في الدُّنيا متدرِّجًا، بل يُبعث الأوَّلون والآخرون في يوم واحد[1]، فإنَّ لفظ ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ أصرح وأوسع دلالة من (مبعوثون)؛ إذ يُفيد البعثَ والنَّصَّ على الجمعِ، وهو الأنسبُ والأوفر بقوله: ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ ففيه ما يُشير إلى القَسْر والسَّوْق بالإضافةِ إلى البعث، فهو أوقع في النَّفس وأبلغ في التَّهديد، كما أنَّ ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ يدلُّ على انتقالهم إلى غاية البعث وهي الميقات المعلوم، في حين أنَّ ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾ ينحصر في بدء الإحياء.

نكتة التَّعبير بصيغة المفعول ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾:

الـجـمـعُ أمـرٌ محتومٌ وبجزاء الحقِّ مختومٌ

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة المفعول في قوله تعالى: ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ بَدَلًا مِنَ التَّعبير بالفِعلِ، فلم يقل: (سَيُجمَعونَ)؛ وذلك لإفادةِ تَحَقُّق الفِعلِ فيهم على وجهِ القَسرِ واللُّزوم، أي: إنَّ الجَمعَ واقِعٌ بِهِمْ لا مَحالَةَ، لا اختيارَ لَهُم فيهِ، ولا مَهرَبَ مِنهُ، فهوَ لَيسَ أمرًا مُعَلَّقًا بإرادَتِهِم، ولا مَشروطًا بإيمانِهِم، بَل هوَ قَدَرٌ مُبرَمٌ واقِعٌ عَلَيهِم، وفي ذَلِكَ مِنَ التَّهديدِ ما لا يَكونُ في الفِعلِ المُجَرَّدِ.

بلاغة التَّضمين وغرضه:

ضُمِّن لفظ ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ معنى (مسوقون)، فتعلَّق به الجارُّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 308.

والمجرور ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ﴾، الَّتي تُستعمَل لانتهاء الغاية[1]، وإلّا فإنَّ ظاهر ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ أن يعدّى بحرف (في) الَّتي هي للوعاء[2]، فاستُعمِل لفظ الجمعِ؛ للدَّلالة على معناه، وحرف ﴿إِلَىٰ﴾ للدَّلالة على السَّوْق، وهو تضمين بديع يحمل الإيجاز اللَّفظيَّ، وهذا التَّضمين البَلاغيُّ له دلالته القويَّة في السّياق، فهو لا يكتفي بإفادة الحشر والبعث، بل يضيف معنى القَسر والإرغام، فهُم لا يُجمعون فقط، بل يُساقون سوقًا إلى موعد محتوم، لا يملكون منه فكاكًا.

إظـهـارُ لـفظ الجمعِ والإيماء إلـى معنى الـسّـوق سوقٌ للمعاني وجمعٌ للدَّلالات

بلاغة استعمال حرف ﴿إِلَىٰ﴾:

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف ﴿إِلَىٰ﴾ دون اللّام؛ لأنَّه أدلُّ على البعث من اللّام، ومجيء اللّام في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ [التَّغابن: 9]، وقال هنا: ﴿لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ ولم يقل: (لميقاتنا)، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]، وسبب ذلك أنَّه لمّا كان ذكر الجمع جوابًا للمنكرين المستبعدين؛ ناسبَ ذكرَ ﴿إِلَىٰ﴾ الدّالَّة على انتهاء الغايةِ، وذلك أنَّ إنكارهم كان للبعث وما فيه، فأثبت بلوغه والانتهاء إليه بالحرفِ الَّذي لا يقبل التَّأويل.

انتقاء الحرف القرآنيِّ ملحوظٌ فيه السّياق الحجاجيُّ

بلاغة استعمال مفردة ﴿مِيقَٰتِ﴾ مادَّة وصيغة:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿مِيقَٰتِ﴾ بهذه الصّيغة، في قوله تعالى: ﴿لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ للدَّلالة على إرادة الزَّمان واحتمال المكان[3]، أي: زمان ﴿يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ ومكانه، أي: معيَّن عند الله، ومن شأنه أن يعلم بما عنده من الأمارات، والميقات: ما وُقِّت به الشَّيء من زمان أو مكان إلى حدّ[4].

احتمال الدَّلالة الزَّمانيَّة والمكانيَّة القاطعة بالبعث في زمنٍ لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 310.
(2) المبرّد، المُقتضب: 4/ 139.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 308.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 413.

وفي استعمال هذه المفردة دلالة على التَّحديد والانضباط الزَّمنيِّ؛ إذ إنَّ مادَّة (وقت) تفيد التَّعيين المحكم للزَّمان، فجاء استعمال ﴿مِيقَٰتِ﴾؛ ليفيد أنَّ يوم البعث مضبوط لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر، مقدَّر محسوب عند الله لا محالة واقع، كما أنَّ صيغة ﴿مِيقَٰتِ﴾ على وزن (مِفعال) تدلُّ على الظَّرف الزَّمنيِّ المحدَّد الَّذي لا يتغيَّر، وتوحي بأنَّ الأمر ليس احتمالًا أو ظنًّا، بل هو موعد قاطع لا لبس فيه؛ فناسب مجيئه في معرض الرَّدِّ على استبعاد الكُفّار حصول البعث؛ ليثبت أنَّه مُحدَّد في علم الله كأمر قضائيٍّ مُسطَّر لا يخرج عنه أحد، فيه سوق للخلق كلِّهم إليه قسرًا وإلزامًا، فيكون في هذا التَّعبير توكيد لحتميَّة البعث ويقينيَّته في مقابل شكِّهم وسخريتهم، وذلك أبلغ في تفنيد الإنكار وأشدُّ في الرَّدِّ من أي تعبير آخر.

دلالة إضافة ﴿مِيقَٰتِ﴾ إلى ﴿يَوۡمٍ﴾:

تحديد الموعد وتكثيف إيقاع الحشر بيومٍ معلومٍ في الأذهانِ أنَّه واقع

أُضيف لفظ ﴿مِيقَٰتِ﴾ إلى ﴿يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ "لأنَّ التَّجمُّع واقع في ذلك اليوم، وإذا كان التَّجمُّع الواقع في اليوم واقعًا في ذلك الميقات؛ كانت بين الميقات واليوم ملابسة صحَّحت إضافة الميقات إليه لأدنى ملابسة، وهذا أدقُّ من جعل الإضافة بيانيَّة، وهذا تعريض بالوعيد بما يلقونه في ذلك اليوم الَّذي جحدوه"[1]، ولم يقل: (إلى ميقاتٍ معلوم)، وهذه الصّيغة المختارة تحمل نكتة بلاغيَّة بديعة، تَظهَرُ حين يُتأمَّل في الفرق بين التَّعبيرين، فلو قيل: (ميقات معلوم)؛ لكان التَّركيز على زمنٍ معلوم في ذاته، دون أن يُفاد ما إذا كان له ارتباط بحدثٍ مخصوص، أمّا قوله: ﴿مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ ففيه تخصيصٌ دقيقٌ لمضمون الموعد؛ إذ أُضيف الميقاتُ إلى ﴿يَوۡمٖ﴾ مخصوص، فدلَّ ذلك على أنَّ الزَّمن المحدَّد ليس مطلقًا، بل هو ميقاتٌ لذلك اليوم المعلوم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 309.

بعينه، لا غيره، أي: إنَّ الاجتماع لا يكون في أيِّ وقت، بل في الموعد المقدَّر لذلك اليوم العظيم، المعروف عند الله في سابق علمه، وهو يوم القيامة.

نكتة تنكير ﴿يَوۡمٍ﴾:

وصــف الـيــوم النَّكرة باعث على الفخامة ومثير للرَّهبة

نكتةُ تنكير لفظ ﴿يَوۡمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ﴾ بدلَ أن يُقال: ميقات اليوم المعلوم، تكمن في دقَّة التَّصوير البلاغيِّ والتَّهويليِّ[1]، فإنَّ التَّنكير هنا لا يُشعر بالتَّعريف الذِّهنيِّ الَّذي قد يُضعف من أثر الوعيد، بل يفيد تفخيم هذا اليوم وتغليظ شأنه، كأنَّه يومٌ لا يُشبهه يوم، مجهولٌ في تعيين وقوعه، معلومٌ في علم الله وحده، وهو الَّذي سيجتمع فيه الأوَّلون والآخرون من دون أن يكون لهم به عهد سابق، فالتَّنكير إذًا يُكسِب اللَّفظ رهبةً وغرابة، ويقطع عن السّامع مألوف التَّصوُّرات، ويجعله يتطلَّع إلى هذا اليوم العجيب الَّذي خُصَّ بالجمع، وقُرِن بالعلم الإلهيِّ، وهذا أنسب ما يكون في مقام الرَّدِّ على مكذِّبي البعث؛ إذ يُلقى في روعهم أنَّهم يُساقون إلى يوم فذٍّ، غير مسبوق في ذاكرة، لا يُدرِكون حقيقته، ولا يستطيعون منه فكاكًا.

فائدة وصف اليوم بالمعلوم بصيغة المفعول:

علم وقتِ وقوعِ الـقـيـامـة من خـصـوصـيّـات توحيد الرُّبوبيَّة

وصفُ (اليوم) بالمعلوم بصيغة المفعول، في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ﴾، إنَّما جيء به تنصيصًا على تحقُّق هذا اليوم في علم الله ﷻ، وكشفًا عن أنَّه ليس مجهولًا في أمره أو غامضًا في وقوعه، بل هو يومٌ مُعيَّنٌ لا يتخلَّف، مَحفوظٌ في علم الله منذ الأزل، لا يخفى على من أراد الله له البصيرة، وفي استعمال صيغة المفعول - وهو مقتضى الظّاهر - بيان اختصاص علمه من جهة العالِم العليم، أي: إنَّ اليوم مفعولٌ به للعلم، ممّا يوحي بأنَّ شأنه

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.

ليس من شؤون البشر الَّتي يُختلَف فيها، أو يُتنازع حولها، بل هو أمرٌ ثابتٌ مَقضيٌّ به، لا مدخل لأوهام المكذِّبين فيه.

ثمَّ إنَّ في هذه الصّيغة تنبيهًا إلى وجهٍ آخر، وهو تحذير المخاطَبين، فإنَّ ذكر اليوم بهذا الوصف يوقِظ في نفوسهم اليقين بأنَّ هذا اليوم ليس من قبيل الفرضيّات أو التَّهويلات، بل هو مُقرَّرٌ في جدول الغيب، موعودٌ عند من لا يُخلف الميعاد.

دلالة حرف التَّراخي ونوعه:

احتمال التَّراخي الرُّتبيِّ والزَّمنيِّ لا يمنع من إرادتهما معًا

حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ يحتمل التَّراخي الزَّمانيَّ، أي: لمّا كان زمانُ البعثِ متراخيًا عن نزول القرآن؛ عبَّر بأداته[1]، ويحتمل التَّراخي الرُّتبيَّ، فإنَّ في التَّصريح بتفصيل جزائهم في ذلك اليوم ما هو أعظم وقعًا في النُّفوس من التَّعريض الإجماليِّ بالوعيد الَّذي استُفيد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ﴾، وهذا التَّراخي الرُّتبيُّ بمنزلة الاعتراض بين جملة: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ﴾، وجملة: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾[2]، فإنَّ استعمال حرف ﴿ثُمَّ﴾ هنا هو على غير مقتضى التَّرتيب الزَّمنيِّ وحده، بل لحكمة بلاغيَّة أرفع، تنبني على ما تقرَّر في علم البيان من أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على التَّراخي، وقد يُراد به التَّراخي في الرُّتبة والتَّهويل في الشَّأن، لا في الزَّمن فقط، والأوفق في ذلك أنَّ التَّراخي ملاحظٌ فيه الأمران.

بلاغة الخطاب في إبلاغ الضّالين المكذِّبين بجزائهم:

الخطاب في هذه الآية موجَّهٌ مباشرة إلى المقول إليهم ما أُمِر الرَّسول ﷺ بتبليغه، في قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وهم أهل مكَّة ومن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 413.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 309.

مباغتةُ المكذِّبين بـواقـعـهـم والـضّـالـين بحقيقتهم تثويرٌ للحقِّ في نفوسِ أهلِه

في مثل حالهم[1]، فهو استمرار في السّياق دون التفات؛ إذ لم يأتِ انتقال من ضمير إلى آخر على خلاف الأصل، بل ظلَّ الخطاب مستقرًّا في وجهته؛ موجَّهًا إلى أولئك الضّالّينَ المكذِّبينَ، دون أن يطرأ عليه تحويل في الضَّمائر أو تغيير في المخاطَب[2]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾، تتجلّى بلاغة الخطاب المباشر في سياق الاستمرار الطَّبيعيِّ للحديث، دون حاجة إلى افتراض الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب؛ إذ لا يلزم من استخدام ضمير المخاطَب هنا أنَّه سبق بسياق الغيبة بالضَّرورة، بل إنَّما يُراد تثبيت المسؤوليَّة على السّامعين، وتقرير مضمون العقوبة لهم بوجه صريح ومباشر.

بلاغة التَّناسب بين الألفاظ:

نعتُ الضّالّين المكذِّبين بأوصافهم عدالةٌ في اللَّفظِ وتقويم للسُّلوك

في نداء المشركينَ بوصفَي الضَّلال والتَّكذيب، دلالة على أنَّ هذين الوصفين هما السَّبب فيما لحقهم من الجزاء السَّيِّئ، ووصفهم بالضّالّينَ المكذِّبينَ يتَّسق، ويتناسب مع قولهم: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾؛ إذ هو تصريح بكفرهم وإنكارهم للبعث، وهو محور ضلالهم وتكذيبهم، وقد جاء التَّعبير بهذين الوصفين إشارة واضحة إلى طبيعة موقفهم من البعث.

توجيهُ تخصيص وصفي الضَّلال والتَّكذيب بالذِّكر:

اقترانُ وصفي الضَّلال والتَّكذيب دليلُ اتِّباع الهوى واقتفاء الغواية

خصَّ النَّظم الكريمُ المشركين بوصفَي الضَّلال والتَّكذيب، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ بالذِّكر، دون غيرها من الأوصافِ، ذلك أنَّ الضَّلال يدلُّ على انحراف العقل عن السبيل، والتَّكذيب يدلُّ على انحراف النَّفسِ عن الخلق القويم، ورفض التَّصديق رغم ظهور البرهان، وكلاهما يُمثِّلان جوهرَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 309.

موقفِهم من دعوى البعث، واقترانُ الوصفين دليلٌ على أنَّ الهوى قادهم إلى الضَّلال فالتَّكذيب، وتكذيبهم هو علَّة بقائهم على الضَّلال، ولأن البعث كان عندهم موضع المكابرة والإنكار، فجاء وصفُهم بأخصِّ صفاتهم المتعلِّقة بهذا الموطن من الإنكار؛ ليكون الخطاب أشدَّ تصويبًا للموضع الَّذي ضلّوا فيه، وأقوى تسديدًا للرَّدِّ عليهم حيث وقع الإنكارُ منهم.

توجيهُ متشابه ذكر الضَّلال والتَّكذيب تقديمًا وتأخيرًا في وسط السّورة وآخرها:

عند توبيخ المشركين ابتدأ بضلالِهم وعند ذكر مصيرهم ابتدأ بعلَّة ضلالهم

قُدِّم وصفُ الضَّلال على التَّكذيب، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾؛ لأنَّ المقام مقامُ توبيخ مباشر للكفّار الَّذين سبق ذكرُهم، وقد كانت بدايتهم بالضَّلال عن الحقِّ؛ إذ أشركوا بالله، ولم يهتدوا إليه، ثمَّ أضافوا إلى ذلك التَّكذيب بالبعث بدلَ أن يتَّبعوا سبلَ الهداية، فجاء التَّرتيب مطابقًا لواقع حالهم: ضلال فتكذيب.

أمّا تعكيس التَّرتيب في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فقد تقدَّم وصف التَّكذيب على الضَّلال؛ لأنَّ السّياق هناك ليس توبيخًا مباشرًا، بل بيان لحال الأشقياء، بأنَّ علَّة البقاء على الضَّلال الَّذي ابتدؤوه هو التَّكذيب، وتقديم الضَّلال بأبشع ما فيه، وهو التَّكذيب.

فائدة التَّعبير باسم الفاعل في قوله: ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾:

الضَّلالُ والتَّكذيب المُنهَج ليس كالطّارئ

إنَّ التَّعبير عن أصحاب الشِّمال بلفظي ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ و﴿ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ بصيغة اسم الفاعل بدلًا من استعمال الفعل (ضلّوا، وكذَّبوا) له دلالة بلاغيَّة عميقة، تتناسب والسّياقَ الوعيديَّ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾، ففي صيغة اسم الفاعل ديمومةٌ وثباتٌ واستمرارٌ، وهو ما يتَّسق مع تكرار فعل (كانوا) في سياق

وصفِ كفرِهم، بخلاف الفعل الَّذي قد يُفيد مجرَّد الوقوع في الزَّمن الماضي أو المضارع.

دلالة اقتران وصف الضَّلال بالتَّكذيب:

اقتران وصفَي ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ و﴿ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾، جاء بحكمة بلاغيَّة دقيقة، تُظهر تدرُّج الانحراف من أولى مراتبه إلى منتهاها، فالضَّلال انحرافٌ عن الطَّريق المستقيم عن جهلٍ، وهو غالبًا ما يكون البداية، والانحراف الأوَّل الَّذي يُبتلى به القلب؛ إذا لم يُحصَّن بنور اليقين أشبه بالتّيه، أو التَّخبُّط في الظُّلُمات، فإذا تمكَّن الضَّلال من صاحبه، ولم يَفِق إلى رشد؛ انتقل إلى مرتبة أشدَّ، هي التَّكذيب.

الضَّلال بداية الطَّريق فإذا ترسَّخ؛ أصبح تكذيبًا، والتَّكذيب ينقلب علَّة بعد أن كان نتيجة

والتَّكذيب - بخلاف الضَّلال - لا يقع إلّا مع بلوغ الدَّعوة وقيام الحُجَّة وظهور البيان، فهو موقف عناد وجحود، لا مجرَّد غياب للبصيرة، ومن ثَمَّ فإنَّ التَّكذيب هنا يتضمَّن الرَّدَّ العمديَّ للحقِّ بعد علمه، ولذلك كان أشدَّ جرمًا، وأعظم استحقاقًا للعذاب.

ففي هذا التَّرتيب: الضَّلال أوَّل الانحراف عن الحقِّ، والتَّكذيب نهايته المتعمَّدة، وقد جمعهما النَّظم القرآنيُّ؛ ليبيِّن أنَّ الضّالَّ إذا أصرَّ على ضلاله، ولم يتداركه الهدى؛ انحدر إلى التَّكذيب، ويصبح التَّكذيب - بعد أن كان نتيجة - علَّة الضَّلال.

وقد جاء هذا الجمع في مقام تهديد وإنذار؛ إذ يواجَه به المكذِّبون المعاندون في مشهد وعيدهم في الآخرة، فناسب أن يواجَهوا بما يُعري حالهم في الدُّنيا، الضَّلال الَّذي أورثهم التَّكذيب، والتَّكذيب الَّذي أورثهم العذاب.

نكتة حذف المتعلِّق بـ ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾:

حُذِف المتعلِّق بـ ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾، فلم يقل: الضّالّون عن الحقِّ، ولا المكذِّبون بالبعث، فإنَّ هذا له دلالة بلاغيَّة عميقة في

تعريف المشركين بألقابٍ مطلقةٍ عن التَّقييد أرسخ في التَّهويل وأشدُّ في التَّهوين

نظم القرآن، تتجاوز مجرَّد الإيجاز إلى غرضٍ أرفع من مقتضيات البيان، وهو تجريدهم للوصفِ بالضَّلال والتَّكذيب؛ للتَّهويل والمبالغة والقصر، فهُم المكذِّبون على الحقيقة والضالّون عنها دون سواهم، وكأنَّه انطمس منهم كلُّ وصف آخر، فلم يعودوا يُعرَفون إلّا بكونهم ضالّين مكذِّبين، حتَّى لكأنَّ كلَّ من وُصِف بالضَّلال والتَّكذيب من قبل أو من بعد إنَّما يُقاس عليهم، أو يُلحق بهم.

وحين يُطلَق الوصف دون متعلِّق، يتحوَّل من وصف جزئيٍّ إلى لقب شامل، فيه تثبيت للصِّفة لا يُدانيه بيان، فكأنَّ المخاطَبين لم يضلّوا في أمر واحد، أو يُكذِّبوا بجزئيَّة محدَّدة، بل هم في ضلال مطلق، وتكذيب مطلق، يحيط بجوانب اعتقادهم وسلوكهم، فلا وجه لحصره بذكر مفعول خاصٍّ.

بلاغة استعمال مفردة الأكل:

لمّا ذكر الزَّقّوم وأكله عذابًا؛ ناسب ذكر الأكل دون الذَّوق لما يقتضيه الذَّوق من التَّخفيف

استعمال مفردة ﴿لَأَاكِلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَأَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾؛ بدلًا من التَّعبير بفعل (تذوقون) - كما هو شائع في موارد العذاب في القرآن - جاء لما يقتضيه السّياق من التَّشديد والتَّصوير الحسّيِّ لمشهد العقاب، فإنَّ الذَّوق غالبًا ما يُستعمَل؛ للدَّلالة على نيل شيء يسير منه، كقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النَّبأ: 30]، فالذَّوق "مُلابسَة يحسن بها الطَّعم"[1].

فيما الأكل يدلُّ على المباشرة الكاملة والتَّناول والإلجاء إلى الاستهلاك، لا مجرَّد الإحساس أو اختبار الطَّعم، وقد وافق هذا الاستعمال موضعه؛ إذ جاء بعد قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، وهذا الخطاب توبيخيٌّ مباشر يحمل طابعَ الزَّجر والوعيد، فجاءت الجملة التّالية مبنيَّة على الإخبار بواقع مُحتَّم لا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 310.

مفرَّ منه: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾، فالأكل هنا لا يُفهم على أنَّه اختيار، بل هو إلجاء اضطراريٌّ، ويدلُّ عليه ما بعده من قول: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، فليس مجرَّد أكلٍ عرضي، بل وامتلاءٌ قسريٌّ من شجرٍ مريرٍ خبيثٍ طعامًا دائمًا لهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدُّخان: 43 - 44]، والزَّقّوم في ذاته ليس شيئًا يُراد أكله، أو يُستلذُّ به، بل يُستكرَه أكله، وتُستقذر رائحته، لكنَّهم يُساقون إليه، فيأكلونه اضطرارًا لا لذَّة، لذلك جاء التَّعبير بالأكل لا الذَّوق؛ لإفادة الدَّوام، والإلجاء، والاشتمال التّامِّ على العذاب، ممّا يعمُّ الجوارح والباطن معًا، وهو أشدُّ مع الزَّقّوم من ذكر مجرَّد الطُّعوم.

نكتة التَّعبير باسم الفاعل ﴿لَآكِلُونَ﴾:

أكلُ الزَّقّوم ثابتٌ لا مفلت منه ولا مهرب

التَّعبير باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ لا يدلُّ على مجرَّد الحدوث، كما هو شأن الفعل الماضي أو المضارع، بل يُشعر بالتَّلبُّس بالحال والثَّبات عليها، ولذلك يُستعمَل في مقام التَّصوير لما يكون وصفًا راسخًا أو حالًا ملازمًا، وفي هذا الموضع، لمّا كان السّياق سياق وعيد وإظهار عاقبة المكذِّبين بالبعث، جاء الوصف باسم الفاعل؛ للدَّلالة على أنَّهم - لا محالة - واقعون في هذا الفعل، آكلون - لا محالة - شاؤوا أم أبوا، وليسوا مجرَّد من سيتعرَّضون للأكل في لحظة عابرة.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن شَجَرٍ﴾:

دلالــــةُ (مــن) عـلى الابـتـداء والـتَّـبـعـيـض متكاملٌ في الآية

حرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾، جاءت ﴿مِن﴾ الأولى في ﴿مِن شَجَرٍ﴾ للتَّبعيض، وهي تُفيد أنَّ الأكل واقعٌ من بعض جنس الشَّجر لا كلِّه، لا سيَّما وقد وُصِف هذا الشَّجر بعدُ بكونه من زقّوم، فيفيد أنَّ المقصود هو نوع مخصوص من الشَّجر لا مطلق

الشَّجر، وتحتمل أن تكون ابتدائيَّة، وهو أشهر معانيها[1]، والمعنى: فهُم آكلون أكلًا يؤخذ من شجر الزَّقّوم[2]، وذهب بعض النُّحاة إلى أنَّ كونها للتَّبعيض راجع إلى ابتداء الغاية[3]، وهو ظاهرٌ في الآية.

نكتة تنكير لفظ ﴿شَجَرٍ﴾:

إبهام الشَّجر في سياق الوعيد تهديد، فبيانه مزيد تهويل

نُكِّر لفظ ﴿شَجَرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ للنَّوعِ، فإنَّ شجر الزَّقّوم من الغيبِ المحض، ونمو الشَّجر في الجحيم ممّا لا يُحيط به إدراك اعتياد البشر، ويدخل السّامع عندها في حالة من الغموض والرُّعب والتَّرقُّب، أيُّ شجرٍ هذا؟ ثمَّ يأتي بعدُ التَّبيينُ بقوله: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾؛ ليكشف عن حقيقة هذا الشَّجر المبهم، فإذا هو زقّوم، وهو شجر النّار، شديد المرارة، قبيح الخلقة، بشع الطَّلع.

ولمّا كان السّياق في مقام التَّهديد، وبيان ما أُعدَّ لهؤلاء المكذِّبين الضّالّين من العذاب المقيم؛ ناسب أن يُذكَر طعامهم بأبشع صورة وأقبح وصف، فجيء بقوله تعالى: ﴿مِن شَجَرٍ﴾ على وجه التَّنكير؛ تنفيرًا وتعظيمًا للهول[4]؛ إذ الشَّجر في العرف مظنَّةُ النَّفع والثِّمار، فإذا نُكِّر؛ دلَّ على شجرٍ غير معهود، قد خالف ما جرت به العادة، فكان في التَّنكير إشعارٌ بأنَّه شجر لا يُعرَف إلّا بالبشاعة والقبح والضَّرر، ثمَّ أتبع ذلك بقوله: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾؛ بيانًا لهذا الشَّجر المنكر، فكأنَّه قيل: من شجرٍ هو في غاية القبح، ذلك أنَّه من زقّوم، وما أدراك ما الزَّقّوم؟ شجرةٌ اجتمعت فيها صفات الشِّدَّة والنَّتن والبشاعة، تُضطرهم إلى الأكل منها على كرهٍ وقهر، حتَّى يملؤوا بطونهم ملْئًا لا اختيار فيه، بل إكراهًا لا فكاك عنه[5].

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 307، والمُبرِّد، المُقتضب: 4/ 136.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.
(3) المُبرِّد، المُقتضب: 1/ 44.
(4) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 414.

فجاء التَّنكير في ﴿شَجَرِ﴾؛ تمهيدًا للتَّرويع، والإبهام أوَّلًا، ثمَّ البيان بعدها يزيد في تفخيم الأمر وتهويله، وهذا من بديع النَّظم؛ إذ يُذكَر الشَّيء منكَّرًا لإثارة التَّوجُّس، ثمَّ يُعرَّف بما يزيد النُّفوس نفورًا منه؛ تحقيقًا للغاية من التَّهديد، وتناسبًا مع مقام العقوبة الَّتي يستحقُّها أولئك المكذِّبون الجاحدون[1].

نكتة إبدال ﴿مِّن زَقُّومِ﴾ من قوله: ﴿مِن شَجَرِ﴾:

التَّـدرُّج في تهويل الموقفِ داعٍ إلى إرادة التَّهديد وتشديد الوعيد

نكتةُ إبدالِ ﴿مِّن زَقُّومِ﴾ من قوله: ﴿مِن شَجَرِ﴾ بدلًا من أن يقول: (من شجر الزَّقّوم) - كما في آية الدُّخان - ترجع إلى أسلوبٍ بليغٍ ومعنًى دقيق، يتَّصل بمقام التَّهويل والتَّشنيع والإنذار، ويتلاءم مع بنية السّورة في ترتيبها وتصعيدها التَّصويريِّ، وبيان ذلك أنَّ الإبهام قبل الإفهام أدعى للتَّهويل والتَّشويق؛ إذ ابتدأ الكلام بلفظٍ منكرٍ غير معهود: ﴿مِن شَجَرِ﴾؛ لتتوارد إلى ذهن السّامع احتمالاتٌ شتّى، ثمَّ أتبعها بقوله: ﴿مِّن زَقُّومِ﴾، فإذا هو الشَّجر الأشدُّ نُكرًا، والأبغض طبعًا.

ولو قيل: (من شجر الزقّوم)؛ لأفاد البيان المجرَّد، لكن قوله: ﴿مِن شَجَرِ مِّن زَقُّومِ﴾، فيه تدرُّج من العامِّ إلى الخاصِّ، يُشبه صدمةً إدراكيَّة للمتلقّي، فيكتنف ذهنه الاستغراب والخوف، ثمَّ يرد عليه البيان كالصّاعقة.

ففي الدُّخان جاء السّياق إخباريًّا لا تقريع فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدخان: 43 - 44]، بينما في الواقعة جاء السّياق مباشرًا في خطاب الضّالّين المكذِّبين، وتعداد ما سيلاقونه من صور العذاب، فجاء التَّعبير مُتدرِّجًا تهويليًّا على طريقة المَشاهد المتصاعدة.

نوع ﴿مِّن﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِّن زَقُّومِ﴾:

بلاغة البيان بعد الإجمال في تصوير العذاب

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن زَقُّومِ﴾ بيانيَّة؛ لأنَّ الشَّجر هو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 414.

المُسمَّى بالزَّقوم[1]، فهي تُستعمَل لبيان الجنس أو النَّوع المخصوص[2]، فهي تفصيلٌ بعد إجمال، والمعنى: (لآكلون من شجرٍ هو شجرٌ من الزَّقّوم)، والمراد: بيان حقيقة هذا الشَّجر المبهم في اللَّفظ السّابق، وتعيين نوعه بما يزيد المشهد فزعًا ونفورًا.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾:

مــلءُ البـطـون نتيجةٌ حتميَّة لأصحاب النّار، وهــي تـصـويرٌ مروِّع لهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ فاء تفريع وسببيَّة، تفيد أنَّ امتلاء البطون مترتِّبٌ على الأكلِ من شجر الزَّقّوم، فهو نتيجة حتميَّة له لا مفرَّ منها[3]، فالأكل منه لا يكون مجرَّد ذوق عارض، بل هو أكل يبلغ بالآكل حدَّ التُّخَمَة، وذلك ممّا يزيد الموقف بشاعة ورهبة؛ إذ يُراد به تصوير حالهم تصويرًا متتابعًا مرعبًا، يبدأ فيه العذاب بالأكل، ولا ينتهي إلّا بامتلاء البطون بما يسوؤهم، ويُعذِّبهم، وجيء بالفاء دون الواو أو (ثمَّ)؛ للدَّلالة على سرعة التَّرتُّب وشدة الاتِّصال، فكأنَّ ملء البطون لاحق لا ينفكُّ عن الأكل، وهو ما يُبرز المعنى التَّهديديَّ، ويُشعر القارئ أنَّ الأمر لا مهرب منه، بل هو انحدار متَّصل في سلسلة من العذاب تبدأ باللُّقمة، وتنتهي بامتلاء قسريٍّ مقصود.

دلالة استعمال مفردةِ الملء دون الشَّبع:

امتلاء البطون أكلٌ كثيرٌ كريهٌ وشبع معدومٌ

التَّعبير بلفظ الملء في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ بدلًا من أن يُقال: (فشابعون)، أو ما يُؤدّي معناه، يُبرز فرقًا بلاغيًّا دقيقًا يُصوِّر فظاعة الموقف ومقدار العذاب، فالملْءُ يدلُّ على امتلاء الحسِّ والجوف امتلاءً كمّيًّا لا كيفيًّا، أي: إنَّه يشبع حيِّز البطن من غير أن يحقِّق لذَّة الشَّبع، أو يزيل ألم الجوع، بل قد يزيده، وهو ما

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.
(2) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 357.
(3) الأمالي النّحويّة، وابن الحاجب، ص: 4.

عبَّرت عنه آية أخرى بقوله تعالى عن طعام أهل النّار: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧﴾ [الغاشية: 7].

وهذا الاستعمال القرآنيُّ يُنبئَ عن عذابٍ مركَّب؛ إذ يُرغم الكافر على أن يملأ بطنه من طعامٍ كريهٍ مؤذٍ، لا رغبة فيه، ولا راحة منه، فهو عذاب في الإكراه، وعذاب في الطَّعم، وعذاب في الأثر، ولمّا كان (الشَّبع) يدلُّ على حصول الرِّضا والسَّكينة بعد الأكل، وهي نعمة من نعم الله، فإنَّ المقام مقامُ تهديد لا يُناسبه هذا المعنى الإيجابيُّ، فجاء لفظ (الملء) بدلًا عنه؛ ليصوِّر صورة النَّهم القهريِّ الَّذي لا راحة فيه، وفيه نوع من السُّخرية المُرَّة بالمكذِّبين، الَّذين كانوا مترفين يملَؤون بطونهم من طيِّب الطَّعام، فإذا هم في الآخرة يملَؤونها من شجر الزَّقّوم لا عن لذَّة بل عن اضطرار مهين.

دلالة التَّعبير باسم الفاعل ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾:

كـفـى بـالـنّـارِ وعيدًا أن يكون مـلءُ البـطـونِ عذابًا

التَّعبير باسم الفاعل ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ بدلًا من الفعل المضارع (يملؤون)؛ لإفادة الثَّبات والاستمرار، فإنَّ اسم الفاعل يدلُّ على أنَّ الفعل أصبح وصفًا راسخًا لصاحبه، لا طارئًا ولا محدودًا، فهُم في حالة امتلاءٍ دائم مستمرٍّ، لا يقتصر على لحظة أو موقف، فكأنَّهم لا يعرفون من الطَّعام إلّا الزَّقّوم، ولا يعرف الزَّقّوم من الآكلين إلّا أولئك، وقد لصق الفعل بهم لصوق الصِّفات بالذَّوات، والتَّوكيد والتَّحقُّق؛ إذ استُعمِلت الجملة الاسميَّة المبدوءة بـ(إنَّ)، ثمَّ اللام في ﴿لَأٓكِلُونَ﴾ ثمَّ ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾؛ لتوكيد وقوع هذه الأفعال من غير تردُّد أو شكٍّ، على وجه الاستعلاء التَّقريريِّ التَّهكُّميِّ، كأنَّما يقال: أنتم لا محالة آكلون ومالئون وشاربون، ولا مهرب لكم من هذا المصير.

نكتة تأنيث الضَّمير ﴿مِنۡهَا﴾:

تـأويـل الـمؤنَّـث بشجرة الزَّقّوم

تأنيث الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ راجع إلى لفظ ﴿شَجَرٖ﴾، وقد أُنِّثَ الضَّمير ﴿مِنۡهَا﴾؛ لأنَّ ضمائر الجمع

لغير العاقل، كـ (الشَّجر)، تُعامَل في لغة العرب غالبًا معاملة المؤنَّث، فجاء التَّأنيث على الاعتبار المعنويِّ للجمع[1]، أو على تأويل ﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾.

غرض تقديم ﴿مِنۡهَا﴾ على المفعول:

لا يأكلُ أهل النّار في النّار إلّا من شجرة النّار

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنۡهَا﴾ على المفعول به ﴿ٱلۡبُطُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾؛ لإبرازِ ما يُملَأ منه، أي: الزَّقّوم، وتقديمُه في هذا الموضع يُفيد التَّهويل والتَّشنيع، وقصر ملْء البطون على هذه الشَّجرة، فالمعنى: لا يملؤون بطونَهم إلّا من هذا الزَّقّوم البغيض، لا من غيره، فهو طعامُهم الَّذي لا طعامَ لهم غيره.

نكتة جمع لفظ ﴿ٱلۡبُطُونَ﴾:

تصوير عذاب البطن في مشهد الزَّقّوم

جُمِعَ لفظُ ﴿ٱلۡبُطُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى التَّعميم والاشتمال، أي: إنَّ جميع البطون ستُملأ من هذا الشَّجر الخبيث دون استثناء، وكلُّ فرد من هؤلاء الضّالّين المكذِّبين يملأ بطنه ملْئًا تامًّا، لا مجرَّد ذوق أو لقيمات، بل ملءٌ يتناسب مع ما قبله من وصف الجوع المهلك وما بعده من شرب الحميم.

نكتة تعريف لفظ ﴿ٱلۡبُطُونَ﴾:

بطون المعذَّبين معلومةٌ غير مجهولة حاضرةٌ في النّار آكلةٌ من طعامِها

تعريف ﴿ٱلۡبُطُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾، بـ(الـ) للتَّعظيم والتَّهويل[2]؛ لتحديد تلك البطون الَّتي كانت تأكل حرامًا في الدُّنيا؛ لأنَّ المعرَّف بـ(الـ) "إنَّما صار معرفة؛ لأنَّك أردت بالألف واللّام الشَّيء بعينه"[3]، وها هي نفسها امتلأت من عذاب الله تعالى، ويحتمل أن تكون (الـ) عوضًا عن المضاف إليه المحذوف، والتَّقدير: بطونهم؛ إذ يجعل هذه البطون معلومة للمخاطَبين أو مشهودة يوم القيامة في مشهد مهيب، فليس المقصود بطونًا نكرة أو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 310.

(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 462.

(3) سيبويه، الكتاب: 1/ 220.

غير معروفة، بل البطون المقصودة بالعذاب المخصوص الَّذي سبق ذكره، ممّا يُظهر حجم النَّكال الَّذي أُعدَّ لهم، والتَّعريف هنا يُعطي إيحاءً بأنَّ الامتلاء لا يقع في بطون عابرة أو غير معيَّنة، بل في بطون مخصوصة منصوبة للعذاب.

بلاغة التَّعريض بذكر ملء البطون:

البطون المملوءة بالباطل في الدُّنيا ستمتلئ من الزَّقّوم في الآخرة

إنَّ في ذِكرِ (ملءِ البطون) في هذا الموضع تعريضًا بالغَ الدِّقَّة والسُّخرية المريرة من حال هؤلاء المترفين الَّذين كانوا في الدُّنيا يملؤون بطونهم من الطَّيِّبات، ويُسرفون في المآكل والمشارب، فلا يعرفون للجوع طَعمًا، ولا للحرمان وجهًا، فناسب أن يُقابلوا في الآخرة بنظير حالهم، ولكن على وجهٍ مناقضٍ تمامًا لما ألفوه، "والمقصود من قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ تفظيع حالهم جزاءً على ما كانوا عليه من التَّرف في الدُّنيا بملء بطونهم بالطَّعام والشَّراب ملئًا أنساهم إقبالهم عليه مِن التَّفكُّرِ في مصيرهم، وقد زيد تفظيعًا بالتَّشبيه في قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾، كما سيأتي"[1].

فكما ملؤوا بطونهم في الدُّنيا بغير حقٍّ؛ جوزوا في الآخرة بأن تُملأ بطونهم كذلك، ولكن ممّا يسوء، ويُهين، ويُؤلم، لا ممّا يُمتع، ويُشبع، فجاء التَّعبير بـ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾؛ ليشير إلى أنَّهم وإن وُفِّر لهم (ملء البطون)، فقد فُرِغ منه كلُّ ما فيه لذَّة وراحة، وبقي منه العذاب والاشمئزاز؛ إذ لا يغني هذا الطَّعام من جوع، بل هو شجرة الزَّقوم الَّتي شبَّهها الله بالمُهل يغلي في البطون، فهذا المقابلُ في (الملء) هو من التَّهكُّم البلاغيِّ، وجاء أسلوبُ التَّعريض؛ تعبيرًا عن عدالة الجزاء من جهة، ومكرمة البلاغة القرآنيَّة من جهة أُخرى، فإنَّه يقرِّعهم من حيثُ يظنّون أنَّهم كانوا في نعمة وعيش، فإذا بهم في يوم الجزاء يُعانون من نفس المفردات الَّتي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 310.

كانوا يتلذَّذون بها، ولكن في سياق العذاب والهوان، وهذا ممّا يُنذر، ويُرهِب المخاطَب، ويُريه أنَّ الجزاء من جنس العمل، ولكن بصورة تدمغه، ولا تُبقي له موضعًا للاعتذار أو الإنكار.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾:

بلاغة التَّرتيب والتَّعقيب في مشهد الشُّرب من الحميم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ فاءُ التَّرتيب والتَّعقيب، "فالفاء تضمُّ الشَّيء إلى الشَّيء كما فعلت الواو، غير أنَّها تجعل ذلك متَّسقًا بعضه في إثر بعض"[1]، فتفيد أنَّ الشُّرب من الحميم واقعٌ بعد الامتلاء من شجر الزَّقوم مباشرةً، دون فاصل زمنيٍّ معتبر، فهي تفيد التَّتابع السَّريع بين الفعلين.

والدَّلالة البلاغيَّة لهذه الفاء تأتي لتصوير مشهدٍ متلاحقٍ لا يُمهَل فيه أصحاب الشِّمال لحظة راحة بين طعامٍ وشراب، بل يُلحق الشَّراب بالطَّعام إلصاقًا محكمًا، كأنَّه ضرورة تفرضها شدَّة الحرِّ والحرقة والاختناق الَّتي يُسبِّبها طعام الزَّقوم، ممّا يضطرُّهم إلى التَّلهُّف على الشُّرب، لا رغبةً في الشَّراب، بل هربًا من حرِّ الطَّعام، فيكون الشَّراب عذابًا آخر يُضاف إلى سابقه، فهو تسلسلٌ مؤلمٌ محكمُ السَّبك في نظامٍ عقابيٍّ لا ينفصل بعضُه عن بعض.

دلالة ترتيب ذكر الشُّرب بعد الأكل:

شراب الدُّنيا يُخفِّف حدَّة امتلاء البطون وفي النّار يمزِّق البطون الممتلئة

رُتِّب ذكرُ الشُّرب بعد الأكل في قوله تعالى: ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾؛ ليرسم مشهدًا متكاملًا من العذاب المتَّصل، ويعكس طبيعة التَّفاعل الجسديِّ والنَّفسيِّ عند الإنسان، ويجري على عادة البشر الَّتي فُطِروا عليها: أنَّ الآكل إذا امتلأ بطنه؛ احتاج إلى شراب يطفئ حرارة الطَّعام، ويُعين على بلعه، ويدفع أذاه[2]، ولكنَّ الشُّربَ هنا

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 304.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 414.

ليس للتَّرويح، بل ليضاعف البلاء، فهو ﴿مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾، يزيد في العطش، ولا يرويه، ويحرق كما يحرق الزَّقوم، بل لعلَّه أشدُّ، فذِكْرُ الشُّربِ بعد الأكل فيه تعريةٌ لحالهم من كلِّ لذَّةٍ أو راحة، حتى ما اعتيد أن يكون مألوفًا - كالشَّراب بعد الطَّعام - صار هنا مُمِضًّا مهلكًا، وقد قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ۝١٥﴾، فالصّورة واحدة في شدَّتها، وإن اختلف الأسلوب.

دقَّة استعمال مفردة (الشُّرب):

الشُّرب فعل الإنسان مع نفسه في تناول الشَّراب، وأمّا السّقاية؛ فمع غيره

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ دون (مسقَون)، في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾، ذلك أنَّ السَّقيَ يكون للآخرين، فالسّاقي يَسْقي غيرَه، بينما الشّارب؛ فهو ما يتناوله الإنسان من شرابٍ؛ ليشربه لنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ [النَّحل: 66]، وقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: 24]، وقال سبحانه: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ [الإنسان: 21]، والمناسب هنا ما يقوم به أهل النّار من الشَّراب، فهُم الَّذي يشربون، ولا يَسْقي بعضهم بعضًا.

ولمّا كان المقام في سورة الواقعة مقام تقريع وتهويل، وسياق عذاب لا كرامة فيه؛ ناسب أن يُعبَّر عن ذلك بالفعل القاسي الجافِّ ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾، لا (مسقَون)؛ لإشعارهم بأنَّهم لا يُكرَمون بسقي، وإنَّما يُتركون؛ ليشربوا بأنفسهم ذلك الشَّراب المهين من الحميم الَّذي يُحرِق، ولا يَروي.

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء:

تضمين الشُّرب معنى صبِّ الحميم في البطون

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾؛ لبيان أنَّ الشُّرب واقعٌ على الأكلِ الممتلئ في البطون، ففيه تضمين الشُّرب معنى الصَّبِّ، أي: فشاربون من الحميم، فصابّونه على الأكل الممتلئ في البطون، وقد جاء هذا

المعنى بتقديم وتأخير، واستعمال حرف الاستعلاء، بما يدلُّ على المعنى الوفير واللَّفظ الوجيز.

نكتة تذكيرِ الضَّمير ﴿عَلَيۡهِ﴾:

مرجعُ الضَّمير المذكَّر على الأكل المتلئ في البطون

جاء استعمال الضَّمير المذكَّر في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ على تأويل (الزَّقوم)[1]، أو على جعل الشُّرب على الامتلاء، أو "لأنَّه عائد على الأكل المستفاد من قوله: ﴿لَأٓكِلُونَ﴾، أي: على ذلك الأكل بتأويل المصدر باسم المفعول مثل الخلق بمعنى المخلوق"[2]، فهم آكلون من شجرة الزَّقوم، فمالِئون منها البطون، فشاربون على الأكل المتلئ في البطون، وقد تقدَّم الضَّمير المؤنَّث في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾، على تأويل شجرة الزَّقوم، ويُفهَم من هذا أنَّ التَّعبير القرآنيَّ قد راعى في الضَّمائر مرونة الرُّجوع إلى اللَّفظ تارةً، وإلى المعنى تارةً أخرى، بما يخدم فصاحة السّياق وبلاغته، فاستُخدِم الأسلوب القرآنيُّ في التَّفنُّن البيانيِّ بين التَّأنيث والتَّذكير؛ ليدلَّ على دقَّة التَّرابط بين اللَّفظ والمعنى، وإحكام التَّناسب في بناء الصّورة المرعبة لطعام أهل النّار.

نوع ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾:

ابتدائيَّة الشُّرب من الحميم بعض الحميم لا كلِّه

حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾، ابتدائيَّة تدلُّ على ابتداء الغاية في الشُّرب[3]، أي: إنَّهم يبتدئون شربهم من هذا الحميم، لا من غيره، فهو أوَّل ما يصل إليهم في حال العطش والاحتياج بعد الأكل من شجر الزَّقوم، ومعنى التَّبعيض حاضرٌ؛ إذ شرابهم هو بعض الحميم لا كلُّه.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾:

تعريفُ لفظ ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 310.

(3) سيبويه، الكتاب: 2/ 307.

الحميم شرابُ أصحابِ الشِّمال بديل أشربة الدُّنيا المحرَّمة

عهديٌّ ذكريٌّ، فقد سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾، أي: فشاربون عليه من الحميم المذكور سابقًا، فكأنَّه قال: من ذلك الماء الحميم المعهود في وصف العذاب، الَّذي لا تخفى فظاعته على سامع لما سبقه من ذكر الطَّعام المنتن والشَّراب المُلهِب، فالتَّعريف هنا يحمل نَفَسًا استحضاريًّا وعهديًّا معنويًّا، أي: من الحميم الَّذي هو ممّا يُعلَم وصفه من مقام العذاب وسياقه، لا من أي ماء حارٍّ.

وفيه نكتة بلاغيَّة دقيقة، وهي أنَّ التَّنكير قد يوحي أحيانًا بتهويل المجهول، لكنَّ التَّعريف في مقام كهذا أدلُّ على فظاعة المعلوم؛ إذ قد استقرَّ في النُّفوس من تكرار ذكر الحميم في مواضع القرآن ما يُشعر بأنَّه شراب لا يُطاق، يُعذَّب به أهل النّار، يُقطِّع الأمعاء، ويُهرِق ما في الجوف.

وإنَّما قال: ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ مع أنَّ السّياق محتمل لنكرة؛ ليُرجع الأذهان إلى ذلك النَّوع المخصوص من العذاب المعروف عند من تَبَلَّغَ القرآن، وليدلَّ على أنَّه ليس حميمًا أيًّا كان، بل هو الحميم الكامل في الإحراق والهول، الَّذي لا يُشرَب طوعًا، وإنما يُسقى قهرًا.

نوع الفاء ودلالتها:

شربُ الحميم حتميٌّ سريع بعد أكل الزَّقوم لما فيه من مظنَّة تخفيف كراهة الزَّقوم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ عطفٌ على ﴿لَأَكِلُونَ﴾؛ لإفادة تعقيب أكل الزَّقوم بـ ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ دون فترة ولا استراحة[1]، وهي هنا للعطف والسَّببيَّة[2]، وهي تُعبِّر عن التَّتابع الحتميِّ في صور العذاب، فكما أنَّهم آكلون، فهم مالئون، ومن ثمَّ شاربون، وكأنَّ هذه الأفعال الجارية بهم تأتي متلاحقة، متتابعة، لا فاصل بينها، وكلُّ واحدة تُفضي إلى الَّتي تليها، على نحو يُرسِّخ مشهد الانحدار التَّدريجيِّ في ألوان الهوان والعذاب.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 311.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 298، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 158.

توكيد العذاب وتصعيد تصويره في مشهد الشُّرب المهين

فائدة تكرار ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾:

كُرِّر ذكر لفظ ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾؛ لتتجلّى في المقام الخطابيِّ والبلاغيِّ الَّذي يقتضي توكيد المشهد وتعميق وقعه في نفس السّامع، واستحضار تلك الصّورة الفظيعة.

ففي المرَّة الأولى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾، يَردُ الفعل مع المتعلِّق به ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ للدَّلالة على ضرورة الشُّرب المفروض والمكره عليه الشّارب، وكأنَّهم يُسقَون على الزَّقوم شربًا قهريًّا، من ماء مغليّ بالغ الحرارة.

ثمَّ في الثّانية: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾، يتكرَّر اللَّفظ ليُبنى عليه وصف الشُّرب، لا نفس فعله، ويُلحَق به تشبيه ﴿شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾، أي: شرب الإبل العطشى الَّتي لا تُروَى، فتُستعاد صورة العذاب من جهة الشُّعور بالعطش الدّائم، لا بمجرَّد فعل الشُّرب.

فالتَّكرار هنا توكيدٌ من جهة، وتصعيدٌ من جهة أخرى: فالأولى تُصوِّرهم، وهم يشربون، والثّانية تصف نوع شربهم؛ لتكون الثّانية كاشفة عن حالهم النَّفسيِّ والجسديِّ، لا المادّيِّ فقط، فهو توكيد لفظيٌّ لنظيره، فائدته زيادة تقرير ما في هذا الشُّرب من الأعجوبة، وهي أنَّه مع كراهته يزدادون منه كما ترى الأهيم، فيزيدهم تفظيعًا لأمعائهم؛ لإفادة التَّعجيب من حالهم تعجيبًا ثانيًا بعد الأوَّل، فإنَّ كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة أمر عجيب، وشربهم له كما تَشرَب الإبل الهيم في الإكثار أمر عجيب أيضًا[1].

بلاغة حذف كاف التَّشبيه:

شبَّهتِ الآية الكريمة شرب المكذِّبين في الجحيم بشرب الهيم،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 311.

الَّتي لا يرويها الماء، لداء يصيبها يشبه الاستسقاء، فلا تزال تعبُّ في الشَّراب حتَّى تهلك، أو تسقم سقمًا شديدًا، ووجه الشَّبه أنَّ كلًّا منهما يشرب، ولا يرتوي، ممّا يحثُّه على طلب المزيد من الشَّراب"[1].

تنزيل المكذِّبين منزلة الإبل الهيم في طريقة الشُّرب والحاجة إليه

والتَّشبيه بليغ لحذف كاف التَّشبيه ووجه الشَّبه في قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ بدل أن يقول: (كشرب الهيم)؛ إذ يُعدُّ ذلك من قبيل الإيجاز البيانيِّ الَّذي يُضفي على المعنى شدَّة وقوَّة، بل يُحوِّل التَّشبيه إلى تحقيق وتصوير مطابق، فيُصبح المشبَّه هو نفس المشبَّه به في قوَّة التَّصوير، فحذْفُ الكاف يُفيد المبالغة في التَّشبيه؛ إذ لا يُقال: ﴿شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ إلّا وقد أصبح الشُّرب نفسه هو بعينه شُرب الهيم، فذابت الفروق، وتماهى الحالان، وهذا أبلغ من (كشرب الهيم) الَّذي يوحي بنوع من التَّفاوت، وتحقيق صورة العطش الشَّديد، فـ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ هي الإبل المصابة بداء العطش المزمن، تشرب، ولا تروى، وجعل النَّظمُ القرآنيُّ شُرب أهل النّار نفس هذا الشُّرب؛ ليُصوِّر حالهم النَّفسيَّ والبدنيَّ في أوج العذاب والظَّمأ، وكأنَّهم هم الهيم في حقيقتهم لا مجازًا.

بلاغة الجناس الاشتقاقيّ في لفظ الشُّرب:

بلاغة إيقاع اللَّفظِ وتكثيف مشهد العذاب فالشُّرب اضطرار لا اختيار

في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ ورد الجناس الاشتقاقيُّ بين (شاربون) و﴿شُرۡبَ﴾، وهو من الأساليب البلاغيَّة الَّتي تزيد المعنى رسوخًا في النَّفس، وتُكسب العبارة قوَّة إيقاعيَّة ولفظيَّة، وهذه الصّياغة تُفيد إحكام الصّورة وتوكيدها، فالتَّكرار يُرسِّخ في الذِّهن أنَّ هذا الفعل واقع - لا محالة - لا هو محتمل، ولا هو مؤقت، بل هو الشَّأن الدّائم لأهل هذا المصير، كما أنَّ التَّكرار الصَّوتيَّ يعطي إيقاعًا ثقيلًا، كأنَّه يُحاكي ثِقَل الشَّراب على البطون المحترقة، وثِقَل المصير عليهم، وكأنَّ التَّلازم بين (شاربون) و﴿شُرۡبَ﴾ لا ينفكُّ،

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 27/ 121.

فهُم لا يشربون فحسب، بل شربهم هو عينُ شُربِ الهيم، شرب بلا نهاية، وعطش لا يروي، واستعمال اسم الفاعل يدلُّ على الدَّيمومة والوقوع، والمصدر يدلُّ على الكيفيَّة والنَّوع، فكأنَّه قيل: حالهم أنَّهم في شربٍ دائم، وشربهم شرب مذلٍّ، شرب اضطرار لا اختيار، وشرب لا يُغني، ولا يروي.

دلالة إضافة ﴿شُرۡبَ﴾ للفظ ﴿ٱلۡهِيمِ﴾:

تصوير بالغ لشدَّة العطش وبيان حاله

أُضيف لفظ ﴿شُرۡبَ﴾ إلى ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾؛ ليكشف عن نوع الشُّرب، الَّذي يوحي بأنَّ حالهم صارت من جنس حال الهيم تمامًا، وكأنَّها ضربٌ من التَّناسخ في الصِّفات والطِّباع، لا في الصّوَر والأجساد.

براعة استعمال غريب مفردة ﴿ٱلۡهِيمِ﴾:

تنزيل المكذِّبين منزلةَ الحيوان للتحقير، وبيان عطشهم الدّائم للتهديد

الهيم: جمع أهيم[1]، وهو البعير الَّذي أصابه الهُيام بضمِّ الهاء، وهو داء يجعل البهيمة تشرب، ولا ترتوي، تظلُّ تلغ في الماء دون حدٍّ ولا شبع؛ لشدَّة ما بها من عطش حارق لا يُسكته ماء، ولا يُخفِّفه شراب، فاختيار هذه الكلمة النّادرة جاء لا لغرابتها، ولكن لقوَّة دلالتها وكثافة صورتها، وباستحضار هذه الصّورة الحيوانيَّة المعروفة لدى المخاطَبين من العرب، يوقظ النَّصُّ في الذِّهن مشهدًا صارخًا لهؤلاء الضّالّين المكذِّبين؛ إذ يشربون في النّار شرابًا حارًّا، كما تشرب الهيم، لا للارتواء، بل لأنَّه عذاب متجدِّد في صورة شرب، وقد أغنى هذا التَّعبير المفرد المكثَّف عن شروح مطوَّلة، فدلَّ على شدَّة الظَّمأ، واستمرار الألم، وغرابة الحال، من غير حاجة إلى إسهاب.

ويُعمِّق هذا الاستعمال فكرة التَّماثل بين البهيميَّة في السُّلوك والجزاء، فهُم في حياتهم كانوا يسيرون خلف شهواتهم دون قيد،

(1) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 1205.

يَنْهَمون في الملذّات كما تَنْهَمُ الهيم في الماء، فكان جزاؤهم أن يُعامَلوا بما يناسب ما صاروا إليه من الغفلة والانحدار، فالهيم هنا رمزٌ للانفلات من ضوابط العقل والحقِّ، فكان تشبيه شربهم بشربها تمثيلًا لحالهم لا في الصّورة فحسب، بل في الحقيقة والمصير.

بلاغة استعمال اسم الإشارة القريب مسندًا إليه:

مباغتةُ الكافرين في التَّعريف بنُزُلهم الثّابتة يوم القيامة

لمّا انقضى السّياق بتصويرٍ مروِّع لمشهد الجزاء، من أكلٍ من شجر الزَّقوم، فملء للبطون، فشرب من الحميم، فشرب كشرب الهيم، جيء بخاتمة تلتقط النَّفس، ولكن لا تُخفِّف الألم، بل تزيده ترسيخًا، فقال ﷻ: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، فجاءت الإشارة بـ﴿هَٰذَا﴾ اسم الإشارة القريب، لا البعيد؛ إذ لم يقل: (ذلك)، وذلك لما فيه من قصد تحقيرهم، فضلًا عمّا فيه من دلالةٍ على تحقيق الحضور والتَّقريب إلى الحسِّ، فالمشهد الَّذي وُصف قد صار حاضرًا بين أعينهم، لا يُنتَظر وقوعه، بل يُشهَد الآن، فيقال: هذا هو، لا ذاك؛ ليزيد الأمر إيقاعًا في النَّفس، وتوكيدًا لوقوع العذاب، وتجسيمًا لصورته.

براعة التَّهكُّم في استعمال مفردة (نزل):

اجتماعُ التَّهكُّم بالتَّهديدِ من براعة أسلوب القرآن في الوعيد

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة (نُزُل) في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾؛ لتتجلّى في نقل المعنى من مجرَّد (عقوبة) أو (جزاء) إلى معنى أقسى وأوقع في النَّفس، من جهة الأسلوب، ومن جهة الإيحاء، فالنُّزل: الرِّزق الَّذي يعدُّ للنّازل تكريمًا له، وما يُعدُّ لهم أوَّل قدومهم مكان ما يعدُّ للضَّيف أوَّل حلوله كرامة له[1]، ففيه تهكُّم[2]، فإذا كان هذا إكرامهم يوم الدّين فكيف عذابهم؟ وهذا أسلوب قرآنيٌّ بديع يجمع بين التَّهكُّم والتَّهديد في آنٍ معًا.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 414.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.

العـذابُ أُعـدَّ للظّالمين كما يُعـدُّ النُّـزُل للضّيفان في الدُّنيا

دلالة إضافة النُّزل إلى الضَّمير:

إضافة لفظ (النُّزُل) إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، تدلُّ على تخصيص العذاب بهم؛ لأنَّ الإضافة بمعنى اللّام، فهو عذاب معدٌّ لهم، لا يشاركهم فيه غيرهم، وكأنَّه حقٌّ لازم لهم، لا انفكاك عنه، يستحقّونه جزاءً وفاقًا لما اقترفوه في الدُّنيا، وهذه الإضافة تفيد أنَّهم لا يتلقّون هذا العذاب مصادفة أو من غير حساب، بل هو نُزُلهم الَّذي أُعِدَّ خصيصًا لهم، كما يُعِدُّ المضيف لنزيله ما يناسب حاله، ولكنَّ الفرق أنَّ ما أُعِدَّ لهم هو الإهانة والهول، لا الإكرام والرّاحة، فهو نُزُلٌ جاء على خلاف ما تعوَّدوه من نُزُل التَّرف والنَّعيم في الدُّنيا.

الانـتـقـالُ من العمومِ الزَّمانيِّ إلى الخصوصِ الغائيِّ المقترن بمعنى الجزاء

نكتة تعيين يوم الدّين وقتًا للنُّزل:

التَّعبير بلفظ ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ بعد أن سبق ذكره بوصف ﴿يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ﴾ هو من روائع البيان القرآنيِّ في الانتقال من العموم الزَّمانيِّ إلى الخصوص الغائيِّ؛ إذ ليس المقصود من التَّكرار إعادة الزَّمان لذاته، بل لتعليله وبيان ما يكون فيه، فالوصف بـ﴿يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ﴾ يُفيد تحديده في علم اللّٰه ووقوعه الحتميَّ، دون أن يُذكر غرضه أو وظيفته، فلما تمَّ وصف أحوال الأشقياء وما أُعِدَّ لهم من العذاب، جاء البيان بأنَّ هذا كلَّه واقع ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، أي: يوم الجزاء والمحاسبة والمقابلة بالأعمال، فهو تعيين لمعنى اليوم المعلوم لا مجرَّد تعريفه، وجعل ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ وقتًا لنزلهم مؤذن بأنَّ ذلك الَّذي عبَّر عنه بالنُّزل جزاءٌ على أعمالهم، وهذا تجريد للتَّشبيه التَّهكُّمي وهو قرينة على التَّهكُّم(1).

فائدة اختيار لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ دون الحساب أو القيامة:

آثر النَّظم الكريم اختيار لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ دون أن يُقال: (الحساب)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 312.

أو (القيامة)؛ لِما في كلمة الدّين من دقَّة معنويَّة بالغة، تفوق سائر الألفاظ الَّتي قد تدلُّ على زمان الجزاء أو مكانه، وهو يرتبط بما جاء في شأنِ جزاء السّابقين في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، فإذا قيل: ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، فقد أُشير إلى وجه الجزاء القائم على العدل والمقابلة، وفيه معنى ذُلِّهم وانقيادهم مذلولين، وهذا المعنى أدقُّ وأكثر مناسبة للسّياق الَّذي جاء فيه وصف الضّالّينَ المكذِّبينَ وما يُعِدُّه الله لهم من العذاب، فلو قيل: (يوم الحساب)؛ لأوهم أنَّ المقصود هو عدُّ الأعمال ووزنها، ولو قيل: (يوم القيامة)؛ لأوهم أنَّ السّياق غايته إحياء الموتى فحسب، أمّا ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾؛ فهو يتضمَّن قيامهم ومحاسبتهم ومجازاتهم على وجه الاستحقاق العادل، ففيه تأصيلٌ للعدلِ الإلهيِّ في اليوم السَّرمديِّ.

الجزاء على أعمالِ العبادِ بيانٌ للعدلِ الإلهيِّ في اليوم السَّرمديِّ

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشُّرب والسَّقي:

(الشُّرب) يدلُّ على الفعل الإراديِّ الصّادر عن الشّارب، أي: إنَّه هو الَّذي يباشر تناول الماء، راغبًا أو دافعًا نفسه إليه[1]، بخلاف (السَّقي)، فهو ما يُعطى للآخر، ويكون فيه طرف فاعل يُقدِّم السّائل، وآخر يتلقّاه، وقد يحصل مع الرَّغبة أو بدافع القسر.

الشُّرب فعل ذاتيٌّ، والسَّقي ما يُقدَّم للآخر

(1) الصّاحب بن عبّاد، المحيط في اللّغة: 2/ 167، وابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/ 267.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمْ
تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ ٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ
٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [الواقعة: 57 - 62]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانـتـقـال من الوعيد والتّهديد إلى إقامة الحُجّة على العبيد

لمّا ذكرتِ الآياتِ السّابقة حالَ الضّالّين المكذِّبين وما يُجزَون به من العذاب يَومَ الدّينِ؛ ناسب أن تذكر الآيات بعدها أوجه الاستدلال على توحيد الرُّبوبيَّة المقتضي؛ لتوحيد الألوهيَّة وسلامة الاعتقاد في اللّه تعالى؛ تعقيبًا تفنيديًّا على إنكار المشركين، وسوقًا للأدلَّة القاطعة الَّتي تُزيل الشُّبهة، وتُؤكِّد أنَّ القادر على الخلق أوَّل مرَّة لا يعجز عن إعادة مثله، فهو من باب الانتقال من التَّهديد والوعيد إلى التَّقرير والبرهنة، بدءًا من النُّطفة، ثمَّ الموت، ثمَّ الزَّرع، ثمَّ الماء، ثمَّ النّار، وكلُّها أدلّة من المحسوس المشاهد؛ لتقريب إمكان النَّشأة الثّانية وإلزام المكذِّبين بها.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُمْنُونَ﴾: المَنَى: التَّقدير، يقال: مَنَى لك الماني، أي: قدَّر لك المقدِّر، ومنه: المَنا الَّذي يوزن به فيما قيل، والمَنيُّ للَّذي قدَّر به الحيوانات(1)، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ٣٧﴾ [القيامة: 37]، ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ٤٦﴾ [النّجم: 46]، والمني: النُّطفة(2)، وأصله المعجميُّ يدلُّ على صبِّ المنيِّ وقذفه في الرَّحِم، وأمنى الرَّجل ومنى، فالمراد بالآية ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾: أفَرَأيتُم ما تُلقونه من المنيِّ(3).

(1) الراغب، المفردات: 1/ 779.
(2) النّسفيّ، طلبة الطّلبة، ص: 7.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (مني).

2) ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾: (نشأ) أصلٌ يدلُّ في معناه المعجميِّ على ارتفاع في شيء وسموٍّ[1] والتَّكوين من حال إلى حال، والنَّشْءُ والنَّشأةُ: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُهُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، ويُطلَق كذلك على الإنشاء من العدم، و"ابتداء الخلق وكلُّ مَن ابتدأ خَلْق شيءٍ واختَرَعه فقد أنشأه"[2].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

البرهان المحسوس على إمكان البعث من النَّشأة الأولى إلى النَّشأة الأخرى

وردت الآيات تعقيبًا على وصف حال الضّالّين المكذِّبين، الَّذين أصرّوا على إنكار البعث والنُّشور، فجاء هذا المقطع القرآنيُّ في صورة حجاج عقليٍّ رفيع، واستدلال برهانيٍّ قائم على المحسوسات، لإثبات إمكان النَّشأة الآخرة، بنقض دعوى استحالتها، عبر التَّذكير بما هو أقرُّ في النَّفس وأظهر في الحسِّ، وهو الخلق الأوَّل.

فقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ يمثِّل مفتتحًا برهانيًّا يقرِّر أنَّ خالقكم ابتداءً هو اللّه، ثمَّ ينتقل إلى تفصيل هذا البرهان بالحقيقة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، أي: أفتأمَّلتم ما تقذفونه من ماء النُّطفة في الأرحام[3]، ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾، وفي هذا إبطال لما يمكن أن يُتوهَّم من أنَّ النَّشأة أمر طبيعيٌّ تلقائيٌّ، فهو في الحقيقة خاضع لتقدير الخالق وتدبيره.

ثمَّ يأتي الانتقال من النَّشأة إلى نهايتها: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، نحن الَّذين رتَّبنا الموت على الأحياء، وفق نظام محكم، لا يسبقنا فيه أحد، ولا يعجزنا أمر، قال مقاتل: فمنكم من يموت كبيرًا، ومنكم من يموت صغيرًا، وشابًّا، وشيخًا[4]، ﴿وَمَا نَحْنُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشأ).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نشأ).
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 137.
(4) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 222.

﴿بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ﴾، أي: لا يعجزنا أن نستبدلكم بخلق أمثالكم، أو أن نعيد خلقكم في صور أخرى، قد لا تدركونها بعقولكم القاصرة، لكنَّها داخلة في قدرتنا الشّاملة، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ونوجدكم إنشاءً جديدًا، وتكوينًا مغايرًا لما عهدتم من أنفسكم في الدُّنيا، في صورة لا تدركون كنهها الآن، ولا تملكون تصوُّرها بمداركم الحاضرة.

ويُختَم هذا السّياق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: إنَّكم تعلمون بالضَّرورة كيف خُلقتم أوَّل مرَّة، فالآيات تجري على نسق من الجدل الحيِّ؛ إذ تنقلك من مشهد العقاب والجزاء، إلى عرض الدَّليل العقليِّ المحسوس.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ﴾:

الانتقال الخطابيُّ من العذاب إلى البرهان ومن وصف المآل إلى تفنيد المقال

فُصِل قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ﴾، إمّا لأنَّه من تمام ما أمر بأن يقوله لهم، ويجوز أن يكون استئنافًا مستقلًّا، وموقعه استدلال وعلَّة لمضمون جملة: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ﴾؛ ولذلك لم تعطف الجملة[1]، أي: إمّا من باب كمال الاتِّصال على معنى قل لهم: كيت وكيت، وإمّا من باب كمال الانقطاع، مع وجود تناسبٍ انتقاليٍّ من ذكر الوعيد إلى ذكرِ حجاج الوعيد، مُراعًى في تغيُّر الغرض؛ إذ الغرض فيما سبق إنذاريٌّ تهديديٌّ، يُبيِّن مصير الضّالّين المكذِّبين يَومَ الدّينِ، وأمّا الغرض في الآيات التّالية؛ فهو إقامة الحُجَّة العقليَّة على من أنكر البعث، فأفاد هذا الانتقال تَحوُّلًا من وصف المآل إلى تفنيد المقال، وجاء التَّعبير بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ﴾: تقريرًا لمقدِّمة أولى لا تُنكر، يُبنى عليها البرهان

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 312.

التّالي، بأسلوب توبيخيٍّ: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، أي: فهلّا تُصدِّقون بالبعث؛ ما دمتم مقرّين بأصل الخلق؟.

فائدة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

تقويةُ الحكم للرَّدِّ على إنكارِ قدرةِ الله على البعث

قُدِّم ذِكرُ المسند إليه، وهو الضَّمير ﴿نَحْنُ﴾، على المسند الفعليِّ ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾؛ لإفادة تقوية الحكم ردًّا على إحالتهم أن يكون الله قادرًا على إعادة خلقهم بعد فناء معظم أجسادهم، حين يكونون ترابًا وعظامًا، فهذا تذكير لهم بما ذهلوا عنه بأنَّ الله هو خلقهم أوَّل مرَّة، وهو الَّذي يعيد خلقهم ثاني مرَّة، فإنَّهم وإن كانوا يعلمون أنَّ الله خلقهم لما لم يجروا على موجب ذلك العلم بإحالتهم إعادة الخلق؛ نُزِّلوا منزلة من يشكُّ في أنَّ الله خلقهم، فالمقصود بتقوية الحكم الإفضاء إلى ما سيفرع عنه من قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾[1].

نكتة استعمال مفردة (الخلق):

إبداع النَّشأة الأولى وتمهيدٌ لإثبات البعث

استعمل النَّظم الكريم مفردة الخلق في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾، دون غيرها من الألفاظ كـ (أنشأناكم) أو (جعلناكم) أو (صوَّرناكم)؛ لما ترجع إليه من تضمُّنها معاني الإيجاد التّامِّ على غير مثال سابق، والتَّقدير المحكم المتقن، والتَّصوير الكامل، ممّا يُناسب تمامًا مقام الاحتجاج على من يُنكر البعث والقدرة على الإعادة، وهو ما يُمهِّد للآية الَّتي تليها مباشرة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، فالخلق مدخل للحديث عن تقدير الحياة والموت والبعث، فتأتي أهمّيَّة ذكر مفردة (الخلق) كدليلٍ عقليٍّ على إمكان البعث، فالله الَّذي بدأ خلق الإنسان من نطفة قادر على إعادته بعد موته، فالتَّصديق بالخلق

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 312.

يوجب التَّصديق بالإعادة، ومن ثمَّ فإنَّ إنكار البعث مع الإقرار بالخلق تناقض عقليٌّ[1].

تعيين مرجع ضمير الخطاب في قوله: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾:

توجيه الخطاب إلى الضّالّين بعد الوعيد تقريرٌ بعد تقريع

مرجع ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ هم المخاطَبون في الآيات السّابقة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، أي: أولئك المنكرون للبعث والمعاندون للحقِّ، الَّذين وصفهم اللّه تعالى قبل ذلك بأنَّهم كانوا مترفين، مصرّين على الحنث العظيم، منكرين للبعث قائلين: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

فجاء الخطاب في ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾؛ ليكون بمنزلة التَّعقيب على جحودهم، وتذكيرهم بما يقطع حُجَّتهم، أي: أنتم تنكرون البعث، ونحن قد خلقناكم ابتداءً من نطفة، أفلا تُصدِّقون بقدرتنا على إعادتكم؟ فهذا الخلق الأوَّل شاهد حاضر على إمكان الخلق الثّاني.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾:

تفريعُ الاحتجاجِ العقليِّ على قاعدة أصل الخلق

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ واقعة في سياق احتجاج عقليٍّ يراد به إلزام المخاطَبين بوجوب الإيمان بالبعث، بعد أن تقرَّر خلقهم الأوَّل بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾، فجاءت الفاء لتربط هذا التَّقرير بما بعده على جهة التَّفريع البيانيِّ[2]، بمعنى: إذا كنتم تقرّون بأنَّ اللّه هو الَّذي خلقكم، فلمَ لا تصدِّقون أنَّه قادر على إعادتكم؟ فهي تفريع لإنكار عدم التَّصديق على أمرٍ قد ثبت لديهم، وهو الخلق.

فائدة (لولا) في الجملة:

(لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ من أدوات التَّحضيض

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 415.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 319.

والعتاب والتَّوبيخ، دخلت على فعلٍ مضارعٍ يُراد به طلبُ الإيمان والتَّصديق، "إمّا بالخلق؛ لأنَّهم وإن كانوا مصدِّقين به، إلّا أنَّهم لَمَّا كان مذهبهم خلافَ ما يقتضيه التَّصديق، فكأنَّهم مكذِّبون به، وإمّا بالبعث؛ لأنَّ مَن خلق أوَّلًا لم يمتنع عليه أن يُخلَق ثانيًا"[1]، فالتَّقدير البيانيُّ: (فلولا إذ قد علمتم أنَّنا خَلَقناكُم، وآتيناكم الحياة، تُصَدِّقونَ بذلك؟).

تحضيض المخاطَبين على الإيمان بالتَّوبيخ العقليِّ والتَّحريض الإيمانيِّ

بلاغة استعمال مفردة ﴿تُصَدِّقُونَ﴾:

ناسب اختيارُ لفظ ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ بدلًا من (تُؤمِنون) مقامَ الاحتجاج العقليِّ، وأكَّد على مقصدٍ مخصوص من مقاصد السّورة، وهو الاحتجاج على منكري البعث في سياقٍ استدلاليٍّ جدليٍّ، لا في معرض بيان أصل الإيمان، فالتَّصديق أخصُّ من الإيمان؛ إذ يُراد به تسليم الذِّهن وإذعان العقل بصدق الخبر، بعد قيام الحُجَّة عليه، بخلاف (الإيمان) الَّذي يشمل التَّصديق القلبيَّ والانقياد العمليَّ.

التَّصديقُ أوَّلُ منازل الإيمان واكتمال اليقين

بلاغة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تُصَدِّقُونَ﴾:

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ دون: (صدَّقتم)؛ للدَّلالةِ على الحال والاستمرار والتَّجدُّد[2]، كما يشي بالتَّقريع والتَّحفيز على تغيير الموقف في الزَّمن الحاضر، لا مجرَّد حكاية عن موقف ماضٍ، ففي قوله: ﴿فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ إيحاءٌ بأنَّ موطن الإنكار والتَّقصير ما يزال قائمًا، والفرصة ما تزال مهيَّأة لتدارك الأمر، ولذلك يوبِّخهم على استمرارهم في الجحود بالرَّغم من وضوح البرهان، كأنَّه يقول لهم: ما بالكم تُعرضون عن التَّصديق في الحال الحاضر؟

المضارع في موضع التَّوبيخ استدعاء الحاضر واستمرار الحُجَّة

والتَّعبير بالفعل المضارع يُبقي سامعَ الآيةِ حاضرَ الذِّهن، منتبهًا إلى أنَّ القضيَّة ليست تاريخيَّة منقطعة، بل ممتدَّة في كلِّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 463.

(2) المبرّد، المقتضب: 2/ 2، والزّمخشريّ، المفصّل: 2/ 137.

آنٍ، وتصلح لكلِّ مخاطَب، ولهذا تجد أنَّ آيات الحجج العقليَّة كثيرًا ما تُصاغ بالمضارع لما فيه من تصوير مباشر للحدث، وإبراز لقربه ومسِّه للواقع النَّفسيِّ والذِّهنيِّ.

تحفيزُ المخاطَبين على التَّعقُّل بتأمُّل خلقهم ومعرفة سرِّ بقائهم واستمرارهم

غرض الاستفهام في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ يُراد به التَّحفيز على التَّأمُّل والتَّبكيت العقليّ، وهو جارٍ على نسق نظائره في السّورة، من مثل قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾... ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾... ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾، وهو بمعنى (أخبروني)[1]، وغرضه إلفاتُ نظرٍ وتحريكُ بصيرة.

وبهذا، تتَّضح بلاغة الاستفهام في أنَّه يُقحم السّامع في تأمُّل مباشر، يوقظه من غفلته، ويدفعه إلى مواجهة الحقيقة دون وسائط: أنَّ الخلق ابتداءً وانتهاءً هو من اللّه وحده، وأنَّ الإنسان، وهو يباشر الأسباب، لا يملك من حقيقة الخلق شيئًا.

نقلُ الخطاب من مقام التَّوبيخ إلى مقام إقامة الدَّليل العقليِّ المحسوس

نوع الفاء ودلالتها في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هي فاء التَّفريع، وقد جاءت بعد قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، وهي تفيد التَّفريع الاستنتاجيَّ، أي: إنَّها ربطت بين التَّوبيخ السّابق وبين البرهان الَّذي يُراد إيراده في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، "أي: خلقناكم الخلق الَّذي لم تروه، ولكنَّكم توقنون بأنّا خلقناكم، فتدبَّروا في خلق النَّسل؛ لتعلموا أنَّ إعادة الخلق تشبه ابتداء الخلق"[2].

فالفاء هنا بمنزلة قولك: (إذا لم تُصدِّقوا، فانظروا إلى هذه الحقيقة الَّتي تدلُّكم على ما يجب عليكم أن تُصدِّقوا به)، فهي فاء ترتيب وتعقيب ذهنيٍّ، تُفصح عن أنَّ ما بعدها متفرِّعٌ عمّا قبلها،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 27/ 147.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 312.

من باب التَّعليل أو التَّفريع أو التَّسبُّب العقليِّ، ودلالتها البلاغيَّة: أنَّها تنقل الخطاب من التَّوبيخ واللَّوم على التَّكذيب، إلى مقام إقامة الدَّليل العقليِّ المحسوس.

تعيين المعطوف عليه في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

العطف على مقدَّر بعد همزة الاستفهام أو على مذكورٍ قبلها

المعطوف عليه بالفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هو ما تقرَّر في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، فجملة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ معطوفة على محذوفٍ مقدَّر دلَّ عليها السّياق، وتقديرها: (أعلمتم، فرأيتم ما تمنون)، فتكون ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ تفريعًا على ذلك التَّقدير، أو قيل: إنَّها معطوفة على قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾، أي: نحن خلقناكم، أفرأيتم ما تمنون؟ والفرق بين الأمرين، أن تكون الفاء عاطفة على مقدَّر بعد همزة الاستفهام وهذا مذهبٌ عريق للزَّمخشريِّ، والآخر أن تكون عاطفة على ما قبل همزة الاستفهام، وهو مقتضى مذهب سيبويه.

نوع الرُّؤية في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ ودلالتها:

رؤية اعتبار لا رؤية إبصار تقودُ إلى تحقيق الحقِّ في النُّفوس

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هي رؤية عقليَّة قلبيَّة، لا بصريَّة حسّيَّة؛ لأنَّ المقصود منها التَّأمُّل والتَّفكُّر في حقيقة النَّشأة الأولى للإنسان من المني[1]، والمقصود هنا هو تحريك العقل لإدراك دلائل البعث من خلال النَّظر العقليِّ في أصل الخلق، كما أنَّ ما يُمنى لا يُرى عادة في حال خروجه، ممّا يدلُّ على أنَّ الرُّؤية هنا رؤية اعتبار وتفكُّر، لا رؤية عين، وهذا المعنى متَّسق مع أسلوب القرآن في الاستدلال العقليِّ؛ إذ يُؤتى بمثل هذا الاستفهام التَّنبيهيِّ؛ ليدفع المخاطَب إلى التَّفكير في أمر قريب منه، معلوم لديه، ولكنَّه غافل عن دلالته الكبرى، فينبِّهه السّياق إلى أنَّ الخلق من نطفة لا يملكها الإنسان، ولا يعرف حقيقتها دليلٌ على قدرة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 313.

اللّه تعالى على البعث بعد الموت؛ إذ مَن خلق من ضعف، قادرٌ على الإعادة بعد الفناء.

نوع ﴿مَّا﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾:

المنيُّ المعروف أثره معدوم القدرة عليه ومدفوع التَّشبه به

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ، أي: (أفَرَأيتُم الشَّيءَ الَّذي تُمنونه؟) والمقصود بـ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾: ما تُلقونه من المَنيِّ في أرحام النِّساء، ودلَّت ﴿مَّا﴾ على العموم؛ لتشمل أصلَ المنيِّ ذاته وما فيه من الخلق الكامن في أصله، أي: إنَّ المولى ﷻ يستوقف الإنسان عند تلك النُّطفة الصَّغيرة المهينة؛ ليجعله يتأمَّل عجزه عن خلقها أو توجيه مصيرها، وفيها إشعار بعمق الجهل البشريِّ بحقيقة هذا المنيِّ، كأنَّه شيءٌ غير معلوم في ذاته، يُشار إليه بما يُستغلَق على الفهم، فتكون ﴿مَّا﴾ أبلغ في التَّجهيل والإبهام والتَّغريب، ممّا يثير العقل للتَّفكُّر.

براعة اختيار مفردة ﴿تُمْنُونَ﴾:

المنيُّ كلمةٌ ناطقةٌ بأصل الإنسانِ واستمراره وإعادته مع الإشعار بالمهانة

اختار النَّظم الكريم مفردة ﴿تُمْنُونَ﴾ الدّالَّة على التَّكاثر دون (تلدون) أو (تتكاثرون) أو (تُنجبون)؛ وذلك أنَّ لفظ ﴿تُمْنُونَ﴾ مأخوذٌ من (الإمناء)، أي: إلقاء المنيِّ، فكان التَّعبير به أبلغ في استحضار أصل الخلق الأوَّل، ونقطة الابتداء، لا ما يكون بعده من الولادة أو الميلاد، فالمقصود ليس الحديث عن الولد في حال وجوده، بل عن مبدأ وجوده من ذلك السّائل المهين الَّذي لا حيلة فيه للعبد، والَّذي هو أدنى ما يكون من حيث القدرة والعظمة والكرامة، ومنه يُبدَأ خلق الإنسان.

واختيار لفظ ﴿تُمْنُونَ﴾ يُلفت السّامع إلى عجائب القدرة الإلهيَّة الَّتي تبني الخلق على مادَّةٍ هي في نظر النّاس دون المقام، مهينة في ذاتها، فكيف بها إذا كانت موضع عناية ربّانيَّة تصنع منها إنسانًا كاملًا؟ فالتَّعبير هنا في غاية الدِّقَّة؛ لأنَّه لا يتوجَّه إلى تمام

الخلق، بل إلى لحظة البدء، واستمرار الخلق، وهو ما يناسب مقام التَّذكير بالإعادة والبعث، فإنَّ القادر على الإبداع من المنيِّ؛ قادرٌ على الإعادة من العظام والتُّراب.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تُمۡنُونَ﴾:

أوسع الأفعال امتدادًا في الحدث البشريِّ الكلِّيِّ هو فعل الإمناء

التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾؛ لبيان التَّجدُّد والاستمرار المستقبليِّ إلى يوم الدّين، فالإمناء حدثٌ بشريٌّ ممتدٌّ من لدن آدم ﵇ إلى أن يرث اللّٰه الأرضَ ومن عليها، فهو حدث واقعيٌّ متكرِّر متجدِّد مستمرٌّ، شاهد على قدرة اللّٰه في كلِّ آنٍ، وعلى استمرار الخلق بأمره وإرادته، فليست حياة النّاس ببَدْءٍ قد انقضى، بل ببدء يتجدَّد، وهذا أدعى لأن يستيقظ فيهم التَّذكير بالبعث؛ لأنَّه مبنيٌّ على نظيرٍ يَرَونه كلَّ يوم.

بلاغة الإسناد المجازيِّ في جملة ﴿تُمۡنُونَ﴾:

تصوير الفعل الامتنانيِّ توطئةٌ لنقض دعوى القدرة عليه

جاء إسناد فعل الإمناء إلى المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾ إسنادًا مجازيًّا، فهذا الفعل من حيث الحقيقة ليس من صنعهم، ولا قدرة لهم عليه، وإنَّما هو بتقدير اللّٰه وتدبيره، فالمنيُّ نعمةٌ إلهيَّة محضة، والمنيُّ إنَّما يُخرَج بأمر اللّٰه، ويحمل في قطراته أعقد أسرار الحياة، الَّتي لا يعلمها الإنسان، ولا يُدرك كنهها، ولا يملك أن يُبدلها، أو يُحسن توجيهها؛ فالإسناد مجاز عقليٌّ؛ إذ أُسنِد الفعل إلى سبب من أسبابه، لا إلى الفاعل الحقيقيِّ.

غرضُ الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾؛ للتَّقرير بتعيين خالق الجنين من النُّطفة؛ إذ لا يسعهم إلّا أن يقرّوا بأنَّ اللّٰه خالق النَّسل من النُّطفة، وذلك يستلزم قدرته على ما هو من نوع إعادة الخلق(1).

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 313.

جملة ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ بين الاسميَّة والفعليَّة:

سـؤال الخلق ثابت متجدِّدٌ في النَّفس البشريَّة

"(أنتُم) مبتدأ، وجملة ﴿تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ خبر، ويجوز إعراب (أنتم) فاعلًا لفعل مقدَّر، أي: أتخلقونه أنتم، فلمّا حُذِف الفعل؛ لدلالة ما بعده عليه؛ انفصل الضَّمير، وهو من باب الاشتغال، ولعلَّه من جهة القواعد أمكن لأجل أداة الاستفهام"[1]، والجملة على تقدير الاسميَّة والفعليَّة تحمل بلاغةً عالية، فالاسميَّة تُشير إلى دوام الاستفهام التَّقريريِّ في النَّفس المنكرة، إلى أن تؤوب إلى الحقِّ، فتذعن، وتؤمن، والفعليَّة تُشير إلى تجدُّد الاستفهام في خطاب النَّفس البشريَّة تجدُّدًا يُنتظر من ورائه رواء الإيمان في القلوب، فعلى الاحتمالين فالنُّكتة حاضرةٌ متجلّية في آثارها الإيمانيَّة، وفي سياقها الحجاجيِّ.

نكتة تقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ:

تقريرُ المنكرين في البدهيّات محرجٌ لعقولهم أمام البريّات

قُدِّم ذكر المسندِ إليه على المسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾: "لإفادة التَّقوّي؛ لأنَّهم لمّا نُزِّلوا منزلة من يزعم ذلك كما علمتَ؛ صيغت جملة نفيه بصيغة دالَّة على زعمهم، تُمكِّن التَّصرُّف في تكوين النَّسل"[2]، ويُلحَظ في التَّقديم إيماءٌ إلى التَّهكُّم بالمخاطَبين المنكرين، وأنَّ خلقَ المنيِّ لا يكون إلّا للّه وحده، فأفادت الجملة في المآل دلالة اختصاص الخلق بالخالق.

نوع ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها البيانيَّة:

احتمال أن تكون (أم) منقطعة ومتَّصلة

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ حرف عطف، تحتمل أن تكون منقطعةً؛ لأنَّ بعدها جملة، والمنقطعة تُقدَّر بـ(بل) وهمزة الاستفهام، فيكون الكلام مشتملًا على استفهامين، الأوَّل: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾، وجوابه: (لا)، والثّاني: مأخوذ من ﴿أَمۡ﴾، أي: بل نحن

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 441.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 314.

الخالقون وجوابه: (نعم)، أو لأنَّ الاستفهام ليس بحقيقيٍّ، فليس من غرضه طلب تعيين الفاعل، ويكون الكلام قد تمَّ عند قوله: ﴿تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾، والمعنى: أتظنّون أنفسكم خالقين النَّسمَة ممّا تمنون؟.

وتحتمل أن تكون ﴿أَمۡ﴾ متَّصلة، فهي معادلة، ويُؤيِّد هذا الوجه أنَّ الكلام يُؤَوَّل إلى أيِّ الأمرين واقع، والجملة بعدها في تأويل المفرد، كما أنَّ ما بعدها معطوف؛ لأنَّ الغالب ألّا يُذكَر له خبر اكتفاءً بدلالة خبر المعطوف عليه على الخبر المحذوف، وههنا أعيد الخبر في قوله: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ زيادة في تقرير إسناد الخلق إلى الله في المعنى، وللإيفاء بالفاصلة وامتداد نفس الوقف[1].

أسلوب القصر ودلالته:

تقديم النَّفي على الإثبات قصر برهانيٌّ مقوٍّ للأدلَّة ودامغٌ للبراهين

أفاد الاستفهام ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ تقريرهم على أنَّهم لا يخلقون، فثبت بذلك نفي الخلق عن المخاطَبين، ولمّا أثبت فيما بعد ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ فُهِم من مجموع ذلك قصر الخلق على الله تعالى[2]، كما أنَّ في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ قصرًا إضافيًّا بتعريف الجزأين المبتدأ ﴿نَحۡنُ﴾، والخبر ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ بقصر الخلق على الله وحده، ونفيه عمَّن سواه نفيًا قاطعًا، وبلاغة هذا الأسلوب ظاهرة في سياق الجدال الحجاجيِّ لمنكري البعث؛ إذ يُنتزَع الإقرار من الخصم بتسليم أوَّل مراحل الوجود: الخلق من ماء مهين، ثمَّ يُلزم بنتيجته: أنَّ مَن بدأ الخلق هو وحده القادر على إعادته.

غرض تقديم المسند إليه على المسند:

الخالقيَّة خصوصيَّة ربّانيَّة تُجابه المنكِرَ بالأدلَّة العيانيَّة

قُدِّم ذكر الضَّمير ﴿نَحۡنُ﴾ المسند إليه على المسند ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ لإفادة مزيد من التَّخصيص والتّوكيد، فهو قصر بالجملة والتَّقديم معًا، وهذا القصر يجيء في سياق تقرير الحقيقة بعد إنكارها،

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 441.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314.

ففيه ضرب من المجابهة البرهانيَّة، يقيمها القرآن بأقوى الأساليب الَّتي تُرغم الخصم على التَّسليم: (أنتم لا تخلقون، ونحن وحدنا الخالقون)، فكما لا قدرة لكم على بدء الخلق، فلا قدرة لكم على بعثٍ بعد الموت، وهو موطن الإنكار الَّذي جوبهوا به، فالمعنى البيانيُّ المحقَّق هنا: ليس الخالق لهذا المنيِّ وما يتبعه من أطوار الخلق سوانا، فنحن الَّذين ننفرد بهذا الوصف، وهذا الفعل، لا أنتم ولا غيركم، فدعوا التَّكذيب، وتفكَّروا.

نكتة ذكر ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ وعدم الاكتفاء بما قبل ﴿أَمۡ﴾:

إبــراز المـعـاني الكبرى بالألفاظ الـحـاصـرة والمؤكَّدة أرسخ من الإيماء

ذكر لفظ ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ بعد ﴿أَمۡ نَحۡنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ دون الاكتفاء بأن يُقال: ﴿أَمۡ نَحۡنُ﴾؛ وذلك لأنَّ الإتيان باسم الفاعل ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ أفاد توكيد المعنى واستقراره في الذِّهن، والعدول إلى اسم الفاعل أفاد قصرًا بلاغيًّا بوساطة تعريف الطَّرفين، ولمّا ذُكِر في صدر الآية: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾، جاء بعدها: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾، لا بمجرَّد الإسناد الفعليِّ بل بالصِّفة اللّازمة ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ ليقع التَّباين بيانيًّا بين دعوى الخلق من جهة الإنسان، وهي دعوى ظاهريَّة شكليَّة لا حقيقة لها، وبين الخلق الحقيقيِّ المتقن الكامل، الَّذي لا يكون إلّا للّٰه تعالى.

بلاغة فنِّ الاحتباك:

الاحتباك كاشفٌ عن تقابل لفظيٍّ مغاير وحذف مثيله

في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ احتباك؛ إذ "ذكر أوَّلًا (تخلقون) دليلًا على حذف مثله له سبحانه ثانيًا، وذكر الاسم ثانيًا دليلًا على حذف مثله لهم أوَّلًا، وسرُّ ذلك أنَّه ذكر ما هو الأوفق لأعمالهم ممّا يدلُّ على وقت التَّجدُّد، ولو وقتًا ما، وما هو الأولى بصفاته سبحانه ممّا يدلُّ على الثَّبات والدَّوام"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 416.

علَّة فصل جملة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾:

فُصل قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ مستقلٌّ، فقد شرعت الجملة ببيان أمر الموت بعد ذكر خلق النّاس، وهو فصل مقصود بيانيًّا، وله نكتة بلاغيَّة عميقة تتجلَّى في توجيه التَّركيز والانتباه إلى مضمون هذه الجملة المستقلَّة، لتوكيد مضمونها وتثبيته في الذِّهن، فإنَّ تقرير أنَّ الموت مقدَّر، وليس طارئًا ولا عشوائيًّا هو قضية مستقلَّة في ذاتها تستدعي توكيدًا خاصًّا، فجاءت الجملة منفصلة؛ لتدلَّ على أنَّ اللّه وحده هو المتصرِّف في أمر الحياة والموت دون أن يكون ذلك ملحقًا بالخلق فقط، بل هو قدر إلهيٌّ مستقلٌّ، وفي ذلك توخٍّ للتَّفخيم والإجلال؛ إذ إنَّ الفصل يحمل وظيفة الفصل التَّعظيميِّ؛ لتكون الجملة ذات وقع خاصٍّ في نفس السّامع لما تحويه من تقرير أمر جلل هو الموت الَّذي يقع بتقدير محكم.

استئناف المعاني المترابطة مزيَّة النَّظم الحكيم وبلاغة الرَّبط المتين

نكتة تقديم المسند إليه على المسند في قوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾:

قُدِّم المسندُ إليه على المسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾؛ "لإفادة تقوّي الحكم وتحقيقه، والتَّحقيق راجع إلى ما اشتمل عليه التَّركيب من فعل ﴿قَدَّرْنَا﴾ وظرف ﴿بَيْنَكُمُ﴾ في دلالتهما على ما في خلق الموت من الحكمة الَّتي أشرنا إليها"[(1)]؛ إذ جاءت في مقام تقرير الحقائق العليا الَّتي تُبطل مزاعم المكذِّبين بالبعث والنَّشأة الثّانية، فجاء هذا التَّقديم بأسلوبٍ قَصريٍّ، يُفيد الحصر والتَّوكيد، فيُفهَم منه المعنى: نحن لا غيرنا قدَّرنا الموت بينكم.

قصر تقدير الآجال على الخبير الحكيم توطئةٌ لميقات الحليم العليم

بلاغة الإطناب في قوله: ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾:

آثر النَّظم الكريم الإطناب على الإيجاز، في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، فلم يقل: (نُميتُكم)، ففي لفظ ﴿قَدَّرْنَا﴾ إشعارٌ بالتَّقدير المسبَق، والحكمة المتقنة، والتَّدبير المحيط، لا الإيقاع

تقديرُ الموتِ تقسيم الآجال وتوزيع الأعمار بقدرٍ عائدٍ إلى الخبير الحكيم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314.

العشوائيِّ للموت، كما قد يتوهَّم من يرى الموت حادثًا بلا نظام، فالموت عند اللّه ليس مجرَّد إماتة تحصل، بل هو مقدَّر بميزان محكم، وفي أوقات مضبوطة، وعلى كيفيَّة مخصوصة، وهذا المعنى لا تُفيده لفظة (نميتكم) المجرَّدة عن دلالة التَّقدير، فالموت "مجعول على تقدير معلوم مراد، مع ما في مادَّة ﴿قَدَّرۡنَا﴾ من التَّذكير بالعلم والقدرة والإرادة؛ لتتوجَّه أنظار العقول إلى ما في طيِّ ذلك من دقائق، وهي كثيرة، وخاصَّة في تقدير موت الإنسان الَّذي هو سبيل إلى الحياة الكاملة؛ إن أخذ لها أسبابها"[1].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

القراءات المتواترة تـنـوُّعٌ لـفـظـيٌّ وتوافق دلاليٌّ

اختلف القرّاء في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾، فقرَأ ابن كثير (قَدَرنا) بالتَّخفيفِ، وقَرَأ الباقونَ بالتَّشديدِ ﴿قَدَّرۡنَا﴾ وهما لُغَتانِ قدرْتُ وقدَّرت[2]، "وهما بمعنى واحد، فالتَّشديد مصدره التَّقدير، والتَّخفيف مصدره القَدر"[3].

براعة ذكر الظَّرف ﴿بَيۡنَكُمُ﴾:

الموت قسمةٌ بين البشر لا يفلت منها امــرأةٌ أو ذكر

جاء التَّعبير بالظَّرف في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾؛ للدَّلالة على التَّوزيع المقصود والمنتظم للموت في النّاس، فليس هو وقوعًا عشوائيًّا، بل هو تفريق، وتقدير موزَّع في بني آدم بحسب حكمة إلهيَّة، فيقع على بعضهم دون بعض في أوقات مختلفة وأعمار متباينة، فالموت "يأتي على آحادهم تداولًا وتناوبًا، فلا يفلت واحد منهم، ولا يتعيَّن لحلوله صنف ولا عمر، فآذن ظرف (بين) بأنَّ الموت كالشَّيء الموضوع للتَّوزيع لا يدري أحد متى يصيبه قسطه منه، فالنّاس كمن دعوا إلى قسمة مال أو ثمر أو نعم لا يدري أحد

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314.

(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 367، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 383.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 315.

متى يُنادى عليه ليأخذ قسمه، أو متى يطير إليه قِطُّه، ولكنَّه يوقن بأنَّه نائله لا محالة"[1].

فالتَّعبير بـ﴿بَيۡنَكُمُ﴾ أبلغ من (لكم) أو (عليكم)؛ لأنَّه يصوِّر الموت، وكأنَّه يتحرَّك داخل الجماعة البشريَّة، واقعًا فيهم ومختلطًا بهم، لا يأتي من خارجهم، ويُفيد شمول التَّقدير لجميع النّاس دون استثناء، كما يحمل إشارة إلى استمرار هذا التَّقدير في كلِّ جيل وتعاقب، وفيه معنى الاحتجاج بانتظام وقوع الموت بين النّاس على صحَّة البعث؛ إذ من قدَّر ذلك بتلك الدِّقَّة، فهو أقدر على الإعادة، وقد جاء هذا التَّعبير موافقًا لمنهج السّورة في إثبات البعث من خلال حقائق واقعة محسوسة تقرُّ بها العقول والعيون.

بلاغة الاستعارة المكنيَّة:

الموتُ حاضرٌ بين النّاسِ ينتظر وقتَ قطعِ الأنفاسِ

بذكر الظَّرف ﴿بَيۡنَكُمُ﴾ كان في قوله: ﴿بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ "استعارة مكنيَّة؛ إذ شُبِّه الموت بمقسوم، ورُمِز إلى المشبَّه به بكلمة ﴿بَيۡنَكُمُ﴾ الشّائع استعمالها في القسمة، قال تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [القمر: 28]، وفي هذه الاستعارة كناية عن كون الموت فائدة ومصلحة للنّاس، إمّا في الدُّنيا لئلّا تضيق بهم الأرض والأرزاق، وإمّا في الآخرة؛ فللجزاء الوفاق"[2]، وفي هذا التَّصوير البلاغيِّ إشارة ضمنيَّة إلى أنَّ الموت حقٌّ جارٍ بنظام، وليس فناءً عبثيًّا، ممّا يُقوّي حُجَّة البعث الَّتي تسوقها السّورة، ويجعل من التَّأمُّل في هذه النِّعمة الإلهيَّة مدخلًا إلى الإيمان بالخالق المدبِّر، القادر على النَّشأة الثّانية.

بلاغةُ العدولِ عن الفاء إلى الواو ودلالتها البيانيَّة:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ "نتيجةٌ لما سبق من الاستدلال

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 315.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314.

تعليمُ الخلقِ القدرةَ المطلقة باستقلال الجمل المترابطة

على أنَّ اللّٰه قادرٌ على الإحياء بعد الموت، فكان مقتضى الظّاهر أن يعطف بفاء التَّفريع، ويترك عطفه، فعدل عن الأمرين، وعطف بالواو عطف الجمل فيكون جملة مستقلَّة مقصودًا لذاته؛ لأنَّ مضمونه يفيد النَّتيجة، ويفيد تعليمًا اعتقاديًّا، فيحصل الإعلام به تصريحًا وتعريضًا، فالصَّريح منه التَّذكير بتمام قدرة اللّٰه تعالى، وأنَّه لا يغلبه غالب، ولا تضيق قدرته عن شيء، وأنّه يُبدِّلهم خلقًا آخر في البعث مماثلًا لخلقهم في الدُّنيا، ويفيد تعريضًا بالتَّهديد باستئصالهم وتعويضهم بأُمَّة أخرى، كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ٢٠﴾ [إبراهيم: 19 - 20]، ولو جيء بالفاء؛ لضاقت دلالة الكلام عن المعنيين الآخرين"(1).

نكتة استعمال أداة النَّفي (ما):

توكيد المعاني وتقويتها مسلكُ القرآن في السّياق الحجاجيّ

آثر النَّظم الكريم استعمال أداة النَّفي (ما)، في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بدلًا من (لسنا بمسبوقين)؛ ليُضفي على الجملة مسحة من القوَّة والصَّرامة، فهي آكد من (ليس)(2)، وفيها معنى التَّوكيد(3)، وهي مع الجملة الاسميَّة تُفيد الاستغراق والثُّبوت، أي: إنَّ انتفاء المسبوقيَّة عن اللّٰه تعالى أمر راسخ دائم لا يتبدَّل، فهذا نصٌّ في الرُّسوخ والثَّبات.

نكتة تقديم المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾ على ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾:

الخلقُ كلُّه مسبوقٌ والحقُّ وحدَه سابقٌ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، جاء تقديم المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾ على المسند ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لإفادةِ القصر، أي: نحن وحدنا لا يسبقنا أحد، ولا يكون ذلك لغيرنا، وهذا ضرب من أسلوب القصر العربيِّ المعروف بتقديم ما حقُّه التَّأخير، وهو أسلوبٌ يُستعمَل

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 316.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 460.
(3) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 176.

للتَّخصيص أو للتَّوكيد أو للرَّدِّ على دعوى باطلة، وهنا فيه ردٌّ صريح على شبهة الكُفّار في إنكارهم البعث وقدرة اللّه على الإعادة.

ثمَّ إنَّ في تقديم ﴿نَحۡنُ﴾ تقوية للضَّمير، وتوكيدًا على عظمة الفاعل الَّذي هو اللّه جلَّ شأنه؛ إذ يحمل هذا التَّقديم معنى الهيمنة والاقتدار، كأنَّما قيل: (نحن المتفرِّدون المدبِّرون، ونحن القادرون على الإعادة كما ابتدأنا أوَّل مرَّة، وليس ثَمَّة من يغلبنا، أو يتقدَّمنا).

نوع الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِمَسۡبُوقِينَ﴾:

توكيد عجز البشر وتثبيت معنى الاستحالة

الباء في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾؛ لتوكيد النَّفي الدّاخل على ﴿بِمَسۡبُوقِينَ﴾[1]، لتفيد تقوية المعنى وتثبيته في النَّفس، فجاءت؛ لتُعزِّز دلالة النَّفي من جهة، وتمنح الجملة بعدًا من الجزم واليقين من جهة أخرى، وقد استُعمِلت الباء؛ لما في هذه البنية من استبعاد أن يُسبَق اللّه تعالى، أو يُغلَب على أمره، فهي تفيد الامتناع والاستحالة معًا، وتوحي بكمال القدرة الإلهيَّة ونفاذ إرادته في الخلق والموت والإعادة، وتتناسب مع مقام الجلال الَّذي يسوق فيه اللّه الحجج على البعث والقدرة، كما أنَّ التَّعبير بها ينسجم مع نغمة السّورة وأسلوب التَّحدّي فيها، فهي أبلغ وأوقع في النَّفس من النَّفي المجرَّد.

بلاغة استعمال مفردة السَّبق دون الغلبة:

نفي السَّبق أبلغ من نفي الغلبة، فإذا تعذَّر السَّبق؛ فمن باب أولى الغلبة

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾، "أي: على أن نذهبكم، ونأتي مكانكم أشباهكم من الخلق، فالسَّبق مجازٌ عن الغلبة استعارة تصريحيَّة أو مجاز مرسل عن لازمه"[2]، فالتَّعبير بلفظ السَّبق دون الغلبة في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾، يجيء على طريقة القرآن في الدِّقَّة البلاغيَّة؛ إذ السَّبق أخصُّ وأدقُّ من الغلبة؛ لأنَّ السَّبق يدلُّ على فوات الفاعل إلى الشَّيء قبل غيره، أو قبل أن يتمكَّن

(1) الحمصيّ، حاشية التّصريح: 1/ 156.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 147.

غيره من منعه، وهو أن يفوته من يريد منعه من فعل شيء، فإذا نُفي السَّبق؛ دلَّ ذلك على أنَّ اللّه تعالى لا يُفوَّت عليه شيء، ولا يسبقه أحد إلى أمر هو يريده، ولا يقدر أحد أن يمنعه من إنفاذ ما شاء، لا بتقدُّم عليه، ولا بمبادرة قبله، ولا بقطع عليه طريق فعله، ومن ثمَّ فإنَّ نفي السَّبق أبلغ من مجرَّد نفي الغلبة؛ لأنَّ الغلبة قد تكون بعد نزاع، أمّا نفي السَّبق؛ فيدلُّ على الاستئثار بالفعل من أصله، ويقطع احتمال المعارضة أو المانعة من جذورها.

غرض التَّعبير بقوله: ﴿أَن نُّبَدِّلَ﴾:

بين المصدر والفعل سرُّ التَّعبير بالفعل في مقام التَّحذير والقدرة

جاء التَّعبير بالفعل المضارع المنسبك مع ﴿أَن﴾، في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾؛ لما في الفعل من دلالة على التَّجدُّد والحدوث الزَّمنيِّ والفعليَّة المتحرِّكة، ممّا يُناسب السّياق البلاغيَّ الذي يُراد به التهديد والتحذير والتوكيد على القدرة الإلهية الفاعلة والمتجدِّدة، لا سيَّما في مقام الرَّدِّ على المكذِّبين بالبعث، وفي قوله: ﴿أَن نُّبَدِّلَ﴾ إشعار بالفعل من جهة القصد والتَّوجُّه، بينما المصدر (تبديل) لا يشعر بالفعل بقدر ما يشعر بحقيقته الذِّهنيَّة، وكأنَّما هو وصف للفعل لا فعله، وهذا ما يُضعِف من إيحاء التَّهديد.

بلاغة التَّعبير بلفظ: ﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾:

الإيجاز المهيمن في الاقتصار على المذكور دون ذكر البدل في سياق التَّهديد

﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ جمع (مِثْل) بكسر الميم وسكون المُثَلَّثة، وهو النَّظير[1]، والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾، أي: على أن نبدِّل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق، وعلى أن (ننشئكم) في خلق لا تعلمونها، وما عهدتم بمثلها، يعني: إنَّا نقدر على الأمرين جميعًا: على خلق ما يماثلكم، وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟ ويجوز أن يكون ﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 463، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 317.

جمع مثل، أي: على أن نبدِّل، ونُغيِّر صفاتكم الَّتي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم، وننشئكم في صفات لا تعلمونها(1).

وآثر النَّظم الكريم التَّعبير بقوله: ﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ دون أن يقول مثلًا: (نُبَدِّلَكُم بأمثالِكُم) أو (نُبَدِّلَ أمثالًا مِنكُم)؛ لجمعِ الاحتمالين المذكورين آنفًا، أي: تبديل النّاس أو تبديل الصِّفات، وللإيماءِ إلى أنَّ المراد ليس مجرَّد الإبدال بمثيل أو بديل، بل التَّنبيه على أنَّ أمثالهم - وهم بشر أيضًا - يمكن إيجادهم وإنشاؤهم على نسقهم أو على هيئة تزيد عليهم، دون الحاجة إلى بيان مَن يُبدَّل بهم، كأنَّ القدرة قادرة على أن تطرحهم، وتأتي بغيرهم دون تفصيل، ما دام أولئك ﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾، وهنا تحقير خفيٌّ وسلب لخصوصيَّتهم، وأنَّ اللّه لا يعجزه أن يخلق بشرًا يُماثلونهم في الخِلقة، أو يزيدون، فأنتم لستم شيئًا استثنائيًّا.

بلاغة العطف بالواو في قوله: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ﴾:

من التَّبديل إلى الإنشاء تصعيد الوعيد في بناء قرآنيٍّ محكم

﴿وَنُنشِئَكُمۡ﴾ عطف على ﴿نُّبَدِّلَ﴾، أي: ما نحن بمغلوبين على إنشائكم، وهذا العطف يحتمل أن يكون عطفَ مغايرٍ بالذّات، فيكون إنشاؤهم شيئًا آخر غير تبديل أمثالهم، أي: نحن قادرون على الأمرين جميعًا، فتبديل أمثالهم خلْقُ أجساد أخرى تودَع فيها الأرواح، وأمّا إنشاؤهم؛ فهو نفخ الأرواح في الأجساد الميتة الكاملة، وفي الأجساد البالية بعد إعادتها بجمع متفرِّقها أو بإنشاء أمثالها من ذواتها، مثل: عَجب الذَّنب، وهذا إبطال لاستبعادهم البعث بعد استقرار صور شبهتهم الباعثة على إنكار البعث(2).

وعُطِف بالواو؛ لأنَّه بمفرده تصوير لقدرة اللّه تعالى وحكمته بعدما أفاده قوله: ﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ من إثبات أنَّ اللّه قادر على

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 463.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 318.

البعث[1]، وقد اختيرت (الواو) دون (ثمَّ) أو (الفاء)؛ لتفيد الجمع دون ترتيب زمنيٍّ يوحي بتباطؤ، فإنَّ التَّهديد لا يُمنَح فيه مهلة تدعو إلى التَّدرُّج، بل يأتي التَّهديد مزدوجًا متوازيًا، فكلا الفعلين واقع في قدرتنا وفي إمكاننا دفعة واحدة.

نكتة استعمال مفردة (ننشئكم):

تهويل المصير المجهول والوعد بالعودةِ المبهمة

آثر البيان القرآني لفظ ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ذلك أنَّ لفظ (نعيدكم) يُشعر بالرَّجعة إلى حالٍ معلومة وتجربة مألوفة، وهي النَّشأة الأولى، أمّا لفظ (ننشئكم)؛ فيدلُّ على ابتداعٍ وإنشاءٍ من نوع آخر لا عهد لهم به، وهو ما صرَّح به بقوله: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: في هيئة أو خلق أو طورٍ مجهول مغاير لطبيعتكم الَّتي تعرفون، قال البقاعيُّ: "أي: إنشاءً جديدًا بعد تبديل ذواتكم ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فإنَّ بعضهم تأكله السِّباع أو الحيتان أو الطُّيور، فتنشأ أبدانُها منه، وبعضهم يصير ترابًا، فربَّما نشأ منه نبات فأكلته الدَّواب، فنشأتَ منه أبدانها، وربَّما صار ترابه من معادن الأرض كالذَّهب والفِضَّة والحديد والحجر ونحو ذلك، وقد لح إلى ذلك قوله تعالى: ﴿۞قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا﴾ [الإسراء: 50 - 51] إلى آخرها، أو يكون المعنى كما قال البغويُّ: نأتي بخلق مثلكم بدلًا منكم، ونخلقكم فيما لا تَعلَمونَ من الصّور، أي: بتغيير أوصافكم وصوركم في صور أخرى بالمسخ، ومن قدر على ذلك؛ قدر على الإعادة[2].

فجاء اختيار (ننشئكم)؛ ليفيد الابتداع لا الإعادة، وليثير في المخاطَبين قلقًا وغموضًا عن المصير، فهُم لا يعلمون ما سيكونون عليه، وهل يكون ذلك في أجساد أخرى، أم في عالم مختلف، أم بصفات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 318.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 417.

مغايرة، وكلُّ ذلك يفتح عليهم باب الهلع من المجهول، فيكون أوقع في قلوب المكذِّبين بالبعث، وأبلغ في التَّهديد من مجرَّد (الإعادة).

بلاغة استعمال حرف الظَّرفيَّة:

غموضُ الظَّرفيَّة ترهيبٌ نفسيٌّ دافعٌ لاستدراك الغموض الإيمانيّ

الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ظرفية مجازيَّة معناها قوَّة الملابسة الشَّبيهة بإحاطة الظَّرف بالمظروف، كقوله: ﴿فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 7 - 8][(1)]، وهذا يتناسب مع المعنى المقصود، وهو أنَّ النَّشأة الجديدة الَّتي يُهدَّدون بها ستكون في طور أو حال أو عالم أو هيئة مجهولة لهم، فهُم لا يُحيطون بها علمًا، ولا يدركون كنهها، فكأنَّهم سيقعون ضمن شيءٍ مبهمٍ محيط بهم من كلِّ جانب، أشبه بالولوج في تجربة وجوديَّة لا سبيل لهم إلى تصوُّرها، وهو ما يُثير في النَّفس رهبة وغموضًا؛ لأنَّ (الظَّرفيَّة) تعني أنَّ المخلوق يكون غارقًا ومحاطًا، وكأنَّ تلك النَّشأة الجديدة ستكون بيئة أو وعاءً يحتويهم، لا مجرَّد صفة طارئة عليهم.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالتها:

الاتِّساق في استعمال أدوات الإبهام والغموض أنسب في معاني النَّظم

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، موصولة وليست نكرة موصوفة أو شرطيَّة، ودلالتها هنا تفيد العموم في المجهول، أي: في الَّذي تجهلونه من الأطوار والهيئات والكيفيّات، فهي اسم موصول بمعنى: الَّذي، والتَّقدير: في الَّذي لا تعلمونه.

وتقع ما على ذوات ما لا يعقل وعلى صفات من يعقل، جاءت ﴿مَا﴾؛ لاستخدامها فيما يعقل وما لا يعقل، فجاء التَّعبير بها دون (الَّذي)؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ أعمُّ وأدلُّ على الغموض والإبهام، قال سيبويه: "و(مَن) وهي للمسألة عن الأناسيِّ، ويكون بها الجزاء للأناسيِّ و(ما) مثلها إلّا أنَّ (ما) مبهمة تقع على كلِّ شيء"[(2)].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 318.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 309.

"و﴿مَا﴾ من قوله: ﴿فِى مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ صادقة على الكيفيَّة، أو الهيئة الَّتي يتكيَّف بها الإنشاء، أي: في كيفيَّة لا تعلمونها؛ إذ لم تحيطوا علمًا بخفايا الخلقة، وهذا الإجمال جامع لجميع الصّور الَّتي يفرضها الإمكان في بعث الأجساد لإيداع الأرواح"[1]، وقد جاءت هنا لتعزيز المعنى المراد من المقام، وهو تهويل النَّشأة الجديدة وتجهيل حقيقتها عن الخلق، حتَّى يشعر السّامع أنَّ تلك النَّشأة واقعة في حيِّزٍ مجهولٍ لا يعلم الإنسان له جهة ولا وصفًا.

نكتة استعمال أسلوب النَّفي في قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

النَّفي في تصوير المجهول أبلغ في النَّفس في مشهد النَّشأة الأخرى

آثر النَّظم الكريم استعمال أسلوب النَّفي في قوله تعالى: ﴿فِى مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ بدلًا من الإثبات، فلم يقل: (في ما جهلتم)؛ وذلك ليحمل دلالة بلاغيَّة رفيعة، تتجلَّى في توكيد انقطاع علمهم كلّيًّا عن حقيقة تلك النَّشأة، وجعل المجهول عنهم أمرًا مطبقًا لا سبيل إلى تصوُّره أو إدراكه، وليس مجرَّد خفاء نسبيٍّ، ففي النَّفي بـ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ تنبيه إلى أنَّ الجهل هنا ليس طارئًا ولا عارضًا، بل هو جهل مستقرٌّ، مطلق، لا يُدرك الإنسان حقيقته بعقله ولا بخياله، ثمَّ إنَّ أسلوب النَّفي أدخل في باب الإبهام المرهِب والتَّجهيل المقلق، وفيه إشعار بأنَّ تلك النَّشأة الَّتي يُنشَؤون فيها ليست من مألوف تصوُّراتهم، ولا ممّا يدركه خيالهم، ولا ممّا شوهد له نظير في الدُّنيا، فيكون أدعى لبعث الخشية في قلوب المكذِّبين، وأشدَّ تأثيرًا في زعزعة غرورهم، وأبلغ تحريكًا لوجدانهم.

غرض حذف المتعلِّق بالفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

المخاطَبون لا يعلمون رسوخًا، ولا يعلمون حقائق المبهمات

إنَّ حذف المتعلِّق بالفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فِى مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، جاء لتحقيق بلاغة الإبهام المقصود، وهو إبهام المفعول

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 318.

به، أي: لا تعلمون ماهيَّته، أو كنهه، أو حقيقته، أو وقته، أو كيفيَّته، وكلُّ تلك الاحتمالات مقصودة معًا على سبيل التَّوسُّع لا التَّضييق، فكان حذف المتعلِّق وسيلة لإشاعة الغموض والتَّهويل، وهذا الإبهام يسهم في تعميق أثر التَّهديد، فيجعل النُّفوس تتوجَّس من أمر مجهول لا قِبَلَ لها به ولا تصوُّرَ لمداه.

ومن لطيف ما يفيده الحذف هنا أنَّ الإنشاء الجديد الَّذي يُتوعَّدون به ليس فقط مجهولًا من حيث وقته أو مظهره، بل هو مجهول من كلِّ وجه؛ لأنَّ ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ تُفيد نفي العلم بأيِّ شيء عنه، ولو ذُكر المتعلِّق؛ لتحدَّد وجه الجهل، كأن يُقال: لا تعلمون هيئته أو زمنه، لكن بحذف المتعلِّق صار الجهل به تامًّا مطبقًا، وهذا أعون على إثارة الرَّهبة والوجل في صدور من يُخاطَبون، ولا سيَّما في معرض تهديد إنكاريٍّ بعد ذكر صنوف النَّكال في الآيات السّابقة.

كما أنَّ من أغراض حذف المتعلّق تنزيل الفعل المتعدّي منزلة اللّازم؛ لبيانِ أنَّهم في هذا المضمار لا يعلمون، فيكون نفي العلم وصفًا راسخًا فيهم، والنِّكات لا تتزاحم.

براعةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

الاستمرار في الجهل تحدٍّ صارخٌ إلى يوم الدّين

التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ جاء للدَّلالة على الاستمرار والتَّجدُّد، فقوله: ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ لا يصف حالًا ماضويًّا محدودًا بل يُشيرُ إلى أنَّ جهلكم بما سينشئه اللّٰه في الآخرة أمرٌ قائم وممتدٌّ ومتجدِّد، فأنتم الآن لا تعلمون، ولن تعلموا ذلك إلّا حين وقوعه، ولا سبيل لكم إلى إدراكه في الدُّنيا، فنفي العلم مستمرٌّ متجدِّد، وفيه ردٌّ على أدعياء معرفة الغيب، فالفعل المضارع تحدٍّ صارخٌ مستمرٌّ يُنادي عليهم أن لن تعلموا، وهو ما يجعل التَّهديد مفتوحًا على مصير مجهول، يزيد القارئ أو السّامع حذرًا وارتقابًا؛

لأنَّ ما لا يُعلَم متوقَّع فيه كلُّ شيء، وهذا أبلغ في التَّخويف من معرفة الجزاء أو العذاب بعينه.

كما أنَّ المضارع ينسجم بلاغيًّا مع المقابلة المقصودة في آخر الآية نفسها: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، فالمضارع في ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ جاء ليُقابل الماضي ﴿عَلِمۡتُمُ﴾، فكأنَّ المعنى: قد علمتم بأبصاركم ووقائعكم النَّشأة الأولى، أمّا الثّانية؛ فجهلكم بها تامٌّ وممتدٌّ كعلمكم في الأولى، فكيف تجحدونها، وهي في قدرة من أنشأ الأولى؟.

نوع الواو وبلاغتها في قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

واو الاستئناف حُجَّة مباغتة وتوبيخ مضمَر وتلويح بالتَّكذيب

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ للاستئناف، وبلاغتها في هذا الموضع دقيقة، تحمل نكتة بيانيَّة تتَّصل بسياق الإنكار والتَّقريع المتدرِّج الَّذي تنتهجه الآيات.

فهي تفيد الانتقال من تقرير قدرة اللّه على إنشاء النَّشأة الثّانية - الَّتي جهلها المنكرون، وكذَّبوا بها - إلى إقامة حُجَّة محسوسة عليهم، وهي علمهم اليقينيُّ بالنَّشأة الأولى، أي: علمهم بأنَّهم وُجدوا بعد أن لم يكونوا، وأنَّ اللّه خلقهم من نطفة، ثمَّ طوَّرهم، وهذا الانتقال في الخطاب جاء مفاجئًا ومباشرًا للتَّوكيد والاحتجاج، والتَّلويح بالتَّكذيب.

دلالة التَّوكيد باللّام و(قد):

توكيد الحُجَّة ونقض المكابرة دفعٌ للإنكارِ وتحقيرٌ للتَّكذيب

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ هي لام القسم، وهي تفيد التَّوكيد، وتدلُّ على أنَّ ما بعدها مُؤكَّد قسمًا، وأمّا (قد)؛ فهي أيضًا حرف تحقيق إذا دخلت على الفعل الماضي[1]، وتفيد أنَّ الفعل قد وقع، وثبت، فيكون التَّركيب كلُّه - ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ﴾ - مشحونًا بتوكيدين متعاقبين بالقسم (اللّام) والتَّحقيق بـ (قد).

وبهذا التَّعبير المكثَّف، يُقرِّر اللّه ﷻ علم المخاطَبين المؤكَّد

(1) الصّافي، إعراب القرآن: 27/ 123.

بالنَّشأة الأولى، ويجعله برهانًا قطعيًّا على إمكان النَّشأة الثّانية، بل حُجَّة عقليَّة عليهم إن هم أنكروها؛ إذ مَن عَلِم النَّشأة الأولى، وجرَّب أطوار خلقه، لا يسعه إنكار النَّشأة الثّانية إلّا جحودًا أو غفلة.

براعة الطِّباق بين نفي العلم وإثباته:

بـنـاء الـحُـجَّة المـجـادل بـها بالحُجَّة المتَّفق علـيها بـطـباقٍ محكم

في قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ براعة بيانيَّة بليغة تتجلَّى في الطِّباق الأسلوبيِّ بين نفي العلم في قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾، وإثباته في قوله: ﴿عَلِمْتُمُ﴾، فمن جهة، عبَّر القرآن عن النَّشأة الثّانية بكونها فيما لا يعلمون، إشارة إلى أنَّها تختلف عن النَّشأة الأولى من حيث الهيئة أو الطَّبيعة أو العالم الَّذي تُنشَأ فيه النُّفوس، "فالعلم المنفيُّ في قوله: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو العلم التَّفصيليُّ، والعلم المثبت في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هو العلم الإجماليُّ، والإجماليُّ كافٍ في الدَّلالة على التَّفصيليِّ؛ إذ لا أثر للتَّفصيل في الاعتقاد"(1).

ومن جهة أخرى، جاء إثبات العلم بالنَّشأة الأولى؛ ليكون مقدِّمة منطقيَّة، وبُرهانًا عقليًّا على إمكان النَّشأة الأخرى؛ إذ إنَّ الَّذي خلقكم أوَّل مرَّة على غير مثال سابق، قادر على أن يعيد خلقكم كيف شاء، في صورة لا تعلمونها، وهنا تتجلَّى روعة الطِّباق، فكما كنتم تعلمون النَّشأة الأولى علمًا يقينيًّا حسّيًّا، فإنَّ النَّشأة الأخرى ستقعون فيها، ولكن في طور لا تعلمونه الآن.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿عَلِمْتُمُ﴾:

الـفـعـل المـاضي يُـقـيـم الـبرهـان عـلى حـضـور الـعـلـم في الأذهـان تحـقُّقًا لا يقبل الانزياح

التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، يحمل دلالة بيانيَّة دقيقة مقصودة، فهي لتحقيق الوقوع وثبوته؛ لأنَّ الماضي يدلُّ على أمر مضى، وانقضى، وثبت علم المخاطَبين به، ممّا يُقرِّب الحُجَّة، ويقطع المعذرة، ويجعل العلم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 319.

بالنَّشأة الأولى علمًا حاصلًا غير قابل للجدل أو الإنكار، بخلاف المضارع الَّذي قد يحتمل الاستمرار أو التَّجدُّد، ولتقوية الحضِّ على التَّذكُّر في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾، فالتَّعبير بالماضي يُراد به تثبيت الحُجَّة وتوبيخهم على قسوة قلوبهم وعدم استثمارهم لعلمهم السّابق في الوصول إلى التَّصديق بالبعث والنَّشأة الآخرة.

بلاغة الخبر في قوله: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾:

إنـكـارُ البعث ليس عن جهلٍ بالمعارف بل عناد بليد

الخبر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ ليس لمجرَّد الإعلام، بل ليلزمهم بما لا يمكنهم إنكاره؛ إذ هم عالمون بحقيقة خلقهم الأوَّل، فقد نشؤوا من نطفة ثمَّ علقة ثمَّ مضغة، ومرّوا بمراحل الخلق حتَّى صاروا بشرًا سويًّا، فكيف ينكرون نشأة يعيدهم اللّه فيها، وهم قد علموا النَّشأة الأولى، وعاشوها؟ هذا الخبر يجيء في مقام التَّقرير؛ ليؤسِّس عليه الإنكار المتضمِّن في قوله بعد ذلك: ﴿فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ففيه براعة في عرض المفارقة بين حالهم، وما كان ينبغي لهم أن يسلكوه من طريق التَّذكُّر والاستدلال بما علموه، لا الإصرار على التَّكذيب، فهو خبر ظاهره تقريريٌّ وباطنه إنكاريٌّ توبيخيٌّ، يفضح تناقض موقفهم، ويثبت أنَّ إنكارهم للبعث ليس عن جهل، وإنَّما عن إعراض وعناد.

نكتة التَّعبير بالنَّشأة دون الخلقة:

بـلاغـة اختـيار لـفظ (الـنَّـشـأة) في إثبات البعث بين الدَّلالة على الابتداء وحُجّيَّة الإلزام

التَّعبير بمفردة ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ بدلًا من (الخلقة)، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ ينطوي على دقَّة بلاغيَّة وعمق بيانيٍّ، فإنَّ ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ تفيد ابتداء الوجود من العدم وتربيته، فهي تتضمَّن معنى الحدوث والانبعاث بعد عدم، ومن ثمَّ القيام على تربيته[1]، بخلاف (الخلقة) الَّتي قد تنصرف إلى مجرَّد التَّصوير أو التَّقدير أو الهيئة دون أن تشير إلى ابتداء وجود الشَّيء أو تربيته، فاستعمال

(1) الراغب، المفردات، ص: 807.

﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ في هذا السّياق يلائم غرض الآية في إثبات إمكان النَّشأة الثّانية؛ لأنَّ الخطاب موجَّه إلى منكري البعث، فجيء بـ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾؛ ليربط بين النَّشأتين، الأولى الَّتي علموها، وتحقَّق وقوعها فيهم، والثّانية الَّتي ينكرونها، فالآية احتجاج عليهم بما علموا من أمر النَّشأة الأولى؛ ليلزمهم الإقرار بالثّانية، ولهذا كان التَّعبير بـ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ أبلغ من (الخلق)؛ إذ فيها دلالة على ابتداء الحياة وتمام الخلق بعد أن لم يكونوا شيئًا، فهي تتناول أطوارًا متعدِّدة تشهدها النَّفس البشريَّة، وتدرك من خلالها حقيقة القدرة الإلهيَّة، ممّا يجعل إنكارهم للنَّشأة الآخرة بعد ذلك ضربًا من المكابرة المفضوحة.

توجيه القراءات القرآنيَّة:

تنوُّع القراءات يُثري المعنى، ويُنبِّه على قوَّة الدّلالة المقصودة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، قرأ الجمهور ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ بسكون الشّين تليها همزة مفتوحة مصدر نَشَأَ، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحده بفتح الشّين بعدها ألف تليها همزة ﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾[1]، فقراءة الجمهور: ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾، على وزن (فَعلَة)، وهي مصدر دالٌّ على الحدوث والتَّكوين، وتفيد معنى الابتداء والنُّمو والارتقاء في الخلق، والقراءة الثّانية ﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾ على وزن (فَعالَة)، قال الفرّاء: "وهي مثل الرَّأفة والرَّآفة على الصَّواب"[2].

والقراءتان متقاربتان في المعنى، وهما من مصادر الفعل (نشأ)، لكنَّ قراءة الجمهور بـ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ أقرب دلالة على الهيئة المتكاملة للنُّمو الأوَّل، وهي الأنسب لسياق الآية الَّذي يُحتجُّ فيه على المكذِّبين بالبعث بأنَّهم قد علموا النَّشأة الأولى بكلِّ أطوارها منذ العدم حتَّى التَّمام، فهي شهادة قائمة في النَّفس والحسِّ، أمّا قراءة ﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾؛ فهي تُثري النَّصَّ من جهة تنوُّع الأساليب القرآنيَّة ومراعاته لتعدُّد الألسنة.

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 343.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 315، والكرمانيّ، مفاتيح الأغاني، ص: 319.

غرض وصف النَّشأة بالأولى دون السّابقة:

في لفظ الأولى تلويح بالأخرى، وهي البعث وتجاوز بالزَّمن إلى أوّليّة النَّشأة

إنَّ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ دون أن يُقال: (النَّشأة السّابقة)، جاء على نحوٍ بالغ الدِّقَّة في البيان القرآنيِّ، وذلك أنَّ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ تدلُّ على أنَّهم لم يكونوا شيئًا قبلها[1]، وعلى ترتيب في الوجود والزَّمن، وتُشعر بوجود نشأة ثانية من جنسها ستأتي بعدها، فهي كلمة تأسيسيَّة تمهِّد لذكر النَّشأة التّالية[2]، وتُهيِّئ الذِّهن لها، وتجعلها ضرورة منطقيَّة بعد إثبات الأولى، أمّا لفظ (السّابقة)؛ فله طابع إخباريٌّ يُشير إلى زمن مضى دون أن يُفهَم منه بالضَّرورة أنَّ هناك تالية تُنتَظر، أو يُحتجُّ بها، فـ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ أوقع في موضع التَّحدّي؛ لأنَّها تفتح الباب للمقابلة العقليَّة الَّتي تجعل البعث والنَّشأة الأخرى أمرًا غير مُستغرب، ما دامت ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ قائمة محسوسة قد شهدها الإنسان، وعلم أطوارها، وفي ذلك ترقٍّ بلاغيٌّ يجعل من إقرار المخاطَب بـ﴿ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ مقدِّمة لإلزامه بالإيمان بإمكانيَّة (النَّشأة الآخرة)، على نحو ما ينسجه أسلوب القرآن في إحكام الحُجَّة وتقرير العقيدة من باب المحسوس إلى الغيب، كما أنَّ اختيار ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ تلويح بالأخرى، وهي البعث.

نوع الفاء ودلالتها:

التَّفريع الإرشاديُّ على الأصل الحجاجيِّ منهج القرآن في تثبيت الحقائق

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هي فاء تفريع، وهي تفيد التَّسبُّب، أي: إنَّها تربط ما بعدها بما قبلها ربط النَّتيجة بالمقدِّمة، وقد جاء قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، وهي حقيقة مقرَّرة لا مجال لإنكارها؛ لأنَّها واقع مشهود، فاقتضى بعد ثبوتها أن يتفرَّع عليها التَّذكُّر والاعتبار بها، فجاء التَّوبيخ بـ﴿فَلَوۡلَا﴾، الَّتي تُفيد الحضَّ على التَّذكُّر مع التَّوبيخ على تركه، بعد توافر سببه.

(1) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 644.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 419.

ودلالة الفاء هنا تزيد في المعنى التَّقريريِّ؛ لأنَّها تُبرز اللَّوم على ترك التَّذكُّر الَّذي كان ينبغي أن يكون لازمًا بعد العلم، فمجيء الفاء دلَّ على أنَّ عدم تذكُّرهم بعد علمهم هو أمر مستغرب غير سائغ في ميزان العقل والنَّظر، فصارت الفاء هنا محمَّلة بمعنى التَّلازم العقليِّ واللُّزوم الحجاجيِّ، لتُقيمَ الحُجَّة في صورة توبيخ مؤلم من جهة، وتحريض هادٍ من جهة أخرى.

غرض استعمال أداة (لولا):

من لم يُرشده عقله إلى الإيمان؛ فحقُّه أن يُرمى بسهام التَّوبيخ ورماح التَّقريع

أداة (لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جاءت لمعنى التَّحضيض والتَّوبيخ، وهي بمعناها البلاغيِّ ليست شرطيَّة محضة، بل أُخرجت عن أصلها (الامتناع لوجود المانع) إلى باب الحثِّ والتَّنبيه، فهي تُفيد توبيخًا مُضمَّنًا بحضٍّ على الفعل؛ إذ السّياق يفيد أنَّ العلم بالنَّشأة الأولى كان يجب أن يُنتج تذكُّرًا واستدلالًا على النَّشأة الثّانية، فلمّا لم يقع ذلك؛ جاء الاستفهام التَّوبيخيُّ على صورة تحضيض: فلَولا تَذَكَّرونَ؟ أي: هلّا تذكَّرتم وقد علمتم؟.

وفي هذا التَّعبير شيء من اللَّوم المُغلَّف بالدَّعوة إلى التَّعقُّل، كأنَّما يُقال لهم: إنَّكم لا تجهلون أصل خلقكم، وقد شاهدتم النَّشأة الأولى بأعينكم، فهلّا استعملتم هذا العلم في موضعه؟ أليس هذا كافيًا لتذكُّر البعث والنَّشأة الآخرة؟.

بلاغة استعمال ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ دون (تتفكَّرون):

مناسبةُ لفظِ التَّذكُّر في إعمال العقل فيما هو معلومٌ متقرِّر عند المخاطَبين

آثر النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ استعمال الفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بدلًا من (تتفكَّرون)، وذلك أنَّ التَّفكُّر هو إعمال العقل في طلب معرفة مجهولة، وتصرُّف القلب بالنَّظرِ في الدَّلائل[1]، أمّا التَّذكُّر؛ فهو استحضار معلوم سابق، ولمّا كانتِ النَّشأة

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 75.

الأولى معلومةً مشهودة لهم، وقد علموها من واقع خلقهم وولادتهم ونموِّهم؛ لم يكن المقام مقام بحثٍ أو تأمُّلٍ في أمر غائب، بل هو مقام استدعاء ما قد عُلِم، وتُيقِّن، فجاء التَّعبير بـ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ توبيخًا على ترك ما هو حاضر في أذهانهم، معلومٌ لهم، لا يحتاج إلى نظر جديد، وهو أبلغ في الحُجَّة، وأشدُّ في الإلزام.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

استحضار دائم للحُجَّة وتوبيخ لا ينقطع

التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جاء لبثِّ الحيويَّة في الخطاب، وتجديد الدَّعوة للتَّذكُّر على وجهٍ مستمرٍّ غير منقطع، والمعنى: ما يمنعكم الآن، وفي كلِّ حين أن تستحضروا ما علمتموه، وشهدتموه من النَّشأة الأولى؟.

فأفاد المضارع الاستمرار والتَّجدُّد، وكأنَّه لوم دائم متجدِّد على ترك التَّذكُّر، لا يُرفع عنهم؛ إذ لا عذر لهم، وهم يشهدون آثار الخلق الأولى في أنفسهم، ويعلمونها علمًا لا يجهلونه، كما أنَّه أفاد التَّنبيه على أنَّ باب التَّذكُّر مفتوح، فإن فاتهم التَّذكُّر فيما مضى؛ فليتداركوه الآن[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّبق والغلبة:

السَّبق أعمُّ دلالة وأسبق وقوعًا من الغلبة الَّتي تعني تفوُّق طرفٍ على آخر

السَّبق: من مادَّة (سبق)، وهي تدلُّ على التَّقدُّم على الآخر زمانًا أو قدرةً أو فعلًا، وهو يدلُّ على أنَّ أحدًا يتقدَّم على غيره في الوصول إلى أمرٍ ما أو إنجازه[2]، وفي السّياق القرآنيِّ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: لا يُسبقنا أحدٌ إلى شيء نريد فعله، ولا يعجزنا أحد عن تحقيق ما نقدِّره، أو نريده، سواء أكان ذلك في الإحياء أم في الإماتة أم في البعث.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 319.

(2) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سبق).

وأمّا الغَلَبَة؛ فهي من مادَّة (غلب)، وهي تدلُّ على التَّفوُّق بعد منازعة، أي: مغالبة ومقاومة ثمَّ قهر(1)، والغلبة تشير إلى أنَّ طرفًا قاوَم أو نازع أو تحدَّى، فغُلِب، فهي تفترض وجود قوَّة مضادَّة، أو خصم ظاهر، وهي تعني الانتصار في صراع، لا مجرَّد التَّقدُّم.

فاختار القرآن نفيَ السَّبق في هذا الموضع ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، ولم يقل: "وما نحنُ بمغلوبين"؛ لكون المقام مقام قدرة إلهيَّة مطلقة، لا تقع تحت مغالبة أو نزاع، فاللهُ لا يُدركه سابقٌ، ولا يُعجزه لاحقٌ، ولا يُعطِّله مانعٌ، بينما (الغلبة) توحي بخصم يعارض، وهذا غير لائق في مقام الألوهيَّة، فالسَّبق: نفيٌ لقدرة أحدٍ على التَّقدُّم أو اللَّحاق بقدرة الله. والغَلَبَة: نفيٌ لمغالبة أو خصومةٍ تؤدّي إلى هزيمة، فـ(السَّبق) أوسعُ دلالةً، وأليق بمقام القدرة الرَّبّانيَّة الخالصة، ولهذا اختير في هذا الموضع؛ للدلالة على أنَّ الله منفرد بالفعل بلا تحدٍّ ولا مقاومةٍ، وبلا إمكان إدراكٍ أو تجاوز.

النَّشأة والخلقة:

الخِلقة أصل الإبداع التَّكوينيّ والنَّشأة إعادته

الخلقةُ مأخوذة من الجذر (خلق)، وهي تدلُّ في أصل معناها على إبراز الشَّيء من العدم إلى الوجود على هيئة مخصوصة، فـ(الخَلقُ) أصله: التَّقدير المستقيم، ويُستعمَل في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117](2)، وهي تشمل الهيئة والصّورة والتَّقدير، فالخِلقة تُشير إلى البنية الظّاهرة والهيئة الخارجيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 6]، وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]، فهي أقرب إلى وصف البنية الجسديَّة وشكل التَّكوين الأوَّل.

(1) الخليل، العين، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (غلب).
(2) الراغب، المفردات: (خلق).

وأمّا النَّشأةُ؛ فهي من الجذر (نشأ)، وتدلُّ على الظُّهور والنُّموِّ والتَّطوُّر التَّدريجيِّ من طور إلى طور، النَّشءُ والنَّشأةُ: إحداثُ الشيءِ وتربيتُهُ[1]، فالنَّشأة ليست مجرَّد خلق، بل ابتداءٌ مع تطوُّر وتكمُّل[2]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: أنتم تعلمون أنَّ خلقكم قد مرَّ بأطوار متدرِّجة: نطفة، ثمَّ علقة، ثمَّ مضغة، ثمَّ عظامًا، ثمَّ لحمًا... فلو تأمَّلتم في هذه النَّشأة؛ لما استبعدتم النَّشأة الأخرى، وكذلك قوله: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فيه دلالة على تحوُّل جديد وتكوينٍ لا تعلمونه من قبل، أي: في صورةٍ أو طورٍ أو هيئة لم تألفوها، وهو إشارة إلى البعث أو الخلق الآخر في الآخرة.

التَّذكُّرُ والتَّفكُّر:

التَّذَكُّرُ إعمال العقل فيما هو معلوم، والتَّفكُّرُ إعمال العقل للوصول إلى مجهول

التذكُّرُ في اللُّغة مأخوذ من الجذر (ذكر)، ذكرت الشَّيء، خلاف نسيته، ثمَّ حمل عليه الذِّكر باللسان، ويقولون: اجعله منك على ذُكْر، بضمِّ الذّال، أي: لا تنسه[3]، وهو يدلُّ على استحضار شيء قد عُلِمَ سابقًا، سواء كان ذلك من تجربة، أو سماع، أو إدراكٍ سابق، والذِّكرُ كذلك: الحفظ للشَّيء تذكُّره، وجري الشَّيء على لسانك، تقول: جرى منه ذِكر[4]، فهو عودةٌ إلى معلومة مودعة في الذِّهن، قد حجبتها الغفلة، أو أنساها الانشغال، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: إنَّكم تعرفون أنَّكم خُلِقتم من نطفة، وترون ذلك واقعًا، فلم لا تستحضرون هذا اليقين عند الحديث عن النَّشأة الثّانية (البعث)؟ فالتَّذكُّر هنا يعني: الاستدعاء القلبيَّ لما هو معلوم سلفًا، والاعتبار

(1) الراغب، المفردات: (نشأ).
(2) ابن سيده، المُحكم: (نشأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(4) الخليل، العين: (ذكر).

به، فالتَّذكُّر يتعلَّق باستحضار حقائق معلومة ومعاينة آثارها؛ ليترتَّب عليها التَّسليم للحقِّ والإيمان به.

وأمّا التَّفَكُّرُ؛ فهو من الجذر (فكر)، ويعني: إعمال العقل بالنَّظر والتَّأمُّل في شيء لا يُدرَك إلّا بالتَّدبُّر، وقد يكون جديدًا على الذِّهن، أو يحتاج إلى تحليل وقياس، أو محاولة استنتاج، وعليه فالتَّفكُّر نشاطٌ عقليٌّ تأمُّليٌّ يبحث عن المجهول، ويُرجى به الوصول إلى معرفة جديدة، لكنَّ في قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾، جاء من معنى آخر للتَّفكُّه، وهو التَّلهّي بالكلام عن الشَّيء الغريب أو المثير للدَّهشة، فهو أقرب إلى التَّندُّر أو التَّأسُّف أو الاستغراب؛ لذلك فموضع (التَّذكُّر) ورد في مقام الحُجَّة العقليَّة؛ إذ المطلوب أن تسترجع ما تعلمه من الخلق الأوَّل لتُسلِّم بالبعث، أمّا (التَّفكُّه)؛ فورد في مقام الفقد الحسّيِّ (تحطيم الزَّرع)، وهو تعبيرٌ عن الاندهاش السَّلبيِّ والجزع، لا عن التَّعقُّل أو التَّدبُّر.

فالتَّذكُّر: فعلٌ قلبيٌّ ناتج عن يقين سابق، يُسترجَع للتَّنبيه والاعتبار، والتَّفكُّر: فعلٌ عقليٌّ استكشافيٌّ، يُبذَل للوصول إلى معنى أو حكمة غير ظاهرة، وفي الآية: جاء التَّذكُّر في مقام حُجَّةٍ على البعث، وجاء التَّفكُّه في تصوير ردِّ فعل الإنسان عند فقد نعمة الدُّنيا دون نظرٍ أو تعقُّل، وبهذا تتجلّى بلاغة القرآن، في توظيف كلِّ لفظ بحسب مقامه، بحيث لا يُغني أحدهما عن الآخر، ولا يقوم مقامه في المعنى المقصود.

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٦٧﴾ [الواقعة: 63 - 67]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال في الأدلَّة المحسوسة من البرهان الإنسانيّ إلى البرهان النَّباتيّ

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة أمر التّكاثر من خلال ذكر مادَّته الأصيلة، وهي المنيُّ؛ ناسب أن يذكر كيفيَّة استمرار الحياة بعد التَّكاثر، فذكر الزَّرع والحرث، وذكر الزَّرع؛ لأنَّه أشبه شيءٍ بالجماع وإلقاء النُّطفة، ولذلك سُمّيتِ المرأة حرثًا، ووصل بما مضى مسبَّبًا عنه قوله منكِرًا عليهم: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾[1]؛ إذ أُتبعت آيات الخلق والنَّشأة بآيات النَّبات والزَّرع، ثمَّ الماء، ثمَّ النّار، وهي آيات محسوسة مشاهدة، يُلزم اللّه بها العقول أن تؤمن بإمكان البعث، فالمناسبة في غاية الإحكام؛ إذ يُساق لهم من خلقهم، وممّا بين أيديهم، ما يدلُّ على أنَّ البعث ليس بأبعد ممّا يشاهدونه كلَّ يوم، وهذا من أعظم أساليب القرآن في الإقناع العقليِّ والتَّذكير الحسّيِّ، الَّذي يُسقط كلَّ شبهة، ويكشف ما في النُّفوس من تجاهل وتكذيب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُطَٰمٗا﴾: (حطم) يدلُّ على الكسرِ والسَّحقِ والتَّهشيم، والحُطام في أصلِ معناهُ المعجميِّ هو ما تكسَّر، وتفتَّت من الشَّيءِ بعد يَبسه، فيُقال: حَطَمَ الزَّرعُ؛ إذا يَبِسَ، ثمَّ تكسَّر حتَّى صار فتاتًا لا يُنتفَع به، ويُقال للحطب اليابس المتكسِّر: حُطام[2]، وكان عمرو بن العلاء يقول: إنَّما التَّحطيم للشَّيء اليابِس نَحو الزُّجاج وما أشبهه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 417.
(2) الخليل، العين: (حطم).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حطم).

2) ﴿فَظَلْتُمْ﴾: (ظلّ) من الأفعالِ النّاقصة، ومعناها الأصليُّ في اللُّغة هو: البقاء في حالٍ ما خلالَ النَّهار، وظلَّ فلان يفعل كَذا؛ إذا عمله نَهارًا، فأمّا اللَّيل؛ فلا يُقال: ظلَّ يفعل[1]، ثمَّ اتَّسع معناها فصارت تُستعمَل لكلِّ استمرارٍ في الزَّمان، لا سيَّما إذا اقترن بسياق يَدلُّ على تحوُّل مفاجئ، أو مفارقةٍ لما كان مألوفًا من حال.

وفي هذا الموضع، جاء قوله: ﴿فَظَلْتُمْ﴾؛ ليفيد معنى: فأصبحتم، واستمررتم بعد ذلك في حالٍ من الدَّهشة والتَّأسُّف والحيرة.

3) ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: (فكه) يدلُّ في أصل معناه على التَّلذُّذ والفرح، لكنَّه في هذا السّياق يُراد به التَّلهّي بالكلام عن الخيبة والمصيبة، لا عن السُّرور، فقد جاء لفظ "تَفَكَّهونَ" بدلالته المعجميَّة؛ ليعبِّر عن حالةٍ من التَّعجُّب الممزوج بالتَّحسُّر، فالتَّفكُّه هنا هو حديث المتعجب المتألّم[2]، فقوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾، أي: تعجبون ممّا نزل بكم في زرعكم؛ إذا صار حطامًا، ويُقال: تَفَكَّهونَ: تندمون[3].

4) ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾: (غرم) أصلٌ يدلُّ على لزوم الشَّيء وثقله، ومنه الغُرمُ: أداءُ شيء لزمَ من قبل كفالةٍ أو لزومُ نائبة في مالِه من غير جناية، غَرِمْتُه أُغْرَمُه[4]، كما يقال: غَرِمَ فلانٌ غُرمًا؛ إذا تحمَّل خسارةً أو دَينًا لم ينفعه فيه ربحٌ ولا جَبر، وقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾، أي: معذَّبون، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: 65]، أي: هَلَكَةً[5]، فهو عذاب ملازم شديد كلزوم الغريم للغريم[6].

5) ﴿مَحْرُومُونَ﴾: (حرم) يدلُّ في أصل معناه على المنع الشَّديد، وهو على ثلاثة أوجه: المنع، والتَّحريم بعينه، ومحلّ التَّحريم، فوجهٌ منها: الحرام يعني المنع قوله تعالى: ﴿۞وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: 12]، أي: منعناه عن المراضع[7]، ومنه الحِرمان:

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ظلّ).
(2) الدّامغانيّ، قاموس القرآن: (فكه).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 488.
(4) الخليل، العين: (غرم).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 488.
(6) ابن عبّاس، مسائل ابن الأزرق: 1/ 196.
(7) الدّامغانيّ، قاموس القرآن: (حرم).

ضدُّ الإعطاء، يُقال: حَرَمهُ الشَّيءَ؛ إذا منعه إيّاه مع حاجته إليه، والحرمان قد يكون حسّيًّا كمنع المال، أو معنويًّا كمنع الخير والنِّعمة أو الجاه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

من غاب عنه فهْمُ وجوده؛ فلينظر إلى إيجاد النَّبات والحرث

تُبيِّن الآيات الكريمةُ مشهدًا من المشاهد الدّالَّة على البعث، وهو مشهد الزَّرع، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾، أي: تأمَّلوا ما تبذرونه في الأرض، وتباشرونه بأيديكم، ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾، أي: أأنتم تُنبتونه، وتُخرجونه نباتًا حيًّا ناضجًا، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، بل نحن وحدَنا القادرون على إنباته، وإتمام خَلقه، وإنمائه، ثمَّ يبيِّن سبحانه أنَّ هذا الزَّرع الَّذي تفرحون به، وتظنّون أنَّكم تملكونه، هو في قبضته، ولو شاء؛ لتركه ﴿حُطَٰمًا﴾، أي: يابسًا متكسِّرًا لا نفع فيه، فلا تحصدون منه شيئًا[1]، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾، تتحيَّرون، وتتعجَّبون، وتتحسَّرون، قائلين: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾، أي: خسرنا ما أنفقنا من مالٍ وجهد؛ فعبَّروا عن حالهم بأنّهم واقعون في الغُرم والخسارة الشَّديدة، وكأنَّهم قد أصيبوا بدَيْنٍ ثقيلٍ لا قِبَلَ لهم به، ولا ذنبَ لهم فيه، فهلك الزَّرع، وبقيت الكلفة، وتبدَّد الأمل، وانقلب الرَّجاء إلى حِملٍ من الحسرة والضَّياع.

فعبَّر أصحاب الزَّرع المفقود عن حالهم بقولهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، أي: قد بلغ بنا الأمر إلى أن حُرمنا أصل النِّعمة، فلم نحصد منها شيئًا، لا ثمرةً ولا بديلًا.

فهذه الآيات تذكيرٌ للمنكرين، بأنَّ الله الَّذي يُحيي النَّبات بعد أن كان بذرًا ميّتًا، ويُتمُّ خلقه في أطوار، ويملك تحويله حطامًا بعد أن نضج، لهو القادرُ على إحياء الإنسان بعد موته، تمامًا كما خلقه أوَّل

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 237.

مرَّة، بل الأمر في البعث أهون؛ لأنَّ المادَّة مخلوقة، والنَّشأة معلومة، وإنَّما الشَّأن في التَّذكُّر، لا في الجحود.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرض الاستفهام وبلاغته في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

تقرير عموم المخاطَبين وتوبيخ المنكرين بما تشاهده أعين المبصرين

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ مثل نظائره السّابقة، وهو بمعنى: أخبروني[1]، وهو لتقرير المخاطَبين على ما يرونه من آثار قدرة اللّه تعالى في الزَّرع والإنبات، وقد أفاد توبيخ المنكرين وتقريعهم، وهو يوقظ الغافل من وهم الاكتفاء الذّاتيِّ، ويقرِّر عجز الإنسان في صورة سؤال ظاهر، ومعنى باطنه الإنكار والتَّقرير، فالإنسان يحرث، لكنَّه لا يزرع، يبذر الحبَّ، ولا يملك إحياءه، يأتيه السُّؤال: أأنتم تزرعونه أم نَحنُ الزّارِعونَ؟ فيتبدّى له أنَّ فعله لا يعدو التَّهيئة، أمّا الإيجاد والإنبات؛ ففعل اللّه وحده، فجاء الاستفهام في ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾؛ ليقرع حجاب الإلف والعادة، وليوقظ من وراء العين عقلًا، ومن وراء الحسِّ وعيًا، فالقرآن لا يسألهم عن مجرَّد النَّظر إلى المحراث في الأرض، بل يسألهم: هل رأيتم الحقيقة الكامنة وراء هذا الفعل؟ هل أدركتم أنَّ الزَّرع ليس منكم؟ وأنَّ الحياة ليست من يدكم؟ وأنَّ الخصب والمطر والنَّماء من عند اللّه؟.

نوع الفاء ودلالتها في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

ترتيب الأدلَّة وتكاملها بالتَّفريع على الأصول

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ تفريعٌ على ما قبلها من الأدلَّة، ووجه الرَّبط أنَّ الآية السّابقة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، اشتملت على الاستدلال بإيجاد الإنسان أوَّل مرَّة، ففرَّع عليه دليل آخر من نوع الخلق ذاته؛ ليُستأنف به وجه جديد من وجوه البرهان على قدرة اللّه على الإعادة، وهذا التَّفريع يُفيد تعاقب الأدلَّة

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ: 4/ 221 و223.

وتكاملها، فكما وُجِد الإنسان من نطفة، وخلق الزَّرع من حبَّة، كذلك تكون الإعادة في قدرة اللّه سواء، فالفاء جاءت لترتيب مشاهد القدرة على بعضها، لا لمجرَّد التَّنقُّل، بل لبناء برهان متصاعد، يُلزم المنكرين بالاعتراف بصدق الوعد بالبعث[1].

تعيين المعطوف عليه في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

وحـدة البـناء واتِّساق الغرض فـي تـقـدير المعطوف عليه

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ معطوف على مقدَّرٍ بعد الهمزة، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، فالفاء عاطفة على محذوفٍ مقدَّر دلَّ عليه السّياق، وتقديرها: (أحرثتم فرأيتم ما تحرثون)، فتكون ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ عطفًا على ذلك المُقدَّر.

نوع الرُّؤية في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

الرُّؤية في قوله (أفـرأيـتـم)، خطاب للعقل بلسان الحس

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾، ليست رؤية بصريَّة مجرَّدة، يُكتفى فيها بمجرَّد النَّظر، بل هي رؤية عقليَّة تأمُّليَّة، تقصد إلى إدراك المعنى الكامن وراء المألوف المحسوس، وتسعى لكشف ما وراء الظّاهر من قدرة وحكمة وتدبير، فالمراد بالرُّؤية هنا: رؤية تدبُّر وتفكُّر، لا مجرَّد المعاينة بالعين؛ لأنَّ المعاينة وحدها لا تورث العلم، ولا توقظ الغفلة؛ ما لم يُعقبها نظر القلب وعمل العقل.

ويدلُّ على ذلك أن الأشياء المذكورة - الحرث، والزَّرع، والماء، والنّار - هي أشياء يراها النّاس كلَّ يوم، لكنَّهم لا يرون فيها ما ينبغي أن يُرى، لا يرون قدرةَ الخالق في غيرِها من البعث والنُّشور، ولا سرَّ الإحياء بعد السُّكون.

نوع ﴿مَّا﴾ ودلالتها:

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ اسم موصول، بمعنى الَّذي، وهي من أدوات العموم، تدخل على غير العاقل[2]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 319.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 120.

ولكنَّها تُستعمَل أحيانًا لما فيه معنى المصدريَّة أو المفعوليَّة بحسب السّياق، وقد جاءت هنا؛ لتدلَّ على مفعول فعل الرُّؤية، والمعنى: أفَرَأيتُم الشَّيءَ الَّذي تحرثونه، أي: أفَرَأيتُم ما تضعونه في الأرض من البذر، وتباشرون به فعل الحرث، من حيث تهيئة الأرض وبثُّ الحبِّ، وإيثارها ليدخل فيها كلُّ ما من شأنه أن يُحرث في الأرض، فهي للعموم.

كلُّ ما من شأنه أن يُحرَث في الأرض فداخلٌ في دلالة العموم

بلاغة استعمال مفردة ﴿تَحۡرُثُونَ﴾ دون مرادفاتها:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿تَحۡرُثُونَ﴾ دون غيرها؛ لما تحويه المفردة من معنى شقِّ الأرض وتقليب تُرابها وتهيئتها لتلقّي البذر، فهو أسبق مراحل الزَّرع، وهو فعل الإنسان المباشر الَّذي يبدو فيه أثر العمل والكدِّ، وهو ما يحسُّه الزّارع بين يديه، فكان اختيار الحرث باعتبارِ أوَّليَّة الزَّرع ووسيلته الَّتي يُباشرها الإنسان.

أوَّليَّة الحرث بداية إيقاظ العقول الخاملة

بلاغة الإيجاز في فعل ﴿تَحۡرُثُونَ﴾:

"ظاهر قوله: ﴿مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ أنَّه الأرض إلّا أنَّ هذا لا يلائم ضمير ﴿تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾، فتعيَّن تأويل ﴿مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ بأن يقدَّر: ما تحرثون له، أي: لأجله على طريقة الحذف والإيصال، والَّذي يحرثون لأجله هو النَّبات، وقد دلَّ على هذا ضمير النَّصب في ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾؛ لأنَّه استفهام في معنى النَّفي، والَّذي يُنفَى هو ما ينبت من الحبِّ لا بذره"[1].

الضَّمير كاشفٌ عن مواطن الإيجاز ومواضع الاختزال

غرض التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَحۡرُثُونَ﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ بالفعل المضارع ﴿تَحۡرُثُونَ﴾؛ للدَّلالة على تكرار الفعل واعتياده، ممّا يستدعي تأمُّلًا دائمًا في محدوديَّة قدرة الخلق، فجاء التَّعبير بالفعل المضارع؛ ليدلَّ على أمرين: استحضار الصّورة، واستمرار الفعل، فهو أوَّلًا

استحضار الأفعال المتجدِّدة بغرضِ التَّنبيه على الغفلة المتجدِّدة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 320.

يصوِّر الحدث، كأنَّه واقع أمام السّامع الآن؛ ليتأمَّله بعين قلبه، لا بعين عادته، فالمضارع هنا يُجسِّد مشهد الحرث الحاضر؛ ليفاجئ السّامع بسؤال: أأنتم تزرعونه؟ أي: أأنتم تنشئون فيه الحياة؟ وهذا أشدُّ وقعًا من السُّؤال عن فعل ماضٍ قد نُسي، وثانيًا، يدلُّ على أنَّ فعل الحرث عادة متكرِّرة، وهو ما يزيد في غفلة النّاس عنه لكثرة مباشرته، فجاء التَّعبير بالمضارع؛ ليقول لهم: هذا الَّذي تفعلونه دائمًا، هل تأمَّلتم حقيقته؟ وهل تبصرون مِن ورائه قدرة اللّه؟.

توجيه الأنظار إلى معنى الحدث وقيمة الفعل

نكتة حذف المتعلِّق بـ ﴿تَحۡرُثُونَ﴾:

حذف المتعلِّق بالفعل ﴿تَحۡرُثُونَ﴾، والمعنى: ما تحرثونه في الأرض، فلم يقل: (ما تحرثون له)؛ لأنَّ الإطلاق أبلغ في التَّوبيخ والتَّنبيه؛ إذ يترك المجال للمخاطَب أن يملأ الفراغ من تجربته، فهو يعرف ما يحرثه، ويعلم أنَّه لا يقدر أن ينبت منه شيئًا، فيقع الإقرار في النَّفس من غير تصريح، كما أنَّ الحذف يُضفي على الجملة إيجازًا مشحونًا بالمعنى، ويُضمر فيه ما دلَّ عليه السّياق التّالي: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، والمعنى: أفَرَأيتُم ما تَحرُثونَ له من بذر، ثمَّ تنسبون إنباته لأنفسكم؟.

وهذا من أساليب الإبهام المقصود الَّذي يُراد به تفخيم الأمر وتوجيه النَّظر لا إلى الشَّيء المحروث وحده، بل إلى العمليَّة كلِّها، من حيث هي نظام وتقدير وتدبير لا يُحسن الإنسان منه إلّا حركة يده، أمّا الحياة الكامنة؛ فهي سرٌّ غائب.

تكرارُ الاستفهام مع اختلاف الأحداث استقلالٌ في الاستدلال

بلاغة تكرار الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ﴾:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾ بيانٌ لجملة: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾، والاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾ إنكاريٌّ كالَّذي في قوله:

﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾[1]، وتكرار الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، ليس من باب إعادة المعنى، بل هو ضرب من ضروب الزَّجر البيانيِّ والتَّقريع التَّقريريِّ، تُسلَّط به أضواء السُّؤال على موضع الجهل أو الغرور في نفس المخاطَب، فيُسأل صراحةً لا تلميحًا، ويُستفزُّ اعترافه، لا يُنتظر.

بلاغة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾:

مــواجــهــةُ المخاطَب المنكرِ تحدٍّ في التَّقرير وإبلاغٌ للمراد

قُدِّم المسند إليه (أنتم) على المسند الفعليِّ ﴿تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾؛ لإرادةِ توكيد الاختصاص وتثبيت المسؤوليَّة في موضع التَّحدّي؛ فكأنَّ السُّؤال لا يُلقى عرضًا: (أتزرعونه؟)، بل يُلقى في وجه المخاطَب مواجهة: أأنتم - دون سواكم - تزرعونه؟ أنتم بذواتكم؟ أنتم لا غيركم؟ فالتَّقديم هنا أداة مواجهة بلاغيَّة، فيها مسحة تحدٍّ، تُقرِّب الخطاب من شعور المستمع، وتستدرجه إلى الاعتراف، ثمَّ إنَّ في هذا التَّقديم قصرًا إضافيًّا، وهذا القصر في ذاته استفهام تقريريٌّ إنكاريٌّ، يُهيّئ النَّفس لقبول نقيضه: أنَّ الزَّرع ليس منكم، بل من الله وحده.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾:

اســتــحــضــارٌ للغفلة وتكرارٌ للتَّذكير لمن تولّاه النِّسيان بانعدام التَّفكير

التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾ - لا الماضي (زرعتموه) - ليس مجرَّد دلالة على الزَّمن، بل هو اختيار بلاغيٌّ مقصود، يُراد به استحضار المشهد الحيِّ لحظة وقوعه؛ لتتَّقد الصّورة في ذهن المخاطَب، كأنَّها تقع بين يديه الآن، وهو يحرث، ويبذر، وينتظر الإنبات، فيباغَت بهذا السُّؤال التَّقريريِّ: أأنت تزرعه؟ أتملك سرَّ الحياة فيه؟ أم نَحنُ الزّارِعونَ؟ فهو مضارع تصويريٌّ استحضاريٌّ، يُراد به نقل الفعل من حيِّز الاعتياد إلى ساحة التَّأمُّل، ومن مجرى التَّكرار إلى

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 321.

مقام التَّحدّي؛ ليُسأل المرء عن فعله، وهو في أثناء مباشرته، لا بعد انقضائه، فيكون وقع السُّؤال أبلغ، ومجال الإنكار أوسع.

ثمَّ هو من جهة أخرى، مضارع دالٌّ على الاستمرار والدَّوام؛ لأنَّ الزَّرع فعل يتكرَّر في حياة الإنسان، موسمًا بعد موسم، جيلًا بعد جيل، وقد تُنسيه عادته مصدر النِّعمة، فيظنُّ أنَّه المالك والمُبدِئ، فجاء التَّعبير بالمضارع؛ ليوقظه في كلِّ وقت، كأنَّ الآية تسأله: وفي كلِّ مرَّة تزرع، أتظنُّ أنَّك أنت الفاعل؟.

بلاغة الاحتباك بين فعلي الحرث والزِّراعة:

الاحتباكُ تناسقُ الحذف والذِّكر لإتمام البيان

جاءت الآية بأسلوبٍ بالغ الإيجاز والدِّقَّة، فذكرت الحرث في الجملة الأولى: ﴿مَّا تَحۡرُثُونَ﴾، ثمَّ انتقلت إلى الزَّرع في الجملة الثّانية: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾، فوقع في النَّفس تساؤل: لِمَ لَم يُذكَر الزَّرع مع الحرث في الأولى، ولا الحرث مع الزَّرع في الثّانية؟ وهنا تظهر بلاغة الاحتباك؛ إذ حُذِف من كلِّ موضع ما ذُكِر في الآخر، فصار الكلام مكتملًا عند ضمِّ الطَّرفين، دون حاجة إلى التَّكرار، والتَّقدير هو: أفَرَأيتُم ما تَحرُثونَ، وتزرعون، أأنتم تحرثونه، وتزرعونه؟ لكنَّ القرآن - بعظيم بلاغته - اقتصر على ذكر الحرث أوَّلًا؛ لأنَّه فعل الإنسان الظّاهر، ثمَّ قصَر الاستفهام على الزَّرع ثانيًا؛ لأنَّه فعل اللّٰه الخفيُّ، مع حذف ما يُفهم من السّياق بطريق الاحتباك، فأنتج ذلك أسلوبًا أوجز وأقوى وقعًا، وفي هذا الاحتباك مزية بلاغيَّة عظيمة؛ لأنَّه يُلفت النَّظر إلى فارق جوهريٍّ بين الفعلين، فالحرث فعل مادّيٌّ بسيط، والزَّرع فعل إلهيٌّ معجز، ويوحي ضمنًا بأنَّ الإنسان لا يملك إلّا الحرث، وأمّا الزَّرع - أي: الإحياء والإخراج من الأرض - فهو فعل لا يقدر عليه إلّا اللّٰه.

نوع ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها:

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ للعطف، وهي تحتمل

أن تكون منقطعةً؛ لأنَّ بعدها جملة، والمنقطعة تقدَّر بـ (بل) وهمزة الاستفهام، فيكون الكلام مشتملًا على استفهامين، فالأوَّل: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾ وجوابه: (لا)، والثّاني: مأخوذ من ﴿أَمۡ﴾، أي: بل نحن الزّارعون وجوابه (نعم)، أو لأنَّ الاستفهام ليس بحقيقيٍّ، فليس من غرضه طلب تعيين الفاعل، ويكون الكلام قد تمَّ عند قوله: ﴿تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾، والمعنى: أتظنّون أنفسكم زارعين؟.

احتمال الانقطاع والاتِّصال واردٌ في النَّظم الجزيل

وتحتمل أن تكون ﴿أَمۡ﴾ متَّصلة، فهي معادلة، ويؤيِّد هذا الوجه أنَّ الكلام يؤول إلى أيِّ الأمرين واقع، والجملة بعدها في تأويل المفرد، كما أنَّ ما بعدها معطوف؛ لأنَّ الغالب ألّا يذكر له خبر؛ اكتفاءً بدلالة خبر المعطوف عليه على الخبر المحذوف، وهنا أعيد الخبر في قوله: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، زيادة في تقرير إسناد فعل الزِّراعة إلى الله في المعنى وللإيفاء بالفاصلة وامتداد نفس الوقف[1].

بلاغة القصر بتقديم المسند إليه على المسند:

الزَّرع لله تعالى وحده وكلُّ زارعٍ سواه فمحض خيال متوهَّم

تقديم المسند إليه ﴿نَحۡنُ﴾ على المسند ﴿ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، في قول الله تعالى: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، جاء لتحقيق القصر البلاغيِّ، وهو "قصر مبالغة لعدم الاعتداد بزرع النّاس"[2]، يُفيد الحصر والتَّوكيد، أي: لا زارعَ سوانا، فنحن أصحاب القدرة على الإنبات والإحياء[3].

وهذا الأسلوب أبلغ في إثبات الفعل لله وحده من أن يُقال: (نحن نزرع)؛ لأنَّ التَّعبير بـ ﴿نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ يُثبت الاسم الثّابت الدّائم، لا مجرَّد الفعل العابر، فكأنَّه يقول: نحن المتَّصفون بالزَّرع، المختصون به على الحقيقة، أمّا أنتم؛ فليست لكم صفةٌ فيه، ولا حظٌّ من فعله.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 314، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 441.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 321.
(3) حسن طبل، علم المعاني، ص: 127.

القصر الحقيقيُّ تثبيت الفعل الإلـهيِّ ونفي الشَّراكة

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلزَّٰرِعُونَ﴾:

(الـ) في لفظِ ﴿ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ هي (الـ) الجنسيَّة الحقيقيَّة، الدّالَّة على الاستغراق التّامِّ في الحقيقة، لا لمجرَّد التَّعريف، ولا للعهد، بل لبيان أنَّ الزَّرع - بمعناه الحقيقيِّ الكامل الَّذي يتضمَّن الإحياء والنَّماء - منحصِر في اللّٰه وحده، وأنَّه هو المتَّصف بهذه الصِّفة على وجه الحصر، والمعنى: أم نحن الَّذين نملك حقيقة الزَّرع كلِّه، دون شريك ولا معارض؟.

كلُّ ظنٍّ بامتلاك القـدرة على الـزَّرع والإنماء فمحض خيال

فائدة التَّعبير باسم الفاعل:

التَّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ يُفيد الثُّبوت والدَّيمومة، لا مجرَّد الفعل العرضيِّ، أي: نحن وحدنا أهل الزَّرع، لا أنتم ولا أحد سوانا، وهي هنا لتعريف الحقيقة[1]، وهذا المعنى يعمِّق ما أفاده القصر بالتَّقديم قبله: ﴿نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، وأنَّ (الـ) حين تُضاف إلى اسم فاعل في هذا السّياق، تُفيد القصر على صاحب الصِّفة الكاملة، وهي أبلغ من قولك: (نحن نزرع)؛ لأنَّك تقول هنا: (نحن الَّذين لا يستحقُّ الزَّرع أحد سوانا).

بيانُ رحمةِ الله بالتَّنبيه على أضداد المعهود تنبيهٌ وإيقاظ

نوع ﴿لَوۡ﴾ ودلالتها:

﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾ شرطيَّة، لكنَّها ليست شرطًا لامتناع شيء على شيء، كما في (لو جاءني؛ لأكرمته)، بل هي من ﴿لَوۡ﴾ الشَّرطيَّة الامتناعيَّة الواقعة؛ لتقريب الفرض وتفخيم القدرة، فهي تدلُّ على إمكان الشَّيء في قدرة اللّٰه، وإن لم يقع، والمعنى: لو شاء اللّٰه؛ لجعل ما تحرثونه حطامًا، بعد بذرِه أو إنباتِه، في لحظة واحدة، لكنَّه لم يشأ ذلك، رحمةً بكم، ولحكمةٍ منه، فامتناع الحطام ليس لعجز، بل لحِلم وتقدير.

---

(1) ابن هشام، المُغني: 1/ 50.

وجاءت ﴿لَوْ﴾ هنا؛ لتوقظ القلب من غفلته، فتبصِّره أنَّ النِّعمة الَّتي بين يديه معلَّقة بمحض مشيئة اللّه، وأنَّ استمرارها ليس حتميًّا، بل هو لطف مستمرٌّ، يمكن أن يُرفَع في أيِّ لحظة، فمضمون الجواب واقع؛ لولا أنَّ اللّه شاء خلافه، وفيه تهديد ضمنيٌّ، فلا تأمنوا سنَّته، ولا تغترّوا بعادته.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿نَشَآءُ﴾:

تهديد بالمشيئة الحاضرة المتجدِّدة لا بالقدرة الماضية

جاء فعل ﴿نَشَآءُ﴾ بصيغة المضارع لا الماضي، مع أنَّ جملة الشَّرط تُفيد معنًى مفترضًا غير واقع؛ ليُشير إلى أنَّ المشيئة الإلهيَّة قائمة مستمرَّة متجدِّدة، لا تنقضي في زمن، ولا تتوقَّف عند واقعة، بل هي حاضرة أبدًا، فلو شاء اللّه الآن أو في المستقبلِ؛ لوقع الحطام، فأفاد المضارع الدَّوام والاستمرار والاقتراب، وهو أبلغ في التَّخويف والتَّحذير من صيغة الماضي؛ لأنَّ فيه تذكيرًا بأنَّ النِّعمة معلَّقة بمشيئة راهنة متَّصلة متجدِّدة، وليست ماضية قد انقضى زمانها، وذهب أوانها.

نوع اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾:

المانعُ من رفع النِّعمة وإنزال النِّقمة رحمة اللّه الَّتي وسعت كلَّ شيء

اللّام في ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ هي لام جواب ﴿لَوْ﴾ الشَّرطيَّة، وقد أفادت تحقيقَ الجواب وتوكيد إمكان الوقوع، ويكثر اقتران جواب ﴿لَوْ﴾ بهذه اللّام؛ إذا كان ماضيًا مثبتًا[1]، ومجيء هذه اللّام في الجواب يُفيد أنَّ الفعل التّالي لها ليس مجرَّد فرض ذهنيٍّ، بل هو أمر ممكن الوقوع حقًّا، داخل في قدرة اللّه، لكنَّه لم يقع رحمةً من اللّه وتدبيرًا، ومعنى ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾: لتحقَّق وقوعه قطعًا بمجرَّد مشيئتنا، فلا مانع يمنعنا، ولا عجز يحول دوننا، وإنَّما الَّذي حال دون ذلك هو مشيئة راحمة، لا عجز قاصر، وفي هذا التَّوكيد تهديد ضمنيٌّ، وتخويف

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 321.

بقدرة اللّه النّافذة، الَّتي تملك تقليب النِّعمة نقمة في لمح البصر؛ إن شاء سبحانه.

فائدة الإطناب في قوله: ﴿لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾:

تصوير النَّتيجة النِّهائيَّة بكاملِها لا الاقتصار على ذكرِ التَّحطيم

التَّعبير بـ ﴿لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾ إطناب بليغ فيه لا تُحقِّقه لفظة (لحطمناه) الموجزة؛ وذلك أنَّ فعل (لحطّمناه) يقتصر على الكَسْر والتَّهشيم، أمّا (جعلناه حطامًا) فتصوِّر النَّتيجة التّامَّة بعد وقوع الفعل، أي: صورة ما يصير إليه النَّباتُ هشيمًا يابسًا منثورًا لا مجرَّد كَسْره، و(الحطام) اسم جامد يدلُّ على الحالة النِّهائيَّة للمحطَّم، بما فيها من يَبَسٍ وتبَعْثُرٍ وفقدان حياة، في حين أنَّ (حطَّم) فعل لا يُفصح عن تلك الصّورة كاملةً، فالتَّعبير القرآنيُّ يُظهر قدرة اللّه على تحويل الكائن النّامي إلى مادَّة لا حياة فيها ولا نفع، لا مجرَّد تهشيمها.

مشاهدةُ تقلّبِ حال النبات دليل حسّي على إمكان البعث

وجاء هذا اللَّفظ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾؛ ليصوِّر الزَّرعَ الَّذي كنتم ترجون ثمره وخيره، وقد آل إلى فتاتٍ يابسٍ منثورٍ لا حياةَ فيه ولا نفع، كأنْ لم يكن بالأمس شيئًا مذكورًا، وفي هذا التَّعبير إيحاءٌ بحقيقة الفناء، وضربٌ من الاستدلال الحسّيِّ الَّذي يقرِّب للذِّهن إمكان البعث، فإنَّ مَن يُشاهد تقلُّب النَّبات من الحَبَّة إلى الزَّرع، ثمَّ إلى الحطام، يدرك أنَّ اللّه الَّذي يُنبت، ويُفني، هو قادرٌ على أن يُعيد النَّشأة للإنسان بعد أن يصير ترابًا.

غرض إسناد فعل الجعل إلى ضمير العظمة:

تفخيم القدرة وتقريع الغافل وقصر الأمر على صاحبِ الأمر

إسناد فعل الجعل إلى ضمير العظمة ﴿نَحۡنُ﴾ هو ضرب من ضروب التَّهويل والتَّفخيم والتَّقريع، يُقصد به توكيدُ فعل التَّحطيم بأنَّه بيد اللّه وحده، وغرض ذلك إرهاب النَّفس الغافلة، وتذكيرها بأنَّ من رزقها الزَّرع، هو ذاته القادر على أن يذهبه عن وجه الأرض - لو شاء - في طرفة عين، وفي إسناد فعل الجعل إلى الضَّمير لا

إلى الاسم الجليل (اللّه) أو (الرَّبِّ)، يجعل الخطاب أقرب وأشدَّ مباشرة، فيشعر المخاطَب أنَّ المهيمن حاضر، متكلِّم، مهيب، يجب أن يُخشى تهديده، وأن يُخاف وعيده.

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿لَجَعَلۡنَٰهُ﴾:

إضمار مشحون بـالـرّابـط بين الحرث والحطام المُـنـتـج لـلحبّ والنّبات

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَجَعَلۡنَٰهُ﴾ عائد على ﴿مَّا تَحۡرُثُونَ﴾، أي: على ذلك الشَّيء الَّذي تُباشرونه بالحرث، وهو في تقدير المعنى: الزَّرع النّاتج عن الحرث، وقد عبَّر النَّصُّ أوَّلًا بالفعل: ﴿مَّا تَحۡرُثُونَ﴾، ثمَّ جاء بعده قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، فيُفهم أنَّ المقصود بـ﴿مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ ليس التُّراب ولا المحراث، بل الحَبُّ المزروع الَّذي ينمو، ويصير زرعًا؛ فالمراد بالضَّمير في ﴿لَجَعَلۡنَٰهُ﴾: الزَّرع النّاتج عن الحرث والبذر، أي: لو نشاء؛ لحوَّلنا الزَّرع بعد إنباته إلى حطامٍ يابسٍ تذروه الرّياح، يذهب هدرًا بعد أن كنتم ترجون حصاده.

بلاغة استعمال مفردة ﴿حُطَٰمٗا﴾ مادَّة وصيغة:

الـحُـطـام لـفظٌ يُـدخـل في النَّفس الانكسار والاندثار والفزع والجزع

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿حُطَٰمٗا﴾، في قوله تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾؛ لما تحمله المفردة من إيحاءات بلاغيَّة قويَّة، تُصوِّر نهاية الزَّرع تصويرًا مرعبًا، يتجاوز مجرَّد التَّلف إلى صورة التَّحطيم والاندثار الكامل، وسمّيت النّار الحطمة لحطمها ما تَلْقى[1]، فمادَّة (حَطَمَ) في أصلها اللُّغويِّ تدلُّ على التَّكسير والتَّهشيم، لا على الذُّبول أو الجفاف فحسب، وقيل: هو كسر اليابس خاصَّة[2].

واختيار الصّيغة (فُعال) في (حُطام) زاد المعنى قوَّة؛ لأنَّ هذه البنية الصَّرفيَّة لا تدلُّ على الفعل وحده، بل تشير إلى الهيئة والمآل، فكأنَّ الشَّيء كلَّه قد انقلب إلى صورة الحطام، وصار هذا التَّحطيم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حطم).
(2) ابن سيده، المُحكم: (حطم).

صفته الكاملة، لا شيئًا أصابه جزئيًّا أو عارضًا، فليس هو مجرَّد مكسور، بل هو (الحُطام) ذاته، وهذا أبلغ في بيان أنَّ الزَّرع قد بلغ من التَّلف ما لم يُبقِ له قوامًا ولا أثرًا.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَظَلْتُمْ﴾:

الحطام أصلٌ يتفرَّع عنه الحيرة والشَّكوى واضطراب النَّفس

الفاء في قوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ هي فاء التَّفريع السَّببيِّ، دخلت على جملةٍ مترتِّبة على ما قبلها، فـ "قوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ تفريع على جملة: ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾، أي: يتفرَّع على جعله حطامًا أن تصيروا تقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، ففعل (ظَلْتُم) هنا بمعنى: صرتم، وعلى هذا حَمَله جميع المفسِّرين"[1].

وتوحي الفاء بمباغتة الحدث، فالفعل الإلهيُّ إذا نزل فجأة، وما إن وقع حتَّى انفتحت عليكم أبواب الذُّهول والتَّحسُّر، ووقعتم في الحيرة والشَّكوى، فتسلسلت في أعماقكم مشاعر لا تملكون لها دفعًا.

غرض استعمال مفردة ﴿فَظَلْتُمْ﴾ دون (فصرتم):

استمرار الحسرة وطول زمن الانفعال إثر تحطيم الزَّرع

استعمال قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ بدلًا من أن يُقال: (فصرتم تفكَّهون)، يحمل دلالة بلاغيَّة دقيقة، وهي أنَّ في فعل (ظلَّ) دون (صار) خصوصيَّة الزَّمن والانفعال معًا، على نحوٍ لا يؤدّيه الثّاني، ففعل (ظلَّ) يدلُّ على الدَّوام والاستمرار في زمن النَّهار، ولذلك فاستعماله هنا يوحي بخطاب المنكرين: بأنَّكم تماديتم في التَّفكُّه والتَّعجُّب والنَّدم طيلة النَّهار، في استغراق متواصل وقلق متتابع، وهذا يتلاءم مع المقام؛ لأنَّ الزَّرع إذا أُفسِد فجأة؛ فليس ردُّ الفعل مجرَّد لحظة، بل حالة من الدَّهشة والحزن والتَّساؤل تستمرُّ في الزَّمن، خاصَّة إذا كان كلُّ رجاء الإنسان متعلِّقًا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 322.

بهذا الزَّرع، فـ(ظلَّ) تُصوِّرُ النَّفس، وهي تبيت على الحسرة، وتصبح عليها، لا تكاد تفيق منها.

بلاغة حذف إحدى لامي ظلَّ وتاء التَّفكُّه:

الحذف التَّخفيفيُّ إيماءٌ صوتيٌّ يُنادي على كوامن النَّفس البشريَّة

في قوله تعالى: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾ تتجلَّى بلاغة قرآنيَّة دقيقة في استخدام الحذف الصَّرفيِّ؛ إذ حُذِفت إحدى لامي "ظلَّ" (والأصل: ظللتم)، وحُذِفت كذلك إحدى التّاءين من "تفكَّهون" (والأصل: تتفكَّهون)، فيما يُعرف بالحذف التَّخفيفيِّ، وهو أسلوب يُراعى فيه التَّخفيف الصَّوتيُّ وخفَّة اللَّفظ، خاصَّة في المواطن الَّتي تتَّسم بالانفعال أو المفاجأة أو التَّهويل.

والحذف هنا لا يقف عند حدِّ التَّخفيف الصَّوتيِّ، بل يتعدّاه إلى بُعْدٍ بلاغيٍّ عميق؛ إذ يُسهم في الإيجاز دون الإخلال بالمعنى، ويعطي العبارة وقعًا سريعًا ومباغتًا ينسجم مع سياق الآية الَّذي يُصوِّر مشهد الانهيار والخذلان، حين يرى النّاس زرعهم، وقد تحطَّم فجأةً، فالإيجاز اللَّفظيُّ يومئ إلى سرعة الأحداث، واختناق المشاعر عند وقوع الكارثة.

توجيه استعمال مفردة ﴿تَفَكَّهُونَ﴾:

المفارقة بين شديد التَّحسُّر واللامبالاة النَّفسيَّة عند وقوع المصائب الجسيمة

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿تَفَكَّهُونَ﴾، الَّتي تدلُّ في أصلها على الفرح والانبساط، وعلى التَّلذُّذ والسُّرور، في قوله تعالى: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾، والسّياق سياق زجر وبيان لعجز الإنسان وضعفه أمام قدرة اللّه؛ إذ الزَّرع الَّذي به قوام حياته قد صار حطامًا، فكيف يتفكَّه من فقَد قوَّته؟ وقد اختلف المفسِّرون في بيانها، فقيل: تعجبون، وقيل: تتلاومون، وقيل: تندمون، وقيل: تحزنون، وقيل: هو تلهُّف على ما فات، وقيل: فعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ من الأضداد تقول العرب: تفكَّهت، أي: تنعَّمت، وتفكَّهتُ، أي: حزِنتُ[1].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 418 - 419، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 322.

ولهذه المفردة دلالة بليغة في هذا السّياق؛ إذ المعنى أنَّ من نزلت به تلك الواقعة؛ فإنَّ كلامه الصّادر عنه يُشبه كلام من يتفكَّه سرورًا وحبورًا، لا أنَّه مسرور، وهذه حالة نفسيَّة يمرُّ بها شديد الحزن وعظيم الهول ممّا وقع به، فالمفردة في سياقها تنطوي على مفارقة بلاغيَّة مقصودة، يظهر فيها اللَّفظ بصورة، وتدلُّ الحال على ضدِّها، فالتَّفكُّه هنا إمّا أن يُحمل على التَّهكُّم من فرط الذُّهول؛ إذ يُصدَم الإنسان صدمةً تنقله إلى حال من الهذيان والعبث، فيقول ما لا يليق بالمقام، أو يُظهر ما لا يطابق ما في الباطن، وإمّا أن يكون التَّفكُّه على وجه اللامبالاة الظّاهرة، كحال من تَغَلَّب عليه الحزن، فأخذ يضحك ضحك المتحيِّرين، أو هو على ظاهره، من حيث استعمال الكلمة في سياق الحسرة المتلذِّذة بالمفقود، فيتحسَّرون على زرعهم كما يتحسَّر من فقد طعامًا يتفكَّه به، وكأنَّهم يستشعرون الفقد الفادح بما يندُّ عن التَّعبير الجادِّ.

بلاغة التَّوكيد في جملة: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾:

تصوير الانكسار وإيقاظ الغفلة لما يدور في النَّفس

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾، جاء التَّوكيد بـ(إنّ) واللّام في ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ لحكمة بلاغيَّة دقيقة، تتناسب مع المشهد المرسوم في السّياق؛ إذ الزَّرع قد صار حطامًا، والنُّفوس في حال من الذُّهول والاضطراب، فهذا التَّوكيد يُجسِّد شدَّة وقع المصيبة على المتكلِّمين، ويصوِّر عمق اليقين الَّذي وقع في نفوسهم بأنَّ ما أصابهم لم يكن مجرَّد خسارة زراعيَّة عارضة، بل هو غُرمٌ لازمٌ، ونكبة موجعة لا فكاك منها.

توجيه القراءات القرآنيَّة في جملة ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾:

قرأ الجمهور: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ بهمزة واحدة، وهي همزة (إنَّ)، وقَرَأ عاصِم وحده في رِوايَة شعبة بهمزتين: همزة استفهام وهمزة

(إنَّ): ﴿أَءِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾[1]، والقراءتان تحملان دلالات بلاغيَّة ومعنويَّة مختلفة، فالقراءة الأولى، وهي قراءة الجمهور، جاءت بهمزة واحدة هي همزة "إنَّ" التَّوكيديَّة، فتفيد التَّوكيد والإقرار، وكأنَّ القوم يعلنون يقينهم بأنَّهم واقعون في الغُرم، أي: الخسارة أو العقوبة أو الهلاك، فيُسلِّمون بالأمر، ويقرّون بالعجز أمامه، أمّا القراءة الثّانية، وهي قراءة عاصم في شعبة، فقد وردت بهمزتين: همزة استفهام وهمزة ﴿أَءِنَّا﴾، فتُصبح الجملة استفهاميَّة تنطوي على معنى التَّعجُّب أو الإنكار، وكأنَّهم يقولون باستغراب: "أحقًّا إنَّنا لمغرمون؟"، فيدلُّ ذلك على دهشتهم أو مكابرتهم أو عدم تصديقهم لما حلَّ بهم، رغم وقوع البلاء، وتُبرز هذه القراءة موقفًا مختلفًا، يُشبه حال الإنسان حين يصدمه الابتلاء فينكره، أو يستغربه قبل أن يستوعبه، وهكذا تتكامل القراءتان في رسم حالتين بشريتين أمام الشِّدَّة - الأولى تعبِّر عن الاستسلام والانكسار، والثّانية عن الدَّهشة والإنكار - لتُصوِّر الآية في الحالتين الاضطراب الدّاخليَّ الَّذي تعكسه الكلمات حين تواجه النَّفس وقع البلاء.

بيان الحالة النَّفسيَّة بين التَّوكيد لما وقع والاستفهام عمّا وقع

بلاغة استعمال مفردة ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾:

توحي مفردة ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ بأنَّ ما أصابهم ليس مجرَّد خسارة عابرة، بل بلاء ملزم ثقيل كالغرامة الماليَّة المفروضة، فيها شعور بالقهر والعجز، ذلك أنَّ مفردة الغرام تدلُّ في اللُّغة على الولوع والشَّرِّ الدّائم والهلاك والعذاب، والغرامة ما يلزم أداؤه[2]، ومآل اللَّفظ إلى الهلاك[3]، فاختيار هذه اللَّفظة بدل (خسرنا) أو (فقدنا) أدقُّ في تصوير الموقف النَّفسيِّ، فهي تحمل ظلال الإلزام، والنَّدم، والانكسار، وهي تهيئة للآية التّالية ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾،

الغرم حالةٌ من الهلاك والعذاب تُحيط بالغارم بسبب ثقل وخسارة تلحقه

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 623.
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ص: 1142.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 323.

الَّتي تُظهر تمام شعورهم بالخيبة والخذلان، بعد أن رأوا ما زرعوه ينهار أمامهم دون أن يملكوا من أمرهم شيئًا.

دلالة حرف الإضراب ﴿بَلۡ﴾:

التَّدرُّج من الاعتراف بالمصيبة إلى الحرمان الكلّيّ

جاء حرف الإضراب ﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾؛ لينقل الحديث من دعوى إلى ما هو أدقُّ وأبلغ في تصوير حالهم، لا لمجرَّد نفيٍ لما قبل، بل للتَّصويب والتَّصعيد، فبعد أن قالوا: ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ﴾، أي: أصابتنا غرامة وخسارة، جاء الإضراب بـ﴿بَلۡ﴾ ليُظهِر أنَّ الحال أشدُّ من مجرَّد خسارة ماليَّة، إنَّهم محرومون، أي: مُنِعوا من النِّعمة أصلًا، فلا هي وصلت إليهم، ولا هم انتفعوا بها، فصاروا في الحدِّ الأقصى من الفقد والخذلان، فالإضراب هنا انتقاليٌّ تصحيحيٌّ، كأنَّهم قالوا: لسنا فقط مغرَمين بما خسرنا، بل الواقع أنَّنا لم نملك شيئًا أصلًا، نحن محرومون منه من الأساس[1].

غرض تقديم المسند إليه على المسند:

قُدِّم المسند إليه ﴿نَحۡنُ﴾ على المسند ﴿مَحۡرُومُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾؛ لتقوية الحكم وتوكيده، وهو ما يعكس الحالة النَّفسيَّة الَّتي يعيشها أولئك المخزيّون.

بلاغة استعمال مفردة الحرمان:

الحرمان منعٌ بعد رجاء الحصاد وإيقاف بعد تدفُّق الخيرات

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿مَحۡرُومُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾، دون رديفاتها؛ لما في هذه المفردة من بلاغة تُفصح عن معنى الحرمان القهريِّ، والمنع بعد الرَّجاء، والخذلان بعد الأمل، فالزَّرع بعد أن أوشك على الاكتمال، واليد امتدَّت للحصاد، فإذا هي تُمنع فجأة، وتُصفَع بالخيبة، ويُحال بينها وبين الثَّمرة.

والحرمان يتضمَّن الإقصاء عن النِّعمة بعد قربها، فهو أشدُّ وقعًا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 419.

من مجرَّد الفقد؛ لأنَّ الفاقد قد لا يرجو، أمّا المحروم؛ فقد رجى ثمَّ حُرِم، فتتضاعف الحسرة، وهذه اللَّفظة تصوِّر شدَّة الكارثة بعد اكتمال الأمل في الزَّرع والنَّتيجة، وهو أن يتحوَّل إلى حُطام لا يُنتفع به.

فائدة ترتيب ذكر ﴿لَمُغۡرَمُونَ﴾ ثمَّ ﴿مَحۡرُومُونَ﴾:

الانتقالُ من الفهم المادّيِّ السَّطحيِّ إلى الإدراك الفكريِّ العميق

جاء ترتيب القولين في الآية: ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾، على نسقٍ بديع يرسم تدرُّج الشُّعور البشريِّ عند الصَّدمة بفقد النِّعمة، ويفتح بابًا عميقًا للتَّأمُّل في تفاوت مستويات الإدراك، والانتقال من وهم الأسباب إلى مواجهة القدر.

فابتداءً بـ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ﴾، عبَّروا عن تصوُّرهم الأوَّل؛ إذ رأوا في ضياع الزَّرع خسارة ماليَّة، وغُرمًا واقعًا عليهم، كما يقع على التّاجر حين يخسر ماله، فالغُرم في معناه القريب يدلُّ على الضَّمان والتَّبِعة الماليَّة، فهُم حملوا السَّبب على حساباتهم وأخطائهم أو سوء حظِّهم.

لكن سرعان ما أفاقوا من هذا الظَّنِّ، وانتقلوا إلى حقيقة أعمق وأوجع، فقالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾، وهنا يأتي الإضراب بـ﴿بَلۡ﴾؛ لينقض ما قبله، ويبدِّله إلى فهم جديد، فليس ما أصابنا مجرَّد غُرم دنيويٍّ، بل هو حرمان قدَريٌّ، ومنع إلهيٌّ، وتصفية من السَّماء، إنَّهم لم يُغرموا فقط، بل مُحقتِ البركة كلُّها، ومُنع الرِّزق من أصله، فلا طاقة لهم بجبره، ولا حيلة في دفعه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البذر والزَّرع:

البذر بدايةُ الزَّرع والزَّرع ثمرته ونتاجه

(البَذر) الباء والذّال والرّاء أصل واحد، وهو نثر الشَّيء وتفريقه، يقال: بذرتُ البذر أبذرُه بذرًا، وبذَّرتُ المال أُبذِّرُه تبذيرًا[1]، والبذر إلقاء البذور في التُّربة، وهو عمل البشر واختيارهم، لا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بذر).

يحتاج إلّا إلى سبب قريب وإرادة ميسورة، أمّا (الزَّرع)؛ فيدلُّ على تنمية الشَّيء[1]، فالزَّرع نتاج البذر، وهو ثمرة خفيَّة النَّماء، مركَّبة في تكوينها، معتمدة في وجودها على عوامل تتجاوز قدرة الإنسان وتدبيره، كشقِّ البذور، وإنبات الجذور، وتغذية السّاق، وتصريف الماء والهواء والضَّوء، وهي كلُّها ممّا لا يملك الإنسان فيه إلّا النَّظر والعجب؛ ولهذا قال: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، ولم يقل: (أأنتم تبذرونه)؛ إذ البذر داخل في وسعهم، أمّا الزَّرع؛ فخارج عنه.

والتَّعبير بالزَّرع دون البذر يحمل في طَيّاتِهِ معنى النَّماء المتَّصل، والحياة الكاملة الَّتي تتفتَّح بعد سكون، كما يحمل تذكيرًا بأنَّ تلك النَّشأة الثّانية، الَّتي أنكروها، ليست بأعجب من النَّشأة الأولى، الَّتي يشاهدونها في كلِّ سنبلة تنشقُّ عن حبَّة ميتة، أفينكرون البعث، وهم يرون الزَّرع؟.

الحطام والهشيم:

الحُطام يكون لما هو شديد القسوة والهشيم لليابس الأجوف

(الحُطام) ما تكسَّر من اليابس، ومنه الحَطم: الكسر بشدَّة[2]، فهو سحقٌ حتَّى لا يبقى منه إلّا شذر مبعثر، أمّا (الهَشيم)؛ فدلالته أضعف حدَّةً؛ إذ يدلُّ على كَسرِ الشَّيءِ الأجوف والشَّيء اليابس[3]، هَشَمتُ أنفَه، أي: كَسَرت قَصبَتَهَ[4]، أو يدلُّ على التَّناثر بلين، وربَّما بمرِّ الرّيح، دون اصطدام أو عنف.

الغرام واللُّزوم:

الغَرام يدلُّ على اللُّزوم بشدَّة واللُّزوم أعمُّ من ذلك

(اللُّزوم) يدلُّ على مصاحبة الشَّيء بالشَّيء دائمًا، يقال: لزمه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زرع).
(2) الخليل، العين: 3/ 175، والصّاحب بن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (حطم).
(3) الخليل، العين، والصّاحب بن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (هشم).
(4) الخليل، العين: (هشم).

الشَّيء يلزمه، واللِّزام: العذاب الملازم للكفّار[1]، واللُّزوم في أصل دلالته يشير إلى مجرَّد التَّعلُّق والثَّبات، وهو حياديٌّ في طبيعته، فقد يلزم الشَّيء نفعًا أو ضرًّا، ويكون من جهة الذّات أو من جهة الآخر، لكنَّه لا يُشعر بغير المجاورة والدَّيمومة في التصاق السَّبب بالمسبَّب، دون أن يتضمَّن بالضَّرورة ألمًا أو فواتًا، تقول: (لزمه الدَّين)، أي: التزمه، والتزم سداده، دون أن يكون في ذلك ما يفيد الشِّدَّة أو العذاب، أمّا (الغَرام)؛ ففيه - إلى جانب معنى اللُّزوم - إيغال في الشِّدَّة، والتصاق لا انفكاكَ منه مقرونٌ بالألم والعذاب، ومن دلالة الكلمة في المعاجم: "الغرام هو العذاب الملازم"، وقال الرّاغب: "الغَرامُ: ما ينوب الإنسان من شدَّة ومصيبة"[2]، ولذلك سُمّي العذاب الأبديُّ في الآخرة غرامًا، كما في قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: 66]، ثمَّ قال: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: 65].

الحرمان والمنع:

الحرمان منع بعد رجاء تحصيل المطلوب، والمنع أعمُّ منه، فهو خلاف الإعطاء

الحرمان المنع والتَّشديد، فالحرام: ضدُّ الحلال[3]، فهو أخصُّ وأشدُّ؛ إذ يُشير إلى سلبٍ بعد تمكُّنٍ، أو رغبةٍ حادَّة فُجِعت بالخيبة، ولهذا يُقال: (حُرِم الثَّمرة)، أي: بعد أن أزهرت، و(حُرِم الجائزة) بعد السَّعي إليها، و(حُرِم النَّوم) بعد شدَّة التَّعب، فالحرمان إذًا يُشعر بخيبة أملٍ وحسرةٍ دفينة؛ إذ كان الإنسان قاب قوسين من النِّعمة، ثمَّ فاته الأمر في لحظة، فبقي النَّظر، وزالتِ المُتعة.

وأمّا المنع؛ خلاف الإعطاء، ومنعته الشَّيء منعًا، ومكان منيع، وهو في عزٍّ ومنعة[4]، فيدلُّ على الصَّدِّ عن الشَّيء قبل نيله، فهو إيقاف أو حيلولة دون وصول الإنسان إلى مبتغاه، سواء أدركه، أم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لزم).
(2) الراغب، المفردات: (غرم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منع).

لم يدركه، تقول: (مُنِعَ من الماء)، أي: لم يُسمَح له به، أو صُدَّ عنه، وقد يُمنَع الغريب عن الدُّخول، أو الطِّفْل عن اللَّعب، من غير أن يكون قد تذوَّق ما مُنع منه أصلًا، فـ (المنع) سالب خارجيٌّ، يقع في وجه الرَّغبة، وقد يكون بالسُّلطة أو بالحال، ولا يُشترط فيه التَّملُّك السّابق أو التَّقرُّب إلى المطلوب.

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ
نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ۝٧٠﴾

[الواقعة: 68 - 70]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من النَّتيجة في ذكرِ الحرث إلى السَّبب في ذكر الماء

لمّا ذكر في الآيات السّابقة الحرث الَّذي ينبت زرعه وشجره بالماء؛ ناسب ذكر الماء بعده، فهو انتقالٌ من الاستدلال بتكوين النَّبات، إلى الاستدلال بتكوين الماء الَّذي به حياة الزَّرع والشَّجر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُزۡنِ﴾: (مزن) يدلُّ على السَّيلِ والانسياب، ومنه قولهم: مَزَنَ السَّحابُ؛ إذا أمطر، وسال، والمَزن: هو السَّحاب عامَّة[1]، وقيل: السَّحاب ذو الماء[2]، أو هو السَّحاب الماطر، و(المُزنَةُ) أيضًا المَطرَةُ[3]، دون أن يكون كلُّ سحابٍ مزنًا؛ بل إنَّ ﴿ٱلۡمُزۡنِ﴾ أخصُّ من السَّحاب؛ إذ لا يُطلَق إلّا على السَّحاب المتكوَّن من ماء ثقيل مهيَّأ للإنزال، بخلاف الغمام الَّذي قد لا يحمل ماءً أصلًا.

2) ﴿أُجَاجٗا﴾: جذر الكلمة هو (أج) والأجاج هو الماء شديد الملوحة والحرارة، من قولهم: أجيج النار وأجَّتُها، وقد أجّت، وائتجّ النهار. ويأجوج ومأجوج منه، شبّهوا بالنار المضطرمة والمياه المتموّجة لكثرة اضطرابهم وأجّ الظّليم: إذا عدا، أجيجاً تشبيهاً بأجيج النار[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مزن).
(2) ابن سيده، المُحكم: (مزن).
(3) الرّازيّ، مختار الصِّحاح: (مزن).
(4) الراغب، المفردات: (أجج).

بيان نعمة الماءِ في إنزالِه وصفاتِه

۞ المَعنى الإجماليُّ:

تُبيِّن الآيات الكريمة نعمةً من نِعم اللّٰه على العبادِ، فيقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ﴾، أتشاهدونه في حال شرابكم له، وتُدركون لذَّته وبرودته وعذوبته، ثمَّ تغفلون عمَّن أنزله إليكم؟ ثمَّ يُعقِّب بهذا السُّؤال الإنكاريِّ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾، والمُزن هو السَّحاب المحمَّل بالماء، لا مجرَّد الغيم، فالسُّؤال هنا استحضار للمشهد المحسوس، وتقرير لعجز الإنسان، ثمَّ يأتي التَّهديد المشوب بالمِنَّة في قوله: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجًا﴾، أي: مِلحًا مرًّا لا يُطاق[1]، يُفسد الزَّرع، ويُهلك الشّارب، فلو شاء اللّٰه؛ لسلب الماء خاصيَّته الَّتي بها قوام الحياة، فلا هو قادر على إنزاله، ولا هو قادر على إصلاحه؛ إن فسد، ثمَّ يختم بتقريع فيه رِقَّة وتذكير: ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾، أي: فهلّا تشكرون اللّٰه على ما وهبكم من هذا الماء العذب، بعد أن بيَّن لكم أنَّه في قبضته وتحت مشيئته.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرض الاستفهام في جملة: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

توبيخٌ في صورة سؤال، وتقريرٌ في قالب تأمُّل

جاء الاستفهام بعد نظيره في شأن الزَّرع والحرث؛ استحضارًا لمشاهد يوميَّة مألوفة عند الإنسان، يُدعَى فيها؛ ليتأمَّل ما بين يديه ممّا يحسبه مُلكًا معتادًا، وهو في حقيقته آية قائمة بذاتها، فالاستفهام للتَّقرير، المقتضي توبيخ المنكرين للبعث، يُحاصر العقل من جميع الجهات؛ ليقرَّ بأنَّ الأمر للّٰه وحده.

نوع الفاء ودلالتها في جملة: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

من عجز عن إنبات الزَّرع فهو عن إنزال الماء أعجز

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ﴾ هي فاء تفريع، وهي متفرِّعة على ما قبلها من السّياق، فهي تربط بين مشهد الزَّرع

(1) الخازن، لُباب التَّأويل: 7/ 23.

ومشهد الماء، وهما من أوثق ما يكونان اتِّصالًا في واقع الحياة؛ إذ لا ينمو الزَّرع إلّا بالماء، فالعطف هنا يحمل في طيّه تناسبًا طبيعيًّا، كما يحمل أيضًا تصعيدًا في الحُجَّة، فإن كان الإنسان عاجزًا عن إنبات ما زرع؛ فهو - من باب أولى - أعجز عن إنزال الماء الَّذي به حياة كلِّ شيء.

تعيين المعطوف عليه في جملة: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

العطف إمّا على ما قبل الهمزة في المذكور أو مقدَّر بعدها

المعطوف عليه بالفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ﴾، إمّا ما قبل الهمزة في السّياق السّابق، وإمّا على مقدَّر بعد الهمزة، والتَّقدير: (أأبصرتم، فرأيتم الماء الَّذي تشربون)، وهذا بناءً على الخلاف في جواز العطف على ما قبل الهمزة.

نوع الرُّؤية في جملة ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

رؤيــة المــاء في نـفـعِـه وآثــاره ومشاهده

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ﴾، ليست رؤية بصريَّة مجرَّدة، بل هي رؤية عقليَّة تدبُّريَّة، يُراد بها إثارة الفكر واستدعاء التَّأمُّل فيما وراء الصّورة الحسّيَّة، فالماء مشهود للنّاس جميعًا، لكنَّ المطلوب في هذا السّياق ليس مجرَّد ملاحظته، وإنَّما استجلاء معناه من حيث هو نعمة صافية لا يد للإنسان في إيجادها، ولا سلطان له على مصدرها، ولذلك فالسُّؤال الإلهيُّ لا يستنطق العين، وإنَّما يخاطب القلب والعقل؛ ليبعث في النَّفس وعيًا جديدًا بهذه النِّعمة الَّتي تنساب كلَّ يوم بين أيدينا، ثمَّ لا نلتفت إلى عظيم منشئها.

نكتة العدول عن الاكتفاء بالاسم الموصول (ما) بذكر ﴿ٱلۡمَآءَ﴾:

التَّصريحُ بالماء أرسخُ في عموم المشروبات وأقوى في شمولِ أنواع المياه

اختلف التَّعبير القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ﴾ عن النَّظم السّابق من قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾، فعدل عن الموصول المبهم (ما) إلى الاسم الظّاهر ﴿ٱلۡمَآءَ﴾، ثمَّ أتبعه بالوصف الموصول: ﴿ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ﴾، فلم يقل: (أفرأيتم ما

تشربون)، وذلك لعموم (ما)، ولو قيل: (ما تشربون)؛ لكان اللَّفظ عامًّا يدخل فيه كلُّ مشروبٍ، والمراد التَّنبيه على أصلِ كلِّ شراب، وأعظم مورد للحياة، وهو الماء العذب، ففيه تنبيهٌ على أصل النِّعمةِ، وأنَّ ما دونه من المشروبات فعائدٌ إليه، وهو أقوى في العموم وأرسخ في الشُّمول من أن يأتي بـ(ما) الموصوليَّة وبعدها فعل الشُّرب.

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى تَشۡرَبُونَ﴾:

جاء التَّقييدُ بالوصف بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِى تَشۡرَبُونَ﴾؛ لتعيين موضع المنَّة بما هو معلومٌ حاضرٌ في أذهانهم، مستقرٌّ في نفوسِهم، مع الإشعار بالتَّهديد والوعيد في منعه عنهم.

توجيه تخصيص الماء بالشُّرب:

شربُ الماء أبرز ما في الماء من نعم وآخـر المصبور عليه عند نزول النِّقم

جاء تخصيص فعل ﴿تَشۡرَبُونَ﴾ بالذِّكر دون بقيَّة الفوائد للماء، كالسِّقاية مع تقدُّم ذكر الحرث، لا للقصر، بل لذكرِ أميزِ ما فيه؛ تنبيهًا على سائر ما فيه، "ولأنَّ الشُّربَ أهمُّ المقاصدِ المنوطة به"(1)، فإنَّ شربَ الماء هو أعظم المنن الَّتي عرفها البشر عمومًا، وعرفها العرب الَّذين يعتمدون نزول الماء من السَّماء خصوصًا، فلم تكن عندهم أنهار تجري، ولا بحيرات تُثري، فكان ذكر الشُّربِ تلويحًا ببقيَّة الصِّفات، مع الإيماء إلى أنَّ هذه النِّعمة هي الخطُّ الأخير في خطورة نقص المياه، فإنَّ الإنسان يتدرَّج في الاقتصاد المائيِّ حتَّى يجعل آخر الماء للشُّرب، وهو ما يُقوّي التَّهديد الضِّمْنيَّ في منع الماء عن النُّزول.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع:

الإيماء إلى دوام النِّعمة وتجدُّد المنَّة

جاء التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَشۡرَبُونَ﴾ الدّالَّة على الحال والاستمرار، لا ليصف الفعل الطَّبيعيَّ فقط، بل ليُلفت إلى دوام النِّعمة وتجدُّدها في حياة الإنسان، فالشُّرب حاجة يوميَّة لا تنقطع،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 198.

ومن ثمَّ كان اختيار الفعل المضارع هنا إشارة إلى دوام المنَّة الإلهيَّة وسريانها في الزَّمن، وكأنَّ كلَّ شربة هي تجديد للعطاء الرَّبّانيِّ.

بلاغة المناسبة في ذكر مفردة الشُّرب:

المقابلة بين شراب أهل الدُّنيا وشراب أصحاب الشِّمال

ناسب ذكر مفردة الشُّرب في هذا السّياق ذكرها في سياق عذاب أصحاب الشِّمال؛ إذ قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾، فكان ذكر الشُّرب في هذا الموضع بمنزلة مقابلة ضمنيَّة تُظهر الفارق الجوهريَّ بين شرب النِّعمة في الدُّنيا، وشرب العذاب في الآخرة، فهو تلويحٌ تهديديٌّ بمنع الماء في الدُّنيا، وتذكير بعذاب الآخرة، ثمَّ المفردة تفتح أفق القارئ؛ ليُقابل الشُّرب الَّذي لا يُذكر له قيد في هذه الآية، بالشُّرب الَّذي قُيِّد في سياق العذاب، كما في حال أهل النّار: ﴿فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾، فذلك شرب مُقيَّد بعلَّة العذاب، بينما هذا شرب مطلق يفيض نعمة ورحمة.

نكتة حذف المتعلّق بـ ﴿تَشْرَبُونَ﴾:

كلُّ ما هو متعلِّقٌ بالشُّرب فداخلٌ في الامتنان في سياق الاستدلال

حُذِف المتعلِّق بالفعل ﴿تَشْرَبُونَ﴾، فلم يُذكر معه ما يُشرب لأجله أو كيفيَّته أو ظرفه، كأن يُقال: (تشربونه لريّكم)، أو (في وقت ظمئِكم)، وقصد بالحذف الإطلاق والتَّعميم؛ ليعمَّ جميع أحوال الشُّرب وأشكاله ومقاصده، من ارتواءٍ، أو تذوُّق، أو انتعاش، أو دواء.

وهذا الإطلاق يمنح اللَّفظ سعةً دلاليَّة، تجعل النِّعمة ماثلة في كلِّ موطنٍ يُستعمَل فيه الإنسان الماء، فلا تُقيَّد بلحظة، ولا تُحصر في هيئة، بل يُدعى الإنسان إلى أن يتأمَّل الشُّرب في ذاته، كيفما وقع، ومن حيث هو فعل متكرِّر محتاج إليه دائمًا؛ ليشعر بعِظم المنَّة ودوام الحاجة، وهو المناسب لسياق الامتنان بقصد الاستدلال، فكان حذف المتعلِّق بـ ﴿تَشْرَبُونَ﴾ مقصودًا لتوكيد شمول النِّعمة.

واتِّساع أثرها، وتجدُّدها في كلِّ آنٍ ومقام، وليجعل من كلِّ شربة ماء ذكرًا للّٰه، وإشعارًا بفضله.

بلاغة الاستفهام في جملة: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ﴾:

الاســتـفـهـام الــتَّــقــريــريُّ يتضمَّن تقريعًا بلاغيًّا وإلــزامًا إقراريًّا

جاء الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ استفهامًا تقريريًّا مشوبًا بالتَّوبيخ والتَّقريع، وقد بُني الاستفهام بأسلوبٍ يفرض المقابلة المباشرة بين قدرة الإنسان وقدرة اللّٰه، فجاء السُّؤال مقسومًا بين أنتم ونحن، في صورة تحدٍّ يبلغ مداه، كأنَّ الحقَّ سبحانه يقول: بيِّنوا من صاحب الفعل؟ أتراكم تملكون مفاتيح السَّحاب، وتسيِّرون المطر مِنَ المُزنِ، أم أنَّ اللّٰه هو الَّذي يُنزل الماء بقدر، ويجريه حيث شاء؟.

وهذا التَّقسيم البلاغيُّ يُفضي بالعقل إلى الجواب الحتميِّ الَّذي يقتضيه التَّقرير: بل اللّٰه هو المنزِّل، وهو وحده الفاعل الحقيقيُّ، وهنا تكمن قوَّة الاستفهام؛ إذ هو يوقظ الفطرة، ويُحرج المكابرة، ويُشيع في النَّفس الخضوع للحقِّ.

غرض تقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ:

تقوية الحكم وتوكيده بقصد التَّوبيخ ببيان عجز المنكرِ

قُدِّم المسند إليه: (أنتم) على المسند الفعليِّ: ﴿أَنزَلۡتُمُوهُ﴾؛ لإفادة تقوية الحكم وتوكيد الاستفهام المقتضي للتَّوبيخ، فالتَّقديم يبرز تناقض الدَّعوى ومحدوديَّة القدرة؛ لأنَّه يضع المسند إليه في موضع المسؤوليَّة المباشرة، فإذا عُرِض الفعل في مواجهته بدا العجز واضحًا، والسُّؤال ملزمًا، والنَّفي غير محتاج إلى تصريح، وهو من أساليب التَّقرير في البلاغة؛ إذ يُقدَّم الفاعل في الاستفهام؛ ليُحصر فيه المعنى، ثمَّ يُكشف عن استحالته في العقل والفطرة.

براعة استعمال مفردة الإنزال:

جاء استعمال فعل ﴿أَنزَلۡتُمُوهُ﴾ دون مرادفاته؛ لما فيه من إيحاء بالقصد والتَّوجيه والضَّبط والقدرة، "فقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ

الكناية عن نزول الماء الصّالح للانتفاع لا مجرَّد وجوده في الأرض

﴿ٱلْمُزْنِ﴾ جُعِل استدلالًا منوطًا بإنزال الماء مِنَ المُزنِ، على طريقة الكناية بإنزاله، عن تكوينه صالحًا للشَّراب؛ لأَنَّ إنزاله هو الَّذي يحصل منه الانتفاع به، ولذلك وصف بقوله: ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾"[1]، فالإنزال في لغة القرآن لا يكون إلّا عن إرادة وعن تدبير من علوٍّ، وهو في ذاته فعل يدلُّ على تسخير عناصر علويَّة، وإنزالها إلى مواضع مخصوصة بحكمة، فدلَّ اختيار هذه المفردة على أنَّ الإنزال بحدِّ ذاته نعمة مستقلَّة، تقتضي قدرة وإرادة لا يملكها البشر.

نكتة العدول عن المضارع إلى الماضي ﴿أَنزَلْتُمُوهُ﴾:

اختلاف التَّعبير بالمفعول مؤثِّرٌ في اختلاف التَّعبير عن زمن الفعل

عدل النَّظم في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ عن المضارع الَّذي جاء في الآيات السّابقة ﴿تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ و﴿تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾، إلى التَّعبير بصيغة الماضي ﴿أَنزَلْتُمُوهُ﴾، وذلك أنَّ فعل ﴿أَنزَلْتُمُوهُ﴾ اختلف في عودة الضَّمير عن الفعلين الآخرين؛ إذ رجع إلى الماء الموصوف بأنَّه يُشرب، ولم يرجع إلى (ما) الَّتي تُفيد العموم، فلمّا اختلف الأسلوب في بيان المفعول بين (ما) والتَّصريح بالماء، اختلف الزَّمن، فجاء الماضي للتَّلويح بما يُشرب الآن، دون ذكر ما سينزل في قابل الأيّام، فاختلاف التَّعبير في الزَّمانين لاختلاف التَّعبير في المفعول.

نوع ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

ابتداءُ إنزالِ الماء من السَّماءِ دفعٌ لأوهامِ القدرة وإثباتُ العجز البشريِّ

حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ يدلُّ على ابتداء الغاية المكانيَّة[2]، فالإنزال فعل يبدأ من جهة العلو، لا من الأرض ولا من فعل البشر، ممّا يُثبت أنَّ مصدر الماء بعيد عن متناول الإنسان، وأنَّ سببه خارج عن قدرته.

وفي ذلك إشارة ضمنيَّة إلى أنَّ المزن - وهو السَّحاب المطر -

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 324.

(2) المُبرّد، المقتضب: 4/ 136.

ليس بحدِّ ذاته سببًا كافيًا للمطر، بل هو وعاء مخلوق، لا ينزل منه شيء إلّا بأمر اللّه ومشيئته، فجاءت ﴿مِنَ﴾ لتربط الماء بمصدره الحقيقيِّ، وتُظهر مقام العلو والتَّقدير والتَّدبير، وتقطع الوهم بأنَّ الإنسان يملك شيئًا من هذا الإنزال.

غرض ذكر قيد ﴿مِنَ ٱلۡمُزۡنِ﴾:

ذِكر قيد ﴿مِنَ ٱلۡمُزۡنِ﴾ لتوكيد بُعد مناله عن قدرة الإنسان؛ إذ المزن هو السَّحاب المطر العالي، فتقييدُ الإنزال منه بيانٌ لسنَّة اللّه تعالى في أمر إنزالِ الماء.

نكتة استعمال مفردة ﴿ٱلۡمُزۡنِ﴾ دون رديفاتها:

المــــــزنُ هــو السَّحاب المليء بـالمـاء الّـــذي لا يـنـزل إلّا بـأمرِ العزيز الحكيم

﴿ٱلۡمُزۡنِ﴾ السَّحاب: واحدته مُزْنَة، وقيل: هو السَّحاب الأبيض خاصَّة، وهو أعذب ماء[1]، واختيار لفظ ﴿ٱلۡمُزۡنِ﴾ في هذا الموضع دون غيره من مرادفات السَّحاب؛ لما دلَّ عليه هذا اللَّفظ، فالمُزن أخصُّ من السَّحاب؛ إذ هو السَّحاب المحتقَن بالماء الممطَر، فهو سحاب يُنتظَر منه الإنزال، لا مجرَّد غمام عابر، فجاءت المفردة لتقوية معنى الامتنان، وليكون التَّحدّي أبلغ، والنِّعمة أظهر، والمِنَّة أوضح.

"ولمّا كان الإنزال قد يُطلَق على مجرَّد إيجاد الشَّيء النَّفيس، وكان السَّحاب من عادته المرور مع الرّيح لا يكاد يثبت؛ عبَّر بقوله تحقيقًا لجهة العلو، وتوقيفًا على موضع النِّعمة في إثباته إلى أن يتمَّ حصول النَّفع به: ﴿مِنَ ٱلۡمُزۡنِ﴾، أي: السَّحاب المملوء الممدوح الَّذي شأنه الإسراع في المضي"[2].

ومن جهة أخرى، فاستعمال مفردة ﴿ٱلۡمُزۡنِ﴾ يُشير إلى مرحلة متقدِّمة من التَّكوين، أي: إنَّ الماء قد خُزِّن، وتهيَّأ في السَّماء، ومع

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 464.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 419.

ذلك فلا ينزل إلّا بأمر الله تعالى، فالمُزن ليس مظهرًا للقدرة فحسب، بل شاهد على التَّقدير المحكم، من العزيز الحكيم.

نوع ﴿أَمْ﴾ ودلالتها:

(أم) المنقطعة تقرير في بناء الحُجَّة وتوضيح الاستدلال

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ منقطعة، وهي الَّتي تأتي بعد همزة الاستفهام لا لتفيد التَّخيير، بل لتُقرِّر ما بعدَها في مقابل نفي ما قبلها، فهي بمعنى بل مع الهمزة، ويُقدَّر المعنى: بل نَحنُ المُنزِلونَ لا أنتم، وهذا الأسلوب يحمل دلالة قويَّة على نفي الفعل عن المخاطَبين، وإثباته انفرادًا للّه سبحانه، لكنَّه لا يأتي على وجه التَّقرير البارد، بل على وجه التَّحدّي والإلزام، فيُطرَح أوّلًا سؤال محرج: أأنتم أنزلتموه؟ ثمَّ تُطرَح ﴿أَمْ﴾؛ لتقلب السُّؤال إلى إثباتٍ قاطعٍ لقدرة اللّه، كأنَّ البرهان قد استقرَّ، والحقيقة قد ظهرت.

غرض تقديم المسند إليه على المسند:

لا مُنزِلَ للماءِ من السَّماء على الحقيقةِ إلّا الله تعالى

قُدِّم ذكر المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾ على المسند ﴿ٱلْمُنزِلُونَ﴾؛ لقصر إنزال الماء من المزن على اللّه تعالى، أي: لا مُنزلَ للماء إلّا نحن، مع ما فيه من التَّقرير والتَّوكيد، فبعد أن سُئِل المخاطَبون سؤالًا يُحرج دعواهم، ويكشف عجزهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ﴾، جاء الجواب الإلهيُّ بأسلوب قصرٍ يفيد الاختصاص والانفراد بالفعل؛ ليقطع الطَّريق على أيِّ وهمٍ بشريٍّ في المشاركة، وليظهر أنَّ القدرة على الإنزال محصورة باللّه وحده، لا يشاركه فيها أحد، والمقصود بالإنزال أمران، أحدهما ظاهر: وهو الإنزال، والآخر ضمنيٌّ: وهو إيجاد السَّحاب، وتكثيفه، وجمع الماء فيه، فالإنزال هو المرحلة الأخيرة من مراحل إنزال الماء من السَّماء، والسّابق له طوي ذكره للاستدلال على النّاس بالواضحات.

غرض ذكر المسند مع معرفته:

آثر النَّظم الكريم ذكرَ المسند ﴿ٱلْمُنزِلُونَ﴾ دون الاكتفاء بقوله:

﴿أَمۡ نَحۡنُ﴾ مع دلالته على الإنزال؛ لتوكيده، وتقوية الاختصاص، وليكون فعل الامتنان حاضرًا في الأذهان.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡمُنزِلُونَ﴾:

الموصوليَّة دالَّةٌ على التَّخصيص والثُّبوت في فعل الإنزال الإلهيِّ

(الـ) في قوله تعالى: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ موصولة، تُفيد معنى: الَّذي يُنزِل، لا مجرَّد الوصف العارض؛ للدَّلالة على الثُّبوت والتَّحقُّق والاختصاص بالفعل؛ لأنَّ (الـ) الموصولة في ﴿ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ تجعل الوصف كأنَّه هويَّة ذاتيَّة لا طارئة، فاللّه تعالى هو وحده المنزل على الحقيقة، وما عداه فليس بمنزلٍ أصلًا، فكان مجيء (الـ) هنا لإضفاء الدَّوام، والانفراد، والتَّحقيق، وكلُّها تُسهم في بيان منَّة الإنزال وإثبات أنَّ الأمر كلَّه للّه وحده.

نكتة التَّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ دون الفعل:

وصفُ الإنزال راسخٌ ثابت لا عابرٌ مؤقَّت

آثر النَّظم الكريم التَّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلۡمُنزِلُونَ﴾، ولم يقل: (أم نحن نُنزله)؛ ليكون المعنى: (بل نحن وحدنا المتحقِّق في حقِّنا فعل الإنزال على وجه الدَّوام والثَّبات)، وهذا أعظم في توكيد القصر الَّذي بدأ بتقديم المسند إليه ﴿نَحۡنُ﴾، والتَّعبير باسم الفاعل يُفيد الرُّسوخ في الوصف، والتَّمكُّن في الفعل، بخلاف ما لو استُعمِل الفعل أو النَّكرة.

نوع ﴿لَوۡ﴾ ودلالتها:

وجودُ النِّعمة لا يدفع احتمال زوالها، وبقاؤها سرُّ الرَّحمة وثبوت الامتنان

جاءت ﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾، على وجه الامتناع لامتناع، وهي تفيد الشَّرط غير الواقع، أي: إنَّ اللّه لم يشأ ذلك، لكنَّه يُبيِّن قدرته عليه، وأنَّ تحوُّل الماء العذب إلى أُجاج (ملح مر) ممكن بقدرته، لولا أنَّ رحمته اقتضت خلافه، فأفاد هذا الأسلوب امتناع المشيئة مع إمكانها، فهو جمعٌ بين ديمومةِ الرَّحمة والتَّهديد برفعها، وهو يجري مجرى التَّذكير بنعمةٍ يُظَنُّ ثباتها،

فيكشف أنَّها معلَّقة بمشيئة الله، قابلة للتَّغيير، لا تثبت لذاتها، بل يثبِّتها فضل الله، فهي نعمة في وجودها وفي استمرارها.

بديع فنِّ الاحتباك:

الامتنان توطئة الاستدلال بتحريك القلب لإفهام العقل

في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ بديع فنِّ الاحتباك، فقد حذف من كلِّ جملةٍ المذكور في الجملة التي تُقابلها، والتَّقدير: (أفرأيتم الماء النّازل من المزن الَّذي تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن، فشربتموه أم نحن المنزلون المشربون؟)، فذكر في الجملة الأولى موضع الامتنان، وهو الشُّرب، وذكر في الثّانية موضع العجز عن الإنزال؛ ليكون الامتنان توطئة للاستدلال، مع تضمُّن كلٍّ منهما ما في الآخر من المعنى.

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿نَشَآءُ﴾:

تجديدُ التَّهديد تلميحٌ يفطن له القلب المريد

التَّعبير بصيغة المضارع ﴿نَشَآءُ﴾؛ لما فيه من الدَّلالة على تجديد التَّهديد، وأنَّ تغيير نعمة الماء إلى نقمة مرٍّ أجاج أمرٌ ممكن في كلِّ حين، معلَّق على إرادته الحاضرة والمستمرَّة.

فالمضارعُ هنا يوقِظُ في النَّفسِ شعورًا دائمًا بالخطرِ الكامن، ويجعلُ النِّعمةَ في حالةِ تعليقٍ مستمرٍّ على المشيئةِ الإلهيَّة، فيبعثُ في القلبِ الخوفَ والتَّقديرَ والشُّكرَ، فالماءُ ليس مضمونًا ببقائه على صفته العذبة، بل هو مُهدَّد بأن يُقلَبَ في أيِّ لحظة، وهذا ما لا يُفيده الماضي.

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ في حذف اللّام وإثباتها في السّابقة:

ما يُظَنُّ معه الاقتدار يؤكَّد فيه التَّهديد، ويرفَع التَّوكيد عند اندفاع مظنَّة القدرة

أثبت النَّظم في موضع الزَّرع اللّام في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، وفي موضع الماء قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، فلم يؤكِّد؛ وذلك للتَّنبيه على أنَّ السّامعين لما مضى التَّوقيف على تمام القدرة صاروا في حيز المعترفين، فقال تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾[1]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 420.

ففي الزَّرع، كان ذكر اللّام؛ ليفيد التَّحقيق والتَّوكيد؛ إذ إنَّ تحوُّل الزَّرع عن حاله النّاضر بعد ظهوره إلى حُطام، أمرٌ لا يتبادر إلى الذِّهن إلّا بسبب ظاهر كجائحة أو إهمال، وقد يُظنُّ أنَّ سببه من فعل الزّارع أو خلل في السَّقي، فكان توكيد الفعل بلام الجواب بيانًا أنَّ الله هو الفاعل على الحقيقة، وأنَّ التَّحوُّل الحادَّ في هذا المشهد لا يُعزى لغير إرادته ومشيئته، فجاء التَّوكيد مناسبًا لهذا الالتباس المحتمل في الأذهان.

أمّا في الماء؛ فقد جاء التَّعبير بلا لام؛ لأنَّ تحوُّل الماء من عذب إلى أُجاج أقرب وأيسر وأوضح في الذِّهن والعلم؛ ذلك أنَّ إنزال الماءِ من السَّماء محض إرادة للّه تعالى، أمّا الزَّرع؛ فقد يظنُّ فقراء العقول أنَّ للبشر أثرًا في المحافظة على الزَّرع لما لهم من أسبابٍ في الحرث والبذر، بخلاف إنزال الماء، ولذلك جاء التَّوكيد فيما يُظنُّ فيه الاقتدار، وحذف فيما لا مظنَّة فيه ذلك.

بلاغة استعمال مفردة الأجاج:

شديد الملوحة والمرارة في الأجاج المقابل لماءِ المُزنِ العذب الزُّلال

اختيرت مفردة ﴿أُجَاجًا﴾ دون غيرها من ألفاظ الماء الرَّديء؛ لما تجمعه من الملوحة والمرارة معًا، فلا يُشرَب، ولا يُستساغ، بل تنفر منه الطِّباع، وتضرُّ به الأجساد، والبلاغة في هذا اللَّفظ أنَّه جمع بين صفتي الضَّرر، الملوحة والمرارة؛ ليُقابل بذلك النِّعمة الَّتي سبق الحديث عنها في المزن، وهي الماء العذب الزُّلال، فكما أنَّ الماء العذب أصل الحياة، فإنَّ الأُجاج بضدِّه، فلا يروي، ولا يُحيي، بل يُفسِد، ويُؤلِم.

وقد جاء هذا الوصف بصيغة المبالغة (فُعال)؛ للدَّلالة على شدَّة الأثر، لا مجرَّد وجود الملوحة، فليس ماءً مالحًا فحسب، بل بلغ غايته في الإفساد، فالتَّعبير يُرينا كيف تنقلب النِّعمة في لحظة إلى نقمة مهلكة لو شاء اللّه تعالى ذلك.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَوۡلَا﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ فصيحة، وهي تُنبئ عن شرطٍ محذوف، وتقديره: إذا علمتم تلك الأدلَّة والبراهين على قدرة اللّه تعالى على البعث؛ فلولا تؤمنون، وتشكرون.

غرض استعمال (لولا):

التَّحضيض على الشُّكرِ دليل العناية الإلهيَّة والرِّعاية الرَّبّانيَّة

(لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ جاءت على وجه التَّحضيض، أي: فهلّا ولِمَ لا تجدِّدون الشُّكر على سبيل الاستمرار[1]، وهو أبلغ من مجرَّد الطَّلب؛ إذ يُشعر أنَّ الشُّكر متوقَّع من المخاطَبين توقُّعَ اللُّزوم العقليِّ والخلقيِّ، وأنَّ تركه ممّا لا يليق بحالهم بعد هذا البيان، فـ(لولا) التَّحضيضيَّة تفيد أنَّ النِّعمة الَّتي أُبقيت، مع إمكانيَّة زوالها، تستوجب من العقلاء أن يبادروا إلى الشُّكر، لا أن يتقاعسوا عنه، أو يغفلوا، فهي توبيخ لطيف يخرج في صورة عتابٍ يبعث على الحياء والانتباه، كأنَّ المعنى: أين شكركم؟ لماذا لم يقع بعدُ مع أنَّ موجبه قائم ظاهر؟.

بلاغة استعمال ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

الشُّكر الحقُّ هو المتضمِّن الإيمان الخالص

اختيرَ فِعلُ ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ بَدَلًا مِن (تُؤمِنونَ)؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تَذكيرٍ بنِعمَةٍ مُشاهَدَةٍ، ومُقتضى ذلك الإيمانُ باللّه تعالى، لكنَّ النَّظم أتى بثمرة الإيمانِ؛ لأنَّها الأظهرُ في هذا المقام، فالشُّكرُ هوَ أقرَبُ ما يُطلَبُ عِندَ الإنعامِ الظّاهِرِ المَلموسِ، والماءُ نِعمَةٌ مَحسوسَةٌ يَشرَبُها الإنسانُ، ويَرَى أثَرَها، ولِذَلِكَ طولِب النّاسُ بإظهارِ الامتِنانِ، بالشُّكر المتضمِّن الإيمان.

فائدة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

جاء التَّعبير بالفعل ﴿تَشۡكُرُونَ﴾؛ لتقوية معنى الحضِّ في شكرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 420.

تقوية معنى الحضِّ في شكر المنعم على الدَّوام

النِّعَم على الدَّوام، فالشُّكر القائم على الإيمانِ سلوكٌ متجدِّد مستمرٌّ، يتناسب مع دوام النِّعمة وتكرارها؛ فالماء يُشرَب كلَّ يوم، والمنَّة تُجدَّد كلَّ لحظة، ولذلك ينبغي أن يكون الشُّكر حالة حاضرة ومتَّصلة لا مقطوعة، كما أنَّ في اختيار المضارع المقترن بلولا إشعارًا بضرورة سرعةِ المبادرة في الشُّكر، فجاء التَّعبير بفعل ﴿تَشْكُرُونَ﴾ في موضعه؛ ليدلَّ على أنَّ الشُّكر واجبٌ مستمرٌّ، لا لحظة عابرة من الاعتراف، بل مقام دائم من الاعتراف بالنِّعمة والخضوع للمنعِم.

غرض حذف المتعلِّق بـ ﴿تَشْكُرُونَ﴾:

الحذفُ إمّا للعناية بالفعل أو تقدير المحذوف عامًّا أو خاصًّا

حُذِف المتعلِّق بالفعل ﴿تَشْكُرُونَ﴾ في قوله: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، فجاء مطلقًا غير مقيَّدٍ، وذلك إمّا لتنزيل المتعدّي منزلة اللّازم، أي: ليتحقَّق منكم الشُّكرُ المنبئُ عن إيمانكم، وإمّا للعمومِ، فيدخل فيه شكر اللّٰه تعالى على جميع نعمه، أو لمعرفة المحذوف من السّياق، وهو نعمة الماء على وجه الخصوص.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المزن والسَّحاب:

المزن المليء بالماءِ العذب، والسَّحاب أعمُّ منه

المُزن هو السَّحاب المحمول بالماء، أو ما اشتمل على المطر وأصبح أهلًا؛ لأن يُنزل الغيث، واشتُقَّ من الفعل (مَزَنَ)، أي: جرى، وسال، وفيه معنى الحركة والانسياب، وربَّما أُلحق به معنى الكرامة والخير؛ لأنَّ العرب كانت تتفاءل بالمطر النّازل مِنَ المُزنِ، فتجعل له شأنًا خاصًّا من حيث النَّفع والرَّجاء، فكلُّ مُزنٍ سحاب، وليس كلُّ سحاب مُزنًا.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ
ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ
بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: 71 - 74]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من النِّعمة المائيَّة إلى النِّعمة النّاريَّة

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة نعمةَ الماء الَّذي يشربه النّاس، فينتفعون به في الحياةِ؛ ناسب الانتقال من النِّعمة المائيَّة إلى النِّعمة النّاريَّة، فانتقلت الآيات إلى مشهد النّار، لا لتخرج عن نسق الامتنان، بل لتكمِّله، وتُتِمَّ به عقد النِّعم.

ويرى ابن عاشور أنَّ "مناسبةَ الانتقال من الاستدلال بخلق الماء، إلى الاستدلال بخلق النّار، هي ما تقدَّم في مناسبة الانتقال إلى خلق الماء من الاستدلال بخلق الزَّرع والشَّجر، فإنَّ النّار تخرج من الشَّجر بالاقتداح، وتُذكى بالشَّجر في الاشتعال والالتهاب، وهذا استدلال على تقريب كيفيَّة الإحياء للبعث من حيث إنَّ الاقتداح إخراج والزَّنْد الَّذي به إيقاد النّار، يخرج من أعواد الاقتداح، وهي ميتة"[1]، فجاءت آية النّار تمامًا للسّياق، وتتميمًا لمعنى الامتنان، واستيفاءً لأنواع النِّعم الَّتي تُحيط بالإنسان في معاشه، من الأرض إلى السَّماء، ومن النَّبات إلى الماء، ومن البرد إلى النّار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُورُونَ﴾: جذر الكلمة هو (وري)، ويدلُّ على إخراج النّار من الزَّند بالحكِّ، أي: استثارة النّار من مادَّتها الخفيَّة، كالشَّجر أو الحجارة، بإحداث شرارة تُنفَخ حتَّى تتَّقد، ويقال: (وَرِيَ الزَّندُ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 325.

يَري وريًا)، أي: خرجت ناره، وأصله أن يخرج النّار من وراءِ المقدح، كأنَّما تصوِّر كمونها فيه، كما قال: (ككُمونِ النّار في حِجره)، يقال: وريَ يَري مثل: وليَ يَلي، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾، ويقال: فلان واري الزَّندِ؛ إذا كان مُنجِحًا، وكابي الزَّند؛ إذا كان مُخفِقًا[1].

2) ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾: مشتقّة من الفعل (أقوى)، وهو من الجذر (قوي)، لكن لا بمعناه الشّائع في القوَّة، بل بمعنى النُّزول بالقَواء، وهو الأرض الخالية المقفرة، فـ (أقوَى القومُ)، أي: نزَلوا القَفر والبادية، وأقاموا في أرض لا عمارة فيها ولا زاد، فالمُقْوُون هم المسافرون أو النّازلون في الفيافي والفلوات، المنقطِعون عن الحواضر والقرى، وقوله: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، أي: منفعة للمسافرين، سُمّوا بذلك؛ لنزولهم القَواء، وهو: القفر[2].

المَعنى الإجماليّ:

نـارُ الدُّنيا الَّتي وقودها الشَّجر تذكرةٌ بالنّار الَّتي وقودها البشر

يبيِّن اللّه تعالى في هذه الآيات مشهدًا آخر من مظاهر قدرته ونِعَمه، فيسأل عباده عن النّار الَّتي يوقدونها من الحطب في حياتهم اليوميَّة، هل هم الَّذين أنشَؤوا مادَّتها؟ أم هو الَّذي أودعها في الشَّجر اليابس القابل للاشتعال؟ فيُلفت نظرهم إلى شجرتها الَّتي يُستخرَج من احتكاكهما النّار[3]، مع أنَّ الأصل في الشَّجر أن يكون رطبًا لا يشتعل، فكانت هذه النِّعمة خاضعة لتقدير ربّانيٍّ خاصٍّ.

ثمَّ يقرِّر أنَّ اللّه وحده هو من أنشأها، وأنَّه جعل النّار تذكرة؛ إمّا تذكرة بنار الآخرة، أو بتقلُّب أحوال النِّعمة والنِّقمة، وجعلها متاعًا للمُقوين، أي: للمسافرين ومن يقيمون في الصَّحارى، ممَّن هم أشدُّ

(1) الراغب، المفردات: (وري).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 389.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 238.

حاجة إلى الدِّفء والنّور والطَّهي في قفار الأرض، وبعد هذا يُختَم السّياق بالأمر بالتَّسبيح: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ تنزيهًا للّه عمّا يظنُّ الجاحدون من الشِّرك والنِّسيان، واعترافًا بعظمة مَن أنشأ النّار من الشَّجر، والماء من السَّحاب، والزَّرع من الحبَّة، وكلَّ شيء من العدم.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستفهام في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

الاستفهام عن المعتادِ تلويحٌ بالغفلةِ عن دار المعاد

جاء الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ على نسق ما سبق من مشاهد في السّورة؛ ليؤدّي دورًا بلاغيًّا مقصودًا، تتحقَّق به استثارة عقليَّة واستنكار توبيخيٌّ، فضلًا عن إثارة التَّأمُّل في آياتٍ مألوفة يغفل عنها الحسُّ لكثرة تكرارها، فهو استفهامٌ يراد به التَّنبيه على موضع العبرة، تمامًا كما في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾؛ إذ يُراد منه دفعُ السّامع إلى تدبُّر ما بين يديه من نِعَم، كانت تظنُّ بدهيَّتها، فإذا هي آيات خارقة في حقيقتها، متى نُزِعت؛ انكشفت قيمة ما كان مستورًا خلف الاعتياد.

نوع الفاء ودلالتها في جملة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

وظيفة التَّرتيب البيانيّ ووصل سياق الامتنان

جاءت الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ على نسقٍ يتَّصل بما قبلها، فهي فاء عاطفة تفصيليَّة تعتني بالتَّرتيب، فهي تربط الآية بما قبلها من الأمثلة المتعاقبة في معرض الامتنان الإلهيِّ والتَّذكير بآيات القدرة، فهي تفيد معنى التَّرتيب في عرض المشاهد، أي: فإن كنتم قد تأمَّلتم الماء الَّذي تشربون، فانظروا أيضًا إلى النّار الَّتي توقدونها، فهي ليست نقلة مبتورة، بل تتابعٌ بيانيٌّ في مقام الحجاج والتَّذكير.

فالسّورة تبني في ذهن المخاطَب سلسلة متدرِّجة من الشَّواهد

من الزَّرع، إلى الماء، إلى النّار، وكلُّها تنطق بكمال العجز البشريِّ، وتمام القدرة الإلهيَّة، وتدفع السّامع نحو تنزيه الخالق وشكره.

تعيين المعطوف عليه في جملة ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

تـرابـط مشاهد الامـتـنـان عطف (أفَرَأيتُم النّارَ) عـلى مـا قبلها في نـسق بيانيٍّ محكم

في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾، جاءت الفاء في صدر الآية عاطفةً، والمعطوف عليه إمّا أن يكون السّابق قبل الهمزة من ذكر النِّعم المستفهَم عنها بغرض التَّقرير والتَّوبيخ، وإمّا أن يكون مقدَّرًا بعد الهمزة، والتَّقدير: أأبصرتم، فرأيتم النّار، على الخلاف المعروف في تقدير المعطوف بعد الهمزة، أو المذكور قبلها.

نوع الرُّؤية في جملة ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

الـرُّؤيـة القلبيَّة دعـــــوةٌ إلى الــبــصــيرةِ لا البصر

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ رؤية قلبيَّة عقليَّة، لا بصريَّة حسّيَّة؛ إذ المقصود ليس مجرَّد رؤية النّار في ظاهرها، بل رؤية ما وراءها من دلالة، ومن تدبير، ومن قدرة إلهيَّة، وهذا المعنى أسبقُ إلى المقصود في سياق الآيات؛ لأنَّ النّار ممّا يراه الجميع، ولكن قلَّ من يتفكَّر في أصلها، وفيمَن أنشأ مادَّتها، ومن سخَّرها منفعةً في حياة الخلق، والقرينة الدّالَّة على نوعِ الرُّؤية لحاق الآية: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾، فالمقصود أن تروا بعقولكم، وتبصروا بقلوبكم من الَّذي أوجد هذه النِّعمة من عدم، وذلَّلها لكم من أصلٍ لا يخطر ببال، فالرُّؤية هنا ليست وصفًا للحسِّ، بل دعوةٌ إلى البصيرة.

نكتة ذكر ﴿ٱلنَّارَ﴾ دون إجمالها بالموصول:

إظـــهـــار الـنِّـعـم تقرير لـلـمـقـصـودِ، وإبرازٌ للمطلوب لـمـن غـفـل عن الواضحات

آثر النَّظم الكريم ذِكر لفظ ﴿ٱلنَّارَ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾، دون أن يقول: (أفرأيتم ما تورون)؛ تنبيهًا إلى المقصود الأهمِّ والأظهر في الإيقاد، وهو النّار نفسها دون وسائطها أو مادَّتها، فذِكرُ الاسم الظّاهر ﴿ٱلنَّارَ﴾ بدل الإتيان بلفظٍ موصول مجمل مثل: ﴿مَّا﴾، كما في قوله سابقًا: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾، فيه

إبراز للنِّعمة بعينها، وتوجيه للأنظار إلى عِظَم أثرها وشدَّة الحاجة إليها؛ إذ النّار من أعظم الضَّرورات في حياة الإنسان.

فائدةُ الوصفِ بالاسمِ الموصول:

التَّنبيه على النِّعم المألوفة والمحامد المهجورة

في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾، جاء الوصف بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾ للإيماء إلى معرفتهم بهذه النِّعمة على وجه الخصوص، فهي نعمة شائعة بينهم، وفضيلة لا يُستغنى عنها، فكأنَّه قيل: فهي الَّتي يعلمونها على حقيقة أمرها، فالوصف بالموصول يقرِّب المخاطَبين من الفعل المنشر بينهم، فيُنبِّههم على أنَّ هذه النّار، وإن أوروها ظاهرًا، فهي منشأة بقدرة الله من مادَّة هو الَّذي أنشأها، وسخَّرها، وأودع فيها القابليَّة للاشتعال.

دلالة استعمال مفردة ﴿تُورُونَ﴾ مادَّة وصيغة:

إدماج الامتنان في سياق الاستدلال منهج نظم القرآن

في قوله: ﴿ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ "إدماج للامتنان في الاستدلال بما تقدَّم في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾، وهو أيضًا وصف للمقصود من الدَّليل، وهو النّار الَّتي تقتدح من الزَّند لا النّار الملتهبة"[1]؛ إذ جاء التَّعبير بالفعل ﴿تُورُونَ﴾، من مادَّة (وَرَى - يري - وِريًا)، الَّتي تدلُّ على إخراج النّار من الموقد أو الحجارة والخشب بفعل اليد، أي: إيقادها بعد خفائها، وهو أخصُّ من مطلق الإشعال؛ لأنَّه يتضمَّن كدحًا وبذلًا ظاهرًا من الإنسان؛ لإظهار شيءٍ كامنٍ لا يراه في ظاهره، ولا يوري إلّا الخبير الممارس.

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تُورُونَ﴾:

إيقادُ النّار نعمةٌ مستمرَّة بتصوير بديع

جاء الفعل بصيغة المضارع ﴿تُورُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرار الفعل وتكراره، إشارة إلى ما اعتاده البشر من قدح النّار؛ ليُلفت القرآن إلى أنَّ هذا التَّكرار ليس كسبًا محضًا، بل هو نعمة مَنشؤُها الخلقُ الإلهيُّ للمادَّة القابلة للإيقاد، وأفاد المضارع تصوير حالة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 326.

إيقاد النّار، وهي حالةٌ يستمتع بها العربيُّ في رمال الصَّحراء، إذ يجد فيها متعةً شعوريَّة بديعة.

غرض الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ﴾:

إبـصـار الـنِّـعَـم موصل لإبـصـار المِـنَن وشـكـر العزيز الحميد

لمّا كان هذا من عجائب الصُّنع؛ كُرِّر التَّقرير والإنكار؛ تنبيهًا عليه فقال: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ﴾، أي: اخترعتم، وأوجدتم، وأودعتم، وأحييتم، وربَّيتم، وأوقعتم ﴿شَجَرَتَهَآ﴾، أي: المرخ والعفار الَّتي تتَّخذون منها الزِّناد الَّذي يخرج منه، وأسكنتموها النّار مختلطة بالماء الَّذي هو ضدُّها[1]، فجاء الاستفهام إنكاريًّا توبيخيًّا؛ لما صدر عنهم من إنكار البعث، بعد مشاهدة هذه النِّعَم الَّتي أفاضت عليهم في حياتِهم مُتعًا لا تكون إلّا بإيجاد المبدئ المعيد.

بلاغةُ العدولِ عن إيراءِ النّار إلى ذكرِ إنشاءِ شجرِها:

الـعـدولُ عن إيـراء الـنـار إلى أصلها إرشادٌ إلى أصل الخلق

ذِكرُ إنشاءِ شجر النّار دون إيرائها في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾، فيه عدولٌ مقصود عن الظّاهر إلى الأصل، فالنّار الَّتي يورونها في أصلها شجرٌ يورى، فهناك حذف، والتَّقدير: (الَّتي تورون شجرها)، ويُراد منه لفت الأنظار إلى أصل النِّعمة لا مظهرها فقط، فعدل عن إيراء النّار إلى أصل الإيراء، وهو الشَّجر، فذكر الشَّجرة - وهي مكوَّن غير متوقَّع في توليد النّار - يعمِّق المعنى البلاغيَّ؛ إذ الشَّجر عادةً يَرتبطُ بالرُّطوبة والنُّموِّ، لا بالنّار، ومع ذلك كانت منه النّار، فهذا من أعجب دلائل القدرة؛ إذ يُخرج اللّه من الشَّيء ضدَّه.

نكتة اختيار فعل ﴿أَنشَأۡتُمۡ﴾:

اختيار فعل ﴿أَنشَأۡتُمۡ﴾ بدلًا من (خلقتم)، في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ﴾ دقيق في موضعه من جهة المعنى والبلاغة، فإنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 421.

(الإنشاء) أدلُّ على الإيجاد التَّدريجيِّ أو الإحداث المصاحب للتَّرتيب والتَّكوين، بخلاف (الخلق) الَّذي قد يدلُّ على الإيجاد مطلقًا، فالقرآن لم يأتِ بلفظ (خلقتم)؛ لأنَّ الخلق يُطلَق أحيانًا على التَّصوير أو التَّقدير أو التَّحويل، ممّا قد يوهم مشاركة بشريَّة أو تدخُّلًا صناعيًّا أو عملًا بشريًّا في معالجة المادَّة، بينما الإنشاء يدلُّ على إيجاد شيءٍ بمُعاوَدة.

إنشاء الشَّجر كإنشاء البشر وإيقاد النّار في الدُّنيا كإيقاد الحجر في الآخرة

فاستعمال ﴿أَنشَأۡتُمۡ﴾ أوقع في باب الامتنان والتَّحدّي؛ إذ يُفحم المخاطَب بما لا يمكنه ادِّعاؤه، ويوجِّه ذهنه إلى ما وراء المألوف من قوانين الأسباب والمُسبَّبات، وفيه تلميحٌ إلى إنشاء النّاس يوم البعث بعد موتِهم.

دلالة إضافة الشَّجرة إلى الضَّمير:

الإضافة في ﴿شَجَرَتَهَآ﴾ بمعنى اللّام، فهي للاختصاص، وهي الشَّجرة الَّتي تورَى منها النّار كالمرخ، أو الَّتي تصلح للإيقاد كالحطب، أو أنَّها أصل اللهب ووقوده[1].

غرض تقديم المسند إليه على المسند:

تخصيص الإنشاء لله ونفي الشِّركة في سياق الامتنان

تقديم المسند إليه على المسند في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ أفاد التَّخصيص[2] والتَّوكيد[3]، وهي طريقة بلاغيَّة مشهورة في حصر الفعل بالفاعل؛ إذ يُقدَّم المسند إليه ﴿نَحۡنُ﴾ على الخبر ﴿ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾؛ ليُفاد بذلك أنَّ الإنشاء مقصور على اللّٰه تعالى وحده، لا يشاركه فيه أحد.

وهذا من أساليب القصر البلاغيِّ الَّذي يُفيد حصر الفعل في الفاعل بنفيٍ لما عداه، وهو أنفع طرق البيان حين يُراد به قطع وهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 423.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 421.
(3) حسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ، ص: 127.

الشِّركة أو الغفلة عن المنعِم الحقيقيِّ، وكأنَّ الخطاب يسلب عن المخاطَبين أيَّ دعوى في ذلك، وينقلهم من حالة الغفلة أو التَّوهُّم إلى مقام الاعتراف بأنَّ هذا الفعل الإلهيَّ لا يُنسب لغيره.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾:

منشئ الشَّجر على الدَّوام منشئ البشر يوم الدّين

في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾، لفظ ﴿ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ مُعرَّفٌ بـ (الـ)، وهي هنا (الـ) الجنس الَّتي تدلُّ على استغراق أفراد هذا الوصف، لا مجرَّد العهد أو التَّعريف الذِّهنيِّ، والمقصود بها الدَّلالة على الاختصاص والقصر، أي: أم نحن وحدنا دون غيرنا المنشِئون حقيقةً، ووجه البلاغة أنَّ هذا الإظهار مع (الـ) الاستغراقيَّة يقطع الطَّريق على الوهم، ويُثبت انفراد اللّه تعالى بالقدرة على إنشاء هذه الشَّجرة، والَّتي منها النّار، وإن كانت في ظاهرها من مألوف الطَّبيعة، وهذا يُماثل ما جاء قبله في قوله: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾.

علَّة فصل جملة: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا﴾:

كمال الاتِّصال لبيان علَّة الإنشاء وغرض الإبداء

فُصِلَت جملة: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ عن الجملة الَّتي سبقتها: ﴿نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾؛ لكمال الاتِّصال الَّذي بينهما، فجَعْلُ النّار تذكرةً ومتاعًا للمقوين بيانٌ لإنشائها من اللّه تعالى، فبعد أن أُقيم البرهان على أنَّ اللّه وحده هو الَّذي أنشأ الشَّجرة الَّتي منها تورى النّار، بيَّنتِ الجملة التّالية أنَّ اللّه جعلها تذكرة ومتاعًا للمقوين.

نوع فعل ﴿جَعَلْنَـٰهَا﴾:

بلاغة الفعل التَّصييريِّ في بيان الاقتدار على تحويل الأحوال

فعل ﴿جَعَلْنَـٰهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ متعدٍّ إلى مفعولين من أفعال التَّصيير، لا من أفعال الخلق أو الإيجاد، فالمفعول الأوَّل: هو الضَّمير (ها) عائد إلى النّار، والمفعول الثّاني: ﴿تَذْكِرَةً﴾، والجعل تصييريٌّ، أي: صيَّرناها بهذه الصِّفات والغايات: تذكرةً تذكِّر النّاس بنعمة النّار ومصدرها،

وأنَّها من خلق اللّه لا من قدرتهم، ومتاعًا ينتفع به أهل السَّفر، الَّذين يقوون على قطع المسافات، ويحتاجون إلى النّار في التَّدفئة والطَّبخ والنّور.

دلالة إسناد فعل (جعل) لضمير الجماعة:

قصر الاختصاص وإظهار جلال القدرة الإلهيَّة

إسناد الفعل (جعل) إلى ضمير الجماعة، في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾؛ جاء لتوكيد اختصاصِ الفعل باللّه وحده، وللتَّنبيه إلى عظمة الفاعل وقدرته الَّتي لا تُضاهى، وفي هذا الأسلوب قصر بلاغيٌّ يُفيد نفيَ أن يكون ذلك من غيره، وإثباته له وحده تعالى، أي: لا أنتم جعلتموها تذكرة ومتاعًا، بل نحن وحدنا، والاختصاص مكتسبٌ من السّياق.

غرض تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

قُدِّم الضَّمير ﴿نَحۡنُ﴾ على المسند الفعليِّ ﴿جَعَلۡنَٰهَا﴾؛ للقصر والاختصاص، وليقرع سمع المخاطَب بتقرير العجز البشريِّ، وإثبات الإلهيَّة للّه وحده.

بلاغة اختيار مفردة ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾:

قيم الوعظ والهداية في انتقاء ألفاظ القرآن

جاء اختيار مفردة ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾؛ لإفادة الموعظة الموقِظة والذِّكرى المقلقة، فهي تُذكِّر الإنسان بما هو أعظم من مجرَّد منفعة النّار، تذكِّره بنار الآخرة، وبالقدرة الإلهيَّة على الإيجاد والإهلاك، وبالحاجة الدّائمة إلى اللّه الَّذي أنشأ النّار من الشَّجر الأخضر، مع ما بين النَّقيضين من مفارقة.

نكتةُ تنكير لفظ ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾:

عِظَمُ التَّذكرة من عظمةِ شأنِ النّار

نُكِّر لفظ ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾؛ لتعظيم شأن النّار، فهي تذكرة عظيمة لمن تدبَّرها، وهي تذكرة لكلِّ ذي عقل، تردُّه إلى الخضوع، وتوقظه من الغفلة، بذكر عظمة النِّعمة أوَّلًا، ثمَّ بقدرة اللّه على قلبها إلى نقمة

لو شاء، كما فعل بالماء الَّذي لو شاء؛ لجعله أُجاجًا، وكما يفعل بالنّار الَّتي يراها النّاس مأنوسة في الدِّفء والإضاءة، وهي صورة مُصغَّرة من نار الآخرة المهلكة.

دلالة عطف (متاعًا) على ﴿تَذۡكِرَةً﴾:

العطف في نار المقوين ومقام الامتنان

قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾، في خاتمة هذا السّياق البيانيِّ المملوء بآيات الإحياء والإفناء، والهدم والبناء، فقد جاء عطفُ (متاعًا) على ﴿تَذۡكِرَةً﴾ ذا دلالةٍ دقيقة تمزج بين مقصدين جليلين: أحدهما: عقليٌّ إيمانيٌّ، والآخر: ماديٌّ معيشيٌّ، كلاهما يتضافر في الكشف عن عظمة الصَّنعة الإلهيَّة في هذا العنصر النّاري.

فالنّار جعلها اللّه أوَّلًا تذكرةً؛ إذ هي - بما خُزِن فيها من قدرة، وما أودع فيها من سرٍّ - آيةٌ تُذكِّر الإنسان بأصل الخلق والمصير، وبأنَّ اللّه تعالى القادر على إخراج النّار من قلب الشَّجر الرَّطب، لهو على بعث الموتى أقدر، وهو القادر على قلب الطَّبائع، كما يقلب الحياة إلى موت والماء إلى نار، فكانت تذكرةً تُجلّي للمعتبر حقيقةَ البعث، من جنس ما يُعاينه في ظواهر الأشياء.

ثمَّ عطف عليها قوله: ﴿وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾، أي: للنّازلين في الفلاة، والبعيدين عن الحواضر، من المسافرين وأهل القَفر، ممَّن لا غناء لهم عن دفئها في برد، ولا عن ضوئها في ليل، ولا عن طهوهم بها في مهامة لا عَمْرَ فيها، فجاء العطف؛ ليجمع بين النَّفعين: نفع الرّوح ونفع الجسد؛ إذ يُتَّخذ من النّار ما يقيم الحياة، كما يُتَّخذ منها ما يحيي القلب، ولم يكن هذا العطف عطف جمعٍ محض، بل هو عطف امتنان وتوسيع في دلالة التَّذكير، فكأنَّ في الجمع بين ﴿تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا﴾ بيانًا بأنَّ النِّعمة إذا كانت في ظاهرها معاشية؛ فإنَّ لها باطنًا إيمانيًّا أرفع وأدوم، وأنَّ ما يظنُّه النّاس مألوفًا، فيه من عجائب الخلق وأسرار القدرة ما يَحسُن أن يُتَّخذ منه مسلكٌ إلى اللّه.

فبهذا التَّعبير الجامع، ينقلك السّياق من مقام الامتحان والتَّقريع، إلى مقام التَّذكير والامتنان، ثمَّ يُفضي بك إلى تعظيم خاشع، في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾، كأنَّما كلُّ تلك الآيات الَّتي تقدَّمت كانت مدخلًا إلى هذا الثَّناء الجليل، الَّذي يليق بجلال الخالق الَّذي خلق النّار، وجعلها آيةً وتذكرةً ومتاعًا.

نوع اللّام في قوله: ﴿لِّلۡمُقۡوِينَ﴾:

لام الاختصاص في آيـة النّـار امتنان الخلق ومقام الانتفاع

اللّام الدّاخلة على لفظ المقوين في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾؛ للاختصاص والتَّمليك المجازيِّ، وهي اللّام الَّتي تدلُّ على أنَّ المتاع قد خُصَّ به هؤلاء، وانتفعوا به دون أن يلزم من ذلك انحصار النَّفع فيهم، وإنَّما جُعلوا هم مظنَّة الحاجة إليه ومحلَّ العناية به، وهذا التَّعبير ﴿لِّلۡمُقۡوِينَ﴾، وهم النّازلون بالقَواء، أي: الصَّحراء والمهامة، قد جاء مشفوعًا بهذه اللّام؛ إشارةً إلى أنَّ النّار لم تكن مجرَّد عنصرًا كونيًّا، بل جُعِلت نعمة مخصوصة لمن هم في حاجة ماسَّة إليها، فهُم أحقُّ النّاس بذكرها والتَّذكُّر بها؛ لأنَّها لهم متاعٌ ضروريٌّ، ورفيق حياة، تُنضج لهم طعامهم، وتدفّئ أبدانهم، وتُضيء لهم في الظُّلمة، فهُم في صحاري القفر أشدُّ النّاس افتقارًا إلى دفئها، وأسرعهم إدراكًا لقيمتها.

براعة اختيار مفردة ﴿لِّلۡمُقۡوِينَ﴾:

المقوي هو الَّذي يبيت، ويسافر في الصَّحراء، والمسافر أعمُّ من ذلك

(المُقوي): الدّاخل في القَواء (بفتح القاف والمدِّ)، وهي القفر، ويُطلق المُقوي على الجائع؛ لأنَّ جوفه أقوت، أي: خلت من الطَّعام[1]؛ إذ كلا الفعلين مشتقٌّ من القَوى، وهو الخلاء، وفراغ البطن: قَواء وقوًى، فإيثار هذا الوصف في هذه الآية؛ ليجمع المعنيين فإنَّ النّار متاع للمسافرين، يستضيئون بها في مناخهم، ويصطلون بها في البَرد، ويراها السّائر ليلًا في القَفر، فيهتدي إلى مكان النُّزَّل، فيأوي

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 466، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 327.

إليهم، ومتاع للجائعين، يطبخون بها طعامهم في الحضر والسَّفر، وهذا إدماج للامتنان في خلال الاستدلال، واختير هذان الوصفان؛ لأنَّ احتياج أصحابهما إلى النّار أشدُّ من احتياج غيرهما"(1)، ويختصُّ لفظ المقوين بالمسافرين الَّذين هم في القواء، أي: المكان الفارغ الخالي من النّاس، والفرق بين المسافرين والمقوين، هو أنَّ كلَّ مقوٍ مسافر دون العكس، فقد يكون مسافرًا، ويبيت في حاضرة، بخلاف المقوي فهو الَّذي يمشي، ويبيت في مكانٍ خالٍ، وبه يظهر معنى المتاع لهؤلاء.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ﴾:

الفاء الفصيحة تُظهر المقدَّر في معرفة حقائق اليقين بالنّور المبين

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هي فاء الفصيحة، وهي الَّتي تُفصِح عن جملة محذوفة مقدَّرة، وتُفيد التَّعقيب الذِّهنيَّ على ما سبقها من تقرير وإقامة برهان، والمعنى: إذا عرفت أنَّ اللّه وحده هو خالق النّار والماء والزَّرع، والمنعم بهذه النِّعم العظيمة؛ فحقٌّ عليك أن تسبِّحه، وتنزِّهه عن الشُّركاء والأنداد.

وقد وردت هذه الفاء بعد عرض ثلاثة أدلَّة عظيمة على قدرة اللّه، وهي: الماء الَّذي يُشرَب، والزَّرع الَّذي يُحرَث، والنّار الَّتي توقَد، وكلُّها ليست من صنع البشر بل من تقدير العزيز العليم(2)، فجاء الأمر بالتَّسبيح عَقِب ذلك تقريرًا؛ لنتيجة لازمة، وهي الاعتراف بربوبيَّة اللّه وتنزيهه، فجاءت الفاء لتعقِّب معنًى مضمرًا هو: فإذا أيقنت بذلك؛ فسبِّح.

غرض الأمر في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ﴾:

التَّسبيح تنزيه نابع من التَّأمُّل لا من التَّكليف المجرَّد

جاء الأمر في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ عقب عرضٍ مهيب لمظاهر القدرة الرَّبّانيَّة في خلق النّار، وإنشائها من الشَّجر

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 327.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 421.

الأخضر، وجعلها منفعة للنّاس وتذكرةً لهم، كما سبق عرضه لمثل ذلك في الماء والنَّبات، فالأمر بالتَّسبيح هنا ليس مجرَّد تكليف، بل هو نتيجة لازمة للتَّفكُّر في هذه الآيات، وكأنَّما قيل: إذا علمت ذلك كلَّه، ولم يكن لكم يدٌ فيه، فسبِّح اللّهَ الَّذي انفرد بالخلق والتَّدبير.

وغرض هذا الأمر هو التَّعظيم والتَّنزيه[1]، فهو تسبيح بعد تأمُّل في الخلق، يُثمر تعظيمًا في النَّفس وتقديسًا في القلب، ويدفع إلى الإقرار بالرُّبوبيَّة والوحدانيَّة، لا عن طريق الجدل، بل عن طريق التَّأمُّل الموصل إلى الخضوع، والتَّعبير بـ﴿فَسَبِّحۡ﴾ يفيد أنَّ هذا التَّسبيح هو النَّتيجة العقليَّة والوجدانيَّة لهذا البيان.

توجيه الأمر بالتَّسبيح دون الحمد بعد ذكر النِّعم:

اختيار الألفاظ تـابـعٌ لسياق المعاني ومقامات الدّلائل لا لظاهر المباني

إنَّ التَّعبير بالأمر بالتَّسبيح في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ دون الأمر بالحمد بعد عرض نِعَم الماء والنّار وغيرهما الَّتي تدعو إلى حمد المنعم سبحانه، هو أنَّ الحمد يُناسب إبراز النِّعم في مقام الامتنان والاعتراف بفضل المُنعِم، أمّا التَّسبيح؛ فهو تنزيهٌ وتقديسٌ للّه عمّا لا يليق بجلاله، وهو أنسب في المقام الَّذي يُعرَض فيه عجز الإنسان وضعفه أمام قدرة اللّه القاهرة[2].

وقد تكرَّر الاستفهام الإنكاريُّ في السّياق: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ﴾ و﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ﴾، وكلُّها تضع الإنسان موضع النّاظر العاجز، وتُظهر انفراد اللّه بالفعل والخلق، فكان المقام مقام تنزيه اللّه وتقديسه عن أن يكون له شريك أو معين، لا مجرَّد شكرٍ على النِّعمة.

ثمَّ إنَّ الآيات لم تقتصر على ذكر النِّعمة فحسب، بل أبرزت معها القدرة على سلبها: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾، ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾، ممّا يستدعي شعورًا بجلال اللّه وقهره، فكان التَّسبيح

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 422.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 466.

أنسب من الحمد في هذا الموضع؛ لأنَّه أدلُّ على الخشوع والتَّعظيم، وأقرب لمقام الهيبة.

نوع الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِٱسۡمِ﴾:

دلالة الباء في (باسم ربِّك) بين الملابسة والاستعانة، ومقام التَّعظيم في التَّسبيح

الباء في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هي باء الملابسة أو الاستعانة، ودلالتها تتنوَّع باختلاف التَّوجيه البلاغيِّ الممكن في السّياق، وكلا الوجهين يُحتمَل بلاغيًّا:

إن جُعِلت باء الملابسة، فالمعنى: نزِّه ربَّك ملتبسًا باسمه، أي: تسبيحًا مقترنًا بذكر اسم الرَّبِّ، فيكون التَّسبيح واقعًا باسم اللّه، وهو ما يُشير إلى العناية بإظهار الجهة الَّتي يُبتدَأ منها التَّسبيح، فكأنَّ الاسم نفسه صار وسيلة تجلٍّ للتَّنزيه، فيرتفع به الذِّكر عن مجرَّد اللَّفظ إلى الوعي بالمُسمّى.

وإن جُعِلت باء الاستعانة، فالمعنى: سبِّح اللّه مستعينًا باسمه، أي: متوسِّلًا إليه بذكر اسمه الجليل، وهو أدخل في تعظيم المقام؛ لأنَّ الاسم هنا وسيلة للدُّخول في رحمة اللّه ﷻ بالتَّسبيح، فكأنَّ الاسم مفتاح التَّعظيم، وبه تحصل العبوديَّة، قال صاحب نظم الدُّرر: "ولمّا كان تعظيم الاسم أقعد في تعظيم المُسمَّى؛ قال: ﴿بِٱسۡمِ﴾، أي: متلبِّسًا بذكر اسم ﴿رَبِّكَ﴾"[1].

دلالة إضافة (اسم) إلى لفظ الرُّبوبيَّة:

تعظيمُ شأنِ التَّسبيح باسم الرَّبِّ سبحانه في سياق الاستدلال

في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾، جاءت إضافة (اسم) إلى لفظ الرُّبوبيَّة ﴿رَبِّكَ﴾، محمَّلة بدلالات بلاغيَّة دقيقة تعزِّز غرض التَّسبيح، وترتقي به تعظيمًا وتقديسًا، فإنَّ لفظ ﴿رَبِّكَ﴾ يُشعر بالصِّلة الخاصَّة بين المخاطَب وربِّه، فهو ربُّك أنت، أي: المربّي لك، والمدبِّر لشأنك، والمتفضِّل عليك[2]، ومصدر النِّعم التي سبق عرضها في الآيات، من الماء والنار، والزرع والشجر، فجاء هذا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 422.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 422.

الإظهار لعلاقة العناية واللُّطف؛ ليزيدَ أثر الأمر بالتَّسبيح وقعًا في النَّفس؛ لأنَّ الرُّبوبيَّة قائمة على التَّربية والإنعام.

أمّا إضافة (اسم) إلى هذا اللَّفظ، فهو من باب تشريف الاسم بإضافته إلى الرَّبِّ، وتشريف الفعل (التَّسبيح) بأن يكون واقعًا على الاسم المضاف إلى الرَّبِّ العظيم، وفيه دلالة على التَّعظيم بالتَّسمية؛ لأنَّ ذكر الاسم مهيِّئ لتعظيم المسمّى، فإضافة (اسم) إلى ﴿رَبِّكَ﴾ تجمع بين التَّكريم والتَّنزيه من جهة، وبين الإشعار بالصِّلة والرِّعاية من جهة أخرى، فكان ذلك أدعى لامتثال الأمر بالتَّسبيح وأوقع في النَّفس أثرًا من أن يُقال: (فسبِّح ربَّك) مجرَّدًا في هذا السّياق.

غرض إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَب:

تشريف المخاطَب المسبِّح بما حازه من فضل التَّنزيه والاعتقاد الشَّريف

في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾، جاءت إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَب ﴿رَبِّكَ﴾؛ لدلالة التَّشريف والاختصاص والعناية، أي: إنَّ الرَّبَّ الَّذي أُمِر المخاطَب بأن يُسبِّح باسمه ليس ربًّا بعيدًا عنه، ولا غريبًا عن شأنه، بل هو ربُّه الَّذي ربّاه، وهذَّبه، وأسبغ عليه النِّعم الَّتي جرت الإشارة إليها في الآيات السّابقة من زرع وماء ونار، فهو ربُّك الَّذي تتقلَّب في آلائه، وتعيش برعايته وتدبيره، كما أنَّ هذا الإسناد يُضفي على الأمر بالتَّسبيح صبغة وجدانيَّة خاصَّة؛ لأنَّ من يسبِّح ربَّه عن قربٍ وشعورٍ بالرِّعاية، ليس كمن يذكر إلهًا بعيدًا لم يحسَّ له أثرًا.

وهذا الأمر شامل للمسلمين بقرينة أنَّ القرآن متلوٌّ لهم، وأنَّ ما تفرَّع الأمر عليه لا يختصُّ علمه بالنَّبيِّ ﷺ، فلمّا أُمِرَ بالتَّسبيح لأجله؛ فكذلك من عَلِمه من المسلمين، والمعنى: إذ علمتم ما أنزلنا من الدَّلائل، وتذكَّرتم ما في ذلك من النِّعم؛ فنزِّهوا اللّه، وعظِّموه بقُصارى ما تستطيعون[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 328.

توجيهُ تخصيص صفة ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾:

العـظـيـم صفة جامعة للقدرة والعلم والحـكـمـة والتَّقدير

إنَّ ختم الآيات بالأمر بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ بعد عرض مشاهد الخلق والقدرة في الماء والنّار والنَّبات قد يوهِم أنَّ الأنسب ختامها بوصف (القدير)؛ لارتباطه بالفعل الإلهيِّ في هذه النِّعم، ولكن اختيار ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ بدلًا من (القدير) جاء أدقَّ وأبلغ بلاغيًّا في هذا المقام؛ وذلك لأنَّ العظمة أعمُّ من القدرة، فهي تشمل القدرة وسائر صفات الكمال من العلم، والحكمة، والتَّدبير، والتَّقدير.

كما أنَّ صفة ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ أنسب بمقام التَّسبيح[1]؛ لأنَّ التَّسبيح لا يُقصَد به الاعتراف بالقدرة، بل التَّنزيه والتَّعظيم للّه في ذاته وصفاته وأفعاله، والعظمة هي الصِّفة الجامعة لذلك، بخلاف (القدرة)، فهي متعلِّقة بالفعل فقط.

بلاغةُ التَّذييل في جملة الأمر بالتَّسبيح:

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ تذييلٌ مجملٌ يؤكِّد تنزيه الأفعال - السّابق ذِكرُها - عن النَّقص والعجز، بعد عرض دلائل الخلق والتَّقدير في مشاهد الماء والنّار وغيرها[2]، وهذا التَّذييل يفيد برهنة على عظمة الخالق في تصريف مظاهر الطَّبيعة (الماء، النّار، الزَّرع)، فجاء التَّسبيح في ختامها مُعلَّلًا، لا إنشائيًّا محضًا، أي: لمّا تبيَّن لكم أنَّه وحده الخالق المدبِّر، فسبِّحوه، ونزِّهوه عن أن يكون له شريك أو معين.

والتَّذييل هنا كذلك يقوم مقام خلاصة الدَّرس، فبعد أن فُتِحَت أعين العقول على دقائق الإنشاء، وامتدَّ البصر من الزَّرع إلى الماء إلى النّار، جاء هذا التَّذييل تأديبًا نفسيًّا وروحيًّا، لا لتقف عند

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 422.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 328.

الإعجاب العقليّ، بل لتنتقل إلى الخضوع التَّعبُّديّ، فالمعرفة لا تكفي دون ذكرٍ وتسبيحٍ وتعظيم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المقوي والمسافر:

المُقوي ليس كلَّ مسافر، بل هو المسافر الَّذي دخل القَواء، أي: الصَّحراء الخالية، أو الَّذي أقوت معدته، أي: خلت من الزّاد، فهو المسافر الَّذي طال به السَّير، وقلَّ معه الزّاد، وانقطع به السَّبيل، بينما (المسافر) لفظٌ عامٌّ، يُطلَق على كلِّ من خرج من الحضر، قلَّ سفره أو طال، وجدَّ فيه أو توانى، تزوَّد أو لم يتزوَّد.

المُقوي المسافر في الصَّحراء، وأمّا المسافر؛ فهو المسافر في الصَّحراء والحاضرة

فإذا قيل: (المسافر)؛ أفاد ذلك مجرَّد مفارقة الدّيار، لكن إذا قيل: (المُقوي)؛ دلَّ على فقد المعونة والزّاد، وعلى مقام الاضطرار، وهذا هو الوجه الأليق بمقام الامتنان في الآية؛ إذ تُذكِّر الإنسان بنعمة النّار لا من حيث التَّرف، بل من حيث الحاجة الضَّروريَّة.

﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ
٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا
ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الواقعة: 75 - 80]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من الأدلَّة الأرضيَّة إلى الأدلَّة السَّماويَّة

لمّا تقدَّم في الآيات مشاهد الخلق والإحياء، من الماء والنّار، والزَّرع والنَّشأة الأولى، في أسلوب تقريريٍّ يحمل في طيّاته التَّقريع والتَّذكير؛ ناسب أن يذكر الأدلَّة على النُّبوَّة، وصدق القرآن الكريم[1]، فهو انتقال من الأدلَّة الأرضيَّة إلى الأدلَّة السَّماويَّة، أو من الأدلَّة الحسّيَّة إلى الأدلَّة المعنويَّة، على قول من يرى أنَّ مواقع النُّجوم نزول القرآن.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾: (وقع) يدلُّ على السُّقوط والاستقرار في موضع مخصوص، يقال: وقع الشَّيء؛ إذا سقط، أو ثبت في مكانه[2]، والواقعة: القيامة؛ لأنَّها تقع بالخلق، فتغشاهم، والوقعة: صدمة الحرب[3]، فالمواقع هي المواضع الَّتي تستقرُّ فيها الأشياء، أو تغيب فيها، ومنها مواقع النُّجوم في السَّماء، أي: مواضع مغاربها أو مطالعها أو منازلها الفلكيَّة الَّتي تسير فيها على انتظام لا يختلُّ.

2) ﴿مَّكۡنُونٖ﴾: (كنن) أصلٌ في السَّتر والتَّغطية والإخفاء، يُقال: كننت الشَّيءَ أكنُّه كنًّا؛ إذا سترته، وأخفيته[4]، ومنه: الكِنُّ، لما يُكنُّ المرءَ من سقفٍ أو ظلٍّ أو بيت، والكنز من مكنون المال، أي:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 386.
(2) الراغب، المفردات: (وقع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقع).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (كنن).

ما خُبِّئَ عن أعين النّاس، فـ(الكِنُّ) السُّترَةُ، والجَمعُ (أكنانٌ)، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النَّحل: 81]، و(الأكِنَّةُ) الأغطيَةُ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: 25]، والواحِدُ (كِنانٌ)[1]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾، "قيل: عنى بالكتاب المَكنونِ اللَّوح المحفوظ، وقيل: هو قلوب المؤمنين، وقيل: ذلك إشارة إلى كونه محفوظًا عند اللّه تعالى، كما قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]"[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

القسم بمواقع النجوم فيه ربط مشاهد القدرة بتنزيل القرآن الكريم

ابتدأتِ الآيات بالقسم بـ(مَواقِعِ النُّجوم)، وهي من أعجب ما في الخلق، غموضًا وبُعدًا وانتظامًا؛ ليُلفت القلوب إلى عظمة المقسَم به، ثمَّ يُعلِّق على هذا القسم بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فالقسم نفسه من دلائل القدرة، كما أنَّ المقسَم عليه لا يقلُّ شأنًا؛ إذ هو هذا القرآن الكريم، الشَّريف في معناه، البليغ في لفظه، العالي في منزلته، "وقيل في ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قولان: أحدهما: أنَّه يعني بها القرآن؛ لأنَّه نزل نجومًا على النَّبيِّ ﷺ، وهذا قول ابن عبّاس ومجاهد. والثّاني: أنَّه يُراد بها مساقط نجوم السَّماء ومطالعها، وهو قول قتادة، وروي مثله عن مجاهد في بعض الرِّوايات عنه، وقال الحسن: مواقعها: انكدارها وانتشارها يوم القيامة"[3].

ثمَّ وصفه بأنَّه ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾، أي: محفوظ مصون، لا يُمَسُّ، ولا يُتناول على جهة العبث أو التَّحريف، بل هو في موضع عالٍ من الحفظ والتَّقديس، لا يَمَسُّهُ إلّا المُطَهَّرونَ؛ إشارة إلى تنزيه مصدره، ورفعة منزلته، وطهارة من يُؤذن لهم بتلقّيه من الملأ الأعلى.

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (كنن).
(2) الراغب، المفردات: (كنن).
(3) القيروانيّ، النّكت في القرآن، ص: 478.

ثمَّ خُتِم هذا السّياق الجليل بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فهو ليس من عند بشر، ولا من فيض فكر، بل هو وحي صادر من خالق الأكوان، الَّذي أبدع الماء والزَّرع والنّار، وأودع في كلِّ شيءٍ قدرةً، وفي كلِّ نعمةٍ تذكرة، وفي كلِّ آيةٍ دعوة إلى أن يُصدِّق النّاس بهذا الوحي، ويعلموا أنَّ ما فيه من دلائل الخلق ما هو إلّا فصلٌ من كتابٍ كريم، لا يأتيه الباطل، ولا يجرؤ على مسِّه إلّا من طَهُرت قلوبهم، أو صَفَت أرواحهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ فاء تفريع على جملة: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ﴾[1]، وهي متعلِّقة بما قبلها من سياق عرض دلائل الخلق والتَّدبير في الزَّرع والماء والنّار، وما ترتَّب عليها من وجوب التَّسبيح والتَّقديس، فتكون هذه الفاء تفريعًا على جملة مقدَّرة معناها: (فبما ظهر لكم من دلائل عظمة اللّٰه وربوبيَّته، فإنّي أقسم على أمر عظيم)، وجاء هذا القسم تثبيتًا لما سيُذكر من تعظيم القرآن.

وفي هذا السّياق، تُفَسَّر الفاء على أنَّها تربط بين مشاهد الكون السّابقة، الَّتي دلَّت على القدرة الإلهيَّة، وبين إثبات أمرٍ عظيم هو: عظمة هذا القرآن، والمعنى: بعد أن استبان لكم أنَّه لا ربَّ سواه، وأنَّه المتفرِّد بالإنشاء والإمداد، أقسم لكم - على ما يليق بعظمته - أنَّ هذا القرآن من عنده، وأنَّه لَكتاب كريم.

دلالة استعمال (لا) في سياق القسم:

ذهب كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ (لا) في قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ ليست نافية حقيقةً، وإن كان ظاهرها كذلك، بل هي على ما جرى عليه أئمَّة البلاغة من قبيل (لا) الزّائدة في مقام التَّوكيد والاهتمام[2]، وخصوصًا عند إرادة القسم على أمر عظيم، فتكون دالَّة على تنزيه المقسَم به عن أن يكون محلَّ شكٍّ أو ممّا يُحتاج إلى القسم عليه لثبوته.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 329.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 466، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 425، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 91، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 428، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 330.

احتمال (لا) للنَّفي والتَّوكيد قوَّةٌ في القَسَم وبلاغةٌ في المقسَم عليه

ومذهب بعض المحقِّقين من المفسِّرين بأنَّ (لا) أفادت نفي الحاجة للقسم، وهو أشدُّ من القسم، فهو "عبارة من عبارات العرب في القسم، يُراد بها توكيدُ الخبر، كأنَّه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم، ويُقال: إنَّه يؤتى بها في القسم؛ إذا أُريد تعظيم المقسم به، كأنَّ القائل يقول: إنِّي لا أعظِّمه بالقسم؛ لأنَّه عظيم في نفسه"[1]، فقوله: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ "بتمامها صيغة من صيغ القسم، على ما ارتضاه بعض المحقِّقين"[2].

وهذا من أساليب التَّمهيد للقسم، يُستعمَل في مقام التَّفخيم والتَّشويق، ولذا عقبها بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فكان الغرض من إدخال (لا) تعظيم موضع القسم، والتَّنبيه على أنَّ المقسَم به من الجلالة بمكانٍ لا يُحتاج معه إلى أن يُعزَّز بالقسم، ولكنَّ البيان شاء أن يلفت الأسماع والأفهام إلى عظم المقسَم عليه، وهو القرآن الكريم.

بلاغة العدول إلى الفعل (أُقسِم) عندما يصير القسم فعلًا مقصودًا لذاته

بلاغة استعمال مفردة ﴿أُقۡسِمُ﴾:

استعمل النَّظم الكريم لفظ ﴿أُقۡسِمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ دون الألفاظ الرَّديفة، أو أساليب القَسَم باستعمال أحرف القسم؛ لما في ذلك من إظهار العناية بالفعل نفسه، والتَّنويه بجلال ما يُراد تقريره بهذا القسم.

والإتيان بالفعل ﴿أُقۡسِمُ﴾ يُضفي على القسم صبغة خطابيَّة سامية، كأنَّ المتكلِّم العليَّ جلَّ شأنه يُنبئ عن دخوله في مقام القسم بمحض إرادة وتعظيم، وليس فقط بإيقاع اليمين على شيء، فصار القسم نفسه فعلًا مستقلًّا يُشار إليه، ويُنظر في ذاته، لا فقط في مضمونه، ولهذا قال عقب ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فالقسم بذاته من الأدلَّة العظيمة، لا من حيث ما يؤكِّده فقط.

---

(1) بنت الشّاطئ، التّفسير البيانيّ للقرآن الكريم: 1/ 165.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 128.

نوع الباء ودلالتها:

باء القسم بلاغة التَّعظيم والتَّقديم في قسمٍ قرآنيٍّ

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ هي باءُ القَسَم، وهيَ الدّاخِلَةُ على المَجرورِ؛ لِتَدُلَّ على المُقسَمِ بهِ، وهيَ مِن أشهَرِ حُروفِ القَسَمِ في لِسانِ العَرَبِ، وتَدخُلُ على الجَليلِ مِنَ الأشياءِ لِعَظيمِ شَأنِها، وهو ما يُناسِبُ المَقامَ هُنا.

والبَلاغَةُ في استِعمالِ هذِهِ الباءِ أنَّها تَدُلُّ على عَظَمَةِ المُقسَمِ بهِ وتَعَلُّقِ نَفسِ المُتَكَلِّمِ بهِ، فالباءُ تُنشِئُ لَحظَةً مِنَ التَّوجيهِ والانتِباهِ إلى ما بَعدَها، وتُنَصِّبُ مَواقِعَ النُّجومِ في مَوضِعِ التَّعظيمِ والتَّمجيدِ، لا لِذاتِها، ولَكِن لأنَّها آيَةٌ مِن آياتِ القُدرَةِ الإلهيَّةِ الَّتي تَستَحِقُّ أن يُقسَمَ بها.

دلالة مفردة (مواقع):

(مَواقِعِ النُّجومِ) من أفول الأجرام إلى جلال التَّنزيل

لفظة مواقع تنطوي على دلالة أدقَّ من مجرَّد (مواضع) أو (مسارات)، فهي توحي بمكان السُّقوط بعد قطعٍ طويل، وكأنَّ النَّجم لا يُرى حين يطلع، وإنَّما يُدرَك أثره حين يأفل، ومن هنا جاء التَّعبير بـ(مواقع النُّجوم) لا بـ(النُّجوم) نفسها؛ لأنَّ الوقوف على مواقعها أدلُّ على العظمة وأبعث على التَّأمُّل.

وقد تُحمَل الكلمة أيضًا على مواقع نجوم القرآن، أي: منازل آياته، ومراحل تنزُّله، وهي قراءة أخرى تفتح بابًا على معاني الوحي وتدريجه، فيكون القسم تعظيمًا لطريقة التَّنزيل كما هو تعظيم لموضع التَّأمُّل في الآفاق[1].

وهذا الاختيار اللُّغويُّ يشي بجلال المقسَم به، ويُهيِّئ الذِّهن للمُقسَم عليه، في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾؛ توكيدًا على أنَّ ما بعده - وهو شرف القرآن - حقٌّ لا يُمارى فيه، ونعمة توجب التَّقديس والتَّسبيح.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 467.

مواقع النُّجوم تُنبئ بعظمة الآيات الكونيَّة وبلاغة الآيات القرآنيَّة

نكتة جمع (مواقع):

قوله: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، المواقع: هي أفلاك النُّجوم المضبوطة السَّير في أفق السَّماء، وكذلك بروجها ومنازلها[1].

نُكتَةُ جَمعِ (مَواقِع) في قَولِهِ تَعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أنَّهُ تَعبيرٌ تَغلِبُ عَلَيهِ لَمسَةُ التَّهويلِ والتَّفخيم، فالجَمعُ هُنا يوحي بكَثرَةِ المَواقعِ وتَعَدُّدِها، وبِتَنوُّعِ أحوالِها، مِن سُقوطٍ ومَغيبٍ وتَفَتُّتٍ وتَناثُرٍ، وكُلُّ ذلِكَ يُلقي في القَلبِ عَظَمَةَ المُقسَم بِهِ، فكُلُّ مَوقِعٍ مِن هَذِهِ المَواقِعِ آيَةٌ باهِرَةٌ على إتقانِ صَنيعِ الرَّبِّ، ونِظامِ كَونِه[2]، فكَيفَ إذا اجتَمَعَت هَذِهِ المَواقِعُ، وتَناسَقَت؟.

وَمِمّا يُؤَكِّدُ هذِهِ النُّكتَةَ أنَّ المُرادَ بـ(مَواقِعِ النُّجوم) - على أرجَحِ الأقوالِ - هيَ مَواضِعُ سُقوطِها في الأُفُقِ، أو مَنازِلُها، أو حَتَّى تَفَتُّتِها في سُرعَةِ الإبلاغِ، كَنُزولِ الوَحيِ نَجمًا نَجمًا، فالجَمعُ هُنا أدَقُّ في التَّعبيرِ عَن تَفرُّقِها في الزَّمانِ والمَكانِ، وفي الحِسِّ والمَعنَى، وكُلُّ ذلك يَنسجُ لِلقارِئِ خَيطًا مِنَ التَّدَبُّرِ يُفضي إلَى تَعظيمِ القَسَمِ وتَوقيرِ المُقسَمِ عَلَيهِ، وهوَ القُرآنُ الكَريمُ في مَقامِ التَّنزيلِ والحِفظِ والمَصدَرِ الإلهيِّ.

ويَرَى بَعضُ أئِمَّةِ التَّفسيرِ أنَّ مَواقِعَ النُّجومِ هُنا هيَ نُجومُ القُرآنِ وتَنَزُّلُهُ، فتكون نكتتُه، بأن: "جَعَلَ إنزالَ القُرآنِ نُجومًا مُفَرَّقَةً، وبَوارِقَ مُتَلَألِئَةً مُتَألِّقَةً، قالَ: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، أي: بمَساقِطِ الطَّوائِفِ القُرآنيَّةِ المُنيرَةِ النّافِعَةِ المُحيِيَةِ لِلقُلوبِ، وبِهُبوطِها الَّذي يَنبَني عَلَيهِ ما يَنبَني مِنَ الآثارِ الجَليلَةِ، وأزمانِ ذلِكَ وأماكِنِه وأحوالِه، وبِمَساقِطِ الكَوكَبِ وأنوائِه، وأماكِنِ ذلِكَ وأزمانِه في تَدبيرِه على ما تَرَونَ مِنَ الصُّنعِ المُحكَمِ، والفِعلِ المُتقَنِ المُقَوَّمِ، الدّالِّ بغُروبِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 331.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 424.

الكَواكِبِ على القُدرَةِ على الطَّيِّ بَعدَ النَّشرِ، والإعدامِ بَعدَ الإيجادِ، وبِطُلوعِها الَّذي يُشاهَدُ أنَّها مُلجَأٌ إليهِ إلجاءَ السّاقِطِ مِن عُلوٍّ إلَى سُفلٍ، لا يَملِكُ لِنَفسِهِ شَيئًا"[1].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

بلاغة الجمع والإفراد بين نظام الكون وتنجيم الوحي

اختلف القرّاء في قراءة ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾؛ فقرأ حمزة، والكسائي، وخلف بإسكان الواو من غير ألف على الإفراد: ﴿بِمَوۡقِعِ﴾، وقرأ الباقون بفتح الواو وألف بعدها على الجمع: ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾، "[2]، فمن قرأ بصيغة المفرد فعلى أنَّه مصدر ميميٌّ، أي: بوقوعها، أي: غروبها، أو هو اسم لجهة غروبها، كقوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [المُزَّمِّل: 9][3].

لكنَّ توجيه هذا الجمع من جهة العربيَّة والتَّفسير يُحتمل فيه نُكتٌ بيانيَّة بديعة، فالمراد بالمواقع هنا: مواطن سقوط النُّجوم، أي: أفولها وغروبها، وقيل: مواقع نزولها في السَّماء، أو في التَّنجيم (النُّزول شيئًا فشيئًا)، أو أماكنها الَّتي تقع فيها في الكون، وهي قرينة على التَّرتيب الدَّقيق، والتَّدبير البديع، فاللَّفظُ بصيغة الجمع يَحمل معنى الكثرة والتَّنوُّع، وهو أبلغ من الإفراد؛ لأنَّ المراد ليس موقعًا واحدًا بل نظامًا سماويًّا متقنًا يتكرَّر ليلًا ونهارًا، في كلِّ نجم، وفي كلِّ مدار، وفي كلِّ دورة.

وإذا وُجِّه اللَّفظ على أنَّه إشارة إلى تنزيل الوحي نجمًا نجمًا - كما روي عن بعض السَّلف - فالجمع أدقُّ؛ لأنَّه يُشير إلى تنزُّلات متعدِّدة في أوقات وأحوال متباينة.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 424.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 383.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 331.

فائدة استعمال لفظ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾:

انبعاث النّورِ عن النُّجومِ والهداية عن آيات القرآنِ

آثر النَّظم الكريم لفظَ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾ على (الكواكب)، في قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾؛ ذلك أنَّ النُّجوم يُراد بها تلك الأجرام السَّماويَّة الَّتي تُرى في اللَّيل لامعةً متألِّقة، تُشهِدُ النّاظرَ ببهائها وهيبتها، وتبعثُ في النَّفس عظمةً وخشوعًا، وهي مظنَّةُ الاستدلال ومثار التَّأمُّل، وتتناسب مع ما في القرآن من الهداية والتَّنوير والإعجاز، أمّا الكواكب، فإنَّها - وإن كانت تشترك مع النُّجوم في كونها أجرامًا سماويَّة - إلّا أنَّها لا تفيد الانبعاث النّوريَّ، وبعضها قد لا يُرى إلّا بمراصد، فلا تحقِّق المقصد من القسم، وهو إثارة التَّوقير والرَّهبة في النَّفس.

نكتةُ ذكر (مواقع) دون الاكتفاء بالنُّجوم:

المواقعُ أشمل ودلالتها أوسع وأثرها في النَّفس أشرق

القسم ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أدقُّ وأعجب من ذكر النُّجوم مجرَّدة؛ إذ إنَّ المواقع تشمل لحظات طلوعها وغروبها، وانفجارها وانطفائها، وبعدها المهول في الزَّمان والمكان، وكلُّ ذلك ممّا لم يكن يدركه العرب حينذاك علمًا، ولكنَّه يثير فيهم الخشوع الفطريَّ والدَّهشة التَّأمُّليَّة.

ولذا كان القسم بمواقع النُّجوم - لا بالكواكب ولا بالنُّجوم مطلقًا - أبلغَ وأدلَّ على جلال الخالق، وتمهيدًا لإبراز جلال المقسَم عليه، وهو: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾:

النجوم معهودةٌ في الأذهان في الاهتداء والتَّزيين

جاء لفظ النُّجوم مُعَرَّفًا بـ(الـ) في قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، وفي هذا التَّعريف دلالةٌ مقصودة، تؤكِّد المقصود من القسم، وتثري دلالته، فـ(الـ) الدّاخلة على النُّجوم هي (الـ) للعهد الذِّهنيِّ، يُراد بها النُّجوم المعلومة المشاهدة في الأفق، وهي الَّتي يتأمَّلها النّاس،

ويتَّخذونها علامات، ويهتدون بها في ظلمات البرِّ والبحر، وهي كذلك ذات النِّظام الدَّقيق والمواقع المدهشة الَّتي يقف الإنسان أمامها مبهوتًا، فكأنَّما الخطاب الإلهيُّ يلفت السّامع إلى شيء معهودٍ في نفسه، معلومٍ له بالرُّؤية، لكنَّه غفل عن دلالته وأبعاده.

نوع الواو ودلالتها:

الاعتراض بين القسم وجوابه تنبيهٌ على عظيم المقسَم به

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ معترضة، والجملة معترضة بين القسم وجوابه[1]، فليس المقصود مجرَّد الإخبار بالقسم، بل التَّنبيه على فخامته وجلالته، بما فيه من عظمة الموضع المقسَم به، وما يترتَّب عليه من أهمّيَّة المقسَم عليه.

وتكمن بلاغة هذه الواو في أنَّ السّياق قبلها كان سياق إثارةٍ وتعجيبٍ من مواقع النُّجوم، فجاءت الواو؛ لتحمل التَّقدير: (وأنتم لا تدرون عِظَمَه، ولكن لو علمتم؛ لعرفتم أنَّه قسمٌ عظيمٌ جدًّا)، ولذلك جاء التَّعبير بأسلوب الشَّرط بعده: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذا العلم مغيَّبٌ عن أكثر النّاس، ولكن لو تحقَّق لهم؛ لتبيَّن لهم أنَّ المقسَم به لا يكون إلّا لأمرٍ جليل، وهو ما سيأتي التَّصريح به بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾.

يقول السَّمين: "وأبى ابنُ عطيَّة أن يُجْعَلَ قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ اعتراضًا، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ توكيدٌ للأمر، وتنبيهُ المُقْسَم به، وليس هذا باعتراض بين الكلامَيْن، بل هذا معنًى قُصِدَ التَّهَمُّمُ به، وإنَّما الاعتراضُ قولُه: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾، قلت: وكونُه توكيدًا ومُنَبِّهًا على تعظيم المُقْسَمِ به لا يُنافي الاعتراضَ بل هذا معنى الاعتراضِ وفائدتُه"[2].

بلاغة التَّوكيد في جملة ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾:

جاء التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 331.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: 10/ 223.

بمؤكِّدين اثنين: إنَّ واللّام، وقد ورد هذا التَّوكيد في جملة معترضة بين قسم عظيم وجوابه؛ ليلفت الانتباه إلى أهمّيَّة المقسَم به وجلالة شأنه، لا من حيث ذاته فقط، بل أيضًا من حيث ما يراد إثباته بهذا القسم، وهو عظمة القرآن وسموُّ مصدره.

ترسيخُ عظمة المقسم به توطئةٌ لإعلاء شأن القرآن

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، يعود الضَّمير في (إنَّه) إلى نفس القسم المتقدِّم في قوله: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، لا إلى مواقع النُّجوم نفسها، وإن كانت هي المقسَم به؛ لأنَّ المقصود هنا ليس ذات النُّجوم ولا مواضعها، وإنَّما هو فعل القسم وما ينطوي عليه من تعظيم وتهويل، "أو عائدًا إلى مواقع النُّجوم بتأويله بالمذكور، فيكون (قسم) بمعنى مقسم به، كما علمت آنفًا، ويجوز أن يعود إلى المقسم عليه، وهو ما تضمَّنه جواب القسم من قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾"[1].

القسم عظيم في ذاته عظيم في مآله عظيم في آثاره

فالمعنى: وإنَّ هذا القسم الَّذي وقع بمواقع النُّجوم، لقَسَمٌ عظيم لو كنتم تعلمون ما في تلك المواقع من أسرار، وما تحتها من دلائل على عظمة خالقها، وجلال المنزَّل منه هذا البيان، فمواقع النُّجوم، بما فيها من بعدٍ وعمق وغموض، وما تكشف عنه من سنن الكون المحكمة، ليست مواضع عبور فحسب، بل منازل آياتٍ تشهد بالقدرة، وتنطق بالوحدانيَّة، ولكنَّ القلوب الَّتي أعرضت لا تُبصر من مواقع النُّجوم إلّا منظرًا، ولا تُدرك من القسم بها إلّا لفظًا.

توجيه نفي القَسَم ثمَّ إثباته مؤكَّدًا:

النَّفي في قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، نفيٌ للحاجة إلى القسم، وهو أبلغ من القسم، فالَّذي يُفهم منه إرادة إثبات

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 331.

القَسَم، فكأنَّه يقول: لا أُقسِم بهذه الأشياء على وجه التَّهوين أو المجاز، بل أُقسِم بها على وجهٍ عظيم، أي: لا حاجة بي إلى القسم لوضوح الحقِّ، ومع ذلك فإنّي أُقسم تعظيمًا للمقسَم عليه، وهو القرآن الكريم(1).

الانتقال من نفي الحاجة للقسم إلى بيان عظمته، فالنَّفي للحاجة لا للقسم

ثمَّ يأتي الإخبار المؤكَّد: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾؛ ليقرِّر أنَّ هذا القسم بحدِّ ذاته، أي: القسم بمواقع النُّجوم، أمر عظيم لو علمتم حقيقته، كأنَّه يقول على فرض القسم، فهو قسم عظيم، فهو نفيٌ يُراد منه التَّنبيه على عظيم الأمر، ثمَّ إثبات يُراد منه إثبات عظمة القسم.

نكتة تنكير لفظ (قَسَم):

الإبهام رائد التَّفخيم وبريد التَّعظيم

نُكِّر لفظُ (قَسَمٌ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ تتجلّى دلالته فيما يُشبه الإبهام الَّذي يُرادُ به التَّفخيم(2)، وقد جَرَت عليه عادةُ العرب في كلامهم؛ إذا أرادوا تعظيمَ شأن شيءٍ أن يُطلقوه مُنكَّرًا؛ ليكونَ أعمَّ وأوسعَ وأغزرَ في النُّفوس، فكأنَّه يقول: وإنَّه لقَسَمٌ عظيمٌ لا يُحيطُ به وصف، ولا يُقدَّر بمقدار، ولا يُقاس بغيره من الأقسام، بل هو في ذاته نوعٌ فريدٌ من القسم لو علِمتم حقيقته.

نوع ﴿لَّوۡ﴾ ودلالتها:

استبعاد معرفة المخاطبين بمضمون القسم الهابِّ وتحريض

في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾، ﴿لَّوۡ﴾ حرف امتناعٍ لامتناع، وهي على هذا تُفيد أنَّ عظمةَ هذا القَسَمِ أمرٌ لا يُدركُه المخاطَبون؛ لأنَّهم لا يعلمونه، ولو كانوا يعلمونه؛ لأدركوا هولَ معناه وخطورةَ مضمونه، ولكنَّهم جَهلوا، فامتنع الإدراكُ لامتناعِ العلم(3).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 425.
(2) حسن طَبَل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ، ص: 169.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 76.

فـ﴿لَّوۡ﴾ هنا ليست شرطيَّةً حقيقيَّةً تقع؛ لطلب وقوع الشَّرط؛ ليترتَّب عليه الجواب، ولكنَّها تفترض شيئًا ممتنع الوقوع لتُبيِّن عِظَمَ ما لو حصل، فالمعنى: وإنَّه لقسمٌ عظيمٌ، لو أنَّكم تعلمون قدرَه؛ لعظَّمتموه، ولكنَّكم تجهلون.

موقع ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

جاءت "جملة ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ معترضة بين الموصوف وصفته، وهي اعتراض في اعتراض"(1)، وهو يفيد تنبيهًا بعد آخر.

دلالة استعمال مفردة ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

رســوخُ العـلمِ وتحقيق الإدراك مـطـلب العـلم بالقرآن

اختيرت مادَّة (عَلِمَ) في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ دون غيرها من موادِّ الإدراكِ كـ (عرف) أو (فهم) أو (شَعَر)؛ لأنَّها أدلُّ على الرُّسوخ، وأدلُّ على التَّيقُّن، وأدلُّ على إدراك الحقيقة على وجهها التَّامِّ؛ فليس المراد هنا مجرَّد المعرفة العابرة والملاحظة العارضة، بل المقصود: لو كان عندكم إدراكٌ راسخٌ حقيقيٌّ لحقيقة هذا القَسَم وما يدلُّ عليه؛ لأدركتم عظيم شأنه.

دلالة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

تنبيه الغافلين عـلى واقـعـهـم الأليـم من قيم الهداية والرَّشاد

جاءت صيغة المضارع ﴿تَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرار الفقد، فكأنَّه يقول: أنتم لا تزالون غافلين عن حقيقة هذا القَسَم، ولو أنَّكم في وقتٍ ما من أوقاتكم أدركتموه إدراكًا حيًّا مستمرًّا؛ لانخلعت قلوبكم لعظم ما يُقسَم به، ثمَّ إنَّ المضارع يدلُّ على الإمكان أيضًا، أي: إنَّ تحصيل هذا العلم ممكن، لكنَّ القلوب معرضة.

كما أنَّ الخطاب بضمير الجماعة ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ يعمُّ المخاطَبين جميعًا، فهو تعريضٌ بجماعة الكفّار أو الغافلين في عصر الرِّسالة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 467، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 92، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 331.

ومن بعدهم، بأنَّهم لم يرتقوا إلى مستوى هذا الإدراك، فغابت عنهم عظمة مواقع النُّجوم، وعظمة ما تدلُّ عليه من شرف القرآن الَّذي أُنزل فيها.

غرض حذف المتعلِّق بالفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

شرطُ الإيجاز البليغ استنباط معانيه من السّياق

حُذِفَ مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ في الآية: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ على طريقة الإيجاز البليغ، وهو حذف دلَّ عليه السّياق، واستغنى عنه السّامع بتمام المعنى، أي: "لو تعلمون عظمته، أي: دلائل عظمته، ولك أن تجعل فعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ منزَّلًا منزلة اللّازم، أي: لو كان لكم علم، لكنَّكم لا تتَّصفون بالعلم"[1].

وهذا الحذف على طريقة ما يُسمّيه علماء البلاغة (احتباس الجواب؛ لإفادته مزيد تعظيم)، فالسّياق يدلُّ عليه أبلغ دلالة؛ لأنَّه قَسَمٌ بظاهرة كونيَّة مهيبة، والقرآن لا يقسم إلّا بما له شأن، فصار التَّقدير: (لو تعلمون عظمة هذا القسم؛ لعلمتم عظمة المقسَم عليه ولما وسعكم إلّا التَّصديق والخضوع).

ثمَّ إنَّ حذف الجواب هنا يجعل القارئ في حال من التَّوقُّع والتَّرقُّب، وكأنَّ المعنى يعلِّق القلب بشيء فوق التَّعبير، وهذا من مَواطن التَّأثير البيانيِّ الَّذي تتميَّز به بلاغة القرآن.

دلالة وصف القسم بعظيم:

تفخيمٌ لمقام القرآن وتمهيدٌ لجلال خبر القرآن

وَصْفُ القَسَم بأنَّهُ ﴿عَظِيمٌ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ تَفخيمٌ لِمَقامِ القَسَمِ، وتَهويلٌ لِمَوضوعِه، وإشعارٌ بعَظَمَةِ المُقسَمِ بهِ، وخُصوصًا لِمَن أُقسِمَ لَهُ عَلَيهِ، فوصفُ القَسَمِ بالعَظيمِ يَجعَلُ السّامِعَ في مَقامِ تَوقُّعٍ شَديدٍ لِما سَيُقسَمُ عَلَيهِ، ويُلقي في نَفسِهِ جَلالَةَ المَقصودِ ورَهبَتَهُ، وأنَّ أمرًا عَظيمًا خَفيًّا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 332.

قَد أُبرِمَ القَسَمُ عَلَيهِ، وهوَ مِن بابِ التَّوكيدِ لِما سَيَأتي مِن خَبَرٍ عَنِ القُرآنِ، وأنَّهُ كَلامٌ عَظيمٌ يُناسِبُهُ قَسَمٌ عَظيمٌ، فكَأنَّ وصفَ القَسَمِ بالعَظيم مُقَدِّمَةٌ تُهيِّئُ النَّفسَ لِتَلقّي خَبَرٍ جَليلِ المَقامِ، هوَ قَولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾.

علّة فصل جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ﴾:

جُملَة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ مفصولةٌ عَمّا قَبلَها؛ لأنَّها جواب القسم، فهي لا محلَّ لها من الإعراب.

بلاغة التَّوكيد في جملة جواب القسم:

التَّوكيد في جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ جاء بأداة (إنَّ) في صدر الجملة، واللام في خبرها، وكلٌّ منهما من أدوات التَّوكيد المستقلَّة، فاجتماعهما يضاعف أثر الإقناع في النَّفس، ويؤكِّد مكانة الخبر الَّتي يُراد أن تُجلَّى، وقد ورد هذا التَّوكيد بعد قَسَمٍ جلَّه اللّه بعظمة، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ يحمل دلالةً أخرى من التَّوكيد، فجاء ليرفع الشَّكَّ، ويدفع التَّردُّد، ويملأ القلوب يقينًا بأنَّ هذا الكلام الَّذي يُتلى عليكم هو قرآن، لا سِحرٌ ولا شعرٌ ولا أساطير.

شـأنُ التَّوكيد دفـع الـشَّـكِّ وتثبيت اليقين وإعـلاء مكانة الخبر

تعيين مرجع الضَّمير في جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ راجع إلى غير مذكور في الكلام؛ لكونه معلومًا مستحضرًا لهم[1]، فهو عائد إلى معلوم، وهو الكلام الَّذي أنزل على محمَّد ﷺ، وهو معروف عند المخاطَبين، وكان الكُفّار يقولون: إنَّه شعر، وإنَّه سحر، فقال تعالى ردًّا عليهم: إنَّه لقرآن عائد إلى مذكور، وهو جميع ما سبق في سورة الواقعة من التَّوحيد، والحشر، والدَّلائل المذكورة عليهما، والقسم

رجـعُ الضَّمير إلى الـقـرآن من غير ذكـرٍ سابق يدلُّ على عظمة الـقـرآن وكـبير شأنه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 332.

الَّذي قال فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾؛ وذلك لأنَّهم قالوا: هذا كلُّه كلام محمَّد ومخترع من عنده، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾[1]، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر: 1]، فعود الضَّمير على القرآن مع عدم تعيينه سابقًا من أسلوب القرآن، وهو يوحي بعظمةِ القرآن، فهو الَّذي يرجع إليه الضَّمير من غير تعيين لفظيٍّ سابق، ويُفهم على ضوء السّياق.

فائدة اختيار اسم (قرآن):

الأنسب في سياق جدال المشركين إسماع مقروء الأدلَّة لا مطالبتهم بقراءة مكتوبها

اختار النَّظم الكريم لفظَ القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ دون لفظ (كتاب)؛ لملاحظة أنَّه مقروءٌ على الألسن، مسموعٌ في الآذان، وهو الأنسب في سياق الاستدلال ومجادلة المشركين، فإنَّ المطلوب منهم تأمُّل المقروء المسموع، لا قراءة المكتوب، فللقرآنِ دلالة على التِّلاوة المتكرِّرة، والمشافهة المتواصلة، ومظاهر الإعجاز البيانيِّ الَّذي يُدرَك بالسَّماع والمباشرة، لا بمجرَّد الكتابة أو التَّدوين، وهو اسمٌ حيٌّ في الأذهان والأسماع، مناسبٌ للحديث عن أثره في النّاس وبلوغه مبلغ البيان، بخلاف (كتاب) الَّذي يغلب عليه معنى التَّدوين والحفظ.

توجيه وصف القرآن بالكريم:

اكتسب القرآن العظمة من السّياق والكرم من الوصف، فاجتمع له الوصفان

وُصِف القرآن بالكريمِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾؛ لنكتةٍ بلاغيَّةٍ، ذلك أنَّ اسم الكريم جامعٌ لخصالِ الخير، كثيرُ العطاء، والكريم: النَّفيس الرَّفيع في نوعه[2]، دائمُ الإحسان، وهو يُستعمَل لما يحسنُ في ذاته، ويحسن أثرُه، ويُعبِّر عن البركة والنَّفع والرِّفعة، وكلُّها صفاتٌ تليق بالقرآن في مقام بيان خصائصه، ومرتبته، ومكانته بين الموجودات، ولم يوصَف بالعظيم؛ ذلك لأنَّ القسم قد

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 428.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 333.

وصف بالعظيم، فاكتسب القسم عظمته من عظمة القرآن، فوصف العظيم وصفٌ ضمنيٌّ منتزَعٌ من السّياق، فاجتمع للقرآن الوصفان، العظمة من السّياق، والكرم من الوصف.

وهناك تناسب لطيف بين انتقاء لفظ ﴿لَقُرۡءَانٌ﴾، ووصفه بكريم، والمعنى: لا يهون بكثرة التِّلاوة، ويبقى أبد الدَّهر كالكلام الغضِّ والحديث الطَّريِّ[1].

بلاغة استعمال حرف الظَّرفية:

القرآن وصفته معًا ثابتان في كِتابٍ مَكنونٍ

جاء استعمال حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ دقيقًا بالغًا في التَّصوير، ينطوي على بلاغة خاصَّة، تتناسب مع السّياق الَّذي يُراد منه تعظيم شأن القرآن وتنزيهه وبيان مكانته المصونة، فقد جعله شيئًا مظروفًا بكتاب، وفيه أوجه أحدها: المظروف: القرآن، أي: هو قرآن في كتاب، أو المظروف كريم على معنى أنَّه كريم في كتاب، فالقرآن كريم في اللَّوح المحفوظ[2]، وقيل: المظروف هو مجموع قوله تعالى: ﴿لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾، أي: هو كذا في كتاب، والمراد حينئذٍ أنَّه في اللَّوح المحفوظ نعته مكتوب: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾[3].

والظَّرفيَّة تشير إلى كون القرآن مُستودَعًا في كتابٍ عالٍ منزَّه، وهو اللَّوح المحفوظ، قبل أن يُنزل على قلب النَّبيِّ ﷺ، وهذا يفيد شرف المصدر، وعظمة المحلِّ، وعناية الحفظ، ويفيد أيضًا أنَّ ما كان في (الكتاب المكنون) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فجاءت ﴿فِي﴾؛ لتُشعر بالعناية والحفظ؛ إذ الَّذي يكون (في) شيء، محروسٌ به، وكذلك بالعلوِّ والشَّرف؛ إذ إنَّ (الكتاب المكنون) ليس كتابًا أرضيًّا، بل هو مقام تنزيه[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 429.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 430.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 430.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 333.

دلالة استعمال لفظ ﴿كِتَٰبٍ﴾:

براعة الجمع بين قرآن وكتاب في سياقٍ دالٍّ على إرادة الدّلالتين معًا

إنَّ اختيار لفظ ﴿كِتَٰبٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ جاء؛ ليدلَّ على معنى الإحاطة والحفظ والضَّبط، ويُفهَم منه أنَّ هذا القرآن - الَّذي هو محلُّ القَسَم وتعظيم القدر - مكتوب ومسطور في موضعٍ محفوظٍ عالٍ، وهو ما عبَّر عنه بعض المفسِّرين باللَّوح المحفوظ، وهذا التَّعبير بـ﴿كِتَٰبٍ﴾ بدلًا من (الصُّحف) أو (الألواح) أو غيرها من مفردات القرآن الدّالَّة على الكتب السَّماويَّة، فإنَّه يوحي بالتَّدوين الثّابت، والإحاطة التّامَّة، والعناية البالغة بالمحتوى، كما أنَّ لفظ ﴿كِتَٰبٍ﴾ يحمل في القرآن حمولة معنويَّة دائمة تشير إلى التَّشريع والوحي والتَّنزيل الإلهيِّ المعصوم، ويمكن أن يكون قد "استُعير الكتاب للأمر الثّابت المحقَّق الَّذي لا يقبل التَّغيير، فالتَأمَ من استعارة الظَّرفيَّة لمعنى المطابقة، ومن استعارة الكتاب للثّابت المحقَّق معنى موافقة معاني هذا القرآن لما عند اللّه من متعلِّق علمه، ومتعلِّق إرادته وقدرته، وموافقة ألفاظه لما أمر اللّه بخلقه من الكلام الدّالِّ على تلك المعاني على أبلغ وجه"[1].

نكتة تنكير لفظ ﴿كِتَٰبٍ﴾:

تفخيمٌ وتعظيم وتناسبٌ بين إيحاء التَّنكير ومعنى المكنون

نُكِّر لفظُ ﴿كِتَٰبٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾؛ للتَّعظيم والتَّفخيم، أي: في كتابٍ لا يُدرَك كنهه، ولا تُحاط صفاته، وفي تنكيره تنزيهٌ لشأنه، أي: في كتابٍ مُباين لما تعهده العقول من الكتب، فهو كتابٌ ليس كسائر الكتب، بل هو في عالمٍ أرفع، في لوحٍ مصون عن عبث البشر، فالكتاب هنا أشبه بالوصف المجمل الَّذي يُفصح عنه السّياق، فيكون من التَّعظيم بالتَّجهيل، كما قالوا: (فلانٌ رجلٌ).

ووقع تنكير ﴿كِتَٰبٍ﴾ مناسبًا لمعنى ﴿مَّكۡنُونٍ﴾؛ لأنَّ المكنون "هو في ستر مصون لما له من النَّفاسة والعلوِّ في السَّماء في

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 333.

اللَّوح المحفوظ، وفي الأرض في الصُّدور المُشَرَّفة، وفي السُّطور في المصاحف المُكَرَّمة المُطَهَّرة، محفوظًا مع ذلك من التَّغيير والتَّبديل"[1]، فكأنَّ التَّنكير يواطئ معنى الكِنانة والسَّتر، وهذا من بلاغة التَّوافق بين اللَّفظ والمعنى.

نكتة وصف الكتاب بالمكنون:

الكتاب المكنون هـو المُصـان عن أيـدي العابثين وعــن تُـهـمـةِ المُشكِّكين

آثر النَّظم الكريم وصف الكتاب في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ بالمكنون، والكِنانُ: الغِطاء السّاتر، والفعل من هذه المادَّة، يُستعمل ثلاثيًّا ورباعيًّا، يقال: كَنَنتُ الشَّيء، وأكنَنتُه كِنًّا وأكنانًا، وخُصَّ كَنَنتُ بما يَستُرُ من بيتٍ أو ثوب أو غير ذلك من الأجسام[2]، ووصفُ الكتاب بالمكنون يأتي في سياقٍ يُراد به تقريرُ جلالة القرآن ورفعة مكانته، وتمييزه عن سائر ما يُدعى كلامًا، أو يُظنُّ وحيًا، و(المكنون) من الكِنانة، وهي السَّتر، فالمكنون هو المصون المحجوب، أي: إنَّ هذا القرآن قد كان في أصل نشأته مستورًا عن العيون، محفوظًا في عالمٍ أعلى، لا تصل إليه الأيدي، ولا تناله الظُّنون[3]، مصون عن أن يأتيه الباطل أو من غير المقرَّبين من الملائكة لا يطَّلع عليه من سواهم[4].

نكتة الاستعارة في وصف الكتاب بالمكنون:

الكتاب المكنون حجاب العلم الإلهيِّ ومجمع الحكم الرَّبّانيّ

الكتاب المكنون "مستعارٌ لموافقة ألفاظ القرآن ومعانيه ما في علم اللّه تعالى وإرادته وأمرِه الملك بتبليغه إلى الرَّسول ﷺ، وتلك شؤون محجوبة عنّا؛ فلذلك وصف الكتاب بالمكنون اشتقاقًا من الاكتنان، وهو الاستتار، أي: محجوب عن أنظار النّاس، فهو أمر مغيَّب لا يعلم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 425.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 4/ 577.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 430.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 429.

كُنْهَهُ إلّا اللّه"[1]، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ هذا الكتاب ليس ممّا جال في خواطر البشر أو تسطير الكتبة، بل هو مكتوبٌ عند اللّه، مُصانٌ من التَّبديل والتَّغيير، محفوظٌ في لوحٍ كريم، فجاء وصف ﴿مَّكۡنُونٖ﴾؛ ليُشعر بعصمته من الدَّناسة، ومن أيِّ لون من ألوان الشَّكِّ أو الدَّخيل، كما يُكنُّ الشَّيء النَّفيس، فلا يُعطى إلّا لأهله.

بلاغة القصر في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾:

علم الكتاب مقصورٌ على بعض النّاس، وهو المتّسق مع صفة مكنون

قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ قصر بالنَّفي والاستثناء، فهو نفيٌ لكلِّ ماسٍّ، وإثبات المسِّ للمطهَّرين دون مَن سِواهم، وفائدة القصر أنَّه يُبيِّن اختصاصَ هذا الكتاب الكريم بطائفة مخصوصة، لا يناله أحدٌ إلّا من تطهَّر، أي: من كان مطهَّرًا من الدَّنس الحسّيِّ أو المعنويّ، بحسب الاحتمالين في تفسير الآية، كما أنَّ دلالة الحصر تُناسب ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾، فحصر المسِّ في المطهَّرين يقتضي قصر العلم على بعض النّاس، وهو ما دلَّ عليه وصف الكتاب بالمكنون.

براعة اختيار مفردة ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾:

المسُّ هو أدنى اتِّصالٍ ويشمل القلب والعقل والشُّعور والعمل

في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾؛ تتجلّى براعةُ اختيار لفظ ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ دون (يَلمِسُه) في دقَّة التَّعبير القرآنيِّ ومطابقته للمقام، فإنَّ مادَّة (مَسَّ) تدلُّ على أدنى اتِّصال، ولو كان خفيفًا عابرًا، أمّا (لَمس)؛ فغالبًا ما يُستعمَل في اللَّمس المتعمَّد المقصود، وغالبًا ما يكون بأطراف الأنامل أو اليد، وقد أشار الفرّاء إلى معنًى دقيق، فقال: "لا يجد طعمه ونفعه إلّا من آمن به، يعني القرآن"[2].

فاستعمال ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ أبلغ في الدَّلالة على شمول المنع حتَّى لأخفِّ اتِّصال وأدناه، فهو نفيٌ لتمام المباشرة، ولو كانت بغير قصد، وفي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 333.
(2) القيروانيّ، النّكت في القرآن الكريم، ص: 481.

هذا مزيدُ تعظيمٍ للقرآن، وتنزيه له عن أن يباشره إلّا من كان في غاية الطَّهارة، وهذا يتناسق مع وصفه بأنَّه ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾، أي: مصون مستور، لا يناله أدنى تماسٍّ إلّا من بلغ حدَّ الطَّهارة.

فائدة التَّعبير بصيغة ﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾:

التَّعبير بصيغةِ ﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ دون (الطّاهِرون)، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾؛ فلفظ (الطّاهرون) يدلُّ على من تحقَّق فيهم وصف الطَّهارة من حيث كونها صفةً لازمة أو حالًا مكتسبة بفعلهم، أمّا المطهَّرون؛ فصيغة اسم المفعول هذه تفيد أنَّ الطَّهارة واقعةٌ عليهم بفعل فاعلٍ آخر، أي: إنَّهم طُهِّروا تطهيرًا، فصاروا في حالة من الصَّفاء المصطفى والاختيار الخاصِّ، لا ينالها كلُّ طاهرٍ من النّاس، ففيه إيماءٌ إلى التَّوفيق الرَّبّانيِّ في تطهير طالبِ الطَّهارة، وتكريم السّاعي وراء الكرامة.

(المطهَّرون) يصدق على المؤمنين في توفيقهم للطَّهارة والملائكةِ في تطهيرهم أصالة

ومن ثمَّ، دلَّ هذا التَّعبير على الاختصاص، فليس كلُّ طاهرٍ من النّاس يمسُّه، بل من نال تطهيرًا مخصوصًا، قد يكون إلهيًّا أو من جهةٍ سامية، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾؛ إذ المطهَّرون أبلغ في الثَّناء من الطّاهرين؛ إذ فيه معنى الاصطفاء والعناية الإلهيَّة، وهذا على أنَّ المراد بهم المؤمنون.

وعلى أنَّ المراد بهم الملائكة، فهُم المطَهَّرون من الذُّنوب، وقال مالك في الموطَّأ: أحسن ما سمعت في هذه الآية: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أنَّها بمنزلة الآيات في سورة عبس؛ قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس: 11 - 16]، يريد أنَّ ﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ هم السَّفرة الكرام البررة، وليسوا النّاس الَّذين يتطهَّرون[1].

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 334.

التَّدرُّج في إنزالِ الرَّحمات الرَّبّانيَّة والعناية الإلهيَّة

نكتة التَّعبير بمفردة ﴿تَنزِيلٌ﴾ صيغة ومادَّة:

في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، جاءت كلمة تنزيل بصيغة (تفعيل)، وهذه الصّيغة تدلُّ على التَّدرُّج والتَّتابع في الإنزال، لا على الدَّفعة الواحدة، أي: وصوله إليكم بالتَّدريج بحسب الوقائع والتَّقريب للأفهام والتَّأنّي والتَّرقية من حال إلى حال وحكم بواسطة الرُّسل من الملائكة[1]؛ لتُحاكي بذلك الواقع التّاريخيَّ لنزول القرآن؛ إذ نزل مُفرَّقًا بحسب الوقائع، مُناسبًا للأحوال، ومُثبِّتًا للفؤاد، كما قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ [الإسراء: 106]، ففي اختيار هذه الصّيغة: إيحاء بالرِّفق واللُّطف: فكأنَّ اللّٰه يُنزِّل رحمته شيئًا فشيئًا على عباده، كما تُنزَّل القطرات على الأرض العطشى، وفيها إشارة إلى العناية المستمرَّة؛ إذ كلُّ إنزالٍ متجدِّدٍ هو عناية جديدة، وهداية متجدِّدة.

جمع حرف الابتداء بين دلالة التَّشريف واختصاص تنزيل القرآن من ربِّ العالمين

نوع ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للابتداء، أي: هو تنزيل صادر من عند ربِّ العالمين لا من غيره، فدلَّ الابتداء على معنى التَّشريف والتَّمجيد، فذكر المصدر الرَّبّانيِّ بلفظ ﴿رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بعد ﴿مِّن﴾ يُضفي على القرآن عظمة وجلالة، ويدلُّ على أنَّه كلامٌ صادر من العليِّ الأعلى، لا من البشر ولا من ملك مقرَّب، وعلى إفادة الاختصاص، فحرف ﴿مِّن﴾ يُفيد القَصر الضِّمنيَّ، والمعنى: لا تنزيل إلّا من ربِّ العالمين، أي: لا يمكن أن يصدر مثل هذا الكلام من أحدٍ غيره سبحانه، لما فيه من الإعجاز والإحاطة بالمعاني العلوية، ففيه ردٌّ على المشكِّكين بافتراء القرآن، واتِّهام سيِّد الخلق بالأخذ عن الكتابيّينَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 426.

توجيه اختيار عنوان الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

اختير في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عنوان (الرُّبوبيَّة) دون (الألوهيَّة)؛ لما في معنى الرَّبِّ من ملاءمة تامَّة للسّياق، وبلاغة مقتضى الحال، ويتجلّى ذلك في موافقة سياق الكلام، فقد تقدَّم ما يدلُّ على معاني الرُّبوبيَّة من الخَلق والتَّكوين والتَّدبير، مثل قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾، وقوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾، ثمَّ خُتِم بالحثِّ على تسبيح الرَّبِّ في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، فكان الأنسب أن يُقال هنا: من ربّ العالمين؛ إذ هو السّياق الَّذي يُظهر سياق الرُّبوبيَّة العامَّة، لا الألوهيَّة الَّتي تتعلَّق بالعبادة خاصَّة.

سرُّ اختيار عنوان الرُّبوبيَّة في (تنزيل من ربّ العالمين) وملاءمته للسّياق

دلالة إضافة ﴿رَّبِّ﴾ للفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

أُضيف لفظ ﴿رَّبِّ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والإضافة بمعنى اللّام، فهي تفيد الاختصاص، أي: ربٌّ للعالمين، ولفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمعٌ لا يُراد به التَّعدُّد فحسب، بل التَّنوُّع والانضواء تحت رعاية واحدة، فالرَّبُّ هنا ربُّ جميع العوالم: عالم الإنس، والجنِّ، والملائكة، والأرض، والسَّماوات، وما لا يُحصى من صنوف الخلق، فالإضافة هنا تفيدُ إحاطة السُّلطان وتفرُّد المُلك، كأنَّها تقول: إنَّ الَّذي أنزل هذا القرآن هو الَّذي لا يخرج شيء من أمره عن ربوبيَّته، وهو ما يُضفي على القرآن طابعًا كونيًّا، وتدلُّ على الشُّمول في التَّربية والإصلاح؛ إذ (الرَّبُّ) هو الَّذي يُربّي، وتربيته لا تقتصر على الخلق الجسمانيِّ، بل تشمل التَّربية الرّوحيَّة والعقليَّة، والقرآن من أعظم مظاهر هذه التَّربية، فهو تنزيل من جهةٍ مربّية، عليمة بما يُصلح العوالم.

التَّركيب الإضافيُّ (ربِّ العالمين) يوحي بالرِّعاية الرَّبّانيَّة للعوالم الكونيَّة

۞ الفروقُ المُعْجَميَّة:

النَّجم والكوكب:

(النَّجم) في أصل الوضع اللُّغويِّ، يُطلَق على كلِّ جرمٍ سماويٍّ

النَّجم جرمٌ سماويٌّ مشعٌّ بذاته، والكوكب جرمٌ معتمٌ في جوهرِه

يُضيء بذاته، فهو مشتعلٌ، متوهِّجٌ، تصدر عنه الأنوار من باطن تكوينه، لا يحتاج إلى غيره ليظهر للنّاظر، بل هو منبع النّور لا مستقبله؛ ولذلك ارتبط في معجم اللُّغة بالطُّلوع[1]، والبروز، والإشعاع الذّاتيِّ، فالنَّجم إذًا جسم سماويٌّ مشعٌّ بذاته، دائم التَّوهُّج، ويُرى من تلقاء نفسه دون عونٍ من مصدرٍ آخر.

أمّا (الكوكب)؛ فلفظ بُدئ بكاف زائدة، وأصله (وكب)[2]، وهو يدلُّ في الاستعمال العربيِّ على جرم سماويٍّ غير مشعٍّ بذاته، يستمدُّ نورَه من غيره، وتحديدًا من النَّجم الَّذي يضيء له، ولذا قيل: الكوكب ما لمع ضوؤه، وانعكس إلى العين دون أن يكون مصدرًا للضَّوء، بل هو عاكسٌ للضَّوء لا منشئٌ له، ومن دلالاته المعجميَّة: التَّحرُّك والدَّوران، لا التَّوقُّد والإشعاع، أمّا من ناحية الدَّلالة الصَّوتيَّة والاشتقاقيَّة؛ فالنَّجم يرتبط في اشتقاقه بالجذور الدّالَّة على الظُّهور والانبثاق، أمّا الكوكب؛ فمأخوذ من الحركة والانقِلاب، وربَّما التَّداخل أو الانكدار.

فالنَّجم إذًا هو الجرم السَّماويُّ المشتعلُ بنفسه، يبعث نورًا بذاته، ويُمثِّل طاقةً فيزيائيَّةً عظيمة، بينما الكوكب جرمٌ سماويٌّ معتمٌ في جوهره، يعكس ضوءًا خارجيًّا، وتختلف صفاتُه وظيفيًّا عن النَّجم.

---

(1) الراغب، المفردات، ص: 791.

(2) ابن سيده، إعراب القرآن: 4/ 41.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧﴾ [الواقعة: 81 - 87]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من خطاب العقلِ إلى تقريع الأنفس وتوبيخ الغافلين

لمّا ذكرت الآيات السّابقة أوجه الاستدلال على البعث، بما خلقه اللّه تعالى لعباده من النِّعم النَّباتيَّة والمائيَّة والنّاريَّة، ثمَّ ذكر القرآن العظيم، وما فيه من الشَّرف والمكانة الرَّفيعة؛ ناسب الانتقال إلى خطاب المشركين؛ لزجرهم عمّا هم فيه من المداهنة، والكذب، فناسب تهديدهم باقتراب الأجل المحتوم، ونزول الموت القريب، فجاء توبيخهم ببيان قُبح موقفهم، ومقابلة نِعَم اللّه بالجحود، فهو انتقالٌ من خطاب العقول للاستدلال على البعث، إلى خطاب الأنفس بالتَّوبيخ والتَّقريع، فمن لم تنفعه إشارة العقل؛ ضربه سوط التَّقريع.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾: جذر الكلمة (دهن)، وهو ما يدلُّ في اللُّغة على اللّينِ والطّيبِ والنُّعومة الظّاهرة، والدُّهنُ من المَطَر: قدرُ ما يَبُلُّ وجهَ الأرضِ[1]، والإدهانُ: اللّينُ والمُصانَعةُ، قال اللّه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩﴾ [القلم: 9][2]، ومنه الدُّهن الَّذي يُطلى به الجلد أو الثَّوب أو الحديد، فتزول خشونته، ويظهر بمظهر البهاء.

2) ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾: الحُلقوم مأخوذ من الجذر (حلق)، وهو ما يدلُّ

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (دهن).
(2) الخليل، العين: (دهن).

في اللُّغة على مجرى الطَّعام والنَّفَس من الحنجرة إلى الفم، وهو أعلى مدخل الحلق، وأقرب مواضع الجهاز التَّنفُّسيِّ إلى ظاهر الوجه، والحلقوم: كالحلق (فعلوم) عند الخليل، و(فعلول) عند غيره[1].

ولفظ ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ ورد في القرآن في هذا الموضع وحده؛ ليُصوِّر اللَّحظة الدَّقيقة الَّتي تتوقَّف فيها حركة الإرادة، وتفلت النَّفس من سلطان الجسد، ويتحوَّل الإنسان إلى مخلوقٍ ناظرٍ لا فاعلٍ، حاضرٍ لا متصرِّف.

3) ﴿مَدِينِينَ﴾: الكلمة مأخوذة من الجذر (دين)، الَّذي تدور معانيه حول الجزاء، والمحاسبة، والخضوع، والانقياد، وجمع الدَّين دُيون، وكلُّ شيءٍ لم يكن حاضرًا فهو دَينٌ[2]، وأدَنتُ فلانًا أدينُه، أي: أعطيتُه دَينًا، ورجلٌ مَديون: قد رَكِبَه دَينٌ، ومَدينٌ أجوَدُ[3].

و(مَدين) على هذا، هو مَنْ خوطب بالحساب، أو خضع لسلطةٍ تُحاسبه، أو جُعل تحت سلطانٍ يُجزيه، فهو إمّا مَدينٌ بالذَّنب، أي: مَجزيٌّ عليه، أو مَدينٌ بالحكم، أي: خاضعٌ لسلطان من فوقه.

المَعنى الإجماليُّ:

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، أي: أفتُسايرون هذا الوحي، وتُهَوِّنون أمره، وتُظهرون اللّين والتَّأجيل حياله، كأن لا وزن له ولا وجوب في عنقكم؟ إنَّه استفهامٌ إنكاريٌّ، يوبِّخهم على ضعف موقفهم من القرآن؛ إذ لم يُكذِّبوه صراحة فقط، بل تهاونوا في حقِّه، وتهاونوا في العمل بمقتضاه، قال ابن عطيَّة: أجمع المفسِّرون على أنَّ الآية: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ توبيخ للقائلين في المطر الَّذي يُنزله اللّه رزقًا: هذا بنوء كذا وكذا[4].

ثمَّ زادهم تقريعًا بقوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: بدل أن تشكروا اللّه على رزقه الظّاهر في نِعَم الزَّرع والماء والنّار، قابلتم هذا الفضل بجريمة التَّكذيب،

---

(1) ابن سيده، المحكم، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (حلق).
(2) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم: (دين).
(3) الخليل، العين: (دين).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 222.

وجعلتم ردَّ الفضل بالتَّكذيب دينًا لكم، ثمَّ ينقلهم السّياق إلى مشهدٍ حاسم لا ينفع فيه تردُّد، ولا تقبل فيه مداهنة: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾، أي: هلّا تُرجعون الرّوح؛ إذا بلغت الغاية، وقد عجزتم عن الإمساك بها، ثمَّ يأتي التَّحدّي: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم تظنّون أنَّكم غير خاضعين لحساب، ولا مملوكين لله، فلِمَ لا تردّون الرّوح إلى الجسد؟.

تصعيد الخطاب في ختام السّورة من عرض النِّعم إلـــى تـقـريـع المُنعَّمين

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، هو استفهام إنكاريٌّ توبيخيٌّ[1]، يُراد به نفي الوقوع على وجه التَّقريع والتَّهكُّم، لا مجرَّد الاستفهام الحقيقيِّ، وقد جاء بعد تقرير عظمة القرآن وشرفه، ثمَّ أعقب ذلك بهذا الاستفهام؛ ليدلَّ على شدَّة التَّباين بين عظمة المُنَزَّل وبين موقفهم منه.

إنــكــارُ وقــوع المداهنة بالحقِّ وتــقــريــع من استسهل ذلك

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ هي فاء التَّفريع على ما سيق لأجله الكلام الَّذي قبلها في غرضه من التَّنويه بشأن القرآن، وهو الَّذي بحذو الفاء، أو من إثبات البعث والجزاء، وهو الَّذي حواه معظم السّورة، وكان التَّنويه بالقرآن من مسبِّباته، وأطبق المفسِّرون - عدا الفخر - على أنَّ اسم الإشارة وبيانه بقوله: فبهذا الحديث مشيرًا إلى القرآن لمناسبة الانتقال من التَّنويه بشأنه إلى الإنكار على المكذِّبين به، فالتَّفريع على قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾[2].

تـفـريـع المعاني الـجـزئـيَّـة على السّوابق الكلّيَّة تـرابـطٌ أسلوبيٌّ واتِّحاد دلاليٌّ

---

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 28/ 425.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 337.

نوع الباء ودلالتها:

الـقـرآن سبب الإيمانِ لا سبب الإدهان

الباء في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ للسببيَّة، والمعنى: أفيكون هذا القرآن - مع ما فيه من الوضوح والعلوِّ والعظمة والتَّنزيل من ربِّ العالمين - هو ما تدهنون فيه؟ أي: أتجعلونه موضع مجاملة وتكذيب وتخفيف حتَّى لا تصطدموا بأهواء قوم أو مصالح دنيا؟ فكأنَّ القرآن هو سبب الإدهان، والأصل أن يكون سبب الإيمان.

دلالة استعمال اسم الإشارة للقريب (هذا):

المُداهن الغافل يستحضر معاني الـقـرآن ماثلة أمـامـه، وهـو شديد المباغضة

استعمال اسم الإشارة (هذا)، في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، يُفيد أنَّه حاضر بين أيديهم، معلوم لديهم، لا غموض فيه ولا خفاء، ومع ذلك يُداهنون بشأنه، ويعرضون عنه، وهو ما يزيد توبيخهم وتقريعهم، وفي هذا التَّعبير شيء من التَّهكُّم على موقفهم؛ لأنَّهم يتعاملون مع حديث بهذه العظمة - بعد أن بُيِّن أنَّه تنزيل من ربِّ العالمين، محفوظ في كتاب مكنون، لا يَمَسُّهُ إلّا المُطَهَّرونَ - كما لو كان حديثًا عاديًّا يُداهَن فيه، أو يُكذَّب به، فاسم الإشارة هنا يُبرز شدَّة المفارقة بين قدر القرآن العظيم وبين استخفافهم به، ويُصوِّر الحالة النَّفسيَّة الَّتي بلغوا إليها من الجحود.

بلاغة العدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة:

الـعـدول عن الإضـمـار إلى اسـم الإشـارة لـلـتَّـعـظـيـم والتَّقريع

العدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، يحمل بلاغةً دقيقة تؤدّي معانيَ لا يوصل إليها الضَّمير وحده، فاسم الإشارة يستدعي التَّنبيه والإشارة الحسّيَّة، وهو أقوى في الحضور الذِّهنيِّ من الضَّمير؛ لأنَّ الضَّمير يعود على معلوم، بينما اسم الإشارة يُبرز المشار إليه، ويُفرده بالذِّكر، وفي هذا الموضع، أراد السّياق إبراز عظمة القرآن في مقابل استهانة المكذِّبين به، فجاء العدول البلاغيُّ؛ ليُعرّي موقفهم، ويُقبِّح صنيعهم؛ إذ كيف يُداهَن في أمرٍ كهذا الحديث الجليل؟ وكيف

يُتَّخذُ موضعُ التَّوكيد والمدح والتَّفخيم موضعَ مداهنة ومسايرة؟ فكان في اختيار اسم الإشارة تنويهٌ بالقرآن، وزيادة في التَّعريض على المخاطَبين[1].

تعيين مرجع اسم الإشارة:

اسم الإشارة يرجع إلى جملة القرآن لا إلى بعض أجزائه

أجمع جمهور المفسِّرين على أنَّ اسم الإشارة عائد على القرآن نفسه، وأنَّ المراد بـ ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ هو ما سبق وصفه بأنَّه (قرآن كريم)، وأمّا الفخر الرّازيُّ؛ فقد انفرد برأي مخالف؛ إذ رأى أنَّ الإشارة عائدة إلى ما صدر من المكذِّبين من قولهم: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾، فزعم أنَّ الحديث المشار إليه هو أقوالهم، وأنَّ "المداهنة" كانت لترضية بعضهم بعضًا بهذا الباطل، لا تجاه القرآن، إلّا أنَّ هذا الرَّأي مرجوح؛ إذ لا يناسب السّياق الَّذي يتحدَّث عن عظمة القرآن، ويُتابع في الرَّدِّ على من كذَّب به، فالمقام مقام تعظيم للحديث الإلهيِّ، لا للحديث البشريِّ، ولهذا، فإنَّ البلاغة في العدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة هي بلاغة توكيد وتعظيم وتنبيه، تُؤدّي وظيفة مقصودة في سياق بيان تقصير المكذِّبين، وتزيد النَّصَّ إشراقًا وقوَّة في الحُجَّة والبيان[2].

غرض اختيار لفظ ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾:

توبيخ المخاطَبين وإحداث التَّأثير السَّمعيِّ

في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، جاء اختيار لفظ ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ بدلًا من (القرآن)، مع أنَّ السّياق السّابق كان يُمهِّد لعظمة القرآن الكريم؛ لحكمة بليغة تتَّصل بطبيعة الخطاب والغاية البلاغيَّة منه، فإنَّ في العدول إلى ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ - مع كونه يُعبِّر عن ذات الكتاب المُنزَّل - تنبيهًا إلى أثره في الأسماع، وطبيعته في التَّلقّي البشريِّ، فهو في ظاهر شأنه حديث يُتلى، وكلام يُسمع، ممّا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 337.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 435.

يُفترض أن يكون موضع إصغاء واعتبار وتأثُّر، لكنَّهم على النَّقيض لم يقابلوه بالتَّلقّي والتَّوقير، بل قابلوا هذا ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ بالإعراض والمداهنة، فجاء التَّعبير به لا ليهوِّن من شأنه، بل ليوبِّخهم من حيث ما يُنتظر منهم من فطرة السَّمع والتَّأثُّر بالكلام البيِّن، ففي استعمال ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ نوع من التَّهويل التَّوبيخيِّ؛ إذ يُسأل القوم: أبهذا الحديث العظيم الَّذي تُنذَرون به، وتُذكَّرون، وتُحذَّرون، يكون منكم الإدهان؟.

بلاغة التَّعريف بـ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾:

بلاغة التَّعريف بـلام العهد لإحكام الحجَّة وتعظيم شأن القرآن

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ جاء بلام العهد[1]، وهو يفيد أنَّ المشار إليه حديث معروف ومعلوم للمخاطَبين، لا خفاء به ولا اشتباه، وهو القرآن الكريم الَّذي سبق ذكره في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾.... ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فالتَّعريف هنا يحمل قوَّة الحُجَّة؛ إذ يوجِّه لهم الإنكار على تقصيرهم في حقِّ شيء معروف لهم حقَّ المعرفة، لا يُعذَرون في الجهل به أو التَّوقُّف عنده.

والتَّعبير بـ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ معرَّفًا يُفيد أيضًا في هذا الموضع تعظيم شأنه من جهة، والتَّقريع من جهة أخرى؛ لأنَّ الحديث إذا عُرِّف؛ صار أرسخ في الذِّهن، وألزم في الحُجَّة، والمعنى: هذا هو الحديث الَّذي لا حديث فوقه، ولا بيان بعده، فكيف يُداهَن فيه، أو يُكذَّب به؟.

بلاغة تقديم الجار والمجرور على الاسميَّة:

تقوية معنى التَّقريع والتَّوبيخ بأن يكون الإدهان لهذا الحديث

في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، جاء تقديم الجار والمجرور (بهذا الحديث) على الاسم ﴿أَنتُم﴾ والمسند ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾، على خلاف مقتضى الأصل في التَّركيب؛ إذ كان مقتضى التَّرتيب الظَّاهر أن يُقال: (أفأنتُم مُدهِنونَ بهذا الحديث)، وفي هذا التَّقديم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 338.

توجيه مقصود يُراد به تعيين موضع الإنكار وتغليظ النَّكير، فقد أُريد تسليط الإنكار على كون الإدهان واقعًا في حقِّ هذا ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ لا في غيره، فكأنَّما يُلقى السُّؤال - في معرض التَّوبيخ - عن أمر عجيب: أبهذا الحديث العظيم، الَّذي عُرِف قدره، وارتفع ذكره، وبلغ من العظمة أن يُقسم الله بمواقع نجومه، ويصفه بأنَّه (قرآن كريم)، و﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أتجعلونه أنتم موضع المداراة والتَّساهل؟.

فائدة الجملة الاسميَّة ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾:

المدهنون ثابتون في المراوغة مستقرّون في مستنقع الاستخفاف بالحقِّ

الجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾؛ جاءت لتفيد الثُّبوت والاستمرار[1]، وهي في مقام التَّوبيخ والإنكار، فجاء الأسلوب أقوى وأرسخ ممّا لو قيل: (أفتدهنون بهذا الحديث؟)؛ إذ إنَّ الجملة الاسميَّة تُفيد أنَّ حالهم هذا ليس طارئًا ولا عابرًا، بل هو أمر مستقرٌّ في نفوسهم، متمكِّن من سلوكهم، فهُم قد جعلوا الإدهان والتَّهاون والتَّنازل عن الحقِّ شأنًا ثابتًا لهم مع هذا الحديث العظيم.

وقد جاء ذكر ﴿أَنتُم﴾ ظاهرًا في الجملة لا مستترًا؛ ليدلَّ على التَّخصيص والتَّقريع، أي: أنتم بالذّات، دون غيركم، مَن يقف هذا الموقف الشّائن من القرآن، وكأنَّ في ذلك تعريةً لموقفهم على رؤوس الأشهاد، زيادة في التَّوبيخ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ مادّة وصيغة:

المداهنةُ مأخوذة من الدَّهن الَّذي هو للمداهن كالدُّهن للجسد

جاء اختيار لفظ ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾؛ لما فيه من دقَّة في كشف حال المخاطَبين، فـ(الإدهان) في أصل مادَّته (دهن) يدلُّ على التَّليين والتَّغطية[2]، ثمَّ استُعمِل مجازًا في المداراة والمسايرة مع كتمان الحقِّ، لا عن اقتناع، بل اتقاءً للشِّدَّة أو طلبًا للسَّلامة، فدلَّ على أنَّ القوم لا يرفضون القرآن صراحة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 339.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 429.

بل يداورون ويلوِّنون موقفهم منه، والمداهنة مأخوذة من الدَّهن، فكأنَّ المداهنة جزء من ذواتهم، كالدُّهن جزء من الأبدان، ويُرشِّح معنى الرُّسوخ مجيئها بصيغة اسم الفاعل ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ لا بالفعل؛ للدَّلالة على الرُّسوخ والثَّبات، أي: إنَّ الإدهان صار سمةً لهم، لا فعلًا عارضًا، وهذه الصّيغة تصفهم بوصفٍ مستمرٍّ، فاضحٍ لحالهم، لا مجرَّد موقف عابر.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ﴾:

العطف بالواو للجمع بين جريمتي الإدهان والتَّكذيب في آن

في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، جاء العطف بـ(الواو) في ﴿وَتَجۡعَلُونَ﴾، فجملة: (تجعلون) في محلِّ رفع معطوفة على الخبر (مدهنون)[1]، وهذا ما جرى عليه المفسِّرون، فتكون هذه الجملة عطفًا على جملة: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ عطفَ الجملة على الجملة، فتكون داخلة في حيِّز الاستفهام ومستقلَّة بمعناها، والمعنى: أفتجعلون رزقكم أنَّكم تكذِّبون[2]؛ ليفيد الجمع بين حالتين متلازمتين في موقفهم من الوحي، فالإدهان من جهة، والتَّكذيب من جهة أخرى، لا على سبيل التَّرتيب أو التَّدرُّج، بل على وجه الجمع بين جريمتين متكاملتين، تكشف كلُّ واحدة منهما جانبًا من الانحراف.

فجاء العطف لا ليفصل بين الفعلين، بل ليُظهر التَّضادَّ بين حقِّ النِّعمة وسوء المقابلة، والمعنى: أنتم تدهنون في حقِّ القرآن، وتكذِّبون به مع أنَّه مصدر رزقكم، فكأنَّما جُمعت المداهنة والتَّكذيب في سياق واحد لتُدين سلوكًا مركَّبًا، ظاهره اللّيونة وباطنه الجحود.

نوع الجعل في قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، جاء فعل

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 27/ 130.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 339.

(تجعلون) من باب الجعل القلبيِّ الاعتقاديِّ، لا الجعل الإنشائيِّ أو التَّحويليِّ، والفعل (جعل) من أفعال القلوب، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزّخرف: 19]، أي: ظنّوهم، واعتقدوهم[1]، فهو من جعل القلوب لا جعل الأعيان، أي: هو جعْلٌ معنويٌّ يُصوِّر ما استقرَّ في نفوسهم من فساد في القصد واضطراب في القيم، فجعلوا التَّكذيب هو الشُّكر، والكفر هو الجزاء، والافتراء هو التَّقدير.

نسبة الرِّزق إلى غير الله تعالى تصييرٌ اعتقاديٌّ وتحويلٌ وجدانيٌّ عن الحقِّ إلى الباطل

وقد اختير هذا الفعل لما فيه من معنى التَّمكين والتَّرتيب القصديِّ؛ إذ ليس مجرَّد صدور فعل التَّكذيب منهم، بل جُعِلَ له المقام، ورُتِّبت له المنزلة، حتَّى صار عندهم بمنزلة ما يُقابل الرِّزق، أو يُقابل الشُّكر على الرِّزق، فكأنَّ الآية تقول: بدل أن تجعلوا حظَّكم من النِّعمة هو الاعتراف بالمنعِم، شكرًا أو إيمانًا؛ إذا بكم تجعلونه التَّكذيب، وهو أشنع ما يكون من صرف النِّعمة عن وجهها.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع (تجعلون):

في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، جاء التَّعبير بالفعل المضارع (تجعلون) لا الماضي؛ لما في المضارع من دلالة على الاستمرار والتَّجدُّد؛ لأنَّه يدلُّ على الحال والاستقبال[2]، ففعلهم لا ينقطع، بل هو دَيدَنٌ قائم، وسلوك متكرِّر، لا حادثة عارضة، فهو يُصوِّر حالًا راسخة في نفوسهم، لا فعلًا جزئيًّا وقع، وانقضى.

من وأدَ الحقَّ بالباطل؛ اقترب من الرُّسوخ في التَّكذيب والثَّبات على الافتراء

والمضارع يرسم ملامح حركة زمنيَّة حاضرة مستمرَّة، فيها تجدُّد التَّكذيب مع تجدُّد النِّعمة، كلَّما رُزقوا نعمةً من الله؛ قابلوها بجحود، وكلَّما جاءهم ذكر من الرَّحمن؛ واجهوه بالتَّكذيب والمكابرة، فكأنَّ تكذيبهم رزقهم الدّائم، وشكرهم المستمرُّ.

(1) ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك: 1/ 150.
(2) المُبرِّد، المُقتضب: 2/ 2.

بلاغة المجاز بالحذف في قوله: ﴿رِزۡقَكُمۡ﴾:

بلاغة حذف المضاف في (رزقكم) وإقامة الاسم مقام المعنى لتغليظ التَّقريع

في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ مجاز بالحذف، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ إذ أُقيم المسبَّب مقام السَّبب، أو المفعول مقام الفاعل، على وجه من البلاغة الدَّقيقة، فالمراد ليس (جعل الرِّزق نفسه) تكذيبًا، بل جعل مقابل الرِّزق، أي: شكر الرِّزق وثمرته ومعناه، هو التَّكذيب، والتَّقدير: وتجعلون شكر رزقكم[1]، أي: وضعتم التَّكذيب موضع الشُّكر، قيل: نزلت في الأنواء ونسبتهم السُّقيا إليها، والرِّزق: المطر، يعني: وتجعلون شكر ما يرزقكم اللّه من الغيث أنَّكم تكذِّبون بكونه من اللّه؛ إذ تنسبونه إلى النُّجوم[2].

دلالة إضافة الرِّزق إلى الضَّمير:

بلاغة إضافة (الرِّزق) إلى المخاطَبين في (رزقكم)؛ للكشف عن توهُّم التَّملُّك وتعميق التَّوبيخ

في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، جاءت إضافة (الرِّزق) إلى ضمير المخاطَبين: ﴿رِزۡقَكُمۡ﴾، بمعنى اللّام، أي: الرِّزق الَّذي جعله اللّه لكم، فتنتفعون به؛ لتشكروه، فالإضافة هنا تُقرِّر ما يظنُّه القوم لأنفسهم، لا ما هو الحقُّ في نفسه؛ لأنَّهم حين نسبوا النِّعمة إليهم، وظنّوا أنَّ الرِّزق حظٌّ ذاتيٌّ، أو كسب مستقلٌّ، ولم يربطوه بالمنعِم، ولم يُقرّوا بفضل الواهب، فالآية تُكلِّمهم على قدر ما يعتقدون: أنتم تعدّون هذا الرِّزق رزقكم، شيئًا يخصُّكم، ويدور عليكم، فكان الأليق بكم أن تشكروه، لا أن تجعلوا مقابلته التَّكذيب.

دلالة ذكر التَّكذيب بالحديث لا الكفر به:

في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، عُبِّر بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ بدلًا من (تكفرون)؛ لأنَّ التَّكذيب أخصُّ وأشدُّ؛ إذ يدلُّ على جحود متعمَّد للحقِّ بعد ظهوره، لا مجرَّد إنكار عن جهل،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 425.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 468.

التَّكذيبُ مبدأ الكفرِ ومظهر الكفران ومضيعة الحقِّ وسبيل الخسران

وهو أنسب للسّياق؛ إذ جاء بعد بيان عظمة القرآن ووصفه بـ(قرآن كريم) و﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فكان المتوقَّع التَّصديق، فإذا بهم يُكذِّبون، فناسب أن يُؤخذوا بأقبح وجوه الرَّدِّ.

كما أنَّ التَّكذيب هو اللَّفظ الملائم مع ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾؛ لأنَّ الحديث يُقابَل بالتَّصديق أو التَّكذيب، لا بالكفر والإيمان، فجاء التَّعبير دقيقًا في تصوير موقفهم، لا من جهة العقيدة فقط، بل من جهة السُّلوك العمليِّ الماكر المتعمد لردِّ الوحي، فقوله: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، تقولون: أُمطِرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا، وأكثر الرِّوايات أنَّ قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ نزل في القائلين: مُطِرنا بنوء كذا[1].

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تُكَذِّبُونَ﴾:

المضارع يُصوِّر خفايا النُّفوس، ويفضح نيّات القلوب

في قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، جاء الفعل بصيغة المضارع لا الماضي؛ لما في ذلك من دلالة على الاستمرار والتَّجدُّد؛ لدلالته على الحال والاستقبال[2]، فتكذيبهم بالقرآن ليس فعلًا مضى، وانقضى، بل هو عادة متكرِّرة، وسلوك دائم، يجري على ألسنتهم، ويتكرَّر في مواقفهم، ولو صدر عنهم مرَّة واحدة، ولم يرجعوا عنه، فهُم مستمرّون فيه، بتجدُّد اعتقاد الباطل، وتثبيت عرى النُّكران.

وهذا الاختيار البلاغيُّ يصوِّرهم في حالٍ من الثَّبات على الجحود، لا ينقطعون عنه، فكأنَّهم كلَّما سمعوا الذِّكر، قابلوه بتكذيب جديد، حتَّى صار دأبهم ومقامهم، فالمضارع هنا لا يصف زمنًا فقط، بل يكشف طبيعة نفوسهم المستمرَّة في ردِّ الحقِّ، ويجعل جرمهم حيًّا متجدِّدًا لا يُمحى.

---

(1) أخرج مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: "مُطِر الناس على عهد رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر»، قالوا: هذه رحمة وضعها الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، فنزلت هذه الآية: ﴿۞فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾"، صحيح مسلم، حديث رقم: (73).

(2) الزّمخشريّ، المفصّل: 2/ 137.

غرض التَّعبير بصيغة التَّضعيف ﴿تُكَذِّبُونَ﴾:

التَّكذيب حالٌ مصاحبٌ للكافر وسمةٌ راسخةٌ في المنافق

في قوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، جاء التَّعبير بصيغة التَّضعيف (تُفَعِّلون) من البناء (كذَّب)، لا بصيغة (تكذبون) الخفيفة؛ لما في التَّضعيف من دلالة بلاغيَّة أبلغ وأعمق، فالفعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ - بصيغته المشدَّدة - يدلُّ على المبالغة والتَّكرار والتَّمادي، لا على مجرَّد حصول الفعل مرَّةً أو على وجه العفويَّة، كما أنَّ التَّكذيب هو فيما يخصُّ الآخرين، بينما الكذب فهو الصّادر عن الكاذب، ففرقٌ بين مكذِّبٍ غيرَه، وكاذب.

غرض حذف المتعلِّق بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾:

مـن كـذَّب بـالـحـقِّ؛ فهو لـكـلِّ صـدق مكذِّب

حُذِف المتعلِّق بفعل التَّكذيبِ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، فجاء مطلقًا خاليًا من التَّقييد؛ وذلك للإيجاز في إرادة التَّهويل والتَّعميم معًا، ثمَّ إنَّ ترك الفعل دون مفعول يوسِّع دائرته، فيدلُّ على أنَّ تكذيبهم لا يقتصر على الحديث وحده، بل يشمل ما هو أوسع من ذلك: يكذِّبون بالقرآن، وبالنَّذير، وبالرَّسول، وبالبعث، وبآيات اللّه، بل ربَّما كذَّبوا بالحق؛ كلَّما جاءهم، أيًّا كان مصدره، أو لتنزيل المتعدّي منزلة اللّازم، وذلك لقصد إثبات الفعل في ذاته للفاعل[1]، فسلوكهم التَّكذيب.

نوع الفاء ودلالتها:

بلاغة الفاء التَّعقيبيَّة في (فَلَولا إذا بَلَغتِ الحُلقومَ)، ودلالتها على السَّببيَّة والتَّحدّي

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ متفرِّعة على ما قبلها من ذِكر مداهنتهم بالقرآن وتكذيبهم به، "فالتَّفريع على جملة: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وهو أنَّ عجزهم عن إرجاع الرّوح عند مفارقتها الجسد ينبِّهُهم على أنَّ تلك المفارقة مقدَّرة في نظام الخلقة، وأنَّها لحكمة"[2].

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 98.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 342.

والمعنى: فإذا كنتم تكذِّبون، وتدَّعون أنَّ ما يُتلى عليكم ليس من عند اللّه، وأنَّه باطل لا حقَّ له عليكم، فلمَ لا تُظهرون قدرتكم عند النِّزاع، حين تبلغ الرّوح الحلقوم؟ وانتزاع أرواحكم منكم قهرًا، فالفاء إذًا تكشف مقام التَّحدّي، فهي لا تفيد مجرَّد الانتقال، بل تُظهر أنَّ ما بعدها نتيجة لازمة لما قبلها من التَّكذيب، على وجه التَّوبيخ والإنكار عليهم[1].

فائدة استعمال حرف التَّحضيض:

توبيخُ المخاطَبين وإلزامهم الحجَّة بأمرٍ ينزل عليهم، فلا يستطيعون منه مهربًا

أداة (لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، للتَّحضيض والامتناع - لتدلَّ على توبيخ في صورة تحضيضٍ ساخر، فهي لا تحثُّهم حقيقةً، بل تحثُّهم تعجيزًا وتقريعًا[2]، كأنَّها تقول: هلّا أظهرتم قدرتكم حين بلغت الرّوح الحلقوم؟ إن كنتم كما تزعمون في تكذيبكم، أنَّكم تملكون أمركم، وتتحكَّمون في مصيركم؟.

فـ(لولا) هنا ليست تحضيضًا خالصًا، كما في مقام الطَّلب الصّادق، بل هي تحضيضٌ يُراد به الإفحام والإلزام؛ لأنَّ المقام مقام تحدٍّ لا تعليم، وقد سبقتها فاء التَّفريع الَّتي نقلت الحديث من وصف حالهم في التَّكذيب إلى مشهد النِّزاع عند الموت؛ لتُقابل ادِّعاءهم بالواقع القاهر، ثمَّ إنَّ هذا التَّحضيض يُضمر إنكارًا، لِمَ لم تردّوا الرّوح، وتمنعوا الموت؛ إذا كنتم صادقين في دعواكم؟ فأداة (لولا) تقوم مقام الاحتجاج الحيِّ، وتقيم الحجَّة من مشهدٍ لا يستطيع أحدهم إنكاره أو دفعه، وهو مشهد الموت حين يُعجز فيه البشر، ويظهر ضعفهم ظاهرًا لا يُجادَل فيه.

دلالة استعمال ﴿إِذَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، جاء استعمال ﴿إِذَا﴾

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 342.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 427.

نزول الموتِ حتمٌ لازم ودفعه مُحال جازم

بدلًا من (إن)؛ لما في (إذا) من دلالة على التَّحقيق والوقوع الثّابت، بخلاف (إن) الَّتي يُؤتى بها غالبًا في مقام الشَّكِّ أو الفرض[1].

فـ(إذا) ظرف يُستعمَل في الوقائع المحقَّقة المنتظرة أو المتكرِّرة، والمقام هنا يتحدَّث عن موتٍ محتوم لا يُنكَر وقوعه[2]، فهو ليس أمرًا محتملًا حتَّى يُعبِّر عنه بـ(إن)، بل هو واقع مشهود، يُرى عند كلِّ محتضر، ويُعاين عند كلِّ خروج روح، فلا شكَّ فيه ولا في مجيئه؛ لهذا كان استعمال ﴿إِذَا﴾ أبلغ وأوقع؛ لأنَّه يضع المخاطَبين في مواجهة مباشرة مع لحظةٍ لا يستطيعون دفعها، فهي آتية حتمًا، وشهودها قائم فيهم، فكأنَّ الكلام يقول لهم: هلّا أظهرتم سلطانكم عند وقوع هذا الحدث المحقَّق؟ لا عند فرضٍ بعيدٍ أو غيبٍ مجهول؟.

نكتة تقديم ﴿إِذَا﴾ الَّتي هي معمول ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾:

تهويل المشهد وتشويق السّامع قبل التَّحدّي المختلط بالوعيد القريب

في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، جاءت ﴿إِذَا﴾ متقدِّمة في الظّاهر، وهي في الأصل معمول للفعل المتأخِّر ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، والتقدير: (فلولا ترجعونها؛ إذا بلغت الحلقوم)، ولكنَّ تقديم الظَّرف هنا ليس على خلاف النَّظم فحسب، بل هو من أدقِّ نُكَت البلاغة القرآنيَّة، فقوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ ظرف متعلِّق بـ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ مقدَّم عليه لتهويله والتَّشويق إلى الفعل المحضوض عليه[3]، وهذا التَّقديم يفيد أوَّلًا التَّشويق والتَّعليق الذِّهنيَّ[4]؛ إذ يُعلِّق السّامع بما سيحدث عند هذه اللَّحظة الحرجة، لحظة بلوغ الرّوح الحلقوم، وهي لحظة مشهودة عظيمة الرَّهبة، فكان في تقديم الظَّرف تصوير لمشهد الموت قبل طرح التَّحدّي، ممّا يُهيّئ النَّفس لقبول الحجَّة، وينقلها من مقام النَّظر العقليِّ إلى مشهد الحسِّ العينيِّ،

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 9/ 4.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 343.
(4) حسن طبل، علم المعاني، ص: 129.

وهو يُضفي على السّياق ثانيًا جوًّا ثقيلًا ضاغطًا؛ إذ يجعل لحظة النّـزاع كأنَّها المفتاح الَّذي يُبنى عليه التَّحدّي والعتاب، فبدأ بها قبل أن يُطرح الطَّلب المستحيل: ﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، فكان التَّعبير: فلولا إذا بلغت الحلقوم؛ ترجعونها، أشدَّ وقعًا من: فلولا ترجعونها؛ إذا بلغت.

بلاغة استعمال مفردة ﴿بَلَغَتِ﴾:

بـلـوغُ الـرّوح الحلقومَ تنهيةٌ في مشهدِ الحياة الرَّتيبة وتصوير الموتة البليغة

جاء اختيار الفعل ﴿بَلَغَتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، بدلًا من نحو: (وصلت)، أو (أتت)، أو (حضرت)؛ لما في مفردة (البلوغ) من دلالة بلاغيَّة دقيقة، تُناسب المقام، وتُجسِّد اللَّحظة بأقصى درجات التَّوتُّر والرُّعب، فـ(بلغت) في أصل معناها تدلُّ على الوصول إلى غايةٍ نهائيَّة بعد مسير أو تقدُّم تدريجيٍّ[1]، ومن هنا كانت أنسب الألفاظ للتَّعبير عن الرّوح حين تبلغ من الجسد أقصى ما يمكن أن تبلغه في طريق خروجها، وهو الحلقوم، فهي لا تزال في الجسد، لكنَّها وصلت إلى حدِّ المغادرة؛ إذ لا بقاء بعدها ولا رجوع، وفي هذا الفعل ملمحٌ آخر: إذ يحمل معنى الاحتكاك بالحافَّة، أو الولوج في الخطر، فالرّوح قد قاربت على النَّفاد، فـ﴿بَلَغَتِ﴾ هنا أبلغ من (وصلت)؛ لأنَّ البلوغ يتضمَّن بلوغ حدٍّ مشهود، متوتِّر، تنقطع فيه الحيلة، لا مجرَّد الحضور.

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿بَلَغَتِ﴾:

الرّوح أعزُّ من أن يغفل الإنسان عن إرادتها في سياق التَّهديد

في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، الضَّمير في ﴿بَلَغَتِ﴾ مؤنَّثٌ غائب، وهو عائد في التَّقدير إلى (الرّوح)[2]، وإن لم يُصرِّح بها لفظًا، بل حُذِفت إيجازًا؛ لدلالة السّياق عليها، وهو من أبلغ الحذف البيانيِّ في نظم القرآن؛ ذلك أنَّها تحاكي النَّفس

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 302.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 468.

العزيزة عليها روحها، والمستأثرة بهذه الحياة على الآخرة لأجل تمتيعِ روحٍ فانية.

وقد اسْتُغني عن ذكر الرّوح صراحةً؛ لأنَّ المقام والمشهد يُغنيان عنها، فكلُّ سامعٍ يدرك أنَّ البلوغ إلى الحلقوم إنَّما هو من الرّوح عند مفارقة الجسد، خصوصًا مع ما يتلوه من قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، أي: ترجعون الرّوح، فهي مذكورة بضميرها لا باسمها؛ لتُفاجِئَ النَّفس بوقوع الحدث دون تمهيد، وكأنَّ السّياق يقتحم وجدان السّامع بلحظة حاسمة لا تحتمل التَّفصيل.

بلاغة الاستعارة في فاعل ﴿بَلَغَتِ﴾:

الرّوح تسير في طريق بلوغها الذِّروة في استعارة مكنيَّة تخييليَّة

أُسنِد فعل ﴿بَلَغَتِ﴾ إلى محذوفٍ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، فإنَّ الفاعل المستكنَّ في الفعل ﴿بَلَغَتِ﴾ - وهو ضمير مؤنَّث - عائد إلى (الرّوح)؛ لتصوير أنَّها ذاتٌ فاعلة تمضي نحو غاية محدَّدة، لا مجرَّد نفس تُسحَب، أو تفارق قسرًا.

وهنا تبرز بلاغة الاستعارة في هذا الإسناد، فقد أُسنِد الفعل إلى الرّوح إسنادًا مجازيًّا، لا على الحقيقة؛ إذ إنَّ الرّوح لا تبلغ باختيارها، بل تُقبَض قهرًا، فجَعْلُ الرّوح مجازًا كأنَّها هي الَّتي تسير، وتبلغ، وتقطع المسافة نحو الحلقوم، استعارةٌ تمثِّل لحظة الموت في صورة شيء يتحرَّك بنفسه، ويخترق الجسد حتَّى يصل إلى الحلق، وفي ذلك تشخيصٌ مرهوب لما لا يُرى، وتجسيد لحالة لا تُمسك، والاستعارة مكنيَّة تخييليَّة.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾:

(الـ) للعهد الجنسيِّ واستدعاؤها لمشهد النَّزع المهيب

في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، جاءت (الـ) في لفظ ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾؛ لتعريف هذا الموضع من البدن، وهي على التَّحقيق (الـ) للعهد الجنسيِّ[1].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 344.

وقد اختير هذا التَّعريف للعهد، لا ليدلَّ على الحلقوم بوصفه عضوًا فقط، بل بوصفه المرحلة الحاسمة الَّتي لا يُجاوزها الإنسان إلّا مفارقًا للحياة، فهي ليست لأجل تعريفٍ طبّيٍّ أو وصفيٍّ، بل لأجل استدعاء مشهد معروف ومُهيب في الذِّهن والنَّفس، يُشاهَد عند كلِّ محتضَر، فتغدو (الـ) بوابة إلى صورةٍ مألوفةٍ مرهوبة، لا تحتاج إلى مزيد بيان.

ومن هنا، كانت (الـ) في ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ وسيلة من وسائل الإيجاز البيانيِّ والتَّصوير الذِّهنيِّ، تنقل المخاطَب فورًا إلى مشهدٍ يشهده النّاس، ولا يملكون له دفعًا، فتُسهم في تعميق أثر السّياق، وتؤطِّر لحظة النَّزع بإطارٍ من الهلع والتَّقريع، ممّا ينسجم مع مقام التَّحدّي والتَّوبيخ في الآيات.

نوع الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ﴾:

ترجمة موقف النّاظرين الأحياء دون قدرةٍ على تدارك بلوغ الرّوح حلقومها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ واو الحال، فهي تُفيد أنَّ الجملة بعدها في موضع الحال من الجملة الَّتي قبلها، أي: من قوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، فكأنَّ المعنى: فلولا إذا بلغت الرّوح الحلقوم، وأنتم في تلك اللَّحظة تنظرون.

ودلالة هذه الواو أعمق من مجرَّد الرَّبط؛ إذ إنَّها تأتي للتَّوكيد والاهتمام[1]، فهي هنا تُسهم في تصوير المشهد البصريِّ المحيط بالحدث؛ إذ الحضور قائمون ينظرون إلى المحتضَر، لكنَّهم عاجزون عن الفعل، مقيَّدون بالبصر، لا بالقدرة، فجاءت الحال مصوِّرةً لمفارقة عجيبة، فالرّوح تُنتزع، وأنتم تنظرون، لكن لا تملكون ردًّا ولا دفعًا.

فهذه الواو الحاليَّة تكشف عن مقام العجز والصَّمت القهريِّ، وتبرز مشهدًا مُفعمًا بالمفارقة، فحضورٌ بلا حيلة، وشهودٌ بلا

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 194.

سلطان، والنَّظر هنا ليس مجرَّد نظر عابر، بل هو نظرٌ متوتِّر، حابس للأنفاس، يُفاقم من وقع الموقف، ويُمهِّد للإنكار الَّذي سيأتي بعده: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾.

فائدة الخطاب بالضَّمير المنفصل (أنتم):

وظيفة الضَّمير في إبراز التَّوبيخ وتخصيص العجز بالمخاطَبين

في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، جاء استعمال الضَّمير المنفصل (أنتم) مع أنَّ الجملة تُفهم بدونه، فلم يقل: وحينئذٍ تنظرون؛ لأنَّ المراد ليس الإفهام، بل بلاغة الإفهام، فهذا الضَّمير المنفصل جيء به لأجل التَّوكيد والتَّقريع معًا، فحين يقول: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، فكأنَّما يُشير إليهم بأصابع الخطاب، ويقول: أنتم، بأعينكم، بحضوركم، في تلك اللَّحظة، لا غيركم، تشهدون نزع الرّوح، وتنظرون، وتعجزون، وكأنَّ المخاطَب محاصر بحضورٍ ثقيل، لا يمكنه دفعه ولا الإنكار منه، وذكر أبو حيّان النَّحويُّ ﴿وَأَنتُمْ﴾: إشارة إلى جميع البشر(1)، وهذا من الاقتضاب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النِّساء: 29](2).

ثمَّ إنَّ (أنتم) تقيم مقابلة ضمنيَّة مع ما بعدها من قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، فتُرسِّخ الفرق بين نظرٍ لا يُبصر، وقربٍ لا يُدرَك، فأنتم تنظرون، لكن لا تقدرون، ونحن أقرب، لكن لا تبصرون، فكان في الضَّمير تخصيص، وإبراز، وتحقير ضمنيٌّ لموقفهم.

دلالة إضافة الظَّرف إلى الظَّرف في ﴿حِينَئِذٍ﴾:

توكيد الظَّرفيَّة وتزامن العجز مع لحظة النَّزع ترسيخٌ لمفهوم الأجل الثّابت

في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، جاء التَّعبير بتركيب إضافيٍّ بين ظرفين، (حين) و(إذ)، وهذا من أساليب العربيَّة الفصيحة الَّتي تُفيد تحقيق الظَّرفيَّة وتقويتها، وهو أبلغ من الاقتصار على أحد الظَّرفين وحده، فحين ظرف زمان مبهم يكتسب

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 94.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 253.

التَّحديد بالإضافة، و(إذ) ظرف زمان ماضٍ يدلُّ على وقت معيَّن، فجاءت إضافة (حين) إلى (إذ)؛ ليصير معنى العبارة: أنتم في تلك اللَّحظة الحرجة الَّتي تقع؛ إذا بلغت النَّفس الحلقوم، تنظرون عاجزين، لا تملكون فعلًا ولا دفعًا.

وهذا التَّركيب يُفيد التوكيد الزَّمنيَّ الشَّديد، أي: إنَّ الحالة الَّتي تُنكر عليكم لا هي متأخِّرة عن وقت الفعل، ولا هي منفصلة عنه، بل أنتم في ذات الحين الَّذي تموت فيه النَّفس، تكتفون بالنَّظر، بلا حول ولا تدخُّل، فكان في هذه الإضافة بيان لتزامن النَّظرة العاجزة مع بلوغ الغاية المحتومة، وزيادة في إظهار الحُجَّة والضَّعف البشريِّ.

غرض تقديم ﴿حِينَئِذٍ﴾ على المسند ﴿تَنظُرُونَ﴾:

العناية بوقتِ النَّظر تهميش للمخاطَبين وبيانٌ لعجزِهم المطلق

قُدِّم الظَّرف ﴿حِينَئِذٍ﴾ على المسند ﴿تَنظُرُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾، وهو من قبيل تقديم بعض المتعلِّقات بالفعل عليه، وهو إبراز الظَّرف وتوكيد دلالته الزَّمنيَّة؛ ليكون هو محلَّ العناية والتَّصوير في المشهد، لا مجرَّد قيد زمنيٍّ تابع للفعل[1].

فالمعنى المقصود ليس مجرَّد أنَّكم تنظرون، بل أنَّكم في تلك اللَّحظة بعينها - حين تبلغ الرّوح الحلقوم، ويستحكم العجز - تنظرون، وتكتفون بالنَّظر، بلا قدرة ولا تدخُّل، فكان تقديم الظَّرف من باب الاهتمام به، وتعليق المعنى به، وإبراز هوله وهيبته.

وفيه أيضًا إيماء إلى ثبات الحال، فكأنَّكم في تلك اللَّحظة لا شأن لكم سوى النَّظر، لا تملكون غيره، فهو وصف لازِم لكم في ذلك الوقت، وتقديم الظَّرف هنا يُشبه ما يُعبَّر عنه في البلاغة بـ(القصر)، أي: إنَّ فعلكم في هذا الحين لا يتعدّى النَّظر، وهو نظر عاجز حائر لا يملك دفعًا ولا نفعًا.

(1) حسن طَبل، علم المعاني، ص: 132.

نوع التَّنوين في قوله: ﴿حِينَئِذٍ﴾:

تنوين العوض شــكــلٌ مـن الإيجاز مع تمام المعنى

التَّنوين في قوله تعالى: ﴿حِينَئِذٍ﴾ هو تنوين عوض، أي: إنَّه عِوَضٌ عن جملة كانت تُضاف إلى (إذ)، فحُذِفت تلك الجملة، وعوِّض عنها بالتَّنوين، والتَّقدير: (حين إذ تنظرون)، أي: في الوقت الَّذي تنظرون فيه، فحُذفت جملة ﴿تَنظُرُونَ﴾ بعد (إذ)، وأُضيفت (إذ) إلى (حين)، ثمَّ عوِّض عن تلك الجملة المحذوفة بتنوين في (إذ)، على وجه مخصوص في هذا الاستعمال الفصيح.

وهذا النَّوع من التَّنوين لا يُقصَد به تنكير، ولا هو للتَّكثير، بل هو أثر نحويٌّ يدلُّ على الحذف والتَّقدير، والغرض البلاغيُّ منه الإيجاز مع الإبقاء على المعنى، من غير إخلال بدقَّة التَّركيب.

بلاغة مجيء فعل النَّظر مثبتًا والإبصار منفيًّا:

النَّـظـر سـلـوك العين والإبـصار ثمرتها، ولا عبرة بالنَّظر؛ إن لم تصحبه ثمرته

اختيرت مفردة ﴿تَنظُرُونَ﴾ بدلًا من (تبصرون)، في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنَّ النَّظر أعمُّ وأشمل، وهو يُشير إلى مجرَّد توجيه البصر بلا فهم ولا إدراك، بينما الإبصار في الاستعمال القرآنيِّ غالبًا ما يدلُّ على رؤية مصحوبة بتبصُّر وعلم، فالواقع الَّذي أنتم فيه غير الحقيقة الَّتي تحيط بذلك الَّذي تخرج روحه أمامكم، فجاء استعمال ﴿تَنظُرُونَ﴾؛ ليُصوِّر حالهم عند الاحتضار؛ إذ عيون شاخصة، تحدِّق في المشهد، لكن لا فهم، ولا إدراك، ولا تصرُّف.

ثمَّ جاء بعدها قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّهم وإن كانوا ينظرون، فلا يرَون الحقيقة كما هي، ولا يبصرون الغيب المحيط بهم، كاقتراب الملائكة وقضاء الله، فهو تقابل مقصود بين ظاهر النَّظر وعجز البصيرة؛ ليكتمل مشهد العجز والحيرة والانقطاع عن الفعل، ولتُقام عليهم الحُجَّة بأنَّ ما خفي عنهم أعظم ممّا شهدوه بعيونهم.

فالفرق بينهما أنَّ النَّظر بالعين تجاه الشَّيء المشاهد، والإبصار هو معاينته بإدراك حقيقيٍّ فلمّا أثبت النَّظر؛ أثبت لهم الفعل، ولمّا نفى الإبصار؛ نفى عنهم ثمرة النَّظر، فهو كماء لا يروي، وطعام لا يُشبع، وعين لا ترى.

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تَنظُرُونَ﴾:

استحضار مشهد الاحتضار وتصويره حيًّا

التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿تَنظُرُونَ﴾ يُفيد استحضار الصّورة وزمن الحدث، فالمضارع يدلُّ على الحال تنصيصًا؛ وذلك لاقترانه بالظَّرف ﴿حِينَئِذٍ﴾(1)، ففي ذلك تفعيل لوقع المشهد في النَّفس؛ إذ يُرى النّاس بأبصارهم شاخصين، لا يملكون غير النَّظر، في حين أنَّ أمر المحتضَر قد خرج من أيديهم، فالمضارع هنا ليس مجرَّد دلالة زمنيَّة، بل هو أداة تصوير وتهييج، ترسم هيئة العجز في أنصع مشاهدها، فتبلغ الغاية من الزَّجر والتَّذكير.

نكتة حذف المتعلّق بالفعل ﴿تَنظُرُونَ﴾:

نظر الحاضرين إلى مشهد الموت دهشةٌ عميقةٌ وعجزٌ قاهر وحالة ذهول

حُذِف المتعلّق بالفعل ﴿تَنظُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾؛ لعموم النَّظر وتعدُّد جهاته؛ ليشمل كلَّ ما يقع عليه البصر في تلك اللَّحظة، تنظرون إلى المحتضَر، إلى خروج روحه، إلى عجزكم، إلى مصير لا تُمسكونه، ولا تدفعونه، فالحذف هنا إيجاز إيقاعيٌّ مقصود، يُفجِّر المعنى ويوسِّع دلالته، ويحمل معنى التَّلبُّس بالحدث، في تغليب حالة الذُّهول والتَّشتُّت؛ إذ لا يكون النَّظر حينها مركَّزًا على شيء مخصوص، بل هو نظر حائر، مضطرب، ساكن في ظاهره، مضطرب في باطنه، فيتناسق المعنى مع جوِّ المشهد؛ إذ الموت حاضر، وناس ينظرون، ولا يملكون فعلًا ولا توجيهًا ولا قولًا.

نوع الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ في موضع الحال من

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 256.

واو الحال تُظهر المفارقة بين عجز البشر والقدرة الإلهيَّة المطلقة

مفعول ﴿تَنظُرُونَ﴾ المحذوف[1]، والواو فيها هي واو الحال، وهي تفيد أنَّ هذه الجملة وقعت في زمن نظرهم العاجز، أي: وأنتم حينئذٍ تنظرون، والحال نحن أقرب إليه منكم.

ودلالة الواو هنا تكشف المفارقة الصّادمة، أنتم تنظرون، عاجزون لا تملكون ردَّ الرّوح، بينما نحن - أي: الملائكة - بأمر الله أقرب إلى المحتضَر منكم، حضورًا، وتصرُّفًا، وعلمًا، ولكنَّكم لا تبصرون.

فالواو هنا تربط بين حالتين متزامنتين؛ لتُبيِّن البون الشّاسع بين قدرة البشر المحدودة، وحضور القدرة الإلهيَّة الموكَّلة، في لحظة لا يملك فيها الإنسان شيئًا، سوى النَّظر.

فائدة التَّعبير بالضَّمير (نحن):

التَّعبير بالضَّمير (نحن)؛ لإفادة التَّعظيم وشدَّة الإحاطة

جاء التَّعبير بالضَّمير (نحن) في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ بدلًا من الاسم الظّاهر المنبئ عن الغيبة، مثل: (والله أقرب)؛ للإشعارِ بالعظمة والجلال، وبالقرب الذّاتي المستمرِّ، وبالمباشرة الإلهيَّة في التَّصرُّف، من غير توسُّط بشريٍّ، ويُحتَمل أن يكون المراد به الله ﷻ بعظمته وسلطانه، على أسلوب الجمع التَّعظيميِّ، أو ملائكته الموكَّلون بقبض الأرواح، فيكون التَّعبير بهذا الضَّمير أبلغ في تصوير الإحاطة والقرب الإلهيِّ من كلِّ جهة، وهي إحاطة لا تُبصرها الأبصار، وإن كانت أشدَّ حضورًا من شهودهم البصريِّ.

بلاغة الجملة الاسميَّة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾:

القرب الإلهيُّ ثابت مستمرٌّ في جميعِ الأحوال

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ احتراس؛ لبيان أنَّ ثمَّة حضورًا أقرب من حضورهم عند المحتضَر، وهو حضور التَّصريف لأحواله الباطنة[2]، وهذه الجملة الاسميَّة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ جاءت؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 344.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 344.

لإفادة الثَّبات والدَّيمومة، فليست قربًا طارئًا، ولا حضورًا عارضًا، بل هو قرب ثابت مستمرٌّ، لا يفارق الإنسان، خاصَّة في لحظات المصير، وهذا المعنى لا يؤدّيه الفعل وحده، بل تتحقَّق قوَّته باستعمال الجملة الاسميَّة الَّتي تُفيد الرُّسوخ والاستمرار.

فهي جملة قصيرة، لكنَّها تُحدث صدمة بيانيَّة في سياق يصف عجزَ الإنسانِ التّامَّ، وتقابل الجملة الاسميَّة الأخرى في السّياق: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، وكأنَّ المعنى: أنتم تنظرون، ونحن أقرب، أنتم حائرون، ونحن مباشرون، أنتم غافلون، ونحن محيطون.

دلالة اختيار ﴿أَقْرَبُ﴾ مادَّة وصيغة:

في كلِّ لفظٍ دليلٌ على أنَّ القرآن كلامُ علّام الغيوب

اختيار لفظ ﴿أَقْرَبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، دون غيره من الألفاظ المشيرة إلى الحضور أو المصاحبة كـ(أدنى) أو (أحضر) أو (أشدُّ ملازمة) يحمل دلالة بلاغيَّة دقيقة؛ لأنَّ ﴿أَقْرَبُ﴾ اسم تفضيل يفيد المفاضلة الواضحة بين جهتين: جهة اللّه أو ملائكته، وجهة المخاطَبين، والمعنى: نحن لسنا قريبين منه فحسب، بل نحن أقرب إليه منكم، مع أنَّكم تنظرون، وتحيطون به حسّيًّا، فالإعلام بشدَّة القربِ دليلٌ على أنَّ المتكلِّم هو اللّه تعالى، فتفصيل القربِ الغيبيِّ لا يخطر على قلب بشر، فدلَّ على علّام الغيوب.

دلالة استعمال حرف (إلى):

تعجيز البشر أن ينفعوا المحتضَر بشيءٍ ليس له

استعمل النَّظم الكريمُ حرفَ الجرِّ (إلى)، في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾؛ ليُبيِّن أنَّ اقتراب أهل المحتَضَر مهما حاولوا الاقترابَ منه، فاللّه تعالى أقرب إليه منهم، فـ(إلى) حرف انتهاء الغاية، فأقرب غاية قد يصلها المقترب، فإنَّ اللّه أقرب إليه منهم، ففيه تعجيزٌ عن بلوغ القرب الإلهيِّ؛ لأنَّه قرب أحاط بكلِّ شيء، وبلغ التَّمام الَّذي لا يصله سوى اللّه تعالى، مع العلم والتَّصرُّف والإحاطة.

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

عودة الضَّميرِ إلى غير مذكورٍ بلاغة عالية في الآيات الزّاكية

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ يعود على المذكور ضِمنًا في قوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، أي: بلغت الرّوحُ الحلقومَ، فالمقصود بـ﴿إِلَيۡهِ﴾ هو المحتضَر، أي: الإنسان الَّذي تُنتزع روحه، ويقول مجاهد: يعني: (الَّذي في الحلق)[1].

وقد دلَّ عليه السّياق من غير أن يُذكر صراحة، على طريقة الإيجاز القرآنيِّ البليغ، فجاء الضَّمير عائدًا على ذلك الإنسان المفهوم من سياق الموت والنَّزع والنَّظر، وهذا من دقَّة التَّعبير؛ إذ يُغني ذكر الحال والحدث عن ذكر الاسم، فيُكتفى بالإشارة إليه.

غرض تقديم ﴿إِلَيۡهِ﴾ على ﴿مِنكُمۡ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾ على ﴿مِنكُمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾، باعتبار أنَّ المحتضَر هو المقصود بالكلام، لا هم، فقدِّم ما يتعلَّق به؛ لأنَّه مدار الاهتمام.

نوع (من) ودلالتها:

القرب البشريُّ في النَّفع الظّاهر وهْمٌ ظاهرٌ وفكرٌ حائر

حرف (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ هو (من) التَّفضيليَّة، الدّاخلة على المفضول في باب التَّفضيل، وهي تفيد بيان الجهة الَّتي وقع التَّفاضل معها، لا ابتداء الغاية، ولا التَّبعيض.

ودخول (من) التَّفضيليَّة هنا يُفيد أيضًا إبطال دعوى القرب البشريِّ، وتفنيد الاعتقاد بأنَّ أقرب النّاس حِسًّا هو أقربهم أثرًا أو نفعًا، فهي تفاضل بين قرب حقيقيٍّ غيبيٍّ، وقرب ظاهريٍّ حسّيٍّ، لا يُجدي في لحظة الفقد، وقد جاءت (من) بعد تقييد القرب بظرفه ﴿إِلَيۡهِ﴾، فتأخَّرت؛ لتُفصِّل المفاضلة بعد تمام جهة التَّعلُّق، وهو ما يزيد المعنى دقَّة وتركيزًا.

(1) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 614.

نوع الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ معترضة "وجملة: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ معترضة بين جملة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، وجملة: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، وكلمة ﴿فَلَوْلَآ﴾ الثّانية توكيد لفظيٌّ لنظيرها السّابق، أُعيد لتُبنى عليه جملة ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾؛ لطول الفصل"[1]، وتحتمل أن تكون عاطفة على الّتي قبلها، وتحتمل أن تكون للحال، وهي تُصوِّر قصور الإدراك البشريِّ في لحظة المصير[2]، وتُقرِّر أنَّ حواسَّ الإنسان وإن كانت نشطة (فأنتم تنظرون) إلّا أنّها لا تنفذ إلى الحقيقة (لا تبصرون).

انعدام الإبصار حقيقة ثابتة وإبصار الحقائق حالة طارئة

دلالة استعمال حرف الاستدراك:

جاء استعمال حرف الاستدراك (لكن)، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ لنقض ما قد يُتوهَّم من ظاهر الجملة السّابقة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾؛ إذ قد يظنُّ السّامع أنَّ قرب الله أو ملائكته من المحتضَر أمرٌ مشهود[3]، أو محسوس لمن حوله، فجاء الاستدراك؛ ليزيل هذا التَّوهُّم، ويُبيِّن أنَّ قرب الله، وإن كان أصدق القُرب، فهو قربٌ غيبيٌّ لا تُدركه الأبصار، ولا تُحيط به الحواسُّ، ومعنى الجملة: ونحن أقرب إلى هذا المحتضَر منكم، ولكنَّكم لا تدركون ذلك؛ لجهلكم بقدرتنا النّافذة، وحكمتنا البالغة[4].

كشف حقيقة القرب الغيبيّ ونقض توهُّم المشاهدة

فالاستدراك هنا يفصل بين ظاهر الحسِّ وحقيقة الحال، وبين ما يدركونه بنظرهم، وهم ينظرون إليه، وما لا يُبصرونه ممّا هو أعظم، وأقرب، وأشدُّ حضورًا.

وفي هذا الاستدراك أيضًا تقريعٌ خفيٌّ؛ إذ يُفهَم منه أنَّ عجزكم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 344.
(2) الرّاغب، وظيفة الصّورة الفنّيّة في القرآن، ص: 125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 345.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 188.

عن الإبصار ليس لخفاء الحقِّ، بل لقصور البصيرة، فكأنَّ المعنى: نحن أقرب، ولكنَّكم مع ذلك لا تبصرون، مع أنَّ شهود القرب حقٌّ لمن له قلب أو ألقى السَّمع، وهو شهيد.

نوع فعل ﴿تُبۡصِرُونَ﴾:

نفي البصيرة العلميَّة والإبصار الحسّيِّ

فعل ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ يدلُّ على نفي الرُّؤية المشتملة على البصيرة والإبصار، فهو ليس مجرَّد البصر، وهو فعل إدراك وتأمُّل ونفاذ إلى المعنى، لا مجرَّد تلقّي الصّورة الظّاهرة، فقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾، أي: لا تدركون كنه ما يجري عليه[1].

دلالة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تُبۡصِرُونَ﴾:

الإبصار حالة مستمرَّةٌ في حالٍ مؤقَّتة

جاء التَّعبير بالفعل ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على استمرار الإبصار في تلك الحالة، فهي تُفيد استمرار العجز وتجدُّد الغفلة في تلك الحال، والمضارع متَّسقٌ مع ما قبله: ﴿تَنظُرُونَ﴾، الَّذي يفيد مجرَّد توجيه البصر.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَوۡلَآ﴾:

بلاغة فاء التَّفريع في (فلولا) وربطها بين التَّوبيخ والتَّحدّي بالحجَّة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ﴾ تفريعيَّة، وقد وقعت في موضعين في هذا السّياق، وهي تدلُّ على أنَّ ما بعدها مترتِّب على ما قبلها من توبيخ أو حُجَّة، أو حال تقتضي التَّعجيب والتَّقريع، ففي قوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، تفريعٌ على ما سلف من ذمِّهم على التَّكذيب بالقرآن والتَّهاون في أمره، كأنَّ المعنى: فإذا كان هذا موقفكم من الحديث العظيم، فلِمَ لم تُظهِروا قدرتكم عند لحظة الموت؟ وجاءت الفاء؛ لتُبرز هذا الانتقال كضرورة عقليَّة، لا مجرَّد تتابع لفظيٍّ، ثمَّ في قوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾، جاءت الفاء؛ لتربط بين

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 183.

ادِّعائهم الاستغناء أو الإنكار للجزاء، وبين التَّحدّي الإلهيِّ لهم بردِّ الرّوح؛ إن كانوا صادقين، فهي تفريع على ادِّعائهم الباطل، وسياق التَّوبيخ عليهم.

فالفاء هنا تُؤدّي وظيفة رابطة بين مقام الذَّمِّ ومقام الإلزام بالحُجَّة، أي: إذا كنتم تزعمون أمورًا كهذه، فهلّا أظهرتم صدق دعواكم عند هذا الموضع الَّذي لا يُكذِّب أحد فيه، ولا ينفع فيه التَّظاهر؟.

دلالة حرف التَّحضيض وتكراره:

أفــادت (لـولا) التَّعجيز وكشف الضَّعف البشريِّ بـالـتَّـقـريـع التَّهكُّميِّ

حرف التَّحضيض في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ﴾ جاء في موضعين متتالين، ودلالته في هذا السّياق ليست مجرَّد التَّحضيض بمعناه المعروف في الحثِّ على الفعل، بل هو تحضيضٌ تهكُّميٌّ تقريعيٌّ، يُراد به الإنكار والتَّوبيخ لا الحثُّ الحقيقيُّ، وهو أسلوب قرآنيٌّ بليغ، يُستخدم في مواطن التَّحدّي حين تُنقض الدَّعوى بالفعل، أو تُفضح بالعجز[1].

فقوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، معناه: فهلّا رددتم الرّوح حينئذٍ؟ وهو إنكاريٌّ، يُظهر عجزهم الكامل عند بلوغ الرّوح الحلقوم، ويُهيّئ لما بعده من التَّحدّي.

ثمَّ جاء التَّكرار في: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾، فجاء هذا التَّحضيض الثّاني أصرح في كشف عجزهم وتفنيد زعمهم الهروب من سلطان الحساب والجزاء، ومعنى ﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾، أي: غير مربوبين أو غير مجزيّين، فإن كنتم على زعمكم أحرارًا من الدَّينونة والبعث، فهلّا ترجعونها؟.

نكتة استعمال ﴿إِن﴾:

التَّشكيك بأوهام المشركين يُناسبه (إن) الـمـومـئـة بمعنى التَّهكُّم

نكتة استعمال ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ دون (إذا)، أنَّ ﴿إِن﴾ شرطيَّة تفيد التَّعليق على أمر مشكوك فيه أو

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 343.

مزعوم الوقوع[1]، بخلاف (إذا) الَّتي تفيد التَّحقيق ووقوع الفعل قطعًا[2]، فالسّياق هنا ليس إخبارًا عن أمر حاصل، بل هو في مقام التَّهكُّم والتَّحدّي والتَّقريع، كأنَّ الخطاب يقول: إن كنتم - على زعمكم - غير مربوبين، غير مجزيّين، كما تدَّعون، فلِمَ لا تردّون الرّوح؟ فجاءت ﴿إِن﴾ لا (إذا)؛ لأنَّ القرآن لا يسلِّم بادِّعائهم، بل يشكِّك فيه، وينقضه، فهي ﴿إِن﴾ المعلقة على فرضٍ باطلٍ لا يُقرُّه المتكلِّم، وجيء بها في سياق الاحتجاج عليهم لا التَّسليم لهم.

تقدم ﴿إِن﴾ على عاملها ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾:

توبيخ مدَّعي الإفلات من الجزاء بتشويقهم بشرطٍ تهكُّميٍّ

العامل في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ فعلُ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، والتَّقدير: "فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم؛ إن كُنتُم غَيرَ مَدينينَ"[3]، فتقدُّم ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ على عاملها ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾؛ للتَّشويق وإثارة التَّحدّي قبل عرض الفعل المطلوب[4]، فقد قُدِّمت جملة الشَّرط: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾؛ لإثارة التَّرقُّب لما سيُطلب بعدها، فالخطاب يهيّئ السّامع لجوابٍ مصيريٍّ، ثمَّ يفاجئه بالفعل المتحدَّى به: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، وهذا أبلغ في التَّقريع؛ لأنَّه يُمهِّد له بما يشبه التَّسليم بفرض الخصم، ثمَّ يُسقطه بالفعل الَّذي يعجز عنه، وتعجيل توهين دعواهم قبل عرض التَّحدّي، فقد جيء بجملة الشَّرط أوَّلًا للتَّشكيك في أصل ما يزعمونه من أنَّهم غير مدينين، أي: غير خاضعين للبعث أو الجزاء، ثمَّ عُقِّب بها بالفعل الَّذي يُفترض أن يترتَّب على دعواهم لو كانت حقًّا: أن يردّوا الرّوح.

غرض الجملة الشَّرطية ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾:

جملة: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ جاءت على أسلوب التَّهكُّم

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 9/ 4.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 149.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 468.
(4) حسن طبل، علم المعاني، ص: 129.

التَّـهـكُّـم من أغـراض الشَّرط فـــي سـيــاق الاسـتـدلال على المعاني القطعيَّة

والتَّقريع، وهي في ظاهرها شرط، لكن المقصود بها نقض دعوى القوم الَّذين يُنكرون البعث والحساب، ويزعمون أنَّهم غير مربوبين، ولا مجزيّين على أعمالهم، ففي لفظ ﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ دلالة صريحة على إنكارهم للجزاء؛ إذ (المدين) هو من دان له غيره أو دينَ هو ليُجازى، والمعنى: إن كنتم حقًّا غير محاسَبين ولا مجزيّين ولا مرجوعين إلى ربٍّ، كما تزعمون؛ فأرجعوا الرّوح إلى الجسد.

بلاغة التَّعبير بمفردة ﴿مَدِينِينَ﴾:

كـثـرة الـمـعـاني المرادة واللّازمة عـنـهـا جـامـعـةٌ لـلـمـطـلـوبِ وكـاشـفـةٌ عن المقصود

التَّعبير بمفردة ﴿مَدِينِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ يحمل بلاغة عميقة في اختيار لفظ جامع الدَّلالة، دقيق الإيحاء، مناسب للسّياق الحواريِّ الجدليِّ في الآيات، فلفظ ﴿مَدِينِينَ﴾ مأخوذ من (الدَّين)، وهو في أصل معناه الجزاء والمجازاة، أي: المحاسبة[1]، فيكون الإنسان محكومًا عليه بحساب أو مؤاخذة، فمدين بمعنى: مجازى، مربوب، محكوم، وجاء بصيغة اسم المفعول؛ للدَّلالة على أنَّ الإنسان واقع تحت سلطان أعلى، وتحت نظام جزاء لا ينفكُّ عنه.

واختيار هذه المفردة دون رديفاتها نحو (محاسَبين) أو (مجزيّين) أو (مبعوثين) له نكتة بلاغيَّة، فهي أجمعُ لمعاني الرِّقِّ والحساب والحكم والتَّدبير والجزاء، وكأنَّ منكر البعث يُنكِر كلَّ ما يقتضي أن يكون مملوكًا للّٰه، مُدانًا له، خاضعًا لحسابه وسلطانه.

وجعل في (الكشّاف) معنى ﴿مَدِينِينَ﴾ مربوبين أو مملوكين للّٰه[2]، وبذلك فسَّره الفرّاء، وقال ابن عطيَّة: إنَّه أصحُّ ما يقال في معنى اللَّفظة هنا، ومن عبَّر بمجازَى أو بمحاسب، فذلك هنا قلق[3]،

---

(1) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 646.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 470.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 253.

والصَّحيح أنَّ التَّفسير بالجزاء والحساب من آثار المربوبيَّة فيرتفع القلق، فإنَّ التَّفسير بأصل المعنى وامتداداته المرادة واللّازمة عنه من بيان القرآن.

بلاغة اختيار مفردة ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾:

الدَّلالة على ردِّ الرّوح قبل مفارقتها التّامَّة

آثر النَّظم الكريم مفردة ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾، في قوله تعالى: ﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ دون (تعيدونها)؛ لما في لفظ (الرُّجوع) من دقَّة معنويَّة وتناسب بلاغيٍّ مع السّياق، فالفعل (ترجعون) يدلُّ على ردِّ الشَّيء إلى مكانه أو موضعه بعد أن جاوزه، أو خرج عنه، وهو أنسب في وصف حال الرّوح الَّتي بلغت الحلقوم، فهي قد أشرفت على الخروج من الجسد، وكادت أن تُفارقه، فالمطلوب - في تحدّيهم - أن يُرجعوها إلى موضعها السّابق، لا أن (يُعيدوها) بعد مفارقة كاملة، هذا فضلًا عن أنَّ الرُّجوع في القرآن مستخدم في مواضع الموت والرُّجوع منه مثل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٦﴾ [الأنعام: 36]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [يونس: 23]، يعني الموت ونحوه كثير، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ [العلق: 8]، ومعنى الرُّجوع إلى الدُّنيا مثل قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾ [الأنبياء: 95]، أي: لا يردّون إلى حين المعاد، وهذه الآية أيضًا[1]، ففيه تلويحٌ بالرُّجوع يوم القيامة، فدلَّ على اختصاص الإرجاع بالله تعالى وحده، كما دلَّ على اختصاص الرُّجوع بذلك اليوم وحده.

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾:

الرّوح من الغيب المحض، فإرجاعها من المحال المحض

مرجع الضَّمير في قوله تعالى: ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ هو الرّوح[2]، وإن لم تُذكر صراحةً، بل دلَّ عليها السّياق والمقام، الدّالُّ عليه التّاء في قوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾[3]، فقوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾،

(1) الدّامغانيّ، قاموس القرآن: 27/ 346.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 468.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 345.

أي: بلغت الرّوح الحلقوم، فـ﴿بَلَغَتِ﴾ فاعلها مؤنَّث يعود على الرّوح المضمرة في السّياق، كما هو مألوف في التَّعبير القرآنيِّ؛ إذ يُعبَّر عنها بضمائر التَّأنيث دون التَّصريح باسمها، فكان السّياق في تمامه، إذا بلغت الرّوح الحلقوم، وأنتم تنظرون، فهلّا إن كُنتُم غيرَ مَدينينَ ترجعونها، أي: ترجعون الرّوح إلى الجسد.

دلالة استعمال ﴿إِن﴾:

استعمال (إن) للتَّشكيك في دعواهم وإبراز المفارقة بين زعمهم وعجزهم

استعمال ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ دون (إذا) يدلُّ على التَّشكيك في صدق دعواهم، لا التَّسليم به؛ لأنَّ ﴿إِن﴾ شرطيَّة تدلُّ على احتمال الوقوع، وربَّما على التَّوهُّم، بخلاف (إذا) الَّتي تدلُّ على التَّحقُّق والوقوع المقطوع به[1]، فجاءت ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ لا على سبيل التَّسليم بصدقهم، بل على وجه التَّهكُّم والتَّقريع، كأنَّ المعنى: إن كنتم - على زعمكم - غير مربوبين، فبيِّنوا صدقكم في هذه اللَّحظة الحاسمة، فأرجعوا الرّوح، والمقام مقام تحدٍّ وإفحام، فناسبه استعمال ﴿إِن﴾ الَّتي تُعلِّق الأمر على شرطٍ غير متحقِّق؛ لتُفجِّر المفارقة بين زعمهم وبين واقعهم العاجز بلغة موجزة.

نكتة ذكر ﴿كُنتُمْ﴾:

إظهار الدَّعوى كصفة مزعومة ثابتة تُفضَح عند التَّحدّي

ذكر فعل ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾؛ لإفادة تعليق صدقهم على كينونة ثابتة، لا على مصادفة عارضة، فالسُّؤال ليس: إن صدقتم الآن، بل إن كان الصِّدق وصفًا راسخًا لكم، ودعوى قائمة بأنَّكم أهل صدق فيما تزعمون، فجاءت ﴿كُنتُمْ﴾؛ لتُصوِّر دعواهم كأنَّها ادِّعاء قديم مستمرٌّ، ينسبونه إلى أنفسهم في مواضع كثيرة، ومنها إنكار الجزاء وتكذيب القرآن، فالتَّعليق بالفعل ﴿كُنتُمْ﴾ يُفيد ثبات الصِّفة المدَّعاة؛ ليكون في ذلك تعرية

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 149.

لهذه الدَّعوى، وبيان أنَّها لا تصمد في مقام الفعل، ولا تثبت عند لحظة التَّحدّي.

فائدة استعمال مفردة ﴿صَٰدِقِينَ﴾ مادَّة وصيغة:

ربط التَّحدّي بدعواهم الثّابتة بالصِّدق وفضح عجزهم

جمعت مفردة ﴿صَٰدِقِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ بين الإفحام والاحتجاج والتَّعجيز، أمّا من جهة المادَّة (صدق)؛ فهي الكلمة الَّتي يتباهى بها المشكِّكون؛ إذ كانوا يتَّهمون النَّبيَّ ﷺ، بالكذب، ويزعمون لأنفسهم أنَّهم على الحقِّ، ويُكذِّبون بالبعث، ويصفون القرآن بأنَّه أساطير الأوَّلين، فجاء الخطاب؛ ليعلِّق التَّحدّي بأهمِّ دعواهم (الصِّدق).

وأمّا من جهة الصِّيغة (اسم الفاعل)؛ فإنَّها تدلُّ على الثَّبات في الصِّفة، لا على صدق عارض أو قول اتِّفاقيٍّ، بل على أنَّ الصِّدق سجيَّتهم المزعومة، فالتَّعبير بـ﴿صَٰدِقِينَ﴾ يدلُّ على دعوى الرُّسوخ في الصِّدق؛ لتُبنى عليها الحجَّة، فالمعنى: إن كان هذا وصفكم الثّابت؛ فأقيموا الدَّليل على دعواكم، وأرجعوا الرّوح؛ إن كنتم صادقين.

غرض حذف المتعلِّق بـ ﴿صَٰدِقِينَ﴾:

توسيع مجال التَّحدّي وتعميم فضح كلِّ دعاويهم في آن واحد

في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، حذف المتعلِّق بـ ﴿صَٰدِقِينَ﴾؛ لنُكتةٍ بديعة، والغرض منه الإيجاز مع التَّهويل والتَّوسعة في وجه التَّحدّي؛ إذ لو قُيِّد المتعلِّق؛ فقيل: (صادقين في إنكار البعث)؛ لانحصرت الدَّعوى في معنى بعينه، لكن بحذف المتعلِّق بقي الوصف مطلقًا، أي: إن كنتم صادقين في أيٍّ من مزاعمكم - سواء في قولكم: إنَّكم غير مدينين، أو في أنَّ هذه الرّوح يمكن ردُّها، أو أنَّ ما يُتلى عليكم ليس بكلام الله، أو أنَّكم على حقٍّ - فأرونا البرهان.

فهذا الحذف أعمُّ وأبلغ في التَّوبيخ؛ لأنَّه يوسِّع مجال التَّحدّي، ويجعل كلَّ دعوى من دعاويهم داخلة تحت طائلة التَّكذيب، فيظهر عمق عجزهم وافتضاح كذبهم، وهذا الأسلوب جارٍ على طريقة

القرآن في الاحتجاج المقرون بالهيبة والتَّقريع، على نحو ما في قوله: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة: 23]؛ إذ لا يُذكر المتعلّق بالصِّدق؛ لتبقى الدَّعوى مفتوحة على اتِّساعها، لا مفرَّ منها ولا مواربة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرجاع والإعادة:

الرُّجوع لحال أو مكان من غير معاودة، أمّا العود؛ فرجوع مع معاودة

الإعادة تدلُّ في أصل وضعها على إعادة الشَّيء إلى حالٍ كان عليها من قبل، فهي استرجاع للصّورة الأولى أو الهيئة السّابقة، والعود: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذّات أو بالقول والعزيمة(1)، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 107]، ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، ﴿وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ﴾ [المائدة: 95]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرّوم: 27].

والرُّجوعُ: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فالرُّجوعُ: العود، والرَّجعُ: الإعادة، وفي العود إلى الدُّنيا بعد الممات، والرِّجاعُ: مختصٌّ برجوع الطَّير بعد قطاعها، فمن الرُّجوع قوله تعالى: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [المنافقون: 8]، ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ﴾ [يوسف: 63]، ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف: 150]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [الأنعام: 164]، يصحُّ أن يكون من الرُّجوعِ، كقوله: (ثُمَّ إليهِ ترجِعونَ)، ويصحُّ أن يكون من (الرَّجع)، كقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾(2).

فالفرق بينهما دقيق، وهو أنَّ الرُّجوع يكون لحالةٍ سابقة من غير معاودة، بخلاف العود فهو الرُّجوع مع معاودة في الغالب.

(1) الراغب، المفردات، ص: 593، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 3/ 136.

(2) الراغب، المفردات، ص: 343.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩
وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ
ٱلۡيَمِينِ ٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ
حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥ فَسَبِّحۡ
بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾ [الواقعة: 88 - 96]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

حلقة الوصل بين مشهد الاحتضار ومآلات الأرواح

بعد أن ساق الله تعالى على مسامع المخاطَبين تلك المشاهد الكونيَّة العظيمة، مشهد النُّطفة وهي تُمنَى، ومشهد الحَبَّة وهي تُبذَر، وأقسَم بالقَسَم الجليل: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، على أنَّ ما يُتلى عليهم قرآن كريم، ثمَّ انتقل بهم إلى موقفٍ يُدني منهم لحظةَ المصير حين تبلغ الرّوح الحلقوم، ولا يملكون لها رجعة، جاء هذا الفصل الأخير نتيجةً حتميَّة للسّياق المتتابع.

فإذا كان السّائل قد سمع التَّحدّي الإلهيَّ: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾... ﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ فإنَّ ذهنه يتطلَّع بالفطرة إلى معرفة ما الَّذي يَلقَى هذا الخارجُ من الجسد بعد أن عجزتم أن تردّوه؟.

هنا جاءت الآيات: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾؛ لتبني على ذلك المشهد، وتفصِّل مَآل النَّفس بعد مفارقتها، مُقسِّمةً الخلق - كما هو شأن السّورة من أوَّلها - إلى ثلاثة أصناف: مقرَّبون، أصحاب يمين، مكذِّبون ضالّون.

فالآيات إذًا حلقة واصلة بين مقدِّمة الموت، الَّتي أُقيم عليها التَّحدّي السّابق، وبين مآلات الإنسان في الدّار الآخرة، وكأنَّها تقول:

إن كنتم تزعمون أنَّكم تملكون أمر هذه الرّوح، فردّوها؛ إن استطعتم، فإن لم تستطيعوا – وهي الحقيقة – فاعلموا أنَّ أمرها صار إلى الله، وهو الَّذي يقسِّمها هذا التَّقسيم العادل.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَوۡحٞ﴾: جذر الكلمة هو: (روح)، وورد في القرآن على وجهين (الرّاحة) و(الرَّحمة)، فوجه منهما على المعنى الأوَّل قوله تعالى: ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ يعني راحة، وعلى المعنى الثاني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾، أي: من رحمة الله[1]، و(الرّاء والواو والحاء) أصل كبير مطَّرد، يدلُّ على سعة وفسحة واطِّراد[2]، ويقال للرَّوْح: النَّسيم الطَّيِّب الَّذي يبعث في النَّفس حياةً وانشراحًا، ومن هذا المعنى سُمّيَت الرّاحة روحًا؛ لأنَّها تُشبه النَّسيم الَّذي يُنفِّس على المكدود، ويُذهِب عنه الضّيق[3].

2) ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾: الرَّوح أصلٌ واسع تدور دلالاته حول الحركة والنَّفَس والرّائحة، ومنه الرّيح الَّتي تهبُّ، والرّائحة الَّتي تُشَمُّ، والرَّيحان للنَّبات العطر الَّذي تستروح به النُّفوس، ومنه قول العرب: خرجت أطلب ريحان الله، أي: رضاه وبِشرَه، والرَّيحان: الرِّزق[4]، قَوله: (مِن ريحان الله)، قيلَ: مِن رزق الله ﷻ، قالَ الله ﷻ: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾ [الرَّحمَن: 12]، أرادَ الرِّزق، وهوَ الحبُّ[5].

3) ﴿وَتَصۡلِيَةُ﴾: يدور أصل معنى جذر (صلي) حول معنى مباشرة النّار ومكابدة لهيبها، يقال: صَليَ بالنّار صَليًا وصُليًّا؛ إذا قاسى حرَّها، ويقال: أصلاه النّار؛ إذا قرَّبه منها، وأدخله فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣﴾ [المسد: 3]، فالفعل (صَلَى) يدلُّ على مسِّ النّار مباشرة والتَّمادي فيها[6].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

ترسم الآياتُ الكريمات المشهدَ الختاميَّ لمصير الإنسان بعد الموت، فتقسِّم الخلق –

(1) الدّامغانيّ، قاموس القرآن، ص: 211.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/ 454.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ريح).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ريح).
(6) الخليل، العين: (صلي).

مصائر الأزواج الثَّلاثة في ختام سورة الواقعة

كما هو دأب سورة الواقعة - إلى ثلاثة أصناف لا رابع لها، فإن كان الميِّتُ من المقرَّبين عند اللّه، وكان من أوليائه وصفوته، فله روحٌ، أي: راحة وسكينة تملأ روحه منذ لحظة خروجه من الدُّنيا، وريحانٌ، أي: طيبٌ وبُشرى تسرُّ حسَّه وقلبه، ثمَّ مآله إلى جنَّة نعيم ينعم بها أبدًا، وإن كان من أصحاب اليمين - وهم عامَّة المؤمنين الَّذين سلمت صحائفهم من الذُّنوب العظام - فبُشرى لهم بالسَّلامة؛ إذ يُستقبَلون بنداء سلام: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، سلامٌ من اللّه وملائكته ومن رفاقهم الصّالحين[1].

أمّا إن كان من المكذِّبين الضّالّين، الَّذين أعرضوا عن الحقِّ، وكذَّبوا بالبعث والجزاء، فليس ينتظرهم إلّا نُزُلٌ من حميم، شرابٌ يغلي يحرق الأمعاء، ثمَّ تصلية جحيم، أي: إقامة في النّار تُقلِّبهم ألسنة اللهب بلا مهرب ولا فكاك.

وتُذيِّل الآيات هذا البيان القاطع بقول اللّه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾؛ لتؤكِّد أنَّ ما قُصَّ عليهم ليس وعدًا يُظَنُّ، أو وعيدًا يُرتاب فيه، بل هو اليقين الَّذي لا يتطرَّق إليه شكٌّ، ثمَّ تأتي الخاتمة: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أمرًا للنَّبيِّ والمؤمنين أن يسبِّحوا اللّه تعظيمًا وإجلالًا بعد أن تجلَّت عظمة أمره في تدبير الموت والحياة ومصير الإنسان بعدهما[2]، فالآيات في مجملها لوحةٌ جامعة لمآلات البشر: راحةٌ ونعيمٌ للمقرَّبين، سلامٌ وبُشرى لأصحاب اليمين، وعذابٌ وهولٌ للمكذِّبين، ثمَّ ختمٌ بالتَّسبيح الَّذي يليق بجلال من أحكم هذه الأقسام وعدل فيها.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 189.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 190.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها:

تـفـرُّع مصائر الـنّـاس على تقرير العجز عن ردِّ الرّوح

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ استئنافيَّة تفريعيَّة[1]، ووقوعها بعد شرطٍ مقدَّر، أو قل: بعد تمهيد سابق، يُراد به ما اقتضته الآيات الَّتي قبلها من تقرير عجز الإنسان عن ردِّ الرّوح، والبرهنة على حقِّ البعث والجزاء، فجاءت هذه الفاء؛ لتُفصِّل ما يُفرَّع عن ذلك التَّقرير، أي: إذا كانت الرّوح لا تُردُّ، والموت واقع لا محالة، فهنا تتباين المصائر، وتتفرَّع الفئات[2].

نوع (أمّا) ومعناها:

تهيئة المخاطَب لمضامين الكلام إقـنـاعٌ عـقـليٌّ وتشويقٌ نفسيٌّ

(أمّا) في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ من أدوات التَّفصيل، مركَّبة من (أمّا) الفاصلة و﴿إِن﴾ الشَّرطية، وهي تَرِد في مقام التَّقسيم والتَّفصيل بعد إجمال؛ لتُمهِّد لعرض أحوال متعدِّدة مترتِّبة على فرضيّات متباينة، فهي تفيد التَّمهيد لِمقابلٍ قادم، وتَبعث في النَّفس ترقُّبًا لما بعدَها، وتوحي بأنَّ ما يُلقى تاليًا هو تفصيل لأمر عظيم سبق بيانه، فهي تفيد تفصيل مصائر النّاس عند الموت بحسب منازلهم: إن كان من المقرَّبين، أو من أصحاب اليمين، أو من المكذِّبين الضّالّين.

دلالة استعمال ﴿إِن﴾:

تقسيم المبهمات يكون بأداة (إن) والمعيَّنات بأداة (إذا)

إنَّ اختيار حرف الشَّرط ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ دون (إذا)، يدلُّ على الاحتراز من القطع بالتَّحقُّق في الخارج، وإن كان وقوعه لا محالة، فـ﴿إِن﴾ حرف شرط لما يُفترَض وقوعه، أو يُتوهَّم فيه التَّردُّد[3]، وأمّا (إذا)؛ فهي لما تيقَّن وقوعه

(1) صافي، الجدول: 14/ 132.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 347.

(3) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 9/ 4.

وتحقَّق[1]، فجيء بـ﴿إِن﴾ في هذا الموضع، مع أنَّ الموت واقع لكلِّ نفس، والمآل لازم لكلِّ ميِّت؛ لأنَّ التَّقسيم هنا جارٍ على جهة الفرض والاحتمال لا على جهة الإخبار بالتَّحقُّق؛ إذ التَّقسيم لمبهم جمعيٍّ، لا لفرد عينيٍّ.

نكتة ذكر ﴿كَانَ﴾:

جزاءُ الأعمال على حياةِ الإنسانِ كلِّها لا على جزءٍ يسيرٍ منها

في قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، ﴿كَانَ﴾ فعل يدلُّ على تحقُّق الوصف في الزَّمن الماضي، والمقصود به هنا: أنَّ الانتماء إلى أحد هذه الأصناف الثَّلاثة (﴿ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾) لم يتقرَّر في لحظة الموت، وإنَّما تقرَّر في حياة الإنسان كلِّها قبل بلوغ الرّوح الحلقوم، فالتَّعبير بـ﴿كَانَ﴾ إشارة إلى أنَّ الصِّفة الَّتي سيُجازى بها الإنسان آنذاك إنَّما هي امتداد لحاله في الدُّنيا، فهو لم يُصبح من ﴿ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أو ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ عند لحظة الاحتضار، بل كان دَيْدَنه كذلك من قبل.

تعيين مرجع الضَّمير المستتر في فعل ﴿كَانَ﴾:

الإنسانُ في الدُّنيا مجملٌ تفصيله في الآخرةِ على ثلاث أصناف

الضَّمير المستتر في فعل ﴿كَانَ﴾، في قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾، مرجعه الإنسان الَّذي بلغت روحه الحلقوم، والَّذي تحدَّث عنه الآيات السّابقة ابتداءً من قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، أي: إن كان المتوفَّى من السّابقين[2].

نوع ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ للبيان، أي: إن كان الإنسان موصوفًا بصفة التَّقريب؛ فالحال كيت وكيت، أي: إن كان مقرَّبًا.

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 149.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 183.

نوع (ال) في لفظ ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾:

العهد الذِّكريُّ يربط بين أوَّل السّورة وآخرها بتنزيل السّورة كلًّا مترابطًا

(الـ) الدّاخلة على لفظ ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، هي (الـ) الجنسيَّة العهديَّة الذِّكريَّة، فهي تشير إلى فئة مخصوصة سبق ذكرها، أو يُشار إليها بوصف معلوم لدى السّامع، وهم الَّذين ورد ذكرهم في أوائل السّورة بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، فصارت (الـ) هنا للعهد الذِّكريِّ على مستوى السّورة، وهي تربط بين مطلع السّورة وخاتمتها، وذلك على جعل سياق السّورة قطعةً واحدةً، والعهد الذِّكريُّ يكون في الكلام المتقارب باعتباراتٍ، وإذا جعلنا الكلام متباعدًا؛ فيكون التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ ذهنيًّا.

بلاغة اختيار ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾:

السَّبق وصفٌ للسُّلوك الدُّنيويِّ والقرب وصفٌ للجزاء الأخرويِّ

﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ هم السّابقون الَّذين تقدَّم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[1]، وفي اختيار لفظ ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ دون (السّابقين) مع أنَّ الوصف الأوَّل جاء فرعًا عن الثّاني في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ نكتة بيانيَّة لطيفة، جديرة بالتَّأمُّل، وهي من دقائق التَّعبير القرآنيِّ ومقاصده البلاغيَّة في توزيع الصِّفات بحسب السّياق، فـ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ وصفٌ يُشير إلى العمل والسَّعي والمبادرة، وهو مرتبط بزمن التَّكليف والتَّسابق في ميدان الطّاعة؛ إذ هو تصوير لحال العبد في دنياه؛ إذ يتقدَّم غيره بالسَّبق إلى الخيرات، فكان ذكره أنسبَ في صدر السّورة، عند تفصيل أصناف النّاس في مجالات كسبهم، وأمّا ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾؛ فهو وصف الجزاء والمنزلة، لا وصف العمل، فذكره في مقام الجزاء الأخرويِّ والمآل الأبديِّ أبلغ وأوفق؛ إذ يُبرز ما آلت إليه حالتهم من كرامةٍ عند الله، فكانوا في حضرته مقرَّبين، بعد أن سبقوا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 347.

في ميدان الطّاعة، فدلَّ على اكتمال المرتبتين: السَّبق في الدُّنيا، والقرب في الآخرة.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَرَوْحٌ﴾:

الفاء في (فَرَوحٌ ورَيحانٌ) دلالة الجزاء وإضماره في السّياق

في قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ في الكلام إضمار، تقديره: فله روح، أفصحت الفاء عنه؛ لكونها فاء الجزاء؛ لربط الجملة بالشَّرط، فعلم كونها جزاء[1]، وتدلُّ على أنَّ ما بعدها مترتِّب على ما قبلها ترتيب النَّتيجة على السَّبب، فالمعنى: إن ثبت أنَّه من المقرَّبين؛ فجزاؤه الموعود هو الرَّوح والرَّيحان وجنَّة النَّعيم، وقد ناب دخول الفاء هنا عن ذكر فعلٍ محذوف دلَّ عليه السّياق، والتَّقدير: (فله روح وريحان وجنَّة نعيم).

نكتة تنكير لفظ (روح):

الرّاحة في الجنَّة عظيمة الشَّأن واسعة الأثر

نُكِّر لفظ (رَوح) في قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾؛ للتَّعظيم والتَّفخيم[2]، والتَّفتيح على الذِّهن بما لا يُقيَّد المعنى بنوع معيَّن من الرَّوح، بل يُفيده على الإطلاق، حتَّى يُفهَم منه أنَّه روح عظيم الشَّأن، لا يُدرَك كُنهه، ولا يُحدُّ وصفه، وهو للتَّكثير والتَّبجيل؛ ليوحي بأنَّ ما يلقاه المقرَّبون من الرّاحة والسُّرور والسَّكينة عند مفارقة الرّوح أمرٌ لا يُعبَّر عنه إلّا بكلمة نكرة تُطلق؛ لتدلَّ على عظمة المسمّى وسموِّ درجته.

توجيه تخصيص الرَّوح والرَّيحان بالذِّكر:

الرَّوحُ والرَّيحان مقدِّمة نعيم الجنَّة وريحةُ السَّبقِ لأهلِ النَّعيم

في قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾، تقدَّم تخصيص الرَّوح والرَّيحان بالذِّكر قبل ذكر الجنَّة الَّتي تحتوي عليه إيماء إلى كرامتهم عند الله[3]؛ ذلك أنَّ الحديث في هذه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 175.
(2) حسن طبل، علم المعاني، ص: 169.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 347.

الآيات الكريمة يجري عن أحوال الإنسان عند النَّزع، لا عن نعيمه في الجنَّة فحسب، فالخطاب لا يزال في مقام وصف لحظة الموت، قبل أن يُنقَل إلى مقام الحساب والجزاء، فجاء التَّعبير بـ ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ ملائمًا لحال المحتضر؛ إذ هما ممّا تُستروَح به النَّفس، وتطمئنُّ له الرّوح عند فزع الفراق، وهول الانتقال من عالم الشَّهادة إلى عالم الغيب.

فالـ(روح) فيه معنى السَّعة والفرج والأنس، ضدُّ الضّيق والوحشة، وهو تعبير جامع لكلِّ ما يُشعِر النَّفس بالسَّكينة، وهو أوَّل ما يُبَشَّر به العبد المؤمن من لطف ربِّه، أمّا (الرَّيحان)؛ فهو ما يُلَطِّفُ الحسَّ، ويبهج الذَّوق؛ كناية عن النَّعيم الحسّيِّ والبشارة بالعطر والرّاحة، فذكره بعد (الرّوح) يُنبئَ بأنَّ المقرَّب يُبشَّر في تلك اللَّحظة بأمرين: راحةٍ وسكينةٍ معنويَّة، ونعيم وعذوبةٍ حسّيَّة، وقد ورد في الحديث: «وإذا توفَّى الله العبدَ المؤمنَ أرسلَ إليه مَلَكَينِ بخِرقَةٍ منَ الجنَّة، ورَيحانٍ من رَيحانِ الجنَّة، فقالا: أيَّتُها النَّفسُ المُطمَئِنَّة، اخرُجي إلى رَوح ورَيحان، وربٍّ غيرِ غَضبان»[1].

دلالة إضافة الجنَّة إلى النَّعيم:

بيان الصِّفة وكمال النِّعمة في تجريد الجنَّة للنَّعيم

إضافة الجنَّة إلى (النَّعيم) في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ تفيد بيان صفة هذه الجنَّة وعظيم شأنها وبيان حقيقتها، والإضافة بمعنى (من)، أي: هي جنَّة من نعيم، فهي ليست مجرَّد جنَّة، بل جنَّة مختصَّة بالنَّعيم، فهو ملازم لها لا يفارقها، لا يشوبه كدر، ولا ينقطع، وجاء هذا التَّعبير بعد ذكر (الرَّوح والرَّيحان)؛ ليكون مسك الختام لمقام عالٍ من الكرامة، فلو قيل: (وجنَّة) فقط؛ لكان المعنى ناقصًا في الدَّلالة على وفرة النَّعيم ودوامه، ففيه تجريد الجنَّة للنَّعيم، فالجنَّة قد تجرَّدت للنَّعيم.

(1) الطّبرانيّ، المعجم الكبير: باب عبد الله بن عمرو بن العاص، رقم الحديث: 14174: 13/ 355.

نوع الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَأَمَّآ﴾:

تقسيم الأصناف بالعطفِ المقتضي لتغايرِ ذواتها واشتراكها في بيان المآل

الواو في قوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ هي واو العطف، وقد عطفت الجملة على ما قبلها من قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، والدَّلالة البلاغيَّة لهذه الواو أنَّها جاءت لتقسيم حال الإنسان عند الموت إلى أقسام ثلاثة، فدلَّت على استئناف تفصيلٍ جديد بعد ما سبقه، بأسلوب يدلُّ على التَّفصيل والتَّقسيم، دون أن يكون فيه انقطاع عن السّياق، وهي في الوقت نفسه تسهم في ضرب التَّقابل بين كلِّ صنف وصنف؛ إذ تقرِّب الصّورة في ذهن السّامع وتدفعه إلى ترقُّب ما سيُذكر بعد كلِّ قسم، فهي واو تنقل الذِّهن من مشهد إلى آخر، مع المحافظة على وحدة السّياق الَّذي يدور حول مآل الإنسان بعد الموت بحسب منزلته.

دلالة ذكر أصحاب اليمين دون وصف من أوصافهم:

(أصحاب اليمين) عَلَمٌ على أهل الجنَّة دون السّابقين

إنَّ الاقتصار على ذكر ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ دون أن يُلحق بهم وصفًا إضافيًّا من أوصاف المدح - كما قُدِّم في ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ - فيه دلالة على أنَّ هذا التَّركيب الإضافيَّ أصبح عَلَمًا على صنفٍ من أصناف النّاس، وهو في الرُّتبة دون السّابقين، وقد تقدَّم وصفهم في السّورة بما يُغني عن التَّكرار.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَسَلَٰمٞ﴾:

فاء الجزاء رابطةٌ الشَّرط بمآله

الفاء في قوله: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ هي فاء الجزاء، وقعت في جواب (أمّا) في قوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، وهي تفيد ترتيب الجزاء على الشَّرط، أي: إن تحقَّق كون الميِّت من أصحاب اليمين؛ فالجزاء أن يقال له: سلامٌ لك، أو أن يُسلَّم عليه تسليمًا من جهتهم، وتُكسب هذه الفاء الكلامَ ضربًا من البلاغة يتَّسم بالإيجاز المتين؛ إذ تربط بين الشَّرط وحكمه ربطًا مباشرًا فيه معنى التَّتابع أو التَّسبُّب، فتُحدث في النَّفس ترقُّبًا للجزاء وتوقُّعًا للمآل.

بلاغة استعمال لفظ (سلام):

لـفـظ (سـلام) يـوحـي بـالأمـن ويؤذن بالتَّكريم

آثر النَّظم الكريم استعمال لفظ (سلام)، في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، والسَّلام: اسم للسَّلامة من المكروه، ويطلق على التَّحيَّة[1]، وقد جاء في سياق الآية من جهة بلاغيَّة دالًّا على غاية الأمن والكرامة، ومُعبِّرًا عمّا يُحيط بأصحاب اليمين من حال الطُّمأنينة والسَّلامة، لا من العذاب فقط، بل من كلِّ مظنَّة أذى أو كدر، وهذا التَّعبير - لما فيه من التَّهنئة والتَّحيَّة - يشيع في النَّفس أنَّ استقبالهم يكون باستبشار وتوقير، كأنَّهم يُستقبَلون بالتَّرحيب والتَّبجيل، لا بمجرَّد النَّجاة.

وفي إيثار لفظ (سلام) دون ما عداه من ألفاظ النَّعيم إشارة إلى أنَّ السَّلام هو أوَّل مظاهر الكرامة الَّتي تتهيَّأ لصاحب اليمين في الدّار الآخرة؛ إذ هو إيذان بدخوله في دار الأمن، وسلامته من كلِّ مكروه، سواء ما كان متوقَّعًا أو متوهَّمًا.

نكتة تنكير لفظ (سلام):

السَّلام متنوِّع متكاثر في أصله وأثـره ومظهره ومآله

نُكِّر لفظُ (سلام) في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾؛ لإفادة التَّعظيم والتَّفخيم؛ لأنَّ التَّنكير في مقام المدح يُشعر بأنَّ المذكور أمر عظيم لا تحيط به العبارة، وكأنَّه يقول: (سلامٌ عظيمٌ)، (وسلامٌ خاصٌّ)، لا ككلِّ سلام، بل هو سلامٌ تتضاءل دونه تحايا البشر في الدُّنيا.

ثمَّ إنَّ التَّنكير المشوب بالإبهام المراد يوحي بالتَّنوُّع في مظاهر السَّلام، فلا يُقصَد سلام القول فقط، بل سلام الهيئة، وسلام المآل، وسلام الحال، وسلام من الأهوال، وسلام في النَّفس والبدن والخلد، وكأنَّهم مُحاطون بجوٍّ كلُّه سلامٌ من كلِّ جهة، من الله

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 348.

ومن الملائكة ومن الصّالحين، حتّى كأنَّ السَّلامَ هو أوّل ما يتلقّاه صاحب اليمين.

ولأنَّ هذا الجزاء دون ما ذُكِرَ للمقرَّبين، جاء التَّعبير عنه موجزًا موجَّهًا بالتَّنكير؛ لئلّا يُجعَل له حدٌّ أو قدر يُقارن بغيره، بل يُترك مجملًا تعظيمًا له وتشويقًا.

نوع اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَّكَ﴾:

دلالة لام الاختصاص في (لَكَ) سلامٌ مخصوص بالتَّشريف والإكرام

اللّام في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ للاختصاص، والكلام إجمال للتَّنويه بهم وعلوِّ مرتبتهم وخلاصهم من المكدِّرات؛ لتذهب نفس السّامع كلَّ مذهب[1]، وهي لام الاستحقاق، أي: إنَّ هذا السَّلام مختصٌّ بك، لا يُشارِكُك فيه غيرُك، وهو حقٌّ لك بسبب كونك من أصحاب اليمين، وهي بهذا تفيد تقوية معنى التَّخصيص والتَّشريف، فكأنَّها تقول: هذا سلام موجَّه إليك خاصَّة، لا يُلقى جزافًا، ولا هو سلامٌ عابر.

وفي هذا التَّوجيه للسَّلام إلى المخاطَب ما يُشعر بالعناية والرِّضا والتَّكريم، وتضمَّنت اللّام معنى الإكرام، كما تقول: (هذا لك)، أي: هذا مُهيَّأ لك ومُهدى إليك، فصار السَّلام بذلك بمنزلة الهديَّة الَّتي تُلقى على وجه اللُّطف والإيناس من أصحاب اليمين، أو من الملائكة، أو من الله تعالى، وكلُّ ذلك جائز، والمعنى يحتمل الجمع بينه، فتكون اللّام جامعة لدلالة الاختصاص، والتَّشريف، والرِّضا.

تعيين المقصود بالخطاب في قوله: ﴿لَّكَ﴾:

بلاغةُ الكناية عن حال أصحاب اليمين بأنَّهم أهل سلامة وسلام

اختلف المفسِّرون في كاف الخطاب الواردة في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، فقيل: هي موجهة لغير مُعيَّن، أي: لكلِّ من يسمع هذا الخبر، والمعنى: أنَّ السَّلامة الحاصلة لأصحاب اليمين تسرُّ من يبلغه أمرها[2].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 348.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 348.

فهو خطاب مراد به التَّمثيل الذِّهنيُّ لا الإخبار عن مخاطَب معيَّن، ولكنَّه في مقام التَّقرير أبلغ؛ لأنَّ إسناد السَّلام إليه بهذه الطَّريقة يُشعر بالمباشرة والتَّكريم، على عادة القرآن في استعمال الخطاب الحيِّ؛ لتنبيه القلوب، أي: ناهيك به شرفًا وحسبك به كرمًا، أي: لا تطلب زيادة على جلالة حاله، فكذلك سلام لك منهم، أي: لا تطلب زيادة على سلامتهم جلالة وعظم منزلة"[1]، وإنَّما معنى الآية: "فسلام لك أيُّها الرّاحل عن الدُّنيا حال كونك من أصحاب اليمين، أي: فسلام لك كائنًا من أصحاب اليمين الَّذين سلموا من الدُّنيا وأنكادها، ومن النّار وعذابها، فبُشِّر بالسَّلامة عند ارتحاله من الدُّنيا وقدومه على اللّه، كما يُبشِّر الملك روحه عند أخذها، بقوله: (أبشري بروح وريحان وربٍّ غير غضبان) "[2].

ويجوز - مع هذا - أن يُجعل الضَّمير عائدًا على النَّبيِّ ﷺ تشريفًا له، أي: فسلام لك يا محمَّد من أصحاب اليمين، تسليمًا منهم لك، أو بشارة من اللّه لك بما يناله أصحاب اليمين، كما في قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾ [القدر: 5]، واللَّفظ يحتمل المعنيين، والجمع بينهما غير بعيد"[3].

نوع ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها:

دلالات (مِـن) بـين الابـتـداء والتَّبعيض

إنَّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، هي لابتداء الغاية على تقدير: فسلامٌ ناشئ لك من جهة كونك من أصحاب اليمين، أي: بسبب منزلتك هذه، فكأنَّ السَّلام مترتِّب على دخولك في عدادهم، ومبتدَؤه من هذا الوصف الشَّريف[4].

ورأي آخر فإنَّ ﴿مِنۡ﴾ تبعيضيَّة باعتبار أنَّ ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾

(1) القيروانيّ، النّكت في القرآن الكريم، ص: 482، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 430.
(2) ابن القيّم، تفسير القرآن الكريم، ص: 513 - 514.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 349.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 348.

خبر مبتدأ محذوف، أي: أنت من أصحاب اليمين، فتكون ﴿مِنْ﴾ على هذا تبعيضيَّة، فهي بشارة للمخاطَب عند البعث على نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرَّعد: 23 - 24][1].

وحملُها على الابتداء أوفق؛ لتوافقها مع ظاهر النَّظم، وعدم الحاجة إلى التَّقدير.

بلاغة إظهار ما حقُّه الإضمار:

مكمن تعليل الإكرام وبيان السَّلامة في اسم (أصحابِ اليَمينِ)

إظهار ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ دون أن يقول: (فسلام لك منهم) مقصود به تعليق الذِّهن بهذا الاسم الجليل مرَّةً ثانية، بعد أن ذُكِرَ في الجملة السّابقة: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، وذلك لغاية التَّوكيد والتَّنويه بشأنهم، كأنَّ السّياق يُعيد ربط المعنى بصفاتهم لا بأشخاصهم؛ لأنَّ التَّعبير بالضَّمير لا يُنبِّه الذِّهن إلّا إلى المعنى السّابق مباشرة، بينما إعادة الاسم يُجدِّد حضوره بقوَّة في النَّفس.

وفي هذا الإظهار إشارة إلى أنَّ السَّلام مشروط بانتمائه إلى هذا الفريق، أي: إنَّ كونه من أصحاب اليمين هو علَّة هذا الإكرام، فالتَّكرار يفيد التَّعليل الضِّمنيَّ: سلام لك لا لذاتك، بل لكونك من أصحاب اليمين، فكان ذكرهم مجدِّدًا أدخل في التَّوكيد وأوقع في النَّفس.

نوع الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَأَمَّآ﴾:

بلاغة واو العطف في الحفاظ على تماسك السّياق واستمراريَّة التَّقسيم

الواو في قوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ هي واو العطف، عطفت هذا الاحتمال الثّالث على ما قبله في سياق متَّصل، يذكر فيه مصير الإنسان بعد بلوغ الرّوح الحلقوم، وذكرها يُفيد الاستمرار في بناء الاحتمالات على نسق واحد متلاحق، بلا انقطاع في السّياق ولا استئناف، ممّا يُضفي على العرض طابعًا من الإحاطة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 349.

والتَّوازن في عرض مصائر النّاس، فقد قُسِّموا إلى ثلاثة لا رابع لهم، وكلٌّ يُصاغ مصيره بعبارة موزونة على النَّحو نفسه، فإيراد الواو حافظ على تماسك السَّرد، ودلَّ على أنَّ هذا الصِّنف الثّالث - أعني المكذِّبين - داخل في النَّسق السّابق لا خارج عنه، وأنَّ عاقبته محسومة كما حُسمت عاقبة سابقيه.

بلاغة النَّسق في الأقسام الثَّلاثة:

تكرار النَّسق في الأصناف الثَّلاثة عدالةٌ في الحكم ببيان معايير الجزاء

جاء نظم: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ﴾ في الأقسام الثَّلاثة، ويُلاحظ أنَّ هذا التَّركيب قد جرى على نسق واحد في الأقسام الثَّلاثة (﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾)، ممّا يُكسب البناء توازنه البيانيَّ، ويُعزِّز وحدة العرض، ولكنّ كلَّ موضع له إيحاؤه الخاصُّ، فـ﴿كَانَ﴾ في هذا السّياق الثّالث تُضفي طابعًا من الإدانة الضِّمنيَّة، كأنّها تقول: لم يكن كفره في آخر أمره، بل كان في أصل سيرته.

وفي هذه الصّياغة بأسلوب الفرض والتَّمثيل ما يبعث الذِّهن إلى المحاكمة والمقارنة، كأنَّ الآية تعرض الإنسان، وهو يُنظر في مصيره، على ضوء ما كان عليه في دنياه، فجاء الضَّمير مستترًا في ﴿كَانَ﴾؛ ليدلَّ على كلِّ من يمكن أن يُقاس على هذا النَّموذج، لا شخص بعينه، فتعمَّ الفائدة، وتُثير النَّفس سؤالها عن حالها.

بلاغة التَّعبير عن أصحاب الشِّمال بقوله: ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾:

إظهارُ علل الجزاء في حقِّ الضّالّين أنسب من الوصف المجرَّد

جاء التَّعبير عن أصحاب الشِّمال في هذا الموضع بـ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ بدلًا من تسميتهم بـ (أصحابُ الشِّمالِ)، كما في شأنِ (أصحاب اليمين)؛ وذلك لتعليل العذاب بصفتي التَّكذيب والضَّلال، فلم يُذكَر المصير الشَّقيُّ لهؤلاء ابتداءً، بل قدَّمه بذكر السَّبب الَّذي استحقّوا به ذلك الجزاء، وهو أنَّهم كذَّبوا بالحقِّ لما جاءهم، وضلّوا عن سواء السَّبيل، كما أنَّ التَّعبير الوصفيَّ أشدُّ إيغالًا في الإزراء بهم

من التَّعبير الاسميِّ، ففي (أصحابُ الشِّمالِ) ضربٌ من الإجمال الَّذي قد يوهِم التَّهوين، أمّا ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ ففيه تجسيد لمعاني الجحود والعناد، وإبراز لخطر حالهم، فالآية تُشهِّر بهم، وتفضح باطنهم، فلا يُحكَم عليهم فقط بموقعهم في الآخرة، بل يُحكَم عليهم من جذور سلوكهم في الدُّنيا.

توجيه تقديم ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ على ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾:

إنَّ تقديم ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ على ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في هذا الموضع من سورة الواقعة، مع أنَّ التَّرتيب السّابق في أوائل السّورة جاء على عكسه ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، له وجهٌ بلاغيٌّ دقيق، يُفهم من خلال اختلاف المقامين وغايات السّياقين.

التَّـكـذيـب هو سبب استمرار الـضَّـلال، فتقديمه للتَّنبيه على علَّة الجزاء لا علـى أصـل السُّلوك

فالموضع الأوَّل كان في سياق التَّهديد المجمل والوعيد العامِّ، جاء ذكر ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ باعتبار ترتيب الحال الباطنيِّ أوَّلًا، وهو الضَّلال، ثمَّ ما يتبعه من مظهره العمليِّ، وهو التَّكذيب، فناسب التَّرتيب التَّدرُّج من الباطن إلى الظّاهر، ومن أصل الفساد العقديِّ إلى تجلّيه في الإنكار، أمّا الموضع الثّاني، فهو مقام تفصيل المصائر، وذكر الجزاء، وهو سياق جزائيٌّ لا تقريريٌّ، فقدَّم فيه ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ لأنَّ التَّكذيب هو العلَّة الأقرب والمباشرة في استحقاق العذاب، ولأنَّ السّورة بتمامها قائمة على إثبات صدق ما أُنذروا به في الآخرة وتكذيبهم له، فجاء تقديم وصفهم بالتَّكذيب إيذانًا بأنَّ هذا الجحيم الَّذي ينتظرهم لم يكن إلّا جزاءً على موقفهم من هذا ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ الَّذي كذَّبوا به، كما قال تعالى في صدر الآيات: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾، فجاءت نهاية المشهد؛ لتكشف مآل هذا التَّكذيب، فناسب أن يُبتدأ به، فـ "قدَّم هنا وصف التَّكذيب على وصف الضَّلال عكس ما تقدَّم في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾؛ لمراعاة سبب ما نالهم من

العذاب، وهو التَّكذيب؛ لأنَّ الكلام هنا على عذاب قد حان حينه، وفات وقت الحذر منه، فبُيِّن سبب عذابهم، وذُكِّروا بالَّذي أوقعهم في سببه؛ ليحصل لهم ألم النَّدم"[1].

ثمَّ ثُنّي بالضَّلال؛ لأنَّ الضَّلال هو أصل منشئهم في الكفر، لكنَّه في هذا السّياق صار تابعًا؛ لأنَّه لم يكن وحده سبب الهلاك، بل كان مقرونًا بالمكابرة والتَّكذيب، فكان من تمام البلاغة أن يُقدَّم ما هو أظهر وأشدُّ، وهو التَّكذيب، ويُؤَخَّر ما هو أصل، لكنَّه صار كالصِّفة التّابعة له.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَنُزُلٌ﴾:

الرّبط المباشر بين الشَّرط والجزاء بيانٌ لأثر الشَّرط الإلهيّ في الجزاء الأخرويّ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنُزُلٌ مِّنۡ حَمِيمٍ﴾ رابطة لجواب الشَّرط، فقد جاءت لتُفصِح عن جواب الشَّرط السّابق في قوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، فهي تفيد أنَّ ما بعدها نتيجة لما قبلها، أي: إن تحقَّق هذا الفرض - وهو كونه من المكذِّبين الضّالّين - فالجزاء الَّذي يترتَّب عليه هو أن يكون له نُزلٌ من حميم، لا غيره، فالفاء تفيد ربط الجزاء بحال صاحب الشَّرط ربطًا مباشرًا يُشعر بالبداهة واللُّزوم.

دلالة مفردة (نزل) وتكرارها في السّورة:

إيـراد المكـذِّبين نـزل الحميم وتعذيبهم بنارٍ مؤجَّجة

استعمال مفردة (نُزُل) في قوله تعالى: ﴿فَنُزُلٌ مِّنۡ حَمِيمٍ﴾ جاء في غاية البلاغة؛ إذ إنَّ لفظ النُّزُل يُطلَق على ما يُقدَّم للضَّيف عند نزوله، من الطَّعام والرّاحة والضّيافة[2]، فاللَّفظ في أصله يدلُّ على الإكرام، لكنَّه استُخدِم هنا على وجه التَّهكُّم والسُّخرية، فجعل ما يُقدَّم للمكذِّبين عند نزولهم آخرتهم هو حميم - أي: شراب حارٌّ يغلي - بدلًا من الكرامة والنَّعيم، فجاء التَّعبير جارحًا صادمًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 349.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 2/ 232.

يُصوِّر حالهم، وكأنَّهم ضُيِّفوا في دار، ولكنَّها دار العذاب، وما يُقدَّم لهم فيها هو العذاب نفسه، فاختير له لفظ يُشبه ما يُقال في مقام التَّكريم، لكنَّ الواقع أنَّه تجسيد للإهانة، وهذا من أبلغ ضروب المفارقة البلاغيَّة الَّتي تُثير التَّأمُّل وتوقع التَّهويل مع التَّهكُّم الشَّديد.

بلاغة التَّهكُّم في استعمال مفردة (نزل):

المكذِّب للحقِّ والضَّال عن الهدى يستحقُّ إكرامًا بغير معناه وتشريفًا بغير مبناه

في التَّعبير بقوله: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ تنطوي بلاغة تهكُّميَّة لاذعة؛ إذ استُعمِلت لفظة (نُزُل) - وهي في أصل معناها ما يُهيَّأ للضَّيف عند نزوله من كرامة ومأدب - في موضع العذاب، فجُعِل الحميم هو الَّذي يُستقبَل به المكذِّبون الضّالّون، فكأنَّهم ضُيِّفوا على دار، وما جُعِل لهم فيها ممّا يُقدَّم عادة للزّائرين، لم يكن طعامًا ولا راحة، بل كان شرابًا من الغليان، وسَقيًا من المهانة[1]، وهذا من أبلغ أنواع السُّخرية البلاغيَّة، إذ تُستعار ألفاظ الكرامة لمعاني العقوبة؛ ليكون وقعها أشدَّ وأوجع، ويُشعر السّامع بقلب الأحوال ونكسة المصير.

والتَّهكُّم هنا جاء بعد بيان صفاتهم ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، فناسب أن يُعامَلوا بألفاظ تُشبه أحوال الكرم في ظاهرها، لكنَّها في باطنها نكالٌ وعذاب جزاءً وفاقًا، ولتكون مفارقة التَّعبير كاشفة عن شناعة حالهم، ومن هذا الباب قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ٦٧﴾ [الصّافات: 67].

نوع ﴿مِّنْ﴾ ودلالتها:

فائدة (مِن) البيانيَّة تحديد النُّزُل وبلاغة التَّحقير

في قوله تعالى: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ جاءت ﴿مِّنْ﴾ بيانيَّة، وهي الدّاخلة على جنس ما يُبيَّن به مضمون (نُزُل)، أي: الشَّيء الَّذي يُقدَّم ابتداءً لمن يُستقبَل، فالمعنى: أنَّ هذا الحميم هو عين النُّزُل لا جزءًا منه ولا مشتقًّا، بل هو بذاته ما يُتهيَّأ لهم عند نزولهم في

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 254.

العذاب، وهذا التَّحديد يفيد التَّنكير الممزوج بالتَّهويل، فليس ثمَّة صنف آخر ينتظرهم، ولا باب مفتوح للنَّجاة.

فائدة اختيار لفظ ﴿حَمِيمٍ﴾:

تـصـويـر أقـصى درجات العذاب بـأشـدِّ درجـات الحرارة

اختير لفظ ﴿حَمِيمٍ﴾ في قوله: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على أقصى ما يُتصوَّر من العذاب حسًّا ومعنًى، ولأنَّ هذا اللَّفظ في ذاته يحمل دلالات حراريَّة مرهبة، فهو مأخوذ من الحُمّى، أي: الحرارة الشَّديدة الَّتي تغلي بها الأجسام، وهو الماء البالغ الغليان حتَّى يُحرق، ولا يُروى به الظَّمأ، فجاء استعماله في هذا السّياق؛ لتصوير النُّزُل الَّذي يُستقبَل به المكذِّبون الضّالّون، على سبيل المشاكلة التَّهكميَّة؛ إذ النُّزُل عادةً ما يكون ممّا يُكرَّم به الضَّيف، فجعل أوَّل ما يُستقبَلون به (حميمًا)، لا يُستساغ شربه، بل يُلهب الأحشاء، ويزيد العذاب، وفي هذا تهويل من العاقبة، وتحقير لحالهم، وتنبيه على أنَّ هذا المصير هو جزاء تكذيبهم وضلالهم، لا عفو ولا كرامة فيه.

نكتة عطف ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ على السّابق:

تصعيد البلاغة فـــي تـصـويـر العذاب وتدرُّجه

جاء عطف ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ على ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ لبيان أنَّ ما أُعِدَّ لهؤلاء المكذِّبين الضّالّين ليس نوعًا واحدًا من العذاب، بل درجات متصاعدة من الإهانة والعقوبة، تتوالى دون فاصل، وتزداد شدَّةً وفظاعة، فـ(النُّزُل) هو ما يُقدَّم للضَّيف عند نزوله، وقد استُعمِل تهكُّمًا لما فيه من إظهار الكرم في معرض الغضب، ثمَّ عُقِّبَ ذلك بـ(تصلية الجحيم)، وهي الإقامة في نار تلظّى، لا مجرَّد مرور أو اقتراب.

والبلاغة في هذا العطف أنَّه كشف عن أنَّ عذابهم ليس عارضًا ولا عابرًا، بل هو مُرتَّب، موصول، فيه تهويلٌ وتفنُّنٌ في الإيلام، مناسبٌ لوصفهم بـ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، فجاءت الجملة في نهاية التَّقسيم الثُّلاثيِّ؛ لتكون خاتمة سوداء تقابل مصير المقرَّبين

وأصحاب اليمين، وتُظهر العدل التّامَّ والميزان الدَّقيق الَّذي وُزِّعت به المآلات.

تصعيد وصف جزاء المكذِّبين تدرُّج في التَّهويل وقطع للرَّجاء في سياق الجزاء

دلالة اختيار مفردة ﴿وَتَصۡلِيَةُ﴾:

التَّصلية: مصدر صلَّى المشدَّد، (وأصل الألف فيه ياءٌ)؛ إذا أحرقه، وشواه، يقال: صلَّى اللَّحم تصلية؛ إذا شواه، وهو هنا من الكلام الموجَّه؛ لإيهامه أنَّه يُصلّى له الشِّواء في نزله على طريقة التَّهكُّم، أي: يحرّق بها، والجحيم: يُطلق على النّار المُؤجَّجة، ويُطلق عَلَمًا على جهنَّم دار العذاب الآخرة[1]، فاختير تصلية؛ لبيان نوعها، وهو تصعيدٌ في العذاب؛ إذ بدأ العذاب بنُزُل الحميم، ثمَّ رفع وتيرة التَّهويل فذكر التَّصلية المخصوصة بكونها من جحيم.

لتعيين هول العذاب وبلاغة الإضافة المفعوليَّة

دلالة الإضافة:

إضافة ﴿وَتَصۡلِيَةُ﴾ إلى ﴿جَحِيمٍ﴾ في قوله: ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ هي إضافة مفعوليَّة، تفيد أنَّ الجحيم هو محلُّ التَّصلية ومكانه، أي: إدخالهم في نار تتَّقد اتِّقادًا شديدًا يحترقون بها إحراقًا مستمرًّا، وقد وُضِعت هذه الإضافة؛ لإبراز هول الفعل وشناعة موقعه، فالتَّصلية وحدها تفيد الإدخال في النّار، أمّا إضافتها إلى الجحيم؛ فتصيِّرها أشدَّ وأفظع؛ لأنَّ الجحيم أبلغ ما يُتصوَّر من النّار في شدَّتها واضطرامها، وفي هذه الإضافة تعيينٌ وتخصيص، فليست أيَّ نار، بل جحيم مخصوص، معلوم الوصف، دائم الاشتعال، فالإضافة لبيان نوع التَّصلية.

اختيار لفظ (جحيم) لبيانِ شدَّة الاشتعال وكونه عَلَمًا على ذلك

بلاغة اختيار ﴿جَحِيمٍ﴾:

اختير لفظ ﴿جَحِيمٍ﴾ دون غيره من أسماء النّار في قوله تعالى: ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾؛ لما في هذه المفردة من خصائص لفظيَّة ومعنويَّة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 350.

تتلاءم مع مقام الوعيد والتَّقريع، وتحقُّق مقصود السّياق في تصوير العذاب بأشدِّ صوره.

فـ(الجحيم) النّارُ الشَّديدة التَّأجُّج والالتِهاب[1]، فهي مأخوذة من (الجَحم)، وهو شدَّة الاتّقاد والتَّلهُّب، جحمت النّار؛ إذا اضطرمت، وجمر جاحم؛ إذا اشتَدَّ اشتعاله[2]، ولهذا خُصَّت الجحيم - من بين أسماء النّار - بما يدلُّ على التَّوحُّش والاشتعال الَّذي لا يُطاق، فجاءت الكلمة هنا؛ لتجعل صورة العذاب المصوَّر بالتَّصلية أشدَّ إيلامًا في الذِّهن، وأوقع في النَّفس من مجرَّد ذكر (نار) أو (سعير)؛ إذ كلُّ جحيمٍ نارٌ، وليس كلُّ نارٍ جحيمًا.

بلاغة التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾:

توكيد جملة التَّذييلِ إشعارٌ بواقع المكذِّبين، وأنَّهم في غفلةٍ عن حقائق التَّهديد

اشتملت جملة التَّذييل على أربعة مؤكِّدات، وهي: ﴿إِنَّ﴾، واللام، وضمير الفصل، وإضافة شبه المترادفين[3]؛ إذ جاء التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ بأبلغ صوره؛ إذ اجتمع فيه توكيد بالحرف ﴿إِنَّ﴾، والتَّقديم بـ﴿هَٰذَا﴾، ودخول اللام في ﴿لَهُوَ﴾، ثمَّ الإتيان بتركيب معرَّف بالإضافة ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾، وكلُّ ذلك؛ لإثبات الحقيقة المعروضة قبله إثباتًا لا مجال فيه للرَّيب، وتقريرًا جازمًا لما تضمَّنته الآيات من تقسيم النّاس عند الموت إلى مقرَّبين، وأصحاب يمين، ومكذِّبين ضالّين، وما يتبع ذلك من جزاء مفصَّل.

بلاغة التَّذييل في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾:

في ختام السّورة تثبيتٌ للحقِّ وقطع باليقين

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾، يعني الجزاء المبين[4]، وهو تذييل لجميع ما اشتملت عليه السّورة من المعاني المُثبَّتة[5]، وجاء

(1) الخليل، العين: (جحم).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (جحم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 350.
(4) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 646.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 350.

هذا التَّذييل في ختام عرض مصائر أصناف النّاس الثَّلاثة في ساعة الموت وما بعدها؛ ليكون بمنزلة الحصيلة المُقرَّرة لما سبق، والخاتمة الَّتي تُثبِّت في القلب حقيقة ما عُرِض، وتُغلق الباب على التَّردُّد أو التَّكذيب، فالتَّذييل هنا ليس زيادة فحسب، بل هو توطيد لمعاني التَّفصيل السّابقة، وتثبيت لها في النَّفس، بعد أن استُعرِضت بأسلوب الشَّرط والتَّمثيل.

والتَّذييل بهذه الصّيغة البلاغيَّة له أثر في الانتقال بالذِّهن من مقام التَّصوير والتَّقسيم إلى مقام التَّصديق والتَّسليم، فبعد أن يطوف السّامع بين أحوال الموتى في مصائرهم، يُختَم له بالمؤكَّد الَّذي يجعله يوقن أنَّ كلَّ ما مرَّ إنَّما هو الحقُّ المحض، لا شبهة فيه.

غرض الإشارة باسم الإشارة للقريب:

تنزيل المعاني منزلة المشاهدات المحسوسات

الإشارة باسم الإشارة للقريب في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ جاءت؛ لتعظيم المشار إليه وتقريبه في الذِّهن[1]، كأنَّه حاضر منظور، لا مجرَّد أمر غائب متخيَّل، والمقصود بـ﴿هَٰذَا﴾ ما تقدَّم ذكره من تفصيل أحوال الإنسان عند الموت، ومصير كلِّ صنف من أصناف النّاس الثَّلاثة، في مقام تصوير المصير الأخرويِّ في لحظاته الفاصلة، ففيه تنزيل المعنى منزلة المحسوس المَرئيِّ.

بلاغة ضمير الفصل (هو):

توكيد القصر وتثبيت الحقِّ وترسيخ المؤمن وتنحية المنافق

جاء ضمير الفصل في قوله: ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ لتوكيد الحكم وتثبيته، وهو من مواضع البلاغة الَّتي يُستعمَل فيها هذا الضَّمير لإفادة القصر، أي: إنَّ هذا لا غيره هو حقُّ اليقين، فنُفيَت عنه مشابهة الباطل، وأُثبِت له أسمى درجات الحقِّ.

وهذا الأسلوب يُفيد تخصيص الخبر بالمبتدأ تخصيصًا مؤكَّدًا، على وجه يقابل به تكذيب الكافرين وتساهلهم بما جاء في هذا

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 82.

الحديث، فذكر ضمير الفصل هنا ليس لمجرَّد الرَّبط، بل لأداء معنى القصر والتَّوكيد، حتَّى يُفهم أنَّ هذا البيان - الَّذي تضمَّن مصائر النّاس الثَّلاثة - هو وحده الحقيقة الكاملة، لا يُدانيها ريب، ولا يُلحق بها باطل، بل هو حقُّ اليقين، لا ظنًّا ولا تخمينًا، "قال قتادة في هذه الآية: إنَّ الله ﷻ ليس تاركًا أحدًا من النّاس حتَّى يوقفه على اليقين من هذا القرآن، فأمّا المؤمن؛ فأيقن في الدُّنيا، فنفعه ذلك، وأمّا المنافق؛ فأيقن يوم القيامة حيث لا ينفعه"[1].

بلاغة إضافة الصِّفة إلى الموصوف:

تعظيم التَّوكيد وتفرُّد المعنى بأنَّه البالغ الدَّرجة العالية من المديح

إضافة الصِّفة إلى الموصوف في قوله تعالى: ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾، أي: (لهو اليقين الحقُّ)؛ وذلك أنَّ الشَّيء إذا كان كاملًا في نوعه؛ وصُف بأنَّه حقُّ ذلك الجنس، وهو من الأساليب البلاغيَّة الدَّقيقة الَّتي تنقل المعنى من مجرَّد الوصف إلى مرتبة من التَّعظيم والتَّوكيد، فالمعنى: أنَّ الَّذي قصصنا عليك في هذه السّورة هو اليقينُ حقُّ اليقين[2]، فـ ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ تركيب إضافيٌّ أُريد به توصيف ﴿ٱلۡيَقِينِ﴾ نفسه، لا بوصفٍ خارجيٍّ طارئ، بل بوصفٍ كأنَّه صار له عنوانًا وذاتًا، فكأنَّ (الحقَّ) صار نفس ﴿ٱلۡيَقِينِ﴾ لا صفةً لاحقة عليه، وفي هذا مبالغة في الثَّبات والصِّدق، "ويجوز أن تكون الإضافة بيانيَّة على معنى (مِن)، وحقيقته على معنى اللّام بتقدير: لهو حقُّ الأمر اليقين"[3]، ووجه البلاغة في هذا الأسلوب أنَّ الإضافة من هذا النَّوع تفيد التَّفرُّد والاختصاص، كأنَّما قيل: (هذا هو اليقين الَّذي هو أقصى درجات الحقِّ)، أو: (هذا هو الحقُّ الَّذي بلغ من القطع مبلغ اليقين في القلوب، حتَّى صار يُرى كالمُشاهَد لا يُرتاب فيه)، وهي درجة تعلو (علم اليقين)، وتجاوز (عين اليقين)، كما جاء في تنوُّع

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 431.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 350.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 350.

مراتب الإدراك في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التَّكاثر: 5 - 8].

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡيَقِينِ﴾:

اليقين الكامل التّامُّ في معناه وحقيقته هو المبيَّن في هذه السّورة

أداة التَّعريف (الـ) في لفظ ﴿ٱلۡيَقِينِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ تُفيد الاستغراق الجنسيَّ[1]، أي: الَّتي تدلُّ على الحقيقة الكاملة لمفهوم الاسم الدّاخل عليه، لا لمعهود معيَّن أو فرد مخصوص منه، فـ﴿ٱلۡيَقِينِ﴾ هنا ليس يقينًا خاصًّا معيَّنًا يُقابَل بغيره، وإنَّما هو الحقيقة الجامعة لليقين كلِّه، أي: جنس اليقين في أعلى مراتبه وأشدِّ صوره وضوحًا وقطعًا.

واختيار هذه (الـ) الاستغراقيَّة يراد به إفادة أنَّ ما ذُكِر في الآيات من أحوال الموت وما بعده ليس مجرَّد مثال من أمثلة اليقين، بل هو تمامُ حقيقة اليقين ومظهرها الأكمل، فهو لا يحتمل ريبًا، ولا يشوبه شكٌّ، ولا يُحتاج معه إلى مزيد توكيد أو دليل.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ﴾:

الفاء الفصيحة تربط النَّتيجة بالشَّرط وتُثبِّت التَّسبيح الواجِب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ "رابطة لجواب شرط مقدَّر ﴿بِٱسۡمِ﴾ متعلِّق بحال من فاعل سبِّح"[2]، وهي فاء الفصيحة، وهي الَّتي تُفصح عن شرط مقدَّر أو نتيجةٍ ضمنيَّة يفهمها الذِّهن من السّياق، وتُفيد ترتُّب ما بعدها على ما قبلها معنًى لا زمَنًا.

وقد جاءت هنا بعد ختم السّياق العظيم بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾، فكان المعنى: إذا علمت أنَّ ما سبق هو حقيقة اليقين، لا

---

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 107.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 27/ 126.

مرية فيه ولا خفاء، وأنَّ مصير الإنسان يتوقَّف على حاله عند لقاء ربِّه، فكان لزامًا أن تُقابل هذه الحقيقة العظمى بالتَّسبيح لربِّها، فـ﴿فَسَبِّحْ﴾ جاءت إثر هذا البيان؛ لتكون نتيجة طبيعيَّة لما تقدَّم من عرض مشاهد القيامة ومصير الخلق، وكأنَّك إذا أيقنت حقًّا بما سمعته، لم تملك إلّا أن تُنزِّه اللّٰه عن كلِّ ما لا يليق بعظمته، وتُعظِّمه بهذا الذِّكر الجامع.

وذكر ابن عاشور أنَّ الفاء هنا "تفريع على تحقيق أنَّ ما ذكر هو اليقين حقًّا، فإنَّ ما ذُكِر يشتمل على عظيم صفات اللّٰه وبديع صنعه وحكمته وعدله، ويبشِّر النَّبيَّ ﷺ، وأمَّته بمراتب من الشَّرف والسَّلامة على مقادير درجاتهم وبنعمة النَّجاة ممّا يصير إليه المشركون من سوء العاقبة، فلا جرم كان حقيقًا بأن يؤمر بتسبيح اللّٰه تسبيحًا استحقَّه لعظمته، والتَّسبيح ثناء، فهو يتضمَّن حمدًا لنعمته وما هدى إليه من طرق الخير"[1].

غرض الأمر في فعل (سبِّح):

تعظيم القلب واستحضار عظمة الله بعد بيان الحقائق الكبرى

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو أمر تعبُّديٌّ يراد به تحريك النَّفس إلى التَّعظيم والتَّنزيه بعد أن شُحن السّياق كلُّه بمشاهد الحقائق الكبرى: مفارقة الرّوح للجسد، ومصائر النّاس في الدّار الآخرة، ومقام التَّهديد للمكذِّبين، والتَّبشير للمقرَّبين.

فكأنَّ اللّٰه تعالى بعد أن عرض حقائق الموت والجزاء، وأبان أنَّها من حقِّ اليقين؛ نبَّه السّامع إلى ما يجب أن يكون أثر هذا اليقين في النَّفس، ألا وهو الانفعال للّٰه بعظمته، والانخلاع من الغفلة، والتَّسبيح تعظيمًا للرَّبِّ الَّذي رتَّب هذه المصائر بحكمة وعدل.

وهذا الأمر بالتَّسبيح ليس لمجرَّد الذِّكر اللَّفظيِّ، بل هو توجيه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 350.

إلى الانقياد القلبيِّ والتَّخلية من شوائب التَّعظيم لغير اللّه، واستحضار كمال صفاته، بعد أن أبانت السّورة جلال تدبيره في الخلق والموت والبعث.

نوع الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِٱسۡمِ﴾:

التَّبرُّك باسم اللّه تعالى كاشف عن التَّعظيم وموصل إلى التَّبجيل

الباء في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هي باء الملابسة، أي: سبِّح ملابسًا اسمَ ربِّك، أي: متلفِّظًا به، وجاعلًا التَّسبيح مقترنًا بذكره، لا مجرَّد تنزيه مجرَّد عن المُسمَّى، فالمقصود أن يكون التَّسبيح باسم اللّه العظيم، لا بذات منقطعة عنه، بل على وجه يليق بجلاله.

وهذه الباء تفيد التَّبرُّك أيضًا، أي: سبِّحه مستعينًا ومتزوِّدًا ببركة اسمه، وفيه ما يُشعر بأنَّ ذِكر اللّه في ذاته قوَّة تهدي، وتسند، وتطهِّر النَّفس، وتُؤهِّلها للانقياد والخشوع، فيكون التَّسبيح على وجهه الأكمل.

دلالة إضافة (اسم) إلى لفظ الرُّبوبيّة:

الاسم المنجي من ضلال المكذِّبين مضافٌ إلى دليل العناية والرِّعاية

جاءت الإضافة في (اسم ربِّك) على وجه بليغ جامع، يحمل معاني الرِّعاية والامتنان والتَّمجيد معًا؛ إذ أُضيف (اسم) إلى ﴿رَبِّكَ﴾ دون غيره من الأسماء الإلهيَّة، فاختير الوصف الجامع لمعاني العناية واللُّطف والتَّدبير؛ ليكون التَّسبيح متوجِّهًا إلى الرَّبِّ الَّذي يتولّى عباده من لحظة وجودهم حتَّى مصيرهم الأبديِّ، وهو ظاهر المناسبة مع تفصيل أحوال النّاس عند الموت في سياق السّورة.

غرض إضافة لفظ الرُّبوبيّة إلى ضمير المخاطَب:

إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَب في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾، جاءت على وجه بليغ، لما فيها من إشعارٍ بالقرب والتَّكريم، وبيانِ صلةٍ خاصَّة بين المخاطَب وربِّه، واختيرت الرُّبوبيَّة دون غيرها من الأسماء الإلهيَّة؛ لأنَّها أنسب بالمقام الَّذي

يُذكِّر فيه الإنسان بمبدئه ومصيره، وتُعرض فيه درجات النّاس عند لقاء ربِّهم، ففي إضافة (ربّ) إلى ضمير المخاطَب (ك) ما يفيد اختصاص هذا الرَّبِّ بتربيتك ورعايتك وهدايتك، فهو ربُّك الَّذي يوحى إليك هذا البيان، والَّذي دعاك لتبليغ هذا التَّفصيل البين، وهو تعبير يشي بكمال الصِّلة بين العبد والرَّبِّ، لا سيَّما إذا جاء بعد تقرير حقائق المعاد والمصير، بما يُحفِّز العبد على مزيد من الخضوع والتَّنزيه.

الإشعار بالقرب والتَّكريم والتَّشريف لما آمن بالعظيم

فائدة الوصف بصفة ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾:

اختيار وصف اللّه العظيم في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لأنَّ العظيم هو الَّذي ملأت عظمته جميع الأقطار والأكوان، وزادت على ذلك بما لا يعلمه حقَّ العلم سواه؛ لأنَّ مَن له هذا الخلق على هذا الوجه المحكم، وهذا الكلام الأعزُّ الأكرم، لا ينبغي لشائبة نقص أن تلمَّ بجنابه، أو تدنو من فناء بابه"[1]، فجاء وصف الرَّبِّ في ختام هذه السّورة بـ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لمناسبة ما سبق من تفصيلٍ جليل في شؤون المصير والجزاء، وما انطوت عليه الآيات من عظمة التَّدبير الإلهيِّ في مصائر الخلق وتقسيمهم إلى مراتبَ ثلاثة، تتباين بين قربٍ وجنَّةٍ، وسلامٍ وأمان، ونزلٍ من حميم وتصلية جحيم، فكان في ختام ذلك أنْ أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ - ومَن وراءه كلُّ سامع معتبر - بأن يُسبِّح اللّه ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ تنزيهًا لمن أجرى هذه القسمة العادلة، وأظهر هذا السُّلطان المطلق، وحكم على العباد بما كانوا عليه، فلم يظلم أحدًا، ولا غاب عنه شيء من أمرهم.

وصف (العظيم) هو الأنسب لسياق السّورة ولمعاني نظمها وحقائق رصفها

والوصف بـ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ هو من أعظم أوصاف الكمال والجلال، فهو يُشعر بجلال الرَّبِّ وعظيم سلطانه، وما ينبغي له من تعظيم وتنزيهٍ وتمجيد، لا سيَّما بعد أن بُيِّنت دلائل قدرته في خلق الإنسان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 431.

ومصيره، وفي تسخيره للمقادير، وفي كشفه لحقائق الغيب الَّتي يعمى عنها المكذِّبون.

براعة التَّصدير بردِّ العجز على الصَّدر بين أوّل السّورة وآخرها:

إحكام الرَّبط بين المطلع والختام بفنِّ التَّصدير البلاغيِّ

إنَّ سورة الواقعة تمضي في بنائها البيانيِّ على نسقٍ عجيبٍ من إحكام الرَّبط بين المطلع والختام، حتَّى كأنَّ أوَّلها ينادي آخرها، وآخرها يُتمُّ ما ابتدأه صدرها، وهذا ما يسمّيه البلاغيّون ردَّ العجز على الصَّدر.

"وقد انطبق آخر السّورة على أوَّلها، في الإخبار بالبعث وتصنيف الخلائق فيه إلى الأصناف المذكورة في أوَّلها أيَّ انطباقٍ، وزاد هذا الآخر بأن اعتنق بدليله أيَّ اعتناق، واتَّفق مع أوَّل الَّتي بعدها أيَّ اتِّفاق، وطابقه أجلَّ طباق، وخُتِمت بصفتي الرَّحمة والعظمة، وجلت عن الاسم الجامع كاللَّتين قبلها لما ذكره في أواخر القمر بصفتي الرَّحمة والعظمة، من أنَّه لم يذكر في واحدة من الثَّلاث أحدًا من أهل المعصية المصاحبة للإيمان؛ ليخاطب بالاسم الجامع للإهانة والإحسان"[1]، وهنا يتولَّد التَّصريع، فالسّورة وقد أثارت سؤال الحياة والموت، جعلت جواب ذلك السُّؤال في خواتيمها، وهنا يتحقَّق فنُّ ردِّ العجز على الصَّدر، فالصَّدر فتح باب التَّحدّي، والعجز أغلقه بحكم قاطع: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾، ثمَّ عقَّب بخاتمة التَّسليم والخضوع: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾، فإنَّك ترى خيطًا بيانيًّا يشدُّ أوَّل السّورة بآخرها، فالسُّؤال الَّذي طرق أسماعهم في صدرها: أأنتم تُكذِّبون بالبعث؟ أفتملكون ردَّ الرّوح؟ قد جاء جوابه في خاتمتها: ها هي مصائر الأرواح، وهذا فصل الخطاب، فسَبِّح باسمِ رَبِّكَ العَظيمِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 431.

سُورَةُ الحَدِيدِ

سُورَةُ الحَدِيدِ

❁ التّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّيُّ والمدَنيُّ وعَدُّ الآي:

مدينة على رأي الجمهور، وفي تحديد نزول آياتها خلاف بين المفسرين

سورة مدنيَّةٌ على رأي الجمهور، غير أنّ ابن عاشور ذكر فيها من الاختلاف ما ليس في غيرها، حيث قال: "وفي كون هذه السّورة مدنيَّةً أو مَكّيَّة اختلافٌ قَويٌّ لَم يُختلَف مثله في غَيرها"[1]، وأمّا عدد آياتها؛ فتسع وعشرون في العدد المدنيّ والكوفيّ، وثمانٍ وعشرون في عدد الباقين، واختلف الكوفيّ والبصريّ في آيَتَيْن[2].

ترتيب النزول وترتيب المصحف:

هي السّورة السّابعة والخمسون من حيث ترتيبها في المصحف الشّريف، بعد سورة الواقعة، وقبل سورة المجادلة، وأمّا ترتيبها النُّزوليّ، فقد عدّها السّيوطيّ نازلة بعد سورة الزّلزلة، وقبل سورة محمّد ﷺ في المرحلة المتأخّرة من العهد المدنيّ[3]، وقال ابن عاشور: "عُدَّتِ السّورَةُ الخامسة والتِسْعينَ في تَرتيبِ نُزولِ السّوَرِ جَرْيًا على قَوْلِ الجُمْهورِ: إنَّها مَدَنيَّةٌ، فقالوا: نزلت بعد سورة الزلزلة وقَبل سورة القتال، وإذا روعي قول ابن مسعودٍ: إنَّها نزَلَت بعد البعثة بِأربعِ سنين، وما روي من أنَّ سبب إسلام عُمر بن الخطّابِ أنّه قرأ صحيفةً لأخته فاطِمة فيها صدر سورةِ الحديد - لَم يستقم هذا العَدُّ، لأنَّ العبرة بمكان نزول صدر السّورة لا نزول آخرها، فَيُشكِل مَوضعُها في عدِّ نزول السّورة"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 353.
(2) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 241.
(3) السيوطي، الإتقان: 1/ 43.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 354.

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

لم يُعرف لسورة الحديد إلّا هذا الاسم التّوقيفيّ، وقد اختلف المفسِّرون في تعليل التّسمية، لكنّها ارتبطت بذكر كلمة (الحديد) في الآية الخامسة والعشرين التي جاءت في سياق الحديث عن نِعَم الحقّ سبحانه على البشريّة، بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 25]، فالحديد بما يحمله من صفات ترتبط بالبأس والقوّة رمزٌ للنّصر والتمكين للنّبي المكين ﷺ، وسبب لإقامة العدل، فضلًا عن منافعه العظيمة في شؤون المجتمعات[1].

وذكر ابن عاشور أنّ السّورة سمّيت بالحديد؛ لورود اللّفظة فيها بوجهٍ بيّن، مع أنّ السّورة تناولت موضوعاتٍ أخرى، كالتّوحيد والإنفاق في سبيل اللّه، لكنَّ ذكر الحديد كان مميّزًا لارتباطه بقوَّة الإنسان، وما يحصل به من منافعَ تأييدًا للدّين ومدافعةً للمعتدين[2]. ثمّ ما يُلحظ جليًّا في منافعه المتعدّدة التي تشمل مختلف الصّناعات والحِرَف، وآلات الزّراعة حتّى يكاد لا يخلو شيء من احتياج إلى الحديد[3].

يرتبط الحديد بموضوعات السورة ومحورها ارتباطًا وثيقًا

ومع ذلك؛ فلا يوجد سبب قطعيّ للتّسمية غير ورود لفظ (الحديد)، لكنّ المناسب أنّ التّسمية جاءت لارتباط الحديد بموضوعات السّورة الرّئيسة؛ وهي الشّكر على النّعم، والحديد نعمة عظيمة، والحديد أداةٌ للجهاد في سبيل اللّه، وقوّةٌ للأمّة مادّية ومعنوية، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: 25]، حيث يُذكر الحديد بعدها مباشرة رمزًا للعدل والقسط.

ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمحور العام، حيث يرمز إلى القوة

(1) المهايمي، تبصير الرحمن وتيسير المنان، ص: 319.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 353.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 842.

والصلابة، وعظمة اللّه في قدرته على خلق هذه المادة الصلبة، التي تستخدم في السلاسل والأسلحة والدفاع عن الحق، وكلما كانت المادة قوية، كانت دلالة على عظمة المُبدع. ولكون الحديد قُدوةً للقوة، فإن اسمها يُبرز أهمية القوة في العقيدة والعمل، ويؤكد أن القوة الحقيقية للّه، وأن على الإنسان أن يستمد قوته من خالقه، وأن يكون صلبًا في إيمانه، مواسيًا بين صفات اللّه من القوة والحكمة، وهو بذلك يربط اسم السورة بمحورها العام الذي يدور حول عظمة اللّه في قدرته، وأهمية استمدادِ الإنسان للقوّة من الإيمان والعمل الصّالح.

المحور العام للسورة:

القـوة الفعلية لا تـتـجّـلى إلّا إذا اسـتـمـدّ الإنـسـان قـوَّتَه من الله بالإيمان والعمل الصالح

تُبرز سورة الحديد من خلال محورها المميز أن اللّه هو صاحب القوة المطلقة، وأن الحديد رمز لصلابة هذه القوة وقدرتها. وتؤكد السورة أن القوة الحقيقية ليست إلا للّه وحده، وأن استمداد الإنسان لها يجب أن يكون من مصدرها الأوحد، وهو اللّه القادر على كل شيء. هذه المفاهيم تدعو المسلمين إلى فهم أهمية الاعتماد على اللّه في كل حين، والتمسك بالإيمان والعمل الصالح كوسيلة لتحقيق النجاح والفوز في الدنيا والآخرة، ويظهر ذلك من خلال ما يأتي:

أوّلًا: تُبيّن السورة أن عظمة اللّه في خلق المادة، خاصَّةً الحديد، تأتي كدليل على قدرته المطلقة، حيث جعل من الحديد أداة لقوة الناس ومصدرًا للتقدم والصناعة. فهذه المادة، رغم صلابتها، هي من خلقه، والتذكير بذلك يدعو الإنسان إلى التعظيم للّه وإدراك أن جميع وسائل القوة مخلوقة بإرادته، وأنها لا قيمة لها إلا إذا قُدمت في خدمة دينه وعباده.

ثانيًا: تؤكّد السورة أنّ القوّة الفعلية لا تتجلّى إلّا إذا استمَدّ الإنسانُ قُوَّتَه من اللّه بالإيمان والعمل الصالح؛ فالجهاد، والبذل، والصَّبْر على المصاعب ليست إلا وسائل لاستمداد قوة روحية، تمكِّن

الإنسان من مواجهة تحدِّيات الدّنيا، وتحقيق النجاح في الآخرة. وهذه القُوَّة الروحية هي التي تجعل الإنسان يَعْلو على ذاته، ويُرَوِّض الظروف، مستعينًا بالله، متوكِّلًا عليه.

ثالثًا: تشدِّد السورة على أن الله هو وحده مسبِّب أسباب القوة، وأن الإنسان لا يملك من أمره شيئًا إلا بتوفيق منه، لذا فإنّ التوكل على الله، والتقرب إليه بالبذل والعطاء في سبيله، هو السبيل الحقيقي لتحقيق النجاح والفلاح. كما أن الباطن في القوة هو استمدادها من الله، وهو الدافع وراء الجهاد والبذل، وهو الطريق الذي يوصّل العبد إلى رضوان الله والنصر في الدنيا والآخرة[1].

موضوعات السورة وخصائصها:

أوّلًا: تبدأ السورة بتأكيد عموم رسالة الإسلام وشمولها لجميع الخلق، مع بيان أن الله هو الذي أنزل الكتاب والحكمة، وأنه تفرّد بصفات الكمال، رَدًّا على شكوك المشركين، وتثبيتًا لحقيقة البعث والجزاء (آيات: 1 – 4).

ثانيًا: تُبرِز عظمة الله في خلق السماوات والأرض، وتؤكِّد قدرته على إحياء الموتى، مع وصف صفاته من العلم والحكمة، لتمكين الإيمان بقوة الله وإرادته المطلقة (آيات: 5 – 19).

ثالثًا: تركز السورة على أهمية الإيمان والعمل الصالح، وتحث على بذل النفس والمال في سبيل الله، مع التحذير من قسوة القلوب والانشغال بالدنيا وزينتها، وتربط بين ذلك وبين جزاء الله للمحسنين والمسيئين (آيات: 20 – 29).

رابعًا: تتناول السورة مسألة إظهار الحق وضرورة التمسك بالإيمان، وتذكر أن الله يختبر عباده ليبيّن المؤمنين، وأن إنفاق المال والصبر من علامات الإخلاص، وتؤكد أن الله هو المطلع على أعمال الجميع، وأن خير الجزاء للمتَّقين (آيات: 30 – 36).

خامسًا: تتحدث عن انحراف الأمم السابقة، وتوضِّح أن الفساد كان نتيجةً لابتعادهم عن أوامر الله ورَفْضِهم رسلَه، مع عرض نماذج من الفساد وانحراف الأخلاق، لبيان أن الله تعالى هو السلطان الحق وأهل العلم والمعرفة (آيات: 37 – 44).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 250، ودروزة، التفسير الحديث: 9/ 296.

سادسًا: تشير السورة إلى أخلاق أتباع عيسى عليه السلام، مع التّنبيه إلى فسق فريق منهم وما آل إليه أمرهم، ومطالبًا المسلمين بالتمسك بالأخلاق الصحيحة، مع المعارضة للمنافقين الذين يُضِلّون الناس ويخدعونهم (آيات: 45 – 53).

سابعًا: تُختتم السورة بالتأكيد على أن اللّه هو العزيز الحكيم، وأنه لا يضرُّ إلا من أضاع حقَّ اللّه وتعلَّق بزينة الحياة الدنيا، وترغيب في التمسك بحبله والتوكل عليه، مع تذكير بنصر اللّه للمؤمنين ووعيده للكافرين (آيات: 54).

الخصائص الموضوعيّة للسّورة:

تتميّز سورة الحديد بكونها من السّور التي ترسم معالم المجتمع الإسلاميّ النّاشئ، حيث تتناول أربعةَ محاورَ رئيسةٍ مترابطة:

أولاً: تتميز سورة الحديد بالربط الواضح والمباشر بين المادة (الحديد) وعظمة قدرة اللّه، حيث يُذكر أن الحديد من مخلوقات اللّه التي أودع فيها قوىً عظيمة، مما يدلُّ على أن القوة المادية التي نتعامل معها ليست إلا آية من آيات اللّه، وأنه هو الذي يُشعرها بهذه القوة ويستخدمها في بناء وتطور الإنسان والمجتمع.

ثانيًا: تؤكد السورة على أن القوة الحقيقية والمباشرة لا توجد إلا من اللّه وحده، وأن الإنسان لا يملك من أمره شيئًا إلا إذا استمدَّ عونَه وقوَّتَه من اللّه، وهو ما يُبرز أهمية التوحيد والاعتماد على اللّه في كل شيء، سواء في التصدي للمصاعب، أو في تحقيق النجاح في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: تُبرز السورة دور الجهاد والبذل في سبيل اللّه كوسائل لاستمداد القوة الروحية والمعنوية، حيث تؤكد أن الإنفاق في سبيل اللّه والصبر على البلاء والثبات أثناء المواجهة، من الأمور التي تعزِّز قوة الإنسان الداخلية، وتحوِّله إلى شخص قويٍّ يواجه تحديات الدنيا بثباتٍ ورضًا.

رابعًا: تؤكِّد السورة أن اللّه يختبر عباده بالمِحَن والشدائد، سواء في مظاهر القوة أو في الخوف، وأن الهدف من ذلك هو تمحيص الإيمان وبيان مدى ارتباط العبد باللّه، وأن القوة الحقيقية والخلاص يكمنان في التوكل على اللّه، والبذل من أجله، لتحرير الإنسان من الاعتماد على المظاهر المادية فقط، ولتمكينه من الفوز بالنجاح في الدنيا والآخرة.

فسورة الحديد تمثّل نموذجًا للتّوازن بين الرّوح والمادّة، والفرد والمجتمع، والدّنيا والآخرة، وهذا البناءُ المُحْكَم يجعل من سورة الحديد دستورًا متكاملًا للمجتمع المسلم في جميع أحوالِه، حيث تَجْمَعُ بينَ تصحيح العقيدةِ وبناءِ الشّخصيَّة وإقامة الحضارةِ.

الخصائص الأسلوبيّة للسّورة:

تمتاز سورة الحديد بخصائصَ أسلوبيّة فريدة تميّزها من غيرها في القرآن الكريم، ومن أبرز هذه الخصائص:

أولاً: تميّزت السّورة الكريمة بكثرة أسلوب الجناس الاشتقاقيّ في آياتها، مثل قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: 11]، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤﴾ [الحديد: 14]، ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: 18]، ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ [الحديد: 24]، ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: 25]، ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ [الحديد: 27]، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [الحديد: 28]، وغيرها.

ثانياً: تميّزت السّورة الكريمة بتكرار بعض الألفاظ فيها بشكلٍ لافتٍ، فلفظة الإيمان ومشتقّاتها وردت نحو أربع عشرة مرّة[1]، وكذلك لفظة النّور إذ وردت ست مرّات[2]، وكذلك كلمة الإنفاق ومشتقّاتها وردت خمس مرّات[3]، فضلًا عن حديثها عن الإقراض[4] والبخل[5]، كذلك كلمة الفضل ومشتقّاتها خمس مرّات[6]، وكذلك السّماوات بالجمع والإفراد ست مرّات[7]، والأرض ثمان مرّات[8]، والعظيم ثلاث مرّات[9]، والغرور أربع مرّات[10].

ثالثاً: تكرّرت في السورة بعض الجمل والتّراكيب مثل: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ ثلاث مرّات[11]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ مرّتان[12].

(1) الآيات: 7(2)، 8(3)، 12(2)، 13، 16، 19، 21، 27، 28(2).
(2) الآيات: 9، 12، 13(2)، 19، 28.
(3) الآيات: 7(2)، 10(3).
(4) الآيات: 11، 18.
(5) الآية: 24(2).
(6) الآيات: 21(2)، 29(3).
(7) الآيات: 1، 2، 4، 5، 10، 21.
(8) الآيات: 1، 2، 4، 5، 10، 17، 21، 22.
(9) الآيات: 12، 21، 29.
(10) الآيات: 14(3)، 20.
(11) الآيات: 16، 26، 27.
(12) الآيات: 21، 29.

رابعاً: تميّزت السّورة الكريمة بوفرة المقابلات فيها لا سيّما الألفاظ المتطابقة مثل: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾، ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾، ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الحديد: 9] و﴿ٱلنُّورِۚ﴾ [الحديد: 9]، ﴿يَلِجُ﴾ [الحديد: 4] و﴿يَخۡرُجُ﴾ [الحديد: 4]، ﴿يَنزِلُ﴾ [الحديد: 4] و﴿يَعۡرُجُ﴾ [الحديد: 4]، ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ [الحديد: 6] و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ [الحديد: 6]، ﴿مِن قَبۡلِ﴾ [الحديد: 10] و﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ [الحديد: 10]، و﴿ٱلرَّحۡمَةُ﴾ [الحديد: 13] و﴿ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ [الحديد: 13]، و﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الحديد: 12]، ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ [الحديد: 13]، و﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ [الحديد: 18]، (البخل والإنفاق)، (الهداية والفسق)، وغيرها.

خامساً: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها ضمّت آية المعيّة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤﴾ [الحديد: 4]، وشاركتها بذلك جارتها سورة المجادلة في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ [المجادلة: 7]، مع اختلاف الأسلوب بينهما.

سادساً: جمعت آية واحدة في هذه السّورة بين أسلوبيّن من أساليب القصر في وصف الحياة الدنيا ومتاعها، وهما: أسلوب القصر بـ(إنّما) وبالاستثناء بعد النّفي، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: 20].

سابعاً: تميزت السورة بكثرة استعمال أسلوب الاستفهام، حيث أفاد الإنكار تارة نحو قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [الحديد: 8]، وأفاد التّحريض تارة أخرى نحو قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [الحديد: 11]، إضافة لما أفاده من التّقرير وذلك في قوله ﷻ: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: 16]، حيث عبّر بالأسلوب الاستفهاميّ الذي يتناسب مع الحالة التي جاءت تعالجها هذه السّورة من وجود طائفة من المسلمين في المجتمع المدنيّ، لم يكن الإيمان قد تمكّن من قلوبهم بعد؛ فجاء الاستفهام ليقرع أذهانهم، ويوقظ قلوبهم نحو الإيمان.

ثامناً: تميّزت السّورة الكريمة بأنها حوت أبنية صرفيّة لم تأت في غيرها من السّور، مثل: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾، ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾، ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾ [الحديد: 7]، ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾ [الحديد: 12]، ﴿ٱنظُرُونَا﴾ [الحديد: 13]، ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾ [الحديد: 13]، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ [الحديد: 13]، ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ [الحديد: 14]، ﴿يَأۡنِ﴾ [الحديد:

16]، ﴿وَتَفَاخُرُۢ﴾ [الحديد: 20]، ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ [الحديد: 21]، ﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ [الحديد: 22]، ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً﴾ [الحديد: 27]، ﴿كِفۡلَيۡنِ﴾ [الحديد: 28]، وغيرها.

مناسبة السّورة لما قبلها:

تتناول السورتان موضوعات تتصل بالإيمان بالله، وآياته في الكون، وعظمة البعث، وهو ما يُظهِر ترابطهما بشكل واضح وهو على الشكل الآتي:

أولاً: ذكر الغرناطيّ أنه لمّا تقدم في سورة الواقعة قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١﴾، واستمر توبيخهم إلى قوله: ﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧﴾، فلمّا أشارت هذه الآيات إلى قبائح مرتكباتهم أعقب تعالى ذلك بتنزيه الله ﷻ من سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾ أي نزّهه عن عظيم ضلالهم وسوء اجترامهم، ثمّ أعقب ذلك بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ثمّ أتبع ذلك بقوله له: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

ثانياً: بيّن تعالى انفراده بصفة الجلال ونعوت الكمال، وأنّه المنفرد بالملك والحمد، وأنّه الأوّل والآخر والظّاهر والباطن إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾ [الحديد: 6]، فتضمّنت هذه الآي إرغام من أشير إلى حاله في سورة الواقعة، وقطع ضلالهم، والتّعريف بما جهلوه من صفاته العلى وأسمائه الحسنى جلّ وتعالى، والتحمت آي السّورتين واتّصلت معانيها ثمّ صرف الخطاب إلى عباده المؤمنين فقال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: 7]، واستمرّت الآي على خطابهم إلى آخر السّورة[1].

ثالثاً: خُتمت سورة الواقعة بالأمر بالتّسبيح، وبُدِأت سورة الحديد بذكر التّسبيح من كلّ ما في السّموات والأرض.

رابعاً: إنّ سورة الحديد واقعة موقع العلّة للأمر بالتّسبيح في الواقعة، فكأنه قيل: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾ [الواقعة: 96]؛ لأنّه سبّح له ما في السّموات والأرض، فالله أمر بالتّسبيح، ثمّ أخبر أنّ التّسبيح المأمور به قد فعله، والتزمه كلّ ما في السّماوات والأرض[2].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 329 - 330.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 287.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾

[الحديد: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تناسق التّنزيه الإلهيّ بين ختام الواقعة وافتتاح الحديد

لمّا خُتِمت سورة الواقعة بالأمر بتنزيه الحقّ سبحانَه عمّا أنكره المكذّبون من البعث والجزاء؛ استهلّ سورة الحديد تقريرًا لذلك التّنزيه، وبيانًا له بالبرهان القاطع والدّليل السّاطع، فكأنّ قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ تعليلٌ لآخر الواقعة، وتأكيدٌ لعظمة المسبَّح بكلّ ما في الكون من آياتٍ باهرات[1]، فالعالم كلّه يسبّح بحمد ربّه، ويشهد بقدرته وحكمته على صحّة ما جاء به الوحيُ من أمر المعاد، فكان هذا الاتّصال بين السّورتين بليغًا في إظهار تناسق القرآن، واتّساق معانيه حتّى كأنّها حِلَقٌ مترابطة في سلسلة واحدة من البيان المعجِز.

❁ شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿سَبَّحَ﴾: فعلٌ دالّ على المُضيِّ، وجذره اللّغويّ: (سبح)، وهو يدور على جنسٍ من العبادة، والأصل فيه: البُعد، تقول: سبَحتُ في الأرض؛ إذا أبعدتَ فيها[2]، والتّسبيح: التّنزيه والتّقديس والتّبرئة[3]؛ وهو بمعنى قول القائل: سبحانَ اللّه، ويُطْلَق أيضًا على التّنفّل والتّطوّع بالعبادة[4]. وقوله تعالى في الآية: ﴿سَبَّحَ﴾ دالّ على تنزيهُ اللّه تعالى عمّا لا يليق به سبحانه، ونفيُ الشّريك في الألوهيّة، وتقريرُ الوحدانيّة[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 251.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح)، والخطابي، غريب الحديث، ص: 685.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سبح)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 96.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 356.

2) ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ من الجذر الثّلاثيّ (عزز)، وعزَّ الشّيءُ: لفظٌ جامع لما قلّ وندُر حتّى يكادُ لا يوجد من قِلَّته. وهو في الأصل: دالّ على شدّة وقوّة، والعزّة لله جلَّ ثناؤه، وعزّ الرّجلُ؛ إذا بلغ حدّ العزَّة، واعتزّ بفلان: تشرَّف به، وعزَّ يعِزّ؛ إذا صار عزيزًا، وعزّ يعُزُّ؛ إذا قهر[1]، والعزُّ: ضدُّ الذّلّ[2]. ومعنى ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ في الآية: مَن جعل الخلق يفتقرون إليه ويحتاجونه، وهو القاهر الغالب الذي يملكُ كلّ مالك[3].

3) ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: صيغة مبالغة على وزن (فَعيل) من الفعل: حكمَ يَحْكُمُ، والجذر اللّغويّ منه: (حكم)، وهو في الأصل يدلُّ على المنع، وأوّل ما يرد في الذّكر؛ هو الحُكْمُ المتمثّل في منع الظّلم، ومِنْهُ سمّيت حَكَمَةُ الدّابّة؛ لأنَّها تحولُ دونها، يقال حكمتُ الدّابّة وأحكمتُها. والحكمة: هي على هذا القياس؛ لأنَّها تردّ الجهل وتمنَع منه[4]، و"الحَكَم: اللّه ﷻ، وهو أحكم الحاكمين، وهو الحكيم له الحكم...، والحُكْمُ: العلم والفقه... ، والحُكْم أيضًا: القضاء بالعدل"[5]. ومعنى ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في الآية: "الذي جميعُ أفعاله على وفْقِ الحِكْمَةِ والصّواب"[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التّسبيح الكونيّ من مظاهر العزّة الإلهيّة والحكمة الرّبّانيّة في تسخير المخلوقات

يخبر اللّهُ ﷻ عن عظمته وجلاله وسَعَةِ ملكه أنّ كلّ ما في السّماوات والأرض من حيٍّ ناطق، أو صامتٍ وجامدٍ، يسبّح بحمد ربّه، وينزّهه عن كلّ نقص، خاضع لسلطانه منقاد لعزّته، ظاهرة

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عز).
(2) الجوهري، الصحاح: (عزز).
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 512.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حكم).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (حكم).
(6) الخازن، لباب التأويل: 4/ 245.

فيه آثارُ حكمتِه البالغة، ولذلك قرن التّسبيح بقوله عزّ من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ فجمع بين إثباتِ عموم افتقار الخلائق كلّها لربّها في جميع أحوالها، وعموم قهره وسلطانه على الأشياء بأسْرِها، وعموم حكمته في خلقه وتدبيره، فسُبْحان من أتقنَ صُنْعَه، وأحكَمَ شَرْعَه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ تعدّد بعض أسماءِ الله الحسنى بهذه الكثرة في مطلع السّورة:

مطلع السّورة وسمة الجلال في تجلّي أسمائه العظمى وصفاته العلى

جاء مطلعُ سورة الحديد مفعمًا بجلال الأسماء الإلهيَّة، حافلًا بصفاته العُلى، حتّى اشتملت على معاني ثلاث عشرة صفة من أسمائه الحسنى وهي: (اللّه، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، القَدير، ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾، ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾، ﴿وَٱلۡبَاطِنُ﴾، العليم، البصير، مع صفاتٍ أُخرى تُستفاد من الأفعالِ - وإن لم يصحَّ اشتقاقُ أسماءٍ منْها؛ لِما تقرَّر من أنَّ باب الصِّفاتِ أوسعُ من باب الأسماء - ؛ وهذه الصِّفاتُ هي: الإحياء، والإماتة، والتَّدبير، فجاءت الألفاظ متعانقة، والمعاني متآزرة، ترسم صورة الجلال والكمال، وتنطق بوحدانيَّةٍ كاملة لا نقص فيها ولا عجز، حتّى قال ابن عبّاس رضي الله عنه: إنّ اسم اللّه الأعظم ليتجلّى في هذه الآيات السّتّ من أوّل السّورة، بما اجتمع فيها من الأسماء[2]، وتكامل فيها من الصّفات.

تجلّياتُ الأسماءِ والصّفات لإقامة العبادة بحقّ ربّ السّماوات

إنّ المتأمّل في مطلع هذه السّورة الكريمة يلحظ تتابعًا بديعًا لذِكْرِ صفات اللّه الحسنى؛ حيث تضمّنت في مواضعَ معدودة بضع عشرة صفة ربّانيّة، توزّعت بين صفات الجلال والكمال والجمال، وكلّها تسير في نسَقٍ محكم، يدلّ على كمال الرّبوبيّة، وعظمة الألوهيّة، ويقود إلى النّتيجة التي تمهّد لها السّورة من أوّلها؛ وهو وجوبُ

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 837.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 367.

إخلاص العبادة للّه وحده، والانقياد المطلق لأمرِهِ ونهيه[1]، فإنّ مَن هذا شأنُه في علمه وقدرته، ورحمته وحكمته؛ لا يُعبد سواه، ولا يُتّبع غيرُ هداهُ.

سِرُّ استهلال السّورة بـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾:

الافتتاح بالتّسبيح تنزيه للذّات العليّة عن كلِّ نقصٍ

افتتاح السّورة بذكر التّسبيح في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يُنْبئُ عن غاية سامقة؛ إذ تُجَلّي أسمى المقاصد بإثبات صفات الكمال للّه تعالى، وتُصَدِّع باطل المنحرفين الذين شبّهوه بما يناقض جلاله، فكان التّسبيح مذعنًا بتنزيه الذّات العليّة عمّا نَسَب إليه الضّالّون من نقص أو عيب، فأوضح بذلك أنّ حقيقة الإيمان تقوم على تعظيم الخالق بما يليق بِمَجْدِه وعظمته[2].

سرّ التّعبير بالفعل ﴿سَبَّحَ﴾ مادّةً وصيغةً:

تسبيحٌ يتجدّد أنفاسًا وديمومةٌ تتعدّدُ أجناسًا

التّسبيح بفعل المضيّ إشارةٌ إلى أنّ هذا التّنزيه للحقّ تعالى أمرٌ قد تقرّر واستقرّ في فِطر العباد، وجرى به أمرُ اللّه قديمًا لعباده، بل أُلْهِمَتْهُ الخليقة، وأودِعت أدلّتُهُ في طبائع الموجودات، حتّى ما لا اختيار له من جمادٍ وسواه[3]، فهو وارد على صيغته الماضويَّة[4] ليدلَّ على دوام التّسبيح واستمراره[5].

وفعل التّسبيح يحتمل دلالاتٍ عدّةً، منها: الصّلاة؛ لأنّه يجري فيها التّسبيح، ومنها: ذِكْرُ اللّه تعالى، ومنها: الإذعان؛ أي: الخضوع للمولى سبحانه من جميع ما في السّماوات والأرض؛ من الشّمس والقمر والنّجوم، والإنس والجنّ والأشجار والجبال والأنهار، وغير ذلك[6]. كما أنَّه يَحْتَمِل معانيَ متعدّدةً تتنوّع بتنوّع المخلوقات؛ فالعاقل

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 201.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 356.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 452.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 256.
(6) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 400.

يسبّح بلسان المقال، ناطقًا بحمْدِ مولاه، ومنزّهًا إيّاه عن كلّ نقص، والجماد يسبّح بلسان الحال، شاهدًا بوجوده على عظمة صانعِه، الذي أبدَعَ فأحسَنَ، وخلق فأنْعَمَ، وأوجد فأتقَنَ(1).

وهو يحتَمِلُ الحقيقةَ والمجاز، فالحقيقة يكون بالتّنزيه والتّقديس كما ينطق به العقلاء من ملائكةٍ وأنبياء بلسان المقال، والتّسبيح مجازًا يكون بلسان الحال؛ فإنّ عظمة الصّنعة، وجلال الخلقة تنبّه الرّائيَ على التّسبيح(2)، فكلّ ذرَّة في الكون ناطقة بجمال الصّنع، دالَّةٌ على كمال الخلق. وإنْ حُمِل التّسبيحُ في الآية على التّنزيه بالقول؛ فالمسبّحون هم حملةُ العرش والملائكة المقرَّبون والأنبياء والصّالحون. وإنْ حُمِل على التّسبيح المعنويِّ؛ فكلُّ ذرَّة في السّماوات والأرض والجبال والبحار، والشّجر والدّواب والنّور والظّلمة، حتّى العرش والكرسيّ؛ كلٌّ يشهد بلسانِ وجودِه على عظمة الخالق، خاضعًا لجلاله، مُقرًّا بكبريائه(3).

وفي إيثارِ التّسبيح على الحَمْدِ والتّنزيه في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، إشارةٌ بليغة إلى التّعريض بالمشركين الذين قصّروا في أعظم أنواع التّسبيح؛ إذ أغْفَلوا أصلَ الأصول في التّنزيه؛ وهو نفيُ الشّريك والنّدّ عن ذاته سبحانه(4)؛ ليكون لفظًا جامعًا يَدْمَغُهم بتفريطهم، ويُظهر عوار معتقدِهم، وفساد مذهبِهم.

سرّ تعدية الفعل ﴿سَبَّحَ﴾ باللّام، ومعناها ودلالاتها:

السِّرّ في تعدية فعل التّسبيح باللّام في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أنّها جاءت لتؤكّد قوّة وصول الفعل إلى المفعول(5)، فكأنّما التّسبيح قد

اللّام شاهدة بالتّوحيد والفعل خالص لله في التّسبيح والتّقديس

(1) محمد علي، مختصر التفسير: 3/ 302.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 256، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 165.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 442.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 100.

تجلّى خالصًا لوجه اللّه تعالى، لا يشاركه فيه مشارك، ولا يعترض مسلكَه عارضٌ، فما التّسبيح إلّا له وحده عزّ في علاه[1]. واللّام في: ﴿لِلَّهِ﴾ لا تخلو: إمّا أن تكون لامَ تأكيدٍ، كاللّام في قولك: (نصحتُه ونصحتُ له)؛ حيث تؤكّد وصولَ الفعل إلى مستحقّ التّسبيح في تجليةِ العبادة به سبحانه[2]. وإمّا أن تكون لامَ تعليلٍ وغايةٍ؛ تفيد أنّ التّسبيح وُجِدَ لأجله تعالى، ولوجهه الكريم؛ فما نطق به اللّسان إلّا خالصًا له، وما دلّ عليه الكونُ إلّا شاهدًا بوحدانيته[3].

سرّ التّعبير بالاسم الأحسَنِ ﴿لِلَّهِ﴾:

تنزيه الذّات الإلهيّة عن شوائب الشّرك ببيان تفرّدهِ بالألوهيّة

إيثار الاسم الأحسَن (اللّه) في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ يَكْمُن في إظهار كمال التّنزيه الذي يقتضي نفيَ الشّريك أصلًا؛ إذِ الوحدانيّة هي الذّروة العليا من صفات الجلال التي حار في إدراكها المشركون والمانَويَّة وأهلُ التّثليث والبراهِمَة، فجاء الاسم الأعظم (اللّه) المشتقّ من الإله الدّال على تفرّد ذاته بالألوهيّة المطلقة[4]؛ ليكون أنصعَ بيانًا لهذا التّنزيه الأسمى؛ إذ لا يليق بالتّسبيح العامّ إلّا أن يختصّ بمن هو منفردٌ بالرّبوبيّة.

الغرض من تّقديم الجارّ والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾ على الفاعل:

تقديم الجارّ والمجرور حصرٌ وإعلانٌ وتخصيصُ التّسبيح للرّحمنِ

تقديمُ الجارّ والمجرور على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ حصرٌ للفعل في مستحقّه الأوحد[5]، وتخصيصٌ للتّنزيه بذاته المقدّسة، كأنّما التّقديم هنا إعلانٌ بأنّ التّسبيح لا يَصْدُق إلّا عليه سبحانه، ولا يحقّ إلّا له عزّ في علاه.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 197.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 434.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 7/ 472.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 356 - 357.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 27/ 371.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾ دون (مَن):

عمومٌ فيهِ دلالةُ القولِ والفعلِ والحالِ على تنزيهِ الواحدِ المتعالِ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أعمُّ الموصولات وأدخَلُها في الإبهام، وهوَ يعمّ الموجوداتِ كلَّها من عاقلٍ وجامد وذي روح، فكلُّها ناطقة بتنزيه الحقّ عن الشّريك، فمنها ما ينطق باللّسان المبين، كتسبيح الأنبياء والصّالحين، ومنها ما يسبّح بالفعل المُحْكَم، كتدبير الملائكة في ملكوته، ومنها ما يَشْهَدُ بالحال الصّامت، كافتقار كلّ موجود إلى من بيدِهِ مقاليد السّماواتِ والأرض، فالتسبيح يشمل كلّ موجود في العُلْوِيّات والسُّفْلِيّات، عينًا كان أو أثرًا، ظاهرًا أو خفيًّا، فكلّها ناطقة بتسبيح خالقها، شاهدة على بديع صنعه، دالّة على كمال صفاته، وأنّه مستحقّ لنعوت كبريائه[1].

دلالة التّعبير بالظّرفيَّة ﴿فِي﴾:

ظرفيّة كونيّة تسع الموجوداتِ وعمقٌ يستوعبُ المخلوقاتِ

حرف الظّرفيّة ﴿فِي﴾ هنا يتجاوز المعنى المكانيّ المحدود إلى دلالةِ شموليّةٍ كبرى، فهو ظرف يشمل كلّ ما في السّماوات والأرض من موجوداتٍ مادّيّة ومجرَّدة، ثابتة ومتحرّكة، مرئيّة وغير مرئيّة، فما من ذرَّةٍ في هذا الكون الفسيحِ إلّا وهي داخلة في هذا الظّرف الإلهيّ استقرارًا فيها، أو جزءًا منها[2]، وما من مخلوق في العوالم العلويّة أو السّفليّة إلّا وهو مندرج تحت هذه الدّائرة الكونيّة الواسعَةِ.

سرّ إسناد التّسبيح لأهل السّماوات قبلَ أهل الأرض:

تلميحٌ بعلوّ منزلتها وإشادةٌ بفضلها وسَبْقِ خَلْقِها

أُسْنِد فعل التّسبيح لأهل السّماوات قبل أهل الأرض تلميحًا إلى علوّ منزلتها وشرف مكانتها؛ إذ هي دار الملائكة المطهَّرين الذين لا يعصون اللّه ما أمرهم، وهم أكثر الخلق تسبيحًا وعبادةً، وقد سبق خَلْقُها الأرضَ بما فيها من أهواء وشهوات، فكان تقديمُها إشادةً بفضلها، وتنويهًا بطهارتها.

---

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 530، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 165.

سرّ التّعبير بالسّماوات جمعًا والأرض مفردًا:

تعدُّد السّماوات في الذّكر إشادةً، ووحدة الأرض إشارةً وإفادة

استعمل ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمعًا، والأرض مفردًا؛ في إشارة إلى سعة العوالم العلويّة، وتعدّد طبقاتها السّبع؛ حيث تتنوَّع منازل الملائكة ودرجاتها في العلوّ والقداسة، بينما الأرض على كبر حجمها فهي عالم واحد متّصل، يجمع الخلائق على تنوُّعها في ظلّ وحدة المكان، فالجمع للسّماوات إيماءٌ إلى تفضّلها بكثرة العوالم والمخلوقات الطّاهرة، والإفراد للأرض تَنبيه إلى وحدتها على الرّغم ممّا فيها من تعدُّد الأجناس والأهواء، وخص السَّماوات والأرض دون غيرها من المخلوقات؛ لأنَّهما الأعرف للمخاطبين.

سرّ عدم اقتران (ما) بالأرض كما اقتَرَنَتْ بالسّماوات:

عَطْفُ الأرض دون (ما) إعلانٌ بأنّ الخضوع متّحد يعلو الأزمان والأكوان

لّمّا قرن ﴿مَا﴾ بالسّماوات لم يستعملها مع الأرض كذلك في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لأنّه خطاب متّصل بما كان في آخر سورة الواقعة، وهو موجَّه لأهل الخصوص، بل أخصّ الخواصّ؛ فلم يحتج إلى تأكيدٍ بإعادة ﴿مَا﴾، فاكتفى بالعطف المجرّد، جاعلًا السّماوات والأرض بمنزلةِ الشَّيء الواحد في نظر العظمة الإلهيّة؛ حيث استوى عندهما في الخضوع والتّنزيه، فكان الحذف إشارةً إلى وحدة التّسبيح[1].

معنى الواوِ ودلالتُها في قوله: ﴿وَهُوَ﴾:

بين الحال والاستئناف إظهارُ العزّة والقدرة والحكمة والتّدبير

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ حاليّة، أو استئنافيَّة تفتح مجال التّوجيه، و(هوَ) مبتدأٌ يشير إلى الذّات الإلهيّة العليا، و﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ خبر أوّل يظهر القدرة والانتصار، و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ خبر ثانٍ يجلّي الحكمة والإتقان[2]، فكأنّما الآية قصدُها تأكيدُ أنّ كلّ ما سبق من تسبيح وتقديس هو نتيجة هذه العزّة المطلقة، والحكمة المتقنة.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 252.

(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 452.

سرّ التّعبير بتعريف الطّرفين ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾:

دلالـةُ اقـتـدارٍ لا يُجارى وسلطانٍ لا يُبارى

التّعبير بالضّمير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وإيراد الخبر مُعرَّفًا باللّام إشارةٌ إلى حصر العزّة والحكمة به سبحانه؛ إذْ تعريف الطَّرفين يفيد القصر والاختصاص، فدلّ ذلك على نفيِ العزَّة والحكمةِ عن غيرِهِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ؛ إذ العزَّة والحكمة وصفانِ ثابتانِ لغيرِه، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [لقمان: 12]؛ إلّا أنَّ عزَّة غير اللّه تعالى وحكمتَهُ بالنِّسبة إلى كمال عزَّة اللّه تعالى وكمال حكمَتِهِ كلا شيء.

وفي جملة القصْرِ نفيُ الألوهيّة عمّا سواه بطريقِ اللُّزومِ؛ لأنّ مَن لم يتّصف بالعزّة المطلقة والحكمة البالغة لا يصلح أن يكون إلهًا، فاستحقاق الألوهيّة لا يكون إلّا للواحد القهّار الذي انفرد بصفات الكمال دون سواه[1]. والتّعبير بلفظ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ يتضمّن إشارة بليغة إلى كمال القدرة؛ إذ يدلّ على القاهر الذي لا يُغالب ولا يجارى، والمقتدر الذي لا ينازع ولا يبارى، فلا يعلو عليه شيء، ولا يعترض مشيئتَه أحدٌ[2]. والعزيز وصف دالّ على الامتناع والغلبة، وفيه إشعار بأنّ كلّ ما في السَّماوات والأرض من تسبيح وتنزيه، إنّما هو خضوعٌ لعزّته وانقياد لعظمته، ونفيٌ قاطع لكلّ شريكٍ يُتوهّم في الألوهيّة[3]، فإنّ المشاركة لا تُتصوَّر مع مَن عزّ جانبُه.

سرّ اختيار وصف ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾:

يضع الأفعال في مواضعها بعلم لا يُـخـطـئ ولا يتخلّف

في هذا الوصف تنبيهٌ إلى كمال التّدبير، وإحكام التّقدير، فإنّ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ هو الذي يضع كلّ شيء في موضعِه اللّائق، فلا يُخلّ نظام، ولا يُضَلّ مرام، بل تجري أفعاله على مقتضى العلم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 443.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 443.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 358.

المحيط، لا يعتريها خللٌ، ولا يشوبها عبَثٌ، ولا يَعْرِضُ دون تعلّقها بالمعلومات مانعٌ[1].

سرّ تقديم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، ودلالةُ الجمع بينهما:

القدرة أساس الإدراك والعلم ثمرة التّمكين والإتقان

قُدِّم اسم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على اسم ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنّ الأوّل يدلّ على كمال القدرة؛ والآخَرُ يشير إلى كمال العلم، ولَمّا كان إدراكُ كمالِ القدرة أسبقَ في الذّهن من إدراك كمال العلم، إذْ لا يتحقّق العلم بالأشياء إلّا بعد التّسليم بقدرة فاعلها؛ ناسب أن يُقدّم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لتتقدّم القدرة في الاعتبار كما تقدّمت في الذِّكر[2]. كما أنَّ الأوّل يُناسب عموم التّسبيح القهريّ للجماد والحيوان، وأنّه خضوع ليس اختياريًّا بل بقهره، ثمّ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ لبيان أنّ ذلك التّسبيح يكون بحكمتِه تعالى، والجمع بينَهُما مقصودٌ مرادٌ، فَهُما من الصّفات الرّبّانيّة الجامعة للكمال الدّالّة على تنزّهه من النّقص[3].

دلالة التَّعبير بالتَّذييل جملةً اسميَّة:

التّسبيح للعزيز الحكيم بيان التّذييل وإشعار التّعليل

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ اعتراض تذييليّ تقريريّ، أودِعت بين طيّاته الآية تأكيدًا لمضمون ما قبلها، وإشعارًا بأنّ تسبيح مَن في السّماوات والأرض إنّما يَنْبَثِقُ من عظمة الإله الذي اجتمعت له العزّة المطلقة والحكمة البالغة، فكأنّه تعالى بهذا الوصف يُعْلِن سببَ انقياد الكائنات لتسبيحه، وعلّة خضوعها لقدرته[4].

وُرُودُ الصّيغة الاسميَّة مُؤْذِنٌ بالدّلالة على الثّبوت والاستمرار، فهذان الوصفان مُؤْذِنان بثبوت العزّة والحكمة له تعالى لا يتغيَّران ولا يزولان.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 358.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 443.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 203.

بين الحذفِ البليغِ والتّناسق الفريد ملامحُ الإعجاز البيانيّ في فاتحةِ الحديد

دلالة الاتّفاق والاختلاف في مطالع سورتي الحشر والصّفّ:

ابتدأ اللّهُ ﷻ قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ دون تكرار لفظ (ما)؛ ليتناغم مع ما يليه من قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وليُحَقِّق التّناسق البلاغيَّ العجيب؛ إذ لو ذكرت (ما)؛ لاختلّ هذا التّوافق اللّفظيُّ البديعُ. ثُمّ أَتبَعَ ذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [الحديد: 4]، فتكاملت العبارات في نسَقٍ بديع يُظْهِر جمالَ البيان القرآنيّ. أمّا المسبّحات الأُخر، كسورتي الحشر والصّف؛ في قول اللّه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: 1] [الصف: 1]؛ فلم يَرِد فيها ما يستدعي هذه المناسبة الدّقيقة، فجاءت كلّ سورة بما يلائم سياقها، ويراعي خصوصيَّةَ نظمها(1).

ولقد تجلّت حكمةُ البيان القرآنيّ في تنوُّع صيغ التّسبيح عبر السّور المسبّحات، فابتدأ بالمَصدَرِ في سورة الإسراء ليعبّر عن أصل المعنى وجوهره، ثمّ انتقل إلى الماضي في الحديد والحشر والصّفّ؛ ليدلَّ على تحقُّق التّسبيحِ في الزّمن الماضي، وجاء بالمضارع في الجمعة والتّغابن؛ ليشمل الحالَ والاستقبال، وختم بالأمر في الأعلى ليعلّم العباد دوام التّسبيح في جميع الأزمنة، فجمع بذلك بين جوهر الأصل، وسبق الماضي، وشمول المضارع، وإلزام الأمر؛ ليحقّق استيعابًا كاملًا لجهات التّسبيح المشهورة، ويربّي المؤمنين على دوام ذِكْرِ اللّه تعالى في كلّ وقت وحين(2).

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التّسبيح والتّقديس:

التَّقديس أعمُّ من التَّسبيحِ

يفترق التّسبيح عن التّقديس على الرّغم من اشتراكهما في أصل

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 2/ 476.
(2) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/ 551.

المعنى؛ وهو تنزيه الله تعالى وتَبْعيدُه عن كلّ سوء، إلّا أنّ بينهما فروقًا دقيقة، فالتّسبيح يختصّ بتنزيه الله عن صفات النّقص كالشّرك والعجز، ويُستعمل غالبًا في حقّ الله تعالى، ولا يقال رجل مسبَّح. بينما التّقديس أوسع دائرة؛ فيقال: رجل مقدَّس؛ أي: منزَّه عن مُسْقِطات العدالة، ويُستعمل التَّقديس لتنزيه الله تعالى مما لا يليق بجلاله من اتِّخاذ الولد والزَّوجة ونحو ذلك[1]. فالتّقديس أشملُ من حيث الاستعمال، وهو يدلّ على الطّهارة الكاملة، بينما التّسبيح يركّز على نفي النّقص، ومِن ثمّ كلّ من سبّح الله فقد قدَّسه، وليس كلّ من قدّسه سبّحه، ولهذا قالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30] مقدّمين التّسبيح لاختصاصِهِ بالله تعالى، ثمّ التّقديس لما فيه من العموم[2]. فجاء التّعبير بالتّسبيح؛ لأنّ التّسبيح أخصّ وألصق بجلال الله تعالى، وتنزيهه عن النّقص، وهو الذي يليق بإسناده لما في السّماوات والأرض من مخلوقات ناطقة وغير ناطقة.

(1) عبد الجبار زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 346 - 347.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124 - 125.

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢﴾ [الحديد: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تسبيح الكائنات لمالك الملكوت ذي القدرة والجبروت

لَمّا افتتح سبحانه الآية بتسبيح جميع ما في السّموات والأرض له؛ أتبع ذلك بيان سبب هذا التّسبيح؛ فقال: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فأفاد أنَّ هذا التّسبيح العامَّ ناشئ عن استحقاقه تعالى وحده للمُلْكِ المطلق الذي لا ينازعه فيه منازع، ملك السّماوات والأرض وما بينهما الظّاهر منه والباطنُ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُلۡكُ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد، جذره اللّغويّ: (ملك)، وهو مُلْكُ اليدِ من المال والخوَل(2)، وهو أصل صحيح يدلّ على قوّة الشّيء، يقال: أملك عجينه؛ قوّى عجنه وشَدَّه، فكان ملكُ الإنسانِ الشّيءَ كأنّ يده فيه قويّة صحيحة(3)، وهو يشير إلى ملكيّة خاصَّة ذات مكانة عالية، حيث يكون صاحبه متصرّفًا في جماعة ضخمة، أو أمّة واسعة، بتدبير أمورها، وإنفاذ الحقوق، ورعاية مصالحها، وحمايتها من العدوان، وإرشادها إلى ما يحقّق خيرها وفلاحها ترغيبًا وترهيبًا(4). والمراد بالمُلْك في الآية أنّ اللّه ﷻ له وحده الملك الحقّ الدّائم للسّماوات والأرض، ملكًا أزليًّا لا بداية له، وأبديًّا لا نهاية له، لا يطرأ عليه الحدوث ولا الزّوال، أمّا ملك غيره تعالى فهو ملك عارض، مقدّر بأجل، يوجد بعد العدم، ويؤول إلى الفناء مهما امتدّ به الزمن(5).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 254.
(2) الخليل، العين: (ملك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (ملك).
(4) الراغب، المفردات: (ملك).
(5) مجموعة مؤلفين، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 9/ 1279.

2) ﴿يُحۡيِۦ﴾: فعل دالٌّ على الحال والاستقبال، وجذره اللّغويُّ: (حيو) أو (حيي)، يدلّ على إيجاد الرّوح في الكائن الحيّ، فكلُّ كائن حيّ ينطبق عليه هذا الوصف، وأصل معناه في أحد وجوهه أنَّه نقيض الموت، ويَرِدُ هذا اللّفظ للقوّة النّامية المتوافرة في النّبات والحيوانِ؛ فيوصفُ النّبات بالحيّ[1]. ومعنى ﴿يُحۡيِۦ﴾ في الآية أنّه سبحانه يحيي ما يشاء مِن خلقه، فيوجِدُه على الهيئة التي يريدها، فيُحْيي النّطفة الميِّتة، ويحوّلها إلى كائن حيّ بنفخ الرّوح فيها، بعد أن يمرّها بأطوار مختلفة يقلّبها فيها، وكذلك يفعل بغَيْرِها من المخلوقات[2].

3) ﴿وَيُمِيتُۖ﴾: فعل دالٌّ على الحالِ والاستقبال، وجذره اللّغويُّ: (موت) يدلّ على ما ليسَ فيهِ الرّوح، وأصل الجذر في لسان العرب يدلُّ على انتهاء قوّة الشّيء أو الجسم، وهي قوّته النّامية في الإنسان وغيره من الأحياء، والمعنى المعروف: أنّه ضدّ الحياة، وأنّه مفارقة الرّوح للجسد[3]. والتّعبير عن الموت في القرآن الكريم جاء محدودًا في سياقات واضحة، كموت الأحياء من البشر، وموت البلاد والقرى، وموت الأرض[4]، ومعنى ﴿وَيُمِيتُۖ﴾ هنا: إماتة الأحياء في الدُّنيا[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

هيمنة الملك وسلطان القدرة التّامّة في خَلْقِ الحياة وإماتَتِها

في الآية إعلام بأنّ السّلطان القاهر، والملك الباهر، إنّما هو للّه وحده لا شريك له، فقد دانت له الكائنات طُرًّا، وخضعت له المخلوقات جمعًا، فلا شيء منها يخرج عن قبضته، ولا كائن يفلت من قهره وسلطانه؛ أمره ماضٍ فيهم، وحكمه نافذٌ عليهم، لا رادّ

(1) الخليل، العين: (حيو)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حيّ)، والراغب، المفردات: (حيي)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حيي).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 165.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (موت).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (موت).
(5) الثعلبي، الكشف والبيان: 26/ 12.

لقضائه، ولا معقّب لحكمه، يخرج الحيَّ من الميت، وينفخ الرّوح في السّاكن الجامد، ويبدع الخلق أطوارًا، حتّى يُسوّيه، فيأمر الرّوح أن تدخل فيه، فإذا هو بشر حيّ، ثمّ إذا شاء أماته بعدَ أن بلغ أجلَه، فلا يعجزه حيّ عن إماتة، ولا ميّت عن إحياء، وهو في كلّ ذلك لا يُعجزه شيء، ولا يَثقل عليه أمر إماتةٍ أو إحياءٍ، إعزازًا وإذلالًا[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ﴾:

استئنافٌ بذكر عظمة الله في تدبير السّماوات والأرض شاهد لعقول المُدرِكين

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جملة ابتدائيَّة مستأنفة لا تعلّق لها بما قبلها من حيث الصّناعة، بل هي استقلال في البيان، تُعرب عن صفة جليلةٍ من صفات الرّبّ العظيم، الذي إليه يُردّ الأمر كلّه، ويُعزى تصريف العوالم برمّتها، فإنّه سبحانه المالك وحده، لا يُنازَع في سلطانه، المتصرّف في السّماوات والأرض وما فيهما، على وجه لا يُدرك كنهه إلّا هو[2]. ويجوز أن تكون الجملة تذييلًا في قوّة التّأكيد، بمنزلةِ البرهان السّاطع على عظمة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ إذ فُصلت بلا عطف[3]؛ لأنّ ملك السّماوات والأرض للّه الحقّ يقتضي بحكم البداهةِ اتّصافَه بالعزّة المطلقة، والحكمة البالغة؛ إذ لو تخلّفت إحداهما عن شيءٍ من ملكوته العظيم؛ لاضطربَ نظام الوجود، وفسدت أحوالُ الخلائق.

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَهُۥ﴾:

ملك حقيقيّ محض يجمع بين سعة المقدور ودقّة التّدبير

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دالّة على الملك الحقيقيّ المحض، الملك الحقّ الذي يجمع بين سعة المقدور، ودقّة التّدبير[4]، فمَن له تصريف الأمور على ما يشاء، وتقليبُ العباد

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 167 - 168.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 358، والقنوجي، فتح البيان: 13/ 394.
(3) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 435.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 482.

في الأحوال كيف يختار، هو الحقّ الذي لا يجوز الملك إلّا له، ولا يصحّ التّدبير إلّا على يديه.

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

له الملك والتّدبير والقضاء والتّقدير لا رادّ لحكمه ولا معقّب لأمره

في تقديم الجارّ والمجرور من قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ إفادة حصر الملك حصرًا حقيقيًّا له سبحانه دون سواه[1]، فملك السّماوات والأرض له وحده لا لغيره، يتصرّف فيهما كيف يشاء، لا معقّب لحكمه، ولا نافذ إلّا أمرُه[2].

الغرض من تعريف المسند إليه بالإضافة ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

الملك الكامل لذي الجلال لا ينازعه في سلطانه نقصٌ ولا اختلال

في تعريف المسند إليه بالإضافة يُفيدُ عموم الملك الحقيقيِّ للعالَمَيْنِ العلويِّ والسُّفليّ، فلا يُعتدّ بتملُّك المتملّكين في الأرض، فإنّ مُلكهم ناقص زائل، يشهد بنقصانه اضطرارُهم إلى مَن يدفع عنهم العوادي بالأحلاف والجنود[3]، فالملك الحقيقيّ الكاملُ هو الذي لا يحتاج إلى معين، ولا يُنازعه منازع، ولا يشاركه فيه شريك. والقصر في الآية قصر حقيقيّ[4] لا مراء فيه، فإذا نُظِر إلى إضافة الملك إلى جميع السّماوات والأرض؛ تبيّن أنّه لا يمكن أن يكون لمخلوق ملك حقيقيّ على الأرض كلّها، فما الظنّ بالسّماوات معها؟[5].

وآثر استعمال الصّيغة الاسمية ﴿مُلۡكُ﴾ على الفعلية من نحو (يملك)؛ لدلالة الاسم على الثُّبوتِ[6] الأبديّ غير الحائل ولا الزائل. أمّا ملك غيره؛ فهو موقوت بزمان، ومرهون بوقت، وحادث بعد العدم، وزائل مهما امتدّ به الزّمن؛ فيصدق عليه التّعبيرُ بالفعليَّة إن وجد[7].

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 435.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 199.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 358.
(4) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/ 11.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 358.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 435.
(7) مجموعة مؤلفين، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 9/ 1279.

الغرض من تقييد الملك بالسّماوات والأرض، والغرض من تقديم السّماوات:

علوّ المكانة وعظمة الخلق والتّدرّج في الإعجاز والتّنبيه على الغيب

قُيِّد الملك بالسَّماوات والأرض؛ لأنَّ اللّهَ تعالى جَعَلَ هاتين الآيتين العظيمَتَيْن مرآةً ينظر منها الخلقُ إلى عظمة الخالق، فيَسْهُل عليهم ارتقاءُ سُلَّم الإيمان من المشاهَدِ إلى الغيب. وتقديم السّماوات على الأرض في الآية الكريمة، يَحْمِل حِكمًا متعدّدة؛ منها: علوُّ المكانة؛ فالسّماوات أعلى من الأرض مكانًا وقدرًا، ممّا يدلّ على تعظيم شأن ملك اللّه. ومنها: عظمةُ الخلقِ، فالسّماوات أوسع وأعظمُ بناءً من الأرض، ممّا يُظْهِر كمالَ قدرة اللّه. ومنها: التّدرّج في الإعجاز؛ لأنّ خلق السّماوات أعجبُ من خلق الأرض، فابتدأ بالأعظم. ومنها التّنبيه على الغيب؛ فالسّماوات أبعد عن الإدراك من الأرض، فذِكْرُها أوَّلًا يلفت الأنظارَ إلى عالم الغيب.

موقع جملة ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

تبيينٌ لأحكام الملك بالإحياء والإماتة

قوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ من باب الاستئنافِ، وهذا بيانٌ جليّ لأحد تجليّات مُلْكِ اللّه المطلق وسلطانه النّافذ، فهو وحده من يملك الحياة والموت، يُحيي من العدم، ويُميت من الوجود[1]. ويجوزُ أن تكون جملة ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ واقعةً موقع بدل الاشتمال من مضمون قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ إذ إنّ الإحياء والإماتة من شؤون هذا الملك، ومظاهر سلطانه، ووجوه تصرّفه في ما اشتمل عليه ملكُه من أحوال ما عليهما من المخلوقات[2]، فهما داخلان في معنى التصرّف المطلق الذي يقتضيه الملك التّامّ، وهما من أعظم أدلَّةِ القدرة، فكأنّ السّياق ينتَقِلُ بنا من مُلْكٍ عظيم شامل للكون، إلى قدرة إلهيّة أخصّ وأجلّ، وهي إحياء الخلق وإماتتهم[3]، ليترسّخ في الذّهن كمال القدرة والسّلطان.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 472، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 309.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 358 - 359.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 435.

سرّ التّعبير بالفعليّة ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

اختيار الجملة الفعلية من قوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ يدلّ على تجدّد الفعلين واستمرارهما[1]، فكأنَّ الإحياء والإماتة لا يَنْقَطِعان، بل هما سُنّتان إلهيَّتان جاريتانِ، وآيتان قائمتان على مرّ الزمان، تتكرَّران في كلِّ لحظة، وتتجدّدان في كلِّ حين.

تجدّد الإحياء واستمرار الإفناء، وسبحان من له الدّوام والبقاء

بلاغة التَّعبير بالطّباق بين الإحياء والإماتة، وسرُّ اختصاصهما دون بقيَّة التَّصرفات:

بين الإحياء والإماتة في قوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ طباق إيجابٍ[2]؛ بتقابل المعنى بينهما على وجهٍ يجسّد كمال القدرة الإلهيّة، وهذا الجمع بين الضّدّين - الحياة ضدّ الموت[3] - يُضفي على المعنى قوّة وتأكيدًا، ويُعمّق أثره في النّفس؛ إذْ يظهر به أنّ الحقّ سبحانه هو المتفرّد بزمام الوجود من بدايته إلى نهايته، دلالة الملك والسلطان، وتقوية الحُجّة على منكر البعث والمعاد. وخَصَّ فعلَي الإحياء والإماتة في قوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ دون سواهما؛ لأنَّ اللّه ﷻ لَمّا أخبر أنّ له الملك؛ أتبع ذلك ببيانِ كمال تصرّفه في ملكه، فدلّ على أعظم مظاهر السّلطان، وهما الإيجاد والإعدام؛ إذ بِهما يتمّ التّصرّف التّامّ، ويُستدلّ على القدرة المطلقة[4].

جمع الأضداد برهان الانفراد، وسلطان يمتدّ من المبدأ إلى المعاد

الغرض من حذف متعلّق ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

حُذِفَ متعلّق الفعلين من قوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ لإفادة عموم القدرةِ وشمول التّصرّف؛ فتندرج تحته صوَرٌ لا تُحصى؛ فهو يُحيي الميّت من النّطفة كما يُحيي الأرض بعد مواتها، ويبعث الشّجر بعد يَبَسه، ويُحيي القلوب بالطّاعة كما يُميتها بالمعصية، ويحيي

يتصرّف في الخلق إحياءً وإفناءً، ويُجْري حُكْمَهُ فضلًا وعدلًا وعلمًا وابتلاءً

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 435.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 481.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 376.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 100.

بالفضل ويُميت بالعدل، ويُحْيي بالعلم ويُميت بالجهل، فكلّ حياةٍ وموتٍ في الوجود إنمّا هي من فيض قدرته، وبمقتضى مشيئته[1].

وقد يكون وراء الحذف العناية بإثبات الفعلين لتعلّق القدرة بهما، "فالغرض ذكر الفعلين فقط"[2]، فيكون الفعلانِ المتعدّيانِ قد نُزِّلا منزلةَ اللّازِمِ؛ والمعنى: الذي يصدرُ مِنْهُ إحياءٌ وإماتَةٌ، بقطْعِ النَّظر عن تعلُّقِ ذلك بالمفعولِ.

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَهُوَ﴾:

إظهار القدرة على كلّ موجود

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ عاطفة ما بعدَها على ما قبلها[3]؛ للإخبار عن الذّات العليّة بعموم القدرة المطلقة، بما يرسّخ في النّفوس كمالَ السّلطان وشمولَ التّصرّف[4].

بلاغة التّذييل بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

من تصريف الحياة والممات إلى الإحاطة بكلّ الكائنات

التّذييل بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ تأكيد "لعموم الحُكْمِ والقدرةِ"[5]، فقد جاء التّذييلُ ليَشْمَلَ كلّ ممكن، ويعمّ كلَّ مخلوق، ويؤكّد أنّ الإعادة ليست بأعجبَ من الإنشاء، فجاء هذا الختامُ كذروةِ السّنام، جامعًا مانعًا، يُفيض على المعنى جلالًا، ويزيده كمالًا. ومن بلاغة التّذييل أنّه سبحانه لّمّا ذكر أدلَّةَ الآفاق أوّلًا ببيان ملك السّماوات والأرض، ثمّ أتبعها بأدلَّةِ الأنفس بقوله: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾؛ خَتَمَ ذلك بعبارة جامعة شاملة، تتناول العالَمَيْنِ مَعًا، فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[6].

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

دليل العلوّ والاستعلاء وسرّ القدرة وسلطان القضاء

سرّ استعمال حرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ بيانُ القدرة المستعليةِ الغالبة،

---

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 283 - 284.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 235.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 452.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 359.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 255.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 444.

التي لا يَعْتَريها عجزٌ، ولا يعتري صاحبَها وهَنٌ، فهو قدير على الأشياء لا بها، ومتصرّف فيها لا متأثر بها، إذ ﴿عَلَىٰ﴾ تفيد العلوَّ والاستعلاء[1].

الغرض من التَّعبير بالمجرور مضافًا ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وبيان سرِّ تقديمه على الخبر ﴿قَدِيرٌ﴾:

لا يعجزه أمرٌ أراد من إحياءٍ وإماتةٍ وإعزاز وإذلال وسائر المقدورات

عبر النَّظم الكريم بلفظ ﴿كُلِّ﴾ الدّالّ على الشّمول[2] مضافًا إلى لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾؛ وهو لفظٌ نكرة يشمَلُ كلّ ما يُتصوَّر وجوده، سواء أكان محسوسًا كالأجسام، أم معنويًّا كالأقوال والأفكار، على اختلاف أنواعها وأشكالها وأحجامها، ومهما تعدّدت أماكنُها، أو تنوّعت ألوانها وصفاتها ومقاماتها[3]، وفي ذلك بيانُ أنَّ قدرة اللّه ﷻ مطلقةٌ لا يخرج عنها موجود، وأنّ سلطانه نافِذٌ على كلّ شيء دون استثناء، إحاطةً وعلمًا وتصريفًا وقهرًا.

وقُدِّم قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على ﴿قَدِيرٌ﴾ لإفادَةِ الاهتمام ببيانِ ما يدلُّ على عموم القدرة؛ ليكونَ أنسبَ للعموم المذكور قبلُ في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وقوله: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

سرّ اختيار وصف ﴿قَدِيرٌ﴾ على وزن (فَعيل):

صفاتُ الله تعالى - ومنها قدرتُه - لا منتهى لكمالِها

سرّ اختيار وصف ﴿قَدِيرٌ﴾ على وزن (فَعيل) دون (قادر) أو (مقتدر) في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لأنّ هذا الوزن دالّ على المبالغة في الوصف[4]؛ إيذانًا بأنّ قدرةَ اللّه تعالى لا منتهى لكمالِها، وأنَّه قد أحاط بكلِّ شيءٍ إحاطةً تامّة لا يعتريها نقص، ولا يتصوّر فوقها كمال[5]، فهي قدرة مطلقة لا يحدّها حدّ، ولا يعجزها شيء؛ تجسيدًا للكمال الذّاتيِّ لصفة القدرة، لا مجرّد تحقّقها.

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 497.
(2) يحيى العلوي، الطراز: 2/ 103.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 482، ومحمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 1/ 27.
(4) محمد علي، مختصر التفسير: 3/ 302.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 255.

الغرض من تنكير الخبر ﴿قَدِيرٌ﴾:

قدرة بالغة على وجه التّمام والكمالِ

سرّ اختيار وصف ﴿قَدِيرٌ﴾ منكَّرًا: الدّلالةُ على أنّ قدرة الله تعالى ليست مجرّد قدرة محدودة، بل هي واقعة على وجه التّمام والكمال[1]؛ هي قدرة مطلقة لا يمكن تصوّر حدّ لها أو نقص فيها، فالتّنكير هنا يبرز عمقَ القدرة واستغراقَها كلَّ شيء.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 436.

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾

[الحديد: 3]

الأوّل والآخر والظّاهر والباطن شهادة على قدرته المطلقة

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

لَمّا تجلّت القدرة الإلهيّة في الآية السّابقةِ بجلال الإحياء والإماتة والملك المطلق؛ دلّ على ذلك بما جاء في هذه الآية، ببيانِ أوصافِ قُدرتِهِ وكمالِهِ، فـ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبلَهُ شيءٌ، ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ الذي ليس بعدَهُ شيءٌ، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ الذي ليس فوقَهُ شيءٌ، ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ الذي ليس دونَهُ شيء، فكانت هذه الآيةُ برهانًا قاطعًا على تمام القدرةِ وكمال العِلْم[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾: جذره اللّغويّ من (أول) أو (وول)، ومن الثّاني على قلب الواوِ همزةً، ومعناه: ابتداءُ الشّيء، وهو ضدّ الآخر وما كان سابقًا[2]؛ وهو وصف لله سبحانه، يدلّ على البَداءة والتّقدُّم والسّبق، فهو الذي لم يُسبق بوجود، ولا يتقدّمه شيء من الخلق، بل كلّ ما سواه مخلوق حادث بعده. ومعنى الجذْرِ المحوريّ: "كون الشّيء ابتداءً وسبْقًا في أمرٍ لجميع جنسه، فيكون كلّ ما يماثله فيه تاليًا له؛ أي: كائنًا بعده"[3]. واسمُ الله تعالى الأوَّلُ معناهُ: الذي ليس قبلَهُ شيءٌ؛ كما جاء في الحديث: «اللهُمَّ أَنْتَ الأوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»[4]، ومعنى ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ يدلّ على أنّ كلَّ ما سواه حادث كائنٌ بعد أنْ لم يكن، وأنَّ الله سُبحانَهُ كان موجودًا قبل كلّ شيء[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 255.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس، ورضا، متن اللغة: (أول).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وول/ أول).
(4) رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم: (2713).
(5) الثعلبي، الكشف والبيان: 9/ 227، وسعيد القحطاني، الثمر المجتنى، ص: 7.

2) ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾: اسم فاعل، مشتقّ من الجذر اللّغويّ (أخر)، ومصدره: التّأخّر؛ وهو خلاف التّقدّم، ومِنْ أسماء اللّه تعالى: الآخِر؛ ومعناه: الذي ليس بعدَهُ شيءٌ، فهو "الباقي بعد فَناءِ خلقهِ كلّه ناطِقِه وصامِتِه"[1]، وهو في آخريّته دالّ على كمال الاستغناء عن كلّ ما سواه، وعلى ثباته وبقائه الذي لا يعتريه زوالٌ.

3) ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾: اسم فاعل مشتقّ من الجذر اللّغويّ (ظهر)، ومصدره: الظّهور وهو ضدّ الاستتار، والظَّهرُ: خلاف البطن. والظّاء والهاء والرّاء تدلُّ تصريفاتُها على قوّة وبروزٍ، ومن ذلك قولهم: "ظَهَرَ الشّيءُ يظهر ظهورًا؛ فهو ظاهر": إذا انكشف وبرز، والظّهور هو عدم الخفاء، فيمكن الوقوف عليه ومعرفته لبروزه، وسمّيت الظّهيرة كذلك لوضوحها[2]. ومعنى ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ في أسماء اللّه تعالى - وهو الوارد في الآية - : الذي ليس فوقَهُ شيءٌ؛ وفي ذلكَ إشارة إلى علوّه سبحانه، وظهوره في أدلَّةِ قدرته، مع كمال قهره، وتفرّده في الملك والسّيادة[3].

4) ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾: اسم فاعل، مشتق مِنَ الجذر اللّغويّ (بطن)؛ ومِنه: البطن وهو خلافُ الظّهر، ويُطْلق على ما غَمُضَ من الأرض، كما يقال: "باطن الأمر: دخْلَتُه، خلاف ظاهره"، واللّه تعالى هو الباطن؛ لأنّه أحاط بالأشياء علمًا، ويوصف بالباطن ما خفي عن الحواسّ، واحتاج إلى تفسيرٍ، وجميع المواضع التي وردت في القرآن الكريم تحمل معنى الخفاء والاستتار[4]. ومعنى ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ من أسماء اللّه تعالى - : وهو المراد بالآية - الذي ليس دونَهُ شيءٌ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ لا شيءَ قبله، ولا ابتداء لوجوده الأزليّ، موجودٌ قبل كلّ كائن. ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ الذي لا منتهى لدوامه، ولا فناء لذاته، يبقى بعد فناء الخلق، ويدوم بعد انقضاء الأثر، فهو الحيُّ الذي لا يموت، و﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88] فله البقاء المطلق، الذي

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أخر).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ظهر).
(3) التستري، تفسير التستري، ص: 161.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بطن).

أوّل بلا ابتداء، وآخرُ بلا انتهاء، ظاهر في علوّه، باطن في علمه

لا يعتريه زوال، ولا يلحقه فناء. ﴿وَٱلظَّـٰهِرُ﴾ العالي فوق خلقه، بآياته، البائن من خلقه بصفاته، لا يُدانيه في علوّه أحد، ولا يشاركه في عظمته مخلوق. ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يحجبه شيءٌ عن شيءٍ، بل هو أقربُ إلى كلّ شيء من نفسه، مطّلع على الأسرار، خبير بما تُخفي الصّدور، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم السِّرّ وأخفى، ويُحْصي كلّ ذرّة، وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها، وما من شيء إلّا وهو بعلمه محيط، وفي كتاب مبين مكتوبٌ محفوظٌ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فَصْلِ هذه الآية عمّا قبلها، ودلالة البدءِ بالضمير ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾:

فَضْلُ الذّكر بيانٌ لعلوّ شأنه، واتّصالُ المعنى دليلُ كماله

فُصِلَت الجملة من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ عن سابقتها من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لِما بينَهُما مِن كمالِ الاتّصال، وشدّة الارتباط، فكأنّه لَمّا أرسى دعائم القدرة المطلقة، وأخبر بها خبرًا جامعًا؛ أعقب ذلك بالإشارة إلى تفرّده بالوَصْفَيْن العَظيمَين؛ الأوّليّة التي لا ابتداء لها، والآخريّة التي لا انتهاء[2]، ففي هذا الإفرادِ بالذّكر، بعد عموم القدرة: برهانٌ ساطِعٌ على عظمة شأنه، وجلالِ قَدْرِه. وفُصِلَت الجملةُ عن سابِقَتِها أيضًا لكَوْنِها أصلًا قائمًا بذاته، وحقيقة مستقلّة بنفسها[3]، فقد جاءت لبيان أنّ سُلْطانَهُ سُبْحانه ليس كسلطان المخلوقين العارض، بل هو ملك أزليّ أبديّ قائم في كلّ زمان، وممتدّ في كلّ أوان، فهو الأوّل الذي لا ابتداءَ لوجودِه قبل خلق العوالم، والآخِر الذي لا انتهاءَ لبَقائِه بعد فناء ما سواه مِن الأكوان[4].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 169.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 255.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 153.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 359.

ويؤيِّد هذا الموقع أنَّ الضّمير في قوله تعالى: ﴿هُوَ﴾ ليس ضمير فصلٍ، وإنَّما هو عائد إلى الاسم الأحسن (اللّه)؛ فالأوصاف الأربعة ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ ليست أخبارًا مترتّبة على ضمير الفصل، وإنّما هي أسماءٌ للّه تعالى مقرّرة في سياق مستقلٍّ، ولو جُعِلَ ضميرَ فصلٍ؛ وجب حملُ هذه الأسماءُ على أنّها أخبارٌ عن ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1].

دلالةُ إطلاق لفظ ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ دون متعلّق أو قيدٍ:

العناية بإثبات الصّفة أدلُّ على عظيم القدرة وكمالِها

إطلاق لفظ ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ على اللّه تعالى دون تقييد، إنّما هو دلالة على العناية بإثبات الاسم وما تضمَّنه من الصِّفة، وإرادة العموم على كلِّ ما يُمْكِنُ التّعلّق به والوقوع عليه. فالمقصود أنّه سبحانه هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن على الإطلاق.

بلاغة التَّعبير بأسلوب الطِّباق:

وصفٌ جامع بين الأزل والبقاء، وتنزيهٌ مطلَقٌ عن الفناءِ

المطابقة حاصلة بين الوَصْفَيْن المُتضادين[2]؛ إذ يجتمع فيه الإيجاز الإلهيّ ما لا يسعه غيره من البيان، فـ ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ هو الذي ليس قبلَهُ شيءٌ، ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ هو الذي ليس بعدَهُ شيءٌ[3]، فهو المتفرّد في الأزليّة والبقاء. وآثر التّعبير بلفظ ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ الدّال على الباقي بعد هلاك الموجودات وفنائها بقول المولى سبحانه: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88] لينشأ طباقٌ بديعٌ مع وصف ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾[4]، باجتماع النّقيضين في وصفٍ واحدٍ توكيدًا لشموليَّة قدرةِ اللّه وعظمته؛ فهو الأوَّل بلا ابتداءٍ، والآخرُ بلا انتهاءٍ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ جاء الطِّباق بين اللَّفظين مبرِزًا كمالَ الإحاطة وجلالةَ الوصف؛ إذ جمع بين ما لا يكاد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 359.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 361.

(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 484.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 198.

يجتَمِعُ في إدراك البشر من أمرين متقابلين، فالظُّهور من صفات العلوِّ والرِّفعة، وهو المدرك بالعقول من خلال آياته الباهرة وصنعه المتقن، والبطون من صفات الإحاطة واللّطف، وهو الغيب المستور الذي لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفكار. ولمّا كان التَّقدّم يورث خفاءً، والتَّأخّر يُشعر بالظّهور؛ بيّن أنَّ الله تعالى يجمع بين السَّبق والعلوّ، وبين الإحاطة والخفاء، على وجه الكمال، لا على ما يعتري المخلوق من ضعف الإدراك أو تضادِّ الصفات. فجاء العطفُ بالواو في إشارةٍ إلى تمام الاتِّصاف بهما معًا، تحقّقًا لا توهُّمًا، وكمالًا لا نقصَ فيه(1).

بلاغةُ التَّعبير بأسلوبِ القَصْرِ بطريق تعريف الجزأين:

انفرادُ الله تعالى بكمالِ الأوصافِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ﴾ أسلوبُ قصْر، بتعريف طرفي الإسنادِ؛ فإنَّ ﴿هُوَ﴾ مبتدأٌ وهو معرفةٌ، و﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ خبرُهُ وهو معرفةٌ أيضًا، وهذا القَصْرُ قصرٌ حقيقيٌّ يُؤكِّد تفرُّدَهُ سبحانه بمبايَنَتِهِ خَلْقَهُ، وأنَّه تعالى ليس كمثله شيءٌ.

دلالة اقتران الواو مع أوصافه سبحانه في قوله: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ﴾:

العطفُ دالٌّ على الجمع بينَ أوصافِ ذي الكمال والفضلِ

الواوُ ليست من بابِ العَطْفِ المفرِّق بين المتغايرات، بل هو من قبيل الجمع بين كمالاتٍ لا تجتمع في غيره سبحانه، فليس المراد انْفِصال كلّ وصف عن الآخر، بل اجتماع كمال الأوّليّة والآخريّة، والظّاهريّة والباطنيّة معًا، على وجه لا يُتصوّر اجتماعه في سواه سبحانه. واقتران هذه الأوصاف في الآية بواوِ العطف؛ جاء ليؤكّد شمول الإحاطة، وكمال الاتّصاف؛ إذ لو حُذفت وأُتي بالأوصاف متوالية دون فصل، لرُبّما تَوَهّم السّامع أنّ هذه الصّفاتِ متداخلةٌ، أو مقيّدة ببعضها، أو أنّ بعضَها شرط لتمام الآخر، بخلافِ التَّعبير

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 255.

بواو العطفِ؛ فإنَّه يدلُّ على أنّ كلّ صفة منها قائمة بذاتها، تامّة في معناها، غير محتاجة لِما يُكَمِّلها أو يُفسِّرها من الصّفات الأخرى، فهو سبحانه أوّل على وجه الإطلاق، وآخر بلا قيد، وظاهر مع كمال بطونه، وباطن مع تمام ظهوره[1]. فالواو الوُسْطى تؤكّد شمولَ صفاته لكلّ الأزمنة والأحوال، فهو الدّائم الذي لا يغيب عن ملكوته شيء، حاضر في كلّ زمان ومكان بعلمِه[2]، فقد جاءت الواو بين هذه الصّفات لتجمع شتات معانٍ تبدو متنافرة، مؤكّدة بذلك وحدانيّة المتّصف بها، وشمول كماله، فأتت هذه الأداةُ البديعةُ لتَصوغَ مِن اختلاف الألفاظ اتّفاقًا في الدّلالة على عظمة الحقّ وجَلالِه؛ لتكون بذلك أبلغَ ما يكون البيانُ وأحسنَه[3].

بلاغة ترتيبِ أسمائِهِ سبحانه في الآية، وسرُّ اقترانِها:

ترتيب الصّفات دالٌّ على مراتب الوجودِ لا نقصانٍ في الكمال والجلالِ

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ ورد ترتيب هذه الأسماءُ الجليلة باعتبار مراتبِ الوُجود وتجلّياته، لا في أصل الكمال وحقيقة الفضل. فهي سِرٌّ عظيم يُدْرِكه أصحابُ البَصائر المستنيرة، ويغفَلُ عنه الغافلون عن أنوار الحقيقة[4].

والجَمْعُ بين هذه الأوصاف فيه دلالةٌ بالغَةٌ على كمال إحاطته بكلِّ شيء، فهو سبحانه الموجودُ قبل كلِّ موجود، الباقي بعد فناء كلِّ شيء، الظاهر بعلوِّهِ فلا يعلو عليه شيءٌ، والباطن بلطفه ودقَّته، فليس دونَهُ شيءٌ، فجاء الجمع بين هذه الصِّفات المتقابلة لإبرازِ كمالِ الذّات الإلهيَّة من كلِّ وجهٍ، ولإيقاظِ رهبة العظمة واستشعار الإحاطة في القلوب، وفي ذلك من محاسن البلاغة ما يُدْهِشُ العقول، ومن دقَّة التَّعبير ما يدعو العالمين إلى التَّدبر والتَّعظيم[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 256.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 472.
(3) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 343.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 273.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 363.

علاقة موضوعاتِ سورة الحديد بهَذِهِ الصِّفات:

في كنف (الحديد) استعراضُ القدرة والصّفات في الذّكر المجيد

لّمّا كانت سورة الحديد زاخرةً بذِكْرِ تجليّات قدرة اللّه العظيمة، ومفعمةً بآيات فيها جلال صفاته، وكمال أسمائه[1]؛ وردت فيها هذه الأسماءُ التي تُعبّر عن إحاطة اللّه المطلقة بكلّ شيء، بدءًا وختامًا، ظهورًا وخفاءً، فلا يُدْرِكُهُ عقل، ولا تحيط به حدود، فهو مَنْبَعُ الوجود ومآلُهُ، ومنتهى الإدراكِ وكمالُه.

أثر هذه الأسماء الأربعة في بناء العقيدة الإيمانيَّة عند المسلمِ:

مفاتيح الخير والنّور بها يستنيرُ العبدُ على طريقِ التّوحيد

أثَرُ هذه الأسماء الأربعة ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ في بناء عقيدة المسلم الحقّة لا يخفى، فهي كلمات توحّد اللّه وتُمجّده، وهي مفاتيح للخير، مَن نطق بها فقد أدرك في الدّنيا معنى التّوحيد الكامل. وتعود هذه الأسماءُ إلى تحقيق العبودية في الظّاهر، وفهم الذّات الإلهيّة في الباطن، وهما مصدر كلّ خير؛ بهما يدرك العبدُ تفاعلَه مع الوجود بأسره[2].

دلالة العطف في ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾:

كمالُ عِلْمِ الله تعالى وسَعَتُهُ

عَطَفَتِ الواوُ جملةَ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ على صَدْرِها من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾؛ لأنّ الآية تجمع في نظمها العجيب كمالَ الإحاطة الإلهيّة بالزّمان والمكان، فهو الأوّل الذي لا شيء قبله، والآخر الذي لا شيء بعده، وهو "الظّاهر على كلّ شيء، العالي فوقه، فالأشياء دونه، الباطن جميع الأشياء؛ فلا شيء أقرب إلى شيء منه، ومثله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]، ويدلّ على هذا أنّ بعده ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: لا يخفى عليه شيء"[3].

وعُطِفَت جملة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ على ما قبلَها؛ لما بينَهما

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 195.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 99.

(3) النّحاس، إعراب القرآن: 4/ 233.

من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ اتَّحدتا في الخبريَّةِ، وبينهما تناسبٌ في اللَّفظ والمعنى، فأمّا التَّناسب اللَّفْظيُّ فاشتراكُهما في الاسميَّةِ، واتِّحاد المسندِ إليه فيهما وهو الضَّمير (هوَ) العائدُ إلى اللّه تعالى، وأمّا التَّناسُبُ المعنويُّ؛ فاشتراكُهما في بيانِ الكمالاتِ الإلهيَّةِ.

سرّ التّعبير بالضّمير (هوَ) دون الظّاهر:

إيجاز وربطٌ أبلَغُ مِنَ التّكرار، وتوكيدٌ فيه عظمةُ الجبّارِ

التّعبير بالضّمير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ﴾ دون الاسم الظّاهر يحمل بلاغة دقيقة ومعاني جليلة، ومن ذلك: أنَّ فيه إيجازًا مع الإشارة، فهو تعبيرٌ أوجزُ وألصق بالمعنى دون تَكرار، مع بقاء الإشارة إليه واضحةً للسّامع أو القارئ. ومِنْها: الرّبط السّياقيّ والتّوكيد الذّاتيّ، فالضّمير يربط بين مضمون الآية وسياقها السّابق، ويُفهم منه أنّ الخالق المدبّر المقدّر هو ذاته العليم بكلّ شيء، وفائدته التّوكيد على الذّات الإلهيّة دون الحاجة إلى تسميتها صراحة. ومِنْ ذلك أيضًا: الإعلاءُ من الهيبة والجلال، فالتّعبير بالضّمير يعظّم الذّاتَ المشار إليها؛ إذ الضّمير في مثل هذا الموضع لا يكون إلّا لمن عُلمت ربوبيَّته في السّياق، فهو إضمارٌ مشفوع بالتّعظيم والإجلال.

معنى (الباء) ودلالتها في قوله: ﴿بِكُلِّ﴾:

إحاطةُ التصاقٍ وعلمُ امتزاجٍ

آثَرَ النَّظم الكريم استعمالَ الباءِ الدّاخلة على لفظة (كلّ) لدلالتها على الإلصاق[1]، بخلاف (على) الدّالَّة على الاستعلاء والإحاطة الخارجيَّة، فهو أرادها مُؤْذِنةً بالالتصاق الوثيق، والاتّصال الذّاتيّ للعلم الإلهيّ بكلّ شيءٍ، وعدم انفصالهِ عَن المعلوم، بَل هو لصيقٌ به إحاطةً وشمولًا، كأنّه يمسّه ويحتويه من داخله، فكلّ شيء في هذا الكون الفسيح محاطٌ بِعِلْمِهِ سبحانه إحاطةً لصيقة لا انفكاكَ لها.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِكُلِّ شَىۡءٍ﴾ على الخبر ﴿عَلِيمٌ﴾:

يفيد تقديمُ المتعلِّق على الخبر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 326.

إحاطةُ علم الله تعالى بكلِّ شيءٍ؛ كُلّيًّا كان أو جزئيًّا

﴿عَلِيمٌ﴾ الاهتمامَ ببيانِ ما يدلُّ على عمومِ العلمِ والإحاطَةِ؛ ليكونَ أنسبَ للعموم المذكور قبلُ في الآيةِ السّابقةِ.

وفيه إثبات كمال علمه ﷻ، وردٌّ على من قد يتوهّم أنَّ بعض الأشياء قد تخفى عليه؛ فهو سُبحانَهُ "العالم الَّذي لا يَحْتَجِبُ عن علمه شيءٌ من الجزئيّات والكليّات"(1)؛ فجاء التّقديم لإزالة هذا التّوهّم، وتعميقِ المعنى في النّفوس.

الغرض من إضافة (كلّ) إلى ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾:

علمه محيطٌ بالباطن والظّاهر، فلا يخفى عليه شيءٌ

للتّعبير بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة بالغة إلى أنَّ جميع الأشياء لديه سبحانه في منزلة واحدة من الظّهور، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء، فما كان عند الخلق باطنًا أو ظاهرًا إنّما هو بحسب إدراكِهم المحدود، وأمّا علمُ اللّهِ المحيطُ فلا يحجبه حجاب، ولا يغيب عنه شيء، فهو موجدُ الأشياء المحيط بها علمًا وقدرةً وحكمةً(2).

سرّ التّعبير بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ على وزن (فَعيل)، والغرض من تنكيره:

(عَليمٌ) بلا حصر ولا تقييد بصيغة تفيد الثّبوت والتّأكيد

التّعبير بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ على وزن (فَعيل) دون غيره من نحو (علّام) أو (عالم)؛ فلأنّ المرادَ هنا صيغة الصّفة المشبّهة لا اسم الفاعل، والمعنى: أنَّه سبحانَهُ عليم بكلّ شيء من غير حصر أو تقييدٍ(3). ويجوز أن يكون ﴿عَلِيمٌ﴾ على وزن (فَعيل) للمبالغة، على أن تكون المبالغة متوجّهة إلى الكيف لا الكمّ؛ لأنّه قد استغنى عنه بقوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾، فأتى الوصف مؤكّدًا للكيفِ لا الكمِّ؛ فعِلْمُهُ سبحانه كاملٌ في القوّة والنّوع والإحاطة، لا في العدد والحصر فحسبُ(4). وفي تنكيرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ تفخيمٌ وتعظيمٌ وتعميمٌ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 443.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 257.

(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 438.

(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 152.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

من كمال الصّفات إلى جلال الصُّنع: تجلّيات الخالق في الخلق والتّدبير والاستواء

لَمّا أخبر الحقّ ﷻ عن كمال أسمائه وصفاته بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ [الحديد: 3]، وكان من مقتضى هذا الكمالِ أن يكون خالقًا عليمًا، بديعَ الصّنعة، محيطًا بالخلق ظاهرًا وباطنًا، علِمَ بما أبدع، وأحاط بما صنع؛ أتبعَ ذلك ببيان أعظم مظاهرِ فعْلِه وآيات قدرته، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾، فدلّ بذلك على أنّ مَن له الكمال المطلقُ في الصّفات؛ له الإنشاء الكامل في المخلوقات، وأنّ العلوّ والاستواء بعد الخلق من تمام المُلك، وأنّ التّأنّي في الخلق كان لحكمة التّدبير، لا عن عجز ولا عن فتور، بل تقرير لأيام الدّنيا المعهودة، وسابعها الجمعة الذي خلق فيه الإنسان(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: فعل دالٌّ على المُضيِّ، من الجذر اللّغويّ (سوي) الذي يدلّ على استقامة واعتدال بين شيئين، سواءٌ أكان ذلك باعتبار إسناده إلى شيئين فأكثر(2)، أم باعتبار اعتدال الشّيء في ذاته(3)، والاسم منه: السّواء. ولهذا الفعل معانٍ متعدّدةٌ، ويستعمل لازمًا

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 257.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 2/ 241.

ومتعديًا بالحرف، فمن الأوّل قولهم: استوى الرّجلُ؛ إذا انتهى شبابه[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: 14]، ومن الثّاني قولهم: استوى على الشّيء؛ إذا علا عليه وارتفع[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5]، ومعناهُ في حقِّ اللّه تعالى معروفٌ؛ وهو العلوُّ والارتفاعُ والصُّعود[3]، وحقيقةُ ذلك وكيفيَّتُه مجهولةٌ لنا، كما قال الإمام مالك ﷺ عندما سئل عن كيفيَّةِ الاستواء؟ فأجاب: (الكَيْفُ مِنْهُ غَيْرُ مَعْقولٍ، والاِسْتِواءُ مِنْهُ غَيْرُ مَجْهولٍ، والإيمانُ بِهِ واجِبٌ، والسُّؤالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ)[4].

2) ﴿ٱلْعَرْشِ﴾: جذره اللّغويّ (عرش)، وأصله دالٌّ على الارتفاع في الشّيء المبنيِّ، ثمّ يُستعار في غير ذلك[5]، ويُجمعُ لفظ (عرش) على عُروش، ويطلق في العربيَّة على سرير الملك؛ لأنّه يصنع منبسطًا ويرتفع عن الأرض، وكلّ بناء مرتفع يُستظلّ به يطلق عليه العرش، ويُستعمَلُ أيضًا كنايةً عن العزّ والسّلطان، يقال: ثُلَّ عَرْشُه؛ أي: زال ملكه، وعرش الرّجل: قوام أمره[6]. والمرادُ بالعرشِ الإلهيِّ: "هو ذلك السَّقْفُ المحيط بالمخلوقات، ولا نعلَمُ مادَّة هذا العرش؛ لأنَّه لم يَرِدْ عن النَّبيِّ ﷺ حديثٌ صحيحٌ يُبَيِّن مِن أينَ خُلِقَ هذا العرش، لكنَّنا نعلم أنَّه أكبَرُ المخلوقاتِ التي نعرِفُها"[7].

3) ﴿يَلِجُ﴾: فعل مضارع من الولوج بمعنى الدّخول، ومنه: الوليجة؛ أي: البطانة والحشوة؛ لأنّها قريبة من معنى الدّخول[8]، ومنه: الوجع الذي يدخل جوفَ الإنسان، يسمّى: ولِجَة، والوالِجَة هي "السّباع والحيّات، سمّيت والِجَة؛ لاسْتِتارِها بالنّهار في الأولاجِ، وهو ما ولَجَتْ فيه من شِعْبٍ أو كهف"[9]. والمعنى المحوريّ للَّفظة وما اشتُقَّ منها يدلُّ على الدّخول في فجوةٍ كثيفة غليظةٍ تُخْفي الدّاخلَ وتحيطُه وتَسْتُرُه، كالكهف والغامض

(1) الجوهري، الصحاح: (سوا)، والزبيدي، تاج العروس: (سوو).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوي).
(3) ابن القيم، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ص: 87.
(4) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء: 6/ 325، ويُنظر: عبد الرزاق العباد، الأثر المشهور عن الإمام مالك رحمه الله في صفة الاستواء: دراسة تحليلية، ص: 38 - 51.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرش).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عرش).
(7) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية: 1/ 374.
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة: (جلو)، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (ولج).
(9) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ولج).

من الأرض، وعامّةُ فعلِ الولوج في الكتاب الحكيم واردٌ بمعنى الدّخول[1]. ومعنى ﴿يَلِجُ﴾ في الآية الكريمة: "ما يدخُلُ في الأرض من الأمطارِ والكنوز والأمواتِ"[2].

4) ﴿يَخْرُجُ﴾: فعل مضارِعٌ دالّ على الحال والاستقبال، وجذره اللّغويّ (خرج)، ومنه: الخروج؛ وهو نقيضُ الدّخول، ولهذا الجذر أصل يدلّ على النّفاذ عن الشّيء[3]، والظّهور والبروز؛ لذلك يُقال لكلّ مَن برز مِن مكان قراره، أو وضعه إن كان ذلك المقرّ بيتًا أو موطنًا أو لباسًا، أو غير ذلك، ويكون كثيرًا شائعًا في الأعيان[4]. ومعنى ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ أي: من الزّروع والنّبات ونحوه[5].

5) ﴿يَعْرُجُ﴾: مصدر: عرجَ؛ وهو الصّعود والارتفاع، والمعراج: آلة العروج، كالمصعد والمرقى التي يُصْعَد بها من أسفل إلى أعلى، فهو بمنزلة السُّلَّم أو الدّرج، من غير معرفة كيفيَّته، يُقال: عرج إلى السَّطح وإلى السَّماء يعرج عروجًا ومعرجًا؛ أيّ: صعدَ[6].والمقصود من الفعل ﴿يَعْرُجُ﴾ في الآية "وما يصعد إليها من الملائكة، وطاعاتِ العباد، ودعوات الخلق، وصحف المكلّفين، وأرواح المؤمنين"[7].

المَعنى الإجْماليُّ:

عظمةُ الأوصاف الإلـهـيَّـةِ في الخَلْقِ والعِلْمِ وغيرها

اللّه سبحانه الذي أبدع السّماوات والأرض في ستة أيّام، لا عن عجز ولا على مهل، بل لو شاء؛ لقال لها: كوني، فكانت في لمحة طَرْفٍ، ولكنّها ستّة أقامَها أصلًا، وجعلها ميزانًا للتّقدير؛ ليُدار عليها نظام

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولج).
(2) الفيروزآبادي، تنوير المقباس، ص: 456.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خرج).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (خرج).
(5) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 10/ 3161.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (عرج).
(7) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 533.

الزّمان، وتُضبط بها مقادير الأكوان، ثمّ علا على العرش علوًّا يليقُ بجلالِه وعظَمَته. يعلم ما يَدْخُلُ في الأرض من ماءٍ وبذر، وما يخرج منها من نباتٍ وشجَرٍ، وما ينزل من السّماء من ملائكةٍ ووَحْيٍ ومطر، وما يعرج فيها مِن أعمال العباد ودعوات البشَر. وهو مَع عبادِه حيث كانوا، لا تحجبه المسافات، ولا تَخْفى عليه الخطَرات، وهو البصيرُ بأعمالِهم، لا يغيبُ عنه شيءٌ منها، يُحصيها عليهم، ويُجازيهم بها على حسَب أعمالِهم عدلًا أو فضلًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ممّا قبلهُ ودلالته:

بيانُ الأدلَّةِ الدّالَّةِ على عِلْمِ اللهِ تَعالى وقُدْرَتِه

الجملةُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إمّا أن تَكون واقعةً موقع كمال الاتّصال من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ [الحديد: 3] وهو رابط واضح جليّ، فمرادُ الجملة السّابقة الإشارةُ إلى علمه تعالى بجميع الموجودات، وإحاطته وقدرته؛ إذ تكفّلت الجملة السّابقة بالإشارة إلى ذلك، وحيث إنّ الخالقَ لا يكون إلّا عالمًا بخَلْقِه؛ دُلَّ على علمه ذاك وقدرته تلك بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[2]. وإمّا أن تكون الجملة الاسميّة واردةً على سبيل الاستئنافِ المَسوق للاستدلالِ على تفرّده ﷻ بالألوهيّة، داحضًا لشبهة الشّرك، وناهضًا بالحجّة على وجوبِ توحيدِهِ؛ إذْ لا خالقَ سِواه، ولا مدبّر غيره[3].

بلاغة التَّعبير بأُسلوبِ القَصْرِ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾:

تفرّد الخلّاق بإيجاد الخلق على تمام الإتقان والإحكام

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، طريقُه: تعريف جزأي الإسناد لإفادة الحصر والاختصاص والتّوكيد[4]، فقولُهُ:

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 433.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 257.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 363.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 328.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أي: هو وحده الخالقُ[1] دون سواه، المتفرّد بالإيجاد والإبداع. وفي ذلك إيذانٌ بأنّ الخَلْق - بمعنى الإيجادِ مِنَ العَدَمِ - فعلٌ إلهيّ خالِصٌ لا يشاركه فيه أحدٌ علمًا وقدرةً وتقديرًا.

الغرض من التّعبير بالاسم الموصول، وإيراد صلتِه جملةً فعليَّة ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾:

خلقُ السّماواتِ والأرض شاهدٌ على عظمة الرَّبِّ القدير

عُبِّر بالموصول ﴿ٱلَّذِي﴾؛ لما فيه من دلالةٍ على التّفخيم والتّعظيم[2]، ولمّا كان الموصول واردًا على الخبريَّة من الضّمير[3] العائد عليه سبحانه؛ أفاد مع صِلَتِه تذكيرًا بعظيم صفة الخلق، الذي شَمِل السّماواتِ والأرضَ وما فيهنّ من جواهرَ وأعراضٍ، وكان ذلك أوجزَ لَفْظٍ يُحْيي في النّفوس استحضارَ عظمة قدرة اللّه تعالى[4].

كما أنَّ التّعبير بجملةِ الصِّلةِ جملةً فعليَّة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ جَمْعٌ بين دلالةِ الاسم الأحسنِ وإشعارِ الصّلة بعلّة الخبر، فكان خلق السّماوات والأرض برهانًا ساطعًا على تفرّده سبحانه بالرّبوبيّة، وكفيلًا بإثبات الألوهيّة، فكأنّما جُعلت عظمة الخَلْقِ دليلًا ناطقًا على وحدانيّة الخالقِ[5].

دلالة التَّعبير بالفِعْلِ ﴿خَلَقَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

خَلَقَ الله تعالى السّماواتِ والأرضَ بإحكامٍ ونظامٍ

عُبِّر بلفظ الخَلْقِ دون سواه في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لما يحمله هذا اللّفظ من سرّ التّقدير المحكم، فيشير إلى تقريرِ حالِهما وثباتهما على ما هيَّأه العليمُ القدير[6]. وصيغة الماضي تُنبئ عن حصولِ الأمر واستقراره، كأنّما السّماوات

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 257.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 328.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 452.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 126.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/ 161.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 255.

والأرض قد اسْتَوَتْ على نظام لا يتبدَّل، ووضع لا يتحوّل، فلفظ (الخلق) فيه من البلاغة ما يُجَلّي عظمةَ الإيجاد من العدم، ويُظهر بديع التّقدير والتّسوية، فسبحان من هذا فعله، وعزّ من هذا صنعه[1].

سرّ تخصيص خَلْقِ السّماوات والأرض دون غيرهما من المخلوقات:

في بيان خَلْقِهما دون غَيْرِهما ذِكْرٌ للأصلِ بِما يُغني عن الفَضْل

ذِكْرُ خَلْقِ السّماوات والأرض دون غيرهما من المخلوقات؛ لا يُراد به الحصر أو التّخصيص، بل إنّ هذا الذّكر يتضمّن بطريق اللّزوم والاقتضاء ما بينَهُما مِن الخلق؛ لأنّ مَن خلَقَ العلوَّ والسّفل؛ فقد أحاط علمًا وخلقًا بما حوى بينهما، فكان ذِكْرُ السّماوات والأرض مدارًا جامعًا، تتفرعّ عنه سائر الخلائق دلالةً لا تصريحًا، وإجمالًا لا إهمالًا.

سِرُّ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ (الأرضِ):

تَصَرُّفُ النَّظْمِ القُرْآنيّ في الألْفاظِ جَمْعًا وإفْرادًا بِما يُحَقِّقُ جَزالَتَهُ وانْسِيابَهُ

اسْتُعْمِلَ لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إيذانًا بتعدّدها وتنوّع مراتبها، موافقًا لما استقرّ في أذهان العرب من العلم بتعدّدها[2]، فكان التّعبير بالجمع أبلغَ في تصوير عظمة الخلق، واتّساع ملكوت اللّه تعالى، ودقّة صُنْعِه.

ولم تُجْمَعِ (الأرضُ) كَما جُمِعَت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، بَل لَمْ تَرِدْ لفظَةُ (الأرْضِ) مجموعَةً في القرآنِ الكريم مُطْلَقًا، فالسَّماءُ إذا ذُكِرَت مجموعَةً جيءَ بلفظِ الأرض مُفْرَدًا في جميع مواضِعها، وعُدِلَ عن الجَمْعِ لِثِقَلِه، والجُسْأَةُ التي تعرِضُ للَّفْظ حتّى إنَّ النَّظْمَ لَيَخْتَلُّ بسببِ ذلك[3].

مَعْنى (ألْ) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾:

(ألْ) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ

(1) القنوجي، فتح البيان: 4/ 373.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 257.
(3) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 160.

الإيماءُ إلى عُمومِ أرجاءِ السَّماواتِ وجميعِ بِقاعِ الأرْضِ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاعِ المندرجةِ في لَفْظِها، وهيَ شامِلَةٌ لكلِّ ما يقَعُ عليهِ هَذا اللَّفْظُ، فيدخُلُ في لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جميعُ أرجائِها وأنْحائِها، ويَدْخُل في (الأرْض) الأرضونَ السَّبْعُ كُلُّها.

دلالة تَقْديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرضِ):

تَـفَنُّنُ البَيانِ القُرْآنيّ في الألْفاظِ تَقْديمًا وتَأْخيرًا

قُدِّمَ خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على خلق (الأرض) في هذا المقام لكونِهِ واردًا على سُموّ المعنى ورفعة المقام؛ إذ جاء التّقديم ترقّيًا في المدح[1]، وانتقالًا من الأدنى إلى الأعلى، ومِنَ المألوف إلى الأجلّ الأسمى، فيشهد كمال الصّانع، وعظمة المبدع سبحانه.

دلالة التّعبير بالظّرفية في قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾:

استيعابُ الخلقِ الأيّامَ السِّتَّة

من المعاني المشتهرة لحرفِ الجرّ ﴿فِي﴾ دلالتُه على الوعاء والظّرفيَّة[2]، وهو لا يُشير فقط إلى مدّة الخلق، بل يتَضمّن معنى التّمكّن والاستيعاب الزّمانيّ، فكأنّ عمليَّة الخلق العظيمة هذه؛ قد استغرقت هذه الأيّام السّتَّة بتمامها، واحتوتها بكلّ تفاصيلها ومراحلها.

سرّ التّعبير بالعدد ﴿سِتَّةِ﴾ في قوله: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾:

الآياتُ الكونيَّةُ شاهدةٌ على كمالِ صِفَتي العلمِ والحكمةِ

التّعبير بالمدّة في قوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ بيان لإحكام الخلق، وإتقان الصّنعة؛ إذ جرى العرفُ في خطاب النّاس أنّ نَسبَ الشّيء إلى زمنٍ ممتدّ دليلٌ على التّدبير المُحْكَم، والصّنع المتقن[3]، لا على العجز أو الإبطاء، فكان في ذِكْرِ الأيّام السّتَّة إيحاءٌ بعَظَمَةِ الخلق وروعة التّقدير، لا بمجرَّدِ انقضاءِ الزَّمن، كما أنَّ لِتخصيص خلق السَّماواتِ والأرض بستَّة أيام دون سواه حكمةً إلهيَّة نقرُّ بها، وإنْ خفيَ سرّها، كسائر التّقديرات الرّبّانيّة؛ من تسعة عشر خازنًا للنّار، وثمانيةٍ من

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 279.
(2) الزجاجي، حروف المعاني والصفات، ص: 12.
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 6/ 365.

حملة العرش، واثني عشر شهرًا، وسبعِ سماوات، وخمسِ صلوات، فكلّ تقدير له حكمةٌ، وكلّ عدد له حجّة، والإيمانُ إقرارٌ بأنّ تقدير الحكيم صواب لا يسأل عنه[1]. كما يتجلّى في هذا التّعبير إرادةُ الحكيم الخبير أن يكون خلق السّماوات والأرض مدرّجًا لا دفعة واحدة؛ لتحقيق غاية التّكامل الكونيّ بعظيم قدرته، ودقيق حكمته، فكانت ستَّة الأيّام أتمّ زمن يحصل به المراد، ويظهر به كمال الصّنعة الإلهيّة، فيجتمع بذلك مظهر القدرة الباهرة مع الحكمة البالغة، فتكون الآية الكونيّة شاهدةً على كمال الصّفتين، وهما علمُ اللّهِ المحيطُ، وقدرتُه النّافذةُ[2].

سرّ التّعبير بالأيّام دون اللّيالي:

ذكر الأيّام تعبير عن الحكمة الإلهيَّةِ قبل وجود اللّيل والنّهار

سرّ التّعبير القرآنيّ بـ (الأيام) دون اللّيالي في قوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يكمن في الدّلالة على مقدار الزّمن المجرّد؛ إذ لم يكن ثَمَّ نهار ولا ليلٌ عند بدء الخليقة[3]، فكان التّعبير بالأيّام إشارةً إلى المدّة الزّمنية المحضة، لا إلى تعاقب الأوقات المعهود، إيحاءً بحكمة التّقدير الزّمنيّ قبل وجود نظام اللّيل والنّهار.

معنى - ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتها:

حرف التَّرتيبِ يُفيدُ أنَّ استواءَ اللهِ تعالى على عرشِهِ مِنَ الأوصافِ الفعليَّةِ

﴿ثُمَّ﴾ حرفُ عطفٍ دالٌّ على التّراخي في لسان العرب[4]، والتّعبير بها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ يدلُّ على أنَّ استواءَ اللّه تعالى على العرشِ كان بعد خلقِهِ السَّماواتِ والأرضَ، فالحقُّ أن يُقال: "كانَ اللّهُ ولَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، ثُمَّ خلق السَّماوات والأرْضَ في سِتَّةِ أيّام، وكانَ عَرْشُهُ عَلى الماءِ، ثُمَّ اسْتَوى عَلى العَرْشِ، و﴿ثُمَّ﴾ هُنا لِلتَّرْتيبِ الزَّمانيِّ لا لمجرَّدِ العَطْفِ"[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 288.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/ 161.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 288.
(4) المرادي، الجنى الداني، ص: 430.
(5) هرّاس، شرح العقيدة الواسطية، ص: 142، ويُنظر: ابن عثيمين، أسماء الله وصفاته وموقف أهل السنه منها، ص: 16 - 17.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ مادّة وصيغة:

استـواءٌ يـدلّ عَلى علوِّ الذّاتِ والصِّفاتِ

لَمّا كان استواءُ الملك على عرشه رمزًا لانفراده بالتّدبير، ومظهرًا لاستقلاله بالحكم والأمر، وإحاطة قدرته وعلمه بسائر الخلق، وكان ذلك هو لبَّ الملك وجوهرَ سلطانِه؛ عبّر اللّهُ سبحانه عن هذا المقام الجليل بلفظ الاستواء؛ تنبيهًا على كمالِ عظمته، وإشارة إلى علوِّ ذاتِه وسموّ قهره وارتفاع شأنه، فقال جلّ في علاه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾[1]. وقد أورده بصيغة المُضيِّ للإشارة إلى ثباته واستقراره والانتهاء إليه، وهو استواءٌ يليق بجلاله، لا يشبه استواء المخلوقين، يُعلِّم العقول بعظيم قدرته، ويهدي القلوب إلى إدراك جبروته، وفيه تقريعٌ للمشركين، فتزداد في نفوسِهم حسرة على ضلالهم في إشراك غيره في الألوهيّة[2].

دلالة تعديةِ ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ بـ﴿عَلَى﴾:

استـواء اللـه تـعـالى عـلى الـعـرش عـلوٌّ يـليق بـجلالِه وعظمتِه

استعمال حرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ مع فعل الاستواء دون (إلى) الدّالّ على الانتهاء[3] في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾؛ ليدلّ الاستواءُ على التّمكّن التّامّ، بما يليق بجلال اللّه وكمال سلطانه، وأنَّ المرادَ بالاستواءِ العلوُّ والارتفاعُ، بخلاف تعديةِ الفعلِ بـ (إلى)؛ فقد يُتوهَّمُ في الاستواءِ مَعْنى القصْدِ.

سرّ التّعبير بالعرش مع الاستواء:

إحـاطـة الـلـه تعالى سُبحانَهُ بـجـمـيـع المـخـلـوقـاتِ حكمةً وتدبيرًا

في التّعبير بالاستواء على العرش إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ هو علوٌّ خاصٌّ، وليس دلالةً على الملكِ؛ لأنَّ اللّه تعالى مالكٌ للعرشِ وغيرِه. وفي تخصيصِ العرشِ بالذِّكرِ - بعد دلالتِه على العلوِّ المطلَقِ - إشارة إلى إحاطة اللّه سبحانه بجميع الموجودات إحاطةَ تدبيرٍ وحكمة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 257.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/ 161، و: 27/ 364.
(3) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459.

وبيان لعظيم سلطانه في تصريف شؤون الخلق، بدءًا من العرش؛ وهو مظهر عظمة الملك، وانتهاءً بما دونَهُ.

موقع جملة ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

إحاطة العليم القادر بكلّ خفيّ وظاهر

الجملة من قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مستأنفةٌ لبيان إحاطة علم الله ﷻ بما خفي في الأرض وظهَر، وهي مسوقَةٌ لتفصيل ما أُجْمِل في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢﴾ [الحديد: 2]، وبيانًا لمعنى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ [الحديد: 3][1]، فالمرادُ تقريرُ عموم علمِه سبحانه وتعالى، وتمثيل بعض مظاهرِه التي تدلّ على شموله لكلّ صغير وكبير، وغائب وحاضر، بما لا يبلغُه وهْمٌ، ولا يدركه نظَرٌ.

دلالة التّعبير بالعلم في قوله: ﴿يَعۡلَمُ﴾ مادّة وصيغة:

علمٌ لا يزول، وإحاطة تشمل كلّ دخول وخروج وصعود ونزولٍ

جاءَ التَّعبيرُ بالعلم دون غيره في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على طريقة اللَّفِّ والنَّشْرِ المرتَّبِ[2]، فبدأ بذِكْرِ العلم بما يدخل في الأرض، باعتباره أحدَ وجوهِ الإحاطة العلميّة المطلقة للّه تعالى، فذِكْرُهُ فعلَ العلم مناسبٌ للمقام؛ تأكيدًا على صفة العلم المحيط بما يتّسق مع ما ختم به الآية السّابقة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾، وهو "تفصيل لبعضِ ما يحيط به علمُه من الأمور التي نيطَت بها مصالحُهم الدّنيويَّة والدّينيَّة؛ أي: يعلم ما يدخل فيها من الغيث والكنوز والدّفائن والأموات ونحوها"[3]. ولمّا كان العلم بما ورد في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ ممّا يتّصف بالدّوام والتّجدّد والاستمرار[4]، ولا يَنْفَكُّ عن الحدوث والتّكرار؛ أتَى الفعلُ فيه مضارعًا؛ إيذانًا باستمرار تعلّق العلم الإلهيّ بهذه الأحوال المتقلّبة، ودلالة على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 364.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 121.
(4) القونوي، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 18/ 439.

إحاطة لا تنفَد، وعلم لا ينقطع، ليوافق مقتضى الحال، ويطابق حكمةَ النّظم في سياقٍ الإحاطة المطلقةِ.

دلالة التّعبير بالموصول ﴿مَا﴾ دون غيره من الموصولاتِ:

علـمُ العـليّ القدير لا يحدّه خفاءٌ ولا تحجبه أرضٌ ولا سماء

﴿مَا﴾ اسم موصول دالّ على العموم[1]، واستُعْمِلَتْ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ لأنَّ عِلْمَهُ تعالى محيطٌ بجميع ما ذُكِرَ، ممّا لا يخرُجُ عَن كائن يتنقّل أو يتحرّك في جنبات الأرض أو السّماء، فمَنْ أحاط علمُه بما يَلِجُ في الأرض، وما يَخْرُج منها؛ فإنَّه لا يخفى عليه ما يدبّ على ظهرها، وما يسعى فوقها، ومَن أحاط علمُه بما ينزل من السّماء وما يعرج فيها؛ فقد أحاط بالكائنات التي تَغْمُر الأجواء والفضاء؛ مِن مرئيّات وخفيّات، ويعلَمُ ما يَجْري من سَيْرِ الكواكب، ومقادير حركتها، ونظامها الدّقيق[2].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يَلِجُ﴾ مادَّة وصيغة:

علمُ اللهِ المحيطُ يُدْرِك الغيبَ كما يدرك الشّهادة

التّعبير بالولوج دون الدّخول في قوله تعالى: ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يتوفّر على دقّة اختيار هذا الفعل؛ فهو لا يقتصر على مجرّد الدّخول، بل يوحي بالسّلوك والانتشار في الأعماق، بما يدلُّ على إحاطته بكلّ ما يتّصل بالأرض من مخلوقات، فيدلّ على حقيقتها بدقَّة تامَّة، دون الحاجة إلى المجاز أو الكناية؛ لأنّها تحيط بجميع معاني الدّخول والامتزاج والاستقرار في الأرض، ممّا يجعلها أنسبَ لفظٍ لوصف هذه الحالِ الكونيَّة العظيمة[3].

دلالة التَّعبير بالأفعال المضارعة (﴿يَعۡلَمُ﴾، ﴿يَلِجُ﴾، ﴿يَخۡرُجُ﴾، ﴿يَنزِلُ﴾، ﴿يَعۡرُجُ﴾):

في انتقاء الأفعال المضارعة ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿يَلِجُ﴾ و﴿يَخۡرُجُ﴾ و﴿يَنزِلُ﴾

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 205.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 137.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 137 - 138.

حركةُ الكون مستمرَّةٌ متجدِّدة:

و﴿يَعۡرُجُ﴾ أسلوب بليغ يصوّر حركةَ الكونِ المستمرّةَ، وذلك مؤذِنٌ بأنّ اللّه سبحانه قد أودع في السّماوات والأرض قوى متجدّدةً، تنبت وتنزل، تخرج وتعرج، في نسق دائم لا يعرف السّكون، حتّى يُطوى بساطُ الزّمان، ويبلغ الخَلۡقُ أجلَه[1]. وفي ذكره الولوج والخروج والنّزول والعروج بيانٌ إلهيّ بإحاطة علمِه كُلَّ شيءٍ، فلا تخفى عليه خافية. فدلّ التّناسق بين الحركات الأربع على إحاطة العلم الرّبّانيّ بكلّ شاردة وواردة، وهو وصف موجز مؤذِنٌ بكمال علمِه سبحانه[2].

سرّ تكرار الموصول (ما) في الآية:

بيانٌ سعَةِ العلم الإلهيّ المحيطِ بالظّاهر والخفيّ

في تَكرار (ما) الموصولة في الآية بيانٌ بليغ لتوكيد العلم الإلهيّ وإحاطته، وإيذان بالعموم والتّفصيل دون الاختصار والإجمال، فأراد تفصيل ﴿مَا يَلِجُ﴾ ﴿وَمَا يَخۡرُجُ﴾ ﴿وَمَا يَنزِلُ﴾ ﴿وَمَا يَعۡرُجُ﴾؛ إذ فصّل ما يلجُ في الأرض كالمطر والبذور والأموات، وما يخرج منها من النّبات والأحياء والكنوز، وما ينزل من السّماء من المطر والرّياح والثّلج والملائكة، وما يعرج فيها مِنَ الملائكة وأعمال العباد والأرواح[3]، فكان التّكرارُ مفتاحًا للكشف عن اتّساع المشهد، وشمول العلم الإلهيّ لكلّ ظاهرٍ وخفيّ.

سرّ تخصيص علم الله تعالى بما ذُكِر في الآية:

إحاطة العليم سُبحانَهُ بالكائنات دقيقها وجليلها

خصَّ اللّه سبحانه بالذّكر في سياق علمه المحيطِ ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ﴾ دون أن يذكر ما يدبّ على سطحها، كما خصّ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ دون أن يصرّح بما يَسۡبَحُ ويجول في أرجائها؛ لأنّ ما ذُكر أعمُّ وأخفى، ولا يخلو أن يشمل ما عداه؛ إذۡ مَن يعلم دقائق ما يغيب في أعماق الأرض، ويخرج من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 258.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 448.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 401.

أحشائها؛ فَهو أعلم بما يدبّ فوقها، ويزحَف على ظهرها، ومَن أحاط علمُه بما ينزل من السّماء وما يعرج فيها، فقد أحاط بما يَعْمُر الفضاءَ ويجوبُ الأجواء من الكائنات، دقيقِها وجليلِها، مرئيّها ومستورها، وبسَيْرِ الأفلاك ونظامها المحكم الذي لا يزيغ[1].

بلاغة التّعبير بالمطابقة بين الأفعال في الآية:

بين الولوج والخروج والنّزول والصّعود علم الله لا يحدّه حدود

في قوله تعالى: ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ فنّ من فنون البلاغة يدعى الطِّباقَ؛ إذ طابقَ بين فعل الولوج وفعل الخروج، وبين فعل النّزول وفعل العروج، في دلالة باهرة على إحاطة علمه تعالى بكلّ ما يختفي في الأرض، وما يعلو في السّماء؛ إذ لا تغيب عن علمه خافيةٌ، كما لا تخفى عليه جليّة[2]. وإذا أنْعَمْتَ النّظر في الأفعال الواردة في الآية الكريمة رأيتَ بينها تقابلًا بديعًا وتضادًّا دقيقًا، يُظْهِر سعةَ علمِه تعالى وشمولَه الذي لا يحدّه حدّ، ولا يُدانيه فهم ولا إدراك، فهو يعلم ما يدخل في الأرض ممّا تستقرّ به وتحتويه، ويعلم ما يخرج منها ممّا يفور أو ينبت أو ينبثق، ويعلم ما ينزل من السّماء من رزق أو قضاء، ويعلم ما يعرج فيها من أمر أو روح أو عمل، فجمع بذلك بين حركات متضادّة، واتجاهات متعاكسة؛ ليؤكّد أنّ علمه محيط بكلّ شيء، وهو سبحانه في كلّ ذلك مع خلقه بعلمه وإحاطته وقدرته وتدبيره، قائمٌ على شؤونهم في جميع أحوالهم[3].

بلاغة التّعبير بقيد ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مع الولوج:

في الأرض سرّ الولوج والخروج في علم الله المحيط

أوردَ التّعبير بقيد ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مع الولوج في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾؛ لأنّ الله تعالى يعلَمُ كلّ ما يدخل في الأرض وما يخرج منها، سواءٌ أكان ذلك من النّبات النّامي أو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 137.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 258.

(3) مجموعة مؤلفين، التفسير الوسيط: 9/ 1280 - 1281.

الأجزاء المتحلّلة من الأموات وغيرها، فلا يخفى عليه شيء، فإنّ الأماكن كلّها بالنّسبة إليه سواء في القرب والبعد، فلا بعد عند عظمته يمنع علمه، ولا قرب يزيد في إحاطته، فهو العليم الخبير الذي وسع علمُه كلَّ شيء[1].

سرّ تقديم الولوج على الخروج في الآية:

ولوجٌ فخروجٌ: سرّ التّرتيب في سُنّة النّماء والظّهور

قُدّم الولوج على الخروج في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾؛ لأنّ سُنّة النّماء تبدأ بدخول البذرة إلى جوف الثّرى قبل أن تشقّ سبيلَها إلى العلاء بعد السّقاء[2]، فالغرس سابق على الإنبات، كما أنّ البذر مقدَّم على الثّمر، فكان التّرتيب هنا انعكاسًا دقيقًا لنظام الخلق، وسير الطّبيعة في أدقّ تجلّياتها.

بلاغة العطف بالواو بين الجمل في الآية دون غيرها من الحروف:

علم محيط بكلّ شأنٍ، لا يحدّه سبق ولا علّة

في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ عُطفت الأفعال بالواو دون غيرها؛ لأنّ الواو تفيد مطلق الجمع[3] دون ترتيب زمنيّ، أو تقييد سببيّ، ممّا يدلّ على سعَةِ العلم الإلهيّ، وامتداده الشّامل في الأحوال كلّها دون تقيّد بتعاقب أو تعليل.

سرّ التّعبير بالخروج في قوله: ﴿يَخۡرُجُ﴾ دون غيره:

خروجٌ من رَحِم الأرض بتقدير مُحكَمٍ، ومفارقة للمقرّ على سنن الرّبّ الأكرم

التّعبير بالفعل ﴿يَخۡرُجُ﴾ أبلغ ما يُعبِّر عن صلة الموجودات بالأرض؛ إذ هو يدلّ على مفارقة الشّيء لمقرّه الطّبيعي، ومبدئه الذي كان فيه، دلالةً حقيقية مطابقة لا مجاز فيها ولا كناية[4]، فيكشف بذلك عن حال الموجودات الأرضيَّة التي تَنْبَعِثُ من الأرض، وتنفَصِلُ عنها في نظام قَدَريٍّ دقيق، ولا يُغْني عن هذا اللّفظ غيرُه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 258.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25/ 191.
(3) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 105.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 137 - 138.

منها المبدأ وإليها المرجع، وبينهما سرّ الخلق يتوسّع

دلالة التّعبير بـ (مِنْ) في قوله: ﴿مِنۡهَا﴾:

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ ابتدائيَّة[1]، وفيها إشارة بليغةٌ إلى ابتدائيَّة كلّ ما ينبثق من الأرض؛ فكلّ نباتٍ وماء وكنز ومعادن، بل والحيوان نفسُه مخلوق من ترابها[2]، فتلك الأرضُ هي الأصل والمبدأ والمرجع، ومنها تنبثق الحياة بأسرارها، مؤكّدةً وحدةَ الخلق، وعُمّقَ صِلَتِه بمَصْدَرِهِ الأوّل.

نزولٌ مشرّف من علياء السّماء: مصدر البركة والعظمة

دلالة التّعبير بـ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يدلّ حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ على ابتداء الغاية المكانيَّة؛ أي: أنّ ما ينزل من السّماء يبتدِئُ نزولُه منها؛ أي: أنّ مبدأ النّزول ومصدره هو السّماء، كالمطر والملائكة والكتب والوحي وغير ذلك ممّا قدّره اللّه تعالى، فهو نزول مؤذِنٌ بالتّشريف والتّعظيم فضلًا عن فوائده لبني البشَر.

تقديمُ شؤون السّفول أنسَبُ لمقامِ إحاطة علمِه

الغرض من تقديم متعلّق الأرض على متعلّق السّماء:

لَمّا قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ قد يُتوهّم من ظاهرها بُعد ما في الأرض عن تدبيره تعالى لبُعدها حسًّا عن العرش، وكونها أسفل؛ فجاء ذِكْرُ ما يلج في الأرض وما يخرج منها مُقدَّمًا على ما في السّماء تنبيهًا على إحاطة علمِهِ كُلَّ ما في أجزاء الكونِ وأمكنَتِهِ، دانيه وقاصيه[3]، فكان تقديم شؤون الأرض أولى وأدلَّ على كمال الإحاطة.

تجلّي الإحاطة الإلهيّة من الولوج في القرار إلى العروج في المدار

دلالة ذكر النزول والعروج بعد أمر الولوج والخروج:

لَمّا ذَكَر فعل الولوج في الأرض والخروج منها في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾؛ أعقَبَهُ بذِكْرِ نظيره في جهة العلوّ؛ تنويهًا بعموم علمه وتدبيره، وإحاطة سلطانه بأقطار

---

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 9/ 191.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 279.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 258.

الملكوت[1]، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾، فجمع بين أسفَلِ المراتب وأعلاها، دلالةً على أنّ علمه لا تحجبه طبقات، ولا يحجبه سُفول ولا درجات، بل الجميع في قبضته، وتحت قهره، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء.

سرّ عدمِ عطْفِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في أفعال الولوج والخروج مع النّزول والعروج:

إحكامُ التّعبيرِ بين الولوج والنّزول، لا مجاز فيه ولا تحوير

لَمّا أراد سبحانه بيانَ المعاني الموضوعةِ على جهة الحقيقة لا المجاز، وعلى وجه المطابقة لا الكناية؛ أفرد كلَّ جهة بذِكْرٍ مستقلٍّ، فخصّ الأرض بما يَلِج فيها ويخرج منها، والسَّماء بما ينزل منها ويعرج فيها، فلم يعطف السَّماء على الأرض في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقل: (وما يلج في الأرض والسَّماء)[2]؛ إذ ليس المقصودُ جمعَ المحالّ جَمْعَ اختصار، بل تفصيلُ المقاصد تفصيلًا يُظهِر تمامَ الإحاطة، ويكشف عن اختصاص كلِّ جهة بخصائصِ أفعالِها، ليقع البيانُ مطابقًا لِما وُضعت له الألفاظ، دون مجازٍ يوهِم، أو كناية تُغمِض، فجاء التَّعبير على غاية من الدِّقَّة والبيان.

سرّ إفراد ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هنا مع جَمْعِها في أوّل الآية:

إفراد يحقّق كمالَ البيان وإحاطةَ النّفع لبني الإنسان على مدى الزّمان

أُفْرِد لفظُ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعد أن جُمِعَتْ في مطلع الآية؛ لأنّ المراد يتحقّق بذِكْرِ المفرد، مع إفادة الجنس المستغرق لِما تحته؛ إذ المقصود ليس السَّماء بعينها، بل ما يَصْدُر عنها من آثار الرّحمة، وأسباب المصلحة، كالوحي والأمطار، والحرّ والبرد، وسائر ما يُجريه اللّهُ سبحانه من شؤون الخلق في معاشهم وأرزاقهم وأقدار أعمارهم[3]، فكان التّعبير بالإفراد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 258.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 137 - 138.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 258.

أبلغَ في الدّلالة، وأجمعَ لأنواع النّفع النّازل من العلوِّ. كما أنَّ في إفراد السّماء إشارةً إلى جهة العلوّ مطلقًا لا إلى طبقات أو أفلاك متعدّدة[1]، فالمقصود هنا ليس السّماء المخلوقة بحدودها وطباقها، بل العلوّ بوصفه مصدرًا لكلّ أمر إلهيّ قدريّ، ورحمة نازلة، ووحي مرسل، فجاء الإفراد ليُعظّم المقام، ويُجمل المرام.

سرّ التّعبير بالعروج في قوله: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ﴾ دون الصّعود:

العُـروج بين الغيابِ والبروجِ صعودٌ بالمعنى لا بالمحسوس

سرّ التّعبير بالعروج في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ دون الصّعود؛ لِما في العروج من دلالةٍ على الصّعود المصحوب بالارتقاء والاختفاء، فهو صعودٌ يُجاوز المَحسوسَ إلى الغياب عن المُدرَكات، وهو أبلغُ في تصوير ما يرتفع في طِباق السّماء من الأبخرة والأنوار والكواكب، وما يصعد من أعمال العباد، وسائر الأمور الغيبيَّة[2]. كما أنَّ التّعبير بالعروج يفيد الصّعود المتدرِّج والدّقيق، وهو يناسب ما ينطلق من الأرض إلى السّماء من أرواح وأعمال وأمطار متبخّرة، بخلاف الصّعود الذي قد يُفهم منه الحركة الفجائيّة أو القسريّة. كما أنَّ العروج يُشعر بالارتقاء المحكم المطَّلع على تفاصيل السّماوات، ممّا يبرز إحاطة علم الله تعالى بكلّ حركة في الكون، من أدنى الأرض إلى أعلى السّماء. كما أنَّه يوحي بصورة الفلك الدّائريّ، فالعروجِ إليه، والنّفوذُ من أقطاره لا يستقيم في خطوط مستقيمة صاعدة، بل يقتضي مساراتٍ متعرّجةً مُنْحَنيَة[3]، تناسِبُ طبيعة الدّوران وحركة الأفلاك في مداراتها، فجاء اللّفظُ مطابقًا للهيئة الفلكيَّة إشارةً دقيقة إلى عظمة الخَلْقِ وبديع الصُّنْعِ.

دلالة تعديةِ فعل العُروج بالظّرفية (في) دون (إلى):

الأصل في العروج أن يُعَدَّى بحرف الجرّ (إلى) كقوله تعالى:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 279.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 259.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 748.

عروج نافذ في السّماوات

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾ [المعارج: 4]، لكنّه عدّاه بـ (في) في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾؛ لتضمّنه معنى الاستقرار والانغماس[1]، وكأنّ العروج ليس بلوغًا حسب، بل دخولٌ في طِباق السّماء واستغراق في أجوائها، فالتّعبير بـ ﴿فِيهَاۖ﴾ دالّ على اختراقها والمضيّ من خلالها، ممّا يوحي باستمرار الارتقاء[2]، فكأنّه صعود يتغلغل في أجوائها، لا مجرّد قصدها من بعيد، فيكون في الآية تضمينٌ لفعل العروجِ مَعْنى الدُّخولِ والاستقرارِ.

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾:

من العِلْمِ إلى العنايةِ معيّةٌ تحيط وتحمي

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ إمّا أن تكون للعطف، وفيها جمعٌ بين عموم المعيّة الإلهيّة، وخصوص العناية الرّبّانيّة، فجاء التّعبيرُ بالمعيّة عطفًا لمعنى خاصّ على معنى شامل[3]، إشعارًا بعظيم الاهتمام بالمؤمنين، حيث لا يقتصر على مجرّد العلم المحيط، بل يتجاوزه إلى الحفظ والرّعاية والقرّب. كما أنَّ العطف في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ يؤيّد دلالةَ الجملة على الوعد والوعيد، والتّرغيب والتّرهيب؛ إذ إنّ إحاطةَ العليم بأحوال المكلّفين تستوجب الجزاءَ في دار القرار للمُحسنين، وفي دار البوار للمُسيئين[4].

ويجوزُ أن تكون الواوُ واوَ الحال، وجملة المعيّة - (هو معكم) - واقعة موقع الحال من الضّمير الكائن في ﴿يَعۡرُجُ﴾[5]، وهي تذييل مُحْكَمٌ وتقرير راسخ لِما سبقَها من ذِكْرِ الأفعال الصّادرة، كالولوج في الأرض والخروج منها، والنّزول من السّماء والعروج فيها[6]؛

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 200.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25/ 191.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 364.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 439.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 486.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 439.

إذِ المقصود الأسمى توكيدُ علمِه تعالى الشّامل بهذه الحركات والسّكنات، لا يغيب عنه شيءٌ من أمْرِ الكونِ.

سرّ التّعبير بالضّمير (هو) دون الاسم الأحسن (الله):

كفاية اللّفظ عن البيان وعظمة الــــذّات عـن العيان

سرّ الضّمير (هو) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ إيماءٌ إلى كمالِ الحضور الإلهيّ بلا حَصْرٍ ولا تحديد، فلم يُقيَّد بالاسم الأحسَنِ؛ ليَدُلَّ على أنّ ذاته سُبْحانَه أعمَقُ من أن تُحاط بها الأسماء، وأقربُ مِن أن تُستَدْعى بالإشارات؛ فالضَّمير (هو) كافٍ لتَعْظيم مَن لا يخفى.

بلاغة التّعبير بالمعيّة ﴿مَعَكُمْ﴾:

معيَّةُ اللهِ تعالى العـامَّةُ تقتضي العلمَ والإحاطَةَ

المعيَّةُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ معيَّةٌ حقيقيَّةٌ، ولكن ليس معناها أنَّه مختلطٌ بالخَلْقِ؛ فإنَّ هذا لا توجبُه اللُّغَةُ، "وَهوَ خِلافُ ما أجْمَعَ عليه سَلَفُ الأُمَّة، وخِلافُ ما فَطَرَ اللّهُ عليه الخَلْقَ. بَل "القَمَرُ" آيَةٌ مِنْ آياتِ اللّه، مِنْ أصْغَرِ مَخْلوقاتِه، هوَ مَوْضوعٌ في السَّماءِ، وهوَ مَعَ المُسافِرِ وغَيْرِ المُسافِرِ أيْنَما كانَ"[1].

والمعيّةُ في هذه الآيةِ معيَّةٌ عامَّةٌ؛ تقتضي العلم والإحاطَةَ؛ بحيث لا يغيبُ عن علمه شيءٌ من أحوال الخلقِ وأفعالهم[2]، أينما حلّوا وارتحلوا.

دلالة الخِطاب في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾:

افـتـقـارُ الـعـبـادِ إلى داوم الرّقابةِ الرّبانيَّةِ

الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ موجَّه إلى الثّقلين من الإنس والجنّ؛ تنبيهًا على فاقَتِهم إلى التّهذيب والتّأديب بعلم اللّهِ المحيط، وقُدرته النّافذة، المتَرَتِّبَيْنِ على معيّته سبحانه[3]، فالخطاب يَحْمِلُ في طيّاته بيانَ الحاجة إلى دوام الرّقابة الرّبّانيّة، والتّعلّق بمن لا تخفى عليه خافية.

(1) ابن تيمية، العقيدة الواسطية، ص: 83 - 84، ط، أضواء السلف.

(2) الماوردي، النكت والعيون 5/ 470، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم 8/ 204، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 364.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 259.

دِلالَةُ التّعبير بالظّرفيّة ﴿أَيۡنَ مَا﴾:

إحاطَةُ الله تعالى بأحوالِ العِبادِ جَميعًا أينَما كانوا

تعبيره تعالى بالظّرفيَّة في قوله: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ يُفيد شمولَ الإحاطة لمواضعهم وأحوالهم، دلالةً على أنّه سبحانه عالم بجميع شؤونهم، قادر عليهم في كلّ حين وموطِنٍ[1]، فعلمهُ سُبحانَهُ مطلَقٌ لا يحدّه مكان، وسلطانهُ نافذ لا يحجبه زمانٌ.

دلالة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿أَيۡنَ مَا﴾:

لا يخلو مِنْ عِلْمِ الله تعالى مكانٌ

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ صِلَةٌ يُرادُ بها تأكيدُ شموليَّة الحكم، واستيعابه جميعَ الأمكنة دون استثناء[2]، ففي أيّ مكان حللتُم، وأيّ موضع نزلتُم؛ فهو سبحانه محيط بكم لا يُفارِقُكُم عِلْمُهُ. وفي أيّة بقعة من الأرض إلّا وهو فيها مع عبادِهِ بعِلْمِه وقُدْرَتِه، ناظرًا إليهم، سميعًا لدعائِهم.

دلالةُ التّعبير بفِعْلِ الكونِ ﴿كُنتُمۡۚ﴾:

معيَّةٌ مطلقة، وبكلِّ حالٍ محقَّقَة

عُبِّر بفعل الكَوْنِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ دون غيره من أفعال الحضور أو الوجود؛ لِما فيه من دلالةٍ على الإحاطة الشّاملة بالحالِ والمكان والزّمان ثبوتًا واستمرارًا لا وجودًا عابرًا، وبهذا يُفهم أنّ معيّةَ اللّهِ العامَّةَ - التي تقتضي العلمَ - لا تختصُّ بمكان دونَ آخرَ، ولا تُحدّ بزمان مخصوصٍ، بل تشمل كلّ حال ظاهرًا أو باطنًا، سرًّا أو علنًا، فهي معيّةُ علم وإحاطة وسلطانٍ، لا تخفى عنهُ مَعها خافيَةٌ.

بلاغةُ عَطْفِ قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾:

بيانُ الكمالاتِ الإلهيَّةِ

اللّه جلَّت قدرته بصيرٌ بما يعملُهُ الخلقُ، فقد عُطفت هذه الجملةُ الكريمة على ما قبلها مع جواز الاستقلال؛ إيثارًا لبلاغة الرّبط، وإشعارًا باتّصال علمه تعالى بأحوال العبادِ حيثما كانوا، فجاء

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 259.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 364.

العطف ترجيحًا لجانب الإخبار عن هذه الصّفة العظيمة[1]، التي تَعمر اليقين في القلوب، وتذكّر العباد بمراقبة العليم البصير، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء. وعطفُها على ما تقدَّمها لِما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ لاتِّحادهما في الخبريَّةِ، ولِما بينَهما من التَّناسُبِ لفظًا ومعنًى، فأمّا في اللَّفْظِ؛ فلاشتراكِهما في الاسميَّةِ، واتّحادِ المسند إليه فيهما مِنْ جِهَةِ المعنى، وأمّا في المَعْنى؛ فاشتراكُهما في بيانِ كمالاتِ اللّه تعالى.

سرّ التّعبير بالاسم الأحسن (الله) مُظْهَرًا دون الإضمارِ:

إحاطَةُ الاسْمِ الأحسَنِ (الله) بجميعِ أوصافِ الجَلالِ والجَمالِ والكمالِ

عُبِّر بالاسم الأحسَنِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ مُظْهَرًا دون الإضمار؛ ليَعُمَّ بنوره كلّ سطر من أعمال العباد، ظاهرِها وخفيِّها، جهرِها وسرِّها، إشعارًا بأنّ علمه سبحانه لا يحدّه حدّ، وأنّ قدرته تطال كلّ فعل وقصد. فذِكْرُ الاسمِ الأعظم (اللّه) تنبيهٌ على إحاطة الذّات العليّة بجميع صفات الكمالِ والجلال والجمالِ[2].

معنى الباء ودلالتُها في قوله: ﴿بِمَا﴾:

بصيرٌ بالعبادِ وأعمالِهم على وجه الدّوامِ

من معاني الباءِ في لسان العربِ دلالتُها على الإلصاق[3]، وهي هنا كذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، فوُرودُها يأتي ليُبْرِزَ صورةً لعلم اللّهِ بأفعالِنا، فكأنّ هذا العلم ملتصِقٌ بأعمالنا لا يفارقها، ملازم لها في كلّ حين ووقت[4]، فهي ليست مجرّد إحاطة عارضة، بل هي صفة دائمة للّه تعالى؛ بصر نافذ مستمرّ، يُبْصِر أعمالَنا على الدّوام.

سرّ التّعبير بـ (ما) في قوله: ﴿بِمَا﴾:

بَصَرٌ محيطٌ يُدْرِكُ القريبَ والبعيدَ

(ما) اسمٌ موصولٌ، وفي التّعبير به في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 364.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 260.

(3) المبرد، المقتضب: 1/ 39.

(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 329.

﴿بَصِيرٌ﴾ إيماءٌ بليغ إلى سعة عِلْم الله تعالى وإحاطته، وهو يشي بِعُموم لا يشذّ عنه شيء، وشمولٍ لا يَسْتَثْني كائنًا ولا حركَةً، منبّهة أولئك الذين يَسْتَبْعِدون معيَّةَ المولى جلّ شأنُه، ويغفلون عن بصره النّافذ، بأنّه تعالى مطّلع على سائر أعمالهم، بصيرٌ بكلّ ما يجري في ملكه، فكيف يظنّ الظّانّ أنّ الله ليس معه، وعينه لا تغفل عنه طرفة عين[1].

الغرضُ مِن تقديمِ قولِهِ: ﴿بِمَا﴾ على ﴿بَصِيرٌ﴾:

إظهارٌ لِلعناية وتنبيهٌ للبَصائِر على سعةِ العلم والإحاطةِ

قُدّم الجارُّ والمجرورُ ﴿بِمَا﴾ على عامله في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ولم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: (والله بصيرٌ بما تعملون)؛ لإثارة الانتباه، وتأكيد الإحاطة[2]، ففي هذا التّقديم إظهارٌ لَمناط العناية، وتوجيهٌ للبصائر نحوَ ما لا يخفى على العليم الخبيرِ.

سِرّ التّعبير بالعمَلِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مادّة وصيغَةً:

بصرُهُ بالأعمالِ تأكيدٌ للمُحاسَبَة، والمضارعيَّةُ تنبيهٌ على الاستمرارِ والدّوام

وَصَف اللّهُ سُبحانه نفسَه بأنّه بصيرٌ بِما يَعْمَل العبادُ؛ لأنَّ العملَ هو المظهر العمَليُّ للإنسانِ الذي يترتّب عليه الجزاء، فالبصر هنا دالٌّ عن الإحاطة التّامّة بالفعل ونتيجتِه، وهو أدلُّ على المحاسبَةِ من مجرّد العلم بالنّوايا التي قد لا تتحوّل إلى فعلٍ. وجاء التَّعبيرُ عنه بالفعل المضارع؛ لإفادَةِ التّجدّد والاستمرار[3]، وأنَّ العبادَ كُلَّما جدَّدوا عملًا؛ فإنَّ الله تعالى بصيرٌ بذلكَ كُلّه.

سرّ التّعبير بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ دون (عليم):

بصر نافذ يكشف السَّرائر ويحيط بالظّواهرِ

اخْتير التّعبير بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ دون (عليمٌ) على ما جرى به السّياق في الآية السّابقة؛ لأنّ البصير أدقّ ملاحظة وأعمق نفاذًا؛ إذ هو العالِم بدقائق الأمور وجليلِها[4]، يرى ظاهرَ الأفعال، وخفيّ النّوايا، ويحيط بالبواطنِ كما يُحيط بالظّواهرِ.

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 749.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 260.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 261.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 261.

بلاغة الاتّفاق والاختلاف مع الآية (2) من سورة سبأ:

الـتّـنـاسـق الـسّـيـاقـيّ في خـتـام الآيـات بـين سـعـة الرّحمة وشمول الإحاطة

قال اللّه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [سبأ: 2]، وقال سُبحانَهُ: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

يتجلّى الفرقُ البلاغيُّ والدّلاليّ بين الآيتين في أنّ آية سبأ خُتمت بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [سبأ: 2]، بينما خُتمت آية الحديد بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، ولكلّ منهما مناسبةٌ دقيقة للسّياق، ففي آية سبأ لَمّا كان ما يَلِج في الأرض ويخرج منها، وما ينزل من السّماء ويعرج فيها ممّا يشمل أعمالَ العباد من الكُفْرِ والعصيان؛ اقتضى المقامُ التّنبيهَ إلى سعة رحمة اللّه ومغفرته، فهو معَ عِلْمِه بهذه الأعمال لم يُعجّل العقوبةَ، بل رَحِمَ عبادَهُ وأمهلَهُمْ، ومَن تاب غفَرَ له، فناسَبَ ختم الآية بصِفَتَي الرّحيم والغفور. أمّا آية الحديدِ؛ فقد سُبقت ببيان خَلْق السّماوات والأرض واستواء اللّه على العرش، ولَمّا كان الملوك العظامُ مع سعَةِ مُلْكِهِم يغيبُ عنهم بعضُ شؤون مَمْلَكَتِهِم لبُعدها؛ جاء البيانُ بأنّ اللّه مع سعة ملكه مع عباده لا يغيبُ عنه شيء من أحوالهم، فخُتمت الآية بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾، ثمّ أَتْبَعَ ذلك بإثبات عِلْمِه البصير بأعمالهم الظّاهرة والباطنة[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الولوج والدّخول:

الـدّخـول عـامّ، والولوج أخصُّ

الدّخول هو الانتقال من الخارج إلى الدّاخل[2]، أمّا الولوج فهو أخصّ منه؛ إذ يدلّ على دخولٍ في فجوة كثيفة، أو موضع غليظٍ

(1) سعد محمد، بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 793.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 449.

يحجب الدّاخلَ ويحيطه ويستره، كالكهف أو ما غمُضَ من باطن الأرض[1]؛ فالولوج لا يقتصر على مجرّد الدّخول، بل يحمل دلالةً أعمقَ؛ لِما فيه من معنى الخفاءِ والاستتار، كاختفاء الماء في جوف الأرض، أو تَواري البذورِ في تُرْبَتِها، ومِن هنا تتجلّى دقّة التّعبير القرآنيِّ؛ إذ يُظْهِرُ الولوجُ سعةَ علم اللّه تعالى، الذي لا يخفى عليه مستَتِرٌ، ولا يغيب عنه خفيّ، كما لا يعزُب عنه ظاهرٌ ولا جليّ[2].

العروج والصّعود:

الصّعود مقصور على الارتـفـاع، والعروج صعود مـع الـسّـمـوّ والارتقاءِ

الفرق بين الصّعود والعروج: أنّ الصّعود مقصورٌ على الارتفاع في المكان، ولا يُسْتَعْمَل في غيره، يقال: صَعِدَ في السّلّم والدّرجة[3]، أمّا العروج؛ فهو صعودٌ مع صِفَتَي السّموّ والارتقاء[4]، ومعنى العروج في الآية: ما يصعَدُ إليه تعالى من الملائكةِ والأعمال[5]، والوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ جاء التّعبير بالعروج دون الصّعود؛ لِما يحملُه الأوّل من دلالةٍ أبلغَ وأرقى؛ إذ إنّ الصّعود يقتصر على مجرّد الارتفاع في المكان، دون أن يُفيد شيئًا من الكرامة، أمّا العروج فهو صعود مشفوع بالسّمو والارتقاء، يتضمّن معنى التّعظيم والتّكريم.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولج).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 258.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 314.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج).
(5) العليمي، فتح الرحمن: 5/ 399.

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٥﴾ [الحديد: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

واحدُ المُلكِ والملكوت لا شريك له في الخَلْقِ ولا في النّعوت

لَمّا كان الصّانع قد يُبدع الشّيء ولا يملكه، وكان تمام الملك أن يحيط المالكُ علمًا بما في ملكه، ويقدر عليه تصرّفًا وتدبيرًا، وكان إنكارهم للبعث إنكارًا لتمام ملكه وسلطانه؛ أكّد اللّهُ جلّ شأنه انفرادَه بالملك، وقطع أوهامَهم بالتّكرير، فقال: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أي: له وحده لا شريك له، لا يزاحمه فيه منازع، ولا يُنازع حكمَه حاكمٌ، وجميع مآلات الأمور راجعةٌ إليه[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُرۡجَعُ﴾: فعل مضارع دالّ على الحال والاستقبال، وجذره اللّغويّ: (رجع)، ومنه: رجّع الجواب؛ أي: ردّه، والرّاء والجيم والعين تدلّ تصريفاتُها على ردٍّ وتَكرار[2]، يُقال: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا ومَرْجِعًا، ومعناه: انْصرَفَ، والرُّجوع: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، والرّجع: الإعادة، ومنه سمّي المطر رجعًا؛ لتكرُّر نزوله[3]. ومعنى ﴿تُرۡجَعُ﴾ في الآية: "تُرَدّ إليه ردًّا له وحده لا إلى غيره"[4].

2) ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾: جمع: أمر؛ وهو اسم ثلاثيّ مجرّد من أمرَ يأمرُ أمرًا، وجذره اللّغويّ: (أمر)، وله معانٍ عِدَّةٌ، منها: "الأمر: نقيض النَّهي، والأمر: واحدٌ من أمور النّاس، وإذا أمرتَ من الأمر: قلتَ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 257.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رجع).
(3) الراغب، المفردات، وابن سيده، المحكم: (رجع).
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 353.

اؤْمُرْ يا هذا"[1]، "فأمّا الواحد من الأمور؛ فقولهم: هذا أمرٌ رضيتُه، وأمر لا أرضاه، وفي المثل: أمرٌ ما أتى بك"[2]، ويعبّر عن الأمر بالشّأن، ويجمع على أمور، ومنه إذا كلّفته بفعل شيء ما، وهو لفظ عامّ يشمل الأفعال والأقوال. ومعنى ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ في الآية "ليست جمع المصدر، بل هي جميع الموجودات؛ لأنّ الأمر والشّيء والموجود أسماءٌ شائعة في جميع الموجودات أعراضِها وجواهِرها"[3].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

مالك السّماوات والأرض قـهـرًا وإليه المرجِعُ أمرًا وقدرًا

للّه وحده ملك السّماوات والأرض، ملكًا حقيقيًّا لا يُنازع فيه، ولا يُعارض، خَلَقَهُما بقدرته، وسخّرهما بحكمته، وجعل مقاليدَ أمرِهِما بيده، فما يجري فيهما من حركة أو سكون، ومن حياة أو موت، ومن عزٍّ أو ذلّ؛ فبقضائه وقدره، وإليه تَرْجِعُ الأمورُ كلّها، ظاهرُها وخفيّها، عاجلها وآجلُها، ومصير العباد إليه، ومرجِعُ الخلق لديه، يَفْصِلُ بينهم يوم القيامة بحكمه العدل، لا يُظلم عنده أحد، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣﴾ [الليل: 13][4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئناف في قوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ﴾:

فصلٌ مُبينٌ لحقٍّ مستبينٍ بمُلْكٍ مُطْلَقٍ لا شريك فيه ولا معين

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ جملة اسميّة مستأنفة[5] تقريرًا لحقيقة انفرادِه ﷻ بملك السّماوات والأرض ملكًا تامًّا مطلقًا، لا شريك له فيه ولا منازع، ففي هذا الانقطاعِ النّظمي والابتداءِ الجديدِ تأكيدٌ لِهذه الحقيقة الجوهريّة وأهمّيَّتها القُصوى، فكأنّها قضيّة قائمة بذاتِها، تستحقّ إفرادَها بالذّكر والتّنويه.

(1) الخليل، العين: (ومر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(3) الزحيلي، التفسير الوسيط: 3/ 2588.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 161.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 487.

سرّ تَكرار هذه الجملة ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

توكيد المُلك للواحد القهّار الذي لا شريك له، وإليه مرجع الأمور في دارِ القرارِ

في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ تكرارٌ لم يُقصد به مجرّد الإعادة، بل جاء توكيدًا لما تقرّر، وتثبيتًا لما تقرّب إلى العقولِ من عظيم السّلطان وتمام القدرة؛ ليتبيّن للسّامع أنّ اللّه وحده هو المعبود بحقّ[1]، لا شريكَ له في ملكِه، ولا ندّ له في أمره، وأنَّ مرجع الأمور كلِّها إليه. ويَكْمُن السِّرّ في تكرار قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ بعد قوله: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢﴾ [الحديد: 2] في بيان حقيقة جامعةٍ وشاملة لسلطانه المطلق، وقدرته النّافذة في الدّنيا والآخرة: ففي الموضع الأوّل: ذُكِرَ الملكُ مقرونًا بأفعال المبدأ؛ وهما الإحياء والإماتة في الدّنيا، تمهيدًا وإشارةً إلى عظيم قدرته. أمّا في الموضع الثّاني: فقد أُعيدَ ذِكْرُ المُلك مقرونًا بالإعادة؛ أي: رجوع الأمور إليه في الحياة الأخرى[2]. ليؤكّد شمولَ هذا الملكِ، وسريّانَ هذه القدرة على النّشأتين كلتيهما، فليس في هذا تَكرار محْضٌ، بل هو توكيد وتفصيل لحقيقة واحدة؛ وهي تَجَلّي سلطان اللّه الأزليّ الأبديّ على الكون ومصيره من المبدأ إلى المعادِ.

الغرض من تقديم متعلّق المُسندِ في قوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

المُلك المطلق للهِ تعالى بيانُ انفرادٍ وقصرٍ واستحقاقٍ

قُدِّم متعلّقُ المسندِ في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للقصْرِ والاختصاصِ، فإنّه لا مالك لِلمُلْكِ، ولا مستحقَّ للتّصرّف المطلق في السّماوات والأرض إلّا هو جَلَّ وَعَلَا[3]، فهو المالك الحقّ، الذي إذا أراد شيئًا فإنّما يقول له كن فيكون؛ "لأنّ اختصاص ملكِ جميع الأشياء به، وكونه متصرّفًا فيها يصحح الإحياء والإماتة، ويوجب

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 237.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 440.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 449.

كونَه مرجعًا للأمور دون غيره"[1]. كما أنَّ قصر الملك على ذي الجلال؛ يُفيد أنّ الإله هو الواحد الذي لا شريك له؛ إذْ لا مُلْكَ إلّا له، ولا تصرّف إلّا بأمره، فكان تقديمُ متعلّقِ الخبر إيذانًا بانفراده بالألوهيّة والسّلطان[2].

دلالة إفراد لفظ (الأرْضِ) ومعنى (اللام) ودلالتها فيها:

إفـــراد الأرض لـظـهـورهـا المحض وجنسها الشّامل بملك لله كامل

أفرد ذكر (الأَرْضِ) في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تنزيلًا لها منزّلة الواحد الظّاهر المعلوم، إذ تعددها خافٍ عن إدراكهم، لا يتناوله علمهم ولا تبلغه حواسّهم، وجاءت الألف واللّام في (الأَرْضِ) لإرادة الجنس، لا العهد[3]، إيذانًا بأنّ ملكه تعالى شامل لكلّ ما تحته من أرض عُرفت أو لم تعرف، ظهر منها أو استتر، لا يخرج عن ملكه شيء، ولا ينفلت من قهره كائن.

دلالةُ العطف في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾:

ثبوتُ المعادِ أمْرٌ يقينيّ مقطوعٌ بِهِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على الجملةِ قبلَهُ؛ لما بينَهما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذ الجملتان متَّحدتانِ في الخبريَّة، وبينَهما تناسُبٌ في اللَّفْظِ والمعنى: فأمّا التَّناسبُ في اللَّفْظ؛ فما فيهما مِنَ تقديم بعضِ أجزاءِ الجملةِ قصدًا لإرادَةِ القصْرِ والاختصاص، وأمّا التَّناسُبُ المعنويُّ؛ فلِما فيهما مِن إثباتِ الكمالاتِ للّهِ تَعالى. وفي هذا العطفِ قطعُ يقينِ ثبوتِ المعاد، وحقيقة الرّجوع إلى اللّه تعالى[4]، فهو المقصود من ذلك، وأنّ المصير الأخيرَ والمآلَ المحقَّق هو إلى اللّهِ وحده، فلا بدّ من قيام الحساب، ولا محيد عن الجزاء. ومن دلالاتِ العطفِ هنا إثباتُ دوام ملك اللّه سُبْحانه وإحاطته التّامّة؛ إذ جاء العطفُ هاهُنا ليُضمّن مَعْنًى

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 365.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 261.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 449.

لا يَخْفى، كأنّه يقولُ: فَمِنَ اللّهِ البَدْءُ، وإليه المصيرُ[1]، فلا ينقَطِعُ سُلْطانُه، ولا يُنال حُكْمُه.

الغرضُ مِنْ تَقْديمِ قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾:

التَّأكيد على مُلْكِ الله تعالى الذي لا نَظيرَ لَهُ

الغرَضُ مِن تقديمِ الجارّ والمجرور من قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يكمن في التَّأكيد على ملك اللّه الذي لا مثيل له، والذي لا كفؤ له في التّصرّف والتَّدبير[2]، فالتَّقديم يدلّ على علوِّ مكانَتِه وعِظَم قَدْرِه، فهو وحده المهيمن المطلق الذي تعود إليه كلُّ الأمور في النِّهاية. كما أنَّ في تقديم الجارّ والمجرور في الجملة من الآية إظهارَ أهمّيَّة الرّجوع إليه سبحانه، وليس فيه دلالةٌ على حصْرِ هذا الرّجوع فيه وحده، فليس ثمّة ما يستدعي قصرًا حقيقيًّا؛ إذ لم يُنْكِر الكفّار البعثَ ليُنفى عن غير المولى سبحانه، كما لا يوجَد ما يوجب قصرًا إضافيًّا؛ إذ لم يدّعِ أحدٌ مُنْكِرٌ للبَعْثِ أنّ مصير النّاس سيكون بيد غير اللّه تعالى[3].

ويجوزُ أن يكون التَّقديمُ لإفادةِ القصْرِ؛ لأنَّ مِنَ الكفّار مَنْ يُنكرُ البعثَ والنُّشور[4]، فيكون قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّـهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ معناه: "إليهِ وحده لا إلى غيرِه - استقلالًا أو اشتراكًا - ترجعُ جميعُ الأمورِ"[5].

سرّ التّعبير بـ (إِلَى) دون (اللّام):

إلى اللهِ تَعالى المآبُ والمُنْتَهى

لَمّا كان حرف الجرّ (إلَى) يدلّ على انتهاء الغاية[6] الحتميّ لجميع الأمور إلى اللّه تعالى؛ استعملها في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، ولم يستعمل اللّام؛ لأنّها تفيد الملك أو الاختصاص

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 261.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 264.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 366.
(4) في كلام الشوكاني، في فتح القدير 5/ 438، ما يدل على أنَّ الكفّار المشركينَ زَمَنَ البعثةِ كانوا متَّفقين على إنكار البعث والنُّشور.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 240.
(6) المرادي، الجنى الداني، ص: 385.

أو التّعليل، والمعنى هنا يقتضي رجوعَ كلّ شيء ومنتهاه إلى اللّهِ سبحانه، لا مجرّد اختصاصهِ أو ملكه.

دلالَةُ التّعبير بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ مُظْهَرًا لا مُضْمَرًا:

تضمُّنُ الاسم الأحسَنِ (الله) لجميع معاني الكمال والجلال والجمالِ

جاء التّعبير بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ مظهرًا صريحًا دون إضمار، فلم يردِ النَّظم القرآنيُّ: (وإليه تُرجَعُ الأمور)؛ ليكون ذلك تأكيدًا على الاسم الأعظم الجامع لكلّ معانِ الملك والرّبوبيّة، الذي لا كُفوَ له في جميع السّماوات والأرض؛ وليُزيل أيَّ احتمال للاختصاص أو التّخصيص في الرّجوع إلى غيره[1]، وليحمل الاسمُ الأعظمُ دلالةَ الاستقلال والتّمام، وتستقلّ الجملة في مبناها ومعناها، فتغدو كالمَثَل الجاري على الألسن، صالحًا للتّسيير والتّذكير[2].

دلالَةُ بناء الفِعْلِ ﴿تُرْجَعُ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعله:

رجوعٌ لا يُدافَع، وملكٌ لا يُنازَع

بُنيَ فعلُ الرّجوع ﴿تُرْجَعُ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعلهُ؛ للإشارة إلى أنّ رجوع الأمور إلى اللّه واقعٌ لا محالة، حتّى كأنّها لا تحتاج إلى فاعل يباشره. وفي ذلك تعبيرٌ عن كمالِ السّلطان، وسهولة التّصريف[3]، فهي تعود إليه طوعًا وقهرًا، منقادة بأمْرِه، لا عائق يَمْنَعُها، ولا قوّة تصدّها، ممّا يدلّ على تمام القدرة، ونفاذ المشيئةِ.

سرّ التّعبير بـ ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ جمعًا دون غيرها، ومعنى اللّام فيها:

عـمـوم يـضـمّ الخلق كلّه تحت حكم الخالق

اختير لَفْظُ ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ دون غيره للدّلالة على عموم الموجودات؛ إذ إنّ الأمر يشمل الأعيان والمعانيَ، والأفعال والأقوالَ، والأعراضَ والذّوات، فهو لفظٌ واسع الدّلالة، يجمع تحت مظلّته كلَّ ما يجري ويحدث، فكان أبلغَ في التّعبير عن شمول الرّجوع إلى اللّه لجميع الكائنات وأحوالها، دون استثناء أو تخصيص[4]، واللّام في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 261.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 366.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 291.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 258، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 365.

﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ للاستغراق والعموم[1]، وهذا الاستغراق يتجلّى حسًّا بالإشارة إلى البعث الشّامل الذي سَيُحيط بالجميع، ومعنًى بالإيماء إلى قدرته المطلقة على الإبداء والإفناء[2]، فهو سبحانه القادر على خلق كلّ شيء من العدم، وإعادته بعد الفناء، فكيف لا يرجع إليه كلُّ أمر؟.

واختيارُ صيغةِ الجمع في كلمة ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ يحمِلُ في طيّاته دلالةً شموليّةً واسعة؛ إذ لا يقتَصِرُ معناها على جانب معيَّنٍ أو نوع محدّد، بل يمتدّ ليشمل كلّ ما يندرج تحت مسمّى الموجودات بأسرها، فهي تشمل الأعراضَ المتغيّرة والصّفاتِ الطّارئةَ، كما تستغرق الجواهرَ الثّابتة، والذّوات القائمة بذاتها[3].

تنوُّع القراءات بالبناء للفاعلِ والبناء للمفعول في قوله: ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ وثراء المَعْنى:

التَّكاملُ الدّلاليُّ بين القراءتينِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلفٌ بفتح التاء وكسر الجيم: ﴿تَرۡجِعُ﴾ مبنيًّا للفاعل، وقرأ الباقون على البناء للمفعول ﴿تُرۡجَعُ﴾[4]، وحجَّة من قرأ بالمبنيِّ للفاعل قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشورى: 53]، وحجَّة من قرأ بالبناء للمفعول قَوْله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾ [البقرة: 203]، فالحَشْرُ والرجوع معنيان متداخلانِ، فالله سبحانه هوَ الَّذي يُرْجِعُ الأُمورَ[5]. وقراءة ﴿تُرۡجَعُ﴾ - بضم التّاء وفتح الجيم - تستحضر صورة المُرْجِع القاهرِ وهو الله ﷻ، الذي إليه تصير الأمور قسرًا واقتدارًا، لا يملك أحدٌ إزاء إرادته حولًا ولا قوّة. أمّا قراءة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 366.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 261.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 101.
(4) ابن الجزري، شرح طيبة النشر، ص: 170.
(5) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 130 - 131.

﴿تَرْجِعُ﴾ - بفتح التّاء وكسر الجيم - فتُشيرُ إلى انقياد المخلوقات وتسليمها المحتوم لميقاتها وأجلها؛ حيث تسير مُسَخَّرة بأمر الخالق، منقادةً لقضائه وقدره، لتَعودَ إليه طائعةً في آخر الأمرِ[1].

بلاغة التَّعبير بالاستعارة في قوله: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾:

إخـراجُ المعنويِّ فـي صورة المحسوسِ أقربُ إلى الفَهْمِ

الرّجوع في قوله تعالى: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ استعارة بليغَةٌ، صوِّرت بها حركة الأمور إلى الله تصويرًا عائدًا إلى موضعه، من غير أن يسبِقَهُ مفارقة تامّة[2]، فالأمور وإن بدت جارية في ظاهرها، فإنّها لم تخرج قطّ عن سلطان الله عزّ في علاه. والاستعارة في الآيةِ مكنيَّةٌ؛ حيث شُبِّهت الأمور بالأشياء الحسّيَّة التي مِنْ شأنِها أن تَرْجِعَ وتعودَ، فحُذِفَ المشبَّهُ به ورُمز له بشيء من لوازمِهِ وهو الرُّجوعُ. وفي هذا إبرازُ المعنويّاتِ في صورة المحسوساتِ؛ وذلك أعلَقُ بالذِّهْنِ وأقربُ إلى الفَهْمِ.

سرّ اختلاف خاتمة هذه الآية عن خاتمة الآية السّابقة مع اتّحاد صَدْرِهما:

مـن المـبـدأ إلى المـعـادِ تـصـرّفٌ بـقـدرة ورجـوعٌ إلى ربّ العباد

اختلفَت خاتِمَةُ هذه الآية ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ عن خاتِمَةِ الآية السّابقة ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٢﴾ [الحديد: 2] مع اتّحاد صَدْرِهما؛ لأنّ الأولى تناولت المبدأ، فخُتمت بذكر قُدْرَته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٢﴾ [الحديد: 2]، والثّانية في شأن المعاد، فخُتمت ببيان أنّ مردّ الأمور ومآلها إلى الله وحده: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، فهو المتصرّف في الوجود بدءًا وإعادة، خلقًا وإفناءً، وحشرًا وجزاءً، بحكمته وسلطانه المطلَق[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 366.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 366.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 386.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّجوع والرّد:

الـرُّجـوعُ: عـودة إلى الأصـل، وفي لفظِ الرَّدِّ: إيماءٌ إلى الرَّفْضِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ جاء التّعبير بالرّجوع دون الرّدّ؛ لما في الرّجوع من دلالة على العودة إلى الأصل، والمصير إلى الجهة التي كان منها البدءُ[1]، فهو إيحاءٌ بأنّ الأمور كلّها من اللّه بدأت، وإليه تنتهي، وهذا يتناسب تمامًا مع سياق الآية الذي يُبْرِزُ شمولَ مُلْكِه وسلطانه؛ فإنّه "إلى اللّه في الآخرة تصير أمور الدّنيا، وإليه تعود كما كان منه البدء"[2]. أمّا الرّدّ ففيه إيحاءٌ بالرّفض أو الصّرف عن وجهه والرّجوع عامَّة[3]، وقد يُستعمل في ما هو مردود ومرفوض، كقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عليه أَمْرُنا؛ فَهوَ رَدٌّ»[4]؛ أي: مردودٌ عليهم[5]؛ وهو ما لا يليق بمقام الآية التي تقرِّر حقًّا مطلقًا لا شبهة فيه، فالرّجوع أبلغ في تحقيق معنى القَدر والمصير والمرجع الإلهيِّ الذي لا مفرّ منه، ويُشعر بأنّ جميع الأمور، وإن بدت للنّاس جارية بأسبابها، فإنّها منتهية حتمًا إلى تدبير اللّه وحكمه وعدله.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 249.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 18/ 687.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ردّ).
(4) أخرجه البخاري برقم: (2697)، ومسلم برقم: (1718)، واللفظ له.
(5) المطرزي، المغرب في ترتيب المعرب: (ردد).

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾ [الحديد: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لطائف التّصريف الرّبّانيّ في الظّلام والضّياء

لّما قال اللّهُ سبحانه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ أي: أنَّ جميع الموجودات عائدة إليه حسًّا بالمعاد يوم القيامة، ومعنًى بالخلق والإفناء؛ أقام الدّليل على بدء الخلق وإعادته بأبلغ بيان وأحسنِه، فقال عزّ من قائل: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: يُدخِل ظلامَ اللّيل في ضياء النّهار إدخالًا لطيفًا، فيُذْهِبه قليلًا قَليلًا حتّى يضمحّلَّ بعد كماله، ويختفي بعد ظهوره وحلوله، فيُخيّم الظّلام حيث كان النّور ساطعًا، ثمّ يَعْكِسُ الحال فيَمْلَأ الكون ضياءً بعد تلك العتمة، ثمّ يولِجُ النَّهار الذي انتشر نوره في الآفاق، وتلألأت أنواره في الأفق في اللَّيلِ الذي كان غائبًا في علمه الأزليّ، فإذا هو يَعودُ كما بدأ، دليلًا على قدرته التي لا تُعجزها الإعادة بعد الإبداع[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُولِجُ﴾: الولوج؛ بمعنى: الدّخول، ومنه: الوليجة؛ أي: البطانة، سمّيت كذلك - وهي مشتقّة من الولوج - لأنّهم يتّخذون "بينَهُم وبين الكافرين دخيلة مودَّة"، ومنه: الولاج؛ وهو الغامض من الأرض والوادي[2]. و"المعنى المحوريّ: الدّخول في فجوة كثيفة الإحاطة تُخفي وتستر، كالكهف، والكُناس، والغامضُ من الأرض"[3]، ومعنى الفعل ﴿يُولِجُ﴾: يُدخل اللّيل في النَّهار، ويدخل النّهار في اللّيل؛ فينقص هذا، ويزداد ذاك[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 261.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (ولج).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولج).
(4) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 276.

2) ﴿بِذَاتِ﴾: ذاتُ: تأنيث (ذو) بمعنى: صاحب، و(ذات) بمعنى: صاحبة، وقد تأتي بمعنى: حاجةٍ[1]، و(ذات الصُّدور): أسرار النُّفوس وخباياها، أو الضَّمائر والنّيّات[2]، واستشهد صاحب الكشّاف عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾ [فاطر: 38]، على أنَّ (ذات) مؤنث (ذو)، وهو موضوع لمعنى: الصُّحبة؛ وذات الصُّدور: مضمراتُها؛ لأنَّ المضمراتِ تصحب الصُّدور[3]، وكما يُقال للحال التي بين النّاس: ذات البين، ويُقال للأسرار: ذاتُ الصُّدور[4].

3) ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ الصَّدر: أعلى مقدَّم كلِّ شيء، وصدرةُ الإنسان: ما أشرَفُ من أعلى صدرِه، وهو: الجارحة، وليس في القرآن من هذا التَّركيب إلّا (يُصدِر) و(يَصْدُر)، ثُمَّ (صَدْر) الإنسان، وجمعه: (صدور)[5]، ومعنى ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ في الآية الكريمة: "وهو ذو علم بضمائر صدورِ عباده، وما عَزَمَتْ عليه نفوسُهم من خيرٍ أو شرّ، أو حدّثت بهما أنفسهم، لا يخفى عليه من ذلك خافية"[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـديع الـتّـدبير فائق التّقدير في تجلّيات الإيلاج بين اللّيل والنّهار

تشير الآية الكريمة إلى أنّ اللّه سبحانه بفائق قدرته يُدخل ظلمةَ اللّيل في ضياء النّهار إدخالًا لطيفًا، فإذا أقبل اللّيلُ؛ أدبَرَ النّهارُ، وإذا غشي الظّلام؛ انجلى الضّياء. ثُمَّ يُدخل نورَ النّهار في دلجة اللّيل، فإذا بزغ الصّباح ولّى الظّلام. وللإيلاج معنىً آخرُ بديعٌ، وهو أن يزيدَ في اللّيل من النّهار، وفي النّهار من اللّيل، فيصير اللّيلُ أطولَ ما يكون ويقصر النّهار؛ يتقلّبون فيها بتقدير العزيز العليم، ذلك أنّه

(1) أبو حيان، تحفة الأريب: (ذوي).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (صدر).
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 616.
(4) المطرزي، المغرب في ترتيب المعرب: (بين).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدر).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 171.

سبحانه المطَّلع على ما تُكنُّه الضّمائر، خفيِّها وجليِّها، من خير أو شرّ، وإخلاص أو رياء، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾ ودلالته:

تقليب اللّيل والنّهار شاهدٌ على تمام القَهْرِ والاقتدارِ، وتأكيدٌ لِمُلْكِ العزيزِ الجبّار

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾ إمّا أن يكون تأكيدًا لِما تقدّم من إثباتِ مُلْكِه للسَّماوات والأرض؛ إذ إنّ هذا الإيلاج لا يتحقّق إلّا بطلوع الشَّمس وغروبها، ولا شكَّ أنّ للسَّماء والأرض مدخلًا ظاهرًا في هذين الحَدَثَيْن، فاختير أسلوبُ الفصل هنا؛ لإبراز هذا المعنى[2]، وتوكيدِ ارتباط التَّصرُّف الكونيِّ بإرادة المالك القادر، الذي يُدبّر الأمر بحكمةٍ وعلم.

وإمّا أن يكون على وجه الاستئناف[3]، منفصلًا عمّا سبقَهُ لفظًا من قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

ويجوزُ أن يكون الفصلُ لكمال الاتِّصالِ؛ فالآيةُ في موقع بدل الاشتمال منها، فتعاقُبُ اللّيل والنّهار من أبْيَنِ مظاهر تصرّف اللّه سبحانه في الكون، وتجلٍّ واضحٌ لمُلْكِه وسلطانه في السّماوات والأرض، بما فيه من انتظامٍ بديعٍ يُبصره الإنسانُ، ويشهد أثرَهُ في تفاصيل حياته اليوميَّة[4].

ويجوزُ كذلك أن يكون الفصلُ لكمال الاتِّصال؛ وذلك لِوُقوعهِ بيانًا وتفسيرًا لمضمون قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ تذكيرًا للمشركين بأنَّ اللّه وحده هو المتصرِّف في أسباب الفناء والحياة، لا ما يظنّونه من تأثير الزّمان وتعاقُبِ اللّيل والنَّهار. فقد كانوا يعتقدون

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 401 - 402.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 440.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 453.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 366.

أنَّ الدَّهر - بما فيه من ليلٍ ونهار - هو الفاعل في مصائرهم، كما قال الأعشى[1]:

ألمْ ترَوا إرمًا وعادًا *** أفناهُما اللّيلُ والنّهارُ

وكما حكى اللّهُ عنهم قولَهُم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، فجاء التَّصريح بقوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ ليُبْطِلَ هذا الزَّعمَ الباطل، ويؤكِّد أنَّ سُلْطانَ اللّه هو الحاكمُ المطلق، وأنَّ الزَّمان مظهر من مظاهر تصريفهِ، لا فاعلًا مستقلًا بذاته[2].

خَـلْـقُـهُ برهانُ سلطانهِ، فَمِنْ تـعـاقـب الـلّـيل والـنّـهــار إلى توحيد القهّارِ

وإما أن يكون شِبْهَ كمالِ اتّصالٍ؛ جاء استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّه بعد أن قال سبحانه: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، وهي آية تقرّر جلالَ صفاتهِ وكمالَ تدبيره؛ كأنّ السّامع يسألُ: ما الدّليل على هذا الملك والسّلطان؟ فجاء البيان الجليل في صورة مشهدٍ كونيّ مهيب، يكشف عن تعاقب اللّيل والنّهار بنظام محكَم بديع، يدلّ دلالة قاطعة على عظمة الخالق وتفرّده، ليوقِنَ القلبُ بأنّ اللّه هو الإله الواحد[3].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يُولِجُ﴾ مادَّة وصيغة:

التّغلغلُ حتّى الـغـيـاب في تـعـاقب الـلّـيل والنّهار

عُبِّر بالولوج ﴿يُولِجُ﴾ دون الدّخول؛ لأنّ الولوج لا يقتصر على مجرّد الدّخول، وإنّما يحمل في طيّاته معنى التّغلغل والامتزاج إلى حدّ الغياب والمحو، وهو ما يليق بطبيعة تعاقب اللّيل والنّهار؛ إذ لا يكتفي أحدُهما بأن يحُلَّ محلّ الآخر، بل يتوارى فيه ويندسّ حتّى يُغَيِّبَه[4]. وجاء التّعبير بالفعل المضارع ﴿يُولِجُ﴾ مع لفظتي ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ للدّلالة على الاستمرارِ والتّجدّد؛ إذْ إنّ تعاقب اللّيل

(1) الأعشى، ديوانه، ص: 281.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 366 - 367.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 281.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 261.

والنّهار وتداخلَ أحدِهما في الآخر هو مشهَدٌ يتكرّر باستمرار، لا يقتصر على الفصول، بل يتجدّد كلّ يوم[1]، ممّا يعكس بديعَ النّظام الكونيّ، ودقّة التّقديرِ الإلهيّ.

سرّ تقديم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

في بدء الظّلام دهشة ووقار؛ إذ كيف تُغشي دُجاه سَنا الأنوار

ورَد تقديم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارِ﴾؛ لِما في بدء العتَمَةِ مِن دَهْشَةٍ وجلال؛ إذْ كيفَ لِسَوادٍ كثيفٍ أن يَطْغى على سُطوعِ الأنوار النّهاريَّة[2]، ويكسو وجه النّهار بوشاح من الظّلام صفيق؟! فابتداءُ المشهد باللّيل يُثير التّأمّل في قدرة اللّه الباهرة، حيث تنسَحِبُ الأنوار أمامَ زَحْفِ الظّلمة، في تتابعٍ مهيب يُجسّد الإعجاز في نظام الكون. وورد تقديم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ هنا وفي عامّة القرآن الكريم؛ لأنّ اللّيل متقدّم في الوجود؛ إذ هو الأسبق زمانًا من حيث التّعاقب، وقد اتّفقت الشّرائع على اختلاف مِلَلِها ونِحلها على هذا التّقديم في الوجود[3].

دلالة التّعريف في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

الـلّامُ للجنس المفيدِ العمومَ؛ في تَـعـاقُـبٍ لا يَـزولُ وتَقلُّبٍ لا يَحولُ

اللّام في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ لامُ الجنس؛ يُراد منها الدّلالة على العموم والشّمول؛ أي: كلّ ليل وكلّ نهار، لا ليلٌ بعينه ولا نهارٌ مخصوص، بل هو تتابع مستمرّ، واستبدال دائم، يُغيِّر فيه كلٌّ منهما بالآخر[4]، في حركة دائبةٍ لا تنقَطِع، تُظْهِرُ قدرةَ اللّه تعالى في تدبير الكون وتعاقب الأزمنة، وتعكس انتظامَ السّنن، واطّراد الحكمة في الخَلْق.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾ و﴿فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾:

تعاقُبٌ بحكمةِ إيـلاجٍ لخدمةِ الإنـسـان، وسكون لنماءِ الأكوان

﴿فِي﴾ حرف دالٌّ على الظّرفيَّة[5] وارد للدّلالة الدّقيقة على التّداخل العميق بين الزّمنين، لا مجرد التّتابع بينهما، ففيه إدخالُ اللّيل

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25/ 130، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185.
(3) ابن منظور، نثار الأزهار في الليل والنهار، ص: 10.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/ 376.
(5) الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 3/ 357.

وظلمته في نور النّهار، فيمتدّ بذلك جزءٌ من اللّيل في أجزاء النّهار، كما يحدُثُ في الصّيف، تحقيقًا لمصالح المعاش والعمل، وكذلك يُدخِل النّهار في اللّيل في الشّتاء، فيطول اللّيل بأجزاء من النّهار، رحمةً بالجسد والنّفس، وسكونًا للقوى النّامية كي تستعيدَ نشاطَها وتستعدّ لأداء وظيفتِها[1]. ويجوز أن يكون التّعبير بحرف الظّرفية ﴿فِي﴾ للإشارة إلى إحاطة علم الله تعالى بما يجري في طيّات اللّيل والنّهار من أعمال عباده، خيرها وشرّها، عدلها وبغيها[2].

بلاغة التَّعبير بأسلوب المُقابلَةِ:

تداول الأضداد من مظاهر الرّبوبيّة؛ في ليل ينسلّ من نهار، ونهار ينبثق من ليل ستّار

تتجلّى بلاغة المقابلة في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾، حيث يُعبّر هذا النّسق المتقابلُ عن سنّة إلهيّة جارية تقوم على تداول المتضادّات، وتغليب أحد الطَّرفين حينًا على الآخر، في مشهدٍ بديع من التّوازن والتّعاقب.

وفي التّعبير بالولوج هنا: إدخالُ أحد اللّونين في الآخر إشارةً إلى هذا التّداخل المُحْكَم، إمّا بزيادة أحدِهما ونقصانِ الآخر، أو بحلول أحدهما في موضعِ صاحِبِه؛ ليكون اللّيل والنّهار مثالًا ظاهرًا لأوضح المخلوقات وأجلاها[3]. وقد صيغ هذا التّعبير البليغُ على وجهِ المثل الحيّ على تداول الأزمنة، وتغليب أحد الضِّدّين على الآخر؛ فمرّة يمتدّ سلطان النّور ويقصر ظلّ الظّلام، ومرّة يطول ليل السّكون، ويضيق نطاق النّهار، وقد جاء هذا التّصوير في سياق يجسّد شهرة التّضادّ بين النّور والظّلمة، واللّيل والنّهار[4]، ليرسّخ في الذّهن مشهدًا متكرّرًا من قلب الموازين، وتبدّل المدد، في نظام دقيق يشهد بعظمة الخالق القدير.

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 187.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 549.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 117.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 314.

وتتجلّى بلاغة المقابلة في أبهى صورها؛ إذ يُرى الظّلام منبثقًا من أحشاء النّور، كما ينبثق النّور من جوف الظّلام؛ في مشهد عجيب تتعاقب فيه الأضداد، وتتبادل فيه المتناقضات مواقعها في قدرة مطلقة تُلبس اللّيل والنّهار ثوبًا واحدًا من التّقدير(1)، وتُظهر الوفاق في قلب الافتراق، لتدلّ على حكمة من يُدير الكون بتوازنٍ دقيق.

بلاغة التَّعبير بالاستعارة:

تصوير مجازيّ بـديـع لمـداولـة اللّـيـل والنّـهـار في نظام الواحد القهّار

في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾ استعارةٌ بَديعَةٌ؛ إذْ شُبِّه تقصيرُ أحد الزّمانين وزيادة الآخر بعمليَّة الإيلاج، تجوّزًا بليغًا(2) يُضْفي على المشهد طابعًا حسيًّا ملموسًا، فكأنّ اللّيل كائن يتسلّل في جسد النّهار، أو كأنَّ النّهارَ فَيْضٌ مِن نور يخترق حُجب الظّلام، فهو تصوير مجازيّ لتعاقبهما وتداخلهما المستمرّ، حيث شُبّه مجيء أحدهما عقبَ الآخر من غير فاصل، بإدخال أحد الشّيئين في الآخر على وجهٍ لا انفكاكَ فيه، فاستعمل لفظُ المشبَّه به - وهو الإيلاج - وأريد به المشبَّه - وهو التّعاقب المتّصل - ، كما شبّه أيضًا ما يحدث من زيادة أحدهما على الآخر في الطّول، بما يحصل في بعض الأشياء عند إدخال شيء في غيره؛ فيزداد حجمه أو مقداره، فكانت الاستعارة بالإيلاج؛ للدّلالة على هذا الامتزاج والتّزايد المتبادل بينهما(3).

وكرّر اللّيل والنّهار مع فعل الإيلاج؛ لأنّ الإيلاج يحمل طابعًا روحانيًّا لطيفًا، يمثّل جوهر التّداخل بين الزّمنين، بينما التّكوير - كما ورد في موضعٍ آخرَ - يُجسّد البُعد الماديّ الحسّيّ لهذا التّداخل، فالإيلاج هو روح المشهد الكونيّ، والتّكوير هو جسده الظّاهر، ولذا

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 749 - 750.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 131.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 92 - 93.

تكرّر ذِكْرُ اللّيل والنّهار في سياق الإيلاج، كما تكرّرا في سياق التّكوير، فكلٌّ واحد منهما يكمّل الآخر، فالتّكوير جسَدُ التّداخل؛ إذ تكويرُ النّهار وسيلة لإيلاج اللّيل، وتكوير اللّيل مدخَلٌ لإيلاج النّهار[1]. وتكرار الفعل ﴿يُولِجُ﴾ جَعَلَ بين اللّيل والنّهار نكاحًا معنويًّا، إذ هما سبب التّوليد لكلّ الحوادث والأحوال، فما من شيء في الكون إلّا وله منهما أثرٌ ونصيب، وأكّده بقوله تعالى: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: 54] [الرعد: 3] في تصويرٍ لِما بينَهُما من تداخل وتعالق، ولذا كان كلٌّ منهما مولِجًا وموْلَجًا فيه، فهو لصاحبه أصلٌ وبَعْلٌ، فكلّ مولود في النّهار، فأمّه النّهار وأبوه اللّيل، وكلّ مولود في اللّيل، فأمّه اللّيل وأبوه النّهار[2]؛ فهما شريكان في دورة الزّمن، لا يفترقان ولا يستقلّ أحدهما دون الآخر، والتَّكرار مناسب لتصوير استمرارِ هذه الظاهرة البديعة.

بلاغَةُ الجِناس المعكوس في قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِۚ﴾ من أمثلة الجناسِ المعكوس؛ وهو ضرب من التّجنيس الذي يُضْفي على الكلام مسحة من الجمال، وجَرْسًا أخّاذًا، يَرْقى بالمعنى ويزيده رونقًا وطلاوة، وقد أطلق عليه قدامة بن جعفر اسم (التّبديل)، وكلا الاسمين صادق في الوصف؛ إذ يقوم على تقديم مؤخَّر الكلام، وتأخير مقدَّمه دون إخلال بالمعنى، أو انقطاع في السّياق[3]، فكلّ من الجملة المتقدّمة - ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ - والجملةِ المتأخرة - ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِۚ﴾ - قائمة بذاتها في المعنى، متكاملة في الدّلالة[4]، ممّا يعكس انسجامًا بديعًا بين اللّفظ والتّركيب، ويؤكّد وحدة المعنى في صورة مزدوجة متعاكسة لقدرة الخالق في إحكام التّعاقب والتّنظيم، والجمع بين الوُلوجَيْنِ يأتي تشخيصًا بديعًا لكمالِ القدرة الإلهيَّة[5]؛ إذ يُبرز هذا التّناظر المتعاكِسُ أنّ الفعلين - وإن تشابها ظاهرًا - فإن كلًّا منهما يجري بتقدير مستقلّ لا يلازمه الآخر ولا يتوقّف عليه، في دلالة على أنّ القدرة الإلهيَّة لا يحدّها تكرار ولا يقيّدها تماثل. كما ينشأ عن

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/ 113.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/ 112.
(3) يحيى العلوي، الطراز: 2/ 191.
(4) عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية: 2/ 441.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185.

الجمع بين الولوجين استدامةُ ذِكْرِ الله تعالى على مدار الزّمن كلّه، بحيث لا ينقطع أذانٌ، ولا تغيب صلاةٌ في الكون لحظة واحدة، فبينما يصلّي أحدهم صلاة المغرب، يصلّي آخرون العشاءَ، وهكذا تتوالى الصّلوات بأوقاتها المتعدّدة، فيكون الله ﷻ مذكورًا في كلّ زمان ومكان، حاضرًا في قلوب العباد، مجلّيًا قُدْرَتَه وعظمته في كلّ وقت وحين[1].

تناغمُ الألفاظِ وتكاملُ المعاني في تعاقب اللّيل والنّهار

بلاغة اختلاف التّعبير بين الإيلاجِ والتّكوير:

استعمال فعل التّكوير في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: 5]؛ لِما في هذا اللّفظ من تصوير بديع لحركة التّعاقب بين الجَديدَيْن، وكأنّهما عسكران عظيمان، يتناوبان الغلبةَ، فيَقْهَرُ أحدُهما الآخرَ تارة، ويعود ذاك فيغلبه أخرى، وفي هذا التّناوب إشارةٌ إلى أنّ كلا الفريقين خاضِعٌ مقهور، لا يملك من أمره شيئًا، فلا بد إذًا من غالب قاهرٍ يسيّرهما بحكمته، ويدبّر أمرَهما بقدرته[2]، وقد ورد في الحديث: «اللهُمَّ إنّي أعوذُ بِكَ مِنْ وعْثاءِ السَّفَرِ، وكَآبَةِ المُنْقَلَبِ، ومِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ»[3] في إشارة إلى التّبدّل والانْقِلاب.

غلبة لا تدوم وتعاقب لا يُضام بين اللّيل والنّهار تحت قَهْرِ الواحد الجبّار

علّةُ وصلِ قولِه: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ﴾ بما قبلَها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ﴾ لِلعَطْف[4]، فقد عطفَت هذه الجملةَ الاسميّة على ما قبلها من جملتي إيلاج اللّيل في النّهار، والنّهار في اللّيل؛ فالقادر على تلك الأشياء محيط عالم بخفيّات الصُّدور[5]. وعُطِفَ بينهما لِما بينَهما من التّوسُّط بين الكمالَيْنِ؛ فالجملتانِ

بيانُ الكمالاتِ الإلهيَّةِ

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10117.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423.
(3) رواه الترمذي في جامعه، برقم: (3439)، والنسائي في الكبرى، برقم: (8750)، وأحمد في مسنده، برقم: (20781)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".
(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 453.
(5) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 288.

خبريَّتانِ، وبينهما تناسُبٌ في اللَّفظ والمعنى، فأمّا في اللَّفظ فاتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما وهو الضَّميرُ الرّاجِعُ إلى اللّه تعالى، وأمّا في المعنى؛ فلِتضمُّنِهما بيانَ كمالاتِ اللّه تعالى وتصرُّفَهُ في خَلْقِه.

دلالة التَّعبير بالاسمِ المضمَرِ (هوَ):

تفرُّدُ اللهِ تعالى بِعِلْمِ خفايا القُلوبِ

أُعيدَ التّعبيرُ بالضّمير (هوَ) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لِما يحمِلُهُ مِنْ دلالة توكيديّةٍ بليغة، تُثْبِتُ الانفرادَ، وتنكر الشّريك، فكأنّ المعنى: هو وحده لا غيره[1]، العالم بخفايا القلوب، وسرائر الصّدور.

نكتةُ بِناءِ ﴿عَلِيمُۢ﴾ على زِنَة (فعيل):

سعَةُ عِلْمِ اللهِ تعالى وشدَّةُ إحاطتِه بالخَفيّات

اختيار وصف ﴿عَلِيمُۢ﴾ على زنة (فَعيل) يحمِلُ في طيّاته دلالةً عظيمة على المبالغة في الإحاطة والعلم[2]؛ إذ جاء هذا البناءُ ليُعبّر عن صفة راسخَةٍ ودائمَةٍ، لا عارضة ولا مؤقّتة، فاللّه تعالى ليس عالمًا بخفايا الصّدور حسب، بل هو عليم بها أزلاً وأبدًا، يعلم دقائقَها وخفاياها، وسرائرَها وظواهرَها.

الغرَضُ من التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

عِلْمُ الله تعالى أزليٌّ أبديٌّ

جاء التّعبير بالجملةِ الاسميّة دون الفعليّة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ لِما في الجملة الاسميّة من دلالةٍ على الثّبوت والاستمرار[3]، فليس علمُه تعالى حادثًا مقيّدًا بزمانٍ، بل هو علم أزليّ دائمٌ لا يطرأ عليه تغيّر، يعلم خفايا الصّدور وسرائر النّفوس على وجه الثّبات والدّوام، في إحاطةٍ كاملة لا يعتريها نَقْصٌ، ولا يَغيبُ عنها شيءٌ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 262.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 204.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 274.

دلالةُ الباء وسرّ التّعبير بالإضافة في ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

العِلْمُ من الصِّفات الذّاتيَّة غيرِ المُفارِقَة

الباءُ في ﴿بِذَاتِ﴾ دالّة على الإلصاقِ؛ وهو أشهَرُ مَعانيها[1]؛ لتُشيرَ إلى لزوم علمه تعالى لِما تكنّه الصّدور من خفايا ونيّات، لا يفارقها علمُه طرفةَ عَيْنٍ، ففي هذا التّعبيرِ إشارةٌ دقيقة إلى إحاطة تامّة، لا بما يظهر من الجوارح فحسب، بل بما استقرّ في الأعماق، واستكنّ في السرائر[2]. ويقوّي هذا أنَّ لفظ (ذات) - مؤنّث (ذو) - موضوعة لمعنى الصّحبة والملازمة[3].

بلاغة التَّعبير بالمجاز المُرسل في ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

الصّدور أعمّ من القلوبِ لِما تَنْطَوي عليه من فكرٍ وأحاسيسَ

التّعبير بالصّدور مجازٌ مرسَلٌ علاقتُهُ المحليّة؛ لأنّ المقصودَ القلوبُ، والصّدور أوعيَةٌ لها، ومحلٌّ لوجودها، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]، وإنّما آثر ذِكْرَ الصّدور؛ لأنّها أعمّ من القلوب فيما تنطوي عليه من فكرٍ وأحاسيسَ، فحيثُما ذُكِر الصّدر فإشارة إلى القلبِ والعقل، وإلى سائر القوى من الشّهوة والهوى والغضب ونحوها[4]. والتّعبيرُ بالصّدور دون القلوب وارد بموجب ما تحمله الصّدور من دلالةٍ على العقل والتّدبير، فهي موطن القرارِ والتّفكير، ومقرّ النّوايا والمقاصد، فالصّدور تُنسب إلى ذوي التّمييز من البشر، أربابِ الإرادة والتّصرّف[5]، لا إلى سِواهم من المخلوقاتِ.

دلالة جَمْعِ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

تعميمُ العِلْمِ بكلِّ صدورِ الخَلْقِ

ورد التّعبير بـ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ بصيغة الجمع؛ باعتبار ما تحتويه؛ لأنّ المراد بـ (ذاتِ) هو ما يُضْمِره كلّ فرد من بني الإنسان في

---

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 98.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 204.
(3) ابن مالك، شرح الكافية الشافية: 2/ 927.
(4) الكفوي، الكليات: (القلب).
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 515، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 25.

صدره من نوايا وهموم وخفايا، فاقتضى ذلك الجمعَ؛ لتعميم العِلْم بكلِّ صدور الخلق، لا صدرٍ بعينه، ولَمّا كان المفرد (ذات) دالًّا على الجنس؛ أُضيف إلى الجمع[1] إشارةً إلى شمول الإحاطة، وامتداد العلم الإلهيّ إلى مكنوناتِ جميع النّاس.

بلاغة تناسُبِ خَتْمِ الآية مع مَطْلَعِها:

الابتداءُ بذِكْرِ الإنْعامِ، والخَتْمُ بذِكْرِ العِلْمِ

جاءت خاتمةُ الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ على نسق بديع مرتبط بصَدْرِها، فكما أظهرَ اللّٰهُ تعالى أعظَمَ المشاهدِ الكونيَّة بتداخل اللّيل والنّهار، في تبدُّل جليّ لا ينقطع؛ بيّن في المقابل عِلْمَهُ بما هو أخفى وأدقّ، ممّا استقرّ في الصّدور، واستكنّ في النّفوس، فمَن أظهر ما خَفيَ من ظلمة إلى نور، ونور إلى ظلمة؛ قادرٌ على أن يحيط علمًا بما خفي في سرائركم، من همساتٍ ومضمرات لا يطّلع عليها أصحابُها أنفسهم[2]. إنّ تعاقب اللّيل والنّهار آية من آيات قدرته الباهِرَة، وفيه نعمةٌ كبرى تمسّ حياةَ الخَلْقِ ومعاشَهُم، فابتدأ بذِكْرِ الإنعام، وخَتَمَ بِإحاطَةِ العِلْمِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّدور والقلوب:

القلب جارحَةٌ وإدراكٌ وعقلٌ، والصّدور تشتمل على الخفايا والنّيّات والمكنوناتِ

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ معناهُ: أنّه سبحانه عليمٌ بما تَنْطَوي عليه صدورُ خلقِه من أسرارٍ وضمائرَ ونيّاتٍ، و(ذات الصّدور) إشارةٌ إلى خفايا النّفوس وما تُضمره من مكنوناتٍ، كالأفكارِ والمقاصد. وأمّا لفظُ القلبِ؛ فهو اسم للجارحة، وتسميته كذلك؛ لأنّه وُضِعَ في موضعه من الجوف مقلوبًا[3]، ويأتي في القرآن بمعنى النّفس المدركة، والرّوح العاقلة التي يفارق الإنسانُ الحياةَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 367.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 262، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 367.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 433.

بخروجها، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]؛ أي: الأرواح، لا المضغة اللّحمية التي لا تفارق مكانَها، وقد يُنسب إلى القلب ما هو في حقيقته من أفعال النّفس أو انفعالاتها، ويرد ذمّ العمى في القرآن، ويُقصد به عمى القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: 46][1]. وخلاصة ذلك أنّ الصُّدور في القرآن تدلّ على النّيّات والضّمائر الخفيّة، بينما القلوبُ تُطلق على النّفس المدركة، والرّوح العاقلة، ويقال: تعمى القلوب، ولا يُقال: تعمى الصّدور.

(1) مكي القيسي، الهداية: 7/ 4714.

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧﴾ [الحديد: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

من تسبيح الأكوان إلى استخلاف الإنسان دعوة للإنفاق بعد الإيمان

لَمّا استبانت الأدلّة القاطعة على تنزُّهه تعالى عن أدْنى شائبةِ نقص في قوله الكريم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحديد: 1]، وتجلَّت أسماؤه الحُسْنى وصفاته العلا في قوله العظيم: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ [الحديد: 3]، فدلَّ على أنّ الملك له وحده، وأوجب انفراده بالإلهيَّة الحقَّة في قوله الجليل: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ - أمرَ سبحانه بالخضوع له ولرسولهِ ﷺ، فقال آمرًا: ﴿ءَامِنُواْ﴾ أيّها الإنس والجنُّ ﴿بِٱللَّهِ﴾ الملك الجبّار ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ الذي شرفُه من شَرَف مُرْسِلِه. ولَمّا كان الإيمانُ أصلًا راسخًا، والإنفاقُ فرعًا باسقًا؛ جمع بينهما في الحكم فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ في سبيل إعلاء دينه، ثمّ زهَّدهم في الدّنيا بقوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم﴾ بقدرته الباهرة ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾ فيه؛ أي: جعلكم خلفاءَ في الأرض؛ ليَبْلُوَكُم فيما آتاكم فَيَجْزيكم الأجرَ العميم(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَنفِقُواْ﴾: (نفق)، وهو دالٌّ على انقطاع الشّيء وزواله، يُقال: نَفَقَ الشّيءُ؛ أي: مضى ونفد، وينفُقُ إمّا بالبيع، كما في نَفَقَ البيعُ نفاقًا، ومنه التّعبير نفاق الأيّام، وقد يكون بالهلاك، كقولهم: نفقتِ الدابّةُ نُفوقًا، أو بالفناء، كما في: نفقتِ الدّراهمُ تنفق، وأنفقتُها، ويشمل الإنفاقُ صرفَ المال أو غيره، وقد يكون واجبًا أو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 262.

تطوّعًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]، والإنفاق يعني عين الشّيء؛ أي: إخراج المال من الحوزة واليد، يُقال: أنفق المال؛ أي: صرفه وأذهب وأذهبه، وأصل الفعل يعود إلى الإنفاد، والنَّفقة هي ما يُنفق من الدّراهم وغيرها[1]. ومعنى ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ في الآية: "تصدّقوا في طاعة اللّه تعالى"[2].

2) ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾: جمع سلامة، مفردهُ: مستخلَف؛ وهو اسم مفعول، وجذره اللّغويّ (خلف)، والخاء واللّام والفاء تدلُّ تصريفاتُها على معانٍ، أنسبُها لِلَفْظِ الآية: أن يلي شيءٌ شيئًا فيكون مكانه؛ فإنّهم قد استُخْلِفوا على ما في أيديهم من المال. والخَلَف هو من بقي بعد موتِ سابقِه، ومنه: الخليفة؛ وهو من جاء بعدك[3]. ومعنى ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ في الآية: "ورثكم من آبائكم وملككم"[4].

3) ﴿أَجْرٌ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد، جذره اللّغويّ (أجر)، ويُشير معناه إلى الجزاء الذي يُمنح مقابل العمل، كما يُستعمل أيضًا بمعنى الثّواب، والأصل في هذا الجذر أن يدلّ على الكِراء مقابل العمل، وكذلك على جَبْرِ العظم المكسور، ويمكن الجمعُ بين المعنيين على اعتبار أنّ أجرة العامل تُعدّ بمنزلة ما يُجبر به حالُ الأجير، وما يلحقه من تعَبٍ وجُهْدٍ، ومِن ثَمّ قيل: إنّ الأجر هو الجزاء على العمل والمشقّة[5]، ومن أشهر معاني الأجر كذلك: الثّواب، سواءٌ كان على عمل دنيويٍّ أو أخرويّ[6]، أمّا في سياق الآية؛ فالأجر هو الثّواب الجزيل العظيم من ربّ العالمين.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمر اللّه سبحانه بالإيمان به وبرسوله إيمانًا راسخًا ثباتًا على الحقّ، واستمساكًا به، وحَثَّ على بَذْلِ ما استرعاكم من الأموال، فإنّما هي أمانة في أعناقكم، عارية بين أيديكم، قد كانت لمن قبلكم، ثمّ انتقلت إليكم، وأرشدَكم إلى مواضع الطّاعة فيها، فإنْ فعلتُم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفق).
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 402.
(3) الخليل، العين، وابن دريد، الجمهرة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خلف).
(4) التستري، تفسير التستري، ص: 161.
(5) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (أجر).
(6) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 534.

الدَّعوة إلى الإيمان، والإنفاقِ مِنَ المالِ الذي استُخْلِفَ فيه العبادُ

فَلَكُم الحظّ الأوفر، وإن أبَيْتُم فحِسابُكُم عليه شديد، وعقابكم فيه أليم، وأنّه ﴿جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ إشارة إلى مُفارَقَتِكُم المالَ لا محالة، فيصير إلى غيركم، فلعلّ وارثكم يكون من أهل الطّاعة، فينفق فيه حيث أمَرْتُ، فيكون هو السّعيدَ بنِعْمَتِكُم بعدكُم، أو كان من أهل المعصية، فتكونونَ قد شاركتُموهُ في الإثم بما خَلَّفْتُم له. ثمّ جمع بين الإيمانِ الذي هو أصل الدّين، والإنفاق الذي هو زكاة النّفس وبرهان الإخلاص، ليكون ذلك دافعًا للنّفوس إلى طلب رضوان اللّه، ومتجرًا يربحون به الأجر العظيم والثّواب الجزيل[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فَصْلِ هذه الآية عمّا قبلَها:

من أدلَّةِ القُدْرَة إلى دعائم التّكليفِ، ومن آيات التّوحيد إلى نداء الإيمانِ

فُصِلَت هذهِ الآية - وهي قولهُ تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ - عمّا قبلها؛ لتمام الاتّصال لِما فيها من الانتقالِ مِن مقام الاستدلال إلى مقام التّكليف؛ فبعد أن عَرَضَتِ الآيات السّابقة شواهدَ التّوحيد، وبراهين العلم والقدرة الإلهيّة؛ أَتْبَعَهُ الخطاب الإلهيّ بالتّكاليف؛ فاستهلّه بأمر بالإيمان باللّه ورسوله[2]، فقد جاء في موضع النّتيجة بعد استدلالٍ مُحْكَم وبيان راسخ، إذْ قُدّم بتقرير خضوع الكائنات لسلطان اللّه وتصرّفه فيها علمًا وعدلًا، وقد عُرضت أدلَّة القُدرة والعلم، وأُبرزت رقابة اللّه على السّرائر، وأنّ المصير إليه، فلما تجلّى الحقّ، وتهيّأت القلوب؛ جاء الأمرُ بالإيمان الخالِص، والتّصديق بالرّسول، برهانًا على ما مضى، ودفعًا للرّيب والتّكذيب[3].

الغرضُ من التّعبير بالأمر في ﴿ءَامِنُواْ﴾ ﴿وَأَنفِقُواْ﴾:

جاء الأمرُ الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ﴾

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 171 - 172.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 449.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 368.

نداءً للمؤمنين، لا على سبيلِ الإنشاءِ لإيجاد الإيمان ابتداءً، بل تثبيتًا له ودوامًا عليه[1]، وتأكيدًا لمضمونه، دعوة إلى ترسيخ العقيدة في القلوب، وتجديد العَهْدِ مع الله ورسوله، والتزامًا عمليًّا يُترجَمُ في صورة النّفقة[2].

نداء الثّبات في الإيمان والنّفقة في سبيلِهِ

بيانُ المراد بالخطاب في الأمْرِ بالإيمان والإنفاقِ:

يَجوز أن يكونَ الأمرُ بالإيمان والإنفاق خطابًا عامًّا يشمل الفريقين؛ فَلِكُفّار العربِ دعوة إلى التّصديق بوحدانيَّة الله وصِدْقِ رسالته، دعوة تطرق أبوابَ القلوب الغافلة بأنوار التّوحيد والنّبوّة، وللمؤمنين نداء بالثّبات على الإيمان، بل بالتّرقّي في مدارج اليقين، استزادةً من نور الهداية[3]، ولَمّا ثبت احتمال الخطاب للفريقين؛ جاز أن يكون بعضُ السّورة مكّيًا، وبعضُها مدنيًّا، وفيها خلاف لا يخفى[4]. ويَحْتَمِلُ أن يكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ﴾ موجَّهًا إلى المشركين، فتكون الآيةُ نداءً ابتدائيًّا في مطلع الدّعوة، بما يحكم كونها مكّيّة يعضده ما روي عن إسلام عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتأتي في سياقٍ يَنْسَجِمُ تمامًا مع قوله تعالى بعدها: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[5] توبيخًا واستنهاضًا وإلحاحًا على القلوب أن تُقبل على الإيمان، وقد انكشفَتْ لها البراهين.

بَيـنَ دعـوةِ الكافرينَ وتثبيتِ المؤمنين

سرّ التّعبير بالإيمانِ دونَ الإسلامِ في قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾:

من دقائق التّعبير في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ﴾ أنّه عبّر بالإيمان دون الإسلام، إشارةً إلى أنّ الخطاب موجّه لمن بَقيَ في نفوسِهم شائبةُ نفاقٍ، أو بقيَّة ارتياب، ممَّن تخلّفوا عن البَذْلِ، وقبضوا أيديَهُم عن نُصْرَةِ جَيْشِ العسرة، كما قال تعالى: ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة:

كشف الغطاء عن القلوب المريبة والأيدي القابضة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 101.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 258، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 312.
(3) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 200.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 164.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 368.

[67](1)؛ ليعلم أولئك عند سماعِهِ أنَّهم المعنيّون دون سِواهم. كما أنَّه عبّر بالإيمان لا الإسلام؛ لأنّه أراد المطلوب أن يكون إيمانًا يقينيًّا راسخًا، لا يقتَصِر على ظاهر الانقياد، بل يتغَلْغَل إلى أعماق القلب، حتّى يؤتي ثماره سلوكًا وعطاءً، فبِصِدْقِ هذا الإيمان يسهل على النّفوس أن تُنفق من مال الله الذي استخلفها فيه؛ إذْ تَرى المال أمانة لا مِلكًا، وعطاء لا اكتنازًا(2).

سرّ اختلاف التّعبير بالإيمان في الأعراف والتّغابن:

تنوّع الأسلوب من أمر الإيمان المجرّد إلى تفريعه على الصّفات واستثماره بعد البرهان والإثبات

سرّ اختلاف التّعبير بين ﴿ءَامِنُواْ﴾ في الحديدِ، و﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ [الأعراف: 158] [التغابن: 8] في الأعراف والتّغابن يكمُنُ في السّياق؛ فـ﴿ءَامِنُواْ﴾ في الحديد جاءت انتقالًا من مقام الاستدلال إلى مقام التّكليف المباشر، أمّا ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ [الأعراف: 158] في الأعراف ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: 158]؛ فجاءت تفريعًا على هذه الصّفات الثّلاثة من الملك والتّوحيد والإحياء والإماتة، والفاء في التّغابن: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾ [التغابن: 8] فصيحةٌ تُفْصِحُ عن شَرْطٍ مقدّر، كأنّها تقول: إذا انكشفَت لَكُم الآيات، وعلمتُم العواقب، فبادروا إلى الإيمان دون إمهالٍ(3).

دلالة تعدية الفعل ﴿ءَامِنُواْ﴾ بالباء:

صَدِّقوا بالله خالقًا ومعبودًا بحقٍّ، وصدّقوا بالرّسول ﷺ مبلّغًا وصادقًا

جاءت تعدية الفعل ﴿ءَامِنُواْ﴾ بالباء في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لإفادة التّصديق الجازم، لا محض القبول الذّهنيّ، فالمعنى: صدّقوا بالله تصديقًا يملأ القلبَ إيمانًا بأنّه خالقُكُم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 368 - 369.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 141.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 140، و: 28/ 272.

وربّكم ومعبودُكم الحقّ، وصدّقوا برسوله تصديقًا لا يخالطه شكٌّ في صدق ما يبلّغ عن ربّه[1].

الغرض من التَّعبير بالاسم الأحسَنِ (الله):

المَلِكُ الأعظم الحكيم صاحبُ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ

عُبِّر بالاسم الأحسَن (اللّه) دون غيره في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لتربية المهابة، وللإشعار بالجلال فهو دالّ على أنّه المَلِكُ الأعظم، ذو الذّات التي لا مثيلَ لها[2]، والمتصرّف المطلق في الكونِ، والمعبودُ بالحقِّ.

سرّ التّعبير بالرّسالة دون النّبوّة، ودلالة الإضافة في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

الرّسالة دليل التّكليف والعمل، وعظمة الرّسول من عظمة الله تعالى

اسْتُعْمِلَ لفظُ الرّسالة دون النّبوّة إشارةً إلى جانب التّكليف والعمل، فالرّسول حاملٌ للرّسالة، وناقلٌ لِلشّرع؛ فيستوجِب ذلك الإيمانَ به، واتّباعَ أمرِه، لا مجرّد كونه نبيًّا مخبرًا؛ فاختير ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ للدّلالة على وجوب التّصديق، والعمل بما جاءَ به. وفي الإضافةِ اكتسابُ عظمَةِ الرّسول من عظمَةِ الحقِّ سُبْحانَه[3]، فكأنّ الإيمانَ باللّهِ يتكامَل بالإيمانِ بالرّسول ﷺ.

دلالَةُ عَطْفِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على الاسمِ الأحسَنِ (الله):

التّلازمُ بينَ الإيمانِ باللهِ تَعالى والإيمانِ برُسولِه ﷺ

دلالةُ عَطْفِ الرّسول على الاسم الأحسن (اللّه) في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تتمثّل في ارتباط الإيمان بالرّسول ﷺ باعتباره حاملَ الرّسالة؛ إذ قد بان صدقُه بالأدلّةِ البيّنة التي قضت على شكوك المكذّبين، كما بيّن قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾، فالعَطْفُ هنا يربط الإيمان باللّه بالإيمان برسوله[4]، ليكون التّصديقُ به متكاملًا ومُنْسَجِمًا؛ إذْ لا يتمّ الإيمانُ بالخالق إلّا بموافقة الإيمان بالرّسول المبيِّن، "فالإيمان باللّه على وجهه المستحقّ

(1) الحداد، التفسير الكبير: 6/ 203.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 262.
(3) الشربيني، السراج المنير: 4/ 203.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 368.

لا يتحقّق إلّا بوساطة الرّسل"[1] الذين حَمَلوا رسالته، ونقلوا شرعَه، فالرّسول واسطةُ الحقّ، ومفتاح التّصديق به، فلا يُنال الإيمان إلّا باتباعه واعتقاد ما جاء به.

دلالةُ عطف الإنفاق على الإيمان في قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾:

لا أجر بلا إنفاق يُصَدّق الإيمانَ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ عاطفةٌ الأمر بالإنفاقِ على الأمر بالإيمانِ[2]؛ إذْ لا يتمُّ الأجرُ بالإيمان المفرد حتّى يُقرَن به إنفاق يُبَرْهِن على صدقه، ويُزكّي حقيقتَه. وعُطِفَتِ الجملتانِ؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذ الجملتانِ إنشائيَّتانِ، وبينَهما تناسُبٌ في اللَّفظ والمعنى: فأمّا اللَّفْظُ فاتّحادُهما في المسنَدِ إليه - وهو واو الجماعَةِ - ، وكونُهما بأسلوبِ الأمرِ. وأمّا التَّناسُب في المعنى؛ فلِما فيهما مِنَ الأمْرِ بشرائعِ الإسلامِ ودعائِمِه.

ودلّ السّياق على أنّ من فرّط في واجب الزّكاة ونحوها؛ فقد أخلّ بشرط الأجر، وسقط عن رتبة الموفين بما عاهدوا اللّه عليه[3].فالإيمان هو الأساس الرّاسخ في القلب، والإنفاق ثمرة ظاهرةٌ تدلّ على صِدْقِه وتحقُّقه، فجمع سبحانَهُ بين الباطن المؤسِّس والظّاهر المجسِّد[4].

سرّ إيثار التّعبير بالإنفاق ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ دون التّصدّق:

الإنفاق عامّ في أبواب البرّ، وموعودٌ صاحبُهُ بالأجر

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن لفظ التّصدّق إلى الإنفاق في قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾؛ لِما فيه من عُموم يشمل سائِرَ أبواب البرّ؛ فقد ضَمِن تعالى لمن استجابَ لذلكَ أجرًا كبيرًا[5]، لا يختصّ بالزّكاة، ولا يقتصر على الصّدقة، بل يتّسع ليشمل كلّ نفقة في سبيل اللّه، ومنه

(1) المظهري، التفسير المظهري: 9/ 188.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 454.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 450.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 262.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 450.

الإنفاق في الجهاد، وعلى الضّعفاء المُعْدِمين[1]، فجاء التّعبير أوسعَ دِلالَةً، وأشملَ غايَةً.

سِرّ تخصيص الأمر بالإنفاقِ دون غيرِهِ مِن أمورِ الطّاعات:

الإنـفـاق شعـار الإيـمـان، ودثـار الإحسان، لا لهو الجاهليّة وبذخ الطُّغيان

تخصيص الإنفاق بالذّكر في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ تنويهٌ جليل بشأنه، وتذكيرٌ بمكانتِه بين سائر الطّاعات؛ إذْ بِهِ يُبَرهَن على صِدْق الإيمان، وتظهر آثار التّصديق في الواقع العيان، وليس ذلك إلّا لأنّ القومَ كانوا في جاهليّتهم لا يعرفون للمال سبيلًا إلّا في الشّهوات الفاجرة، والتّفاخر الفارغ، والمقامرة المذمومة، ومعاقرة الخمر المحرّمة، وقد شهد عليهم القرآن بذلك في مواضع شتّى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣٤﴾ [الحاقة: 33 - 34]، وقوله: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ [الفجر: 17 - 20]، وغير ذلك من المواضع[2]؛ فجاء هذا الأمرُ بالإنفاق نقلةً مِنَ العبث إلى الجدّ، ومن اللّهو إلى البرّ، ومن التّبذير إلى عمارة القلوب.

معنى (مِنْ) ودلالتُها في قوله: ﴿مِمَّا﴾:

الكريم جَلَّ جَلَالُهُ يقبَلُ من عبادِهِ اليسيرَ ويشْكُرُهم عليهِ بالجزيلِ الكثيرِ

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم﴾ دالّة على التّبعيض[3]، فهي هنا زَجْرٌ لطيف عن إنفاق المالِ كلّه[4]، وتذكير بأنّ الإنفاق مقصورٌ على جُزْءٍ يسير ممّا وَهَبَكُم الوهّابُ العظيمُ، تنفيسًا للأرواح، وتيسيرًا على القلوب. وفي ذلك أيضًا ترغيبٌ في الإنفاق ولو بالقليل، وتيسيرٌ للتّكليف، فإنّ الكريم يقبَلُ من عبده ما تيسّر[5].

(1) الحداد، التفسير الكبير: 6/ 203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 368.
(3) وهو من أشهر معانيها في كلام العرب، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 217.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 441.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 262.

الغرض من التّعبير بالموصول (ما):

استعمال الموصول في العطاء؛ دالٌّ على الإطلاق والسَّخاء

استعمال الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم﴾ ترغيبٌ في الإنفاق في أبواب الخير، وتنبيهٌ على العموم[1]، فكأنّه قيل: أنفقوا من كلّ ما جعلكم اللّه فيه مستخلفين، قلّ أو كثُرَ، برًّا كان أو عَرَضًا، مالًا أو جاهًا، علمًا أو قدرة، فإنّ الموصول من ألفاظ العموم[2]، فيدخل فيه كلُّ ما يصلح أن يُتقرّب به إلى اللّه تعالى، فذلك أبلغُ في التّرغيب، وأوسعُ في النّدب. كما أنَّه عُبِّر بالموصول دون التّصريح بلفظ الأموال أو الأرزاق؛ لِما في الموصول من الإيقاظِ والتّذكير؛ إذ يُشْعِرُ بأنّ ما في أيدي العباد ليس تمليكًا حقيقيًّا لَهُم، وإنّما هو عارية مؤقَّتة، وخلافَةٌ عن المالك سبحانه. فصارت الصّلةُ تنبيهًا على أنّ التّصرّف ليس إلّا بإذنه، والإنفاق ليس مِنَّةً بل طاعة، فكأنّ العبد خازن للمال لا مالك له، ينفّذ أمر سيّده متى شاء، ويردّه إذا شاء[3]، فكان ذكر الموصول أبلغَ في التّخويف، وأقوى في الحثّ، وألطف في صرف النّفس عن التَّعلّق بما ليس لها.

دلالة التّعبير بالجعل في قوله: ﴿جَعَلَكُم﴾ مادّة وصيغة:

جَعَلَكُم خلفاءَ بتمكين، وابتلاكُم بالمال لتمحيصِ اليقين

في التّعبير بفعل الجَعْلِ دلالةٌ على التّمكين والتّصريف؛ إذ هو فعلٌ ماضٍ يشير إلى أمر محقَّق لا وهْمَ فيه، وثابتٌ لا زوال له، فاللّه ﷻ هو الذي صيَّركم بمحض قدرته[4] خلفاء في المال بالتّصرّف على وفق أمره، وتُبتَلَون بأمانة الإنفاق فيه.

بلاغة التَّعبير بالمجاز في قوله: ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾:

في التعبيرِ بالاستخلاف دون (مِمّا آتاكم) أو (رزقكم) أو نحوهِما لطيفَةٌ بلاغيّة؛ إذْ يُشير إلى أنَّ المال ليس مِلكًا ذاتيًّا للعبد،

(1) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 201.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 205.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 369.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 262.

المال لله تعالى، وأنتم فيه وكلاء؛ فلا تبخلوا بما لَم تَملِكوا على الحقيقةِ

بل هو وديعة مؤقّتة، تداولَتْها الأيدي قبلَه، وستؤول لغيره من بعده، فالمعنى: أنفِقوا من مالٍ استخلفكم اللّهُ فيه، كما استخلَفَ فيه مَن قبلكم، قبل أن تَخْلُفَكُم فيه أيادٍ أخرى، فالدُّنيا دار ممرٍّ لا مقرٍّ، والمالُ فيها للإنفاق لا للتَّكديس، وللانتفاع لا للتَّرك[1]، ومَن أدرك حقيقة الاستخلاف؛ رقَّ قلبُه وسما عطاؤُه.

والتّعبير عن المالِ بلفظ الاستخلاف مجازٌ؛ فإنّ الوهّابَ العظيمَ هو المالكُ الحقيقيّ لكلّ ما في السّماوات والأرض، وأنَّ ما يورَثُ ويُتَداوَل بين الخلق ليس ملكًا ذاتيًّا لهم، بل هو مِلْكُ اللّه الذي خوّلهم الانتفاعَ به زمنًا، ثمّ يردّه إلى غيرهم كما جاءَهُم مِن قبلُ، فكلّ ما نُسِبَ إليهم من المال إنّما هو في الحقيقة مِلْكٌ لربّهم، وهم فيه مُستخلَفون لا مالكون[2]، وإذا تقرّر أنّ المال للّه؛ فبأيّ حقّ يُبْخَلُ به؟ وكيف يمْنَع من أُمِروا بالإنفاق منه، وهم يملكونه على سبيل المجاز لا الحقيقة ؟!.

دلالةُ السّين والتّاء في قوله: ﴿جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ﴾، والغرض من وُرودِه اسمًا:

تأكيدُ الوعد الإلهيّ بطَمْأنَةِ القلوبِ

السّين والتّاء في لفظ ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ يجوزُ أن تكون للمبالغة في تحقّق فِعْلِ الاستخلاف، لا لمجرد الطّلب؛ إذ اسْتُفيد الطّلب من فعل ﴿جَعَلَكُم﴾. ويَحتمِل أن تكون لتوكيدِ الطّلب وتَثْبيته[3]، فكانت دالَّةً على إلحاح الأمر وثباته.

وفي التّعبير بالاسم ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ دون الفعلِ مبالغةٌ في تأكيد الوعد الإلهيّ؛ إذ جاء ذلك بعد الأمر بالإنفاق وبيان تَيْسيره، لِما في

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 473، والماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 516، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 235، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 204.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/ 452.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 262.

الإنفاق من مشقّة على النّفس وعُسْرٍ في الطّبع[1]؛ فجاءت الصّيغة الاسميّة لتُطَمْئِنَ القلوبَ، وتُرغّبها في البَذْلِ.

دلالة التّعبير بالظّرفية ﴿فِيهِۖ﴾، وسرُّ الإضمار دونَ الإظهار:

أنتم مستخلفون في المال، فليَخْشَ العزلَ مَنْ ظَنّ التّمليك

(في) حرف يَرِدُ للظّرفيَّة في أشهر معانيه[2]، والتّعبير به هنا ﴿فِيهِۖ﴾ يوحي بأنّ الأموال ليست ملكًا حقيقيًّا للعباد، بل هي محيطٌ ظرفيّ يعيشونَ فيه، كأنّهم مَوْضوعونَ فيها لا مالكون لها، فقُلوبُهُم أوْلى أن تطيب بها إن أُمروا بإنفاقها؛ إذْ لا يُخْرِجون منها ما يَمْلِكون، بل ما أودعَهُ اللّه عندهم. وسرّ الإضمار دون التّصريح للإشارة إلى أنّ المال محضُ وسيلة ومرحلة عابرة، تُؤذِنُ بأنّ الإنسان فيه مستخلَفٌ لا متملّك، فليخشَ العزلَ عن هذا المقام، ولْيَخَف أن تُنتزع الخلافة منه كما سُلّمت إليه، وتُسلَّم لغيره بعده[3].

معنى الفاء ودلالتُها في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ﴾:

تنوُّعُ المعاني وكَثْرَتُها بتعدُّد معاني الحُروفِ

الفاء فيها ثلاثة أوجه: فإمّا أن تكون للتّعليل[4]، فتكون الجملة مفرّعةً مسبَّبة عمّا قبلها من الأمر بالإيمان والإنفاق، على وجهٍ يُفهم منه أنّ هذا الوعدَ العظيم بالأجر الكبير ليس وعدًا معلّقًا، بل هو جزاءٌ معلَّل لِما سبَقَ ذِكْرُه من طاعة الإيمان وصدق الإنفاق؛ لأنَّ الذين آمنوا وأنفقوا، قد أعْدَدْنا لهم أجرًا عظيمًا[5]، فالفاءُ هنا تربط المأمور به بالجزاء الموعود، وتدلّ على أنّ ذلك الثّواب ليس منفصلًا عن الامتثال، بل هو أثَرٌ مباشِرٌ له.

وإمّا أن تكون استئنافيَّة[6] لابتداءِ كلام جديد يُفتَتَحُ به وعدٌ كريمٌ بعدَ أمرٍ عظيم، إيذانًا بأنّ ما بعدها مستأنَفٌ في مبناه، مستقلّ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 263.
(2) العمري، درر الفرائد المستحسنة، ص: 358.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 262.
(4) المظهري، التفسير المظهري: 9/ 189.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 369.
(6) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 454.

معناه، يقرّر جزاء الإيمان والإنفاق في صورة خبرٍ جليل، لا يتّصل بما قبله إلّا من جهة المعنى العامّ.

وإمّا أن تكون الفاءُ هنا فصيحةً؛ أفصحت عن شرط مقدّر؛ أي: إذا عَلِمْتُم ما سبق من الأمر بالإيمان والإنفاق، وتشوّفتم إلى معرفة جزاء مَن امتثَل ذلك، فهم الذين آمنوا مِنْكُم وأنفقوا، لهُمْ أجر كبير[1]، فهي فاءٌ تُنْبِئُ عن جوابِ ما تُكنّه النّفس مِن سؤالٍ، وتُهيّئ السّامع لاستقبال وعدٍ عظيم.

الغرض من التّعبير بالموصولِ وصِلَتِه ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ والإنفاقُ سبَبُ حُصولِ الأجرِ الكبيرِ

اسْتُعْمِلَ الاسم الموصول مع صلتِه في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ﴾؛ للدّلالة على أنّ صلة الاسم الموصول هي علّة استحقاقهم الجزاءَ المذكورَ، فالإيمانُ والإنفاق جاءا تأسيسًا لبناء الخبر عليهما، وهو قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، فقد استحقّوا الأجر العظيمَ بمَدْعاةِ إيمانهم وإنفاقهم.

سِرُّ التَّعبير بالقيد بقوله: ﴿مِنكُمۡ﴾ مع الإيمانِ:

إغـراءٌ باللّحاق وتـحـريـضٌ على السّبقِ

﴿مِنكُمۡ﴾ قيد مشحون بالإيحاء؛ إذ جاءت (مِن) للتّبعيض، لتدلّ على أنّ الذين آمنوا وأنفقوا بعضُ الأمّة، وفيه إغراءٌ يُثير في نفوس المخاطبين منافسةَ الشّرف، ومغالبةَ التخلّف، ومماثلةَ أولئك المَجْزيّين[2]، كأنّما يُقال لهم: قد سبقَكُم مِنْكُم قومٌ بالإيمان والإنفاق، فلا تكونوا دونهم في مقامِ القُرْبِ، ولا أقلَّ منهم في نَيْلِ الوعد الكبيرِ.

سرّ إعادة ذكر الإيمان والإنفاق بعدَ ذِكْرِهما في أوّل الآية:

تـوكـيـدُ الاستحقاقِ؛ فلا أجـرَ عظيمٌ إلّا بإيـمانٍ صـادقٍ وإنفاقٍ محقّقٍ

في إعادة ذِكْرِ الإيمان والإنفاق: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ﴾ بعد وُرودِهما في مطلع الآية؛ دلالةٌ على كمال العناية بهذين الأصلين

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 463.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 369.

الجليلين، إظهارًا لمزيد الاهتمام[1]، وتوكيدًا لمقام الإيمان والإنفاق، وتنبيهًا على علوّ منزلتهما في ميزان الشّرع، فاقتضى أن يُعاد ذِكْرُهما ليُغْرَس معناهما في القلوب، ويُسْتَنْهَضُ بهما عزمُ المُتردِّدين.

دلالة التّعبير بالماضي في قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ ﴿وَأَنفِقُواْ﴾:

الدّلالَةُ على التّحقّق والتّثبيتِ، والإشارةُ إلى الاستمرارِ والحثّ على الاقتداءِ

الفعلانِ الماضيان في قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ وقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ يحتمل أن يكونا مُسْتَعْمَلَيْنِ في معنى المضارع؛ إشارةً إلى تحقّق الفعل وثبوته، وتأكيدًا على إيقاع ذلك[2] من قوم نالوا به الوعدَ، مع إمكانِ إرادةِ الحالِ والاستمرار. ويحتَمِلُ أن يكون ماضيًا باقيًا على دِلالَتِهِ الأصليَّةِ لإفادةِ ثبوت الإيمان عِنْدَهُم؛ إذ أتمّوه بالإخلاص في جميع الأعمال والأفعال والأخلاق، وأكملوا الإنفاقَ بلا شَوْبٍ مِن منٍّ أو أذى، ولا شَيْنِ سُمْعَة ولا رياء، فكان جزاؤُهم الأجرَ العظيمَ[3].

الغرَضُ من حَذْفِ متعلّق الإيمانِ والإنفاقِ في قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ ﴿وَأَنفِقُواْ﴾:

إطلاقُ الإيمانِ والإنفاقِ تشويقًا وتحفيزًا

حُذِفَ متعلِّق الإيمان والإنفاق في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ﴾ وقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾؛ لأنّ المقام مقام تشويق وتوسيع، فحُذِفَ المتعلّق لإفادَةِ العموم والإطلاق؛ أي: آمَنوا بكلّ ما يجب الإيمان به، وأنفقوا في كلّ وجهٍ يُرضي اللّه، دون حصر أو تقييدٍ. كما أنَّ حذفَ المتعلّق يفتح بابَ التّأمّل والتّفكّر، فيدفع المخاطَبَ إلى محاسبةِ نفسِه، وذلك أبلغُ في إثارة الهِمَم، وتحفيزِ القُلوبِ.

معنى اللّام ودلالتُها، والغرض من تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

أجْرُهم كبيرٌ بموجبِ إيمانِهم وإنفاقِهم وهو مَخصوصٌ بِهِمْ

اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾ دالّة على الاختصاص والاستحقاق[4]؛ إيذانًا بأنّ هذا الأجر الموفور مخصوص بهم، لا يشاركهم فيه غيرُهم، وأنَّهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 204 - 205، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 441 - 442.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 369.

(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 387.

(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 330.

استحقاقٌ تامٌّ ناشئ عن تلبّسهم بالإيمان المقرون بالإنفاق، فكأنّما خُصّوا به دون سِواهُم جزاءً وفاقًا. وقُدِّمَ الجارّ والمجرور على الاسم المخبَرِ عنه لإفادَةِ الحصر والتّخصيص[1]؛ فكأنّه قال: لا لِغَيْرِهم، بل لهم وحدَهُم الأجرُ الكبير، جزاءَ ما آمنوا وما أنفقوا، وفي هذا من التّشريف والتّكريم ما يُغري بالمسابقَةِ، ويَبْعَثُ على اللّحاق بِهِم.

سرّ التّعبير بالأجْرِ دونَ الجزاءِ:

التّفضل لا المقابلة، والأجر الكبير لا الجزاء بالمعادلَةِ

لَمّا كان الجزاءُ في أصله: مقابلةَ عملٍ بمثله؛ عُدِلَ عنه إلى الأجر إيذانًا بالتَّفضّل، ووُصِفَ بالكِبَر تعظيمًا لشأنه، فقال سبحانه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾؛ أي: أجر لا تحيط به العقول، ولا تدرك حقيقتَهُ الأفهامُ؛ فاغْتَنِموا زمانَ الاستخلافِ قَبْلَ أن تُعْزَلوا، وبادِروا الإنفاقَ قبلَ أن تُتْلَفوا[2].

الغرض من التّنكير في قوله: ﴿أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾:

إشعارٌ بعلوّ القدرِ ووعدٌ لا يَبْلُغُه الفِكْرُ

نُكِّر الأجر في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ تعظيمًا لشأنه[3]، وتفخيمًا لمقداره[4]، إشارةً إلى أنّه جزاء لا يقدَّر بحدّ، ولا تدركه العقول بمدًى، فهو عظيم في ذاته، لا يفي به إلّا الكريم الوهّاب. ولَمّا كان هذا الأجر هو الجنّة[5]؛ جيءَ بِهِ منكّرًا، تنبيهًا على جلالته، وأنَّه أجر لا يُقاس، ولا يُقدَّر.

سرّ وصف الأجر بالكبير دون الكريم أو العظيم:

في وصف الأجر بالكبير مبالغةٌ تَتجاوَزُ حُدودَ التّصوير

وُصِف أجر المؤمنين المُنْفِقين بأنّه ﴿كَبِيرٞ﴾ دون العظيم أو الكريم؛ لما في لَفْظِ الكبير من المبالغة[6] التي تفتح أُفُقَ التَّصوّر، إيحاءً بأنّ هذا الأجرَ يَتجاوَزُ حدودَ التّقدير والتّخيّل، فهو أجرٌ قَد فاقَ ما يتصوّره العقل من عظمَةٍ أو كَرَمٍ. ولَمّا كان التّنكيرُ دالًّا على التّفخيم

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 441 - 442.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 263.
(3) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 366.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 169.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 238.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 204 - 205.

والتّعظيم؛ أورد لفظ ﴿كَبِيرٌ﴾ توكيدًا لهذا المعنى[1]؛ إذ اجتمعَ فيه الإبهامُ المشوّق والتّعظيم المدهش، إشارةً إلى أنّ هذا الأجر يجلّ عن التّقدير، ويتعالى عن الحصر، فلا يُدرِك كُنْهَهُ إلّا مَن وهبَه.

الغرضُ من التّعبير بالجملة الاسْميّة في جملة: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾:

تعظيم الأجر لا يخفى، وتكريم المؤمنين المُنفِقين يُسْتَوْفى

خُتِمَت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وهي جملة اسميّة، وكان مقتضى الظّاهر أن تكون فعليّةً في جواب الأمرِ؛ بأن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ: فالذين آمنوا وأنفقوا يُعْطَوْنَ أجرًا كبيرًا. وفي التّعبير بها على صورة الاسميَّةِ ما لا يَخْفى مِن مبالغةٍ في التّعظيم والتّكريم[2]، لِما لها من وقع جليّ في إظهار عظمة الجزاءِ ودوامِه واستمرارِه ولزومِه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنفاق والتّصدّق:

التّصدّق محدود، والإنفاق ممدودٌ؛ يشمَلُ وجوه البرِّ والخير بلا قيودٍ

لَمّا كان التّصدّقُ أمرًا خاصًّا كالزّكاة ونحوها، والإنفاقُ أمرًا عامًّا يشمل كثيرًا من سبل البرّ والخير؛ قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾، فالإنفاقُ هنا هو المناسب، فليس السّياقُ سياقَ الصّدقة، فالنّاظر في السّياق القرآنيِّ يُدرِكُ أنّ الصّدقة وإن كانت من أبواب الإنفاق ومفرداته؛ إلّا أنّها في العُرف واللّسان تختصّ غالبًا بفعل مخصوصٍ؛ هو بذلُ جزءٍ من المال للمحتاج ابتغاءَ وجه اللّه وطلبًا لثوابه، وقد تَقْتَرِنُ بأحكام مخصوصة كالزّكاة المفروضة، أو الكفّارات الواجبة. وأمّا الإنفاق؛ فله شأنٌ آخرُ ومقامٌ أرفعُ؛ إذ هو أعمّ وأشمل، ينفتح على مصاريع الخير، ويعمّ وجوه البرّ كلّها. فيشمل النّفقة على النّفس والأهل، وعلى المحتاج والفقير، وعلى مصالح الأمَّة ورفعة الدّين، وغير ذلك.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 442.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 169.

الأجر والثّواب والجزاء:

الـــثّـــواب في الـخـير والـشّـرّ، والجزاء دالّ على المقابلة، والأجر مُشْعِر بالتّكريم والتّشريف

الأجر في الأصل مصدَرٌ؛ يقال: أَجَرَهُ اللّه يأجُره أجرًا، وقد يعبَّر به عن نفس الشّيء المُجازَى به. والثّواب: ما يَرْجِعُ إلى الإنسان من جزاءِ أعمالِه؛ وهو في الخير والشّرّ، لكن الأكثرَ المتعارفَ عليه هو الخيرُ[1].

أمّا الجزاء؛ فهو الغَناء والكفاية، وما فيه الكفاية من المقابلة، فإن كان خيرًا فخيرٌ، وإن كان شرًّا فشرٌّ[2]. والأجر يُسْتَعْمَل في الأصل على ما يُعطى قبلَ العمَلِ أو يُشترط له. والثّوابُ لا يكون إلّا بعد العمل، ثمّ إنّ الثّواب قد اشتهر في الجزاء على الحسَنات خاصّة. أمّا الأجرُ؛ فيُستعمل في هذا المعنى، ويُستعمل أيضًا على الأجرة التي تكون بطريق المعاوضةِ بأدنى الأثمان، وفيها معنى الانتفاعِ مقابِل العِوَض[3].

(1) الراغب، المفردات: (ثوب).

(2) الراغب، المفردات: (جزأ).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 237.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [الحديد: 8]

توبيخ على الإعراض بعد البيان والدَّعوة للإيمان

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا أمرهم اللّهُ سبحانه بصريح الإيمان في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أتبعه تعليقًا بتَوْبيخِهم على ترك ما أُمِروا به، مبيّنًا أنّه لا معذرة لهم في التّولّي والإبعاد، فقال مُنكِرًا عليهم تعطّلهم عن الحقّ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؟! والمعنى: فأيّ عذرٍ يعقدونه، وأيّ حجاب يحجبهم وقد تنحّت العوائق، وانْجَلَتِ الشّبهات؟ وحقيقة القول: ما الذي أبقاكم في حظيرة الكفر، وأيّ نصيب لكم من ثواب الآخرة إذا أنتم أبَقْتُم من رحابِ الإيمان؟[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَذَ﴾: أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشّيء وجَبْيُه وجَمْعُه[2]، ومعنى ﴿أَخَذَ﴾ في الآية الكريمة: حين أخْرَجَكُم من ظهر آدم بأنّ اللّه ربّكم لا إله غيره، وقيل: أخذ ميثاقكم بتركيب العقول فيكم، ونصب الأدلّة التي تدعو إلى اتّباع الرّسول[3].

2) ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾: الميثاق مِفْعالٌ مِن الوِثاق؛ وهو العهد، وهو في الأصل: حبلٌ أو قَيْدٌ يُشَدُّ به الأسير أو الدّابة[4]، يُقال: وثَّقت الشّيء؛ أي: أحكمتُه، ووَثِقْتُ بِهِ أثِقُ ثقةً: سكَنْتُ إليه، واعتمدتُ عليه، وأوثَقْتُه: شَدَدْتُه[5]، والمواثقة: المعاهدة، والوثيق: الشّيء المحكم،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 442.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(3) الخازن، لباب التأويل: 4/ 247.
(4) ابن الأثير، النهاية: (وثق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وثق).

واستوثقت منه؛ أي: أخذتُ منه الوثيقة[1]. ومعنى ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ في الآية "عَقدٌ يؤكَّد بيمين وعهدٍ... وقد أخذ اللّهُ ميثاقكم بالإيمان من قبل دعوة الرّسول إيّاكم إليه"[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تقريع الغافلين عن نور الهدى بين الحُجَّة البالغة والعهد الموثوقِ

آيةٌ ناطقةٌ بتَقْريعِهِم على تقصيرهم، وتعجُّبِهم من تواريهم عن ضياء الهدى، وهُم بين أسبابِهِ وأدلَّتِهِ، فليس لتولّيهم مع ذلك من معقِلٍ يلجؤونَ إليه، ولا من عُذْرٍ يحتجّون به، بل هم في عرض الملام، وموقف المأثم؛ إذ لو أسلموا وجوهَهُم لَنالوا فَضْلَ الدّنيا وثواب الآخرة، فـ" أيّ: شيء لكم في تَرْكِكُم الإيمانَ باللّه وبرسوله، وما أتاكُم بِهِ مِنَ الحَشْرِ والنّشر، وقد أزاحَ العلّة بأنْ ألاحَ لَكُم الحجّة، وقد أخذ ميثاقَكُم وقْتَ الذّرّ، وأوجب عليكم ذلك بحكم الشّرع"[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾:

استئنافٌ يَكْشِفُ دهشَةَ الإنكارِ ويُزيحُ عُذْرَ الجاحِدين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ دالّة على الاستئناف[4] الذي يُلفت النّظرَ إلى حال المخاطبين والعجبِ مِن مَوْقِفِهم، والمعنى: فما شأنُكم أيّها النّاس، وما الذي يُثْنيكم عن الإيمان باللّه؟ ورسولُه الكريم محمّدٌ ﷺ لا يزال يدعوكم إلى توحيدِ اللّه تعالى والإقرار بربوبيَّته، وقد جاءكم مِن البراهين والأدلَّةِ السّاطعة، فلا يبقى لمكابرٍ حجَّةٌ، ولا لمتردِّد عذرٌ[5].

الغرَضُ من التَّعبير بالاستفهام بـ (ما) في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾:

توبيخُ المُعانِدين بِعَمى بَصائِرِهم

الاستفهام بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾

(1) الجوهري، الصحاح: (وثق).
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 354.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 535.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 169.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 172.

توبيخ يُقذف في وجه المعرِض، وتعجيبٌ يُصوّر قُبْحَ حالِه، واستغرابَ موقفه؛ إذ كيف يُتصوّر الامتناع عن الإيمان، وقد انكشفتِ الحُجج، وتجلّى البرهان؟! فهو استفهام يحمل في طيّاته تقريعًا خفيًّا، واستنكارًا بالغًا، يناسب ما في قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من معنى الطّلب، لا مجرَّد الإخبار عن الدّوام في الإيمان[1].

ويجوز في الاستفهام هنا أن يكون على معنى الإنكار، والمعنى: فَلِماذا لا تؤمنون بالحقّ سبحانه، وقد بدت لكم آياتُه، وتتابعَت عليكم نِعَمه، وأيّ شيء يبقى لَكُم مِنَ الأمل في الثّواب، أو الحظّ من النّجاة[2]، إذا أعرضتُم عن الإيمان باللّه؟.

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَكُمْ﴾:

الإنــكــار دالّ علـى التّمكّن، ودليل على سبق الاستـطـاعـة واختيار العبد للإيمان

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ دالّة على الاختصاص والتّمكّن، والمعنى يشير إلى أنّ المخاطبين قادرون على الإيمان؛ إذ لا يوجّه مثلُ هذا الإنكار إلّا لمن كان مُتمكّنًا من الفعل، كما لا يُقال: ما لَكَ لا تَطُوَل، أو لا تَبْيَضُّ، لمن لا يملك ذلك، وهذا يدلّ على أنّ الاستطاعة متقدّمة على الفعل، وأنّ القدرة صالحةٌ للفعل وضدّه، وأنّ الإيمان واقع من العبد باختياره[3].

دلالة توجيه الخطاب في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾:

أيّ عـذر يبقى لـمَنْ أعـرَضَ عن الإيـمـان بـعدَ وضوح الحُجَجِ وقيام البراهينِ

الخطاب في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ تقريع وتوبيخ لهم، وخطابُ الحُضور هو الأوْلى بمِثْلِ هذا السّياق، كأنّه يقول: أيُّ عذر لكم في الإعراض عن الإيمان باللّه تعالى، وقد دعاكم الرّسولُ ﷺ، وأُقيمت عليكم الحُجَجُ السّاطعة، وجاءَتْكُم الآياتُ البيّنات التي تَرْفَعُ كُلَّ عُذْرٍ، وتدفعُ كُلَّ شبهة؟ فأيّ وجهٍ بَقيَ لَكُم لِتَرْكِ الإيمان؟[4]

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 369 - 370.
(2) الواحدي، الوسيط: 4/ 245.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 451.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 516.

سرُّ التَّقييد بالجملة الحاليَّة المَنفيَّة ﴿لَا تُؤۡمِنُونَ﴾:

توبيخُ الجاحِدِ وكَشْفُ زَيْفِ الظّاهِرِ عندَ المُنافق

جملة ﴿لَا تُؤۡمِنُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ حالٌ[1] من ضمير المخاطبين، والتَّقدير هنا: وما لكم كافرونَ بالله؛ أي: ما الذي أصابَكُم أو حلَّ بكم وأنتُم على حالٍ مِنَ الكُفْرِ بالله؟[2]. وسرُّ التَّقييد بالجملة الحاليَّة المنفيَّة الدّلالةُ على إمكان تغيّر الحالِ لوجود أسبابِه؛ ولذا عُبِّر بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجدُّد، ويتبيَّن ذلك لو قيل: مالكم غيرُ مؤمنين؛ فكان إشارةً إلى إمكان حصول الإيمانِ. فالجملةُ تحمِلُ في طيّاتها استبطاءً عجيبًا واستغرابًا بليغًا، خَرَجَ مخرج الإخبار بزوال المانع وانتفاء العذر، والمعنى: فأيّ سبَبٍ بَقيَ لكم في الإعراض، وأيّ حُجّة تعتذرون بها عن ترك الإيمان، وقد نُصبت لكم الأدلّة، وتتابعت عليكم الآياتُ التي تقرع الأسماع وتخاطب العقول[3]. ونفيُ الإيمانِ يحتَمِلُ أن يكون توبيخًا للمشركين على شِرْكِهِم الصّريح، كما يَحْتَمِلُ أن يكون تعريضًا بالمنافقين الذين أظهروا الإيمانَ وأبْطَنوا الكفر[4]، فجاء النّفيُ شاملًا للحالَيْن، ليوبّخ الجاحد، ويَكْشِفَ زيف الظّاهر عند المنافق.

دلالَةُ التّعبير بالاسم الأحسَن (الله) مُظْهَرًا دون إضماره:

في الاسم الأحسَنِ دلالةٌ على المَلِكَ الأعلى وبيانٌ للحقّ الأجلى

التّصريح بالاسم الأحسَنِ (الله) في الآية الكريمة دون إضماره؛ فيه تربيةٌ للمَهابة والجلال، وإشارةٌ إلى كونه الملكَ الأعلى الذي له الملك كُلُّه والأمر كلّه، وهي حقيقةٌ يَزْدادُ بيانُها وضوحًا في ذهن السّامع بعد تلقّي الحجج والبراهين السّابقة لهذا النّداء الإيمانيّ[5].

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾:

بيانُ حال الرّسول ﷺ وهو يدعوهم للإيمانِ وهم مُعْرِضونَ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ واوُ

(1) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 716.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 11/ 290.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 155.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 264.

الحال، والجملة بعدها حالٌ من الضَّميرِ في ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾[1]؛ أي: لمَ لا تؤمنون والرّسول محمّدٌ ﷺ يَدْعوكُم إلى الإيمان باللّه، والإقرار بوحدانيَّته، فالحالُ كونُكُم مدعوّين إلى الإيمان[2].

بلاغة التّعبير بالجملة الحاليّة في قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾:

دعـــوةٌ من الرّسول ﷺ لا تَنْقَطِعُ، ومكابرة وعنادٌ لا يَخْضَعُ

في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ تتجلّى بلاغة الجملة الحاليَّة؛ إذ تُصوّر حالًا قائمةً تفضَحُ العِناد، وتكشِفُ مكابرَةَ القلوب، فالدّعوة قائمَةٌ، والرّسول بيْنَ أظهركم يُناديكُم إلى الإيمان بربّكم، ويُتلو عليكم من آيات المولى سبحانه ما فيه بلاغٌ كافٍ، وحجّة قاطعة، تدحض الشّبهة، وتقطع المعذرةَ، فما المانع إذن؟! إنّه العناد مع حضور البرهان، والمكابرة على الرّغم من وضوح الحقّ[3]. ودعوةُ الرّسولِ الواقعةُ حالًا جاءتْ توبيخًا لهم على كفرهم مع قيام ما يوجب الإيمانَ ويدعو إليه، بعد أن وقع التّوبيخُ أوّلًا على مجرّد ترك الإيمان، فكيف يُستساغ الإعراض، والرّسول بين أظهركم يدعوكم، ويُنبّهكم، ويقيم عليكم الحجّة؟! فأيّ عذر يبقى بعد ذلك؟[4]. وهذه الدّعوة فيها إيحاء بليغ على استبعادِ تَرْكِ الإيمان مع قيام موجبه الأقوى؛ فإنّ صَدْعَ الرّسول ﷺ بالدّعوة، وظهورَ آياتِ نبوّته الباهرة[5]، ممّا لا يدع في النّفس ريبًا، ولا في العقل شبهة، فكيف يُتَصَوَّرُ بعد ذلك الإعراض، وقد اجتمع السّبب الظّاهر والبرهان القاهر؟!.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾ معرّفاً بـ (أل):

الرّسول المعلومُ يُـكـرّر الـنّـداءَ، فـلـيـس بـعـد البيانِ إلّا الجفاءُ

اللّام في لفظ ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾ للعهد العلميِّ؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 454.
(2) الكرماني، غرائب التفسير: 2/ 1184.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 205.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 442.

الرَّسول المعهود المعلوم لديكُم، المعروف بينكم بصفاته وأمانته ودعوته. وكأنَّ المعنى: والرَّسول الذي لا تجهلونه، صاحبُ الدَّعوة الظّاهرة، يدعوكم دعوةً متكرِّرة إلى الإيمان بربِّكُم(1).

دلالة التّعبير بالدّعاء في قوله: ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ مادّة وصيغة:

نداء متكرّر من هادٍ مطهَّر؛ قد حفّته الآياتُ وزَكَّتْه السِّماتُ

جاء التّعبير بالفعل ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ للدّلالةِ على تلاوة "الكتاب النّاطق بالبراهين؛ ليجمع بين دليلَي النّص القاطعِ والعَقْلِ الهادي"(2). وجيءَ به مضارعًا للإفصاحِ عن نداءٍ متكرّر، لا يفتر صباحًا ولا مساء، ودعوةٍ لا تنفكّ عن الرَّحمة، تَصْدُر ممَّن هو أحقّ بالقبول: مَنِ اكتملَت في شخصهِ أسبابُ الهداية، وظهرت على يديه الآياتُ الباهرات، وحَسُنَ سمتُه، وعظُم قَدْرُه(3).

معنى اللّام ودلالتُها في قوله: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ﴾:

دعـوة الرّسـول إلى الإيمان: فتْحُ بـاب الـرّضـوان والجنان لَكُمْ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ لإفادةِ التّعليل؛ فهي دعوةٌ إلى الإيمان بربّكم لتفوزوا بما وراءه من رضوان وجنّة وغفران، فالإيمانُ هوَ سبيل النّجاة(4)، ومفتاح الرّحمة، ورسولُ اللّه ﷺ هو الدّاعي إلى هذا الخير العميم، والبشير بمغفرة لا تُردّ لمن أجاب. ويجوز في اللّام في قوله تعالى: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ أن تكون مفيدةً انتهاءَ الغاية بمعنى (إلى)؛ أي: لتصلوا بإيمانكم إلى ربّكم(5)، فليست الغايةُ مجرّدَ الإقرار المستلزمِ للإذعانِ، بل التّوجّه القاصد، والسّير الحثيث نحو مرضاة الرّبّ، فكأنّ الإيمان طريق موَصِّلٌ، ومنهج متَّصِل.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 442.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 233.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 264.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 236.
(5) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 354.

معنى الباء ودلالتُها في قوله: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾:

ملابسة الإيمان بربّهم ومصاحبتُه دليلُ الإذعانِ الكامل

الباءُ في قوله تعالى: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ تحتَمِلُ أن تكون على معنى المصاحبة والملابسة، وهو من أبلَغِ معانيها وأشهرها[1]، فتجيء لتدلَّ على أنّ الإيمان المطلوبَ ليس مجرّد تصديق عابرٍ، بل صلة وثيقة، ومخالطة روحيّة، ولباس لا يُخلع، وفي ذلك استدعاءٌ للإذعان الكامل، والاندماجِ الوجدانيّ، والاتّصال العميق بين العبدِ وربّه.

سرّ العدول عن الاسم الأحسَنِ (الله) إلى اسم الرَّبِّ في ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾:

من الألوهيّة إلى الرّبوبيّة: لطفٌ وتشريفٌ وبه للأمّة عزّ وتعريفٌ

عُدِلَ عن الاسم الأحسن (الله) إلى التَّعبير بصفة الرّبوبيَّة في قوله: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾؛ لأنَّهُ لمّا كان الرَّبُّ هو السيّدَ المتكفّل بالتَّربية والهداية، وقد أحسن إليكم حينَ جعلَكُم من أمَّة هذا النَّبيِّ الكريم ﷺ وشَرَّفكم باتِّباعه[2]؛ عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن التَّعبير بالاسم الأحسَن (الله) إلى لفظ الرّبوبيَّة ليُذكّرهم بأفضاله، ويستحضر معاني الرِّعاية والتَّربية والتَّوجيه، بما يناسب مقامَ الدَّعوة والامتنان.

غرَض الإضافة في قوله: (ربّكم):

دعوةُ قربٍ ووصالٍ، وفي الإضافةِ تحبيبٌ ودَلالٌ

أُضيف لفظُ الرّبّ إلى المخاطبين إشارةً إلى أنّه هو الذي تولّى أمرهم، وتعهّدهم بالرّعاية منذ النّشأة، وأحسن تربيتهم، وأرشدهم إلى سُبُل الهداية، وقام على شؤونهم، فهو السّيد والقيّم والمربّي والمرشد. وفي هذه الإضافة ترقيقٌ في الخطاب وتَلْيينٌ في الطّلب[3] حتّى يصبح أكثر قربًا وأشدّ تأثيرًا، كأنّه يذّكرهم بهذه الصِّلة الوثيقة، والنّعم الجسيمة التي تستوجب الشّكر والإذعان، فيأتي نداءُ الإيمان مغلّفًا بهذا اللّطف، مُحمّلًا بذكرى الإحسان.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 140.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 264.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 229.

سِرُّ التَّقييد بالجملة الحاليَّة ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾:

حال الدّعوة إلى الإيمان بعد أخذ الميثاق ونصب الأدلَّةِ

الجملة من قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ في موضع الحال[1] أي: يدعوكم إلى الإيمان، والحال أنّ اللّه سبحانه قد أخذ ميثاقكم عليه من قبلُ، وذلك بما نصبَهُ لكم من الأدلَّةِ، وما منحكم من أدوات النّظر والتّأمّل[2]، فالدّعوة قائمة على ميثاق سابق، وحجّة ساطعة. ويجوز أنّ اللّهُ سبحانه قد ﴿أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ حينما أخرجكم من صُلب آدم عليه السلام، آخذًا عليكم العهد الأزليّ بأنّ اللّه ربّكم، لا إله لكم سواه[3]، فجاءت الحال لتستدعيَ مشهدَ الميثاق الأوّل، وتُذكّرَ النّفوس بما وُقِّع في عالم الذّرّ من إقرار ربانيّ.

دلالة دخول (قد) على الفعل الماضي:

تأكيد الميثاق الإلهيّ، وتوبيخٌ بحقيقة ماضيةٍ لا مفرّ منها

دخول (قَدْ) على الفعل الماضي يُفيد التّوكيد والتّحقيق[4]، والوارد في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ فيه تنبيه على أنّ أخذ الميثاق أمرٌ ثابت لا شكَّ فيه، وأنَّهُ واقع لا محالة، يُحتجّ به عليهم في مقام التّوبيخ والإنكار، فالآية تُذكّرهم بحقيقة مؤكّدة سبقت دعوتهم؛ ليزداد وقْعُ الخطابِ في نفوسهم.

دلالة التّعبير بالأخذ مادّة وصيغة:

أخذُ الميثاق حجّة وإشهادٌ؛ فلا عذر لمَنْ عنهُ قَد حاد

التّعبير بلفظ ﴿أَخَذَ﴾ تشير إلى تحقّق الفعل وثبوته، فهو أخذٌ واقع لا شكّ فيه، فصار من أعظم ما يُسْتَنْكَرُ تركُه، والإعراض عنه؛ لِما اقترن به من وجوهِ التّوثيق، كإقامة الحجج، ونصب الأدلَّة، وهو متّصل بأخذ الميثاق الأوّل من ذريَّة آدم عليه السلام، وإشهادهم على أنفسهم، وإشهاد الملائكة عليهم[5]، فكيف يُترَك بعد كلّ ذلك؟.

(1) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 10/ 236.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 205.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 27.
(4) الزمخشري، المفصل، ص: 433.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 264.

سرّ التّعبير بالميثاق دون العهد في قوله: ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾:

الميثاق أوكَدُ مِنَ الحَلِفِ وأبلَغُ من القسم واليمين

عُبِّر بالميثاق دون العهد في قوله تعالى: ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾؛ لأنّ الميثاق في لغة العربِ أقْوى من العهد، بل يفوقُ الحَلِفَ واليمينَ توكيدًا[1]، وقد اختير هنا للدّلالة على عِظَم ما أُخذ عليهم؛ وهو ما نُصب في العقول من أدلّةِ الفطرة، والبراهين العقليَّة الموجبة لتصديق دعوة الرّسل، وهي أدلَّةٌ راسخة في الأفهام، قاطعة في الحُجج. وعُبِّرَ "بلفظ الميثاق دون العهد في قوله تعالى: ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾؛ لأنّ الميثاق هاهنا ليس عقدًا متبادلًا بين طرفين متكافئين، بل هو ميثاقٌ مِنَ اللّه تعالى أودَعَهُ في الفطرة لا بطريق الخطاب اللّفظيّ، بل بالخطاب التّكوينيّ؛ إذ ألقى في جبلّة كلّ نسمة شهادةً فطريّة بوجوده ووحدانيَّته، قبل أن تُكلَّف بالعقل[2]. "وقد اختير فعلُ الأَخْذِ لإفادة الجزم والإلزام[3].

غرض الإضافة في قوله: ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾:

الميثاق عهد عليكم، والوفاء به لازم لديكم

أُضيف الميثاق إلى ضميرِ المخاطبين مواجهةً لَهُم و إلزامًا، فهم أصحابُ العَهد والمَعْنيّين به، والعُرف يقتضي نسبةَ الميثاق إلى من وقع عليه الالتزام؛ ولذا أُضيفَ إليهم، فالميثاق يُضاف إلى المعاهِد - بكَسْرِ الهاء -[4]؛ فهو الذي قُيّد بالعهد، والتزمَ بِمَضْمونِه.

تنوُّع القراءات في قوله: ﴿أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾:

جلال الخطاب في غيابِ المُخْبِرِ: توبيخ أشدّ ووقع أهْيَبُ

في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ قراءتان؛ إحداهما: قراءة الجمهور ببناء فِعْلِ الأخذ للفاعل، ونصب الميثاق. وقرأ أبو عمرو البصريّ بالبناء للمفعول ﴿أُخِذَ﴾؛ فيكون الميثاق مرفوعًا ﴿مِيثَٰقُكُمْ﴾[5]، والآخذ على كُلٍّ هو اللّه تعالى، وهو الذي تولّى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 450.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 443.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 443.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 384.

الأَخْذَ ساعةَ الإخراج من صُلب آدم. ووَرَدَ الفِعْلُ على هذه الصّيغة لما فيها من شدّة التّوبيخ، وإغلاظ الخطاب؛ إذ توحي بأنّ الفعل قد نُفّذ قهرًا دون تسميةِ فاعله، فيكون أوقعَ في النّفس، وأشدّ هيبة، كما جاء في نظيره من قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: 112]، فالصّيغة تُحمّل المأمور ثِقَلَ التّكليف وجلالَهُ، كما تقول: افعلْ كما قيلَ لك، فهو أبلغُ مِنْ قولِك: افعلْ ما قلتُ لكَ[1].

بلاغة التَّعبير بالمجازِ في قوله: ﴿أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾:

تمثيلُ حالِ مَن قامَت عليه الحُجَجُ والبراهينُ

قوله تعالى: ﴿أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ من باب المجاز؛ إذْ ليسَ الأخذ هنا على حقيقتِه الحسّيّة، وإنّما هو تمثيلٌ لحالِ مَن قامَت عليه الحُجَجُ البيّنة، وتجلّت له آياتُ اللّه الواضحة، فصار علمُه بالحقّ، وثبات الدّليل في قلبه، بمنزلة عهدٍ وميثاقٍ مأخوذٍ مِنْهُ[2].

دلالةُ تخالُفِ الفعلَيْنِ مضارعًا وماضيًا في الآية:

الإشارةُ إلى تجدُّد الدَّعوة وتحقُّق الميثاق

جاء التَّعبير عن فعل الدَّعوة بصيغة المضارِع، وعن أخذ الميثاق بصيغَةِ الماضي؛ لإفادةِ التَّجدُّد في الأوَّلِ، وإفادةِ التَّحقُّقِ في الآخَرِ؛ إذ الرَّسول ﷺ يدعو الأمَّةَ دعوةً مستمرَّةً لا تنقطِعُ، فكان التَّعبيرُ بالمضارِعِ أنسبَ؛ لدلالتِهِ على الاستمرارِ التَّجدُّدي، بخلاف أخذ الميثاقِ؛ فقد وقع في عالَمِ الذَّرِّ وانقضى، فكان التَّعبيرُ بالماضي أنسبَ لدلالَتِه على التَّحقُّقِ.

سرّ التَّرتيبِ بين دعوةِ الرَّسول وأخذ الميثاق:

تشريف الرّسالة لجلالها، وإن سبقَها الميثاقُ في زمنها ومقالِها

جمع في الآية بين دعوة الرّسول: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ وأخذ الميثاق: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾؛ لأنّ كليهما شرطٌ أساسٌ في توبيخهم على ترك الإيمان[3]، وهو جمع يَحْمِلُ توبيخًا مركّبًا، يتضاعَفُ أثرُه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 258.

(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 234.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 450.

بتلاقي الدّليلين؛ وهما الدّعوة القائمة الحيّة من الرّسول، وميثاقٌ سابق معقود، فاجتمعت الحجّة الظّاهرة والدّعوى الباطنَة.

وفي تقديم قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾ على قوله: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾، مع أنّ أخذ الميثاق سابِقٌ على دعوة الرّسول، إنّما هو من باب تقديم دليلِ السّمع على دليل العقل، تشريفًا للرّسالة وتعظيمًا لمنزلتها[1]؛ إذْ إنّ دعوةَ الرّسول تمثّل النّداءَ المباشر بالحجّة البيّنة، والبيان الظّاهر، فكانت أولى بالتّقديم، لا لسَبْقِها في الزّمان، بل لعلوّها في المقام.

سرّ إضمار الفاعلِ في قوله: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾:

إذا زال العنادُ؛ نطقت الفطرة بوحدانيَّة اللهِ سُبحانه

أُضْمِرَ الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾، وهو عائد إلى الاسم الأحسن (الله) في قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ تنبيهًا على أنّ الآخذ للميثاقِ هو اللّهُ تعالى دون سواه، في موضعٍ يُعلي فيه جلالُ الفعل عن التّصريح بالفاعل؛ إذ المقامُ مقامُ تذكيرٍ بعهد ربّانيّ مغروس في الفطرة، فلو لَم تُطْمَسِ البصائرُ بعِنادٍ، أو تُلفّع بالغواشي من تضليل أئمة الكفر؛ لانساقت النّفوس عفويًّا إلى الإيمان بوجود الخالقِ ووحدانيّته، وقد جاءهم من نور دعوة الرّسول ﷺ ما يكشف الحُجُب، ويوقظ المُدْرَكاتِ من سُباتها[2].

دلالةُ تعقيبِ الإنكار بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

إذا كان من الإيمان دواعي الاجتماع؛ فليس على النّفوس الامتناع

أورد النَّظم الكريم جملةَ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ عَقِبَ الإنكارِ في قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ﴾؛ لتكون بمنزلة تحقيق المناط، وتثبيتِ الحجّة؛ أي: إن كنتُم حقًّا تَعْتَزِمون الإيمانَ، أو تدّعون الرّغبة فيه؛ فكيف يُعقل أن تُعْرِضوا عنه، وقد اجتمَعَت دواعيهِ وتظاهَرَت براهينُه؟ فالميثاقُ مَرْكوزٌ في فِطَرَتِكُم، والحُجَجُ قائمَةٌ في عُقولِكُم،

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 233، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 170.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.

والدّعوة قائمة على لسانِ رسولٍ مشهودٍ له بالصّدق والأمانة، فدلّ الخطابُ على عموم الحجّة، موجّهًا للمؤمن وغير المؤمن[1].

سرّ فصل جملةِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ عمّا قبلَها:

دعــــوةٌ إلى الإيمان بسطوع الحُجَجِ، ونُطْقُ الأعـلام بنبوّة خير الأنام

وقعت جملة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ موقعَ الاستئناف[2]؛ إذْ هي ابتداءُ كلامٍ جديدٍ، لا تعقيب مباشر على ما قبلها، جاءت لتوقِظَ الضّمير وتستنهضَ البصيرة؛ فهي دعوة إلى الإيمان الحقّ، لا محض ادّعاء، بل بإيمانٍ راسخ بحقيقة الإسلام، وتصديق جازم بنبوّة المصطفى ﷺ، وقد قامت على ذلك البراهينُ السّاطعة، والأعلام الواضحة[3]، فلا عُذْرَ لمُكابِرٍ، ولا حجّة لمُنْكِرٍ.

دلالة التّعبير بـ ﴿إِن﴾ الشّرطيّة:

شـرطُ الإيمـانِ تعليلٌ للبيانِ وتوكيدٌ للبرهانِ

التّعبير بـ ﴿إِن﴾ الشّرطيّة في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وارد مَوْرِدَ العلّة والسّببيّة يجيء به الموثّق بأمره، المتحقّق بصحّته، ومنه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٧٨﴾ [البقرة: 278]، فالكلام هنا مع المؤمنين إلّا أنّه جارٍ على طريقة التّوبيخ والتّقريع؛ لأنّهم مؤمنون حقًّا بدليل خطابِهم في صَدْرِ الآية بالإيمان[4].

دلالة التّعبير بفعل الكَوْنِ ﴿كُنتُم﴾:

بـيـانُ ثـبـاتِ الإيـمـانِ ورسوخِه

قولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن دُمْتُم على ما كان مِنْكُم من إيمان أوّل مرّة[5]، ففي فعْلِ الكَوْنِ ﴿كُنتُم﴾ إشعار خفيّ بالاستمرار والثّبات. وفيه استدعاءٌ للمُضيِّ على النّهج، وتنبيهٌ إلى أنّ الإيمان الحقّ ليس ومْضَةً عابرة، بل عهدٌ دائم، ومسيرةٌ

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.
(3) الثعلبي، الكشف والبيان: 9/ 231.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 236.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 258.

لا تنقطع. فإنَّ اللّه تعالى لّما حثّهم على تجديد الإيمان على وجه الاستمرار، وجاء التعجّبُ من تركه مع وضوح موجباته، وكان كلّ منهم يدّعي الأصالةَ في الخير والسّبقَ إليه؛ جاء قوله: ﴿كُنتُم﴾ ليهيّج مشاعرهم، ويوقِظَ فِطْرَتَهُم، كأنّه يقول: إنْ كان الإيمانُ جِبِلَّةً لَكُم، ووصفًا راسخًا فيكم، فأين آثارُه؟ وأين وفاؤُكُم بميثاقِهِ؟[1]

سرّ التّعبير بِاسْم الفاعل ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾:

بيانُ عراقَتِهِم فـي الإيـمـانِ وتَجَذُّرِهِم فيه

عُبِّر باسم الفاعل ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ دون الفعل في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنّه مستعمل بمَعْنى الاستقبال، بدلالةِ وُروده في سياق الشّرط؛ أي: إن حَصَلَ مِنْكُم الإيمان بعد أن تهيّأت أسبابُه الظّاهرة بالأدلَّةِ والبراهين الظّاهرة والخفيَّة بما أودعه اللّه في الجِبِلَّةِ من فطرةٍ ناطقةٍ بالتّوحيد والتّصديق[2]. كما أنَّ التّعبير بالاسْم يوحي بالرّسوخ والثّبات في الوصف، كأنّما يُخاطِبُهُم بوَصْفِهِم أهلَ عراقَةٍ في الإيمان، متجذّرين فيه على نور الفِطْرَةِ الأولى[3].

الغَرَضُ من حَذْفِ جوابِ الشّرط:

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ فدَعوا الجوابَ للعقل واليقين

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ جملة الشّرط[4]، وجوابها محذوف، وحُذِفَ ليَذْهَبَ فيه التّصوّر والفكر كلّ مذهب، وآيةُ ذلك تقديرهُ بغَيْرِ مَعْنًى مِن لَدُن المفسّرين[5]؛ حيث يجوزُ تقديره على أوجهٍ، من مثل: فما يمنَعُكُم من الإيمان. أو لموجِبٍ ما؛ فهذا هو الموجب. أو فأنتُم في رتبة شريفة. أو إن كنتم عازمين على الإيمان؛ فهذا أوانه لِما ظهرَ لَكُم منَ البراهين والأدلَّةِ، أو غير ذلك مِنَ المعاني.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 265.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 265.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 463.
(5) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 234، ومكي القيسي، الهداية: 11/ 7309، والزمخشري، الكشاف: 4/ 473.

الغرَضُ من حذف متعلّق ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾:

أُطْلِقَ الإيمانُ؛ ليشمَلَ كُلَّ حجّة ويعمَّ كلَّ برهانٍ

حُذِفَ متعلّق الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ لإرادة الإطلاقِ والتّعميم، فجاء التّعبيرُ مُجملًا لا ليُبهم المعنى، بل ليُعمّق الدّلالة؛ إذِ المَقْصودُ: إن كنتُم تؤمنون بشيء لأجل دليلٍ وبرهان[1]؛ إذ يجعل كلّ دليلٍ سابق حجّةً عليهم، ويُقيم عليهم البرهان. ويجوز أن يكون الإيمان هنا مرادًا به القبولُ المستلزم للإذعانِ؛ فيكون حذفُ متعلِّقهِ إشارةً إلى تعميمهِ وتوسيعِه، فكأنّما يُقال: إن كنتم من أهل القبولِ والإذعانِ على وجهِ الإطلاق، لا في مسألة بعينها، بل في كلّ ما يجِبُ الإيمانُ به والإذعانُ لَهُ.

دفع توهّم التّعارُضِ:

لا تـنـافيَ بين الإيمانَيْن؛ فإنّه تجديدٌ لِما ثبَتَ ودوامٌ عليهِ وازديادٌ مِنْهُ

لا تعارض بينَ قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ وقوله سُبحانَهُ: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ﴾؛ ذلك أنّ الخطاب في الآية يُبنى على اعتبارِ ثبات الإيمان الأوّل؛ أي: إن كنتُم لا تزالون على إيمانكم باللّه الذي أخذ ميثاقَكُم عليهِ وأنتُم في ظهور آبائِكم؛ فما الذي يَمْنَعُكُم من الإيمان بدعوة الرّسول، وهي دعوةٌ لا تزيد على تأكيد ذلك الإيمانِ ذاتِه؟ فكأنّ المعنى: إن كنتم مؤمنين باللّه حقًّا؛ فما بالُكُم لا تصدّقون رسولَهُ وتؤمنون بما يَدْعو إليهِ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الميثاق والعهد:

الميثاقُ أخَصُّ مِنَ العَهْدِ

درجَ جمعٌ مِنْ أصحاب المعجماتِ على التَّسوية بينَهُما[3]، وأرادوا بذلك التَّقريبَ على عادتِهم في ذلك.

والتَّحقيق أنَّ بينَ العهدِ والميثاق فرقًا؛ وهو أنَّ أصلَ الميثاقِ: العهدُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 451.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 752.
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (وثق).

المؤكَّدُ[1] أو المؤكَّد بخصوص اليَمين[2]؛ وعلى كِلا الاحتمالَيْن فإنَّ العَهْدَ أعَمُّ مِنَ الميثاقِ مطلقًا، فكلُّ ميثاقٍ عهدٌ، وليس كل عهدٍ ميثاقًا.

ويدُلُّ لهذا الفرقِ الاشتقاقُ اللُّغويُّ؛ فإنَّ الميثاقَ مِنْ قولِهم: أوثقتُ الشَّيءَ؛ أي: أحكمتُهُ[3].

وذكر الشَّوكانيّ فرقًا آخرَ بينَهما[4] لا يرجع إلى اللُّغةِ؛ وهو أنَّ العهدَ: جميع ما عَهِدَ اللّٰهُ على العبادِ مِن الأوامرِ والنَّواهي، والميثاقَ: ما أخذه اللّٰه تعالى على عبادِه حين أخرجَهُم مِنْ صُلْبِ آدمَ في عالم الذَّرِّ؛ وهو الواردُ في قول اللّٰه سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: 172].

فاستعمال لفظ الميثاق في الآية بدلًا مِنَ العهد؛ لما في الميثاق من الدّلالةِ على التّوثيق والتّشديد؛ فهو عهدٌ مؤكّد ومُحْكَمٌ.

(1) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللُّغوية، ص: 525.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 206.
(3) ابن القطّاع، كتاب الأفعال: 3/ 304.
(4) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 94.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾ [الحديد: 9]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

وحدانيّة الرّبّ تدعو إلى الإيمانِ، وآيات النّور تهدي من الضّلال إلى الإحسان

في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ ذَكَرَ اللّهُ سبحانه صفةَ الرّبوبيّة العظمى، واستحقاقَهُ للإيمان بها، فتسَبَّب عن ذلك أن استدلّ بقوله: ﴿هُوَ﴾ أي: المتفرّد بالوحدانيّة ﴿ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات كالشّمس في رائِعَةِ النّهار على عبده المصطفى ﷺ الذي هو أخصّ الخلق بمجالسة أنوار جماله؛ إذ ما عَبَدَ سواه طرفةَ عين؛ ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ من ظلمات كُفركم وجهلكم التي تتقلّبون فيها كالبهائم ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الهادي الذي هو صفة روحهِ القُدسيّة، وفطرته الأولى التي فطر الخلق عليها[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَبْدِهِۦٓ﴾: أصل (عبد) يدلُّ على اللّين والذّلّ[2]، والمقصود بالعبادة في الآية فِعْلٌ يدلّ على الخُضوع والتّذلّل أو التّعظيم، ومنه قولهم: طريق معبَّد؛ إذا كان مذلَّلًا من تأثير النّاس فيه، فهو سَهْلٌ مذلَّل؛ لكثرة وطْءِ الأقدام عليه[3]. وقولهم: فلانٌ عبدٌ للّهِ؛ أي: مملوك له، ويُجْمَعُ على عبيدٍ وعبادٍ[4]، والعبودية: إظهارُ التّذلُّل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنّها غاية التّذلُّل، ولا يستحقّها إلّا من له غاية

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 262.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 7.

الإفضال؛ وهو اللّه تعالى[1]. ومعنى ﴿عَبۡدِهِۦٓ﴾ في الآية: رسولُ اللّه الذي عَبَدَ ربّه حقّ عبادته حتّى أتاه اليقين من ربّه، وهو سيّدنا محمّد ﷺ[2].

2) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: جَمْعٌ بالألف والتّاء، ومفرده: الظّلمة، وجَذْرُهُ اللّغويّ: (ظلم)، والأصل فيه دلالتُهُ على خلافِ النّور، ووضْعُكَ الشّيءَ في غير موضعه الخليق به، ومنه ظلامُ اللَّيل. والجامع بينَ معنيي الظّلم والظّلام: عدمُ الإبصار، والظّلمات قد تكون بمعنى الكفر، وقد تكون بمعنى الأهوال، فضلًا عن الظّلمة بعينها، "والظّلم عند أهل اللّغة وكثير من العلماء وضع الشّيء في غير موضعه المختصّ به؛ إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدولٍ عن وقته أو مكانه، ومِن هذا يقال: ظلمت السّقاء: إذا تَناوَلْتَه في غير وقته"[3]. ومعناه المحوريّ: أنْ تحجب ما ينبغي، وما يكون مستحقًّا من المنع والانتقاص، كما يمنع الضّوء، وكما يُمنع المطر عن الأرض[4]. ومعنى ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في الآية: ضلالات الشّرك وظلمات الكفر[5].

3) ﴿ٱلنُّورِۚ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد، وجذره اللّغويّ: (نور)؛ وهو الضّياء، والفعل: نارَ وأنار؛ أي: أضاء، والنَّوْرُ: زهر الشّجر، وتنوير الشّجرة: إزهارُها، وأصلُ المادَّةِ "يدلُّ على إضاءة واضطرابٍ وقلّة ثبات"[6]. والوضوحُ والنّقاء من معاني النّور؛ ولذلك وردَ في الخبَرِ أنّ عمر رضي الله عنه فرض للجدّ، ثمّ أنارَها؛ أي: وضّحها وبيّنها[7]. والنّور هو: الضّوء المنتشر الذي يُعين على الإبْصار، وذلك ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة؛ وهو ما انتشر من الأمور الإلهيَّة، كنور القرآن. ومحسوسٌ بعَيْنِ البصر[8]، ومعنى ﴿ٱلنُّورِۚ﴾ في الآية الكريمة: هو الإيمان[9].

4) ﴿لَرَءُوفٞ﴾: (رأف) تدلّ على رقّة ورحمةٍ، ومِنْهُ الرّأفة؛ وهي أشدّ الرّحمة، أو

---

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عبد).

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 173، والواحدي، الوسيط: 4/ 245، وابن جزي، التسهيل: 2/ 344،

(3) الراغب، المفردات: (ظلم).

(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وأبو هلال العسكري، الوجوه والنظائر، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم)،

(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 173.

(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).

(7) الهروي، الغريبين: (نور)، وابن الأثير، النهاية: 5/ 125.

(8) الراغب، المفردات: (نور).

(9) الخازن، لباب التأويل: 4/ 247.

أرَقُّها[1]. والرَّحمة والرَّأفةُ كلاهما من الصِّفاتِ الثّابتةِ لربِّنا سُبحانَهُ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة: 143][2]، واسم الفاعل ﴿لَرَءُوفٞ﴾ هنا جاء للمبالغة على زنة (فَعوْل) "أي: لذو رأفة ورحمة بكم، ومن رأفته ورحمته أنزل الله عليكم آيات بيّنات"[3].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تنـزيـل الآيـات البيّنـاتِ يبدّد الـظّـلـمـاتِ، وإرسالُ الرّسول رحمةٌ تَهْدي إلى الجنّات

هو ذو الجلال والإكرام الذي يُنَزِّل على عبده المصطفى ﷺ آياتٍ بيِّناتٍ واضحات؛ هي هذا القرآنُ المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ليُخرجَكم أيّها العبادُ بقُدْرَتِه وحكمته من ظُلُماتِ الجَهْلِ والضّلال، والكفر والعصيان، إلى أنوار الهدى والإيمان، والتّوبة والاستبصار؛ فهو بكم رؤوفٌ رحيمٌ بما يَسَّر لكم سبل النّجاة، بعد أن أقام عليكم الحجّة بالعقول السّليمة، ثُمّ أرسل إليكم خيرَ رسُلِه، وأنزل عليكم أفضل كتبه، رحمةً منه ولطفًا وإحسانًا[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ﴾:

استئناف انتقاليّ وتخلّص بلاغيّ مـن خـطـابِ الإنـكـار إلى خطاب الإيمانِ

فُصِلَت هذه الآية عمّا قبلها؛ لأنّها جملة استئنافيَّة[5]؛ انْتُقِل بها من الخطاب العامّ إلى توجيه أنظار المؤمنين لآيات الله البيّنات، وهي تعدّ مفتتحًا للآيات المدنيّة في السّورة، وإذا كان ظاهرُها ينسجم مع تقرير معنى الجملة السّابقة ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾، فإنّ نظمها البلاغيّ وما

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (رأف).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رأف).
(3) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7309.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 313.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 464.

عُطِف عليها يُظهران انتقالًا بديعًا إلى خطاب المسلمين، مع إيحاءٍ لطيف بتأكيد المعنى السّابق من خلال اتّحاد المَعْنَيَيْنِ وانسجامِهما في السّياق الإلهيّ المحكم[1]، وهو مِن حُسْن التّخلّص المعروف عند البلاغيّين[2]. ففي الآية نجِدُ انتقالًا بلاغيًّا من تقريرِ عدَم إيمان المعاندين إلى خطاب المؤمنين، مع حفظ الاتّصال بين المَعْنَيَيْن.

بيان فضل الله في إنزال الآيات، ودعـوة العباد إلـى تـجـديد الميثاق

سرّ التّعبير بالضّمير ﴿هُوَ﴾:

في التّعبيرِ بالضّمير ﴿هُوَ﴾ بدلًا من الاسم الأحسَنِ (اللّه) إشارةٌ إلى التّعظيم والتّفخيم، وفيه تذكيرٌ بفَضْلِه المتجدّد على عباده، وتجديدٌ لدَعْوَتِهم إلى الإيمان، كأنّما يُعيد لهم عَرْضَ الميثاق الذي نَقَضوه، ليوثّقوه من جديدٍ بنورِ الآيات البيّنات[3]، فهو سبحانه المُنْفَرِدُ بإنزال الآيات البيّنات على عبده المصطفى محمَّد ﷺ، آياتٍ جليّةِ الحجَّة، ساطعةِ الدّلالة[4]، لا يلتبس نورُها على بصير، ولا يُدفع برهانُها إلّا عن مكابرٍ.

تـعـظـيـمُ شأن الـفـاعـلِ ومـدحُ جـمـالِ الـفِـعْـلِ الكاملِ

دلالة التّعبير بالصّلة والموصول ﴿ٱلَّذِى يُنَزِّلُ﴾:

اسْتُعْمِلَ الموصول مع صِلَتِه ﴿ٱلَّذِى يُنَزِّلُ﴾؛ إيذانًا بتعظيم شأن الفاعل، ومدحًا لجلال فعله[5]، فكأنّما أُسند التّنزيلُ لا إلى الاسم الموصول، بل إلى وصفٍ عظيم يملأ السّمع مهابةً، ويملأ القلبَ يقينًا.

في الآيـات نـزولٌ وبيانٌ، لا وحيٌ خفيٌّ وكِتْمان

سرّ التّعبير بالإنزال دون الوحي:

عبّر القرآنُ الكريم بالإنزال بدلًا من الوحي في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ لتأكيد أنّ هذه الآياتِ البيّنات

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 371.

(2) في اصطلاح علماء البيان أن يبدأ الكاتب بذكر معنى معين لا يقصده لذاته، ثم ينتقل منه بانسياب إلى المقصود، فتكون بين المعنيين علاقة وارتباط يضمنان سلاسة الانتقال دون انقطاع، يُنظر: يحيى العلوي، الطراز: 2/ 173.

(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 753.

(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 331.

(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 332.

ليست مجرّد إلهاماتٍ خفيّة خاصّة بالرّسول ﷺ، بل هي رسالةٌ ظاهرة ومحسوسة، فيها براهينُ واضحة وحجَجٌ ظاهرَةٌ لجميع النّاس، ممّا يدلّ على عَظَمَتِها وشموليَّتها، وكونِها هدايةً عامّة، وليست محضَ اتّصالٍ سرّيّ.

معنى الإنزال على صيغة التّفعّل:

نزول لا يَزالُ في إشراقةِ الوحي حالًا بعد حال

في إيراد فعلِ الإنزال بصيغة التّفعّل ﴿يُنَزِّلُ﴾ إشارةٌ إلى أنّ القرآن الكريم لم ينزل دفعة واحدةً، بل كان يتنزّل شيئًا فشيئًا، وحالًا بعد حال[1]، على مدّة زمنيّة؛ بيانًا لحكمة اللّه في تربية عباده، وتثبيت قلبِ النّبيّ ﷺ، فالصّيغة تدلّ على التّجدّد والتّكرار؛ إيذانًا بأنّ التّنزيل كان يتنزّل على عبده ﷺ نُجومًا متتابعة[2].

تنوُّع القراءات بالتَّخفيف والتَّشديد في قوله: ﴿يُنَزِّلُ﴾، وثراء المعنى:

للقرآن تَنَزُّلانِ: تنزلٌ دفعيٌّ إلى بيتِ العزَّة، وتنزُّل تدريجيٌّ على النّبيّ ﷺ

﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتَّشديد هي قراءة العامّة، فيما قرأ ﴿يُنزِلُ﴾ ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوبُ - بإسكان النّون وتخفيف الزّاي -[3]: فقراءةُ التّضعيف واردة على سبيل التّدريج والتّكرار والموالاة بحسب الحاجة، وتلبية ما يحتاجونه من المصالح[4] التي تَعْرِضُ للمسلمين، ممّا يعكس حكمة بالغة في تربية الأمّة، ومواكبة الوقائع المتجدّدة بفيض من الهداية المتتابعة. فيما تدلّ قراءة التّخفيف على الإنزال دفعةً واحدة؛ وهو الإنزال إلى السَّماءِ الدُّنيا إلى بيتِ العِزَّةِ.

دلالة تعديةُ فِعْلِ التَّنزيل بـ﴿عَلَىٰ﴾ دون (إلى):

علوُّ التّنزيل وتشريفُ التّحميل

عُدّي فعل التّنزيل بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ دون (إلى)؛ لأنّها تفيدُ العلوّ والتّمكّن والتّشريف، وهي أنسب لمقامِ نُزول الوحي من عند

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 754.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 332.
(3) النشار، البدور الزاهرة: 4/ 108 - 109.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 265، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 205.

اللّهِ الأعلى إلى عبدِه. وفيها إيحاءٌ بتكليف الرّسالة وتحمّل أعْبائِها، بخلاف (إلى) التي تفيد مجرّد الوصول والانتهاء في أشهر معانيها[1]، دون دلالةٍ على عظمة التّنزيل، وعلوّ مَصْدَرِه، ورفعةِ مُنْزِله.

سرّ التّعبير بالعبوديَّة في قوله: ﴿عَبۡدِهِۦٓ﴾ دون الرّسالة أو النّبوّة:

مقام العبوديّة أشرف المقاماتِ

التّعبير باسم العبد في قول اللّه تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ﴾ دون ذِكْرِ الرّسالة أو النّبوّة يُشيرُ إلى أنّ المقصود هو عبدُ اللّهِ بِحَقّ، الذي تجلّت فيه أسمى معاني العبوديّة والخضوع التّامّ، حتّى إنّ ذِكر العبد وحده كافٍ لأن يُفهم به ذاك المقامُ الجليل الذي لا يَبْلُغ مداه إلّا مَن اصطفاه اللّه برحمته وفضله، عبد تجلّت فيه عظمة العبوديّة، وشرف الرّسالة والنّبوّة في آنٍ واحد[2]، فذِكْرُهُ بلفظ العبوديَّة مقامٌ عظيمٌ لا يُدْرِكُ عظَمَتَهُ إلّا أهلُ القلوب القريبة، فلو كان للنّبيّ ﷺ اسمٌ أشرفُ منه؛ لذَكَرَه اللّه تعالى بِه، ولا سيّما في مقام الإسراءِ حين قال جلّ شأنه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، ولم يُذْكَر باسمِهِ الصّريح في القرآنِ إلّا قليلًا، فكان العبدُ عنوانَ تواضعِه وجلالَ مقامه، فإنّه لَمّا رَفَعَهُ اللّه إلى حضرته السَّنيّة، ورقّاه فوق الكواكب العلويّة؛ ألزمه اسم العبوديَّة تواضعًا ورفعةً، حاملاً لواء الرّحمة للأمّة كلّها[3].

غَرَضُ الإضافة في قوله: ﴿عَبۡدِهِۦٓ﴾:

تـجـلّي معنى الـعـبـوديَّـة الـخـالـصـة بين يَـدَي الـحَـضْـرَة الإلهيّة

لَمّا كان الخطاب في هذه السّورة موجّهًا للمُخْلِص؛ جاءت الإضافة إلى الضّمير بصيغة غيرِ مقرونةٍ بألقاب الجلال والكبرياء؛ فقال: ﴿عَبۡدِهِۦٓ﴾ دلالةً على أنّه أحقُّ النّاس بحضرة جماله وإكرامه؛ لأنّه لم يعبُدْ سواه قطّ، فتجلّى به معنى العبوديَّة الخالصة، التي ترفع

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 104.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 754.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 493.

صاحبَها إلى أسمى مراتب القُرْب والإجلال[1]. فهي إضافةٌ تفيض بأنوار التّشريف، وتعلو بمنار التّعظيم، وتزهو بثمار التّبجيل، وتتوّج بهالة التّفخيم، وتكلّل بإكليل التّكريم[2].

الغرَضُ مِن تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ﴾ على المفعول به ﴿ءَايَٰتِۭ﴾:

اختصاصُ اللهِ تعالى نبيَّهُ ﷺ بالبيّنات وشرّفه بالآيات الباهراتِ

تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ﴾ فيه دلالة فائقة على التّخصيص والحصر، وقمّة في التّشريف والتّكريم[3]، فكأنّ الآيات البيّنات التي تحمل في طياتها الهداية والنّور لم تُنَزَّل إلّا على قلب هذا العبد المصطفى وحده دون سواه، دلالة على عظيم منزلته، وجلال قدره عند اللّه، فهو وحده من اختّصه اللّه بهذا الإنزال العظيم؛ ليكون وعاءً لآياته، ومنارًا لهدايته.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ جمعاً منكّراً موصوفًا:

بين القدرة والعظمة والإعجاز والموعظةِ: تجلّت معانٍ بالتّشريف مكلّلة، وبالتّفخيم مجلَّلة

جيءَ بلفظ الآيات في قوله: ﴿ءَايَٰتِۭ﴾ بصيغةِ الجمع؛ تناسُبًا مع تعدُّدها وتنوُّعها، لأنّها في القرآن تُطْلَق على معانٍ شتّى؛ فهي دليلٌ قاطع على قدرة اللّه وعظمته، وتشمل المعجزاتِ الخارقةَ، كانْشِقاق القمر وعَصا موسى، كما تُطْلَق على المواعظ والعِبَر، وتُطْلَق على أجزاءٍ مِن كلام اللّه كالجُمَل، بل تُطْلَق على السّورة بتمامها.

وأمّا تنكيرُها؛ فيفيد التّفخيم والتّعظيم والتّهويل، فكأنّ هذه الآياتِ مِن عِظَمِها وجلالها لا يُمْكِنُ الإحاطة بكُنْهِها[4].

وفي وصف ﴿ءَايَٰتِۭ﴾ بـ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ دلالةٌ على كونها أدلّةً واضحاتٍ، لا شبهةَ في كونها من عند اللّه تعالى، لا من عند الخلق، وتَحمل في طيّاتها بيانَ أمرِه ونهيه، وتفصيل ما للنّاس وما عليهم، وما ينبغي أن يُؤتى وما يَجب أن يُتّقى، فهي بيّنات في مَصْدَرِها ومَضْمونِها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 265.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 332، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 493.
(3) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 344.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 493 - 494.

وهدايتها[1]. "والجمع بين الآيات والبيّنات هو إحكام في التَّعبير وتأكيد في الحُجّة؛ إذْ لو قيل ﴿ءَايَٰتٍ﴾ دونَ وصفٍ؛ لاحتمل أن تكون آياتٍ خفيّةَ الدّلالة، فيتذرّع بها مَن في قلبه زيغٌ ليردّها، ولو قيل ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ دون ذكر الموصوفِ؛ لفاتت دلالةُ المَصْدَرِ الرّبّانيّ الجليل، فجاء الجمعُ بينَهُما ليجمع شرفَ النِّسبة ووضوح الحُجّة، فهي آياتٌ من عند الله واضحاتٍ[2] لا يلتبس نورُها على بصير، ولا ينصرف عنها إلّا مكابر.

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾:

لامُ التّعليل وغايَةُ التّنزيل نورٌ يُبَدِّد الظّلام

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ لام التّعليل[3] تُفْصِحُ عن الغاية العُظمى والمراد الأسمى من إنزال الآيات البيّنات، التي تَشْمَلُ القرآنَ وسائرَ المعجزات؛ وهي إخراجُ العبادِ من ظُلُمات الجهل والضّلال والتّفرّق، إلى نور العلم والهداية والوحدة[4].

بيانُ مَرْجِع ضمير الفاعل في قوله: ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ ودلالتُه:

بلاغٌ مِنَ اللهِ تعالى ونداءٌ من الرّسول ﷺ

ضمير الفاعل في قوله تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ مستترٌ تقديرهُ: هوَ، ويحتمل أن يكون مرجِعُه عائدًا على الاسم الأحسَنِ، فيكون الإخراجُ مِنَ الله تعالى بآياته التي تنزّلت هُدًى ونورًا. ويجوزُ أن يكونَ عائدًا على الرّسول ﷺ، فيكون الإخراجُ بوساطة الدّعوة والتّبليغ[5]، وكلا الوَجْهَيْن يلتقيان في وحدة المقصِد وتمام النِّعمة؛ إذِ الله هو الهادي، والرّسولُ هوَ المبلّغ الهادي بإذنه.

سرّ التّعبير بالإخراج في قوله: ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ مادّة وصيغة:

لُطفُ العناية المتجدّدُ في الهدايةِ إلى قيامِ السّاعةِ

التّعبير بفعل الإخراج في قوله: ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ يشير إلى لُطفِ الله

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 517.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 205.

(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 332.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 451.

(5) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 201.

تعالى ورحمتِه بعباده بإخراجهم من الظّلمات إلى النّور[1]، في مشهَدٍ مِنَ الرّحمة المقرونة بالهداية، واللُّطف المضمّخ بالتّشريف، وجاء الفعلُ مضارعًا؛ فهو يُخْرِجُهُم دائمًا من بَدْءِ دَعْوَتِه إلى قيام السّاعة.

غَرَضُ التّعبير بضمير المُخاطَبِ من قوله: ﴿لِّيُخۡرِجَكُم﴾:

خطاب لإخراج الجميع من دَرَكِ الظّلمة إلى نور الهداية

جاء التّعبير بضمير الجَمْعِ المُخاطَبِ في قوله تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَكُم﴾ إيذانًا بإرادة إلهيّة عامّة، لا تَقْتَصِرُ على فئةٍ دونَ أخرى، بل تَشْمَلُ الجميعَ إخراجًا من الظّلمات إلى النّور لا من بعضهم. فجاء التّعبير شاملًا رحيمًا، وأكّده قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[2]. كما أنَّ فيه إشعارًا بالامتنان والإنعام.

دلالة ﴿مِّنَ﴾ ومعناها في قوله: ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

ابتداء النَّجاة من غياهِبِ الظّلمات إلى نور الفِطْرَة والهدايات

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ دالّة على الابتداء والانفصالِ؛ لتصوير الحال التي كان النّاس مُنْغَمِسين فيها من ظلمات الحظوظ والنّقائص، والغفلة والنّسيان، وما يَتْبَعُها من تراكم الجهل وطَمْسِ البصيرة، فإذا أكرمَ اللّهُ عبدَهُ بالعِلْم والإيمان؛ فقد أخرجَهُ من هذه الظّلمات الطّارئة، إلى نور الفطرة والهداية الأصيلَةِ[3].

بلاغة التَّعبير بالاستعارة التَّصريحية والطِّباق ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾:

تَصْويرٌ بليغٌ لتحوُّلِ النّفوسِ مِن الغوايةِ إلى الهدايَةِ

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِۚ﴾ من التّعبيرات المجازيَّة؛ فهُما استعارةٌ تصريحيَّة بديعةٌ للكفر والإيمان، أو للضّلال والهدى؛ حيث أُخفي المستعارُ لَهُ، إيذانًا بأنّ معناه أوضحُ من أن يُصرّح به؛ فكأنّه قال: ليُخرجكم من ظلمات الجهل والتّكذيب إلى نور العلم واليقين[4]. والظّلمة بما تشتمل عليهِ من كُفْرٍ ونفاقٍ ومعاصٍ ونحوها؛ مستعارَةٌ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 451.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 451.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 265.

(4) ابن الأثير، المثل السائر: 1/ 359، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 154.

مِن ظلمة اللّيل الحسّيّة، والجامع بينَهما فقدانُ الاهتداء في كلا الحالَيْنِ، كما أنّ النّور - سواءٌ أُريد به الإيمان أو الهداية أو كِلاهُما - مستعارٌ من نور النّهار، أو نور المصباح؛ لِما فيهما من دلالة على الاهتداء والوضوح[1]. وقد جاء بين ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِۚ﴾ طباقٌ بَديعٌ، يقابل بين أُفُقَيْنِ مُتباعِدَيْن، فالظّلماتُ رمزٌ للكُفْرِ والتَّخبّط، والنّور دلالة على الإيمان والهدى[2]، فكان الطّباقُ هنا تصويرًا بليغًا لتحوّل النّفوس من الغواية إلى الهداية.

دلالة التَّعبير بلَفْظِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جَمْعًا و﴿ٱلنُّورِۚ﴾ مفردًا:

سـبُـلُ الـغـيّ ظـلـمـات مـتـشـعّـبـة، وسبيل الهدى نورٌ واحد

جاء التّعبير بـ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جمعًا؛ لِما في الكفر من مسالكَ متشعّبة، وأسبابٍ متعدّدة، من جهلٍ، وهوى، وشبهات، ووساوس مظلمة، يتخبّط فيها القلب والعقل. أمّا ﴿ٱلنُّورِۚ﴾ فقد أُفْرِدَ؛ لأنّه لا طريق للهداية سواه، وهو الإيمان الحقّ، ومصدره واحد؛ وهو هُدى اللّهِ المبينُ[3].

سرّ التّعبير بـ ﴿إِلَى﴾ دون (اللّام) في قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾:

غـايـة الـهـدايَـةِ ومُنتَهى الرّحلة إلى النّور لا سواه

حرف الجرّ ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ يدلُّ على انتهاء الغاية، والوصول إلى النّور مقصدًا نهائيًّا، وهذا يناسِبُ مجرى الآية في الانتقالِ مِن حالِ الكُفْرِ والضّلال إلى حالِ الإيمان والهداية، وهو أبلَغُ في هذا المقام مِن استعمال اللّام التي تفيد التّعليلَ والسّببيَّة في أشْهَرِ مَعانيها.

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ﴾:

الـعـطـفُ على مقدّرٍ فيه تأكيدُ اللّطف والرّحمة الإلهيّة

الواو في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ واوُ العطف[4]،

---

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 494.

(2) العسكري، الصناعتين، ص: 308.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 444، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 494.

(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 464.

والمعطوف عليه محذوف تقديره: فإنَّ اللّهَ به؛ أي: بعبده - وما يُنزّل عليه، وإخراجَهُ من الظّلمات إلى النّور - لطيفٌ خبير[1]، فتأتي هذه الواو لتَعْطِفَ عليه صفة الرّأفة والرّحمة، مؤكّدة أنّ اللّه ﷻ لطيف رؤوف بعباده، لا يغفل عن أحوالهم، ولا عن أحوالِ نبّيه ورسولهِ ﷺ.

دلالة تعدّد المؤكّدات في ختامِ الآية:

تراكم التّوكيد لجِلاء المقصودِ وتبديد الموهوم

اشتملت خاتمةُ الآية على مؤكّدات عدَّةٍ؛ من (إنَّ) وتقديم الجارّ والمَجْرورِ، ولام التّوكيد الدّاخلة على الخبر، وكلّها لتَثْبيتِ هذا المعنى الجليلِ في القلوب؛ إذ كان المُشْرِكون في صدّهم عن دعوة الإسلام يتوهّمون فيها إساءةً لَهُم ولآبائهم وآلهتهم، كما قالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الفرقان: 41 - 42]، وهذا يُرجّح أنّ السّياق من قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى هذه الآية، هو من المَكّيّ؛ فإن كانت مدنيّة؛ فلأنّ حال المنافقين آنذاك كانت شبيهةً بحالِ أولئك المعاندين[2].

سرُّ إظهار الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دون الإضمار:

جلال الاسم في مقام الإحسانِ تعظيمٌ للمُنْعِم الدّيّان

في إظهار الاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دون الإضمار؛ إذْ لَم يرد النَّظم القرآنيُّ: (وإنّه بكم) إيذانًا بأنّ الرّأفة والرّحمة صفتان تَصْدُران عن اللّه الذي له كمال الجلالِ وجلال الكمال[3]، فهو سبحانه يُذكَر في مقام الإحسان باسمه الأعظم؛ لتتعلّق القلوبُ به وحده.

معنى الباءِ ودلالتُها في قوله: ﴿بِكُمْ﴾، ودلالة اتّصالها بالضَّمير:

رحمتُهُ ملازمةٌ لَكم ورأفته لا تُفارِقُكُم

معنى الباء في قوله: ﴿بِكُمْ﴾ يدلُّ على الإلصاق[4]؛ ليعبّر عن شدّة العناية، ولطيف الملازمة، وكأنّ رحمتَهُ ورأفته تعالى ملتَصِقَةٌ بِهِم لا تُفارِقُهُم، تحيط بهم إحاطةَ القُرْبِ واللّطف، لا تنفصل عن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 372.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 266.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 332.

أحوالهم، ولا تغيب عن حاجاتهم. وفي استعمال الباءِ مع ضَميرِ الجمع ﴿بِكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى عموم رحمته، وتجلّي رَأْفَتِه، فهي شاملَةٌ للنّاس كافّة، لا تختصّ بفَرْدٍ دون آخر، بل تتنزّل عليهم جميعًا، بما أُرْسِلَ إليهم من رسولٍ، وأُنْزِلَ إليهم من كتاب[1]، رحمةً وهداية، ولطفًا وإحاطة.

الغَرَض من تقديم الجارّ والمجرور ﴿بِكُمۡ﴾ على الخبر ﴿لَرَءُوفٞ﴾:

نِعم لا تعدّ لأمّة لا تُضاهى

تقديم الجارّ والمجرور في قوله: ﴿بِكُمۡ﴾ للتّوكيد على اختصاص هذه الأمّة بعناية فريدة؛ "لأنّ عظيمَ رحمتِه لهذه الأمّة موجبٌ لعَدِّ نِعْمَتِه على غيرنا عدمًا بالنّسبة إلى نعمته علينا"[2]، فسبقَت العنايةُ موضِعَ الخبر؛ إيذانًا بأنّهم في قَلْبِ الرّحمة، لا على أطرافها، وأنّ النّعمة فيهم بلغَت مِنَ الكمال ما يجعَلُ سواها من العطايا دونها منزلةً واعتبارًا.

سرّ ختام الآية بوَصْفَي المبالغة ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾:

تأنيس القلوب في إيصال الخير إليها وكراهية ضرّها

خُتِمَت الآية بوصفي ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، وهما من صيغ المبالغة (فَعول) و(فَعيل)[3]؛ للدّلالة على سعة رحمته تعالى، وكمال رأفته بعباده، فاللّه سبحانه لا منتهى لكمال رأفَتِهِ ورحمتِه؛ إذْ أزالَ عنهم موانِعَ سعادَةِ الدّارين، وهداهم إلى سُبُلِ الخير والنّجاة أتمّ هداية[4]، فجاءت الخاتمةُ تفيض عطفًا وتحنّنًا، ما يملأ القلوبَ سكينةً وطمأنينة. وفي هذه الخاتمةِ وعدٌ صادق، وتأنيسٌ عاطر، مؤكّد بأبلغ صور التّوكيد[5].

دلالة تقديم ﴿لَرَءُوفٞ﴾ على ﴿رَّحِيمٞ﴾:

بلاغة التّرتيب وتناسب نظم السّورة

قُدّم وصف ﴿لَرَءُوفٞ﴾ على ﴿رَّحِيمٞ﴾ مع أنّ تأخير الأخصّ أبلغ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 518.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 266.
(3) السيوطي، همع الهوامع: 3/ 74.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 171.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 259.

في الأصل؛ مراعاةً لفواصل الآي، وانسجامًا مع نظم السّورة[1]، كما قُدّم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفاتحة: 3] على ﴿ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [الفاتحة: 3] في الفاتحة، ثمّ جيء بـ﴿رَّحِيمٌ﴾ في الختام تأكيدًا لدوام الرّحمة وشمولها. ويجوز أن يكون هذا التّقديمُ؛ لأنّ الرّأفة تتعلّق بالحفظ والصّيانة من الآفات والنّقائص الموجبة للعقاب، بينما تتعلّق الرّحمة بإفاضة الكمالات والسّعادات المستوجبة للثّواب؛ فالرّأفة من باب التّزكية، والرّحمة من باب التّحلية، ولا تحلو النّفوس بالتّحلية إلّا بعد أن تزكو بالتّزكية[2]. وقُدّمت الرّأفة أيضًا لأنّها أخصّ وأشدّ من الرّحمة، فهي ألطف ما يكون، تختصّ بعباده المؤمنين؛ إذ لا يكلّفهم ما لا يطيقون، ولا يجعل عليهم في الدّين من حرج، ويفتح لهم أبواب الرّخص في حال السّفر والمرض، وأمّا الرّحمة فهي أعمّ، تشمل المؤمنَ وغيره[3].

دلالة الإيجاز في هذه الآية:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ جاءت جملةً جامعة في موقعها ومعناها وعلّتها وما عُطف عليها، فجَمَعَت بين البيانِ والتّأكيد، والتّعليل والتّذييل، والتّخلّص إلى غرض جديد، فكانت بمُفْرَدِها دالَّة على معانٍ شتّى، كلُّ واحد منها مستقلّ في الدّلالة على وجهٍ عظيم من وجوه الاستدلال والتّذكير، والإرشاد والامتنان، في إيجازٍ مُعْجِزٍ، وبلاغة مُدْهِشَةٍ[4].

بيانٌ جامع وإعجازٌ موجَزٌ في البيانِ والتّأكيد والتّعليل والتّذييل وحُسْن التّخلّص

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّأفة والرّحمة:

بينَ الرّأفة والرّحمة عمومٌ وخصوصٌ مطلق؛ إذِ الرّأفة أخصّ، وهي رحمة شديدةٌ في دفع المكروه وإزالة الضّرر، بينَما الرّحمة

من آثارِ الرّأفة رفعُ الأسقام والبلاء، ومن آثار الرّحمةِ البرُّ والعطاءُ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 444.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/ 335.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 332.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 371.

أعمّ، تشمل ذلك وتزيد عليه بالإفضال والإنعام، فمُقْتَضى الرّأفة ما يَنْزِلُ بالعبد من بلاء[1]، أمّا الرّحمة فمن آثارها الإحسانُ والبرّ، وإن لم يسبقها ضرٌّ نزلَ بالعبدِ. وقدّمت الرّأفة على الرّحمة في خمسة مواضع من القرآن، كآية الحديد - موضع الشّاهد - ، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾ [الحج: 65]، تنبيهًا على أنّها أشدّ وأبلغ، وأنّ التّوكيد إنّما يكون بما هو أقوى أثرًا وأشدُّ وقعًا، فإذا تقدّم الأبلغ في اللّفظ؛ تهيّأ السّامع لِما هو أوسَعُ في المعنى[2].

البيّنة والحجّة:

الحجّة للمجادلة والدّعوى، والبيّنة هي الظّاهرة الجليّة غير المُحوِجة للجدال في إثباتها

استعمال لفظ البيّنات في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ دون الحُجَجِ له دلالة دقيقة تنسَجِمُ مع مقاصد الخطاب الإلهيِّ على النّحو الذي يبرز هذا التّمايز: فلفظُ البيّنات أدلُّ على الوضوح والانكشاف التّامّ للحقّ؛ فالبيّنة في أصل معناها تدلّ على ما بان وظهر وانكشف[3]، وهي الدّليل القاطع الذي لا يترك لبسًا، ولهذا سُمّي الشّاهدُ بيّنةً؛ لأنّه يُزيل الإبهامَ عن الحقّ، ويُظْهِرُ وجهَ الصّواب[4]، وهذا المعنى يناسب طبيعة ما يُنَزِلُه اللّه على عبده من أدلّةٍ قاطعة وواضحةٍ تُضيءُ الطّريق، وتكشف الحقّ للنّاس مِنْ غيرِ غموضٍ.

أمّا الحجّة؛ فهي تدلُّ على المقابلة والمجادلة بين طرفين، كلٌّ يقدِّم ما عنده من أدلّة ليردّ على الآخر، وينصر دعواه[5]، وغالبًا ما تستعمل في مقام الجدال والمناظرة لا في مقام البيان الإلهيِّ الهادي المشرق، و"الحجَّة ما دُلَّ به على صحّة الدّعوى"[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 239.
(2) الجوهري، الصحاح: (رأف)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 196.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(4) الشنقيطي، العذب النمير: 5/ 67.
(5) الراغب، المفردات: (حج).
(6) الجرجاني، التعريفات، ص: 82.

فلفظُ البيِّنات تُناسب مقاماتِ الهدايةِ والرّسالة؛ لأنّ دعوة الأنبياء قائمة على البلاغ المبين، لا على الجَدَلِ والمنازعة، فجاء التّعبيرُ بالآيات البيِّنات ليُفْهَمُ منهُ أنّها آيات ظاهرة جليّة، مستقلّة في دلالتها، موصلةٌ إلى الحقّ بذاتها، لا تحتاج إلى محاجّة أو خصومة ليَثْبُتَ صِدْقُها.

دلالة الاتّفاق والاختلاف مع الآية السّابعة من سورة النّحل:

الاسم الأحسن (الله) أدلُّ على المعبود بالحقِّ، ولفظ الرّبوبيّة عامّ للنّاس أجمعين

قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ [النحل: 7]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، فأوقع لفظ الرّبوبيَّةِ ﴿رَبَّكُمۡ﴾ [النحل: 7] في الأولى، والاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهَ﴾ في الثّانية مع زيادة ﴿بِكُمۡ﴾، ووجهُ ذلك: أنّ آية الحديدِ خاصّة بالمؤمنين، فقد جاءت في سياق الإيمان والعبادة والإنفاق، فناسب أن يُذكر الاسم الأحسنُ ﴿ٱللَّهَ﴾؛ لأنّه الاسم الجامع لصفات الألوهيّة، الدّالّ على المعبود بحقّ، وفي هذا تعظيمٌ لمَقام العبادة، وتشريف لأهلها. أمّا آية النّحل؛ فهي في سياق تَعْداد النّعم العامّة التي يُسْديها اللّه لعباده كافّة، مؤمنِهم وكافرهم[1]، فجاء التَّعبير بـ ﴿رَبَّكُمۡ﴾ [النحل: 7]؛ لأنّ الرّبوبيَّة تشمل الجميع، وهي صفةُ الإنعام والتّربية والتّدبير، فناسب السّياقَ العامَّ للنِّعم التي يشترك فيها الخَلقُ كلّهم؛ فجاء كلّ لفظٍ في موضعه أبلغَ ما يكون، منسجمًا مع مقتضى الحال، ومُحْكَمًا في مبناهُ ومعناهُ.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 332.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أمَرَ بالإيمانِ؛ فوبّخ على الكفرِ وأمر بالإنفاق؛ فوبّخ على البخل

بعد أن أمرهم اللّهُ ﷻ بالإيمان والإنفاق في قوله الحكيم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾؛ وبّخهم على تقصيرهم في الإيمان، فقال ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ﴾، فما أبقى لهم عذرًا، ولم يبقَ إلّا توبيخهم على ترك الإنفاق، مبيّنًا أنْ لا حجّة لهم في الإمساك، ولا عذرَ لهم في البخل[1]؛ إذِ المال للّه وحده، فوبّخهم توبيخ المستغني عن عَطائِهم، المتفضّل عليهم بما بأيْديهم، وحثّهم حثَّ مَن يَعْلَمُ أنّ النّفقة لا تنقصُ رزقًا، ولا تقطع ميراثًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِيرَٰثُ﴾: اسم على وزن (مِفْعال)، أو هو مصدر ميميّ، وجذره اللّغويّ: (ورث)، وهو لِما يورث؛ أيْ: يبقي شيئًا أو ميراثًا، والوارثُ إذا أُخْبِرَ به عن اللّه ﷻ؛ فمعناه: الدّائم الباقي بعد فناء خلقه، وهو الذي يرث الأرضَ ومن عليها. وأصلُ المادَّة (ورث) يدلُّ في اللُّغةِ على الشّيء الذي يكون لقوم، ثمَّ ينتقل لآخرين بنسَبٍ أو سبب، وقريبٌ منه: تعبير الرّاغب وهو "انتقالُ قُنْيَةٍ إليكَ عن غيركَ من غير عَقدٍ، ولا ما يجري مجرى العَقْد، وسُمّي بذلك المُنتقِلُ عن

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 445.

الميّت، فيُقال للقُنية الموروثة: ميراثٌ وإرثٌ"[1]. ومعناه المحوريّ: أن يحوز الإنسان ملكَ غيره بعد موتِ الأوّل وفنائه، والغالب في القرآن بهذا المعنى؛ بخلافة أو تقلّب، أو بمعنى أن تكون العاقبة له[2]. ومعنى ﴿مِيرَٰثُ﴾ في الآية محلّ التّفسير: إشارةٌ إلى أنّ الله تعالى يميت "أهل السّموات وأهلَ الأرض ويبقى وحده، فذلك ميراثه ﷻ: أنّه يبقى، ويفنى كلُّ شيء"[3].

2) ﴿ٱلْفَتْحِ﴾: مصدر للفعل فتحَ يفتحُ، والجذر اللّغويّ منه: (فتح)، وهو دالٌّ على نقيضِ الغلق، وإليه يرجِعُ قولهم: فتح دار الحرب، والفتح على القارئ، والنّصرة، والحكم، وغيرها. ومنه أيضًا: فتح ما استغلق من العلوم[4]. ومعنى ﴿ٱلْفَتْحِ﴾ في الآية: فتح مكّة، أو صلح الحديبية[5]، فقد سمّاه الله فتحًا بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ١﴾ [الفتح: 1] حين صدّه المشركون عن المسجد الحرام، فعَقَدَ معهُم الصّلح، واعتبر ذلك الصّلح فتحًا لِما فيه مِنَ المَصْلَحَة[6].

3) ﴿وَقَٰتَلَ﴾: فعل ماض، على زنة فاعَلَ؛ وهو دالٌّ على المشاركة، والجذر اللُّغويُّ منه: (قتل)، و"القتلُ: معروف، يقال قَتَله؛ إذا أماتَهُ بضربٍ أو حجر أو سمّ أو علّة، والمنيّة: قاتلة"، وأصل المادَّة دالٌّ على إذْلالٍ وإماتةٍ، يُقالُ: قَتَلَهُ قَتْلًا، والقِتْلَةُ: الحالُ يُقْتَلُ عَلَيْها، وقد قيل في الدّوابِّ المقتل؛ وهو الذَّليل المرّن على العمل[7]، والقتل بمعناه الشّائع المعهود: إصابة الشّيء؛ وهو القضاء على الحياة بهدم بنيانِ البَدَنِ[8]. ومعنى ﴿وَقَٰتَلَ﴾ في الآية هو المعنى المعهود لَمْن يجاهِدُ لإعلاء كلمة الحقِّ والدِّينِ[9].

4) ﴿دَرَجَةً﴾: لفظُ الدّرجة متعلّق بالرّفعة والمنزلة، وبمعنى المراقي التي يترقّى فيها الإنسان. ومن المجاز: الصّعود في المراتب[10]، ومنه: درج البناء؛ وهي المراتب التي يكون

(1) الراغب، المفردات: (ورث).

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ورث).

(3) الفراء، معاني القرآن: 1/ 249.

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فتح).

(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 471.

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 665.

(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قتل).

(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قتل).

(9) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 143.

(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس: (درج).

بعضُها فوقَ بعض، وهو المعروف بالسّلّم المجسّم من حجر أو خشب، وهي التي يُتوصّل بها إلى سطح البيت. والدّرجات تأتي بمعنى المراتب ماديًّا ومعنويًّا[1]، ومعنى ﴿دَرَجَةً﴾ في الآية: الشّرف في الدّنيا، أو التّفاضل في المنزلة في الآخرة على سبيل التّوسّع والمجاز[2].

5) ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾: الحسنى اسمُ تفضيلٍ، مُذَكَّره: الأحسن؛ من الفعل حَسُن يحسُنُ، والجذر اللّغويّ لهذه اللّفظة: (حسن)، والأمر الحَسَنُ ضدّ السَّيِّئ المقابل له، والحُسْنُ: الإجادة في العمل والمعرفة والإتقان، والأصل في الحاء والسّين والنّون دلالتُه على نقيض القُبْح؛ وهو "عبارة عن كلّ مُبْهِج مرغوب فيه...، والحسنةُ يُعبّر بها عن كلّ ما يسرّ؛ مِن نعمة تنالُ الإنسانَ في نفسهِ وبَدَنِه وأحواله، والسّيئةُ: تضادُّها"[3]. ومعنى ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ في الآية: هي الجنّة، وهو الغالِبُ، ويجوز أن يُراد به ما هو أعمُّ مِن ذلك، كالنّصر أو الغنيمَةِ في الدّنيا[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوة للإنفاق قبل الفواتِ، وبيانُ فضلِ السّابقين ذوي الثّبات

يخاطبهم اللّه سبحانه: أيّ شيءٍ يَحْبِسُكم عن الإنفاق في سبيل اللّه، وليس لكم من الأموال قليلٌ ولا كثير، بل الملكُ للّه وحده، يرثُ السّماوات والأرض ومن فيهن؟! فما في أيديكم عارية مردودة، لا تلبث أن تنتقل عنكم، أو تُنقلون عنها، ثمّ يعود الأمر كلّه إلى مالكه الحقّ؛ فبادروا إلى الغنيمة قبل الفوت، واغتنموا النّفقة قبل الموت. ثمّ ذكَرَ سبحانه تفاوتَ منازل العاملين، بحكمته البالغة وعدله المطلق، فقال جلّ شأنه: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾، فأولئك الذين بادروا إلى الجهاد والإنفاق أعظمُ درجة عند اللّه من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح والنّصر.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (درج).
(2) الجرجاني، درج الدرر: 1/ 754.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير: (حسن).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 172.

ولمّا كان تفضيل السّابقين قد يسبق إلى وهَمِ السّامع أنّ في المفضول قدحًا أو نقصًا؛ دفع هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، فشهد للجميع بالإيمان الحقّ، وبشّرهم بجنّات النّعيم، وهو العليم الخبير بأعمالهم، فيجازي كلًّا بما علمه من نيّته وعمله، إنّه عليم حكيم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ﴾:

الإيمان أساسٌ، والإنفاقُ صورةٌ مِنْ صوَرِه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ يَحْتَمِل أن تكون للعطف؛ لأنّه لّما أمرهم بالإيمان والإنفاق، وكان الإيمانُ - مع كونه الأصلَ الذي لا يُقبل عملٌ إلّا به - خاليًا من خسران أو نقصان؛ عطف عليه ما يُعين على تحصيله، وهو التّرغيب في التّوصل إليه بالإنفاق[2]، فهو ليس محضَ عمَلٍ مستقلّ، بل طريقٌ موصِلٌ إلى الإيمان الكامل، ومظهرٌ من مَظاهره.

ويَحْتَمِلُ أن تكون الواوُ استئنافيّة[3]؛ استهلّت بها جملة جديدةٌ مستقلَّة؛ لبيان أهمّيَّتها، وتوكيدِ مضمونها، فيلفت السّمع والبصيرة إلى ما حَواهُ مِن عتابٍ كريمٍ، وتعجُّبٍ عظيم.

غرض التَّعبير بالاستفهام بـ (ما) في قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ﴾:

توبيخ قرآنيّ يستحثّ البذلَ ويُجَلّي حقيقة الفناء

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ خارج مخرجَ التّوبيخ والتّقريع، كأنّ الآية تعاتب المخاطبين عتابًا مرًّا؛ فأيّ شيء يمنَعُكم مِنَ البذل في سبيل اللّه تعالى ومن الإنفاق فيما يُقرّبكم إلى ربّكم، وأنتم موقنون بالمآل، راحلون عن الدّنيا، تاركون

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 838.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 266 - 267.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 464.

أموالكم، وهي صائرَةٌ لا محالة إلى وارثها الحقِّ ﷻ[1]، فكيف يُمْسِكُ العاقل يدَهُ عمّا ينفعُه في آخرته، وهو يرى المال يفارقه.

معنى اللّام ودلالتُها في قوله: ﴿لَكُمْ﴾:

تمكُّنٌ ودليل على الاستطاعة في فعلِ الإنفاقِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ تدلُّ على الاختصاص والتمكّن، فالمخاطبون أهلٌ للإنفاق مُقْتَدِرون عليه؛ إذ لا يصحُّ توجيهُ هذا النّمط من الإنكار إلّا لمَنْ كان متمكّنًا من الفعل، وهذا يُشير بوضوح إلى أنّ الاستطاعة سابقةٌ على الفعل، وأنّ القُدْرَةَ صالحَةٌ للفِعْلِ وتركه على حدّ سواء، ممّا يدلّ على أنّ الإنفاق واقعٌ من العبد عن إرادةٍ واختيارٍ.

دلالة توجيه الخطاب في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾:

إنفاق وجهاد في سبيل الله خيرٌ مِن مالٍ يَفْنى بلا حياة

في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ استنهاضٌ للهِمَم؛ إذ يُستفهم عن أمرٍ ظاهر البطلان، وهو الامتناع عن الإنفاق في سبيل اللّه تعالى؛ فأيُّ عذر أو غرض لكم في هذا التّواني، وقد أُمرتم بالجهاد، واللّه تعالى لا محالة مُمضٍ أمرَهُ بكم، ووارثٌ أموالَكُم مِن بعدكم؟[2]. وإذا كان المرادُ بضَمير الخطابِ المنافقين؛ فهو خطابٌ توبيخيّ لهم على تركِ الإنفاق. أو إلى أولئك الذين وُبّخوا أوّلًا على ترك الإيمان؛ فيكون قد وبَّخهم سبحانه على ذلك بعد توبيخهم على عدم الإيمان، مُنكِرًا أن يكون لهم في هذا أيُّ عذر يعتدّ به[3]. فالمنافقون من "مظاهر نِفاقهم أنّهم شحّوا بالإنفاق في سبيل اللّه"[4]، فقد كُشِفَ تناقُضُهم، وفُضِحَ بُخلهم الذي يُعدّ دليلًا على نفاقهم، فقد حثّ اللّه تعالى على "الإنفاق في أسلوب إنكاريّ تعجبيّ يُظهر قبحَ تركِ الإنفاق، ويُشعر بأنّ التّخلّف عنه أمرٌ لا يُعقل، مع نسبة هذا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 373.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 474.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 171.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 372.

التّرك إلى المخاطب مباشرة، ممّا يزيد من شدّة التّوبيخ، وهو من أبلغ الأساليب في البعث على الإنفاق في سبيل اللّه تعالى[1].

بلاغة حذف حرف الجر (في) من قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾:

عدم الإنفاق منكَرٌ لا يَسوغُ بحالٍ

في قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ حَذْفٌ، وتقدير الكلام: (وَما لَكُمْ في أن لا تنفقوا)[2]، والمعنى: أيُّ شيءٍ عرَضَ لكم، وحصل في تَرْكِكُم للإنفاق؟ وما الذي دعاكُم إلى هذا الامتناع؟ والإشارةُ إلى أنّ ما وقع مِنْهُم أمْرٌ مُنْكَرٌ لا مسوّغ له[3]. وفي حَذْفِ حَرْفِ الوعاءِ تناسُبٌ مع المطويِّ في قُلوبِهِم من أسباب عدَمِ الإنفاق، فأخفى مِنَ النَّصِّ ما أخْفَوْهُ في الواقع، وهو مِن بديع التَّناسب بين الحال والمقالِ.

دلالة التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ دون المصدر الصّريح:

الإيمان حال، والنّفقة مآل: بلاغة الزّمن في سياق التّكليف

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ مؤلّف من (أن) المصدريَّة المدغمة في (لا) النّافية، وأصلها (أنْ لا تُنْفِقوا)، والمصدر المؤوّل في موضع جرّ بـ (في) أو موضعِ نَصْبٍ[4]، والتّعبيرُ بـ (أن) المصدريَّةِ هذه لإفادَةِ التّعليل والتّوكيد[5]، فكأنَّ المنهيَّ عنه ليس مجرّدَ تركِ الإنفاق، بل اقتران التّركيب بالعزم على عدم البذل، وهي هنا مع دلالتها على التّعليل تُضْفي توكيدًا بليغًا، فكأنَّ النّهيَ مقرون ببيان العلَّة، والتّحذير من عاقبة الشُّحّ.

وفي العدول عن المصدر الصّريح إلى المصدر المؤوّل بـ ﴿أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ نكتَةٌ بيانيَّةٌ، فـ (أنْ) تُخلّص الفعلَ للاستقبال بلا خلاف[6]، أمّا (لا) فمُخْتَلَفٌ في دلالتها هل تُخلّص للاستقبال أم لا؟ وعلى هذا جاء التّعبير عن الإيمان بصيغة الحال؛ لأنّه من أفعال القلوب،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 474، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 204.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 474.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 373.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 102.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 333.
(6) ابن الحاجب، الكافية في النحو، ص: 55.

وهي ممّا يُمْكِنُ حصوله من المكلّف في الحال. أمّا النّفقة في سبيل اللّه؛ فهي ممّا لا يُقْدَرُ عليه حالَ الخطاب، بل تكون بعده في زمنٍ لاحق، فناسبَها التّعبير الدّالّ على الاستقبالِ بعد تراخٍ[1]. كما أنَّ في استعمال المصدر المؤوّل ﴿أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ عوضًا من المصدر الصّريح سرًّا بلاغيًّا دقيقًا؛ إذ في إقحام (أن) المصدريّة استغراقُ مَعْنَى اللّوم جميعَ الأزمنة ليحيط بتقصير المخاطبِ في الإنفاق عبر الماضي والحاضر والمستقبل جميعًا[2]، فيعمُّ التّوبيخ كلّ آن، ويعلَّق في الذّمّة عتب دائم لا ينحصر في موقف عابر، أو زمان مخصوص.

سرّ تقييد الإنفاق بقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

توبيخ يُذْكي جمرَ التّقصير، وتحديد يضيّق مساغَ المعاذير

جاء تقييد الإنفاق بقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليَزيدَ التّوبيخ وقعًا، ويبلغَ العتابُ غايتَه؛ فكأنّ الخطابَ يعجب: أيُّ عذر لكم في أن تبخلوا بما يُقرّبكم إلى اللّه[3]، وقد عُيِّن لكم وجهُ النّفقة بما لا يدَعُ لكم مجالًا للتّردُّد؟! فما الذي يَصْرِفُكم عن الإنفاق وهو من أجلّ الطاعات، وأعظم القربات؟ كما جاء ليرسّخ معنى خاصًّا ومتميّزًا، وهو تأمينُ عتاد الجهاد، فهذا التَّركيبُ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يغلب إطلاقهُ في القرآن على الجهاد[4]، وما حَمَلَتْهُ من بذلِ النّفوس والأموال في ميادين القتال دفاعًا عن الدّين وكرامته.

دلالة التّعبير بـ ﴿سَبِيلِ﴾ مضافًا إلى الاسم الأحسَنِ:

طريقُ الوُصْلَة والرّحمة أو الغرامة والنّقمة

أضيفَ لفظُ ﴿سَبِيلِ﴾ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ للدّلالةِ على أنّ المقصود كلّ ما يُرضي الملكَ الأعظم، المتّصف بصفات الكمال؛ لتكون لكم به وُصْلَة، فيخصّكم برأفةٍ هي أعظمُ من الرّحمة، فمَن بَخِلَ بشيء في سبيل اللّه عن وجهٍ مِن وجوه الخير؛

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 157.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 267.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 372.

سلّط اللّه عليه غرامةً في وجهٍ من وجوه الشّرّ[1]. والإضافة تنطوي على تشريف عظيم[2]؛ إذ تكتسب السّبيلُ قُدْسيَّتها وسموَّ شأنها بانتسابها إلى اللّه تعالى، فيغدو كلّ ما يسلك فيها عملًا مكرَّمًا مقبولًا عند الملك الدّيّان.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

لا تبخلوا بما لا يبقى؛ فالمال لله في المُبْتَدأِ والمنتهى

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ واو الحال[3]، والجملة في موضع الحالِ من فاعل ﴿أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ مؤكّدة للتّوبيخ؛ إذ إنَّ ترك الإنفاق بغير عذر قبيح في ذاته، فكيف إذا اقترن بتحقّق ما يوجِبُه؟! فذلك أبلغ في القبح، وأشدّ استحقاقًا للإنكار، وبيانُ أنَّ ما في السّماوات والأرض من الأموال مآله إلى اللّه تعالى يومَ القيامة؛ فلا يبقى من أربابها أحدٌ؛ هو أبلغ في الحثّ على الإنفاق من مجرّد بيان أنهّا للّه في الأصل، وأنّ النّاس مُسْتَخْلَفونَ فيها، فكأنَّ المعنى: كيف تَمْتَنِعون من الإنفاق، والحالُ أنّه لا يبقى لكم منها شيءٌ[4].

سرّ التّعبير بالإظهار في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ دون الإضمارِ:

جلال الإظهار تعظيمٌ يورثُ الزّهد ويُحَفِّزُ على البَذْلِ

جاء التّعبير بالإظهار في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ بدلًا من الإضمار؛ تنويهًا بجلال المقام، وتأكيدًا للعظمة، وتحفيزًا أبلغَ على الإنفاق، فإظهارُ الاسم الأحسَنِ (اللّه) يستدعي جميع صفاتِ الكمال الإلهيّ في نفس السّامع، بخلافِ الإضمار الذي قد يَغيبُ فيه هذا الاستحضار. وقَد خُصّت صفةُ الإرثِ هُنا لِما فيها من الإيحاءِ بِزَوالِ الملك عَن الخَلْقِ، وبقاء الحقِّ للّهِ وحْدَه، ممّا يورثُ الزُّهد في المال[5]، ويبعثُ على بَذْلِه في سبيلِ مَن لا يزول مُلْكُه ولا يَفْنى وجْهُه. كما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 267.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 445.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 95.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 267.

أنَّ في العدول عن الإضمار إلى الإظهار زيادةً في التّقرير، وتربيةً للمهابة[1]؛ إذْ يُسْتَحضر الاسمُ الأحسَن بكلّ ما يَقْتَضيهِ مِن صِفاتِ العظمة والكمال، فيرسّخ في النّفس يقينَ الملك الإلهيّ المطلق، ويُضْفي على الخطابِ جلالًا يُثير الخشوع، ويربّي في القلبِ وازعَ التَّعْظيم والانقياد.

معنى اللّامِ ودلالتُها في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾:

كلُّ موروثٍ عائدٌ إلى المالك الحقِّ عندَ زوالِ الحياةِ والفلك

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ دالّة على الملك والاختصاص، فالحالُ أنّ كلَّ ما في السّماوات والأرض صائرٌ وراجعٌ إليه سبحانه بانْقِراضِ العالم، كما يرجِعُ الميراثُ إلى الوارث الحقّ[2]، أفَلَيْسَ هذا المالُ مِن مال اللّه؟ وهل يَمْلِكُ أحدٌ شيئًا استقلالًا مع اللّه سبحانه الذي له ملك السّماوات والأرض؟[3].

الغرَضُ من تَقديم الخبر ﴿وَلِلَّهِ﴾ على المبتدأِ:

ميراثُ الوجود لا يـؤولُ إلّا إلى المعبود

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ جملة ابتدائيَّةٌ مؤلّفة من الاسم الأحسنِ (اللّه) الواقع مع اللّام خبرًا متقدّمًا، و﴿مِيرَٰثُ﴾ مبتدأ مؤخّر، وقد قُدّم الخبر ﴿وَلِلَّهِ﴾ لإفادة الحصر[4]؛ تنصيصًا على أنَّ الميراث كلَّه خالصٌ للّه وحده، لا يشاركه فيه أحد، بيانًا لانفراده بالملك الحقّ بعد فناء الخلق، وزوال الأملاك.

الغرض من إضافة ﴿مِيرَٰثُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾:

مَنْ يَملِكُ الظّرفَ؛ يَملِكُ ما فيه؛ فلله ميراثُ الكَوْنِ ومَن فيه

استعمل هذا اللّفظ؛ لأنّه لفظٌ جامع يتّسع لدلالةِ الإرث والموروث والموروث عنه، وكلّ ما يتعلّق بانتقال الملك بعد فناء المالك[5]، فاختياره في السّياق لحَشْدِ المعاني في نظم واحدٍ، وهو يُجسّد زوالَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.
(2) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 201.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 755.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 333.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 267.

الخَلْق، وبقاء المالك الحقّ، أقرب ما يمثّل زوال الملك وانتقاله في تصوُّر العرب؛ إذ الميراثُ في عُرْفِهِم رَمْزٌ لِما يخلّفه الإنسانُ بعدَ فنائه، فخاطَبَهُم القرآنُ بما ألفوه(1).

وإضافة ﴿مِيرَٰثُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مِن إضافة المَصْدَر إلى المفعول، والتّقدير: ميراث أهل السّماوات والأرض، بحذف المضاف، وليس المقصودُ أن يرثَ السّماواتِ والأرضَ أنفسَهُما؛ لأنّ ذلك لا يكون إلّا بعد فناء العالم، فلا يحقّق الغرضَ المقصود من الحثّ على الإنفاق في الحال(2).

واسْتُعْمِلَ هذا التّعبير دون أن يُخَصَّ ميراثُ الأموال؛ دلالة على أنَّ المولى سبحانه يَرِثُ كلَّ شيء فيهما، فلا يبقى لأحدٍ مالٌ أو حقّ؛ إذْ إنّ ذِكْرَ الظّرف ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مجازٌ أو كناية عن ميراثِ ما فيهما، فحيثُ أُخِذَ الظّرف؛ يلزم أخذُ المظروف، ولم يحصل فيه تعميمٌ، فهو كافٍ في التّوبيخ؛ إذْ لا دليلَ لأخْذِ السّماء والأرض(3).

ولّما كان التّوارثُ بين أهل السّماء غيرَ ظاهرٍ ولا معهود؛ جاز في إضافة ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أن يُحمَل على تغليب ما يورَث من أهل الأرض على أهل السّماء(4)، باعتبار أنَّ التّوارث متحقّق في الأرضِ مشاهَدٌ في الواقع، فغُلِّب الأظهر والأقرب للفَهْمِ في السّياق.

وفي هذا التّعبير أيضًا إيحاءٌ جليلٌ بأنّ ما فيهم ومَن فيهما صائرٌ إليهِ راجعٌ إلى مُلْكِه بعدَ فناءِ الخَلْقِ وزوال المالكين، كما يرجِعُ الميراث إلى مستحقّه بعد انقضاءِ المورِّث(5)، وهو تعبير بليغ وشديدٌ في تأكيدِ التّوبيخ؛ إذْ إنّ الإعراضَ عن الإنفاق بغَيْرِ عُذْرٍ ضربٌ من القُبْح والإنكار(6)، فكيف وقد تحقّقت موجباتُ البَذْل، وتوافّرت دواعيه؟! فإنّ امتناع الإنسان عن الإنفاق مع علمِه بمآل المال إلى غيره؛ يزيد فعله نكارةً، ويغلّظ توبيخَه.

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم﴾:

فُصِلَتْ جملة ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها استئناف بيانيّ ناشِئٌ عمّا قد

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 403.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 373.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 154.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 445.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 239.
(6) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 205.

المـفـاضَـلَـةُ بـين الـسّـابـق والمـتـأخِّـر؛ لا يَقْتَضي حرمانَ المتأخِّر مِنَ الأجرِ

يَخْتَلِجُ في صدور بعضِ السّامعين، ممّن فاتهُم الإنفاق والقتال قبلَ الفتح، وأنّهم سَيَتَدارَكونَه[1]؛ فجاءت الآيةُ لتزيل هذا الوَهم، وتبيّنَ أنّ التّفاضل بينَ مَن سبق ومن تأخّر لا يعني حرمانَ المتأخّر مِن الأجر، بل لكلٍّ فضلٌ، ولكنّ السّبق له مقامٌ أعظمُ.

بلاغةُ الإدماجِ في الآيةِ:

فضيلةُ السّابقِ إلى الطّاعاتِ

في الآية إدماج يتضمّن تفضيلًا بديعًا لبعض المُجاهدين على بعضٍ؛ إذ لم يكُنِ الإنفاق هنا قاصرًا على بذل المالِ فحسبُ، بل شاملًا ما يُنْفِقُه المجاهد على نفسِه في العُدّة والزّاد، وما يبذله على غيره ممّن عاقَهُ العجزُ عن الاستعداد، فدلّ ذلك على أنّ الإنفاق وسيلةٌ تمهيديَّة للجهاد، وأنّ مَن جَمَع بينَهُما قبل الفتح أرفعُ منزلةً، ومع ذلك لم يغفل النّصُّ مَن جاهدَ دون أن يُنفق؛ ليبقى له نصيبٌ مِنَ الفَضْلِ[2].

الغرَضُ من التَّعبير بأسلوبِ النَّفي في قوله: ﴿لَا يَسۡتَوِي﴾:

الإنفاقُ فضيلةٌ، والمسابقة فيه: تمامُ الفضيلةِ

المراد بنفي التّسوية نفيُها في الفضل والثّواب؛ إذ إنّ نفيَ التّسوية في وصفٍ ما يَقْتَضي ثبوتَ أصلِ ذلك الوصف للطّرفين، مع تفاوتٍ في درجته، فيكون نفيُ التّسوية كنايةً عن تفضيل أحد الجانِبَيْن، وتنقيص الآخر[3] لا على وجه النّفي المطلق، بل على وجه التّفاوت في مراتب الفضلِ، فَقَدْ بيّن تعالى أنَ الإنفاقَ فضيلة، ثمّ ارْتَقى ليبيّن أنَّ المسابقة في الإنفاق هي تمامُ الفَضيلَة[4]، فقال: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾؛ فإنَّ نفي التّسوية لا يدلُّ على مجرّد التّفاضل، بل يُؤكّد على وجودِ فارقٍ عظيم في الدّرجات بينَ مَن بادَرَ بالإنفاق والقتال في أوقات الشّدّة وقبل التّمكين، ومَن فعَلَ ذلك بعد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 374.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 374.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 452.

الفتح واليُسْر، "ولما رغّبهم في الإنفاق مطلقًا؛ أرْشَدَهُم إلى فَضْلِ المُبادرَةِ إليه، فخصَّ بالمدح مَن سارَعَ وبادَرَ، وأثْنى على أهله، ولا سيّما مَن نزَلَ فيهم السّياق، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ﴾"[1].

كما أنَّ نفيَ التّسوية يُفْصِحُ عن تفاوُتِ مراتِبِ المُنْفِقين تفاضلًا يُناسِبُ تفاوُتَ أحوالِهِم في البذل، بعد أن قرَّر النَّصّ أنّ لهم أجرًا عظيمًا على وجه الإطلاق، فكانَ هذا البيانُ محفّزًا لهم إلى تحرّي المراتب العليا[2]، وتنبيهًا إلى أنّ الأجر معقودٌ بقَدْرِ المبادرة وحالِ المُنْفِق، لا بمجرَّد الفعل في ذاته.

الغرَضُ مِنَ الحَذْفِ في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ﴾:

حَذْفُ المعادلِ بيانٌ لِبُعْدِ التّفاوت؛ حتّى إنّه لا يجوزُ أن يُقارِنَهُ ولو في الذِّكْرِ

ثَمَّ قِتالانِ؛ أحدُهما أفضلُ من الآخر، ونَفَقتان؛ إحداهُما أفضلُ من الأخرى، وكان القتالُ والنَّفقة من قبلِ فَتْحِ مكّة أفضلَ مِنَ النَّفقة والقتال بعد ذلك، "وتُرِكَ ذِكْرُ المعادِلِ الذي لا يستوي معهُ؛ اكتفاءً بما بعدَهُ من قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟﴾ مفسّرًا له ومبيّنًا"[3] وهذا مِن الإيجازِ البليغ، "فقَسيمُ "مَن أَنْفَقَ" محذوفٌ؛ لِظُهورِهِ ودلالَةِ ما بعده عليه"[4].

سِرُّ التَّقييد بقوله: ﴿مِنكُم﴾:

سَبْقُ الإنفاقِ والجهادِ مزيَّةٌ وفَضْلٌ

استعمل لفظة ﴿مِنكُم﴾[5]؛ ليكونَ مجالُ المُقارنَةِ بينَ المُؤْمنين أنفسِهم، لا بينَهُم وبين غيرهم؛ إذِ المَقْصودُ بيانُ تفاوتِ مراتبِ أهلِ الإيمان، فإنَّ اللهَ تَعالى لمّا أراد تفضيلَ السّابقين بالإنفاقِ والجهاد؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 259.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 206.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268.

خصّهم بالذّكر تعريفًا للمُخاطَبين بأنّ الفَضْلَ لَهُم دون غيرهم، فقال: ﴿مِنكُم﴾ تأكيدًا لانتمائهم إلى جملةِ المؤمنين، وتمييزًا لهم بمزيّة السّبق؛ فلم يقل: (لا يستوي من أنفق) مطلقًا. وفي الآية تعظيمٌ لشأن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه؛ لأنّه كان أسبقَ النّاس إلى بذلِ المال في سبيل اللّهِ[1].

موقع الجارّ والمجرور ﴿مِنكُم﴾ وفائدةُ تقديمِه:

الإنفاق والاصطفاء في خصوصيَّة المؤمنين في الفَضْلِ

﴿مِنكُم﴾ مُقَدَّم من تأخيرٍ، والأصلُ: لا يَسْتَوي مَن أنفَقَ مِن قبلِ الفَتْحِ وقاتَل مِنْكُم، "لكن قُدّم تعجيلًا بذِكْرِ هذا الوصف، وإظهارًا للاهتمام بكَوْنِ المنفِقين من جماعة المؤمنين"[2] لا من غيرهم.

الغرض من التّعبير بـ ﴿مَّنْ﴾ دون (الذي) في قوله: ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾:

كلّ مَن قاتل وأنفق؛ لَهُ الخَيْرُ الأوفَقُ

لَمّا كانت (مَن) اسمًا موصولًا مشتركًا يفيد العموم[3]، بخلاف (الذي) وهو اسم موصولٌ خاصٌّ يُطْلَقُ في الأصلِ على المذكَّرِ؛ عُبّر بـ ﴿مَّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ﴾؛ لتشمل كلّ من اتّصف بالإنفاق[4]، دون تخصيصٍ لشَخْصٍ أو طائفةٍ، فيفيد التّعبيرُ تعميمَ الفضل لكلّ من بادر بالإنفاق والقتالِ.

غرضُ ذِكْرِ الإنفاق ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾ خِلْوًا مِن مُتَعَلّقه:

أنفَقَ المالَ بالإحسانِ، وبذَلَ الجهد بلا توانٍ، ووظّف القدرةَ بلا هوان

الغرض من إطلاق الإنفاق في قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾ دون تقييده بمتعلّق؛ كأن يُقال مثلًا: أَنْفَقَ مالَهُ؛ هو الإيحاء بشمول الإنفاق واتّساع دائرته؛ فكأنّ مَن أنفقَ؛ قد بذلَ مالَهُ، وجُهْدَهُ، وقلبَهُ، وجميع قواهُ[5]، فجاء التّعبير مطلقًا ليُصوِّر عظمة العطاء وتمامَ البذل؛ لِذا تكرَّر لفظُ الإنفاق دون غيره؛ مِن مِثْلِ: تَصَدَّق وغيرِه.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 452.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 376.
(3) العكبري، اللباب: 2/ 53.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268.

سرُّ تقييد الفعلين ﴿أَنفَقَ﴾ و(قاتل) بقوله: ﴿مِن قَبۡلِ﴾:

الإنفاقُ قبل الفتح برهانُ الإخلاصِ وصدقِ الإيمانِ

اسْتُعْمِل حرفُ الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾؛ لِما فيهِ مِنَ الدّلالة على الابتداء[1]، إذ يُفيد أنّ الإنفاق كان ممتدًّا منذ اللّحظات الأولى؛ إيحاءً بأنّ الفضل معقودٌ لمن ابتدأ الإنفاق في أوائل الدّعوة؛ حيثُ الشّدّةُ، وقلّةُ النَّصير، فكان لسَبْقِهم معنًى أعمَقُ، وأثرٌ أبْقى. ودخلت ﴿مِن﴾ لتأكيد ذلك السّبق[2]، كما هو الغالبُ في دِلالَتِها إذا دخلت على (قبل) و(بعد). وعُبِّرَ بالقبليّة الدّالّة على الزّمن في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾؛ لأنّ المقصود لم يكُن مطلقَ الزّمان، بل الزَّمنُ الذي اقترن فيه الإنفاقُ بالإيمان الخالِصِ في وقت العُسْرِ والابتلاء، فخُصّ بظرفيّة ﴿مِن قَبۡلِ﴾[3] الدّالّة على التّحديد والتّمييز؛ للإشارة إلى أنّ الفضل موصولٌ بسَبْقِ المبادرة في أزمنة الشّدّة.

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿ٱلۡفَتۡحِ﴾:

فتح مكّة هو الحدث الذي مهّد لظهور الدّين كلّه

ظاهر لفظ ﴿ٱلۡفَتۡحِ﴾ يدلّ على أنّ المراد به فتح مكّة، فاللّام للعَهْدِ العلميِّ؛ لأنّه بات معروفًا معهودًا[4]، أو هوَ صُلْحُ الحُديبية[5]، لكنَّ هذا اللّفظ قد غلَب استعمالُه في هذا الحدث العظيم - فتحِ مكَّةَ - حتّى صار علمًا بالغلبَةِ عليه[6]؛ إذْ بِهِ تمّ التّمكينُ وظهورُ الدّين على سائر المِلَلِ، فصار إذا أُطْلِقَ الفَتْحُ أُريدَ به فتح مكّة دون سواهُ، إلّا إذا دلَّت قرائنُ على غيرِهِ.

بلاغة عطف القتال على الإنفاق:

مِنَ الإنفاقِ إلى القتال؛ يتحقّق تمامُ الإيمان

عُطِفَ القتالُ على الإنفاق؛ لأنّ الإنفاقَ بذلٌ للمال، والقتالَ بذلٌ

(1) السيرافي، شرح كتاب سيبويه: 1/ 95.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 158.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446.
(5) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 755، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 374.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 374.

للرّوح، والمالُ شقيق الرّوح وقرينُها، فمَن بذلَهُما معًا؛ فقد قدَّم أغلى ما يملك، وثبَّت نفسَه كلّها على الإيمان، فاستحقّ بذلك أن يُحرز أعلى غُرَفِ الجِنان. فكان العطفُ مشيرًا إلى أنّ القتال يعدّ من أسمى مراتبِ الإنفاقِ، والإنفاقُ وإن كان دليلًا على الإيمان؛ إلّا أنّ تمام الإذعان لا يكتمل إلّا ببذل النّفس في سبيل اللّه؛ ولذلك عُطِفَ عليه فِعْلُ القتال[1].

دلالة تقديم الإنفاق على القتال:

تأكيدُ فَضْلِ البَذْلِ في وقت العُسْرِ

قُدِّمَ الإنفاقُ على القتال؛ للإيذان بفَضْلِ الإنفاق وعِظم شأنه؛ إذ كان المسلمون آنذاك في حالٍ من الحاجة الشّديدة، فيَجودونَ بأموالهم مع قلّتها، بل أحيانًا لا يَجِدون ما يُنْفِقونه، ومع ذلك يَبْذلونَ ما يَسْتَطيعون[2]، فالإنْفاقُ في مثلِ تلك الظّروف العَصيبَةِ أبلغُ أثرًا وأعظمُ منزلَةً. ويجوز أن يكون تقديمُ الإنفاقِ على القتالِ مِن بابِ تقديمِ العامّ على الخاصّ، فإنّ القتالَ في جَوْهَرِهِ إنفاقٌ للنّفس، والإنفاقُ يَشْمَلُ بَذْلَ المالِ والرّوح معًا؛ فهو غيرُ خالٍ من الإنفاق[3].

سرّ التّعبير بالقتالِ دونَ الجِهاد في قوله: ﴿وَقَٰتَلَۚ﴾ مع دلالةِ المُفاعلَةِ:

قِتالٌ بِخُصومَةٍ وجهادٌ بإيمانٍ

عُبّر بالقتال دون الجهاد في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتَلَۚ﴾؛ لما في القِتال مِن دلالةِ المُفاعلَةِ؛ إذْ كانَ فِعْلُه مخاصمةً حقيقيَّةً للكفّار، حتّى تلقّى الضّرب والعدوان، وأشرف به على الهلاك، فجاء التّعبير بالقتال لا لكونه جهادًا بمعناه الاصطلاحيِّ الكامل، إذِ الجهاد لم يُفرض إلّا بعد الهجرة[4]، بل لكونه مجابهَةً فعليَّة، وصراعًا واقعيًّا، أَظْهَرَ فيه المؤمنُ صِدْقَ الإيمانِ ببَذْلِ النّفس، فاستحقّ أن يُنسب إليهِ القتالُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 465.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 202.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446.

سرّ عدم ذكر ﴿قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾ مع القتالِ:

لَم يُقيَّدِ القتالُ في الآية الكريمة بكونِهِ (قبل الفتحِ)، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وقاتل قبل الفتح) كما ذُكر ذلك مع الإنفاق، مع أنَّ القتالَ قسيمٌ للإنفاق في السّياق - والسِّرُّ في ذلك: أنَّ القيدَ محذوفٌ لظُهوره؛ إذ دلَّ عليه ما سبَقَ من قوله: ﴿مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾، كما دلَّ عليه ما بعدَهُ في مُقابلَةِ مَن أنْفَقَ وقاتَلَ بعْدَ الفتح. وكذلك الطَّرف المقابل لِمَنْ قاتَلَ محذوفٌ أيضًا؛ للسَّبب نفسه؛ أي: لدلالة السّياق عليه ووضوح المعنى[1].

طَـيُّ ما دلَّ السّياقُ عليهِ؛ إيجازًا واخْتِصارًا

سرّ عدَمِ ذِكْرِ (من بعد الفتح) كما ذكر ﴿مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾:

حُذِفَ قَسيمُ ﴿مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾ إيجازًا؛ اعتمادًا على دلالة فِعْلِ التّسوية المنفيِّ في قوله: ﴿لَا يَسۡتَوِي﴾؛ إذ لا بدّ من تقديرهِ ليُفْهَم المعنى كاملًا، والتّقدير: لا يستوي من أنفق من قبل الفتح، ومن أنفق بعده، فدلالةُ السّياق تُغْني عن التّصريح بالقَسيمِ الآخَر[2].

الإنـفـاقُ قبلَ الفتحِ أعْظَمُ في الأجرِ وأشـدُّ في البَذْلِ

دلالةُ الاستئناف في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ﴾:

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ﴾ جملَةٌ مستأنفة[3]، تأتي لتؤكِّد الفرقَ بين الطّرفين وتظهرَهُ، فهيَ بمنزلةِ بُرْهانٍ واضِحٍ على عدمِ الاستواء[4]، فقد جاءت في سياق الاستئناف تقويةً لِلحجّة، وتوضيحًا للتّفوّق.

الاستئنافُ بمنزلة البرهانِ، وعدَمُ الاستواءِ واضحٌ للعيان

الغرض من التَّعبير باسم الإشارةِ للبُعْدِ جَمْعًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

ذُكِرَ اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لتمييز الفِئَة الفاضِلَة على وجهٍ جليٍّ؛ إشعارًا ببُعْدِ منزلَتِهم، وعلوّ مكانَتِهم في الفَضْل، ورفعة طَبَقَتِهِم في ميزانِ الإيمان والعمل، فالابتعادُ اللّفظيُّ هنا ليس دالًّا

عـلـوُّ شَـأنِ المُنفِقينَ المُقاتِلينَ السّابِقينَ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 497.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446.

على بُعْدٍ زمانيٍّ أو مكانيٍّ، بل هو بُعْدٌ معنويٌّ يُبْرِز شرفَهم وامتيازهم وبما خَصَّهُم به دون غيره من وصفَيْن جليلين؛ وهما الإنفاق والقتال قبل الفتح[1]. وعُدِلَ إلى الجمع إشعارًا بعِظَم شأنهم، وكثرةِ فضلهم، فهم السّابقون الأوَّلون الذين ثبتوا قبل الفتح وانتشارِ الإسلام[2]، الَّذين جاء في حقّهم قوله ﷺ: «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصيفَهُ»[3]. كما أنَّ وروده دالًّا على الجمع مراعاةٌ لمَعْنى ﴿مَّنْ﴾ التي تفيد الجمع في هذا السّياق، فجاء الجمعُ تعظيمًا وتفخيمًا لهم. أمّا إفراد الضّميرين السّابقين، فكان بالنّظر إلى لفظ ﴿مَّنْ﴾ المفرد[4]، فجمعت الآية بين مراعاة اللَّفظ والمعنى، في بيانٍ لسُموِّ المقام وعلوّ المنزلة لهؤلاء السّابقين.

دلالة التّعبير بأفعل التّفضيل ﴿أَعْظَمُ﴾:

إذا عَظُمَتِ الدّرجةُ؛ عظُمَتْ منزلَةُ صاحبِها

جاءَ التّعبيرُ بصيغَةِ أَفْعَل التّفضيل في قوله تعالى: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ للدّلالة على التّمييز البالغ، والتّفاضل الرّفيع؛ إذ بِعِظَم الدّرجة يتجلّى عِظَمُ صاحبِها[5]، فصيغَةُ التَّفضيل تُظْهِرُ تفاضُلَ مراتب الجنّة، وتشير إلى سموّ منزلة السّابقين؛ إذ درجاتُها متفاوتة، وأعلاها مَن ناله مَن أنفقَ قبلَ الفتح، في زمن العُسْرِ وقلّة النّصير، فالمشقّةُ عليهم كانت أعظمَ، والبصائرُ في قلوبهم أنفذَ وأقْوى[6]، فالتّفضيلُ هنا لا ينفي شراكةَ الجميع في العظمة، بل يُؤكّد تميّز بعضِهم بعلوّ مقامه. واختيار صيغة ﴿أَعْظَمُ﴾ هنا يَحْمِلُ دلالةً أعمقَ وأشملَ من مجرَّد الأفضليَّة، فهي تعبّر عن العلوّ والسّموّ والرّفعة في المقام، وليس التّفوّق أو التّفضيل بين درجاتٍ متقاربةٍ فحسبُ، فجاء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 103.
(3) رواه البخاري في صحيحه برقم: (3673)، ومسلم في صحيحه برقم: (2541).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 376.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.
(6) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 202، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375.

التّعبير مؤكِّدًا عظمةَ مقامِهم ومكانتهم التي تتجاوز مطلقَ التّفاضل إلى مدارجَ رفيعةٍ من الفضل والكرامة.

بلاغة التَّعبير بالاستعارةِ في قوله: ﴿دَرَجَةً﴾، والغرضُ من تَنْكيرها:

استعارة الارتقاءِ للدّلالة على الفَضْل

لفظ ﴿دَرَجَةً﴾ مستعارٌ للدّلالة على الفَضْلِ؛ لأنّ الأصل فيها أنّها ما يُرْتَقى عليه، فارْتِباطها بالعلوّ والارتقاء قائِمٌ في أصل معناها، ومِن هنا شُبّه الفضلُ والشَّرف بالارتقاء الحسّيّ، فعُبّر عنه بالدّرجة على سبيل الاستعارة، وهي مِن ألفاظ الأجناس التي تُستعمل في غير معناها المادّيِّ عند ملاحظةِ صفاتٍ ملازمةٍ لها، كما يُقال (أسد) في وصف الشّجاع، باعتبار الشّجاعة لا الحيوان[1]. واستعمال لفظ ﴿دَرَجَةً﴾ وهو تمييز[2] منكّر؛ يختَلِفُ في مدلوله عن كلمة (منزلة)؛ لأنّها تدلّ على مرتبةٍ يُمْكِنُ أن تتفاوت في درجاتها، ممّا يفتح المجالَ لتَفاضُلٍ متدرّج بين أصحابها، بخلاف المنزلة؛ فإنَّها تدلّ على مقامٍ أو مكانةٍ ثابتةٍ.

دِلالَةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾:

مـشـاركَـةٌ في الفَضْلِ وتمايُزٌ في الدّرجةِ

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ﴾ حرفٌ يشير في هذا السّياقِ إلى تفاضُلٍ ومقارنَةٍ بين طرفَيْن يَشْتَرِكان في أصلِ الفَضْلِ، ويَزيدُ أحَدُهُما على الآخر في الدّرجة والمنزلة، فالمَعْنى: أنّ الطّرفين فاضلان، لكنّ أحدَهُما أعظَمُ فضلًا، فجاءت ﴿مِّنَ﴾ لتدلّ على هذا التّفاضل في الشّرف.

دلالة التّعبير بالموصول وصلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ﴾:

إنـفـاقُـهُـم في سـبـيـلِ الـلـه تـعـالى عـلّـةٌ لاسْتِحْقاقِهِم وعدَهُ وجنَّتَه

جاءَ التّعبير بالموصول وصِلَتِه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ﴾ إشعارًا بأنّ الصّلة هي علّة الخبر؛ فإنّهم لمّا أنفقوا كان ذلك سببًا في أن يكون مآلُهم أن يَعِدَهُم اللّهُ سبحانه الحُسْنى؛ وهي المثوبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375.

(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 95.

العظيمةُ بأن يُدْخِلَهُم جنّته، فجُعِلَ الإنفاقُ سببًا لاستحقاق الوعد، ولو قيل: (أعظم درجةً من المنفقين) لَما أفاد ذلك؛ لأنّ اسم الفاعلِ لا يدلّ على العِلّيَّة، بل على مجرّد الاتّصاف.

سر التَّقييد بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾، وبلاغة الطِّباق بين (قبل) و(بعد):

العمَلُ الواحِدُ يَتفاوَتُ ثوابُهُ باختِلافِ مُلابساتِهِ

حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ دالٌّ على التّبعيض لا الاستغراق؛ إذ المقصود تفضيل الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتحِ على أولئك الذين أنْفَقوا وقاتلوا بعدَه، لا على كلّ من جاء بعدَهُم في عموم الزّمان[1]، ولو قيل: (الذين أنفقوا بعدُ) دونَ ﴿مِنۢ﴾؛ لأَوْهَم العمومَ والاستغراق؛ أيْ: على كلّ مَن أنفَق في كلّ زمان تالٍ، وهو غيرُ مراد. ويتجلّى جمال الطّباق بين ﴿قَبۡلِ﴾ و﴿بَعۡدُ﴾ في الآية في تضادّ الزّمن الذي يُحدّد مَوْقِفَيْن مُرْتَبِطَيْن بفعلٍ واحد، ولكنّهما غيرُ متساوِيَيْن في القيمَةِ والمكانة، فواقع ﴿قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾ يشتَمِلُ ظروفًا أقْسى وأكثرَ تحدّيًا تتطلَّب تضحياتٍ أعظمَ، في مقابل (بعد الفتح) التي تَحْمِلُ أجواءَ النّصر والسّكينة، فيُنْشِئُ هذا التّباينُ إيقاعًا لغويًّا محكمًا يُعَزِّز المفهومَ بأنّ الأجر والدّرجة ليستا فَقَطْ بأفعالٍ مُشابِهَةٍ، وإنّما بظروفها ومدى صعوبةِ تحمّلها.

دلالة التّعبير بالجَمْعِ في قوله: ﴿أَنفَقُواْ﴾ و(قاتلوا):

الإنفاقُ والجهاد عطاءٌ بالنّفس والمال والرّأي

الجمع بين ﴿أَنفَقُواْ﴾ و(قاتَلوا) فيه ترابطٌ وثيق، فالمالُ والدّم جنبًا إلى جنب يُدافِعان عن الدّين والحقّ، فـ ﴿أَنفَقُواْ﴾ لتموينِ القِتال وتثبيتِ الجَبْهَة، و(قاتَلوا) بذلُ الأرواح في سبيل اللّه، فكأنّ الإنفاقَ مطيّةُ القتال، والقتالُ ثمرَةُ الإنفاقِ، فلا غِنى لأحدِهِما عن الآخر[2].

سرّ عدم ذِكرِ الفَتْحِ مع قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ كما ذُكِرَ في صدر الآية:

في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 205.

تعظيمٌ للسّابقين واستغناءٌ عن التّصريح بالمَفضولينَ لوضوح الحالِ عِنْدَ المُخاطَبين

﴿وَقَٰتَلَۚ﴾؛ جاء ذِكْرُ ﴿مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾ تصريحًا، وحُذفت (من بعد الفتح) اعتمادًا على السّياق، في لمسة بلاغيَّة تُبْرِزُ فضل السّابقين، وتُغني عن التّصريح بالمفضول، فالمقامُ مقامُ تفضيلٍ، فذُكِرَ الأعلى تنويهًا بقَدْرِه، وأُعْرِضَ عن ذِكْرِ الأدنى؛ إذ يُفهم ضمنًا من المقابلة. وهذه الصّناعة تُشبه قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر: 20][1]؛ حيث ذُكر الفائز، وفُهِم الخاسِرُ، فكان الحذفُ أبلغَ في الإيحاء، وأعمقَ في التَّقدير.

بلاغة التَّعبير بالاحتراس في قوله: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾:

صيانَةُ البَيانِ القرآنيِّ المَعْنى مِن تَوَهُّم غيرِ المُراد

قوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ احتراسٌ بديعٌ يَدْرَأُ توهّمًا قد يَنْشَأُ مِن اسْتعمال اسم التّفضيل؛ خشيةَ أن يُظنّ أنّه على سبيل نفي المُفاضلَة للمُبالغَة، كما في قول يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: 33]، فلا تفضيلَ حقيقيّ بين مَحْبوبَيْن، بل هو إثباتٌ لمحبوبٍ ونفيٌ لآخر[2]. فالجُمْلَةُ إعلاءٌ مقصودٌ لشَأْنِ الفَريقَيْن، ومدحٌ مُتوازِنٌ يَقْطَعُ وهَمَ التّفاوت المُفْضي إلى الغَبْن؛ إذْ قد يُظنّ أنّ مَن أنفقَ وقاتَلَ بعد الفتح أدنى مقامًا أو محجوبُ الأجرَ، وذلك غيرُ كائنٍ البتّة، فإنّ المثوبَةَ - وهيَ الجنّة - موعودَةٌ لِكلَيْهما[3]، وإن تفاوتَت مراتِبُ الفَضْلِ، فالحُسْنى وُعِد بها الجميع، عدلًا ورحمة وإنصافًا، "فهذا الوعدُ الجامع لا ينفي التّفاوت في المنازل والدّرجات"[4]، بل يؤكّد أنّ التّفضيل بين السّابق واللّاحق إنّما هو في رفعة المقام لا في أصل الثّواب، مع بقاء التّفاوت في المراتب.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 452.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375 - 376.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 206.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 241، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.

تَقْرِيرُ شُمولِ الوَعْدِ وعموم الإثابَةِ

الغرض من تقديم ﴿وَكُلًّا﴾ على فعله ﴿وَعَدَ﴾:

(كلًّا) مفعولٌ مقدّم[1]، وتقديمه يفيد العنايةَ والاهتمام؛ إذ المقصودُ الأهمّ في السّياق هو تقريرُ شمول الوعدِ وعموم المثوبةِ لكِلا الفريقين، لا تقييدها بفريقٍ دون آخر[2].

التّكاملُ الدّلاليُّ بين القِراءاتِ القرآنيّةِ

تنوُّع القراءات بالرَّفع والنَّصب في قوله: ﴿وَكُلًّا﴾ وثراء المعنى:

قرأ الجمهور ﴿وَكُلًّا﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ بالنّصب، وقرأ ابنُ عامر بالرّفع[3]، فقراءة الجمهور على تقديم المفعول على عاملِه، والأصل: (وعدَ اللّهُ كلًّا الحسنى)، أمّا قراءة ابن عامرٍ بالرّفع؛ فعلى جَعْلِه مبتدأً على تقدير: (وكلٌّ وعدَهُ اللّهُ الحسنى). وكلٌّ من القراءَتينِ يُكمِّل الآخر ويُقوّيه؛ فإنَّ قراءة النّصب أقوى من جهة عدم التّقدير؛ فإنّ قراءة الرّفع يلزَمُها تقديرُ الضّمير (وعدَه)، ومن جهة أخرى: أنّ تقديم المفعول اختيارًا يَرِدُ للاهتمامِ والاختصاص، وهو محقّق الوقوع، فوَعْدُ اللّه سبحانه واقعٌ لا يعوقه عائق[4]. وقراءة الرّفع (وكلٌّ وعدَ) أدلُّ على ثبوت الوَعْدِ؛ لكونِ الجملةِ جملةً اسميَّة، والفرق بينَها وبين الفعليَّةِ ماثلٌ للعيان؛ فإنّ الجملة الفعليّة دالّة على التّجدّد، فالثّواب في دار النّعيم وهي الجنان يتجدّد شخصها في كلّ آن وزمان، أمّا الجملة الاسميّة فيراد بها الدّوام والثّبوت[5]، وكلاهما صفتان محمودتان، وعَدَ اللّه بهما عباده المُنْفقين.

دلالَةُ التّعبيرِ بالوَعْدِ مادّة وصيغَةً:

وعـدٌ محقّق، وجزاء موفّق؛ لا شكّ يعتريه، ولا ريبَ ينتابُه

الفعل ﴿وَعَدَ﴾ يَحْمِلُ في طيّاته بشارةً بالجزاءِ الأوفى؛ إذ هو

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 154.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 384.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 259.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 447.

وعدٌ صادِرٌ مِنَ الخبير الحكيم، العليم بمواقع الفَضْلِ ومواضع العدل. وصيغتُهُ الماضَويَّة مُؤْذِنَة بتحقّق الوقوع وثبوتِ الموعود، فهو واقِعٌ لا محالة، وليس هذا بعجيبٍ؛ إذْ كان الوعدُ مِن الله تعالى الذي لا يخلف الميعاد.

الغرض من إسنادِ الوَعْدِ إلى الاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

وعدُ الرّحمن جلالٌ وكمالٌ وإكرامٌ ليس له مثال

إسناد الوَعْدِ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ يُضفي على الوعد طابعَ الهيبَةِ والقُدْرَةِ على التّحقيق؛ لَمّا كان صادرًا ممّن له الجلالُ والكمالُ والإكرام[1]، فلا خُلْفَ لِوَعْدِه، ولا نَقْصَ في عَطائِه.

سرّ التّعبير بـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ عن الجنّة:

غايةُ الحُسْنِ مع التّفاوت في الوصف لا في الأصل

لفظ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ تعبير رفيع عن الجنّة بوَصْفِها المثوبةَ الكاملة، فجاءت بصيغة التّفضيل لا على بابها في المفاضلة بين مُتماثِلَيْن، بل على معنى الأصلِ في الفعل، أو على نحو قولهم: الصَّيفُ أحرُّ من الشِّتاءِ[2]؛ أي: في طبيعَتِه لا في حقيقَتِه، فالمقصودُ إبرازُ كمال الجزاء وسموّ العطاء، فالتَّعبير بلفظ الحُسْنى يدلّ على الدّرجة التي بلغت الغايةَ في الحُسْن، فهي أحسَنُ ما يُتَصَوَّر من النّعيم، وإن كانت درجاتُ الجنّة في ذاتها متفاوتةً[3]. "واستعمالُ لفظ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ يُضفي على أسلوبِ الاحتراسِ معنًى زائدًا يتجاوزُ مجرّد التّأكيد؛ لما فيه من بيان وإيضاح، و﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ في لسان القرآن لقَبٌ إسلاميّ رفيع يدلّ على خيرات الآخرة ونعيمها، كما في قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]"[4].

دلالَةُ حَذْفِ الموصوفِ مع ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾:

عطاءُ الحُسْنى في نَصْرٍ وغنيمة، وجنّة عظيمةٍ

وُصِفَ جَزاؤُهم بلفظ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ دون ذكر المَوْصوفِ؛ لأنّه يحتَمِلُ

(1) الشربيني، السراج المنير: 4/ 205.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 447.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 376/

احتمالاتٍ عدَّةً، فيجوزُ أن يُقدَّر الموصوف بـ (المثوبة الحسنى)؛ أي: الجنّة، وهذا هو الغالبُ في السّياق. ويجوز أن يُراد به ما هو أعمّ من ذلك، كالنّصر أو الغنيمة في الدّنيا[1]، أو المنزلة أو العاقبة[2]، أو كلّ خير ينالُهُ المؤمن، ممّا يدّل على سعَةِ الدّلالة وانفتاحِها.

بلاغة التّذييل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾:

وعدٌ للصّالحين بـحـفـظ أعـمـالـهـم، ووعـيـدٌ لـلـمُـسـيـئـيـنَ بِمُجازاتِهِم على أفْعالِهِم

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تذييلٌ معترض، فالواو فيه اعتراضيَّة تفيد التّوكيد، فاللّه محيط علمًا بدقائق الأعمال، ظاهرِها وباطنها؛ يعلَمُ أسبابَ الإنفاقِ وأحوالَهُ، ويُدرك أوقاتَ الجهادِ ونوايا المجاهدين، فيُثيب كلًّا بحسَبِ ما نَوى وعَمِل[3]. وهذا التَّذييل بليغٌ موجَز مشتَمِلٌ على الوعد والوعيد في آنٍ واحد[4]؛ فهو وعد للصّالحين بأنّ أعمالهم محفوظة بعَيْنِ اللّه تعالى، لا يَضيع منها مثقالُ ذرَّة، ووعيد للكافرين بأنّ خافيَتهم مكشوفة، وأسرارَهم معلومة، لا يَحْجُبها سِتْرٌ ولا يغفل عنها سِجِلّ. وقد جاء التَّذييل مناسبا لختم الآية، وذلك أنَّه لَمّا كان زكاء الأعمال ونقاؤها إنّما هو بصحّة النّيّات وصفائها، وكان التّفضيل بين العباد مبنيًّا على ما يعلمه اللّه من سرائرهم؛ ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ ترغيبًا في إحسان النّية، وترهيبًا من التّقصير والخداع فيها[5].

بلاغة التّعبير بإظهارِ الاسم الأحسن (اللهُ) دون إضماره:

إظـهـارُ الجـلال لـتـمـام الـكـمـال وعظمةِ الإحاطةِ

تتجلّى بلاغة التّعبير بإظهار الاسم الأحسن (اللّهُ) دون إضماره؛ تنويهًا بمقام الاسم الأعظَم، وتعظيمًا لشأن المخبِر؛ إذ هو وحده المتفرِّد بالإحاطة الشّاملة بجميع صفات الكمال[6]، العليم بأعمال

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 172.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 756.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 376.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 260.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.

الخلقِ ظاهرِها وباطنها، فلا يليقُ بهذا الموضع إلّا التّصريح باسمه المقدّس؛ ليكون أوقعَ في النّفس، وأبلغَ في التّقرير.

معنى الباء ودلالتُها في قوله: ﴿بِمَا﴾:

بيانُ شدَّة تعلُّق عِلْمِ الله تعالى بأعمالِ العبادِ

أغلبُ معاني الباءِ في لسان العرب راجعَةٌ إلى الإلصاق[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ إذ وردت الباءُ هنا لبيان شدّة تعلّق عِلْم اللّه بأعمال العباد، وكأنّها ملتصقَةٌ بعِلْمِه، لا تنفكّ عنه لحظَةً، فيَعْلَمُها علمًا محيطًا دقيقًا، لا تَخْفى عليه خافيَةٌ، إيحاءً برقابَةٍ إلهيّة دائمة، توجب الخشيةَ، وتبعَثُ على الإخلاص.

دلالة التّعبير بـ (ما) في قوله: ﴿بِمَا﴾:

خبير بصغير الأفعال وكبيرها، لا تخفى عليه خافية

لمّا كانت (ما) موصولًا دالًّا على العموم[2]؛ اسْتُعْمِلَ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ ليُفصح عن شمول علم اللّه تعالى ودقّته، فهو خبيرٌ بكُلِّ ما يَصْدُر عَنْهُم من أعمالٍ، صغيرها وكبيرِها، ظاهرِها وخفيّها، حسَنِها وسَيِّئها، لا يخفى عليهِ منها شيءٌ.

الغَرَضُ مِن تقديم الجارّ والمجرور ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

تقديمٌ يُفْصِحُ عن العناية، وتمييزٌ يكشِفُ عَن الفَضْلِ والهداية

قُدِّم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على وصف الخبير - ﴿خَبِيرٞ﴾ - ؛ "لبيان عناية السّياق بالأعمال؛ إذ المقامُ مقام حديثٍ عن الإيمان والإنفاق والجهاد"[3]، ودلالةً على أولويَّة العلم والقدرة الإلهيّة في إدراك خفايا الأمور وأسرار القلوب[4]. "ولإفادة العناية والاهتمام البالغ بما يعمل العباد؛ إذ جاء التّقديمُ إظهارًا للتّمييز عند مقام التّفضيل"[5]، وتنبيهًا على أنّ علمَهُ تعالى بأعمالهم ليس أمرًا عارضًا، بل هو علمٌ دقيقٌ محيط، يُعْتَنى به في ميزان الجزاء، ويُفَصَّلُ فيه بين مراتب العاملينَ.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 98.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 205.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 334.
(4) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 191.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.

دلالة التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

عـمَـلٌ منكُم دائـم، وعلم به من الله سبحانه قائمٌ

في التّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ إيذان باستمراريَّة الفعل وتجدّد وقوعه؛ للإشارة إلى أنّكم تجدِّدون أعمالكم، وتتقلّبون فيها على مرّ الأوقات(1)، فكلُّ لحظَةٍ تحمل عملًا، وكلّ عمل يخضَعُ لعلم اللّه ومجازاته. وجاء التّعبير بالمصدر المؤوَّل بدلًا من المصدر الصّريح (خبيرٌ بِعَمَلِكُم)؛ لما فيه من إظهارِ الفعل في حَرَكتِهِ وامتداده، وتصويرِ الحدث أثناءَ وقوعه، لا كأمْرٍ جامد منجز، ممّا يوحي برقابة إلهيَّة حاضرة ومستمرَّة على الأفعال وقت مباشَرَتِها.

دلالة التّعبير بصيغة المبالغة بقوله: ﴿خَبِيرٌ﴾:

عِـلْـمٌ تفصيليّ بـمَـنْ يستحقّ الـثّـوابَ مِـن عباده الصّالحين والـعـقـابَ من النّاكبين

اسْتُعْمِلَ لفظُ ﴿خَبِيرٌ﴾ على زنة (فَعيل)؛ لأنّ اللّه تعالى لَمّا وعد السّابقين والمحسنين بالثّواب؛ كان من تمام الوعد أن يكون سبحانه عليمًا بالجزئيّات، محيطًا بالمعلوماتِ كافَّةً، عالمًا بمَن يستحقّ الثّواب والعقاب على وجه التّفصيل، ولولا ذلك لَما أمكن الوفاءُ بالوعد على وجه العدلِ والكمال(2). "وفيه إشارةٌ بليغة إلى أنّ اللّه تعالى مطّلع على خفايا النّيّات ومكنونِ الطّويات، فليست العبرةُ بظاهر الأعمال، بل بما يَصْحَبُها من إخلاص، أو يشوبها من رياء، فقد يجيءُ العمَلُ في ظاهره صالحًا، وهو في باطنِه فاسِدُ النّيّة، فيَحْبَطُ ولا يُقْبَلُ"(3).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَظَمة والفضل:

الفضل زيادةٌ، والـعـظـمـة سيادةٌ، تُجَلّي جلالَ التّضحية وتُـعْـلي لـواءَ السّبق والزّيادة

عبّر اللّهُ تعالى في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ بلفظ ﴿أَعۡظَمُ﴾ بدلًا من (أفضل)؛ لأنّ العِظَم يدلُّ في أصله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 453.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 756.

على الكِبَر والقوّة والرّفعة الفارقة[1]، وهو أنسب في مقام المفاضلة بين الدّرجات العالية، بخلاف الفَضْلِ الذي يدلّ على الزّيادة في الخير[2].

الدرجة والمنزلة:

الـدّرجـات دليلُ تفاضُلِ العملِ، والمـنـازل مـقـامُ مَن كُفي السّعي والأمل

عُبِّر بالدَّرجةِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ دون المنزلة؛ لأنّ الدّرجة هي الرّفعة في المنزلة[3]؛ ولأنّ الدّرجاتِ تُفصح عن مراتبِ العلوِّ والارتقاء، وتوحي بالتّفاضل الذي يُنالُ بالسَّعي والمجاهدة، بخلاف المنزلة؛ فهي تُطْلَق على المقام الثّابت.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(3) الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة: (درج).

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ [الحديد: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّرغيب في الصَّدقة بِبَيانِ ما أُعِدَّ لأصحابِها مِن عظيمِ الجزاءِ

حينما أشارت الآية الفائتة أنّ للسّابقين فضلَ السّبق في العطاء، ووعدَت اللّاحقين جزيلَ الثّواب بحسن الاقتفاء، وأومئ إلى إمكان إلحاقهم بهم بصفاء السَّرائر، وصدق الولاء، فاستحكمت بذلك دواعي الجود والبذل؛ أثمر ذلك تسميةَ الصّدقة التي ظاهرُها إخراج بغَيْرِ عوض، باسْمِ القرض الذي يرجعُ إلى صاحبِهِ؛ ترغيبًا فيها بما أُعدّ لها من جزاءٍ موفور، فكيف إذا تضاعَفَ ذلك الأجرُ أضعافًا مضاعفة[1]، فقال سُبحانَهُ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، فشتّان بين مَن يُعْطي الفاني للفاني، ومَن يُقْرِض الغنيَّ الوفيَّ الكريم المُعْطي!.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُقْرِضُ﴾: فعل مضارع دالّ على الحال والاستقبال، والجذر اللّغويّ منه: (قرض)، والفعل منه ما كان قطعًا بالنّاب، والاسم منه يقَعُ على كلّ "ما يُلْتَمَسُ عليه الجزاءُ من صدقة، أو عمل صالح". والأصل في القاف والرّاء والضّاد دلالَتُهُ على القطع، كقَرْضِكَ الشّيءَ بالمقراض، وما تُعْطي الإنسانَ من مالِكَ؛ كأنّك تقطَعُ له شيئًا منهُ، والقَرْضُ: نوعٌ من القطع، فإذا قطعتَ مكانًا وتجاوزتَهُ؛ فقد قَرضتَهُ، وإذا دفعتَ مالًا لإنسانٍ بشرط ردّ بدَلِهِ؛ سمّي قرضًا[2]، والقرض في القرآن العظيمِ يُراد به الصّدقة، سواءٌ أكانت من باب الواجب أم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 270.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قرض).

المندوبِ، وسمّي قرضًا من باب المجازِ؛ إكرامًا للمتصدّقين به، وإلاّ فهو صدقَةٌ يَعودُ إليهم مُقابِلُهُ وبدَلُه؛ أي: ثوابه[1]. ومعنى ﴿يُقۡرِضُ﴾ في الآية الكريمة: يُنْفِقُ في سبيل اللّه محتسبًا نفقتَهُ[2].

2) ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾: فعل مزيد بالألف على زنة (فاعَلَ، يُفاعِل)؛ وهو دالّ على الحال والاستقبال، والجذر اللّغويّ منه: (ضعف)، والضِّعف: زيادة الشّيءِ بمِثْلِه، والأصل في الضّاد والعين والفاء: دلالتُه على الزّيادة على الشّيءِ مثلَهُ، يقال: ضعَّفتُ الشّيء تضعيفًا، وضاعَفْتُه مُضاعَفَة؛ وهو أن يُزاد على أصلِ الشّيء، فيُجعل مثله أو أكثر، وضَعّفتُ القومَ أضعفهم ضِعفًا؛ إذا كثّرتَهم، ويَرِد الضِّعف بمعنى مِثْلَي الشّيء لا مثلًا واحدًا[3]، والضِّعف عند العرب: المِثْلُ إلى ما زاد، وليس مقصورًا على المِثلين، وضِعفُ الشّيء: مثلُه، وضِعفاه: مثلاه، وأضعافُه: أمثالُه[4]. ومعنى فعل المضاعفة في قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ في الآية؛ هو أن يَزيدَهُم اللّهُ سبحانه على ما أنفقوا مثلَه، أو أكثر من ذلكَ[5].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

من ذا الذي يسارع إلى الإنفاق في سبيل اللّه، محتسبًا الأجرَ عند ربّه، متطلّعًا بِثِقَةٍ إلى ما أعدّ اللّهُ تعالى له، راجيًا مرضاته، لا يُنفق رياءً ولا سمعة، متيقّنًا أنّ ما يقدِّمَه هو القرضُ الحسَنُ الذي وعَدَ اللّهُ بقبولِه مضاعفًا، فاللّه سبحانه يتكفّل لهذا المُنْفِق بأن يُضاعِفَ له عطاءَه، حتّى يصير الدِّرْهَمُ الواحد كسَبْعِ مِئَةِ درهم. فالقرضُ الحسَنُ عند اللّه لا يُقابَلُ بمثله، بل يُجازى بعطاءٍ واسع

مَن أقرض الكريم؛ ربح النّعيم ومن أنفق في سبيله؛ فاز بعطائِهِ المُقيم

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قرض).
(2) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7312.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ضعف).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (ضعف).
(5) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 293.

عظيم، فإذا أنفقَ العبد كان له من الأجر جزاءٌ كريمٌ جزيلٌ، لا يَقِفُ عند حدود المالِ والمُضاعفةِ فحَسْبُ، بل بَعْدَهُ وعْدٌ أكبرُ بدارِ الكرامة وهي الجنّة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ الاستئنافِ في قولِهِ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي﴾:

تعليلٌ للوَعْدِ بالحُسْنى، فمَنْ يُقْرِض اللهَ يَجِد العطاءَ مُضاعفًا

الآية واقعة موقعَ التّعليل والبيان لقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، وما بينَهُما اعتراضٌ لا يقدَحُ في ترابط السّياق، فالآية تُصوّر حال المنفِق في سبيل اللّه بصورةِ مَن يُقرض مولاه، وتُصوِّر جزاءَ اللّه على ذلك بصورةِ المُسْتَقْرِض الكريم، الذي يُجزل العطاءَ، ويُحسن الوفاء[2].

غرَضُ التّعبير بالاستفهام في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾:

سؤالٌ في اللّفظِ، وتحضيضٌ في المَعْنى، وتشريفٌ في المُنى

الاستفهامُ في الآية واردٌ على وجهِ التّحضيضِ والإلهاب والتّحفيز، قصدًا إلى التّهييج على الإنفاق في الخير، وكأنّما طُرح السّؤال إظهارًا لنُدْرَةِ مَن يَنْهَضُ بهذا الفضل، وتعظيمًا لمن يتأهّل له، أو أن يتطلّب من يُقدم على الفعل، ويتحرّى تعيينَهُ؛ ليُسند إليه العمَلُ أو يجازيه عليه[3]، وهو يَحْمِلُ في طيّاته إغراءً بالإنفاق في سبيل اللّه؛ إذْ إنّ القَرْضَ في عُرف النّاس لا يعود بزيادةٍ، بل يُردّ كما أُخذ، أمّا من يُقرض اللّه تعالى، فلا يَقْتَصِرُ جزاؤه على استردادِ ماله، بل يعودُ عليه مضاعفًا، محمّلًا بالأجر والثّواب، فهو قَرْضٌ رابح مضمون، لا ضائعٌ مفقود؛ لذلك قال سبحانه: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: 245][4].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 177 - 178.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 377.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 481، و: 27/ 377.
(4) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/ 133.

الغرَضُ مِن التّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ في قوله: ﴿ذَا﴾:

إبــرازُ أهـمّيَّة القَرْضِ وتعظيمُ شأنِه

عُبِّر باسم الإشارةِ لاسْتِحْضارِ حالِ المُقْتَرِض في صورة الحاضِر المَشْهودِ، الماثل للنّداء[1]، تعظيمًا للمقام، وإجلالًا لمن يتأهّل لهذا الشّرف الجليل، و"جاءت ﴿ذَا﴾ عقب اسمِ الاستفهام، على جهة الإشارة المجازيَّة، ليُصَوَّر في ذِهْنِ السّامع شخصٌ موهوم مجهول قد صَدَرَ منه هذا الفعلُ الجليل، فيُطلب تعيينُه، وهذا الأسلوب البلاغيُّ إنّما يُراد به إبرازُ أهمّيَّة الفعل وتعظيم شأنه، واستدعاء الهمّة لمعرفةِ مَن يتشرّف بالقيام به"[2].

سرّ التّعبير بالموصول وصِلَتِهِ في قوله: ﴿ٱلَّذِى يُقۡرِضُ﴾:

رَسْــمُ مـلامـح الاسـتـحـقـاق الجزيلِ، وجَعْلُ الإقراضِ الحسن سبيلًا للفضل الجليلِ

جاء التعبير "بالموصولِ كنايَةً عن أنّ الألسنة تتحدَّث به عند كلِّ أمرٍ ذي شأن ومقام"[3]، كما جاء التّعبيرُ به لإظهار العلّة التي اسْتُحِقَّ بها الجزاءُ العظيمُ، "وإيذانًا بالمدح والتّكريم"[4]؛ إذ كانت صِلَةُ الموصولِ - وهي الإقراضُ الحسَنُ - سببًا موجبًا للمُضاعفة والأجر الكريم المذكورَيْن في قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾، فكأنّ الصّلة رَسَمَت ملامِحَ الاسْتِحْقاقِ، وجَعَلَت الفِعْلَ وحدَهُ كافيًا لاستجلابِ فَيْضِ العَطاء الإلهيّ. فالموصوليَّة هنا لا تَقْتَصِرُ على بيان الفاعِلِ، بل تَحْمِلُ في طيّاتها تمجيدًا لمقامه، وتنويهًا بمكانته.

بلاغَةُ الجَمْعِ بينَ الاستفهامِ والموصولِ:

سؤالُ العَظَمَةِ وهَيْبَةِ المقامِ في أفصح الكلامِ

قولُهُ تَعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾ أسلوبٌ اجْتَمَعَ فيه مِن أدوات البلاغةِ أرْقاها؛ إذِ التَحَمَ فيه الاستفهامُ باسْمِ الإشارة والموصول، ليُفصح عن معنًى يعزّ وقوعُه، ويجلّ مقامُه، فهذا التَّركيب لا يُسْتَعْمَلُ إلّا في المواطن التي يُسْتَعْظَم فيها الفعل، ويُسْتَبْعَد تحقُّقُه، فيقال: مَن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 377.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 481.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/ 872.

(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 334.

ذا الذي يَفْعَلُ كذا؟ إذا كان الفعلُ جليلًا لا يُرتكب إلّا بقدرة نادرةٍ، أو إذْنٍ عظيم، كنَحْوِ قولهِ سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255][1]، والجمع هنا أسلوبٌ لا يُسْتَعْمَل إلّا في مقامات الشّرف والعظمة[2].

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿يُقْرِضُ﴾ مادّة وصيغةً، وسرُّ اسْتِعارَتِه:

تأنيسُ العطاءِ الـرّبّـانيّ في القـرض والبيع في سوق الإيمان والجزاء

جاء التّعبير بـ (القرض) دون (التّصدّق)؛ لِما في لفظ القَرْضِ مِن دلالةٍ مخصوصَةٍ على طلب الجَزاء والمكافأة؛ إذِ القَرْضُ في أصلِه ما يُعطى في مقابل يُرجى ردّه، أو يُلتَمَس عليه الجزاء[3]، فناسَب هذا اللّفظُ المقامَ؛ لأنّ المُنْفِقَ في سبيل اللّه يُرجى له عِوَضٌ مضاعَفٌ. والتّعبيرُ بالفِعْلِ المضارع ﴿يُقْرِضُ﴾ لإفادة التّجدّد والاستمرار، في إشعارٍ بفَتْحِ باب الإنفاق في كلّ وقت، وترغيب دائم لا ينقَطع.

واختيرَ لَفْظُ (القرض) تأنيسًا وتقريبًا للمَعْنى إلى أذهان النّاس بما يعبّر عن مفهوم مألوف لديهم، مع أنّ اللّه ﷻ هو الغنيُّ الحميد، فجاء التّشبيه ليُقَرِّب عطاءَ المؤمن في الدّنيا المُرْتَقب لَهُ ثوابًا أزليًّا في الآخرة، بصيغة القرض الذي يُرتجى منه الرَّدّ. كما صَوَّر سبحانه في مواضعَ أخرى بيعَ النّفس والمال في سبيل الجنّة[4].

الفعل ﴿يُقْرِضُ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

القَرْضُ الإلهيّ عطاءٌ يُجْزى به في الدّنيا والآخرة

اسْتُعْمِل الفعل ﴿يُقْرِضُ﴾ استعمالًا مجازيًّا؛ إذ شبّه الإنفاق في سبيل اللّه بالقرض، تنزيلًا له منزلَة من يُعطي مالَه لغَيْرِه على أملِ الجزاء، فكان المعنى: مَن أنفَق مالَهُ خالصًا لوجه مولاه، فكأنّما أقرضَهُ إيّاه، وعدًا من اللّه بالخُلف والجزاء الأوفى[5]. والأصل في

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 167.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 207.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/ 239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 482.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/ 240.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 474.

لفظ (القرض) إسلافُ المالِ ونحوِه بقَصْدِ اسْتِرْدادِ مِثْلِه، ثُمّ ارْتَقى به الاستعمالُ القرآنيُّ ليُسْتَعْمَلَ مجازًا في كلّ بَذْلٍ يُقْصَد به الجزاء، فشَمِلَ بذلك بَذْلَ النّفس والمال والعمل رجاءَ الثّواب من اللّهِ سبحانه. فكان الفعل ﴿يُقۡرِضُ﴾ في الآيةِ جامعًا بين الحقيقة والمجاز[1]، دالًّا على أنّ ما يُبْذَلُ في سبيل اللّه لا يَضيع، بل هو مضمونُ العِوَض، محفوظُ الجزاءِ.

ومن رآه حقيقة جعل القرض كلّ ما يقدَّم ليجازى عليه، والحكمة من هذا التّعبير التّنبيه إلى أنّ ما يُقدَّم في سبيل اللّه لا يضيع، كما أنّ القرض لا يُهمل أداؤه، فكذلك الثّواب على هذا الإنفاق مضمون لا محالة، وهو راجع إلى المكلّف بحقّ وعد الكريم[2].

سرّ التّعبير بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

قَـــــرْضٌ في الظّاهِر، ومثوبة في الباطنِ

عُبِّر بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دون لفظ (الرّبّ) في قوله تعالى: ﴿يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ تعظيمًا لوجه اللّه الذي له كمالُ صِفاتِ الجلال والكمال والجمال، فيكون عطاؤُه في صورة القَرْضِ رجاءً في الثّواب من اللّه ﷻ[3]؛ إذ لا يُقْرَضُ إلّا مَن يُرْجى عطاؤُه.

دلالة التَّعْبيرِ بالمصدر مُنَكَّرًا ﴿قَرۡضًا﴾:

في إقراض المليكِ إخلاصُ النّفوسِ واصـطـفـاءُ النّفائس

لفظ ﴿قَرۡضًا﴾ في الآية الكريمة مفعول مطلق يُجَسِّدُ المعنى في أنقى صوَرِه، ويجعل الإقراض فعلًا خالصًا للّه، لا تَشوبُهُ مِنَّةٌ ولا رياء، فالنّحويون يطلقون المفعول الحقيقيَّ على المصدر المنصوبِ أو المفعول المطلق[4]، وكأنّ الإقراض ذاتَهُ مظهرُ إخلاصٍ محض، وتجرّدٌ عن الدّنيا للّه الواحد الأحد؛ إنّه عطاءٌ للّه تعالى لا لغيره،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 481.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 6/ 499 - 500.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 270.

(4) ابن يعيش، شرح المفصل: 1/ 272.

وتحرٍّ لأكرم المال، وإنفاقٌ في أشرف الجهات[1]. فالآية تُصعّد المَعْنى من مجرّد التّصدّق إلى مقام المعاملة مع اللّه التي لا يُراد بها إلّا وجهه سبحانَه.

وورود القَرْضِ مُنكَّرًا يفيد الإطلاقَ وتعدّدَ وجوهه؛ إذْ يَحْتَمِلُ أن يكون المقصودُ به التّسبيحَ والتّحميدَ والتّكبير والتّهليل؛ لِما فيها من صَفاء النّيّة وخلوصِ العِبادة، كما قَد يُراد به النّفقة على الأهل؛ لِما فيها من سَعْيٍ في إعفاف النّفس وإعالة العيال. أو يُراد به التقرّب إلى اللّه بالنّوافل والتّطوّع بالعبادات؛ لِما فيها من محبّة القُرْب والزّلفى. أو يشمل سائرَ أعمال الخير والبِرّ والمعروف، أو يُخصّ بالنّفقة في سبيل اللّه؛ لِما فيها من بَذْلِ المال خالصًا لنُصرة الدّين[2].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة أو التَّمثيليَّة في قوله: ﴿قَرْضًا﴾:

قرضٌ لا يُخشى ضياعُهُ، بل يُردُّ بالمضاعفةِ

في قوله تعالى: ﴿قَرْضًا﴾ استعارة تصريحيَّة، فقَدْ شُبّه الإنفاقُ في سبيل اللّه بالقرض الحسَن، فحُذف المشبّه وذُكر المشبّه به، ووجهُ الشَّبه ما في القرض مِنْ رجاء الرّدّ والمضاعفة؛ وهو ما يُناسِبُ مقامَ الحثّ على الإنفاق في سبيل اللّه الذي نَهى اللّه سبحانه عن تركهِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3].

ويجوز أن يكون استعمالُ القرضِ هُنا استعارةً تمثيليَّة بديعة؛ صوِّرَ فيها حالُ المنفق في سبيل اللّه، مخلصًا متحرّيًا أكرم الجهات، بحالِ مَن يُقرض غيرَهُ طيّبَ النَّفس، طمعًا في الرَّدّ والجزاء. فجُعل الإنفاقُ كالقرض، وجُعل اللّه ﷻ في تمثيل كريم - وللّه المَثَلُ الأعلى - كالمستقرِض الذي يردّ القرض مضاعفًا، جزاءً وإكرامًا[4].

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 358.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 472.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 377.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 174.

سرّ وصْفِ القرضِ بالحُسْنِ دونَ غيره:

تكريمٌ للإنْفاقِ وتَشْرِيفٌ للمُنْفِق

وُصِفَ القرض بالحُسْنِ دون سواهُ مِنَ الأوصافِ؛ ليُضفي عليه بُعدًا معنويًّا يليق بجلال المخاطَب والمخاطِب؛ فالحُسْنُ هنا ليس في محضِ العطاء، بل في صفائهِ ونزاهته ومقصده، فهو قرضٌ يُصرف في وجوه البرّ والخير والإحسان، ويُبتغى به وجهُ اللّٰه تعالى، خاليًا من المنّ والأذى[1]، ويكون "من وجهٍ حلال، ولا يُكدّره تطويلُ الوعد، ولا يُنْتَظَرُ عليه كثرةُ الأعواض"[2]، فإذا كان كذلك ففيهِ "تشريفٌ للمُنْفِق وتكريمٌ لفعله"[3].

معنى الفاءِ ودلالَتُها في قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾:

مَنْ أقرضَ اللّٰهَ؛ وجدَ الجزاءَ مضاعفًا والعطاءَ فيّاضًا

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ فاءُ السّببيَّة الدّالّةُ على أنّ المُضاعفَة أثَرٌ مباشِرٌ ومترتّب على القَرْضِ الحسَن، فكأنّما جَعَلَ اللّٰه الإقراضَ له سببًا واجبًا في فيضِ الجزاء، وعلّةً مؤكَّدةً في فيض العطاءِ[4].

أثَرُ تعدّد القراءاتِ في قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ على المَعْنى المُرادِ:

بين ترتّب الجزاء على فعل الإقراضِ والتّحريضِ على المبادرة بالقَرْضِ الحسَنِ

في قوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ أوجهٌ في القراءة؛ الأولى: في حركةِ الفاءِ؛ فَقد قرأ ابن عامر وعاصمٌ ويعقوب بالنّصب، وقرأ الباقون بالرّفع. والثاني: في حذف الألِفِ وتشديد العين؛ فقرأ ابنُ كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوبُ بالحذف والتّشديد، وقرأ الباقون بالإثبات والتّخفيف[5]. فيتحصَّلُ مِنْ هذين الوجهينِ أربعُ قراءاتٍ؛ ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ - بالمدِّ والتَّخفيف ونصبِ الفعل - ، وبها قرأ عاصمٌ. و ﴿فَيُضَٰعِفُهُۥ﴾ - برفع الفعل مع المدِّ والتَّخفيف - وهي قراءة

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 472.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 536، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 454.
(3) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 202.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 270، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 377.
(5) ابن الجزري، النشر: 2/ 228.

نافع وأبي عمرو وحمزةَ والكسائيِّ وخلفٍ العاشرِ. و﴿فَيُضَعِّفُهُۥ﴾ - بالقصْرِ والتَّشديد مع رفعِ المضارعِ - ، وقرأ بها ابن كثيرٍ وأبو جعفرٍ. و﴿فَيُضَعِّفَهُۥ﴾ - بنصب المضارعِ مع القصْرِ والتَّشديد - وقرأ بها ابن عامرٍ ويعقوبُ.

وتنوّعت القراءاتُ في قوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾، لتُظْهِر بُعْدًا بلاغيًّا دقيقًا؛ فقراءة النّصب واردَةٌ مَوْرِدَ الجواب للاستفهام، مؤكّدةً على عُلقةِ الرّبط والتّسبيب[1]. وكأنّ الجزاء الموعودَ مترتّب حتميٌّ على فعل الإقراض. أمّا قراءة الرّفع فعُطِفَت على (يقرضُ)، أو هو على الاستئناف، على تقدير: فهو يضاعِفُ[2]. فجاء المعنى محرّضًا على المبادرة بالقرض الحسن؛ لأنّ المضاعفة هي النَّتيجة القطعيَّةُ لذلك الفعل، والإقراض سبَبٌ[3]، وكأنّ الآية تقول: أقْرِض يُضاعَفْ لَك؛ إذ الإقراضُ عِلّة العطاء.

أمّا حذفُ الألف والتّشديد؛ فإنَّ التّشديد دالّ على التّكرير وإدامة الفعل واستمرارِه[4].

دلالةُ التّعبير بالتّضعيف دون الزّيادةِ في قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾:

تصويرٌ تفاعليّ لعِظَمِ الثّواب، وترغيبٌ في العمل الصّالح

في قوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ إيماءةٌ بليغة إلى أنّ اللّه تعالى لا يقتَصِرُ في الجزاء على قدر العمل، بل يضمّ إليهِ مثلَهُ مِنَ الفَضْلِ والكرم[5]، فالمُضاعَفَةُ هُنا إشعارٌ بتَجاوُزِ العدل إلى التَّفضّل؛ حيث يُضاف إلى الثّواب المستحقّ تفضُّلًا في الأصلِ ثوابٌ آخَرُ من خزائن الإحسان زيادةً في التَّفضُّلِ. فالتّعبير بالفعل ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ دون لفظ الزّيادةِ؛ يحملُ دلالةً بلاغيَّةً عميقة؛ إذ اختير التّضعيفُ لإبراز معنى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 271.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 699.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 377.
(4) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 98.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 455.

المبالغة في الثّواب، ولأجل التّفضيل[1]: فجاء أولًا بصيغة التّضعيف التي تفيد التّكرير والتّكثير، ترغيبًا في العمل الصّالح. وثانيًا، صيغَ الفعل على وزن المفاعلة ما يضفي على المعنى بعدًا تفاعليًّا بين العبد وربّه، ممّا يعظم الأثر ويقوّي الرّجاء. وثالثا التّفضيل، إذ إنّ التّضعيف لا يكون إلّا لما يستحقّ الزّيادة والتّكريم. والتّعبير بالفعل المضارع يوحي بتجدُّد العطاء واستمراره، ويفتح آفاق الرّجاء أمام المؤمن، إذ يُصوّر المضاعفة على أنّها سنّة إلهيّة جاريّة، لا تنقطع ولا تُحدُّ بزمان، وأنّ فضل اللّه حاضر دائم، وأنّ إقراضه سبحانه لا يضيع، بل يُتبع بعطاء مضاعف متجدّد من فيض كرمه.

دلالةُ صيغة المُفاعلة في لفظِ المُضاعفَة:

مبالغةٌ لا مُشاركَةٌ

ليس استعمالُ صيغة المُفاعلَةِ على حَقيقَتِها؛ إذ لا مُشاركَةَ في الفعل، وإنّما أُتي بها لِما تُشعِر به مِن مبالغةٍ تدلُّ على شدّة الفعل أو كثرةِ وقوعه، فكانت للمبالغَةِ لا للمُشاركة[2].

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لَهُۥ﴾:

لامُ الاستحقاق في موضع التّتويج؛ هو جزاء المؤمن الكريم

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ لامُ الاستحقاقِ والاختصاص[3]؛ اختصاصِ الأجرِ الكريم بالمُؤْمِن دلالةً على أنّه جديرٌ به ومستحِقٌّ لَهُ - على وجهِ التّفضُّلِ - دون منازع، فهو جزاءٌ خالص لِمَن تحقَّق بالإيمان والعمل الصّالح.

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور (له):

انفراد المؤمن بالأجر الكريم تخصيصًا وتشريفًا

تقدَّم الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ لتأكيد الاختصاصِ والاهتمام؛ إذ أُسند الأجرُ الكريم إلى المؤمن على وجهِ القَصْر، فجاء التّقديمُ توكيدًا على أنّ ذلك الجزاء العظيم لا يكون إلّا له، فهو وحدَهُ المستحقّ لهذا الأجر، لا يُشاركه فيه غيره.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 270.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 238، والآلوسيّ، روح المعاني: 2/ 163.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 335.

سرُّ وصف الأجر بالكريم دون العظيمِ:

كــرم الأجـــر في مقابلة العمَلِ، وتعظيمُ الفَضْلِ لا المعاوضة

سُمّي الأجر كريمًا لا عظيمًا؛ لأنّ الكرم هو سببُ ذلك التّضعيف، وبه حصلت الزّيادة وتفجّرت ينابيعُ العطاء، فجاء الوصف نابعًا من جوهرِ الأجر وأصله، لا من حَجْمِه ومقداره؛ إذِ الكرَمُ هو مصدَرُ الفَيْض، وأصلُ النّمو، فكان كريمًا في ذاتهِ مِن هذا الوجه والاعتبار[1]، والأجرُ وحدَهُ كافٍ، فما بالكم إذا ضوعِفَ؛ فأوجب التّنافس فيه، والحرص على نيله[2]. فوَصْفُ الأجر الكريم يدلُّ على النّفاسة، فهو أرفَعُ أنواعِ الأجور قدرًا وأعلاها منزلة، فإنّ الكريم في كلّ شيء هو ما نَفُسَ وخَلُصَ، وبلغ الغايةَ في الشّرف والتّمام[3]. والأجر الكريم ليس وصفًا عابرًا، بل إشارةٌ بليغة إلى نوعيَّة الأجر لا كمّيَّته، "ففي هذا التّعبيرِ جمعٌ بين الكَيْفِ والكمِّ، فمضاعفة الأجر بَيَّنَتِ الكمّ"[4].

الغرض مِنَ التّنكير في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾:

جـــلالُ الأجْـــرِ وعـظـمَـتُـهُ في وعْدِ اللهِ تعالى لعبادهِ

التّنكير في قوله تعالى: ﴿أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ دالٌّ على عِظم هذا الأجر وجلالته، فهو أجرٌ لا يُحدّ ولا يُحاط به تصوُّرًا، ولا يعلم قدرَهُ إلّا اللّه تعالى[5]، يجودُ به اللّهُ تعالى وتفيض به مِنَّته، فهو أجرٌ عظيم في ذاته، كريمٌ في مصدره، جزيل في أثره، لا تُدركه العقول ولا تبلغه الأماني.

الغرض من التّعبير بالجملةِ الاسميَّة في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾:

أجـــرٌ كـريـمٌ جليلٌ، لا يفنى ولا يزولُ

لَمّا تقرّر عند اللّغويين والبلاغيّين دلالةُ الجملةِ الاسميَّة على الثّبوت[6]؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ يدلّ على ثبوت الأجر

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 455.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 378.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 335.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 271، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 207.
(6) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 133، والعيني، المقاصد النحوية: 1/ 512، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 51.

وثبات جلالتِه وعظمته، فهو غيرُ مشوبٍ بالشّك أو النّقص، وهو أجرٌ كريم عظيم لا يتغيّر ولا يزولُ.

بلاغةُ ختمِ الآية باستحقاق الأجر الكريم:

من القَرْضِ الحسن إلى فَضْلِ المُحْسِن، ومِنَ التّضعيف إلى الأجر المنيفِ

خُتِمَت الآية بقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾؛ ليكون مسكُ الخِتام وعدًا زائدًا على ما سبقَهُ من التّضعيف المترتّب على القرض الحسن[1]، فإنّ الأجر الكريم ليس مجرَّد مقابلة للقرض الحَسَن، بل هو عطيَّة سامِقَةٌ، وفضل زائدٌ، يتجاوَزُ مطلقَ الجزاءِ.

دلالة الاتّفاق والاختلاف مع الآية (245) من سورة البقرة:

تنوّع التّعبير بين حثِّ المجاهِد وترغيب المُنْفِق؛ من مضاعفة الأجر إلى إطلاقِه وكرمِهِ

قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: 245]، وقال سُبحانَهُ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾، وقد تشابَهت آيةُ البقرة وآيةُ الحديد في الدّعوة إلى الإنفاق من خلال تصويره بالقَرْضِ الحسن لله تعالى، غيرَ أنّ التّعبير اختلف تبعًا لسياق كلّ آية ومقصدها البلاغيِّ:

ففي آية البقرة يقول الله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: 245]، فالعنايَةُ كانَتْ على الكمّ؛ فجاء التّعبير بصيغةِ التّضعيف الكثيرِ غيرِ المحدّد، ممّا يبعَثُ الحماسَ في النّفوس لبَذْلِ المال، ولا سيّما أنّ الآية وردت في سياق الجهادِ؛ حيثُ الحاجّة إلى التّحفيز المادّيِّ والمعنويِّ معًا، وزيادةُ الأضعاف تعبيرٌ عن عِظَم الأجر ومضاعفة الثّواب، وقد بُيّنت هذه الأضعاف في موضعٍ آخرَ بأنّها تبلُغُ سبْعَمِئةٍ وتزيدُ ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 261].

أمّا آية الحديد فجاء فيها قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾، فذُكر التّضعيفُ دون تحديد، ثُمَّ أُتبع ببيان النّوعِ لا الكمِّ فقط، فجاء

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 104.

الوصف بـ ﴿أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾، فجمعت الآيةُ بين الوعد بالمضاعفة من جهةٍ، والوصفِ الكريم للأجر من جهةٍ أخرى، فكان في ذلك ترغيبٌ جامِعٌ بين الوفرة والجلالة، وهذا مناسب لسياق آية الحديد التي تتحدّث عن الإنفاق العامّ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القَرْضُ والدَّيْن:

الدَّينُ أعمُّ مِنَ القرضِ

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ بلفظ القَرْضِ دون لفظِ الدَّين؛ لِما في القَرْضِ من خصوصيَّة الدّلالة على العطاء الفوريِّ المَحْضِ دون تأخير، المقترن بالتّجرّد عن المنّة، والمبنيّ على نيّة الرّدّ والمجازاة، فهو يشير إلى مال يُعطى حالًا لله تعالى بإخلاص، ويرتَقِبُ العبدُ عِوَضَهُ من الكريم لا من الخلق، ففي تسميتِه قرضًا تأكيدٌ "لاستحقاق الثّواب به؛ إذ لا يكون قرضًا إلّا والعِوَضُ مستحقّ به"[2]. والدَّيْنُ قد يُفهم منه ما اشْتُرِط فيه الأجل، أو ما يترتّب على بيع ونسيئة، ويكون بمثلِه أو عَيْنِه[3]، ممّا لا يناسب المقام العلويّ الذي يتحدّث عن بذل مباشرٍ للمولى الكريم سبحانه من غير عَقْدِ مصلحة بشريَّة. فاختيارُ القرض هو اختيار بيانيٌّ يوحي بالإخلاص، والعطاء الفوريِّ، والتّعويض الإلهيِّ الكريم، مع بُعدٍ عن المعاملة البشريَّة وأحكامها.

التَّضعيف والزّيادة:

أجـر يتكاثر وفضل يتسامى في تجلّي الكرم الإلـهـي في أضعاف كثيرة

في قوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ اسْتُعْمِلَ لفظُ المُضاعَفَة، ولم يُسْتَعْمَل لفظ الزّيادة؛ لِما في المضاعفة من دلالةٍ على التّكرار والوفرة والزّيادة المتراكمة بمِثْلِها أو أكثر[4]، لا زيادة مجرّدة عن

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 1/ 481.
(2) الجصاص، أحكام القرآن: 1/ 547.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 171، والمطرزي، المغرب في ترتيب المعرب، ص: 379.
(4) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 307.

التّحديد الدّالة عَلى الفضل[1]، فالزّيادةُ قد تكون يسيرةً غيرَ موصوفَةٍ، أمّا المضاعفة؛ فتوحي بأنّ الأصل يُرَدّ مكرّرًا مثلُه مَرَّتين، أو مرارًا مضاعفةً حتّى يصلَ بالأجر والجزاء إلى سَبْعِمِئة ضِعْفٍ[2]؛ ليكْشِفَ عن كرم يفوقُ التّصوّر والمقاييس، وهذا من تمام البلاغة في سياق ترغيب النّفوس في الإنفاق؛ إذْ لَم يُذْكَر أنّه محضُ فَضْلٍ، بل وعد بمُضاعفات كثيرة، وهو أبلغ في تصوير الكرَمِ، وأعمَقُ في تحريكِ القَلْبِ، وأدقّ في التّعبير عن عظمَةِ الجزاءِ الرّبّانيّ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيد).

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 177.

﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [الحديد: 12]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنــوارُ الإيـمـانِ تـسـعـى لِمَـن أقـرضَ الـدّيّـانَ يـومَ الـجـزاءِ والإحسانِ

لّما دعتِ الآياتُ السّابقةُ إلى الإيمانِ باللّه ﷻ وبرسوله ﷺ، وإلى تنفيذ تكاليف هذا الإيمان، ومنها: الإنفاقُ في سبيل اللّه، ووعدَ على ذلك بالثّواب الجزيل؛ بيّنَ في هذه الآيةِ ما أعدّه للمؤمنين من ثوابٍ عظيم، تمثّل في النّورِ الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانِهم، مصحوبًا بالبِشارةِ بما أعدّه اللّهُ لهم من النّعيم المُقيم.

ومنها: لّما وعدَ الحقُّ سبحانه في الآيةِ السّابقة مَن يُقرضُهُ قرضًا حسنًا بالجزاءِ الكريمِ والمضاعفةِ الجليلةِ؛ أراد أن يُصوّر مشهدًا من مشاهد هذا العطاء يومَ الجزاءِ، فبيّن زمنَ نوالِ ذلك الأجرِ، وظهورِ ثمرةِ ذاك الإيمانِ، فقال: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿تَرَى﴾: (رأى) أصلٌ يدلّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ، فالرَّأي ما يراه الإنسان في الأمر، وجمعه: آراء[2]، والرّؤية إدراكُ المَرئيّ، أمّا الرّؤيا فهو ما يُرَى في المنام[3]، والفرق بينهما لفظًا: أنّ فعل الرّؤية بالعين يتعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبمعنى العِلْم يتعدّى إلى مفعولَيْن، وحقيقة الرّؤية في الآية ﴿تَرَى﴾ من الضّرب الأوّل، أيْ: أنّها رؤيةٌ عينيّةٌ؛ فهم يرون بالعين المُجرَّدة النّورَ الحقيقيّ للمَمدوحين من أهلِ الإيمانِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 271.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (رأى).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 105.

2) ﴿يَسۡعَىٰ﴾: جذره اللّغويّ (سعي)، ومعنى السّعي: المَشْي السّريع، وهو دون العَدْوِ، ويُستعمل للجِدّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، وأكثر ما يُستعملُ السّعي في الأفعال المحمودة، وأصلُ السّعي أنْ يتصرّف الرّجل في كلّ عملٍ[1]. ومعنى ﴿يَسۡعَىٰ﴾ في الآية: يمشي النّورُ - وهو نورُ الإيمانِ - قُدّامَ المؤمنين على الصّراطِ فيَهْتَدون به[2].

3) ﴿نُورُهُم﴾: (نور) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إضاءةٍ واضطرابٍ وقِلّة ثباتٍ، منه النّور والنّار، سُمّيا بذلك من طريقة الإضاءة، ولأنّ ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة[3]، والفعل منه: نارَ وأنارَ؛ أيْ: أضاء[4]، وشأن النّور أن يكون واضحًا بيّنًا؛ ولذلك ورد في الخبر: "أنّ عمر رضي الله عنه فرضَ للجَدِّ، ثمّ أنارها"؛ أيْ: أوضحها وبيَّنها[5]، والنّور: هو الضّوء المُنتشر الذي يُعينُ على الإبصار، وذلك ضربان؛ ضربٌ معقولٌ بعينِ البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهيّة كنور القرآن، ومحسوسٌ بعين البصر، ومن معانيه أيضًا: الإسفار[6]، ومن النّور الأُخرويّ قوله تعالى في الآية: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾، والنّور هنا القرآن[7]، ويجوز أن يكون نورًا حقيقيًا يُضيء بين أيديهم[8].

4) ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ﴾: جمعُ مفرده (يمين)، و(يمن) كلماتٌ من قياسٍ واحدٍ، فاليمين: يمين اليد. ويُقال: اليمين: القوّة، واليُمْنُ: البركة، وهو ميمونٌ، واليمينُ: الحَلِف، وكلّ ذلك من اليد اليمنى[9]. ومنه التّيمُّن، وهو الابتداء في الأفعال باليد اليُمنى، وكذا بالرِّجْل والجانب الأيمن[10]، واليمين الجهة اليمنى لجانب الإنسان، والمقابلة لجهة الشّمال[11]. ومعنى ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ﴾ في الآية موضع الشّاهد: هي الأيادي اليمنى خلاف الشّمائل؛ لأنّ السّعداء يُؤتَون صحائفَ أعمالِهم من هذه الجهة[12].

---

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، والفيوميّ، المصباح المنير: (سعي).
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 5/ 477.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يمن).
(4) الخليل، العين: (نور).
(5) الهَرَويّ، الغريبين: (نور)، وابن الأثير، النّهاية: 5/ 125.
(6) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (نور).
(7) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 542.
(8) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 470.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نور).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (يمن).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شمل).
(12) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 239.

5) ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾: اسمٌ مقصورٌ ثلاثيٌّ، وهو مصدر، و(بشر) أصلٌ واحدٌ، يدلّ على ظهور الشّيء مع حُسن وجمال، فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، وسُمّي البَشَر بَشَرًا لظهورهم. والبَشير: الحَسَن الوجه. والبِشارة: الجمال[1]. ومنه: البِشارة في الخبر خيرًا أو شرًّا، وأصلُ البِشْر بالكسر هو الطَّلاقةُ وبسطُ الوجه[2]، والبُشرى هو الخبر الذي يُغيّر البَشرةَ من حزنٍ أو سرورٍ، ثمّ خُصّ في عُرْف اللّغة بالسّرور، وهي أوّل الخبر[3]، ويُقال: أبشرتُ وبشّرتُ، إذا أخبرتَ بأمرٍ مُفرحٍ سارٍّ[4]، وسُمّيت بذلك من البشر وهو السّرور؛ لأنّها تُظهر طلاقةَ وجهِ الإنسانِ وفرَحَه. والمقصود من ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾ في الآية: القول الذي تتلقّى فيه الملائكةُ المؤمنين، ومضمونُه أنّكم ستدخلون جنّات ربّ العالَمين، وذلك الفوز العظيم[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

أهلُ الإيمانِ نورُهم يُحيطُ بهم من كلِّ جانبٍ

يبيّن اللّهُ ﷻ في هذه الآية أنّ المؤمنين في يوم القيامة لهم نورٌ يسعى بين أيديهم، ويُضيء من جوانبهم، يُهْدَون به على الصّراط، فيَمضون مُطمئنين يحوطهم النّور إحاطةً تامّةً، وتستقبلهم ملائكةُ الرّحمة بنداءِ الوعدِ ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ أيْ: هنيئًا لكم هذا اليوم، يوم الكرامة الإلهيّة، ثمّ يفتح لهم أبوابَ الخُلود في جنّات تجري من تحتها الأنهار، لا يعتريهم فناءٌ ولا نَصَبٌ، وتُخْتَم البشارةُ بوصف لا يُزاد عليه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).
(3) النوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 267.
(4) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/ 128، والصُّحاري، الإبانة في اللّغة العربية: 2/ 280.
(5) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 5/ 187.
(6) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 404.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

التّوطئةُ للإشادةِ بجزائِهم في يومِ التّكريم

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنّه جاء استئنافًا ابتدائيًّا، لمناسبة ما تقدّم من وعدٍ كريم في قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾، فهو بيان لبعض ما أعدّ المولى سبحانه للمؤمنين من مظاهر الكرامة والمزايا[1]، توطئةً للإشادة بجزائهم في مشهدٍ مُشرقٍ من مشاهدِ النَّعيمِ.

بلاغةُ حذفِ الفعلِ (اذكر):

الإشـــارةُ إلى عـظَـمةِ المَشهدِ وجلالةِ المآلِ

حُذِفَ الفعل (اذكر) النّاصب لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ﴾ على جهة التّعظيم[2]، تنبيهًا إلى عظمة المشهد، وجلالةِ المآل، وللتّنويه بمشهد الجزاء؛ لأنّه لمّا كان معلومًا أنّ مضاعفة الثّواب، وإيتاءَ الأجرِ لا تكون إلّا في يوم الجزاء، ترجّحَ أن يكون قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ منصوبًا بفعل محذوفٍ مُقدَّرٍ هو (اذكر)[3]؛ تنويهًا بعظَمة ذلك اليوم، لما فيه من مشاهد الفضل الإلهيّ، حيثُ يُجْزَل الثّوابُ للمؤمنين والمؤمنات، ويَحِلُّ الحرمانُ والخِزيُ بالمنافقين والمنافقات[4]. وممّا يُذْكَر في بلاغة حذف الفعل (اذكر) الإيغالُ في التّشويق، والاستحضارُ لمشهد القيامة كأنّه حاضرٌ للعيان، يرى فيه المؤمنين والمؤمنات ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في موطنٍ تتكاثف فيه الظّلمات، وتنهارُ فيه الأجرام، وقد نُصِبَ الصّراطُ على متن جهنّم؛ فصار المُرور عليه رهينَ النّور في ذلك الموقف المَهول[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 379.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 475.
(3) السّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 10/ 241.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 379.
(5) السّعديّ، تفسير الكريم الرّحمن، ص: 839.

سِرُّ التّعبيرِ بقولِه: ﴿يَوۡمَ﴾ بالتّنكير:

التّنكيرُ يبعثُ في النّفسِ الهيبةَ والفَزَعَ من الهولِ العظيمِ

جاء التّعبير بـ﴿يَوۡمَ﴾ مُنكَّرًا دون أن يُصرِّح بـ(يوم القيامة)؛ ففي التّنكيرِ ما يُثير الرّوعَ، ويبعثُ في النّفس الهَيبةَ والفَزَعَ، لما فيه من تهويلِ شأنِه، وتعظيم أمرِه[1]؛ فهو اليومُ الذي تتكشّفُ فيه الحقائقُ، وتُجْزَى فيه الأعمال.

سرُّ التّعبيرِ بالرّؤيةِ في قولِه: ﴿تَرَى﴾ دون (النّظر) أو (البصر):

جلالُ الرّؤيةِ في مشهدِ الإكرامِ

جاء التّعبير بفعل الرّؤية في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى﴾ دون (تنظر) أو (تبصر)؛ لأنّ الرّؤية أعمُّ وأبلغ وأشمل، إذ تدلّ على الإدراك القويّ المباشر بلا واسطة، وتُفيد إحاطةَ المشهد إدراكًا وبصيرة، لا مجرّدَ وقوعِ البصر؛ إذ هو من أقوى أفعال الإدراك، وهو أنسبُ بسياق التّفخيم والتّشويق؛ لما يحمله هذا المشهد من جمال المنظر وبهاء الصّورة في انعكاسها على القلب، بخلاف (النّظر) الذي قد يدلّ على مُجرَّد التّوجُّه بالبَصَرِ، أو (البصر) الذي يقتصر على حاسّةِ العين.

بلاغةُ الخطابِ في قولِه: ﴿تَرَى﴾:

شهودُ المؤمنِ لثَمرةِ عملِه تشريفٌ وتكريمٌ

الخطابُ بقوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ فيه إيحاءٌ بأنّ المؤمن يشهدُ ثمرةَ عملِه الصّالح رأيَ العين في مشهدٍ من التّشريف والإكرام؛ إذ تُعرَض عليه حسناتُه عرضًا مشهودًا لا خفاء فيه ولا التباس، فيرى ما قدّم مُسطّرًا في صحفٍ مُكرّمةٍ، مُثقِّلًا في ميزان الحسنات جزاءً وفاقًا من لدن حكيم عليم، جزاءً لا يعتريه نقصٌ، ولا يُشاب ببخسٍ، بل هو تامُّ الكمال، وافٍ بجلالِ المآلِ[2].

دلالةُ الخطابِ الإلهيّ في قولِه: ﴿يَوۡمَ تَرَى﴾:

التّأنيسُ للمؤمنين في مشهدِ يومِ الدّين

وجاء الخطاب الإلهيّ هنا إيغالًا في التّلطّف، واستجلابًا

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 337.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 82.

للإيناس، إذْ يحمل في طيّاته بشارةً رقيقةً تمسُّ شغافَ القلوبِ، وتغمرُ الأرواحَ بالطّمأنينة، كأنّ الله تعالى يخاطبُ عبادَه المؤمنين خطابَ الحبيبِ لحبيبِه، ليُقِرَّ أعينَهم بما أعدَّ لهم من نورٍ وهدايةٍ، وفوزٍ عظيمٍ في ذلك الموقفِ المهيبِ[1].

دلالةُ المضارعِ في فعلِ الرّؤيةِ:

حيويّةُ المشهدِ وواقعيّتُهُ في تصويرِ يومِ الجزاءِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿تَرَى﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الذي يدلُّ على التّجدُّد والحُدوث، إيماءً بحيويّة المشهدِ واستمراره حتّى لَيُخيَّلَ لقارئه أنّه يشهده رأيَ العين، فتتجسّد الصّورةُ حيّةً نابضةً بالحركة والضّياء، تقرِّبُ الموعودَ إلى القلب، وتثبِّتُه في الوجدان، بما يحملُه من بشارةٍ وسكينةٍ، واستحضارٍ لجلال الموقف وبهائِه.

سرُّ التّعبيرِ بوصفِ الإيمانِ دونَ الإسلامِ:

الإيمانُ نورٌ مُستقِرٌّ يُفرّقُ بين الصّادقين والمنافقين

جاء التّعبير بلفظ الإيمان في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ دون ذِكْر الإسلام؛ تمييزًا دقيقًا بين أصحاب الإخلاص والتّصديق، وبين المنافقين الذين وإن أُشير إلى أنّ لهم نورًا، إلّا أنّه سرعان ما يُطفأ، فلا يَلْبَثون أن يتيهوا في الظّلمات حيارى[2]، فكأنّ الفرق بين الإيمان والإسلام هنا هو الفرقُ بين النّور المُستقِرّ، والضّياء الخافت الذي يخبو.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾:

ثبوتُ الإيمانِ ورسوخُه للمؤمنين والمؤمناتِ

دلّ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ على ثبوتِ الإيمانِ، واستقراره في النّفوس، فغدا صفةً مُلازمةً لهم، وركنًا راسخًا في قلوبهم[3]، لا محضَ صفةٍ حادثةٍ مُتغيّرةٍ.

(1) مجموعة مؤلّفين، التّفسير الوسيط: 9/ 1288.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 839.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 271.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾:

انــدراجُ جميع المـوصـوفـين في كنفِ الإيمانِ

(أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ جنسيّةٌ شاملةٌ، تضمّ كلّ مَن حاز هذه الصّفةَ، فتعمُّ جميعَ المؤمنين والمؤمنات دونَ استثناءٍ، مجسّدةً عموميّتَها وسعتَها في شمولِ كلٍّ من اتّصف بالإيمان[1]، وفي هذا كمالُ المدحِ لهم؛ لذلك ذهبَ بعضُ العلماء إلى أنّ (أل) تُفيد الكمالَ[2] في صفة ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ فتظهرُ هذه اللّفظةُ تعظيمًا وتثبيتًا لما وُصِفوا به من إيمانٍ كاملٍ[3]، لا يشوبُه نقصٌ، فتبدو صفاتُهم كأنّها غايةٌ مكتملةٌ في سموِّها وثباتها، فيُرى المَمدوحون بهذه الصّفة وقد بلغوا أوجَ الإيمان وتمامَه.

سرُّ الجمعِ بين ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾:

حظوظُ النّساءِ راســـخـــةٌ في الثّوابِ كحظوظِ الرّجالِ

جاء الجمع بين الجنسين على وجه التّصريح لا الاكتفاء بذِكْرِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على جهة التّغليب؛ إيذانًا بمساواة المرأة للرّجل في الأجر والمقام، وتنبيهًا بليغًا إلى أنّ حظوظ النّساء في هذا الدّين راسخةٌ كحظوظِ الرّجال، إلّا ما خُصّص بدليلٍ، على خلاف ما تقرّر في المَوْروثات المُحَرّفة، كاليهودية التي صوّرت المرأة في زمرة المَلعونات، وجعلتْها محرومةً من كثيرٍ من مقامات القُرْبِ والطّاعةِ[4]؛ فجاء هذا الجمع لتصحيح التّصوّر، وبيانِ عدلِ الإسلام وسُموِّ تكريمه.

سِرُّ ذِكرِ المؤمناتِ بعد شمولِ الجمعِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لهُنّ:

جـاء ذِكْـرُهـنّ من بـابِ عطفِ الـخــاصِّ على العامِّ؛ للتّوكيدِ ورفعِ الالتباسِ

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بذِكْرِ (المُؤمِناتِ) بعد ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مع أنّ الجمعَ المُذَكَّر يشمَلُهُنّ من بابِ التّغليبِ، ولكن جاء ذِكْرُهنّ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ، في توكيدٍ يرفع الالتباسَ[5] إكرامًا

---

(1) مجموعة مؤلّفين، التّفسير الوسيط: 9/ 1288.

(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 116.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 316.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 379 - 380.

(5) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 337.

وتطمينًا، ورَدًّا على ما رسخ في الأذهان من دونيّات جائرةٍ ألصقتها الجاهليّات السّابقة بالمرأة؛ فإنّ "كلًّا من الذَّكَر والأنثى له أجرُهُ على عمله الصّالح، بدون إجحافٍ أو محاباةٍ لجنسٍ على جنسٍ"[1].

بلاغةُ الموقعِ الإعرابيِّ لجملةِ ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾:

أنوارُ الهدايةِ لا تفارقُ أصحابَها بين السّعيِ والوقوفِ

جاءت جملةُ ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ في موقع الحال[2]؛ لتُجسّدَ المشهدَ الحيَّ للمؤمنين والمؤمنات يومَ القيامة، كأنّك تراهم في لحظةِ انبعاثِ النّور من ذواتِهم، يسعى مُتقدّمًا بين أيديهم وبأيمانهم، في دلالةٍ على مرافقةِ النّور لهم في كلِّ حالٍ، لا ينفصل عنهم، إنْ سَعَوا سَعَى معهم، وإنْ وقَفوا توقّفَ، فهو هادٍ لهم في ظلماءِ الموقفِ، ومُسَرِّعٌ لمسيرهم إلى الجنّة[3].

سِرُّ التّعبيرِ بالسّعيِ دونَ المشي:

السّعيُ يوحي بمعانٍ من الجدّ والمثابرةِ والإقبالِ الحثيثِ على المقصود

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظِ السّعيِ في قولِه تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ دون المشي لما يحمله السّعيُ من دلالةٍ زائدةٍ على مُجرَّد الانتقالِ بالأقدام؛ فالسّعيُ في اللّغةِ هو المشيُ السّريع الذي لا يبلغ حدَّ العَدوِ، وهو مشيٌ ينطوي على اجتهادٍ وحرصٍ ومبادرةٍ، بخلاف المشي الذي قد يُفهم منه التّمهّل، فاختيارُ لفظِ السّعي هنا يوحي بمعانٍ من الجِدّ والمثابرة والإقبال الحثيثِ على المقصود، وهو فعلٌ محمودٌ[4]، وهو في هذا السّياق الكريم يدلُّ على نورٍ يسعى بأهله سعيًا حثيثًا، في مشهد مهيب مُفعَم بالبشارة والكرامة، ليُبْرِزَ أنّ ذلك النّورَ ليس ساكنًا ولا بطيئًا، بل مُندفعًا مُتتابعًا يواكب مسيرَ المؤمنين في جِدّهم واجتهادهم حتّى بلغوا هذا المقامَ الرّفيع. وممّا يُذْكَر في سِرِّ التّعبير بالسّعي أنّه يُؤدّي معنًى لا يُؤدّيه المشيُ؛ لأنّهم لو

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 209.
(2) العُكبَري، التّبيان: 2/ 1208.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 337.
(4) حقّي، روح البيان: 9/ 359.

مَشَوا، وهو أبطأ من السَّعي ما سعى النّورُ بين أيديهم؛ لأنّه إذا سعى وهُمْ يَمْشون الهوَينا لم يكن سعيًا بين أيديهم لأنّه يَخْلفُهُمْ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَسۡعَىٰ﴾:

استحضارُ مشهدِ الرّؤيةِ كأنّه ماثلٌ للعيانِ

آثَر القرآن الكريمُ التّعبيرَ بصيغة المضارع ﴿يَسۡعَىٰ﴾؛ لأنّها "أقدرُ الصّيغِ على تصوير الأحداث واستحضارِ مشهد حدوثِها، وكأنّ العين تراها وهي تقع"[2]؛ لذا استعمله في قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ لتصوير المشهد كأنّه ماثلٌ للعيان، حاضرٌ في لحظته، ينبض بالحركة والدّهشة، فكأنّك تبصر النّور يخترق الظّلمات، يمشي أمامهم ويتهادى بأيمانهم، في لحظة يغمرها الرّجاءُ والرّهبة، ويدلُّ أيضًا على الإسراع إلى الجنّة.

سِرّ التّعبيرِ بلفظِ النّورِ دونَ الضّوءِ:

نورٌ ربانيٌّ لا ضوءٌ مـادّيٌّ منبعثٌ من الأجرامِ يهديهم في ظلماتِ الأكوانِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالنّور في قوله: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ دون الضّوءِ، دلالةً على أنّه ليس ضياءً مُنبعثًا من جِرمٍ، بل هو نورٌ محيطٌ بهم من كلّ جهةٍ[3]، يهديهم في موطن الظّلمة والهَول. ولأنّ النّور جامعٌ للمعاني، والضّوءَ مقصورٌ على المباني، ولأنّ النّور أعمٌّ؛ فهو لفظٌ متّسعُ الدّلالة، تتشعّبُ منه المعاني، فيُطلَق على الحقيقة الحِسّيّة، كما يُطلَق على المعنويّة، فقد يُراد به هنا الهدايةُ، أو الإيمانُ أو الرّضوانُ، أو القرآنُ الذي استضاءت به قلوبُهم، أو ما اجتمع لهم من عملٍ صالحٍ في الدّنيا تجلّى أثرُه يومَ القيامة[4]، بخلاف الضّوء، فإنّه لا يكاد يُستعمل إلّا في المعنى الحِسّيّ المَحض؛ ولذلك اختير (النّور) لأنّه أشمل، وأدلُّ على المقصود. وممّا يُذكَر

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 239.
(2) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 264.
(3) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 236.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 244، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 105، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 758.

في سِرّ التّعبيرِ بالنّور دون الضّوء وجودُ فرقٍ بينهما؛ فالضَّوء ما كان من ذات الشّيء المُضيء، والنّورُ ما كان مُستفادًا من غيره[1]، فالضّوءُ تابعٌ للنّور، مُترتبٌ عليه، لا يوجد إلّا بوجوده؛ فقد يوجَد النّورُ ولا يوجد الضّوء، وناسبَ هنا التّعبيرُ بالنّور؛ لأنّ نور المؤمنين والمؤمنات مُكتسَبٌ ممّا قدّموا من إيمانٍ وإنفاقٍ وعملٍ صالحٍ؛ فلا يَحْسُن التّعبيرُ بالضّوء الذي ينبعث من الجمادات.

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿نُورُهُم﴾:

نورٌ اختُصّ بهم ولا يناله سواهُم

إضافةُ النّورِ إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ ليست على جهة التّعريف والتّعيين، إذ لم يسبق الحديثُ عن نورٍ يخصُّهم، وإنّما هي إضافةٌ تُفيد الاختصاصَ، لتدلَّ على أنّ هذا النّورَ خاصٌّ بهم يومَئذٍ، يُميّزهم من غيرهم، ويجعلُهم ظاهرين بنور إيمانهم وأعمالهم، بين ظلمات ذلك الموقفِ وأهوالِه[2].

سِرُّ التّعبيرِ بقولِه: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ دون (يسعون):

أُسنِد التّعبيرُ القرآنيُّ السّعيَ إلى النّورِ في قولِه: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾، ولم يَقُلْ: (يسعون)؛ لأنّه تعبيرٌ يدلُّ على الجَهْدِ والمَشَقَّة والمُعاناة، وهذا غيرُ مُرادٍ في مشهدِ التّكريم.

بلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ بالسّعي:

التّنويهُ بمكانةِ المؤمنين وتعظيمُ قَدْرِهم

في قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ[3]، صوّر فيها امتدادُ النّورِ وانتشاره بحركة السّاعي المُسْرِع، دلالةً على ملازمتِهِ لهم حيثما توجّهوا، وتنويهًا بمكانتهم، كما تُنَشَر الأعلامُ بين يدي المُلوك، وتُساق الجياد أمامَ الخلفاء[4]، فهو نورٌ يباهي بهم، لا مَحضُ ضياءٍ يَهديهم.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 332.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 370 - 371.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 465.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 371.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ زمنِ السّعي للنّور كما ذُكِر مكانُه:

نورُ أهلِ الإيمانِ مُتلبِّسٌ بهم، لا سابقٌ عليهم ولا مفارقٌ لهم

من لطائف التّعبير في قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ أنّه بيّن مكان السّعي بقوله: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾، ولم يذكر زمنَه؛ لأنّ الزّمن مُتضمَّن في فعلهم، إذِ النّور لا يسعى إلّا بسعيهم، ولا ينفصل عنهم في حركته، فهو تابعٌ لهم، يظهر حين يظهرون، ويسير حيث يسيرون، وهو نورٌ حقيقيٌّ يكرمُهُم اللّه به في ميدان الحشر، إشعارًا بعُلوّ منزلتِهم، وإظهارًا لسِمَتِهم بين الخلائق[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالمُذكَّرِ ﴿نُورُهُم﴾ دونَ المؤنّثِ (نورهنّ):

تغليبُ التّذكيرِ في موكبِ النّورِ لاتّحادِ المشهدِ والمصيرِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ﴿نُورُهُم﴾ بصيغة التّذكير تغليبًا للفظ المُذكّر في الجمع، واتّباعًا للقاعدة اللّغويّة في مخاطبةِ المُختلط من الذّكورِ والإناث، كما أنّ (النّور) لفظٌ مُذكّرٌ في ذاته، فناسبَ أن يكون الضّمير مطابقًا له، وهذا الأسلوب يُفيد وحدةَ المشهدِ، واتّحادَ المَوكب، إذ إنّ النّور واحدٌ في نوعِه، وإنِ اختلفت مصادرُهُ بحسب عملِ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ النّورِ:

صحائفُهم تُنيرُ لهم المرورَ على الصّراطِ للوصولِ إلى دارِ النّعيمِ

قوله: ﴿نُورُهُم﴾ هنا ليس حِسًّا محضًا، بل هو استعارة عن هداية تقودهم إلى الجنّة[2]، واستجلاءٌ لصحائفِ أعمالِهم المُشرقة، فهي في بهائها وإشراقها كالضّوء المُنبعث، يُهتدى به في الظّلمات، فجاء (النّور) للدّلالة على ما حملته صحائفُهم من طاعاتٍ وإيمانٍ، فجعلها اللّهُ نورًا يسعى بهم إلى دار الكرامة، كما يسعى السّراج بأهله في اللّيلة الظّلماء، فهي أعمالٌ تحوّلت نورًا، وهدايةٌ أوجبت نجاةً من النّار[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 380.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 455.

(3) زادة، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 109.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ ﴿بَيۡنَ﴾ دون غيرِها من الظّروفِ:

النّورُ بين أيديهم لِتُسَرَّ به عيونُهُم ويَعْظُمَ به شَرفُهُم

خصّ القرآن الكريم التّعبير بقوله: ﴿بَيۡنَ﴾ دون غيرها من الظّروف، لما يحمله من معنًى يُميزّه عن غيره؛ فيُقال: "بين يديك"، لكلّ ما كان أمامَك[1]، لذا خُصّ بالذّكر هنا؛ لأنّ النّور إذا تقدّمهم أبصرته أعينُهم، وتنعّمت بمشهده نفوسُهم، فشعروا به كرامةً تُحَسُّ وتُرَى، وكان بين أيديهم كما توضَع النّفائسُ في متناول اليد[2]، إذِ اليدُ موضعُ التّملّكِ والشّرف، واليمين مَظنّةُ الفضل والتّمييز. وممّا يُذْكَر في سرِّ التّعبير به: أنّه يَحمِل دلالاتٍ مُتعدّدةِ الأبعاد، فهو لا يُحَدّد مجرّدَ الموقع المكانيّ للنّور، بل يُصَوّر حركتَه وانتشاره الشّاملِ الذي يُحيط بالمؤمنين والمؤمنات، كدليلٍ هادٍ ومُرشدٍ لهم في يوم القيامة، هذا النّور ليس مُنفصلًا عنهم، بل هو نابعٌ من إيمانهم وأعمالهم الصّالحة التي قدّموها في الدّنيا، وهو يتناسب طرديًّا مع حجم هذه الأعمال، كما أنّه أداةٌ إلهيّةٌ للتّمييز بين المؤمنين والمنافقين، وفيه بشارةٌ لأهل الإيمان، ونجاةٌ في ذلك اليوم المهيب.

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ دونَ غيرِها من الجوارحِ:

النّورُ السّاعي بين الأيدي هدايةٌ تسبقُ الخُطَى وتُنيرُ السّبيلَ

خصّ اللّهُ تعالى النّورَ بالسّعي بين أيديهم في قوله: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ دونَ غيرِها من الجوارح؛ لأنّ بين الأيدي هو موضع الخُطى ومحلُّ السّير، وهو أحوج المواطن إلى الضّوء والبيان[3]، ففي ذِكْره إيماءٌ إلى الهداية الموصلة، وفي تخصيصه تعريضٌ بأنّهم لا يتعثّرون، فهو نورٌ قائدٌ، وهدايةٌ سالكةٌ.

سِرُّ تقديمِ الأيدي على الأيْمانِ:

قدمّ الأيدي على الأيمان في قوله: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (يدي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 371.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 261.

نـورُ الهداية يسعى أمامَهم، ونورُ التّشريفِ يسطعُ بأيمانِهم

﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ﴾ من بابِ تقديم العامِّ على الخاصِّ، أو الكلّ على الجُزءِ، فالنّور الذي يسعى بين الأيدي يدلُّ على الهداية التي تقودهم إلى الجنّةِ، ثمّ النّور الذي على أيمانهم؛ أيْ: جهة أيديهم اليُمنى، وهي الجهة التي يُعطَى فيها الكتاب، فيكون ذلك النّور دالًّا على كرامة المؤمنين وحُسنِ عاقبتهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ﴾:

الجمعُ بين نورِ الهدايةِ ونورِ التّكريمِ

الواو في قوله: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ﴾ حرفُ عطفٍ[1]، حيثُ عطف المصدرَ على الظّرفِ؛ لأنّ الظّرف مُتعلّقٌ بمحذوفٍ تقديره: كائنٌ بين أيديهم، وكائنٌ بسبب أيمانهم[2].

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ﴾:

تشريفُ اليمينِ، والإشارةُ إلى شمولِ النّورِ المُبينِ

الباء في قوله: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ﴾ ظرفيّةٌ مكانيّةٌ، وهي دالّةٌ على الإحاطة، إذِ المعنى عن أيمانهم، فجاء ذِكْرُ اليمين تشريفًا للجهةِ؛ إذْ هي موطنُ الفألِ والكرامةِ، فنابت عن سائرِ الجهاتِ[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ النّورَ لا يحدّه جانبٌ؛ بل يكتنفُهُم من كلِّ جهةٍ. ويجوز أن تكون الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ﴾ دلالةً على الملابسة، فيكون النّور مُلازمًا لجهةِ اليمين لا من حيثُ الاتّجاه فحسب، بل من حيثُ المعنى والرّمز، إذِ اليمينُ موضعُ كتابِ الحسنات، كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: 19][4].

دلالةُ تخصيصِ الجمعِ بين الأيدي والأيمانِ:

الجمعُ بين صفتي التّكريم والتّشريفِ

خصّ التّعبيرُ القرآنيّ الجمعَ بين ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ﴾ في مشهد النّور؛ لأنّهما سمتا الكرامة ومهبطا البشارة، فالسّعداء يُؤتَون

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 9/ 501.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 105.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 261.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 380.

صحائفهم من هاتيْن الجهتيْن، جهةِ الأمام وجهة اليمين؛ بخلاف الأشقياء الذين يُؤتَون صحائفهم من الشّمال، أو من وراء الظّهور، فجعل النّور يسعى في هذيْن المعلَميْن؛ ليكون علمًا للفوز، وعلامةً تُفْرَز بها الوجوهُ النّاضرة عن الكالحة[1]. وممّا يُذْكَر في سرّ التّخصيص أنّ النّور الموهوب لأهل السّعادة نوران لا نورٌ واحدٌ؛ أحدهما: يتقدّمهم بين أيديهم، يضيء لهم الطّريق، ويهديهم في السّير. والآخر: يلازم أيمانَهم، فيفيض ضياؤه على ما حولَهم من الجهات[2]، فكأنّهم مُحاطون بهالة الأنوار، تَحُفّهم من الأمام واليمين. ولبيان أنّ النّور أصله بأيمانهم، والذي بين أيديهم هو الضّوء المنبسط من ذلك[3]. ويمكن أن يُقال: إنّ سرّ الجمعِ هو الاحتراسُ من معنًى قد يَرِد في الذّهن أنّ التّعبير بقوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الذي يدلّ على الأمام قد يُفْهَم منه أنّ النّور يكون بعيدًا عنهم ولا يضيء لهم؛ لأنّ الأمام مساحتُه واسعة؛ فجاء التّعبير بقوله: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ ليُؤكّد على اتّصال النّور بهم، وانتفاعهم به؛ لأنّه مُلابسٌ لهم.

سِرّ التّعبيرِ بالأيمانِ عن كلِّ الجهاتِ:

اليـمـينُ أشـرفُ الجهاتِ وأعلاها منزلةً

عُبِّر ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ عن الجهات كلّها؛ إذ أُريد به الإحاطة من جميع الجهات، فاختيرتْ جهةُ اليمين دونَ غيرها؛ لما لها من دلالة على اليُمْن والبركة، فجاء التّعبير بالبعض وأُريد به الكلّ، على طريقة العرب في الإيجاز والبيان[4]. وقد عبّر بالأيمان عن الجهات كلّها، لما حوت من شرف المكانة ومَجْد الدّلالة، فهي أسمى الجهات، وأشرفُها في عُرْف العرب[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 475.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 105.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 27/ 174.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 9/ 237.
(5) السّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 10/ 241، والهرريّ، حدائق الرّوح: 28/ 450.

سِرُّ التّعبيرِ بالجمعِ في ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ دونَ الإفرادِ:

نــورُ التّـكـريـم يتجلّى من كلِّ الجهاتِ

استعمال الأيمان جمعًا في الآية دونَ الإفراد إيماءٌ إلى إحاطة النّور بالعبد المؤمن من جهاتٍ مُتعدّدةٍ، فالأيمان هنا ليست مقصورةً على جهةٍ واحدةٍ، بل تشمل كلَّ الجهات التي ترمز إلى البركةِ والنّعمةِ والقَبول وعموم الغاية.

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾:

الـتّـعـانـقُ بين النّورِ وأصحابِه

الإضافة في قوله: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ دالّةٌ على علاقةٍ وثيقةٍ، وخصوصيّةٍ بين النّورِ وأصحابِه، وتُعبِّر عن مُلازَمة النّور لهم واقترانه بهم، لا مُجرّد وجوده في جهةٍ مُجرَّدة. وفَهِمَ البعض اختصاصَ النّور بمؤمني هذه الأُمّة من الإضافة، ولكنّ الأدقّ أن يُقالَ: إنّ ما يكون من النّور لهذه الأُمّة أجلى من النّور الذي يكون لغيرها، أو ممتازٌ بنوعٍ آخر من الامتياز[1].

بلاغةُ حذفِ القولِ مع البُشرى:

الـمُـسـارعـةُ في إيـقـاعِ الـبـشـارةِ على النّفوسِ

جاء تركيبُ جملة: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ﴾ على تقدير محذوف، وهو القول الذي يسبق البشارة، وحُذف المضافُ وأُقيم المُضاف إليه مقامه، والتّقدير: يُقال لهم: بشراكم دخولُ جنّاتٍ[2]؛ وذلك إعلاءً لوقع البشارة في النّفوس، وإيجازًا يُضفي على الخطاب مسحةً من الفوريّة والمباشرة، وكأنّ البشارة تُلقى عليهم دون حاجةٍ إلى تمهيدٍ أو تفصيلٍ، فيُفاجَؤون بها مفاجأةً تملأ قلوبهم نورًا وسرورًا.

سِرُّ التّعبيرِ بالبُشرى دون البِشارةِ:

المَقصِدُ النّعيمُ الدّائمُ المنثورُ لا مُجرّد التّبشيرِ المأثورِ

اختير لفظُ البُشرى دون البشارةِ؛ لأنّ المُرادَ ليس مُجرّدَ فعلِ التّبشيرِ[3]، بل ما يُبشَّر به فعلًا من النّعيمِ والثّوابِ، فدلّت البُشْرى على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 27/ 175.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 261.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 175.

المُبشَّرِ به ذاتِه؛ فهذا التّعبيرُ أفاد تحقيقَ المُبشَّر به ودوامَه وامتلاكه، لا مُجرّدَ الإخبار به، فناسبَ مقامَ الكرامةِ الأبديّة في الجنّة.

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾:

التفاتُ التّكريمِ من غيابِ الوصفِ إلى حضورِ البُشرى والخطابِ

في قوله تعالى: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾ التفاتٌ بديعٌ من الغَيْبَة إلى الخطاب، إذِ انتقل السّياق فجأةً من قوله: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ بصيغة الغائب إلى مخاطبتهم مباشرةً، وكأنّ الملائكة تلتفتُ إليهم التفاتَ تكريمٍ، وتُقرّب إليهم خطابًا بعد طولِ انتظارٍ، وكأنّ مشهد البُشرى أمامَك، وهذا يبعثُ الفرحَ والسّرورَ أكثرَ ممّا لو قيل: (بشراهم)[1]؛ فكان ذلك أوقعَ في النّفس، وأبهجَ للقلوب، وأشدَّ أثرًا في تجلّي البُشرَى.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّةِ ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾ دونَ الفِعليّةِ (يبشرهم):

بشارةُ أهلِ الإيمانِ ثابتةٌ لهم، تُرافقهم في كلِّ مكانٍ في الجنّةِ

جاء التّعبيرُ بالاسميّة في قوله تعالى: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ بدلًا من الفعليّة (يُبشّركم)؛ لما في الاسميّة من دلالةٍ على الثّباتِ والاستمرارِ[2]، فكأنّ البُشرى صارت لهم صفةً لازِمةً، لا فعلًا عابرًا، فهي بشارتهم العظيمة التي ترافقُهم في كلّ ما يستقبلهم مع النّعيم والرّضوان[3]. والتّعبير بالاسميّة فيه دلالة على المبالغة[4]؛ إذِ الاسم أدلُّ على الرّسوخ من الفعل، فهي بُشرى عظيمةٌ، فالاسم هنا يُضفي على البُشرى قوّةً وثباتًا، بما يجعلها أكثرَ بهاءً وأبلغَ تأثيرًا في النّفس.

دلالةُ الخطابِ في قولِه: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾:

الخطابُ شهادةُ تكريمٍ وأمنٍ واطمئنانٍ

قوله تعالى: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ خطابٌ مُشرِّفٌ يُشْعِر بالأمان ويبعث على الطّمأنينة، إذ دلّ على أنّ المؤمنين في مأمنٍ من أهوال يوم القيامة، لا ينالهم فَزَعٌ، ولا يخالطهم جَزَع؛ لأنّ اللّه تعالى

---

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 338.

(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 9/ 194.

(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 19/ 272.

(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 450.

وصفهم بهذه البُشرى العظيمة في ذلك اليوم الرّهيب، دونَ تقييدٍ أو تخصيصٍ[1] بقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: 103]، فكان الخطاب بمثابةِ شهادةِ تكريمٍ، وعلامةِ أمانٍ عامٍّ لِمَن ثبتَ إيمانُه، وأخلص قلبه.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ مُعرَّفًا بعد وُرودِهِ مُنكَّرًا:

يومَ إعلانِ التّشريفِ والتّكريمِ

جاء التّعبير بلفظ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ مُعرَّفًا بـ (أل) بعد أن ورد في مطلع السّياق مُنكّرًا في قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لتحوُّل المقام من التّمهيد والتّشويق إلى لحظة التّتويج والتّحقيق؛ فالتّعريف يدلّ على التّعيين، والتّوكيد، والكمال[2]، وكأنّه اليومُ الذي لا يضاهيه يومٌ، ولا يُشبهه مقامٌ، فيه يشعر بعظم الشّأن، وجلال اللّحظة، وكمال البشارة.

سِرُّ عدمِ تقييدِ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ بأيّ وصفٍ من أوصافِ القيامةِ:

إنّه اليومُ الذي تشتاق إليه النّفوسُ؛ وهو اليومُ الذي لا يومَ بعدَه

جاء لفظُ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ دون تقييدِهِ بوصفٍ من أوصافِ يومِ القيامة، كأن يُقال: (يوم الحساب) أو (يوم الجزاء) ونحوهما؛ لأنّ هذه الأوصافَ تُشير إلى مشهدٍ مُعيّنٍ من مشاهد يوم القيامة التي تسبق دخول الجنّة؛ بخلاف التّعبير بلفظ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ مُجرّدًا عن إضافةِ أيّ وصفٍ آخر، فإنّه يدلُّ على اليوم الذي تشتاق إليه النّفوسُ؛ فهو اليوم الذي لا يومَ بعدَه، وكأنّ ما قبله من أوصاف يوم الحساب أو الجزاء من باب التّمهيد للوصول إلى يومِ الخلود في دخولِ الجنّةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿جَنَّٰتٌ﴾ جمعًا مُنكّرًا:

جنّاتٌ رفيعةُ الشّأنِ لا تُحيطُ بها الأذهانُ ولا تُدرك بوصفٍ أو تبيانٍ

وُرود ﴿جَنَّٰتٌ﴾ جمعًا مُنكَّرًا، دون أن يُؤتى به مُفردًا مُعرّفًا كـ(الجنّة)؛ لما في صيغة الجمع من إشعارٍ بكثرةِ البقاعِ، وتعدُّدِ المنازلِ، وتنوّعِ مراتبِ النّعيم، ولِما في التّنكير من تعظيمٍ وإجلالٍ؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 456.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 338.

إذ يُفهَم منه أنها جنّاتٌ عظيمةُ الشّأن، فائقةُ الوصف، لا تَحُدّها عبارةٌ، ولا تُحيط بها إشارةٌ، فهي جنّات الفردوس، أو عَدْن، أو النّعيم، أو الخُلد[1]، أو غيرها ممّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعتْ.

سِرُّ ذِكْرِ ﴿جَنَّٰتٌ﴾ مُطلقًا دونَ تعيين أوصافِها:

إطلاقٌ فيه تتّسِعُ الآمالُ وتسمو الخيالاتُ ويعظُم الوعدُ

ذُكِرت ﴿جَنَّٰتٌ﴾ مُطلقةً غيرَ مقيّدةٍ بوصف كـ(جنّة النّعيم) أو (جنّة المأوى)؛ لإثارة التّشويق، وفتح أبوابِ التّوقّعِ والرّجاء، فكأنّ السّياق أراد أن يُبقيَ للخيال ميدانًا رحبًا، وللرّغبة مجالًا واسعًا، فيتلهّفُ السّامعُ إلى معرفة ما وراءَ هذا الإطلاق من عظَمة النّعيم وتنوّعِه.

سِرُّ تقييدِ ﴿جَنَّٰتٌ﴾ بجريانِ الأنهارِ مادّةً وصيغةً:

أنهارُ الجنّةِ في جريانٍ مُستمرٍّ لا يعتريها كَدَرٌ

في وصف ﴿جَنَّٰتٌ﴾ بجريان الأنهار يوحي بالحركة والانسياب والامتداد، وصيغةُ المضارع ﴿تَجۡرِي﴾ تُضفي على المشهد طابعَ التّجدُّدِ والاستمرار، وكأنّ الجنّات ليست ساكنةً خاملةً، بل حيّةً نابضةً بالحياة، تُبهِج النّظرَ، وتشرحُ الصّدرَ بجريان الأنهار فيها آناءَ اللّيل وأطرافَ النّهار، فصار المشهد مَرئيًّا حيًّا، يُستَحضَر أمام السّامع كأنّه يَراه، لا يوصَف له فحسبُ. وفيه إشارةٌ إلى محافظة الماء الجاري على عذوبته.

بلاغةُ المَجازِ بالحذفِ في لفظِ ﴿جَنَّٰتٌ﴾:

المسارعةُ بإعلانِ مكانِ البشارة

الأصل ألّا يُخبَر عن المعاني بأسماء الذّوات[2]؛ إذ لا تَساويَ بينهما في الطّبيعة، فقوله تعالى: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٌ﴾ معناه: يُقال لهم بشراكم دخولُ الجنّات، فحذف المُضاف، وأُقيم المُضاف إليه مقامَه[3]، ولا بدَّ من هذا التّقدير؛ لأنّ البُشرى أمرٌ معنويٌّ، والجنّة ذاتٌ محسوسةٌ، فلا يصِحّ أن تكون الجنّة عينَ البشرى[4].

---

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 338.
(2) ابن السّراج، الأصول في النّحو: 1/ 63.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 261.
(4) المُنتجب، الفريد: 6/ 97.

ويحتمل أن يكون قد عدلَ عن التّقدير الأصليّ، وهو دخول الجنّات إلى التّصريح بالجنّات ذاتِها، مبالغةً في التّبشير[1]، وتعظيمًا للبُشرى، إذْ جعل المُراد كأنّه حاصلٌ مُتحقِّقٌ، لا وعدٌ مُعلَّقٌ.

سِرُّ إسنادِ الجري إلى الأنهارِ لا إلى الماء:

جريانُ الأنهارِ مشهدُ استقرارٍ ونعيمٍ ودوامٍ وازدهارٍ

أُسْنِد الجريُ إلى الأنهار في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ من باب المَجازِ العقليّ، ومن أشهر علاقاته الإسناد إلى المكان كما في هذه الآية؛ حيثُ أسندَ الجريَ إلى الأنهار، وهي أمكنةٌ للمياه وليست جاريةً، بل الجاري ماؤها[2]؛ لأنّ التّعبير بالأنهار أبلغُ وأوفى بالمقصود؛ فالأنهارُ تدلّ على المواضع والمجاري التي يجري فيها الماء، وإسناد الجريان إليها مجازٌ مشهور يُراد به جريانُ الماء فيها، وفي هذا التّعبير تصويرٌ حسّيّ يُظهِر الجنّاتِ وكأنّها محفوفةٌ بأنهارٍ دائمةِ الجريان، لا مجرّدَ ماءٍ يَمرُّ ثمّ ينقطع، وفيه تثبيتٌ لمعنى النّعيم والاستقرار.

دلالةُ تقديمِ ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

إظهارُ مكانِ الجريانِ وعُلوّ الجنّاتِ

قُدِّم قولُه تعالى: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لإظهار مكانِ الجَرَيان أوّلًا، فيتخيّل السّامعُ الجنّاتِ مرفوعةً عاليةً، تسير الأنهارُ من تحتها في مشهد يوحي بالتّمكين والرِّفعة، لا مجرّدِ البهاء، وترسيخِ صورة الجنّة ككيانٍ عالٍ تُحيط به النّعمُ، وتنبثقُ من أسفله، كما أنّ تأخير ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يُحدِث تشويقًا يلفت السّمعَ، ويَشدُّ الانتباهَ إلى النّعمة العظيمة المنتظَرة، فجاء التّرتيبُ مُعبِّرًا عن جلال المشهد، وروعة النّعيم.

بلاغةُ وصفِ الجنّاتِ بجريانِ الأنهارِ من تحتِها:

امتزاجُ الجمالِ بالنّعيمِ

جاء وصفُ الجنّات بجريان الأنهار من تحتها، تصويرًا بديعًا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 272.

(2) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 255.

يُكمّل مشهدَ النّعيم؛ إذ لا تكتمل اللّذّةُ إلّا بامتزاجِ الخضرةِ بالجَرْي[1]، والسّكونِ بالحركة، فجاء الفعل ﴿تَجۡرِي﴾ دالًّا على الانسيابِ الدّائم، والحياةِ المُتجدّدة، وذُكر ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ ليدلَّ على تفرُّق الأنهار تحت الأشجار والقصور[2].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، مع سرِّ جمعِها:

الإشـــارةُ إلى أنهارِ الجنّةِ دونَ غيرِها

(أل) في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ للعَهْد، فهي تُشير إلى أنهارٍ مخصوصةٍ معروفةٍ، لا إلى مُطلَقِ الأنهار، وهي تلك الأنهار الأربعة التي وعد اللّهُ بها عبادَه في الجنّة بقولِه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ [محمّد: 15]، وهي نهرُ الماءِ العذب، ونهرُ اللّبنِ الذي لم يتغيَّر طعمُه، ونهرُ الخَمْرِ لذّة للشّاربين، ونهر العسلِ المُصفَّى[3]؛ فجُمع اللّفظ تعبيرًا عن تعدُّد الموارد، وتنوُّعِ اللّذّاتِ، وتكاملِ النّعيمِ في دارِ القرارِ.

سِرُّ التَّعريفِ بـ (أل):

التّعريفُ بـ (أل) مؤذِنٌ بالشّمولِ والتّنوّعِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بتعريفِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بـ (أل) دونَ الإضافةِ إلى الجنّاتِ بـ(أنهارها)؛ لأنّ (أل) هنا للكمالِ[4]، فالتّعريف بها أبلغُ من الإضافةِ؛ لأنّه يُشيعُ في النّفسِ عظمةَ هذه الأنهارِ وشمولِها، ويوحي بكمالِ النّعيم، وتعدُّدِ المواردِ، لا كما توحي الإضافةُ بمُلكيّةٍ قاصرةٍ، أو نسبةٍ محدودةٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ دونَ البقاءِ أو الإقامةِ:

الـدّلالـةُ على الـدّوامِ المُطلَقِ الـذي لا انقطاعَ له

عُبِّرَ بصفةِ الخُلودِ في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ بدلًا من البقاءِ أو الإقامةِ؛ لما في لفظِ الخلودِ من دلالةٍ على الدّوامِ المُطلَقِ الذي لا انقطاعَ له، مع استقرارٍ لا ارتحالَ بعدَه، ومُكْثٍ لا يُتصوّر زوالُه،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 272.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 451.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 451.
(4) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 109.

ولأنّها تنفي إمكانَ الانتقال والتّحوّل[1]، وتُشيعُ في النّفس طمأنينةَ القرارِ الأبديّ؛ بخلاف التّعبير بالبقاء أو الإقامة؛ فلا يُؤدّيانِ معنى الدّوامِ المُطلقِ؛ لذلك آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الخُلود دونَ غيرِه في حديثه عن نعيم أهل الجنّات.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّة ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

خُلودٌ بلا انتهاءٍ، ودوامٌ لا يعتريه الفناءُ

جاء التّعبيرُ بالاسميّة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ دون الفعليّةِ (يخلدون)؛ لما في الاسم من دلالةِ الثّباتِ والاستقرار، بخلافِ الفعلِ الذي قد يحتمل معه تجدُّدَ الحَدَثِ أو انتهاءَه، فالاسم هنا يدلُّ على خلودٍ مُستقرٍّ لا يعتريه زوالٌ، ودوامٍ مُطلقٍ لا يتهدَّدُه انقطاعٌ؛ تحقيقًا لوعدٍ ربّانيٍّ لا يورَث ولا يُنتزعُ، بخلاف أحكام الدّنيا الزّائلةِ، فالجنّة دارٌ لا موتَ فيها[2]، ونعيمٌ لا يخشى أهلُه الفقدَ ولا الفناءَ.

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

انتقالٌ من خطابِ الوعدِ إلى تحقيقِ الموعودِ

في التّعبيرِ بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ التفاتٌ؛ لأنّه انتقالٌ من ضميرِ المخاطَبةِ في ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾ إلى ضميرِ الغَيْبةِ، فاستبدل المخاطَب بالمَذكور، فكأنّه ينقل النّعمةَ من واقعِ الوعدِ المباشَرِ إلى الحقيقةِ في الغيبِ، ولو جرى الاستعمالُ على المباشرِ لكان التّركيبُ: (خالدًا أنتم فيها)، لكنّ هذا الالتفات من فنون البيانِ[3] التي تُضفي على النّص سحرًا خاصًّا، وتُثبِّتُ المعنى في أذهانِ السّامعين.

دلالةُ الإضمارِ في قولِه: ﴿فِيهَاۚ﴾:

تناسبُ الإضمارِ مع معنى الجنّةِ في اللّغةِ

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بالإضمار ﴿فِيهَاۚ﴾ دون الإظهار (جنات) لسَبقِ ذِكْرها في قوله: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ﴾، ويُلَمَح في الإضمار التّناسبُ مع معنى الجنّة في اللّغة؛ فهي تدلُّ على السّتر والخفاء، والضّمير يدلُّ على السِّتر والخفاءِ.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 180.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 272.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 105.

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

إشــارةٌ تعظيمٍ إلى تمامِ النّعيمِ

جاء التّعبيرُ باسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ليشملَ كلّ ما سبق من النّور والبُشرى بالجنّات التي يخلدون فيها[1]، فهو لا يُشير إلى شيءٍ بعينه، بل إلى جملةِ النّعمِ والفضائل المنقولة، كما أنّ استعمال اسم الإشارةِ المُقترن بلامِ البُعد يدلّ على التّعظيم والتّنبيه[2]، ليُبرزَ عظمَةَ الفوزِ وإشرافَه على كلّ ما ذُكر، مُجَسِّدًا ذروةَ الغاية وأسمى المراتب.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ الواو مع اسم الإشارة:

استئنافُ المَدحِ مزيدُ عطاءٍ في التّنعيمِ

لم تُذْكَر الواو مع ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لأنّ المقام مقامُ ابتداءِ ثناءٍ وتعظيمٍ لنعيمٍ يفجأ أهلَه في موقف الكرب والضّيق، فكأنّ السّياق يستأنفُ المدح؛ أيّ: هذا هو الأمر العظيم[3]، ويفتتح به ثناءً جديدًا لما تقدّم من نورٍ وبُشرى وجنّاتٍ، على وجهٍ يَلْفِت النّظرَ، ويُعظم الفضل. وفيه إشارةٌ إلى جواز أن يكون ذلك من كلام الملائكة، أو من كلام اللّه تعالى؛ بخلاف وجود حرف العطف فإنّه يُؤدّي إلى أنّه من كلام الملائكة.

سِرُّ التّعبيرِ بالضّميرِ ﴿هُوَ﴾:

فــوزٌ عـظـيـمٌ لـلـمـؤمـنـين، وتعريضٌ مُخْزٍ للمنافقين

جيءَ بضمير الفَصْلِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ لتقويةِ الخبر وتحقيقه[4]، فهو الفوز العظيم الذي لا غيره، فزاد في تقرير المعنى وحَصَره، وجعل الكلامَ أرسخَ في النّفس. ولأنّه يُفيد الحَصْر، فيقصر الفوزَ الحقيقيَّ على المؤمنين، وهو في الوقت عينه تعبيرٌ مُشْبَعٌ بالإشعار والتّعريض بحال المنافقين، إذْ يُفهَم من الحصر أنّ مَن عداهم في خُسران مبين[5]، لا حظّ لهم من هذا الظّفر، ولا نصيبَ لهم من ذلك النّعيم. ويَرِد ضميرُ الفصل أيضًا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 456.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 381.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 272.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 381.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 450.

لإفادة التّوكيد والتّخصيص[1]، فليس ذلك النّعيمُ محضَ فوزٍ، بل هو الفوزُ بعينه، لا فوزَ سواه، فهو وحدَه الفلاحُ الحقيقيّ والمقام المحمود، لا ما يتوهَّمُه النّاسُ من نصرٍ زائلٍ، أو متاعٍ دنيويٍّ حائلٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بالفوزِ دونَ الفلاحِ:

الخلاصُ من المكروهِ مع الوصولِ إلى المحبوبِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفوز في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ دون الفلاح؛ لأنّه يدلّ على النّجاة من الشّرّ مع إدراك الخير، "والفوز هوَ الخَلاص من المَكْروه مع الوُصول إلى المحبوب، ولِهَذا سَمَّى اللّهُ تعالى المُؤمنينَ فائزين لنجاتهم من النّار ونيلهم الجنَّة"[2]. وهو أنسب لسياق الآخرة، حيثُ النّجاةُ من النّار والفوزُ بالجنّة، بخلاف الفلاح الذي يدلّ على النَّجاح العامّ، أو الصّلاح في الحال والمآل، ويكثر في سياقات التّكليف والعمل في الدّنيا، كقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾ [المؤمنون: 1]، كما أنّ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ يحمل في طيّاته معنى الغلبة والظّفر، وهذا أليق بالمقام الذي تُذْكَر فيه بُشرى المؤمنين بالجنّات ورضوانِ اللّه، فهذا أبلغُ في بيان عِظَم الجزاء، وتمامِ النّعمة في الآخرة.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾:

دخولُ الجنّاتِ هو الفوزُ الحقيقيُّ دونَ ما عداه

تعريفُ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ بـ (أل) يُفيدُ الحَصْرَ، فهذا هو الفوزُ الحقيقيُّ الكاملُ، وما عداه فليس من الفوزِ في شيءٍ، وفي ذلك تعريضٌ بالمنافقين، إذْ يُفهَم ضِمنًا أنّهم خارج هذا الفضل، وأنّ مصيرهم على النّقيض تمامًا، فهم في خُسرانٍ مُبينٍ[3].

سِرُّ وصفِ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ بـ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾:

فوزٌ غَمَرَ الأرواحَ والأبدانَ، وامتدَّ في الآفاقِ والوجدانِ

وَصْفُ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ بـ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ دون (الكبير) أو (المبين)؛ لأنّه يدلّ على الشّمول والامتلاء، فهو فوزٌ عظيمٌ في ذاتِهِ، عظيمٌ في آثارِهِ، قد غمر بكمالِهِ كلَّ الجهات، وامتدّ أثرُه في ذوات المؤمنين وأبدانهم،

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 338.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 210.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 450.

ونفوسِهم وأرواحِهم[1]، حتّى صار العُلوّ والرّفعة والطّمأنينة تملأ الكيان كلّه. ولأنّ هذا الوصفَ يدلُّ على ذروة مراتب النّجاة، وأشرفُ مقامات الظَّفَر، فهو أرفعُ من أن يُقاس بالفوز الكبير أو المُبين، إذ لا يوصَف بالعظيم إلّا ما جلّ خطرُه، وارتفعت درجتُه[2]، وبلغ الغايةَ في رِفعةِ الشّأنِ، وتمامِ الإنعام.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

فـوزٌ دائـمٌ لا يـزولُ، راسخٌ لا يَحولُ

التّعبيرُ بالجملة الاسميّة هنا يفيدُ الثّباتَ والدّوامَ، إذ إنّ الجملة الاسميّة بطبيعتها تُستعمل للدّلالة على المعاني المُستقرّة غيرِ المُتجدّدة[3]، فالفوزُ هنا ليس لحظةً عابرةً، ولا نصرًا مؤقتًا، بل هو حقيقةٌ راسخةٌ لا يعتريها زوالٌ، ولا يشوبُها انتقالٌ.

دلالةُ التّعريفِ في قولِهِ: ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

إفـادةُ الحصرِ والتَّفرُّدِ

التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ يُفيدُ الحصرَ والتّفرّدَ، إذ يوحي بأنّ هذا هو الفوز الذي لا يُقدَّرُ قَدْرُه، ولا يُدانى شأنُه، حتّى كأنّه لا فوزَ سواه، ولا يُعتدّ بما عداه، لأنّهم قد نالوا به الغايةَ القُصوى، وبلغوا به تمامَ ما كانوا يرجون[4]، فاجتمع لهم كلُّ ما يُطلب، وانتفى عنهم كلّ ما يُرْهَب.

بلاغةُ الاتّفاقِ والاختلافِ مع آية التّحريم:

رُسـوخُ المَقـامِ في الـتّـحـريـمِ، وتجدُّدُ البشارةِ في الحديدِ

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [التّحريم: 8]، آيتان من باب المتشابه اللّفظيّ، تقدّم الفعلُ ﴿يَسۡعَىٰ﴾ في الآية الأولى، وتأخّر في الآية الثّانية؛ فيسأل عن الفرق بينهما؟.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 273.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 338.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 1/ 76.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 204.

والجواب عن ذلك: أنّه ورد في سورة التّحريم وصفُ المؤمنين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: 8]، والمعيّة هنا تُشير إلى عُلوّ المنزلة، وشرفِ المقام، ممّا يوحي بالثّبات والاستقرار؛ فناسبَ ذلك التّعبيرُ بالجملة الاسميّة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ [التحريم: 8] الدّالّةِ على الرّسوخ والثّبوت، أمّا في سورة الحديد، فلم تُذْكَر معيّةُ النّبيِّ ﷺ، بل جاءت الآيةُ على وجه البشارة المُجرّدة، ممّا يقتضي تجدُّدَ النّعمةِ وظهورَها شيئًا فشيئًا، فجيء بالفعل ﴿يَسْعَىٰ﴾ مقدَّمًا ليَدُلّ على الحُدوث والتّكرار، فكان كلٌّ في موضعه بديعًا، وفي سياقه مُتقنًا، ممّا يشهد لإعجاز النّظم، وبلاغة التّرتيب[1]. ويجوز في التّرتيب أنّ تكون آيةُ الحديد مَعنيةً بإظهار شرف المؤمنين ورِفعةِ مقامهم، فَقُدّمَ الفعلُ ﴿يَسْعَىٰ﴾ لبيان العناية الإلَهيّة بتلك الخصيصة النّورانيّة التي تُضيء لهم الطّريق، وتدلّ على سُموّ إيمانهم، وكأنّ النّور هو السّمَة البارزة المُتقدّمة في مشهد الجزاء، أمّا في آية التّحريم، فقد انصبّ التّركيز على ذاته الشّريفة ﷺ، ومَن معه من المؤمنين، فجاء ذِكْرُهم مُقدَّمًا، تعظيمًا لقدرهم، وتأكيدًا على أنّهم موضعُ الحفظِ والكرامة، ثمّ أُتبعَ ذلك بذِكْر النّور، ليكون تاجًا يتوِّجُ بهاءَهم، ومَظهرًا من مظاهر رفعتهم في مقامٍ لا خِزيَ فيه[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّؤيةُ والإبصار:

إدراكُ المَرئيِّ لا مجرّدَ إقبالِ البَصَرِ

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ورد الفعل ﴿تَرَى﴾ دون (تُبصر)؛ لأنّ الرّؤية تدلّ على

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 468.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 159.

إدراك المَرئيّ إدراكًا تامًّا، وانكشافًا واضحًا[1]، بخلاف البصر الذي هو مجرّد إقبال العينِ نحوَ الشّيء، وقد يحصل معه الإدراكُ وقد لا يحصل، فالمقامُ مقامُ مشهدٍ جليٍّ يراه الرّائي رؤيةً حقيقيّةً بلا حجابٍ ولا لبس، فجاءت الرّؤيةُ لا البصرُ لتناسبَ هذا المعنى.

السّعيُ والمَشْيُ:

مَـشْيٌ متسارعٌ يُشيرُ إلى العَزْمِ والمُثابرةِ وحُسْنِ النّيّةِ

في قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ جاء بلفظ السّعي دونَ المُرادفِ له كالمشي، لما يحمله السّعيُ من دلالةٍ زائدةٍ على مُجرّد الانتقال بالأقدام؛ فالسّعيُ في اللّغة: هو المَشْيُ السّريع الذي لا يبلغ حَدَّ العَدْوِ، وهو مشيٌ ينطوي على اجتهادٍ وحرصٍ ومبادرةٍ، بخلاف المشي الذي قد يُفهَم منه التّمهُّل، فاختيارُ لفظِ السّعي هنا يوحي بمعانٍ من الجِدّ والمثابرة والإقبال الحثيث على المقصود، وهو فعلٌ محمودٌ[2]، وهو في هذا السّياق الكريم يدلُّ على نورٍ يسعى بأهله سعيًا حثيثًا، في مشهدٍ مهيبٍ مُفعَم بالبشارة والكرامة، ليُبْرِزَ أنّ ذلك النّورَ ليس ساكنًا ولا بطيئًا، بل مندفعًا متتابعًا يواكبُ مسيرَ المؤمنين في جِدِّهم واجتهادهم، حتّى بلغوا هذا المقامَ الرّفيعَ.

الفوز والفلاح:

الـفـوزُ أنـسـبُ لـسيـاقِ الآخـرةِ حـيـثُ الـنّـجـاةُ من النّارِ وبلوغُ الجنّةِ

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، عبّر بـ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ دون (الفلاح)؛ لأنّه يدلّ على النّجاة من الشّرّ مع إدراك الخير، "والفوز: هو الخَلاص من المَكْروه مع الوُصول إلى المحبوب، ولِهَذا سَمَّى اللّهُ تعالى المُؤمنينَ فائزين؛ لنجاتهم من النّار ونيلهم الجنَّة"[3]، وهو أنسب لسياق الآخرة حيث النّجاة من النّار والفوز بالجنّة، بخلاف

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 544.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 359.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 210.

الفلاح الذي يدلّ على النّجاح العامّ، أو الصّلاحِ في الحال والمآل، ويكثر في سياقات التّكليف والعمل في الدّنيا، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: 1]، كما أنّ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ يحمل في طيّاته معنى الغَلَبَة والظَّفَر، وهذا أليقُ بالمقام الذي تُذكَر فيه بُشرى المؤمنين بالجنّات ورضوانِ الله، فهذا أبلغُ في بيانِ عِظمِ الجزاءِ، وتمامِ النّعمةِ في الآخرةِ.

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ [الحديد: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد تمييزِهِ نورَ المؤمنين أتبعه ببيانِ حرمانِ المنافقين

لَمّا بيّن ﷻ في الآية السّابقة مشهدَ المؤمنين في يوم القيامة، وأنّ النّور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وتتلقّاهم الملائكةُ بالبِشارة بالجنّات؛ أتبع ذلك ببيان مشهد المنافقين وحِرمانهم من النّور الذي طلبوه من المؤمنين بقولهم: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾. ومنها: لمّا ذكر المولى سبحانه في الآية السّابقة مشهدَ إشراقِ النّورِ في وجوه المؤمنين، وسعيهِ بين أيديهم وأيمانهم، جزاءً لإيمانٍ خالصٍ وعملٍ صالحٍ؛ أعقبَه بمشهدٍ مُضادٍّ يُجلّي سوءَ مآلِ مَن نافق في الدّنيا، فذكر حالَ المنافقين يومَ تبدَّو ظلماتُهم، ويُحرمون من قبس الهداية، فقال: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾، فصار ذلك اليومُ موضعَ مفاصلةٍ كاشفةٍ بين أهل الإيمان الصّادق، وأهلِ الادّعاء الزّائف، يُنادون أهلَ النّور: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾، يقولون ذلك عند رؤيتهمُ المؤمنينَ بروقًا خاطفة يُسْرَع بها إلى الجنّة، حيثُ النّعيم المُقيم[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنظُرُونَا﴾: (نظر) أصلٌ صحيحٌ، ومنه نظرُ العين ونظر القلب، ويكون منه الانتظار، فنظرته بمعنى: انتظرته، والنّظر تأمّل

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 452.

الشّيء بالعين وبغير العين، ثمّ يُستعار ويتّسع فيه، فيُقال: نظرتُ إلى الشّيء أنظر إليه، إذا عاينته، ويقولون: نظرته؛ أيْ: انتظرته، وسُمّي الإمهالُ إنظارًا؛ لأنّه ينظر إلى الوقت الذي يأتي فيه[1]، وضدّه التّعجيل، والإنظار والنّظرة: التّأخير والإنساء والإمهال[2]، والاستنظار: طلبُ الإنظار، واستنظر المُشتري فلانًا: سألَه الإنظار، والتّنظّر: توقّع الشّيء[3]. والمقصود بالفعل ﴿ٱنظُرُونَا﴾ في الآية يعني: ارقبونا وانتظرونا كي نأخذ من نوركم فنمضي معكم[4].

2) ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾: (قبس) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على صفةٍ من صفاتِ النّارِ، ثمّ يُستعار، من ذلك القبس: شعلة النّار[5]. فتقتبسها؛ أيْ: تأخذ من أكثر تلك النّار، ويستعمل الاقتباس للعِلم مَجازًا، وهو العلم والتّعليم والإفادة، والقَبَس هو ما يكون في متناول يدك من شعلة النّار، والاقتباس هو طلب ذلك ممّن عنده النّار، والقبس أيضًا الجذوة من النّار، وهي التي تكون في طرف العود، ومعنى القبس المِحوريّ: "تحصيلٌ مباشرٌ لمادّة حادّة من أصلٍ لها، كأَخْذ الشّعلة من نارٍ عظيمةٍ"[6]. ومعنى ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾؛ أيْ: نأخذ ونستصبح، ونفيد ممّا عندكم من النّور[7].

3) ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾: (لمس) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تطلّب شيءٍ ومسيسه أيضًا. تقول: تلمّستُ الشّيء، إذا تطلّبتَه بيدك. قال أبو بكر بن دُريد: اللّمس أصله باليد ليُعرفَ مسُّ الشّيء، ثمّ كثُر ذلك حتّى صار كلُّ طالبٍ مُلتمسًا[8]. ويمكن أن يكون اللّمس معرفةَ الشّيء من غير أن يحصل مَسُّ الجوهر، أمّا الالتماس فهو البغية والطّلب، ومنه حديث الرّسول ﷺ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ»[9]؛ أيْ: يطلب فيه علمًا. ومعنى: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾؛ أي: ارجعوا فاطلبوا النّور حيثُ أعطينا النّور هناك[10].

---

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(2) الدّانيّ، الفرق بين الضّاد والظّاء، ص: 51.
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نظر).
(4) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 4/ 239.
(5) الخليل، العين، وابن دُريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قبس).
(6) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قبس).
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 32/ 181.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمس).
(9) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم: (2699).
(10) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 405.

4) ﴿بِسُورٍ﴾: (سور) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على عُلوٍّ وارتفاعٍ[1]. ومعنى السّور: حائطُ المدينة، ويكون عاليًا مُشرفًا، ومنه المِسورة مكان يُجلس عليه، وسُمّي كذلك لعُلوّه وارتفاعه، وهو حقيقٌ به، ومنه تسوّرت السّور إذا تسلّقته[2]. والسّور في الآية الكريمة بمعنى الحاجب، "وليس يعني به ما يحجب البصر، وإنّما يعني به ما يمنع من وصول لذّة الجنّة إلى أهل النّار، وأذيةِ أهل النّار إلى أهل الجنّة"[3]، ويجوز أن يكون معناه حجابُ الأعراف، أو هو سور المسجد الشّرقي في بيت المقدس[4].

5) ﴿بَابُۢ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرّدٌ، جذره اللّغويّ (بوب) ألفه منقلبة عن واو، وآية ذلك أنّه يجمع على أبواب، والباب معروف، ومنه البوّاب بمعنى الحاجب، ويُقال لمدخلِ الشّيء وطاقِهِ الذي يُدخل منه: بابُهُ[5]. والمعنى المِحوريّ للباب: "انفتاحٌ مع اتّصالٍ دائم، كما أنّ الباب فتحةٌ توصِلُ إلى ما كان محجوبًا، وهي تُتيح الاتّصال دائمًا، وكلّ ما جاء من استعمالات هذا التّركيب في القرآن الكريم هو الباب المَدخل أو المَنفذ إلى المكان"[6]. ومعنى ﴿بَابُۢ﴾ في الآية الكريمة هو الباب المعهود، أو هو الطّريق[7].

6) ﴿بَاطِنُهُۥ﴾: (بطن) أصلٌ واحدٌ لا يكاد يخلف، وهو إنسيُّ الشّيء والمُقبِلُ منه، فالبطن خِلاف الظَّهر[8]. ويُطلَق على ما غمُض من الأرض، كما يُقال: "وباطن الأمر: دخْلَتُه. خلافُ ظاهره"، ويوصف بالباطن ما خفيَ عن الحواسّ، واحتاج إلى تفسير، وجميع المواضع التي وردت في القرآن الكريم تحمل معنى الخفاء والاستتار[9].

7) ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾: (ظهر) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على قوّةٍ وبُروزٍ، من ذلك: ظهر الشّيء

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سور).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (سور).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: 1/ 373.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 475.
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بوب).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بوب).
(7) أبو حفص النّسفيّ، التيسير في التفسير: 14/ 295.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطن).
(9) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات، والزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بطن).

يظهر ظهورًا فهو ظاهرٌ، إذا انكشف وبرَزَ[1]. ومصدره: الظّهور، وهو البدوّ خلاف البطن، وهو ضدّ الاستتار، والظّهور هو عدم الخفاء، فيمكن الوقوف عليه ومعرفته لبروزه، وسُمّيت الظّهيرة كذلك لوضوحها[2]، والمعنى المِحوريّ: البروزُ من أثناءٍ أو باطنٍ إلى سطحٍ، مع شدَّةٍ وغِلَظٍ أو قوَّة[3].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

نورٌ لا يُقتبسُ، وسورٌ لا يُخترقُ

في ذلك الموقف الفاصل يصرخ المنافقون والمنافقات للمؤمنين وللمؤمنات: "انتظرونا، أمهلونا لحظةً نلحق بكم، ونستضيء من نوركم الذي يسعى أمامكم وبأيمانكم"؛ فيُجابون بجوابٍ قاطعٍ: ارجعوا من حيثُ أتيتم، فالتمسوا النّور من خلفكم، فلن يوهَب لكم من نورنا شيءٌ، وهنا يُضربُ بينهم وبين المؤمنين بسورٍ عظيم، هو الحاجز المنيف بين أهلِ النّعيم وأهلِ الجحيم، له بابٌ مخصوصٌ؛ داخلُه رحمةٌ تَفيضُ، ويُفضي إلى الجنّة، وخارجُه عذابٌ يُطوّق، ومآله إلى النّار[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

مَشهدُ المنافقين شاهدٌ على عَظَمَةِ فوزِ المؤمنين

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ عمّا قبلَه[5]؛ لأنّه صلةٌ لما قبلَه، وبيانٌ له، والمعنى: ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، لا في أيّ وقتٍ كان، بل في اليوم الرّهيب الذي يُذْهَل فيه المنافقون والمنافقات، ويقولون مقالتَهم حَسْرةً وتلهُّفًا[6]، فذُكِر هذا اليومُ مشفوعًا

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (ظهر).

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (ظهر).

(4) الواحديّ، الوجيز، ص: 1068.

(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 450.

(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 180.

بمشهدهم المُخزي تكميلًا لعَظَمَة الفوز. وممّا يُذْكَر في سِرِّ الفصل أنّ قولَه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدلٌ مُطابقٌ لقوله: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[1]؛ إذِ اليوم الواحد مشهودٌ، هو بعينه اليومُ المُعرَّف[2]، فُصِل ذِكْر المنافقين عنه تفصيلًا، ليُقابلَ النّورَ بالخِزْي، ويُبرزَ التّمايزَ الكامل بين أهل الإيمان وأهل النّفاق.

دلالة تكرار لفظ ﴿يَوۡمَ﴾:

إبراز التّقابل بين حال المؤمنين وحال المنافقين

في إعادة ذِكْر (يوم) في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بعد التّصريح بعِظم الفوز بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ إيماءٌ بلاغيٌّ رفيعٌ، إذ يُعاد الزّمن ليَظهرَ التّقابلُ بين الحاليْن: حالِ المؤمنين في غمرة الرّحمة والنّور، وحالِ المنافقين في غياهب الخِزي والنِّدامة، فكأنّما قيل: إنّ فوز المؤمنين لا يظهر جلالُه، ولا يتجلّى كمالُه إلّا يومَ يُفتَضَحُ فيه المنافقون، ويُحرمون من النّور[3]؛ لأنّ بهاء الفوز يزداد تألّقًا حين يُقارن بخسارة الخَصْم، وسُموُّ المَرءِ يبلغ ذِروتَه يومَ انكسارِ مَن عاداه وخالفَه.

سِرُّ التّعبيرِ بالقولِ مادّةً وصيغةً:

رفعُ الصّوتِ وسيلةُ الاستنجادِ في لحظةِ الهَلَعِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفعل ﴿يَقُولُ﴾ دونَ غيرِه، لما في مادّته من دلالةٍ على التّلفُّظ الواضحِ، والمواجهةِ الصّريحة، وكأنّهم في لحظة الهَلَع واليأسِ لم يجدوا بُدًّا من رفع الصّوت بالرّجاء، فأتَوا بقول مُتجدّدٍ مستأنَفٍ، تُمليه الشّدائدُ، وتُخرجُه الأهوالُ[4]، وأيضًا للتّذكير بحالتهم الأولى؛ فهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. وجاء فعلُ القولِ مضارعًا لوصفِ مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة، حيثُ تعلو أصواتُ المُلاحاة، وتترامى التُّهَمُ، وتتقاذَفُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 475.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 381.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 261.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 273.

الشّناعاتُ[1]، في جَوٍّ يَعُجّ بالتّوتُّر والانكشاف، فجاء الفعلُ ليُجَسِّدَ التّلفّظَ الصّريحَ، والمواجهةَ المباشرةَ في لحظةٍ لا مواربةَ فيها.

سِرُّ الوصفِ بالنّفاق دونَ غيره في: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

تسمّيةٌ تفضحُ زَيْفَ الدّعوى وتَفُضّ الاشتراكَ الظّاهريَّ

اختيارُ وصفِ النّفاقِ في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ دونَ الكُفْرِ أو الفِسْقِ، إنّما هو لكونهم من أهل الدّعوى الظّاهرةِ، فهم شاركوا المؤمنين في الظّاهرِ وخالفوهم في الباطن؛ فجاء التّعبيرُ دقيقًا كاشفًا لحقيقتِهم، سالبًا لنورِهم، جزاءً لنفاقِهم[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّةِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

النّفاقُ صفةٌ راسخةٌ لا تنفكُّ عنهم

جاء التّعبيرُ بوصف النّفاق بالاسميّة دونَ الفعليّة، لأنّها تدلّ على الثّبوت والاستمرار؛ فهم المنافقون بأعيانهم، الرّاسخون في النّفاق، المقيمون على الشّقاق والمعاداةِ لأهل الحقّ، لا يَطرأ عليهم تحوّلٌ، ولا يعرفون توبةً، وكذلك المنافقات[3]، سواء بسواء في ثبات الوصف وشناعة الحال.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

عمومُ العذابِ لجنسِ أهلِ النّفاقِ

تدلّ الألفُ واللّام في وصفَي ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ على استغراقِ الجنسِ، لا لبيانِ بعضٍ منهم، فليس الحديثُ عن أفرادٍ بعينهم، بل عن كلّ مَنْ تَلبَّس بهذا الوصفِ عبرَ الزّمان؛ ليَعُمّ الحُكمُ ويستغرقَ كلَّ مَن رسخ في النّفاق، وتوسّدَ الشّقاقَ، رجالًا ونساءً، دونَ استثناءٍ، في إشارةٍ إلى شمولِ العذابِ.

سِرُّ الجمعِ بين المُذكّر والمؤنّث ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

حظوظُ النّساء في النّفاقِ لا تَقِلُّ عن حظوظِ الرّجالِ

سِرُّ الجمع بين الموصوفَيْن بالنّفاق في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾، بأن عطفَ المؤنّثَ على المُذَكّر[4]، إيذانًا بمساواة المرأةِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 759.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 245.
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 388.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 381.

للرّجل في الوِزْرِ، وتنبيهًا بليغًا إلى أنّ حظوظَ النّساء من النّفاق والكفر لا تَقِلُّ عن حظوظ الرّجال، فكِلا الجنسيْن ما كان على هذه الشّاكلة فمَصيرُه جهنّمُ وبئسَ المِهاد.

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ﴾:

تبليغٌ دالٌّ على اعترافِ المنافقين وانكشافِ حقيقتِهم أمامَ المؤمنين

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ﴾ هي لامُ التّبليغِ الحازمة[1] التي تُفيد إيصالَ الكلامِ بقوّةٍ وقطعٍ لا مجالَ فيه للرَّدِّ أو الجِدالِ، كأنّ المنافقين يومئذٍ يعترفون صراحةً وبدونِ مواربةٍ للمؤمنين، ويُبلِّغونهم حقيقةَ موقفِهم المُخزي.

سِرُّ التّعبير بـ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنين):

محاولةُ استعطافِ المنافقين لأهلِ الإيمانِ بإيمانِهم

سرُّ التّعبير بـ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون ذِكْر (المؤمنين) يكمُنُ في مخاطبة النّاجين بإيمانهم مباشرةً، كأنّهم قد عَبَروا بسلامٍ عظيمٍ من مَطيّةِ الشَّكِّ والضّلالةِ إلى مَرافِئِ اليقين والرّضوان، فتوجَّهَ الخطابُ إليهم بصيغةِ المُخاطَبين الذين اجتازوا مرحلةً فاصلةً، وفازوا برضا اللّه حتّى دخلوا فسيح جناته بطمأنينة وسكينة[2]. وممّا يُذْكَر في سِرّ التّعبير بـ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنين) الإشارةُ بأنّ صلة الاسم الموصول هي عِلّة استحقاقِهم للجزاء المذكور، وهو النّورُ يوم القيامة، وأنّ المنافقين قد حُجِبَ عنهم النّورُ بما كان منهم من نفاقٍ وعدمِ إيمانٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بالتّذكيرِ في قولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

التّغليبُ في الخطابِ من سننِ العربيّةِ

جاء التّعبير في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بصيغة التّذكير دون ذكرٍ للمؤمنات؛ لأنّه جارٍ على سنن التّغليب في الخطاب العربيّ، وإنّما اقتُصر هنا على ذِكْرِهم؛ لأنّ المقام مقامُ تبشيرٍ وإنارةٍ، وأصحابُ النّور - وهم المؤمنون والمؤمنات[3] - قد شُمِلوا في هذا التّغليب،

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 471.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 170.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 381.

فحسبُهم شرفًا أن يُدرَجوا في عدادِ هذا الجمع المبارك، وإن غاب عنهم اللّفظ صراحةً، فقد حضروا معنًى ومقامًا.

صرخةُ التّوقِ إلى النّورِ بين الاستعجالِ والاعترافِ بالضّعفِ

دلالةُ التّعبيرِ بالانتظارِ دونَ الإمهالِ في قولِهِ: ﴿ٱنظُرُونَا﴾:

عبَّرَ القرآنُ بلفظِ الانتظار في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾، ولم يُعبِّر بلفظ الإمهال؛ لأنّ الأنظار مرتبطةٌ بالانتظار المباشر والمشاهدةِ الفعليّة التي تشتمل على الانتباه والتّرقُّب، وهو انتظارٌ واضحٌ ومُحدَّدٌ يرافقه إدراكٌ لما ينتظر، بينما الإمهال يُعدّ تعبيرًا مبهمًا لا يدلُّ على ربط الانتظار بحركةٍ بصريةٍ مُحدّدةٍ، أو إدراكٍ واضحٍ، فالآيةُ تُصوِّر حالة المنافقين وهم يطلبون من المؤمنين أن يسمحوا لهم برؤية نورِهم، وهذا طلبٌ مُرتبطٌ بالحصول على بصيرةٍ واضحةٍ وإدراكٍ ملموسٍ، لذا كان اختيارُ الأنظارِ مناسبًا للدّلالة على انتظارٍ مرتبطٍ بالرّؤية والإدراك.

وممّا يُذكر في سِرِّ التّعبير بالانتظار دون الإمهال أنّه يدلّ على طلبٍ عاجلٍ ومباشرٍ للنّظر والاهتمام يحملُ في طيّاته توقًا إلى لحظة المواجهة والاعتراف بالواقع، إذ لم يكتفِ المنافقون بالمطالبة بدليلٍ أو مهلةٍ، بل أرادوا إشعارَ المؤمنين بحضورهم واستجداءِ نصيبٍ من نورهم بشكلٍ فوريٍّ وحيويٍّ، ممّا يعكس يأسَهم وحاجتَهم الماسّةَ للنّور الذي يملكونه.

دلالة الفعل بين التّرفّق والانتظار

أثرُ تعدُّدِ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿ٱنظُرُونَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ قرأ حمزةُ بهمزة قطع مفتوحةٍ في الوصل والابتداء بفتح الهمزة وكسر الظّاء: ﴿أَنظِرُونَا﴾، وقرأ الباقون بهمزة وصلٍ تُضمّ في الابتداء، وضمِّ الظّاء: ﴿ٱنظُرُونَا﴾[1]، وتكشف هاتان القراءتان عن تنوّعٍ دلاليٍّ بليغٍ، فقراءةُ حمزةَ تُشير

(1) الواسطيّ، الكنز في القراءات العشر: 2/ 675.

إلى معنى: "أمهلونا"، و"ارفقوا بنا"، طلبًا للتّمهُّل عَلَّهم يدركونهم؛ أمّا قراءة الباقين فتدلّ على معنى: "انتظرونا"، أو "التفتوا إلينا"[1]، وهو استعطافٌ يحمل رجاء الاستدراك، فكأنّ المنافقين يتلمّسون شعاعًا من النّور المفقود، وقد وقع في ظنّهم أنّ بُعْدَهم عن المؤمنين حاصلٌ بموجب سرعتهم[2]، وهو ظنٌّ فاسدٌ يوصِّلهم إلى الخِزْي والحِرمان. ويجوز في قراءة الجمهور ﴿ٱنظُرُونَا﴾ أن تكون على معنى: "انظروا إلينا"، وهي دعوة للاستقبال وفتح الطّريق، فعندما ينظر المؤمنون إلى هؤلاء المنافقين، فإنّهم يستقبلونهم بوجوههم المشرقة، ويكون النّور بين أيديهم، ممّا يتيح لهؤلاء المُتخلّفين فرصةَ الاستضاءة به[3]. ويجوز في قراءة حمزة ﴿أَنظِرُونَا﴾؛ أيْ: أمهلونا وأخِّرونا؛ أي: اجعلونا في مُؤخّركم، ولا تسبقونا بالنّور فتفوتونا، فإنّ سَبْقَكُم يَحْجُبنا عن اللّحاق بكم[4]، ففي اللّفظ توسُّلٌ خفيٌّ، ونداءُ يأسٍ من ماضٍ ضيّعوه، وطلبٌ يوشِكُ أن يُردّ بلا جوابٍ.

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾:

التماسُ النّورِ من خلفِ ستارِ النِّفاقِ

جاء الأمر مُثقلًا بالرّجاء، صادرًا عن قلوب أدركها الفواتُ، فكان أشبهَ بالاستغاثة لا مجرّدِ الطّلب، بل هو توسّلٌ بالتّريُّث والتّلطّف في السّير، علَّ شُعاعًا من نور المؤمنين يطالُهم، إنّه الالتماس الأخير لأقوامٍ تخلّفوا في الدّنيا بظُلْمةِ النِّفاقِ، فهم الآن يستبطئون خُطا النّور، ويلتمسون من أهل الإيمان أن يُبطئوا المسير، كي يلحقوا بهم، ويستنيروا بضوئهم، وهذه الدّلالة تُفيد ضمنًا أنّ اللّه قد أذن للمؤمنين أن يسيروا فوجًا إلى الجنّة، وجعل المنافقين من خلفهم، يسيرون في ظلماتٍ موحشةٍ، كما دلّ عليه قولُه ﷺ في حديث الشّفاعة: «وَتَبْقَى

(1) ابن الجزريّ، شرح طيبة النّشر، ص: 316.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 457.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 106.

هَذِهِ الأُمَّةُ فيها مُنافِقوها»[1]، فالأمر في ﴿ٱنظُرُونَا﴾ يصوّر مأساة المتأخّرين الذين ضلّوا السّبيل، وجاؤوا مُتثاقلين خلفَ السّائرين إلى النّور، يستجدون الانتظار، ولكن لا مجيب[2].

سِرُّ مجيءِ الفعلِ ﴿ٱنظُرُونَا﴾ غيرَ مُعدًّى بـ (إلى):

المنافقون يُلِحّون على أهلِ الإيمانِ بالتّمهُّلِ لعلّهم يُـدْركـون شيئًا من النّورِ

ورَدَ الفعل ﴿ٱنظُرُونَا﴾ دون تعديتِهِ بحرف (إلى)، فلم يَقُلْ: انظروا إلينا، مع أنّ الأصل في الفعل ﴿ٱنظُرُونَا﴾: انظروا إلينا، وقد جرى على هذا النّحو من باب الحذف والإيصال[3]، ممّا أضفى على اللّفظ قوّةً في الطّلب، وسرعةً في الإلحاح، فجاء مختصرًا يجمع بين التّوجيه والرّجاء في آنٍ واحدٍ. وممّا يُذْكَر في سرّ عدم التّعدية: أنّ الغاية لم تكن مجرّد الالتفات، بل المقصود أن يستقبلهم أهلُ النّور بوجوههم، لا أن يلتفتوا إليهم فحسب، إذِ النّورُ يسعى بين أيديهم، فإن هم استقبلوهم بأنظارهم، أشرق نورُهم في وجوه المتأخّرين، فأمكن أن يُستنار به[4]، وهذا غير مُرادٍ في الآية؛ لأنّ المنافقين قد أطفأ المولى سبحانه نورهم بما اقترفوا في حياتهم الدّنيا من الكفر والنّفاق. وليس المقصود من الفعل النّظر البصريّ، وإنّما الانتظار؛ إذِ العربُ إذا أرادت بـ(نظر) معنى الإبصار، عدّته بـ (إلى)، فيقولون: نظر إليه، أمّا إذا أسقطوا حرف الجرّ، كان المعنى: ترقّب وانتظر[5]. فدلّ حذف (إلى) في الآية على أنّ المنافقين لا يسألون من المؤمنين التفاتًا أو رؤية، وإنّما يستغيثونهم بالتّمهُّل والتّريُّث، لعلّهم يُدركون شيئًا من النّورِ.

(1) البخاريّ، الجامع الصحيح، حديث رقم: (773).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.
(3) حقّي، روح البيان: 9/ 360.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 475.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 391.

سِرُّ التّعبيرِ بالاقتباسِ دونَ الاستضاءةِ:

تصويرُ الحاجةِ وتجسيدُ الخَيبةِ

أوثِر التّعبيرُ بالاقتباس في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ دون الاستضاءةِ؛ لأنّه يجمع بين أكثر من معنًى، إذْ هي في الوقت نفسِه أخذٌ ونصيبٌ واستضاءةٌ ونورٌ يُستنار به[1]، وفيه إشارةٌ إلى شدّة الحاجة والافتقار إلى هذا الضّوء. وممّا يُذْكر في سِرِّ التَّعبير بالاقتباس: أنّه يوحي بالاقتطاف المحدود؛ لأنّ الدّلالة فيه على التّقليل ظاهرة، إذِ القَبَس في أصله جَذْوةٌ يسيرة تُستَجلَب من نار[2]، تُضيء قدرًا ضئيلًا، ففي اللّفظ إشعارٌ بالحاجة، واعتراف بالافتقار، وتَمَنٍ لنصيبٍ يسيرٍ من هدايةٍ، لا تُنال إلّا بصدق الإيمانِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾:

نداءٌ مُتجدّدٌ في طلبِ اقتباسِ النّورِ

جاء التّعبير بفعل الاقتباس مضارعًا؛ لأنّه يدلّ على تصوير الحَدَث وكأنّه جارٍ حيٌّ متجدّدٌ، يُستَحضر أمامَ السّامع بكلّ ما فيه من لهفةٍ وتوسُّلٍ واضطرابٍ؛ لأنّ المضارع يدلّ على الحال والتّكرار والاستمرار[3]، وفي ذلك إبرازٌ لحالة الاضطراب النّفسيّ التي يُعانيها المنافقون، فهم يطلبون النّورَ في صورةِ حالٍ مُتجدِّدة، فهم في كلِّ لحظةٍ يُلحّون على المؤمنين بقولهم: "دعونا نقتبس الآن، ولو شُعاعًا"، فحكى الفعلُ حالَهم المتكرّرةَ، وأمانيهم المُلحّةَ بأسلوبٍ يُثير الشّفقةَ، ويكشف الخُذلانَ.

دلالةُ لفظِ ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾ بين الحقيقةِ والمَجازِ:

وَهْمُ الاقتباسِ بين لَهَبِ النّارِ ونورِ الإيمانِ

يشفّ لفظُ ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾ عن ثراءٍ دلاليٍّ بين الحقيقة والمجاز؛ فالأصلُ فيه حِسّيٌّ، إذْ أَخْذُ الاقتباسِ معناه: أخذُ قَبْسَةٍ من لهبِ النّار، فيكون استعمالُه على الحقيقة؛ لأنّ المنافق يظنّ أنّ النّور شعلةٌ مادّيّة يمكن انتزاعُ جُزءٍ منها، فجاء التّعبيرُ ليُجَسّدَ حيرتَهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 273.

(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 339.

(3) السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 355.

وخيبتَهم، ويضاعفَ الإيحاءَ بالحَسْرة التي تعصف بهم حين يُردّون خائبين، إذ لا يُقتبس من نور الإيمان إلّا بما سبق من صدقٍ ويقينٍ[1]. وقد يُحمَل طلبُ المنافقين للاقتباس من نور المؤمنين على المجاز؛ إذ ظنّوا أنّهم يقدرون على أخذ شيء من أنوار الإيمان كما يأخذون جمراتِ النّار الدّنيويّة، غافلين عن حقيقة أنّ هذه الأنوارَ ثمرةُ الأعمال الصّالحة في الدّنيا، فكما لا يُقطف ثَمَرٌ من شجرةٍ لم تُغْرَس، كذلك لا ينال نورٌ بغير عملٍ صالحٍ[2]، فبُطلانُ الأصل (الأعمال) يستلزمُ بطلانَ الفرعِ (الأنوار)، وهذا من جهلهم بحقيقةِ الإيمانِ وثوابِه.

بلاغةُ الاستعارةِ في فعلِ الاقتباسِ:

محاولةُ انتفاعِ المنافقين بنورِ المؤمنين دونَ نُقصانِه

في قوله تعالى: ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾ استعارةٌ على سبيل التّمثيل لانتفاع المنافقين بنور المؤمنين، كما ينتفع المُقتبس بضَوء النّار دون أن يُنقِصَ منها، فكأنّهم يطلبون الالتحاق بسبيلهم، والاستنارة بهَدْيهم[3]، فصار الاقتباس استعارةً مجازيّةً للتّعبير عن الانتفاع الرّوحي بما لا يؤدّي إلى نقصان الأصل.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن نُّورِكُمۡ﴾:

تبعيضٌ دالٌّ على ذُلِّ السّائلِ وعِظَمِ المحرومِ منه

حرفُ الجرّ في قوله تعالى: ﴿مِن نُّورِكُمۡ﴾ دالٌّ على التّبعيضِ، فإنّهم لا يطمعون في النّورِ كلّه؛ فالتّعبيرُ يَشي بذُلّ السّائل، وضآلةِ المطلوب، وعِظَمِ المحروم منه، وهذا بذاته إقرارٌ خفيٌّ بعُمقِ الفجوة بين حالهم وحالِ المؤمنين، واعترافٌ مُبطَّن بالفارق الجوهريّ في الاستحقاق.

دلالةُ التّعبيرِ بالنّورِ مُفردًا:

النّورُ الحقُّ واحدٌ لا يتعدّدُ

جاء التّعبيرُ بالنّور مُفردًا لا جمعًا في قوله تعالى: ﴿مِن نُّورِكُمۡ﴾، فلم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 457.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.

يَقُلْ: (من أنواركم)؛ تنبيهًا على أنّ النّور الحقّ واحدٌ لا يتعدّد، وهو نور الهداية والمعرفة الرّبّانيّة والأخلاق الفاضلة[1]، بخلاف الظّلمات التي تتعدّد بتعدّد سُبل الغِوايَة والضّلال. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بالإفراد أنّ النّور في الآية نورُ البصيرة لا نورُ البصر؛ لأنّه ضياءُ المعرفة لا شعاعُ المَرئيّات، وإذا كان الأمر كذلك، تبيّن أنّ النّور الحقَّ في مشهد القيامة هو نور معرفةِ اللّه تعالى، لا يُزاحمُه نورٌ، ولا يتعدّد بتعدّد الأنظار، فهو نورٌ واحدٌ[2]؛ لأنّه حقٌّ مُطلقٌ لا يتجزّأ ولا يتلوَّن.

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿نُورِكُمْ﴾:

نـورٌ مخصوصٌ لأهـلِ الإيـمـانِ لا يـتـعـدّاهـم لغيرِهم

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿نُورِكُمْ﴾ دالّةٌ على التّخصيص والاختصاص؛ أيِ: النّور الذي هو لكم وحدَكم، لا يُهدى لغيركم، ولا يُنالُ بالتماسٍ بعد الفوت، فكأنّهم يقولون: هذا الذي نراه يخصُّكم، كما كنّا في الدّنيا نرى منكم ظواهرَ الإيمانِ، ولا نُصيبُ من حقائقه شيئًا[3]، فظاهرُ الأمر كان مشتركًا، وأمّا النّور الباطن، فلَكُم لا لغيركم.

دلالةُ بناءِ الفعلِ ﴿قِيلَ﴾ للمفعول:

الـرّدُّ أوجـعُ من قائله في بلاغةِ التّجهيلِ

وُرودُ الفعل ﴿قِيلَ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ لأنّ المقصودَ ليس تعيينَ القائل، بل إبرازَ قسوةِ الرّدِّ ذاته، إذْ إنّ المَنكأ الحقيقيَّ هو الرّدُّ بالرّفض والإهانة، لا هويةُ من تلفّظ به[4]، فكأنّ الجوابَ جاء صفعةً من القَدَر، لا تحتاج إلى ناطِقٍ، تُسَدّ بها أبوابُ الرّجاء، وتُغلَقُ منافذُ الطّلب. وممّا يُذكَرُ في سرِّ إيرادِ الفعل ﴿قِيلَ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ الإفادةُ بأنَّ القائل ليس من جملة المؤمنين المخاطَبين، بل هو صادرٌ عن الملائكة السّائقين للمنافقين[5]، فجاء الإبهام في الذِّكْر ليدلَّ على

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 451.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 5/ 382.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 206.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 274.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.

أنَّ مصدر هذا القول ليس من البشر، بل هو من عالَم الغيب، ممّا يُضفي على الكلام هيبةً وقُدسيّةً. وأيضًا بُنِيَ الفعل ﴿قِيلَ﴾ للمفعول دون إسناده لفاعلٍ مُعيَّنٍ؛ إمعانًا في التّهويل، وترسيخًا لهول الموقف، وهو صادرٌ من المؤمنين أنفسهم[1]، ناطقين بلسان الحقيقة، إشارةً إلى انفصالِ المصير، وتلاشي ما كان بينهم من ظاهرِ الاشتراك، فكأنّهم يصدّونهم بكلمةٍ لا رجعةَ بعدها. وعلى كِلا الاعتبارَيْن إنْ كان من الملائكة أو المؤمنين فالتّعبير بهذه الصّيغة ﴿قِيلَ﴾ يُفيد طردًا صريحًا لا مجاملةَ فيه، ونبرةَ تهكُّمٍ مُبطّنةٍ[2] تُجرِّدُهم من أدنى أملٍ في الإدراك أو اللّحاق، وكأنّ الخطاب يصفعهم بمرارةِ الحقيقة التي طالما غفلوا عنها.

ومن لطائف صياغة الفعل ﴿قِيلَ﴾ مبنيًّا للمفعول: الدّلالة على أنّ هذا الجواب هو الذي لا يُتصوَّر غيرُه، وإن لم يتلفّظ به أحدٌ، فهو جوابُ الحال قبلَ أن يكون جوابَ المقال؛ ناطقٌ بما في الموقف من قطعٍ ويأسٍ، لا يحتاج إلى مُعبِّر، إنّه ردعٌ صارمٌ للمنافقين والمنافقات، يقيِّدُهم في مواضعهم التي جَنَوها، فلا يبرحونَها حتّى يُقْضَى فيهم قضاءُ الحقِّ الذي لا مَفَرَّ منه ولا تأجيل[3].

دلالةُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ يتجلّى أمرٌ ربّانيٌّ في صورةِ مَكْرِ اللّهِ بهم؛ حيثُ يُجازَى بها المنافقون على خداعهم المتواصل، فيُخَيَّل إليهم أنّ الرّجوع سيمنحُهم النّورَ المفقود، كما كانوا في الدّنيا يخادعون اللّه وهو خادعهم، فيعودون إلى حيثُ ظنّوا النّور قُسِّم، فلا يجدون شيئًا، فيرجعون أدراجَهم حَيارى، فإذا السّورُ قد ضُرب، والفصلُ قد وقع[4]. ومن دلالة الأمر بالرّجوع: أنّه يحمل في طيّاته التّوبيخَ والطّرد؛ أيْ: عودوا إلى الموضع الذي قُسِّم فيه النّورُ حيثُ منحنا الفوزَ، فالتمسوه هناك إنِ استطعتم، أو ارجعوا إلى الدّنيا فالتمسوا نورًا بتحصيل سببِه الحقّ، وهو الإيمان، أو تَنَحّوا عنّا، فالتمسوا نورًا آخرَ غيرَ الذي معنا، فلا سبيلَ لكم إلى اقتباسه، وقد كانوا يعلمون أن لا نورَ وراءَهم، وإنّما هو قطعٌ للأمل، وتيئيسٌ وإقناطٌ بعد طولِ خداعٍ[5].

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 246.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 207.

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 760.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 458.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 106.

رجعةُ الخِداع وصدمةُ الحِرمانِ

وممّا يُذكر في دلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ أنّه يدلّ في ظاهره على الأمر، لكنّ باطنه تهكّمٌ مريرٌ؛ إذ لا نورَ وراءَهم يُرجى، وإنّما أُريد بها إطماعُهم ثمّ خذلانُهم، بضَرْبِ السّورِ الفاصل بينهم وبين المؤمنين؛ لتكونَ الخيبةُ بعد الطّمعِ أشدَّ حسرةً، وذلك جزاءٌ من جنس عملهم، واستهزاءٌ إلهيٌّ عادلٌ، يقابل استهزاءَهم السّابقَ بالمؤمنين، واستخفافَهم بهم في الدّنيا[1].

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾:

الرّجوعُ المُهينُ تهكّمٌ مُبطَّنٌ لا تراجعٌ مقصودٌ

سِرُّ التّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ دون أن يُقال: (ارتدّوا)، يكمن في الإيحاء الرّقيق بمفارقة تحمل لونًا من التّهكّم المُبطّن؛ فالفعلُ يُفيد العودةَ إلى الموضع الأوّل من حيثُ جاؤوا[2]، كأنّهم خرجوا في طلب النّور من غير أهله، فقيل لهم: عودوا خاسئين إلى بدايتكم العقيمة، بخلاف (ارتدّوا) التي توحي برَدَّة فعلٍ قسريّةٍ أو إجباريّةٍ مع الإكراه[3]، لا تليق بسياق التّهكّم المُرّ المقصود هنا، إذِ المرادُ ليس مجرّدَ الإبعاد، بل الإذلالُ والخيبة بعد رجاءٍ مَوهومٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بالوراءِ دونَ الخَلْفِ:

الإشارةُ إلى أنّ الدّنيا قد مضتْ والرّجوعَ إليها مُحالٌ

في اختيار لفظِ الوراء دونَ الخَلْفِ؛ الإشارةُ إلى أنّ الدّنيا وقد مضت وانقضى أجلُها لم تَعُد مُجرّدَ موضعٍ مكانيٍّ خَلْفَ ظهورِهم؛ بل أصبحت شيئًا مُتقادمًا مطويًّا، كأنّه وراء ظهورهم لا يُدرك[4]، ولا يُرتجى، وهو أبلغ في الدّلالة على استحالة الرّجوع، والإيحاء بقطع الرّجاء.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ بعد قولِهِ: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾:

جاء التّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ عقبَ الأمرِ بـ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.

(2) الواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 1068.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.

(4) الشّهاب، عناية القاضي: 8/ 156.

توكيدُ الرّجوعِ وإبرازُ نَدَمِ الفوتِ الذي لا يُستدركُ

لأنّ المُرادَ بالوراءِ الدّنيا التي خلّفوها خلفَهم، فهي موطنُ النّورِ الحقيقيّ الذي يُكتسَبُ بصفاءِ المعرفةِ، وزكاة العمل[1]، فالدّنيا صارت وراءَهم وجودًا ومعنًى، ولا يُنال ما فات فيها، وفي ذلك تقريعٌ مؤلمٌ لهم. وممّا يُذكَر في سرّ التّعبيرِ بقوله: ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ بعد قوله: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ أنّ الوراء توكيدٌ لمعنى الرّجوع، إذ لا رجوعَ إلّا إلى الوراء، كما يُقال: رجعَ القَهْقَرى، فجاء اللّفظُ ليُرسِّخ في ذهن السّامع صورةَ الانكفاء التّامّ، لا التّقدّمَ ولا الثّباتَ، ويُحتمل أن يكون ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ ظرفًا مُتعلّقًا بـ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾؛ أي: التمسوا النّور في الموضع الذي خلّفتموه خلفَكم[2]، حيثُ كان مظنّةَ النّور، ففاتَكُم.

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾:

الإضافةُ تُحمِّلُهم وحدَهم وِزْرَ التّفريطِ

استعمَلَ التّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ الوراء مُضافًا إلى ضمير المُخاطَبين في قوله: ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ لا لتحديد الجهة فحسب، بل لتأكيد أنّ موضعَ الرّجوعِ خاصٌّ بهم، والمُراد ماضيهم وحدَهم، حيثُ تركوا النّورَ وضيّعوا سببَه، فكأنّ الإضافةَ تُحمِّلُهم وحدَهم وِزرَ التّفريطِ، وتُشعرهم بأنّ الوراءَ الذي يُدعَون إليه ليس مكانًا عامًّا، بل هو تاريخُهم الشّخصيّ الضّائعُ، ومصدرُ خيبتِهم الذي لا يُشاركهم فيه أحدٌ.

دلالةُ التّعبيرِ بجملةِ ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾:

رجوعُ توبيخٍ لا رجوعُ تنفيذٍ

ليس المقصودُ من قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ أمرًا حقيقيًّا بالرّجوع والتماسِ النّور، بل هو توبيخٌ وتعييرٌ، يحمل في طيّاته مرارةَ الفضيحة، ومُرَّ الخُذلان؛ إذ يُقال لهم بلسان التّقريع: النّورُ لا يُلتَمس الآن[3]، فقد فات أوانُه. ولأنّ فعلَ الرّجوع يتضمَّن طردًا مُزَلزلًا، وتهكّمًا مُرًّا، إذ يوجّه الخطابَ للمنافقين أن يعودوا إلى حيثُ قُسِم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 274.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 383.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 521.

النّور ابتداءً[1]، وكأنّهم يستطيعون اقتباسَه بعد فواتِ الأوانِ، فهي دعوةٌ ظاهرُها الإرشادُ، وباطنُها الإبعادُ، يُساقون بها إلى خيبتِهِم، لا إلى ضوءٍ يُرتَجى، ومن ثَمّ لا يقتبسُ إلّا الحسرةَ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفاءِ في فعلِ الالتماسِ:

ترتّبُ التماسِ النّورِ على الرّجوعِ توهيمًا لا تحقيقًا

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾ الفاءُ مُفصِحةٌ عن ترتّبِ التماسِ النّورِ على الرّجوعِ، فالالتماسُ بسببِ الرّجوعِ[2]؛ فهذا الطَّلَبُ نابعٌ عن ذلك الأمرِ الموهوم، وكأنّ الرّجوعَ يُثمر نيلَ النّورِ، وهو في حقيقتِهِ خُدعةٌ تُفضي إلى الخيبةِ، لتزيدَ الموقفَ مرارةً وسخريةً، وتُعمّقَ مأساةَ المنافقين إذ يُساقون إلى طلبٍ يعلمُ الجميعُ استحالتَه.

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾:

إذنٌ ظاهريٌّ وتيئيسٌ باطنيٌّ في انتظارِ الثّمرةِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾ دون (تجدوا)؛ لأنَّ الالتماس مجرّدُ طلبٍ وسعيٍ مظنونِ النّتيجة، لا يقتضي تحقُّقًا، وطلبُه يتحقّق بالإيمانِ والعملِ الصّالحِ في الدّنيا وليس الآن[3]، بخلافِ الإيجادِ الموحي بوعدٍ وقُربِ وصولٍ، فجاء الالتماسُ إظهارًا لخيبةِ الرّجاءِ، فهو أمرٌ يحملُ في ظاهره الإذنَ، وفي باطنِهِ التّيئيسَ والخُذلانَ.

دلالةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾:

الخِداعُ بالمنافقين جزاءً وفاقًا

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۚ﴾ يتجلّى الأمرُ في صورةِ خديعةٍ إلهيّةٍ بديعةٍ، خُدِعَ بها المنافقون جزاءَ خديعتِهم، مصداقًا لقول الحقّ سبحانه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النِّساءِ: 142]؛ إذ أُمِروا بما يعلم اللّهُ أنّهم لا ينالونه، فاندفعوا برجاءٍ زائفٍ إلى موضعٍ قُسِمَ فيه النّورُ فلم يَجِدوا شيئًا، فعادوا أدراجَهم ليُفاجَؤوا بسورٍ قد ضُرِبَ بين النّور وأهلِه[4]، وبينَهم وبينَ مَنْ كانوا يطمعون أن يقتبسوا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 275.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 19/ 274.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 339.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 458.

منهم، فانقطعت السُّبُلُ، وتقطَّعتْ بهم الأسبابُ، وخابت آمالُهم كما خابتْ نيّاتُهم.

دلالةُ التّنكيرِ في قولِهِ: ﴿نُورٗاۖ﴾:

إظهارٌ للخُذلانِ وتحقيرٌ للرَّجاءِ المفقودِ

التّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ﴾ يُفيد التّقليلَ، أو التّحقيرَ، فيوحي بأنّهم يطلبون أيَّ نورٍ كان، ولو كان يسيرًا، بعد أن فاتهمُ النّورُ الحقيقيُّ الموهوب للمؤمنين، وهذا يدلّ على ضياعهم وتخبّطهم وعدمِ إصابتهم[1]، وأنّهم في طلبِهم ليسوا على بصيرةٍ ولا على هدًى، فزادهم التّنكيرُ تحقيرًا وخُذلانًا. وفي التّنكير تقليلٌ وتوهينٌ يوحي بأنّهم لا يُؤمَرون بالتماس نورٍ عظيمٍ، بل يبحثون عن أدنى قبسٍ لا يُرتَجى.

دلالةُ الإفرادِ والتَّنكيرِ في قولِهِ: ﴿نُورٗاۖ﴾:

دِقّةُ بيانٍ وجزالةُ معنًى؛ ليوحي بإبهامِهِ وتعدُّدِ دلالاتِهِ

سِرُّ التّعبير بكلمة ﴿نُورٗاۖ﴾ مُفردًا مُنكّرًا يَكْمُن في دِقّة البيان وجزالةِ المعنى؛ ليوحي بإبهامه وتعدّدِ دلالاته، فهو يحتمل أن يكون نورًا حسّيًّا أُعطيَ للمؤمنين في الموقف، أو نورًا معنويًّا في الدّنيا سببُه الإيمان، أو نورًا خاصًّا لا يُنال إلّا لِمَن أُهِّلَ له، ممّا يؤكّد أنّ المنافقين لا سبيل لهم إليه، ولا قدرة لهم على إدراك حقيقته[2]. وفي الإفراد تجريدٌ يُضخِّم المفارقة بين حالهم وحالِ المؤمنين أصحابِ النّور التّامّ، فهو تعبيرٌ مُشبَعٌ بالتّهكّم، يُخَيِّل إليهم أنّ وراءهم نورًا يُلتمس، وقد علموا أنّه لا نور، بل ظلمةٌ كثيفةٌ، فقيل لهم ذلك تخييبًا وتبكيتًا[3]، لا طلبًا حقيقيًّا.

سِرُّ التّعبيرِ بالنّورِ دونَ الضّوءِ:

النّورُ رمزٌ شاملٌ للإيمانِ والعملِ الصّالحِ

التّعبيرُ بالنّور دونَ الضّوءِ يكمن في عمقِ الدّلالة وجلالِ المعنى؛ فالنّور في اللّغة ليس محضَ ضوءٍ، بل رمزٌ شاملٌ للإيمانِ والعملِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 160.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 475 - 476.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 207.

الصّالحِ، يُضيئان دربَ الإنسانِ في ظلماتِ الحياةِ، فالأمرُ هنا استعارةٌ بليغةٌ تدعو إلى الرّجوعِ إلى الدّنيا، طالبين هذا النّور الرّوحيَّ، الذي يهدي إلى النّجاة، كما يهدي النّورُ الحقيقيُّ في كثافةِ الظّلماتِ[1]. وممّا يُذْكَر في سِرِّ التّعبيرِ بالنّور دونَ الضّوءِ، أنّ الضّوء ما كان صدورُه ذاتيًّا؛ بخلافِ النّورِ، فهو ما كان مُكتسبًا من غيرِه، وهذا هو المناسِبُ لسياقِ الآيةِ؛ لأنّ نورَ المؤمنين مُكتسَبٌ من أعمالهم الصّالحة، وفي هذا دليلٌ على أنّ المنافقين أعمالُهم سيّئةٌ.

سِرُّ العدولِ في قولِهِ: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ﴾:

التّبكيتُ والتّهكّمُ بالمنافقين

العدولُ في التّعبيرِ بالنّورِ من إضافتِهِ إلى تنكيرِهِ يحملُ إيحاءً ساطعًا بأنّ النّورَ المطلوبَ غيرُ ذلك النّورِ السّابقِ الذي كان من نصيبِ المؤمنين، بل هو نورٌ آخرُ مباينٌ غيرَ قابلٍ للاقتباسِ أو المنالِ، وهذا العُدولُ يُعزِّزُ التَّهكُّمَ الإلهيَّ بحالِ المنافقين[2].

دلالةُ الأمرِ بالرّجوعِ والتماسِ النّورِ المفقودِ:

إبرازُ خيبةِ المنافقين وانكسارِ أوهامِهم

تظهرُ بلاغةِ الأمر بالرّجوع والتماس النّور المفقود في إبراز خيبةِ أمل المنافقين تهكّمًا بهم، كأنّ المنافقين يُرغمون على البحث عن نور لا وجودَ له، فتُسَلَّط عليهم كلماتُ الأمر كمرآةٍ عاكسةٍ لخيباتِ أمانيهم، إذ لا نورَ وراءَهم[3]، وإنّما كانت الدّعوة وسيلةً لإطماعهم بالوَهمِ الذي دأبوا على احتضانِه؛ لأنّ النّور الذي يطلبونه ليس إلّا وهمًا بعيدَ المنال، يعلمون في قرارةِ أنفسِهم استحالتَه، فلا يجدون وراءهم إلّا فراغًا خائبًا، وأملًا مكسورًا وهو في حقيقته تخييبٌ وإقناطٌ لهم[4]، فتتبدَّدُ أوهامُهم وتنطفئُ أضواؤهم.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 146.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 8/ 156.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 476.

سِرُّ تقديم ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ على عامِلِه:

الاهتمامُ بالمكانِ الذي ظنّوا أنّ النّورَ فيه

دلَّ تقديمُ ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ على الاهتمامِ بالمكان الذي يُظنّ أنّ النّور فيه، فجاء الكلامُ بصورةِ إغراءٍ خادعٍ، يوهِم المنافقين بأنّ النّور ممكن هناك، حيثُ انطلق المؤمنون، فيندفعون برجاءٍ زائفٍ إلى موضعٍ يخلو منه، ويكون التّقديمُ أداةَ تهكّمٍ مُبطّنةً، لا تُصادِم الحقيقة، بل تأتي من جنسِ المعاريض التي توحي دون أن تُصرِّح، وتُضلِّل دونَ أن تَكْذِب[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَضُرِبَ﴾ دونَ غيرِها:

التّعجيلُ السّريعُ بعاجلِ الإهانةِ للمنافقين

آثَر السياق القرآنيُّ التّعبيرَ بالفاء في قوله: ﴿فَضُرِبَ﴾ دونَ غيرِها من حروف العطف؛ لأنّها تحتمل عِدّة معانٍ؛ منها: التّعقيب السّريع[2]، إيذانًا بعاجل الإهانة، وشدّةِ المقام، فكأنّ ضرب السّور جاء مباغتًا، عقبَ قولِ المؤمنين للمنافقين: ارجعوا إلى الموضع الذي اقتُبِس منه النّور، فالتمسوا هناك نورًا لأنفسكم، فما أنِ انصرفوا وانعزلوا في سعيٍ يائسٍ لا طائلَ تحته[3] حتّى عاجلتهم القطيعةُ الإلهيّةُ بضربِ الحاجزِ المنيعِ؛ إيذانًا بانفصالٍ لا التئامَ بعدَه، وحُكمٍ لا استئنافَ فيه. ومنها: السّببيّة؛ فالفاء الدّاخلة على فعل الضّرب تحمل معنى العِلّة والسّبب، فالتّقدير الفعليّ هنا هو: فرجعوا أو فأقاموا في الظّلمة، وهذا هو السّبب المُؤدّي إلى الفعل التّالي[4]، فالفاء إذًا تربط بين السّبب والنّتيجة، فتُبرز العلاقةَ الحتميّة بين فعل الرّجوع أو البقاء في الظّلمة، وبين وقوع الضّرب الذي يُفرّق بينهم وبين المؤمنين. والظّاهر أنّ قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾ معطوف على قوله: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾، فيدلّ على أنّ المؤمنين أو الملائكةَ حالوا دونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 274 - 275.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 246.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 274.

لَحَق المنافقين بهم، والاستضاءةِ بأنوار معارفهم وأعمالهم، فبَقيَ المنافقون في ظلمةِ نفاقِهم، محرومين من الاقتداء بأصحابِ الأنوارِ، كما يحرم الأعمى من الانتفاع بنور البصر؛ فصار الأمرُ كأنّ بينهما سورٌ حائلٌ، باطنُه فضلٌ ورحمةٌ تلحق المؤمنين بنورٍ يُفضي بهم إلى الجنّة، وظاهره - أيْ: جانب المنافقين - حجبٌ وظُلمةٌ وعَزْلٌ[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالضّربِ في قولِهِ: ﴿فَضُرِبَ﴾:

انقطاعُ الأملِ وافتراقُ المصيرِ

أوثر التّعبيرُ بالضّرب في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ﴾ دون غيره؛ لما يحمله هذا اللّفظ من قوّة الفعل وفُجائيّتِه، فهي ليست مجرّدَ إقامة، أو وضع للسّور؛ بل هي فعلٌ يحمل في طيّاته معنى الحسم والبَتّ، كمَن يضرب فاصلًا قاطعًا لا رجعة فيه؛ وبما يُشبه صفعةَ الفصلِ الأخيرة، بين المؤمنين والمنافقين، إيذانًا بانقطاع الأمل، وانغلاقِ الباب، وافتراق المصير. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بالضّرب في قوله: ﴿فَضُرِبَ﴾ دلالتُه على التّثبيت والقوّة وتحوّل السّور إلى حائطٍ صُلْبٍ لا يُخْتَرق، وسرّ ذلك يعود إلى ارتباط معنى الضّرب في اللّسان العربيّ بالبناء والتّثبيت، إذ إنّ كلّ بناءٍ يحتاج إلى ضربٍ باليد أو بأداةٍ، كالمطرقة لتثبيت أجزائه، كما في ضرب الخيمة بأوتادها[2]، فيأتي الفعلُ حاملًا دلالةَ القوّة والتّثبيت العمليّ، فتجعل السّور حائطًا صلبًا لا يُمكن اختراقُه.

دلالةُ بناءِ الفعلِ ﴿فَضُرِبَ﴾ للمفعولِ:

بناءٌ كضَرْبةٍ واحدةٍ تفصلُ بين المنافقين والمؤمنين دفعةً واحدةً وبلا تأخيرٍ

الفعل ﴿فَضُرِبَ﴾ بُني للمفعول[3]، وهو اختيارٌ دقيقٌ يحمل دلالةً قويّةً على أنَّ بناء السّور تمَّ بضَرْبٍ واحدٍ سريعٍ، يُجسِّد سهولةَ التّنفيذِ وفجائيّةَ الفعلِ[4]، ويُشير إلى أنّ السّور أُقيم دفعةً واحدةً

(1) زادة، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 111.
(2) حقّي، روح البيان: 9/ 361.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 106.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.

في لحظةٍ خاطفةٍ سريعةٍ، لا بتدرّجٍ أو تركيب لبنة لبنة، أو جزءًا جزءًا، كما هو الحال في إقامة الخيام التي تُسمّى في لحظةِ تثبيتها بالضّرب[1]، فتتجلّى القوّةُ والصّرامة في هذا الفعل، فتتحوّل إلى حائطٍ صلبٍ ثابتٍ لا ينكسر.

دلالةُ تَعدّي فعلِ الضّربِ بالباءِ في الآيةِ:

ضَـرْبُ السّـورِ حَجبٌ للنّورِ عن المنافقين وقطعٌ لأطماعِهم

الأصلُ في فعل الضّربِ أن يكون مُتعدّيًا بنفسِهِ[2]، لكنّه ورد في الآية مُتعدّيًا بالباءِ في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾، لِما تضمَّنه من معنى الحَجزِ؛ إيذانًا بأنّ السّور لم يكن مجرّدَ فاصلٍ، بل هو حاجزٌ قاطعٌ ومانعٌ، ضُرِبَ ليَفصِلَ بين المؤمنين والمنافقين، قاطعًا لأطماعهم، تاركًا إيّاهم في ظلماتٍ لا يبصرون؛ فكان بذلك تجسيدًا حقيقيًّا للمَثَل الذي ضربَهُ اللّهُ لهم في الدّنيا في قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾ [البقرة: 17]، فكانت الظّلمةُ والحَيْرةُ، وعاقبة التّيه عن النّور عذابهم الأليم[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفية ﴿بَيۡنَهُم﴾:

عزلٌ كاملٌ وقطعٌ نهائيٌّ لكلِّ صلةٍ بـين المؤمـنـين والمنافقين

دلَّ التّعبيرُ بالظّرفية ﴿بَيۡنَهُم﴾ على أنّ ضَرْب السّور شاملٌ لكلِّ المسافةِ الفاصلةِ بين أهلِ الإيمانِ وأهلِ النّفاق في آنٍ واحدٍ[4] دونَ استثناء، فعُزِلوا بسورٍ متكاملٍ يحوي بابًا، يقطعُ كلَّ سبيلٍ للتّواصل أو الاختلاطِ في لحظةِ النّطقِ بهذا القولِ.

دلالةُ تقديمِ الظّرفيّة ﴿بَيۡنَهُم﴾ على ﴿بِسُورٖ﴾:

تصويرُ العُزلةِ الكاملةِ وتعجيلٌ بـصـدمـةِ الانـقـسـامِ قبلَ ظهورِ السّورِ

في تقديمِ الظَّرفِ ﴿بَيۡنَهُم﴾ على الجارِّ والمجرورِ ﴿بِسُورٖ﴾ تعجيلٌ بصورةِ العَزْلِ والفصل، حيثُ يُلْقَى في رَوعِ السّامعِ أوّلًا مشهدُ

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 761.

(2) المُعافريّ، الأفعال: 1/ 62.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 383.

(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 19/ 275.

الانقسام المكانيّ الحاسم بين الفريقيْن، وكأنّ المسافة الفاصلة قدِ امتلأت بالسّور قبلَ ذِكْرِه؛ فجاء التّقديمُ لإبراز هولِ القطيعةِ، وشمولِ الضّربِ لكلِّ ما بينهم من أرضٍ واتّصالٍ.

دلالةُ الإضمارِ في قولِه: ﴿بَيۡنَهُم﴾:

إضمارُ القطيعةِ حين يُغني السّكوتُ عن التّسميةِ

جاء التّعبيرُ بالإضمار في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَهُم﴾ دون الإظهار؛ فلم يَقُلْ: (بين المؤمنين والمنافقين)؛ لأنّ الإضمار يوحي بأنّ الهوية معروفةٌ مفهومةٌ، وأنّ الفَصل بالغُ الوضوح، كما أنّ الإضمار يُسهم في تعميق الشّعور بالقطيعة، إذْ لا حاجة لذِكْر الأسماء بعد أن قُطع ما بينهما من صلةٍ.

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِسُورٖ﴾:

توكيدٌ لتوثيقِ الفصلِ وتجسيدِ المفاصلةِ

الباء في قوله: ﴿بِسُورٖ﴾ تُفيد التّوكيد[1]؛ فهي تُثبّت وقوعَ الضّربِ بالسّور نفسِه، لا بأيّ شيءٍ آخر، وتدلّ على أنّ الحاجز لم يكن مَجازًا أو تصوّرًا، بل كان فاصلًا مادّيًّا حقيقيًّا صارمًا، يُرسِّخ واقع القطيعة بين الفئتيْن، ويجعل المفاصلةَ بينهما أمرًا لا رجعة فيه. ويجوز أن تكون الباءُ للمصاحبة؛ لأنّ من معاني الباء في لسان العرب دلالتُها على المصاحبة[2]، وجاءت في ﴿بِسُورٖ﴾ لتُفيدَ هذا المعنى، مُشعرةً بأنّ الضّرب لم يكن مجرّدَ إقامةِ حاجزٍ، بل كان مُقترنًا بالسّور ذاته، كأنّ السّورَ حضرَ مع الفعل حضورًا مباشرًا، يلاصقُه ويلتحم به، ليُصوّرَ بذلك مشهدًا حِسّيًّا قويًّا للفصل الواقع، ويُضفي على المشهدِ رهبةَ الحائلِ المحسوس الذي لا يُتجاوز.

سِرُّ التّعبيرِ بالسّورِ دونَ الحجابِ أو الحاجزِ:

جدارٌ لا يُخترقُ في مشهدِ المُفاصلةِ

آثَر التّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ (سور) في قوله: ﴿بِسُورٖ﴾ دونَ (حجاب) أو (حاجز) لما له من خصوصيّةٍ، إذِ السّورُ في أصل معناه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 458.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 40.

هو الحاجز المحيط بالمدينة، المُشيّدُ للحماية من العَدوّ[1]، فهو ليس مُجرّدَ فاصلٍ، بل جدارٌ مُحكَمٌ دائريٌّ، يوحي بالإحاطة والتّحصين والمنعِ الكامل[2]، وفي هذا التّصويرِ استدعاءٌ لمعنى الحصار والعَزْلِ التّامّ، ويُضفي على المشهد رهبةَ الحبسِ والانفصالِ الذي لا يُكسر.

دلالةُ تنكيرِ (سورٍ) في الآيةِ:

تفخيمُ السّورِ وتهويلُه

جاء تنكيرُ (سورٍ) لإفادة الفخامة والتّهويل، لا لأنّه سورٌ مجهولٌ، بل لأنّه حاجزٌ عظيمُ الشّأنِ[3]، مَهيبُ المظهرِ، ضُرِبَ فجأةً بين شِقّ الجنّة وشِقّ النّار[4]، فكان قاطعًا لا يُرتجَى تجاوزُه، وجدارًا فاصلًا لا يُظَنُّ زوالُه.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّهُۥ﴾:

التّأكيدُ على وجودِ بابٍ بالسّورِ لِلَفْتِ الانتباهِ إليه

جاء تقديمُ الخبر ﴿لَّهُۥ﴾ على المبتدأ ﴿بَابُۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ للاهتمامِ به، إذِ المتبادرُ من ذِكْرِ السّورِ أنّه بناءٌ مُحكَمٌ لا مَنفذَ فيه، فجاء هذا التّقديمُ ليَكْسُرَ هذا التّوقّعَ، ويَلْفِتَ النّظرَ إلى وجودِ بابٍ، فهو تقديمٌ ليس للحَصْر، إذِ الحَصْرُ لا يَليق بهذا المقامِ[5]، بل لتوكيدِ أنّ في هذا الجدارِ المُحْكمِ مَنفذًا مَخصوصًا، لا يُفتح إلّا لِمَن استحقّه.

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿بَابُۢ﴾ مُنكَّرًا:

بابُ الهيبةِ والاختصاصِ والتمييز

في قوله تعالى: ﴿بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ أورِدَ لفظُ (البابِ) نَكِرةً لإفادة التّعظيم، فهو ليس بابًا عاديًّا، بل هو بابُ الهَيبة والتّمييز، موكَّلٌ به حَجَبةٌ لا يفتحونَهُ إلّا بإذنٍ خاصٍّ من الله، ولا يُؤذَن بالدّخول إلّا لِمَن شاء الله من المؤمنين، ممّن استضاء بنوره، واهتدى به، واصطُفي

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 106.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 839.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 210.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 476.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 452.

للشّفاعة أو غيرِها من أبواب الرّحمة[1]، فهو باب لا يُطرق بالعزم، بل يُفتح بالاصطفاء.

دلالةُ التّنصيصِ على وجودِ بابٍ في السّورِ:

يرى المنافقون نعيمَ أهلِ الجنّةِ من البابِ فتزدادُ حسرتُهم

جاء ذِكْرُ ﴿بَابٌۢ﴾ في السّور ليحتملَ أن يكون بابًا يُفتح من جهة النّار إلى الجنّة، لا للدّخول، بل ليكونَ مَنفذًا للرّؤية المُؤلِمة، فيُطِلُّ أهلُ الشّقاءِ على ما فاتهم من النّعيم، فترتسمُ أمامَهم مشاهدُ النّور والرّضوان، وهم في ظلماتِ العذاب والهَوان؛ ليكونَ ذلك أبلغَ في التّحسير، وأشدَّ في الإيلام[2]، إذ ليس أعظمَ من عذابٍ يُضاعفُه النّظرُ إلى نعيمٍ لا يُنال. ويجوز أن يكون هذا البابُ للمُتأخِّرين في دخول الجنّة، ومخرجَ النّجاة لِمَنْ لم تُغلق دونه الرّحمة؛ فهو ليس لعامَّة العابرين، بل هو مُعدٌّ لِمَن تخلّف من أهل السّلامة في الموقف، أولئك الذين لم يدخلوا الجنّةَ بعدُ، ولم يلحقوا برَكْبِ السّابقين من المؤمنين، أبطأ بهم العملُ، لكن لم يخرجوا عن طريق النّجاة، فقد فتح لهم هذا البابَ، فدخلوا منه، واستقبلتهم أرواحُ الرّحمة، ونسماتُ الرّضوان[3].

التّعبيرُ ﴿بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ دون (بسورٍ فيه بابٌ):

طريقٌ واحدٌ، إمّا الأمنُ وإمّا الهلاكُ

جاء التّعبيرُ ﴿بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ بدلًا من (فيه بابٌ)؛ لأنّ الباب هنا كنايةٌ عن الطّريق والسّبيل، فليس المقصودُ مجرّدَ الفتحةِ الحِسّيَّة؛ بل هو رمزٌ لسبيل النّجاة والرّحمة؛ مَن سلكه أدّاه إلى مأمنه، ومَن دار خارجَه لم يجد إلّا الهَلَكةَ والعذاب[4]. ويجوز أن يكون ورودُ هذا التّعبير؛ لما فيه من دِقّةٍ في التّصوير، وبلاغةٍ في الإيحاء؛ لإفادةِ التّملّك والاختصاص، وكأنّ هذا البابَ مُعَدٌّ خصيصًا لهذا السّور، لا يُفتح إلّا بالإذن، ولا يولج إلّا لِمَن كُتِب له الدّخول.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 522، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 384.

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 761.

(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 521.

سورُ الأعمالِ حاجزُ المصيرِ بينَ نعيمٍ موصولٍ وجحيمٍ مفصولٍ

بلاغةُ التّمثيلِ في قولِهِ: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾ الآية:

تظهر بلاغةُ التّمثيلِ في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ في تصوير هذا المشهدِ وتمثيله تمثيلًا بليغًا لحقيقة الفاصل بين الفريقيْن، إذ هو الأعمالُ في الدّنيا، فهي التي ترسُمُ حدودَ المصيرِ، فمنها ما يُفضي إلى الجنّة، ومنها ما يُردي في الجحيم، فكان أحدُ جانبي السّور مثالًا للعملِ الصّالح وعاقبتِه، والجانبُ الآخر لضِدّه، وهو مثالٌ للعمل الطّالحِ ومآلِه[1].

حاجزُ الظُّلمةِ تصويرٌ تمثيليٌّ لانقطاعِ المنافقين عن نورِ الهُدى

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ فيها تصويرُ حالِ المنافقين، وقد انقطعت صلتُهم بالمؤمنين، فحيلَ بينَهم وبين نورِهم، كمَن ضُرِبَ بينَه وبينَ النّورِ بسورٍ عظيمٍ يَحْجُب كلَّ نورٍ[2]، فحُجِب عن الهدى، وانغمس في الظّلمة.

حكمةُ ضَرْبِ السّورِ للمنافقين كما ورَدَ في الآيةِ:

الخيبةُ بعدَ الطّمعِ أعظمُ وجَعًا وأشدُّ حَسْرةً

حكمةُ ضَرْبِ السّورِ بينَ المنافقين والمؤمنين تَكْمُنُ في أنّ الخَيبةَ بعد الطّمع أعظمُ وجعًا، وأشدُّ حَسْرةً، إذ أُحْبِطَ أملُهم، وتحقّقَ ما كانوا يخافونه، إنّها عقوبةُ اللّهِ لهم على استهزائهم بالمؤمنين وسخريتِهم منهم، كما وصفهم تعالى في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ [التّوبة: 79][3]؛ فكان ضَرْبُ السّورِ رَمزًا حيًّا لهذا الاستهزاءِ المكبوت، وفصلًا بين النّور والظّلام. ويجوز أن تكون الحكمةُ من ضَرْبِ السّورِ تصويرًا لحاجزٍ فاصلٍ لا يُرْتَقى، يفصل بين فريقيْن كانت بينهما في الدّنيا ملامحُ الاشتراك، فجاء

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 383.

(2) صافي، الجدول: 14/ 147.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 383.

السّورُ رمزًا لحَسْم المصير، وإعلانًا بامتناع الرّجوع(1)، إذ لا دُنيا بعدَ اليوم، ولا فرصةَ ثانية بعد الغرور؛ فهو سورُ الفَصْلِ الأبديّ الذي يُغْلَق به بابُ التّدارك إلى الأبد.

دلالةُ تعدُّدِ الضّمائرِ في قولِه: ﴿لَّهُۥ﴾ ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾:

تجسيدٌ لوَحْدَةِ السّورِ وعُمْقِهِ

تعدُّدُ الضّمائرِ في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يُجسِّدُ وحدةَ السّورِ وعُمقَه الدّلاليّ، إذ تُشير الضّمائرُ كلُّها إلى السّور(2)، فتُبرزُ جوانبَهُ المختلفةَ؛ الباطنَ الرّحمانيَّ الذي يَفيض بالرّحمة، والظّاهرَ العذابيَّ الذي يُقيّد ويُحْصِن، ما يعكسُ التّوازنَ الحكيمَ بين الرّأفةِ والجزاءِ في حُكْم اللّهِ تعالى.

بلاغةُ التّعبير بقولِه: ﴿بَاطِنُهُۥ﴾:

التّناسُبُ بين الدّاخلِ النّفسيِّ والباطنِ المكانيِّ

جاء التّعبيرُ بقولِه: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ دون (داخله)؛ لما في لفظِ الباطنِ من عُمقٍ دلاليٍّ؛ إذ لا يقتصر على الحَيِّز المكانيّ فحسب، بل يدلّ على ما خَفيَ واستترَ واحتجب عن الأعين، فهو إشارةٌ إلى وجه السّورِ الذي يقابلُ المؤمنين، ويُمثّل ما أُعِدّ لهم من كرامةٍ، وهو في الوقت نفسِه امتدادٌ لبواطنهم المملوءة إيمانًا ورحمةً، وكما كانت صدورُهم تغمرُها الرّحمةُ في الدّنيا، أُفيضت عليهم في الآخرة رحمةٌ تغمرُهم من باطن الجنّة(3)، في تناسُبٍ بديعٍ بين الدّاخل النّفسيّ، والباطن المكانيّ.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ ﴿فِيهِ﴾:

الرّحمةُ مُستقرّةٌ في باطنِ السّورِ لا منفصلةٌ عنه

التّعبيرُ بالظّرفيّة ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ يُفيد معنى العِنديّة؛ أيْ إنّ الرّحمة مستقرّةٌ في باطنه، لا منفصلةٌ عنه، والرّحمة هنا كنايةٌ عن الجنّة ونعيمها(4)، ليتحوّلَ السّورُ من كونه حاجزًا مادّيًا إلى بوّابةٍ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 458.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 384.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.

(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 452.

معنويّةٍ تُفْضي إلى مَقرّ الرّحمةِ ودارِ القرار، فمَنْ كان في جانب النّور، كان في حضرة الرّحمة، لا مجرّدَ مواجِهٍ لها.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلرَّحۡمَةُ﴾:

الإشـــارةُ إلى الرّحمةِ المعلومةِ وهي الجنّةُ

جاء لفظُ ﴿ٱلرَّحۡمَةُ﴾ مُعرَّفًا؛ للدّلالة على أنّ المُرادَ بها ليس أيُّ رحمةٍ على الإطلاقِ؛ بل الرّحمةُ المعلومة المعهودة في سياق الوعدِ الإلهيّ، وهي الجنّة[1]، دارُ المؤمنين ومستقرُّ كرامتِهم؛ فلا أعرفَ منها.

دلالةُ تقديمِ الظّرفيةِ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿ٱلرَّحۡمَةُ﴾:

جنّةٌ مخصوصةٌ لأهلِ الإيمانِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بتقديمِ الظّرفيّةِ ﴿فِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾؛ لإفادة الحَصْرِ والاختصاص، وكأنّها حكْرٌ على المؤمنين دونَ غيرهم، وهذا التّقديمُ ينقل المعنى من مجرّد وجودِ الرّحمة إلى ثبوتها واستقرارها في ذلك المكانِ الخاصّ، مُعبّرًا عن كون الجنّة التي هي حقيقةُ الرّحمة منحةً مخصوصةً لا يشترك فيها إلّا أهلُ الإيمان.

سرُّ العطفِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾:

الـجـمـعُ بـينَ الرّحمةِ الباطنةِ والعذابِ الظّاهرِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ على ما سبق بالواو[2]؛ لأنّها توَحّد الصّفتيْن معًا في معنًى شاملٍ يجمع بين الرّحمة الظّاهرة في باطنه، والعذابِ الظّاهر في ظاهره، كما في قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾ [التّحريم: 5][3]، حيثُ يأتي الجمعُ بالواو لتدليل التّعدُّدِ والتّكامل، فلا تنفكّ الصّفتان عن بعضهما؛ بل هما معًا تُكمِلان دلالةَ الباب، وتُجَلّيان التّوازنَ الإلهيَّ في حُكْمِه الحكيمِ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾:

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ باستعمال لفظ (الظاهر) دونَ (الخارج)؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 458.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 463.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 384.

لأنّه لا يدلّ على مَحض الخارج المحسوس؛ بل إلى ما يبدو ويُرَى في مقابل ما خفيَ واستتر، وهذا التّعبيرُ يُطابق حالَ أهلِ النّفاق الذين قَصَروا أنفسَهم في الدّنيا على حفظِ الظّواهر، وإهمالِ البواطنِ وفسادِها[1]؛ فكان ذلك جزاءً وفاقًا من جنس العمل، فمَن انشغلَ بالظّاهر دونَ الباطنِ، لم يُؤتَ إلّا ظاهره، وفي ظاهرِه العذابُ.

مَن حفظَ ظاهرَهُ وخَسِرَ باطنَه؛ كان له من العذابِ ظاهرُهُ

بلاغةُ الطّباقِ بين قوله: ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ و﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾:

تتجلّى بلاغةُ الطّباق في مقابلتها الدّقيقةِ بين ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ و﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾[2]، حيثُ طابق سبحانه بين ما هو ظاهرٌ وبادٍ، وبين ما هو مُستترٌ وخَفيٌّ، فكان قولُه: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ كجهة المؤمنين الخفيّة التي تحمل في طيّاتها النّعمةَ واللّطفَ، مقابلَ ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ كجهة المنافقين الظّاهرة التي يكتنفها العذاب، ويظهر بذلك الفرقُ الجوهريّ بين المظاهر والحقائق، كما في قوله: من ظاهر مدينة كذا[3]، حيثُ يُراد بالمظهر الظّاهر البادي الذي يمكن ملاحظتُه، ليَبرزَ التّناقضُ بين الظّاهرِ والباطن، وبينَ الرّحمةِ والعذاب. وممّا يُذْكَر في بلاغة الطّباق بين ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ و﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ وجودُ مقابلةٍ لطيفة[4]، تُظْهِر التّباينَ العميقَ بين حال الفريقَيْن، فباطِنُه موطنُ الرّحمةِ والطّمأنينة، وظاهرُه موضعُ العذابِ والخُذلان، وتُضفي على المشهد إيحاءً معنويًّا يرفعُ من شأن المؤمنين، ويدلُّ على رِفعتِهم وخصوصيّتِهم، في مقابل ما يلحق بالمنافقين من مهانةٍ وسقوطٍ، لاسيّما في هذا الموقفِ العَصيب[5].

الرّحمةُ والعذابُ بيانٌ للتّناقض الجوهريّ بين المظاهرِ والحقائقِ

دلالةُ التّعبير بـ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قِبَلِهِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ جاء التّعبير بـ﴿مِن﴾

بُعْدُ العذابِ عن السّور صيانةً للمؤمنين من الفَزَعِ والغرورِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.

(2) صافي، الجدول: 14/ 147.

(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 263.

(4) محمّد علي، مختصر التفسير: 3/ 313.

(5) مجموعة مؤلّفين، التّفسير الوسيط: 9/ 1289.

للدّلالة على البُعد والانفصال، إذ يوحي بأنّ العذاب يأتي من جهةٍ بعيدةٍ عن السّور، وهي جهةُ المنافقين، لا من داخل السّور أو قُربه، فيكون في ذلك طمأنةٌ للمؤمنين، فلا يُفزِعُهم شيءٌ من ذلك العذاب[1]، فجاءت لتصوير المشهد بوضوحٍ؛ فالرّحمة في الدّاخل، والعذاب هناك في الجهة الأخرى. ويجوز أن تكون ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ دالّةً على الابتداء[2]، أيْ إنّ العذاب يبدأ ويتفجّر من تلك الجهة، جهةِ الظّاهر المواجهةِ للمنافقين، وكأنّ العذاب لا يأتيهم من بعيد؛ بل ينشأ من أمامهم مباشرةً، من حيثُ يتوجّهون وينظرون.

التّعبيرُ بـ﴿قِبَلِهِ﴾ دون (جِهَته):

المواجهةُ المباشرةُ والانكشافُ المُريعُ

في اختيار ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ دون (من جهته) بلاغةٌ في التّصويرِ الزّمنيِّ والمكانيّ معًا، فهي تُفيد المواجهةَ المباشرة والانكشافَ المُريعَ، وكأنّ العذابَ لا يأتي من جانبٍ فحسب؛ بل يستقبلهم مواجهةً لا مهربَ منه، فيكون حاضرًا أمامَهم قبلَ دخولهم، باديًا لهم وهم يُقْبِلون عليه، لا يفصلهم عنه سوى السّور، أمّا جهتُه فتدلّ على جهةٍ عامّةٍ دونَ هذا الإيحاءِ القويّ بالاقترابِ والمُجابهةِ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِن قِبَلِهِ﴾:

توجيهُ الانتباهِ إلى الجهةِ المُرَوّعةِ

جاء تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾؛ لإبراز الفَزَعِ الكامنِ في مصدرِ العذاب، وتوجيهِ الانتباهِ إلى الجهةِ المُرَوِّعةِ التي يُستقبل منها؛ فليس العذابُ مجرّدَ حالٍ يكتنفهم؛ بل هو قادمٌ من أمامهم في وجوههم مباشرةً، وهو يُعجّل بتصوير الهجوم المفاجئ، قبل أن يُفصِحَ عن حقيقته، فيكون للتّرتيب أثرٌ نفسيٌّ في تصعيد الإحساس بالخطر القادم من الأمام، لا من الأطراف أو الخَلْف.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 161.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 452.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ عن جهنّم:

تجسيدُ العذابِ المُستمرِّ وصورةُ النّارِ الحارقةِ

يأتي التّعبير بـ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ للدّلالة على جهنّم؛ ليُجسِّدَ بأسلوبٍ موجَزٍ وقويٍّ حقيقةَ النّارِ المُؤلمة التي تشتعل فيها، فـ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ هنا هو الحَرَقُ المتّصلُ المُستمرُّ، وهي صفةٌ جوهريّةٌ تُميّز جهنّم باعتبارها دارَ العذابِ التي لا يَفِرّ منها أحدٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان: 65][1].

سِرُّ التّعبيرِ بالإضمارِ دونَ الإظهارِ في فاصلةِ الآيةِ:

إبــــرازُ بــلاغــةِ الإيجازِ والتّوجيهِ

آثَر القرآنُ التّعبيرَ بالإضمارِ دونَ الإظهارِ في قوله تعالى: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾، لما في ذلك من بلاغةِ الإيجازِ والتّوجيهِ، إذ يفتحُ مجالَ الاحتمالِ في مرجعِ الضّميرِ، فيجوز أن يعود على السّور أو الباب[2]، وكأنّ العذابَ والرّحمةَ يتوزّعان على السّور وبابِه، في تَوازٍ مُرْعِبٍ ورحيمٍ، بحسب موقف كلّ فريقٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ دونَ الألمِ أو العقابِ:

ألــمٌ مستمرٌّ يـحملُ الإهانةَ والذّلَّ

استعمل التّعبيرُ القرآنيُّ لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ دون (العقاب) أو (الألم)؛ لما في لفظِ (العذاب) من دلالة على الألم المُتكرّر المُستمرّ الذي يُقصد به الإهانة والإذلال، بخلاف العقاب الذي قد يُفهَم منه الجزاء على الفعل فحسب، ولو لم يكن مؤلِمًا حسّيًّا، وبخلاف الألم الذي قد يقع عَرَضًا أو اضطرارًا دون قصدِ الإيذاء التّامّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنظار والإمهال:

انـتـظـارٌ مباشرٌ وإدراكٌ واضحٌ في موقفِ المنافقين

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ عُبِّرَ بلفظ الإنظارِ، ولم يُعبَّر بلفظِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 385.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 346.

الإمهال؛ لأنّ الإنظارَ مُرتبطٌ بالانتظار المباشر والمشاهدةِ الفعليّة التي تشتمل على الانتباه والتّرقُّب، وهو انتظارٌ واضحٌ ومُحدّدٌ يرافقه إدراكٌ لما يُنتَظر، بينما الإمهال يُعدُّ تعبيرًا مُبهمًا لا يدلُّ على ربط الانتظار بحركةٍ بصريّةٍ محدّدةٍ، أو إدراكٍ واضحٍ، فالآيةُ تُصَوّر حالةَ المنافقين وهم يطلبون من المؤمنين أن يسمحوا لهم برؤية نورِهِم، وهذا طلبٌ مُرتبطٌ بالحصول على بصيرةٍ واضحةٍ وإدراكٍ ملموسٍ، لذا كان اختيارُ الإنظارِ مناسبًا للدّلالةِ على انتظارٍ مرتبطٍ بالرّؤيةِ والإدراكِ.

النَّورُ من غيرِه مُستعارٌ، والضّياءُ في ذاتِه ساطعٌ

النّور والضياء:

في قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ استُعمِل لفظُ (النّور)، ولم يُستعمل مرادفُه (الضّياء)، وهو ما "يتخلّل الهواء من أجزاء النّور فيَبيضّ بذلك.... فالنّور هو الجملة التي يتشعّب منها"[1]، ثمّ فرّق بينهما بدِقّةٍ؛ فالضّياءُ ما كان صدورُه ذاتيًّا، أمّا النّور فهو ما كان مُكتسبًا من غيره، وعلى هذا يُفهم قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5]، فإنّ نور القمرِ مُستفادٌ من ضياءِ الشّمسِ[2]، وهذا المعنى مساوٍ لما في الجملة موضعِ الشّاهد؛ إذ إنّ نور المؤمنين إنّما هو مُكتسبٌ من نور اللّه تعالى، لا من ذواتهم.

السّورُ حاجزٌ ماديٌّ بخلافِ الحِجابِ الذي يكونُ ماديًّا ومعنويًّا

السّور والحِجاب:

استُعمل لفظُ السّور، ولم يُستعمل لفظُ الحجاب في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾؛ لأنّ السّور في أصلِ وضعِهِ اللّغويِّ هو البناءُ الظّاهرُ المحيطُ بالمدينةِ أو الحِصن، فهو حاجزٌ مادّيٌّ عظيمٌ مشهودٌ، يُفرِّق بين داخلٍ وخارجٍ، ويقطعُ الاتّصال بينهما قطعًا تامًّا، بخلافِ الحِجاب الذي يدلّ في الغالب على ساترٍ يحول دونَ الرّؤية

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 332.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 332.

أو الوصول، وقد يكون رقيقًا أو غيرَ محسوس، أو مُجرّدَ مانعٍ بصريٍّ لا حاجزٍ مادّيّ، قد يحصُل بأن يجلس المَرءُ في بيته مُحتجبًا عن مشاهدةِ الآخرين[1]، فالآية الكريمة تُصوِّر موقفًا حسّيًّا جليًّا بين المؤمنين والمنافقين يومَ القيامة، حيثُ يُضرَب بينهم سورٌ له بابٌ، فيُجَسَّد الانفصالُ بحاجزٍ عظيمٍ كالذي يُحيط بالمدن، لا مجرّدَ حجابٍ أو سِترٍ، ليُؤكِّدَ شدَّةَ المباينةِ وانقطاعَ السُّبُلِ بين الفريقَين، وليتناسبَ مع المشهدِ الهائلِ الذي هُم فيه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 288.

المحتويات